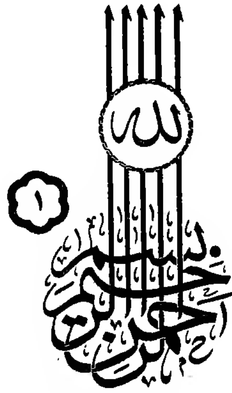
الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(١)

أسطورة الوطن اليهودي

تأليف
الدكتور سعد المرصفي

مكتبة المنار الإسلامية



ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

أسطورة الوطن اليهودي

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مكتبة المنار الإسلامية
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية



AL-MANAR ISLAMIC BOOK SHOP
Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045
Kuwait Hawalli Al-Mothana Street, Tel. 2615045, Fax 2636854, P.O Box 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره [1]، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [2].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [3].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [4].

أما بعد :

فلو كان مقدرا لهذا العالم الإسلامى أن يموت [5]، لمات فى خلال القرون الطويلة المديدة التى مرت به، وهو مكبل بالقيود، فى حالة إعياء عن الحركة، بعد أن حمل عبء الحضارة الإنسانية طويلا، وبعد أن تعب فاسترخى فنام! فى الوقت الذى تحرك صوب القيادة حزب الشيطان، بعد أن تخلى عن القيادة والريادة عباد الرحمن !

ومن ثم دانت معظم أطراف الأرض لحزب الشيطان !

وكان الثقل الكبير على صدر العالم الإسلامى النائم!

---

(١) تشرع هذه الخطبة بين كل حديث، اتباعا لسنة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، وهى تسمى « خطبة الحاجة » .

(٢) آل عمران : ١٠٢.

(٣) النساء : ١.

(٤) الأحزاب : ٧٠-٧١.

(٥) فى التاريخ فكرة ومنهاج، بتصرف.

ترى ، لو كان مقدرا لهذا العالم الإسلامى أن يموت ، لمات فى خلال فترة الاسترخاء والإعياء، وفى إبان حركة حزب الشيطان!

ولكنه لم يمت ... بل انتفض حيا متفاعلا يزيح الركام الهائل عن صدره، وينفض النوم العميق عن جفنه، ويحطم الأغلال، ويكسر القيود!

وحيثما مد الإنسان بصره اليوم شعر بهذه الانتفاضة الحية، وشعر بالحركة المتفاعلة ... حتى الشعوب التى ما تزال فى أعقاب دور الاسترخاء،والتى ما تزال مرهقة بالأثقال.. حتى هذه الشعوب يدرك المتأمل فى أحوالها أن الحياة تدب فى أوصالها، ويرى خلال الرماد وميض نار، توشك أن يكون لها ضرام !

ترى، ما الذى احتفظ لهذه الشعوب بحيويتها الكامنة بعد قرون كثيرة عديدة، طويلة مديدة، من النوم والاسترخاء، ومن الضعف والخمود، ومن الهبوط والركود، ومن أساليب الظلم والجحود، والبطش والكنود، والضغط والقسر، والاحتلال البغيض الذى بذل جهده لتقطيع أوصالها، وإخماد أنفاسها ؟

إنه الإيمان المتمثل فى العقيدة القوية العميقة، التى لم يستطع حزب الشيطان قتلها، على الرغم من كل تلك الجهود المتواصلة المتواكبة، التى وجهت إلى الفكر والروح، والاجتماع والسياسة !

هذه العقيدة التى تدعو معتنقيها إلى العزة التى هى صنو الإيمان فى الجَنان المؤمن، العزة التى تهون ولا تهن ، ولا تنحنى ولا تضعف، ولا تستكين ولا تلين، ولا تزايل الجَنان المؤمن فى أحرج اللحظات، وأشد الأزمات، إلا أن يتضعضع فيه اليقين، فإذا استقر ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

هذه العقيدة التى تدعو معتنقيها إلى المقاومة والكفاح، لتحقيق الاستعلاء على حزب الشيطان وألاعيبه، وعدم الخضوع للظالمين، أياكانت قوتهم المادية ؛ لأن تلك القوة المادية وحدها لا تخيف المؤمنين بالله، جبار السموات والأرض، القاهر فوق عباده أجمعين :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (٢) .

---

(١) المنافقون : ٨. (٢) الأنعام : ١٨.

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (١).

﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (٢).

هذه العقيدة الحية المتفاعلة، هى التى حفظت لهذه الشعوب المترامية الأطراف قوتها الكامنة، وبعثتها بعثا جديدا!

وتلك حقيقة كبرى تستحق الالتفات، لكى ندرك قيمة هذه العقيدة فى كفاحنا، ولكى ندرك ـ كذلك ـ أن حزب الشيطان فى القديم وفى الحديث على سواء، لم يكن عابثا وهو يحاول تحطيم هذه العقيدة، وتحطيم دعاتها فى كل أنحاء العالم الإسلامى !.

ولقد ظن الناس أن حزب الشيطان قد أفلح، وأن هذه العقيدة قد نامت إلى غير يقظة، فإذا بها تنتفض على أيدى دعاة الحق، الذين:

﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣).

وإذا بالفجر يبعث خيوطه، وبالنور يتشقق به الأفق ، بعد ليل طال أمده ..

وإذا بالصادقين من الخلف يسيرون على نهج السلف الصالح، فى صحوة مباركة إلى غير سبات.. والمسلمون الأولون الذين تلقوا القرآن الكريم تلقيا حقيقيا شعروا شعورا صادقا أن الكيان الإنسانى كله يتزلزل ، ليعاد تركيبه من جديد، وفق ذلك التصور الجديد ..

وأدركوا أن الكيان القديم الذى بنى وفق تصورات الجاهلية، لا يمكن أن يبقى ولا أن يثبت، ولا يرقع ترقيعا بالتصور الإسلامى الجديد..

بل لا بد من زلزلة وتصدع كاملين فى الكيان القديم، ليعاد إنشاؤه وفق تكوين جديد دقيق، ووفق بصر جديد عميق :

---

(١) يوسف: ٢١. (٢) الحجرات : ١٥.

(٣) المائدة : ٥٤.

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١).

وتلك صورة تمثل حقيقة، فإن لهذا القرآن لثقلا وسلطانا، وأثرا مزلزلا، لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته..

وإن اللحظات المباركات الطيبات التى يكون فيها الكيان النفسى متفتحا لتلقى شيء من حقيقة القرآن الكريم يهتز فيها اهتزازا، ويرتجف ارتجافا، ويقع فيه من التغييرات والتحولات ما يمثله فى عالم المادة فعل المغناطيس والكهرباء بالأجسام وأشد :

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (٢).

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٣).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٤).

إنها صورة حية حساسة، ترسمها العبارات، وتحدد ملامحها الكلمات، فتكاد تشخص فيها الحركات..

إنها الارتعاشة الوجدانية التى تنتاب الجَنان المؤمن، حين يذكر الله، وحين يحيا مع آيات الله، فيغشاها جلال الحق، وتنتفض فيه مخافة الخالق، ويتمثل عظمة الحق ومهابته.. فينبعث إلى طاعة الرحمن باللسان والجَنان، والوجل والخشية، والإنابة والخضوع، والضراعة والخشوع..

لقد تصدع كيان النفس البشرية التى مسّها القرآن الكريم مسّا حقيقيا، ليعاد تركيبها على نسق غير مسبوق، ولتسير فى طريق النور على هدى وبصيرة..

---

(١) الحشر : ٢١. (٢) الزمر : ٢٣.
(٣) الأنفال : ٢. (٤) الشورى : ٥٢.

والكتاب والسنة صنوان أو توأمان، عليهما تتوقف حقيقة الإيمان ، ومنهما تستمد أحكام الأعمال التي يباشرها الإنسان، ومنزلة السنة من القرآن منزلة البيان من المبيّن :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

هذا ، إلى ما تقدمه السنة النبوية في هذا المقام من شئون الدين وأحكامه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٣)

إن هذه الآية الكريمة تبين بما تقتضيه « ما » من معنى العموم إن كل ما يقدمه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ إلى الأمة من أمور دينها فإنها مكلفة باعتباره، والسير على سننه:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

يا له تنويها عظيما، وتقديرا كريما، ينبه القلوب الغافلة، ويرهب النفوس الجامحة :

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٥) .

وإنه لتحذير رهيب، وتهديد رعيب.. فليحذر الذين يخالفون عن أمره، ويبتغون نهجا غير نهجه، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة ليحذروا :

﴿ **أن تصيبهم فتنـــة** ﴾ .

---

(١) النحـــل : ٤٤ . (٢) النحـــل : ٦٤ . (٣) الحشر : ٧ .

(٤) النساء : ٦٤ ـ ٦٥ . (٥) النـــور : ٦٣ .

تضطرب فيها المقاييس، وتختل فيها الموازين، وينتكث فيها النظام، فيختلط الحق بالباطل، والطيب بالخبيث، وتفسد أمور الجماعة وحياتها، فلا يأمن على نفسه أحد، ولا يقف عند حده أحد، ولا يتميز فيها خير من شر.. وهى فترة شقاء للجميع:

﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾.

جزاء المخالفة عن أمر الله، ونهجه الذى ارتضاه للحياة.

يروى البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال:

« كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى ».

قالوا يا رسول الله! ومن يأبى؟ قال:

« من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى » [1].

ويوم تمسّك سلفنا الصالح بالكتاب والسنة، تسلموا قيادة العالم وريادته، وحققوا صورة كريمة مباركة طيبة للحياة العادلة المثالية الرائدة، السامية القائدة، لا تدانيها صورة فى التاريخ البشرى كله..

وجاء من بعدهم خلف انحرفوا فانجرفوا، واستمروا فى الهبوط فى السوء، حتى تخلفت الأمة عن غيرها، وحينئذ جاءتها:

قارعة التتار!

بيد أنها لم تستخلص الدرس، ولم تصغ للعظة، فأصابتها:

جحافل الصليبيين!

واستيقظت بعض اليقظة، لتعود إليها غفلتها، ولترجع إلى غفوتها، فداهمتها:

مصيبة الأندلس!

بعد أن كانت مصدر إشعاع، ونورا فى ظلام من حولها من الأمم!

ولما تردت فى سوءاتها، وغفلت عن السنن، حلت:

(١) البخارى: ٩٦ ـ الاعتصام (٧٢٨٠).

كارثة فلسطين !

واستمرت الأمة متخبطة فى عقابيل انحرافاتها، ومستنقعات سوآتها!

فى الوقت الذى نبصر فيه علماء السوء يقرون تلك الانحرافات، ويتسترون على تلك السوآت، ويفتون بما لم يأذن به الله، ويضفون ثوب القداسة على هذه الضلالات وتلك السوآت!

والشيء الوحيد الذى يهتمون به، ويضعونه نصب أعينهم، هو الحفاظ على الوظيفة بشتى السبل، والانحناء أمام الوسائل التى ترشح للترقى فى سلّم المادية الدنيوية وكفى !

إنه خط واضح السمات، واضح الخطوات، تظله الضلالات، وتحدوه السوآت!

ومع كل هذا فهؤلاء عنه مدافعون، وفى سبيل الحفاظ عليه مجادلون، ولكن :

﴿ فَمَن يُجَادِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾ (1).

ومن يجادل سنن الله، وهى تفضى بهم وبأمتهم إلى نهايات يعرفها من استقرأ التاريخ، وتتلمذ على الوحى !

وهم إذا بحثوا عن الأمة فعن المظاهر يبحثون، لا عن الأسباب الباعثة المتفشية فى المجتمع، والصانعة لها !

إن الجبن قد مزقهم كل ممزق، فراحوا يدورون مع الريح الصرصر العاتية حيث تدور، ويطلقون على ذلك كياسة وذكاء، وفطنة ودهاء!

يا حسرة على هؤلاء الذين يتصدرون الركب، ويفتون بما لم يأذن به الله، ويفترون على الله الكذب، ليرضى عنهم الناس، ولا يهمهم أن يسخط رب الناس !

ورغم هذه القوارع التى أصابت المسلمين فى هؤلاء، وفى:

قارعة التتار!

وجحافل الصليبيين !

---

(1) النســاء : ١٠٩.

ومصيبة الأندلس!

وكارثة فلسطين!

رغم تلك المصائب والكوارث، فإن الأمة لم تدرس أسباب ما حدث، ولم تقدم الحلول الصحيحة،ولا أساليب الوقاية، فاجتاحها حزب الشيطان،ومزقها كل ممزق، فكرا وأرضا!

وهي لا تملك أن تقف مرفوعة الرأس!

حتى وجد الكثيرون أنفسهم مأخوذين بما بهر عيونهم التى لم تبصر فى الضوء مثل الخفافيش ، أو منكفئين على أنفسهم ، يتجرعون صديد أفكار عصور الانحطاط والانحراف!

ولم تواجه الأمة الأمر مواجهة صادقة، لتستقرىء السنن الثابتة، وتقف على الحقائق كما هى ، وتتخلص على هدى وبصيرة من أدوائها التى جثمت على الصدور، وأدرانها التى رانت على القلوب!

ومن ثم تتابعت مآسى ما حدث ويحدث للمسلمين فى:

أفغانستان!

وشبه القارة الهندية!

والقارة الأفريقية!

مما يطول الحديث فيه ويطول!

وعم نزيف الدم الأقليات الإسلامية التى يحكمها غير المسلمين! والبلاد التى تحتسب على الإسلام وما أكثرها، وهى ضالة عن الحق، متخبطة فى التيه!

وخلال هذه الأحداث المريرة جاءت نازلة اضطهاد الحركة الإسلامية، بشكل فاضح كالح لم يسبق له فى التاريخ مثيل!

ووسط هذا الظلام، استمر نزيف الدم المصنوع فى معامل الأعداء، والذى كان من السهل تحركه فى الخواء العام، حيث غاب العقل، والفهم والضمير!

بيد أن هذا الضلال أصابته جائحة حرب ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م بأوضح لغة وبيان، وما زالت الأمة تتلقى القوارع في نزيف الدم المستمر بين معتنقى هذا الضلال، الذين رجعوا إلى جاهليتهم الأولى، يضرب بعضهم رقاب بعض !

وما أحوجنا فى هذه اللحظة الفارقة الحاسمة إلى من يرد علينا فقه الإيمان، وبرد اليقين، وأنس الروح، وسعادة النفس، ونشوة الحس، حتى ترجع إلينا سيرتنا الأولى..

وأول معالم الطريق أن نتأسى بالرسول الحبيب المحبوب ﷺ:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (١).

نور وهاج أفضى إلى ظلمات الجهل والوثنية، فانجابت كما ينجاب الغمام، وهدى من الله أرسله إلى الإنسانية الضالة فانتشلها من ضيعة، وانتاشها من هلاك، وأنقذها مما كانت تتخبط به فى دياجير الظلام، وعقابيل الضلال (٢).

كانت حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ صفحة عريضة، فريدة وحيدة ، من صفحات الجهاد، لإنقاذ البشرية، ومثلا صادقا، فريدا وحيدا، لمُثُل البر والمرحمة، وسيرة عالمية، رفيعة الشأن، جليلة القدر، عظيمة النفع، كبيرة الفائدة، تلمع أضواؤها فى الكتاب والسنة.. متضمنة نفحات من هذا الهدى، وومضات من ذلك الإشراق..

إن سيرة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ غنية بأحداثها، زاخرة بدلالتها ، متنوعة بمعطياتها..

وما كان لباحث منصف يسعى إلى إيفائها حقها من البحث والتحليل، إلا أن يوسع نطاق رؤياه، ويصب اهتمامه على أحداثها، من حيث كونها :

واقعية مثالية..

حركية أخلاقية..

قيادية روحية..

فقهية حضارية ..

---

(١) الأحزاب : ٢١.

(٢) انظر: مقدمة تهذيب سيرة ابن هشام،والروض الأنف.

ومن هنا لم ألتزم الخط الزمنى لأحداث السيرة فيما يتعلق باليهود..

ذلك الخط الذى وقع فى أسره معظم الكاتبين، فضاعت فى مجراه حقائق، وطمست دلالات وقيم، ما كان لها أن تضيع أو تنطمس لو قسمت وقائع السيرة إلى دراسات موضوعية متجانسة، استقصيت فيها سائر جوانبها، ونسقت جُل وقائعها، وحللت دلالاتها، رغم أن الخط الزمنى يمثل الأمانة فى ذكر وقائع الأحداث كما كانت، كما أنه يدفع الباحث أن يعرض فى النقطة الواحدة أو المقطع الواحد [1]، مجموعة أحداث، كما يدفعه أن يعرض وقائع متنافرة، متقاطعة غير متجانسة، ويلجئه أحيانا أخرى إلى تقطيع الواقعة الواحدة إلى أجزاء متناثرة، لا يضمها إطار واحد، ولا يوحدها تجانس نوعى..

وتلك ـ بطبيعة الحال ـ نتيجة مفروضة للسعى وراء منطق التقسيم الرياضى الصارم للأيام والسنين.

وهذا الأسلوب هو الذى اعتمده مؤرخونا القدامى، وعرفوه باسم (الحوليات)، حيث لم تكن مناهج البحث الموضوعى فى علوم التاريخ قد استكملت أسبابها بعد..

وإن اعتماد بعض المؤرخين المحدثين على عدد من مصادر المتأخرين، كمصادر محورية، وتغافلهم عن واحد أو أكثر من المصادر الأساسية، جعلهم يتركون فقرات عميقة فى صلب أبحاثهم، كما دفعهم إلى سرد الكثير من الإضافات المتأخرة، التى لم تكن فى المصادر الأولى، ومن ثم كان تضخيم وقائع السير إلى أضعاف حجمها الحقيقى على حساب الوقائع نفسها..

وقد نزل القرآن الكريم منجّما، ونزلت آياته على مكث، لكى تلامس الأحداث:

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [2].

حتى يربى أمة، ويقيم لها نظاما، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها [3]، وتعلّم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل.

---

(١) مقدمة دراسة فى السيرة، بتصرف.
(٢) الإسراء: ١٠٦.
(٣) فى ظلال القرآن: ٤:٢٢٥٣ بتصرف.

ومن ثم فقد جاء هذا القرآن مفرقا وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة، ووفق الملابسات التى صاحبت فترة التربية الأولى، والتربية التى تتم فى الزمن الطويل، والتجربة العملية فى الزمن الطويل...

جاء ليكون منهجا عمليا يتحقق جزءا جزءا فى مرحلة الإعداد، لافقها نظريا، ولا فكرة تجريدية، نعرض للقراءة والاستمتاع الذهنى !

وتلك حكمة من حكم نزوله مفرقا، لا كتابا كاملا منذ اللحظة الأولى...

ولقد تلقاه الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى، وأخذوه توجيها يطبق من واقع الحياة ..

كلما جاءهم منه أمر أو نهى ..

وكلما عرفوا منه أدبا أو فريضة ..

ولم يأخذوه متعة عقلية، أو نفسية، كما كانوا يأخذون الشعر والأدب ، ولا تسلية ولا تلهية، كما كانوا يأخذون القصص والأساطير، فكيّفوا به حياتهم اليومية..

تكيّفوا به فى مشاعرهم وضمائرهم ، وفى سلوكهم ونشاطهم ، وفى بيوتهم ومعاشهم .. فكان منهج حياتهم الذى طرحوا كل ما عداه مما ورثوه ، ومما عرفوه، ومما مارسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن ..

وإن الظروف الراهنة آنذاك ليست ـ كما يدّعى المستشرقون والمستغربون ـ هى الحتمية التى حددت مسار الإسلام وخطى رسوله[1]، إنما هنالك المنهج الذى أحدث انقلابا شاملا على ضلالات الجاهلية، وهذا ما يبدو واضحا منذ أول لحظة فى الشعار الحاسم الذى رفعه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فى وجه الجاهلية:(لا إله إلا الله)، فأى ظرف راهن موقوت أوحى بهذا الشعار الانقلابى الشامل، الذى جاء يدمّر على الوجود الجاهلى كل ضلالات الجاهلية ؟ !

ونحن نطلب من هؤلاء وهؤلاء أن يكونوا منهجيين فى بحوثهم عن الرسالة والرسول ، غير متعصّبين لمعتقداتهم، وأن ينظروا إلى القرآن الكريم كمنهج له خصائصه ،

---

(١) مقدمة دراسة فى السيرة بتصرف .

وتعلو معطياته على الظروف الراهنة زمانا ومكانا ، رغم ملامساتها اليومية المباشرة للوقائع الزمانية والمكانية، ولكنها الملامسات التى تنبثق عنها قيم ودلالات ذات طابع شمولى، ما كان لهم أن يغفلوا عن أبعادها! وأن ينظروا إلى السيرة النبوية كوحدة عضوية متكاملة.

وهم بأخطائهم الشنيعة الفظيعة، قد طرحوا الكثير من النتائج الخاطئة، والمعطيات الهابطة ؛ لأن الخطأ لاينتج إلا الخطأ، والبعد عن الموضوعية لا يقود إلا إلى نتائج لا تحمل روح العلم فى شىء !

وآفة هؤلاء وهؤلاء أنهم يسوقون مجرد الاحتمالات الواهية ، والشبه الهابطة ، والظنون التى لا تغنى من الحق شيئا مساق الحقائق المسلّمة، ويقيسون الماضى الذى لم يكن يوما جزءا من تاريخ حياتهم ، وبالتالى لم يكن من مكونات ضمائرهم ، بمقياس حاضرهم، مع تباين المكان والزمان ، والعقلية والروح !

وآية ذلك أنهم يغضّون أبصارهم عن الطابع الميتافيزيقى الذى نشأت فى ظله هذه الأحداث، ويرفضون المناهج الأصيلة فى نقد الأخبار ورواتها !

وإذا بحثنا عن الأسباب التى ترجع إليها هذه الخصوصية الشديدة الهوجاء وتلك الحرب العنيفة الرعناء، التى يثيرها هؤلاء وهؤلاء ضد الرسالة والرسول ﷺ فإننا نجد الجهل بحقيقة الإسلام ، وبسيرة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، فى مقدمة ما يدعو إلى هذه الخصومة الهوجاء، وتلك الحرب العنيفة الرعناء!

والجهل ــ ولا ريب ــ من أعقد أسباب الجمود والتعصب، وأشدها استعصاء، ولقد تراكم هذا الجهل على مر القرون، وقامت له فى نفوس الأجيال تماثيل وأوثان(١)، يحتاج تحطيمها إلى قوة روحية كبرى كقوة الإسلام أول ظهوره.

على أن ثمة سببا يضاف إلى الجهل، هو الذى دفع هؤلاء وهؤلاء إلى هذا التعصب المقيت، وإلى إثارة تلك الحرب الضروس الشعواء التى أثاروها، ويثيرها تلاميذهم على الرسالة والرسول ﷺ آناً بعد آن !

وليس ينصرف ذهننا إلى ما قد يدور بالخاطر من صروف السياسة، وحب الظفر بالشعوب لاستغلالها، فتلك فى اعتقادنا نتيجة، وليست سببا لهذا التعصب المستعصى ،

---

(١) حياة محمد : ١٢ بتصرف .

حتى على العلم وعلى بحوثه!

هذا السبب هو أن عقائد هؤلاء وهؤلاء، وما تدعو إليه، ليست مما يلائم الطبائع والغرائز ، والاستعدادات والرغبات ، فقد أصابها التزييف والتحريف ، والتضليل والتخريف ، ومن ثم خرج هؤلاء وهؤلاء على تلك القواعد، واختلفوا اختلافا بيّنا فيما بينهم ، مما يطول الحديث فيه ويطول !

ولا ننسى تأخر المسلمين، وما صارت إليه الشعوب الإسلامية!

وهذا مما يضاعف مسئوليتنا تجاه ضلالات هؤلاء وهؤلاء ، ممن أصابهم العمى والاختبال، ولم يدركوا ميزان الضبط فى الاستدلال!

ومن رحمة الله عز وجل أن اتصال السند من خصائص الأمة الإسلامية..

ولسنا نعرف على مدى التاريخ البشرى كله أمة من أمم الرسل، عليهم صلوات الله وتسليماته، قد سعدت بمثل هذه المجموعة الناطقة من الأحاديث النبوية، وهذا السجل الخالد.

بل على العكس من ذلك، نرى الأمم كلها فقيرة، لا تملك مصدرا من مصادر البحث عن سيرة الأنبياء، ونراها قد انقطع ما بينها وبين أنبيائها، وفقدت الصلة التى تصلها بعصر هؤلاء الرسل، وتطلعها على شئون حياتهم ، وما يكتنفها من ظروف وملابسات ، حتى صار كثيرون منهم يتساءلون ، بل يشكّون فى نبوة أنبيائهم !

ونحن مع معارضتنا لهذا التطرف نؤمن بأن هناك حلقات مفقودة، لا يمكن البحث عنها، والاهتداء إليها !

أما خاتم الرسل الحبيب المحبوب ﷺ فهو الرسول الوحيد الذى نعرف عنه كل دقيق وجليل، ونعرف عنه من دقائق الأخلاق والصفات، والميول والرغبات، والقول والعمل ما لا نعرفه عن غيره.

بل إن ما عرفناه عن الأنبياء جاء من طريق الوحى الذى أنزله الحق تبارك وتعالى على خاتم النبيين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الرسل والأنبياء أجمعين، كما جاء من حديث النبى ﷺ ..

وعليه فالحديث النبوى بهذه الصورة هو السجل الخالد ، الذى حفظ هذه الحياة المباركة الطيبة.. وهو من خصائص الأمة الإسلامية.. وهو الذى يعرّف المسلم بكل ما يتصل بنبيه وحبيبه، من قول وفعل ، وتقرير ووصف،فى الحركات والسكنات، ويسعده بصحبته، وكأنه حضر مجلسه، واستمع لحديثه، وقضى معه أسعد مدة من الزمان، ليسمع كلامه، ويشاهد عمله، ويدرس سيرته ..

ثم إنه ميزان عادل لحركة هذه الأمة، زاخر بالحياة النابضة، والقوة المؤثرة، التى تبعث على الخير والفلاح، والرشد والصلاح..

ومن رحمة الحق تبارك وتعالى أن كانت هذه الأمة تحمل قوة الذاكرة، وسرعة الحفظ والاستظهار، مما يسر لها الجمع والاستحضار،حتى كانت القلوب واعية، والعقول حافظة.. ولا غرو، فقد بهرهم الوحى بقوة بيانه، وأخذ عليهم مشاعرهم بقوة سلطانه، واستأثر بكريم مواهبهم فى لفظه ومعناه، فكان الحفظ فى الصدور، والتدوين فى السطور،.. وكانت صبغة الله التى شاء أن تكون.. وقد خلعوا عليه حياتهم، حين علموا أنه روح الحياة..

ومن ثم كانوا أهلا لتحمل الرواية، ، وفقه الدراية، حتى فاقوا فى ذلك كل الأمم .. وقد وعى الصحابة الكرام رضى الله عنهم ما سمعوا، وما شاهدوا، وحرصوا أشد الحرص وأبلغه على حفظه ونشره، حرصا لم يعرف عن أمة نبى من الأنبياء..

وجاء التابعون وتابعوهم بإحسان ، فحملوا الراية ، وأدوا الأمانة ، وبلغوا حديث الرسول الحبيب ﷺ وسيرته، وتتابع المسلمون جيلا بعد جيل يحفظون ويبلغون ..

وكان لقواعد التحديث الأثر الفعال فى وضع الموازين التى تكفل السلامة للعلماء والباحثين ، وتقيم الحجة على المفسدين المغالطين ، ممن ساءت نواياهم حيال هذا الدين ، فاتهموا هذه القواعد بما لا يقوم على ساق ولا قدم، ولا يستقر عند البحث والنظر ..

أجل: إن فى هذه القواعد :

فوائد مهمة فريدة..

ومباحث جمة مفيدة..

ومعارف رائقة وحيدة..

وتحقيقات بديعة لطيفة..

ومعالم نفيسة شريفة، لايستغنى عنها من يشتغل بالبحث فى العلوم الشرعية، والطرق الحكمية، والأدلة اليقينية..

إنها عصمة من الزلل، ولولاها لقال من شاء ما شاء ، ولخبط الناس خبط عشواء ، وركبوا متن عمياء..

إنها مقدمة السيرة النبوية ومفتاحها ، ومشكاة أدلتها اليقينية ومصباحها ، وعمدة مناهجها العلمية ورأسها..

وليعلم من يريد أن يعلم : (١)

من إنسان أسلس للعصبية المذهبية قيادة ، حتى ملكت عليه رأيه، وغلبته على أمره ، فحادت به عن طريق الهُدَى!

أو من رجل قرأ شيئا من العلم فداخله الغرور، إذ أعجبته نفسه، فتجاوز بها حدها، وظن أن عقله هو العقل الكامل، وأنه (الحكم المرضى حكومته) فذهب يلعب بأحاديث النبى ﷺ، يصحح منها ما وافق هواه وإن كان مكذوبا موضوعا، ويكذب ما لم يعجبه، وإن كان الثابت الصحيح !

أومن رجل استولى المبشرون على عقله وقلبه، فلا يرى إلا بأعينهم، ولايسمع إلا بآذانهم، ولا يهتدى إلا بهديهم، ولا ينظر إلا على ضوء نارهم يحسبها نورا، ثم هو قد سماه أبواه باسم إسلامى ، وقد عدّ من المسلمين ــ أو عليهم ــ فى دفاتر المواليد ، وفى سجلات الإحصاء ، فيأبى إلا أن يدافع عن هذا الإسلام الذى أُلبِسه جنسية ولم يعتقده دينا، فتراه يتأول القرآن ليخضعه لما تعلم من أستاذيه، ولا يرضى من الأحاديث حديثا يخالف آراءهم وقواعدهم، يخشى أن تكون حجتهم على الإسلام قائمة، إذا هو لا يفقه منه شيئا!

أو من رجل مثل سابقه، إلا أنه أراح نفسه، فاعتنق ما نفثوه فى روحه من دين

---

(١) الجامع الصحيح : (سنن الترمذى) : ١: ٧١ بتصرف.

وعقيدة، ثم هو يأبى أن يعرف الإسلام دينا أو يعترف به، إلا فى بعض شأنه، فى التسمى بأسماء المسلمين، وفى شيء من الأنكحة والمواريث ودفن الموتى !

أو من رجل مسلم عُلِّم فى مدارس منسوبة للمسلمين، فعرف من أنواع العلوم كثيرا، ولكنه لم يعرف من دينه إلا نزرا أو قشورا، ثم خدعته مدنية الإفرنج وعلومُهم عن نفسه،فظنهم بلغوا فى المدنية الكمال والفضل، وفى نظريات العلوم اليقين والبداهة، ثم استخفه الغرور، فزعم لنفسه أنه أعرف بهذا الدين وأعلم من علمائه وحفظته وخلصائه، فذهب يضرب فى الدين يمينًا وشمالا، يرجو أن ينقذه من جمود رجال الدين ! وأن يصفيه من أوهام رجال الدين !

أومن رجل كشف عن دخيلة نفسه، وأعلن إلحاده فى هذا الدين وعداوته ، ممن قال فيهم القائل : « كفروا بالله تقليدا » !

أو من رجل!.. أو من رجل!

ليعلموا هؤلاء كلهم، وليعلم من شاء من غيرهم: أن المحدّثين كانوا محدّثين ملهمين، تحقيقا لمعجزة سيد المرسلين ، حين استنبطوا هذه القواعد المحكمة لنقد رواية الحديث، ومعرفة الصحاح من الزياف، وأنهم ما كانوا هازلين ولا مخدوعين، وأنهم كانوا جادين على هدى وعلى صراط مستقيم، فكانت تلك القواعد للتوثق من صحة الأخبار أحكم القواعد وأدقها، ولو ذهب الباحث المتثبت يطبقها فى كل مسألة لا إثبات لها إلا صحة النقل فقط، لآتته ثمرتها الناضجة، ووضعت يده على الخبر اليقين ..

ولكى يفهم الإنسان الحادثة ويفسرها، ويربطها بما قبلها وما تلاها، ينبغى أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس والحياة.. (١)

مقومات النفس البشرية: روحية، وفكرية، وحيوية..

ومقومات الحياة البشرية: معنوية، وفطرية، ومادية..

وأن يفتح روحه وفكره وحسّه للحادثة، ويستجيب لوقوعها فى مداركه، ولا يرفض شيئا من استجابته لها إلا بعد دراسة وتمحيص ونقد..

---

(١) فى التاريخ فكرة ومنهاج : ٣٧ بتصرف.

وإذا كان يتلقاها ـ بادئ ذى بدء ـ وهو معطل الروح أو الفكر أو الحس، عن عمد أو عن غير عمد، فإن هذا التعطيل المتعمد أو غير المتعمد يحرمه استجابة معينة للحادثة التاريخية، وعنصرا من عناصر إدراكها وفهمها على الوجه الكامل، ومن ثم يجعل تفسيره لها مخطئا أو ناقصا.

هذه الاستجابة الناقصة، هى أول مظهر تتسم به البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية، ذلك أن هناك عنصرا ينقص الطبيعة الغربية ـ بصفة عامة ـ لإدراك الحياة الإسلامية ـ بصفة خاصة ـ :« عنصر الروحية الغيبية» وبخاصة فى العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية، والطريقة التجريبية ـ على وجه الخصوص ـ .

وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر فى العقلية الغربية الحديثة.

وقد ذكرت عنصر الروحية الغيبية ـ على وجه الخصوص ـ ، لأنه أظهر ما يبدو فيه هذا النقص فى الطبيعة الغربية، وفيه تكمن معظم أوجه الاختلاف بين الطبيعتين ، وهى شتى وكثيرة..

وهذه المقدمة لا بد منها لبيان ما فى تناول هؤلاء للسيرة النبوية من :

نقص طبيعى فى الإدراك والتقدير..

ونقص طبيعى فى الفهم والتعبير..

ونقص طبيعى فى التفسير والتصوير..

ذلك أن انعدام عنصر من عناصر الاستجابة للحادثة أو ضعفه،لا بد أن يقابله نقص فى القدرة على النظر إلى الحادثة من شتى جوانبها ..

وضياع عنصر من عناصر التقويم والحكم أمر لا يؤمن معه سلامة هذا الحكم، أو على الأقل لا يسلم على علاته..

هذا النقص يعد عيبا فى منهج العمل ذاته، وليس مجرد خطأ جزئى فى تفسير حادثة أو تصوير حالة..

ومن ثم فالمنهج الأوربى فى البحث يسبب تعطيل أحد عناصر الاستجابة، سواء كان

ذلك ناشئا عن الطبيعة الغربية ذاتها، وملابسات حياتها البيئية والتاريخية، أو كان ناشئا عن تعمد المؤرخ الأوربى تعطيل هذا العنصر، استجابة لمنهج معين فى الدراسة..

هذا المنهج غير صالح لتناول الحياة الإسلامية، ويتجلى عدم الصلاحية أوضح وأقوى فى جانب الدراسات التى تتعلق بالرسالة والرسول ﷺ..

ومنها ما يتعلق بموضوع بدء اليهود العدوان،على الرغم من أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بدأهم ـ كما سنعرف ـ بالإشادة والمودة، ولكنها طبيعة يهود!

وثمة سبب معيب فى قيمة الدراسات التاريخية الغربية للحياة الإسلامية..

ذلك، أنه لا يخفى أن كل مرئى يختلف شكله باختلاف زاوية الرؤية، وكذلك الشأن فى الأحداث والوقائع..

والأوربى ـ بطبيعته ـ ميال إلى اعتبار أوربا محور العالم، فهى نقطة الرصد فى نظره، ومن هذه الزاوية ينظر إلى الحياة والناس والأحداث..

وإذا كان بدهياً أن أوربا لم تكن هى محور العالم فى كل عصور التاريخ، والأوربى لا يملك اليوم أن يتخلص من وهم وضعها الحاضر، حين ينظر إلى الماضى .. أدركنا مدى انحراف الزاوية التى ينظر بها الأوربى للحياة الإسلامية !

ومدى أخطاء الرؤية !

ومدى أخطاء التفسير والحكم.. الناشئة من هذه الرؤية المعينة !

ذلك كله على افتراض النزاهة العلمية المطلقة، وانتفاء الأسباب التى تؤثر على هذه النزاهة!

فإذا نحن وضعنا فى الحساب ما لا بد من وضعه، وما لا يمكن إغفاله، من أسباب ملحة قاهرة عميقة، طويلة الأجل ، متجددة البواعث، تؤثر فى نظرة الأوربى للإسلام ، وللحياة الإسلامية، وللعالم الإسلامى :

من اختلاف فى العقيدة !

إلى كراهية لهذا الدين وأهله !

إلى ذكريات تاريخية مريرة !

إلى صراع سياسى واقتصادى واستعمارى !

إلى نزوات شخصية والتواءات فكرية !

إلى آخر تلك البواعث القديمة المتجددة أبدا !

إذا نحن وضعنا فى الحساب ذلك كله ـ ولا بد أن نضعه، لنضع الأمور فى نصابها ـ وأضفنا إليه خطأ الرؤية... أمكن أن نتعرف حقيقة الدراسات الأوربية فى الحقل الإسلامى.. لا من قبول هذه الدراسات على علاتها فحسب... بل من قبول المنهج الذى قامت عليه، ومحاولة اتباعه فى دراساتنا الإسلامية على وجه خاص...

وإن نظرة على واقعنا بين الأمس واليوم، وعطاء السيرة النبوية بين الماضى والحاضر، تبصرنا بأن سيرة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ليست هى مجرد سرد الحوادث .. إنما هى ـ فى نظرنا ـ تفسير هذه الحوادث ، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التى تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة، امتداد الكائن الحى فى الزمان والمكان..

ويجب أن تكون المصادر المعتمدة فى المنهج الإسلامى هى المرجع المعوَّل عليه، مع تحرير النصوص وتنسيقها، وتطبيق قواعد التحديث رواية ودراية، وأن يعيش الباحث بعقله وروحه، ونفسه وحسه، وشعوره وإدراكه، فى جو الإسلام كعقيدة وفكر ونظام، وفى جو الحياة الإسلامية المباركة الطيبة كصورة واضحة المعالم والسمات، من حياة البشرية المثالية..

وهذه الحياة فى هذا الجو ضرورية جدا لتفتح نوافذ الإدراك جميعا ، لا لفهم تلك الحياة فحسب، بل لإدراكها ككائن حى، وإدراك مواقع الحوادث والوقائع فى جسم هذا الكائن الحى(١).

وإنه ليعز على الباحث فى أية فترة من الحياة الإنسانية أن يدركها إدراكا حقيقيا داخليا، إلا أن يتجاوب معها بكل ذاتيته، وأن يعيش فى جوها بكامل مؤثراتها وإيحاءاتها،

(١) المرجع السابق: ٤٥ وما بعدها بتصرف .

فليست هذه خصيصة قاصرة على الحياة الإسلامية، وإن كانت أكثر وضوحا بالقياس إلى تلك الحياة ؛ لأن مقوماتها تختلف فى كثير من أنواعها وماهياتها عن مقومات ما عاداها ..

وإنه ليصعب أن نتصور إمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة، دون إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية، ولطبيعة فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة، وطريقته فى الاستجابة للحياة كلها فى ظل تلك العقيدة..

وهذه الخصائص كلها لا يمكن أن تطلب عند باحث غير مسلم صادق مدرك، إلا إذا تجرد عن الهوى، وتخلص من التعصب !

ولا بد من إدراك البواعث الحقيقية لتصرفات الناس من خلال هذه الحياة الإسلامية وعلاقة هذه البواعث بالحوادث والتطورات..

ولابد من ربط هذا كله بطبيعة الفكرة الإسلامية.. لا فى شكلها الخارجى، وخطواتها العملية فحسب ، ولكن فى تفسيرها للعلاقات الكونية، والعلاقات الإنسانية، والعلاقات الاجتماعية ، وفى تصويرها لنظام الحكم ، وسياسة المال ، وطرق التشريع ، ووسائل التنفيذ .. إلخ ، وهى كلها من مقومات الحياة، وبالتالى من مقومات التاريخ لهذه الحياة ..

إن المعارك الحربية، والمعاهدات السياسية، والاحتكاكات الدولية.. وما إليها، مما يعنى به التاريخ غالبا أكثر من سواه.. إنها كلها محكومة بعوامل أخرى هى التى يجب أن تبرز عند كتابة التاريخ ..

هذه العوامل هى التى يختلف الباحثون فى إدراكها وتقديرها.. كل يخضع للفلسفة التى تسيطر على تفكيره وتقديره، ولطريقة إدراكه للحياة فى عمومها..

وللباحث المسلم مزية هنا فى دراسة الحياة الإسلامية ؛ لأن طريقة إدراكه تمّت بصلة إلى حقيقة هذه العوامل المؤثرة فى سير التاريخ.. ومن ثم فهو أقدر على التلبس بها واستبطانها، والاستجابة لها استجابة كاملة صحيحة..

وعلى ضوء إدراكه لطبيعة العقيدة الإسلامية، وطريقة استجابة المسلمين لها.. يستطيع أن يزن دوافع الحياة الإسلامية فى تلك الفترة التاريخية، والقيم الإنسانية الكامنة فيها، وأسباب النصر والهزيمة فى كل خطوة ..

ويستطيع أن يتصور الحياة الظاهرة والباطنة لتلك الجماعات الإنسانية فى مهد الإسلام الأول، وفى البلاد التى انساح فيها.. ومع القوم الذين وجه إليهم، ذلك أن الطبائع البشرية تختلف، والاستعدادات لتلقى الهدى تختلف.. ويضم إلى الجوانب الظاهرة التى لا يدرك غير المسلمين سواها فى الغالب، كل الجوانب الروحية التى يعدها الإسلام واقعا من الواقع، ويحسب لها حسابها فى سير الزمان، وتشكل الحياة فى كل زمان ومكان..

ولما كانت الحياة الإسلامية فترة من الحياة البشرية..

ولما كان المسلمون جماعة من بنى الإنسان، فى حيز من الزمان والمكان..

ولما كان الإسلام رسالة كونية بشرية غير محددة بالزمان والمكان..

فإن التاريخ الإسلامى لا يمكن فصله من التاريخ الإنسانى..

وقد تأثرت تلك الفترة ـ من غير شك ـ بتجارب البشرية كلها من قبل، وبخاصة تلك العوامل التى كانت واقعة عند مولد الإسلام، ثم أثرت بدورها فى تجارب البشرية من بعد، وبخاصة تلك الجهات التى امتدت إليها أو جاورتها..

فلابد إذن عند الكتابة فى هذا المقام من الإلمام بالصورة التى انتهت إليها تجارب الإنسانية قبيل مولد الإسلام ، والحالة التى صارت إليها المجتمعات البشرية فى الأرض ، وبخاصة من ناحية العقائد الدينية، وسائر ما يتعلق بها من أفكار وفلسفات ونظريات، ومن ناحية الأوضاع الاجتماعية، وما يتعلق بها من نظم الحكم، وسياسة المال، وعلاقات المجتمع والأخلاق والعادات والأفكار ، كى يتبين على ضوئها حقيقة دور الإسلام ، وحقيقة طبيعته..

ويمكن تفسير استجابة العالم لهذا النظام الجديد قبولا أو رفضا..

ويمكن ـ كذلك ـ تصور أسباب الصراع، وعوامل النصر والهزيمة، وعناصر التفاعل والتدافع، والتلاقى والانعكاس، على مر الأيام..

وإذا كان الإلمام بوضع العالم إذ ذاك ضروريا، فإن الإلمام بوضع شبه الجزيرة العربية وتصور الحياة فيها، من كافة نواحيها.. أكثر ضرورة ؛ لأنها المهد الأول للإسلام من جهة، ومركز التجمع والانسياح من جهة أخرى..

ترى، هل كانت مصادفة عابرة أن يظهر خاتم النبيين الحبيب المحبوب ﷺ فى هذا الموضع من الأرض فى هذا الزمان ؟

إن هنالك نظاما مقدورا، وقصدا مقصودا، وتدبيرا معينا، وترتيبا موضوعيا، لتلقى هذه الظواهر، حيث التقت ، كى تؤدى دورا معينا، ليس أقل نتائجه تخطيط خريطة العالم .. فى عالم الظاهر .. وفى عالم الشعور .. على هذا الوضع الذى صارت إليه الأمور ، منذ ذلك التاريخ البعيد !

وهذا يسوق إلى دراسة حياة خاتم النبيين الحبيب المحبوب ﷺ فى هذا السياق الكونى للتاريخ ..

وتسوق هذه الدراسة، من كل جوانبها، وسائر ما يحيط بها، إلى أن ندرك نظاما مقدورا، وقصدا مقصودا، وموافقات مدبرة، فلم تكن هناك مصادفة عابرة فى الاختيار لهذا الحدث الكونى الذى لم يسبق ولم يلحق بنظير..

ومن ثم تتبين المعالم الكلية التى تضمنها هذا الحدث قبل البدء فى دراسة الأحداث العالمية التى تمت على هذا الأساس..

وبذلك تتهيأ صورة مستكملة الجوانب لكل الأوضاع والأحوال التى نشأت عنها الاستجابات التى وقعت بالفعل فى تاريخ الإسلام، فى الفترة التى تلت ظهوره، كما يتهيأ تفسير هذه الاستجابات تفسيرا صحيحا مستكملا لكل عناصر الحكم والتقدير.

وبذلك يستحيل التاريخ عملية استبطان وتجاوب فى ضمائر الأشياء والأشخاص، والأزمان والأحداث، ويتصل بناموس الكون، ومدارج البشرية، ويصبح كائنا حيا.. ومادة حياة ..

ومتى استقام البحث على ذلك المنهج .. وبرزت تلك المقومات الأساسية لحقيقة الرسالة والرسول ﷺ، وطبيعة البيئة التى استقبلت الدعوة، واستقبلت الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، وطبيعة المجتمع الإنسانى الذى كان يعاصر مولد الإسلام، وطبيعة العقائد والأفكار التى تسوده يوم ذاك..

متى برزت تلك المقومات الأساسية.. سهل تتبع نشاطها وتفاعلها وصيرورتها ، وأمكن تصوير وتصور خطوات الدعوة على عهد الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، هذه

الخطوات التى تسير متأثرة فى هذا الجيل تدفعنا أن نعرف :

كيف تجمع المسلمون حول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ؟ ومن أى نوعية كانوا ؟

من المشـركيـن؟

من اليـهــود؟

من النصـارى ؟

وكيف صـاغ الرسـول الحبيب المحبوب ﷺ هؤلاء وأولئك؟ وكيف أعدهم للمهمة العظمى؟

وكيف بنى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ نظامه، وعلى أى أساس قام هذا النظام؟

وماذا كان عند هؤلاء وأولئك .. من استعداد لتلبية هذا الحدث أو معارضته؟

وما هو الواقع الحقيقى لكل جزئية من جزئيات هذه السيرة؟

إلى آخر هذه المباحث التى تصورالمرحلة الأولى من مراحل حياة الإسلام ، التى أعقبتها المرحلة الثانية:

مرحلة المد الإسلامى..

عندما انساح الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ..عندما فاض ذلك الفيض الانفجارى العجيب، الذى لم يعرف له العالم نظيرا فى سرعته، وفى قوته..

لا من ناحية الفتح العسكرى وحده.. ولكن من ناحية التأثير الروحى، والفكرى، والاجتماعى ، أيضا..

من الناحية الإنسانية الشاملة التى شهدت تحولا كاملا فى خط سيرالتاريخ، على مولد هذا الدين القيم، وانتشاره ذلك الانتشار العجيب!

وهنا تبدو قيمة هذا المنهج الذى أشرنا إليه..

ويمكن تتبع أعمال الهدم والبناء التى قامت فى تلك المساحة الفسيحة التى امتد إليها الدين القيم ..

ويمكن ـ كذلك ـ تتبع تفاعله مع الأفكار والعقائد التى كانت سائدة أو سائرة فيها.. ومع النظم الاجتماعية التى كانت تظللها.. ومع الظروف الاقتصادية، والمخلفات التاريخية، والملابسات الإنسانية.. فى أخصب بقاع الأرض وأكثرها حضارة فى ذلك الزمان..

والمد الإسلامى لم يقف عند الحدود التى وصلت إليها فتوحاته العسكرية، فلقد امتدت الموجة الفكرية، والحضارة التى كونها، إلى ما وراء حدود العالم الإسلامى قطعا..

ولا بد من دراسة آثار هذا المد فيما وراء هذه الحدود.. ودراستها طردا وعكسا، فى حياة العالم الإسلامى ذاته، وفى حياة العالم الإنسانى كله..

ودراسة هذه التفاعلات فى ضوء المنهج الذى أشرنا إلى معالمه كفيلة بأن تنشىء صورة واضحة السمات للعالم الإنسانى وخطواته الحية، مختلفة عن الصورة التى اعتاد غير المسلمين أن يرسموها، والتى اعتدنا نحن أن نراها فى كتاباتهم! والتى يعتنقها الكثيرون من أبناء جلدتنا، والذين يتكلمون بألسنتنا، ويدافعون عنها أكثر من دفاع أساتذتهم المستشرقين!

ثم يجىء دور انحسار المد الإسلامى!

وعلى ضوء هذا المنهج، وضوء دراسة المراحل التاريخية السالفة، يمكن أن نتبين أسباب هذا الانحسار، وعوامله الداخلية والخارجية جميعا.. وهنا نتساءل:

هل كان هذا الانحسار شاملا أم جزئيا، وسطحيا أم عميقا؟

وما أثر هذا الانحسار فى خط سير التاريخ، وفى تكييف أحوال البشر، وفى قواعد التفكير والسلوك، وفى العلاقات الدولية والإنسانية؟

وما وزن الأفكار والنظم والعقائد التى استحدثتها الإنسانية بالقياس إلى نظائرها فى الإسلام؟

وماذا كسبت البشرية، وماذا خسرت، من وراء انحسار المد الإسلامى، وظهور المد الإلحادى؟!

ومن ثم يصبح الحديث عن العالم الإسلامى طبيعيا وفى أوانه، وقائما على أسسه الواضحة الصحيحة، وليس حديثا تمليه العاطفة، أو يحدوه التعصب من هذا الجانب أو

ذاك، ويصبح الحديث عن القديم والحديث ـ وفق هذا المنهج ـ مسلسل الحلقات، متشابك الأواصر، ويتحدد دور الإسلام فى هذا التاريخ ..فى الماضى وفى الحاضر... وتتبين خطوطه فى المستقبل على ضوء الماضى والحاضر..

ومن ثم يتم استعراض السيرة النبوية فى وحدة موضوعية.. مثل موضوعنا هذا..

وذلك وفق معطيات القرآن الكريم..

والسنة النبوية الصحيحة.. وفق أصول التحديث: رواية ودراية..

والإفادة من الأرضية التاريخية الثابتة، التى تحركت فوقها الأحداث ونمت، واكتسبت ملامحها النهائية..

والنظرة الشمولية التكاملية، التى تدرس حركة الإسلام فى منهج شامل كامل، له خصائصه..

فى إطار القيم والتوجيهات، والقواعد والأسس، التى جاء بها الدين القيم، ليقيمها فى قلوب الجماعة المسلمة عبر التاريخ، وفى حياتها كلها على سواء..

وهكذا تصبح هذه الأحداث مادة للتربية .. ودليلا وترجمانا للحياة الإسلامية الممتدة وأحداثها..وعوامل البناء، ومعاول الهدم..

ومن ثم نبصر التقابل بين العوامل والمعاول.. والحق والباطل.. على سواء..

وأرجو أن أتحدث بالتفصيل فى بحث خاص عن السيرة النبوية بين السرد التاريخى ومناهج البحث من جهة ، والتفسير الموضوعى ومعالم التربية من جهة ثانية، والحركة الاستشراقية والمنهج المعكوس الذى يحمل التناقض العجيب وعطاء السيرة بين الماضى والحاضر من جهة ثالثة..

حقا، إن السيرة النبوية فيض من العطاء متدفق، لا يفيض ماؤه، ولا يتوقف عطاؤه، ومن أخلص النية، وجرد الطوية، وطرح الغرض، وتخلص من الهوى، وابتعد عن الردى، وأحب الحق، وعقد العزم، وجدّ فى الطلب، فلابد أن تتفتح له كوة جديدة عميقة مشعة بنور الحق والحقيقة، يستضىء بها ويضىء..

وإذا كنا قد ودعنا قرنا حافلا بالمآسى الصارخة، والعبر القارعة، فإننا نعيش بداية القرن

الخامس عشر الهجرى، الذى يطرق أبواب التاريخ..

وعجلة الزمن تطوى بنا يوما بعد يوم، وحين تطوى نقف على مفرق الطريق..

وما أحوجنا فى هذه اللحظة الفارقة أن نحاسب أنفسنا على الماضى ، فنندم على الأخطاء، ونستقيل العثرات، ونقوم المعوج، ونستدرك ما فات..

وعلى المستقبل، فندرك أن جيلنا قد ولد فى منعطف تاريخى ، أفضى به ـ فى مجموعه ـ إلى أن تنفرج الشقة بين سلوكه وبين الشمول والتكامل فى الفكر والتشريع، ولفه ضباب الشعارات البراقة، فى إطار ماكر جائر، من هؤلاء الجاهلين، الذين أرادوا تحقيق شهواتهم، ونشر ضلالاتهم،جاهدين ألا ينكشف حالهم، ويتعرى هدفهم..

ومن ثم حالوا بيننا وبين حقيقة الإسلام فى الوحدة والتوحيد، والفكر والسلوك ، والحياة والتشريع..

وأقاموا فصاما نكدا بيننا وبين هذه الحقائق التى ينطبق بها اللسان معبرا عن العقيدة التى تعمر الجَنان :

الله غايتنا ..

والرسول قدوتنا..

والقرآن شريعتنا..

والجهاد سبيلنا..

والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا.

ومن ثم ركزوا على تمكين غيبوبة الضمير، والعقل والوعى، عن واقع المسير، فى الضباب الكثيف، وما يجر إليه من سوء المصير!

وهذا الواقع أقوى من إنكار المنكرين، وجحود الجاحدين !

ولن يفقد الحقيقة هويتها أن يكفر بها معاند ماكر، أو يتسلط عليها مخادع جائر!

وعلينا أن ندرس سيرة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ دراسة موضوعية منهجية تعيننا على فهم معالم طريق النجاة..

وها نحن نبصر الفجر قد أشرقت أنواره، وبدت مطالعه..

ونبصر قلوبا تتطلع إلى الخير، والمستقبل الملىء بالخير..

ونحس بأننا نتطلع إلى تكوين الشخصية الإسلامية، والدولة الإسلامية..

ويحدونا الأمل والبشر، ونحن نذكر قول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فيما يرويه أبو داود وغيره بسند صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه:

« إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنةمن يجدد لها دينها » (١).

ويزداد الأمل والبشر، ونحن نعيش فى رحاب السيرة النبوية التى تضع يدنا على معالم طريق النصرعلى اليهود وغيرهم.. كلما تمعنا فى أطيافها قرأنا شجنا، واستعرضنا جهادا، وتبينا استشهادا، ولمسنا صدقا، وأبصرنا يقينا..

وهذه المعالم حين تستقر فى الجَنان المؤمن، يستحيل أن تظل مجرد شعور وجدانى فى أعماق الضمير.. وإنما تندفع بصاحبها لتحقق ذاتها فى عالم الواقع، ولتمثل حركة إبداعية فى عالم المنظور، تبدع الحياة كلها، وما ينشأ عنها من أطياف :

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴾ (٢).

وإذا كنا قد أبصرنا كيف اقتحم جيشنا فى العاشر من رمضان المعظم ١٣٩٣هـ ـ ٦ أكتوبر ١٩٧٣م خط بارليف الذى كان أسطورة من أساطير الفنون الحربية فى العصر الحديث، باعتباره سدا منيعا لا تتخطاه الجيوش، ولا تنال منه أسلحة الهدم والتدمير ـ هكذا قال اليهود عن هذا الخط، وهكذا شهد خبراء الحرب فى العالم بأنه إن لم يكن على هذا الوصف الخارق، فإنه قريب منه ـ فإننا يجب ألا ننسى شعار هذه الحرب، وهو:« الله أكبر»، ومن ثم فقد رأينا ما كان من إمدادات تفوق كل ما هو متوقع تقف بجانب اليهود.. حتى لا تكون هزيمتهم ؛ لأن هذا الاقتحام كان خطوة لإزالة ما رمتنا به نكسة١٩٦٧م.

---

(١) أبو داود:(٤٢٩١) ، والحاكم: ٤: ٥٢٢، والبيهقى فى معرفة السنن والآثار: ٥٢ ، وانظر الأقوال فى معنى التجديد والمجددين فى: عون المعبود :١١: ٣٨٥ ـ ٣٩٦.

(٢) البقـرة : ١٣٨ .

ورغم الضباب الذى لف القضية والمعركة، والقيل والقال، فى شأن الدوافع الكامنة وراء ذلك، فإننا نؤمن بأن هذا الاقتحام كان بلا شك عملا مميزا جديرا بالوقوف أمامه طويلا، وجديرا بأن نذكر الدرس والعبرة، حين رفع الجند شعار: « الله أكبر » هذا الشعار الذى يجب أن نجتمع حوله، ونرفعه عاليا خفاقا، ونحمل أعناقنا على أكفنا فداء وتضحية فى سبيله:

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾[1].

وعلى أية حال، فإننا ما نزال نعانى من معركتنا من اليهود، وما زالت قضيتنا معهم قائمة، بل نتج عن هذه الحرب الأخيرة اختلاف وجهات النظر فى حل القضية، مما لا يحتاج إلى بيان ؛ لأنه واقع أليم!

ومن ثم فنحن أحوج ما نكون إلى أن نتعرف معالم طريق النصر، دون ما تشنج فى العبارة، وإسفاف فى القول، فالواقع يندى له الجبين!

ولست أرى من سبيل تجتمع عليه وجهات نظر المؤمنين إلا التأسى بموقف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ من اليهود، وموقفهم منه، من خلال معرفة سماتهم عبر تاريخهم وفكرهم وموقفهم من الرسالة والرسول ﷺ .. ومن خلال الغزوات الخاصة باليهود، حيث كان لهم فى شبه الجزيرة ما كان، ولم يتبين عداؤهم فى أول الأمرسافرا، ولكن ما لبثوا أن كشفوا عن سماتهم وأعلنوا الحرب والعدوان ، وواجههم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ..

ومن هنا آثرت أن أقدم هذه الدراسات بهذا العنوان : « الرسول ﷺ واليهود وجها لوجه» لأنى أومن يقينا أن كل مؤمن صادق لا يسعه إلا أن يتعرف موقف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ من اليهود، ولا يسعه ـ كذلك ـ إلا أن يقر بأن هذا الموقف هو وحده الذى يجب أن نؤمن به جميعا، وندعو إليه، ونتجمع فى رحابه:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[2].

---

(١) الروم: ٤ ـ ٥.   (٢) الأحـــزاب : ٢١ .

وسبق أن قدمت هذه الدراسات فى إذاعة القرآن الكريم صباحا من الكويت، كما أذيعت فى البرنامج العام مساء، طيلة سبعة أشهر كاملة.. مما ترتب عليه التهديد بالاغتيال.. وماكان لى أن أتلفت أو أتخير ما دمت أقول الحق..

اللهم : أحينا بمعرفتك ، وأمتنا على الشهادة فى سبيلك.. آمين آمين آمين.

ومن ثم آثرت إعادة النظر فيها وتقديمها للطبع.. رجاء أن نبصر أصحاب الأيادى المتوضئة الذين يتنزل عليهم وعد الله بالنصر، ويحق وعد الله على شر خلق الله..

وقد اقتضت منهجية البحث أن تشتمل هذه الدراسات على ما يأتى:

١ـ أسطورة الوطن اليهودى.

٢ـ الفكر اليهودى.

٣ـ موقف اليهود من الرسالة والرسول ﷺ.

٤ـ الطبيعة اليهودية.

٥ـ التآمر اليهودى على حياة الرسول ﷺ.

٦ـ اليهود والخيانة.

٧ـ القضاء على اليهود عسكريا.

٨ ـ محاكمة اليهود.

٩ ـ الخطر اليهودى .

١٠ـ معالم النصر على اليهود.

وها نحن نبدأ الحديث عن « أسطورة الوطن اليهودى »

وقد اقتضت منهجية البحث أن تشتمل على ما يأتى :

الفصل الأول : بنوإسرائيل .

الفصل الثانى : بين مصر وفلسطين .

الفصل الثالث : فى الأرض المقدسة .

الفصل الرابع : فى الجزيرة العربية .

والله أسأل: التوفيق والسداد، والعون والرشاد.

إنه سميع مجيب !

الكويت فى : ٢٦ جمادى الآخرة ١٤١٢ هـ
١ ينايـر ١٩٩٢م

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)

الفصل الأول

بنو إسرائيل

أضواء على التسمية ـ إسرائيل فى القرآن ـ الأسباط ـ الوحدة الكبرى ـ إسلام يعقوب ـ وصية يعقوب لبنيه ـ القرآن يسأل بني إسرائيل ـ أمتان مختلفتان ـ ليسوا من بني إسرائيل .

أضـواء على التسمية:

يقال[1]: بنو إسرائيل، والعبرانيون، واليهود، كلهم بمعنى واحد عند كثير من الناس، ويطلقون على هذا الجنس الذى اشتهر : اسم اليهود.

أما بنو إسرائيل فنسبة إلى إسرائيل، الذى هو: يعقوب ـ عليه السلام ـ :

وإسرائيل كلمة عبرانية مركبة من« إسرا »[2] بمعنى عبد أو صفوة، ومن« إيل » وهو الله، فيكون معنى الكلمة « عبد الله» أو « صفوة الله ».

وقد اختلفت الآراء[3] فى سبب تسميتهم بالعبريين أو العبرانيين:

فقيل: إنهم سموا بالعبرانيين نسبة إلى إبراهيم نفسه ، فقد ذكر فى سفر التكوين باسم (إبراهيم العبرانى) لأنه عبر نهر الفرات وأنهارا أخرى.

وقيل: إنهم سموا بالعبريين نسبة إلى « عِبْر » وهو الجد الخامس لإبراهيم.

وقد خالف الدكتور« إسرائيل ولفنسون» [4] الرأيين السابقين، وأبدى رأيا ثالثا فى سبب التسمية فقال:إن كلمة « عبرى » ترجع إلى الموطن الأصلى لبنى إسرائيل، وذلك أنهم كانوا فى الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التى لا تستقر فى مكان، بل ترحل من بقعة إلى أخرى بإبلها وماشيتها للبحث عن الماء والمرعى، وكلمة « عبرى» فى الأصل مشتقة من الفعل الثلاثى« عبر » بمعنى قطع مرحلة من الطريق، أو عبر الوادى أو النهر، مِن عَبره إلى عَبره، أو عبَر السبيل:شقها، وكل هذه المعانى موجودة فى هذا الفعل، سواء فى العربية والعبرية، وهى فى جملتها تدل على التحول والتنقل الذى هو من أخص ما يتصف به سكان الصحراء وأهل البادية، فكلمة « عبرى» مثل كلمة « بدوى» أى ساكن الصحراء أو البادية، وقد كان الكنعانيون والمصريون والفلسطينيون يسمون بنى إسرائيل بالعبريين لعلاقتهم بالصحراء، وليميزوهم عن أهل العمران، ولما استوطن بنو إسرائيل أرض كنعان، وعرفوا المدنية والاستقرار، صاروا ينفرون من كلمة«عبرى» التى كانت تذكرهم

---

(١) اليهودية والصهيونية : ١١ بتصرف .

(٢) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١:٦ .

(٣) المرجع السابق: ٣ بتصرف .

(٤) الدكتور « إسرائيل ولفنسون » كان مدرسا للغات السامية بكلية دار العلوم، ثم هاجر إلى فلسطين، ومات بها قبل أن تقوم دولة إسرائيل . المرجع السابق : ٤ هامش.

بحياتهم الأولى، حياة البداوة والخشونة، وأصبحوا يؤثرون أن يعرفوا: «ببنى إسرائيل فقط » (١).

ورجح بعضهم الرأى الأول فقال(٢) ــ بعد أن نقل بعض الأقوال فى ذلك ــ : ومما يؤكد هذا الرأى ما جاء فى سفر يشوع : « هكذا قال الرب إله إسرائيل فى عَبْر النهر، سكن آباؤكم منذ الدهر» ثم قال: إن هذه اللفظة لم تظهر إلا بعد اجتياز إبراهيم نهر الفرات، هذا فضلا عن أن الأخذ بهذا الرأى أقرب إلى الصحة من الرأيين الآخرين. كيف لا وهو رأى معظم العلماء وفحولهم؟

وأما الرأى الثانى فالأخذ به صعب ؛ لأن بين إبراهيم الذى كان أول من وصف بهذه التسمية وبين عابر أو عبر مدة ستة أجيال متوالية، فلو شاء إبراهيم أن ينسب إلى أحد أجداده لكان من البدهى أن يعزى إلى « سام» أشهر أجداده.

ولو كانت النسبة إلى عابر فلِمَ لمْ ترد فى الكتاب طيلة ستمائة سنة؟ ولِمَ لمْ يسم بها إبراهيم قبل عبوره نهر الفرات وهو بعد فى أرضه وعشيرته؟ وما الحكمة فى نسبته إلى عابر دون غيره؟ ولِمَ لمْ ينوّه كاتب التوراة بذلك؟ هذا كله يحملنا على استبعاد هذا الرأى من الأذهان.

أما الرأى الثالث فلا يركن إليه؛ لأنه لو كانت التسمية متأتية من الهجرة والتنقل لكانت معظم الأمم السامية نعتت بها. أليس الدكتور « ولفنسون » نفسه عند كلامه عن مهد الساميين الأصلى والحركات عند أغلب الأمم يقول: « يلاحظ فى مظاهر أغلب هذه الأمم أنها مظاهرتكاد تكون صحراوية، فعواطف هذه الأمم وخيالها واتجاه أفكارها مما يشعرنا بروح الصحراء « فإذا كانت التسمية متأتية من التنقل وحياة البداوة كقوله، فلِمَ لَمْ تُدْعَ بها كل الأمم السامية؟ ولم خصت بالإسرائيليين وقد كانوا ينفرون منها كما زعم هو نفسه؟

وإذا صح قول الدكتور « إسرائيل ولفنسون» أن العبرانيين كانوا ينفرون من هذه التسمية، وبعد أن استقروا وتحضروا استبدلوها بالإسرائيلى، فلماذا لم يستبدلوا أيضا اسم

(١) تاريخ اللغات السامية : ٧٧.

(٢) إسحاق ساكا : مجلة العربى الكويتية : العدد ٩١ : ١٥١ سنة ١٩٦٦ بعنوان معنى التسميات للشعوب السامية الثلاثة الكبرى..

لغتهم العبرانية بالإسرائيلية؟ فرأيه إذن لا يقوم على الدليل المقنع ، وبالتالى فيكون الرأى الأول هو المعقول، ويجب الأخذ به.

ويقول الدكتور« إسرائيل ولفنسون » : « ليس فى صحف العهد القديم ما يدل على أنهم كانوا يسمون لغة بنى إسرائيل باللغة العبرية، بل كانت تعرف باسم اللغة اليهودية، وطوراً باسم لغة كنعان، ولم تعرف باسم العبرية أو اللغة المقدسة إلا بعد السبى البابلى فى كتاب ابن سيرا ، وفى مصنفات المؤرخ اليهودى « يوصف » ، وفى « المشنا » و « التلمود » [١].

وذكر بعض الباحثين[٢] أن الكنعانيين هم الذين أطلقوا على الذين هاجروا إلى فلسطين كلمة« العبرانيين » تمييزا لهم عن الكنعانيين أصحاب البلاد الأصلاء، وللدلالة على أن العبرانيين الذين يدَّعون أنهم من نسل إبراهيم من الشعوب الوافدة على أرض الكنعانيين.

وكل المصادر مجمعة على أن العبرانيين غرباء على أرض فلسطين ، مثلما هم غرباء على أرض مصر .

والكنعانيون هم أصحاب فلسطين منذ عصور أقدم بكثير من العبرانيين، وهم سبقوا فى امتلاكها سيدنا إبراهيم والعبرانيين قبل نزوحهم إليها بآلاف السنين .

وأيا ما كان الأمرفالعبرية ليست واضحة النسبة ، كما تفصح الأقوال والروايات المختلفة، ولم يكن الكنعانيون وحدهم هم الذين يطلقون عليهم كلمة« العبرانيين» بل كان المصريون والفلسطينيون يطلقون عليهم ذلك الاسم، لتكون علامة فارقة بينهم وبين الجنس البدوى الغريب الوافد على أرض غريبة عنه.

وأما سبب تسميتهم باليهود، من هاد يهود هوْداً، وتهوّد، فهو هائد[٣]، وفى التنزيل العزيز:

﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [٤] .

---

(١) المرجع السابق : تاريخ اللغات السامية : ٧٨.

(٢) اليهودية والصهيونية : ١٣ وما بعدها بتصرف .

(٣) تاج العروس : (هود) .

(٤) الأعراف : ١٥٦ .

أى تبنا ورجعنا إليك. قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك وإبراهيم التيمى والسدى وقتادة وغير واحد، وهو كذلك لغة(١).

وسمّيت اليهود اشتقاقا من هادوا: أى تابوا، وأرادوا باليهود اليهوديّين، ولكنهم حذفوا ياء الإضافة (٢). وتهوّد الرجل: صار يهوديا، وتهوّد فى مشيه: مشى مشيا رفيقا تشبها باليهود فى حركتهم عند القراءة. وفى شفاء الغليل: يهودا، معرّب يهوذا ــ بذال معجمة ــ ابن يعقوب عليه السلام.

يقول الدكتور جواد على : « ولفظة يهودا» أعم من لفظة « عبرانيين » و « بنى إسرائيل » ، ذلك أن لفظة« يهود» تطلق على« العبرانيين » وعلى غيرهم ممن دخل فى دين يهود، وهو ليس منهم، وقد أطلق « الإسرائيليون » وأهل « يهوذا » لفظة « يهود »على أنفسهم، وعلى كل من دخل فى ديانتهم تمييزا لهم عن غيرهم ممن لم يكن على هذا الدين ، وهم الغرباء(٣).

إســـرائيل فى القـرآن :

وقد تحدث القرآن عن « إسرائيل » فى موضعين :

الأول : فى قوله تعالى :

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٤).

وهنا ــ كما يقول ابن كثير ــ مناسبتان : (٥).

إحداهما :: أن إسرائيل عليه السلام حرّم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغا فى شريعتهم، فله مناسبة بعد قوله:

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (٦)

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢: ٢٥٠.
(٢) تاج العروس : (هود) .
(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٦: ٩٥ ط المجمع العلمى العراقى .
(٤) آل عمران : ٩٣.
(٥) تفسير ابن كثير : ١: ٣٨٢ بتصرف .
(٦) آل عمران : ٩٢.

فهذا هو المشروع عندنا، وهوالإنفاق فى طاعة الله، مما يحبه العبد ويشتهيه، كما قال تعالى:

﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ (١).

وقال تعالى:

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ (٢).

المناسبة الثانية: لما تقدم بيان الرد على النصارى واعتقادهم الباطل فى المسيح، وتبيين زيف ما ذهبوا إليه، وظهور الحق واليقين فى عيسى وأمه، كيف خلقه الله بقدرته ومشيئته، وبعثه إلى بنى إسرائيل، يدعو إلى عبادة ربه تبارك وتعالى، شرع فى الرد على اليهود قبحهم الله تعالى، وبيان أن النسخ الذى أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله تعالى قد نص فى كتابهم التوراة أن نوحا عليه السلام لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها فاتبعه بنوه فى ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخرى زيادة على ذلك، وكان الله عز وجل قد أذن لآدم فى تزويج بناته من بنيه، وقد حرم ذلك بعد ذلك، وكان التسرى على الزوجة مباحا فى شريعة إبراهيم عليه السلام، وقد فعله إبراهيم فى هاجر لما تسرى بها على سارة وقد حرم مثل هذا فى التوراة عليهم، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغا، وقد فعله يعقوب عليه السلام، جمع بين الأختين، ثم حرم عليهم ذلك فى التوراة، وهذا كله منصوص عليه فى التوراة عندهم، وهذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح عليه السلام فى إحلاله بعض ما حرم فى التوراة، فما بالهم لم يتبعوه بل كذبوه وخالفوه؟!

وكذلك ما بعث الله به محمدا ﷺ من الدين القويم، والصراط المستقيم، وملة أبيه إبراهيم، فما بالهم لا يؤمنون ؟!

ولهذا قال تعالى:

﴿كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾.

---

(١) البقرة: ١٧٧ . (٢) الإنسان: ٨.

أى كان حلا لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل، ثم قال تعالى:

﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ .

فإنها ناطقة بما قلناه.

قال الزمخشرى (١) : الآية رد على اليهود وتكذيب لهم، حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم فى قوله تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٢) .

وفى قوله :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٣) .

وجحودَ ما غاظهم واشمأزوا منه، وامتعضوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم . فقالوا : لسنا بأول من حرمت عليه ، وما هو إلا تحريم قديم، كانت محرمة على نوح وإبراهيم، ومَن بعده مِن بنى إسرائيل، وهلم جرا. إلى أن انتهى التحريم إلينا، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغى والظلم والصد عن سبيل الله، وأكل الربا، وأخذ أموال الناس بالباطل وما عدد من مساوئهم.

وهكذا تتكشف(٤) هذه الحملة عن كشف طبيعة اليهود وتاريخهم، وفضح تعلاتهم، وعدم الاستجابة للرسول ﷺ وتعنتهم، ودمغهم بالتعنت مع نبيهم وقائدهم..

---

(١) تفسير القاسمى : ٤ : ٨٩٢.

(٢) النساء : ١٦٠ - ١٦١.

(٣) الأنعام : ١٤٦.

(٤) فى ظلال القرآن : ٢: ٨٠٣ بتصرف .

وتسقط بذلك وتتهاوى دسائس اليهود فى الصف المسلم ، ويسقط ويتهاوى كيدهم ومكرهم وحبائلهم!

وتعرف الجماعة المسلمة ـ ما ينبغى أن تعرفه الأمة المسلمة فى كل حين ـ عن طبيعة اليهود وجبلتهم، ووسائلهم وطرائقهم، ومدى وقوفهم للحق فى ذاته، سواء جاء من غيرهم أو نبع فيهم! فهم أعداء للحق وأهله، وللهدى وحملته.. فى كل أجيالهم، وفى كل أزمانهم! مع أصدقائهم! ومع أعدائهم! لأن جبلتهم عدوة للحق فى ذاته، جاسية قلوبهم، غليظة أكبادهم،لا يحنون رؤوسهم إلا للمطرقة! ولايسلمون للحق إلا وسيف القوة مصلت على رقابهم !

وما كان هذا التعريف بهذا الصنف من الخلق،ليقصر على الجماعة المسلمة الأولى فى المدينة.. فالقرآن الكريم هو كتاب هذه الأمة ما عاشت، فإذا استفتته عن أعدائها أفتاها، وإذا استنصحته فى أمرهم نصح لها، وإذا استرشدت به أرشدها.. وقد أفتاها ونصح لها وأرشدها فى شأن يهود، فدانت لها رقابهم.. ثم لما اتخذته مهجورا دانت هى لليهود، كما رأيناها تتجمع فتغلبها منهم الشرذمة الصغيرة ، وهى غافلة عن كتابها .. القرآن.. شاردة عن هديه، ملقية به وراءها ظهريا! متبعة قول فلان وفلان! وستبقى كذلك غارقة فى كيد يهود، وقهر يهود، حتى تثوب إلى القرآن ..

ولا يترك السياق الموقف مع اليهود، حتى ينصف القليل المؤمن منهم، ويقرر حسن جزائهم، وهو يضمهم إلى موكب الإيمان العميق ، ويشهد لهم بالعلم والإيمان، ويقرر أن الذى هداهم إلى التصديق بالدين كله: ما أنزل إلى الرسول ﷺ ، وما أنزل من قبله، هو الرسوخ فى العلم، وهو الإيمان :

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ (١).

فالعلم الراسخ، والإيمان المنير، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله.. كلاهما يقود إلى توحيد الدين الذى جاء من عند الله الواحد..

---

(١) النساء: ١٦٢.

وذكر العلم الراسخ بوصفه طريقا إلى المعرفة الصحيحة كالإيمان الذى يفتح القلب للنور، لفتة من اللفتات القرآنية التى تصور واقع الحال التى كانت يوم ذاك، كما تصور واقع النفس البشرية فى كل حين. فالعلم السطحى كالكفر الجاحد، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة.. ونحن نشهد هذا فى كل زمان. فالذين يتعمقون فى العلم، ويأخذون منه بنصيب حقيقى، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية، أو على الأقل أمام علامات استفهام كونية كثيرة، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد بأن لهذا الكون إلها واحدا مسيطرا مدبرا متصرفا، وذا إرادة واحدة، وضعت ذلك الناموس الواحد.. وكذلك الذين تتشوق قلوبهم للهدى ـ المؤمنون ـ يفتح الله عليهم، وتتصل أرواحهم بالهدى .. أما الذين يتناوشون المعلومات، ويحسبون أنفسهم علماء، فهم الذين تحول قشور العلم بينهم وبين إدراك دلائل الإيمان، أولا تبرز لهم ـ بسبب علمهم الناقص السطحى ـ علامات الاستفهام. وشأنهم شأن من لا تهفو قلوبهم ولا تشتاق.. وكلاهما هو الذى لا يجد فى نفسه حاجة للبحث عن طمأنينة الإيمان، أو يجعل التدين عصبية جاهلية، فيفرق بين رسالات الرسل التى جاءت من عند الله، على أيدى موكب واحد متصل من الرسل، صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين..

والموضع الآخر الذى ذكر فيه إسرائيل: هو فى حديث القرآن الكريم عمن أنعم الله عليهم من الأنبياء، والأصول التى ينتمون إليها، فكان إسرائيل أصلا من أصول النبوات، وأبا للكثير منهم، يقول تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ﴾[١].

وهنا نبصر السياق يستعرض أولئك الأنبياء [٢]، ليوازن بين هذا الرعيل من المؤمنين الأتقياء وبين الذين خلفوهم، سواء من مشركى العرب أو من مشركى بنى إسرائيل.. فإذا المفارقة صارخة، والمسافة شاسعة، والهوة عميقة، والفارق بعيد بين السلف والخلف:

---

(١) مريم: ٥٨.

(٢) المرجع السابق: ٤: ٢٣١٤ بتصرف.

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ (١) .

ويقف السياق فى هذا الاستعراض عند المعالم البارزة فى صفحة النبوة فى تاريخ البشرية.. فآدم يشمل الجميع، ونوح يشمل من بعده، وإبراهيم يشمل فرعى النبوة الكبيرين: ويعقوب يشمل بنى إسرائيل، وإسماعيل وإليه ينتسب العرب، ومنهم خاتم النبيين..

أولئك النبيون، ومعهم من هدى الله، واجتبى من الصالحين من ذريتهم.. صفتهم البارزة:

﴿ **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا** ﴾ .

فهم أتقياء شديدو الحساسية بالله، ترتعش وجداناتهم حين تتلى عليهم آياته ، فلا تسعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج مشاعرهم من تأثر، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرون سجدا وبكيا ..

أولئك الأتقياء الحساسون الذين تفيض عيونهم بالدمع وتخشع قلوبهم لذكر الله.. خلف من بعدهم خلف، بعيدون عن الله.. فما أشد المفارقة، وما أبعد الشبه بين أولئك وهؤلاء!

ومن ثم يتهدد السياق هؤلاء الذين خالفوا عن سيرة آبائهم الصالحين ! يتهددهم بالضلال والهلاك!

ثم يفتح باب التوبة على مصراعيه تنسم منه نسمات الرحمة واللطف والنعمى :

﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا** ﴾ .

الأسباط :

وأرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلا (٢)، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملا فقال جل شأنه:

---

(١) مريم : ٥٩.

(٢) تفسير ابن كثير : ١: ١٨٧ بتصرف.

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (١).

ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وألا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ (٢).

قال أبو العالية والربيع وقتادة: الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلا، ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسموا الأسباط.

وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في بني إسماعيل.

وقال الزمخشري: الأسباط حفدة يعقوب، ذراري أبنائه الاثني عشر، وقد نقله الرازي عنه وقرره ولم يعارضه.

وقال البخاري: الأسباط قبائل بني إسرائيل، وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ها هنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم :

﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (٣).

وقال تعالى :

﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗا ﴾ (٤).

---

(١) البقرة: ١٣٦.
(٢) النساء : ١٥٠ ـ ١٥١.
(٣) المائدة: ٢٠.
(٤) الأعراف: ١٦٠.

قال القرطبى(١) : الأسباط ولد يعقوب عليه السلام، وهم اثنا عشر ولدا، ولد لكل واحد منهم أمة من الناس، واحدهم سِبط. والسِّبط فى بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة فى ولد إسماعيل، وسُمُّوا الأسباط من السّبط، وهو التتابع، فهم جماعة متتابعون. وقيل أصله من السَّبط ـ بالتحريك ـ وهو الشجر، أى هم فى الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سبَطة.. والسِّبْط : الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد.

الوحدة الكبرى :

وتلك هى الوحدة الكبْرى بين الرسالات جميعا، وبين الرسل جميعا، وهى قاعدة التصور الإسلامى(٢)، وهى التى تجعل من الأمة المسلمة، الأمة الوارثة لتراث العقيدة ، القائمة على دين الله فى الأرض، الموصلة بهذا الأصل العريق، السائرة فى الدرب على هدى ونور، والتى تجعل من النظام الإسلامى النظام العالمى الذى يملك الجميع الحياة فى ظله، دون تعصب ودون اضطهاد، والتى تجعل من المجتمع الإسلامى مجتمعا مفتوحا للناس جميعا فى مودة وسلام.

إســلام يعقـوب :

ويبرز السياق القرآنى أن الإسلام ـ بمعنى إسلام الوجه لله وحده(٣) ـ كان هو الرسالة الأولى، وكان هو الرسالة الأخيرة.. هكذا اعتقد إبراهيم، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب ـ وهو إسرائيل ـ والأسباط، حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى .. ثم آلت أخيرا إلى ورثة إبراهيم من المسلمين.. فمن استقام على العقيدة الواحدة فهو وريثها ووريث عهودها وبشاراتها .. ومن فسق عنها، ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم، فقد فسق عن عهد الله، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته :

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٤).

---

(١) تفسير القرطبى : ٢: ١٤١.

(٢) فى ظلال القرآن: ١:١١٨ بتصرف.

(٣) المرجع السابق: ١١١ بتصرف.

(٤) البقرة : ١٣٠ ـ ١٣٢ .

هـذه هـى ملة إبراهيـم عليه السلام .. الإسلام الخالص الصريح .. لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه، سفيه عليها، مستهتر بها.. إبراهيم الذى اصطفاه ربه فى الدنيا إماما، وشهد له فى الآخرة بالصلاح.. اصطفاه « إذ قال له ربه أسلم» فلم يتلكأ، ولم يرتب، ولم ينحرف، واستجاب فور تلقى الأمر: ﴿ **قال أسلمت لرب العالمين** ﴾ .

هذه هى ملة إبراهيم عليه السلام.. الإسلام الخالص الصريح ..

وصيـة يعقوب لبنيـه :

ولم يكتف إبراهيم بنفسه، إنما تركها فى عقبه، وجعلها وصيته فى ذريته، ووصى بها إبراهيم بنيه، كما وصى بها يعقوب بنيه، ويعقوب ـ وهو إسرائيل ـ الذى ينتسب إليه هؤلاء، ثم لا يلبون وصيته، ووصية جده وجدهم إبراهيم :

﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب** ﴾ .

ولقد ذكّر كل من إبراهيم ويعقوب بنيه بنعمة الله عليهم فى اختياره الدين لهـم:

﴿ **يـابنـى إن اللـه اصـطفـى لكـم الديـن** ﴾ .

فهو اختيار الله، فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه.. وأقل ما توجبه رعاية الله لهم، وفضل الله عليهم ، هو الشكـر علـى نعمـة اختياره واصطفائه ، والحـرص علـى مـا اختاره لهـم والاجتهاد فى ألا يتركوا هذه الأرض إلا وهذه الأمانة محفوظة فيهم :

﴿ **فلا تمـوتـن إلا وأنـتـم مـسلمـون** ﴾ .

وهذه هى الفرصة سانحة،فقد جاءهم الرسول الذى يدعوهم إلى الإسلام، وهو ثمرة الدعوة التى دعاها أبوهم إبراهيم :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١) .

القرآن يسـأل بنى إسـرائيل:

تلك كانت وصية إبراهيم لبنيه، ووصية يعقوب لبنيه.. الوصية التى كررها يعقوب فى

(١) البقرة : ١٢٩ .

آخر لحظة من لحظات حياته، التى كانت شغله الشاغل، الذى لم يصرفه عنه الموت وسكراته، فليسمعها بنو إسرائيل:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه فى لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة، قوى الإيحاء، عميق التأثير.. ميت يحتضر. فما هى القضية التى تشغل باله فى ساعة الاحتضار؟

ما هو الشاغل الذى يعنى خاطره وهو فى سكرات الموت؟

ما هو الأمر الجلل الذى يريد أن يطمئن عليه، ويستوثق منه؟

ما هى التركة التى يريد أن يخلفها لأبنائه. ويحرص على سلامة وصولها إليهم فيسلمها لهم فى محضر يسجل فيه كل التفصيلات؟

إنها العقيدة..

هى التركة..

وهى الذخر..

وهى القضية الكبرى..

وهى الشغل الشاغل..

وهى الأمر الجلل، الذى لا تشغل عنه سكرات الموت وصراعاته:

﴿ **ما تعبدون من بعدى؟** ﴾.

هذا هو الأمر الذى جمعتكم من أجله..

وهذه هى القضية التى أردت الاطمئنان عليها..

---

(١) البقرة: ١٣٣.

وهذه هى الأمانة، وهذا هو الذخر، وذلك هو التراث:

﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

إنهم يعرفون دينهم ويذكرونه..

إنهم يتسلمون التراث ويصونونه..

إنهم يطمئنون الوالد المحتضر ويريحونه..

وكذلك ظلت وصية إبراهيم لبنيه مرعية فى أبناء يعقوب، وكذلك هم ينصون نصا صريحا على أنهم « مسلمون ».

والقرآن يســأل بنى إسرائيل:

﴿ **أم كنتم شــهداء إذ حضر يعقوب الموت؟** ﴾ .

فهذا هو الذى كان يشهد به الله، ويقرره، ويقطع به كل حجة لهم فى التمويه والتضليل، ويقطع به كل صلة حقيقية بينهم وبين أبيهم إسرائيل!

أمتــان مختلفتــان:

وفى ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الأمة التى خلت، والجيل الذى كانت تواجهه الدعوة.. حيث لا مجال لصلة، ولا مجال لوراثة، ولا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [1] .

فلكل حساب، ولكل طريق، ولكل عنوان، ولكل صفة..

أولئك أمة من المؤمنين فلا علاقة لها بأعقابها من الفاسقين!

إن هذه الأعقاب ليست امتداد لتلك الأسـلاف!

---

(١) البقــرة: ١٣٤.

هؤلاء حزب، وأولئك حزب.. لهؤلاء راية، ولأولئك رايـة..

والتصور الإيمانى فى هذا غير التصور الجاهلى.. فالتصور الجاهلى لا يفرق بين جيل من الأمة وجيل؛ لأن الصلة هى صلة الجنس والنسب.. أما التصور الإيمانى فيفرق بين جيل مؤمن وجيل فاسق، فليسا أمة واحدة، وليس بينهما صلة ولا قرابة..

إنهما أمتـان مختلفتان فى ميزان الله، فهما مختلفتان فى ميزان المؤمنين..

إن الأمة فى التصور الإيمانى هى الجماعة التى تنتسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض. وليست هى الجماعة التى تنتسب إلى جنس واحد أو أرض واحـدة..

وهذا هو التصور اللائق بالإنسان، الذى يستمد إنسانيته من نفخة الروح العلوية، لا من التصاقات الطين الأرضية!

ليسـوا من بنى إسـرائيل:

وليس هؤلاء اليهود هم بنى إسرائيل قطعا، كما يقول العلامة الكبير السيد أمين مدنى، ويوافقه الأستاذ أحمد عطار، يقول[1]: «إن اليهودية دين لا جنس،وإن يهود اليوم لا ينتمون إلى بنى إسرائيل.. على أن كثرة من المؤرخين قديما وحديثا حاولوا أن يرجعوا اليهود إلى أرومة من أرومات الشرق العربى، فمثل ما يحاول المؤرخ اليهودى الحديث أن يربط نسب اليهود بنسب أسرة إسرائيل، ليكونوا شعب الله المختار، كذلك حاول المؤرخ اليهودى القديم أن يربط يهود مصر القدامى بعماليقها« الشاسو » ولكن هذه المحاولة على ما يظهر لم تأت بما يقنع المؤرخين القدامى، فهم لم يذكروا اليهود بعد زوال آل إسرائيل باسم بنى إسرائيل، فلقد تحدثوا عن يهود الحجاز قبل الإسلام، وعن يهود العراق وسورية ومصر قبل الإسلام وبعده، ولم يتحدثوا عن بنى إسرائيل فى الحجاز وغيره من أرض الجزيرة التى هاجر إليها اليهود ».

يقول الأستاذ أحمد عطار: ويهود اليوم ليسوا يهودا بغير الديانة التى ينتمون إليها،

---

(١) اليهودية والصهيونيـة : ١٨ وما بعدها، نقـلا عن : مجلة « كلمة الحق » العدد الأول، محرم ١٣٨٧ هـ إبريل١٩٦٧م.

فيهود كل بلد يختلفون عن يهود اليمن، فأولئك ألمانيون، وهؤلاء يمنيون، وهكذا القول في كل أمة..

ولو كان يهود العالم من أصل واحد، لما ظهرت فوارق الخِلقة فيما بينهم، ولما ظهر بينهم ذوو البشرة البيضاء والعيون الزرق والشعر الأشقر أوالكستنائي.

ولسنا نحن الذين نقول هذا القول، بل يقوله عالم يهودي من أكبر العلماء في الجنس وهو« فردريك هرتس » الذي يقول في كتابه« الجنس والحضارة»:

« لم يعد بالإمكان أن يتمسك المرء بذلك الرأي الذي يمثل الآريين من جهة، واليهود من جهة أخرى، كجنسين مختلفين أشد الاختلاف، فقد أثبت البحث الأنثروبولوجي بصورة لا تحتمل الجدل ما بين الاثنين من القرابة الشديدة.

وقد استطاع اليهود في أثناء تاريخهم الطويل أن يمتصوا مقدارا كبيرا من الدماء الأجنبية، وهذه الحقيقة تفسر ما نراه فيهم من اختلاف في الصور والأشكال، ومشابهتهم للشعوب التي يعيشون بينها، وقد كان اعتناق الديانة اليهودية بوساطة اليونان والرومان والشعوب الأخرى أمرا كثير الحدوث ، وعلى الأخص في القرن الأول والثاني قبل الميلاد، أما في العصور الوسطى فعلى الرغم من جميع العقبات قد حدث مثل هذا التحويل إلى الديانة اليهودية، وعلى الأخص في البلاد السلافية.

وهذا هو السبب في أننا نرى اليهود الروس والبولونيين يشبهون السلاف لا شك فيه، واليهود الألمان أقرب شبها بسائر الألمان منهم بإخوانهم في الدين من أهل فلسطين».

وفي كتاب « اليهود في أمريكا » الذي أصدره اليهود أنفسهم صور ليهود، بينها صور أطفال من الذكور والإناث، كتب تحتها هذا التعريف:« فتيان وفتيات يهود من مختلف الأجناس والعروق في ظل العلم الأمريكي « وهو اعتراف من اليهود أنفسهم بأنهم ينتمون إلى أجناس وعروق مختلفة، وهو ينفي نفيا قاطعا الانتماء إلى أصل واحد.

ويكاد الاتفاق يكون تاما بين علماء الأنثربولوجيا (علم السلالات البشرية أو الإنسان أو الأجناس)على أن اليهود ليسوا سلالة بني إسرائيل القدماء، ويثبتون بما لا شك فيه أنهم من أجناس أخرى غير الجنس الإسرائيلي، اعتنقوا الديانة اليهودية خلال العصور الماضية فعرفوا باليهود، دون أن يكون للدم دخل في تقرير يهوديتهم.

ومن أشهر علماء الأنثروبولوجيا الذين قرروا هذه الحقيقة اليهودى « فردريك هرتس» وهناك غيره من أكبر العلماء فى هذا الفن، أثبتوا هذه الحقيقة، التى أصبحت من البدهيات التى يحاول اليهود طمسها ليثبتوا دعاواهم الباطنة !

يقول العالم الأنثربولوجى « ربلى » فى كتابه« أجناس أوربا » وقد صدر قبل المشكلة الصهيونية:

« إن تسعة أعشار اليهود فى العالم يختلفون عن سلالة أجدادهم اختلافا واسعا ليس له نظير، وإن الزعم بأن اليهود جنس نقى حديث خرافة، ولقد أصاب « رينان » فى تأكيده بأن كلمة « يهودى » ليس لها معنى أنثربولوجى ، لا فى أوربا ولا فى حوض نهر الطونة على الأقل، وصدق الأستاذ « لمبروزو » فى ملاحظته بأن اليهود الحديثين هم أدنى إلى الجنس الآرى منهم إلى الجنس السامى».

ومن الثابت تاريخيا وواقعيا أن اليهود تشتتوا فى أقطار الأرض ومنهم من سكنوا أرض العرب والمسلمين التى تشكل بمساحتها وعدد سكانها أكبر أرض وأمة، وعاشوا بينهم فى أمن وسلام لم يجدوهما قط فى تاريخهم الطويل، بل لم يجدوهما فى دولة سليمان ، ولا فى ظل الدولة اليهودية!

يقول« برتراندرسل» أحد مشاهير العالم، وفيلسوف بريطانيا، فى كتابه« تاريخ الفلسفة الغربية » (١).

« كان المسلمون خلال العصور الوسطى أكثر مدنية وأرق قلبا من المسيحيين، فقد اضطهد المسيحيون اليهود، وبخاصة فى عهود الاضطراب الدينى ، وصاحبت الحروب مذابح مروعة، وذلك على نقيض ما كان اليهود فى البلاد الإسلامية، حيث لم يسىء أحد معاملة اليهود بأى معنى من معانى الإساءة»!

فاليهود عاشوا فى أمان فى دولة الإسلام فى جميع أقطارها، من الأندلس حتى ما وراء النهر، وفى كل البلدان العربية، ما عدا الحجاز ونجد وبعض أقطار الجزيرة العربية، فهم فى العراق وسورية ومصر وشمال أفريقية، واختلطوا بالسكان الأصليين، وامتزجوا بهم دما، كما اختلطوا دما بالقبائل التى تسمى القبائل البربرية وغيرها، ويسمى هؤلاء

---

(١) المرجـــع الســـابق: ٢٢ نقلا عن : تاريخ الفلسفة الغربية : ٢ : ١٨٦ ط العربية .

اليهود وهم «السفرديم» بلا خلاف مجموعة من دماء مختلفة، ومن عناصر متغايرة .

وهناك اليهود «الأشكينازيم» الألى كانوا ما قبل الميلاد بحوالى ثلاثة قرون فى حوض الراين الأعلى، وكان هؤلاء مجموعات كبيرة تفرعت منها مجموعات فى أقطار أوربا.

وإلى هؤلاء يعزى انتشار اليهودية فى أواسط أوربا، وبخاصة فى ألمانيا، وذلك قبل المسيحية ببضعة قرون،وهؤلاء ليسوا من السلالة الإسرائيلية القديمة.

وكتب العلامة «أوجين بتار» بحثا مطولا عن اليهود فى كتابه «الأجناس والتاريخ» وضمن بحثه العلمى ما انتهى إليه كثير من الباحثين الكبار ممن سبقوه، وكلهم أجمعوا على أن اليهود ليسوا من سلالة الإسرائيليين الأصليين، يقول:

«إن اليهود بعيدون عن الانتماء إلى الجنس اليهودى، وليس أصدق من حكم «رينان» الذى يقول: لا يوجد عنصر يهودى، وإنما توجد عناصر يهودية، ولا يمكننا اعتبار اليهود فى العصر الحاضر ممثلين لمجموعة جنسية متجانسة، حتى ولا اليهود القاطنين فى فلسطين؛ لأن الحركة الصهيونية جلبت إليها يهودا من مناطق مختلفة، واليهود ينتسبون ـ حقيقة ـ إلى تشكيلات دينية واجتماعية، تتداخل فيها أفراد تنتمى إلى عروق مختلفة فى كل الأزمان، واختلط هؤلاء المتهودون وشكلوا الجاليات اليهودية، فما العلاقة الجنسية بين يهود الحبشة واليهود الألمان من العنصر الجرمانى واليهود السود المسمين «بتاميل» فى الهند، أو اليهود الخزر الذين هم جد قريبين من العناصر التركية ؟

ومن المستحيل أن نعتبر اليهود الأوربيين الذين يسمون «أسبانيين» ذوى البشرة البيضاء والشعر الأشقر أو الكستنائى والعيون الفاتحة من سلالة الشعوب الإسرائيلية الأصيلة التى أقامت سابقا فى ضواحى نهر الأردن.

وإن مجموع الدراسات التى قام بها على اليهود أثبتت عدم تجانس هذه المجموعة الاجتماعية والدينية المعروفة باسم اليهود، وإن توزع اليهود الواسع فى أنحاء الكرة الأرضية يثبت لنا قابلية اليهود «للتأقلم» قابلية غير محدودة» .

وقال: «إن يهود روسيا يختلفون ـ حسب إحصاءات وتجارب العالم «فايسبرغ» كل الاختلاف عن يهود ألمانيا».

« وإن كلا من طائفتي « السفارديم» و « الإشكينازيم » تدعى أنها هى التى تمثل العنصر اليهودى بصورة أوضح، ولكن الإسرائيليين غالبا يعتبرون أن الطقوس الدينية المأخوذة عن طائفة « السفارديم » هى الأصح، ولا يهمنا أن يكون اعتقادهم على صواب أو خطأ، بقدر ما يهمنا أن ندرس صفاتهم الجنسية ونرى فى يهود أوربا الشرقية: تركيا ، اليونان ، البوسنة، بلغاريا .. إلخ عدداً كبيرا من اليهود الذين يعرفون باسم الأسبانيين ، والذين يدعون أنهم حفدة اليهود المطرودين من أسبانيا أثناء الاضطهادات الدينية فى سنة ١٤٩٢ كما أنهم يلقبون أنفسهم بلقب« موريسكوس»[١]. ويربو عددهم على ٣٠٠ ألف فرد بقليل ».

ويستنتج « بتيار » من دراسة العلماء اليهود الأسبانيين ، واليهود الروس وغيرهم أن المجموعة الاجتماعية التى تسمى باسم اليهود هى مجموعة غير متجانسة بصورة خاصة، كما ظهر له أن يهود آسيا الوسطى (بخارى، سمرقند، مرو، هرات) يمثلون فئات غير متجانسة بصورة واضحة... ويعتقد يهود القوقاز أنهم يمثلون الطبقة الإسرائيلية الشرفية، كما يعتقد الاعتقاد نفسه اليهود الأسبانيون المقيمون فى جزيرة البلقان.

ويذكر « ديبوى » الذى زار هؤلاء اليهود الذين يدعون أنهم أشراف أنهم يحتقرون يهود الغرب الذين لا تربطهم بهم إلا روابط اجتماعية ضئيلة؛ لأنهم يدعون أنهم وحدهم أحفاد اليهود المنقولين بهم إلا روابط اجتماعية ضئيلة، لأنهم يدعون وحدهم أحفاد اليهود المنقولين من البلاد اليهودية فى فلسطين، منذ منتصف القرن الثامن إلى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد على يد الآشوريين.

وينتقل « بتيار » إلى بحث يهود اليمن الذين هم من جماعة الإشكينازيم، ثم إلى يهود سوريا الذين أجريت التجارب عليهم فى دمشق وحلب، وهم يشكلون مجموعتين بعيدتين عن أن تكونا متشابهتين.

---

(١) يقول الأستاذ أنور الرفاعى فى موسوعته الفلسطينية المسماة « الأرض المقدسة » المجلد الأول، الجزء الثامن عشر : ٤١٥ » ونحن نرى أن هذا الاسم « موريسكوس » مشتق من الاسم الذى يطلق على سكان المغرب العربى بما يؤخذ دليلا آخر على تأثير اليهود بالصفات الجنسية التى عاشوا بها، ففيهم إذن دماء عربية وبربرية » يقول الأستاذ أحمد عطار : ولقد اعتمدنا على هذه الموسوعة فى الشواهد التى استشهدنا بها من كلام « بتار » و ربلى » و «هرتس» : اليهودية والصهيونية: ٢٤ هامش.

وينتهى « بتيار » من بحثه المستفيض إلى نتيجة هامة هى قوله: يظهر لنا أقل القراء معلومات يستطيع أن يستنتج من دراساتنا بأنه لا يوجد جنس يهودى بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، واليهود يشكلون مجموعة دينية واجتماعية عريقة جدا بالطبع، لكن معالمها غير متجانسة بصورة واضحة.

ويمكننا أن نتساءل: كم تحتوى كل مجموعة من المجموعات اليهودية فى العالم من اليهود المثاليين الذين ينتمون إلى الإسرائيليين الذين كانوا يقيمون فى جوار البحر الميت، والذين يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار؟

وكذلك نلاحظ أن الإثباتات تفتقر أولئك الذين هم ضد الساميين، ويريدون أن يضعوا جنسا يهوديا مقابل الأجناس المسيحية، فلا يوجد جنس مسيحى، كما لا يوجد جنس إسلامى، ولا يوجد أبدا جنس يهودى » (١).

يقول الأستاذ أحمد عطار: وننتهى من كل ما سبق إلى أن اليهودية ليست جنسا ولا دما ولا عرقا، بل هى ديانة، ولو كانت جنسا لاقتضى الأمر أن يكون كل يهودى ككل يهودى فى الخلقة، أو على الأقل يكون التشابه عظيما، بحيث تتفق الأشكال والسمات الخلْقية.

والفرق كبير جد كبير بين يهود اليمن ويهود المغرب ويهود القوقاز ويهود روسيا ويهود ألمانيا ويهود كل بلد أو قطر فى الخلْقة، وهو أمر لا جدال فيه، ولا يمكن أن يكون أبناء هذه الشعوب منتمين إلى سلالة واحدة إلا كان سكان « الإسكيمو» و « الفرنسيون » من أصل واحد، وهذا لا يزعمه عاقل!

ومما لا جدال فيه ولا شك أن اليهود من مختلفى الأجناس يختلفون فى الدم، فيهود كل قطر ينتمون إليه.

وننتهى من هذا إلى زوال دم إسرائيل من الوجود زوالا تاما، وما حدث لليهود من تشريد وتشتيت خلال أربعة آلاف سنة تقريبا ـ أو أقل من هذا الزمن ببضعة قرون ـ محا

---

(١) ملخص من كتاب « بيتيار » باللغة الفرنسية : الأجناس والتاريخ : ٤١٣ وما بعدها: موسوعة الأرض المقدسة: أنور الرفاعى.

الدم الإسرائيلى محوا تاما، ومن اليقين الثابت أن اليهود منذ عشرات القرون ليسوا من سلالة الإسرائيليين الذين كانوا مع موسى، ثم مع داود وسليمان ، بل هم عناصر مختلفة ينتمون إلى دماء بعدد أجناس بنى البشر.

الفصل الثانى

بين مصر وفلسطين

الهجرة إلى مصر ـ موسى وبنو إسرائيل ـ الخروج من مصر ـ قبائح فى الطريق : القبيحة الأولى ـ القبيحة الثانية ـ القبيحة الثالثة ـ القبيحة الرابعة ـ دروس فى التربية .

الهجـرة إلـى مصـر :

يرى بعض المؤرخين أن يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ هاجر بأهله من فلسطين إلى مصر حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد [1]، على أثر ما حاق بفلسطين من مجاعة، وما أصاب مراعيها من جدب وقحط وجفاف، وتفصيل ذلك أن أبناء يعقوب عليه السلام كانوا فى هذه الفترة يترددون على مصر لقصد التجارة، وطلب القوت، فتعرفوا على أخيهم يوسف عليه السلام، الذى كان فى ذلك الوقت أمينا على خزائن مصر، فأكرمهم وطلب منهم أن يحضروا جميعا ومعهم أبوهم يعقوب عليه السلام إلى أرض مصر، وكان عددهم ـ كما جاء فى سفر التكوين ـ ستا وستين نفسا سوى نسوة أولاده[2].

وقد أكرم يوسف عليه السلام مثوى أبيه وإخوته، ورقق لهم قلب ملك مصر فى ذلك الوقت، وطلب بنو إسرائيل من ملك مصر أن يسكنهم فى أرض جاسان ـ يقال: إن مكانها الآن « بلدة صفط الحنة » بمحافظة الشرقية بمصر ـ فاستجاب لهم ، وقال ليوسف ـ كما جاء فى سفر التكوين ـ أبوك وإخوتك جاءوا إليك أرض مصر، ففى أفضل أرضها أسكن أباك وإخوتك، ليكونوا فى أرض جاسان .. فأسكنَ يوسفُ أباه وإخوته وأعطاهم ملكا فى أرض مصر فى أفضل الأرض، وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه.. [3].

هذا ، وفى سورة يوسف[4] تصوير رائع لما حصل بينه وبين إخوته من أحداث، وفيها كذلك إشارة إلى هجرة يعقوب ببنيه إلى مصر.. فقد تضمنت فى نصفها الأول ما جرى بين يوسف وإخوته، من حسدهم له على منزلته عند أبيهم يعقوب عليه السلام، ومن إلقائهم له فى الجب، ثم مجيئهم إلى أبيهم عشاء يبكون:

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [5].

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم : ٤٠ بتصرف.
(٢) سفر التكوين : ٤٦.
(٣) سفر التكوير ٤٧.
(٤) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ١: ١١ وما بعدها بتصرف.
(٥) يوسف : ١٧ ـ ١٨.

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن إنقاذ إحدى القوافل التجارية ليوسف من الجب وبيعهم إياه لعزيز مصر بثمن بخس: دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين.

ثم حكت السورة ما جرى ليوسف عليه السلام مع امرأة العزيز، وكيف هددته بالسجن إذا لم يستجب لرغبتها، فقد حكى القرآن الكريم عنها أنها قالت:

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (١).

وهنا لجأ يوسف إلى ربه راجيا معونته:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٢).

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن دخول يوسف السجن، وعن تعليم الله إياه تعبير الرؤيا، وعن دعوته لصاحبى السجن إلى التوحيد الخالص، وعن تأويله لرؤيا الملك تأويلا صادقا ترتب عليه أن نجت مصر من مجاعة مهلكة، وأن استدعاه الملك وجعله على خزائن الأرض...

وقد ختمت هذه الأحداث التى حكتها الآيات ببيان سنة لا تتخلف من سنن الله، وهى أنه سبحانه لا يضيع أجر المحسنين، بل يمكن لهم فى الأرض، ويمنحهم الكثير من فضله ونعمه، قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ (٣).

هذا بإيجاز عرض سريع لما تضمنته سورة يوسف فى نصفها الأول من أحداث وعبر وتوجيهات..

---

(١) يوسف : ٣٢. (٢) يوسف : ٣٣ ـ ٣٤ .

(٣) يوسف : ٥٦ ـ ٥٧.

أما نصفها الأخير فمعظمه يدورالحديث فيه حول قدوم إخوة يوسف إليه، وتعرفه عليهم، ومحاوراته معهم فى شأن شقيقه الذى لم يحضر معهم، ثم احتجازه عنده بعد أن أحضروه معهم بحجة أنه سارق.. ثم إخباره إياهم عن نفسه، ودعوته لهم أن يأتوه إلى مصر بأهلهم أجمعين. وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١).

وبعد أن ذكرت الآيات ما دار بين يوسف وإخوته، وكيف أنه احتجز منهم أخاه وأبقاه عنده، بينت أن يعقوب عليه السلام أمر أولاده أن يذهبوا إلى أرض مصر ليعرفوا أخبار يوسف وأخيه، فقال تعالى حكاية عنه:

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢).

ثم بين القرآن الكريم ما جرى بين يوسف وإخوته فقال تعالى:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٣).

ثم حكى القرآن الكريم ما دار بين يوسف وإخوته:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾

---

(١) يوسف: ٥٨ ــ ٦٢. (٢) يوسف: ٨٧. (٣) يوسف: ٨٨.

قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) .

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك ما دار بين يوسف وأبيه وإخوته بعد أن وفدوا عليه بمصر من فلسطين، فقال تعالى:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢) .

وياله من مشهد! بعدكرّ الأعوام وانقضاء الأعوام(٣).. وبعد الألم والضيق.. وبعد الامتحان والابتلاء.. وبعد الشوق المضنى، والحزن الكامد، واللهف الظامىء الشديد.

يا له من مشهد حافل بالانفعال والخفقات والفرح والدموع!

وياله من مشهد ختامى موصول بمطلع القصة: ذلك فى ضمير الغيب، وهذا فى واقع الحياة، ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه.. وينزع نفسه من اللقاء والعناق، والفرحة والابتهاج، والجاه والسلطان، والرغد والأمان.. ليتجه إلى ربه فى تسبيح الشاكر الذاكر! كل دعوته ــ وهو فى أبّهة السلطان، وفى فرحة تحقيق الأحلام ــ أن يتوفاه ربه مسلما وأن يلحقه بالصالحين:

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) يوسف: ٨٩ ــ ٩٣ .

(٢) يوسف ٩٩ ــ ١٠٠ .

(٣) فى ظلال القرآن: ٤ / ٢٠٢٩ بتصرف .

(٤) يوسف: ١٠١ .

﴿ **رب قد آتيتنى من الملك** ﴾ .

آتيتنى منه سلطانه ومكانه وجاهه وماله.. فذلك من نعمة الدنيـا.

﴿ **وعلمتنى من تأويل الأحاديث** ﴾ .

بإدراك مآلاتها وتعبير رؤاها.. فذلك من نعمة العلم.

نعمتك يا ربِ أذكرها وأعدّدها:

﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ بكلمتك خلقتها وبيدك أمرها، ولك القدرة عليها وعلى أهلها:

﴿ **أنت وليّى فى الدنيا والآخرة** ﴾ .

فأنت الناصر المعين..

رب تلك نعمتك.. وهذه قدرتك.. رب إنى لا أسألك سلطانا ولا دنيا..

رب إنى أسألك ما هو أبقى وأغنى:

﴿ **توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين** ﴾.

وهكذا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء، وبهجة اجتماع الأهل،ولمة الإخوان..

إنه مشهد عبد يبتهل إلى ربه: أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه..

إنه النجاح المطلق فى الامتحان الأخير..

وعاش بنو إسرائيل بعد ذلك فى مصر آمنين، ودفعهم إلى المكث فيها ما اكتسبوه من خيرات، وما نالوه من أمن واستقرار بعد طول ترحال، ومجاعات حلت بهم قبل ذلك.

ويصف الدكتور أحمد بدوى علاقة المصريين ببنى إسرائيل فى تلك الفترة فيقول(١):

« من الثابت فى تاريخ مصر ــ بناء على ما جاء فى كتب السماء من ناحية، وما شهدت به

---

(١) فى موكب الشمس : ٢ : ٥٨٨ ــ ٥٨٩ بتصرف.

الآثار من ناحية أخرى ـ أن « العبرانيين » قد عرفوا مصر منذ أيام الدولة الوسطى على الأقل، جاؤوها أول الأمر لاجئين، يطلبون الرزق فى أرضها، ويلتمسون فيها وسائل العيش الناعم، والحياة السهلة الرضية بين أهلها الكرام. ثم جاؤوها أسارى فى ركاب فرعون، كلما عاد من حروبه فى أقاليم الشرق ظافرا منصورا. فينزلهم حول دور العبادة يخدمون فى أعمال البناء، ويعبدون أربابهم أحرارا، لم يكرههم أحد على قبول مذهب أو اعتناق دين، وتطيب لهم الإقامة فى مصر، وتستقيم لهم فيها أمور الحياة، ثم تنزل بالمصريين بعض الشدائد، وتحل بديارهم بعض المحن والنوائب، فيتنكر لهم بنو إسرائيل ويتربصون بهم الدوائر، ويعملون على إفقارهم، وإضعاف الروح المعنوية بين طبقات الشعب، ابتغاء السيطرة على وسائل العيش فى هذا القطر، ليفرضوا عليه سلطانهم ، تارة عن طريق الضغط الاقتصادى، وآخر عن طريق الدين والعقيدة ».

هذا، وقد ذكر القرآن الكريم فى كثير من آياته نماذج من العذاب الذى أنزله فرعون وجنده، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١).

وقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (٢).

موسى وبنو إسرائيل:

كما ذكر فى آيات كثيرة أن موسى طلب من فرعون أن يقلع عن إيذاء بنى إسرائيل، وأن يترك الكفر والغرور ويعبد الله وحده لا شريك له، قال تعالى:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٣).

(١) القصص: آية ٤. (٢) البقرة: ٤٩. (٣) الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٥.

وذكر أيضا أن الملأ من قوم فرعون طلبوا منه أن يزيد فى إيذاء بنى إسرائيل، وأن يحملهم على عبادة آلهتهم، فقال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [1].

الخروج من مصر:

وردت قصة خروج بنى إسرائيل من مصر إلى أرض الشام فى آيات كثيرة.. منها قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [2].

وفى سفر العدد :[3] إن موسى أحصى بنى إسرائيل عند الخروج من مصر فوجد حملة السلاح منهم يبلغون(٦٠٣٥٠٠) نسمة ومعنى هذا أن تعدادهم العام كان يزيد على المليون.

ويعلق أحد المؤرخين على قصة استلاب بنى إسرائيل لحلى المصريين عند خروجهم من مصر فيقول: ويلفت النظر خاصة ما جاء فى التوراة من سلب رجال ونساء بنى إسرائيل أمتعة جيرانهم الذهبية والفضية بحيلة الاستعارة، ونسبة ذلك إلى الله تعالى، ومهما كان من أمر فإن تسجيل هذا الخبر بهذا الأسلوب يدل على ما كان وظل يتحكم فى نفوس

---

(١) الأعراف: ١٢٧. (٢) طه: ٧٧ ـ ٨٢.

(٣) سفر العدد: الإصحاح الأول.

بنى إسرائيل من فكرة استحلال أموال الغير وسلبها بأية وسيلة، ولو لم تكن حالة حرب ودفاع عن النفس، كما أنه كان ذا أثر شديد ـ بدون ريب ـ فى رسوخ هذا الخلق العجيب فى ذراريهم، ثم مَنْ دخل فى دينهم من غير جنسهم»[1].

ويقول صاحب تاريخ الإسرائيليين : « وقد كان تاريخهم إلى وقت خروجهم من مصر، تاريخ أسرة صغيرة أخذت تنمو وتزداد حتى صارت قبيلة لا كيان لها ولا حكومة منها، ولا شارع أو وازع فيها ينظر فى أمورها، ويرد قويها عن ضعيفها، متفرقة فى أرض مصر، عرضة للعبودية والسخرة والاستعباد والإهانة، أما بعد الخروج فإنهم تألفوا شعبا واحدا، وأمة واحدة، لها قائدها من بنيها، وجيش يقوم على حمايتها، وحاكم يتولى أمورها وشئونها، وأخذت تبدو فيها صفات الأمة المستقلة، فإنها لم تكد تغادر مصر حتى بدأ الشارع فى سن النواميس والقوانين، والشرائع الدينية والأدبية والمدنية! كما تكون فى الأمة المستقلة القائمة بنفسها، وعليه فتاريخ الإسرائيليين لا يبتدئ إلا بعد خروجهم من مصر، وتاريخهم هذا يستغرق قرونا عديدة، اتفق لهم من خلالها كثير من الحوادث العادية من حروب وتقدم وانحطاط!»[2].

قبائح فى الطريق :

ولم يقدر بنو إسرائيل النعم الكثيرة، التى تفوق الحصر والعد.. ومنها نعمة الحرية.. ولم يشكروا الله على إنجائه لهم من عدوهم [3]، ولم يطيعوا نبيهم موسى الذى جاء لهدايتهم وإصلاحهم والدفاع عنهم، بل آذوه إيذاء شديدا، وهذه بعض القبائح المتنوعة التى صدرت عنهم وهم فى طريقهم معه من مصر إلى أرض الشام :

القبيحة الأولى :

بعد أن سار بهم موسى عليه السلام فى أرض سيناء فترة من الوقت، جاعلا وجهته أرض فلسطين من بلاد الشام، ثاروا عليه وعلى أخيه هارون عليهما السلام، وقالوا لموسى وهارون كما تحكى التوراة عنهم:

« ليتنا متنا فى مصر، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع، فإنكما

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم : ٤٣ . (٢) تاريخ الإسرائيليين : ١٥ ط المقتطفة ١٩٠٤م.

(٣) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١: ٢٦ وما بعدها بتصرف .

أخرجتمانا إلى هذا القفر، لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع.. لماذا أصعدتمانا من مصر؟ أمن أجل أن نموت نحن وأولادنا ومواشينا بالعطش..» (١).

وتحكى التوراة أن موسى عليه السلام ضاق بهم ذرعا ، لكثرة جهالاتهم، وسوء أعمالهم، وأنه تضرع إلى الله قائلا:

« رب! لم ابتليت عبدك، ووضعت أثقال هذا الشعب علىّ؟ وهل أنا الذى ولدتهم حتى تقول لى: احملهم فى حجرك كما تحمل الحاضن الرضيع، وإنى لست طائقا حمله وحدى؛ لأنه ثقيل علىّ، وإلا فاقتلنى ولا أرى بليتى ..»(٢).

القبيحة الثانية:

بعد أن رأى بنو إسرائيل غرق فرعون بأعينهم، وساروا مع موسى عليه السلام إلى بلاد الشام، شاهدوا قوما يعبدون أصناما لهم ، فما لبث بنو إسرائيل بعد مشاهدتهم لهؤلاء الوثنيين إلا أن قالوا لنبيهم موسى: اجعل لنا إلها، كما أن لهؤلاء أصناما، وذلك لأن الوثنية التى عاشوا فيها عالقة بنفوسهم الضعيفة ، وقد ذكر القرآن هذه الرذيلة منهم ، فقال تعالى :

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (٣).

إنها العدوى تصيب الأرواح كما تصيب الأجسام(٤)! ولكنها لا تصيبها حتى يكون لديها الاستعداد والتهيؤ والقابلية. وطبيعة بنى إسرائيل ـ كما عرضها القرآن الكريم عرضا صادقا دقيقا أمينا فى شتى المناسبات ـ طبيعة مخلخلة العزيمة، ضعيفة الروح، ما تكاد

(١) سفر الخروج : ١٦.
(٢) سفر الخروج: ١١.
(٣) الأعراف : ١٣٨ ـ ١٤١.
(٤) فى ظلال القرآن : ١٣٦٦:٣ بتصرف.

تهتدى حتى تضل وتنحرف وما تكاد ترتفع حتى تنحط وتنجرف، وما تكاد تمضى فى الطريق المستقيم حتى ترتكس وتنتكس.. ذلك إلى غلظ فى الكبد، وتصلب عن الحق، وقساوة فى الحس والشعور!

وهاهم أولاء على طبيعتهم تلك!

هاهم أولاء ما يكادون يمرون بقوم يعكفون على أصنام لهم حتى يَنْسَوا تعليم أكثر من عشرين عاما منذ أن جاءهم موسى عليه السلام بالتوحيد ـ كما تقول بعض الروايات ـ بل حتى يَنْسَوْا معجزة اللحظة التى انقذتهم من فرعون وملئه وأهلكت هؤلاء أجمعين!

وهؤلاء كانوا وثنيين، وباسم هذه الوثنية استذلوهم ـ كما سبق ـ حتى إن الملأ من قوم فرعون ليهيجونه على موسى ومن معه بقولهم:

﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾

ينسون هذا كله ليطلبوا إلى نبيهم: رسول العالمين ان يتخذ لهم بنفسه إلها كما أن لهؤلاء آلهة!

إنما هم بنو إسـرائيل!

ويغضب موسى عليه السلام .. يغضب موسى غضبة رسول رب العالمين ، لرب العالمين، ويغار على ألوهيته أن يشرك بها قومه! فيقول قولته التى تليق بهذا الطلب العجيب:

﴿ **قال: إنكم قوم تجهلـون** ﴾ .

ولم يقل تجهلون ماذا؟ ليكون فى إطلاق اللفظ ما يعنى الجهل الكامل الشامل!

الجهل من الجهالة التى هى ضد المعرفة!

والجهل من الحماقة التى هى ضد العقل!

فما ينبعث مثل هذا القول إلا من الجهالة والحمق إلى أبعد حدود الجهالة والحمق!

ثم ليشير إلى أن الانحراف عن التوحيد إلى الشرك إنما ينشأ من الجهل والحماقة، وأن العلم والتعقل يقود كلاهما إلى الله الواحد، وأنه ما من علم ولاعقل يقود إلى غيرهذا الطريق..

إن العلم والعقل يواجهان هذا الكون بنواميسه التى تشهد بوجود الخالق المدبر، وبوحدانية هذا الخالق المدبر. فعنصر التقدير والتدبير بارز فى هذه النواميس، وطابع الوحدة ظاهر كذلك فيها وفى آثارها التى يكشفها النظر والتدبر ـ وفق المنهج الصحيح ـ وما يغفل عن ذلك كله، أو يعرض عن ذلك كله، إلا الحمقى والجهال. ولو ادعوا « العلم » كما يدعيه الكثيرون!

ويمضى موسى عليه السلام يكشف لقومه عن سوء المغبة فيما يطلبون، بالكشف عن سوء عقبى القوم الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم، فأرادوا أن يقلدوهم:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

إن ما هم فيه من شرك، وعكوف على الآلهة، وحياة تقوم على هذا الشرك، وتعدد فيها الأرباب، ومن يقوم وراء الأرباب من السدنة والكهنة، ومن حكام يستمدون سلطانهم من هذا الخليط.. إلى آخر ما يتبع الانحراف عن الألوهية الواحدة من فساد فى التطورات وفساد فى الحياة!

إن هذا كله هالك باطل. ينتظره ما ينتظر كل باطل من الهلاك والدمار والبوار فى نهاية المطاف!

ثم ترتفع نغمة الغيرة فى كلمات موسى عليه السلام على ربه، والغضب له سبحانه، والتعجب من نسيان قومه لنعم الله عليهم وهى حاضرة ظاهرة:

﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

القبيحة الثالثة:

وخلال سير موسى بقومه فى صحراء سيناء إلى بلاد الشام كان مشهد تهيؤ موسى عليه السلام لهذا الموقف العظيم:

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (١).

---

(١) الأعراف: ١٤٣.

وموسى يعلم أن هارون نبى مرسل من ربه معه.. ولكن المسلم للمسلم ناصح.. والنصيحة حق وواجب على المسلم.. ثم إن موسى يقدر ثقل التبعة، وهو يعرف طبيعة قومه بني إسرائيل!

وقد تلقى هارون النصيحة. لم تثقل على نفسه! فالنصيحة إنما تثقل على نفوس الأشرار؛ لأنها تقيدهم بما يريدون أن ينطلقوا منه، وتثقل على نفوس المتكبرين الصغار، الذين يحسون فى النصيحة تنقصا لأقدارهم!

ثم يأتى مشهد ارتكاس بنى إسرائيل وانتكاسهم، وهم يتخذون لهم عجلا جسدا له خوار ــ لا حياة فيه ــ يعبدونه من دون الله:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (1).

إنها طبيعة بنى إسرائيل التى ما تكاد تستقيم خطوة حتى تلتوى عن الطريق، والتى ما تكاد ترتفع عن مدى الرؤية الحسية فى التصور والاعتقاد، والتى يسهل انتكاسها وارتكاسها!

لقد راودوا نبيهم من قبل أن يجعل لهم إلها يعكفون عليه بمجرد رؤيتهم لقوم وثنيين يعكفون على أصنام لهم! فصدهم موسى عن ذلك الخاطر ــ كما أسلفنا ــ وردهم ردا شديدا. فلما خَلَوْا إلى أنفسهم، ورأوا عجلا جسدا من الذهب ــ لا حياة فيه ــ صنعه لهم السامرى طاروا إليه، وتهافتوا عليه:

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89)

---

(1) الأعراف: 148.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ۝ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۝ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ (١).

لقد رجع موسى عليه السلام (٢) ليجد قومه عاكفين على عجل من الذهب له خوار! وراح يسألهم فى حزن وغضب:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾

وقد وعدهم الله بدخول الأرض المقدسة فى ظل التوحيد، ولم يمض على هذا الوعد وإنجاز مقدماته طويل وقت، ويؤنبهم فى استنكار:

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

فعملكم هذا عمل من يريد أن يحل عليه غضب من الله، كأنما يتعمد ذلك تعمدا، ويقصد إليه قصدا! أفطال عليكم ذلك العهد؟ أم تعمدتم حلول الغضب؟

﴿**فأخلفتم موعدى**﴾ .

وقد تواعدنا على أن تبقوا على هدى حتى أعود إليكم، لا تغيرون فى عقيدتكم ولا فى منهجكم بغير أمرى ؟

عندئذ يعتذرون بذلك العذر العجيب، الذى يكشف عن أثر الاستعباد الطويل، والتخلخل النفسى، والسُّخْف العقلى:

---

(١) طه: ٨٦ ـ ٩٨ . (٢) المرجع السابق : ٤: ٢٣٤٧ بتصرف.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾

فلقد كان الأمر أكبر من طاقتنا!

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا﴾

وقد حملوا معهم ـ كما أسلفنا ـ أكداسا من حلى المصريات! فهم يشيرون إلى هذه الأحمال. فأخذها السامرى فصاغ منها عجلا جعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتا كصوت الخوار، ولا حياة فيه ولا روح، فهو جسد، وما كادوا يرونه هكذا حتى نَسُوا ربهم الذى أنقذهم من أرض الذل، وعكفوا على عجل الذهب، وفى بلاهة فكر وبلادة روح قالوا:

﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾

راح يبحث عنه على الجبل، وهو هنا معنا، وقد نسى موسى الطريق إلى ربه وضل عنه!

وهى قولة تضيف إلى معنى البلادة والتفاهة اتهامهم لنبيهم الذى أنقذهم تحت عين الله وسمعه، وبتوجيهه وإرشاده.. اتهامهم له بأنه غير موصول بربه، حتى ليضل الطريق إليه، فلا هو يهتدى ولا ربه يهديه!

ذلك فضلا عن وضوح الخدعة:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾

والمقصود أنه حتى لم يكن عجلا حيا يسمع قولهم ويستجيب له، على عادة العجول البقرية! فهو فى درجة أقل من الحيوانية! وهو بطبيعة الحال لا يملك لهم ضرا ولا نفعا فى أبسط صورة! فهو لا ينطح ولا يرفس ولا يدير طاحونة ولا ساقية!

وغير ذلك كله لقد نصح لهم هارون، وهو نبيهم كذلك، والنائب عن نبيهم المنقذ. ونبههم إلى أن هذا ابتلاء. قال:

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾

ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى، وهو عائد إليهم بعد ميعاده مع

ربه.. ولكنهم بدلا من الاستجابة له التووا وتملصوا من نصحه ، ومن عهدهم لنبيهم بطاعته،وقالوا:

﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾

ورجع موسى إلى قومه غضبان أسفا، فسمع منهم حجتهم التى تكشف عن مدى ما أصاب نفوسهم من تخلخل، وأصاب تفكيرهم من فساد.. فالتفت إلى أخيه وهو فى فورة الغضب، يأخذ بشعر رأسه وبلحيته في انفعال وثورة:

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾

يؤنبه على تركهم يعبدون العجل، دون أن يبطل عبادته، اتباعا لأمر موسى عليه السلام بألا يحدث أمرا بعده، لا يسمح بإحداث أمر. ويستنكر عليه عدم تنفيذ، فهل كان ذلك عصيانا لأمره؟

وقد قرر السياق ما كان من موقف هارون. فهو يطلع أخاه عليه، محاولا أن يهدئ من غضبه باستجاشة عاطفة الرحم فى نفسه:

﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

وهكذا نجد هارون يلمس فى المشاعر نقطة حساسة.. ويجيء من ناحية الرحم، وهى أشد حساسية، ويعرض وجهة نظره فى صورة الطاعة لأمره حسب تقديره، وأنه خشى إن هو عالج الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعا، بعضها مع العجل، وبعضها مع نصيحة هارون. وقد أمره أن يحافظ على بنى إسرائيل ولا يحدث فيهم أمرا. فهى كذلك طاعة الأمر من ناحية أخرى.

عندئذ يتجه موسى بغضبه وانفعاله إلى السامرى صاحب الفتنة من أساسها. إنما لم يتوجه إليه منذ البدء؛ لأن القوم هم المسئولون ألا يتبعوا كل ناعق، وهارون هو المسئول أن يحول بينهم وبين اتباعه إذا هموا بذلك، وهو قائدهم المؤتمن عليهم. فأما السامرى فذنبه يجيء متأخرا؛ لأنه لم يفتنهم بالقوة، ولم يضرب على عقولهم، إنما أغواهم فغووا، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الأول، ونصح نبيهم الثانى. فالتبعة عليهم أولا، وعلى

راعيهم بعد ذلك، ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيرا.

واتجه موسى إلى السامرى:

﴿ قال فما خطبك يا سامرى؟ قال: بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى. قال: فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا. إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما ﴾.

القبيحة الرابعة:

بعد كل هذه الأحداث والإساءات من بنى إسرائيل(١)، واصل بهم موسى عليه السلام سيره إلى أرض الشام، وقبل أن يصل بهم إلى الأرض المقدسة التى كان يسكنها الكنعانيون الجبابرة، أمرهم أن يُعِدُّوا أنفسهم لدخولها، وأن يُوَطِّنوها على القتال، واختار منهم اثنى عشر نقيبا.. ولكنهم جبنوا كما هو شأنهم، ومزقهم الجبن شر ممزق، حتى قالوا ما قالوا فى وقاحة! وهناك رجلان من الذين يخافون سجل القرآن موقفهما، فكانت النتيجة لجبنهم وعصيانهم ووقاحتهم أن ابتلاهم الله بالتيه أربعين سنة، وقد سجل القرآن الكريم هذه القصة، فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ١ ـ ٣١ بتصرف.

وَأَخِي فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١).

ونلمح فى كلمات موسى عليه السلام إشفاقه من تردد القوم ونكوصهم على الأعقاب(٢). فلقد جربهم من قبل فى « مواطن كثيرة» فى خط سير الرحلة الطويل.. جربهم وقد أخرجهم من مصر، وحررهم من الذل والهوان، باسم الله وبسلطان الله الذى فرَق لهم البحر، وأغرق فرعون وجنده..

وقد سبق ذكر بعض القبائح التى حدثت منهم قبل ذلك.. ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة.. أرض الميعاد التى من أجلها خرجوا.. الأرض التى وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكا، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها، ليظلوا فى رعاية الله..

لقد جربهم فحق له أن يشفق، وهو يدعوهم دعوته تلك، فيحشد فيها ألمع الذكريات، وأكبر البشريات، وأضخم المشجعات، وأشد التحذيرات:

﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ .

نعمة الله.. ووعده الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء، ويجعلهم ملوكا.. وإيتاءه لهم بهذا وذلك ما لم يؤت أحدا من العالمين، حتى ذلك التاريخ.. والأرض المقدسة التى هم مقدمون مقدمون عليها مكتوبه لهم بوعد الله..فهى إذن يقين.. وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده.. وهذا وعده الذى هم عليه قادمون.. والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين .

ولكن اليهود هم اليهود! الجبن والتمحل والنكوص على الأعقاب ونقض الميثاق!

---

(١) المائدة : ٢٠ ـ ٢٦.

(٢) فى ظلال القرآن: ٢: ٨٦٩ بتصرف.

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾

إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجمل! ذلك أنهم أمام الخطر، فلا بقية إذن من تجمل، ولا محاولة إذن للتشجع، ولا مجال كذلك للتمحل! إن الخطر ماثل قريب، ومن ثم لا يعصمهم منه ولا هذا الوعد بأنهم أصحاب هذه الأرض، وأن الله كتبها لهم، فهم يريدونه نصرا رخيصا، لا ثمن له، ولا جهد فيه.. يريدونه نصرا مريحا يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى!

ولكن تكاليف النصر ليست هكذا كما تريدها يهود! وهى فارغة القلوب من الإيمان!

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

هنا تبرز قيمة الإيمان بالله، والخوف منه.. فهذان رجلان من الذين يخافون الله، ينشىء لهما الخوف من الله استهانة الجبارين، ويمنحهما شجاعة فى وجه الخطر الموهوم! وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان فى ساعة الشدة، وقيمة الخوف من الله فى مواطن الخوف من الناس. فالله سبحانه لا يجمع فى قلب واحد بين مخافتين: مخافته جل جلاله، ومخافته الناس.. والذى يخاف الله لا يخاف أحدا بعده، ولا يخاف شيئا سواه..

﴿ ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ .

قاعدة فى علم القلوب وفى علم الحروب.. أقدموا واقتحموا. فمتى دخلتم على القوم فى عقر دارهم انكسرت قلوبهم بقدر ما تقوى قلوبكم، وأحسوا بالهزيمة فى أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم:

﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ .

فعلى الله وحده يتوكل المؤمن.. وهذه هى خاصية الإيمان وعلامته، وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه.. ولكن لمن يقولان هذا الكلام؟ لبنى إسرائيل؟!

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾

وهكذا يحرج الجبناء فيتوقحون، ويفزعون من الخطر أمامهم فيرفسون بأرجلهم كالحمُر ولا يُقْدِمون! والجبن والتوقح ليسا متناقضين ولا متباعدين، بل إنهما لصنوان فى كثير من الأحيان.. يُدفع الجبان إلى الواجب فيَجبن. فيُحرج بأنه ناكل عن الواجب، فيسب هذا الواجب، ويتوقح على دعوته التى تكلفه ما لا يريد!

﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾!

هكذا فى وقاحة العاجز، الذى لا تكلفه وقاحة اللسان إلا أن يمد اللسان! أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان!

فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال!

إنهم لا يريدون مُلكا،ولا يريدون عزا، ولا يريدون أرض الميعاد.. ودونها لقاء الجبارين!

هذه هى نهاية المطاف بموسى عليه السلام.. نهاية الجهد الجهيد، والسفر الطويل، واحتمال الرذالات والانحرافات والالتواءات من بنى إسرائيل!

نعم، ها هى ذى نهاية المطاف.. النكوص عن الأرض المقدسة، وهو معهم على أبوابها.. والنكول عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق.. فماذا يصنع؟ وبمن يستجير؟

﴿ قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ .

دعوة فيها الألم، وفيها الالتجاء، وفيها الاستسلام، وفيها بعد ذلك المفاصلة والحسم والتصميم!

وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه.. ولكن موسى فى ضعف الإنسان المخذول، وفى إيمان النبى الكليم، وفى عزم المؤمن المستقيم، لا يجد متوجها إلا لله، يشكو له بثه ونجواه، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين. فما يربطه بهم شىء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق..

ما يربطه بهم نسب..

وما يربطه بهم تاريخ..

وما يربطه بهم جهد سابق..

إنما تربطه بهم هذه الدعوة إلى الله، وهذا الميثاق مع الله..

وقد كان هذا موقفهم، فانبت ما بينه وبينهم إلى الأعماق..

وما عاد يربطه بهم رباط!

إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون!

إنه مستمسك بميثاق اللّه، وهم ناكصون!

هذا هو أدب النبى.. وهذه هى خطة المؤمن.. وهذه هى الآصرة التى يجتمع عليها أو يتفرق المؤمنون.. لا جنس.. لا نسب.. لا قوم..لا لغة.. لا تاريخ.. لا وشيجة من وشائج الأرض، إذا انقطعت وشيجة العقيدة، وإذا اختلف المنهج والطريق..

واستجاب الله لنبيه. وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين:

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

دروس فى التربية:

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس ـ مما قصه القرآن الكريم عليهم من القصص ـ فحين واجهوا الشدة، وهم قلة أمام نفير قريش، قالوا فيما يرويه البخارى عن طارق بن شهاب، قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحِبَهُ أحبُّ إلىَّ مما عُدِل به: أتى النبى ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال موسى: « اذهب أنت وربك فقاتلا » ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك. فرأيت النبى ﷺ أشرق وجهُه وسرَّه، يعنى قوله(١).

وكانت هذه بعض آثارالمنهج القرآنى فى التربية بالقصص عامة، وبعض جوانب حكمة الله فى تفصيل قصة بنى إسرائيل الذين هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب فى المدينة وفى الجزيرة العربية كلها. فقد كانوا حربا على

---

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٣٩٥٢) ، ورواه أحمد : ٥: ٢٥٩ (٣٦٩٨) تحقيق أحمد شاكر.

الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول!

وهم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين فى المدينة، وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين معا!

وهم الذين حرضوا المشركين وواعدوهم وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة!

وهم الذين تولّوا حرب الإشاعات والدس والكيد فى الصف المسلم، كما تولّوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة!

وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم فى الحرب المعلنة الصريحة. فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة، لتعرف من هم أعداؤها. ما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما حقيقة المعركة التى تخوضها معهم؟

ولقد علم الله أنهم سيكونون أعداء هذه الأمة فى تاريخها كله، كما كانوا أعداء هدى الله فى ماضيهم كله. فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفا، ووسائلهم كلها مكشوفة!

ومن جوانب هذه الحكمة أن بنى إسرائيل هم أصحاب آخر رسالة قبل الرسالة الأخيرة. وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة من التاريخ طويلة، ووقعت الانحرافات فى عقيدتهم ــ كما سبق وكما سيأتى ــ ووقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم، ووقعت فى حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف.. وفى أخلاقهم وتقاليدهم.. فاقتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة ــ وهى وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها ــ بتاريخ القوم، وتقلبات هذا التاريخ، وتعرف مزالق الطريق، وعواقبها ممثلة فى حياة بنى إسرائيل وأخلاقهم .. لتضم هذه التجربة فى حقل العقيدة والحياة إلى حصيلة تجاربها، وتنتفع بهذا الرصيد على مدار القرون. ولتتقى بصفة خاصة مزالق الطريق، ومداخل الشيطان، وبوادر الانحراف، على هدى التجارب الأولى.

ومن جوانب هذه الحكمة: أن تجربة بنى إسرائيل ذات صحائف شتى فى المدى الطويل.. وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها، وتنحرف أجيالها منها، وأن الأمة المسلمة التى سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة، ستصادفها فترات تمثل فيها فترات من حياة بنى إسرائيل، فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجددى الدعوة فى أجيالها

الكثيرة، نماذج من العقابيل التى تلم بالأمم، يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته.. ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هى القلوب التى عرفت ثم انحرفت! فالقلوب الغفل أقرب إلى الاستجابة؛ لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزها، وينفض عنها الركام، لجدته عليها، وانبهارها بهذا الجديد الذى يطرق فطرتها لأول مرة. فأما القلوب التى نوديت من قبل، فالنداء الثانى لا تكون له جدته، ولا تكون له هزته، ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجديته، ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف، وإلى الصبر الطويل!

وجوانب شتى لحكمة الله فى تفصيل قصة بنى إسرائيل، وعرضها مفصلة على الأمة المسلمة وارثة العقيدة والدين، القوَّامة على البشر أجمعين.. نعرض لها فى حينها بعون الله وتوفيقه..

الفصل الثالث

فى الأرض المقدسة

قتل وإبادة ـ عهد القضاة ـ من أسوأ عهودهم ـ من أخلاق يهود ـ عهد الملوك ـ طالوت ـ إنهم يهود ـ قصة التابوت ـ قيادة وجنود ـ معالم فى الطريق ـ عهد الانقسام وزوال ملك بنى إسرائيل ـ اليهود بعد سقوط إسرائيل ويهوذا.

قتـــل وإبـــادة:

وبعد وفاة موسى عليه الســـلام، عبر « يوشع » ببنى إسـرائيل ـ كما تحكى التوراة ـ نهر الأردن إلى الأرض المقدسة، وأول مدينة استطاع « يوشع» ومن معه أن يدخلوها هى مدينة « أريحا »، ثم زحف إلى مدينة «العى» التى هى بين « نابلس » و«القدس» من ناحية الشرق، وأن بنى إسرائيل بعد أن دخلوا هاتين المدينتين قتلوا معظم سكانها، ثم صلبوا ملك« العى » على باب المدينة!

ثم حكت التوراة بعد ذلك قصة انتصار« يوشع » ومن معه من بنى إسـرائيل على الكنعانيين ـ الذين كانوا يسكنون فلسطين فى ذلك الوقت ـ وكيف أن بنى إسـرائيل كانوا يقتلون رجال ونساء وأطفال المدينة التى تقع فى أيديهم بأمر الرب!

ففى الإصحاح العاشر من سفر« يشوع » هذه العبارة : «إن « يشوع» ضرب جميع أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وجميع ملوكها وأبسل ـ أهلك ـ كل نسمة كما أمر الرب، ولم يبق باقية منهم، فضربهم من« قادش » إلى «غزة» وانتصر عليهم؛ لأن الرب كان يحارب مع إسـرائيل ».

ويصف صاحب« قصة الحضارة » ما فعله بنو إسرائيل بالكنعانيين فيقول:

« كانت هزيمة العبرانيين للكنعانيين مثلاواضحا لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين، وقد قتل العبرانيون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم، وسبوا من بقى من نسائهم، وجرت دماء القتلى أنهارا، وكان هذا القتال ـ كما تقول نصوص الكتاب المقدس ـ فريضة الشريعة التى أمر بها الرب موسى، وزكاة للرب، ولما استولوا على إحدى المدن قتلوا من أهلها اثنى عشر ألفا، وأحرقوها وصلبوا حاكمها، ولسنا نعرف فى تاريخ الحروب مثل هذا الإسـراف فى القتل والاستمتاع به.. وقد أقام« يوشع » حكمه على قانون الطبيعة الذى يقول« إن أكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حيا » وبهذه الطريقة التى لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة»(١).

وقد قسم « يوشع » الأرض التى استولى عليها من الكنعانيين بين الأسباط، واحتوت الإصحاحات من الثالث عشر إلى التاسع عشر من سفر « يوشع » أسماء المدن والحدود

---

(١) قصة الحضارة: ٢ : ٣٢٦ لديورانت .

التى كانت من نصيب كل سبط، على أن الإصحاحات تفيد أن مناطقا ومدنا قد بقيت فى حوزة سكانها، ولم يستول عليها بنو إسرائيل إلا بعد موت «يوشع»، بل ومنها من لم يستول عليه بنو إسرائيل، ولم يصبح موطنا لهم قط، كالجزء الجنوبى من فلسطين.

وقد جاء فى الإصحاح الرابع والعشرين من سفر « يوشع » أنه مات بعد أن بلغ من العمر مائة وعشرين سنة، ودفن فى أرض ميراثه فى جبل « إفرائيم» قرب نابلس اليوم(١).

ويصف الدكتور على عبد الواحد وافى كيفية دخول بنى إسرائيل فلسطين بقيادة «يوشع » وكيفية حياتهم فيها فيقول:

وحوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أغار بنو إسرائيل بقيادة « يوشع » خليفة موسى عليه السلام بعد وفاته، على بلاد كنعان ـ فلسطين، وما إليها، وهى الأرض المقدسة التى وعدهم الله بها ـ واحتلوها واستولوا على جميع ما فيها من خيرات وثروات، بعد أن أبادوا معظم أهلها، واستعبدوا من أبقوا عليه منهم، فانتهت لديهم بذلك حياة الخشونة والبداوة والتنقل، وافتتحوا عهد الدعة والحضارة والاستقرار، وسكنوا المدن والقرى والمنازل والقصور التى ورثوها عن الكنعانيين، وأخذت مزاولتهم لشئون دينهم تسير على طريق منظم تحت إشراف أحبارهم وربانييهم وفقهائهم وسدنة مساجدهم ومذابحهم، وكان معظم هؤلاء يتألفون من نسل لاوى أحد أبناء يعقوب، وهم رهط موسى وهارون(٢).

وقد أشار القرآن الكريم إلى دخول بنى إسرائيل الأرض المقدسة ـ كما يقول ابن كثير ـ(٣) فى تفسير قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ (٤).

يقول تعالى لائما لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم: ٧٧ بتصرف.
(٢) الأسفار المقدسة: ٨ط نهضة مصر .
(٣) تفسير ابن كثير: ١ : ٩٨ بتصرف .
(٤) البقرة: ٥٨ ـ ٥٩.

بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام، فأمروا بدخول الأرض المقدسة، التى هى ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقتال من فيها من العماليق الكفرة، فَنَكَلُوا عن قتالهم، وضعُفوا واستحسروا، فرماهم الله فى التّيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى فى سورة المائدة ـ التى عرضنا لها من قبل ـ ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هى بيت المقدس، كما نص على ذلك السدى والربيع بن أنس وقتادة وأبو مسلم الأصفهانى وغير واحد، وقد قال الله تعالى حاكيا عن موسى:

﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ ﴾ ... الآيات.

وقال آخرون: هى أريحاء، ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد، وهذا بعيد؛ لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر، حكاه الرازى فى تفسيره، والصحيح الأول أنها بيت المقدس، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع « يوشع » بن نون، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب سجدا، شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وإنقاذهم من التيه والضلال..

والسياق القرآنى يواجههم[1]بهذا الحادث فى تاريخهم، وقد كان مما وقع بعد الفترة التى يدور عنها الحديث هنا ـ وهى عهد موسى ـ ذلك أنه يعتبر تاريخهم كله وحدة، قديمه كحديثه، ووسطه كطرفيه.. كله مخالفة وتمرد وعصيان وانحراف!

وأيا كان هذا الحادث، فقد كان القرآن يخاطبهم بأمر يعرفونه، ويذكرهم بحادث يعلمونه.. فلقد نصرهم الله فدخلوا القرية المعينة، وأمرهم أن يدخلوها فى هيئة خشوع وخضوع، وأن يدعوا الله ليغفر لهم ويحط عنهم، ووعدهم أن يغفر لهم خطاياهم، وأن يزيد المحسنين من فضله ونعمته. فخالفوا عن هذا كله كعادة يهود!

﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم ﴾ .

ويخص الذين ظلموا بالذكر. إما لأنهم كانوا فريقا منهم، وإما لتقرير الظلم لهم جميعا.

---

(١) فى ظلال القرآن: ١ / ٧٣ بتصرف.

﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ .

والرجز: العذاب. والفسوق: المخالفة والخروج.. وكانت هذه واحدة من أفاعيل بنى إسرائيل !

عهد القضاة:

وأعقب موت « يوشع »عهد عرف باسم « عهد القضاة » يقول صاحب تاريخ الإسرائيليين: « كانت البلاد فى « عهد القضاة » أشبه شىء بولايات متحدة، فى كل ولاية سبط من الأسباط الاثنى عشر، يحكمه كبار العشائر، وهذه الأسباط جميعا مرتبطة برباط واحد.. وكانوا يشتركون فى الحفلات الدينية الكبرى، على أنهم كثيرا ما ارتدوا عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام، وفى التوراة« إن ذلك كان سببا فى تسلط الأجانب عليهم، فكان لهم من قضاتهم هؤلاء قواد يَلُمُّون شَعَثَهُم، ويجمعون شملهم، ولم يكن لهؤلاء القضاة شىء من امتيازات الملوك ولا أُبَّهتهم.. ومن القضاة من انحصر عمله فى رد غارة أو دفع عدو، ومنهم من تولى الحكم طول حياته لحكمته وخبرته.. (١).

ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة: « وحساب سفر القضاة يجعل حقبة القضاء نحو أربعمائة سنة، مع أنها قد لا تزيد عن المائة، إذا ما لاحظنا أن المُلك الرسمى لبنى إسرائيل قام فى أواسط القرن الحادى عشر ـ حوالى سنة ١٠٣٠ ق م ـ وأن بنى إسرائيل خرجوا من مصر فى أواخر القرن الثالث عشر ـ حوالى ١٢١٠ ق م ـ وأن زعامة موسى ويشوع من بعده استمرت نحو ثمانين سنة، وهذا الرقم ـ وهو الأربعمائة ـ من مبالغات سفر القضاة، شأنه شأن الأسفار الأخرى فى الأرقام» (٢).

من أسوأ عهودهم:

والذى يقرأ سفر القضاة يستخلص منه أن عهد القضاة من أسوأ عهود بنى إسرائيل، ففى «الإصحاح الثانى» من هذا السفر عرض إجمالى لسيرتهم فى هذا العهد حيث يقول: « ونشأ بعدهم ـ أى من بعد يوشع وأتباعه ـ جيل آخرلا يعرف الرب، ولا ماصنع لإسرائيل، ففعل بنو إسرائيل الشر فى أعين الرب، وعبدوا البعليم، وتركوا الرب إله آبائهم الذى أخرجهم من مصر، وتبعوا آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم، وسجدوا لها

(١) تاريخ الإسرائيليين : ١٩ بتصرف.

(٢) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم: ٨٢.

وأسخطوا الرب.. فغضب الرب على إسرائيل، فدفعهم إلى أيدى المنتهبين فانتهبوهم، وباعهم إلى أيدى أعدائهم الذين حولهم، ولم يقدروا بعد أن يثبتوا فى وجوه أعدائهم. فكانوا حيثما خرجوا تكون يد الرب عليهم للشر، كما قال الرب، وكما أقسم، فضاق بهم الأمر جدا.. »(١).

من أخلاق يهود:

وهنا نقرأ قول الحق تبارك وتعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ (٢).

ومعنى الآية ــ كما جاء فى المنار ــ أى خلف من بعد أولئك الذين كان فيهم الصالح والطالح، والبر والفاجر، خلْف سوء وبدل شر، قيل: إن الخلْف ــ بسكون اللام ــ يغلب فى الأشرار، وإنما يقال فى الأخبار خلَف ــ بالتحريك ــ كسلف « ورثوا الكتاب »الذى هو التوراة عنهم، وقامت الحجة به عليهم (٣).

وصفة هذا الخلْف الذى جاء بعد ذلك السلف من قوم موسى(٤) : أنهم ورثوا الكتاب ودرسوه.. ولكنهم لم يتكيفوا به، ولم تتأثر به قلوبهم، ولم ينتفعوا به فى سلوكهم.. شأن العقيدة حين تتحول إلى ثقافة تدرس، وعلم يحفظ.. وكلما رأوا عرضا من أعراض الحياة الدنيا تهافتوا عليه، ثم تأولوا وقالوا: « سيغفر لنا » وهكذا كلما عرض لهم من أعراض الدنيا جديد تهافتوا عليه من جديد!

ويسأل سؤال استنكار:

﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾

(١) سفر القضاة: ٢ .
(٢) الأعراف: ١٦٩.
(٣) تفسير المنار: ٩ : ٣٨٢.
(٤) فى ظلال القرآن : ٣ : ١٣٨٧ بتصرف .

ألم يؤخذ عليهم ميثاق الله فى الكتاب ألا يتأولوا ولا يحتالوا على النصوص، وألا يخبروا عن الله إلا بالحق؟ فما بالهم يقولون: « سيغفر لنا» ويتهافتون على أعراض الحياة الدنيا؟ ويبررون لأنفسهم هذا بالتقول على الله وتأكيد غفرانه لهم، وهم يعلمون أن الله إنما يغفر لمن يتوبون حقا، ويقلعون عن المعصية فعلا، وليس هذا حالهم، فهم يعودون كلما رأوا عرضا من أعراض الحياة الدنيا! وهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه!

بلى! ولكن الدراسة لا تجدى ما لم تخالط القلوب.. وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيد! إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا، ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التى تنيلهم عرض الحياة الدنيا!

وهل آفة أشد من آفة الذين يدرسون الدين دراسة، ولا يأخذونه عقيدة، ولا يتقون الله ولا يرهبونه؟!

﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ؟﴾ .

نعم! إنها الدارالآخرة! إن وزنها فى قلوب الذين يتقون هو وحده الذى يرجح الكفة، وهو وحده الذى يعصم من فتنة العرض الأدنى القريب فى هذه الدنيا..

نعم! إنها هى التى لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها، ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها ..

وإلا فما الذى يعدل فى النفس البشرية الرغبة الملحة فى حيازة كل عرض يلوح لها من أعراض هذه الأرض؟!

وما الذى يحجزها عن الطمع ويكفها عن البغى؟

وما الذى يهدىء فيها هياج الرغائب وسعار الشهوات وجنون المطامع؟

وما الذى يطمئنها فى صراع الحياة الدنيا على النصيب الذى لا يضيع بفوات الحياة الدنيا؟

وما الذى يثبتها فى المعركة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وأعراض الأرض تفِرّ من بين يديها وتنأى! والشر يتبجح والباطل يطغى؟!

لا شيء يثبت على الغِيَر والأحداث وتقلبات الأحوال فى هذا الخضم الهائج، وفى هذه المعركة الكبرى، إلا اليقين فى الآخرة، وأنها خير للذين يتقون، ويعفُون، ويترفّعون، ويثْبُتون على الحق والخير فى وجه الزعازع والأعاصير والفتن، ويمضون فى الطريق لا يلتفتون.. مطمئنين واثقين، ملء قلوبهم اليقين..

وهذه الدار الآخرة غيب من الغيب الذى يريد دعاة الإلحاد أن يُلْغُوه من قلوبنا ومن عقيدتنا ومن حياتنا، ويُحِلّوا محله تصورا كافرا جاهلا مطموسا!

ومن أجل هذه المحاولة البائسة تفسد الحياة، وتفسد النفوس، وينطلق السعار المجنون الذى لا يكبحه إلا ذلك اليقين.. ينطلق سعار الرشوة والفساد والطمع.. وينتشر داء الإهمال وقلة المبالاة والخيانة فى كل مجال.. وتلك أخلاق يهود!.

إن ما يناقض « الغيبية » جهالة من جهالات القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر!

جهالة يرجع عنها« العلم البشرى » ذاته، ولا يبقى يرددها فى القرن العشرين إلا الجهال!

جهالة تناقض فطرة« الإنسان » ومن ثم تفسد« الحياة » ذلك الإفساد الذى يهدد البشرية بالدمار!

ولكنه المخطط الصهيونى الرهيب الرعيب، الذى يريد أن يسلب البشرية كلها قوام حياتها وصلاحها، ليسهل تطويعها لضلالات صهيون فى نهاية المطاف! والذى تردده الببغاوات هنا وهناك، بينما الأوضاع التى أقامتها الصهيونية وكفلتها فى أنحاء الأرض تمضى عن علم فى تنفيذ المخطط الرهيب الرعيب هنا وهناك!

ولأن قضية الآخرة وقضية التقوى قضيتان أساسيتان فى العقيدة وفى الحياة، يحيل السياق القرآنى المخاطبين الذين يتهافتون على عرض هذا الأدنى.. عرض الحياة الدنيا.. إلى العقل:

﴿ **والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ؟** ﴾.

ولو كان العقل هو الذى يحكم لا الهوى .. ولو كان العلم الحق هو الذى يقضى لا الجهالة التى تسمى العلم.. لكانت الدار الآخرة خيرا من عرض هذا الأدنى.. ولكانت التقوى زادا للدين والدنيا جميعا:

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١).

وهو تعريض بالذين أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه، ثم هم لا يتمسكون بالكتاب الذى درسوه، ولا يعلمون به، ولا يُحكِّمونه فى تصوراتهم وحركاتهم، ولا فى سلوكهم وحياتهم.. غير أن الآية تبقى - من وراء ذلك التعريض - مطلقة، تعطى مدلولها كاملا، لكل جيل، ولكل قبيل، ولكل حالة..

إن الصيغة اللفظية: «يمسّكون» تصور مدلولا يكاد يُحَسُّ ويُرى.. إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة.. إنها الصورة التى يحب الله أن يؤخذ بها كتابه.. فى غير تعنت ولا تنطع ولا تزمت.. فالجد والقوة والصرامة شىء، والتعنت والتنطع والتزمت شىء آخر.. إن الجد والقوة والصرامة لا تنافى اليسر، ولكنها تنافى التميّع! ولا تنافى سعة الأفق، ولكنها تنافى الاستهتار!

والتمسك بالكتاب فى جد وقوة وصرامة.. وإقامة الصلاة.. هما طرفا المنهج الربانى لصلاح الحياة.. والتمسك بالكتاب فى هذه العبارة مقرونا إلى الشعائر، يعنى مدلولا معينا.. إذ يعنى تحكيم هذا الكتاب فى حياة الناس لإصلاح هذه الحياة، مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس. فهما طرفان للمنهج الذى تصلح به الحياة والنفوس، ولا تصلح الحياة والنفوس بسواه..

والإشارة إلى الإصلاح فى الآية: ﴿ **إنا لا نضيع أجر المصلحين** ﴾ يشير إلى هذه الحقيقة.. حقيقة الاستمساك الجاد بالكتاب عملا، وإقامة الشعائر عبادة، فهما أداة الإصلاح الذى لا يضيع الله أجره على المصلحين..

وما تفسد الحياة كلها إلا بترك طرفى هذا المنهج الربانى..

ترك الاستمساك الجاد بالكتاب وتحكيمه فى حياة الناس..

وترك العبادة التى تصلح القلوب، فتطبق الشرائع دون احتيال على النصوص، كالذى كان يصنعه أهل الكتاب، وكالذى يصنعه أهل كل كتاب، حين تغتر القلوب عن العبادة فتفتر عن تقوى الله..

---

(١) الأعراف: ١٧٠.

إنه منهج متكامل، يقيم الحكم على أساس الكتاب، ويقيم القلب على أساس العبادة.. ومن ثم تتوافى القلوب مع الكتاب، فتصلح القلوب، وتصلح الحياة..

إنه منهج الله، لا يعدل عنه ولا يستبدل به منهجا آخر، إلا الذين كتبت عليهم الشقوة، وحق عليهم العذاب!

وفى ختام حلقات القصة فى نفس السورة يذكر كيف أخذ على بنى إسرائيل الميثاق:

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١).

إنه ميثاق لا ينسى.. فقد أخذ فى ظرف لا ينسى! أخذ وقد نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم! ولقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق، فأعطوه فى ظل خارقة هائلة كانت جديرة بأن تعصمهم بعد ذلك من الانتكاس والارتكاس.. ولقد أمروا فى ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية، وأن يستمسكوا به فى شدة وصرامة، وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا فى ميثاقهم الوثيق، وأن يظلوا ذاكرين لما فيه، لعل قلوبهم تخشع وتتقى.. وتظل موصولة بالله لا تنساه!

ولكن بنى إسرائيل فى كل حال هم بنو إسرائيل! إنهم نقضوا الميثاق، ونسوا الله، ولجوا فى المعصية، حتى استحقوا غضب الله ولعنته، وحق عليهم القول، بعدما اختارهم الله على العالمين، وأفاء عليهم من عطاياه، فلم يشكروا النعمة، ولم يحفظوا العهد، ولم يذكروا الميثاق.. وما ربك بظلام للعبيد.. حقا، إنهم يهود!

عهد الملوك:

وانهار عهد القضاة أمام مطالب الحياة الملحة - كما يقول الدكتور أحمد شلبى -(٢) فقد كان خطر سيطرة الفلسطينيين على اليهود عاملا هاما فى محاولة جمع الأسباط كلهم فى وحدة شاملة بعد ما نالهم من إخفاق فى عهد القضاة، وبعد ما شاع من فسق القضاة وأخذهم الرشوة، ويحكى لنا الإصحاح الثامن من سفر صموئيل الأول قصة الانتقال من عهد القضاة إلى عهد الملوك، وهاك النص:

---

(١) الأعراف: ١٧١.

(٢) مقارنة الأديان: اليهودية: ٥٩ وما بعدها بتصرف.

« لما شاخ صموئيل جعل ابنيه قضاة لبنى إسرائيل، ولكنهما لم يسلكا طريقه، وما لا وراء الكسب، وأخذا الرشوة، وعوجا القضاء، فاجتمع شيوخ بنى إسرائيل، وجاءوا إلى صموئيل وقالوا له: أنت شخت، وابناك لم يسيرا فى طريقك، فالآن اجعل لنا ملكا كسائرالشعوب، فصلى صموئيل إلى الرب، فقال له الرب: اسمع لصوتهم، إنهم لم يرفضوك أنت، ولكنهم رفضونى أنا، إنهم تركونى وعبدوا آلهة أخرى، فاسمع لصوتهم، ولكن اشهد عليهم. قال صموئيل لبني إسرائيل: إن الملك الذى سيملك عليكم سيأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه، لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه، ويحرثون له ويحصدون، ويأخذون بناتكم عطارات وطباخات وخبازات،، ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم، ويأخذ جواريكم وشبانكم الحسان وحميركم.. فأبى الشعب أن يسمع لصموئيل، وقالوا: لا بل يكون علينا ملك، مثل سائر الشعوب يخرج أمامنا ويحارب حروبنا..[1].

طالوت :

واختار لهم صموئيل شاؤول ليكون أول ملك عليهم، ويسميه القرآن الكريم «طالوت» وقد قادهم فى المعارك بشجاعة، وكان داود أحد رجاله فى هذه المعارك، ويحكى الإصحاح السابع عشر من سفر صموئيل الأول بروز« جلبات » قائد الفلسطينيين الذى يسميه القرآن الكريم« جالوت ».

وأشار صاحب المنار إلى اجتماع شيوخ بنى إسرائيل، وقال:[2].

وهم المعبر عنهم فى القرآن بالملأ، وذلك فى تفسير قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [3] .

ألم تر؟ كأنه حادث واقع ومشهد منظور.. لقد اجتمع الملأمن بنى إسرائيل، من كبرائهم وأهل الرأى فيهم[4]. ولم يرد فى السياق ذكر اسمه؛ لأنه ليس المقصود بالقصة،

---

(١) سفر صموئيل الأول: ٨.
(٢) تفسير المنار : ٢: ٤٧٦.
(٣) البقرة: ٢٤٦.
(٤) فى ظلال القرآن : ١: ٢٦٦ بتصرف .

وذكره هنا لا يزيد شيئا فى إيحاء القصة، وقد كان لبنى إسرائيل كثرة من الأنبياء يتتابعون فى تاريخهم الطويل.. لقد اجتمعوا إلى نبى لهم، وطلبوا إليه أن يعين لهم ملكا يقاتلون تحت إمرته« فى سبيل الله».. وهذا التحديد منهم لطبيعة القتال، وأنه « فى سبيل الله»يشى آنذاك بانتفاضة العقيدة فى قلوبهم، وبقظة الإيمان فى نفوسهم، وشعورهم بأنهم أهل دين وعقيدة وحق، وأن أعداءهم على ضلالة وكفر وباطل، ووضوح الطريق أمامهم للجهاد فى سبيل الله.

وهذا الوضوح وهذا الحسم هو نصف الطريق إلى النصر.. فلا بد للمؤمن أن يتضح فى حسه أنه على الحق وأن عدوه على الباطل، ولا بد أن يتجرد فى حسه الهدف.. فى سبيل الله.. فلا يغشِّيه الغبش الذى لا يدرى معه أين يسير.

وقد أراد نبيهم أن يستوثق من صدق عزيمتهم، وثبات نيتهم، وتصميمهم على النهوض بالتبعة الثقيلة، وجدّهم فيما يعرضون عليه من الأمر:

﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ ﴾

ألا ينتظرأن تنكلوا عن القتال إن فرض عليكم؟ فأنتم الآن فى سعة من الأمر. فأما إذا استجيب لكم، فتقرر القتال عليكم فتلك فريضة إذن مكتوبة، ولا سبيل بعدها إلى النكول عنها..

إنها الكلمة اللائقة بنبى .. وإنه التأكد اللائق بنبى.. فما يجوز أن تكون كلمات الأنبياء وأوامرهم موضع تردد أو عبث أو تراخ..

وهنا ارتفعت درجة الحماسة والفورة، وذكَر الملأُ أن هناك من الأسباب الحافزة للقتال فى سبيل الله ما يجعل القتال هو الأمر المتعين الذى لا تردد فيه:

﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ ﴾

ونجد أن الأمر واضح فى حسهم، مقرر فى نفوسهم.. إن أعداءهم أعداء الله ودين الله. وقد أخرجوهم من ديارهم، وسبوا أبناءهم. فقتالهم واجب، والطريق التى أمامهم هى القتال، ولا ضرورة إلى المراجعة فى هذه العزيمة أو الجدال .

ولكن هذه الحماسة الفائرة فى ساعة الرخاء لم تدم. ويُعَجِّل السياق بكشف الصفحة التالية:

﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾

إنهم يهود:

وهنا تطالعنا سمة خاصة من سمات بنى إسرائيل فى نقض العهد، والنكث بالوعد، والتفلُّت من الطاعة، والنكوص عن التكليف، وتفرُّق الكلمة، والتولّى عن الحق المبين..

ولكن هذه كذلك سمة كل جماعة لا تنضج تربيتها الإيمانية، فهى سمة بشرية لا تغيِّر منها إلا التربية العالية، الطويلة الأمد، العميقة التأثير.. وهى من ثم سمة ينبغى للقيادة أن تكون منها على حذر، وأن تحسب حسابها فى الطريق الوعر، كى لا تفاجأ بها فيتعظمها الأمر! فهى متوقعة من الجماعات البشرية التى لم تخلص من الأوشاب، ولم تُصْهر ولم تَطْهُر من هذه العقابيل.. والتعقيب على هذا التولى:

﴿ والله عليم بالظالمين ﴾.

وهو يشى بالاستنكار، ووصم الكثرة التى تولت عن هذه الفريضة ـ بعد طلبها ـ وقبل أن تواجه الجهاد مواجهة عملية .. وصمها بالظلم .. فهى ظالمة لنفسها، وظالمة لنبيها، وظالمة للحق الذى خذلته، وهى تعرف أنه الحق، ثم تتخلى عنه للمبطلين!

إن الذى يعرف أنه على الحق، وأن عدوه على الباطل ـ كما عرف الملأ من بنى إسرائيل وهم يطلبون أن يبعث لهم نبيهم ملكا ليقاتلوا« فى سبيل الله» ـ ثم يتولى بعد ذلك عن الجهاد ولا ينهض بتبعة الحق الذى عرفه فى وجه الباطل الذى عرفه .. إنما هو من الظالمين المجزيين بظلمهم:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

---

(١) البقرة : ٢٤٧ .

وفى هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات بنى إسرائيل.. لقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه.. ولقد قالوا: إنهم يريدون أن يقاتلوا «فى سبيل الله» فهاهم أولاء يُنغِضون رؤوسهم، ويلوون أعناقهم، ويجادلون فى اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم، ويستنكرون أن يكون طالوت ـ الذى بعثه الله لهم ـ ملكا عليهم!

لماذا؟ لأنهم أحق بالملك بالوراثة. فلم يكن من نسل الملوك فيهم! ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرِّر التغاضى عن أحقية الوراثة!

وكل هذا غبش فى التصور، كما أنه سمة من سمات بنى إسرائيل المعروفة!

قال الشيخ محمد عبده[1] عند ذكر طالوت: هو الذى يسمونه « شاول » وقد سماه الله طالوت فهو طالوت. أى أننا لا نعبأ بما فى كتبهم ـ لما قدمنا ـ وإذا علم القارئ أن القوم لا يعرفون كاتب سفرى صموئيل الأول والثانى من هو؟ ولا فى أى زمان كتبا، فإنه يسهل عليه ألا يعتد بتسميتهم، وأما استنكارهم جعله ملكا فقد صرحوا به، وقالوا: إن منهم من احتقره، ولكن أخبارهم لا تتصل بأسبابها، ولا تقرن بعللها، وقال المفسرون فى استنكارهم لملكه، وزعمهم أنهم أحق بالملك منه، أنه كان من أولاد بنيامين لا من بيت يهوذا، وهو بيت الملك، ولا من بيت لاوى، وهو بيت النبوة، وفهم بعضهم من قوله ﴿**ولم يؤت سعة من المال**﴾ أنه كان فقيرا، وقالوا: كان راعيا أو دباغا أو سقاء. ولا يصح كلامهم فى بيت الملك، لأنه لم يكن فيهم ملوك قبله، ونفيهم سعة المال التى تؤهله للملك فى رأى القائلين لا تدل على أنه كان فقيرا. وإنما العبرة فى العبارة هى ما دلت عليه من طباع الناس، وهى أنهم يرون أن الْمَلِك لا بد أن يكون وارثا للمُلك، أو ذا نسب عظيم يسهل على شرفاء الناس وعظمائهم الخضوع له، وذا مال عظيم يدبِّر به الملك، والسبب فى هذا أنهم قد اعتادوا الخضوع للشرفاء والأغنياء، وإن لم يمتازوا عليهم بمعارفهم وصفاتهم الذاتيـــة.

ولقد كشف لهم نبيهم عن أحقيته الذاتية، ومن حكمة الله فى اختياره:

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

(١) تفسيـر المنـــار: ٢ : ٤٧٧.

إنه رجل قد اختاره الله.. فهذه واحدة..

وزاده بسطة فى العلم والجسم.. وهذه أخرى..

﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء﴾ فهو ملكه، وهو صاحب التصرف فيه، وهو يختار من عباده من يشاء..

﴿ والله واسع عليم ﴾ ليس لفضله خازن.. وليس لعطائه حد..وهو الذى يعلم الخير، ويعلم كيف توضع الأمور فى مواضعها..

وهى أمور من شأنها أن تصحح التصور المشوش، وأن تجلو عنه الغبش..

قصة التابوت:

ولكن طبيعة بنى إسرائيل ـ ونبيها يعرفها ـ لا تصلح لها هذه الحقائق العالية وحدها.. وهم مقبلون على معركة ولا بد من خارقة ظاهرة تهز قلوبهم. وتردها إلى الثقة واليقين:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(١).

وهذا يدل ـ كما جاء فى المنار(٢) ـ على أن بنى إسرائيل لم يقتنعوا بما احتج به عليهم نبيهم من استحقاق طالوت الملك بما اختاره الله وأعده له باصطفائه وإيتائه من سعة العلم وبسطة الجسم ما يمكنه من القيام بأعبائه، حتى جعل لذلك آية تدلهم على العناية به، وهى عود التابوت إليهم، وهذا التابوت المعرف صندوق له قصة معروفة فى كتب اليهود. ففى أول الفصل الخامس والعشرين من سفر الخروج ما نصه:

« وكلم الرب موسى قائلا: كلم بنى إسرائيل أن يأخذوا لى تقدمة، من كل من يحثه قلبه يأخذون تقدمتى، وهذه هى التقدمة التى يأخذونها منهم: ذهب وفضة ونحاس،

---

(١) البقــرة: ٢٤٨.

(٢) تفســـير المنار : ٢: ٤٨٢.

وأسما تجونى وأرجوان، وقرمز وبوص وشعر معزى، وجلود كباش محمرة وجلود نخس، وخشب سنط، وزيت للمنارة، وأطياب لدهن المسحة وللبخور العطر، وحجارة جزع، وحجارة ترصيع للرداء والصدرة، فيصنعون لى مقدسا، لأسكن فى وسطهم، بحسب جميع ما أنا أريك عن مثال المسكن، ومثال جميع آنيته، هكذا تصنعون. فيصنعون تابوتا من خشب السنط طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع ونصف، وتغشيه بذهب نقى، من داخل وخارج تغشيةً، وتصنع عليه إكليلا من ذهب حواليه، وتسبك له أربع حلقات من ذهب، وتجعلها على قوائمه الأربع، على جانبه الواحد حلقتان، وعلى جانبه الثانى حلقتان، وتصنع عصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهب، وتدخل العصوين فى الحلقات على جانبى التابوت ليحمل التابوت بهما، تبقى العصوان فى حلقة التابوت لا تنزعان منهما، وتضع فى التابوت الشهادة التى أعطيك، وتصنع غطاء من ذهب نقى طوله ذراعان ونصف،وعرضه ذراع ونصف، وتضع كروبين[1] من ذهب صنعة خراطة تضعهما على طرفى الغطاء، فاصنع كروبا واحدا على الطرف من هنا، وكروبا آخر على الطرف من هناك، من الغطاء تصنعون الكروبين على طرفيه، ويكون الكروبان باسطين أجنحتهما إلى فوق، مظللين بأجنحتهما على الغطاء، ووجهاهما كل واحد إلى الآخر، نحو الغطاء يكون وجها الكروبين، وتجعل الغطاء على التابوت من فوق، وفى التابوت تضع الشهادة التى أنا أعطيك».

هذا ما ورد فى صفة الأمر بصنع ذلك التابوت الدينى، وذكر بعده كيفية صنع المائدة الدينية وآنيتها، والمسكن، والمذبح، وخيمة العهد، ومنارة السراج، والثياب المقدسة، ثم فصل فى الفصل ٢٧ منه كيف كان صنع هذا التابوت والمائدة والمنار ومذبح البخور. وهى غرائب يعدها عقلاء هذه العصور ألاعيب!

والحكمة فيها ـ والله أعلم ـ أن بنى إسرائيل كانوا ـ وقد استبعدهم وثنيو المصريين أحقابا ـ قد ملكت قلوبهم عظمة تلك الهياكل الوثنية، وما فيها من الزينة والصنعة التى تدهش الناظر، وتشغل الخاطر، فأراد الله أن يشغل قلوبهم عنها بمحسوسات من جنسها تنسب إليه سبحانه وتذكر به، فالتابوت سمى أولا تابوت الشهادة، أى شهادة الله سبحانه

---

(١) فى المنار: المراد بالكروب: الملك، أى صورته أو تمثاله، والكروبيون كما فى المعجم الوسيط: المقربون إلى الله من الملائكة (كرب).

ثم تابوت الرب، وتابوت الله، كذلك أضيف إلى الله تعالى كل شىء صنع للعبادة، وهذا مما يدل على أن تلك الديانة ليست دائمة، فلا غرو إذا نسخ الإسلام كل هذا الزخرف والصنعة من المساجد التى يُعبد فيها الله تعالى حتى لا يشتغل المصلى عن مناجاة الله بشىء منها، وما كَلِفه ذلك الشعب الذى وصفته كتبه المقدسة بأنه« صلب الرقبة » أو كما تقول العرب «عريض القفا» على قرب عهده بالوثنية، وإحاطة الشعوب الوثنية به من كل جانب لا يليق بحال البشر فى طور ارتقائهم، إذ لا يربّى الرجل العاقل بمثل ما يربّى به الطفل أو اليافع. وفى سائر فصول سفر الخروج الثلاثة تفصيل لما قدمه بنو إسرائيل لصنع تلك الدار التى يقدس فيها الله، ولصنع الخيمة والتابوت وغير ذلك، وغرضنا منها معرفة حقيقة التابوت عندهم، فإنك لتجد فى بعض كتب التفسير وكتب القصص عندنا أقوالا غريبة عنه، منها أنه نزل مع آدم من الجنة، ومنشأ تلك الأقوال ما كان ينبذ به الإسرائيليون من القصص بين المسلمين مخادعة لهم، ليكثر الكذب فى تفسيرهم للقرآن فيضلوا به، ويجد رؤساء اليهود مجالا واسعا للطعن فى القرآن يصدون به قومهم عنه.

وفى آخر فصول سفر الخروج أن موسى عليه الصلاة والسلام وضع اللوحين اللذين فيهما شهادة الله، أى وصاياه لبنى إسرائيل فى التابوت، وفى كتبهم الأخرى أنه كان بعده عند فتاة « يشوع » أى « يوشع» وأنهم كانوا يستنصرون بهذا التابوت فإذا ضعفوا فى القتال وجىء به وقدموه تثوب إليهم شجاعتهم، وينصرهم الله تعالى، أى ينصرهم لتلك الشجاعة التى تتجدد لهم بإحضار التابوت لا بالتابوت نفسه، ولذلك غلبوا على التابوت فأخذ منهم عندما ضعف يقينهم وفسدت أخلاقهم، فلم يغن عنهم التابوت شيئا كما قال الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى.

أقول: وفى سفر تثنية الاشتراع أن موسى لما كمل كتابة هذه التوراة أمر اللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلا: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب عهد الرب إلهكم، ليكون شاهدا عليكم. (٣١ : ٢٤ ـ ٣٠).

ثم كانت حرب بين الفلسطينيين وبنى إسرائيل على عهد « عاليا» أو « عالى الكاهن » فانتصر الفلسطينيون، وأخذوا التابوت من بنى إسرائيل، بعد أن نكّلوا بهم تنكيلا فمات «عالى» قهرا .. ثم قال: ومن المدوَّن فى التاريخ المقدس عندهم أنه لما أحرق البابليون هيكل سليمان فُقِدَت التوراة وتابوت العهد معا؛ لأنهما قد أحرقا فيه.

قيادة وجنود :

قال تعالى :

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١).

وهنا يتجلى مصداق حكمة الله فى اصطفاء هذا الرجل(٢).. إنه مقدم على معركة، ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والذل فى تاريخها مرة بعد مرة.. وهو يواجه جيش أمة غالبة، فلا بد إذن من قوة كامنة فى ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة..

هذه القوة الكامنة لا تكون إلا فى الإرادة .. الإرادة التى تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلى على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فلابد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وأن يبلو صموده وصبره: صموده أولا للرغبات والشهوات، وصبره ثانيا على الحرمان والمتاعب. واختيار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش،ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه.. وصحت فراسته:

﴿ فشربوا منه إلا قليلا منهم ﴾ .

شربوا وارتووا. فلقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده، قبل الظمأ، ولكنها لا تشى بالرغبة فى التخلف! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم.. انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم.. وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف؛ لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة.. والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة، والفكرة الحازمة، والإيمان الثابت على الطريق..

---

(١) البقـرة: ٢٤٩.
(٢) فى ظلال القرآن : ١ :٢٦٨ بتصرف.

ودلت هذه التجربة على أن النية الكامنة وحدها لا تكفى، ولا بد من التجربة العملية، ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل الدخول فيها.. ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذى لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولى.. بل مضى فى طريقه.

وهنا كانت التجربة قد غربلت جيش طالوت ـ إلى حد ـ ولكن التجارب لم تكن قد انتهت بعد:

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ ﴾

لقد صاروا قلة، وهم يعلمون قوة عدوهم وكثرته: بقيادة جالوت.. إنهم مؤمنون لم ينكصوا عن عهدهم مع نبيهم. ولكنهم هنا أمام الواقع الذى يرونه بأعينهم فيحسون أنهم أضعف من مواجهته.. إنها التجربة الحاسمة.. تجربة الاعتزاز بقوة أخرى أكبر من قوة الواقع المنظور.. وهذه لا يصمد لها إلا من اكتمل إيمانهم، فاتصلت بالله قلوبهم، وأصبحت لهم موازين جديدة يستمدونها من واقع، إيمانهم، غير الموازين التى يستمدها الناس من واقع حالهم!

وهنا برزت الفئة المؤمنة.. الفئة القليلة المختارة.. والفئة ذات الموازين الربانية:

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

هكذا.. « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة » بهذا التكثير.. فهذه هى القاعدة فى حسّ الذين يوقنون أنهم ملاقو الله..القاعدة: أن تكون الفئة المؤمنة قليلة؛ لأنها هى التى ترتقى الدرج الشاق، حتى تنتهى إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار.. ولكنها تكون الغالبة؛ لأنها تتصل بمصدر القوى، ولأنها تمثل القوة الغالبة.. قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، مذل الجبارين، ومخزى الظالمين، وقاهر المتكبرين.

وهم يكلون هذا النصر لله: «بإذن الله» ويعللونه بعلته الحقيقية« والله مع الصابرين» فيدللون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل..

وإذا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله، التى تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء،

وتستمد قوتها كلها من إذن الله، وتستمد يقينها كله من الثقة فى الله، وأنه مع الصابرين.. إذا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة، الثابتة، الى لم تزلزلها كثرة العدو وقوته، مع ضعفها وقلتها..

إذا هذه الفئة هى التى تقرر مصيرالمعركة، بعد أن تُجدد عهدها مع الله، وتتجه بقلوبها إليه، وتطلب النصر منه وحده، وهى تواجه الهول الرعيب الرهيب:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١).

هكذا.. « ربنا أفرغ علينا صبرا » وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضا من الله يفرغه عليهم فيغمرهم، وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالا للهول والمشقة ﴿ **وثبت أقدامنا** ﴾ . فهى فى يده سبحانه يثبتها فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد ﴿ **وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ .

فقد وضح الموقف.. إيمان تجاه كفر.. وحق إزاء باطل.. ودعوة إلى الله لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه الكافرين.. فلا تلجلج فى الضمير، ولا غبش فى التصور، ولا شك فى سلامة القصد ووضوح الطريق..

وكانت النتيجة هى التى ترقبوها واستيقنوها:

﴿ **فهزموهم بإذن الله** ﴾..

ويؤكد النص هذه الحقيقة« بإذن الله ».. ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علما.. وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجرى فى هذا الكون، ولطبيعة القوى التى تجريه.

إن المؤمنين ستارالقدرة، يفعل الله بهم ما يريد، وينفذ بهم ما يختار.. بإذنه.. ليس لهم

---

(١) البقرة: ٢٥٠ ـ ٢٥١.

من الأمر شيء ، ولا حول ولا قوة ، ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته ، فيكون منهم ما يريده بإذنه .

وهي حقيقة خليقة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين ..

إنه عبد الله .. اختاره الله لدوره .. وهذه منة من الله وفضل .. وهو يؤدى هذا الدور المختار، ويحقق قدر الله النافذ. ثم يكرمه الله ـ بعد كرامة الاختيار ـ بفضل الثواب.. ولولا فضل الله ما فعل. ولولا فضل الله ما أثيب.. ثم إنه مستيقن من نيل الغاية، وطهارة القصد، ونظافة الطريق.. فليس له فى شيء من هذا كله أرب ذاتى، إنما هو منفذ لمشيئة الله الخيرة، قائم بما يريد.. استحق هذا كله بالنية الطيبة، والعزم على الطاعة، والتوجه إلى الله فى خلوص..

ويبرز السياق دور داود:

﴿ وقتل داود جالوت ﴾ .

وداود كان فتى صغيرا من بنى إسرائيل. وجالوت كان ملكا قويا وقائدا مخوفا.. ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجرى بظواهرها، إنما تجرى بحقائقها.. وحقائقها يعلمها هو.. ومقاديرها فى يده وحده.. فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم، ويفوا الله بعهدهم. ثم يكون ما يريده الله بالشكل الذى يريده..

وقد أراد أن يجعل مصرع الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف ضعاف، يغلبهم الفتية الصغار، حين يشاء الله أن يقتلهم..

وكانت هنا لك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله. فلقد قدر أن داود هو الذى يتسلم الملك بعد طالوت، ويرثه ابنه سليمان، فيكون عهده هو العهد الذهبى لبنى إسرائيل فى تاريخهم الطويل، جزاء انتفاضة العقيدة فى نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والارتكاس والشرود:

﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾

وكان داود ملكاً نبياً، وعلمه الله صناعة الزرد وعدة الحرب،مما يفصله القرآن فى آيات أخرى.. أما فى هذا الموضوع فإن السياق يتجه إلى هدف آخر وراء القصة جميعا..

وحين ينتهى إلى هذه الخاتمة، ويعلن النصر الأخير للعقيدة الواثقة لا للقوة المادية، وللإرادة المستعلية لا للكثرة العددية..

حينئذ يعلن عن الغاية العليا من اصطراع تلك القوى.. إنها ليست المغانم والأسلاب وليست الأمجاد والهالات.. إنما هو الصلاح فى الأرض، وإنما هو التمكين للخيربالكفاح مع الشر:

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ .

وهنا تتوارى الأشخاص والأحداث، لتبرز من خلال النص القصير حكمة الله العليا فى الأرض من اصطراع القوى، وتنافس الطاقات، وانطلاق السعى فى تيار الحياة المتدفق الصاخب الموار..

وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس، فى تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات..

ومن ورائها جميعا تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعا، وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق،إلى الخير والصلاح والنماء،فى نهاية المطاف..

لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم لبعض.. ولولا أن فى طبيعة الناس التى فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش مافيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبدا يقظة عاملة،، مستنبطة لذخائر الأرض، مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة..

وفى النهاية يكون الصلاح والخير والنماء..

يكون بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة..

تعرف الحق الذى بينه الله لها..

وتعرف طريقها إليه واضحا..

وتعرف أنها مكلفة بدفع الباطل وإقرارالحق فى الأرض..

وتعرف أن لا نجاة لها من عذاب الله إلا أن تنهض بهذا الدور النبيل، وإلا أن تحتمل فى سبيله ما تحتمل فى الأرض طاعة لله وابتغاء لرضاه..

وهنا يمضى الله أمره، وينفذ قدره، ويجعل كلمة الحق والخير والصلاح هى العليا، ويجعل حصيلة الصراع والتنافس والتدافع فى يد القوة الخيرة البانية، التى استجاش الصراع أنبل ما فيها وأكرمه.. وأبلغها أقصى درجات الكمال المقدر لها فى الحياة..

ومن هنا كانت الفئة القليلة المؤمنة الواثقة بالله تغلب فى النهاية وتنتصر.. ذلك أنها تمثل إرادة الله العليا فى دفع الفساد عن الأرض، وتمكين الصلاح فى الحياة..

إنها تنتصر لأنها تمثل غاية تستحق الانتصـار..

معالم فى الطـريق:

ونقبس من هذا كله معالم فى الطريق.. حين نستحضر فى أنفسنا أن القرآن الكريم هو كتاب هذه الأمة الحى[1]، ورائدها الناصح، وأنه هو مدرستها التى تلقت فيها دروس حياتها.. وأن الله سبحانه كان يربى به الجماعة المسلمة الأولى التى ناط بها إقامة منهجه الربانى فى الأرض، وناط بها هذا الدور العظيم بعد أن أعدها له بهذا القرآن الكريم، وأنه تعالى أراد بهذا القرآن أن يكون هو الرائد الحى الباقى بعد وفاة الرسول ﷺ، لقيادة أجيال هذه الأمة، وتربيتها، وإعدادها لدور القيادة الراشدة الذى وعدها به، كلما اهتدت بهديه، واستمسكت بعدها معه، واستمدت منهج حياتها كله من هذا القرآن، واستعزت به واستعلت على جميع المناهج الأرضية. وهى بصفتها هذه، مناهج الجاهلية!

إن هذا القرآن ليس مجرد كلام يتلى.. ولكنه دستور شامل كامل.. دستور للتربية، كما أنه دستور للحياة العملية، ومن ثم فقد تضمن عرض تجارب البشرية بصورة موحية على الجماعة المسلمة التى جاء لينشئها ويربيها، وتضمّن بصفة خاصة تجارب الدعوة الإيمانية فى الأرض، ومن لدن آدم عليه السلام.. وقدّمها زادا للأمة المسلمة فى جميع أجيالها.. تجاربها فى الأنفس، وتجاربها فى واقع الحياة.. كى تكون الأمة المسلمة على بينة من طريقها، وهى تتزود لها بذلك الزاد الضخم، وذلك الرصيد المتنوع..

---

(١) المرجـع السـابق: ٢٦١ بتصـرف.

ومن ثم جاء القصص فى القرآن بهذه الوفرة، وبهذا التنوع، وبهذا الإيحاء.. وقصص بنى إسرائيل فى المقدمة، هو أكثر القصص ورودا فى القرآن الكريم، لأسباب عدة، ذكرنا بعضها فيما سبق، ونضيف إليها هذه المعالم فى الطريق ؛ لأن أجيالا من هذه الأمة المسلمة ستمر بأدوار كالتى مر فيها بنو إسرائيل، وتقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بموقف بنى إسرائيل، فعرض القرآن الكريم عليها مزالق الطريق، مصورة فى تاريخ بنى إسرائيل، لتكون لها عظة وعبرة، ولترى صورتها فى هذه المرآة المرفوعة لها بيد الحق قبل الوقوع فى تلك المزالق أو اللجاج فيها على مدار الطريق !

إن هذا القرآن ينبغى أن يقرأ وأن يتلقى من أجيال الأمة المسلمة بوعى ، وينبغى أن يتدبر على أنه توجيهات حية، كأنها تتنزل اليوم، لتعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل . لاعلى أنه مجرد كلام جميل يرتل، أو على أنه سجل لحقيقة مضت ولن تعود!

ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأه لنلتمس عنده توجيهات حياتنا الواقعة فى يومنا وفى غدنا، كما كانت الجماعة المسلمة الأولى تتلقاه، لتلتمس عنده التوجيه الحاضر فى شئون حياتها الواقعة..

وحين نقرأ القرآن بهذا الوعى سنجد عنده ما نريد.. وسنجد فيه عجائب لا تخطر على البال الساهى!

سنجد كلماته وعباراته وتوجيهاته حية تنبض وتتحرك وتشير إلى معالم فى الطريق، وتقول لنا: هذا فافعلوه وهذا لا تفعلوه، وتقول لنا: هذا عدو لكم وهذا صديق، وتقول لنا: هذا فاتخذوا من الحيطة وهذا فاتخذوا من العدة، وتقول لنا حديثا مفصلا دقيقا فى كل ما يعرض لنا من الشئون..

وسنجد عندئذ فى القرآن متاعا وحياة، وسندرك معنى قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (١).

فهى دعوة للحياة.. الدائمة المتجددة.. لا لحياة تاريخية محدودة فى صفحة عابرة من صفحات التاريخ!

---

(١) الأنفال: ٢٤.

وفى الآيات السابقة يعرض تجربة من تجارب بنى إسرائيل، يضمها إلى ذخيرة هذه الأمة من التجارب، ويعدّ بهما الجماعة المسلمة لما هى معرّضة له فى حياتها من المواقف، بسبب قيامها بدورها الكبير، بوصفها وارثة العقيدة الإيمانية، ووارثة التجارب فى هذا الحقل الخصيب.

إنها تجربة فى حياة بنى إسرائيل من بعد موسى عليه السلام.. بعدما ضاع ملكهم، ونهبت مقدساتهم، وذلوا لأعدائهم، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدىِ ربهم، وتعاليم نبيهم.. ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة، استيقظت فى قلوبهم العقيدة، واشتاقوا القتال فى سبيل الله، فقالوا:

﴿لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله﴾ .

ومن خلال هذه التجربة ــ كما يعرضها السياق القرآنى الموحى - تبرز جملة حقائق، تحمل إيحاءات قوية للجماعة المسلمة فى كل جيل، فضلا على ما كانت تحمله للجماعة المسلمة فى ذلك الحين .

والعبرة الكلية التى تبرز من القصة كلها هى أن هذه الانتفاضة ــ انتفاضة العقيدة ــ على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلى القوم عنها فوجا بعد فوج فى مراحل الطريق.. على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبنى إسرائيل نتائج ضخمة جدا.. فقد كان فيها النصر والعز والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين.. ولقد جاءت لهم بملك داود، ثم ملك سليمان.. وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بنى إسرائيل فى الأرض، وهى عهدهم الذهبى الذى يتحدثون عنه، والذى لم يبلغوه من قبل فى عهد النبوة الكبرى.. وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركام، وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت!

وفى خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية، كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة فى كل حين:

من ذلك.. أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها.. فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة.. فقد تقدم الملأ من بنى إسرائيل ــ من ذوى الرأى والمكانة فيهم ــ إلى نبيهم فى ذلك الزمان، يطلبون إليه أن

يختار لهم ملكا يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم، الذين سلبوا ملكهم وأموالهم ومعها مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون. فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال، وقال لهم:

﴿ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ .

استنكروا عليه هذا القول، وارتفعت حماستهم إلى الذروة وهم يقولون له:

﴿ وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ ﴾ .

ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها، وتهاوت على مراحل الطريق، كما تذكر القصة، وكما يقول السياق بالإجمال:

﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم ﴾ .

ومع أن لبنى إسرائيل طابعا خاصا فى النكول عن العهد، والنكوص عن الوعد والتفرق فى منتصف الطريق.. إلا أن هذه الظاهرة هى ظاهرة بشرية على كل حال، فى الجماعات التى لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغا عاليا من التدريب.. وهى خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة فى أى جيل.. فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بنى إسرائيل .

ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر فى نفوس الجماعات ينبغى ألا يقف عند الابتلاء الأول.. فإن كثرة بنى إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم.. ولم تبق إلا قلة مستمسكة بعهدها مع نبيها، وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد الحجاج والجدال حول جدارته بالملك والقيادة، ووقوع علامة الله باختياره لهم، ورجعة تابوتهم وفيه مخلفات أنبيائهم تحمله الملائكة.. !

ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود فى المرحلة الأولى.. وضعفوا أمام الامتحان الأول الذى أقامه لهم قائدهم :

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ٢٤٩ .

وأما هذا التخاذل ثبتت الفئة القليلة المختارة.. اعتصمت بالله ووثقت، وقالت:

﴿ **كـم من فئـة قليـلة غلبت فئة كثيـرة بـإذن اللـه واللـه مع الصـابرين** ﴾ .

وهذه هى التى رجحت الكفة، وتلقت النصر، واستحقت العز والتمكين..

وفى ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحاسمة الحازمة المؤمنة. وكلها واضحة فى قيادة طالوت، تبرز منها خبرته بالنفوس، وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة، وعدم اكتفائه بالتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة فى نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه..

ثم ـ وهذا هو الأهم ـ عدم تخاذله، وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة، ولم يثبت معه فى النهاية إلا تلك الفئة المختارة، فخاض بها المعركة، ثقة منه بقوة الإيمان الخالص ووعد الله الصادق للمؤمنين..

والعبرة الأخيرة التى تكمن فى مصير المعركة.. أن القلب الذى يتصل بالله تتغير موازينه وتصوراته؛ لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود، فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التى ثبتت وخاضت المعركة، وتلقت النصر، كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها ما يراه الآخرون الذين قالوا:

﴿ **لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده** ﴾ .

ولكنها لم تحكم بحكمهم على الموقف. إنما حكمت حكماً آخر، فقالت:

﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ .

ثم اتجهت لربها تدعوه:

﴿ **ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ .

وهى تحس أن ميزان القوى ليس فى أيدى الكافرين، إنما هو فى يد الله وحده.. فطلبت منه النصر، ونالته من اليد التى تملكه وتعطيه..

وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقا، وعندما يتحقق فى القلب الإيمان الصحيح.

وهكذا يثبت أن التعامل مع وعد الله الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون!

ولا تستوعب الإيحاءات التي تتضمنها القصة.. فالنصوص القرآنية ـ كما علمتنا التجربة ـ تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن، وبقدر حاجته الظاهرة فيه. ويبقى لها رصيدها المذخور تتفتح به على القلوب، في شتى المواقف على قدر مقســوم..

عهد الانقسام وزوال ملك بني إسرائيل:

وننتقل سراعا إلى الدور الثاني للملوك الذين حكموا بني إسرائيل بعد وفاة سليمان عليه السلام حوالي سنة ٩٣٥ ق م [١].

ننتقل إلى هذا الدور الثاني لذى « رَحُبعام » ـ كما يقول الإصحاح الثاني عشر من سفر الملوك ـ قد أعلن نفسه ملكا على دولة اليهود، وبايعه سبطا « يهوذا » « وبنيامين » في أورشليم على ذلك، ثم اتجه« رحبعام » إلى الشمال لأخذ البيعة من باقي الأسباط، فاجتمع حوله شيوخ بني إسرائيل في شكيم « نابلس الآن » وانضم له أخوه« يَرُبْعام » الذي كان قد ثار على أبيه، وفشلت ثورته، فهرب إلى مصر، وعاد إلى فلسطين بعد وفاة سليمان، وقالوا« لرحبعام » ما قالوا عن قسوة سليمان وشدة تضييقه عليهم، وطلبوا أن يخفف من نيره، ونصح المستشارون الشيوخ « رحبعام » بقبول ذلك الرجاء، ولكن زملاءه من الأحداث حذروه من ذلك، ونزل « رحبعام » على رأى الأحداث، وأعلن للقوم أن خِنصره أغلظ من مَتْنَى أبيه، وأن أباه أدبهم بالسياط ، وهو سيؤدبهم بالعقارب. ولذلك رفض شيوخ الأسباط في الشمال أن يبايعوه، وبايع الأسباط العشرة « يربعام » ملكا وأراد «رحبعام» أن يحارب أخاه، ولكن « شمعيا » نصحه بالعدول عن الحرب، وهكذا انقسمت المملكة إلى مملكتين:

جنوبيـة وعاصمتها « أورشليم » واسمها « مملكة يهوذا ».

وشمالية، وعاصمتها « شكيم » [٢] واسمها « إسرائيل » .

---

(١) مقارنة الأديان : اليهودية: ٦٧ وقيل: سنة ٩٥٣ وقيل : سنة ٩٧٥ انظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ١:٥٣ .

(٢) المرجع السابق : ٦٧ ـ ٦٨ نقلا عن سفر الملوك الأول: الإصحاحان : ١١ ـ ١٢ .

يقول الدكتور أحمد شلبى: ومن مطالعتنا للعهد القديم ـ سفر الملوك الأول والثانى ـ وللمراجع التاريخية (١) يمكن أن نوجز تاريخ هاتين المملكتين فى العبارات الآتيـة:

ـ ضعفت مملكـة « سليمان » فى آخر أيامه، وبخاصة عندما ثار عليه ابنه « يربعام » وأيده كثير من الشيوخ نتيجة لسياسة « سليمان » .. وكان سلطان مصر « شيشنق » قد بدأ يقوى، وأصبح فى حالة تمكنه من استعادة سلطانه على فلسطين، لولا الإبقاء على صلة النسب بينه وبين سليمان، على أن « شيشنق » مهد لاستعادة سلطانه على فلسطين باغتيال «حيرام» ملك صور الذى هيأت تجارته أنواعا من الغنى لداود وسليمان. وكذلك بحمايته ليربعام الابن الثائر على أبيه.

ـ لما مات« سليمان » بدأ « شيشنق » ينفذ تخطيطه، واستغل « يربعام» فى ذلك، فلما نجح « يربعام » فى تقسيم الدولة والتسلط على جزئها الشمالى كان ذلك فى الحقيقة انتصارا عمليا لفرعون مصر، ولم يكتف « شيشنق » بهذا، بل غزا فلسطين، وصعد على أورشليم ونهبها، وبسط سيطرته على دولة يهوذا، ثم على دولة إسرائيل، وامتد سلطانه إلى الجبل.

ـ تعرضت هاتان الدولتان أيضا إلى الضغط من جهة الشمال، للقضاء على القوة اليهودية الدخيلة فى المنطقة من جهة، وللمنافسة بين العراق ومصر من جهة أخرى.

ـ كانت دولة إسرائيل تمثل أغلبية الأسباط، وكانت أوسع رقعة من دولة يهوذا، ولكن دولة إسرائيل كانت مضطربة كثيرة الانقلابات .فى حين كانت دولة يهوذا أكثر استقرارا وهدوءا، ومن أجل هذا تقلب على عرش مملكة إسرائيل ملوك من أسر متعددة وتغيرت عاصمتها مع الانقلابات أكثر من مرة، أما يهوذا فقد ظل الملك بها سلسلة متصلة من ذرية سليمان ، وظلت عاصمتها أورشليم ، وتساوى عدد الملوك هنا وعددهم هناك (١٩ ملكا)(٢).

ـ يتحدث سفر الملوك: الأول والثانى، وسفر الأيام: الأول، بإفاضة عن الوقائع التى

---

(١) انظر المرجع السابق.

(٢) انظر أسماء وعدد ملوك يهوذا، وإسرائيل، ومدة حكم كل منهم، والسنة التى تولى فيها الملك فى : بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١: ٥٤ وما بعدها.

تكاد تكون متصلة بين دولتى اليهود من جانب ومجاوريهم من جانب آخر، وكذلك عن الوقائع الغادرة بين دولة يهوذا وبين دولة إسرائيل، وطالما استعانت إحدى هاتين الدولتين على الأخرى بدولة مجاورة، وكان وقوع دولتى اليهود بين مصر من جهة وآشور وبابل من جهة أخرى مثارا لحروب طويلة كانت فلسطين ميدانها، حتى يمكن القول بأن عهد الانقسام كان عهد دماء تسيل، وأرواح تزهق، وأنين ينبعث.

ويصف الأستاذ محمد عزة دروزة علاقة الدولتين بغيرهما من الدول فيقول:

ويبدو أن صلات مملكتى: يهوذا وإسرائيل بغيرهما من الدول ، كانت على حسب الظروف: عدائية أو عدوانية، أو مذبذبة أو غادرة، أو فى صورة خضوع وذلة، وأن الشعوب الأخرى عاملتهم بالمثل، وكالت لهم بمثل كيلهم، فكانوا فى معظم مدة وجودهم فى عداء وحروب مع الغير، وعرضة للغزوات والغازات والسيطرة والإذلال، ثم انتهى الأمر إلى نسف دولتهم وإجلائهم عن بلادهم؛ لأن الآشوريين والكلدانيين رأوا ذلك هو العلاج الحاسم لما كان منهم من غدر ومراوغات وتذبذب وتناقضات [١].

ويصف أحد الكتاب الغربيين هذه النهاية فيقول:

لم يتمتع الشعب العبرانى بخفض العيش إلا أمدا وجيزا، فمات « حيرام » وانقطع عن عون «صور» الذى كانت تقوى به « أورشليم »ثم قوت شوكه مصر ثانية، ويصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقى الرحى، تعركهما على التوالى سوريا، ثم بابل من الشمال ، ومصر من الجنوب وهى قصة نكبات ، وقصة تحررات لاتعود عليهم إلا بإرجاع نزول النكبة القاضية، هى قصة ملوك همج يحكمون شعبا من الهمج ، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ق م محت يد الأسر الآشورى مملكة إسرائيل من الوجود وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما ، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطها البابليون سنة ٥٨٦ق م [٢] .

ويصور « ولز » حال المملكتين الإسرائيليتين فيقول :

---

(١) تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم : ١٥٧ .

(٢) مقارنة الأديان : اليهودية : ٦٩ وبنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١: ٦١ ـ ٦٢ نقلا عن : موجز التاريخ : هـ ج . ولز، نقلا عن : بلادنا فلسطين: ١: ٥٦٤ مصطفى مراد الدباغ ،دار الطليعة : بيروت .

كانت حياة العبرانيين فى فلسطين تشبه حالة رجل يصرعلى الإقامة وسط حريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار.. ومن المبدأ إلى النهاية لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ فى تاريخ مصر وسورية وآشور وفينيقيا، ذلك التاريخ الذى هو أكبر وأعظم من تاريخهم (١).

اليهود بعد سقوط إسرائيل ويهوذا:

ولا نتحدث عن الأسر البابلى، وما تبع ذلك من نفى وأسر حتى لا يطول بنا الحديث من الناحية التاريخية.. فإن فلسطين قد خلت تقريبا من اليهود إثر سقوط مملكتى إسرائيل ويهوذا (٢)، وفى سنة ٥٣٨ ق م احتل« قورش » ملك الفرس بلاد « بابل » ومن ثم أصبح له السلطان على أرض يهوذا، وأطلق الفرس على شعب يهوذا اسم «اليهود»، وأطلقوا على عقيدتهم اسم « اليهودية »(٣) ومن ذلك التاريخ أصبحت كلمة «اليهود» تعنى: من اعتنق اليهودية، ولو لم يكن من بنى إسرائيل(٤)، وهذا هو الفرق بين اليهودى والإسرائيلى، وسمح «قورش» لليهود بالعودة إلى فلسطين، واستئناف عهد الحرية بها فى ظله، ولكن أكثر اليهود كانوا قد ألفوا الحياة البابلية، وامتدت بها أعراقهم، وعرفوا بها خصب العيش، والتجارة الرابحة، ومن ثم فقد ترددوا طويلا فى العودة للقفار والصراع حول المدينة المقدسة، وبعد هذا التردد استقر رأى الأغلبية الساحقة على البقاء، حيث كانوا بالعراق ومصر وغيرهما من البلاد التى نزحوا إليها عقب سقوط دولتهم على يد بختنصر(٥)، ولم تقبل العودة إلى فلسطين إلا قلة بدأت رحلتها بعد سنتين من مجيء «قورش».. وكانت عودة اليهود من المنفى عودة الجموع وليست عودة الدولة، فإن بعض بنى إسرائيل عادوا ولكن دولتهم لم تعد، فقد صاروا جماعة تابعة للحكم الفارسى وخاضعة له، وكانت المناوشات لا تنقطع بينهم وبين حكامهم الفرس.. وجاء المكابيون .. وحانت فرصة تدخل الدولة الرومانية.. واكتسح الرومان فلسطين سنة ٦٣ ق م واستولوا

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ١: ٦٢ نقلا عن : موجز التاريخ . هـ . ج . ولز : نقلا عن : بلادنا فلسطين : ١: ٥٦٤ مصطفى الدباغ ، دار الطليعة ، بيروت .

(٢) مقارنة الأديان : اليهودية : ٧١ .

(٣) قصة العقائد : ٣١٨ سليمان مظهر .

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٦: ٩٥ دكتور جواد على ، وصبح الأعشى : ١٣: ٢٥٣.

(٥) انظر : مقارنة الأديان : اليهودية : ٧٢ هامش .

على القدس.. ودمر الإمبراطور مدينة « أورشليم » وأحرق « الهيكل » [1]، وفي سنة ١٣٥م دمر الرومان « أورشليم » مرة أخرى تدميرا تاما، وحرثوا أرضها، وتخلصوا من البقية الباقية بها من اليهود ما بين قتل وتشريد ، فرحل من استطاع الهرب منهم إلى مصر وشمال أفريقية وأسبانيا وأوربا، وأقام الإمبراطور الروماني « أدريانوس » مكان الهيكل اليهودي هيكلا وثنيا باسم الإله المشتري « جوبيتر » إذ لم تكن المسيحية قد اعترف بها بعد، وبقي هذا الهيكل إلى أن قامت المسيحية في « أورشليم »، فدمره المسيحيون من أساسه في عهد الإمبراطور « قسطنطين »[2].

---

(١) انظر : المرجع السابق ٧٣ .

(٢) انظر: المرجع السابق ، نقلا عن : فلسطين والضمير العالمي: ٥٤ ـ ٥٦ محمد على علوبة ، وإسرائيل العدو المشترك: ٢٥ لواء محمد صفوت .

الفصل الرابع

في الجزيرة العربية

الهجرة إلى الجزيرة ـ « يا بنى إسرائيل » ـ مساكن اليهود وأحوالهم ـ نفوس ودروس .

الهجـرة إلى الجـزيرة :

وهاجراليهود إلى الجزيرة.. وهناك خلاف طويل بين المؤرخين فى الوقت الذى هاجروا فيه (١)..

فبعضهم يرى أن هجرتهم إليها كانت فى عهد « داود » عليه السلام.

وبعضهم يرى أن نزوحهم إليها كان فى عهد« حزقيال » الذى حكم بلاد يهوذا من سنة ٧١٧ إلى سنة ٦٩٠ ق م .

إلا أن هذين الرأيين ليس لهما سند ثابت من التاريخ، ولذا لم يعتمد عليهما المحققون من المؤرخين.

والذى ارتضاه بعض هؤلاء المؤرخين، هو الرأى القائل بأن الهجرة الكبرى لليهود إلى الجزيرة كانت فى القرن الأول الميلادى، بعد تنكيل الرومان بهم سنة ٧٠م.

يقول الدكتور« إسرائيل ولفنسون » (٢) : « بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠ م التى انتهت بخراب بلاد فلسطين، وتدمير هيكل بيت المقدس ، وتشتت اليهود فى أصقاع العالم، قصدت جموع قصيرة من اليهود بلاد العرب ، كما حدثنا عن ذلك المؤرخ اليهودى « يوسيفوس» الذى شهد تلك الحروب، وكان قائدا لبعض وحداتها » .

ثم يقول : « وتؤيد المصادر العربية كل هذا : فقد ذكر صاحب الأغانى أنه لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعا بالشام، فوطئوهم وقتلوهم، ونكحوا نساءهم، خرج بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو بهدل، هاربين منهم إلى مَنْ بالحجاز مِن بنى إسرائيل لما غلبتهم الروم على الشام، فلما فصلوا عنها بأهليهم بعث ملك الروم فى طلبهم ليردهم فأعجزوه، وكان ما بين الشام والحجاز مفاوز وصحارى لا نبات فيها ولا ماء ، فلما طلب الروم التمر انقطعت أعناقهم عطشا فماتوا، وسمى الموضع « تمر الروم » فهو اسمه إلى اليوم ».

ويرجح الدكتور جواد علي ـ أيضا ـ أن هجرة اليهود إلى الجزيرة كانت بعد غزو الرومان لهم فيقول (٣) : أما ما ورد فى روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ١:٧٢ وما بعدها بتصرف.

(٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب: ٩ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٦: ١٠.

أطراف يثرب وأعالى الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام، وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم، مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء البعيدة عن مجالات الروم، فإنه يستند إلى أساس تاريخي صحيح، فالذى نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج، فلا يستبعد أن يكون يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين. ومن هؤلاء المهاجرين ـ على رأى الإخباريين ـ بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو بهدل، ساروا إلى الجنوب فى اتجاه يثرب، فلما بلغوا موضع الغابة وجدوه رديئا، فكرهوا الإقامة فيه، وبعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم منزلا طيبا، وأرضا عذبة، حتى إذا بلغ «العالية» وهى « بطحان » و « مهزور » وهما واديان بأرض عذبة بها مياه وعيون، استقر رأيهم على الإقامة فيها، فنزل بنو النضير ومن معهم على « بطحان » ونزلت قريظة وبهدل على « مهزور ».

يقول الدكتور محمد سيد طنطاوى(١) : وبذلك نرى أن الرأى القريب من الصواب، هو أن غالبية يهود جزيرة العرب حلوا بها فى القرن الأول الميلادى ، أى بعد تدمير «أورشليم» الثانى على يد « تيطس» الرومانى، وكان حلولهم بها من أهم أسباب، فرارهم من وجه الرومان، حتى ينجوا من بطشهم وفتكهم بهم.

« يا بنى إسرائيل »:

وإذا كنا قد عرفنا أن لفظ إسرائيل قد ذكر فى القرآن الكريم مرتين، فإن لفظ بنى إسرائيل قد ورد أكثر من أربعين مرة (٢) ، وحسبنا أنه ذكرهم فى مواضع متنوعة بهذه العبارة، وربط فى كثير من آياته بين أخلاق اليهود المعاصرين للنبى ﷺ وبين أخلاق الذين أرسلوا إليهم، وبين ماكان عليه الجميع من: كفر وتكذيب واعتداء على الرسل الذين جاءوا لهدايتهم، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ (٣).

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١ : ٧٤ .

(٢) انظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

(٣) البقرة : ٤٠ ـ ٤١ .

وهذا ـ كما يقول الدكتور محمد سيد طنطاوى [١] ـ يجعلنا نجزم بأن اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة وضواحيها من بنى إسرائيل، وليس أصلهم من العرب؛ لأن توجيه الخطاب إليهم بهذه الصورة يفيد أنهم من نسل أولئك الآباء الذين آذوا موسى وعيسى وغيرهما من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

وفضلا عن هذا فإن اليهود فى العهد النبوى كانوا يعيشون فى أحياء وقرى خاصة بهم، وكانت لهم لغتهم العبرية التى يتخاطبون بها فيما بينهم، كما كانت لهم طقوسهم ومدارسهم ومعابدهم التى لايشاركهم فيها غيرهم، بل هم كانوا يعتبرون عقيدتهم اليهودية وقفا عليهم وحدهم .

وقد فصَّل الأستاذ محمد عزة دروزة الحديث فى هذا الموضوع فقال ما ملخصه:

« لم يكن فى الحجاز قبائل عربية متهودة، وإن كان لايبعد أن يكون هناك بعض أفراد من العرب تهودوا، مع أنه ليس هناك من الأسانيد الوثيقة مايساعد على الجزم بذلك، وتسمية بنى النضير ، أو بنى قريظة أو بنى قينقاع، لاتقوم دليلا ، وكل ما يمكن أن تدل عليه هو اقتباس الإسرائيليين تسميات وصيغا متناسبة مع البيئة التى طال عهد إقامتهم فيها وماروى من أسماء عربية كان يتسمى بها بعض اليهود، فإن الروايات وهى تذكر هذه الأسماء لا تلبث أن تذكر آباء أصحابها الإسرائيلية مثل عبد الله بن صوريا، ورفاعة بن يزيد بن التابوت .. إلخ .

بل إنا لنذهب إلى أبعد من هذا فنقول : إنه لم يكن كذلك فى سائر جزيرة العرب ـ وخاصة اليمن ـ كتل عربية يهودية فى عصر النبى ﷺ، وإذا كانت الروايات تذكر أن بعض أحياء اليهود فى الحجاز استطاعوا نشر اليهودية فى اليمن فى عهد التابعة، فليس هناك سند وثيق يؤيد ذلك، ومع هذا فإن كتب السيرة القديمة لم تتضمن أية إشارة إلى وجود يهود فى اليمن فى زمن النبى ﷺ ، كما أنها لم تذكر أن عمر رضى الله عنه أجلى يهود عن اليمن، حينما أجلى النصارى العرب عن نجران اليمن .. وهذا يدل على أنه لم يكن فى اليمن ـ فى عهد النبى ﷺ ـ يهود ، وإنما كان بقية منهم فى الحجاز » [٢] .

---

(١) المرجع السابق : ٧٥ بتصرف .

(٢) تاريخ الجنس العربى: ٥: ١٤٨ وعصر النبى ﷺ وبيئته قبل البعثة : ١٠٥ والقرآن واليهود : ٣٤.

يقول الدكتور محمد سيد طنطاوى[1] ومن هذا يتبين أن يهود الجزيرة من أصل يهودى، وأنهم كانوا جماعات طارئة عندما أجليت عن المدينة وضواحيها، لم تترك آثارا تشهد بأصالتها فى سكنى تلك المناطق.

مساكن اليهود وأحوالهم :

وأما عن مساكن اليهود فبعضها كان بداخل المدينة، وبعضها كان قريبا منها، وبعضها كان بعيدا عنها.

فبنو قينقاع كانوا يسكنون داخل المدينة فى محلة خاصة بهم، بعد أن طردهم إخوانهم بنو النضير وقريظة من مساكنهم التى كانت خارج المدينة.

وبنو النضير كانت منازلهم « بالعالية » بوادى بطحان على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة، وكانت عامرة بالنخيل والزروع.

وبنو قريظة كانوا يسكنون فى منطقة « مهزور» التى تقع على بعد بضعة أميال من جنوب المدينة.

ومن بين اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة وضواحيها بطون صغيرة أخرى، كبنى عكرمة، وبنى ثعلبة، وبنى عوف، وبنى القصيص وغيرهم، إلا أن هذه البطون الصغيرة كانت تابعة فى سياستها للبطون الكبرى: كبنى قينقاع، والنضير، وقريظة.

يقول الدكتور جواد على : « وقد عرف بنو قريظة وبنو النضير من بين اليهود « بالكاهنيّين » نسبوا بذلك إلى جدهم الذى يقال له« الكاهن» و « الكاهن »هو ابن هارون ابن عمران، على زعم بعض الأخبار، فهم على هذه النسبة من أصل رفيع، ولهذا كانوا يفتخرون به، ويرون لهم السيادة على غيرهم من إخوانهم فى الدين» [2].

وأما يهود خيبر فكانوا يسكنون على بعد ثمانى برد من المدينة إلى جهة الشام، وقد اشتهر يهود خيبر بغناهم لخصوبة أرضهم، وكثرة مزارعهم وبساتينهم، كم اشتهروا أيضا بضخامة حصونهم ومتانتها...

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١: ٧٧ بتصَرف.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦: ١٣.

وعلى مقربة منهم كان يسكن قسم آخر من اليهود، كيهود وادى القرى وتيماء وفدك.

ومساكن اليهود عموما كانت تمتاز بعزلتها ومتانتها، وقد أقاموها كذلك ليتحصنوا فيها عند الأخطار، وليدافعوا عن أنفسهم من ورائها، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى:

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ (١).

ومن أقوى حصون اليهود، حصن النطاة، والصعب بن معاذ، وناعم، والزبير، والقموص، والوطيح، وسلالم.. وكلها كانت توجد فى منطقة خيبر.

كما كانت تمتاز - فى مجموعها - بوجودها فى المناطق الخصبة، والتى هى ملتقى طرق المواصلات والتجارة البحرية والبرية من جزيرة العرب.

ومن أهم الأعمال التى اشتغل بها اليهود: التجارة، حتى صار لبعضهم فيها شهرة كبيرة، كأبى رافع سلام بن أبى الحقيق، الذى كان ينعت بتاجر أهل الحجاز، ويمكن أن يقال: إن تجارة التمر والشعير والقمح والخمر تكاد تكون وقفا عليهم فى شمال الحجاز، وكذلك اشتغل اليهود بالزراعة التى كانت المهنة الرئيسة لسكان القرى منهم، واشتغلوا بتربية الماشية والدواجن، وكانوا فى جهات « مقنا» يشتغلون بصيد الأسماك، وكانت نساؤهم يشتغلن بنسج الأقمشة، ومن الصناعات التى كان يهود الجزيرة العربية يزاولونها صناعة الصياغة، وقد اشتهر بها بنو قينقاع، كما كانوا يزاولون صناعة السيوف والدروع وسائر الآلات الحربية.

وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات وتعاطى الربا، وكان لهم من طبيعة منطقة المدينة الزراعية فرصة إلى ذلك؛ لأن الزراع عادة يحتاجون إلى اقتراض الأموال لحين الحصاد.

وقد وبخهم القرآن الكريم على أخذهم الربا الذى نهاهم الله عن أخذه، فقال تعالى:

---

(١) الحشر: ١٤.

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١).

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية فى المدينة وضواحيها أن قوى نفوذهم المالى ، وصاروا يتحكمون فى الأسواق تحكما فاحشا ، ويحتكرونها لمصلحتهم ، ومنفعتهم ، فكرههم السواد الأعظم من الناس، بسبب أنانيتهم وأخذهم الربا ، وحصولهم على المال بطرق خبيثة يأنف العربى عن سلوكها والتعامل بها.

نفوس ودروس :

ولا يفوتنا أن نقف أمام قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

يقول ابن كثير(٣) : يقول تعالى آمرا بنى إسرائيل بالدخول فى الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومهيجا لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبى الله يعقوب عليه السلام ، وتقديره: يا بنى العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل أبيكم فى متابعة الحق.. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (٤).

وإن المستعرض لتاريخ بنى إسرائيل ليأخذه العجب من فيض الآلاء التى أفاضها الله عليهم ، ومن الجحود المنكر المتكرر الذى قابلوا به هذا الفيض المدرار.. وهنا يذكرهم الله

---

(١) النســاء : ١٦١ ـ ١٦٢.
(٢) البقـرة : ٤٠ ـ ٤٢ .
(٣) تفسير ابن كثير : ١: ٨٢ بتصرف.
(٤) الإســراء : ٣.

بنعمته التى أنعمها عليهم إجمالا، قبل البدء فى تفصيل بعضها فيما بعد.. يذكرهم بها ليدعوهم بعدها إلى الوفاء بعهدهم معهم سبحانه، كى يتم عليهم النعمة ، ويمد لهم فى الآلاء (١).

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾

قال ابن جرير(٢) : ونعمته التى أنعم بها على بنى إسرائيل جل ذكره: اصطفاؤه منهم الرسل، وإنزاله عليهم الكتب، واستنقاذه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والضراء من فرعون وقومه إلى التمكين لهم فى الأرض، وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعام المن والسلوى، فأمر جل ثناؤه أعقابهم أن يكون ما سلف منه إلى آبائهم على ذكر، وألا ينسوا صنيعه إلى أسلافهم وآبائهم، فيحل بهم من النقم ما أحل بمن نسى نعمة منهم وكفرها وجحد صنائعه عنده .

وروى ابن جرير عن ابن زيد قال: نعمه عامة، ولا نعمة أفضل من الإسلام ، والنعم بعد تبع لها، وقرأ قول الله تعالى :

﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ (٣) .

وتذكير الله الذين ذكرهم جل ثناؤه بهذه الآية من نعمه على لسان رسوله محمد ﷺ، نظير تذكير موسى – صلوات الله وسلامه عليه – أسلافهم على عهده الذى أخبر الله عنه أنه قال لهم، وذلك قوله:

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (٤) .

وأما قوله تعالى:

﴿ وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ﴾ .

---

(١) فى ظلال القرآن: ١:٦٦ بتصرف .
(٢) تفسير الطبرى: ١:٢٤٩.
(٣) الحجرات : ١٧.
(٤) المائدة : ٢٠.

فقد قال ابن جرير فى تفسير قوله جل شأنه:

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (١).

اختلف أهل المعرفة(٢) فى معنى العهد الذى وصف الله هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ونقضهم ذلك تركهم العمل به.

وقال آخرون: إنما نزلت هذه الآيات فى كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وإياهم عنى الله جل ذكره بقوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣).

وبقوله سبحانه:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤).

فكل ما فى هذه الآيات فعذل لهم وتوبيخ إلى انقضاء قصصهم، قالوا: فعهد الله الذى نقضوه بعد ميثاقه: هو ما أخذه الله عليهم فى التوراة من العمل بما فيها، واتباع محمد ﷺ إذا بعث، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته، وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك على الناس، بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه، فأخبر الله جل ثناؤه أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا.

وقال بعضهم: إن الله عنى بهذه الآية جميع أهل الشرك والكفر والنفاق، وعهده إلى جميعهم فى توحيده ما وضع لهم من الأدلة على ربوبيته، وعهده إليهم فى أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التى لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتى بمثلها، الشاهدة

---

(١) البقرة : ٢٧. (٢) المرجع السابق : ١٨٢ بتصرف.

(٣) البقرة : ٦ . (٤) البقـرة : ٨.

لهم على صدقهم. قالوا: ونقضهم ذلك، تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل والكتب، مع علمهم أن ما أتوا به حق.

وقال آخرون: العهد الذى ذكره الله جل ذكره، هو العهد الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم، الذى وصفهم فى قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (١).

ونقضهم ذلك: تركهم الوفاء به.

قال ابن جرير: وأولى الأقوال عندى بالصواب فى ذلك قول من قال: إن هذه الآيات نزلت فى كفار أحبار اليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجر رسول الله ﷺ، وما قرب منها من بقايا بنى إسرائيل، ومَنْ كان على شركه، من أهل النفاق.. وقد دللنا على أن قول الله جل شأنه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾

فيهم أنزلت، وفيمن كان على مثل الذى هم عليه من الشرك بالله، غير أن هذه الآيات عندى وإن كانت فيهم نزلت، فإنه معنيٌّ بها كل من كان على مثل ما كانوا عليه من الضلال، ومعنيٌّ بما وافق منها صفة المنافقين خاصة جميع المنافقين، وبما وافق منها صفة كفار أحبار اليهود جميع من كان لهم نظيرا فى كفرهم، وذلك أن الله جل ثناؤه يعم أحيانا جميعهم بالصفة لتقديمه ذكر جميعها، فى أول الآيات التى ذكرت قصصهم، ويخص أحيانا بالصفة بعضهم لتفصيلة فى أول الآيات بين فريقهم، أعنى فريق المنافقين من عبدة الأوثان، وأهل الشرك بالله، وفريق كفار أحبار اليهود، فالذين ينقضون عهد الله: هم

---

(١) الأعراف: ١٧٢ ـ ١٧٣.

التاركون ما عهد الله إليهم، من الإقرار بمحمد ﷺ، وبما جاء به وتبيين نبوته للناس، الكاتمون بيان ذلك بعد علمهم به، وبما قد أخذ الله عليهم فى ذلك، كما قال الله جل ذكره:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (1).

ونبذهم ذلك وراء ظهورهم: هو نقضهم العهد الذى عهد إليهم فى التوراة الذى وصفناه، وتركهم العمل به.

وإنما قلت: إنه عنى بهذه الآيات من قلت إنه عنى بها؛ لأن الآيات من ابتداء الآيات الخمس والست من سورة البقرة فيهم نزلت إلى تمام قصصهم، وفى الآية التى بعد الخبر عن خلق آدم وأبنائه فى قوله:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾

وخطابه إياهم جل ذكره بالوفاء فى ذلك دون سائر البشر ما يدل على أن قوله:

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾

مقصود به كفارهم ومنافقوهم، ومن كان من أشياعهم من مشركى عبدة الأوثان على ضلالهم، غير أن الخطاب، وإن كان لمن وصفت من الفريقين فداخل فى أحكامهم، وفيما أوجب الله لهم من الوعيد والذم والتوبيخ وكل من كان على سبيلهم ومنهاجهم من جميع الخلق وأصناف الأمم المخاطبين بالأمر والنهى.

فمعنى الآية إذاً: وما يضل به إلا التاركين طاعة الله الخارجين عن اتباع أمره ونهيه، الناكثين عهود الله التى عهدها إليهم فى الكتب التى أنزلها إلى رسله وعلى ألسن أنبيائه باتباع أمر رسوله محمد ﷺ، وما جاء به، وطاعة الله فيما افترض عليهم فى التوراة من تبيين أمره للناس، وإخبارهم إياهم أنهم يجدونه مكتوبا عندهم أنه رسول من عند الله،

---

(1) آل عمران: ١٨٧.

مفترضة طاعته. وترك كتمان ذلك لهم، ونكثهم ذلك ونقضهم إياه، هو مخالفتهم الله فى عهده إليهم فيما وصفت أنه عهد إليهم، بعد إعطائهم ربهم الميثاق بالوفاء بذلك، كما وصفهم به جل ذكره بقوله:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ (١).

والآيات تبدأ بنداء جليل إلى بنى إسرائيل، هؤلاء الذين واجهوا الدعوة فى المدينة مواجهة منكرة(٢)، وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة، وكادوا لها كيدا موصولا، لم يفتر لحظة منذ أن ظهر الإسلام فى المدينة، وتبين لهم أنه فى طريقه إلى الهيمنة على مقاليدها، وعزلهم من القيادة الأدبية والاقتصادية التى كانت لهم، مذ وحّد الأوس والخزرج تحت راية الأنصار، تلك التى توحدت مع راية المهاجرين تحت راية الأخوة فى الله عز وجل، ومن ثم سد الثغرات التى كانت تنفذ منها يهود، وشرع منهجا جديدا مستقلا، يقوم على أساس الكتاب الجديد.. القرآن الكريم.. الذى يهدى للتى هى أقوم..

هذه المعركة التى شنها اليهود على الإسلام والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد.. ثم لم يخب أوارها حتى اللحظة الحاضرة، بنفس الوسائل، ونفس الأساليب، لا يتغير إلا شكلها.. أما حقيقتها فباقية.. وأما طبيعتها فواحدة.. وذلك على الرغم من أن العالم كله - كما أسلفنا - كان يطاردهم من جهة إلى جهة، ومن قرن إلى قرن.. حتى أصبحوا هكذا مشردين بلا وطن! وحتى أصبح الحديث عن الوطن اليهودى أسطورة!

إنهم لم يجدوا لهم صدرا حنونا إلا فى العالم الإسلامى المفتوح، الذى ينكر الاضطهادات الدينية والعنصرية، ويفتح أبوابه لكل مسالم لا ينكر التدين ولا يكيد للمسلمين!

ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود فى المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة،

---

(١) الأعراف: ١٦٩.
(٢) فى ظلال القرآن: ١: ٦٣ وما بعدها بتصرف.

ويؤمن للرسول الجديد، مذ كان القرآن يصدق ما جاء فى التوراة فى عمومه، ومذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول ﷺ.. وعندهم أوصافه فى البشارات التى يتضمنها كتابهم، وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين.. كما سيأتى.

تبدأ هذه الآيات بنداء علوى جليل إلى بنى إسرائيل، يذكرهم بنعمته تعالى عليهم ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه، ليوفى بعهده معهم..

ووفاء بهذا العهد كذلك يدعو الله بنى إسرائيل أن يخافوه وحده، وأن يفردوه بالخشية ويدعوهم أن يؤمنوا بما أنزل على رسوله، مصدقا لما معهم، وألا يسارعوا إلى الكفر به، فيصبحوا أول الكافرين، وكان ينبغى أن يكونوا أول المؤمنين.

﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ﴾ .

فما الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ إلا الدين القيم الواحد الخالد، جاء به فى صورته الأخيرة، وهو امتداد لرسالة الحق، ولعهد الله منذ البشرية الأولى ، يضم جناحيه على مامضى، ويأخذ بيد البشرية فيما سيأتى ... ويضيف ما أراده الله من الخير والصلاح للبشرية في مستقبلها الطويل، ويجمع بذلك بين البشر كلهم إخوة متعارفين، يلتقون على عهد الله، ودين الله ، لا يتفرقون شيعا وأحزابا، وأقواما وأجناسا، ولكن يلتقون عبادا لله ، مستمسكين جميعها بعهده الذي لا يتبدل منذ فجر الحياة ..

وينهى الحق بنى إسرائيل أن يكون كفرهم بما أنزله الله مصدقا لما معهم، شراء للدنيا بالآخرة، وإيثارا لما بين أيديهم من مصالح خاصه لهم ـ وبخاصة أحبارهم الذين يخشون أن يؤمنوا بالإسلام فيخسروا رياستهم ، وما تدره عليهم من منافع وإتاوات ـ ويدعوهم إلى خشية الله وحده وتقواه :

﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون ﴾ .

والثمن والمال والكسب الدنيوى المادى ... كله شنشنة يهود من قديم !

وقد يكون المقصود بالنهى هنا هو مايكسبه رؤساؤهم من ثمن الخدمات الدينية والفتاوى المكذوبة، وتحريف الأحكام حتى لا تقع العقوبه على الأغنياء منهم والكبراء ، كما ورد فى مواضع أخرى، واستبقاء هذا كله فى أيديهم بصد شعبهم عن الدخول فى

الإسلام، حيث تفلت منهم القيادة والرياسة .. على أن الدنيا كلها ثمن قليل، حين تقاس إلى الإيمان بآيات الله . وإلى عاقبة الإيمان فى الآخرة عند الله .

ويمضى السياق يحذرهم ماكانوا يزاولونه من تلبيس الحق بالباطل، وكتمان الحق وهم يعلمونه ، بقصد بلبلة الأفكار فى المجتمع المسلم، وإشاعة الشك والاضطراب:

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

ولقد زاول اليهود هذا التلبيس والتخليط وكتمان الحق في كل مناسبة عرضت لهم كما فصل القرآن فى مواضع منه كثيرة، وكانوا دائما عامل فتنة وبلبلة فى المجتمع الإسلامى، وعامل اضطراب وخلخلة فى الصف المسلم ..

ثم يدعوهم إلى: الاندماج فى موكب الإيمان، والدخول فى الصف، وأداء عبادته المفروضة، وترك هذه العزلة، وهذا التعصب الذميم، وهو ماعرفت به يهود من قديم:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [١] .

قال ابن جرير [٢] : ذكر أن أحبار اليهود والمنافقين كانوا يأمرون الناس بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولايفعلونه، فأمرهم الله بإقام الصلاة مع المسلمين المصدقين بمحمد، وبما جاء به ، وإيتاء زكاة أموالهم معهم، وأن يخضعوا لله ولرسوله كما خضعوا .

ثم ينكر عليهم ـ وبخاصة أحبارهم ـ أن يكونوا من الدعاة إلى الإيمان بحكم أنهم أهل كتاب بين مشركين، وهم فى الوقت ذاته يصدون قومهم عن الإيمان بدين الله ، المصدق لما معهم :

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [٣] .

قال ابن كثير [٤] : يقول تعالى : كيف يليق بكم يامعشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير، أن تنسوا أنفسكم ، فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به ، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب ، وتعلمون مافيه على من قصَّر فى أوامر الله ؟

---

(١) البقرة: ٤٣.
(٢) تفسير الطبرى: ١: ٢٥٧ بتصرف.
(٣) البقرة: ٤٤.
(٤) تفسير ابن كثير : ١: ٨٥ بتصرف.

أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم .فتنتبهوا من رقدتكم . وتتبصـروا من عمايتكـم ؟!

ومع أن هذا النص القرآنى كان يواجـه ابتـداء حالة واقعـة من بنى إسرائيل ، فإنـه فى إيحائه للنفس البشرية [1]، ولرجال الدين عند هؤلاء ومن على شاكلتهم بصفة خاصة، دائم لا يخص قوما دون قوم، ولا يعنى جيلا دون جيل.

إن آفة رجال الدين عند هؤلاء ومن على شاكلتهم ـ حين يصبح الدين حرفة وصناعـة لا عقيدة حارة دافعة ـ أنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، يأمرون بالخير ولا يفعلونه، ويدعون إلى البر ويهملونه، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى، ويصدرون فتاوى وتأويلات تختلف فى حقيقتها عن حقيقة الديـن، وذلك لتبرير أغـراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان! كما يفـعل أحبار يهود!

والدعوة إلى البر والمخالفة عنه فى سلوك الداعين إليه، هى الآفة التى تصيب النفوس بالشك، لافى الدعاة وحدهم، ولكن فى الدعوات ذاتها وهى التى تبلبل قلوب الناس وأفكارهم؛ لأنهم يسمعون قولا جميلا، ويشهدون فعلا قبيحا، فتتملكهم الحيرة بين القول والفعل، وتخبو فى أرواحهم الشعلة التى توقدها العقيدة، وينطفئ فى قلوبهم النور الذى يشعله الإيمان، ولا يعودون يثقون فى الدين بعد ما فقدوا ثقتهم بالدعاة إليه.

إن الكلمة لتنبعث ميتة، وتصل هامدة، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هى لم تنبعث من قلب يؤمن بها.. ولن يؤمن إنسان بما يقول حقا إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيما واقعيا لما ينطق .. عندئذ يؤمن الناس.. ويثق الناس، ولو لم يكن فى تلك الكلمة طنين ولا بريق.. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها، لا من رنينها، وتستمد جمالها من صدقها، لا من بريقها.. إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة؛ لأنها منبثقة من حياة.

والمطابقة بين القول والفعل، بين العقيدة والسلوك، ليست مع هذا أمرا هينا، ولا طريقا معبدا.. إنها فى حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة، وإلى صلة بالله، واستمداد منه، واستعانة بهديه، فملابسات الحياة وضروراتها واضطرارتها كثيرا ما تنأى بالفرد فى واقعه

---

(١) فى ظلال القرآن: ١: ٦٨ بتصرف.

عما يعتقده فى ضميره، أو عما يدعو إليه غيره.. والفرد الفانى ما لم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته؛ لأن قوى الشر والطغيان والإغواء أكبر منه، وقد يغالبها مرة ومرة ومرة.. وحين تنتابه لحظة ضعف يتخاذل ويتهاوى، ويخسر الماضى والحاضر، ويسقط فى المستقبل، فأما هو يركن إلى قوة الأزل والأبد فهو قوى قوى.. قوى على شهوته وضعفه.. قوى على ضروراته واضطراراته.. قوى على ذوى القوة الذين يواجهونه..

ومن ثم يوجه القرآن اليهود الذين كان يواجههم أولا، ويوجه الناس كلهم ضمنا، إلى الاستعانة بالصبر والاستعانة بالصلاة..

وفى حالة اليهود كان مطلوبا منهم أن يؤثروا الحق الذى يعلمونه على المركز الخاص الذى يتمتعون به فى الجزيرة التى آوتهم - كما عرفنا - والتى هم غرباء ودخلاء على أهلها.. وكان مطلوبا منهم - كذلك - أن يؤثروا هذا الحق على الثمن القليل - كما أسلفنا - وأن يدخلوا فى موكب الإيمان وهم يدعون الناس إلى الإيمان! وكان هذا يقتضى قوة وشجاعة واستعانة بالصبر والصلاة:

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (١).

وقال ابن جرير(٢) : استعينوا على الوفاء بعهدى الذى عاهدتمونى فى كتابكم من طاعتى واتباع أمرى، وترك ما تهوونه من الرياسة وحب الدنيا إلى ما تكرهونه من التسليم لأمرى، واتباع رسولى محمد ﷺ بالصبر عليه والصلاة.

قال ابن كثير(٣) : والضمير فى قوله: «وإنها لكبيرة» عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير(٤) ، ويحتمل أن يكون عائدا على ما يدل عليه الكلام، وهو الوصية، كقوله تعالى فى قصة قارون :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ (٥).

---

(١) البقرة: ٤٥ - ٤٦. (٢) تفسير الطبرى: ١: ٢٥٩. (٣) تفسير ابن كثير: ١: ٨٧.
(٤) تفسير الطبرى: ١: ٢٦١. (٥) القصص: ٨٠.

وقال تعالى :

﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (١).

أى وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا، وما يلقاها: أى يؤتاها ويلهمها إلا ذو حظ عظيم، وعلى كل تقدير فقوله تعالى: « وإنها لكبيرة » أى مشقة ثقيلة، إلا على الخاشعين، قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: يعنى المصدقين بما أنزل الله..

وقال ابن جرير(٢): معنى الآية: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله، وكفها عن معاصى الله، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، والمقربة من مراضى الله، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله، المستكينين لطاعته، المتذللين من مخافته.

قال ابن كثير: والظاهر أن الآية وإن كانت خطابا فى سياق إنذار بنى إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هى عامة لهم ولغيرهم.

وعلى كل فإن الدعوة إلى الاعتراف بالحق فى وجه هذه العوامل كبيرة وصعبة وشاقه(٣) ، إلا على الخاشعين الخاضعين لله، الشاعرين بخشيته وتقواه، الواثقين بلقائه والرجعة إليه عن يقين.

والاستعانة بالصبر تتكرر كثيرا، فهو الزاد الذى لا بد منه لمواجهة كل مشقة، وأول المشقات مشقة النزول عن القيادة والرياسة والنفع والكسب احتراما للحق، واعترافا بالحقيقة وخضوعا لها.

فما الاستعانة بالصلاة ؟

إن الصلاة صلة ولقاء بين العبد والرب.. يستمد منها القلب قوة، وتحس فيها الروح صلة، وتجد فيها النفس زادا أنفس من أعراض الحياة الدنيا.. وما يزال هذا الينبوع الدافق

---

(١) فصلت: ٣٤-٣٥. (٢) المرجع السابق. (٣) فى ظلال القرآن : ١ : ٦٩ بتصرف.

فى متناول كل مؤمن يريد زادا للطريق، ورِيّاً فى الهجير، ومددا حين ينقطع المدد، ورصيدا حين ينفذ الرصيد..

واليقين بلقاء الله ـ واستعمال ظن ومشتقاتها فى معنى اليقين كثير فى القرآن وفى لغة العرب عامة ـ واليقين بالرجعة إليه وحده فى كل الأمور.. هو مناط الصبر والاحتمال، وهو مناط التقوى والحساسية.. كما أنه مناط الوزن الصحيح للقيم: قيم الدنيا وقيم الآخرة..

ومتى استقام الميزان فى هذه القيم بدت الدنيا كلها ثمنا قليلا ، وعَرَضا هزيلا، وبدت الآخرة على حقيقتها، التى لا يتردد عاقل فى اختيارها وإيثارها..

وكذلك يجد المتدبر للقرآن فى التوجيه الذى قصد به بنو إسرائيل أول مرة، توجيها دائما مستمر الإيحاء للجميع..

ومن ثم عودة إلى نداء بنى إسرائيل، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم، وتخويفهم ذلك اليوم المخيف إجمالا قبل البدء بالتفصيل:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾[1].

وتفضيل بنى إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم، وعصوا أنبياءهم، وجحدوا نعمة الله عليهم، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة ـ كما سيأتى ـ وقضى عليهم بالتشريد، وحق عليهم الوعيد.

وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله وعهده، وإطماع لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يدى الدعوة الإسلامية، فيعودوا إلى موكب الإيمان. وإلى عهد الله، شكرا على تفضيله لآبائهم، ورغبة فى العودة إلى مقام التكريم

---

(١) البقـرة : ٤٧ ـ ٤٨.

الذى يناله المؤمنون..

ومع الإطماع فى الفضل والنعمة، التحذير من اليوم الذى يأتى وصفه:

﴿ لا تجزى نفس عن نفس شيئا ﴾ .

فالتبعة فردية، والحساب شخصى، وكل نفس مسئولة عن نفسها، ولا تغنى نفس عن نفس شيئا..

وهذا هو المبدأ الإسلامى العظيم.. مبدأ التبعة الفردية القائمة على الإرادة والتمييز من الإنسان، وعلى العدل المطلق من الله.. وهو أقوم المبادئ التى تشعر الإنسان بكرامته، والتى تستجيش اليقظة الدائمة فى ضميره.. وكلاهما عامل من عوامل التربية، فوق أنه قيمة إنسانية تضاف إلى رصيده من القيم التى يكرمه بها الإسلام.

﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل﴾ .

فلا شفاعة تنفع ـ يومئذ ـ من لم يقدم إيمانا وعملا صالحا، ولا فدية تؤخذ منه للتجاوز عن كفره ومعصيته.

﴿ ولا هم ينصـــرون ﴾ .

فما من ناصر يعصمهم من الله، وينجيهم من عذابه.. وقد عبر ـ هنا ـ بالجمع باعتبار مجموع النفوس التى لا تجزى نفس منها عن نفس، ولا يقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل، وانصرف عن الخطاب فى أول الآية إلى صيغة الغيبة فى آخرها للتعميم.. فهذا مبدأ كلى ينال المخاطبين وغير المخاطبين من الناس أجمعين..

وتمضى الآيات بعد ذلك تعدد آلاء الله عليهم، وتبين كيف استقبلوا هذه الآلاء، وكيف جحدوا وكفروا وحادوا عن الطريق.. مع أنهم هكذا بلا وطن.. غرباء دخلاء فى منزل الوحى.. حقا، إنها نفوس ودروس.

أهـــم المـراجـــع

١ ـ الأرض المقدســة، للأستاذ أنور الرفاعى.

٢ ـ إسرائيل العدو المشترك، للواء محمد صفوت.

٣ ـ الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام، للدكتور على عبد الواحد وافى، ط نهضة مصـر .

٤ ـ بلادنا فلسطين، للأستاذ مصطفى مراد الدباغ ، دار الطليعة، بيروت.

٥ ـ بنو إسرائيل فى القرآن والسنة، للدكتور محمـد سيد طنطاوى ، جامعة البصرة، ط أولى ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م .

٦ ـ تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدى، ط حكومة الكويت.

٧ ـ تاريخ الإسرائيليين، لشاهين مكاريوس، ط دار المقتطف ١٩٠٤م .

٨ ـ تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم، للأستاذ محمد عزة دروزة، ط أولى: نهضة مصر ١٩٥٨م ، وط ثانية اللجنة القومية للتأليف والنشر ١٩٦١م ، وط ثالثة المكتبة العصرية فى صيدا.

٩ ـ تاريخ الجنس العربى، للأستاذ محمد عزة دروزة، ط العصرية ١٩٥٨م، ١٩٦٤م.

١٠ ـ تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد على، ط المجمع العلمى العراقى.

١١ ـ تاريخ اللغات السامية، للدكنور إسرائيل ولفنسون، الاعتماد.

١٢ ـ تاريخ اليهود فى بلاد العرب، للدكتور إسرائيل ولفنسون، الاعتماد.

١٣ ـ تفسير ابن كثير(تفسير القرآن العظيم) لابن كثير، ط دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى وشركاه.

١٤ ـ تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل القرآن) لابن جرير الطبرى، مصطفى البابى الحلبى، ط ثالثة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨ م .

١٥ ـ تفسير القاسمى (محاسن التأويل) للقاسمى، عيسى البابى الحلبى، ط أولى ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.

١٦ ـ تفسير القرطبى(الجامع لأحكام القرآن) للقرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٩٦٧م.

١٧ ـ تفسير الكشاف، للزمخشرى، ط دار الكتاب العربى، بيروت.

١٨ ـ تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) للشيخ محمد عبده، تأليف محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت.

١٩ ـ تهذيب سيرة ابن هشام، للأستاذ عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة، ط ثانية، القاهرة ١٩٦٤م.

٢٠ ـ حياة محمد، للدكتور محمد حسين هيكل، دار إحياء التراث العربى ، ط ١٣ النهضة المصرية ١٩٦٨م.

٢١ ـ دراسة فى السيرة النبوية، للدكتور عماد الدين خليل، ط مؤسسة الرسالة دار النفائس ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٢٢ ـ الروض الأنف، للسهيلى، ومعه السيرة النبوية، لابن هشام، دار المعرفة للطباعة والنشر ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٣ ـ سنن أبى داود، ط مصر، التجارية، الأولى، وط المدينة المنورة.

٢٤ ـ سنن الترمذى (الجامع الصحيح) للترمذى، ط بولاق ١٢٩٢هـ وط الهند وط الحلبى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٥ ـ السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد، ط حجازى بالقاهرة.

٢٦ ـ صحيح البخارى، مع فتح الباري، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٧ ـ عصر النبى ﷺ وبيئته قبل البعثة، للأستاذ محمد عزة دروزة، ط أولى دار اليقظة العربية، دمشق ١٩٤٦م وط ثانية ١٩٦٠م.

٢٨ ـ عون المعبود: شرح سنن أبى داود، لابن قيم الجوزية، تحقيق عبد الرحمن عثمان، السلفية، ط ثانية ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

٢٩ ـ على مشارف القرن الخامس عشر الهجرى: دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، للأستاذ إبراهيم بن على الوزير، دار الشروق ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٣٠ ـ فلسطين والضمير العالمى، للأستاذ محمد على علوبة.

٣١ ـ فى التاريخ فكرة ومنهاج، للأستاذ سيد قطب، ط دار الشروق.

٣٢ ـ فى ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب، ط دار الشروق ١٣٩٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٣٣ ـ فى موكب الشمس، للدكتور أحمد بدوى.

٣٤ ـ القرآن واليهود، أخلاقهم ومواقفهم وأحوالهم فى زمن النبى ﷺ، ط دمشق ١٩٤٩م.

٣٥ ـ قصة الحضارة، لديورانت، ترجمة الأستاذ محمد بدران.

٣٦ ـ الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) ط بيروت.

٣٧ ـ مجلة العربى الكويتية: معنى التسميات للشعوب السامية الثلاثة الكبرى: العدد: ٩١ : ١٥١ سنة ١٩٦٦

٣٨ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، وبذيله التلخيص، للذهبى، ط أولى، حيدر آباد.

٣٩ ـ مسند أحمد وبهامشه منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندى ط الميمنية بمصر.

٤٠ ـ المسند ـ له أيضا ـ تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤م.

٤١ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.

٤٢ ـ المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية: مجموعة من المؤلفين، دار إحياء التراث العربى.

٤٣ ـ مقارنة الأديان: اليهودية، للدكتور أحمد شلبى النهضة المصرية ط ثانية ١٩٦٧م.

٤٤ ـ اليهودية والصهيونية، للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ، دار الأندلس، ط أولى ١٣٩١هـ ـ ١٩٧٢م.

وهناك كتب ومطبوعات رجعنا إليها، وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

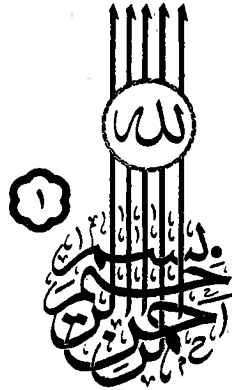
الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(٢)

الفكر اليهودي

تأليف
الدكتور سعد المرصفي

مكتبة المنار الإسلامية

١



ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

الفكر اليهودي

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مكتبة المنار الإسلامية

طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية



AL-MANAR ISLAMIC BOOK SHOP

Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045

Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tel. 2615045, Fax 2636854, P.O Box 43099 Hawalli, Postal Code No 32045

مقدمة

الفكر اليهِودىِ هو عصب العنصرية اليهودية... وبالرغم من الالتحام العضوى بين ماهو عقيدة وما هو عنصرية، وبالرغم من أن نتيجة ذلك كانت من الناحية الاجتماعية إبقاء تلك الطائفة الشريرة معزولة عن الإنسانية ـ عبر التاريخ ـ فإن تأثير الفكر اليهودى كان عميقا فى الفكر البشرى، بقدر ماكان متأثرا بالوثنيات والانحرافات!

وهو مجموعة من العقائد التى دخلها التحريف، والطقوس التى قامت على التخريف، تراكمت وتبلورت، حتى أصبحت خطرا على الإنسانية !

وحسبنا أن ندرك أن اليهودى فى كل مراحل تاريخه ذو طبيعة لاتتغير، فهو من ناحية العقيدة وثنى، ومن ناحية الأخلاق فى الدرك الهابط دون الحيوان، وقد استحالت نفسه إلى اللؤم والخسة والفساد والإفساد فى الأرض، بحيث لم يعد فيها موضع يصلح لبذرة خير أو معروف، لأن غرائز الشر والتوحش تنمرت فى تلك النفس الخبيثة، حتى أصبحت هكذا!

ومن ثم استخدمت الصهيونية من ألوان الحرب والكيد والمكر ضد الدين القيم، مايعجز الخيال الشاخص عن تصوره بحال من الأحوال !

وهى فى هذه الفترة تعالج إزالة الإسلام بجملته، وتحسب أنها تدخل معه فى المعركة الأخيرة الفاصلة ....لذلك تستخدم جميع الأساليب التىِ جربتها منذ عصر الرسالة والرسول ﷺ ... بالإضافة إلى مااستحدثته منها، جملة واحدة....كل ذلك وفق ما يمليه الفكر اليهودى !

ومن هنا كان الحديث عن معاول الفكر اليهودى ـ كما تصوره أسفارهم ـ ضروريا، لأن المعرفة من المكونات الرئيسة لمعالم دوافع هذه الحرب المستعرة، وكانت الحاجة ماسة إلى عرض ماجاء فى الكتاب والسنة فى هذا المقام، رجاء أن يكون فى ذلك ذكرى تفيدنا فى مواجهة هؤلاء اليهود الذين هم أشد الناس عداوة للإسلام والمسلمين !

وقد اقتضت منهجية البحث أن يشتمل على مايأتى:

الفصل الأول: عقيدة اليهود من أسفارهم.

الفصل الثاني: أضواء على التوراة.

الفصل الثالث: الأسفار وأنبياء بنى إسرائيل.

الفصل الرابع: ضلالات التلمود.

والله أسأل: التوفيق والسداد، والعون والرشاد، إنه سميع مجيب؛

الكويت في : ٢٨ رجب ١٤١٢ هـ
١ فبراير ١٩٩٢ م

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)

الفصل الأول

عقيدة اليهود من أسفارهم

إله كنعاني - « عزير ابن الله » - آلهة أخرى -
انحطاط حيواني.

إله كنعاني:

يقول الأستاذ أحمد عطار: [١] فى كل مراحل التاريخ الإنسانى، كان اليهودى ذا طبيعة لا تتغير، فهو من ناحية عقيدته وثنى، وعندما ألقى إليه التوحيد لم يفهمه حق الفهم ـ إلا قلة نادرة ـ وكانت عقيدة التوحيد غير متفقة مع فطرته وطبيعته وسلوكه!

وأسفار اليهود المقدسة ـ وفيما يطلقون عليه التوراة التى تتكون من خمسة أسفار ـ تصور حقيقة اليهودى، وأسفارهم هذه تدينهم وتوثقهم، وتذكر أن اليهود قذارة البشر!

فمن ناحية العقيدة عبدوا « يهوه » أو « ألوهيم » ووحدوه، ولكنه لم يكن توحيد موسى الحق، بل هو قائم على الشرك والتعدد، وأشبه مايكون بالجنسية!

فهم يوحدون « يهوه » ولكنهم لا يكفرون بغيره، بل يعترفون بآلهة الآخرين، كما يعترف إنسان بجنسيته، ويعترف إلى جانب ذلك بالجنسيات الأخرى!

بل وصل بهم الأمر إلى أن جعلوا أفضل من فيهم، وهم الأنبياء والرسل ليسوا بأهل لأن يكونوا كذلك ـ كما سيأتى ـ إذا اعتمدنا توراتهم وأسفارهم المقدسة، لأن فى أقوالهم وأعمالهم المزعومة والمنسوبة إليهم ما ينقض الرسالة والنبوة والتوحيد، بل إن أعمالهم وأقوالهم هذه مما لا يرضى به الشرفاء من بنى الإنسان!

ففى توراتهم وأسفارهم المقدسة وصف رسلهم وأنبيائهم بما يتنزه عنه المهذبون، منذ عرف الإنسان الأخلاق الكريمة حتى اليوم، وأن بعض رسلهم وأنبيائهم بلغ بهم الانحطاط الخلقى حدا لم يصل إليه المجردون من الإنسانية، إلا من كان من بنى الإنسان يعيش بطبيعته البهيمية العجماء، وهو افتراء محض على الله ورسله وأنبيائه!

إن اليهود صوروا أنبياءهم ورسلهم أبشع صورة وأقذرها، ليبيحوا لأنفسهم القذارة والسفالة وكل الأخلاق اللئيمة الممقوتة، وإذا كان القدوة قذرا سافلا فلا لوم على المقتدي أن يكون كذلك!

ولا لقاء بين اليهود فى نظريتهم فيما يختص بالرسل والأنبياء وبين المسلمين ـ كما سيأتى ـ لأن المسلمين ينزهون الرسل والأنبياء جميعا كل التنزيه عما ألصقوه بهم من تهم وأخلاق ذميمة منكرة!

---

(١) اليهودية والصهيونية: ٢٩ وما بعدها بتصرف.

وأما العقيدة اليهودية فلم تكن قط عقيدة توحيد إذا اعتمدنا مصادرهم التى تأتى في طليعتها توراتهم وتلمودهم وأسفارهم المقدسة، فى حين أن الإسلام يؤكد أن دين موسى توحيد حق، وإيمان بأنه لا إله إلا الله، ونفى لكل شريك.

والعقيدة اليهودية التى تصورها أسفار اليهود المقدسة عندهم عقيدة وثنية، فالإله الذى يعبدونه ليس « الله » الواحد الأحد، بل هو إله قبلى محلى خاص بهم، لا يشركهم فيه سواهم، ولا يرضون أن يشركهم فيه أحد غيرهم !

وهذا الإله الذى يعرفونه بكلمة « يهوه » إله كنعانى ابتدعه الوثنيون، وأخذه اليهود عنهم، وزادوا فى صفاته ما يتفق مع حياتهم وطبيعتهم !

يقول « ول ديورانت » (١) : يبدو أن الفاتحين اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه فى الصورة التى كانوا هم عليها وجعلوا منه إلها، ويؤيد ذلك أن من بين الآثار التى وجدت فى كنعان سنة ١٩٣١م قطعا من الخزف من بقايا عصر البرنز (٣٠٠٠ق م) عليها اسم إله كنعانى يسمى « ياه » أو « ياهو » .

وعلى هذا تكون كلمة « يهوه » معروفة قبل ميلاد إبراهيم عليه السلام .

وفى أسفارهم المقدسة أن إبراهيم عرف « يهوه » بلفظه ومعناه !

وقصة « الخليقة » لدى اليهود منقولة عن « بابل » وكذلك قصة « الطوفان » !

وفكرة « المخلص » نقلها اليهود عن الديانة الفارسية وتمسكوا بها !

ونظر اليهود فى صفات إلههم « يهوه » إلى الديانات الوثنية، وفكرة « خصوصية » الإله منقولة عن الوثنيات التى سبقت ديانتهم أو عاصرتها !

والمخالفات التى تزدحم بها التوراة والتلمود وكتب اليهود التى يقدسونها لحقيقة التوحيد تثبت أن التوراة الأصلية الصحيحة التى فيها هدى ونور قد تغيرت وحرفت على أيدى اليهود ــ كما سيأتى ــ ودخلت فيها الوثنيات من الشرك والتعدد والكفر والإلحاد وكل أنواع الباطل والفساد، وما تذكر من التجسيد وصفات « يهوه » من الحمق والطيش والندم والتوحش والتعطش إلى الدماء البريئة ــ كما نشاهد الآن فى الأرض المحتلة ــ والمحاباة لعباده إنما هو مذكور فى صفات آلهة بابل وآشور وغيرهما !

---

(١) مقارنة الأديان : اليهودية: ١٦٠ نقلا عن قصة الحضارة:٢: ٣٤٠

وفى الفترات التى كانت دعوة التوحيد الموسوية تعلو على غيرها لم تخل اليهودية من اعتقاد التعدد، فقد كانوا يؤمنون بإلههم « يهوه » مع الاعتراف بألهة الشعوب الأخرى !

«عزير ابن الله » :

وأخذوا بفكرة البنوة لله من المسيحية ومن كرشنا وبوذا وباخوس، فزعم اليهود أن «عزرا» الذى ذكره القرآن باسم « عزير » هو ابن الله !

وصدق الله العظيم:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (1)

وقد أورد صاحب المنار (2) خلاصة مفيدة عن مكانة عزرا عند اليهود وعلق عليها كذلك تعليقا مفيدا ننقل منه فقرات تفيدنا فى بيان حقيقة ما عليه اليهود إجمالا، قال:

« جاء فى دائرة المعارف اليهودية الإنكليزية (طبعة ١٩٠٣) أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ المِلّى لليهودية، الذي تفتحت فيه أزهاره، وعبق شذا ورده، وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة (وفى الأصل عربة أو مركبة الشريعة) لو لم يكن جاء بها موسى (التلمود ٢١ب) فقد كانت نسيت، ولكن عزرا أعادها أو أحياها. ولولا خطايا بني إسرائيل لا استطاعوا رؤية (المعجزات) كما رأوها فى عهد موسى ١٠٠هـ وذكر فيها ـ أنه كتب الشريعة بالحروف الأشورية، وكان يضع علامة على الكلمات التى يشك فيها ـ وأن مبدأ التاريخ اليهودى يرجع إلى عهده .

وقال الدكتور «جورج بوست » فى قاموس الكتاب المقدس: عزرا (عون) كاهن يهودي، وكاتب شهير، سكن بابل مدة « ارتحشستا » الطويل البارع، وفى السنة السابعة لملكه أباح لعزرا أن يأخذ عددا وافرا من الشعب إلي أورشليم سنة ٤٥٧ق م (عزرا ص٧) وكانت مدة السفر أربعة أشهر.

ثم قال : وفى تقليد اليهودى يشغل عزرا موضعا يقابل بموضع موسى وإيليا، ويقولون: إنه أسس المجمع الكبير، وإنه جمع أسفار الكتاب المقدس، وأدخل الأحرف الكلدانية عوض العبرية القديمة، وإنه ألف أسفار « الأيام » و «عزرا » و « نحميا » .

(1) التوبة: ٣٠.

(2) تفسير المنار: ١٠ : ٣٢٢ ومابعدها ، وانظر: فى ظلال القرآن: ٣: ١٦٣٦ .

ثم قال : ولغة سفر « عزرا » من ص ٤ : ٨ ـ ٦ : ١٩ كلدانية، وكذلك ص ٧: ١ ـ ٢٧ وكان الشعب بعد رجوعهم من السبى يفهمون الكلدانية أكثر من العبرانية ا هـ .

وجملة القول: إن اليهود كانوا وما زالوا يقدسون عزيرا هذا، حتى أطلق عليه لقب «ابن الله » .

آلهة أخرى:

وعندما نجى الله اليهود على يد موسى عليه السلام، ورأوا معجزاته وما تم على يديه، وكانوا فى سيناء، حيث الأمن والدعة والحرية والرزق، طلبوا إلى رسول الله موسى عليه السلام ـ كما سبق ـ أن يجعل لهم آلهة، فزجرهم أشد الزجر !

بل ترك اليهود عبادة الله وحده، وعادوا إلى وثنيتهم، وهم حديثو عهد بمعجزة النجاة، وكفروا بالهداية وبالنجاة وبنعم الله التى لا تحصى، وانقلبوا مشركين بنص توراتهم !

ففى سفر الخروج، وهو من أسفار توراتهم: (١)

« ولما رأى الشعب موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه ..! » .

وفيه أيضا:

« تضرع موسى أمام الرب إلهه، وقال: لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرجهم بخبث، ليقتلهم فى الجبال، ويفنيهم عن وجه الأرض، ارجع عن حمو غضبك، واندم على الشر بشعبك »

وفيه: «فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه !»

هذا هو مفهوم اليهودى من عقيدة التوحيد، وهذا الذى حدث كان والديانة غضة طرية، وعبدوا العجل الذهبى وموسى على مقربة منهم ـ كما سبق ـ وجحدوا فضل الله عليهم.

وفى جميع مراحلهم أشركوا بالله، بل كفروا« بيهوه » وأخلصوا لغيره.. وعلى سبيل المثال نذكر بعض الحوادث التى تثبت كفر اليهود من كتبهم المقدسة التى لم تقتصر على

---

(١) سفر الخروج: ٣٢: ١.

نسبة الشرك والكفر إلى العامة، بل نسبتهما إلى رسل كرام يؤمنون برسالتهم، ومنهم سليمان عليه السلام.

في سفر « الملوك الأول » بالإصحاح الحادى عشر:

«وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى .. فذهب وراء آلهة الصيدونيين ... وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللاتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن»!

وفى سفر «الملوك الأول» بالإصحاح الثانى عشر:

« بنى يربعام شكيم فى جبل افرايم وسكن بها .. وعمل عجلى ذهب، وقال لهم: كثير عليكم أ تصعدوا إلى أورشليم، هوذا آلهتك ياإسرائيل »!

وفى سفر « أرميا » الإصلاح الخامس، الفقرة ١٩:

« كما تركتمونى وعبدتم آلهة غريبة فى أرضكم، هكذا تعبدون الغرباء فى أرض ليست لكم » .

وفى سفر « أرميا » ٧: ١٧ ـ ١٨:

« أما ترى ماذا يفعلون فى مدن يهوذا، وفى شوارع أورشليم، الأبناء يلتقطون حطبا، والآباء يوقدون النار، والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكا لملكة السموات، ولسكب سكائب لآلهة أخرى لكي يغيظونى» .

وملكة السموات هذه هى« عشتروت » أو« عشيرا » التى يصفها « غوستاف لوبون » في كتابه: « اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى » بأنها الآلهة الشهوانية التى كان العبريون يعبدونها فى الأماكن العليا بين الغياض، والتى كانوا يأتون الدعارات تكريما لها!

هذه شواهد من أسفار اليهود المقدسة، ولو أردت الاستشهاد بأكثر مما ذكرت لطال بنا الحديث وطال، فأسفارهم مزدحمة بمروقهم عن التوحيد، بل عن عبدة ربهم « يهوه » إلى عبادة آلهة الوثنيين. فتقربوا لهذه الآلهة بقرابين بشرية، إذ أحرقوا أولادهم تقربا إليها !

ولم يقف الكفر والشرك على عامة اليهود، بل تجاوزهم إلى الرسل الكرام عليهم السلام، مثل سليمان، وزعموا فى كتبهم أن هؤلاء الرسل اعترفوا بالبعل إله الكنعانيين، فكانوا يسمون أبناءهم أسماء منسوبة إلى البعل .. وداود عليه السلام سمى أحد أبنائه « بعليان داع » كما يذكر« أخبار الأيام الأول » ٨: ٣٤، ٩: ٤٠، ١٤: ٧.

وأبشع من كل هذا ماجاء فى« التلمود » الذى يقدسه اليهود أكثر من « التوراة » بل «التلمود» ـ كما سيأتى ـ هو الكتاب الفريد فى القدسية، ولا يذكر « التوراة » بجانبه شيئا، فيزعم « التلمود » أن فى «التوراة» أحكاما لايعاقب تركها بالموت، أما« التلمود » فإن من يخالف حرفا واحدا فجزاؤه القتل !

وهبط اليهود بإلههم « يهوه » فى التلمود إلى هوة سحيقة من الذل والهوان، وصيروه تابعا ذليلا للحاخام، ولا أمر« ليهوه » ولا طاعة، بل زعم التلمود أن كلام الحاخام شرع ووحى، لأنه يصبح« يهوه » مع الاحتفاظ للحاخام بتفوقه على« يهوه» ،فهو أعظم منه، وإذا اختلف« يهوه » والحاخام فالحق مع الحاخام،بل إن « يهوه » خاضع للحاخام، لأن « يهوه » مجبر على إجراء مايريده الحاخام، وهو مؤتمر بأمره، ومنته بنهيه !

بل بلغ من عظم« التلمود » أن سفر« مجيلا » بالفقرة الواحدة والعشرين يقول:«إن الله يدرس التلمود منتصبا على قدميه » !

ونخرج « من« التلمود » و« التوراة » وأسفار اليهود المقدسة عندهم بتقرير وإعلان الكفر المقيت، والإلحاد اللئيم، والشر البشع، والتعدد الحقير !

انحطاط حيوانى:

والعقيدة الدينية التى يعتقدها اليهود تجعلهم فى حل من كل عقيدة، وتحملهم على فعل ما يستقبحه العقل والضمير، ويستقذره الإنسان، لأنها عقيدة جيوانية، وتعالى الله عز وجل عما يصنعه اليهود، وتعالى عما يشركون !

وعقيدة اليهود الدينية أبشع ما عرف التاريخ البشرى من عقائد، فهى عقيدة الشرك والشقاق والنفاق والاحتكار والقتل والوحشية والأذى !

وفى جميع مراحل عقيدة اليهود لم تكن عقيدة هداية وتهذيب ورشد، ولم تعط العالم قط أى بشرى أو خير أو إحسان، بل أعطته النقيض.. أعطته الشر والأذى، والموت الزؤام والفساد، ولم توح قط بالأخوة الإنسانية، والرحمة والتعاطف والحب.

ولم تكن قط ديانة اليهود رسالة خير وبناء، بل كانت فى جميع مراحلها ـ باستثناء عهد موسى وهارون، وبعض العهود التى تولى الحكم فى بنى إسرائيل رسل كرام ـ ديانة هدم وتخريب وإبادة !

ومن المؤسف أن عقيدة اليهود الدينية لا تفهم الخير ولا تدرك معناه، وإذا فهمته فإنما تفهمه على أنه الشر المستطير، الذى لاشر مثله، ولا يكون الخير إلا فى قتل الأبرياء والعجزة والشيوخ والنساء والأطفال، وسلب الأموال، وانتهاك الحرمات، وتمزيق الأعراض، ونشر الفتن والفساد فى الأرض ! كما نرى ونشاهد فى الأرض المحتلة !

ونبصر فى كثير من العقائد وصايا تعد من تراث الإنسانية المشترك: اعمل الخير، أكرم الضيف، أعن المحتاج، ارحم العاجز، لاتسرق، لاتزن، لاتقتل، لاتشهد بالزور، لاتقرض بربا، لاتغش..

ولاشك أن هذه الوصايا تعمر القلوب والدنيا، وتجعل الحياة طيبة كريمة، وعندما تناولها اليهود حولوها إلى شر محض !

وديانة اليهود ـ كما جاء فى التلمود وفى التوراة وبقية الأسفار المقدسة ـ تأمر اليهودى بأن يغش غير اليهودى فيقول له التلمود: غش الجيويم « وهم كل أمم الأرض ماعدا اليهود» واسلب أموالهم بالربا الفاحش، فإذا وجدت مالا ضائعا للأجنبى فلا ترده إليه، لأن رده إليه ذنب لا يغفره اللّه.

وديانتهم تفخر بالخداع والغش والكذب، وتنص على أن الحاخامين الذين هم آلهة عندهم بنص التملود وأعظم من ربهم المعبود« يهوه » ـ كما عرفنا ـ يغشون الأممى.

وتذكر مافعله الحاخام الأكبر الرابى« صموئيل »، وهذا نص التلمود مترجما إلى العربية:

« إن الرابى صموئيل كان رأيه أن سرقة الأجانب حلال، وقد اشترى هو نفسه من أجنبى آنية من الذهب كان يظنها الأجنبى نحاسا، ودفع له ثمنها أربعة دراهم وهو ثمن بخس، وسرق درهما من البائع ! »

وإذا كان هذا الحاخام الأكبر كذابا وغشاشا ولصا فغيره أشد من باب أولى، وكل اليهود سواء فى الطبيعة القذرة الشريرة !

وإن أشد المجرمين من غير اليهود يعد صالحا، إذا قيس على حاخامى اليهود الذين هم آلهة عند أتباعهم وعبادهم !

وطبيعى أن يكون اليهود جميعا بلا استثناء مجردين من الطبيعة البشرية ! فالفضيلة

والأخلاق الإنسانية الكريمة قيد ثقيل يصد صاحبها عن الآثام والمحرمات والموبقات، ويدفعه إلى فعل الخير والعمل الصالح، واليهودى لايطيق هذا القيد، ولهذا لايستطيع أن يتخلق بالأخلاق الكريمة، لأنه مطبوع على التحلل من كل قيد من قيود الأخلاق والفضائل والإنسانية والمروءة!

وديانته تأمره بهذا التحلل، وترى أبشع الجرائم أقدس الفضائل، فالزنا حرام محض فى جميع الشرائع والديانات إلا فى« التلمود » كتاب اليهود المقدس الذى يسمو على توراتهم، فهو ـ كما سيأتى ـ ينص على أن الزنا حلال بغير يهودية ! يقول« غوستاف لوبون» فى كتابه« اليهود » : ٥١:

ليس زنا الأزواج هو الجرم الوحيد الذى تحرمه الشريعة على مزاج بنى إسرائيل الداعر، ففى شريعتهم تعداد لدعارات عنيفة، مع شدة عقوبة من يقترف إحداها، وتثبت هذه الشدة كثرة المخالفات.

وسفاح ذوى القربى: أى الزنا بالأخت، والزنا بالأم، واللواط، والمساحقة، ومواقعة البهائم، من أكثر الآثام التى كانت شائعة بين الشعب الذى نص«تاسيت » على شبق له، لا يروى غليله.

وأريد لدى بنى إسرائيل ـ كما عند كل شعب ذى غلمة ـ خلط أفظع الملاذ بالطقوس المقدسة، وموافقة الشريعة على هذه الملاذ، فعدت ضروب البغاء تكريما لعشتروت، وعد الانهماك فى السكر على بسط الأزهار، وتحت ظلال شجر الزيتون فى الليالى الرطيبة نوعا من العبادة التى لم تفتأ تمارس آنئذ فى فلسطين، على الرغم من غضب الأنبياء!

وما فى الفصل الثانى عشر من سفر اللاويين من المحظورات، كسفاح ذوى القربى، واللواط، ومواقعة الرجال والنساء للبهائم وما إلى ذلك ... يدل على درجة غلمة الشعب اليهودى !

فهو باسم الديانة يمارس هذه الجرائم المنكرة البشعة، وما جاء التشديد البالغ أقصى درجاته إلا لأن اليهود كانوا مولعين ولعا لا حد له بممارسة هذه الجرائم، يمارسها اليهودى مع اليهودى واليهودية !

والتلمود يبيح لليهودى الفاحشة مع غير اليهودية، كما يحل له كل ماتحرمه الشرائع

وقوانين الأرض !

والعقيدة التى تصنع ذلك، لن تكون عقيدة صالحة، ولن تعطى غير الشر، ولهذا لم يعتنقها غير اليهود، الذين أدركوا مافى عقيدتهم من الكفر المنكر والفساد والآثام والجرائم والموبقات، فجعلوها عقيدة خاصة بهم، كما جعلوا ديانتهم مغلقة على أنفسهم، حتى يفتخروا بأنهم هم الذين يحرمون على غيرهم الدخول فى ديانتهم، كما حرموا على غيرهم إلههم « يهوه » الذى أباح الزنا لبعض الأنبياء، كما عاقب داود على زناه بأن يجعل ابنه ـ كما سيأتى ـ يزنى بنساء أبيه، وفى وضح النهار، وأمام بنى إسرائيل !

ولو كانت هذه الموبقة وحدها لا ستبشع الناس عقيدة اليهود، فكيف وقد أضافوا إليها كل مافى الأرض من الموبقات والآثام !

ولا غرابة أن يستبشع الناس ديانة اليهود، وينكروا عليهم البشرية ويحاربوهم منذ القدم، وحتى اليوم وبعده، فعقيدتهم الدينية، وطبيعتهم وأخلاقهم .. كل أولئك يجبر الناس إجبارا، ويدفعهم دفعا شديدا إلى محاربة هذا الشعب الكافر اللئيم، الذى وقف عليه كل مافى الوجود من آثام وجرائم، وشرور وموبقات، كما يدفعهم إلى محاربة عقيدته التى تأمر بالمنكر، وتنهى عن المعروف، وتكفر بالله !

الفصل الثاني

أضواء على التوراة

الأسفار المقدسة ـ « هدى ونور » ـ

تحريف وتخريف

الأسفار المقدسة:

والتوراة كلمة عبرانية ـ كما يقول صاحب المنار [1] ـ معناها المراد: الشريعة أو الناموس، وهى في عرف القرآن: ما أنزله الله تعالى من الوحى على موسى عليه الصلاة والسلام، ليبلغه قومه، لعلهم يهتدون به .

وتطلق عندهم على خمسة أسفار، وهى:

١ ـ سفر التكوين .

٢ ـ سفر الخروج.

٣ ـ سفر التثنية .

٤ ـ سفر اللاويين .

٥ ـ سفر العدد .

أما سفر التكوين« أو الخلق » [2] فسمى بذلك لأنه يقص خلق السموات والأرض، ويحكى قصة خلق آدم عليه السلام وأكله من الشجرة، ونزوله إلى الأرض، كما يحكى قصة نوح عليه السلام، وقصة الطوفان، وقصة إبراهيم عليه السلام وأولاده، وينتهى هذا السفر بالحديث عن قصة يوسف عليه السلام إلى أن مات .

وأما سفر الخروج فسمى بذلك لأنه يحكى تاريخ بنى إسرائيل فى مصر، وكيف خرجوا منها ؟ وكيف عاشوا بعد ذلك ؟ كما يحكى قصة التيه وما جرى بينهم وبين موسى عليه السلام .

وأما سفر التثنية فسمى بذلك لأنه يكرر ويعيد التعاليم .. ومعظمه يدور حول الشئون التشريعية والاقتصادية والسياسية الخاصة ببنى إسرائيل .

وأما سفر اللاويين فمعظمه يدور حول شئون العبادات والوصايا والأحكام، والطقوس والأعياد، والنذور، واللاويون هم نسل « لاوى » أحد أبناء يعقوب عليه السلام، ومنهم موسى وهارون عليهما السلام، ونسب هذا السفر إليهم، لأنهم كانوا سدنة الهيكل ، وحفظة الشريعة، ومعظمه يدور حول مايشرفون عليه من عبادات ومعاملات .

---

(١) تفسير المنار: ٣: ١٥٥ ـ١٥٦ بتصرف.

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة: ١: ٨٤ وما بعدها بتصرف .

وأما سفر العدد فمعظمه يدور حول تقسيم بنى إسرائيل، وبيان تعداد أسباطهم وجيوشهم وأموالهم وذكورهم وإناثهم .. وبجانب هذا بعض الأحكام التى تتعلق بالعبادات والمعاملات .

أما الأربعة والثلاثون سفر الباقية فمنسوبة إلى أشخاص كتبوها بعد موسى عليه السلام بأزمان متفاوتة فى الطول والقصر..[1] وهى مقدسة أيضا عند اليهود، ويصنفونها في ثلاثة أبواب، [2] ويضعون فى الباب الأول اثنى عشر سفرا، وهى: سفر يوشع، والقضاة، وراعوث، وصموئيل الأول، وصموئيل الثانى، والملوك الأول، والملوك الثانى، وأخبار الأيام الأول، وأخبار الأيام الثانى، وعزرا، ونحميا، وأستير.

وتسمى هذه الأسفار الاثنا عشر الأسفار التاريخية.

والباب الثانى يحتوى خمسة أسفار، وهى : سفر أيوب، والمزامير، والأمثال، والجامعة، والأناشيد.

وتسمى الأسفار الشعرية أو أسفار الأناشيد .

ويضعون فى الباب الثالث مابقى من الأسفار،وعدده سبعة عشر سفرا، هى: سفر أشعياء، وأرميا، والمرائى، وحزقيال، ودانيال، وهوشع، ويوئيل، وعاموس، وعوبديا، ويونان، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصفنيا، وحجى، وزكريا، وملاحى .

وهناك سبعة أسفار أخرى تضمها الكنيسة الكاثوليكية إلى التسعة والثلاثين سفرا السابقة، وهى: طوبيا، ويهوديت، والحكمة، ويسوع بن سيراخ، وباروخ، والمكابيين الأول، والمكابيين الثانى .

وأهمها جميعا مايعرف بالتوراة، وهى خمسة الأسفار الأولى ...

« هدى ونور » :

يعترف الإسلام بالتوراة التى أنزلها الله على موسي، ولايعترف بسواها من أسفار العهد القديم، قال تعالى:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ

---

(١) انظر: المرجع السابق: ٨٥ ومقارنة الأديان: اليهودية: ٢١٩ ومابعدها.

(٢) اليهودية والصهيونية: ٨٧ ــ ٨٨ بتصرف .

وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾[1].

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾[2].

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[3].

فالتوراة ــ كما أنزلها الله ــ كتاب الله الذى جاء لهداية بنى إسرائيل، [4] وإنارة طريقهم إلى الله .وطريقهم فى الحياة .. وقد جاءت تحمل عقيدة التوحيد.. وتحمل شعائر تعبدية شتى ... وتحمل كذلك شريعة:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾

أنزل الله التوراة، لا لتكون هدى ونورا للضمائر والقلوب، بما فيها من عقيدة وعبادات فحسب، ولكن كذلك لتكون هدى ونورا، بما فيها من شريعة تحكم الحياة الواقعية وفق منهج الله، وتحفظ هذه الحياة فى إطار هذا المنهج ويحكم بها النبيون الذين أسلموا أنفسهم لله ــ كما أسلفنا ــ فليس لهم فى أنفسهم شىء ، إنما هى كلها لله، وليست لهم مشيئة ولا سلطة ولا دعوى فى خصيصة من خصائص الألوهية ــ وهذا هو الإسلام فى معناه الأصيل ــ يحكمون بها للذين هادوا.. فهى شريعتهم الخاصة، نزلت لهم فى حدودهم هذه، وبصفتهم هذه ــ كما يحكم بها لهم الربانيون والأحبار ــ وهم قضاتهم وعلماؤهم ... وذلك بما أنهم قد كلفوا المحافظة على كتاب الله، وكلفوا أن يكونوا عليه شهداء، فيؤدوا له الشهادة فى أنفسهم، بصياغة حياتهم الخاصة وفق توجيهاته، كما يؤدوا له الشهادة فى قومهم بإقامة شريعته بينهم.

وقبل أن ينتهى السياق من الحديث عن التوراة، يلتفت إلى الجماعة المسلمة، ليوجهها فى شأن الحكم بكتاب الله عامة، وما قد يعترض هذا الحكم من شهوات الناس وعنادهم وحربهم وكفاحهم، وواجب كل من استحفظ على كتاب الله فى مثل هذا الموقف،

---

(١) آل عمران: ٢ ــ٣ . (٢) الأحقاف: ١٢ .

(٣) المائدة : ٤٤ . (٤) فى ظلال القرآن: ٢: ٨٩٦ بتصرف .

وجزاء نكوله أو مخالفته:

﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

ولقد علم الله سبحانه أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه فى كل زمان وفى كلّ أمة معارضة من بعض الناس، ولن تتقبله نفوس هذا البعض بالرضى والقبول والاستسلام !

ستواجهه معارضة الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث.. ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذى يدعونه، ويرد الألوهية لله خاصة، حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله !

وستواجهه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم والسحت.. ذلك أن شريعة الله العادلة لن تُبقِى على مصالحهم الظالمة !

وستواجهه معارضة ذوى الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال الداعر ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها، وسيأخذهم بالعقوبة عليها !

وستواجهه معارضات شتى غير هذه وتلك، ممن لايرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح فى الأرض !

علم الله سبحانه أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجبهات، وأنه لابد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة، وأن يصمدوا لها، وأن يحتملوا تكاليفها فى النفس والمال .. فهو يناديهم:

﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾

فلا تقف خشيتهم للناس دون تنفيذهم لشريعة الله.. سواء من الناس أو أولئك الطغاة البغاة الذين يأبون الاستسلام لشريعة الله، ..ويرفضون الإقرار ـــ من ثم ـــ بتفرد الله سبحانه بالألوهية ... أو أولئك المستغلون الذين تحول شريعة الله بينهم وبين الاستغلال وقد مردوا عليه ... أو تلك الجموع المضللة المنحرفة أو المنحلة التى تستثقل أحكام شريعة الله وتشغب عليها .. لا تقف خشيتهم لهؤلاء جميعا ولغيرهم من الناس دون المضى قدما فى تحكيم شريعة الله فى الحياة .. فالله وحده هو الذى يستحق أن يخشوه، والخشية لاتكون إلا لله.

كذلك علم الله سبحانه أن بعض المستحفظين على كتاب الله المستشهدين، قد تراودهم أطماع الحياة الدنيا،وهم يجدون أصحاب السلطان، وأصحاب المال، وأصحاب الشهوات، لايريدون حكم الله فيتملقون شهوات هؤلاء جميعا، طمعا فى عرض الحياة الدنيا، كما يقع من المحترفين للدين فى كل جيل وفى كل قبيل، وكما كان ذلك واقعا فى علماء بنى إسرائيل، سواء بسواء .. فناداهم الله:

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

وذلك لقاء السكوت، أو لقاء التحريف، أو لقاء الفتاوى المدخولة !

وكل ثمن هو فى حقيقته قليل... ولو كان ملك الحياة الدنيا .. فكيف وهو لايزيد عن أن يكون رواتب ووظائف وألقابا ومصالح صغيرة يباع بها الدين، وتشترى بها جهنم عن يقين ؟!

إنه ليس أشنع من خيانة المستأمن !

وليس أبشع من تفريط المستحفظ !

وليس أخس من تدليس المستشهد !

والذين يحترفون الدين يخونون ويفرطون ويدلسون، فيسكتون عن العمل لتحكيم ما أنزل الله، ويحرفون الكلم عن مواضعه، لموافاة أهواء ذوى السلطان على حساب كتاب الله !

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

بهذا الحسم الصارم الجازم .. وبهذا التصميم الذى تحمله « من » الشرطية وجملة الجواب.. بحيث يخرج من حدود الملابسة والزمان والمكان، وينطلق حكما عاما، فى أى جيل، ومن أى قبيل !

إن المماحكة فى هذا الحكم الصارم الجازم العام الشامل، لا تعنى إلا محاولة التهرب من مواجهة الحقيقة . والتأويل والتأول فى مثل هذا الحكم لا يعنى إلامحاولة تحريف الكلم عن مواضعه !

يروى الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال: إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ ، فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ :

«ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟»

فقالوا: نفضَحُهم ويُجْلَدون . قال عبدُ الله بن سَلام: كذبتم. إن فيها الرجم، فأَتَوْا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ماقبلها وما بعدها . فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك . فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صدقَ يامحمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجِماَ، فرأيت الرجل يَحْنى على المرأة يقيها الحجارة» (١)

ويروى مسلم عن البراء بن عازب قال: مُرَّ على النبى ﷺ بيهودىٍ مُحَمَّماً (٢) مجلودا. فدعاهم ﷺ فقال:

« هكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟»

قالوا: نعم. فدعا رجلا من علمائهم . فقال:

« أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ! أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ »

قال : لا. ولولا أنك نَشَدتنى بهذا لم أخبرك. نجده الرجم . ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا، إذا أخذنا الشريف تركناه. واذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد .

قلنا: تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع. فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ :

« اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه »

فأمر به فرجم. فأنزل الله عز وجل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلۡكُفۡرِ ﴾

إلى قوله :

﴿ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ ﴾ (٣) .

---

(١) البخارى: ٨٦ ـ الحدود (٦٨٤١)، ومسلم: ٢٩ ـ الحدود ٢٦ (١٦٩٩)، ومالك: ٤١ ـ الحدود (١)، والترمذى (١٤٣٦)، وأبوداود (٤٤٤٦ ، ٤٤٤٩) والشافعى فى الرسالة (٦٩٢) تحقيق أحمد محمد شاكر.

(٢) مُحَمَّماً: أى مسود الوجه، من الحممة: الفحمة . (٣) المائدة: ٤١ .

يقول: ائتوا محمدا ﷺ . فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه وان أفتاكم بالرجم فاحذروا. فأنزل الله تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [1].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [2].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [3].

فى الكفار كلّها. [4]

ويعود السياق القرآنى لعرض نماذج من شريعة التوراة التى أنزلها الله ليحكم بها النبيون والربانيون والأحبار للذين هادوا، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [5].

ويمضى السياق القرآنى فى بيان اضطراد هذا الحكم العام فيما بعد التوراة:

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ [6]

ويصل السياق القرآنى إلى الرسالة الأخيرة، وإلى الشريعة الأخيرة..[7] إنها الرسالة التى جاءت تعرض الإسلام فى صورته النهائية الأخيرة،ليكون للبشرية كلها، ولتكون شريعته هى شريعة الناس جميعا، ولتهيمن على كل ماكان قبلها ، وتكون هى المرجع النهائى ولتقيم منهج الله لحياة البشرية، حتى يرث الله الأرض ومن عليها... المنهج الذى تقوم عليه الحياة فى شتى شعبها ونشاطها.. والشريعة التى تعيش الإنسانية الحياة فى إطارها. وتدور حول محورها، وتستمد منها تصورها الاعتقادى، ونظامها الاجتماعى، وآداب سلوكها الفردى والجماعى..

---

(١) المائدة: ٤٤ . (٢) المائدة: ٤٥ . (٣) المائدة: ٤٧ .

(٤) مسلم: ٢٩ ـ الحدود ٢٨ (١٧٠٠)، وأبو داود (٤٤٢٤) عون المعبود . (٥) سورة المائدة: آية ٤٥ .

(٦) المائدة: ٤٦ ـ٤٧ . (٧) فى ظلال القرآن: ٢: ٩٠١ بتصرف .

وقد جاءت كذلك ليحكم بها، لا لتعرف وتدرس، وتتحول إلى ثقافة فى الكتب والدفاتر، والرسائل والشهادات، والنظم العلمية وكفى !

وقد جاءت لتتبع بكل دقة، ولا يترك شىء منها ويستبدل به حكم آخر فى صغيرة من شئون الحياة أو كبيرة:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [1].

ويقف الإنسان أمام هذه النصاعة فى التعبير، وهذا الحسم فى التقرير، وهذا الاحتياط البالغ لكل مايهجس فى الخاطر من مبررات لترك شىء ولو قليل من هذه الشريعة فى بعض الملابسات والظروف .

وهذه الآيات ـ كما جاء فى المنار ـ [2] تتمة السياق .. حيث بين الله تعالى شأنه إنزال التوراة، ثم الإنجيل.. وما أودع فيهما من هدى ونور، وما حتم عليهم من إقامتهما، وما شدد عليهم من إثم ترك الحكم بهما. فناسب بعد ذلك أن يذكر إنزاله القرآن على خاتم النبيين والمرسلين، ومكانه من الكتب التى قبله، وكون حكمته تعالى اقتضت تعدد الشرائع ومناهج الهداية .. فتلك مقدمات ووسيلة، وهذا هو المقصد والنتيجة، قال:

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾

أى وأنزلنا إليك الكتاب الكامل الذى أكملنا به الدين، فكان هو الجدير بأن ينصرف إليه معنى الكتاب الإلهى عند الإطلاق، وهو القرآن المجيد .. هذه حكمة التعبير بالكتاب بعد التعبير عن كتاب موسى باسمه الخاص « التوراة » وعن كتاب عيسى باسمه الخاص «الإنجيل».. وقوله « بالحق » إلخ، معناه متلبسا بالحق مؤيدا به، مشتملا عليه مقررا له، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مصدقا لما تقدمه من جنس الكتب الإلهية

---

(١) المائدة: ٤٨ ـ ٥٠ .

(٢) تفسير المنار: ٦: ٤١٠ بتصرف .

كالتوراة والإنجيل، أى ناطقا بتصديق كونها من عند الله، وأن الرسل الذين جاءوا بها لم يفتروها من عند أنفسهم.

وأما قوله « ومهيمنا عليه » أى على جنس الكتاب الإلهي... فمعناه أنه رقيب عليها وشهيد، بما بينه من حقيقة حالها، فى أصل إنزالها، وما كان من شأن من خوطبوا بها من نسيان حظ عظيم منها وإضاعته، وتحريف كثير مما بقى منها وتأويله، والإعراض عن الحكم والعمل بها، فهو يحكم عليها لأنه جاء بعدها. روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال «ومهيمنا عليه» يعنى أمينا عليه، يحكم على ماكان قبله من الكتب. [1] وفى رواية عنه: مؤتمنا عليه. وفى رواية عن قتادة: أمينا وشاهدا على الكتب التى خلت قبله:

﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾

والأمر موجه ابتداء إلى رسول الله ﷺ فيما كان من أمر أهل الكتاب الذين يجيئون إليه متحاكمين.. ولكنه ليس خاصا بهذا السبب، بل هو عام.. وإلى آخر الزمان ..

لقد كمل هذا الدين، وتمت به نعمة الله على المسلمين . ورضيه الله لهم منهج حياة للناس أجمعين. ولم يعد هنالك من سبيل لتعديل شىء فيه أوتبديله، ولا لترك شىء من حكمه إلى حكم آخر .

وقد علم الله حين رضيه للناس، أنه يسع الناس جميعا . وعلم الله حين رضيه مرجعا أخيرا أنه يحقق الخير للناس جميعا. وأنه يسع حياة الناس جميعا، إلى يوم الدين.

وقد علم الله أن معاذير كثيرة يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شىء مما أنزل الله ، واتباع الأهواء... وأن هواجس قد تتسرب فى ضرورة الحكم بما أنزل الله بلا عدول عن شىء فيه، فى بعض الملابسات والظروف، فحذر الله نبيه ﷺ فى هذه الآيات مرتين من اتباع أهواء المتحاكمين، ومن فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه..

وأولى هذه الهواجس: الرغبة البشرية الخفية فى تأليف القلوب بين الطوائف المتعددة، والاتجاهات والعقائد المتجمعة فى بلد واحد. ومسايرة بعض رغباتهم عندما تصطدم ببعض أحكام الشريعة ، والميل إلى التساهل فى الأمور الطفيفة، أو التى يبدو أنها ليست من أساسيات الشريعة !

---

(١) تفسير الطبرى: ٦: ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

روى ابن جرير عن ابن عباس وغيره [1] فى قوله « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » سبيلا وسنة، وقوله « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » يقول تعالى ذكره: ولو شاء ربكم لجعل شرائعكم واحدة، ولم يجعل لكل أمة شريعة ومنهاجا غير شرائع الأمم الأخر، ومنهاجهم فكنتم تكونون أمة واحدة، لاتختلف شرائعكم ولا يختلف منهاجكم، ولكنه تعالى ذكره يعلم ذلك، فخالف بين شرائعكم ليختبركم، فيعرف المطيع منكم من العاصى، والعامل بما أمره فى الكتاب الذى أنزله إلى نبيه ﷺ من المخالف. والابتلاء: هو الاختبار، وقد ثبت ذلك بشواهده. وقوله «فيما آتاكم» يعنى فيما أنزل عليكم من الكتب، وروى ابن جرير عن ابن جريج: قال عبد الله بن كثير: لا أعلمه إلا قال: ليبلوكم فيما آتاكم من الكتب.

فإن قال قائل: وكيف قال:« ليبلوكم فيما آتاكم» ومن المخاطب بذلك، وقد ذكرت أن المعنى: « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » لكل نبى من الأنبياء الذين مضوا قبله، وأممهم الذين قبل نبينا ﷺ ، والمخاطب النبى وحده؟

قيل: إن الخطاب وإن كان لنبينا ﷺ، فإنه قد أريد به الخبر عن الأنبياء قبله وأممهم، ولكن العرب من شأنها إذا خاطبت إنسانا وضمت إليه غائبا، فأرادت الخبر عنه تغلب المخاطب، فيخرج الخبر عنهما على وجه الخطاب، فلذلك قال تعالى ذكره:

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

بذلك أغلق الحق مداخل الشيطان كلها، وبخاصة مايبدو منها تأليفا للقلوب وتجميعا للصفوف، بالتساهل فى شىء من شريعة الله، فى مقابل إرضاء الجميع! أو فى مقابل مايسمونه وحدة الصفوف! أو فى مقابل ما أطلق عليه فى عصرنا مجمع الكنيست والكنيسة والمسجد! أو مؤتمر الأديان!

إن شريعة الله أبقى وأغلى من أن يضحى بجزء منها فى مقابل شىء قدر الله ألا يكون! فالناس قد خلقوا، ولكل منهم استعداد، ولكل منهم مشرب، ولكل منهم منهج، ولكل منهم طريق، ولحكمة من حكم الله خلقوا هكذا مختلفين. وقد عرض الله عليهم

(١) المرجع السابق: ٢٧١ ـ ٢٧٢ بتصرف.

الهدى، وتركهم يستبقون. وجعل هذا ابتلاء لهم، يقوم عليه جزاؤهم يوم يرجعون إليه، وهم إليه راجعون.

وإنها لتعلة باطلة إذن، ومحاولة فاشلة، أن يحاول أحد تجميعهم على حساب شريعة الله، أو بتعبير آخر على حساب صلاح الحياة البشرية وفلاحها. فالعدول أو التعديل فى شريعة الله لايعنى شيئا إلا الفساد فى الأرض، وإلا الانحراف عن المنهج الوحيد القويم، وإلا انتقاء العدالة فى حياة البشر، وإلا عبودية الناس بعضهم لبعض، واتخاذ بعضهم لبعض أربابا من دون الله ... وهو شر عظيم وفساد عظيم .. لا يجوز ارتكابه فى محاولة عقيمة لا تكون، لأنها غير ماقدره الله فى طبيعة البشر، ولأنها مضادة للحكمة التى من أجلها قدر ماقدر من اختلاف المناهج والاتجاهات والمشارب... وهو خالق الخلق وصاحب الأمر الأول فيهم والأخير .. وإليه المرجع والمصير...

إن محاولة التساهل فى شىء من شريعة الله، لمثل هذا أو ذاك محاولة سخيفة، وخلق من أخلاق يهود !

وهنا يبدو ترابط الآيات ـ كما سبق ـ ويبدو تأكيد هذه الحقيقة فى قوله:

﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ ﴾

ويعود السياق فيؤكد هذه الحقيقة، ويزيدها وضوحا:

﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ ﴾

وإذا كان النص السابق قد يعنى النهى عن ترك شريعة الله كلها إلى أهوائهم فإن هذا النص يحذره من فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله.. والتحذير هنا أشد وأدق، وهو تصوير للأمر على حقيقته ..فهى فتنة يجب أن تحذر ..والأمر فى هذا المجال لايعدو أن يكون حكما بما أنزل الله كاملا، أو أن يكون اتباعا للهوى وفتنة يحذر الله منها ..

ثم يستمر السياق القرآنى فى تتبع الهواجس والخواطر، فيهون على رسول الله ﷺ أمرهم إذا لم يعجبهم هذا الاستمساك الكامل بالصغيرة قبل الكبيرة فى هذه الشريعة، وإذا هم تولوا فلم يختاروا الإسلام دينا، أو تولوا عن الاحتكام إلى شريعة الله، كما فعل اليهود:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾

فإن تولوا فلا عليك منهم، ولا يفتنك هذا عن الاستمساك الكامل بحكم الله وشريعته. ولاتجعل إعراضهم يفت فى عضدك أو يحولك عن موقفك.. فإنهم إنما يتولون ويعرضون، لأن الله يريد أن يجزيهم على بعض ذنوبهم. فهم الذين سيصيبهم السوء بهذا الإعراض: لا يصيبك أنت ولاشريعة الله ودينه، ولا الصف المسلم المستمسك بدينه..ثم إنها طبيعة البشر:

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾

فهم يخرجون وينحرفون، لأنهم هكذا، ولا حيلة لك فى هذا الأمر ، ولاذنب للشريعة ! ولاسبيل لاستقامتهم على الطريق !

وبذلك يغلق كل منافذ الشيطان ومداخله إلى النفس المؤمنة، ويأخذ الطريق على كل حجة وكل ذريعة لترك شيء من أحكام هذه الشريعة، لغرض من الأغراض، فى ظرف من الظروف ..

ثم يقفهم على مفرق الطريق .. فإما حكم الله، كما يأمر الله، وإما حكم الجاهلية، كما فعل اليهود تماما ! ولاوسط بين الطرفين ولابديل !

حكم الله يقوم فى الأرض، وشريعة الله تنفذ فى حياة الناس، ومنهج الله يقود حياة البشر.. أو أنه حكم الجاهلية، وشريعة الهوى، ومنهج العبودية ـ كما فعل اليهود تماما ـ فأيهما يريدون ؟

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

إن معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص. فالجاهلية ـ كما يصفها الحق ويحددها القرآن ـ تتمثل فى هذا الخلق الذى هو ـ كما عرفنا ـ طابع يهود .. حكم البشر للبشر .. ومن ثم فالجاهلية ليست فترة من الزمان، ولكنها وضع من الأوضاع، وجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غدا، فيأخذ صفة الجاهلية ! [1]

ثم يسألهم سؤال استنكار لابتغائهم حكم الجاهلية، وسؤال تقرير لأفضلية حكم الله:

---

(١) انظر : جاهلية القرن العشرين: ٧ وما بعدها .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

وأجل ! فمن أحسن من الله حكما ؟

ومن ذا الذى يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس، ويحكم فيهم، خيرا مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم ؟ وأية حجة يملك أن يسوقها بين يدى هذا الادعاء العريض ؟

أيستطيع أن يقول: إنه أعلم بمصالح الناس من خالق الناس ؟ أيستطيع أن يقول: إن الله سبحانه وهو ينزل شريعته الأخيرة، ويرسل رسوله خاتم النبيين، ويجعل رسالته خاتمة الرسالات، ويجعل شريعتة شريعة الأبد .. كان سبحانه يجهل أن أحوالا ستطرأ، وأن حاجات ستستجد، وأن ملابسات ستقع، فلم يحسب حسابها فى شريعته، لأنها كانت خافية عليه، حتى انكشفت للناس فى آخر الزمان ؟!

ما الذى يستطيع أن يقوله من ينحى شريعة الله عن حكم الحياة ـ كما فعل اليهود ـ ويستبدل شريعة الجاهلية ـ كما استبدلوا ـ ويجعل هواه فوق حكم الله، وفوق شريعة الله؟

ما الذى يستطيع أن يقوله؟

إنه مفرق الطريق .. ولافائدة فى المماحكة عنده ولا الجدال ...

تحريف وتخريف:

وذكر القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا أن التوراة حرفت وغيرت، وأن اليهود حرفوا الكلم عن مواضعه، ونسوا حظا مما ذكروا به، وأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب فأضاعوه:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾(١).

وذلك فى الاتجاه بالخطاب إلى الجماعة المسلمة يحدثها عن بنى إسرائيل، بعد صورة الجفاف والقسوة والجدب التى صور بها قلوبهم فى الآيات من قبل:

---

(١) البقرة: ٧٥ ـ ٧٩ .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [١].

إنها صورة الجفاف والقسوة والجدب.. صورة الحجارة الصلدة التى لاتنض منها قطرة، [٢] ولا يلين لها ملمس، ولاتنبض فيها حياة !

وهى صورة توحى باليأس من هذه الطبيعة الجاسية الفاسدة، الخاوية الجامدة !

والحجارة التى يقيس قلوبهم إليها، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى ..هى حجارة لهم بها سابق عهد ..فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عينا، ورأوا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ! ورأوا ورأوا .. ولكن قلوب اليهود، هى قلوب اليهود، لاتلين ولاتندى، ولاتنبض بخشية ولاتقوى .. إنها قلوب قاسية دائما، جاسية دائما ، فاسدة دائما، مجدبة كافرة ! ومن ثم هذا التهديد:

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

بهذا يختم هذا الشطر من الجولة مع اليهود فى تاريخهم الحافل بالكفر والتكذيب، والالتواء واللجاجة، والكيد والدس، والقسوة والجدب، والتمرد والفسوق، مما يطول فيه الحديث..

وفى ظل هذا التصوير، وهذا الإيحاء، يلتفت السياق إلى المؤمنين، الذين يطمعون فى هداية بنى إسرائيل، ويحاولون أن يبثوا فى قلوبهم الإيمان، وأن يفيضوا عليها النور .. يلتفت إلى أولئك المؤمنين بسؤال يوحى باليأس من المحاولة، وبالقنوط من الطمع:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

ألا إنه لامطمع ولا رجاء فى أن يؤمن أمثال هؤلاء . فللإيمان طبيعة أخرى، واستعداد آخر.. إن الطبيعة المؤمنة سمحة هينة لينة، مفتحة المنافذ للأضواء، مستعدة للاتصال بالنبع الأزلى الخالد بما فيها من نداوة ولين وصفاء، وبما فيها من حساسية وتحرج وتقوى.. هذه التقوى التى تمنعها أن تسمع كلام الله ثم تحرفه من بعد تعقله.. تحرفه عن علم وإصرار. فالطبيعة المؤمنة طبيعة مستقيمة، تتحرج من هذا التحريف وذلك الالتواء .

---

(١) البقرة: ٧٤ .   (٢) فى ظلال القرآن: ١: ٨٤ بتصرف .

والفريق المشار إليه هنا هو أعلم اليهود وأعرفهم بالحقيقة المنزلة عليهم فى كتابهم، هم الأحبار والربانيون، الذين يسمعون كلام الله المنزل على نبيهم موسى فى التوراة، ثم يحرفونه عن مواضعه، ويؤولونه التأويلات البعيدة التى تخرج به عن دائرته. لا عن جهل بحقيقة مواضعه، ولكن عن تعمد للتحريف، وعلم بهذا التحريف ! يدفعهم الهوى، وتقودهم الضغينة، ويحدوهم الغرض المريض ! فمن باب أولى ينحرفون عن الحق الذى جاء به خاتم النبيين محمد ﷺ ، وقد انحرفوا عن الحق الذى جاء به نبيهم موسى عليه السلام، ومن باب أولى ـ وهذا خراب ذممهم، وهذا إصرارهم على الباطل، وهم يعلمون بطلانه ـ أن يعارضوا دعوة الإسلام .. ويروغوا منها، ويختلقوا عليها الأكاذيب !

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، وهم يضيفون إلى خراب الذمة، وكتمان الحق، وتحريف الكلم عن مواضعه .. الرياء والنفاق والخداع والمراوغة ؟

وقد كان بعضهم يقول للذين آمنوا: آمنا .. أى آمنا بأن محمدا مرسل، بحكم ماعندهم فى التوراة من البشارة به، وبحكم أنهم كانوا ينتظرون بعثته ويطلبون أن ينصرهم الله به على من عداهم. وهو معنى قوله:

﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾(1)

ولكن : « إذا خلا بعضهم إلى بعض » عاتبوهم على ما أفضوا للمسلمين من صحة رسالة محمد ﷺ، ومن معرفتهم بحقيقة بعثته من كتابهم، فقال بعضهم لبعض: «أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم» فتكون لهم الحجة عليكم ؟ ... وهنا تدركهم طبيعتهم المحجبة عن معرفة صفات الله وحقيقة علمه، فيتصورون أن الله لايأخذ عليهم الحجة إلا أن يقولوها بأفواههم للمسلمين ! أما إذا كتموا وسكتوا فلن تكون لله عليهم حجة !.. وأعجب العجب أن يقول بعضهم لبعض فى هذا : « أفلا تعقلون ؟».. فيا للسخرية من العقل والتعقل الذى يتحدثون عنه مثل هذا الحديث !

ومن ثم يعجب السياق من تصورهم هذا قبل أن يمضى فى استعراض مايقولون وما يفعلون:

---

(1) البقرة: ٨٩

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

ثم يستطرد يقص على المسلمين من أحوال بنى إسرائيل : إنهم فريقان:

فريق أمي جاهل لايدرى شيئا من كتابهم الذى نزل عليهم، ولا يعرف منه إلا أوهاما وظنونا، وإلا أمانى فى النجاة من العذاب، بما أنهم ـ كما يزعمون ـ شعب الله المختار، الذى غفرله كل مايعمل وما يرتكب من آثام !

وفريق يستغل هذا الجهل وهذه الأمية فيزور على كتاب الله، ويحرف الكلم عن مواضعه بالتأويلات المغرضة، ويكتم منه مايشاء، ويبدى منه مايشاء، ويكتب كلاما من عند نفسه يذيعه فى الناس باسم أنه من كتاب الله:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

فكيف ينتظر من أمثال هؤلاء أن يستجيبوا للحق، وأن يستقيموا على الهدى، وأن يتحرجوا من تحريف مايقف فى طريقهم من نصوص كتابهم نفسه ؟

إن هؤلاء لامطمع فى أن يؤمنوا للمسلمين، وإنما هو الويل والهلاك ينتظرهم، الويل والهلاك مما كتبت أيديهم من تزوير على الله .. والويل والهلاك مما يكسبون بهذا التزوير والاختلاق !

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

وصدق الله وعده [2] فهذه سمات يهود التى لاتفارقهم ...لعنة تبدو على سيماهم، إذ تنضح بها جبلتهم الملعونة المطرودة من الهداية، وقسوة تبدو فى ملامحهم الناضبة من بشاشة الرحمة، وفى تصرفاتهم الخالية من المشاعر الإنسانية، ومهما حاولوا ـ مكرا ـ إبداء اللين فى القول عند الخوف وعند المصلحة، والنعومة فى الملمس عند الكيد والوقيعة، فإن جفاف الملامح والسمات ينضح ويشى بجفاف القلوب والأفئدة ..!

وطابعهم الأصيل هو تحريف الكلم عن مواضعه !

---

(١) المائدة: ١٣ . (٢) المرجع السابق : ٢: ٨٥٩ بتصرف .

تحريف كتابهم أولا عن صورته التى أنزلها الله على موسى عليه السلام، إما بإضافة الكثير إليه مما يتضمن أهدافهم الملتوية ويبرزها بنصوص من الكتاب مزورة على الله! وإما بتفسير النصوص الأصلية الباقية وفق الهوى والهدف الخبيث ! ونسيان وإهمال لأوامر شريعتهم، وعدم تنفيذها فى حياتهم ومجتمعهم، لأن تنفيذها يكلفهم الاستقامة على منهج الحق الطاهر القويم النظيف العفيف:

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾

وهو خطاب للرسول ﷺ يصور حال يهود فى المجتمع المسلم فى المدينة، فهم لايكفون عن محاولة خيانة رسول الله ﷺ، وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة، بل كانت هذه هى حالهم طوال إقامتهم معه فى المدينة، ثم فى الجزيرة كلها، وماتزال هذه حالهم فى المجتمع الإسلامى على مدار التاريخ. على الرغم من أن المجتمع الإسلامى ـ كما سبق ـ هو المجتمع الوحيد الذى آواهم، ورفع عنهم الاضطهاد، وعاملهم بالحسنى، ومكن لهم من الحياة الرغيدة فيه !

ولكنهم كانوا دائما ـ كما كانوا على عهد الرسول ـ عقارب وحيات وثعالب وذئابا، تضمر المكر والخيانة، ولاتنى تمكر وتغدر ! إن أعوزتهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين نصبوا لهم الشباك، وأقاموا لهم المصائد، وتآمروا مع كل عدو لهم، حتى تحين الفرصة، فينقضوا عليهم، قساة جفاة لا يرحمونهم، ولا يرعون فيهم إلاّ ولاذمة ! أكثرهم كذلك .. كما وصفهم الله سبحانه فى كتابه، وكما أنبأنا عن جبلتهم التى أورثها إياهم نقضهم لميثاق الله من قديم !

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾

الفعلة الخائنة، والنية الخائنة، والكلمة الخائنة، والنظرة الخائنة .. يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة .. «خائنة» .. لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجو، وتلقى ظلالها وحدها على القوم .. فهذا هو جوهر جبلتهم، وهذا هو جوهر موقفهم، مع الرسول ﷺ ومع الجماعة المسلمة !

إن هذا القرآن هو معلم هذه الأمة ومرشدها ورائدها وحادىِ طريقها على طول الطريق .. وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها. وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله. ولو ظلت هذه الأمة تستشير قرآنها، وتسمع توجيهاته، وتقيم قواعده وتشريعاته فى حياتها، ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها فى يوم من الأيام ..ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها، وحين اتخذت القرآن مهجورا ـ وإن كانت ماتزال تتخذ منه ترانيم وتعاويذ، أصابها ما أصابها !

ولقد قص القرآن عليها ما وقع لبنى إسرائيل من اللعن والطرد وقسوة القلب وتحريف الكلم عن مواضعه، حين نقضوا ميثاقهم مع الله، لتحذر أن تنقض هى ميثاقها مع الله، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد، ناقض للعقد... فلما غفلت عن هذا التحذير، وسارت فى طريق غير الطريق ، نزع الله منها قيادة البشرية، وتركها ذيلا فى القافلة ! حتى تثوب إلى ربها، وتؤوب إلى رشدها، وحتى تستمسك بعهدها ، لأنها مطالبة بالوفاء بعقدها . فيفى الله لها بوعده من التمكين فى الأرض، ومن القيادة للبشر والشهادة على الناس..

وإلا بقيت هكذا ذيلا للقافلة .. وعد الله لايخلف الله وعده ..

ولقد كان توجيه الله عزوجل لنبيه في ذلك الحين الذى نزلت فيه هذه الآية:

﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

والعفو عن قبائحهم إحسان ..

والصفح عن خيانتهم إحسان ..

وبعد ذلك جاء الوقت الذى لم يعد فيه للعفو والصفح مكان. فأمر الله نبيه ﷺ أن يجليهم عن المدينة، وأن يأمر بإجلائهم عن الجزيرة كلها ـ كما سيأتى ـ وقد كان ..

ولقد كان أهل الكتاب يستكثرون أن يدعوهم إلى الإسلام نبى ليس منهم .. نبى من الأميين الذين كانوا يتعالون عليهم من قبل ويتعالمون، لأنهم هم أهل الكتاب، وهؤلاء أميون ! فلما أراد الله الكرامة لهؤلاء الأميين بعث منهم خاتم النبيين، وجعل فيهم الرسالة الأخيرة، الشاملة للبشر أجمعين، والرحمة المهداة، والنعمة المسداة للعالمين . ومن ثم كان هذا النداء الإلهى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

وفى هذا النداء الإلهى لأهل الكتاب، يسجل عليهم أنهم مدعوّون إلى الإسلام. مدعوّون للإيمان بهذا الرسول ونصره وتأييده، كما أخذ عليهم ميثاقه. ويسجل عليهم

(١) المائدة: ١٥ ـ ١٦ .

شهادته سبحانه بأن هذا النبى الأمى هو رسوله إليهم، كما أنه رسول إلى الأميين، وإلى العالمين، فلا مجال لإنكار رسالته من عند الله أولا، ولامجال للادعاء بأن رسالته مقتصرة على العرب، أو ليست موجهة إلى أهل الكتاب ثانيا :

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ ﴾

فهو رسول الله إليكم ، ودوره معكم أن يبين لكم ويوضح ويكشف ما تواطأتم على إخفائه من حقائق كتاب الله الذى معكم .. وقد أخفى اليهود كثيرا من أحكام الشريعة، كرجم الزانى ـ كما أسلفنا ـ وتحريم الربا كافة، وخبر بعثة النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم .. كما أنه ﷺ يعفو عن كثير مما أخفوه أو حرفوه، مما لم يرد به شرعه ..

ويبين لهم طبيعة ماجاء به هذا الرسول ، ووظيفته فى الحياة البشرية، وماقدر الله من أثره فى حياة الناس .

﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾

وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب .. القرآن .. وعلى طبيعة هذا المنهج .. الإسلام .. من أنه « نور » .

إنها حقيقة يجدها المؤمن فى قلبه وفى كيانه وفى حياته وفى رؤيته وتقديره للأشياء والأحداث والأشخاص .. يجدها المؤمن بمجرد أن يجد حقيقة الإيمان فى قلبه .. «نور».. نور تشرق به كينونته فتشف وتخف وترف .. ويشرق به كل شىء أمامه فيتضح ويتكشف ويستقيم.

ثقلة الطين فى كيانه، وظلمة التراب، وكثافة اللحم والدم، وعرامة الشهوة والنزوة .. كل أولئك يشرق ويضىء ويتجلى .. تخف الثقلة، وتشرق الظلمة، وترق الكثافة، وترف العرامة ..

واللبس والغبش فى الرؤية، والتأرجح والتردد فى الخطوة، والحيرة والشرود فى الاتجاه، والطريق البهيم الذى لا معالم فيه .. كل أولئك يشرق ويضىء ويتجلى .. يتضح الهدف، ويستقيم الطريق إليه، وتستقيم النفس على الطريق ..

﴿ **نور وكتاب مبين** ﴾ وصفان للشىء الواحد ..لهذا الذى جاء به الرسول الكريم ..

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

لقد رضى الله الإسلام دينا .. وهو يهدى من اتبع رضوانه هذا ويرتضيه لنفسه كما رضيه الله .. يهديه « سبل السلام »

وما أدق هذا التعبير وأصدقه، إنه « السلام » هو مايسكبه هذا الدين فى الحياة كلها ... سلام الفرد، وسلام الجماعة، وسلام العالم ..سلام الضمير، وسلام العقل، وسلام الجوارح.. سلام البيت والأسرة، وسلام المجتمع والأمة، وسلام البشر والإنسانية .. السلام مع الحياة والسلام مع الكون، والسلام مع الله رب الكون والحياة .. السلام الذى لاتجده البشرية ـ ولم تجده يوما ـ إلا فى هذا الدين، وإلا فى منهجه ونظامه وشريعته، ومجتمعه الذى يقوم على عقيدته وشريعته.

حقا، إن الله يهدى بهذا الدين الذى رضيه، من يتبع رضوان الله «سبل السلام » سبل السلام كلها فى هذه الجوانب جميعها .. ولايدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق سبل الحرب فى الجاهلية القديمة أو الحديثة .. ولايدرك عمق هذه الحقيقة كما يدركها من ذاق حرب القلق الناشئ من عقائد الجاهلية فى أعماق الضمير، وحرب القلق الناشىء من شرائع الجاهلية وأنظمتها وتخبطها فى أوضاع الحياة .

وقد كان المخاطبون بهذه الكلمات أول مرة يعرفون من تجربتهم فى الجاهلية معنى هذا السلام، إذ كانوا يذوقونه مذاقا شخصيا ، ويلتذون هذا المذاق المريح..

وما أحوجنا نحن الآن أن ندرك هذه الحقيقة، والجاهلية من حولنا ومن بيننا تذيق البشرية الويلات .. من كل ألوان الحرب فى الضمائر والمجتمعات قرونا بعد قرون !

ما أحوجنا نحن الذين عشنا فى هذا السلام فترة من تاريخنا ، ثم خرجنا من السلام إلى الحرب التى تحطم أرواحنا وقلوبنا، وتحطم أخلاقنا وسلوكنا، وتحطم مجتمعاتنا وشعوبنا.. بينما تملك الدخول فى السلم التى منحها الله لنا، حين نتبع رضوانه ونرضى لأنفسنا مارضيه الله لنا !

إننا نعانى من ويلات الجاهلية، والإسلام منا قريب، ونعانى من حرب الجاهلية وسلام الإسلام فى متناول أيدينا لو نشاء.. فأية صفقة خاسرة هذه التى نستبدل فيها الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟! ونشترى فيها الضلالة بالهدى ؟! ونؤثر فيها الحرب على السلام ؟!

إننا نملك إنقاذ البشرية من ويلات الجاهلية وحربها المشبوبة فى شتى الصور والألوان.. ولكننا لانملك إنقاذ البشرية، قبل أن ننقذ نحن أنفسنا، وقبل أن نفيء إلى ظلال السلام، حين نفيء إلى رضوان الله ونتبع مارتضاه . فنكون من هؤلاء الذين يقول الله عنهم إنه يهديهم سبل السلام ..

﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾

والجاهلية كلها ظلمات.. ظلمة الشبهات والخرافات والأساطير والتصورات.. وظلمة الشهوات والنزعات والاندفاعات فى التيه .. وظلمة الحيرة والقلق والانقطاع عن الهدى والوحشة من الجناب الآمن المأنوس .. وظلمة اضطراب القيم وتخلخل الأحكام والقيم والموازين..

والنور هو النور.. هو ذلك النور الذى تحدثنا عنه آنفا فى الضمير وفى العقل وفى الكيان وفى الحياة وفى كل الأمور ..

﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمًا ﴾

مستقيم مع فطرة النفس ونواميسها التى تحكمها .. مستقيم مع فطرة الكون ونواميسه التى تصرفه .. مستقيم إلى الله لايلتوى ولا تلتبس فيه الحقائق والاتجاهات والغايات ..

إن الله الذى خلق الإنسان وفطرته، وخلق الكون ونواميسه، هو الذى وضع للإنسان هذا المنهج، وهو الذى رضى للمؤمنين هذا الدين . فطبيعى أن يهديهم هذا المنهج إلى الصراط المستقيم .. حيث لايهديهم منهج غيره من صنع البشر العاجزين الجهال الفانين !

وصدق الله العظيم. الغنى عن العالمين. الذى لايناله من هداهم أو ضلالهم شيء، ولكنه بهم رحيم !

ذلك هو الصراط المستقيم. فأما اليهود فهم اليهود، نقضوا ميثاقهم مع الله، وغيروا وبدلوا فى التوراة ـ كما أسلفنا ـ ووقفوا من خاتم الأنبياء ﷺ موقفا لئيما ماكرا عنيدا، وخانوه وخانوا مواثيقهم معه ، فباءوا بالطرد من هدى الله، وقست قلوبهم فلم تعد صالحة لاستقبال هذا الهدى .

يقول الأستاذ أحمد عطار: [1] وعندما نزل القرآن الكريم مشيرا إلى ماأصاب التوراة

---

(١) اليهودية والصهيونية: ٨٨ بتصرف .

من عبث، تصدى له من كفروا برسالة محمد عليه صلوات الله وسلامه، ومايزال من أهل الكتاب من يفترون على القرآن لأنه ذكر كتبهم بما يتفق مع حقائق العلم والتاريخ التى أثبتها علماء منهم .. وتلك من معجزات كتاب الله ..

وأشار أكبر الباحثين فى كتب العهد القديم والعهد الجديد إلى مايؤيد القرآن كل التأييد، فقد أبان هؤلاء الباحثون فى العصور الأخيرة ـ بخاصة ـ أساليب أسفارهما ولغاتهما وبلدانياتهما وكل مايتصل بهما من قريب أو بعيد، وما فيهما من نظريات كونية، وحوادث تاريخية، ومعاملات وأحكام، وعقائد وتشريعات مختلفة، وما فيهما من تناقض أوضحه بعضهم، وأوله آخرون احترما لقدسيتهما، ووصفوا بيئاتهما وحياة الشعوب الاجتماعية والدينية والتجارية والسياسية والتاريخية والجغرافية .

وبحوث الباحثين الذين تحروا فيها الدقة والاستيعاب، كشفت لهم عن حقائق تلتقى مع القرآن فيما وصف به تلك الكتب .. وذلك فى أواخر القرن التاسع عشر وهذا القرن قبل هذه التواريخ .

وهذه الدراسات والبحوث التى هى ثمرة تطور العقل والعلم وتقدم وسائلهما تراث تسلمه ورثة عن ورثة، حتى انتهى إلى العصور الأخيرة، فأضافت إليه ما أرباه، وهو ما لا يتفق لفرد أن يحيط به مهما كانت عبقريته .

فمحمد رسول الله حقًا وخاتم النبيين صدقا، ومع هذه المكانة لايعلم الغيب، لأن ذلك من علم الله وحده، فكيف تسنى له أن يعلم علم الأولين والآخرين، علوم الماضى وأحداثه ، تضاف إليها أحداث المستقبل وكشوفه التى تؤيد ماجاء فى القرآن ؟

إن كان كل هذا من عبقريته فهو أعظم من هؤلاء أجمعين، وبذلك يتم له الامتياز على البشر جميعا، وفيه من صفات الله ما لايدعيه هو نفسه، بل ينفيه كما ينفيه المؤمنون على مر الأيام، تلك هى صفة علم الغيب، فما أدراه أن كشوفا ستتم بعد أيامه بعصور مديدة ستؤيد ما أجمله القرآن ويشير إليه فى إيجاز واضح مبين ؟

إنهم لم يرضوا له أن يكون رسولا نبيا، ولكنهم من الجهة الأخرى وصفوه بما هو خاص بالذات الإلهية من الصفات مما لايرضاه هو نفسه .

إن الله وحده علام الغيوب ، فما فى كتابه من ذكر وإشارت لما تؤيده الكشوف إن هو إلا علم علام الغيوب وحده، أوحى به إلى محمد رسوله فأداه كما تلقاه، وبقى

محفوظا بنصه لا مبدل لكلماته .

والباحثون من غير المسلمين انتهوا بعد دراسات إلى أن فى التوراة تحريفا، وإلى أن مايسمى هذا الاسم ليس إلا من تأليف بشر ، والأسفار الخمسة والأسفار الأخرى التى يتم بها العهد القديم تتفاوت أسلوبا وأفكارا ومعلومات، مما يقتضى تعدد الكتاب والمنشئين، وإن المؤرخ اليهودى الشهير« سيمون دبنوف » أعظم المؤرخين اليهود المحدثين يذكر فى ثقة: أن فى الكتاب المقدس فصولا كثيرة مأخوذة من الثقافة البابلية، كما يظهر من المقارنة بين الكتابة المسمارية وما ورد فى التوراة .

ويثبت التحريف مافى هذه الأسفار من نصوص لا تتفق مع التنزيل ، ولامع التوحيد وعصمة الرسل ونزاهة الأنبياء ـ وصفات الله وأسمائه ـ كما سيأتى وفيه من التناقض مايعترف به غلاة من يؤمنون بالتوراة، وهناك اختلاف بين نسخ التوراة المعتمدة ، ففى كتاب« ميزان الحق » « للدكتور فندر » وهو من أشد المدافعين عن التوراة والإنجيل ـ قوله:[١] « كتب بعض المصنفين المسلمين جدولا طويلا من المتناقضات الواردة فى الكتاب المقدس، وزعم أنها متناقضات حقيقية، وهى متناقضات ظاهرية فقط» وقال: « وقد وفق بين كثير منها العلماء المحققون، والتى لم يهتدوا إلى التوفيق بينها فصعوبتها قائمة على عدم معرفة كل ظروفها ».

ويقول: « يوجد فى التوراة مايشبه التناقض فى أخبار الوقائع والمسائل التى لامساس لها بالجوهر، وهو فى الحقيقة ليس بتناقض، فوجود شىء من هذا القبيل فى أسفار التوراة مع سكوت اليهود عنه وعدم تجاسرهم على تسويته لدليل قوى على تمسكهم بالمتون الأصلية» .

والتناقض الذى وقع فيه هذا القسيس الدكتور نفسه واضح من عباراته، فهو يعترف أنها «متناقضات ظاهرية فقط»، ومع ذلك يعترف بأن العلماء المحققين لم يهتدوا إلى التوفيق بينها، للصعوبة القائمة على عدم معرفة ظروفها، وينفى التناقض بقوله « وهو بالحقيقة ليس بتناقض » ثم يثبت أن وجود شىء من التناقض دليل على أمانة اليهود، لأنهم لم يجسروا على تسويته .

ويقول [٢] : « لايوجد فرق إلا فى أعمار بعض الآباء الأولين المذكورين فى إصحاح: ٥، ١٠ من سفر التكوين » ويعتذر بأنه خلاف لايمس جوهر الكتاب فى شىء .

---

(١) ميزان الحق: ١٠٢ .   (١) المرجع السابق: ١١٨ .

ولكن هذا الفرق فى الأعمار بين نسخ التوراة ينسب إلى الله الغلط الذى تنزه عنه، فالنسخة العبرية تذكر أن مقدار الزمان من خلق آدام إلى الطوفان ١٦٥٦ سنة، والنسخة اليونانية المعروفة بالسبعينية تذكر أنه ٢٢٦٢ سنة، والنسخة السامرية تقول: إنه ١٣٠٧ سنة، فأيها الحق المنزل من الله ؟!

وهذا الاختلاف يلد اختلافا سواه، فالنسخ الثلاث متفقات على أن عمر آدم ٩٣٠ سنة، وعمر نوح عند الطوفان ٦٠٠ سنة، فعلى مافى النسخة السامرية يكون نوح مولودا فى زمن آدم، وأن كليهما أدرك من عمر الآخر ٢٢٣ سنة، وهو غير واقع باتفاق جميع مؤرخى العالم، وما فى العبرية واليونانية ينقض هذا الزعم، وفى العبرية: أن آدم مات قبل نوح بمائة وست وعشرين سنة، واليونانية: أن موت آدم كان قبل ولادة نوح باثنتين وثلاثين وسبعمائة سنة.

ومن ألوان الاختلاف بين النسخ فى مسألة الأعمار مايعد من الإفك، ففى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر أخبار الأيام الثانى أن « يهورام » تولى الملك وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وملك ثمان سنين، ومات غير مأسوف عليه، وفى الإصحاح الذى يليه : أن ابنه الأصغر « أخزيا » ملك بعده، وكان عمره اثنتين وأربعين سنة !

فكيف يصح فى الأذهان أن الابن أكبر من أبيه بسنتين ؟ أيصح أن ينسب هذا إلى الله العليم الخبير فى كتاب يدعى هؤلاء أنه منه سبحانه وتعالى ؟!

وجاء فى سفر التثنية بخصوص وفاة موسى عليه السلام نص يقول:« فمات موسى عبد الرب فى أرض مؤاب ، ولا يعرف شخص قبره حتى يومنا هذا » . (١)

ومن الواضح أن مثل هذا الكلام مكتوب بعد وفاة موسى عليه السلام .

ويتحدث الدكتور على عبد الواحد وافى عن الأزمنة التى كتبت فيها الأسفار المنسوبة إلى موسى عليه السلام فيقول : (٢)

« هذا ، وأهم أسفار العهد القديم هى أسفار ـ التكوين ـ والخروج ـ والتثنية ـ واللاويين ـ والعدد ـ التى ينسبها اليهود إلى موسى عليه السلام، ويعتقدون أنها بوحى من الله ، وأنها تتضمن التوراة، ولكن ظهر للمحدثين من الباحثين من ملاحظة اللغات

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ١: ٨٧ بتصرف .

(٢) الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام: ١٦ بتصرف، ط . نهضة مصر .

والأساليب التى كتبت بها هذه الأسفار، وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتشاريع، والبيئات الاجتماعية والسياسية التى تنعكس فيها، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها قد ألفت فى عصور لاحقه لعصر موسى بأمد غير قصير، وعصر موسى يقع على الأرجح حوالى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد،وأن معظم سفرى التكوين والخروج قد ألفا حوالى القرن التاسع قبل الميلاد، وأن سفر التثنية قد ألف فى أواخر القرن السابع قبل الميلاد، وأن سفرى العدد واللاويين قد ألفا فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد .. وأنها جميعا مكتوبة بأقلام اليهود، وتتمثل فى هذه الأسفار عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التى كانت سائدة لديهم فى مختلف أدوار تاريخهم الطويل ... فهى إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التى يذكر القرآن أنها كتاب سماوى مقدس أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام » .

ويتحدث صاحب قصة الحضارة عما يشيع فى الأسفار من عبارات غرامية عجيبة فيقول: « وفى هذه الكتابات الغرامية العجيبة مجال واسع للحدس والتخمين، فقد تكون مجموعة من الأغانى البابلية الأصل .. وقد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين، ومهما يكن أصلها فإن وجودها فى التوراة سر خفى .. ولسنا ندرى كيف غفل أو تغافل رجال الدين عما فى هذه الأغانى من عواطف شهوانية، فأجازوا وضعها بين أقوال « أشعياء » و«أرمياء » ؟! (١)

وبهذا يتبين أن التوراة الحالية ـ فى مجموعها ـ قد كتبت بعد موسى عليه السلام بأزمان متقاربة، وبأفكار مختلفة، وأن اليهود كتبوها انعكاسا لأخلاقهم ، وتاريخهم وآمالهم وآلامهم .. ولكثرة الأشخاص الذين اشتركوا فى كتابتها ، امتلأت بالأخطاء والمفتريات والمتناقضات، والتحريف والتخريف !

ورحم الله الشيخ « رحمة الله الهندى » فقد تناول فى الكلام عن أسفار العهدين: العتيق والجديد .. كل باب من أبوابهما ، واستشهد من كلام مؤرخيهم وعلمائهم على تبيان المطعون فيه من الأبواب والآيات، وبين بالحجج الدامغة أنه لايوجد لدى علمائهم سند متصل لأى كتاب من كتب العهدين ، ثم تناول بعد ذلك مافى الكتابين من الاختلاف والأغلاط .. ثم عقد بابا خاصا لإثبات التحريف فى كتب العهدين .. مصداقا لقوله تعالى:

---

(١) قصة الحضارة: ٣: ٣٨٨ : ديورانت : ترجمة محمد بدران .

﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [1].

وأثبت أن بعض هذا التحريف كان عن عمد، وكان يأتي التحريف أحيانا بالزيادة، وأحيانا بالنقصان، وأحيانا بالتبديل اللفظي، وساق على التحريف بالزيادة خمسة وأربعين شاهدا ، كما ساق على التبديل اللفظي خمسة وثلاثين شاهدا، أما التحريف بالنقص فقد ساق عليه عشرين شاهدا .. مما يدل على سعة اطلاع، وتتبع حريص لإقامة الحجة عليهم من كتبهم ! [2]

حقا .. إنه تحريف وتخريف !

---

(١) النساء: ٤٦ ، المائدة: ١٣ .

(٢) مقدمة: إظهار الحق : عمر الدسوقي .

الفصل الثالث

الأسفار وأنبياء بني إسرائيل

إسحاق ويعقوب ـ لوط وبنتاه ـ آل يعقوب ـ موسى وهارون ـ داود وآله ـ سليمان وأمه ـ أخلاق يهود.

إسحاق ويعقوب :

والحديث عن القبائح التى نسبها اليهود زورا إلى أنبياء بنى إسرائيل يدل دلالة واضحة على أنهم ليسوا بأهل لأن يكونوا كذلك، إذا اعتمدنا أسفارهم المقدسة عندهم، لأنهم نسبوا إليهم افتراء ماينقض الرسالة والنبوة، وزعموا أن بعضهم قد بلغ من الانحطاط الخلقى ما لا يرضى به فاسدو الخلق ملوثو الضمير من البشر، إلا من انحدروا إلى البهيمية السافلة !

وحتى لايطول بنا الحديث، نبدأ بسفر التكوين فى الإصحاح السابع والعشرين، فيما يتعلق بإسحاق عليه السلام وفيه مانصه :

« لما شاخ إسحاق ، وكلّت عيناه عن النظر، أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له : يا ابنى ، فقال له: ها أنذا . فقال : إننى شخت ، ولست أعرف يوم وفاتى ، فالآن خذ عدّتك : جعبتك وقوسك واخرج البرية، وتصيد لى صيدا ، واصنع لى أطعمة كما أحب ، وائتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت .

وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحاق مع عيسو ابنه، فذهب عيسو إلى البرية يصطاد صيدا ليأتى به .

وأما رفقة فكلمت ابنها يعقوب قائلة: إنى قد سمعت أباك يكلم أخاك عيسو قائلا: ائتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتى . فالآن يا ابنى اسمع لقولى فيما أنا آمرك به، اذهب إلى الغنم، وخذ لى من هناك جديين جيدين من المعزى، فاصنعهما أطعمه لأبيك كما يحب، فتحضرهما إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته .

فقال يعقوب لرفقة أمه : هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا رجل أملس، ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون، وأجلب على نفسى لعنة لابركة .

فقالت له أمه: لعنتك على يا ابنى، اسمع لقولى فقط، واذهب خذ لى، فذهب وأخذ وأحضر لأمه، فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب ، وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها فى البيت، وألبست يعقوب ابنها الأصغر، وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديى المعزى، وأعطت الأطعمة والخبز الذى صنعت فى يد يعقوب ابنها .

فدخل إلى أبيه وقال: ياأبى، فقال: ها أنذا، من أنت ياابنى ؟ فقال يعقوب لأبيه: أنا

عيسو بكرك، قد فعلت كما علمتنى، قم، اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك .

فقال إسحاق لابنه: ماهذا الذى أسرعت لتجد يا ابنى؟ فقال: إن الرب إلهك قد يسر لى ، فقال إسحاق ليعقوب: تقدم لأجسك يابنى، أأنت هو ابنى عيسو أم لا ؟

فتقدم يعقوب إلى إسحاق أبيه، فجسه وقال: الصوت صوت يعقوب، ولكن اليدين يدا عيسو، ولم يعرفه، لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه، فباركه، وقال: هل أنت هو ابنى عيسو؟ فقال : أنا هو ؟ فقال : قدم لى لآكل من صيد ابنى حتى تباركك نفسى ، فقدم له فأكل، وأحضر له خمرا فشرب، فقال له إسحاق أبوه: تقدم وقبلنى يابنى، فتقدم ، وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه، وقال : انظر رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب، فليعطك الله من ندى السماء، ومن دسم الأرض، وكثرة حنطة وخمر، ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيدا لإخوتك، وليسجد لك بنو أمك ، ليكن لاعنوك ملعونين، ومباركوك مباركين.

وحدث عندما فرغ إسحاق من بركة يعقوب، ويعقوب قد خرج من لدن إسحاق أبيه أن عيسو أخاه أتى من صيده، فصنع هو أيضا أطعمة ودخل بها إلى أبيه، وقال لأبيه : ليقم أبى ويأكل من صيد ابنه، حتى تباركنى نفسك، فقال له إسحاق أبوه: من أنت ؟ فقال أنا ابنك بكرك عيسو .

فارتعد إسحاق ارتعادا عظيما جدا، وقال : فمن هو هذا الذى اصطاد صيدا وأتى به إلىّ فأكلت من الكل قبل أن تجىء وباركته، نعم، ويكون مباركا .

فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرة جدا ، وقال لأبيه: باركنى أنا أيضا يا أبى ، فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك ، فقال : ألا إن اسمه دعى يعقوب، فقد تعقبنى الآن مرتين : أخذ بكوريتى ، وهو ذا الآن قد أخذ بركتى ، ثم قال: أما أبقيت لى بركة ؟!

فأجاب إسحاق وقال لعيسو: إنى قد جعلته سيدا لك، ودفعت إليه جميع إخوته عبيدا، وعضدته بحنطة وخمر، فماذا أصنع إليك يا ابنى ؟ فقال عيسو لأبيه: ألك بركة واحدة فقط يا أبى ، باركنى أنا أيضا يا أبى ، ورفع عيسو صوته وبكى .

فأجاب إسحاق ابنه وقال له: هوذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك، وبلا ندى السماء من فوق، وبسيفك تعيش، ولأخيك تستعبد، ولكن يكون حينما تجمح تكسر نيره عن عنقك.

فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة التى باركه بها أبوه، وقال عيسو فى قلبه: قربت أيام مناحة أبى ، وأقتل يعقوب أخى .

فأخبرت رفقة بكلام عيسو ابنها الأكبر، فأرسلت ودعت يعقوب ابنها الأصغر، وقالت له: هو ذا عيسو أخوك متسل من جهتك بأنه يقتلك، فالآن يا ابنى، اسمع لقولى ، وقم اهرب إلى أخى لابان إلى حاران، وأقم عنده أياما قليلة، حتى يرتد سخط أخيك ، حتى يرتد غضب أخيك عنك، وينسى ماصنعت به، ثم أرسل فآخذك من هناك».

ويمضى سفر التكوين فى إصحاحاته الأخرى ساردا قصة يعقوب الذى يمضى إلى حاران، وينزل لدى خاله لابان ـ كما يقول الأستاذ أحمد عطار [1] ـ ويتفق على خدمة سبع سنين، على أن يعطيه ابنته الصغرى راحيل، وانتهت المدة، وأقيم حفل الزفاف، ودخل يعقوب على زوجه، وفى الصباح اكتشف أنها ليست راحيل ، وإنما هى ليئة ابنته الكبرى، فعاتب يعقوب خاله، وهذا نص سفر التكوين:

« لماذا خدعتنى ؟ فقال لابان : لايفعل هكذا فى مكاننا أن نعطى الصغيرة قبل البكر » [2]

واتفق يعقوب مع خاله أن يعطه راحيل بعد أسبوع، على أن يخدم لديه سبع سنين أخرى، وأخذ راحيل، لكن ليئة هى التى ولدت له، ولم تلد له راحيل إلا بآخرة .

وقصة إسحاق مع ابنيه كما تذكرها التوراة غريبة من الغرائب، هذه التوراة التى يعتقد أهل الكتاب أنها وحى من الله !

وفى القصة مجال لأسئلة كثيرة ، ليست هى وأجوبتها فى صالحهم بحال من الأحوال :

أولا: إن يعقوب ـ وهو نبى ـ خدع أباه وخانه، بل خدع إلهه، وانتزع البركة والنبوة انتزاعا من أبيه بدون رضا منه .

وهنا يبدو سؤال لابد منه: أترى يعقوب النبى يكون أمينا على الوحى، إذا لم يكن على هواه، بعد خيانته أباه وخداعه ربه ؟

---

(١) اليهودية والصهيونية: ٥٥ وما بعدها بتصرف .

(٢) سفر التكوين: الإصحاح: ٢٩ : ٢٦ .

ثانيا: إن هذه الجريمة التى تقوم على خيانة الأب وخداع الرب، تجعل يعقوب غير أهل للاضطلاع بعبء النبوة والرسالة، لأن من لايؤمن فى أمور الوحى والرسالة والنبوة لايمكن أن يكون أهلا للنبوة.

إن مجرد الخيانة والكذب والخديعة لايسمح لمن يتصف بها أن يكون نبيا، فإذا كان الكذب والخداع والخيانة متصلة بالنبوة نفسها، فإن من يتصف بها لن يكون أهلا للنبوة ألبتة، ومع فقدان الأهلية يكون مستوجبا لنقمة الله وغضبه، وموضع سخطه ولعنه.

ثالثا : أيملك المخلوق ـ ولو كان رسولا نبيا ـ أن يهب النبوة والرسالة أحدًا من الناس ؟!

إن النبوة والرسالة لايملكها غير الله الخالق وحده، لايملكها إسحاق ولاأعظم من إسحاق!

رابعا: يمكن للرسول أن يدعو الله بأن يجعل رسالته فى أحد من خلقه، كما دعا إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١).

ونفرض أن إسحاق خص ابنه عيسو بحبه ورضاه، وأراد له الخير، وعزم أن يدعو الله أن يهب النبوة له، فيتنكر يعقوب فى زى عيسو ويأتيه، فيدعو الله أن يهب له النبوة، وهو يدعو من ضميره لعيسو لا ليعقوب .

وإذا جازت خديعة رفقة وابنها يعقوب على إسحاق لشيخوخته وكلال بصره، فلم يميز بين عيسو الذى يريد أن يخصه بدعوته وبين يعقوب الذى تظاهر بين يديه بأنه عيسو ، أفتجوز الحيلة والخديعة والمكر على الله؟!

إن إسحاق شعر أن وراء الأمر ما وراءه ، وساوره الشك فسأل:« أأنت هو ابنى عيسو أم لا » ؟

فأجابه: « أنا هو » فكان الدعاء لعيسو لا ليعقوب، ولكن إله إسحاق يتبعه فى هذا فتنصرف النبوة من عيسو إلى يعقوب !

---

(١) البقرة: ١٢٩ .

وكيف يرضى إسحاق بمكر يعقوب ؟ وإذا رضى إسحاق أو تغاضى عن مكر يعقوب ، أفيكون الله في يد الخادعين الكاذبين ، يجعل رضاه تبعا لرضا الكاذبين والمخدوعين ؟!

تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ومعاذ الله أن يختار لأشرف رسالة من يطلبها كذبا ومينا وخيانة !

وتعالى الله علوا كبيرا أن تجوز عليه حيل المبطلين الفاسقين، وهو العليم بخائنة الأنفس وما تخفى الصدور، فضلا عن ظواهر الأعمال والأقوال !

وإن يعقوب عليه السلام معصوم ومنزه عن مثل هذه الأعمال الباطلة، ولن يكون كما وصفته التوراة من القبائح والمنكرات، لأنه نبى صادق ...ورسول حق .

والإسلام يبرىء إسحاق ويعقوب من كل ماقذفا به، وهذا هو القرآن الكريم يصفهما بقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ (١).

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (٢).

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (٣).

ومع هذا فإن الأسفار عند هؤلاء تجعل بيئة الرسل والأنبياء بيئة غش وكذب وفجور وسرقة! فخال يعقوب غشاش، وعده براحيل ثم أدخل عليه ليئة! وابنة يعقوب تزنى ! وراحيل تسرق أصنام أبيها !

وها هو سفر التكوين يقول بالنص:

« وخرجت دينة ابنة ليئة التى ولدتها من يعقوب لتنظر بنات الأرض، فرآها شكيم بن حمور الحِوِّى، رئيس الأرض، وأخذها واضطجع معها وأذلها » ! (٤)

---

(١) مريم: ٤٩ ـ ٥٠ (٢) الأنبياء : ٧٢ ـ ٧٣ .

(٣) ص : ٤٥ ـ ٤٧ . (٤) سفر التكوين: ٣٤: ١ ـ ٢ .

ويقول:

« فسرقت راحيل أصنام أبيها، وخدع يعقوب قلب لابان » ! [1] .

لوط وبنتاه:

ولوط عليه السلام مقذوف من التوراة بقذيفة ماحقة، تمحقه هو وأسرته، ولا ترحمه، فتزعم التوراة أنه زنا بابنتيه، وهذه رواية سفر التكوين بالإصحاح التاسع عشر:

« وصعد لوط من صوغر، وسكن فى الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن صوغر، فسكن فى المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ، وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل أهل الأرض، هلم نسقى أبانا خمرا ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلا، فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة: إننى قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه الليلة أيضا، فادخلى أنت واضطجعى معه، فنحيي من أبينا نسلا، فسقيا أباهما خمرا فى تلك الليلة أيضا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولابقيامها، فحملت ابنتا لوط من أبيهما، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم ، والصغيرة أيضا وضعت ابنا ودعت اسمه بِنْ عَمِّى ، وهو أبو بنى عمون إلى اليوم » !

ويعجز الخيال الشاخص ذاته عن تصوير هذه الجريمة البشعة من الجرائم المنكرة !

وإذا كانت بنات الأنبياء يقعن فى هذا الضرب الفاحش المقيت من الزنا الشاذ العفن ، فإن وقوع غيرهن فى الخطيئة العادية أمر لا غبار عليه، لأن لهن أسوة ببنات الأنبياء .

وإذا أخطأت امرأة من بنات الشعب فعذرها قائم، ولاعقوبة عليها، لأن بنتى لوط لم تعاقبا من الله ، ولا من الناس، بل أكرمهما الله بذرية كان منها أنبياء، بل وصل التكريم إلى حد أن يكون من سلالتهما من أصبح فى زعمهم إلها ــ كما سيأتى ــ وهذا الإكرام مناقض نفسه، لأن الله ــ كما يزعمون ــ حرم وجود أهله من الموآبيين والعمونيين، فكيف يجتمع هذان النقيضان فى وقت واحد ؟!

وما فى الدنيا اجتراء على الحق والفضيلة مثل اجتراء بنتى لوط ــ كما يزعمون ــ فقد رأتا ماحلّ بقومهما بسبب جريمة خلقية منتشرة فى بلدهما، فقد أبادها الله وأهلها وجعل

---

(١) المرجع السابق: ٣١ : ١٩ ــ ٢٠ .

عاليها سالفها، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود، ومع كل هذا يقترفا أبشع جرم وأقذره، إذا يزنيان مع أبيهما! لوط عليه السلام!

أى شيطانة فى الدنيا ترى انتقام الله الشديد ثم ترتكب ماهو أبشع مما جلب انتقام الله؟ ولكن بنتى لوط تريان عذاب الله يحل ببلدهما ثم ترتكبان شرا من تلك الجريمة، ومع من؟ مع نبى بار كريم، وأب بار رحيم!

ومع تلك الجريمة البشعة المزعرمة، نجد بنى موآب وبنى عمون قريبين من الله الذى أمر موسى كما يذكر سفر التثنية بقوله:

« لاتعاد موآب، ولاتثر عليهم حربا، لأنى لاأعطيك من أرضهم ميراثا، لأن لبنى لوط قد أعطيت عاد ميراثا.

أنت اليوم مارٌ بتخم موآب بعاد، فمتى قربت إلى اتجاه بنى عمون لاتعادهم، ولاتهجموا عليهم، لأنى أعطيك من أرض عمون ميراثا، لأن لبنى لوط قد أعطيتها ميراثا».

وهذا الأمر الصادر إلى موسى، أمر عجيب يثير الدهشة، فبنو موآب وبنو عمون، أى بنو لوط لايصابون بأى أذى، بل لايصاب موآب وعمون« بَنْ عَمَىٌ » بأى سوء ،مع أنهما ولدا زنا من محرم فى أعلى طبقة وأجل مرتبة بين المحارم طرا!

أيرى الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى زنا المحارم لاغبار عليه ؟!

وإذا تركنا هذا وجدنا بشاعات تتناسل من البشاعة الأولى، بشاعة زنا لوط بابنتيه، فموآب وعمون المولودين من بنتى لوط من أبيهما ينسلان ذرية، وفى عمود نسب المسيح نجد « عوبيد » جد داود مولودا ـ كما يقولون ـ من « راعوث » الموآبية، ونجد « رحبعام » ابن سليمان مولودا من « نعمة » العمونية، ووالدا سليمان من الخاطئين، لأن داود أباه زنا بأمه المسماة« بتشبع » وكلهم كما يروى إنجيل متى فى إصحاحه الأول فى عمود نسب المسيح!

وراعوث جدة داود وسليمان وعيسى، وداود ابن الله البكر، وسليمان ابن الله وعيسى ابن الله الوحيد، بل الله الابن على زعمهم، وابن « نعمة » العمونية من أولاد عمون، والدة « رحبعام » بن سليمان الذى هو من أجداد عيسى!

وإن هذا الشرف العظيم الأسمى الذى كان من نصيب موآب وعمون ابنى الزنا ـ أقذر زنا على الإطلاق فى وجه الأرض ـ شرف دونه كل شرف فى العالم، فبعض بنات موآب صارت جدة أبناء الله، وبخاصة الله الذى هو يسوع ـ كما يزعمون ـ وبعض بنات عمون جدة ابن الله الوحيد، بل جدة « الله » الإبن !

وكيف يقبل بنو إسرائيل هذا، مع أن التوراة التى بين أيديهم تقول فى سفر التثنية بالإصحاح الثالث والعشرين فى فاتحته مانصه:

« لايدخل مخصى أو مجبوب فى جماعة الرب، لايدخل ابن زنا فى جماعة الرب، حتى الجيل العاشر، لايدخل منه أحد فى جماعة الرب، لايدخل عمونى ولا موآبى فى جماعة الرب، حتى الجيل العاشر، لايدخل أحد منهم فى جماعة الرب إلى الأبد» .

أما فى الإسلام فحسبنا أن نقرأ فى القرآن الكريم:

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [1].

﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [2].

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ [3].

والرسول فى الإسلام معصوم منزه عن كل مايعيب ويشين، وأما ابنتاه اللتان نجتا معه فلإيمانهما كانت نجاتهما ، ومحال منهما مانسب إليهما ، ومحال أن يرتكبا الفاحشة مع أبيهما رسول الله الأمين، وكل الرسل معصومون منزهون، ومن المستحيل أن يرتكب الزنا رسول .

هذا هو رأى الإسلام، بل هذا هو عقيدة الإسلام، وهذا هو الفارق بين الإسلام وسائر ماعداه، رسل الله يمتازون بالنظافة والطهر والنبل، إذ هم فى أعلى مراتب العصمة فى هذا المقام وتمام الخلق .

---

(١) الأنبياء : ٧٤ ـ ٧٥ . (٢) الأنعام: ٨٦ ـ ٨٧ .
(٣) الصافات : ١٣٣ ـ ١٣٥ .

والعقل نفسه يرد قذيفة الكتاب المقدس لدى بنى إسرائيل .. وإذا كانت بنتاه حريصتين على أبناء يرثون حياته ، فكان فى وسعهما نصح أبيهما، وإذا كانتا أردتا منه نسلا فما أدراهما أنهما يحملان بنسل ذكر ؟!

آل يعقوب :

وآل يعقوب تصورهم التوراة صورة بشعة قذرة، وتذكر أن ابنة يعقوب المسماة «دينة» من زوجته «ليئة» بنت لابان خاله زنت مع شكيم بن حمور الحِوِّى !

وابن يعقوب المسمى« رأوبين » من زوجته « ليئة » وهو أكبر أبنائه زنى بسرية أبيه المسماه « بلهة » وهذه رواية سفر التكوين:

« ثم رحل إسرائيل ونصب خيمته وراء مجدل عدد، وحدث إذ كان إسرائيل ساكنا فى تلك الأرض أن «رأوبين» ذهب واضطجع مع « بلهة » سرية أبيه، وسمع إسرائيل» (١) .

ويهوذا بن يعقوب زان أثيم ! يهوذا ـ هذا ـ يزنى بزوجة ابنه ، واسم هذه الزوجة «ثامار» وها هى ذى قصة الزانيين كما يرويها سفر التكوين بالإصحاح الثامن والثلاثين :

« أُخْبِرت « ثامار » وقيل لها: هو ذا حموك صاعد إلى « تِمْنَة » ليجز غنمه، فخلعت عنها ثياب ترملها، وتغطت ببرقع، وتلففت، وجلست فى مدخل « عينايم » التى فى طريق « تِمْنة » .. فنظرها يهوذا وحسبها زانية، لأنها قد غطت وجهها فمال إليها فى الطريق، وقال: هاتى أدخل عليك، لأنه لم يعلم أنها كنته، فقالت: ماذا تعطينى لكى تدخل على ؟! فقال : إنى أرسل جدى معزى من الغنم، فقالت: هل تعطينى رهنا حتى ترسله ؟ فقال: ما الرهن الذى أعطيك ؟ فقالت: خاتمك وعصابتك وعصاك التى فى يدك، فأعطاها ودخل عليها، فحبلت منه، ثم قامت ومضت، وخلعت عنها برقعها، ولبست ثياب ترملها .

فأرسل يهوذا جدى المعزى بيد صاحبه العدلامى ليأخذ الرهن من يد المرأة ، فلم يجدها، فسأل أهل مكانها قائلا: أين الزانية التى كانت فى « عينايم » على الطريق ؟ فقالوا: لم تكن هاهنا زانية. فرجع إلى يهوذا وقال: لم أجدها، وأهل المكان أيضا قالوا: لم تكن هاهنا زانية. فقال يهوذا: لتأخذ لنفسها لئلا نصير إهانة، إنى قد أرسلت هذا الجدى وأنت لم تجدها.

---

(١) سفر التكوين : ٣٥ : ٢١ ـ ٢٢ .

ولما كان ثلاثة أشهر أخبر يهوذا، وقيل له: قد زنت« ثامار » كنتك، وهاهي حبلى من الزنا! فقال يهوذا : أخرجوها لتحرق !

أما هي فلما أخرجت أرسلت إلى حميمها قائلة: من الرجل الذى هذه له أنا حبلى، وقالت: حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه ؟!

فتحققها يهوذا وقال: هي أبر منى ،لأنى لم أعطيها لشيلة ابنى فلم يعد يعرفها أيضا.

وفى وقت ولادتها إذا فى بطنها توأمان، وكان فى ولادتها أن أحدهما أخرج يدا فأخذت القابلة وربطت على يده قرمزا قائلة: هذا خرج أولا ولكن حين رد يده إذا أخوه قد خرج،فقالت : لماذا اقتحمت ؟ عليك اقتحام، فدعى اسمه « فارض » وبعد ذلك خرج الذى على يده القرمز، فدعى اسمه « زارَح » .

ولم يعمل يعقوب شيئا، لا لرأوبين الذى زنا« ببلة » ولا ليهوذا الذى زنا « بثامار » بل أطرى يهوذا عند موته !

ويهوذا الزانى يطرى ثامار الزانية ويقول: إنها أبر منى، كأنه هو بار حتى تكون أبر منه، والعجيب أن يكون الزناة بررة!

وقد سبق أن أشرنا إلى أن فى عمود نسب المسيح وداود وسليمان من يسمى «عوبيد» وعوبيد هذا وهو ابن « راعوث » الموآبية وموآب ابن بنت لوط من أبيها بالزنا، وفارض ابن زنا، وهو من أجداد سليمان وداود .

وشمشون الجبار زان أثيم على رواية الكتاب المقدس فى سفر القضاة الذى يقول: «وكان رجل من صُرْعَة من عشيرة الدانيين اسمه« منوح » وامرأته عاقر لم تلد، فتراءى ملاك الرب للمرأة وقال لها : ها أنت عاقر لم تلد ، و لكنك تحبلين وتلدين ابنا .

وإن الصبى يكون نذير الله من البطن، وهو يبدأ يخلص إسرائيل من يد الفلسطينيين .

« وصلى منوح » إلى الرب، وقال : أسألك ياسيدى أن يأتى أيضا إلينا رجل الله الذى أرسلته، ويعلمنا ماذا نعمل للصبى الذى يولد، فسمع الله لصوت « منوح » فجاء ملاك الله أيضا إلى المرأة وهى جالسة فى الحقل، و« منوح » رجلها ليس معها فأسرعت المرأة وركضت وأخبرت رجلها وقالت له : هو ذا قد تراءى لى الرجل الذى جاء إلىّ ذلك اليوم، فقام « منوح » وسار وراء امرأته، وجاء إلى الرجل وقال له: أأنت الرجل الذى تكلم

مع المرأة فقال أنا هو ، فقال « منوح » عند مجيء كلامك ماذا يكون حكم الصبى ومعاملته؟ فقال ملاك الرب لمنوح :

من كل ماقلت للمرأة فلتحتفظ، الخ .

وملاك الرب فى لهيب المذبح« ومنوح » وامرأته ينظران، حيئنذ عرف « منوح » أنه ملاك الرب .

ولدت المرأة ابنا ودعت اسمه « شمشون » فكبر الصبى ، وباركه الرب، وابتدأ روح الرب يحركه (١) .

ذهب « شمشون » إلى غزة ورأى هنالك امرأة زانية فدخل إليها .. فاضطجع «شمشون » إلى نصف الليل .

وكان بعد ذلك أن أحب امرأة فى وادى سودق اسمها « دليلة » (٢) .

وأسلمته « دليلة » إلى أعدائه فقلعوا عينيه وصار يطحن فى السجن . فشمشون رسول عندهم ، ومع هذا يزنى !

موسى وهارون :

وموسى عليه السلام لم يسلم من طعنات الكتاب المقدس ، مع أنه موصوف منه بأنه أعظم أنبياء بنى إسرائيل ، فسفر التثنية ـ أحد أسفار التوراة ـ يقول فى وصفه (٣) :

« ولم يقم بعد نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى عرف الرب وجها لوجه » .

موسى عليه السلام لم يسلم من اليهود ، فقد طعنوه فى إيمانه ، وجعلوه خائناً ، وهو هو ذا سفر التثنية يقول ما نصه (٤) :

« وكلم الرب موسى فى نفس ذلك اليوم قائلا: اصعد إلى جبل « عباريم » .. ومت فى الجبل الذى تصعد إليه ، وانضم إلى قومك ، كما مات أخوك هارون فى جبل « هور » وضُمّ إلى قومه ، لأنكما خنتماني في وسط بني إسرائيل . إذ لم تقدسانى فى وسط بنى إسرائيل » .

---

(١) سفر القضاة : ١٣

(٢) سفر الخروج : ٢ .

(٣) سفر التثنية : ٣٤ : ١٠ .

(٤) سفر التثنية : ٣٢ .

بل إن موسى طلب من ربه ألا يكلفه بالرسالة ، ففي سفر الخروج قال [1] :

« استمع أيها السيد ، أرسل بيد من تريد ، فحمى غضب الرب على موسى » .

وفى سفر العدد: [2]

« قال الرب لموسى وهارون: من أجل أنكما لم تؤمنا بى حتى تقدسانى أمام أعين بنى إسرائيل .. إلخ » .

فموسى وهارون خائنان، لايقدسان ربهما، ليس هناك جريمة فى العقيدة الدينية أكبر ولا أفظع من خيانة الرسول لله الذى أرسله، وعدم تقديس الله !

هذا مايقوله أهل الكتاب فى كتابهم المقدس هذا، وكلهم يؤمنون به حق الإيمان، مع أن هذه التهم باطلة كاذبة !

أما مايقول الإسلام فى موسى وهارون عليهما السلام فنقيض مايقول أهل الكتاب وها هو ذا القرآن الكريم :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾ [3] .

﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ [4] .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴾

فلا شيء مما اتهم به كتاب هؤلاء موسى وهارون عليهما السلام، بل هو الكذب الصراح، فموسى لم يطلب إلى ربه أن يعفيه من الرسالة، ولم يخن موسى وهارون ربهما،

(١) سفر الخروج: ٤ : ١٣ ـ ١٤ . (٢) سفر العدد: ٢٠ : ١٢ . (٣) طه: ٢٥ ـ ٣٦ .
(٤) طه: ٨٧ ـ ٩٠ . (٥) مريم : ٥١ ـ ٥٣.

وليس حقا أنهما لم يقدسا الله ..

داود وآله :

وداود عليه السلام قد مرغوا سمعته فى الوحل، واتهموه بأنه ارتكب جريمة الزنا، وقذفوا داود وبنيه ووصفوهم بأحط الصفات وأقذرها !

ولو حدث مانسب إلى داود وبنيه من عامة الناس لاستبشع الناس، فكيف وما يحدث يقع ممن يحملون الرسالة ومن أولادهم ؟!

يزعم الكتاب المقدس لدى هؤلاء أن داود كان على سطح قصره فرأى امرأة جميلة رائعة الحسن تغتسل، وكانت زوجا لأحد المقاتلين، فسأل عنها، فأخبروه، فبعث إليها، وأحضرها إلى قصره، وكانت قد طهرت من حيضها، فزنا بها داود، وحملت منه سفاحا، ولما ظهر حملها خافت الفضيحة، فأعلمت داود ليتلافاها !

ولم تعى داود الحيلة فبعث إلى زوجها وأحضره، وبعد سؤال وجواب. صرفه ليمضى إلى زوجه ويبيت لديها، ويحضر إليه فى الصباح ، ولكن الزوج لم يمض، بل قضى ليلة مع خدم دواد، فلما علم داود بما صنع الزوج، احتال حيلة أخرى، فقد دعاه إلى طعام، وأسكره حتى المساء، ثم صرفه رجاء أن يمضى إلى منزله ويبيت مع زوجه، حتى ينسب إليه الحمل، وتستر الفضيحة

ولكن الزوج أصر على موقفه ، ولم يمض إلى زوجه.

ولم يعجز داود عن الحيلة، فبعث رسالة إلى قائد قواته المحاربة، وأمره فيها أن يجعل الزوج، واسمه « أوريا الحثى » فى وجه الحرب، حتى إذا تقدم رجع عنه الجيش، ليضرب ويموت، وحدث ماأمر به داود فقد قتل « أوريا» وخلا له الجو، واستولى على امرأته، وضمها إلى نسائه، وولدت له من ذلك السفاح ولدا أحبه حبا عظيما، ولكن الله انتقم من داود بموت ثمرة زناه، وأوعده بأنه يجعل أحد أبنائه يزنى بنسائه على مرأى من بنى إسرائيل، ونفذ الله وعيده، فزنا« أبشالوم » بن داود بنساء أبيه واحدة بعد واحدة أمام عيون الشعب !

هـذا مايضفيه الكتاب المقدس على داود وأهله، وها هـو ذا نـص ماجـاء فى سفـر صموئيل الثانى أحد الأسفار المقدسة بكتابهم المقدس: (١)

---

(١) سفر صموئيل الثانى : ١١ .

« كان فى وقت المساء أن داود قام عن سريره ، وتمشى على سطح بيت الملك ، فرأى من على السطح امرأة تستحم، كانت المرأة جميلة المنظر جدا، فأرسل داود، وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه « بَتْشَبَع » بنت « أليعام » امرأة « أوريا الحثى » ؟

وأرسل داود رسلا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها ، وهى مطهرة من طمثها، ثم رجعت إلى بيتها .

وحبلت المرأة، فأرسلت، وأخبرت دواد، وقالت : إنى حبلى !

فأرسل داود إلى « يوآب » يقول: أرسل إلىَّ « أوريا الحثى » فأرسل «يوآب» «أوريا» إلى داود، فأتى « أوريا » إليه، فسأله داود عن سلامة « يوآب » وسلامة الشعب، ونجاح الحرب.

وقال داود لأوريا: انزل إلى بيتك، واغسل رجليك .

فخرج أوريا من بيت الملك، وخرجت وراءه حصة من عند الملك، ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل إلى بيته، فأخبروا داود قائلين : لم ينزل أوريا إلى بيته، فقال داود لأوريا: أما جئت من السفر ؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟

فقال أوريا لداود: إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيام، وسيدى يوآب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتى إلى بيتى لآكل وأشرب، وأضطجع مع امرأتى ! وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر .

فقال داود لأوريا : أقم هنا اليوم أيضا، وغدا أطلقك .

فأقام أوريا فى أورشليم ذلك اليوم وغده، ودعاه داود، فأكل أمامه وشرب، وأسكره، وخرج عند المساء ليضطجع فى مضجعه مع عبيد سيده، وإلى بيته لم ينزل !

وفى الصباح كتب داود مكتوبا إلى يوآب، وكتب فى المكتوب يقول : اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت .

وكان فى محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا فى الموضع الذى علم أن رجال البأس فيه، فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب، وسقط بعض الشعب من عبيد داود ، ومات أوريا الحثى أيضا .

فأرسل يوآب، وأخبر داود بجميع أمور الحرب، وأوصى الرسول قائلا: عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب، فإن اشتعل غضب الملك وقال لك : لماذا

دنوتم من المدينة للقتال ؟ أما علمتم أنهم يرمون من على السور ؟ من قتل أبيما لك بن يربوشت ؟ ألم ترمه امرأة بقطعة رحى من علا السور فمات فى « تاباص » ؟ لماذا دنوتم من السور ؟ فقل : قد مات عبدك أوريا الحثى أيضا !

فذهب الرسول ودخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوآب ، وقال الرسول لدواد : قد تجبر علينا القوم ، وخرجوا إلينا إلى الحقل ، فكنا عليهم إلى مدخل الباب ، فرمى الرماة عبيدك من على السور فمات البعض من عبيد الملك ، ومات عبدك أوريا الحثى أيضا !

فقال داود للرسول : هكذا تقول ليوآب ، لا يسؤ فى عينيك هذا الأمر ، لأن السيف يأكل هذا وذاك ، شدد قتالك على المدينة وأخربها وشدده .

فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته . وصارت له امرأة ، وولدت له ابنا ، وأما الأمر الذى فعله داود فقبح فى عين الرب » !

وتكملة هذه القصة بالإصحاح الثانى عشر من سفر صموئيل الثانى ، وها نحن أولاء ننقل منه الحوار الذى جرى بين ناثان وداود :

« قال ناثان لداود : أنت هو الرجل ؟ هكذا قال الرب إله إسرائيل : أنا مسحتك ملكا على إسرائيل ، وأنقذتك من يد شاول ، وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك فى حضنك ، وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا ، وإن كان ذلك قليلا كنت أزيد لك كذا وكذا ، لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر فى عينيه ؟ وقد قتلت أوريا الحثى بالسيف ، وأخذت امرأته لك امرأة ، وإياه قتلت بسيف بنى عمون ، والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد ، لأنك احتقرتنى وأخذت امرأة أوريا الحثى لتكون لك امرأة . هكذا قال الرب : هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك ، وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك فى عين هذه الشمس ، لأنك أنت فعلت بالسر ، وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس !

فقال داود لناثان : قد أخطأت إلى الرب .

فقال ناثان لداود : الرب أيضا قد نقل عنك خطيتك ، لا تموت ، غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك يموت .

وذهب ناثان إلى بيته .

وضرب الرب الولد الذى ولدته امرأة أوريا لداود فثقل ، فسأل داود الله من أجل الصبى ، وصام داود صوما ، ودخل وبات مضطجعا على الأرض ، فقام شيوخ بيته عليه ليقيموه فلم يشأ ، ولم يأكل معهم خبزا ، وكان فى اليوم السابع أن الولد مات ، فخاف عبيد داود أن يخبروه بأن الولد قد مات ، لأنهم قالوا : هو ذا لما كان الولد حيا كلمناه ، فلم يسمع لصوتنا ، فكيف نقول له : قد مات الولد ، يعمل أشر ؟

ورأى داود عبيده يتناجون ، ففطن داود أن الولد قد مات ، فقال داود لعبيده : هل مات الولد ؟ فقالوا : مات .

فقام داود عن الأرض واغتسل وادّهن وبدل ثيابه ، ودخل بيت الرب وسجد ، ثم جاء إلى بيته ، وطلب فوضعوا له خبزا فأكل ، فقال له عبيده: ما هذا الأمر الذى فعلت ؟ لما كان الولد حيا صمت وبكيت ، ولما مات الولد قمت وأكلت خبزا ، فقال : لما كان الولد حيا صمت وبكيت ، لأنى قلت : من يعلم ؟ ربما يرحمنى الرب ويحيا الولد ، والآن قد مات ، فلماذا أصوم ؟ هل أقدر أن أرده بعد ؟ أنا ذاهب إليه وأما هو فلا يرجع إلى !

وعزى داود بتشبع امرأته ، ودخل إليها ، واضطجع معها ، فولدت ابنا ، فدعا اسمه سليمان ، والرب أحبه » !

وفى أسرة داود .. فى أولاده ما تثير منكراتهم البشعة الاشمئزاز ، فهذا أمنون بن داود يزنى بأخته من أبيه داود ، واسمها « ثامار » بنت داود ، وكان قد احتال على الخلوه بها بعد أن برح به الشوق إلى مضاجعة أخته !

وها هو ذا سفر صموئيل الثانى يتحدث بما نصه [1] :

« كان لأبشالوم بن داود أخت جميلة اسمها ثامار ، فأحبها أمنون بن داود ، وأحصر أمنون للسقم من أجل أخته ثامار ، لأنها كانت عذراء ، وعسر فى عينى أمنون أن يفعل لها شيئا ، وكان لأمنون صاحب اسمه يوناداب بن شمعى أخى داود ، وكان يوناداب رجلا حكيما جدا ، فقال له : لماذا يا بن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح إلى صباح أما تخبرنى ؟

فقال له أمنون : إنى أحب ثامار أخت أبشالوم أخى .

---

(١) سفر صموئيل الثانى : ١٣ .

فقال يوناداب : اضطجع على سريرك وتمارض ، وإذا جاء أبوك ليراك فقل له : دع ثامار أختى فتأتى وتطعمنى خبزا ، وتعمل أمامى الطعام لأرى فآكل من يدها .

فاضطجع أمنون وتمارض ، فجاء الملك ليراه ، فقال أمنون للملك : دع ثامار أختى فتأتى وتصنع أمامى كعكتين ، فآكل من يدها .

فأرسل داود ثامار إلى البيت قائلا : اذهبى إلى بيت أمنون أخيك ، واعملى له طعاما .

فذهبت إلى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع ، وأخذت العجين وعجنت ، وعملت كعكا أمامه ، وخبزت الكعك ، وأخذت المقلاة وسكبت أمامه ، فأبى أن يأكل ، وقال أمنون : أخرجوا كل إنسان عنى ، فخرج كل إنسان عنه ، ثم قال أمنون : إيتى بالطعام إلى المخدع فآكل من يدك .

فأخذت ثامار الكعك الذى عملته ، وأتت به أمنون أخاها إلى المخدع ، وقدمت له ليأكل ، فأمسكها وقال لها : تعالى اضطجعى معى يا أختى ، فقالت له : لا ، يا أخى لا تذلنى .. والآن كلم الملك لأنه لا يمنعنى منك .

فلم يشأ أن يسمع لصوتها ، بل تمكن منها ، وقهرها ، واضطجع معها ، ثم أبغضها أمنون بغضة شديدة » !

وأما داود فكل ما عمل هو ما يقول سفر صموئيل فى آخر الإصحاح الثالث عشر نفسه : « ولما سمع الملك داود بجميع هذه الأمور اغتاظ جدا » .

الاغتياظ وحده ، ولا شىء مما حمل أبشالوم أن يقتل أمنون ، ولكن بعد سنتين ، وأبشالوم هذا هو الذى حدث بينه وبين أبيه داود خلاف أدى به إلى ادعاء الملك ، حتى هرب داود من وجهه خوفا ، وترك قصره وفيه عشر من سراريه لحفظه .

وفى آخر الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين ما يأتى :

« نصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ، ودخل أبشالوم إلى سرارى أبيه أمام جميع إسرائيل » .

ولكن أبشالوم قتل بعد ذلك فى الحرب بينه وبين أبيه ، فكان أبوه داود يقول سائلا :

« أسلام للفتى أبشالوم ؟ (١) فلما علم أنه قتل أخذ يصيح : ابنى أبشالوم ! يا ابنى أبشالوم ! ياليتنى متّ عوضا عنك يا أبشالوم ! ابنى ! يا ابنى !

الحق أن كل ما نسب إلى داود عليه السلام يثير مع الغضب الاشمئزاز ، ولم يكن ذلك وحده موضع السخط والاشمئزاز بل الله جل جلاله وعلاه وعز ذكره عرضه الكتاب المقدس عندهم لاستنكار حكمه ، فداود زنا ، كما يزعمون ، وقتل زوج المرأة التى زنا بها ، وزنا داود استوجب غضب الله ، لأنه ارتكب ما حرم الله ، فيعاقبه الله بفعله من جنس فعله ، بل على أبشع وأقذر ! فقد كان الحكم أن يزنى ابنه أبشالوم بنسائه!

وزنا المحارم أشد وأبغض إلى الله .. وفى الوقت ذاته يكون زنا ابن داود بنسائه جهرا ونهارا وأمام عيون الشعب !

هذا ما يقرره الكتاب المقدس !

والسؤال الذى يتوارد هنا : إذا كان مثل هذه المنكرات البشعة القذرة العفنة تحدث عن الأنبياء والمرسلين وأولادهم فى بنى إسرائيل ، فما تكون حال عامة الناس ؟! .

وكيف يكون هذا حال الأنبياء والمرسلين ؟ !

وكيف يعبد الناس ربا يعاقب على الزنا العادى بزنا غاية فى البشاعة والنكر ؟ !

تعالى الله علوا كبيرا ..

وإنّ الإسلام يبرئ داود من هذه التهمة ، ويثبت له العصمة ، ويشهد له بالنزاهة والتسامى فى خلائقه ، يقول تعالى :

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ (٢) .

إنه يذكر هنا داود بأنه ذو القوة وبأنه أواب .. وقد سبق ذكر قصته وظهوره فى جيش طالوت ، فى بنى إسرائيل من بعد موسى .. وقتل داود جالوت ، وكان إذ ذاك فتى .. ومنذ ذلك الحين ارتفع نجمه حتى أصبح ذا سلطان ، ولكنه كان أوابا رجاعا إلى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار .

---

(١) سفر صموئيل الثانى : ١٨ : ٢٣ : ١٩ : ٤ .　　(٢) ص : ١٧ — ٢٠ .

قال البخارى : الأواب : الراجع المنيب . وأخرج ابن جريح من طريق مجاهد قال : الأواب : الرجاع عن الذنوب . ومن طريق قتادة قال : المطيع ، ومن طريق السدى قال : هو المسبح (١) .

ومع النبوة والملك آتاه الله من فضله قلبا ذاكرا ، وصوتا رخيما يرجع به تراتيله التى يمجد فيها ربه (٢) .. وبلغ من قوة استغراقه فى الذكر ، ومن حسن حظه فى الترتيل ، أن تزول الحواجز بين كيانه وكيان هذا الكون . وتتصل حقيقته بحقيقة الجبال والطير فى صلتها كلها ببارئها ، وتمجيدها له وعبادتها . فإذا الجبال تسبح معه ، وإذا الطير مجموعة عليه ، تسبح معه لمولاها ومولاه :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

ولقد يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ .. الجبال الجامدة تسبح مع داود بالعشى والإشراق ، حينما يخلو إلى ربه ، يرتل ترانيمه فى تمجيده وذكره .. والطير تتجمع على نغماته لتسمع له وترجع معه ... لقد يقف الناس مدهوشين للنبأ ، إذ يخالف مألوفهم ، ويخالف ما اعتادوا أن يحسوه من العزلة بين جنس الإنسان ، وجنس الطير ، وجنس الجبال !

ولكن فيم الدهش ؟ وفيم العجب ؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة ، وراء تميز الأجناس والأشكال والسمات .. حقيقة واحدة يجتمعون فيها ببارئ الوجود كله : أحيائه وأشيائه جميعا .. وحين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص والإشراق والصفاء ، فإن تلك الحواجز تنزاح ، وتنساح الحقيقة المجردة لكل منهم ، فتتصل من وراء حواجز الجنس والشكل والصفة والسمة التى تميزهم وتعزلهم فى مألوف الحياة !

ولقد وهب الله عبده داود عليه السلام هذه الخاصية ، وسخر الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، وحشر عليه الطير ترجع مع ترانيمه تسبيحا لله ، وكانت هذه فوق الملك والسلطان ، مع النبوة والاستخلاص .

يروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

---

(١) فتح البارى : ٦ : ٤٥٨ .

(٢) فى ظلال القرآن : ٥ : ٣٠١٧ بتصرف .

« خُفِّف علي داود عليه السلام القرآن ، فكان يأمُر بدوابه فتسرَجُ ، فيقرأ القرآن قبل أن تُسرجَ دوابُّهُ ، ولا يأكل إلا من عمل يده » . [١]

قال ابن حجر : فى رواية الكشميهنى « القراءة » قيل : المراد بالقرآن القراءة ، والأصل فى هذه اللفظة : الجمع ، وكل شىء جمعته فقد قرأته، وقيل: المراد الزبور ، وقيل التوراة ، وقراءة كل نبى تطلق على كتابه الذى أوحى إليه ، وإنما سماه قرآنا للإشارة إلى وقوع المعجزة به، كوقوع المعجزة بالقرآن، أشار إليه صاحب المصابيح، والأول أقرب، وإنما ترددوا بين الزبور والتوراة ، لأن الزبور كله مواعظ ، وكانوا يتلقون الأحكام من التوراة.. وفى الحديث أن البركة قد تقع فى الزمن اليسير حتى يقع فيه العمل الكثير . [٢]

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾

فكان ملكه قويا عزيزا .. وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعا . وفصل الخطاب : قطعه والجزم فيه برأى لا تردد فيه ، وذلك مع الحكمة ومع القوة غاية الكمال فى الحكم والسلطان فى عالم الإنسان .

ومع هذا كله فقد تعرض داود للفتنة والابتلاء ، وكانت عين الله عليه لترعاه وتقود خطاه ، وكانت يد الله معه :

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [٣]

وبيان هذه الفتنة أن داود النبى الملك ، كان يخصص بعض وقته للتصرف فى شئون الملك ، ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة فى المحراب ، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس .

---

(١) البخارى : ٦٠ ـ الأنبياء (٣٤١٧) .

(٢) فتح البارى : ٦ : ٤٥٥ بتصرف .

(٣) ص : ٢١ ـ ٢٥ .

وفى ذات يوم كانت المفاجأة، حين تسور الخصم المحراب، ففزع منهم، فبادروا باطمئنانه:

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وجئنا للتقاضى أمامك :

﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ وبدأ أحدهما فعرض خصومته:

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾

أى شدد علىّ فى القول وأغلظ .

والقضية ـ كما عرضها أحد الخصمين ـ تحمل ظلما صارخا لا يحتمل التأويل .. ومن ثم اندفع داود عليه السلام يقضى على أثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا، ولم يطلب إليه بيانا، ولم يسمع له حجة، لكنه مضى يحكم :

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾

قال الشهاب : (١) فيه مبالغة من وجوه: وصفهم بالقلة، وتنكير « قليل » وزيادة « ما » الإبهامية. والشيء إذا بولغ فيه كان مظنة للتعجب، فكأنه قيل: ماأقلهم.

وفى قضائه عليه السلام هذا، من الحكمة وفصل الخطاب مايهيج الأفئدة ويقر عين المغبون. ذلك أنه صدع بالحق أبلغ صدع. فجهر بظلم خصمه وبغيه جهرا لا محاباة فيه ولا مواربة، فأقر عين المظلوم، وعرف الباغى ظلمه وحيفه، وأن سيف العدل والإنصاف فوقه، ثم نفّس عن قلب المظلوم البائس ، وروّح عن صدره بذكر ماعليه الأكثر من هذه الخلة ـ خلة البغى وعدم الإنصاف ـ مع الخلطة والخلة، ليتأسى ويتسلى، كما قيل: «إن التأسى روح كل حزين » ثم أكد الأمر بقلة القائمين بحقوق الأخوة، ممن آمن وعمل صالحا، فكيف بغيرهم ؟ وكلها حكم وغرر ودرر، حقائق تنطبق على أكثر هذا السواد الأعظم من الناس، الذين يدعون المحبة والصداقة .. ولعظم شأن حقوق المحبة أسهب فى آدابها علماء الأخلاق إسهابا نوعوا فيه الأبواب ، ولونوا فيه الفصول .. ومع ذلك لاتزال الشكوى عامة، وقد امتلأت من منظومها ومنثورها كتب الأدب، كما لايخفى على من له إلمام به ..

---

(١) تفسير القاسمى : ١٤ : ٥٠٨٧ بتصرف .

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾

أي ابتليناه بتلك الحكومة .

﴿ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾

أي ما استغفر منه .

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾

أي لقربا ومرجعا حسنا وكرامة فى الآخرة .

ومع ذلك خاضت بعض التفاسير فى الإسرائيليات المردودة رواية ودراية ! (١)

إنهم نسبوا إلى داود عليه السلام التهجم بالاطلاع على عورة امرأة أجنبية عنه !

ونسبوا إليه انتهاك حرمة الجوار !

ونسبوا إليه الغدر بزوج المرأة ليستولى عليها !

كما نسبوا إليه عدم الاكتفاء بتسع وتسعين، ومن ثم اتخذ الإجرام وسيلة إلى ضم تلك الزوجة إلى نسائه !

وكل هذه أمور يستحيل صدورها من نبى معصوم ، لأنها منافية للعصمة التى قامت الأدلة على ثبوتها .

والقصة ـ كما سبق ـ سيقت مساق المدح لداود عليه السلام .. وقد بدأت بقوله «اصبر» وهنا نبصر الإشارة إلى الطريق المطروق فى حياة الرسل عليهم صلوات الله وتسليماته .. (٢) الطريق الذى يضمهم أجمعين. فكلهم سار فى هذا الطويق .. كلهم عانى .. وكلهم ابتلى .. وكلهم صبر .. وكان الصبر هو زادهم جميعا ، وطابعهم جميعا.. كل حسب درجته فى سلم الأنبياء .. ولقد كانت حياتهم كلها تجربة مفعمة بالابتلاءات، مفعمة بالآلام ، وحتى السراء كانت ابتلاء، وكانت محكا للصبر على النعماء بعد الصبر على الضراء ، وكلتاهما فى حاجة إلى الصبر على الاحتمال:

﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

---

(١) انظر: تفسير مقاتل: ٣: ١٢٦٦ ـ ١٢٦٨، وتفسير الطبرى : ٢٣: ١٤٣ وما بعدها .

(٢) فى ظلال القرآن : ٥ : ٣٠١٦ بتصرف .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَٱلطَّيْرَ ﴾ (١) .

قال ابن حزم في رده على هؤلاء بعد أن ذكر قوله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا ٱلْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ ﴾

إلى قوله :

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ (٢) .

وهذا قول صادق صحيح لايدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولّدها اليهود، وإنما كان ذلك الخصم قوما من بني آدم بلاشك مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر، على نص الآية، ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء فقد كذب على الله عزوجل وقوّله مالم يقل، وزاد في القرآن ماليس فيه ، وكذّب الله عز وجل ، وأقر على نفسه الخبيثة أنه كذب الملائكة، لأن الله تعالى يقول :

فقال هو : لم يكونوا قط خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض، ولاكان قط لأحدهما « تسع وتسعون نعجة » ولا كان لأحدهما « نعجة واحدة » ، وقال له « أكفلنيها » فأعجبوا. لِمَ يقحمون فيه أهل الباطل أنفسهم ؟ ونعوذ بالله من الخذلان . ثم كل ذلك دليل، بل الدعوى المجردة. وتالله ! إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشّق امرأة جاره ، ثم يعرّض زوجها للقتل عمدا ، ليتزوجها .وعن أن يترك صلاته لطائر يراه. هذه أفعال السفهاء المتهوّكين الفساق المتمردين لاأفعال أهل البر والتقوى . فكيف برسول الله داود ﷺ الذى أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه ؟ لقد نزّهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله . فكيف أن يستضيف إلى أفعاله ؟ وأما استغفاره وخروره ساجدا ومغفرة الله تعالى له، فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة. والاستغفارفعل خير لاينكر من ملَك ولا من نبى . ولا من مذنب ولا من غير مذنب . فالنبى يستغفر الله لمذنبى أهل الأرض ، والملائكة كما قال الله تعالى :

---

(١) سبأ : ١٠ .

(٢) الفصل فى الملل والنحل : ٤ : ١٨ ـ ١٩ وبهامشه الملل والنحل للشهرستانى، دار الفكر ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ .

﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (١).

وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام :

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾

وقوله تعالى :

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾

فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ماآتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة .

فقد كان رسول الله ﷺ يدعو فى أن يثبت الله قلبه على دينه (٢) .

فاستغفر الله تعالى من هذا الظن ، فغفر الله له تعالى هذا الظن. إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة .

قال القاسمى : وهو وقوف على ظاهر الآية، مجردا عن إشارة وإيماء. (٣)

وقال البرهان البقاعى فى تفسيره: وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود!

ثم قال: وأخبرنى بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك فى حق داود عليه السلام، لأن عيسى عليه السلام من ذريته، ليجدوا سبيلا إلى الطعن فيه!

ثم قال: وقوله تعالى « فغفرنا له ذلك » أى الوقوع فى هذا الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع لكلامه . وهذه الدعوى تدريب لدواد عليه السلام فى الأحكام . وذكرها للنبى ﷺ تدريب له فى الأناة فى جميع أموره على الدوام . ولما ذكر هذا ، ربما أوهم شيئا فى مقامه ﷺ ، فدفعه بقوله:

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾

فالقصة لم يجر ذكرها إلا للترقية فى رتب الكمال. وأول دليل على ماذكرته، أن هذه الفتنة إنما هى بالتدريب على الحكم ، لابامرأة ولاغيرها ، وأما ماذكروه من قصة الأمر باطل وإن اشتهر . فكم من باطل مشهور، ومذكور، وهو عين الزور !

---

(١) غافر: ٧ . (٢) انظر: مسلم : ٤٦ ـ القدر ١٧ (٢٦٥٤) والترمذى (٢١٤٠) .

(٣) تفسير القاسمى : ١٤ : ٥٠٩٠ وما بعدها بتصرف.

وقال ابن كثير: (١) قد ذكر المفسرون هاهنا قصة، أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه . ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا لايصح سنده ، لأنه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس رضى الله عنه، ويزيد ضعيف الحديث عند الأئمة . قلت: قال النسائى وغيره فى يزيد : متروك .(٢)

قال ابن كثير: فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يردّ علمها إلى الله عزوجل ، فإن القرآن حق ، وما تضمن فهو حق أيضا.

وقال القاضى عياض: وأما قصة داود عليه السلام ، فلا يجب أن يلتفت إلى ماسطره فيها الإخباريون على أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا، ونقله بعض المفسرين ولم ينص الله على شيء من ذلك ، ولا ورد فى حديث صحيح .

وقال ابن القيم: وأما دعوى بعضهم أن التوراة تعدُّ داود ملكا حكيما ، لانبيا، بدليل ذكره فى أسفار الملوك منها، وما فيها من أنه بعث إليه نبيّ يقال له : « قاشان » ـ ضرب له المثل المذكور ـ فدعوى مردودة من وجود:

منها : أن الاستدلال بالتوراة التى بين أيديهم فى إثبات أو نفى لايعول عليه. كيف لا ؟ وقد أوتينا الحقيقة بيضاء نقية محفوظة من التغيير والتبديل بحمده تعالى .

ومنها: أن نبوة داود عليه السلام لا خلاف فيها عند المسلمين، فلا عبرة بخلاف غيرهم.

ومنها : أنه لامانع أن تجتمع النبوة والملك لمن أراده الله واصطفاه، وقد فعل ذلك بداود وسليمان عليهما السلام .

ومنها : أنه لا حاجة فى كتابنا الكريم أن يتمم بما جاء فى غيره، أو يحاول رده إلى سواه من الكتب، أو هى إليه ، لاستغنائه بنفسه. بل وكونه مهيمنا على سائر الكتب، كما أخبر الله تعالى . فليتأمل ذلك . (٣)

وأختم الحديث هنا بما رواه البخارى عن مجاهد قال: قلت لابن عباس أنسجد فى «ص » ؟ فقرأ :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ : ٣١ بتصرف . (٢) انظر : ميزان الاعتدال : ٤ : ٤١٨ والمغنى فى الضعفاء : ٢ : ٧٤٧ .

(٣) تفسير القاسمى : ١٤ : ٥٠٩٢ بتصرف .

حتى أتى :

﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾[1].

فقال ابن عباس رضى الله عنهما: نبيّكم ﷺ ممن أمر أن يقتدى بهم . [2]

سليمان وأمه :

ومع كل هذا لم يكف الكتاب المقدس عند بنى إسرائيل عن طعن داود وبعض أولاده: [3] ابنته « ثامار » وابنيه « أمنون » و « أبشالوم » ونسائه ـ كما أسلفنا ـ حتى أضاف هذا الكتاب طعن سليمان بن داود طعنات فى الصميم، فقد طعن أم سليمان وجعلها تحمل سفاحا، وطعن أباه داود فى اقتراف الزنا مع أمه !

وبعد هذا كله تجعله مرتدا، وهذا سفر الملوك فى الإصحاح الحادى عشر يقول : «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل: لا تدخلون إليهم، ولا يدخلون عليكم، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمائة من النساء السيدات، وثلاثمائة من السرارى ، فأمالت نساؤه قلبه .

وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين .

وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ، ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه ، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابيين على الجبل الذى تجاه أورشلم . ولملوك رجس بنى عمون، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللاتى يوقدن ويذبحن لآلهتهن.

فغضب الرب على سليمان ، لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذى تراءى له مرتين، وأوصاه فى هذا الأمر ألا يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب، فقال الرب لسليمان : من أجل ذلك عندك ولم تحفظ عهدى وفرائضى التى أوصيتك بها، فإنى أمزق المملكه عنك تمزيقا، وأعطيها لعبدك، إلا أنى لاأفعل ذلك فى أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها » .

---

(١) الأنعام : ٨٤ - ٩٠ .　　　(٢) البخارى : ٦٠ ـ الأنبياء (٣٤٢١) .

(٣) اليهودية والصهيونية : ٨٠ وما بعدها بتصرف .

وسليمان نبى ، ولا يكون النبى نبيا إلا إذا كان موحدا بالله وحده، كافرا بكل ماعداه من الآلهة المتخذة من عبادها الكافرين، ومع ذلك يمحقه الكتاب المقدس عندهم محقا، فيتهمه بعصيان الله جهرا من أجل شهواته، من أجل نسائه ، فيبنى المرتفعات للأصنام ، ويتبع آلهة أخرى إرضاء لأزواجه، ويتهمه بالكفر !

وليس أبشع ولا أشنع من اتهام النبى بمعصية الله ورد أمره وإعلان الكفر، ولا يقبل عقلا ولا دينا أن يكون الأنبياء والمرسلون كما تصف التوراة وأسفارهم المقدسة عندهم، لأن ذلك يناقض ما اختارهم الله له من الرسالة والنبوة، وهؤلاء المختارون إنما اختيروا لأنهم المثل الأعلى للبشر فى الخلائق والصفات والأعمال الصالحة .

وحسبنا أن نذكر قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[1] .

أخلاق يهود :

ومن الغريب أن أسفار اليهود تنسب إلى الله عز وجل ما لو نسب إلى مخلوق لحط من كرامته وشأنه، ولاشمأز منه الناس !

فالنبى عندهم « هوشع » يأمره الله ـ كمايفترون ـ بأن يتخذ زانية ، ويصاحب حبيبة صاحب، وهذا هو ذا سفر « هوشع » ـ أحد الأسفار المقدسة ـ يقول فى الإصحاح الأول من الفقرة الثانية وما بعدها :

« أول ماكلم الرب هوشع قال الرب لهوشع: اذهب ، خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى، لأن الأرض قد زنت زنى، تاركة الرب ، فذهب وأخذ جومر بنت دِبْلايم، فحبلت ، وولدت له ابنا، فقال له الرب: ادع اسمه يَزْرَعيل ...

ثم حبلت أيضا ، وولدت له بنتا، فقال له الرب : ادع اسمها لورحامة .ثم فطمت لورحامة ، وحبلت فولدت ابنا ، فقال : ادع اسمه لوعَمّى » .

وفى الإصحاح الثالث، يقول هوشع :

قال الرب لى: «اذهب أيضا ، أحبب امرأة حبيبة صاحب، وزانية، كمحبة الرب لبنى إسرائيل، وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى » .

---

(١) ص : ٣٠ .

وماذا يبقى من شرائع الأخلاق وآداب السلوك وفضائل المجتمع وذخر الفرد والجماعة إذا كان الله يأمر باتخاذ ماينقص الأخلاق ويحطم الفضائل ، وإذا كان من وكل إليهم هداية البشر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يقارفون أشد الموبقات والعهر والفجور نتنا ؟!

إذا كان الله يأمر أحد أنبيائه عندهم ـ وهو هوشع ـ بأن يأخذ زانية، ويعاقب داود على زناه بأجنبية بأن زنى ابنه بنسائه ، فماذا يبقى للفاجرين والزناة من عامة الناس ؟!

تعالى الله عما يفترون علوا كبيرا .

ومحال على الأنبياء والمرسلين مايصفهم به الكتاب المقدس ـ كما يفترون ـ ولا يمكن أن يختار الله أحدا من خلقه للنبوة إلا وهو فى أعلى مراتب الكمال الإنسانى .

وكل ماجاء فى الكتاب المقدس لدى هؤلاء من وصف الأنبياء والمرسلين بما لايليق من الصفات إنما هو كذب محض !

والشىء الذى يجدر بالوقوف عنده ولوع هذا الكتاب المقدس بالزنا والخمر والحيل والخداع والكذب وهتك الأعراض وزنا المحارم فى بيئة الرسل والأنبياء وأسرهم !

ولا شك أن مايوجه اليهود إلى أنبيائهم ورسلهم من تهمة هتك الأعراض والزنا والقتل إنما هو انعكاس صحيح صادق لما يعيش فيه اليهود من السفالة، فهم مولعون بزنا الأباعد والأقارب والمحارم ، وهم مولعون بأن يجعلوا منكراتهم وموبقاتهم سائغة غير مستنكرة ، ومن ثم اتهموا أفضل الخلق وهم الرسل بما اتهموهم به من الفسق والفجور حتى يكون لهم العذر فى سفالاتهم ، هكذا يتوهمون !

فإذا كان أفضل الخلق طهرا، وهم الأنبياء والرسل ، إذا كانوا زناه وقتلة وكذابين فلا لوم على الناس إذا سلكوا مسلكهم وتخلقوا بأخلاقهم !

حقا إنها أخلاق يهود !

والإسلام ينزه الرسل والأنبياء من كل عيب ونقص، ويثبت لهم العصمة، وكل من طعنهم الكتاب المقدس لدى اليهود نزههم الدين القيم ـ كما أسلفنا ـ وهذا فارق مابين الدين القيم واليهودية فى هذا المقام ، فالإسلام دين سمح نظيف عفيف كامل فى كل خصائصه ومعالمه .

والإسلام ـ آدابا وسلوكا وشريعة وعقيدة ـ الدين الوحيد الذى تنزه عن كل مايعيب، وغيره لايرقى إلى مرتبة الدين الحق ، لأن الإسلام قائم على الإيمان بوحدانية الله وكماله المطلق، والإيمان برسله وكمالهم الإنسانى، وبالكتب التى أنزلها الله على رسله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وفى مقدمة مزايا الإسلام على جميع العقائد التى تصورها مصادرها: تنزيه الله، ووصفه بالكمال المطلق فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله وتوحيده، وإثبات الألوهية له وحده دون سواه، والكفر بالآلهة المخترعة، والأصنام المصنوعة.

ولهذا يرد الإسلام كل صفة لا تتفق مع كمال الله وجلاله، ولا يقبل ما نسب إلى الله فى قصص أنبياء بنى إسرائيل ـ كما أسلفنا ـ مما ازدحم بأساطيرهم وحكاياتهم الكتاب المقدس عندهم !

الفصل الرابع

ضلالات التلمود

التلمود ومكانته ـ الله فى التلمود ـ أرواح اليهود ـ اليهود والسلطة ـ غير اليهود ـ اليهود والتملك ـ مشروعية القتل ـ اغتصاب النساء ـ القسم فى التلمود ـ تدمير الهيكل ـ الدين التلمودى والهندوسية ـ خرافات التلمود: التنجيم ـ السحر ـ أصل السحر الذى يعمل به اليهود ـ سبب النزول ـ نبذ اليهود كتاب الله ـ اشتغالهم بالسحر ـ فى ظلال الآية ـ السحر فى بعض أنواعه كفر ومتعلمه كافر ـ من السبع الموبقات ـ حديث السحر ـ الحديث ثابت عند أهل العلم ـ متى كان السحر وما مدته؟ـ «التخيل» من قول عائشة على سبيل المبالغة ـ لا تصديق للمشركين ولا موافقة ـ أعلى درجات الصحيح السبع ـ لا منافاة بين الآية والحديث ـ حكم المتواتر ـ الحديث من أعلام النبوة ـ العرافة ـ قول الدكتور «جوزيف باركلى» ـ ماذا تقول العبرية؟ ـ حرق التلمود وإعدامه ـ مناظرات بين المسيحيين واليهود ـ مريم وعيسى ـ معسكر واحد ـ شاهد على الحقيقة.

التلمود ومكانته :

يقول الدكتور أحمد شلبى[1] : بين أيدينا مرجع يعد مصدرا أساسيا عند الحديث عن التلمود، ذلك هو « الكنز المرصود فى قواعد التلمود» ومؤلفه هو الدكتور « روهلنج » الذى كان مدرسا بجامعة « براج» وقد ترجمه من الفرنسية إلى العربية الدكتور يوسف نصر الله، ومرجع آخر وثيق الصلة به وهو « التلمود شريعة إسرائيل» وسنقبس منهما تعريفا بالتلمود وموجزا لأهم مباحثه.

يرى الفرنسيون من اليهود [2] أن التوراة ليست هى كل الكتب المقدسة، وإنما هناك بجانبها روايات شفوية تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل.. وتلك الروايات هى التى تعرف بالتلمود، وبعد المسيح بمائة وخمسين سنة خاف أحد الحاخامات المسمى « يوضاس» أن تلعب أيدى الضياع بهذه التعاليم الشفوية وتلك الروايات المتناقلة، فجمعهما فى كتاب سماه« المِشنا » ومعنى كلمة « المِشنا » الشريعة المكررة، لأن « المِشنا » تكرار لما ورد فى توراة موسى وليس « المشنا » إلا إيضاحاً وتفسيرا وتكميلا لهذه الشريعة.

وفى السنين التالية أدخل حاخامات فلسطين وبابل كثيرا من الزيادات على ما دونه «يوضاس» وأتم يهوذا سنة ٢١٦ م تدوين هذه الزيادات، والروايات الشفوية، وأصبحت كلمة « المِشنا » تضم كل ما كتب من عهد « يوضاس » إلى عهد « يهوذا ».

واستعصت « المشنا » على بعض القراء، فأخذ علماء اليهود يكتبون عليها حواشى كثيرة وشروحا مسهبة، وسميت هذه الحواشى وتلك الشروح باسم « جِمارا ».

ومن « المِشنا » و « الجِمارا » يتكون التلمود ، فالتلمود تعليم ديانة اليهود وآدابهم ، « المشنا » الذى به زيادات لحاخامات فلسطين يسمى هو وشروحه « تلمود أورشليم » أما « المِشنا» الذى به زيادات لحاخامات بابل فيسمى هو وشروحه« تلمود بابل » وهو المتداول بين اليهود، والمراد عند الإطلاق[3] .

ويعتبر أكثر اليهود التلمود كتابا منزلا، ويضعونه فى منزلة التوراة، ويرون أن الله

---

(١) مقارنة الأديان : اليهودية : ٢٤٩ وما بعدها بتصرف. وانظر: تعريف التلمود فى : فضح التلمود: تعليم الحاخاميين السرية : ٢١وما بعدها: الأب آى . بى . برانايتس . إعداد زهدى الفاتح. دار النفائس.

(٢) أى المنعزلون والمنشقون. انظر : اليهود : ٢٠٢.

(٣) المرجع السابق: ٢٥٠ نقلا عن الكنز المرصود: ٢٩ ـ ٣٠ بتصرف، والتلمود شريعة إسرائيل : ١٠ ـ ١١.

أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدونة، ولكنه أرسل على يده التلمود شفاها، ولا يقنع بعض اليهود بهذه المكانة للتلمود، بل يضعون هذه الروايات الشفوية فى منزلة أسمى من التوراة.

ويرى بعضهم ألا خلاص لمن ترك تعليم التلمود، واشتغل بالتوراة فقط، لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء فى شريعة موسى، ويعدون التوراة خبزا، ويرون أن الإنسان لا يعيش بالخبز فقط، وأن الأدم هو التلمود، ويصرحون بأن من يقرأ التوراة بغير المِشنا والجِمارا فليس له إله.

وتضطرب آراء اليهود أحيانا وهم يضعون التلمود فى تلك المكانة، فلا يكتفون بما سبق أن أوردناه من أن التلمود منزل، بل يعلنون أن التلمود إن كان أقوال الحاخامات فهو أيضا فى مكانة التوراة، لأن أقوال الحاخامات هى قول الله الحى، وأن الله يستشير الحاخامات عندما توجد معضلة لا يمكن حلها فى السماء (١)، وإذا خالف أحد اليهود أقوال الحاخامات يعاقب أشد العقاب ، لأن الذى يخالف شريعة موسى خطيئته قد تغتفر، أما من يخالف التلمود فيعاقب بالقتل (٢).

الله فى التلمود :

ويرى التلمود أن الله ندم لما أنزله باليهود وبالهيكل، ومما يرويه التلمود أن الله قال: تبّاً لى، لأنى صرَّحْت بخراب بيتى، وإحراق الهيكل، ونهب أولادى!

وليست العصمة من صفات الله فى رأى التلمود، لأنه غضب مرة على بنى إسرائيل، فاستولى عليه الطيش، فحلف بحرمانهم من الحياة الأبدية، ولكنه ندم على ذلك بعد أن هدأ غضبه، ولم ينفذ قسمه، لأنه عرف أنه فعل فعلا ضد العدالة !

ويقرر التلمود أن الله هو مصدر الشر.. وأنه أعطى الإنسان طبيعة رديئة، وسن له شريعة لم يستطع بطبيعته الرديئة أن يسير على نهجها، فوقف الإنسان حائرا بين اتجاه الشر فى نفسه، وبين الشريعة المرسومة إليه، وعلى هذا فإن داود الملك لم يرتكب خطيئة بقتله أوريا واتصاله بامرأته ـ كما سبق ـ لأن الله هو السبب فى كل ذلك (٣).

---

(١) المرجع السابق، نقلا عن: الكنـز المرصود: ٣٢ ـ ٣٣ والتلمود شريعة إسرائيل: ١١ ـ ١٢.

(٢) المرجـع السـابق : نقلا عن : الكنز المرصود : ٨٧.

(٣) المرجع السابق : ٢٥١ نقلا عن : التلمود شريعة إسرائيل : ١٧ ـ ١٩.

أرواح اليهود :

وتتميز أرواح اليهود عن باقى الأرواح بأنها جزء من الله، كما أن الابن جزء من أبيه، ويقول التلمود بالتناسخ، وهو فكر تسرب لبابل من الهند، وأخذه حاخامات بابل من المجتمع البابلى.

اليهود والسلطة :

وينص التلمود على أنه يجب على كل يهودى أن يبذل جهده لمنع تسلط باقى الأمم فى الأرض، لتصير السلطة لليهود وحدهم، فإذا لم تكن لهم السلطة عدوا كأنهم فى حياة النفى والأسر، ويعيش اليهود فى حرب مع باقى الشعوب، حتى ينتقل لهم الثراء والسلطان من الجميع، وحينئذ يدخل أفواجا فى دين اليهود، ويُقبلون جميعا، ما عدا المسيحيين، لأن هؤلاء من نسل الشيطان!(١).

غير اليهود :

وجاء فى التلمود أن الإسرائيلى معتبر عند الله أكثر من الملائكة، وأن اليهودى جزء من الله، فإذا ضرب أمىٌّ إسرائيليا، فكأنه ضرب العزة الإلهية، والفرق بين درجة الإنسان والحيوان، هو بقدر الفرق بين اليهود وغير اليهود، ولليهودى فى الأعياد أن يطعم الكلب، وليس له أن يطعم غير اليهود، والشعب المختار هم اليهود فقط، أما باقى الشعوب فهم حيوانات، ولما قدّم بختنصر ابنته إلى زعيم اليهود ليتزوجها، قال له هذا الزعيم: إنى يهودى ولست من الحيوانات، ويعتبر اليهود غير اليهود أعداء لهم،ولا يجيز التلمود أن يشفق اليهود على أعدائهم ، ويلزم التلمود بنى إسرائيل أن يغشوا سواهم.. ويمنع التلمود اليهود أن يحيّوا غير اليهود ما لم يخشوا ضررهم، ويجيز استعمال النفاق مع غير اليهود، ولا يجيز أن يقدم اليهود صدقة لغير اليهود!(٢).

اليهود والتملك :

ولما كان التلمود يقرر أن اليهود أجزاء من الله، فإن اليهود لذلك يعتبرون مالكين لكل ما فى الأرض من ثراء بالنيابة عن الإله ، وقد جاء فى وصايا موسى : « لا تسرق مال القريب » . وفسر علماء اليهود هذه الوصية بجواز أن يسرق اليهودى مال الغريب، أى

---

(١) المرجع السابق : ٢٥٢ نقلا عن : الكنز المرصود: ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) المرجع السابق : نقلا عن : الكنز المرصود: ٥١ ـ ٥٥ والتلمود شريعة إسرائيل: ٢٥.

غير اليهودى، فسلب ماله ليس مخالفا للوصايا، وسار الفكر اليهودى فى التلمود على هذا النحو، فعدت سرقة اليهودى من غير اليهودى استردادا لأموال اليهود من سالبيها، وأجاز علماء التلمود أن يبيع اليهودى ليهودى شيئا يملكه غير يهودى، وللمشترى أن يتخذ الوسائل لوضع يده على ما اشتراه، ويساعده كل اليهود ليحصل على حقه، وجاء فى التلمود نص يشرح هذه الفكرة شرحا وافيا، وهو: إن مثل بنى إسرائيل كمثل سيدة فى منزلها، يحضر لها زوجها النقود فتأخذها وتنفقها دون أن تشترك معه فى الشغل والتعب، فعلى الأمميين أن يعملوا، ولليهود أن يأخذوا نتاج هذا العمل!

ومن الوسائل التى يصطنعها اليهود ليستولوا على ثروات العالم الغش الذى أجاز التلمود استعماله مع غير اليهود، فى حالة البيع أو الشراء، وقال الحاخام «رشى»: «مصرح لليهودى أن يغش غير اليهودى، ويحلف له أيمانا كاذبة»!

ومن الوسائل أيضا عدم رد الأشياء المفقودة، فقد جاء فى التلمود أن الله لا يغفر ذنبا ليهودى يرد للأممى ماله المفقود!

ومن الوسائل كذلك الربا الذى أجاز التلمود استعماله مع غير اليهود، فقد جاء فى التلمود: «غير مصرح لليهودى أن يقرض الأجنبى إلا بالربا» [(١)].

مشروعية القتل:

وليست لأرواح غير اليهود حرمة لدى اليهود، فقد جاء فى التلمود: محرم على اليهودى أن ينجى أحدا من الأمميين من هلاك أو يخرجه من حفرة يقع فيها، بل إذا رآى أحد الأمميين يقع فى حفرة لزمه أن يسدها بحجر!

وقال «ميمانود»: الشفقة ممنوعة بالنسبة لغير اليهودى، فإذا رأيته واقعا فى نهر أو مهددا بخطر فيحرم عليك أيها اليهودى أن تنقذه، لأن السكان الذين كانوا فى أرض كنعان وقضت التوراة بقتلهم جميعا لم يقتلوا عن آخرهم، بل هرب بعضهم واختلط بباقى أمم الأرض، ولذلك يلزم قتل غير اليهودى، لاحتمال أن يكون من هؤلاء الهاربين!

وينص التلمود على أن من العدل أن يقتل اليهودى كل أممى، لأنه بذلك يقرب قربانا إلى الله! [(٢)].

---

(١) المرجع السابق: ٢٥٣ نقلا عن: الكنز المرصود: ٥٦، ٦٥ «موجز»، والتلمود شريعة إسرائيل: ٣٢ وما بعدها.
(٢) المرجع السابق: ٢٥٤ نقلا عن: الكنز المرصود: ٦٦ - ٧٧ والتلمود شريعة إسرائيل: ٤٠ - ٤١.

اغتصاب النساء:

وإتيان زوجات الأجانب جائز فى التلمود، واستنتج من ذلك الحاخام « رشى » أن اليهودى لا يخطىء إذا تعدى على عرض الأجنبى، لأن كل عقد نكاح عند الأجانب فاسد، لأن المرأة التى لم تكن من بنى إسرائيل هى كبهيمة، والعقد لا يوجد مع البهائم وما شاكلها، وقد أجمع على هذا الرأى الحاخامات « بشاى وليفى وجرسون » فلا يرتكب اليهودى محرّما إذا أتى امرأة مسيحية، وقال « ميمانود » إن لليهود الحق فى اغتصاب النساء الغير مؤمنات، أى الغير يهوديات(١).

القسم فى التلمود :

وينص التلمود على أن اليمين التى يقسم بها اليهودى فى معاملاته مع باقى الشعوب لا تعتبر يمينا، إذ كأنه أقسم لحيوان، والقسم لحيوان لا يعد يمينا، فإذا اضطر اليهودى أن يحلف لمسيحى فله أن يعتبر ذلك القسم كلا شىء، ويجوز لليهودى الحلف زورا إذا حول اليمين لوجهة أخرى، وبخاصة إذا كانت اليمين إجبارية، كأن تكون أمام المحاكم، أو أمام خصم قوى !

وإذا سرق يهودى أجنبيا، وكلفت المحكمة اليهودى أن يحلف اليمين حلف زورا، ويعين التلمود يوما كل فترة يسمى« يوم الغفران العام » وفيه يُمحى كل ما ارتكبه اليهود من ذنوب، ومن ضمنها الأيمان الزور (٢).

تدمير الهيكل :

يقول الأستاذ ظفر الإسلام خان(٣) : يزعم اليهود أن لهم حق العودة إلى فلسطين، لأنهم أخرجوا من ديارهم مكرهين، وطردوا من بلادهم بالقوة. لكن التلمود يكذب كليا مزاعمهم هذه. فرواية التلمود تؤكد أن الرب أخرج اليهود من ديارهم بمشيئته وإرادته. وفيما يلى تسجيل التلمود لواقعة السبى البابلى وتدمير الهيكل الأصلى :

« عندما بلغت ذنوب إسرائيل مبلغا، وفاقت حدود ما يطيقه الإله العظيم، وعندما رفضوا أن ينصتوا لكلمات وتحذير« إرمياه » ترك النبى « إرمياه » أورشليم، وسافر إلى بلاد

---

(١) المرجع السابق ،،نقلا عن : الكنز المرصود : ٧١ والتلمود شريعة إسرائيل : ٤٤ ـ ٦٥.

(٢) المرجع السابق : ٢٥٥ نقلا عن الكنز المرصود : ٧٤ ـ ٧٦ والتلمود شريعة إسرائيل: ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) التلمود : تاريخه وتعاليمه : ٦٦ وما بعدها بتصرف .

« بنيامين ». وطالما كان النبى لا يزال فى المدينـة المقـدسـة كان يدعو للرحمة عليها، فنجت، ولكنه عندما هجرها إلى بلاد « بنيامين » دمر « نبوخذ نصر » بلاد إسرائيل، وحطـم الهـيكل المقـدس، ونهب مجـوهراتـه، وتـركـه فريسـة للنيران الملتهـبـة، وكـان « نبوذردان » الذى آثر البقاء فى « ريبلاه » قد أرسل « نبوخذ نصر » لتدمير « أورشليم ».

وقبل أن يبدأ « نبوخذ نصر » حملته العسكرية سعى لمعرفة نتائج الحملة بواسطة الإشارات، نظرا لذهوله من الموقف، فرمى من قوسه نحو الغرب، فسارت السهم فى اتجاه « أورشليم »، ثم رمى مرة أخرى نحو الشرق ، ولكن السهم اتجه نحو « أورشليم » ، ثم رمى مرة أخرى ، ليتأكد من محل وقوع المدينة المذنبة التى وجب تطهيرها من الأرض ، وللمرة الثالثة اتجهت سهمه نحو « أورشليم ».

وبعد أن استولى « نبوخذ نصر » على المدينة توجه مع أمرائه وضباط جيشه إلى داخل الهيكل وصاح ساخرا مخاطبا إله إسرائيل:

« وهل أنت الإله العظيم الذى يرتعد أمامه العالم؟ ها نحن فى مدينتك ومعبدك!»

ووجد « نبوخذ نصر» علامة لرأس سهم على أحد جدران الهيكل، كأن أحدا قتل أو أصيب بها، فسأل:« من قتل هنا ؟» فأجاب الشعب :

« زكريا بن يهودياه » ، كبير الكهنـة ، لقـد كان يحذرنـا فى كل ساعـة مـن حسـاب « عقاب » اعتداءاتنا « الوصايا »، وقد سئمنا من كلماته، فانتهينا منه .

فذبح جنود« نبوخـذ نصر » سكان أورشليـم ، كهنتها وشعبهـا ، كهـولهـا وشبابهـا ، ونساءها وأطفالها، وعندما شاهد كبير الكهنة هذا المنظر ألقى بنفسـه فى النار التى أشعلها « نبوخذ نصر » فى الهيكل، وتبعه بقية الكهنة مع عودهم وآلاتهم الموسيقية الأخرى !

ثـم ضرب جنـود « نبوخـذ نصـر » السلاسـل الحديديـة فى أيـدى باقـى الإسرائيليـن وساقوهم إلى السبى .

ورجع إرمياه النبى إلى أورشليم، وصحب إخوانـه البؤساء ، الذيـن خرجـوا عرايا تقريبا، وعند وصولهم إلى مدينة تسمى « بيت كورو » هيأ لهم إرمياه ملابس جيدة. وتكلم مع « نبوخذ نصر » والكلدانيين قائلا لهم: « لا تظن أنك بقوتك وحدها استطعت أن تتغلب على شعب الرب المختار، إنها ذنوبهم الفاجرة التى ساقتهم إلى هذا العذاب » .

وعندما هم « نبوخذ نصر » بقتل جميع الإسرائيليين ، لأنهم رفضوا أن يغنوا أمامه الأغانى التى طالما غنوها فى الهيكل ، جرت محادثة بين « بيلاطيا » ابن يهوياداه أخ النبى « زكريا » قال فيها :

« لقد أعطى الله إسرائيل فى يدك، وأنت الآن مسئول أمامه عمن تقتلهم » (١) .

ويتضح من هذه الشهادة التى نقلناها دون أى تصرف فى الترجمة أن طرْدَ اليهود من فلسطين وتدمير الهيكل الأصلى الذى بناه سليمان عليه السلام كان بمشيئة الله، وأن الدعاوى اليهودية ليست إلا استغلالا وكذبا وبهتانا بدون أساس، ويتضح هذا أكثر مما جاء على لسان الحاخام « أوشايا » :

« عمل الرب خيرا لإسرائيل، عندما شتت أبناء إسرائيل بين الأمم » (٢).

والجدير بالذكر أن هذه هى الفكرة التى كانت تسود الفكر اليهودى حتى القرن التاسع عشر، إلى أن ظهرت بدعة الصهيونية التى نادت لأول مرة بالعمل لإقامة دولة يهودية، ولم يكن قادة الصهيونية ـ كما سيأتى ـ قد اتفقوا فيما بينهم أول الأمر، على الأرض التى تقام عليها دولتهم اليهودية، فى أوغندا، أو الأرجنتين، أو البرازيل، أو جنوب أفريقيا، أو الجزء الأوربى من تركيا، أو العراق، أو سيناء، أو استراليا؟!

وكانت خريطة أوغندا تزين منصة المؤتمرات الصهيونية حتى سنة ١٩٠٤م.

وكان هناك فى أول الأمر خلاف شديد بين اليهود حول العمل لإقامة دولة يهودية، إذ كان اليهود المتدنيون يؤمنون بأن عودتهم إلى فلسطين ستتحقق بمجيئ المسيح !

حتى ذلك الوقت لم تكن علاقة اليهود بفلسطين أكثر من علاقة روحية.. (٣).

والحقيقة أن الحركة الصهيونية السياسية لم تتمكن من الاستيلاء على فلسطين إلا بسبب أطماع أعداء الإسلام فى بقاء الاستعمار، وفى المقدمة بريطانيا، ولإحلال قوم غرباء فى منطقة كانت ستشهد عما قريب حركة وحدوية غير عادية، بسبب العلاقات التى تربط بين الشعب الذى يعيش من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى.

وقد ساعدت الكراهية العمياء، والنزعة الصليبية الحاقدة، لدى أوربا وما شايعها على

---

(١) انظر المرجع السابق : ٦٨ هامش . (٢) انظر المرجع السابق : ٦٩ هامش.
(٣) انظر المرجع السابق : ٧٠ هامش .

نجاح المخطط، ولا أدل على ذلك من الروح التى كانت تسيطر على القواد الذين غزوا البلاد العربية فى الحرب العالمية الأولى، حيث نرى القائد الفرنسى « الجنرال غوروا» الذى دخل دمشق يقول، وقد وضع رجله على قبر صلاح الدين:

« ها نحن عدنا يا صلاح الدين »!

ونرى « الجنرال اللنبى » عند دخوله القدس يقول أمام كنسية القيامة:

« اليوم قد انتهت الحروب الصليبيـة»!

ويسميها الصهيونى « إسرائيل زانجويل » بأنها :

« الحرب الصليبيـة الثامنـة » !

الديـن التـلمودى والهنـدوسيـة :

ويقول الأستاذ ظفر الإسلام خان: خلال بحثى فى الدين التلمودى وجدت أن هناك أوجه تشابه عديدة بين معتقدات التلمود والهندوسية ، ومنها :

أولا: يعتقد التلمود أن اليهود الذين يرتدون عن دينهم بقتلهم يهوديا آخر لا يدخلون الجنة، وإنما « تدخل أرواحهم فى الحيوانات والنباتات، ثم تذهب إلى الجحيم، وتعذب عذابا أليما مدة اثنى عشر شهرا، ثم تعود ثانية لتدخل فى الجمادات، ثم فى الحيوانات، ثم فى الوثنيين، حتى ترجع إلى جسد يهودى بعد تطهيرها»(١).

وعقيدة « التناسخ » هذه موجودة أيضا فى الديانة الهندوسية .

ثانيـا: اليهـود يقدسـون المـال إلى أبعـد الحـدود ، والهندوس اتـخـذوا للمال آلهـة تسمـى « لاكشمى » .

ثالثا: اخترع السامرى اليهودى عجلا ليعبده قومه، ومن الهندوس من يعبد أو يقدس البقر .

رابعا: اليهود يعتقدون أن غير اليهود نجسون، ولا يمكن لليهودى أن يدخلهم إلى بيته، أو يأكل عندهم، وليس له أن يتعامل معهم إلا بغرض التجارة (٢).

---

(١) الكنز المرصود فى قواعد التلمود : مبحث أرواح اليهود والمسيحيين.

(٢) انظـــر : المرجع السابق : الفصل السادس الأجانب.

والهندوس أيضا يؤمنون بنفس العقيدة القاضية بنجاسة غيرهم ، بمن فيهم المنبوذون والمسلمون والمسيحيون وغيرهم . ولا يزال بعضهم، والفلاحون منهم ، يباشرون فى حياتهم هذه العقيدة، فهم لا يأكلون ولا يشربون مع مؤمنى الأديان الأخرى أو المنبوذين، اللهم إلا الذين تعلموا وتنوروا منهم، وهم لا يزالون قلة (١).

خامسا: يرى اليهود أن تربة فلسطين طاهرة، وهم يدفنون المتدينين من موتاهم فى أرض فلسطين منذ قديم الزمان، وإن لم يتسير لهم ذلك، يضعون مع الكفن شيئا من التراب جلبوه من فلسطين (٢).

والهندوس أيضا يفعلون ما يماثل ذلك، فهم يضعون رماد موتاهم فى نهر الكنج المقدس بغض النظر عن أى مكان من الأرض مات فيه هؤلاء، وإن لم يتيسر لهم ذلك، يضعون قطرات من ماء نهر الكنج فوق الكفن قبل حرق الجثة.

وهذه الجوانب المتماثلة بين العقيدتين تؤكد أن هنالك علاقة بينهما، وهذا جانب يستحق الدراسة والبحث.

خرافات التلمود :

ويزخر التلمود بشتى أنواع الخرافات.. منها :

التنجيم :

يقول التلمود: « إن كسوف الشمس آية سوء للشعوب، وخسوف القمر آية سوء لبنى إسرائيل ، لأن إسرائيل تعتمد فى بقائها على القمر، وشعوب الأرض تعتمد على الشمس » (٣).

ويعتقد أصحاب التلمود اعتقادا جازما بأن التنجيم علم يتحكم فى حياة الإنسان.

يقول الحاخام « شانينا » : « إن تأثير النجوم يجعل الإنسان ذكيا، وتأثيرها يجعله ثريا، وبنو إسرائيل تحت تأثير النجوم » .

---

(١) مما يجدر ذكره أن المهاتما غاندى شن حملة شعواء ضد هذه المعتقدات.

(٢) انظر التلمود: تاريخه وتعاليمه : ٧٢ هامش.

(٣) المرجع السابق : ٧٥ هامش وفيه : لعل هذه الأسطورة هى التى ساقت الحاخامات إلى اختلاق قصة القمر الذى قال لله: « إنك خلقتنى صغيرا ..!».

ومع ذلك النص التلمودى، يعترض الحاخام« يوحنا» على الحاخام « شانينا » قائلا:«بنو إسرائيل ليسوا تحت تأثير النجوم . من أين تثبت هذا؟ لقد قال ربك:« لا تتعلم طريق الوثنيين، ولا تفزعك آيات السماء، لأن الوثنيين أفزعتهم آياتها » (١).

السحر :

والتلمود يمتلىء بطقوس السحر والشعوذة والعرافة، ويعتقد بوجود العفاريت، وأن الأرواح الشريرة والشياطين والعفاريت والجنيات من ذرية آدم، وهؤلاء يطيرون فى كل اتجاه، ويعرفون أحوال المستقبل باستراق السمع فى السماء، ويضرب لهم مثلا بـ « الرجال الذين يلعبون الحيل المنحرفة » (٢).

ويمنع الناس من أن يركبوا على ظهور الثيران التى كانت مربوطة فى كشك داخلى ، لأن الشيطان يرقص بين قرنى الثور فى المربط، كما يمنعهم من السلام على أصدقائهم فى الليل ، خوفا من أن يسلموا على الشياطين والعفاريت !

ويأمرهم أن يريقوا بعض الماء من الإناء قبل أن يشربوا منه، للنجاة مما رشفت منه الأرواح الشريرة، وأن يستشيروا الشيطان فى آخر أيام الأسبوع« الجمعة» والتلمود يورد كثيرا من حيل الشيطان الذى جعل كثيرين، بواسطة تلك الحيل، يتركون قراءة القانون، ثم تمكن من نزع أرواحهم .

أصل السحر الذى يعمل به اليهود :

وهنا نقرأ قوله تعالى :

﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) الأدب العبرى : ١٨.

(٢) التلمود : تاريخه وتعاليمه: ٧٦ وما بعدها بتصرف.

(٣) البقرة : ١٠٢.

قال الحافظ (١) : فى هذه الآية بيان أصل السحر الذى يعمل به اليهود، ثم هو مما وضعته الشياطين على سليمان بن داود عليه السلام، ومما أنزل على هاروت وماروت بأرض بابل .

والثانى متقدم العهد على الأول، لأن قصة هاروت وماروت كانت من قبل زمن نوح عليه السلام، على ما ذكر ابن إسحاق وغيره.

وكان السحر موجودا فى زمن نوح، إذ أخبر الله عن قوم نوح أنهم زعموا أنه ساحر!

وكان السحر أيضا فاشيا فى قوم فرعون، وكان ذلك قبل سليمان.

سبب النزول :

واختلف فى المراد بالآية، فقيل: إن سليمان كان جمع كتب السحر والكهانة فدفنها تحت كرسيه، فلم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسى، فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين يعرفون الأمر، جاءهم شيطان فى صورة إنسان فقال لليهود: هل أدلكم على كنز لا نظير له ؟

قالوا : نعم .

قال: فاحفروا تحت الكرسى، فحفروا وهو متنحّ عنهم، فوجدوا تلك الكتب، فقال لهم: إن سليمان كان يضبط الإنس والجن بهذا، ففشا فيهم أن سليمان كان ساحرا. فلما نزل القرآن بذكر سليمان فى الأنبياء أنكرت اليهود ذلك وقالوا: إنما كان ساحرا، فنزلت هذه الآية. أخرجه الطبرى وغيره عن السدى.

ومن طريق سعيد بن جبير بسند صحيح نحوه.

ومن طريق عمران بن الحارث عن ابن عباس موصولا بمعناه.

وأخرج من طريق الربيع بن أنس نحوه، ولكن قال: إن الشياطين هى التى كتبت كتب السحر ودفنتها تحت كرسيه، ثم لما مات سليمان استخرجته وقالوا: هذا العلم الذى كان سليمان يكتبه للناس .

---

(١) فتح البارى : ١٠: ٢٢٣.

وأخرجه من طريق محمد بن إسحاق، وزاد أنهم نقشوا خاتما على نقش خاتم سليمان، وختموا به الكتاب، وكتبوا عنوانه:

« هذا ما كتب آصف بن برخياء الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم».

ثم دفنوه، فذكر نحو ما تقدم.

وأخرج من طريق العوفى عن ابن عباس نحو ما تقدم عن السدى، ولكن قال: إنهم لما وجدوا الكتب قالوا: هذا مما أنزل الله على سليمان فأخفاه منا.

وأخرج بسند صحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: انطلقت الشياطين فى الأيام التى ابتلى فيها سليمان، فكتبت كتبا فيها سحر وكفر، ثم دفنتها تحت كرسيه، ثم أخرجوها بعده فقرءوها على الناس.

وملخص ما ذكر فى تفسير هذ الآية أن المحكى عنهم أنهم اتبعوا ما تتلو الشياطين، هم أهل الكتاب، إذ تقدم قبل ذلك فى الآيات إيضاح ذلك.

نبذ اليهود كتاب الله :

والجملة معطوفة على مجموع الجمل السابقة من قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

وكان هذا مظهرا من مظاهر نقض فريق من الذين أوتوا الكتاب لكل عهد يعاهدونه (٢) ، فلقد كان ضمن الميثاق الذى أخذه الله عليهم أن يؤمنوا بكل رسول يبعثه، وأن ينصروه ويحترموه .

فلما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، خاسوا بذلك العهد، ونبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ، يستوى فى هذا النبذ كتاب الله الذى معهم، والذى يتضمن البشرى بهذا النبى وقد نبذوه، والكتاب الجديد مع النبى الخاتم وقد نبذوه أيضا !

---

(١) البقـرة : ١٠١.

(٢) فى ظلال القرآن : ١: ٩٤ بتصرف.

وفى الآيـة ما فيها من سخرية خفية، يحملها ذلك النص على أن الذين أوتوا الكتاب هم الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. فلو كانوا هم المشركين الأميين لكان نبذهم لكتاب الله وراء ظهورهم مفهوما!

ولكنهم هم الذين أوتوا الكتاب.. هم الذين عرفوا الرسالات والرسل.. هم الذين اتصلوا بالهدى والنور.. وماذا صنعوا؟

إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم!

والمقصود طبعا أنهم جحدوه وتركوا العمل به، وأنهم أبعدوه عن مجال تفكيرهم وحياتهم!

ولكن التعبير المصور ينقل المعنى من دائرة الذهن إلى دائرة الحس ، ويمثل عملهم بحركة مادية متخيلة، تصور هذا التصرف تصويرا بشعا زريا، ينضح بالجحود والكنود ، ويتسم بالغلظة والحماقة، ويفيض بسوء الأدب والقحة، ويدع الخيال يتملى هذه الحركة العنيفة. حركة الأيدى تنبذ كتاب الله وراء الظهور !

اشـتغـالهـم بالسـحـر :

ثم ماذا ؟

ماذا بعد أن نبذوا كتاب الله المصدق لما معهم ؟

ألعلهـم قد لاذوا بما هو خير منه ؟

ألعلهم قد لجأوا إلى حق لا شبهة فيه ؟

ألعلهم قد استمسكوا بكتابهم الذى جاء القرآن يصدقه؟

كلا.. لا شيء من هذا كلـه!

إنهم نبذوا كتاب الله وراء ظـهورهم ليجروا وراء أساطير غامضة، لا تستند إلى حقيقة ثابتة !

لقد تركوا ما أنزل الله مصدقا لما معهم، وراحوا يتتبعون ما يقصه الشياطين على عهد سليمان، وما يضلون به الناس من دعاوى مكذوبة عن سليمان، إذ يقولون: إنه كان ساحرا، وأنه سخر ما سخر عن طريق السحر الذى كان يعلمه ويستخدمه !

في ظلال الآيــة :

وإذا كنا قد عرفنا أصل السحر الذى يعمل به اليهود، وسبب نزول قوله تعالى :

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ الآية.

فإن ذلك يدفعنا إلى ضرورة أن نذكر بإيجاز أقوال العلماء فيها، وفق ما يلى:

يقول ابن جرير:

يعنى بقوله: الفريق من أحبار اليهود وعلمائها [1] الذين وصفهم الله جل ثناؤه بأنهم نبذوا كتابه الذى أنزله على موسى وراء ظهورهم، تجاهلا منهم وكفرا بما هم به عالمون، كأنهم لا يعلمون، فأخبر عنهم أنهم رفضوا كتابه الذى يعلمون أنه منزل من عنده على نبيه ﷺ، ونقضوا عهده الذى أخذه عليهم فى العمل بما فيه، وآثروا السحر الذى تلته الشياطين فى ملك سليمان بن داود فاتبعوه، وذلك هو الخسار والضلال المبين.

واختلف أهل التأويل.. فقال بعضهم: عنى الله بذلك اليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجر رسول الله ﷺ، لأنهم خاصموا رسول الله ﷺ، بالتوراة ، فوجدوا التوارة للقرآن موافقة ، تأمر من اتباع محمد ﷺ وتصديقه بمثل الذى يأمر به القرآن، فخاصموا بالكتب التى كان الناس اكتتبوها من الكهنة على عهد سليمان.. وقال آخرون: بل عنى الله بذلك اليهود الذين كانوا على عهد سليمان..

والصواب أن ذلك توبيخ من الله لأحبار اليهود الذين أدركوا رسول الله ﷺ، فجحدوا نبوته وهم يعلمون أنه لله رسول مرسل، وتأنيب منه لهم فى رفضهم تنزيله، وهجرهم العمل به وهو فى أيديهم يعلمونه ويعرفونه ويعرفون أنه كتاب الله، واتباعهم واتباع أوائلهم وأسلافهم ما تلته الشياطين فى عهد سليمان، وقد بينا وجه جواز إضافة أفعال أسلافهم إليهم فيما مضى..

وإنما اخترنا هذا التأويل لأن المتبعة ما تلته الشياطين فى عهد سليمان وبعده إلى أن بعث الله نبيه بالحق وأمر السحرة لم يزل فى اليهود..

وقال ابن حجر فى قوله: [2].

﴿مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾

---

(١) تفسير الطبرى: ١: ٤٤٤ وما بعدها بتصرف.

(٢) فتح البارى: ١٠: ٢٢٤.

« ما » موصولة على الصواب ، وغلط من قال: إنها نافية، لأن نظم الكلام يأباه ، و « تتلو » لفظه مضارع، لكن هو واقع موقع الماضى، وهو استعمال شائع، ومعنى« تتلو » تتقوّل، ولذا عداه بعلى، وقيل: معناه تتبع أو تقرأ، ويحتاج إلى تقدير، قيل: هو تقرأ على زمان ملك سليمان.

قال ابن جرير(١) : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله عز وجل أخبر عن الذين أخبر عنهم أنهم اتبعوا ما تتلو الشياطين على عهد سليمان باتباعهم ما تلته الشياطين ، ولقول القائل: هو يتلو كذا فى كلام العرب معنيان :

أحدهما : الاتباع ، كما يقال: تلوت فلانا، إذا مشيت خلفه، وتبعت أثره، كما قال جل ثناؤه :

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ (٢).

يعنى بذلك تتبع.

والآخر: القراءة والدراسة، كما تقول: فلان يتلو القرآن، بمعنى أنه يقرؤه ويدرسه، كما قال حسان بن ثابت:

نبى يرى ما لا يرى الناسُ حوله ويتلو كتاب الله فى كل مَشْهَد

ولم يخبرنا الله جل ثناؤه بأىّ معنى التلاوة كانت تلاوة الشياطين الذين تَلوا ما تلَوه من السحر على عهد سليمان بخبر يقطع العذر.

وقد يجوز أن تكون الشياطين تلت ذلك دراسة ورواية وعملا، فتكون كانت متبعته بالعمل، ودارسته بالرواية، فاتبعت اليهود منهاجها فى ذلك وعملت به وروته.

ونقل ابن كثير عن ابن أبى حاتم عن الحسن أنه قال: ثلث: الشعر، وثلث: السحر، وثلث: الكهانة.

وقال فى قوله : ﴿ **على ملك سليمان** ﴾ .

وتبعته اليهود على ملكه، وكان السحر قبل ذلك فى الأرض، ولم يزل بها، ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان.

---

(١) تفسير الطبرى: ١:٤٤٧ ـ٤٤٨.

(٢) يونس: ٣٠.

قال ابن كثير: أى واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذى بين أيديهم، ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ ما تتلوه الشياطين، أى ما ترويه وتخبر به، وتحدثه الشياطين على ملك سليمان، وعداه بعلى، لأنه تضمن« تتلو »تكذب(١).

قال ابن جرير:«على» بمعنى «فى» (٢).

قال ابن كثير: والتضمن أحسن وأولى.

وقول الحسن البصرى رحمه الله: وكان السحرقبل زمان سليمان بن داود صحيح لا شك فيه، لأن السحرة كانوا فى زمان موسى عليه السلام، وسليمان بن داود بعده، كما قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ ﴾ (٣).

ثم ذكر القصة بعدها، وفيها:

﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (٤).

وقال قوم صالح، وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، لنبيهم صالح:

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ (٥).

أى المسحورين، على المشهور(٦).

وقال ابن حجرفى قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾

« ما » نافية جزما (٧).

وقوله:

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾

هذه الواو عاطفة لجملة الاستدراك على ما قبلها.

---

(١) تفسير ابن كثير: ١: ١٣٦. (٢) انظرتفسير الطبرى: ١: ٤٤٨.
(٣) البقرة: اية ٢٤٦. (٤) البقرة: ٢٥١. (٥) الشعراء: ١٥٣.
(٦) تفسير ابن كثير: ١: ١٣٦. (٧) فتح البارى: ١٠: ٢٢٤.

وقال ابن جرير فى تأويل قوله (١).

﴿ وما كفر سليمان.. ﴾ .

إن قال لنا قائل: وما هذا الكلام من قوله:

﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ .

ولا خبر معنا قبل عن أحد أنه أضاف الكفر إلى سليمان، بل إنما ذكر اتباع من اتبع من اليهود ما تلته الشياطين، فما وجه نفى الكفر عن سليمان بعقب الخبر عن اتباع من اتبعت الشياطين فى العمل بالسحر وروايته من اليهود؟

قيل: وجه ذلك أن الذين أضاف الله جل ثناؤه إليهم اتباع ما تلته الشياطين على عهد سليمان من السحر والكفر من اليهود، نسبوا ما أضافه الله تعالى ذكره إلى الشياطين من ذلك إلى سليمان بن داود، وزعموا أن ذلك كان من علمه وروايته، وأنه إنما كان يستعبد من يستعبد من الإنس والجن والشياطين وسائر خلق الله بالسحر، فحسنوا بذلك من ركوبهم، ما حرم الله عليهم من السحر لأنفسهم عند من كان جاهلا بأمر الله ونهيه، وعند من كان لا علم له بما أنزل الله من التوراة، وتبرأ بإضافة ذلك إلى سليمان من سليمان، وهو نبى الله ﷺ منهم بشر، وأنكروا أن يكون كان لله رسولا، وقالوا: بل كان ساحرا، فبرأ الله سليمان بن داود من السحر، عند من كان منهم ينسبه إلى السحر والكفر، لأسباب ادعوها عليه... وأكذب الآخرين الذين كانوا يعملون بالسحر، متزينين عند أهل الجهل فى عملهم ذلك بأن سليمان كان يعمله، فنفى الله عن سليمان عليه السلام أن يكون ساحرا أو كافرا، وأعلمهم أنهم إنما اتبعوا فى عملهم السحر ما تلته الشياطين فى عهد سليمان، دون ما كان سليمان يأمرهم من طاعة الله، واتباع ما أمرهم به فى كتابه الذى أنزله على موسى صلوات الله عليه.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾

قال القرطبى(٢) : « ما » نفى، والواو للعطف على قوله « وما كفر سليمان » وذلك أن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر، فنفى الله ذلك.

---

(١) تفسير الطبرى : ١:٤٤٨ ـ ٤٤٩.

(٢) تفسير القرطبى: ٢:٥٠

وقال ابن حجر[1] : « ما » موصولة، ومحلها النصب عطفا على السحر، والتقدير: يعلمون الناس السحر، والمنزل على الملكين،وقيل: الجر عطفا على ملك سليمان أى تقولا على ملك سليمان وعلى ما أنزل، وقيل: بل هى نافية عطفا على« وما كفر سليمان» والمعنى ولم ينزل على الملكين إباحة السحر، وهذان الإعرابان ينبنيان على ما جاء فى تفسير الآية عن البعض، والجمهور على خلافه، وأنها موصولة، ورد الزجاج على الأخفش دعوته أنها نافية، وقال: الذى جاء فى الحديث والتفسير أولى.

وحكى القرطبى عن ابن عباس وابن أبْزىَ والضحاك والحسن: « الملكين » بكسر اللام. قال ابن أبْزىَ : هما داود وسليمان . فـ« ما » على هذا القول أيضا نافية ، وضعَّف هذا القول ابن العربى ، وقال الحسن : هما عِلْجَان كانا ببابل مِلكين (بكسر اللام) ، فـ « ما» على هذا القول مفعولة غير نافية . [2] .

قال ابن كثير: وذهب آخرون إلى الوقف على قوله: « يعلمون الناس السحر» و « ما » نافية . [3] .

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾

قال ابن حجر : [4] وذلك أن الملكين لايعلمان الناس السحر، بل يعلمانهم به، وينهيانهم عنه ، والأول أشهر، وقد قال على : الملكان يعلمان تعليم إنذار، لاتعليم طلب.

قال ابن كثير: [5] قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس، عن قيس بن عباد، عن ابن عباس ، قال :

فإذا أتاهما الآتى يريد السحر نهياه أشد النهى ، وقالا له : « إنما نحن فتنة فلا تكفر » ، وذلك أنهما علما الخير والشر ، والكفر والإيمان ، فعرفا أن السحر من الكفر ، قال : فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتى مكان كذا و كذا، فإذا أتاه عاين الشيطان فعلمه فإذا تعلمه خرج منه النور، فنظر إليه ساطعا فى السماء فيقول : ياحسرتاه ! ياويله ! ماذا صنع ؟!

---

(١) فتح البارى : ١٠ : ٢٢٤ وانظر : تفسير الطبرى : ١ : ٤٥٢ وما بعدها ففيه كلام عجيب !
قال ابن كثير : ١ : ١٣٧ وهذا الذى سلكه غريب جدا ، وأعرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن ، كما زعمه ابن حزم ! انظر : الفصل : ٣ : ٢٤٩ وما بعدها ، ٤ : ٣٢ وما بعدها .
(٢) تفسير القرطبى : ٢ : ٥٢ . (٣) تفسير ابن كثير: ١: ١٣٧ . (٤) فتح البارى: ١٠: ٢٢٤ .
(٥) تفسير ابن كثير: ١: ١٤٣، وانظر: الطبري: ١: ٤٥٥ وما بعدها، والقرطبى : ٢: ٥٤ وما بعدها .

وعن الحسن البصرى أنه قال فى تفسير هذه الآية:

نعم أنزل الملكان بالسحر، ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس، فأخذ عليهم الميثاق ألا يعلما أحدا حتى يقولا: « إنما نحن فتنة فلا تكفر » رواه ابن أبى حاتم.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾

قال ابن كثير (١) : أى فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به، فيما يتصرفون، من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين، مع مابينهما من الخلطة والائتلاف، وهذا من صنيع الشياطين،كما رواه مسلم عن الأعمش ، عن أبى سفيان، عن جابر، قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن إبليس يضع عرشه على الماء . ثم يبعث سراياه . فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة. يجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا ، وكذا . فيقول : ما صنعت شيئا . قال : ثم يجيء أحدهم فيقول ماتركتُه حتى فرَّقت بينه وبين امرأته، فقال : فيدنيه منه، ويقول: نِعْمَ أنت » .

قال الأعمش: أراه قال : « فيلتزِمُه» (٢) .

وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر مايخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر، من سوء منظر أو خلق، أو نحو ذلك، أو عقد، أو بغضة، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة. والمرء عبارة عن الرجل، وتأنيثه امرأة ، ويثنى كل منهما ، ولا يجمعان .

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

قال سفيان الثورى : إلا بقضاء الله . وقال الحسن البصري: نعم ، من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون من أحد إلا بإذن الله، كما قال الله تعالى ، وفي رواية عن الحسن أنه قال: لايضر هذا السحر إلا من دخل فيه .

وقال ابن جرير (٣) : وما المتعلمون من الملكين هاروت وماروت مايفرقون به بين المرء وزوجه، بضارين بالذى تعلموه منهما من المعنى الذى يفرقون به بين المرء وزوجه، من أحد من الناس ، إلا من قضى الله عليه أن ذلك يضره، فأما من دفع الله عنه ضره وحَفِظَه من

---

(١) تفسير ابن كثير: ١: ١٤٣ .

(٢) مسلم : ٥٠ ـ صفات المنافقين ٦٧ (ت ٢٨١٣). (٣) تفسير الطبرى: ٤٦٣ ـ ٤٦٤ .

مكروه السحر والنفث والرقى ، فإن ذلك غير ضاره ولا نائله أذاه .

وللإذن فى كلام العرب أوجه :

منها : الأمر على غير وجه الإلزام، وغير جائز أن يكون منه قوله:

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

لأن الله جل ثناؤه قد حرم التفريق بين المرء وحليلته بغير سحر (١) ، فكيف به على وجه السحر على لسان الأمة ؟

ومنها : التخلية بين المأذون له والمخلى بينه وبينه .

ومنها : العلم بالشيء، يقال منه: قد أذنت بهذا الأمر، إذا علمت به آذن به إذنا، ومنه قوله جل ثناؤه .

﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (٢).

وهذا هو معنى الآية، كأنه قال جل ثناؤه: « وما هم بضارين » بالذى تعلموا من المكين من أحد إلا بعلم الله، يعنى بالذى سبق له فى علم الله أنه يضره، ونقل عن سفيان فى هذه الآية قال : بقضاء الله .

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾

قال القرطبى(٣) : « ويتعلمون مايضرهم » يريد فى الآخرة، وإن أخذُوا به نفعا فى الدنيا. وقيل: يضرهم في الدنيا، لأن ضرر السحر والتفريق يعود على الساحر فى الدنيا إذا عُثِرَ عليه، لأنه يؤدب ويزجر، ويلحقه شؤم السحر .

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾

يقول ابن جرير (٤) : يعنى بقوله جل ثناؤه « ولقد علموا » الفريق الذين لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون «واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان» فقال جل ثناؤه: لقد علم النابذون من يهود بنى إسرائيل كتابى وراء ظهورهم تجاهلا منهم، التاركون العمل بما فيه، من اتباعك يا محمد ،

---

(١) لعله يقصد : حرم التفريق بغير سحر إلا لداع !

(٢) سورة البقرة: آيه ٢٧٩.

(٣) تفسير القرطبى : ٢:٥٥ ـ ٥٦ .

(٤) تفسير الطبرى: ١: ٤٦٤ ـ ٤٦٧ بتصرف .

واتباع ما جئت به، بعد إنزالي إليك كتابي، مصدقا لما معهم، وبعد إرسالك إليهم بالإقرار بما معهم،وما في أيديهم، المؤثرون عليه اتباع السحر الذي تلته الشياطين على عهد سليمان، والذي أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت لمن اشترى السحر لكتابي الذي أنزلته على رسولي فآثره عليه ماله في الآخرة من خلاق، ونقل عن قتادة قوله: قد علم ذلك أهل الكتاب في عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له عند الله يوم القيامة.

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله « ما له في الآخرة من خلاق » فقال بعضهم : الخلاق في هذا الموضع : النصيب.. وقال آخرون: الحجة.. وقال آخرون: الدِّين.. وقال غيرهم : القِوام.

ثم قال: ماله في الدار الآخرة حظ من الجنة، من أجل أنه لم يكن له إيمان ولا دين، ولا عمل صالح يجازى به في الجنة، ويثاب عليه، فيكون له حظ ونصيب من الجنة، وإنما قال جل ثناؤه:« ماله في الآخرة من خلاق» فوصفه بأن لا نصيب له في الآخرة، وهو يعني به لا نصيب له من جزاء وثواب وجنة دون نصيبه من النار، إذ كان قد دل ذمه جل ثناؤه أفعالهم التي نَفَى من أجلها أن يكون لهم في الآخرة نصيب على مراده من الخير، وأنه إنما يعني بذلك أنه لا نصيب لهم فيها من الخيرات، وأما الشرور فإن لهم فيها نصيباً.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

يقول ابن كثير(١) : ولبئس البديل ما استبدلوا به السحر عوضا عن الإيمان، ومتابعة الرسول ، لو كان لهم علم بماوُعظوا به.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

أي ولو أنهم آمنوا بالله ورسله، واتَّقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيرا لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به.

ويقول ابن جرير(٢) : لو أن الذين يتعلمون من الملكين ما يفرقون به بين المرء وزوجه آمنوا، فصدّقوا الله ورسوله، وما جاءهم به من عند ربهم، واتقوا ربهم فخافوه، فخافوا عقابه، فأطاعوه بأداء فرائضه، وتجنبوا معاصيه، لكان جزاء الله إياهم وثوابه لهم على إيمانهم

---

(١) تفسير ابن كثير : ١:١٤٤.

(٢) تفسير الطبري: ١:٤٦٨.

به وتقواهم إياه خيرا لهم من السحر، وماااكتسبوا به، لو كانوا يعلمون أن ثواب الله إياهم على ذلك خير لهم من السحر، ومما اكتسبوا به، وإنما نفى بقوله: « لو كانوا يعلمون» العلم عنهم أن يكونوا عالمين بمبلغ ثواب الله وقدر جزائه على طاعته.

السحر فى بعض أنواعه كفر ومتعلمه كافر :

قال ابن حجر(١) : وقد استدل بهذه الآية على أن السحر كفر، ومتعلمه كافر، وهو واضح فى بعض أنواعه.. وهو التعبد للشياطين أو الكواكب .

قلت: وقد ذكرت الأقوال فى أنواع السحرالثمانية:ومتى يجوز تعلم السحر وتعليمه، وما يتبع ذلك من مباحث، فى كتاب« السحر والسحرة فى ضوء الحديث النبوى» فليراجعه من شاء.

من السبع الموبقات :

قال ابن حجر: قال النووى: عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عده النبى ﷺ من السبع الموبقات.

يروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

« اجتنبوا السبع الموبقات »

قالوا: يا رسول الله! وما هن؟ قال:

« الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» (٢).

وحسبنا من تلك الأقوال التى يبدو فيها الاختلاف.. وهى قليل من كثير.. وهى كذلك أرجحها.. حسبنا أنها تسجل ضلالة أخرى من ضلالات اليهود، إثر نبذهم كتاب الله والعمل بما بين أيديهم، وهو اتباعهم لما تتلو الشياطين.. واشتغالهم بالسحر.. بل وسحرهم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ..

حديث السحر :

يروى الشيخان وغيرهما عن عائشة رضى الله عنهما قالت:

---

(١) فتح البارى : ١٠: ٢٢٤.

(٢)البخارى: ٥٥ــ الوصايا (٢٧٦٦) ، ومسلم: ١ــ الإيمان ١٤٥ (٨٩).

سَحَرَ رسول الله ﷺ رجل من بنى زريق، يقال له: لبيد ابن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيّل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله. حتى إذا كان ذات يوم ـ أو ذات ليلة ـ وهو عندى، لكأنه دعا ودعا. ثم قال:

« يا عائشة أشَعَرْتِ أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليّ، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب. قال: من طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة، وجفّ طلع نخلة ذكر. قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان».

فأتاها رسول الله ﷺ فى ناس من أصحابه. فجاء فقال:

« يا عائشة! كأن ماءها نقاعة الحنّاء. وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين.

قلت: يا رسول الله! أفلا استخرجته؟ قال: «**قد عافانى الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً »**

فَأَمَر بهـا فدفنت (١).

وفى روايـة للبخارى :

كان رسول الله ﷺ سُحِر، حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن. قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا، فقال:

« يا عائشة! أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليّ، فقال الذى عند رأسى للأخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال ومن طبه؟ قال لبيد بن الأعصم. رجل من بنى زريق، حليف ليهود، كان منافقا. قال: وفيم؟ قال: فى مشط ومشاطة. قال: وأين؟ قال: فى جفّ طلعة ذكر، تحت رعوفه فى بئر ذروان » .

قالت: فأتى النبى ﷺ البئر حتى استخرجه. فقال: «**هذه البئر التي أريتها، وكأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين » .**

(١) البخارى : ٧٦ ـ الطب ٤٧ (٥٧٦٣) واللفظ له، ومسلم: ٣٩ ـ السلام ٤٣ (٢١٨٩)، وأحمد : ٦ :٥٧ وابن ماجه: ٣١ ـ الطب ٤٥ (٣٥٤٥) وانظـر: الطبقات الكبرى: ٢ : ١٩٦ ـ ١٩٩.

قال: فاستخرج. قالت فقلت: أفلا؟ ـ أى تَنَشَّرْتَ ـ فقال:

«أما والله! فقد شفانى، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً» (١).

وفى رواية للنسائى بسند صحيح عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال:

سَحَرَ النبىَّ ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياما، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن رجلا من اليهود سحرك، عقَد لك عُقَداً فى بئر كذا وكذا، فأرسل رسول الله ﷺ فاستخرجوها فجيء بها فقام رسول الله ﷺ، كأنما نشط من عقال. فما ذكر ذلك لذلك اليهودى، ولا رآه فى وجهه قط (٢).

تلك أهم روايات الحديث، وهى لاتحتاج إلى إثبات صحة..

الحديث ثابت عند أهل العلم:

قال ابن القيم بعد أن ذكر الروايات الدالة على سحر النبى ﷺ (٣).

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقى بالقبول بينهم، لا يختلفون فى صحته.

وقد اعتاص على كثير من أهل الكلام وغيرهم، وأنكروه أشد الإنكار، وقابلوه بالتكذيب.

وصنف بعضهم فيه مصنفا منفردا حمل فيه على هشام، وكان غاية ما أحسن القول فيه أن قال:

غلط، واشتبه عليه الأمر، ولم يكن من هذا شيء، قال: لأن النبى ﷺ لا يجوز أن يسحر، فإنه تصديق لقول الكفار:

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (٤).

قالوا: وهذا كما قال فرعون لموسى:

﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ (٥).

---

(١) البخارى: ٧٦ ـ الطب ٤٩ (٥٧٦٥).

(٢) النسائى: ٧:١١٢ ـ ١١٣، وانظر: أحمد: ٤:٣٦٧، والفتح الكبير: ٣:٣٩٤.

(٣) التفسير القيم: ٥٦٦ وما بعدها بتصرف.

(٤) الفرقان: ٨.   (٥) الإسراء: ١٠١.

وكما قال قوم صالح له:

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾[1].

وكما قال قوم شعيب له:

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾[2].

قالوا: فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا، فإن ذلك ينافى حماية الله لهم، وعصمتهم من الشيطان.

وهذا الذى قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم، فإن هشاما من أوثق الناس وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه، فما للمتكلمين وما لهذا الشأن؟!

وقد رواه غير هشام عن عائشة.

وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث.

ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة.

والقصة مشهورة عن أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلمين..

متى كان السحر وما مدته؟:

وقد بين الحافظ فى فتح البارى مدة مرضه بهذا السحر، والسنة التى وقع فيها بما نصه :[3].

بين الواقدى السنة التى وقع فيها السحر، أخرجه عنه ابن سعد بسند له إلى عمر بن الحكم مرسل قال:

لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية فى ذى الحجة، ودخل المحرم من سنة سبع، جاءت رؤساء اليهود إلى لبيد الأعصم: وكان حليفا فى بنى زريق، وكان ساحراً، فقالوا له: يا أبا الأعصم : أنت أسحرنا، وقد سحرنا محمدا فلم نصنع شيئا، ونحن نجعل لك جعلا على أن تسحره لنا سحرا ينكؤه، فجعلوا له ثلاثة دنانير.

---

(١) الشعراء: ١٥٣. (٢) الشعراء : ١٨٥.

(٣) فتح البارى : ١٠: ٢٢٦.

ووقع فى رواية أبى ضمرة عند الإسماعيلى: فأقام أربعين ليلة.

وفى رواية وهيب عن هشام عند أحمد: ستة أشهر.

ويمكن الجمع بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه، والأربعين يوما من استحكامه.

وقال السهيلى: لم أقف فى شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التى مكث النبى ﷺ فيها فى السحر، حتى ظفرت به فى جامع معمر عن الزهرى أنه لبث ستة أشهر، كذا قال، وقد وجدناه موصولا بالإسناد الصحيح فهو المعتمد.

قال الشنقيطى : (١) والجمع بأن تكون الستة أشهر ابتداء تغير مزاجه عليه الصلاة والسلام، والأربعين يوما من استحكامه هو المتعين، لأنه لم يشتهر أن مرضه هذا عليه أتم الصلاة والسلام طال به، ولو طال به لنقل متواترا، لتوفر الدواعى على نقله، لشدة شأنه عند أصحابه وتابعيهم، لكنه لم يطل، ولم يتعد حال من عقد عن النساء مدة يسيرة فزال ذلك بالقرب.

« التخيل » من قول عائشة على سبيل المبالغة :

وتخيل أنه يفعل الشيء وما فعله لم يرو فى الصحيحين إلا من لفظ عائشة رضى الله عنها، فلم يكن من لفظ رسول الله ﷺ ، ولم يشعر لفظها هى أيضا أن ذلك التخيل دام عليه مدة، بل ذكرته على سبيل المبالغة بحتى، حيث قالت: سحر حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله.

فلعله ذات يوم استفهم عائشة عن شيء شك هل فعله أم لا؟ فأطلقت عليه أنه صار يخيل إليه أن يفعل الشيء، أى من أمر نكاح النساء، وهو لم يفعله، لعقده عنهن،فقالت هى ذلك للناس، لتألمها من مرضه عليه الصلاة والسلام، وأما هو عليه الصلاة والسلام فلم يرو عنه إلا الحديث الدال على المرض، بدليل قوله فى مراجعة الملكين الكائنين فى صفة رجلين:

« ما وجع الرجل ؟ » .

فقال المجيب منهما :

« مطبوب » .

---

(١) زاد المسلم : ٤: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

وقوله بعد ما أخرج المشط والمشاطة وما معهما مما عمل فيه السحر:

« قد عافانى الله».

وفى رواية:

« وشفانــى»

ففى نفس الحديث التصريح بالوجع وبالمعافاة منه، فدل هذا على أنه مجرد مرض، وليس فى لفظ الرسول ﷺ أنه صار يخيل إليه فعل ما لم يفعله، وتعبير عائشة بذلك إنما هو على حسب ما ظهر لها أنه تخيل، ولا يلزم من لفظها أنه شيء دائم عليه..

ويؤيد جميع ما قررناه أنه لم ينقل عنه فى خبر ولو نقلا ضعيفا أنه قال قولين فكان الأمر بخلاف ما أخبر به من أمور الدنيا أحرى من أمورالشرع، وما حصل له من المرض بسبب سحر اليهودى لو لم يعين موضع السحر الذى سحر به لتوهم أنه كغيره من البشر إذا أصيب بالسحر، ولكنه أخبر بموضع السحر فأخرج منه، ووجد على الوصف الذى ذكره عليه الصلاة والسلام، وهكذا حال من أكرمه الله واصطفاه بالرسالة.

وقد قالت أخت اليهودى الذى سحره: إن يكن نبيا فسيخبر.

فقد وقع فى مرسل عبد الرحمن بن كعب عند ابن سعد، فقالت أخت لبيد بن الأعصم: إن يكن نبيا فسيخبر، وإلا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله.

قال ابن حجر: فوقع الشق الأول كما فى الحديث...

فالحاصل أن التخيّل على فرض حصوله وقتا فى أمر دنيوى لم يستمر بل زال، وأبطل الله كيد الساحر، ولم ينله ضرر منه، إلا ما كان يناله من ضرر سائر الأمراض.

لا تصديق للمشركين ولا موافقة :

وإذا كانوا يقولون:

إن هذا الحديث يصدق المشركين فى قولهم :

﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾[1].

(١) الفرقان : ٨.

وأن هذا يزيل الثقة بما جاء به الرسول، فإن الكفار كانوا يقولون :

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ (١) .

فهل نكذبهم ؟

وبالإجمال: كانوا يقولون أقوالا كثيرة صادقة فهل نكذبهم فيها لئلا نكون مصدقين للكفار؟.

ما قال هذا أحد!

بل الصدق يجب أن يصدق، والكذب يجب أن يكذب، سواء أكان هذا أو ذاك من كافر أم من مؤمن .

وإنما معنى ذلك أن الظالمين كانوا ينسبون إلى الرسل كل ما يظنونه قادحا فى رسالتهم وصدقهم وإن كان واقعا حقا لا يقدح فيهم، كما ظن هؤلاء أن السحر يقدح فى الرسالة فكذبوا الأخبار فيه، والظن خطأ، إذاً ليس كل ما قاله الكفار كذبا، وإذا ليس تكذيبهم فى كل شيء قالوه لازما.

وإننا نعلم يقينا أن الكفار لايريدون بقولهم هذا أن يثبتوا للرسول ﷺ ما أثبته هذا الحديث ...

إنهم لايريدون ذلك، وإنما يريدون بقولهم هذا أن رسول الله ﷺ إنما يصدر عن خيال وجنون فى كل مايقول ويفعل ، وفيما يأتى ويذر، وأنه ليس رسولا، وأن القرآن ليس من عند الله، وإنما هو خيال مسحور، وبناء عليه ليس علينا تصديقه، ولا اتباعه، فإذا آمنا بما دل عليه الحديث، قلنا : إن الرسول ﷺ سحر بضعة أيام، لم نكن مصدقين للمشركين، ولا موافقيهم فيما أرادوا، لأن الذى عناه الحديث غير الذى عناه هؤلاء الظالمون، وإذا تغاير القصدان لم يكن هناك تصديق ولا موافقة.

وقد علمنا عصمته من جواز الاختلاط عليه فى الوحى ، وأنه معصوم فى تبليغه ببراهين كثيرة .

وإذا كان البرهان على العصمة مما خافوه فى جميع الحالات لم نخش ماذكروا (٢) .

---

(١) الفرقان : ٧ .

(٢) دفاع عن الحديث النبوى : ٢٠١ ـ ٢٠٢ بتصرف .

أعلى درجات الصحيح السبع :

قال الشنقيطى : [1] .

هذا الحديث الصحيح الذى هو أعلى درجات الصحيح السبع لاتفاق الشيخين عليه وغيرهما، غير مصادم لنص القرآن الذى هو قوله تعالى إخبارا عن قول الكفرة :

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [2].

لأن المراد به عندهم أنه مجنون، فهو كقولهم :

إن هو إلا رجل مجنون ! وحاشاه عليه الصلاة والسلام من ذلك .

لا منافاة بين الآية والحديث :

وإن قدر ضعيف العقيدة أن ظاهر قوله تعالى :

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾

يصادم هذا الحديث، فقولهم هذا الذى ذكر الله عنهم فى القرآن كان قبل قصة سحر اليهودى للنبى ﷺ الذى مرض بسببه ـ كما عرفنا ـ وبه تعلم أنه لامنافاة بين الآية المذكورة وبين سحر اليهودي له عليه الصلاة والسلام .وقد فصلت القول فى ذلك فى كتاب حديث السحر فى الميزان .

حكـم المتواتـر :

وبتأمل ما حققناه هنا يظهر أن الحديث إذا اتفق عليه الشيخان صار له حكم المتواتر، كما صرح به الحافظ ابن الصلاح وغيره من الحفاظ، كالحافظ العراقى، وابن دقيق العيد، والحافظ ابن حجر، وغيرهم ..

الحديث من أعلام النبوة :

ولم يقل أحد إن هذا السحر أصاب عقل النبى ﷺ ، ولا خلط عليه شيئا من أمر الرسالة، بل أطلعه الله عليه، فأخبر أصحابه بمحله، فوجدوه فى المحل الذى أخبر به،فكان ذلك من أعلام نبوته، وشفى الله رسوله عليه الصلاة والسلام من المرض، وباء الساحر

---

(١) زاد المسلم : ٤ : ٢٢٢ بتصرف .

(٢) الفرقان : ٨ .

بالخزى ولم يفلح، كما قال تعالى :

﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[1] .

والأمور لاينظر فيها إلا إلى عواقبها، والنصر فى العاقبة يكون دائما للرسل، ولمن كان على قدمهم من أممهم، كما دل عليه قوله تعالى :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾[2] .

ولا يضرهم مايحصل لهم من كفار أممهم، فتأمل منصفا .

العرافة:

والعرافة من الأعمال المفضلة لدى الحاخامات، ويذكرها التلمود كثيرا، فيقول: « إن بعض الحاخامات كانوا قادرين على خلق الإنسان والبطيخ »[3] .

وجاء أن أحد الحاخامات أحال امرأة إلى أتان، ثم ركبها وذهب إلى السوق، وهناك قام حاخام آخر بإعادتها إلى صورتها الأصلية .

ويزعم الحاخامات أن إبراهيم عليه السلام ، كان يعرف العرافة، لأنه أعطى بعض الهدايا لأبنائه كانت فيها قوة السحر، وكان هو نفسه يعلق حول عنقه عقدا يتوسطه حجر يشفى كل من رآه !

وهناك قصص وخرافات لانهاية لها عن معجزات الحاخامات وأساطير الأفاعى، والضفادع، والأوز والطيور والأسماك !

والتلمود يقص أسطورة سبع غابة « الآى » الذى أراد قيصر روما رؤيته، فلما وصل على بعد ٤٠٠ ميل من روما زأر سقطت جدران روما، وحين بلغ على مسافة ٣٠٠ ميل زأر مرة أخرى سقط الناس على ظهورهم، وخرجت أسنانهم ساقطة على الأرض، أما القيصر فسقط عن عرشه، وعندئذ ألح القيصر بإعادة السبع إلى مكان مأمون !

ويقول التلمود: إن هناك ثورا وحشا فى اليوم الأول من عمره، حجمه مثل حجم جبل الطور، ولذلك كان من الصعب على سيدنا نوح أن ينقذ أحدا من هذه الثيران، لأنه

---

(١) طه : ٦٩ .   (٢) غافر : ٥١ .

(٣) التلمود: تاريخه وتعاليمه: ٨١ نقلا عن : الأدب العبرى : ٢٧ ــ ٢٨ .

لم يكن فى وسعه وضع أحدها فى السفينة، فربط ثورا واحدا بقرنه فى السفينة !

ويرى التلمود أن الله خلق آدم ذا وجهين، رجلا من ناحية، وامرأة من ناحية أخرى، ثم قطعه من النصف، وأن طوله كان يصل القبة الزرقاء، ولكن بعد خطيئته وضع الله يده على رأس آدم وكبسه حتى صار صغيرا، وأنه أتى الخطيئة فى الساعة العاشرة بعد خلقه، ثم طرد من الجنة فى الساعة الثانية عشر !

ويتحدث التلمود عن كثير من الحاخامات الأكولين السكارى، ويذكر أن أكراش بعضهم طالت بحيث كان من الممكن لو أخرج كرش أحدهم لمشى تحته زوج من الثيران، وأن أحد الحاخامات قتل حاخاما آخر فى حالة سكر، ثم أتى بمعجزة، فأعاد الحاخام القتيل إلى الحياة، وفى السنة التالية دعا الحاخام صاحبه لحفل خمر ولكنه رفض قائلا: «المعجزات لا تحدث كل يوم » .

قول الدكتور « جوزيف باركلى » :

إن التملود مركب عجيب لآراء متناقضة وخرافية .. ويختلف مع التوراة كثيرا فى أحكامه، ويبيح تقديم الأطفال قربانا للإله « مولوخ » كما يبيح الغش، وفيه أن الحاخامات يعلمون شعبهم كراهية المسيحيين والأجانب، ولا يجوز لأحد الأطباء اليهود أن يعالج الأجانب إلا بقصد الحصول على المال، أو للتمرن على المهنة، ولا يجوز له إنقاذ أرواح الأجانب فى مواسم الأمراض..وهناك خرافات وأعاجيب فى التلمود يضيق المقام عن ذكرها .

وما أصدق ما قاله الدكتور« جوزيف باركلى » عن التلمود:

بعض أقوال التلمود مغال، وبعضها كريه، وبعضها الآخر كفر، ولكنها تشكل فى صورتها « المخلوطة» أثرا غير عادى للجهد الإنسانى، وللعقل الإنسانى، وللحماقة الإنسانية » ! (١) .

ماذا تقول العبرانية ؟

ويقول الدكتور حسن ظاظا أستاذ العبرية بجامعة الإسكندرية :

---

(١) المرجع السابق : ٩١ .

« قد يستطيع الإنسان تزييف الحقائق، وقد يسهل عليه أن يكذب ويكذب، حتى يصدق هو نفسه كل أكاذيبه، وينسى أنه مخترعها الأصلى، ولكن رغم هذا يبقى دائما شيء واحد: الكلمة المكتوبة منذ آلاف السنين، والآثار التى تحدد بالضبط عمر الأشياء وعمقها، ومخطوطات التاريخ التى تظل دائما هى المرجع، وكلمة الصدق الوحيدة التى لاتميل مع أهواء البشر، حتى إذا حدث ومالت، فبين سطورها تستطيع الحقيقة دائما أن تجد لها مكانا » .

« وعدونا الإسرائيلي حاول كثيرا أن يزيف ويخدَع ويبتزّ العواطف والأموال والمعونات، وما زال يفعل متجاهلا وناسيا أن مخطوطاته هو وآثاره وتلموده تروى بلغته العبرية حكايات وحكايات تفضح كل محاولاته، تفضح وجوده وتاريخه وتراثه وحقه المدعى فى الأرض المغتصبة .. ومن الغريب فعلا أنهم لم يحرقوها أو يدمروها ، كما فعلوا بغيرها، وتركوها تقول كلمة صدق في صف آخر غير صفهم »[1] .

حرق التلمود وإعدامه :

وقد هوجم التملود بشدة فى العصور الوسطى [2] ، باعتباره أهم مصدر للتعاليم اليهودية التى أدت مقاومة اليهود للسلطة والدين المسيحى، سرا وعلانية، وقد قال الإمبراطور «هونور يوس» فى إحدى القوانين التى أصدرها: « إن الحاخامات مخربون » .

وحيث كان العهد القديم ـ المكتوب بالعبرية ـ مقدسا لدى المسيحيين أيضا، فكل غضبهم كان موجها إلى التلمود، باعتباره مصدر الشر الكامن فى اليهود .

وقد حمل الملوك والباباوات حملات شديدة ضد التلمود، منذ القرن الثالث عشر، وصدرت الأوامر بإتلاف نسخ التلمود فى فرنسا فى عهد لويس [3] . من سنة ١٢٢٦ حتى سنة ١٢٧٠ كما حدث ذلك فى إنجلترا أيضا سنة ١٢٩٠ حين أمر الملك بطرد اليهود عن البلاد ، بعد أن اكتشف حيلهم ومكرهم ومقتهم للشعب الإنجليزى المسيحى .

وتقول دائرة المعارف اليهودية العامة: إن ٢٤ عربة محملة بالكتب العبرية أحرقت

---

(١) المرجع السابق: ٩٢ ـ ٩٣ نقلا عن : أخبار اليوم، القاهرة، لغة العدو ـ ماذا تقول ؟ عدد ١٩٧٠/٧/١٨ م

(٢) المرجع السابق: ٤٠ وما بعدها بتصرف .

(٣) لأول مرة أحرقت نسخ التلمود فى فرنسا سنة ١٢٤٤ فى باريس : دائرة المعارف البريطانية ط ١٩٠٥ والولايات المتحدة: الأمريكية ١٢: مادة « تلمود » .

في باريس سنة ١٢٤٢ في يوم واحد، وإن « مئير » من بلدة « روثنبرغ » شاهد هذه المأساة، وألف رثاء منظوما يردد إلى اليوم في كثير من كنائس اليهود (١) .

وهاجم مجلس المدينة في بولندا عام ١٨٤٠ « التملود » بأنه « مصدر احتقار اليهودية للدين المسيحي » وكان أسقف بولندا قد فرض قبل ذلك بقرن غرامة على التلموديين، وأمر بإحراق كل نسخ التلمود .

مناظرات بين المسيحيين واليهود :

وأحد أهم الأسباب التي أدت إلى اتخاذ هذه الإجراءات العنيفة هي المناظرات التي كانت تقام بين المسيحيين واليهود، وكان يجب على الحاخامات أن يدافعوا عن فكرهم ويبرروا تعاليم التلمود، وكان الذي يدفع المسيحيين إلى إقامة هذه المناظرات هو ارتداد أحد اليهود عن دينه، من وقت إلى آخر، وقبوله المسيحية، واعترافه بتعاليم التلمود الهدامة المعادية للمسيحية وغير اليهود .

وأهم اليهود المرتدين الذين اشتركوا في فضح ومقاومة التلمود هما « نيكولاس دونين » و « بابلو كريستياني » .

وقد عقدت مناظرة بين « بابلو كريستياني » والحاخام « موسى بن نحمان » في برشلونه سنة ١٢٢٣ م .

ورغم أن « دائرة المعارف اليهودية » تذكر هذه المناظرة الكبرى إلا أنها لاتخبرنا بنتائجها كشأنها في إغفال وتجاهل كل مالايروق لها، ولنا أن نستنبط مما ذكرته دائرة المعارف هذه أن البابا « كليمنت التاسع » أصدر مرسوما سنة ١٢٦٤ على أثر هذه المناظرة، أمر فيه بمصادر وإحراق التلمود، ويبدو أن « بابلو كريستياني » استطاع إفحام الحاخام اليهودي بشأن اتهاماته .

---

(١) إنه لأمر مريب يشكك في حقيقة القصة التي سبق ذكرها في الهامش السابق بأن التلمود أحرق في باريس لأول مرة سنة ١٢٤٤ ثم يأتي محرر دائرة المعارف اليهودية العامة بعد ٤٣ سنة ليكشف لنا عن واقعة خطيرة، كالتي سبقت أنها وقعت قبل الواقعة المذكورة بسنتين، وحيث إن الحقائق التاريخية التي نحن بصددها ليست من النوع الذي يكتشف بالحفريات أو الاكتشافات المثيرة عن الصخور، فيبقى سؤالنا قائما: لم سكت محرر دائرة المعارف اليهودية الأول عن هذا الحادث الخطير، ثم خرج به محرر دائرة معارف يهودية أخرى؟! مع ملاحظة أن هذا الأخير لم يشر إلى أي مصدر استقى منه معلوماته !

وتضيف « دائرة المعارف اليهودية» أن إحدى هذه المناظرات أقيمت بأمر من البابا «بينديكت » واستمرت لسنة وتسعة شهور فى طرطوسة ، ونستخلص من ذلك أن المسيحيين أعطوا اليهود أكبر وأطول فرصة للدفاع عن عقائدهم، وإلافغير مفهوم أن تستمر المناظرة طوال هذه الفترة إذا كانت الكنيسة منحازة مسبقا ضد اليهود، كما يدعون باتهامها باللاسامية وكراهية اليهود .

مريم وعيسى :

ونذكر من هذا النوع محاكمة عادلة أجرتها الملكة « بلانش » فى ٢٤ من يونيو سنة ١٢٤٠ م اعترف فيها اليهود بكثيرمن معتقداتهم الخطيرة، وكان مما ترجم من التلمود عن مريم والمسيح أثناء هذه المحاكمة مايلى :

« إن يسوع الناصرى موجود فى لجات الجحيم[١] ، بين الزفت والنار وأن أمه أتت به من العسكرى ـ الجندى ـ « باندارا » بمباشرة الزنا، وإن الكنائس النصرانية هى بمثابة قاذورات، وأن الواعظين فيها أشبه بالكلاب النابحة، وأن قتل المسيحى من الأمور المأمور بها، وأن العهد مع المسيحى لا يكون عهدا صحيحا يلتزم اليهودى القيام به، وأن من الواجب ـ دينا ـ أن يلعن ثلاث مرات رؤساء المذهب النصرانى، وجميع الملوك الذين يتظاهرون بالعداوة ضد بنى إسرائيل » .

ولسنا بصدد الحديث عن الكنائس وأصحابها ومايجرى فيها .. حتى لايطول الحديث .

أما فى الإسلام فحسبنا أن نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[٢] .

وأى اصطفاء ؟! [٣] . وهو يختارها لتلقى النفخة المباشرة، كما تلقا ها أول هذه الخليقة «آدم » ؟ وعرض هذه الخارقة على البشرية من خلالها وعن طريقها ؟ إنه الاصطفاء للأمر المفرد فى تاريخ البشرية .. وهو بلا جدال أمر عظيم ..

---

(١) الكنز المرصود فى قواعد التلمود: ١١ وانظر أهم المناظرات فى : التلمود: تاريخه وتعاليمه: ٤٤ هامش.

(٢) آل عمران : ٤٢ ـ ٤٣ .

(٣) فى ظلال القرآن : ١: ٣٩٥ ومابعدها بتصرف .

ولكنها ـ حتى ذلك الحين ـ لم تكن تعلم ذلك الأمر العظيم !

والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى . وذلك لما لابس مولد عيسى عليه السلام من شبهات لم يتورع اليهود أن يلصقوها بمريم الطاهرة، معتمدين على أن هذا المولد لامثال له في عالم الناس، فيزعموا أن وراءه سرا لايشرف .. يحدوهم الحق اليهودى قبحهم الله !

وهنا تظهر عظمة هذا الدين القيم، ويتبين مصدره عن يقين .. فها هو ذا خاتم النبيين ﷺ الذى يلقى من أهل الكتاب ما يلقى من التكذيب والعنت والجدل.. هاهو ذا ينزل ينزل عليه من ربه قرآن كريم بحقيقة مريم وتفضيلها على « نساء العالمين » بهذا الإطلاق الذى يرفعها إلى أعلى الآفاق. وهو فى معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم ، ويتخذون من تعظيمها مبررا لعدم إيمانهم بخاتم النبيين ﷺ !

أى صدق ؟ وأية عظمة؟ وأية دلالة على مصدر هذا الدين القيم وصدق خاتم النبيين ﷺ !

إنه يتلقى « الحق » من ربه، عن مريم وعن عيسى عليه السلام، فيعلن هذا الحق، فى هذا المجال .. ولو لم يكن رسولا من الله الحق ما أظهر هذا القول فى هذا المجال بحال !

﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

طاعة وعبادة، وخشوع وركوع، وحياة موصولة بالله تمهيدا للأمر العظيم الخطير. ويشير السياق القرآنى إلى شىء من حكمة مساق القصص .. إنه إثبات الوحى ، الذى ينبىء النبى ﷺ بما لم يكن حاضره من أنباء الغيب، فى هذا الأمر :

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾ (١).

وهى إشارة إلى ماكان من تسابق إلى كفالة مريم .. وكل ذلك من الغيب الذى لم يكن خاتم النبيين حاضره، ولم يبلغ إلى علمه .. وربما كان من الأسرار التى لا تفشى ولا تباح للإذاعة بها، فاتخذها القرآن فى مواجهة أهل الكتاب دليلا على وحي من الله لخاتم النبيين ﷺ .. ولم يرد أنهم ردوا هذه الحجة . ولو كانت موضع جدال لجادلوه، وهم قد جاءوا للجدال !

---

(١) آل عمران : ٤٤ .

وينتقل السياق القرآنى إلى مولد عيسى : العجيبة الكبرى فى عرف الناس، والشأن العادى للمشيئة الطليقة:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (١).

لقد تأهلت مريم ــ إذن ــ بالتطهر والقنوت والعبادة لتلقى هذا الفضل، واستقبال هذا الحادث، وهاهى ذى تتلقى ــ لأول مرة ــ التبليغ عن طريق الملائكة بالأمر الخطير ..

بشارة كاملة ، وإفصاح عن الأمر كله.

بشارة بكلمة من الله .. وقد تضمنت نوعه واسمه ونسبه وصفته ومكانه من ربه .. كما تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مولده، ولمحة من مستقبله وسمته والموكب الذى ينتسب إليه :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

فأما مريم الفتاة العذراء الطاهرة المقيدة بمألوف البشر فى الحياة، فقد تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة. واتجهت إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كشف هذا الأمر الذى يحير عقل الإنسان :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾

وجاءها الجواب، يردها إلى الحقيقة البسيطة التى يغفل عنها البشر، لطول ألفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة ، لعلمهم القليل ، ومألوفهم المحدود :

---

(١) آل عمران: ٤٥ ــ ٥١ .

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب، وتزول الحيرة، ويطمئن القلب، ويعود الإنسان على نفسه يسألها فى عجب : كيف عجبت من هذا الأمر الفطرى الواضح القريب !

وهكذا نبصر القرآن ينشئ التصور الإسلامى لهذه الحقائق الكبيرة، بمثل هذا اليسر الفطرى القريب ..

وهكذا نراه يجلو الشبهات التى تثيرها الفلسفات المعقدة، ويقر الأمر فى القلوب وفى العقول سواء ..

ثم يتابع البشارة لمريم عن هذا الخلق الذى اختارها الله لإنجابه على غير مثال، وكيف ستمضى سيرته فى بنى إسرائيل .. وهنا تمتزج البشارة لمريم بمقبل تاريخ المسيح، ويلتقيان فى سياق واحد، كأنما يقعان اللحظة، على طريقة القرآن الكريم :

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

ونبصر النص يذكر أن كل خارقة من هذه الخوارق التى جاءهم بها، إنما جاءهم بها من عند الله ، ولم يدع القول يتم ليذكر فى نهايته إذن الله زيادة فى الاحتياط، وهذه المعجزات فى عمومها تتعلق بإنشاء الحياة أو ردها، أو رد العافية وهى فرع عن الحياة، ورؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية .. وهى فى صميمها تتسق مع مولد عيسى ، ومنحه الوجود والحياة على غير مثال، إلا مثال آدم .. ولا حاجة إذن لكل الشبهات والأساطير التى نشأت عن هذا المولد الخاص متى رُدّ الأمر إلى مشيئة الله الطليقة !

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

إنه يعلن حقيقة التصور الاعتقادى التى قام عليها الدين: المعجزات التى جاءهم بها لم يجىء بها من عند نفسه. فماله قدرة عليها وهو بشر. إنما جاءهم بها من عند الله .. ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعة رسوله .. ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على

السواء ــ فما هو برب وإنما هو عبد ــ وأن يتوجهوا بالعبادة إلى الله، فلا عبودية إلا لله .. ويختم قوله بالحقيقة الشاملة .. فتوحيد الله وعبادته، وطاعة الرسول والنظام الذى جاء به: « هذا صراط مستقيم» وماعداه عوج وانحراف . وماهو قطعا بالدين ..

ومن بشارة الملائكة لمريم بابنها المنتظر، وصفاته ورسالته ومعجزاته وكلماته، هذه التى ذكرت ملحقة بالبشارة .. ينتقل السياق مباشرة إلى إحساسه عليه السلام بالكفر من بنى إسرائيل، وإلى طلبه الأنصار لإبلا غ دين الله :

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (١) .

لقد أحس عيسى الكفر من بنى إسرائيل ... بعدما أراهم كل تلك المعجزات التى لاتتهيأ لبشر، والتى تشهد بأن قدرة الله وراءها، وأن قوة الحق تؤيدها، وتؤيد من جاءت على يده ... ثم على الرغم من أن المسيح جاء ليخفف عن بنى إسرائيل بعض القيود والتكاليف .. عندئذ دعا دعوته:

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾

من أنصارى إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه ؟ من أنصارى إلى الله، لأبلغ إليه، وأؤدى عنه؟ لأنه لابد لكل صاحب عقيدة ودعوة من أنصار ينهضون معه، ويحملون دعوته، ويبلغونها إلى من يليهم، ويقومون بعده عليها.

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

فذكروا الإسلام بمعناه الذى هو حقيقة الدين، وأشهدوا عيسى عليه السلام على إسلامهم هذا ، وانتدابهم لنصرة الحق أى نصرة الرسول والدين ومنهجه فى الحياة.. ثم اتجهوا إلى ربهم يتصلون مباشرة به فى هذا الأمر الذى يقومون عليه:

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

وفى هذا التوجه لعقد البيعة مع الله مباشرة لفتة ذات قيمة .. إن عهد المؤمن هو ابتداء مع ربه، ومتى قام الرسول بابلاغه فقد ا نتهت مهمة الرسول من ناحية الاعتقاد،

---

(١) آل عمران : ٥٢ ــ ٥٣ .

وانعقدت البيعة مع الله ، فهى باقية فى عنق المؤمن بعد الرسول.. وفيه كذلك تعهد لله باتباع الرسول . فليس الأمر مجرد عقيدة فى الضمير، ولكنه اتباع لمنهج، والاقتداء فيه بالرسول .. ثم عبارات أخرى تلفت النظر فى قول الحواريين: « فاكتبنا مع الشاهدين » .

فأى شهادة وأى شاهدين ؟

إن المسلم المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدى شهادة لهذا الدين .. شهادة تؤيد حق هذا الدين فى البقاء، وتؤيد الخير الذى يحمله هذا الدين للبشر ... وهو لايؤدى هذه الشهادة حتى يجعل من نفسه ومن خلقه ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين.. صورة يراها الناس فيرون فيها مثلا رفيعا، يشهد لهذا الدين بالأحقية في الوجود، وبالخيرية والأفضلية على سائر ما فى الأرض من أنظمة وأوضاع وتشكيلات .

وهو لايؤدى هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته، ونظام مجتمعه، وشريعة نفسه وقومه. فيقوم مجتمع من حوله، تدبر أموره وفق هذا المنهج الإلهى القويم .. وجهاده لقيام هذا المجتمع ، وتحقيق هذا المنهج، وإيثاره الموت فى سبيله على الحياة فى ظل مجتمع آخر لايحقق منهج الله فى حياة الجماعة البشريه .. هو شهادته بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها،وهى أعز ما يحرص عليه الأحياء ! ومن ثم يدعى «شهيداً » .

فهؤلاء الحواريون يدعون الله أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه .. أى أن يوفقهم ويعينهم فى أن يجعلوا من أنفسهم صورة حية لهذا الدين، وأن يبعثهم للجهاد فى سبيل تحقيق منهجه فى الحياة، وإقامة مجتمع يتمثل فيه هذا المنهج ، ولو قدموا ثمن ذلك حياتهم ليكونوا من الشهداء على حق هذا الدين .

وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل مسلم .. فهذا هو الإسلام، كما فهمه الحواريون . وكما هو فى ضمير الصادقين !

ويمضى السياق القرآنى إلى قوله .

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ (١) .

جاء فى المنار : (٢) . أى ومكر أولئك الذين أحس عيسى منهم الكفر به فحاولوا قتله،

---

(١) آل عمران : ٥٤ .

(٢) تفسير المنار : ٣: ٣١٥ .

وأبطل الله مكرهم فلم ينجحوا فيه، وعبر عن ذلك بالمكر على طريق المشاكله ، كذا قال الجمهور ..

وننتقل سراعا إلى قوله تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (1).

إن ولادة عيسى عجيبة حقا بالقياس إلى مألوف البشر. ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبى البشر؟

وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى – بسبب مولده – ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب.. أهل الكتاب هؤلاء كانوا يقرون بنشأة آدم من التراب. وأن النفخة من روح الله هى التى جعلت منه هذا الكائن الإنساني.. دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التى صاغوها حول عيسى. ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة لاهوتية. على حين أن العنصر الذى به صار آدم إنسانا هوذاته العنصر الذى به ولد عيسى من غير أب: عنصر النفخة من روح الله فى هذا وذاك! وإن هى إلا الكلمة: « كن» تنشىء ما تراد له النشأة « فيكون»!

وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة..حقيقة عيسى ، وحقيقة آدم، وحقيقة الخلق كله.. وتدخل إلى النفس فى يسر وفى وضوح ، حتى ليعجب الإنسان: كيف ثار الجدل حول هذا الحادث، وهو جاروفق السنة الكبرى.. سنة الخلق والنشأة جميعا !

وهذه هى طريقة « الذكر الحكيم » فى مخاطبة الفطرة بالمنطق الفطرى الواقعى البسيط، فى أعقد القضايا، التى تبدو بعد هذا الخطاب وهى اليسر الميسور !

معسكر واحد :

وإن تعجب فعجب أن ترى هذا التقارب وذلك التعاطف بين أتباع المسيح عليه السلام وهؤلاء الذين لعنهم الله، والذين قالوا زورا عن المسيح وأمه ما قالوا، مما يرده القرآن الكريم، والحديث النبوى، حتى وجدناهم أخيرا فى معسكر واحد ضد الرسالة والرسول ﷺ، وبخاصة فى فلسطين ، بعد أن تحرك جيشنا فى العاشر من رمضان وهدم خط « برليف » !

---

(1) سورة آل عمران : آية ٥٩.

شـاهد علـى الحقـيقـة :

وندعو هؤلاء إلى قراءة كتيب « فضح التلمود: تعاليم الحاخامين السرية» للأب «برانايتس» الذى قامت منظمة« التشيكا»ـ أى المخابرات السوفيتيـة الشيوعية ـ بتصفيتهم إبان الأيام الأولى من الثورة البلشفية فى روسيا. فقد جاء فى مقدمة الطبعة الإنكليزية التى كتبها «ى. ان . سانشـوارى » أنه يرسل أشعة فى طـريق ذلك الذى أشـعل ضـوء العلانيـة ـ بالنسبة لأسرار التلمود ـ فى منشورات أخرى.

وجاء فى خاتمته:فى هذا الكتيب استشهدت فقط بقدر ضئيل جدا مما فى الكتب التلمودية التى تشير إلى المسيحيين وتتحدث عنهم، وقد حذفت للإيجاز ورحمة بروحك الحساسة، الكثير الذى كنت أستطيع تضمينه هذا الكتيب مع ذلك، فإن هذه النصوص المستقاة من التلمود، التى يضمها هذا الكتيب، ستكون كافيه للبرهنة على زيف روايات اليهود، عندما يدعون أن لا شىء فى التلمود يعلم بغض المسيحيين وعداوتهم .

وإذا كانت ستثيرك ـ عزيزى القارىء ـ دراسة التجديفات الرهيبة التى يشتمل عليها هذا الكتيب، فلا تنفس عن غضبك هذا بلومى،فأنا لم أقل فى البداية بأنى سأعـرض أو سأنطلق إلى رواية أى شىء سار لطيف، لكنى أردت فقط أن أضع بين يديك ما الذى يعلمه« التلمود » حقا عن المسيحيين ولا أعتقد أن بإمكانى أن أفعل ذلك بطريقة ملائمة أكثر من هذه .

مع هذا، فإنى أدرك أنه بما أن الحقيقة لا ترضى الجميع، فثمة كثيرون سيصبحون أعدائى، لأنى صمدت إلى هذا الحد شاهدا على الحقيقة.

وقد نُبِّهت إلى هذا الأمر وذُكِّرت به، عن طريق قوانين « التلمود» نفسه، التى تهدد «الخونة» بالموت. بل إننى حُذِّرت من أولئك الذين خبروا نشاطات اليهود إزاء الذين يعرفون الأمور غير المرضية عن اليهودية.

ولقد تنبأ الجميع بأننى سوف أموت بأيدى اليهود أنفسهم، وبغيه الحيلولة دون انطلاقى قدما فى سبيل تحقيق عملى هذا، تَوَسَّلَ إلىَّ فريق بأن أتذكَّر مصير البروفسور «تشارينى» الذى اغتيل على حين غرة، بعدما أخذ على عاتقه ترجمة « التلمود» إلى العامية.

وذكَّرنى فريق ثان بمصيرالراهب« ديداكوس فى فيلنا»، المتحوّل عن اليهودية، الذى صرعوه بوحشية، وبمصائر آخرين لقوا من الاضـطهاد أقسى ضروبه، لإفشائهم أسرار

الديانة اليهودية.

حتى إن فريقا ثالثا حذرنى من خطر أولئك القريبين منى. وقد سمعت مئات المرات التحذير التالى باللغة البولونية:

« لكن اليهـود سيقتلونـك » .

إن الكتيب الذى بين يديك هو خير برهان على أننى لم أبال بتحذيرات أصدقائى هذه.

إننى أعتقد أنه ليس من الإنصاف أن أبقى صامتا للحفاظ على سلامتى الشخصية، بينما الصراع محتدم بين معسكرى« الساميين» و « المعاد للسامية »[1] كلاهما يدعى أنه يعمل من أجل الحقيقة، فيما أعرف أنا أن الحقيقة لا يمكن العثور عليها عند أى من المعسكرين..

ومهما يصيبنى مما قلت، فسأتحمله بكل سرور.. بل إننى مستعد للتضحية بحياتى .

حتى أصمـد شاهدا على الحقيقة « ١٢١ »

« آى . بى . برانايتس »

« المهم المحزن أن نعيد إلى الأذهان ملاحظة ما ذكر أعلاه، ونحن نقول: إن الأب «برنايتس» التقى فعلا بحتفه، كما تنبأه، على أيدى أعدائه اليهود إبان الثورة البلشفية سـنة ١٩١٧م فى روسـيا » .

« ى . إن سانشوارى : مترجم الكتيب من اللاتينية إلى الإنكليزية » .

(١) يقصد المؤلف هنا طبعا ـ كسائر الكتاب والمؤلفين الأجانب الذين يعتبرون اليهود ساميين ـ معسكرى « اليهود » و «المعادين لليهود ».

أهــم المــراجــع

١ـ الأدب العبرى، للدكتور جوزيف باركلى، نيويورك ١٩٠١م

٢ـ الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام، للدكتور على عبد الواحد وافى، ط نهضة مصر.

٣ـ إظهار الحق، للشيخ رحمة الله الهندى، تقديم الأستاذ عمر الدسوقى.

٤ـ بنو إسرائيل فى القرآن والسنة، للدكتور محمد سيد طنطاوى، جامعة البصرة، ط أولى ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٥ـ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير، البابى الحلبى.

٦ـ تفسير الطبرى(جامع البيان عن تأويل القرآن) لابن جرير الطبرى، البابى الحلبى، ط ثالثة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م.

٧ـ تفسير القاسمى (محاسن التأويل) للقاسمى، تعليق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، البابى الحلبى، ط أولى ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

٨ـ تفسير القرطبى(الجامع لأحكام القرآن) للقرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٩٦٧م.

٩ـ التفسير القيم، لابن قيم الجوزية، جمع محمد أويس القرنى، تحقيق محمد حامد الفقى، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠ـ تفسير مقاتل(التفسير الكبير) لمقاتل بن سليمان، تحقيق الدكتور عبد الله محمود شحاته، مخطوط بمكتبة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

١١ـ تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) للشيخ محمد عبده، تأليف محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

١٢ ـ التلمود: تاريخه وتعاليمه، للأستاذ ظفر الإسلام خان، دارالنفائس، ط سادسة ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م.

١٣ـ التلمود شريعة إسرائيل، لجنة من الأساتذة، دار القاهرة للطباعة ١٩٥٧م.

١٤ـ جاهلية القرن العشرين، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

١٥ـ دائرة المعارف اليهودية العامة: نيويورك ١٩٤٨م.

١٦ـ دائرة المعارف اليهودية: الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٠٣ - ١٩٠٥م.

١٧ـ دفاع عن الحديث النبوى وتفنيد شبهات خصومه، لجماعة من العلماء، ط الإمام، القاهرة .

١٨ـ الرسالة، للشافعي، تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر.

١٩ـ زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم (فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم) للشنقيطى، ط مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع.

٢٠ـ سنن ابن ماجه، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، ط دار الفكر العربى .

٢١ـ سنن أبى داود، ط مصر، التجارية، الأولى وط المدينة المنورة.

٢٢ـ سنن الترمذى (الجامع الصحيح) للترمذى ط بولاق ١٢٩٢هـ والهند، والحلبى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٣ـ سنن النسائى، بشرح جلال الدين السيوطى، وحاشية السندى، ط دار الكتاب العربى، بيروت.

٢٤ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٥ـ صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٢٦ـ الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر.

٢٧ـ عون المعبود: شرح سنن أبى داود، لابن القيم الجوزية، تحقيق عبد الرحمن عثمان، السلفية، ط ثانية ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٢٨ـ فتح البارى: شرح صحيح البخارى، لابن حجر، الرياض الحديثة، البطحاء، الرياض.

٢٩ـ الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، لجلال الدين السيوطى، ترتيب

يوسف النبهانى، ط دار الكتب العربية الكبرى.

٣٠- الفصل فى الملل والنحل، لابن حزم، وبهامشه الملل والنحل، للشهرستانى ، دار الفكر ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.

٣١- فضح التلمود: تعاليم الحاخاميين السرية،للأب آى. بى . برانايتس، إعداد الأستاذ زهدى الفاتح، دار النفائس.

٣٢- فى ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب دار الشروق، بيروت ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٣٣- قصة الحضارة: لديورانت، ترجمة الأستاذ محمد بدران.

٣٤- الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) ط بيروت.

٣٥- الكنز المرصود فى قواعد التلمود، للدكتور روهلنج، ترجمة الدكتور يوسف رزق الله، القاهرة ١٨٩٩م.

٣٦- مسند أحمد، وبهامشه كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندى، ط الميمنية بمصر.

٣٧- المسند - له أيضا - تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

٣٨- المغنى فى الضعفاء، للذهبى، تحقيق الدكتور نور الدين عتر، دار المعارف، حلب.

٣٩- مقارنة الأديان: اليهودية، للدكتور أحمد شلبى النهضة المصرية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ثانية ١٩٦٧م.

٤٠- الموطأ، لمالك بن أنس، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٤١- ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، للذهبى، تحقيق الأستاذ على محمد البجاوى، عيسى البابى الحلبى.

٤٢- اليهودية والصهيونية، للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، دار الأندلس، بيروت، ط أولى ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.

وهناك كتب ومطبوعات أخرى رجعنا إليها، وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

مطابع الوفاء - المنصورة

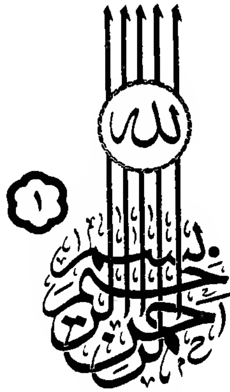
الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(٣)

موقف اليهود
من
الرسالة والرسول ﷺ

تأليف
الدكتور سعد المرصفي

مكتبة المنار الإسلامية

١



ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

مَوقِفُ اليهُودِ

مِنَ

الرِّسَالَةِ وَالرَّسُولِ ﷺ

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

AL-MANAR ISLAMIC BOOK SHOP
Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes



مكتبة المنار الإسلامية
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045
Kuwait : Hawalli Al Mothana Street, Tel 2615045, Fax 2636854, P.O Box 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

مقدمـــة

منذ وجد الإنسان وهو مشوق إلى تعرف ما فى الحياة من سنن وخصائص .. وكلما أمعن فى المعرفة الحقة ظهر ضعفه. وتضاءل غروره، وآمن بربه، وعرف أن للَّه عز وجل عونا على أوامره، وإغناء عن نواهيه ــ كما يقول الماوردى [1] ــ وأن الرسل عليهم صلوات اللَّه وتسليماته معانون على تأسيس النبوة، بما تقدمه دلائلها وبشائرها، وتبديه من أعلامها وشعائرها، ليكون السابق مبشرا ونذيرا، واللاحق مصدقا وظهيرا، ومن ثم تدوم بهم طاعة الخلق، وينتظم استمرار موكب الحق..

وقد تقدمت البشائر بنبوة خاتم النبيين ﷺ، مما هو حجة على أمم من سلف من الأنبياء، ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم، بما أطلعه اللَّه على غيبه، ليكون عونا للرسول، وحثا على القبول ..

وبنو إسرائيل جاءهم الخبر اليقين برسالة محمد ﷺ منذ أمد بعيد..وتوجد الدلائل والبشارات الكثيرة إلى الآن، وهى فى غاية القوة، مع وقوع التحريفات فى كتبهم!

ومن ثم فقد كان المتوقع أن يؤمنوا باللَّه وخاتم رسله، ولا يفرقوا بين أحد من رسل اللَّه، وأن يدركوا عظمة الرسالة والرسول ﷺ فى دعوتهم إلى الإيمان، من حيث الأسلوب و الموضوع والإشادة والمودة، والترغيب والموادعة..

ولكن اليهود ــ رغم إسلام بعضهم ممن عرفوا الحق فاهتدوا به ــ هم اليهود فى كل زمان ومكان وجيل وقبيل.. يعبدون أنفسهم، ويتعبدون لعصبيتهم! لا، بل إنهم ليعبدون هواهم، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم به أنبياؤهم،وقتلوا من قتلوا من هؤلاء الأنبياء، وقالوا فى حق اللَّه ما قالوا! حيث كانت لهم مطامح عنصرية شيطانية !

ومن ثم حاربوا الرسالة والرسول ﷺ بشتى أنواع الحروب.. ولم تضع الحرب أوزارها حتى اليوم !

إنهم صمتوا أولا صمت المستريب، ثم بدا لهم فقرروا المعالنة بالجحود والكنود،

---

(١) أعلام النبوة : ١٢٩ .

والعداء السافر الذى يعجز الخيال الشاخص عن تصوره بحال !

ومن ثم كانت الحاجة إلى معرفة موقفهم من الرسالة والرسول ﷺ .. رجاء أن يكون فى ذلك ذكرى تبعث دوافع الأمل والعمل نحو الإعداد لمواجهة هذا الباطل بما يجب أن يكون..

وقدا قتضت منهجية البحث أن يشتمل على ما يأتى:

الفصل الأول : الأدلة والبشارات.

الفصل الثانى : الترغيب والترهيب.

الفصل الثالث : صور ومعالم.

والله أسأل : التوفيق والسداد .

والعون والرشاد ، إنه سميع مجيب !!

الكويت فى : ٢٧ شعبان ١٤١٣ هـ
١ مارس ١٩٩٢ م

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)

الفصل الأول

الأدلة والبشارات

تمهيد ـ ميثاق النبيين ـ إقامة الأدلة ـ بشارات التوراة ـ أقوال العلماء ـ البشارة الأولى ـ عشرة أوجه ـ البشارة الثانية ـ البشارة الثالثة ـ البشارة الرابعة ـ البشارة الخامسة ـ رواية البخارى وغيره لصفات النبى محمد ﷺ فى التوراة ـ أشهر أسمائه ﷺ ـ طبيعة أهل الكتاب .

تمهيد :

نبصر الوسائل المتنوعة فى الدعوة إلى الإيمان بالله عز وجل، والإقناع بصدق رسالة خاتم النبيين ﷺ، والتنبيه إلى حقيقة دعوته، ونحن نذكر طرفا من الأدلة التى تحمل الذين يفتحون قلوبهم للحق، ويخافون مقام ربهم، وينهون أنفسهم عن الهوى .. على المبادرة إلى الدخول فى الدين القيم ..

ميثاق النبيين :

ومن بين الوسائل التى نبصرها فى القرآن الكريم حقيقة الترابط بين موكب الرسل والرسالات، على عهد من الله وميثاق، ينبنى عليه فسوق من يتولى عن اتباع آخر الرسالات، وشذوذه عن عهد الله وناموس الكون كله على الإطلاق:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾(١).

لقد أخذ اللّه عز وجل موثقا رهيبا جليلا على كل رسول (٢) ، أنه مهما آتاه من كتاب وحكمة، ثم جاء رسول مصدق لما معه، أن يؤمن به وينصره، ويتبع دينه، وجعل هذا عهدا بينه وبين كل رسول.

والتعبير القرآنى يطوى الأزمنة المتتابعة بين الرسل، ويجمعهم كلهم فى مشهد .. ويأتى هذا الخطاب :

﴿ قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ﴾

وهم يجيبون :

﴿ قالوا أقررنا﴾

وتأتى الشهادة على هذا الميثاق :

﴿قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾

---

(١) آل عمران : ٨١ ـ ٨٣ .

(٢) فى ظلال القرآن : ١: ٤٢٠ بتصرف .

هذا المشهد الهائل الجليل، يرسمه التعبير القرآنى فيعتز له الجنان فى الإنسان وهو يتمثل المشهد.. ومن ثم يبدو هذا الموكب الكريم متصلا متساندا مستسلما للتوجيه العلوى، ممثلا للحقيقة الواحدة التى شاء الحق تبارك وتعالى أن تقوم عليها البشرية، ولاتنحرف، ولا تتعدد، ولا تتعارض، ولا تتصادم..إنما يصطفى لها المختار من عباد اللّه، ثم يسلمها إلى المختار بعده، ويسلم نفسه معها لأخيه اللاحق به.. فما للنبى فى نفسه من شىء، وما له فى هذه المهمة من أرب شخصى،ولا مجد ذاتى، إنما هو عبد مصطفى، ومبلّغ مختار..والحق تبارك وتعالى هو الذى ينقل خطى هذه الدعوة بين أجيال البشر، ويقود هذا الموكب ويصرفه كيف يشاء..

ويخلص دين اللّه ـ بهذا العهد وبهذا التصور ـ من العصبية الذاتية..عصبية الرسول لشخصه، وعصبيته لقومه..وعصبية أتباعه لنحلتهم..وعصبيتهم لأنفسهم..وعصبيتهم لقوميتهم.. ويخلص الأمر كله للّه فى هذا الدين الواحد، الذى تتابع به وتوالى كل ذلك الموكب السنى الكريم .

وفى ظل هذه الحقيقة يبدو الذين يتخلفون من أهل الكتاب عن الإيمان بخاتم النبيين محمد ﷺ، ومناصرته وتأييده، تمسكا بديانتهم كما يزعمون! لابحقيقتها، لأن حقيقتها تدعوهم إلى الإيمان به ونصرته، ولكن باسمها تعصبا لأنفسهم فى صورة التعصب لها! مع أن رسلهم الذين حملوا إليهم هذه الرسالات قد قطعوا على أنفسهم عهدا ثقيلا غليظا مع ربهم فى مشهد مرهوب جليل..

فى ظل هذه الحقيقة يبدو أولئك الذين يتخلفون من أهل الكتاب فسقة عن تعليم أنبيائهم..فسقة كذلك عن نظام الكون كله، المستسلم لبارئه، الخاضع لناموسه:

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

إنه لا يتولى عن اتباع هذا الرسول إلا فاسق.. ولا يتولى عن دين اللّه إلا شاذ.. شاذ فى هذا الوجود الكبير.. ناشز فى وسط الكون الطائع المستسلم المستجيب..

إن دين اللّه واحد، بعث به الرسل جميعا، وتعاقدت عليه الرسالات جميعاً وإن عهد اللّه واحد، أخذه على كل رسول.. والإيمان بهذا الدين واتباع رسوله، ونصرة منهجه على كل منهج، هو الوفاء بهذا العهد.. فمن تولى عن الإسلام فقد تولى عن دين اللّه كله،

وقد خان عهد اللّٰه كله. كما فعل يهود!

والإسلام ـ الذى يتحقق فى إقامه منهج اللّٰه فى الأرض واتباعه والخلوص له ـ هو ناموس هذا الوجود، وهو دين كل حى فى هذا الوجود..

إنها صورة شاملة عميقة للإسلام والاستسلام.. صورة كونية تأخذ بالمشاعر، وترجف لها الضمائر.. صورة الناموس القاهر الحاكم، الذى يرد الأشياء والأحياء إلى سنن واحد، ومصير واحد:

﴿ وإليه يرجعون ﴾

فلا مناص لهم فى نهاية المطاف من الرجوع إلى الحاكم المسيطر المدبر الجليل.. ولا مناص للإنسان حين يبتغى سعادته وراحته وطمأنينة باله وصلاح حاله، من الرجوع إلى منهج اللّٰه فى ذات نفسه، وفى نظام حياته، وفى منهج مجتمعه، ليتناسق مع النظام الكونى كله. فلا ينفرد بمنهج من صنع نفسه، لا يتناسق مع ذلك النظام الكونى من صنع بارئه، فى حين أنه مضطر أن يعيش فى إطار هذا الكون، وأن يتعامل بجملته مع النظام الكونى.. والتناسق بين نظامه هو فى تصوره وشعوره، وفى واقعه وارتباطاته، وفى عمله ونشاطه، مع النظام الكونى، هو وحده الذى يكفل له التعاون مع القوى الكونية الهائلة بدلا من التصادم معها.. وهو حين يصطدم بها يتمزق وينسحق، أو لا يؤدى ـ على كل حال ـ وظيفة الخلافه فى الأرض كما وهبها اللّٰه له.. وحين يتناسق ويتفاهم مع نواميس الكون التى تحكمه وتحكم سائر الأحياء فيه، يملك معرفة أسرارها وتسخيرها، ويملك الانتفاع بها على وجه يحقق له السعادة والراحة والطمأنينة، ويعفيه من الخوف والقلق والتناحر.. الانتفاع بها، لا ليحترق بنار الكون، ولكن لينتفع بها ويستضىء!

والفطرة البشريه فى أصلها متناسقة مع ناموس الكون، مسلمة لربها إسلام كل شىء وكل حى. فحين يخرج الإنسان بنظام حياته عن ذلك الناموس لا يصطدم مع الكون فحسب، إنما يصطدم أولا بفطرته التى بين جنبيه، فيشقى ويتمزق، ويحتار ويقلق، ويحيا كما تحيا البشرية الضالة النكدة اليوم فى عذاب من هذا الجانب على الرغم من جميع الانتصارات العلمية وجميع التسهيلات الحضاريه المادية! وكل ذلك من صنع يهود!

إن البشريه اليوم تعانى من الخواء المرير.. خواء الروح من الحقيقة التى لا تطيق فطرتها أن تصبر عليها.. حقيقة الإيمان. وخواء حياتها من المنهج الإلهى.. هذا المنهج الذى ينسق بين حركتها وحركة الكون الذى تعيش فيه..

إنها تعانى من الهجير المحرق الذى تعيش فيه بعيدا بعيدا عن ذلك الظل الوارف الندى..ومن الفساد المقلق الذى تتمرغ فيه بعيدا بعيدا عن ذلك الخط القويم والطريق المأنوس المطروق! وكل ذلك من صنع يهود!

ومن ثم تجد الشقاء والحيرة والاضطراب، وتحس الخواء والجوع والحرمان، وتهرب من واقعها هذا بالمسكرات، على اختلاف أنواعها، وبالسرعة المجنونة والمغامرات الحمقاء، والشذوذ فى كل شىء ! وكل ذلك من صنع يهود!

وذلك على الرغم من الرخاء المادى ، والإنتاج الوفير، والحياة الميسورة، والفراغ الكثير.. لا، بل إن تلك الآلام تتزايد كلما تزايد الرخاء المادى، والإنتاج الحضارى، واليسر فى وسائل الحياة ومرافقها.. إن هذا الخواء المرير ليطارد البشرية كالشبح المخيف، يطاردها فتهرب منه، ولكنها تنتهي كذلك إلى الخواء المرير! وكل ذلك من صنع يهود!

وما من أحد يزور البلاد الغنية الثرية فى الأرض حتى يكون الانطباع الأول فى حسه إن هؤلاء قوم هاربون ! هاربون من أشباح تطاردهم! هاربون من ذوات أنفسهم! وسرعان ما ينكشف الرخاء المادى والحسى الذى يصل إلى حد التمرغ فى الوحل والطين ، عن الأمراض العصبية والنفسية،والشذوذ والقلق، والمرض والجنون، والمسكرات والمخدرات والجريمة، وفراغ الحياة من كل تصور كريم! وكل ذلك من صنع يهود!

إنهم لا يجدون أنفسهم ؛ لأنهم لا يجدون غاية وجودهم الحقيقية ..

إنهم لا يجدون سعادتهم ؛ لأنهم لا يجدون المنهج الإلهى الذى ينسق بين حركتهم وحركة الكون، وبين نظامهم وناموس الوجود ..

إنهم لا يجدون طمأنينتهم؛ لأنهم لا يعرفون اللّه الذى إليه يرجعون! وكل ذلك من صنع يهود!

إقامة الأدلة :

ومن بين الوسائل التى نبصرها لدعوة بنى إسرائيل إلى الإيمان باللّه ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا .. إقامة الأدلة على صدق خاتم النبيين ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وهنا نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ

﴿ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١).

وهنا نبصر نبأ الملة الأخيرة التي سيكتب لها الله رحمته التي وسعت كل شيء.. بهذا التعبير الذي يجعل رحمة الله أوسع من ذلك الكون الهائل الذي خلقه، والذي لا يدرك البشر مداه.. فيا لها من رحمة لا يدرك مداها إلا الله (٢) !

وإنه لنبأ عظيم، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي منذ أمد بعيد، على يدي نبيهم موسى ونبيهم عيسى عليهما السلام..

جاءهم الخبر اليقين ببعثته، وبصفاته، وبمنهج رسالته، وبخصائص ملته، فهو « النبي الأمي » وهو يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، وهو يضع عمن يؤمنون به من بني إسرائيل الأثقال والأغلال التي كانت عليهم .. فيرفعها عنهم النبي الأمي حين يؤمنون به. .. وأتباع هذا النبي يتقون ربهم ويخرجون زكاة أموالهم، ويؤمنون بآيات الله ..

وجاءهم الخبر اليقين بأن الذين يؤمنون بهذا النبي الأمي ، ويعظمونه، ويوقرونه، وينصرونه ، ويؤيدونه، ويتبعون النور الهادي الذي معه « أولئك هم المفلحون » .

وبذلك البلاغ المبكر لبني إسرائيل ـ على يد نبيهم موسى عليه السلام ـ كشف الحق جل شأنه عن مستقبل دينه، وعن حامل رايته، وعن طريق أتباعه، وعن مستقر رحمته.. فلم يبق عذر لهؤلاء ومن على شاكلتهم بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين ..

وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى عليه السلام ـ هو والسبعون المختارون من قومه لميقات ربه ـ يكشف كذلك عن مدى جريمة بني إسرائيل في استقبالهم لهذا النبي وللدين الذي جاء به .. وفيه التخفيف عنهم والتيسير إلى جانب ما فيه من البشارة بالفلاح! للمؤمنين!

---

(١) الأعراف : ١٥٦ ـ ١٥٨ .　　(٢) في ظلال القرآن : ٣ : ١٣٧٨ بتصرف .

إنها الجريمة عن علم وعن بينة! والجريمة التى لم يألوا فيها جهدا ..فقد سجل التاريخ أن بنى إسرائيل كانوا هم ألأم خلق وقف لهذا النبى وللدين الذى جاء به.. اليهود أولا، ومن على شاكلتهم أخيرا.. وأن الحرب التى شنوها على هـذا النبى ورسالته والمؤمنين كانت حربا خبيثة ماكرة لئيمة قاسية، وأنهم أصروا عليها ودأبوا ومازالوا يصرون ويدأبون !

والذى يراجع ـ فقط ـ ماسجله القرآن الكريم من حرب أهل الكتاب للإسلام والمسلمين... يطلع على المدى الواسع المتطاول الذى أداروا فيه المعركة مع الرسالة والرسول فى عناد لئيم !

والذى يراجع التاريخ بعد ذلك ..منذ اليوم الأول الذى استعلن فيه هذا الدين، وقامت له دوله فى المدينة .. يدرك كذلك مدى الإصرار العنيد على الوقوف لهذا الدين وإرادة محوه من الوجود!

ولقد استخدمت الصهيونية ومن على شاكلتها فى العصر الحديث من ألوان الحرب والكيد والمكر أضعاف أضعاف ما استخدمته طوال القرون الماضية كلها !

وهى فى هذه الفترة بالذات تعالج إزاله هذا الدين بجملته، وتحسب أنها تدخل معه فى المعركة الأخيرة الفاصلة.. لذلك تستخدم جميع الأساليب التى جربتها فى القرون الماضية كلها.. بالإضافة إلى ما استحدثته منها.. جملة واحدة!

ذلك فى الوقت الذى يقوم ناس ممن ينتسبون إلى الإسلام، يدعون فى سذاجة إلى التعامل مع أهل الإسلام وأهل الكتاب للوقوف فى وجه تيار المادية والإلحاد!

ومن ثم أبصرنا الدعوة إلى مؤتمرات الأديان ـ كما سبق ـ ومجمع المسجد ودور العبادة عند أهل الكتاب!

أهل الكتاب الذين يذبحون من ينتسبون إلى الإسلام فى كل مكان، ويشنون عليهم حربا تتسم بكل بشاعة الحروب التى سجلهـا التاريخ وسجلتها محاكـم التفتيش فى الأندلس! سواء عن طريق أجهزتهم المباشرة فى المستعمرات فى آسيا وأفريقية أو عن طريق الأوضاع التى يقيمونها فى البلاد وما أكثرها ، لتحل محل الإسلام عقائد ومذاهب علمانية! تنكر الغيبية، وتطور الأخلاق لتصبح حيوانية كالبهائم التى ينزو بعضها على بعض فى حرية ـ كما يزعمون ـ وتقيم مؤتمرات المستشرقين للتطور فى كل شىء !

إنها المعركة الوحشية الضارية يخوضها أهل الكتاب ضد هذا الدين القيم ، الذى بشروا به وبنبيه منذ ذلك الأمد البعيد .. ولكنهم تلقوه هذا التلقى اللئيم الخبيث العنيد!

وقبل أن يمضى السياق إلى مشهد جديد.. يقف عند هذا البلاغ المبكر ، يوجه الخطاب إلى خاتم النبيين ﷺ، يأمره بإعلان الدعوة إلى الناس جميعا، تصديقا لوعد الله :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

إنها الرسالة الأخيرة، فهى الرسالة الشاملة، التى لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل .. ولقد كانت الرسالات قبلها رسالات محلية قومية محدودة بفترة من الزمان ـ مابين عهدى رسولين ـ وكانت البشرية تخطو على هدى هذه الرسالات خطوات محدودة، تأهيلا لها للرسالة الأخيرة .. وكانت كل رسالة تتضمن ما يناسب تدرج الشريعة.. حتى إذا جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة فى أصولها، قابلة للتطبيق المتجدد فى فروعها، وجاءت للبشر جميعا، فى كل جيل وفى كل قبيل، فى كل زمان وفى كل مكان، وجاءت وفق الفطرة الإنسانية التى يلتقى عندها الناس جميعا.. ومن ثم حملها النبى الأمى الذى لم يدخل على فطرته الصافية ـ كما خرجت من يد الحق ـ إلا تعليم الله.. فلم تشب هذه الفطرة شائبة من تعليم الأرض، ومن أفكار الناس ! ليحمل رسالة الفطرة إلى فطرة الناس جميعا :

﴿ قل : يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾

وهذه الآية التى يؤمر فيها رسول الله ﷺ أن يواجه برسالته الناس جميعا، هى آية مكية فى سورة مكية.. وهى تجبه المزورين من أهل الكتاب، الذين يزعمون أن خاتم النبيين ﷺ لم يكن يفكر ـ وهو فى مكة ـ أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها، وأنه إنما بدأ يفكر فى أن يتجاوز بها قريش، ثم يتجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب، ثم يجاوز بها الجزيرة العربية إلى ما وراءها .. كل أولئك بعد أن أغراه النجاح الذى ساقته إليه الظروف! وإن هى إلا فرية من ذيول الحرب التى شنوها قديما على هذا الدين وأهله، وما يزالون ماضين فيها!

وليست البلية فى أن يرصد أهل الكتاب كيدهم لهذا الدين وأهله.. وأن يكون

المستشرقون الذين يكتبون مثل هذا الكذب هم طليعة الهجوم على هذا الدين وأهله.. إنما البلية الكبرى أن كثيرا من السذج الأغرار من أبناء جلدتنا الذين يتكلمون بألسنتنا يتخذون من هؤلاء المزورين على أنبيائهم، المحاربين لعقيدتهم، أساتذة لهم، يتلقون عنهم فى هذا الدين نفسه ، ويستشهدون بما يكتبونه عن تاريخ هذا الدين وحقائقه، ثم يزعم هؤلاء السذج الأغرار لأنفسهم أنهم مثقفون!

ونعود إلى السياق القرآنى بعد تكليف الرسول ﷺ أن يعلن رسالته للناس جميعا، فنجد بقية التكليف هى تعريف الناس بربهم الحق جل شأنه :

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾

إنه ﷺ رسول للناس جميعا من ربهم الذى يملك هذا الوجود كله.. وهم من هذا الوجود.. والذى يتفرد بالألوهية وحده ، فالكل له عبيد .. والذى تتجلى قدرته وألوهيته فى أنه الذى يحيى ويميت ..

والذى يملك الوجود كله، والذى له الألوهية على الخلائق وحده، والذى يملك الحياة والموت للناس جميعا .. هو الذى يستحق أن يدين الناس بدينه، الذى يبلغه إليهم رسوله.. فهو تعريف للناس بربهم، لتقوم على هذا التعريف عبوديتهم له، وطاعتهم لرسوله:

﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

وهذا النداء الأخير فى هذا التعقيب يتضمن لفتات دقيقة ينبغى أن نقف أمامها لحظات :

إنه يتضمن ابتداء ذلك الأمر بالإيمان بالله ورسوله.. وهو ما تتضمنه شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه، فى صورة أخرى من صور هذا المضمون الذى لا يقوم بدونه إيمان ولا إسلام.. ذلك أن هذا الأمر بالإيمان باللّه سبقه فى الآية التعريف بصفاته تعالى .

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾

فالأمر بالإيمان هو أمر بالإيمان باللّه الذى هذه صفاته الحقة.. كما سبقه التعريف برسالة النبى ﷺ إلى الناس جميعا :

﴿ قل : يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا﴾

ثم يتضمن ثانيه أن النبى الأمى صلوات الله وسلامه عليه يؤمن باللّٰه وكلماته.. ومع أن هذه بدهية، إلا أن هذه اللفتة لها مكانها ولها قيمتها.. فالدعوة لابد أن يسبقها إيمان الداعى بحقيقة ما يدعو إليه، ووضوحه فى نفسه ويقينه منه.. لذلك يجئ وصف النبى المرسل إلى الناس جميعا بأنه :

﴿ الذى يؤمن باللّٰه وكلماته ﴾

وهو نفس ما يدعو الناس إليه ونصه.

ثم يتضمن أخيرا لفتة إلى مقتضى هذا الإيمان الذى يدعوهم إليه.. هو وأتباعه فيما يأمر به ويدعو إليه ويحث عليه ، واتباعه لذلك فيما يبينه، وهو ما يقرره قول الحق سبحانه:

﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾

فليس هناك رجاء فى أن يهتدى الناس بما يدعوهم إليه رسول اللّٰه ﷺ إلا باتباعه فيه. ولا يكفى أن يؤمنوا به فى قلوبهم ..

إن هذا الدين يعلن عن حقيقته فى كل مناسبة.. إنه ليس مجرد عقيدة تستكن فى الضمير .. كما أنه كذلك ليس مجرد شعائر تؤدى وطقوس.. إنما هو الاتباع لرسول اللّٰه ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وفيما يبنيه ويسنه.. والرسول ﷺ لم يأمر الناس بالإيمان باللّٰه ورسوله فحسب.. ولم يأمرهم كذلك بالشعائر التعبدية فحسب.. ولكنه أبلغهم شريعة اللّٰه فى قوله وفعله.. ولا رجاء فى أن يهتدى الناس إلا أذا اتبعوه فى هذا.. فهذا هو دين اللّٰه.. وليس لهذا الدين من صورة أخرى إلا هذه الصورة التى تشير إليها هذه اللفتة :

﴿واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾

بعد الإيمان باللّٰه ورسوله.. ولوكان الأمر فى هذا الدين أمر اعتقاد وكفى، لكان فى قوله ﴿ **فآمنوا باللّه ورسوله** ﴾ الكفاية !

بشارات التوراة :

وحتى لا يقول قائل: إن أهل الكتاب لا يؤمنون إلا بما ورد فى كتبهم هم فإننا نسوق بشارات التوْراة، حتى لا تبقى حجة لهؤلاء ومن على شاكلتهم ..

أقوال العلماء :

وأرى أن أذكر فى المقدمة ما قاله العلماء فى ذلك، فقد قال الماوردى (١) :

إن للّه تعالى عونا على أوامره، وإغناء عن نواهيه، فكان أنبياء اللّه تعالى معانين على تأسيس النبوة بما تقدمه من بشائرها، وتبديه من أعلامها وشعائرها، ليكون السابق مبشرا ونذيرا، واللاحق مصدقا وظهيرا، فتدوم بهم طاعة الخلق، وينتظم بهم استمرار الحق، وقد تقدمت بشائر من سلف الأنبياء بنبوة محمد ﷺ مما هو حجة على أممهم، ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم، بما أطلعه اللّه تعالى على غيبه ، ليكون عونا للرسول، وحثا على القبول .

ثم سرد الماوردى البشائر من نصوص كتبهم.

وجاء فى «منية الأذكياء فى قصص الأنبياء» مانصه (٢) :

إن نبينا عليه الصلاة والسلام قد بشرت به الأنبياء السالفون، وشهدوا بصدق نبوته، ووصفوه وصفا رفع كل احتمال، حيث صرحت باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره، وسمته. غير أن أهل الكتاب حذفوا اسمه ــ يعنى من نسخهم الأخيرة ــ إلا أن ذلك لم يجدهم نفعا، لبقاء الصفات التى اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة، وهى أظهر دلالة من الاسم على المسمى، إذ قد يشترك اثنان فى اسم، ويمتنع اشتراك اثنين فى جميع الأوصاف. لكن من أمد غير بعيد قد شرعوا فى تحريف بعض الصفات، ليبعد صدقها على النبى عليه الصلاة والسلام. فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها فى بعض المواضع اختلافا لا يخفى على اللبيب أمره، ولاماقصد به، ولم يفدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم، لانتشار النسخ بالطبع وتيسر المقابلة بينها.

وجاء فى «إظهار الحق» مانصه (٣) :

إن الإخبارات الواقعة فى حق محمد ﷺ توجد كثيرة إلى الآن أيضا، مع وقوع التحريفات فى هذه الكتب. ومن عرف أولا طريق إخبار النبى المتقدم عن النبى المتأخر، على ما عرفت فى الأمر الثانى ــ يعنى فى كلامه ــ ثم نظر ثانيا بنظر الإنصاف إلى هذه الإخبارات، وقابلها بالإخبارات التى نقلها الإنجيليون فى حق عيسى عليه السلام، جزم بأن

---

(١) أعلام النبوة: ١٢٩ ، وانظر : تفسير القاسمى : ٧ : ٢٨٧٣ .

(٢) تفسير القاسمى : ٧ : ٢٨٧٣ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق .

الإخبارات المحمدية فى غاية القوة.

وها نحن ننقل هذه البشارات التى أوردها صاحب المنار وعلق عليها (١) :

البشـارة الأولى :

فى الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء «التثنية» هكذا (١٧ فقال الرب لى نعم جميع ما قالوا ١٨ وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين إخواتهم، وأجعل كلامى فى فمه. ويكلمهم بكل شىء آمره به ١٩ ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا أكون المنتقم من ذلك ٢٠ فأما النبى الذى يجترى بالكبرياء ويتكلم فى اسمى مالم آمره بأنه يقول أم باسم آلهة غيرى فليقتل ٢١ فإن أجبت وقلت فى قلبك كيف أستطيع أن أميز الكلام الذى لم يتكلم به الرب ٢٢ فهذه تكون لك آية أن ما قاله ذلك النبى فى اسم الرب ولم يحدث فالرب لم يكن تكلم به، بل ذلك النبى صورة فى تعظم نفسه، ولذلك لا تخشاه).

عشرة أوجــه :

وهذه البشارة ليست بشارة بيوشع، كما يزعم الآن أحبار اليهود، ولا بشارة بعيسى عليه السلام، كما زعم علماء بروتستانت، بل هى بشارة بمحمد ﷺ لعشرة أوجه :

الوجه الأول: قد عرفت فى الأمر الثالث ــ أى الذى سبق ذكره فى تفسير المنار(٢) ــ أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام كانوا ينتظرون نبيا آخر مبشرا به فى هذا الباب، وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح ، فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عيسى . .

الوجه الثانى : أنه وقع فى هذه البشارة لفظ مثلك، ويوشع وعيسى لا يصح أن يكونا مثل موسى عليه السلام .

أما أولا فلأنهما من بنى إسرائيل، ولا يجوز أن يقوم أحد من بنى إسرائيل مثل موسى ، كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء «التثنيه» وهى هكذا (١٠ ولم يقم بعد ذلك نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه) إلخ .

وأما ثانيا فلأنه لا مماثلة بين يوشع وبين موسى ؛ لأن موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواهى، ويوشع ليس كذلك، بل هو متبع لشريعته.

وكذلك لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى عليهما السلام؛ لأن عيسى عليه

---

(١) تفسير المنار : ٩ : ٢٥١ وما بعدها بتصرف .   (٢) المرجع السابق : ٢٣٥ ــ ٢٣٦.

السلام كان إلها وربا على زعم النصارى، وموسى عليه السلام كان عبد إله موسى، وأن عيسى عليه السلام على زعمهم صار ملعونا لشفاعة الخلق، كما صرح به بولس فى الباب الثالث من رسالته إلى أهل غلاطية، وموسى عليه السلام ماصار ملعونا لشفاعتهم، وأن عيسى عليه السلام دخل الجحيم بعد موته كما هو مصرح به فى عقائد أهل التثليث، وموسى عليه السلام دخل الجحيم ، وأن عيسى عليه السلام صلب على زعم النصارى ليكون كفارة لأمته، وموسى عليه السلام ماصار كفارة لأمته بالصلب، وأن شريعه موسى عليه السلام مشتملة على الحدود والتعزيرات وأحكام الغسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات، بخلاف شريعة عيسى عليه السلام فإنها فارغة عنها على ما يشهد به هذا الإنجيل المتداول بينهم، وأن موسى عليه السلام كان رئيسا مطاعا فى قومه نفاذا لأوامره ونواهيه،وعيسى عليه السلام لم يكن كذلك.

الوجه الثالث: أنه وقع فى هذه البشارة لفظ «من بين إخوتهم» ولا شك أن الأسباط الاثنى عشر كانوا موجودين فى ذلك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده، فلو كان المقصود كون النبى المبشر به منهم لقال منهم لا«من بين إخوتهم » ؛ لأن الاستعمال الحقيقى لهذا اللفظ أن لا يكون المبشر به له علاقة الصلبية والبطنية ببنى إسرائيل، كما جاء لفظ الإخوة بهذا الاستعمال الحقيقى فى وعد اللّٰه هاجر فى حق إسماعيل عليه السلام فى الآية الثانية عشر من الباب السادس عشر من سفر التكوين، وعبارتها فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م هكذا « وقبله جميع إخوته بنصب المضارب» وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١م هكذا « بحضرة جميع إخوته يسكن » .

وجاء بهذا الاستعمال أيضا فى الآية الثامنة عشر من الباب الخامس والعشرين من سفر التكوين فى حق إسماعيل فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م هكذا « منتهى إخوته جميعهم سكن » وفى الترجمة العربية المطبوعة بسنة ١٨١١ م هكذا « أقام بحضرة جميع إخوته» والمراد بالإخوة ههنا بنو عيسو وإسحاق وغيرهم من أبناء إبراهيم عليه السلام.

وفى الآية الرابعة عشرة من الباب العشرين من سفر العدد هكذا «ثم أرسل موسى رسلا من قادس إلى ملك الروم قائلا: هكذا يقول أخوك إسرائيل قد علمت كل البلاء الذى أصابنا ».

وفى الباب الثانى من سفر التثنيه هكذا (٢ وقال لى الرب ٤ ثم أوص الشعب أنكم ستجوزون فى تخوم إخوتكم بنى عيسو الذين فى ساعير وسيخشونكم ٨ فلما جزنا

إخوتنا بنى عيسو الذين يسكنون ساعير إلخ).

والمراد بإخوة بنى إسرائيل بنو عيسو، ولا شك أن استعمال لفظ إخوة بنى إسرائيل فى بعض منهم كما جاء فى بعض المواضع من التوراة استعمال مجازى، ولا تترك الحقيقة ولا يصار إلى المجازما لم يمنع من الحمل على المعنى الحقيقى مانع قوى، ويوشع وعيسى كانا من بنى إسرائيل فلا تصدق هذه البشارة عليهما.

الوجه الرابع : أنه قد وقع فى هذه البشارة لفظ «سوف أقيم » ويوشع كان حاضرا عند موسى عليه السلام داخلا فى بنى إسرائيل نبيا فى ذلك الوقت ـ كما يقولون ـ فكيف يصدق عليه هذا اللفظ ؟!

الوجه الخامس : أنه وقع فى هذه البشارة لفظ: «أجعل كلامى فى فمه»، وهو إشارة إلى أن ذلك النبى ينزل عليه الكتاب، وإلى أنه يكون أميا حافظا للكلام، وهذا لايصدق على يوشع ، لانتفاء كلا الأمرين فيه.

الوجه السادس : أنه وقع فى هذه البشارة:« ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به فأنا أكون المنتقم منه» فهذا الأمر لما ذكر لتعظيم هذا النبى المبشربه فلا بد أن يمتاز ذلك المبشر به بهذا الأمر عن غيره من الأنبياء، فلا يجوز أن يراد بالانتقام من المنكر العذاب الأخروى الكائن فى جهنم، أو المحن والعقوبات الدنيوية التى تلحق المنكرين من الغيب ؛ لأن هذا الانتقام لا يختص بإنكار نبى دون نبى، بل يعم الجميع، فحينئذ يراد بالانتقام : الانتقام التشريعى .

فظهر منه أن هذا النبى يكون مأمورا من جانب اللّه بالانتقام من منكره، فلا يصدق على عيسى عليه السلام ؛ لأن شريعته خالية من أحكام الحدود والقصاص والتعزير والجهاد.

الوجه السابع : فى الباب الثالث من كتاب الأعمال فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م هكذا (١٩ فتوبوا وارجعوا كى تمحى خطاياكم ٢٠ حتى إذا تأتى أزمنة الراحة من قدام وجه الرب، ويرسل المنادى به لكم وهو يسوع المسيح ٢١ الذى إياه ينبغى للسماء أن تقبله إلى الزمان الذى يسترد فيه كل شيء تكلم به اللّه على أفواه أنبيائه القديسين منذ الدهر ٢٢ أن موسى قال: إن الرب إلهكم يقيم لكم نبيا من بين إخوتكم مثلى له تسمعون في كل ما يكلمكم به ١٣ ويكون كل نفس لا تسمع ذلك النبى تهلك من الشعب).

وفى الترجمة الفارسية....(حذفنا النص الفارسى استغناء عنه بما يذكره من مضمونه ، هو قوله:

فهذه العبارات سيما بحسب التراجم الفارسية تدل صراحة على أن هذا النبى غير المسيح عليه السلام، وأن المسيح لابد أن تقبله السماء إلى زمان ظهور هذا النبى ، ومن ترك التعصب الباطل من المسيحيين ـ وتأمل فى عبارة بطرس ظهر له أن هذا القول من بطرس يكفى لإبطال ادعاء علماء بروتستانت أن هذه البشارة فى حق عيسى عليه السلام.

وهذه الوجوه السبعة التى ذكرتها تصدق فى حق محمد ﷺ أكمل صدق؛ لأنه غير المسيح عليه السلام، ويماثل موسى عليه السلام فى أمور كثيرة:

١ ـ كونه عبد الله ورسوله.

٢ ـ كونه ذا والدين.

٣ ـ كونه ذا نكاح وأولاد.

٤ ـ كون شريعته مشتملة على السياسات المدنية.

٥ ـ كونه مأمورا بالجهاد.

٦ ـ اشتراط الطهارة وقت العبادة فى شريعته.

٧ ـ وجوب الغسل للجنب والحائض والنفساء فى شريعته.

٨ ـ اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز فيها.

٩ـ حرمة غير المذبوح وقرابين الأوثان فيها.

١٠ ـ كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضيات الجسمانية.

١١ ـ أمره بحد الزنا.

١٢ ـ تعيين الحدود والتعزيرات والقصاص.

١٣ ـ كونه قادرا على تنفيذها.

١٤ ـ تحريم الربا.

١٥ ـ أمره بإنكار من يدعو إلى غير الله.

١٦ ـ أمره بالتوحيد الخالص.

١٧ ـ أمره الأمة بأن يقولوا له: عبدالله ورسوله، لا ابن الله، أو الله ـ والعياذ بالله ـ.

١٨ ـ موته على الفراش.

١٩ ـ كونه مدفونا كموسى.

٢٠ ـ عدم كونه ملعونا لأجل أمته.

وهكذا أمور أخر تظهر إذا تؤمل في شريعتهما، ولذلك قال الله تعالى فى كلامه المجيد:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ (١).

وكان من إخوة بنى إسرائيل، لأنه من بنى إسماعيل، وأنزل عليه الكتاب، وكان أميا جعل كلام الله في فمه، وكان ينطق بالوحى، كما قال الله تعالى .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (٢).

وكان مأمورا بالجهاد، وقد انتقم الله لأجله من صناديد قريش، والأكاسرة والقياصرة وغيرهم، وظهر قبل نزول المسيح من السماء، وكان للسماء أن تقبل المسيح عليه السلام إلى ظهوره، ليرد كل شيء إلى أصله، ويمحق الشرك والتثليث وعباده الأوثان.. ثم قال :

الوجه الثامن : أنه صرح في هذه البشارة: بأن النبى الذى ينسب إلى الله ما لم يأمره يقتل، فلو لم يكن محمد ﷺ نبيا حقا لكان قتل، وقد قال الله فى القرآن المجيد أيضا :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ (٣).

وما قتل، بل قال الله فى حقه:

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (٤).

وأوفى وعده ولم يقدر على قتله أحد حتى لقى ﷺ الرفيق الأعلى، وعيسى عليه السلام قتل وصلب على زعم أهل الكتاب. فلو كانت هذه البشارة في حقه لزم أن يكون نبيا كاذبا كما يزعمه اليهود، والعياذ بالله!

الوجه التاسع : أن الله بين علامة النبى الكاذب، وهى أن إخباره عن الغيب المستقبل

---

(١) المزمل : ١٥. (٢) النجم : ٣ ـ ٤. (٣) الحاقة : ٤٤ ـ ٤٦ . (٤) المائدة : ٦٧ .

لا يخرج صادقا، ومحمد ﷺ أخبر عن الأمور الكثيرة المستقبلة كما علمت فى المسلك الأول وظهر صدقه فيها (١) فيكون نبيا صادقا لا كاذبا.

الوجه العاشر : أن علماء اليهود سلموا كونه مبشرا به فى التوراة لكن بعضهم أسلم وبعضهم بقى فى الكفر...

ثم قال : فتلك عشرة كاملة.

فإن قيل: إن أخوة بنى إسرائيل لا تنحصر فى بنى إسماعيل ؛ لأن بنى عيسو وبنى أبناء قطورا زوجة إبراهيم عليهما السلام من إخوتهم أيضا.

قلت نعم هؤلاء أيضا من إخوة بنى إسرائيل، لكنهم لم يظهر أحد منهم يكون موصوفا بالأمور المذكورة، ولم يكن وعد الله فى حقهم أيضا، بخلاف بنى إسماعيل ، فإنهم كان وعد الله فى حقهم لإبراهيم ولهاجر عليهما السلام، مع أنه لا يصح أن يكون مصداق هذا الخبر بنى عيسو على ماهو مقتضى دعاء إسحاق عليه السلام المصرح به فى الباب السابع والعشرين من سفر التكوين .

ولعلماء بروتستانت اعتراضان نقلهما صاحب الميزان فى كتابه المسمى : بحل الإشكال فى جواب الاستفسار :

الأول: أنه وقع فى الآية ١٥ من الباب ١٨ من سفر الاستثناء « التثنية » هكذا (فإن الرب إلهك يقيم من بينك من بين إخوتك) إلخ .

فلفظ من بينك يدل دلالة ظاهرة على أن هذا النبى يكون من بنى إسرائيل لا من بنى إسماعيل.

والثانى: أن عيسى عليه السلام نسب هذه البشارة إلى نفسه فقال فى الآية ٤٦ من الباب الخامس من إنجيل يوحنا: أن موسى كتب فى حقى.

---

(١) ظهر صدق بعضها فى زمنه كانتصاره على المشركين، ودخوله المسجد الحرام مع المؤمنين محلقين رءوسهم ومقصرين، وغلب الروم للفرس، وبعضها لأصحابه كفتح مصر وبلاد كسرى وقيصر، وقتل الفئة الباغية لعمار، ولا يزال يظهر الكثير منها عصرا بعد عصر، ومنها قوله ﷺ فيما رواه مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنه ، ولا يجدن ريحها. وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا» مسلم ٣٧ ـ اللباس ١٢٥ (٢١٢٨) وأحمد: ٢: ٣٥٥ ـ ٣٥٦ ، ٤٤٠ ، وأيضا (٨٦٥٠) تحقيق أحمد محمد شاكر ، والبيهقى : ٢: ٢٣٤ .

أقول: آية «التثنية» على وفق التراجم الفارسية وتراجم أرد وهكذا (فإن الرب إلهك يقيم من بينك من بين إخوتك نبيا مثلى فاسمع منه) .

والقسيس أيضا نقلها هكذا.

والجواب أن اللفظ المذكور لا ينافي مقصودنا . لأن محمدا عليه السلام لما هاجر إلى المدينة، وبها تكامل أمره، قد كان حوله أماكن وجود اليهود كخيبر وبنى قينقاع والنضير وغيرهم، فقد قام من بينهم، ولأنه إذا كان من إخوتهم فقد قام من بينهم، ولأن قوله من بين إخوتك، بدل من قوله من بينك بدل اشتمال على رأى ابن الحاجب ومتبعيه القائلين بكفاية علاقة الملابسة غير الكلية والجزئية فى تحقق هذا البدل،نحو جاءنى زيد أخوه، وجاءنى زيد غلامه، وبدل إضراب على رأى ابن مالك، والمبدل منه على كلا التقديرين غير مقصود، ويدل على كونه غير مقصود أن موسى عليه السلام لما أعاد هذا الوعد من كلام اللّه فى الآية الثامنة عشره لم يوجد فيه لفظ من بينك، ونقل بطرس الحوارى أيضا هذا القول، ولم يوجد فيه هذا اللفظ كما علمت فى الوجه السابع وكذا نقله استفانوس أيضا، ولم يوجد فى نقله أيضا هذا اللفظ ، كما صرح به فى الباب السابع من كتاب الأعمال وعبارته هكذا« هذا هو موسى الذى قال لبنى إسرائيل نبيا مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم له تسمعون» فسقوطه فى هذه المواضع دليل على كونه غير مقصود، فاحتمال البدل قوى جدا.

وقال صاحب الاستفسار: إن لفظ من بينك إلحاقى زيد تحريفا، ويدل على ثلاثة أمور.

الأول: أن المخاطبين فى هذا الموضوع كانوا بنى إسرائيل كلهم لا البعض فقوله: من بينك خطاب لجميع القوم، فصار لفظ من إخوتك لغوا محضا لا معنى له، لكن لفظ من إخوتك جاء فى الموضع الآخر أيضا فيكون صحيحا، ولفظ من بينك إلحاقيا زيد تحريفا.

الثانى : أن موسى عليه السلام لما نقل كلام اللّه لإثبات قوله لم يوجد فيه هذا اللفظ، ولا يجوز أن يكون ما قال موسى مخالفا لما قاله اللّه .

والثالث: أن الحواريين كلما نقلوا هذا الكلام لم يوجد فيه لفظ من بينك. وإن قلتم : إن المحرف إذا حرف فلم لَمْ يحرف الكلام كله؟

قلت: نحن نرى فى محاكم العدالة دائما أن القبالجات المحرفة يثبت تحريف الألفاظ المحرفة فيها من مواضع أخرى منها غالبا [1] وأن شهود الزور يؤخذ ببعض بياناتهم .

---

(١) لعل معنى القبالجات الوثائق والمستندات، ومعنى الجملة أنها على وجود التحريف فيها يحتج ببعض عباراتها على إثبات التحريف فيها « وكذا على غيره » .

فالوجه الوجيه على أن عادة اللّه جارية بأنه لا يهدى كيد الخائنين، وبأنه يظهر خيانة خائن الدين بمقتضى رحمته، فبمقتضى هذه العادة يصدر عن الخائن شيء ما تظهر به خيانته، على أنه لا توجد ملة يكون أهلها كلهم خائنين. فالخائنون الذين حرفوا كتب العهدين كان لهم لحاظ ما (١) من جانب بعض المتدينين. فلذلك ما بدلوا الكل.

أقول: هذا الجواب بالنسبة إلى عادة أهل الكتاب كما عرفت فى الأمر السابع. وأقول ـ فى الجواب عن الاعتراض الثانى ـ : أن آية الإنجيل هكذا « لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوننى لأنه هـو كتب عنى» وليس فيها تصريح بأن موسى عليه السلام كتب فى حقه فى الموضع الفلانى، بل المفهوم منه أن موسى كتب فى حقه « مطلقا» وهذا يصدق إذا وجد فى موضع من التوراة بشارة إليه، ونحن نسلم هذا الأمر كما ستعرف فى ذيل بيان البشارة الثالثة، لكننا ننكر أن يكون قوله إشارة إلى هذه البشارة للوجوه التى عرفتها، وقد ادعى هذا المعترض فى الفصل الثالث من الباب الثانى من الميزان أن الآية الخامسة عشره من الباب الثالث من سفر التكوين إشارة إليه، فهذا القدر يكفى لتصحيح قول عيسى عليه السلام، نعم لوقال عيسى عليه السلام إن موسى عليه السلام ما أشار فى أسفاره الخمسة إلى نبى من الأنبياء إلا إلىَّ لكان لهذا التوهم مجال فى هذه الحال.

البشـارة الثانية :

الآيه ٢١ من الباب ٣٢ من سفر الاستثناء «التثنية» هكذا (هم أغارونى بغير إله، وأغضبونى بمعبوداتهم الباطلة، وأنا أيضا أغيرهم بغير شعب وبشعب جاهل أغضبهم).

والمراد بشعب جاهل العرب؛ لأنهم كانوا فى غاية الجهل والضلال، وما كان عندهم علم، لا من العلوم الشرعية، ولامن العلوم العقلية، وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام، وكانوا محقرين عند اليهود، لكونهم من هاجر.. فمقصود الآية أن بنى إسرائيل أغارونى بعبادة المعبودات الباطلة فأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرون وجاهلون. فأوفى بما وعد، فبعث من العرب النبى ﷺ ، فهداهم إلى الصراط المستقيم كما قال اللّه تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

---

(١) لعله أراد أن يقول : كان عليهم عيون ورقباء .   (٢) الجمعة : ٢ .

وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين، كما يفهم من ظاهر كلام مقدسهم بولس فى الباب العاشر من الرسالة الرومية،لأن اليونانيين قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلاثمائة سنة كانوا فائقين على أهل العالم كلهم فى العلوم والفنون،وكان منهم جميع الحكماء المشهورين ، مثل: سقراط وبقراط وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطو طاليس وأرشميدس وبليناس وأقليدس وجالينوس وغيرهم، الذين كانوا أئمة الإلهيات والرياضيات والطبيعيات وفروعها قبل عيسى عليه السلام، وكان اليونانيون فى عهده على غاية درجة الكمال فى فنونهم . وكانوا واقفين على أحكام التوراة وقصصها، وعلى سائر كتب العهد العتيق أيضا بواسطة ترجمة سبتوجنت التى ظهرت باللسان اليونانى قبل المسيح بمقدار مائتين وست وثمانين سنة، لكنهم ما كانوا معتقدين للملة الموسوية، وكانوا متفحصين عن الأشياء الحكمية الجديدة، كما قال مقدسهم هذا فى الباب الأول من الرسالة الأولى إلى أهل قورنيثوس هكذا « ٢٢ لأن اليهود يسألون آية واليونانيين يطلبون حكمة ٢٣ ولكننا نحن نركز بالمسيح مصلوبا لليهود عثرة ولليونانيين جهالة» فلا يجوز أن يكون المراد بالشعب الجاهل اليونانيين، فكلام مقدسهم فى الرسالة الرومية إما مؤول أومردود ـ وقد عرفت فى الأمر الثامن أن قوله ساقط عن الاعتبارعندنا .

البشـارة الثالثـة :

فى الباب الثالث والثلاثين (١) من سفر «التثنية» فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م هكذا (٢وقال: جاء الرب من سينا، وأشرق لنا من ساعير(٢) واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار فى يمينةسنة من نار) (٣) .

فمجيئه من سينا، إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام، واستعلانه من جبل فاران إنزاله القرآن ؛ لأن فاران جبل من جبال مكة، فقد جاء فى بيان حال إسماعيل عليه السلام من سفر التكوين (٢١ : ٢٠ وكان اللّٰه معه، ونما وسكن فى البرية، وصار شابا يرمى بالسهام ٢١ وسكن برية فاران، وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر) .

---

(١) هذا الباب هو الأخير من سفر التثنية، وفى الآية الأولى منه أن هذه البشارة قالها موسى قبل موته مباركا بها بنى إسرائيل .

(٢) فى التراجم الأخيرة سعير، بالكسر، والمراد بها واحد وفيهازيادة «وأتى من» .

(٣) المراد بالسنة الشريعة. وترجمة الجزويت « عن يمينه قبس شريعة لهم» وربوات القدس،وليس فيها ألوف الأطهار .

ولا شك أن إسماعيل عليه السلام كانت سكناه بمكة، ولا يصح أن يراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضا، فانتشرت فى هذه المواضع ؛ لأن اللّٰه لو خلق نارا فى موضع لا يقال جاء اللّٰه من ذلك الموضع إلا إذا اتبع تلك الواقعة وحى نزل فى ذلك الموضع أو عقوبة أو ما أشبه ذلك. وقد اعترفوا بأن الوحى اتبع تلك « النار التى رآها موسى » فى طور سيناء فكذا لابد أن يكون فى سعير وفاران .

البشارة الرابعة :

فى الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين وعد اللّٰه فى حق إسماعيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤م هكذا (وعلى إسماعيل أستجيب لك، هوذا أباركه وأكبره وأكثره جدا ، فسيلد اثنى عشر رئيسا. وأجعله لشعب كبير) .

قوله: أجعله لشعب كبير يشير إلى محمد ﷺ ، لأنه لم يكن فى ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره. وقد قال اللّٰه تعالى حاكيا دعاء إبراهيم وإسماعيل فى حقه عليهم السلام فى كلامه المجيد أيضا :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١) .

وقال الإمام القرطبى فى الفصل الأول من القسم الثانى من كتابه: وقد تفطن بعض النبهاء ممن نشأ على لسان اليهود وقرأ بعض كتبهم فقال: يخرج مما ذكره من عبارة التوراة فى موضعين اسم محمد ﷺ بالعدد على ما يستعمله اليهود فيما بينهم.

الأول : قوله جدا جدا بتلك اللغة « بماد ماد» وعدد هذه الحروف اثنان وتسعون، لأن الباء اثنان والميم أربعون، والألف واحد، والدال أربعة،والميم الثانية أربعون، والألف واحد، والدال أربعة، وكذلك الميم من محمد أربعون ، والحاء ثمانية، والميم أربعون ، والدال أربعة (٢) .

والثانى : قوله لشعب كبير بتلك اللغة « لغوى غدول» فاللام عندهم ثلاثون والغين

---

(١) البقرة : ١٢٩ .

(٢) يؤيد هذا ما روى عن أحبار اليهود المجاورين للمدينة فى زمن البعثة من ظنهم أن الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور لبيان أجل الأمة الإسلامية.

ثلاثة ـ لأنه عندهم فى مقام الجيم، إذ ليس فى لغتهم جيم ولا صاد ـ والواو ستة، والياء عشرة، والغين أيضا ثلاثة، والدال أربعة، والواو ستة، واللام ثلاثون، فمجموع هذه أيضا اثنان وتسعون، انتهى كلامه بتلخيص ما .

وعبد السلام كان من أحبار اليهود، ثم أسلم فى عهد السلطان المرحوم بايزيد خان، وصنف رسالة صغيرة سماها بالرسالة الهادية فقال فيها :

• « إن أكثر أدلة أحبار اليهود بحرف الجمل الكبير، وهو حرف أبجد ، فإن أحبار اليهود حين بنى سليمان النبى عليه السلام بيت المقدس اجتمعوا وقالوا: يبقى هذا البناء أربعمائة وعشر سنين، ثم يعرض له الخراب، لأنهم حسبوا لفظه « بزأت » ثم قال :

« واعترضوا على هذا الدليل بأن الباء فى «بماد ماد» ليست نفس الكلمة بل هى أداة وحرف جيء به للصلة، فلو أخرج منه لاحتاج اسم محمد إلى باء ثانية ويقال: ببماد ماد » قلنا :

من المشهور عندهم إذا اجتمع الباءان: أحدهما: أداة، والآخر: من نفس الكلمة، تحذف الأداة، وتبقى التى هى من نفس الكلمة، وهذا شائع عندهم فى مواضع غير معدودة، فلا حاجة إلى إيرادها. انتهى كلامه بلفظه.

أقول: قد صرح العلماء بأن من أسمائه ﷺ ماد ماد كما فى شفاء القاضى عياض .

البشارة الخامسة :

جاء فى ترجمات سنة ١٧٢٢م وسنة ١٨٣١م وسنة ١٨٤٤م العربية من سفر التكوين: (٤٩ : ١٠ فلا يزول القضيب من يهوذا والمدبر من فخذه، حتى يجيء الذى له الكل و إياه تنتظر الأمم) .

وفى ترجمة سنة ١٨١١م (فلا يزول القضيب من يهوذا والراسم من تحت أمره إلى أن يجيء الذى هو له، وإليه تجتمع الشعوب) .

ولفظ الذى له الكل أو الذى هو له ترجمة لفظ « شيلوه » .

وفى ترجمة هذا اللفظ اختلاف كثير فيما بينهم كما عرفت فى الأمر السابع أيضا .

وقال عبد السلام فى الرسالة الهادية هكذا (لا يزول الحاكم من يهوذا، ولا راسم من بين رجليه، حتى يجيء الذى له وإليه تجتمع الشعوب) .

وفى هذه الآية دلالة على مجيء سيدنا محمد ﷺ بعد تمام حكم موسى وعيسى، لأن المراد من الحاكم هو موسى ؛ لأنه بعد يعقوب ما جاء صاحب شريعة إلى زمان موسى إلا موسى، والمراد من الراسم هو عيسى ؛ لأنه بعد موسى إلى زمان عيسى ما جاء صاحب شريعة إلا عيسى، وبعدهما ماجاء صاحب شريعة إلا محمد. فعلم أن المراد من قول يعقوب فى آخر الأيام هو نبينا محمد عليه السلام ؛ لأنه فى آخر الزمان بعد مضى حكم الحاكم والراسم ماجاء إلا سيدنا محمد عليه السلام .

ويدل عليه أيضا قوله (حتى يجيء الذى له ، أى الحكم، بدلالة مساق الآية وسياقها ، وأما قوله (وإليه تجتمع الشعوب) فهى علامة صريحة ودلالة واضحة على أن المراد منها هو سيدنا (محمد) لأنه ما اجتمع الشعوب إلا إليه، وإنما لم يذكر الزبور، لأنه لا أحكام فيه، وداود النبى تابع لموسى ، والمراد من خبر يعقوب هو صاحب الأحكام. انتهى كلامه بلفظه.

أقول: إنما أراد من الحاكم موسى عليه السلام ؛ لأن شريعته جبرية انتقامية، ومن الراسم عيسى عليه السلام، لأن شريعته ليست بجبرية ولا انتقامية. وإن أريد من القضيب السلطة الدنيوية، ومن المدبر الحاكم الدنيوى ـ كما يفهم من رسائل القسيسين من فرقة بروتستانت ومن بعض تراجمهم ـ فلا يصح أن يراد بشيلوه مسيح اليهود كما هو مزعومهم، ولا عيسى عليه السلام كما هو مزعوم النصارى .

أما الأول: فظاهر؛ لأن السلطة الدنيوية والحاكم الدنيوى زالا من آل يهوذا من مدة هى أزيد من ألفى سنة من عهد بخت نصر، ولم يسمع إلى الآن حسيس مسيح اليهود.

وأما الثانى: فلأنهما زالا من آل يهوذا أيضا قبل ظهور عيسى عليه السلام بمقدار ستمائة سنة من عهد بخت نصر، وهو أجلى بنى يهوذا إلى بابل، وكانوا فى الجلاء ثلاثا وستين سنة لا سبعين كما يقول بعض علماء بروتستانت تغليظا للعوام ـ كما عرفت فى الفصل الثالث من الباب الأول ـ ثم وقع عليهم فى عهد « أنتيوكس» ما وقع فإنه عزل «أونياس» حبر اليهود وباع منصبه لأخيه «ياسون» بثلمائة وستين وزنة ذهب يقدمها له خراجا كل سنة، ثم عزله وباع ذلك لأخيه «مينالاوس» بستمائة وستين وزنة، ثم شاع خبر موته فطلب «ياسون» أن يسترد لنفسه الكهنوت، ودخل أورشليم بألوف من الجنود، فقتل كل من كان يظنه عدوا له ـ وهذا الخبر كان كاذبا ـ فهجم «أنتيوكس» على أورشليم وامتلكها ثانية فى سنة ١٧٠ قبل ميلاد المسيح وقتل من أهلها أربعين ألفا، وباع مثل ذلك عبيدا .

وفى الفصل العشرين من الجزء الثانى من مرشد الطالبين فى بيان الجدول التاريخى في الصفحة ٤٨١ من النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٢ من الميلاد (أنه نهب أورشليم وقتل ثمانين ألفا) انتهى . وسلب ماكان فى الهيكل من الأمتعة النفسية التى كانت قيمتها ثمانمائة وزنة ذهب، وقرب خنزيرة وقودا على المذبح للإهانة، ثم رجع إلى أنطاكية وأقام فيلبس أحد الأرذال حاكما على اليهودية.

وفى رحلته الرابعة إلى مصر أرسل « آبولوينوس » بعشرين ألفا من جنوده، وأمرهم أن يخرجوا أورشليم ويقتلوا كل من فيها من الرجال، ويسبوا النساء والصبيان، فانطلقوا إلى هناك، وبينما كان الناس فى المدينة مجتمعين للصلاة يوم السبت هجموا عليهم على غفلة، فقتلوا الكل، إلا من أفلت إلى الجبال أو اختفى فى المغاور، ونهبوا أموال المدينة وأحرقوها ، وهدموا أسوارها، وخربوا منازلها ، ثم ابتنوا لهم من بسائط ذلك الهدم قلعة حصينة على جبل أكرا، وكانت العساكر تشرف منها على جميع نواحى الهيكل ، ومن دنا منهم يقتلونه، ثم أرسل أنتيوكس أثانيوس ليعلم اليهود طقوس عبادة الأصنام اليونانية، ويقتل كل من لا يمتثل ذلك الأمر، فجاء أثانيوس إلى أورشليم،وساعده على ذلك بعض اليهود الكافرين، وأبطل الذبيحة اليومية، ونسخ كل طاعة للدين اليهودى عموما وخصوصا، وأحرق كل ما وجده من نسخ وكتب العهد العتيق بالفحص التام ، وكرس الهيكل للمشترى، ونصب صورة ذلك على مذبح اليهود، وأهلك كل من وجده مخالفا، أمر أنتيوكس، ونجا متاثياس الكاهن مع أبنائه الخمسة فى هذه الداهية، وفروا إلى وطنهم مودين فى سبط دان، فانتقم من هؤلاء الكفار انتقاما ما قدروا عليه على استطاعته، كما هو مصرح به فى التواريخ، فكيف يصدق هذا الخبر على عيسى عليه السلام ؟ !

وإن قالوا إن المراد ببقاء السلطنة الحكومة امتيازا لقوم كما يقول بعضهم الآن، قلنا: هذا الأمر كان باقيا إلى ظهور محمد ﷺ وكانوا فى أقطار العرب ذوى حصون وأملاك غير مطيعين لأحد، مثل يهود خيبر وغيرهم، كما تشهد به التواريخ، وبعد ظهور محمد ﷺ ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وصاروا فى كل إقليم مطيعين للغير ـ فالأليق أن يكون المراد بشيلوه النبى ﷺ لامسيح اليهود ولا عيسى عليه السلام.

قلت: وقد أطال صاحب المنار فى نقل البشارات من الزبور والأناجيل مع التعليق عليه(١) وحسبنا هذا القدر من بشارات التوراة.

---

(١) انظر : المرجع السابق : ٢٦٥ ـ ٣٠٠ .

رواية البخارى وغيره لصفات النبى محمد ﷺ فى التوراة :

وحتى لا يعترض أحد على بشارات التوراة من حيث السند والمتن. فإننا نذكر ما رواه البخارى وغيره عن عبد اللّه بن عمرو رضى اللّه عنهما، أن هذه الآية التى فى القرآن:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ ﴾[1].

قال فى التوراة: يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وحرزا للأميين، أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولاسخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه اللّه حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا اللّه، فيفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما . وقلوبا غلفا » [2] .

وفى رواية للدارمى، قال كعب :

نجده مكتوبا، محمد رسول اللّه ﷺ ، لا فظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، وأمته الحمادون، يكبرون اللّه عز وجل على كل نجد، ويحمدونه فى كل منزلة، ويتأزرون على أنصافهم، ويتوضؤون على أطرافهم، مناديهم ينادى فى جو السماء ، صفهم فى القتال وصفهم فى الصلاة سواء ، لهم بالليل دوى كدوى النحل، ومولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وملكه بالشام [3] .

قال ابن حجر [4] : والملة العوجاء: أى ملة العرب، ووصفها بالعوج لما دخل فيها من عبادة الأصنام، والمراد بإقامتها: أن يخرج أهلها من الكفر إلى الإيمان.

والأميون هم العرب [5] .

---

(١) الأحزاب : ٤٥.

(٢) البخارى : ٦٥ ـ التفسير (٤٨٣٨) وانظر: الأدب المفرد : ٣٨ ـ ٣٩ ، وأحمد: ١٧٤:٢، وابن سعد فى الطبقات:: ١: ٨٨:٢، والدارمى: ٤:١ وما بعدها، والطبرى فى التفسير:٩: ٨٣ ووقع فيه: عبد العزيز بن سلمة، وهو خطأ ناسخ أو طابع ؛ لأنه عبد العزيز بن أبى سلمة: انظر: أحمد ١١٤:١٠ ـ ١١٦ (٦٦٢٢) تحقيق أحمد شاكر، وابن كثير فى التفسير : ٣ : ٤٩٦ ـ ٤٩٧ وزاد نسبته لا بن أبى حاتم، والسيوطى فى الدر المنثور:١٣١:٣ وزاد نسبته للبيهقى فى الدلائل .

(٣) الدارمى: ٤:١ ـ ٥. (٤) فتح البارى : ٤ : ٣٤٣. (٥) المرجع السابق : ٨: ٥٨٦ .

أشـهر أسـمائه ﷺ :

وحسبنا بعد ذلك أن نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ ﴾ (١) .

وإيذاء بنى إسرائيل لموسى ــ وهو منقذهم من فرعون وملئه، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم ــ إيذاء متطاول، متعدد الألوان، (٢) وجهاده فى تقويم اعوجاجهم جهاد مضن عسير شاق.

وهناك صور شتى ــ غير ماسبق ــ من صور هذا الإيذاء وذلك العناد.. حيث كانوا يتسخطون على موسى عليه السلام، وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم، ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنون بذلتهم له ! فكانوا يقولون له لائمين متبرمين:

﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ (٣) .

كأنهم لا يرون فى رسالته خيرا، أو كأنما يحملونه تبعة هذا الأذى الأخير!

وما كاد ينقذهم من ذل فرعون باسم الله الذى أنقذهم من فرعون وأغرقه وهم ينظرون.. حتى قالوا ــ كما سبق ــ إلى عبادة فرعون وقومه :

﴿ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ (٤) .

وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح، حتى أضلهم السامرى :

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ۝٨٨ ﴾ (٥) .

ثم جعلوا يتسخطون على طعامهم فى الصحراء : المن والسلوى . فقالوا :

﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ (٦) .

---

(١) الصف : ٥ ــ ٦. (٢) فى ظلال القرآن : ٦: ٣٥٥٥ بتصرف . (٣) الأعراف: ١٢٩ .
(٤) الأعراف : ١٣٨ . (٥) طه : ٨٨ . (٦) البقرة : ٦١ .

وفى حادث البقرة التى كلفوا ذبحها ظلوا يماحكون ويتعللون ويسيئون الأدب مع نبيهم وربهم، وهم يقولون:

﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾[1].

﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾[2].

﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾[3].

﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾[4].

ثم طلبوا يوم عطلة مقدسا، فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه.

وأمام الأرض المقدسة التى بشرهم الله بدخولها وقفوا متخاذلين يصعرون خدهم فى الوقت ذاته لموسى :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) ﴾[5].

فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع تبجحوا وكفروا » :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾[6].

ذلك إلى إعنات موسى بالأسئلة والاقتراحات و العصيان والتمرد، مما يطول الحديث فيه..

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم فى عتاب ومودة :

﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾

وهم كانوا يعلمون عن يقين.. إنما هى لهجة العتاب والتذكير..

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعد ما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة:

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

---

(١) البقرة: ٦٨. (٢) البقرة: ٧٩ . (٣) البقرة: ٧٠ .

(٤) البقرة: ٧١ . (٥) المائدة: ٢٢. (٦) المائدة : ٤٤ .

وبهذا انتهت قوامتهم على دين اللّه، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر، وهم على هذا الزيغ والضلال ..

ثم جاء عيسى ابن مريم.. جاء ليقول لبنى إسرائيل :

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ﴾

فى هذه الصيغة التى تصور حلقات الرسالة المترابطة يسلم بعضها إلى بعض، وهى متماسكة فى حقيقتها، واحدة فى اتجاهها، ممتدة من السماء إلى الأرض، حلقة بعد حلقة فى السلسلة الطويلة المتصلة.. وهى الصورة اللائقة بمنهج الحق، فهو منهج واحد فى أصله، متعدد فى صوره، وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها، ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة، حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلى والشعورى، فتجىء الحلقة الأخيرة فى الصورة الأخيرة كاملة شاملة، تخاطب العقل الراشد، فى ضوء تلك؛ التجارب، وتطلق هذا العقل يعمل فى حدوده ، داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان فى جملته، المتفق مع طاقاته واستعداداته.

وتطالعنا البشارة :

﴿ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ﴾

ويروى الشيخان وغيرهما عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه، أن النبى ﷺ قال :

« لى خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو اللّه بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » (١) .

وفى رواية لمسلم عن أبى عبيدة، عن أبى موسى الأشعرى قال: كان رسول اللّه ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء فقال (٣) :

« أنا محمد، وأحمد، والمقفّى، والحاشر، ونبىُّ التوبة ونبىُّ الرحمة » .

قال ابن القيم : الفرق بين محمد وأحمد من وجهين :

---

(١) البخارى: ٦١ ـ المناقب (٣٥٣٢)، ٦٥ ـ التفسير (٤٨٩٦) ـ ، ومسلم: ٤٣ ـ الفضائل ١٢٤، ١٢٥ (٢٣٥٤)، ومالك: ٦١ ـ أسماء النبى ﷺ (١) والترمذى ٤٤ ـ الأدب (٢٨٤٠) .

(٢) مسلم : ٤٣ ـ الفضائل ١٢٦ (٢٣٥٥) .

أحدهما : أن محمدا هو المحمود حمدا بعد حمد، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه. وأحمد أفعل تفضيل من الحمد، يدل على أن الحمد الذى يستحقه أفضل مما يستحقه غيره. فمحمد زيادة حمد فى الكمية، وأحمد زيادة فى الكيفية، فيحمد أكثر حمد، وأفضل حمد حمده البشر.

والوجه الثانى : أن محمدا هو المحمود حمدا متكررا ـ كما تقدم ـ وأحمد الذى حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره. فدل أحد الاسمين ـ وهو محمد ـ على كونه محمودا .

ودل الاسم الثانى ـ وهو أحمد ـ على كونه أحمد الحامدين لربه. وهذا هو القياس، فإن أفضل التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لا يبنيان إلا من فعل الفاعل، لا من فعل المفعول، ذهابا إلى أنهما إنما يصاغان من الفعل اللازم لا المتعدى، ونازعهم آخرون وجوزوا بناءهما من الفعل الواقع على المفعول، لقول العرب: «ما أشغله بالشىء».

إلى أن قال: والمقصود أنه ﷺ سمى محمدا وأحمد ؛ لأنه يحمد أكثر ما يحمد غيره، وأفضل مما يحمد غيره. فالاسمان واقعان على المفعول، وهذا هو المختار. وذلك أبلغ فى مدحه، وأتم معنى. ولو أريد به اسم الفاعل لسمى « الحماد» وهو كثير الحمد، كما سمى محمدا، وهو المحمود كثيرا. فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمدا لربه. فلوا كان اسمه باعتبار الفاعل، لكان الأولى أن يسمى حمادا، كما أن اسم أمته الحمادون .

وأيضا فإن الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله المحمودة التى لأجلها استحق أن يسمى محمدا وأحمد، فهذا الذى يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة ، ويحمده أهل السموات وأهل الأرض. فلكثرة خصائله التى تفوت عد العادين سمى باسمين من أسماء الحمد، يقتضيان التفضيل والزيادة فى القدر والصفة [(١)] .

تلك أشهر أسماء النبى ﷺ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك، اعتنى بجمعها الحافظان: أبو بكر العربى، وأبو القاسم بن عساكر، وأفرد الناس فى ذلك مؤلفات. حتى رام بعضهم أن يجمع له عليه الصلاة والسلام ألف اسم، وأما الفقيه أبو بكر بن العربى المالكى شارح الترمذى، فإنه ذكر من ذلك أربعة وستين اسما [(٢)].

---

(١) تفسير القاسمى : ١٦ : ٥٧٨٩ ـ ٥٧٩٠.

(٢) السيرة النبوية: ابن كثير: ١٨٣ ـ ١٨٤.

طبيعة أهل الكتاب :

ولقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل، وحاربوه بشتى الوسائل الطرق حربا شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم..

حاربوه بالاتهام :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بهذا الدين:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ۝٩ ﴾[1].

وحاربوه بالدس والوقيعة داخل المعسكر الإسلامي، للإيقاع بين المهاجرين والأنصار في المدينة، وبين الأوس والخزرج من الأنصار..

وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة، ومع المشركين تارة..

وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين، كما وقع في غزوة الأحزاب..

وحاربوه بالإشاعات الباطلة، كما جرى في حادث الإفك.. ثم ماجرى في أيام عثمان ..

وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التي دسوها، حين عجزوا عن الوضع الكذب في القرآن الكريم ..

ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى هذه اللحظة الحاضرة . فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام، وظلتا تغيران عليه أو تؤلبان عليه في غير هوادة ولا هدنة في جيل من الأجيال..

حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق..

وحاربوه في الأندلس والمغرب..

وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حربا شعواء، حتى مزقوها وقسموا

---

(١) الصف: ٧ ـ ٩.

تركة ما كانوا يسمونه «الرجل المريض» واحتاجوا أن يزيفوا أبطالا مزيفين فى أرض الإسلام يعملون لهم فى تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام. فلما أرادوا تحطيم «الخلافة» والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامى صنعوا هنالك «بطلا» ونفخوا فيه، وتراجعت جيوش الحلفاء التى كانت تحتل الأستانة أمامه، لتصنع منه بطلا فى أعين الخفافيش، يستطيع إلغاء الخلافة، وإلغاء اللغة العربية، وفصل تركيا عن المسلمين، وإعلان دوله مدنية لاعلاقة لها بالدين! وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة، كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية فى بلد من بلاد المسلمين:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ⑧ ﴾

وهذا النص القرآنى يعبر عن حقيقة، ويرسم فى الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء! فقد كانوا يقولون بأفواههم:

﴿ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

وهم يدسون ويكيدون، محاولين القضاء على هذا الدين القيم، وهى صورة بائسة، وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم الضعاف المهازيل:

﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

وصدق الله وعده..أتم نوره فى حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعية من المنهج الحق المختار..

صورة ذات معالم واضحة، وحدود مرسومة تترسمها الأجيال، لا نظرية فى بطون الكتب، ولكن حقيقة فى عالم الواقع..

وأتم نوره، فأكمل للمسلمين دينهم، وأتم عليهم نعمته، ورضى لهم الإسلام دينا يحبونه، ويجاهدون فى سبيله.. فتمت حقيقة الدين فى القلوب وفى الأرض سواء..

وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين. وتنبض وتنتفض قائمة ـ على الرغم من كل ما وجه إلى الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد. لأن نور الله لايمكن أن تطفئه الأفواه، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد فى أيدى العبيد! وإن خيل للطغاة البغاة الجبارين، وللأبطال المصنوعين على أيدى أهل الكتاب ومن شايعهم أنهم بالغوا الهدف البعيد!

لقد جرى قدر اللّٰه أن يظهر هذا الدين، وإن كره اليهود ومن على شاكلتهم، فكان من الحتم أن يكون :

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾

وشهاده اللّٰه لهذا الدين بأنه «الهدى ودين الحق» هى الشهادة وهى كلمة الفصل التى ليس بعدها زيادة.. ولقد تمت إرادة اللّٰه فظهر هـذا الدين على الدين كله.. ظهر فى ذاته كدين، فما يثبت له دين آخر فى حقيقته وفى طبيعته.

فأما الوثنية فليست فى شىء فى هذا المجال.

وأما الكتابية فهذا الدين هو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها، ثم إنها قد شوهت وحرفت ـ كما أسلفنا ـ وزيد عليها ما ليس منها، ومزقت من أطرافها، وانتهت لحال لا تصلح معه لشىء من قيادة الحياة. فوق أنها أساسا لم تشمل كل مطالب الحياة أبدا، لأنها جاءت فى تقدير اللّٰه لأمد محدود!

فهذا تحقيق وعد اللّٰه من ناحية حقيقة هذا الدين. فأما من ناحية واقع الحياة، فقد صدق وعد اللّٰه، حيث ظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله، فدانت له معظم الرقعة المعمورة فى الأرض فى مدى قرن من الزمان. ثم زحـف زحفا سليما بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا فى إبان الحركات الجهادية الأولى..

وما يزال يمتد بنفسه ويمتد.. منذ أن قضت الصهيونية العالمية ومن على شاكلتها على الخلافة على يدى البطل الذى صنعوه! وعلى الرغم من كل ما يرصد فى أرجاء الأرض من حرب وكيد، ومن تحطيم للحركات الناهضة فى كل بلد من بلاد الإسلام على أيدى أبطال آخرين مزيفين! من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء!

وما تزال لهذا الدين القيم أدوار فى تاريخ البشرية يؤديها.. ظاهرا بإذن اللّٰه على الدين كله، تحقيقا لوعد اللّٰه الذى لا تقف له جهود العبيد المهازيل مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل!

ولقد كانت تلك الآيات حافزا للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التى اختارهم اللّٰه لها، وهم يواجهون كيد أهل الكتاب،. وكانت تطمينا لقلوبهم وهم ينفذون قدر اللّٰه

فى إظهار الدين القيم الذى أراده ليظهر، وإن هم إلا أداة.. وما تزال حافزا مطمئنا لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ربهم.. وستظل تبعث فى الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر، حتى يتحقق وعد اللّٰه فى واقع الحياة بإذن اللّٰه، ونبصر هزيمة اليهود ومن على شاكلتهم .

الفصل الثانى

الترغيب والترهيب

تمهيد ـ مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن ـ عدالة القرآن فى أحكامه عليهم ـ «يؤتون أجرهم مرتين» ـ مقابلة ـ إباحة طعامهم والزواج من المحصنات من نسائهم ـ إشادة ومودة ـ إنذار بالعقوبة ـ بغى وحسد.

تمهـــيد :

إن دعوة اللّه عز وجل التى حملها نوح والرسل من بعده، حتى وصلت إلى خاتم النبيين صلوات اللّه وتسليماته عليهم أجمعين، لهى دعوة واحدة من عند اللّه وحده [1]، ذات هدف واحد، هو رد البشرية الضالة إلى ربها، وهدايتها إلى طريقه، وتربيتها بمنهاجه..

وإن المؤمنين باللّه ورسوله ، لا يفرقون بين اللّه ورسله ، لإخوة للمؤمنين بسائر الرسالات: كلهم أمة واحدة تعبد إلها واحدا..

وإن البشرية فى جميع أجيالها لصنفان اثنان:

صنف المؤمنين وهم حزب اللّه، وحملة هذه الأمانة الكبرى، وورثة هذا الخير الموصول، وكل جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة فى تلك السلسلة الطويلة الممتدة على مدار القرون.

وصنف المشاقين للّه، وهم حزب الشيطان، بغض النظر عن تطاول الزمان وتباعد المكان..

هذه هى الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التى يقوم عليها الإسلام .. هذه الحقيقة التى ترفع العلاقات بين البشر عن أن تكون مجرد علاقة دم، أو نسب، أو جنس، أو وطن، أو تبادل تجارة.. ترفعها عن هذا كله لتصلها بالله، ممثلة فى عقيدة تذوب فيها الأجناس والألوان، وتختفى فيها القوميات والأوطان، ويتلاشى فيها الزمان والمكان. ولا تبقى إلا العروة الوثقى فى الخالق الرحمن .

مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن :

وفى مجال دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان باللّه ورسله يرشد القرآن المسلمين إلى أمثل الطرق [2]. فى محجتهم من حيث الأسلوب والموضوع.

فمن حيث الأسلوب أوصى بأن يكون أسلوبنا معهم فى الجدال هادئا حسنا، ماداموا غير متعنين ظالمين.

ومن حيث الموضوع أوصى بأن يكون جدالنا معهم قائما على إقناعهم بأن دين اللّه

---

(١) فى ظلال القرآن :٥ :٢٧٤٥ بتصرف.

(٢) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة :١: ١٦٠ بتصرف .

واحد، وأن إلهنا وإلههم واحد، وإننا لانبغى منهم إلا أن يتبعوا الحق الذى اتبعناه، وأن يتركوا العناد والجحود:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[1].

واستثنى القرآن الكريم من هذه المعاملة الحسنة الذين ظلموا من أهل الكتاب، فانحرفوا عن التوحيد الذى هو قاعدة العقيدة الباقية [2]، وأشركوا بالله وأخلوا بمنهجه فى الحياة، فهؤلاء لا جدال معهم ولا محاسنة.. وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسلام عندما قامت لهم دولة فى المدينة.

وإن بعضهم ليفترى على رسول الله ﷺ أنه حاسن أهل الكتاب وهو فى مكة مطارد من المشركين. فلما أن صارت له قوة فى المدينة حاربهم، مخالفا كل ماقاله فيهم وهو فى مكة!

وهو افتراء ظاهر يشهد هذا النص المكى عليه. فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى مقصورة على من لم يظلم منهم، ولم ينحرف عن دين اللّه، وعن التوحيد الخالص الذى جاءت به جميع الرسالات :

﴿ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

وإذن فلا حاجة إلى الشقاق و النزاع، والجدل والنقاش، وكلهم يؤمنون بإله واحد، والمسلمون يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إلى من قبلهم، وهو فى صميمه واحد، والمنهج الإلهى متصل الحلقات..

عدالة القرآن فى أحكامه عليهم :

وقد نعت القرآن الكريم أهل الكتاب، بصفة عامة،[3] بنعوت كثيرة، كغلوهم فى الدين، واتباعهم طريق الباطل، ودمغ اليهود منهم بصفة خاصة بكثير من الرذائل كقتلهم لأنبياء الله، وتحريفهم للكلم عن مواضعه، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وعدم تناهيهم عن

---

(١) العنكبوت : ٤٦.	(٢) فى ظلال القرآن: ٥: ٢٧٤٥ بتصرف.

(٣) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ١ : ١٥٦ بتصرف .

منكر فعلوه.. إلى غير ذلك من الصفات القبيحة التى وصفهم بها ـ كما عرفنا وكما سيأتى ـ بسبب فسوقهم وفجورهم، ولكن المتتبع لآيات القرآن يرى أنه فرق بين صالحيهم وطالحيهم ، وحكم على كل فريق منهم بما يستحقه.. ملتزما فى ذلك طريق العدالة والصدق..

ومن هذه الآيات قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [1].

لقد تضمن ميثاق الله معهم [2] : ألا يعبدوا إلا الله.. القاعدة الأولى للتوحيد المطلق.. وتضمن الإحسان إلى الوالدين وذى القربى واليتامى والمساكين.. وتضمن خطاب الناس بالحسنى ، وفى أولها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. كذلك تضمن فريضة الصلاة وفريضة الزكاة.. وهذه هى فى مجموعها قواعد الدين وتكاليفه.. ومن ثم تتقرر حقيقتان :

الأولى : وهى وحدة دين الله، وتصديق الدين القيم لما قبله فى أصوله..

الثانية: هى مقدار التعنت فى موقف اليهود من هذا الدين القيم، وهو يدعوهم لمثل ما عاهدوا الله عليه، وأعطوا عليه الميثاق.

وهنا ـ فى هذا الموقف المخجل ـ يتحول السياق من الحكاية إلى الخطاب، فيوجه القول إلى بنى إسرائيل. وكان قد ترك خطابهم والتفت إلى المؤمنين. ولكن توجيه الخطاب إليهم هنا أخزى وأنكى :

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾

وهكذا تتكشف بعض أسرار الالتفات فى سياق القصص وغيره فى هذا القرآن!

وقوله « إلا قليلا منكم » استثناء لبعض من كانوا فى زمن موسى عليه السلام ، أو فى كل زمن. فإنه لا تخلو أمة من الأمم من المخلصين الذين يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم [3] والحكمة فى ذكر الاستثناء هنا عدم بخس المحسنين حقهم، وبيان

---

(١) البقرة : ٨٣ . (٢) فى ظلال القرآن: ١ : ٨٧ بتصرف . (٣) تفسير القاسمى : ٢ : ١٨١ بتصرف .

أن وجود قليل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب الإلهى إذا فشا فيها المنكر، وقل المعروف. « وأنتم معرضون » عادتكم الإعراض عن الطاعة ومراعاة حقوق الميثاق.

ويستمر السياق يوجه الخطاب إلى بنى إسرائيل، وهو يعرض عليهم متناقضات موقفهم من ميثاقهم مع الله:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾[1].

جاء فى المنار[2] : كان التذكير فى الآية السابقة بأهم المأمورات التى أخذ الله تعالى الميثاق على بنى إسرائيل بها،بعد توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، وبيان أنهم نقضوا ميثاق اللّه تعالى، ولم يأتمروا بها.. وفى هاتين الآيتين التذكير بأهم المنهيات التى أخذ الله الميثاق عليهم باجتنابها، وبيان أنهم نقضوا ميثاقه، ولم ينتهوا عنها، وقد قال فى الآية السابقة:« وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل » أى الذين نزلت عليهم التوراة، ثم التفت إلى خطاب الحاضرين فى زمن التنزيل فقال : « ثم توليتم » وقال هاهنا : « وإذ أخذنا ميثاقكم » تماديا فى سياق الالتفات، وتذكيرا بوحدة الأمة واعتبارها كالشخص الواحد، ويصيب الخلف أثر ما كان عليه السلف من خير وشر، ما استنوا بسنتهم، وجروا على طريقتهم، كما تؤثر أعمال الشخص السابقة فى قواه النفسية، وطبع ملكاته، بعد انحلال مادة تلك الأعضاء التى ابتدأت العمل، وحلول مواد أخرى فى محلها، تتمرن على مثل ذلك العمل ، فما يفعله الشخص فى صغره يبقى أثره فى قواه فى كبره، فكذلك الأمم.

وقد أورد النهى عن سفك بعضهم دم بعض، وإخراج بعضهم بعضا من ديارهم وأوطانهم بعبارة تؤكد معنى وحدة الأمة ، وتحدث فى النفس أثرا شريفا يبعثها على الامتثال، إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر، فقال: «لا تسفكون دماءكم» فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه، حتى إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر

---

(١) البقرة: ٨٤ ـ٨٦ .　　　　(٢) تفسير المنار: ١: ٣٧١ بتصرف.

بيده، وقال: ﴿ **ولا تخرجون أنفسكم من دياركم** ﴾ على هذا النسق.. وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن الكريم ..

والعبارة عندهم لا تطاول هذه العبارة التى تدهش صاحب الذوق السليم، والوجدان الرقيق، فهذا إرشاد حكيم طلع من ثنايا الأحكام، يهدى إلى أسرارها، ويومئ إلى مشرق أنوارها، من تدبره علم أنه لاقوام للأمم إلا بالتحقق بما تضمنته هذه الحكم، وشعور كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم. لا فرق فى الاحترام بين الروح التى تجول فى بدنه والدم الذى يجرى فى عروقه وبين الأرواح والدماء التى يحيا بها إخوانه الذين وحدت بينه وبينهم الشريعة العادلة والمصالح العامة. هذا هو الوجه الوجيه فى الآية، وقيل: معناها لا ترتكبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل والإخراج من الديار..

وقوله تعالى: ﴿ **ثم أقررتم وأنتم تشهدون** ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه يخاطبهم بما كان فيه من اعتراف سلفهم بالميثاق وقبوله، وشهودهم الوحى الذى نزل به على موسى عليه الصلاة والسلام.

وثانيهما: أن المراد الحاضرون أنفسهم، أى أنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقررتم بهذا الميثاق وتعتقدونه فى قلوبكم، ولا تنكرونه بألسنتكم، بل تشهدون به وتعلنونه، فالحجة ناهضة عليكم به.

ثم بعد بيان هذا الميثاق وتسجيله عليهم بأنهم يعرفونه ولا ينكرون منه شيئا، ذكر نقضهم إياه فقال: « ثم أنتم هؤلاء » الحاضرون الشاهدون المشاهدون: « تقتلون أنفسكم » أى يقتل بعضكم بعضا، كما كان يفعل من قبلكم، مع اعترافكم بأن الميثاق مأخوذ عليكم كما كان مأخوذا عليهم:

كان بنو قينقاع من اليهود أعداء بنى قريظة إخوانهم فى الدين، وكان الأولون حلفاء الأوس، والآخرون مع بنى النضير حلفاء الخزرج. ثم بقى بنو النضير مع الخزرج، وحالف بنو قريظة الأوس، وكان الأوس والخزرج قبل الإسلام أعداء، وكانوا يقتتلون، ومع كل حلفاؤه، فهذا ما احتج الله تعالى على بنى إسرائيل بقتلهم أنفسهم فى عصر التنزيل.

ويتبع هذا القتال الأسر، ومن لوازمة الإخراج من الديار، ولذلك قال:

﴿ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ ﴾

فالقرآن يصرح هنا وفى آيات كثير ـ كما يقول الشيخ محمد عبده ـ بأن من يقدم على الذنب لا تضطرب نفسه قبل إصابته، ولا يتألم ويندم بعد وقوعه فيرجع إلى الله تائبا، بل يسترسل فيه بلا مبالاة بنهى الله تعالى عنه وتحريمه له، فهو كافر به ؛ لأن المؤمن بأن هذا الشيء حرمه الله تعالى، المصدق بأنه من أسباب سخطه وموجبات عقوبته، لا يمكن أن يكون لإيمان قلبه أثر فى نفسه، فإن من الضروريات أن لكل اعتقاد أثرًا فى النفس، ولكل أثر فى النفس تأثيرًا فى الأعمال.

ويقول الشيخ محمد الخضر حسين [١] : وإنما سمى الله سبحانه عصيانهم بالقتل والإخراج من الديار كفرا، لأن من عصى أمر الله تعالى بحكم عملى معتقدا : أن الحكمة والصلاح فيما فعله، بحيث يتعاطاه دون أن يكون فى قلبه أثر من التحرج، ودون أن يأخده ندم وحزن من أجل ما ارتكب، فقد خرج بهذه الحالة النفسية عن سبيل المؤمنين، وفى الآيه الكريمة دليل واضح على أن الذى يؤمن ببعض ما تقرر فى الدين بالدليل القاطع ويكفر ببعضه، يدخل فى زمرة الكافرين، لأن الإيمان كل لا يتجزأ.

وفى المنار [٢] : سمى الله الذنب هنا كفرا، لما تقدم، وتوعد عليه بوعيد الكفر فقال:

﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾

أوعدهم اللّه تعالى كما أوعد من قبلهم ومن بعدهم بأنهم يعاقبون على نقض ميثاق الدين الذى يجمعهم، والشريعة التى هى مناط وحدتهم، ورباط جنسيتهم، بالخزى العاجل، والعذاب الآجل، وقد دل المعقول، وشهد الوجود، بأنه ما من أمة فسقت عن أمر ربها واعتدت حدود شريعتها إلا وانتكث فتلها، وتفرق شملها، ونزل بها الذل والهوان، وهو الخزى المراد، وهذة هى سنة الخليقة، ذكرها ليعتبر بها من صرفته الغفلة عنها.

وأما العذاب الآجل الذى عبر عنه بقوله:

﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ ﴾

فهو على كونه من عالم الغيب معقول المعنى، وهاد إلى حكمة عليا، ذلك أن النفوس البشرية إذا اختلت بفساد الأخلاق أمورها، وكثرت فى هذا العالم شرورها، حتى سلبت ما أعده الله تعالى لمن حافظوا على الحقيقة، واستقاموا على الطريقة، تكون جديرة بأن

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ٢ : ١٠٢ نقلا عن : مجلة لواء الإسلام : العدد ١١ السنة الثانية .

(٢) تفسير المنار : ١: ٣٧٤ بتصرف .

تسلب فى الآخرة ما أعده اللّه تعالى للأرواح العالية، وما وعد به أصحاب النفوس الزاكية، فإن سعادة الدار الدنيا لم تكن أجرا على أعمال بدنية، لا تتعلق بصلاح النفس فى خلق ولانية، وإنما هى ثمرة تزكية النفس التى يتوسل إليها بعمل الحس، فإذا كان هذا شأن سعادة الدنيا فكيف يكون نعيم الآخرة جزاء حركات جسدية، وهى الدار التى تغلب فيها الروحانية؟

وصدق الله العظيم :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠ ﴾[١].

هذا هو نقض الميثاق الذى يتهددهم عليه بالخزى فى الحياة الدنيا، [٢]. والعذاب الأشد فى الآخرة. مع التهديد الخفى بأن الله ليس غافلا عنه ولا متجاوزا :

﴿ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٨٥ ﴾

ثم يلتفت إلى المسلمين وإلى البشر جميعا، وهو يعلن حقيقتهم وحقيقة عملهم :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

وقصة شرائهم الحياة الدنيا فى هذه المناسبة: هى أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين فى حلف يقتضى مخالفة دينهم وكتابهم. فإن انقسامهم فريقين، وانضمامهم إلى حلفين، هى هى خطة اليهود التقليدية، فى إمساك العصا من الوسط، والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة، كلها من باب الاحتياط، لتحقيق بعض المغانم على أية حال، وضمانها فى النهاية، سواء انتصر هذا المعسكر أم ذاك! وهى خطة من لا يثق بالله، ولا يستمسك بميثاقه، ويجعل اعتماده كله على الدهاء، ومواثيق الأرض، والاستنصار بالعباد لا برب العباد.. والإيمان يحرم على أهله الدخول فى حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم، ويناقض تكاليف شريعتهم باسم المصلحة أو الوقاية، فلا مصلحة إلا فى اتباع دينهم، ولا وقاية إلا بحفظ عهدهم مع ربهم.. وهذا كله عقب قوله تعالى :

---

(١) الشمس : ٧ ــ ١٠ .   (٢) فى ظلال القرآن : ١ : ٨٨ بتصرف.

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾

إنها عدالة القرآن الكريم في أحكامه عليهم..

ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١).

قال ابن كثير (٢) : يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل على محمد، مع ما هم مؤمنين به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا، أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم..

وقال تعالى:

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٣).

وقال سبحانه:

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (٤).

وقال جل شأنه:

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (٥).

وقال تعالى:

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) ﴾ (٦).

---

(١) آل عمران: ١٩٩.
(٢) تفسير ابن كثير: ١: ٤٤٣ بتصرف.
(٣) البقرة: ١٢١.
(٤) الأعراف: ١٥٩.
(٥) آل عمران: ١١٣.
(٦) الإسراء: ١٠٧ ــ ١٠٩.

وهذه الصفات توجد فى اليهود ولكن قليلا، كما وجد فى عبد الله بن سلام وأمثاله ممن أسلم من أحبار اليهود..

﴿ يؤتون أجرهم مرتين ﴾

وقال جل شأنه:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ ﴾[1].

ويروى البخارى وغيره عن أبى بردة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال:

« ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران »[2].

يقول ابن حجر [3]: وقد ثبت أن الآية الموافقة لهذا الحديث وهى قوله تعالى:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾[4].

نزلت فى طائفة آمنوا منهم، كعبد الله بن سلام وغيره. ففى الطبرانى من حديث رفاعة القرظى قال: نزلت هذه الآيات فىَّ وفيمن آمن معى. وروى الطبرانى بإسناد صحيح عن على بن رفاعة القرظى قال: خرج عشرة من أهل الكتاب ــ منهم أبو رفاعة ــ إلى النبى ﷺ فآمنوا به فأوذوا فنزلت:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ ﴾[5].

الآيات، فهؤلاء من بنى إسرائيل، ولم يؤمنوا بعيسى، بل استمروا على اليهودية إلى أن آمنوا بمحمد ﷺ وقد ثبت أنهم يؤتون أجرهم مرتين.

وقد كتب النبى ﷺ ــ كما فى البخارى ومسلم [6] ــ من حديث أبى سفيان وفيه:

---

(١) القصص: ٥٢ ــ ٥٤.

(٢) البخارى: ٣ ــ العلم (٩٧) واللفظ له، ومسلم: ١ــ الإيمان ٢٤١ (١٥٤)، والنسائى: ٦: ١١٥، والترمذى (١١١٦)، والدارمى: ٢:١٥٤ ــ١٥٥، وأحمد: ٤:٤٠٢، ٤٠٥.

(٣) فتح البارى: ١: ١٩١. (٤) القصص: ٥٤. (٥) القصص: ٥٢.

(٦) البخارى: ١ ــ بدء الوحى (٦)، ومسلم: ٣٢ ــ الجهاد ٧٤ (١٧٧٣).

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين» .

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ (١) .

قال ابن حجر: واستنبط منه شيخنا شيخ الإسلام : أن كل من دان بدين أهل الكتاب كان في حكمهم في المناكحة والذبائح، لأن هرقل هو وقومه ليسو من بنى إسرائيل، وهم ممن دخل فى النصرانية بعد التبديل، وقد قال له ولقومه: «يأهل الكتاب» فدل على أن لهم حكم أهل الكتاب، خلافا لمن خص ذلك بالإسرائيليين، أو بمن علم أن سلفه ممن دخل فى اليهودية أو النصرانية قبل التبديل (٢) .

مقابلـــة :

وفى كتاب النبى ﷺ إلى هرقل دعوة منصفة من غير شك ..دعوة لا يريد بها خاتم النبيين ﷺ أن يتفضل على أهل الكتاب هو ومن معه من المسلمين (٣) : كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد .. لا يعلو بعضهم على بعض، ولا يتعبد بعضهم بعضا.. دعوة لا يأبها إلا متعنت مفسد، لا يريد أن يفيء إلى الحق القويم، والصراط المستقيم..

إنها دعوة إلى عباده الله وحده لا يشركون به شيئا .. لا بشرا ولا حجرا.. ودعوة إلى ألا يتخذ بعضهم بعضا دون الله أربابا.. لانبيا ولارسولا، فكلهم للهِ عبيد. إنما اصطفاهم الله للتبليغ عنه، لا لمشاركته فى الألوهية والربوبية:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ ﴾

إن أول ما يلازم حقيقة التوحيد أن تتوحد الربوبية، فتتوحد العبودية.. لا عبودية إلا لله.. ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.. فليس إلا لله تكون العبودية.. وليس إلا لله تكون الطاعة.. وليس إلا عن الله يكون التلقى.. التلقى فى التشريع، والتلقى فى القيم

---

(١) آل عمران : ٦٤. (٢) فتح البارى : ١:٣٨ – ٣٩.

(٣) فى ظلال القرآن : ١ : ٤٠٦ بتصرف.

والموازين.. والتلقى فى الآداب والأخلاق.. وإلا فهو الشرك أو الكفر، مهما اعترفت الألسن ذلك الاعتراف السلبى الذى لا ينشئ آثاره فى الحياة فى استسلام وطاعة واستجابة وقبول.

وإن هذا الكون بجملته لا يستقيم أمره، ولا يصلح حاله، إلا أن يكون هناك إله واحد، يدبر أمره:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1].

وما يقع الفساد فى الأرض كما يقع عندما تتعدد الآلهة فى الأرض، على هذا النحو الذى عرفناه – عند اليهود وغيرهم – ومن ثم كانت دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء.. إلى عبادة الله وحده:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

فإن أبوا عبادة الله وحده دون شريك .. و العبودية لله وحده دون شريك.. وهما المظهران اللذان يقرران موقف العبيد من الألوهية.. إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا قد رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا. وبمحمد ﷺ نبينا ورسولا..

وهذه المقابلة بين المسلمين ومن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، تقرر بوضوح حاسم من هم المسلمون.. المسلمون هم الذين يعبدون الله وحده، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله .. هذه هى خصيصتهم التى تميزهم من سائر الملل والنحل، وتميز منهج حياتهم من مناهج حياة البشر جميعا !

إن الإسلام هو التحرر المطلق من العبودية للعبيد.. والنظام الإسلامى هو وحده من بين سائر النظم الذى يحقق هذا التحرر..

إن الناس فى جميع النظم الأرضية يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله.. يقع هذا فى أرقى الديمقراطيات كما يقع فى أحط الديكتاتوريات سواء..

وفى النظام الإسلامى وحده يتحرر الإنسان من هذه الربقة، ويصبح حرا يتلقى التصورات والنظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين من منهج الحق..

---

(١) الأنبياء: ٢٢.

ويأتى الترهيب الرعيب لكل من لم يؤمن بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، وذلك فيما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«والذى نفسى بيده! لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار» (١) .

إباحة طعامهم والزواج من المحصنات من نسائهم :

ومن مظاهر سماحة الدين الإسلامى مع أهل الكتاب أنه أجاز أكل طعامهم وأحل ذبائحهم، والتعامل معهم، والزواج منهم:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ ﴾ (٢) .

إن الإسلام لا يكتفى بأن يترك لهم حريتهم الدينية (٣) ، ثم يعتزلهم، فيصبحوا فى المجتمع الإسلامى مجفوين معزولين أو منبوذين، إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية، والمودة، والمجاملة والخلطة . فيجعل طعامهم حلا للمسلمين، وطعام المسلمين حلا لهم كذلك.. ليتم التزاور والتضايف، وليظل المجتمع كله فى ظل المودة والسماحة.. ولسنا هنا فى مجال تفصيل القول فى ذلك حتى لا يطول بنا الحديث (٤) ..

وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم طيبات للمسلمين، ويقرن ذكرهن بذكر المحصنات من المسلمات .. وهى سماحة لم يشعر بها إلا أتباع الإسلام من بين سائر أتباع الملل والنحل !

فإن الكاثوليكى المسيحى ليتحرج من نكاح الأرثوذكسية، أو البروتستانتية، أو المارونية المسيحية! ولا يقدم على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة!

وهكذا يبدو أن الإسلام هو المنهج الوحيد الذى يسمح بقيام مجتمع عالمى، لا عزلة

---

(١) مسلم : ١ ـــ الإيمان ٢٤٠ (١٥٣) .

(٢) المائدة : ٥

(٣) فى ظلال القرآن : ٢ : ٨٤٨ بتصرف .

(٤) انظر تفسير الطبرى :٦ : ١٠٠ وما بعدها ، : ٦: ١٧٧ وما بعدها، والقرطبى :٦: ٧٥ وما بعدها . وابن كثير : ٢ : ١٩ ـــ ٢٠ .

فيه بين المسلمين وأهل الكتاب،ولا حواجز بينهم فيما يختص بالعشرة والسلوك..

أما الولاء فله حكم آخر يجيء في حينه إن شاء الله تعالى..

وشرط الحصانة الخلقية يدعونا إلى التريث والتروى عند اختيار شريكة الحياة ، ورفيقة العمر ، حتى يبلغ الزواج غايته ، ويحقق ثمرته .

ومن نافذة الحصانة الخلقية ، التى يطل منها المرء على زواج هانئ، يهدف حقا لتحقيق السكينة والمودة والرحمة نذكر اختلاف الآراء فى زواج المسلم من الكتابية..

وبادئ ذى بدء [1] نرى جمهور المسلمين على جواز الزواج بالكتابيات المحصنات، بيد أن لبعض الصحابة تقديرا للأمر جديرا بالتأمل والاعتبار..

من هؤلاء عمر وابن عباس رضى الله عنهما.

فأما عمر فقد كره ذلك فى الوقت الذى يكون فيه الخلق والسلوك منهن فى موضع الشك.

وقد روى الطبرى بسنده عن شقيق قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر: «خل سبيلها» فكتب إليه: «أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها»؟ فقال: لا أزعم أنها حرام ولكن أخشى أن تعطوا المومسات منهن [2].

قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح [3] .

وأما ابن عباس فقد احتاط للزواج من ناحية،ولصالح المجتمع من ناحية أخرى، فحرم الزواج من الكتابية إذا كانت عدوا أو موالية لعدو، وبهذا فرق بين الذمية والحربية. ولهذا الرأى وجاهته، فالزواج فى هذه الحال لا يحقق الأهداف التى شرعه الله عز وجل من أجلها، إذ كيف السكون إلى عدو أو جاسوس؟!

وكيف تكون المودة بين اثنين، أحدهما مؤمن بالله ورسوله والآخر يحاد الله ورسوله؟!

بل كيف تسود الرحمة بين الزوجين، ثم تسرى فى أوصال المجتمع من زواج لا يعدو أن يكون خنجرا مسددا للقضية الوطنية، ويتعرض الأبناء فيه ـ لاريب ـ لفتنة دينية ، أو صراع عقائدى حاد، بين هذين الأبوين ؟!

وقد روى الطبرى بسنده عن ابن عباس قال:

(١) منهج السنة فى الزواج : ٣٤٠وما بعدها بتصرف .

(٢) تفسير الطبرى : ٢: ٣٧٨. (٣) تفسير ابن كثير : ١: ٢٥٧.

من نساء أهل الكتاب من يحل لنا، ومنهم من لا يحل لنا، ثم قرأ:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[١].

فمن أعطى الجزية حل لنا نساؤه، ومن لم يعط الجزية لم يحل لنا نساؤه. قال الحكم: فذكرت ذلك لإبراهيم فأعجبه[٢].

وقد أورد أبو بكر الجصاص هذا الرأى ومال إلى ترجيحه، واحتج له فقال: ومما يحتج به لقول ابن عباس قوله تعالى:

﴿لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾[٣].

والنكاح يوجب المودة، يقول تعالى:

﴿خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾[٤].

ثم أضاف قوله:

فينبغى أن يكون نكاح الحربيات محظورا، لأن قوله تعالى: يوادون من حاد الله ورسوله إنما يقع على أهل الحرب، لأنهم فى حد غير حدنا[٥].

فى الوقت الذى رأى فيه ابن عمر رضى الله عنهما أن الكتابية مشركة، وذلك فيما رواه البخارى عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن نكاح النصرانية واليهودية قال: إن الله حرم المشركات على المؤمنين، ولا أعلم من الإشراك شيئا أكبر من أن تقول المرأة ربها عيسى، وهو عبد من عباد الله[٦].

وكان يرى أن آية البقرة:

﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾[٧].

---

(١) التوبة: ٢٩.

(٢) تفسير الطبرى:٩: ٥٨٨ تحقيق أحمد شاكر. والجصاص:٢: ٣٩٩ وقد أشار إليه ابن كثير فى التفسير دون أن ينسبه: ٢: ٢٠.

(٣) المجادلة: ٢٢.

(٤) الروم: ٢١.

(٥) أحكام القرآن: ٢: ٣٩٩.

(٦) البخارى: ٦٨ ـ الطلاق (٥٢٨٥).

(٧) البقرة: ٢٢١.

غير مخصوصة بآية المائدة:

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[1].

ولامنسوخة بها،فيراد بها النصارى واليهود. وهو مايصدق عليه إطلاق لفظ أهل الكتاب.

لم يكن ابن عمر يرى شيئا من هذا كما رأى كثيرون سواه.

وروى عنه أيضا: التوقف بين الآيتين دون أن يقطع برأى.

وقد روى أبو بكر الجصاص من طريق أبى عبيد، عن ميمون بن مِهران، قال: قلت لابن عمر: إنا بأرض يخالطنا فيها أهل الكتاب، أفننكح نساءهم، ونأكل طعامهم، قال فقرأ على آية التحليل وآية التحريم ، قال: قلت: إنى أقرأ ماتقرأ، أفننكح نساءهم ونأكل طعامهم؟ قال فأعاد على آية التحليل وآية التحريم.

أى أنه ـ كما ذكر الجصاص ـ لما رأى إحدى الآيتين تحلل والأخرى تحرم توقف ولم يقطع الإباحة[2] .

وعلى قدر موقف ابن عمر فى التحريم المطلق للكتابيات ـ كما روى البخاري ـ نجد رأيا مقابلا له يرى إباحة الكتابيات على الإطلاق .

ذلك هو رأى ابن جرير الطبرى وبعض المتقدمين، وقد أسسوا ذلك على أن المراد بالمحصنات: الحرائر مطلقا، ونص عبارة الطبرى:

فنكاح حرائر المسلمين وأهل الكتاب حلال للمؤمنين[3] ، كن قد أتين بفاحشة أو لم يأتين بفاحشة: ذمية كانت أو حربية، بعد أن تكون بموضع لا يخاف الناكح فيه على ولده أن يجبر على الكفر، بظاهر قول الله عز وجل :

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾

قال ابن كثير[4] : قيل: أراد بالمحصنات الحرائر دون الإماء حكاه ابن جرير عن مجاهد، وإنما قال مجاهد: المحصنات الحرائر، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه، ويحتمل أن يكون أراد بالحرة العفيفة، كما قال فى الرواية الأخرى عنه، وهو قول الجمهور ها هنا، وهو الأشبه، لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية، وهى مع ذلك غير عفيفة،

(١) المائدة : ٥ .

(٢) أحكام القرآن : ٢ : ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٣) تفسير الطبرى : ٦: ١٠٨ .

(٤) تفسر ابن كثير :٢: ٢٠ .

فيفسد حالها بالكلية، ويتحصل زوجها على ما قيل فى المثل: «حشفا وسوء كيلة» .

والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات العفيفات عن الزنا، كما قال الله تعالى:

﴿ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ [1] .

وعلى كل فنحن الآن فى منطقة التخير التى يفاضل فيها المرء بين أمرين، والتى يكون فيها ترغيب الشريعة فى أحدهما، وتنفيرها من الآخر[2] !

أو فى المنطقة الحرام التى يمنع فيها المؤمن أن يقترب من مرتع الكوافر أو الفواسق، ومجمع الغوانى! كى يختار إحداهن رفيقة حياته، وأم أبنائه وبناته!

وماذا فى هذه المنطقة سوى بيع الجسد، وضياع الشرف، وهوان الضمير؟ !

إن التى تبيع جسدها للطامع فى متعته. ألا تبيع وطنها للطامع فى ثروته؟ !

والتى تهون عندها عفتها .. كيف تصون لبلادها عزتها؟ !

والتى تداس بين يديها القيم.. أين هى من الخلق؟ وأين منها السلوك؟ وأبناؤها أىَّ لبان يرتضعون؟ !

أهذه هى التى تحفظ المرء فى نفسها وماله إذا غاب عنها، وتعينه على أمر الآخرة ، وتستأهل أن يعطيها على نفسه العهد الوثيق، والميثاق الغليظ؟ !

أم هى التى تعد للوطن الجندى والقائد، والعامل والعالم، والتى عناها حافظ إبراهيم حين قال :

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبا طيب الأعراق؟ !

كيف يتزوج المسلم مثل هذه على سنة الله ورسوله، مهما تكن ـ بزعمها ـ مسلمة، وكيف إذا كانت كتابية، بل كيف إن تكن عدوا أو مواليه لعدو؟ !

والله تعالى يقول :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ

---

(1) النساء : ٢٤ .   (2) منهج السنة فى الزواج : ٣٤٥ بتصرف .

﴿وَظَاهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [1].

فهل فى هذه المنطقة يسوغ قول ابن جرير ومن وافقه ؟ !

أين نحن إذا من قوله تعالى :

﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [2].

وقوله سبحانه :

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [3].

وأين نحن من قوله ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه: «**تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، وجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك** » [4].

وقوله ﷺ فيما رواه مسلم والنسائى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : « **الدنيا متاع . وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة** » [5].

بل كيف يمكن أن يوفق أولئك الذين يختارون من تلك المراعى الوبيئة بين هذا الزواج وبين ما اشترط المولى فى قوله:

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾

أن يكونوا به :

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾

إن الذى يتخطى هذه المنطقة ، وتعميه الثروة عن تتبع السنن اللاحب ، والنهج الوضىء فينكح إحدى هؤلاء، لا يكون قد أخذ من النكاح إلا صورته، التى تدرأ عنه الحد، وتدفع عنه التهمة، ولكنه لا يفتأ يبوء بإثمه وخزيه، لمخالفته عن أمر ربه، وتوجيه نبيه، وانسلاخه عن قيم دينه ومثله، فضلا عن خيانته لمجتمعه ووطنه.

أجل: ففاقد العفاف ، كيف يحصن غيره بسياجه؟!

---

(١) النساء : ٣ .   (٢) النساء: ٣٤ .   (٣) النساء : ٣٤ .

(٤) البخارى : ٦٧ ـ النكاح (٥٠٩٠) ، ومسلم : ١٧ ـ الرضاع ٥٣ (١٤٦٦) ، وأبو داود (٢٠٤٧) ، والنسائى : ٦ : ٦٨ ، وابن ماجه (١٨٥٨) .

(٥) مسلم : ١٧ ـ الرضاع ٦٤ (١٤٦٧) ، والنسائى :٦ : ٦٩ .

قال ابن حجر: وأخرج ابن أبى شيبة بسند حسن أن عطاء كره نكاح اليهوديات والنصرانيات، وقال: كان ذلك والمسلمات قليل، وهذا ظاهر فى أنه خص الإباحة بحال دون حال.. ثم قال: وقد فصل كثير من العلماء كالشافعية بين من دخل آباؤها فى ذلك الدين قبل التحريف أو النسخ أو بعد ذلك، وهو من جنس مذهب ابن عمر، بل يمكن أن يحمل عليه (١) .

والآن نعيش حالة حرب مع اليهود وأشياعهم، ومن ثم نرجح الرأى السابق القائل بأن نكاح الحربيات محظور، ونلفت النظر إلى ضرورة وأهمية اختيار ذات الدين، قال ابن القيم ـ بعد أن ساق ما يدل على روح الإسلام من آيات وأحاديث ـ (٢) : فالذى يقضيه حكمه ﷺ اعتبار الدين فى الكفاءة أصلا وكمالا..

وكيف نختار الآن من أهل الكتاب ونحن نسمع ونقرأ عن الحرية الجنسية فى تلك المجتمعات ما يجعلنا نبتعد عن هذا الوباء الذى ظهرت آثاره فى التحلل الأخلاقى والأمراض الجنسية ؟ !

وكيف نختار من أهل الكتاب وقد أكثر الله المسلمات؟!

إشادة ومودة :

وإن الترحيب المتوقع من اليهود نلمح دلائله فى كثير من الآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة، فإن عبدة الأوثان إذا أنكروا النبوة، فأهل الكتاب يجب أن يشهدوا بها:

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٣) .

وعبدة الأصنام إذا رفضوا التذكير بالله، فأهل الكتاب أحق بأن يخشعوا إذا وجدوا من يذكرهم بالله:

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٤) .

ويروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال:

---

(١) فتح البارى :٩: ٤١٧.
(٢) زاد المعاد :٥: ١٥٩ .
(٣) الرعد :٤٣.
(٤) القصص: ٥١ ـ ٥٣

« **لو آمن بى عشرة من اليهود لآمن بى اليهود** » (١) .

ورواه مسلم بلفظ:

« **لو تابعنى عشرة من اليهود ، لم يبق على ظهرها يهودى إلا أسلم** » (٢) .

قال ابن حجر: والمراد عشرة مختصة، وإلا فقد آمن به أكثر من عشرة، وقيل: المعنى لو آمن بى فى الزمن الماضى، كالزمن الذى قبل قدوم النبى ﷺ المدينة أو حال قدومه، والذي يظهر أنهم كانوا حينئذ رؤساء اليهود، ومن عداهم كان تبعا لهم (٣) .

ويروى الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء، فسئلوا عن ذلك، فقالوا: هذا اليوم الذى أظفر الله فيه موسى وبنى إسرائيل على فرعون، ونحن نصومه تعظيما، فقال رسول الله ﷺ :

« **نحن أولى بموسى منكم** » فأمر بصومه (٤).

وفى رواية لهما عن أبى موسى رضى الله عنه قال : دخل النبى ﷺ ، وإذا أناس من اليهود يعظّمون عاشوراء ويصومونه ، فقال النبى ﷺ :

« **نحن أحق بصومه** » فأمر بصومه (٥) .

ويروى الشيخان عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان النبى ﷺ يسحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق النبى ﷺ رأسه(٦) .

وهذه الأحاديث الصحيحة واضحة الدلالة فى بيان علاقة النبى ﷺ باليهود، حين قدم المدينة، وبعد ذلك حتى ظهروا على حقيقتهم.

إنذار بالعقوبة:

وكما أن القرآن الكريم قد استعمل مع اليهود كثيرا من وسائل الترغيب و الترهيب،

---

(١) البخارى : ٦٣ ـ مناقب الأنصار (٣٩٤١) . (٢) مسلم : ٥٠ صفات المنافقين٣١ (٢٧٩٣)

(٣) فتح البارى : ٧: ٢٧٥ .

(٤) البخارى٦٣مناقب الأنصار (٣٩٤٢) واللفظ له، ومسلم :١٣ ـ الصيام ١٢٧(١١٣٠) .

(٥) البخارى : ٦٣ ـ مناقب الأنصار (٣٩٤٢) واللفظ له ، ومسلم : ١٣ ـ الصيام ١٢٩ (١١٣١) .

(٦) البخارى : ٦٣ ـ مناقب الأنصار: (٣٩٤٤) واللفظ له ومسلم: ٤٣ ـ الفضائل.٩٠(٢٣٣٦) .

وهو يدعوهم إلى الإسلام ـ كما أسلفنا ـ فقد استعمل أسلوب الإنذار تهديدا لهم بالمسخ واللعن المتوقعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم. ودمغا لهم بالشرك والانحراف عن التوحيد الخالص.. وفى الوقت ذاته هو بيان عام لحدود المغفرة الواسعة ، وبشاعة الشرك حتى إنه ليخرج من هذه الحدود:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (١).

إنه نداء لهم بالصفة التى كان من شأنها أن يكونوا أول المستجيبين (٢)، وبالسبب الذى كان من شأنه أن يكونوا من المسلمين :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾

فهم أوتوا الكتاب، فليس غريبا عليهم هذا الهدى.. والله الذى آتاهم الكتاب هو الذى يدعوهم إلى الإيمان بما أنزل مصدقا لما معهم.. فليس غريبا عليهم كذلك.. وهو مصدق لما معهم..

ولو كان الإيمان بالبينة، أو بالأسباب الظاهرة، لآمنت يهود أول من آمن.. ولكن يهود كانت لها مصالح ومطامح! وكانت لها أحقاد وضغائن! وكانت هى بطبيعتها منحرفة صلبة الرقبة.. كما تعبر عنهم التوراة بأنهم « شعب صلب الرقبة» ومن ثم لم تؤمن. ومن ثم يجبيئها التهديد:

﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

قال مجاهد: «من قبل أن نطمس وجوها» (٣) يقول: عن صراط الحق «فنردها على أدبارها» : أى فى الضلال.

وقال القاسمى: أى نمحو تخطيط صورها من عين وحاجب وأنف وفم، وقال العوفى عن ابن عباس: طمسها أن تعمى..

---

(١) النساء: ٤٧ ـ٤٨.
(٢) فى ظلال القرآن :٢: ٦٧٧ بتصرف.
(٣) تفسير القاسمى: ٥ : ١٢٨٣ بتصرف.

قال الرازى وهذا المعنى إنما جعله الله عقوبة لما فيه من التشويه فى الخلقة والمثلة والفضيحة ؛ لأن عند ذلك يعظم الغم والحسرة :

« أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » .

أى: أونفعل بهم أبلغ من ذلك. وهو أن نطردهم عن الإنسانية بالمسخ الكلى، جزاء على اعتدائهم بترك الإيمان.كما أخزينا به أوائلهم أصحاب السبت، جزاء على اعتدائهم على السبت بالحيلة على الاصطياد فمسخناهم قردة « وكان أمر الله مفعولا» أى ما أمر به « مفعولا » أى نافذا كائنا لامحالة .

هذا، وفى الآية تأويل آخر. وهو أن المراد من طمس الوجوه مجازه. وهو صرفهم عن الحق.، وردهم إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة. يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم.

قال ابن كثير : [1] وهذا كما قال بعضهم فى قوله:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾ [2] .

أى هذا مثل سوء، ضربه الله لهم فى ضلالهم ومنعهم عن الهدى ..

قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن عباس والحسن نحو هذا. قال السدى: «فنردها على أدبارها» فنمنعها عن الحق، قال نرجعها كفارا ونردهم قردة. قال أبو زيد: فردهم إلى بلاد الشام من أرض الحجاز.

قال الرازى [3] : والمقصود على هذا بيان إلقائها فى أنواع الخذلان ، وظلمات الضلالات. ونظيره قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤ ﴾ [4] .

تحقيق القول فيه أن الإنسان فى مبدء خلقته ألف هذا العالم المحسوس. ثم إنه عند الفكر والعبودية كأنه يسافر من عالم المحسوسات إلى عالم المعقولات..ثم قال:عبد الرحمن

---

(١) تفسير ابن كثير : ١: ٥٠٨.
(٢) يس: ٨-٩ .
(٣) تفسير القاسمى :٥ : ١٢٨٣ بتصرف .
(٤) الأنفال: ٢٤ .

ابن زيد: هذا الوعيد قد لحق اليهود ومضى. وتأول ذلك فى إجلاء قريظة والنضير إلى الشام. فرد الله وجوههم على أدبارهم حين عادوا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام. كما جاءوا منها. و «طمْسُ الوجوه» على هذا التأويل يحتمل معنيين:

أحدهما : تقبيح صورتهم. يقال طمس الله صورته، كقوله قبح الله وجهه.

والثانى: إزالة آثارهم عن بلاد العرب ومحو أحوالهم عنها..

وسواء كان هذا أو ذاك.. فهو التهديد الرعيب الرهيب، الذى يليق بطبيعة يهود الجاسية القاسية الغليظة، كما يليق بفعالهم اللئيمة الخبيثة:

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[1].

يقول ابن كثير: [2] يقول تعالى لنبيه ﷺ : « واسألهم » أى واسأل هؤلاء الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم !

إن اليهود هنا لا يخالفون الأمر جهرة، [3] ولكنهم يحتالون على النصوص ليفلتوا منها! ويأتيهم الابتلاء فلا يصبرون عليه؛ لأن الصبر على الابتلاء يحتاج إلى طبيعة متماسكة فى تملك الارتفاع عن الأهواء والأطماع ..

ويأمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يسأل اليهود عن هذه الواقعة المعلومة لهم فى تاريخ أسلافهم.. وهو يواجههم بهذا التاريخ بوصفهم أمة متصلة الأجيال، ويذكرهم بعصيانهم القديم، وما جره على فريق منهم من المسخ فى الدنيا، وما جره عليهم جميعا من كتابة الذل عليهم والغضب أبدا.. اللهم إلا الذين يتبعون الرسول النبى الأمى فيرفع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

ولا يذكر اسم القرية التى كانت حاضرة البحر ، فهى معروفة للمخاطبين !

فأما ما حدث فقد كان ضروريا لبنى إسرائيل الذين تخلخلت شخصياتهم وطباعهم

---

(١) الأعراف: ١٦٣ .　　(٢) تفسير ابن كثير: ٢: ٢٥٧ بتصرف .

(٣) فى ظلال القرآن : ٣ : ١٣٨٢ بتصرف .

بسبب الذل الذى عاشوا فيه طويلا، ولابد من تحرير الإرادة بعد الذل والعبودية، لتعتاد الصمود والثبات.. فضلا عن أن هذا ضرورى لمن يحملون دعوة الله، ويؤهلون لأمانة الخلافة فى الأرض. وقدكان اختبار الإرادة والاستعلاء على الإغراء هو أول اختبار وجه من قبل إلى آدم وحواء.. ثم ظل هو الاختبار الذى لابد أن تجتازه كل جماعة قبل أن يأذن الله لها بأمانة الاستخلاف فى الأرض.. إنما يختلف شكل الابتلاء، ولا تتغير فحواه!

ولم يصمد هؤلاء للابتلاء.. فأما كيف وقع لهم هذا، وكيف جعلت الحيتان تحاورهم هذه المحاورة، وتداورهم هذه المداورة.. فهى الخارقة التى تقع بإذن الله عندما يشاء الله.. والذين لا يعلمون ينكرون أن تجرى مشيئة الله بغير مايسمونه هم «قوانين الطبيعة» ! والأمر فى التصور الإسلامى ــ وفى الواقع ــ ليس على هذا النحو.. إن الله سبحانه هو الذى خلق هذا الكون، وأودعه القوانين التى يسير عليها بمشيئته الطليقه.. ولكن هذه المشيئة لم تعد حبيسة هذه القوانين، لا تملك أن تجرى إلا بها.. لقد ظلت طليقة بعد هذه القوانين، كما كانت طليقة.. وهذا مايغفل عنه الذين لا يعلمون.. وإذا كانت حكمة الله ورحمته بعباده المخاليق قد اقتضت ثبات هذه القوانين، فإنه لم يكن معنى هذا تقيد هذه المشيئة وانحباسها داخل هذه القوانين.. فحيثما اقتضت الحكمة جريان أمر من الأمور مخالفا لهذه القوانين الثابتة جرت المشيئة طليقة بهذا الأمر.. ثم إن جريان هذه القوانين الثابتة فى كل مرة تجرى فيها إنما يقع بقدر من الله خاص بهذه المرة. فهى لا تجرى جريانا آليا لا تدخل لقدر الله فيه.. وهذامع ثباتها فى طريقها ما لم يشأ الله أن تجرى بغير ذلك.. وعلى أساس أن كل ما يقع ــ سواء من جريان القوانين الثابتة أو جريان غيرها ــ إنما يقع بقدر من الله خاص، فإنه تستوى الخارقة والقانون الثابت فى جريانه بهذا القدر.. ولا آلية فى نظام الكون فى مرة واحدة ــ كما يظن الذين لا يعلمون! ــ ولقد بدأوا يدركون هذا فى ربع القرن الأخير (١) .

على أية حال، لقد وقع ذلك لأهل القرية التى كانت حاضرة البحر من بنى إسرائيل.. فإذا جماعة منهم تهيج مطامعهم أمام هذا الإغراء، فتتهاوى عزائمهم، وينسون عهدهم مع ربهم وميثاقهم، فيحتالون الحيل ــ على طريقة اليهود ــ للصيد فى يوم السبت! وما أكثر الحيل عندما يلتوى القلب، وتقل التقوى، ويصبح التعامل مع مجرد النصوص، ويراد التفلت من ظاهر النصوص !

---

(١) انظر : المرجع السابق : ١١١٣ ــ ١١٢١

إن القانون لا تحرسه نصوصه، ولا يحميه حراسه.. إنما تحرسه القلوب التقية النقية، التى تستقر تقوى الله فيها وخشيته، فتحرس هى القانون وتحميه.. وما من قانون تمكن حمايته أن يحتال الناس عليه! مامن قانون تحرسه القوة المادية والحراسة الظاهرية! ولن تستطيع الدولة ــ كائنا ما كان الإرهاب فيها ــ أن تضع على رأس كل فرد حارسا يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانته، ما لم تكن خشية الله فى قلوب الناس، ومراقبتهم له فى السر والعلن..

ومن أجل ذلك تفشل الأنظمة والأوضاع التى لا تقوم على حراسة القلوب التقية النقية. وتفشل النظريات والمذاهب التى يضعها البشر للبشر، ولا سلطان فيها من الله.. ومن أجل ذلك تعجز الأجهزة البشرية التى تقيمها الدولة لحراسة القوانين وتنفيذها.. وتعجز الملاحقة والمراقبة التى تتابع الأمور من ظواهرها !

وهكذا راح فريق من سكان القرية التى كانت حاضرة البحر يحتالون على السبت.. ويجىء تعقيب يتضمن تهديدا آخر بعدم المغفرة لجريمة الشرك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

قال أبو السعود [1] : كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من الوعيد ، وتأكيد وجوب الامتثال بالأمر بالإيمان ، ببيان استحالة المغفرة بدونه ، فإنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من التحريف ويطمعون فى المغفرة ، كما في قوله تعالى :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [2] .

والمراد بالشرك : مطلق الكفر المنتظم لكفر اليهود انتظاماً أولياً . فإن الشرع قد نص على إشراك أهل الكتاب قاطبة . وقضى بخلود أصناف الكفرة فى النار . ونزوله فى حق اليهود ، كما قال مقاتل ، وهو الأليق بسياق النظم الكريم ، وسياقه لا يقتضى اختصاصه بكفرهم ، بل يكفى اندراجه فيه قطعاً ، بل لا وجه له أصلا . لاقتضائه جواز مغفرة ما دون كفرهم في الشدة من أنواع الكفر .

(١) تفسير القاسمى : ٥ : ١٢٨٦ بتصرف .

(٢) الأعراف : ١٦٩ .

وسياق الآية هكذا يتضمن اتهام اليهود بالشرك ، ودعوتهم إلى الإيمان الخالص والتوحيد :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١) .

وعلى أية حال فاليهود فى عهد الرسالة المحمدية كانت عقائدهم فى الجزيرة العربية (٢) حافلة بالوثنيات ، منحرفة عن التوحيد .. والتهديد هنا موجه إليهم بأن الله يغفر ما دون الشرك ـ لمن يشاء ـ ولكنه لا يغفر أن يشرك به ، ولا مغفرة لمن لقيه مشركًا به ، لم يرجع في الدنيا عن شركه !

إن الشرك انقطاع ما بين الله والعباد .. فلا يبقى لهم معه أمل فى مغفرة ، إذا خرجوا من هذه الدنيا وهم مشركون . مقطوعو الصلة بالله رب العالمين . وما تشرك النفس بالله ، وتبقى على هذا الشرك حتى تخرج من الدنيا .. وأمامها دلائل التوحيد فى صفحة الكون وفى هداية الرسول ﷺ .. ما تفعل النفس هذا وفيها عنصر من عناصر الخير والصلاحية . إنما تفعله وقد فسدت فسادا لا رجعة فيه ! وتلفت فطرتها التى برأها الله عليها ، وارتدت أسفل سافلين ، وتهيأت بذاتها لحياة الجحيم !

بغى وحسد :

وكان من الواجب على هؤلاء اليهود أن يسارعوا إلى تصديق هذا النبى الأمى الذى قامت الأدلة القاطعة على صدقه فيما يبلغه عن ربه ـ كما أسلفنا ـ ولكنهم اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا وحسدًا :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا

---

(١) التوبة : ٣٠ ـ ٣٣ .

(٢) فى ظلال القرآن : ٢ : ٦٧٨ بتصرف .

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [1].

ألوهية واحدة .. وإذن فدينونة واحدة [2] .. واستسلام لهذه الألوهية لا يبقى معه شيء فى نفوس العباد ولا فى حياتهم خارجاً عن سلطان الله .

ألوهية واحدة .. وإذن فجهة واحدة هى صاحبة الحق فى تعبيد الناس لها ، وفى تطويعهم لأمرها ، وفى إنفاذ شريعتها فيهم وحكمها ، وفى وضع القيم والموازين لهم وأمرهم باتباعها ، وفى إقامة حياتهم كلها وفق التعليمات التى ترضاها ..

ألوهية واحدة .. وإذن فعقيدة واحدة هى التى يرضاها الله من عباده .. عقيدة التوحيد الخالص الناصع .. إسلام الوجه لله وحده :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾

والإسلام توحيد الألوهية والقوامة .. بينما أهل الكتاب يخلطون بين الحق والباطل ، ويختلفون فيما بينهم اختلافاً عنيفاً يصل فى أحيان كثيرة إلى حد القتل والقتال .. هنا يبين الله لأهل الكتاب وللجماعة المسلمة علة هذا الاختلاف :

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾

إنه ليس اختلافاً عن جهل بحقيقة الأمر . فقد جاءهم العلم القاطع بواحدانية الله ، وتفرد الألوهية . وبطبيعة البشرية ، وحقيقة العبودية .. ولكنهم اختلفوا « بغياً بينهم» واعتداءً وظلماً ، حينما تخلوا عن قسط الحق وعدله الذى تتضمنه عقيدته وشريعته وكتبه .. ومن ثم يجيء التهديد القاصم فى موضعه المناسب :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

وقد عد الاختلاف على حقيقة التوحيد كفراً ، وهدد الكافرين بسرعة الحساب ، كى لا يكون الإمهال ـ إلى أجل ـ مدعاة للجاجة فى الكفر والإنكار والاختلاف .. وكان فصل الخطاب فى الموقف من أهل الكتاب والمشركين جميعاً ، ليحسم الأمر معهم عن بينة ، ويدع أمرهم بعد ذلك لله ، ويمضى فى طريقه الواضح متميزاً متفرداً :

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

---

(١) آل عمران : ١٩ ، ٢٠ .　　(٢) المرجع السابق : ١ : ٣٧٩ بتصرف .

قال صاحب الكشاف [1] : ﴿ **وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم** ﴾ يعنى أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ، ويقتضى حصوله لا محالة ، فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم ؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تبق من طريق البيان والكشف طريقًا إلا سلكته ، هل فهمتها ؟ ومنه قوله تعالى :

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾[2] .

بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر ، وفى هذا الاستفهام تعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف ؛ لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق ، وللمعاند بعد تجلى الحجة ما يضرب أسدادا بينه وبين الإذعان ، وكذلك فى « هل فهمتها » توبيخ بالبلادة ، وفى « فهل أنتم منتهون » توبيخ بالتقاعد عن الانتهاء إلى الحرص على تعاطى المنهى عنه .

حقًا ، إنه لا سبيل إلى مزيد من الإيضاح بعدما تقدم . فإما اعتراف بوحدة الألوهية والقوامة ، وإذن فلابد من الإسلام والاتباع . وإما مماحكة ومداورة ، وإذن فلا توحيد ولا إسلام .

ويبين مصيرهم الذى ينتظرهم وينتظر أمثالهم وفق سنة الله الماضية أبدًا في المكذبين والبغاة الطغاة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢) ﴾[3] .

فهذا هو المصير المحتوم : عذاب أليم . لا يحدده بالدنيا أو بالآخرة ، فهو متوقع هنا وهناك .. وبطلان لأعمالهم فى الدينا والآخرة فى تعبير مصور .. وهكذا أعمال هؤلاء ، حيث لا ينصرهم ناصر ولا يدفع عنهم حام !

ونقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[4] .

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة . ١ : ١٤٦ نقلا عن : تفسير الكشاف : ١ : ٢٩٨ .
(٢) المائدة : ٩١ . (٣) آل عمران : ٢١ ، ٢٢ . (٤) الجاثية : ١٦ ، ١٧ .

وتطالعنا حقيقة الأصل الواحد ، والنشأة الضاربة فى أصول الزمان ، ونحن نقرأ قول الحق جل شأنه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [١] .

تطالعنا حقيقة الأصل الواحد ، والنشأة الضاربة فى أصول الزمان [٢] ، مع لمحة لطيفة الوقع فى حس المؤمن ، وهو ينظر إلى هؤلاء الرسل الكرام على التتابع .. نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين .. ويستشعر أنه امتداد لهؤلاء الكرام ، وأنه على دربهم يسير .. إنه يستروح السير فى الطريق ، مهما يجد فيه من نصب ، وحرمان من أعراض كثيرة ، وهو برفقة هذا الموكب الكريم على الله .. الكريم على الكون كله منذ فجر التاريخ .

ثم إنه السلام العميق بين المؤمنين بدين الله ، السائرين على شرعه الثابت، وانتفاء الخلاف والشقاق ، والشعور بالقربى الوثيقة ، التى تدعو إلى التعاون والتفاهم ، ووصل الحاضر بالماضى ، والماضى بالحاضر ، والسير جملة فى الطريق .

وإذا كان الذى شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بخاتم النبيين ﷺ هو ما وصى به نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم صلوات الله وتسليماته ، ففيم يتقاتل أهل الكتاب فيما بينهم ؟!

وفيم يتقاتلون مع أتباع خاتم النبيين ؟!

وفيم يتقاتل من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من المشركين مع المسلمين ؟

ولم لا يتضام الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التى يحملها خاتم النبيين ؟ والوصية الواحدة الصادرة للجميع ﴿ **أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ ؟!

فيقيموا الدين ويقوموا بتكاليفه ، ولا ينحرفوا عنه ولا يلتووا به ، ويقفوا تحت رايته

---

(١) الشورى : ١٣ ، ١٤ .

(٢) فى ظلال القرآن : ٥ : ٣١٤٧ بتصرف .

صفًا ، وهي راية واحدة ، رفعها على التوالى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، حتى انتهت إلى خاتم النبيين فى العهد الأخير :

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾

فهم لم يتفرقوا عن جهل ، ولم يتفرقوا لأنهم لا يعرفون الأصل الواحد الذى يربطهم ، ويربط رسلهم ومعتقداتهم .. إنما تفرقوا بعد ما جاءهم العلم .. تفرقوا بغيًا وحسدا وظلمًا للحقيقة ولأنفسهم سواء .. تفرقوا تحت تأثير الأهواء الجائرة ، والشهوات الباغية .. تفرقوا غير مستندين إلى سبب من العقيدة الصحيحة والمنهج القويم .. ولو أخلصوا لعقيدتهم ، واتبعوا منهجهم ما تفرقوا .

ولقد كانوا يستحقون أن يأخذهم الله أخذًا عاجلا ، جزاء بغيهم وظلمهم في هذا التفرق والتفريق .. ولكن كلمة سبقت من الله لحكمة أرادها ، بإمهالهم إلى أجل مسمى :

﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ ﴾

فحق الحق ، وبطل الباطل ، وانتهى الأمر فى هذه الحياة الدنيا ..

ولكنهم مؤجلون إلى يوم الوقت المعلوم .

فأما الأجيال التى ورثت الكتاب بعد أولئك الذين تفرقوا وفرقوا من أتباع كل نبى ، فقد تلقوا عقيدتهم وكتابهم بغير يقين جازم ، إذ كانت الخلافات السابقة مثاراً لعدم الجزم بشىء ، وللشك والغموض والحيرة بين شتى المذاهب والاختلافات :

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾

وما هكذا تكون العقيدة .. فالعقيدة هى الصخرة الصلبة التى يقف عليها المؤمن فتميد الأرض من حوله وهو ثابت راسخ القدمين فوق الصخرة التى لا تميد . والعقيدة هى النجم الهادى الثابت على الأفق يتجه إليه المؤمن وسط الأنواء والزوابع ، فلا يضل ولا يحيد . فأما حين تصبح العقيدة ذاتها موضع شك ومثار ريبة ، فلا ثبات لشىء ولا لأمر فى نفس صاحبها ، ولا قرار له على جهة ، ولا اطمئنان إلى طريق ، ومن ثم كان موقف أهل الكتاب ــ كما عرفنا ــ من تحريف الكلم عن مواضعه !

ولقد جاءت العقيدة ليعرف أصحابها طريقهم ووجهتهم إلى الله ، ويقودوا من وراءهم من البشر في غير ما تلجلج ولا تردد ولا ضلال . فإذا هم استرابوا وشكوا فهم غير صالحين لقيادة أحد ، وهم أنفسهم حائرون . وكذلك كان حال أهل الكتاب يوم بعث الله خاتم النبيين ﷺ .

ومن ثم كان هذا التوجيه القرآني :

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

وتكشف هذه الآية عن حقيقة هذه الرسالة الأخيرة ، فى مقاطعها القصيرة الفاصلة على هذا النحو الجامع الحازم الحاسم الدقيق .. فهى رسالة جاءت لتمضى فى طريقها لا تتأثر بأهواء البشر .. وجاءت لتهيمن فتحقق العدالة فى الأرض .. وجاءت لتوحد الطريق إلى الله كما هو فى حقيقته موحد على مدى الرسالات ..

وبعد وضوح القضية على هذا النحو ، واستجابة العصبة المؤمنة لله هذه الاستجابة ، يبدو جدل المجادلين فى الله مستنكراً لا يستحق الالتفات ، وتبدو حجتهم باطلة فاشلة ليس لها وزن ولا حساب :

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (٢) .

ومن تكون حجته باطلة مغلوبة فلا حجة له ولا سلطان .. ووراء الهزيمة والبطلان الغضب والعذاب الشديد .. وهو الجزاء المناسب على اللجاج بعد استجابة القلوب الخالصة ، والجدل المغرض بعد وضوح الحق الصريح ..

هذا والدعوة الإسلامية بعد فى مكة محصورة بين شعابها ، مضطهدة هى وأصحابها .. ولكن حقيقتها المهيمنة الشاملة تبدو واضحة ، وتعلن الربوبية الواحدة ، وتعلن فردية التبعية ، وتعلن إنهاء الجدل بالقول الفصل ، وتكل الأمر كله إلى الله .

* * *

---

(١) الشورى : ١٥ . (٢) الشورى : ١٦ .

الفصل الثالث

صور ومعالم

بداية الخطر ـ ترقب وعداء ـ « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » ـ « لا إكراه فى الدين » ـ هذا حكم الدين ـ الإكراه على الدين عند غير المسلمين ـ اختيار ـ أول من قدم على النبى من اليهود ـ أسرار هذا القدوم ـ إسلام عبد الله بن سلام ـ « وشهد شاهد » ـ موادعة اليهود ـ بين التوقع والواقع ـ « فاعف عنهم واصفح » ـ شر عاقبة ـ سمات قبيحة ـ « وقالت اليهود يد الله مغلولة » ـ الرد عليهم ـ « وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة» ـ مفتاح الموقف ـ «كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله» ـ افتراء على الله ـ قتلهم الأنبياء ـ تحويل القبلة وسفاهة اليهود ـ الحكمة من تحويل القبلة ـ أولئك هم السفهاء ـ عالمية التوحيد وانغلاق اليهود .

بداية الخطـــر :

نبصر اليهود يعلنون بين الحين والحين ، عن قـرب ظهـور النبى ، ويهـددون بالانتماء إليه [1] ، ويتوعدون مخالفيهم ، من أجل مزيد من السيطرة والإذلال ، واحتكار المقدرات المادية والمعنوية لمئات الآلاف من العرب المحيطين بهم !

ولم يكن الكثيرون من الأحبار يتوقعون أن النبى سيجىء هذه المرة من سلالة أخرى ، غير السلالة اليهودية المعروفة ، وأنه بانتمائه العربى سيشكل خطراً ماحقًا على وجودهم المستغل ، وبدعوته العالمية المفتوحة سيكتسح تجمعاتهم القومية المغلقة ، وبمبادئه العادلة الواضحة سيفضح طقوسهم وأسرارهم التى يرتزقون منها ، ويضمنون بقاءهم فى المراكز العليا لبنى قومهم !

وما إن حان الموعد ، وحل الأجل المضروب فى التوراة والإنجيل ، ولم يظهر فى اليهود النبى الذى ظنوه منهم ،، وولد محمد ﷺ يحمل علامات نبوته المادية والأدبية ، حتى بدأ اليهود يتخوفون من أن تخطىء ظنونهـم ، وألا تكـون النبوة فيهـم ، ويخشـون أن يصابوا بخسارتين !

وأصبح الطفل الذى سيبعث إلى العالم فى خطر دائم من مكر اليهود وعرقيتهم التى تتيح لهم اتخاذ أى أسلوب مهما كان دنيئًا ، لوقف كل ما يتهدد مصالحهم ووجودهم ، حتى لو كان هذا الأسلوب القتل والغيلة !

ترقب وعداء :

ونزل الوحى ، وحمل الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لواء الدعوة ، وخاض جهاداً قاسيا ضد الوثنية التى استخدمت كل أسلوب لوقف نشاطه ووأد حركته .. ورغم قلة الروايات وانعدامها أحيانًا ، فإننا نستطيع أن نجزم بأن اليهود وقفوا طيلة الصراع المكي الذى دام ثلاثة عشر عاماً وراء قريش ، يتبادلون معها الوفود ، ويتصلون بها سراً من أجل أن يشددوا قبضتهم على النبى ، وأن يشلوا حركته قبل أن يشتد ساعدها ، وتغدو قادرة على اكتساح كل ما يقف فى طريقها ، ليصدها عن هدفها المحتوم ، وثنيًا كان أم يهوديًا !

ويذكر إسرائيل ولفنسون [2] أن المراجع العربية لم تشر إلى حركات يهود المدينة

---

(١) دراسة فى السيرة : ٣٢١ ـ ٣٢٣ بتصرف .

(٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب : ١٠٦ ـ ١٠٨ .

ونياتهم إزاء بيعة العقبة الكبرى ، كأن الدعوة الإسلامية لم تصل إليهم ، وكأنهم لم يقفوا على شيء من أعمال البطون هناك !

ونحن نرجح أن اليهود لم يغفلوا عن تلك الحركة ؛ لأنها متصلة بمصالحهم السياسية والتجارية والاجتماعية ، خصوصاً إذا لا حظنا اتجاه الدعوة الإسلامية صوب المدينة ، وميل زعماء الخزرج إلى الاتصال بالرسول الحبيب المحبوب ﷺ .

ونحن نعلم ما كان بينهم وبين اليهود من الحقد ، مما جعل زعماء بنى النضير وقريظة ـ كما سيأتي ـ يراقبون حركاتهم جميعاً .

ونعلم ـ كذلك ـ أن الإسلام لم ينتشر خفية في المدينة ، وكيف أن مصعب بن عمير رضى الله عنه كان يدعو الناس إلى الله ورسوله على مرأى من جميع البطون .

ونعلم ـ أيضاً ـ أن عدداً من تجار اليهود كان يشترك في مواسم الحج .. ومن ثم يبعد أن يجهل اليهود تلك الشئون !

والذى يتأمل ما جرى بين كعب بن الأشرف زعيم بنى النضير وبين الرسول ـ كما سيأتي ـ يرى أن ذلك اليهودى كان يقاوم الحركة الإسلامية منذ وصلت أرض المدينة عن طريق الترقب ، والعداء الذى استفحل أمره بين الجبهتين ، وذلك يؤيد ما نقول .

« فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به » :

ونبصر القرآن الكريم يواجه بنى إسرائيل بمواقفهم تجاه النبوات وتجاه الأنبياء .. وما كان من سوء صنيعهم معهم ، كلما جاءوهم بالحق ، الذى لا يخضع للأهواء :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ

﴿ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٩١)

جاء في المنار [٢] : عهد في سيرة البشر أن الأمة توعظ وتنذر ، فتتعظ وتتدبر ، فإذا طال عليها الأمد بعد النذير تفسد القلوب ، ويذهب أثر الموعظة من الصدور ، وتفسق عن أمر ربها ، وتنسى ما لم تعمل به مما أنذرت به ، أو تحرفه عن موضعه بضروب من التأويل ، وزخرف القال والقيل ، ولقد يكون للمتأخر منها بعض العذر ، لجهله بما فعل المتقدم ، وأخذه ما يؤثر عنه بالتسليم ، لكمال الثقة وحسن الظن .

بين الله تعالى هذه السنة الاجتماعية في قوله :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [٣] .

يقول ابن كثير [٤] : يقول تعالى أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه .. ويروى مسلم وغيره أن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية :

﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ .

إلا أربع سنين [٥] .

ونهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تطاول عليهم الأمد ، بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم واشتروا به ثمنًا قليلا ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد : « وأكثرهم فاسقون » أى فى الأعمال ، فقلوبهم فاسدة ، وأعمالهم باطلة ، كما قال تعالى :

---

(١) البقرة : ٨٧ ــ ٩١ . (٢) تفسير المنار : ١ : ٣٧٦ بتصرف .
(٣) الحديد : ١٦ . (٤) تفسير ابن كثير : ٤ : ٣١٠ بتصرف .
(٥) مسلم : ٥٤ ــ التفسير ٢٤ (٣٠٢٧) وانظر : المرجع السابق .

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [1] .

أى فسدت قلوبهم فقست ، وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه ، وتركوا الأعمال التى أمروا بها ، وارتكبوا ما نهوا عنه ، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم فى شيء من الأمور الأصلية والفرعية .

قال القرطبى [2] : قال ابن مسعود : إن بنى إسرائيل لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم ، فاخترعوا كتابًا من عند أنفسهم ، استحلّته أنفسهم ، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم ، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، ثم قالوا : اعرضوا هذا الكتاب على بنى إسرائيل ، فإذا تابعوكم فاتركوهم وإلا فاقتلوهم ، ثم اصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم ، وقالوا : إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد ، وإن أبى قتلناه فلا يختلف علينا بعده أحد ، فأرسلوا إليه ، فكتب كتاب الله فى ورقة وجعلها فى عنقه ، ثم لبس عليه ثيابه ، فأتاهم فعرضوا عليه كتابهم ، وقالوا : أتؤمن بهذا ؟ فضرب بيده على صدره ، وقال : آمنت بهذا ، يعنى المعلّق على صدره ، فافترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين ملة ، وخير مللهم أصحاب ذى القرْن ، قال عبد الله : ومن يعش منكم فسيرى منكرًا ، وبحسْب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره .

رواه ابن أبى حاتم [3] وابن جرير بألفاظ متقاربة [4] .

ونبصر عتابًا مؤثرًا من المولى الكريم الرحيم [5] ، واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التى أفاض عليها الرحمن من فضله ، فبعث فيها خاتم النبيين رحمة مهداة ، ونعمة مسداة ، يدعوها إلى الإيمان بالله عز وجل ، ونزّل عليه الآيات البينات ، ليخرجها من الظلمات إلى النور ، وأراها من آياته فى الكون والخلق ما يبصر ويحذر ..

نبصر عتابًا فيه الود ، وفيه الحض ، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله ، والخشوع لذكره ، وتلقى ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة

---

(١) المائدة : ١٣ .

(٢) تفسير القرطبى : ١٧ : ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٤ : ٣١٠ ـ ٣١١ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٧ : ٢٢٩ .

(٥) فى ظلال القرآن : ٦ : ٣٤٨٩ بتصرف .

والاستسلام ، مع رائحة التنديد والاستبطاء فى السؤال ، ونحن نقرأ :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾

ونبصر إلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذيراً من عاقبة التباطؤ والتقاعس عن الاستجابة ، وبياناً لما يغشى القلوب من الصدأ حين يمتد بها الزمن بدون جلاء ، وما تنتهى إليه من القسوة بعد اللين ، حين تغفل عن ذكر الله ، وحين لا تخشع للحق ، ونحن نقرأ :

﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج .

إن هذا القلب البشرى سريع التقلب ، سريع النسيان .. وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور ، ويرف كالشعاع ، فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تبلد ، وانطمست إشراقته ، وأظلم وأعتم ! فلابد من تذكير هذا القلب ، حتى يذكر ويخشع ، ويدرك ويخضع ، ولابد من الطرق عليه حتى يرق ويشف ، ولابد من اليقظة الدائمة كى لا يصيبيه التبلد والقساوة .

ولهذا أرسل الحق رسله ، بعضهم فى إثر بعض ، حتى لا يطول أمد الإنذار على الناس فيفسقوا ويضلوا ..

ولا يعرف التاريخ شعباً أرسل الله فيه الرسل تترى كشعب بنى إسرائيل (١) .

لذلك كانوا بمعزل عن صحة العذر بطول الأمد على الإنذار ، وفى ناحية عما يرجى قبوله من التعلل والاعتذار ، ولهذا قال تعالى بعد تولى اليهود عن كتاب الله إلى تشريع أحبارهم ، وإقامة الحجة عليهم ، ونقضهم للميثاق ، وأنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، والوعيد على نقض الميثاق ، وشراء الحياة الدنيا بالآخرة :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾

فلم يمر زمن بين موسى وعيسى آخر أنبيائهم إلا وكان فيه نبى مرسل أو أنبياء متعددون يأمرون وينهون ، كأنه يقول :

اعلموا يا بنى إسرائيل أنه إن كان لطول الأمد على النبوة وبعد العهد بالرسل يد فى

---

(١) تفسير المنار : ١ : ٣٧٦ بتصرف .

تغيير الأوضاع ونسيان الشرائع ، وكان فى ذلك وجه لاعتذار بعض المتأخرين ، فإن ذلك لا يتناولكم ، فإن الرسل قد جاءتكم تترى ، ثم كان من أمركم معهم ما كان !

لقد كانت حجة بنى إسرائيل فى إعراضهم عن الإسلام [1] ، وإبائهم الدخول فيه ، أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم ، وأنهم ماضون على شريعتهم ووصاياهم .. فهنا يفضحهم القرآن الكريم ، ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ووصاياهم، ويثبت أنهم هم كلما واجهوا الحق الذى لا يخضع لأهوائهم !

وفيما تقدم واجههم بالكثير من مواقفهم مع نبيهم موسى عليه السلام ـ كما عرفنا ـ وقد آتاه الله الكتاب .. ويزيد هنا أن رسلهم توالت تترى ، يقفو بعضها بعضا ، وكان آخرهم عيسى ابن مريم ، وقد آتاه الله المعجزات وأيده بروح القدس ، فكيف كان استقبالهم لذلك الحشد من الرسل ، ولآخرهم عيسى عليه السلام ؟!

كان هذا الذى يستنكره عليهم ، والذى لا يملكون هم إنكاره ، وكتبهم ذاتها تقرره وتشهد به :

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

كان المعهود فى التخاطب وكلام الناس أن تذكر هذه المساوئ قبل التوبيخ عليها ، ولكن طواها فى الخطاب وأدمجها فى الاستفهام ، لتفاجئ النفوس بقوة التشنيع والتقبيح ، وتبرز لها فى ثوب الإنكار والتوبيخ ، وفى ذلك الإيمان إلى أن هذه المعاملة السوءى مما لا يخفى خبرها ، ولا تغيب عن الإنكار صورها ، فلا ينبغى الإلماع إليها إلا فى سياق تقريع مجترحيها ، وهذا من إيجاز القرآن ، الذى لا يعرج إليه فكر الإنسان ، وانظر كيف أورد خبر القتل بصيغة المضارع التى تدل على الحال ، لاستحضار تلك الصورة الفظيعة ، وتمثيلها للسامع حتى يتصورها في الخيال ، وإن مرت عليها القرون والأحوال ؛ لأنها أفاعيل لا تخلق جدتها ، ودماء لا تطير رغوتها ، وإن مثل هذا التعبير ليمثل تلك الصورة المشوهة ؛ لأن الألفاظ إذا قرعت الذهن بمفهومها يتناول الخيال ذلك المفهوم ويصوره بالصورة اللائقة به ، فيكون له من التأثير ما يناسبه .. وقد قتلوا من الأنبياء كثيرين ..

وفى هذه الآية حجتان للنبى ﷺ :

حجة على بنى إسرائيل ..

---

(١) انظر فى ظلال القرآن : ١ : ٨٨ .

وحجة على الذين يعجبون لعدم إيمانهم به ، وإجابتهم دعوته ، وبيان أن المجاحدة والمعاندة من شأنهم ، ومما عرف من شنشنتهم .

وناسب بعد هذا أن يذكر ما كانوا يعتذرون به عن الإيمان به ، والاهتداء بكتابه ، بعد تقرير الدعوة ، وإقامة الحجة ، فقال :

﴿ **وقالوا قلوبنا غلف** ﴾ .

والمراد هنا أننا لا نعقل قولك ، ولا ينفذ إلى قلوبنا مفهوم دعوتك ، فهو بمعنى قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [1] .

وقد رد الله تعالى عليهم بما يشعر بكذبهم وعنادهم فقال :

﴿ **بل لعنهم الله بكفرهم** ﴾ .

إن الأسلوب هنا يتناسب وهذا الموقف [2] ، ويتحول ـ في بعض المواقع ـ إلى صواعق وحمم .. إنه يجبههم جبها شديداً بما قالوا وما فعلوا ، ويجردهم من كل حججهم ومعاذيرهم ، التي يسترون بها استكبارهم عن الحق ، وأثرتهم البغيضة ، وعزلتهم النافرة ، وكراهتهم لأن ينال غيرهم الحق ، وحسدهم أن يؤتى الله أحداً من فضله .. جزاء موقفهم الجحودى المنكر من الرسالة والرسول ﷺ .. ومن ثم قالوا : إن قلوبنا مغلفة لا تنفذ إليها دعوة ، ولا تستمع إلى داعية .. ولا تصل إليها كلماته .. قالوا هذا تيئيساً للرسول الحبيب المحبوب ﷺ وللمسلمين ، من دعوتهم إلى الدين القيم [3] ، أو تعليلا لعدم استجابتهم .. وكان الرد عليهم أن الله لعنهم وطردهم وأبعدهم عن الهدى ، بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين ، وبالكتاب الذى تركوا العمل به وحرفوه اتباعاً لأهوائهم ، فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه ، فكان ذلك سببا فى حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإجابة دعوة خاتم النبيين صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين .

هذا هو معنى اللعن ، وقد ذكرت معه علته ، ليعلم أنه جرى على سنة الله تعالى فى

---

(١) فصلت : ٥ .
(٢) فى ظلال القرآن : ١ : ٨٩ بتصرف .
(٣) تفسير المنار : ١ : ٣٧٨ بتصرف .

الأسباب والمسببات ، وأن الله لم يظلمهم بهذا ، وإنما ظلموا أنفسهم بالكفر الذى يستتبع الكفر ، والعصيان الذى يجر إلى التمادى فى العصيان ، كما هى السنة فى أخلاق الإنسان ..

ولما ذكر اللعن معللاً بالكفر الذى هو نتيجة أعمالهم السابقة فى أنفسهم ، وكان مما يخطر بالبال أن أولئك القوم لم يكونوا كافرين ، بل مؤمنين بالله وكتابه ورسله إليهم ، استدرك فقال :

﴿ **فقليلاً ما يؤمنون** ﴾ .

وإنما القلة فى الإيمان باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة ، وبالنسبة إلى اليقين فى الإيمان ، وتحكيمه فى الفكر والوجدان ..

ولقد كان القوم يؤمنون بالشريعة في الجملة ، وكما تعطيه ظواهر الألفاظ ، ولكنهم لم يلبسوها مفصلة تفصيلا ، ولم يفقهوا حكمها وأسرارها ، فلم يكن لها سلطان على قلوبهم ، ولم تكن هى المحركة لإرادتهم في أعمالهم ، وإنما كان الذى يحركها الهوى والشهوة ، ويصرفها عامل اللذة ، فالإيمان إنما كان عندهم قولاً باللسان ، ليس له فى الجنان مكان ، وكان رسما يلوح فى الخيال ، تكذبه الأعمال ، وتطمسه السجايا الراسخة والخلال ، وهذا لا قيمة له عند الله تعالى .. ومن العجب أن نرى آيات القرآن تبطله بالحجج القيمة ، والأساليب المؤثرة ، وأهل القرآن عن ذلك غافلون ، فقليلا ما يعتبرون ويتذكرون !

وقد كان كفرهم قبيحًا ؛ لأنهم كفروا بالنبى الذى ارتقبوه ، واستفتحوا به على الكافرين ، وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

روى ابن جرير وغيره [1] عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا

---

(١) تفسير الطبرى : ١ : ٤١٠ وما بعدها ، وتفسير ابن كثير : ١ : ١٢٤ ، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : ٣ : ٢٨٢ وما بعدها .

ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور ، أخو بني سلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ، ونحن أهل شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذى كنا نذكر لكم ، فأنزل الله جل ثناؤه فى ذلك من قولهم :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

وقال أيضًا : يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركى العرب ، يعنى بذلك أهل الكتاب ، فلما بعث الله محمداً ﷺ ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه ..

وقال أبو العالية : كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركى العرب ، يقولون : اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوبًا عندنا ، حتى يعذب المشركين ويقتلهم . فلما بعث الله محمداً ﷺ ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ ، فقال الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

وهو تصرف يستحق الطرد والغضب لقبحه وشناعته .. ومن ثم يصب عليهم اللعنة ، ويصمهم بالكفر :

﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

ويفضح السبب الخفى لهذا الموقف الشائن الذى وقفوه ، بعد أن يقرر خسارة الصفقة التى اختاروها :

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾

جاء في المنار (١) : أى بئس شيئًا اشتروا به أنفسهم هو كفرهم بما أنزل الله مصدقًا لما معهم ، كما ينتظرون .. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن « اشتروا » هنا بمعنى باعوا ،

---

(١) تفسير المنار : ١ : ٣٨١ بتصرف .

أى أنهم بذلوا أنفسهم وباعوها بما حرصوا عليه من الكفر بغيًا وحسدًا للنبى ، وحبًا فى الرياسة واعتزازًا بالجنسية ، وبماكان لكل من الرؤساء والمرءوسين من المنافع المتبادلة في المحافظة عليها ، فهذا كله يعد ثمنًا لأنفسهم التى خسروها بالكفر ، حتى كأنهم فقدوها كما يفقد البائع المبيع .

وذكر ابن جرير وجهًا آخر (١) ، وهو أن « اشتروا » هنا بمعنى ابتاعوا ..

وعلى كل فبئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا (٢) .. لكأن هذا الكفر هو الثمن المقابل لأنفسهم ! والإنسان يعادل نفسه بثمن ما ، يكثر أو يقل ، أما أن يعادلها بالكفر فتلك أبأس الصفقات وأخسرها ، ولكن هذا هو الواقع .. لقد خسر اليهود أنفسهم فى الدنيا فلم ينضموا إلى الموكب الكريم العزيز ! ولقد خسروا أنفسهم فى الآخرة بما ينتظرهم من العذاب المهين ! وبماذا خرجوا فى النهاية ؟ خرجوا بالكفر : هو وحده الذى خرجوا به وأخذوه !

والذى حملهم على هذا كله هو حسدهم لخاتم النبيين ﷺ أن يختاره الله للرسالة التى انتظروها فيهم ، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .. وكان هذا بغيًا منهم وظلما ـ كما أسلفنا ـ فعادوا من هذا البغى وذلك الظلم بغضب على غضب ، وهناك ينتظرهم عذاب مهين ، جزاء الاستكبار والحسد والبغى الذميم !

وهذه الطبيعة التى تبدو هنا فى يهود هى الطبيعة الكنود ، طبيعة الأثرة الضيقة التى تحيا فى نطاق من التعصب شديد ، وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها ، ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى ، التى تربط البشرية جميعًا .. وهكذا شأن اليهود فى كل زمان ومكان !

إنهم يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة ، ويتربصون بالبشرية الدوائر ، ويكنون للناس البغضاء ، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن ، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فتنا يوقدونها بين بعض الشعوب وبعض ، وحروبا يثيرونها ليأخذوا من ورائها المغانم ، وهلاكا يسلطونه على الناس ، ويسلطه عليهم الناس .. وهذا الشر كله إنما نشأ من تلك الأثرة البغيضة :

﴿ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ

---

(١) تفسير الطبرى : ١ : ٤١٥ .
(٢) فى ظلال القرآن : ١ : ٩٠ بتصرف .

وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

يقول ابن جرير [1] : فرجعت اليهود من بنى إسرائيل بعد الذى كانوا عليه من الاستنصار بمحمد ﷺ ، والاستفتاح به ، وبعد الذى كانوا يخبرون به الناس من قبل مبعثه أنه نبى مبعوث ، مرتدين على أعقابهم ، حين بعثه الله نبيًا مرسلا ، فباءوا بغضب من الله استحقوه منه بكفرهم بمحمد حين بعث ، وجحودهم نبوته ، وإنكارهم إياه أن يكون هو الذى يجدون صفته فى كتابهم عنادًا منهم له وبغيًا وحسدًا له وللعرب « على غضب » سالف ، كان من الله عليهم قبل ذلك ، سابق غضبه الثانى ، لكفرهم الذى كان قبل ذلك بعيسى ابن مريم ، أو لعبادتهم العجل ، أو لغير ذلك من ذنوب كانت لهم سلفت يستحقون بها الغضب من الله .

ولما اعتذروا فى عصر التنزيل عن عدم الإيمان بأن قلوبهم غلف لم تفهم الدعوة [2]، ولم تعقل الخطاب ، رد الله تعالى عليهم ببيان السبب الحقيقى فى ترك الإيمان ، وما استحقوه عليه من الغضب والهوان . ثم ذكر اعتذارا آخر لهم مقرونًا بالرد والإبطال ، وإقامة الحجة عليهم به ، فقال :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾

وصيغة الدعوة تشعر بوجود الإيمان بما أنزل الله تعالى ؛ لأنه هو الذى أنزله .. وتقييد الخضوع لوحى الله بكونه لابد أن يكون منزلا على شخص بعينه من شعب كذا بعينه تحكم على الله تعالى ، وقضاء عليه بأن تكون رحمته مقيدة بأهواء فريق من خلقه .. وإيراد الدعوة بما ذكر من الإطلاق مع إيراد الجواب مقيداً بقيد : « نؤمن بما أنزل علينا » يشعر بقوة حجة الدعوة ، ووهن ما بنى عليه الجواب من الشبهة .. ثم صرح بالحقيقة ، وهى أنهم إنما يدعون هذا الإيمان بألسنتهم ﴿**ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقًا لما معهم**﴾ فهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل ، وقد كان من مكابرتهم وعنادهم ما كان ، فلم يبق إلا إلزامهم بالحجة بما اقترفوا من فحش المخالفة لما أنزل إليهم والفسوق عنه ، ليعلم أنهم يتبعون أهواءهم ، ويحكمون شهواتهم ﴿ **قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين**﴾ .

---

(١) تفسير الطبرى : ١ : ٤١٦ بتصرف .
(٢) تفسير المنار : ١ : ٣٨٣ بتصرف .

وما لهم وللحق ؟ (١) .

وما لهم أن يكون مصدقًا لما معهم ! ماداموا لم يستأثروا هم به ؟

إنهم يعبدون أنفسهم ، ويتعبدون لعصبيتهم ! لا ، بل إنهم ليعبدون هواهم ، فلقد كفروا من قبل بما جاءهم أنبياؤهم به ـ كما سبق ـ ويأتى الأمر للرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يجبههم بهذه الحقيقة ، كشفا لموقفهم ، وفضحًا لدعواهم :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

لم تقتلون أنبياء الله من قبل ، إن كنتم حقًا تؤمنون بما أنزل إليكم ؟ وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاءوكم بما تدعون أنكم تؤمنون به ؟ !

لا ، بل إنكم كفرتم بما جاءكم به موسى نبيكم ومنقذكم :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (٢) .

فهل اتخاذكم العجل من بعد ما جاءكم موسى بالبينات ، وفى حياة موسى نفسه ، كان من وحى الإيمان ؟ !

وهل يتفق هذا مع دعواكم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم ؟ !

ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة .. بل كان هنالك الميثاق تحت الصخرة ، وكان هناك التمرد والمعصية :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

والسياق هنا يلتفت من الخطاب إلى الحكاية .. يخاطب بنى إسرائيل بما كان منهم ، ويلتفت إلى المؤمنين وإلى الناس جميعًا ، فيطلعهم على ما كان منهم .. ثم يوجه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يجبههم بالترذيل والتبشيع لهذا اللون من الإيمان العجيب الذى يدعونه إن كان يأمرهم بكل هذا الكفر الصريح :

---

(١) فى ظلال القرآن : ١ : ٩١ بتصرف .

(٢) البقرة : ٩٢ . (٣) البقرة : ٩٣ .

﴿ **قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

ونقف هنا لحظة أمام التعبيرين المصورين العجيبين :

﴿ **قالوا سمعنا وعصينا** ﴾ .

﴿ **وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم** ﴾ .

إنهم قالوا بأفواههم سمعنا . وقالوا بأعمالهم عصينا .

والواقع العملى هو الذى يمنح القول اللفظى دلالته . وهذه الدلالة أقوى من القول المنطوق !

وهذا التصوير الحى للواقع يومئ إلى مبدأ كلى من مبادئ الإسلام : إنه لا قيمة لقول بلا عمل . إن العمل هو المعتبر . أو هى الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة ، وهى مناط الحكم والتقدير .

فأما الصورة الغليظة التى يرسمها :

﴿ **وأشربوا فى قلوبهم العجل** ﴾ .

فهى صورة فريدة .. لقد أشربوا ! أشربوا ماذا ؟ أشربوا العجل ! وأين أشربوه ؟ أشربوه فى قلوبهم !

ويظل الخيال الشاخص يتمثل تلك المحاولة العنيفة الغليظة ، وتلك الصورة الساخرة الهازئة : صورة العجل يدخل فى القلوب إدخالا ، ويحشر فيها حشرا ، حتى ليكاد ينسى المعنى الذهنى الذى جاءت هذه الصورة المجسمة لتؤديه ، وهو حبهم الشديد لعبادة العجل ، حتى لكأنهم أشربوه إشرابًا فى القلوب !

هنا تبدو قيمة التعبير القرآنى المصور بالقياس إلى التعبير الذهنى المفسر ..

« لا إكراه فى الدين » :

ومعلوم أن الإسلام عقيدة سلام .. ويدعونا ـ بادئ ذى بدء ـ أن نبر الذين لم يقاتلونا فى الدين ، ولم يخرجونا من ديارنا ، ونقسط إليهم :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ

فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (١).

وهذه القاعدة في معاملة غير المسلمين هي التي تمثل مفهوم هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية ، بل نظرته الكلية لهذا الوجود الصادر عن إله واحد ، المتجه إلى إله واحد ، المتعاون في تكوينه اللدني ، وتقديره الأزلي ، من وراء كل اختلاف وتنويع (٢) .

وهذه القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أساس الشريعة في العلاقات الدولية ، التي تجعل حالة المسلم هكذا بينه وبين الناس جميعًا ، وهي الحالة الثابتة ، لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء وضرورة رده ، أو خوف الخيانة بعد المعاهدة ، وهي تهديد بالاعتداء ، أو الوقوف بالقوة في وجه حرية الدعوة ، وحرية الاعتقاد .. وهو كذلك اعتداء ، وفيما عدا هذا فهي السلم والمودة ، والبر والعدل للناس أجمعين ..

وهذه القاعدة في معاملة غير المسلمين هي التي تمثل التصور الإسلامي ، الذي يجعل القضية بين المؤمنين ومخالفيهم هي قضية هذه العقيدة ، دون غيرها .. ويجعل القيمة التي يضن بها المؤمن أن تستباح ، ويقاتل دونها ، هي قضية العقيدة وحدها ، فليس بين المسلمين وبين الناس ما يتخاصمون عليه ويتقاتلون ، إلا حرية هذه الدعوة ، وحرية هذا الاعتقاد ، وتحقيق منهج الله في الأرض ، وإعلاء دين الله (٣) .

لقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته .. يخاطب العقل المفكر ، والبداهة الناطقة .. ويخاطب الوجدان المنفعل ، كما يخاطب الفطرة المستكنة .. يخاطب الكيان البشري كله .. والإدراك البشري بكل جوانبه :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤).

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ

---

(١) الممتحنة : ٨ ، ٩ .
(٢) في ظلال القرآن : ٦ : ٣٥٤٤ بتصرف .
(٣) المرجع السابق : ١ : ٢٩١ بتصرف .
(٤) البقرة : ٢٥٦ .

أَحۡسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾[1] .

وهكذا يتجلى تكريم الله للإنسان، ويتجلى احترام إرادته وفكره ومشاعره، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه ..

وهذه هى أخص خصائص التحرر الإنساني .. التحرر الذى تنكره على الإنسان فى القرن العشرين مذاهب متعسفة ، ونظم مذلة !

إن هذه الحرية هى مقدمة حقوق الإنسان التى يثبت له بها وصف إنسان ..

والإسلام ـ وهو أرقى تصور للوجود وللحياة ، وأقوم منهج للمجتمع الإسلامى بلا مراء ـ هو الذى ينادى بأن لا إكراه فى الدين ، وهو الذى يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين .. فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المتعسفة وهى تفرض فرضًا بسلطان الدولة ، ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة ؟ !

و « لا إكراه فى الدين » يرد فى صورة النفى المطلق ، نفى الجنس كما يقول النحويون .. أى نفى جنس الإكراه . نفى كونه ابتداء . فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع .. وليس مجرد نهى عن مزاولته .. والنهى فى صورة النفى ـ والنفى للجنس ـ أعمق إيقاعًا وآكد دلالة .

ولا يزيد السياق عن أن يلمس الضمير البشرى لمسة توقظه ، وتشوقه إلى الهدى ، وتهديه إلى الطريق ، وتبين حقيقة الإيمان ، وأنه هو الرشد الذى تتوخاه النفوس القويمة ، وتحرص عليه ، وأن الكفر هو الغى الذى تنفر منه هذه النفوس الصالحة ..

ومعنى الآية كما يقول ابن كثير [2] ـ لا تكرهوا أحدًا على الدخول فى دين الإسلام ، فإنه بين واضح ، جلى دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام ، وشرح صدره ، ونور بصيرته ، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه ، وختم على سمعه وبصره ، فإنه لا يفيده الدخول فى الدين مكرهًا مقسورًا ، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية فى قوم من الأنصار ، وإن كان حكمها عامًا .

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال [3] : كانت المرأة تكون مقلاتا ، فتجعل على

---

(١) الكهف : ٢٩ ـ ٣١ .
(٢) تفسير ابن كثير : ١ : ٣١٠ وما بعدها .
(٣) تفسير الطبرى : ٣ : ١٤ .

نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله تعالى ذكره :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾

ورواه أبو داود والنسائي جميعًا عن بندار [1] به ، ومن وجوه أخر عن شعبة به نحوه ، ورواه ابن أبي حاتم ، وابن حبان في صحيحه من حديث شعبة به ، وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير ، والشعبي ، والحسن البصري وغيرهم أنها نزلت في ذلك .

وتعددت الروايات في سبب النزول .

هذا حكم الدين :

ويقول صاحب المنار [2] : هذا حكم الدين الذي يزعم الكثيرون من أعدائه ــ وفيهم من يظن أنه من أوليائه ــ أنه قام بالسيف والقوة ، فكان يعرض على الناس والقوة عن يمينه ، فمن قبله نجا ، ومن رفضه حكم السيف فيه حكمه ! فهل كان السيف يعمل عمله في إكراه الناس على الإسلام في مكة أيام كان النبي ﷺ يصلي مستخفيًا ، وأيام كان المشركون يفتنون المسلم بأنواع من العذاب ، ولا يجدون رادعا ، حتى اضطر النبي وأصحابه إلى الهجرة ؟

أم يقولون إن ذلك الإكراه وقع في المدينة بعد أن اعتز الإسلام ، وهذه الآية قد نزلت في غرة هذا الاعتزاز ، فإن غزوة بني النضير كانت في ربيع الأول من السنة الرابعة ، وقال البخاري : إنها كانت قبل غزوة أحد التي لا خلاف في أنها كانت في شوال سنة ثلاث ــ كما سيأتي تحقيق ذلك ــ وكان كفار مكة لا يزالون يقصدون المسلمين بالحرب .. نقض بنو النضير عهد النبي ﷺ ، فكادوا له ، وهموا باغتياله مرتين ، وهم بجواره في ضواحي المدينة ، فلم يكن بد من إجلائهم عن المدينة ، فحاصرهم حتى أجلاهم ، فخرجوا مغلوبين على أمرهم ، ولم يأذن لمن استأذنه من أصحابه بإكراه أولادهم المتهودين على الإسلام ، ومنعهم من الخروج مع اليهود . فذلك أول يوم خطر فيه على بال بعض المسلمين الإكراه على الإسلام ، وهو اليوم الذي نزل فيه :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾

---

(1) تفسير ابن كثير : ١ : ٣١٠ .	(2) تفسير المنار : ٣ : ٣٦ وما بعدها بتصرف .

الإكراه على الدين عند غير المسلمين :

قال الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى : كان معهوداً عند بعض الملل ـ لا سيما النصارى ـ حمل الناس على الدخول فى دينهم بالإكراه ، وهذه المسألة ألصق بالسياسة منها بالدين ؛ لأن الإيمان هو أصل الدين ، وجوهره عبارة عن إذعان النفس ، ويستحيل أن يكون الإذعان بالإلزام والإكراه ، وإنما يكون بالبيان والبرهان .

قلت : والشواهد على ذلك كثيرة ـ فوق ما سبق ـ تفوق الحصر والعد ..

اختيـــار :

وقال تعالى بعد نفى الإكراه :

﴿ قد تبين الرشد من الغى ﴾ .

أى قد ظهر أن فى هذا الدين الرشد والهدى ، والفلاح والسير فى الجادة على نور ، وأن ما خالفه من الملل والنحل على غى وضلال :

﴿ فمن يكفر بالطاغوت ﴾ .

وهو ما تكون عبادته والإيمان به سببا للطغيان والخروج عن الحق من مخلوق يعبد ، ورئيس يقلد ، وهو يتبع :

﴿ ويؤمن بالله ﴾ .

فلا يعبد إلا إياه ، ولا يرجو غيره ، ولا يخشى سواه ، يرجوه ويخشاه لذاته ، وبما سنه من الأسباب والسنن فى عباده :

﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ .

أقول : أى فقد طلب أو تحرى باعتقاده وعمله أن يكون ممسكا بأوثق عرى النجاة ، وأثبت أسباب الحياة ، أو فقد اعتصم بأوثق العرى ، وبالغ فى التمسك بها .

وقال الشيخ محمد عبده : الاستمساك بالعروة الوثقى هو الاستقامة على طريق الحق القويم ، الذى لا يضل سالكه ، كما أن المتعلق بعروة هى أوثق العرى لا يقع ولا يتفلت .

ثم قال صاحب المنار : ومما خطر لى عند الكتابة الآن : أن عروة الإيمان إذا كانت لا تنقطع بالمستمسك بها ، فهو لا يخشى عليه الهلكة إلا إذا كان هو الذى تركها . فإذا

كان الإيمان بالله وما يتبعه من الآثار فى صفات صاحبه وأعماله من أسباب الثبات والاستقرار فى الوجود ؛ لأنه هو الحق والخير الموافق لمصالح العالم ، فلا شك أن شدة التمسك به هى العصمة من الهلاك والسبب الأقوى للثبات والاستقرار فى هذه الحياة الدنيا وللبقاء الأبدى فى الحياة الأخرى ..

وقد ورد بمعنى هذه الآية قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

ويؤيدهما الآيات الكثيرة الناطقة بأن الدين هداية اختيارية للناس .. مؤيدة بالآيات والبينات ...

قلت : ونجد أنفسنا أمام صورة حسية لحقيقة شعورية ، ولحقيقة معنوية ، هى أن الإيمان بالله تعالى عروة وثيقة لا تنفصم أبدا ..

متينة لا تنقطع أبدا ..

والذى يمسك بها يمضى على هدى ، ويسلك طريق النجاة ..

لا يرتطم ولا يتخلف ، ولا تتفرق به السبل ، ولا يذهب به الشرود والضلال ..

وتتوارد الآيات والأحاديث .. لتصوير حال المؤمنين ومآلهم .. وحال الكافرين ومآلهم .. فضلا عن استجاشة دوافع الفطرة التى فطر الله الناس عليها .. وأن الدين القيم مع أنه لا إكراه فيه هو دين هذه الفطرة .. مما يطول الحديث فيه ويطول ..

أول من قدم على النبى من اليهود :

قال ابن حجر[2] : ذكر ابن عائذ من طريق عروة أن أول من أتاه منهم أبو ياسر بن أخطب أخو حيى بن أخطب ، فسمع منه ، فلما رجع قال لقومه :

أطيعونى ، فإن هذا النبى الذى كنا ننتظر ، فعصاه أخوه ، وكان مطاعًا فيهم ، فاستحوذ عليه الشيطان ، فأطاعوه على ما قال .

وروى أبو سعيد فى شرف المصطفى من طريق سعيد بن جبير : جاء ميمون بن يامين ،

---

(١) يونس : ٩٩ .　　(٢) فتح البارى : ٧ : ٢٧٥ .

وكان رأس اليهود إلى رسول ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! ابعث إليهم فاجعلني حكما ، فإنهم يرجعون إليَّ ، فأدخله داخلا ، ثم أرسل إليهم ، فأتوه فخاطبوه ، فقال : اختاروا رجلا يكون حكما بيني وبينكم ، قالوا : قد رضينا ميمون بن يامين ، فقال : اخرج إليهم ، فقال : أشهد أنه رسول الله ، فأبوا أن يصدقوه ..

ثم قال : وروى ابن إسحاق عن الزهرى : سمعت رجلا من مزينة يحدّث سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن أحبار يهود اجتمعوا فى بيت المدراس ، حين قدم النبى ﷺ المدينة ، فقالوا : غدا انطلقوا إلى هذا الرجل فاسألوه عن حد الزانى . فذكر الحديث .

أسرار هذا القدوم :

لقد قدموا لأن الهجرة غيرت مجرى الحياة فى مستقبل أعداء الرسالة الخالدة ، حيث انتشر الإسلام ، ولم يبق إلا من أدركته سن اليأس العقلى [1] ، وييس جلده على شركها ووثنيتها ، فأصبح كالشَّنِّ المخرّق ، وارتد بعد علم إلى جهالة لا تعقل ، لا يدرى ما يقول ، ولا يقول ما يعقل ، فكان مع أمثاله أسطورة أثرية تمثل تفاهة الجهالة ، وحماقة الضلالة ، فى جانب منهار من المجتمع المدنى ، الذى يعيش فيه شراذم اليهود الذين شرقوا بالمجتمع المسلم الذى يبصرونه ، وجلهم شراذم ، إلا من رحم ، فيتميز هؤلاء الشراذم غيظا ، وينفطرون حقدا ، ويتحرَّقون حنقا ، ويتهامسون بما ينتظرهم من مستقبل مظلم ، ويقرؤون فى لوح الغيب مستقبل المجتمع المسلم مضيئًا مشرقًا ، سيّاحا سروبا ، ويحسون شدة الخناق عليهم ، ويشعرون بما ينتظر الأوس والخزرج من سيادة فى مدينتهم ، وقد كانوا من قبل تابعين لهم ، يعظِّمونهم ويعرفون لهم فضلهم عليهم بالعلم والمعرفة لأنهم أهل كتاب ، ويعرفون لهم امتيازهم عليهم فى الثراء وكثرة الأموال ..

وإذا علم الذين آمنوا من الأوس والخزرج من العلم الإلهى ، وعرفوا من المعرفة الربانية ما يقيمون به صرح حياتهم الاجتماعية والاقتصادية ، فماذا بقى لليهود عليهم من سلطان ؟

لا شىء ، لا ، بل إن اليهود أصبحوا يعيشون فى قلق بالغ ، واضطراب نفسى ، يخشون أن تدور عليهم دائرة السوء ، فيكونوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين ، وطالبين خضعا بعد أن كانوا أعزة مطلوبين ، وسائلين مستجهلين بعد أن كانوا علماء مسئولين ،

---

(١) محمد رسول الله : ٣ : ٧٧ وما بعدها بتصرف .

ومحتاجين عالة بعد أن كانوا سادة عائلين ، بل يخافون أن تنقلب عليهم الحياة فى تصاريفها كلها ، فيصبحوا سوقة خدمة بعد أن كانوا قادة مخدومين ، فكيف المخرج من هذا المأزق الذى أدخلهم في مضايقة الحقد الأسود ، والحسد اللعين ؟ !

وإلى أين يكون المهرب ، وقد استحكمت حول تراقيهم حلقات الذل والهوان ؟ !

ولا سيما وقد قدم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ على أصحابه ، وأخذ بيده زمام مجتمعه المسلم ، ينميه ويقويه ويرشده .

وها هو ذا المجتمع المسلم يزداد كل يوم عددًا وقوة ونظامًا ، يقيم حياته على أساس من الخير والحق ، والهدى والرشاد ، والحب والعزة ، والعلم والمعرفة ، واستقلال الرأى وكرامة الفرد والجماعة .

وها هى ذى قريش بهيلها وهيلمانها ، وعتوها واستكبارها ، وفجور ملئها تنتفض فرقًا ، وتتزايل مفاصلها رعبا من الرسول وأصحابه الذين ألقوا إليه مقاليد أمورهم ، وسلموا له زمام طاعتهم فى الشدة والرخاء ، يحاربون من يحارب ويسالمون من يسالم وقد عاهدوه على أن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وذراريهم ، ويفدون الدعوة بكل ما يملكون ، ولو أتى على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ..

لا ، ليس هذا فقط مما يتوجس منه اليهود خيفة ، وتتطاير منه عقولهم رعبا ، بل الخوف كل الخوف أن يجتذب الرسول ﷺ إلى رحاب دعوته ، عباهلة اليهود وساداتهم فى العلم والمعرفة ، فيؤمنوا برسالته ، ويصدقوه فى دعوته ، وهذا ما فعله عبد الله بن سلام : خيرهم وابن خيرهم ، وأفضلهم وابن أفضلهم ، على حد تعبيرهم هم ، وفى رواية سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، كما فعله غيره .

إسلام عبد الله بن سلام :

يروى البخارى عن أنس أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبى ﷺ المدينة ، فأتاه يسأله عن أشياء ، فقال : إنى سائلك عن ثلاث ، لا يعلمهن إلا نبى :

ما أول أشراط الساعة ؟

وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟

وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟

قال : « أخبرني به جبريل آنفًا » .

قال ابن سلام : ذاك عدو اليهود من الملائكة . قال :

« أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد » .

قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ! قال : يا رسول الله ! إن اليهود قوم بُهت ، فاسألهم عنى قبل أن يعلموا بإسلامى ، فجاءت اليهود ، فقال النبى ﷺ :

« أيُّ رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ » .

قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وأفضلنا وابن أفضلنا ، فقال النبى ﷺ :

« أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ » .

قالوا : أعاذه الله من ذلك ، فأعاد عليهم ، فقالوا مثل ذلك ، فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ! وأن محمداً رسول الله ! قالوا : شرّنا وابن شرنا وتنقَّصوه ، قال : هذا كنت أخاف يا رسول الله (١) ! .

وفى رواية جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله ، وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فيَّ ما ليس فيَّ فأرسل نبى الله ﷺ فأقبلوا فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله ﷺ :

« يا معشر اليهود ، ويلكم ، اتقوا الله ، فو الله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا ، وأنى جئتكم بحق فأسلموا » .

قالوا : ما نعلمه ـ قالوا للنبى ﷺ ، قالها ثلاث مرار ـ قال :

« فأىِّ رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ »

قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال :

« أفرأيتم إن أسلم » .

(١) البخارى : ٦٣ ـ مناقب الأنصار : (٣٩٣٨) .

قالوا : حاشا لله ، ما كان ليسلم ، قال :

« أفرأيتم إن أسلم ؟ »

قالوا : حاشا لله ، ما كان ليسلم ، قال :

« أفرأيتم إن أسلم ؟ » .

قالوا : حاشا لله ، ما كان ليسلم ، قال :

« يا بن سلام ، أُخْرُج عليهم » .

فخرج فقال : يا معشر اليهود اتقوا الله ! فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق ، فقالوا : كذبت ، فأخرجهم رسول الله ﷺ (١) .

وهذا يبين طبيعة اليهود ، ويبين افتراء اليهود ، ويبين أصالة الحرية ومكانتها فى الدعوة الإسلامية ، وأنه لا إكراه فى الدين ، وأن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لم يتجه إلى رسم سياسة للإبعاد أو المصادرة والخصام تجاه الذين لا يدينون بالإسلام ، ويبين مدى استعداد النفوس الصالحة للدخول فى الدين القيم ..

« وشهد شاهد » :

وهنا نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٢) .

وهذا الأسلوب يراد به زعزعة الإصرار والعناد عند المشركين ، وإثارة التخوف فى نفوسهم :، والتحرج من المضى في التكذيب ، ليواجه شكوك القلب البشرى وانحرافاته، ويأخذ عليها المسالك ويذكرها بشاهد من بنى إسرائيل ، فيما يرويه الشيخان عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال : ما سمعت النبى ﷺ يقول لأحد يمشى على الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، قال : وفيه نزلت :

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ (٣) .

---

(١) المرجع السابق : (٣٩١١) . (٢) الأحقاف : ١٠ .

(٣) البخارى : ٦٣ ـ مناقب الأنصار : (٣٨١٢) واللفظ له ، ومسلم : ٤٤ فضائل الصحابة ١٤٧ (٢٤٨٣) .

إن أضواء الباطن تنضح على الوجه ، فتقرأ فى أساريره آيات الطهر وسمات الصدق ، وقد ذهب عبد الله بن سلام ـ كما عرفنا ـ يستطلع أخبار الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، فنظر إليه يحاول استكشاف هذه الآيات، وتلك السمات، فكان أول من اطمأن إليه بعد التثبت من أحواله أنه ليس بكاذب، وأن الملامح العقلية والخلقية لشخص ما لا تعرف بنظرة خاطفة، ولكن الطابع الموسوم المرسوم، الذى يضفى على الروح الكبير، كثيرا ما يكون عنوانا صادقا على ما وراءه!

موادعة اليهود :

وقد تداول الكاتبون ذكر الوثيقة المشهورة فى موادعة اليهود الذين كانوا فى المدينة، وهى من رواية ابن إسحاق بدون إسناد، وأوردها علماء السير، ونقلها صاحب مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة من عدة مخطوطات، بدون إسناد كذلك، وقال صاحب عيون الأثر عقب ذكر النص: هكذا ذكره ابن إسحاق، وقد ذكره ابن أبى خيثمة فأسنده، وفيه أن رسول الله ﷺ كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار فذكر بنحوه.

وقد آليت على نفسى فى هذه الدراسات أن ألتزم بالروايات التى تتفق مع أصول التحديث رواية ودراية، وإن كان بعضها قد ثبت فى روايات صحيحة ـ كما سيأتى ـ إن شاء الله تعالى(١) .

بين التوقع والواقع :

لقد كان اليهود يبنون عظمتهم المادية والسياسية على تفرق القبائل العربية قبائل متناحرة، فلما دخل العرب فى الإسلام، وأخذت الحزازات القديمة تتلاشى، وتتابعت الأيام تؤكد أن الإسلام يصنع أمة.. استشعر اليهود القلق وساورتهم الهموم، وشرعوا يفكرون بجد أكثر من ذى قبل فى الكيد لهذا الدين، والتربص بأتباعه..

ثم إن اليهود فى المدينة يكونون البيئة التى تتوافر فيها سوآت التدين المصنوع، والاحتراف السمج!

وأبرز خلال هذه البيئات: الحقد والنفاق، والتمسك بالقشور، والولع بالجدل من وراء ذلك قلوب خربة، ونفوس معوجة!

---

(١) انظر تهذيب سيرة ابن هشام:١: ١٢٧ ـ ١٣٠، والبداية : ٣: ٢٢٤ ـ ٢٢٦، ومجموعة الوثائق: ٤٩ ـ ٤٧، وعيون الأثر: ١ : ١٩٧ ـ ١٩٨.

والنفاق سلاح خبيث، صنعه اليهود فى مصانع إجرامهم، ليتقوا به مواجهة المجتمع المسلم بأنفسهم، وليجعلوا من ربائبهم المنافقين دريئة يدفعون بها وطأة المسلمين.

والمنافقون هم الأداة الطيعة فى أيدى اليهود وتفكيرهم، ولكن هؤلاء المنافقين كانوا مقهورين أذلة، لا يعيشون إلا فى الظلام، شعارهم الكذب، ودثارهم الغدر والخيانة، لا يخرجون من فضيحة حتى تظللهم فضيحة أسوأ منها!

وهكذا كان المنافقون أول أمرهم أضعف شأنا من نفايات الشرك بالمدينة، ومن شراذم اليهود فيها! هؤلاء اليهود الذين كان المتوقع منهم أن يرحبوا بالإسلام ورسوله ـ كما أسلفنا ـ فإذا لم يرحبوا فليكونوا أبطأ من الوثنيين فى مخاصمته، فإن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يدعو إلى توحيد الله تعالى، وإصلاح العمل، والاستعداد لحياة أرقى فى الدار الآخرة، والدين القيم الذى جاء به وقر موسى عليه السلام ـ كما عرفنا ـ وأعلى شأنه، ونوه بكتابه، وطلب من اليهود أن ينفذوا أحكامه، ويلزموا حدوده، ويتبعوا الرسول النبى الأمى الذين يجدونه مكتوبا عندهم.

ولكن اليهود هم اليهود، صمتوا أولا صمت المستريب، ثم بدا لهم فقرروا المعالنة بالجحود!

« فاعف عنهم واصفح » :

والجدل والمماراة من طبائع اليهود التى جبلوا عليها، وقد استعملوا هذا السلاح الرعيب الرهيب فى الكيد للرسالة والرسول، والتهجم على الرسالة والرسول، والسخرية من الرسالة والرسول :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (١).

وهو خطاب للرسول الحبيب المحبوب ﷺ يصور حال يهود فى المجتمع المسلم فى المدينة (٢)، فهم لا يكفون عن محاولة خيانة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وقد كانت لهم مواقف خيانه متواترة، بل كانت هذه هى حالهم طوال إقامتهم مع الرسول فى المدينة.. ثم

---

(١) المائدة: ١٣ .

(٢) فى ظلال القرآن: ٢: ٨٥٩ وما بعدها بتصرف.

فى الجزيرة كلها.. وما تزال هذه حالهم فى المجتمع الإسلامى على مدار التاريخ.. على الرغم من أن المجتمع الإسلامى هو المجتمع الوحيد الذى آواهم، ورفع عنهم الاضطهاد، وعاملهم بالحسنى، ومكن لهم من الحياة الرغيدة فيه!

ولكنهم كانوا دائما ـ كما كانوا على عهد رسول الله ﷺ ـ عقارب وحيات، وثعالب وذئابا، تضمر المكر والخيانة ولا تنى تمكر وتغدر!

إن أعوزتهم القدرة على التنكيل الظاهر بالمسلمين نصبوا لهم الشباك، وأقاموا لهم المصائد، وتآمروا مع كل عدو لهم، حتى تحين الفرصة، فينقضوا عليهم، قساة جفاة، طغاة بغاة، لا يرحمونهم، ولا يرعون فيهم إلا ولا ذمة! أكثرهم كذلك!

كما وصفهم الله سبحانه فى كتابه، وكما أنبأنا عن جبلتهم التى أورثها إياهم نقضهم لميثاق الله من قديم:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

والتعبير القرآنى الخاص عن واقع حال اليهود مع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فى المدينة تعبير ذو ظلال:

﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾

الفعلة الخائنة !

والنية الخائنة !

والكلمة الخائنة !

والنظرة الخائنة!

يجمل التعبير كل ذلك بحذف الموصوف وإثبات الصفة:

«خائنة»

لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجو، وتلقى ظلالها وحدها على القوم! فهذا هو جوهر جبلتهم! وهذا هو جوهر موقفهم مع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ومع الجماعة المسلمة!

إن هذا القرآن هو دستور هذه الأمة، ومرشدها ورائدها، وحادى طريقها على طول

الطريق.. وهو يكشف لها عن حال أعدائها معها، وعن جبلتهم وعن تاريخهم مع هدى الله كله..

ولو ظلت هذه الأمة تستنير بقرآنها، وتسمع توجيهاته، وتقيم قواعده وتشريعاته فى حياتها.. ما استطاع أعداؤها أن ينالوا منها فى يوم من الأيام.. ولكنها حين نقضت ميثاقها مع ربها، وحين اتخذت القرآن مهجورا، وحين تحاكمت إلى غيره، وإن كانت ما تزال تتخذ منه نغما يتردد، أصابها ما أصابها !

ولقد كان الوحى يقص عليها ماوقع لبنى إسرائيل من اللعن والطرد وقسوة القلب، وتحريف الكلم عن مواضعه، حين نقضوا ميثاقهم مع الله، لتحذر أن تنقض هى ميثاقهامع الله، فيصيبها ما يصيب كل ناكث للعهد، ناقض للعقد.. فلما غفلت عن هذا التحذير، وسارت فى الطريق غير الطريق، نزع الله منها قيادة البشرية، وتركها هكذا ذيلا فى القافلة! حتى تثوب إلى رشدها.، وتؤوب إلى ربها، وتستمسك بعهدها. فتعود لها مكانتها فى القيادة والريادة والشهادة على الناس .. وإلا بقيت هكذا ذيلا للقافلة..

ولقد كان توجيه الله لنبيه فى ذلك الحين الذى نزلت فيه هذه الآية :

﴿ **فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين** ﴾ .

والعفو عن قبائحهم إحسان، والصفح عن خيانتهم إحسان ..

شر عاقبة :

ومع هذا الصفح، وذلك الإحسان، تطالعنا سحنة يهود، ويطالعنا تاريخ يهود، ونحن نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (1) .

إنهم هم الذين لعنهم الله وغضب عليهم(2)، وجعل منهم القردة والخنازير! إنهم هم الذين عبدوا الطاغوت!

وقصة لعنة الله لهم وغضبه عليهم واردة فى مواضع شتى من القرآن الكريم، وكذلك قصة جعله منهم القردة والخنازير!

أما قضية عبادتهم للطاغوت فتحتاج إلى بيان هنا،؛أنها لفتة ذات دلالة خاصة فى هذا المقام!

---

(1) المائدة : ٦٠ .

(2) المرجع السابق: ٩٢٦ ومابعدها بتصرف.

إن الطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله، وكل عدوان يتجاوز الحق.. والعدوان على سلطان الله عز وجل وألوهيته، هو أشنع العدوان وأشده طغيانا، وأدخله فى معنى الطاغوت لفظا ومعنى..

واليهود لم يعبدوا الأحبار، ولكنهم اتبعوا شرعهم وتركوا شريعة الله، فسماهم الله عبادا لهم! وسماهم مشركين!

وهذه اللفتة هنا ملحوظ فيها ذلك المعنى الدقيق.. فهم عبدوا السلطات الطاغية المتجاوزة لحقها.. وهم لم يعبدوها بمعنى الركوع لها والسجود، ولكنهم عبدوها بمعنى الاتباع و الطاعة.. وهى عبادة تخرج صاحبها من عبادة الله ومن دين الله!

والله عز وجل يوجه رسوله ﷺ لمجابهة اليهود بهذا التاريخ، وبذلك الجزاء الذى استحقوه من الله على هذا التاريخ.. كأنما هم جيل واحد بما أنهم جبلة واحدة.. يوجهه ليقول لهم: أن هذا شر عاقبة:

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ ﴾

أى شر من نقمة أهل الكتاب على المسلمين، وما يكيدون لهم ، وما يؤذونهم بسبب إيمانهم، وذلك فى الآية السابقة:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾[1].

وأين نقمة البشر الضعاف من نقمة الله وعذابه، وحكمه على هؤلاء بالشر والضلال عن سواء السبيل:

﴿ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾

سمات قبيحة :

ويمضى السياق القرآنى فى التنفير من موالاتهم بعرض صفاتهم وسماتهم ــ بعد عرض تاريخهم وجزائهم ــ ويجئ التحذير والتوعية منم بكشف ما يبيتون.. ، ويبرز اليهود كذلك فى الصورة؛ لأن الحديث عن وقائع جارية، ومعظم الشر يجئ من قبل يهود:

---

(١) المائدة : ٥٩

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ۝٦١ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٦٢ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾[1].

إنها عبارات تنشئ صورا متحركة ومشاهد حية.. ومن وراء القرون يملك قارئ هذه الآيات أن يشهد بعين التصور هؤلاء القوم الذين يتحدث عنهم القرآن..

يقول الطبرى:[2] يقول تعالى ذكره: وإذا جاءكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون من اليهود، وقالوا لكم: آمنا: أى صدقنا بما جاء به نبيكم محمد ﷺ ، واتبعناه على دينه، وهم مقيمون على كفرهم وضلالتهم، قد دخلوا عليكم بكفرهم الذى يعتقدونه بقلوبهم، ويضمرونه فى صدورهم وهم يبدون كذبا التصديق لكم بألسنتهم، وقد خرجوا به، يقول: وقد خرجوا بالكفر من عندكم، كما دخلوا به عليكم، لم يرجعوا بمجيئهم إليكم عن كفرهم وضلالهم، يظنون أن ذلك من فعلهم، يخفى على الله جهلا منهم بالله :

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾

يقول: والله أعلم بما كانوا عند قولهم لكم بألسنتهم: آمنا بالله وبمحمد وصدقنا بما جاء به، يكتمون منهم مما يضمرونه من الكفر بأنفسهم.

يقولها الحق جل شأنه؛ لأنها الحقيقة، ثم لكى يطمئن المؤمنون إلى كلاءة ربهم لهم، وحفظهم من كيد عدوهم، وإحاطته علما بهذا الكيد الكتوم، ثم ليهدد أصحاب هذا الكيد لعلهم ينتهون!

ويمضى السياق يرسم حركاتهم كأنها منظورة من خلال التعبير :

﴿ وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ﴾ .

والمسارعة مفاعلة، تصور القوم كأنما يتسابقون تسابقا فى الإثم والعدوان، وأكل الحرام، وهى صورة ترسم للتبشيع والتشنيع والتفظيع، ولكنها تصور حاله من حالات

---

(١) المائدة: ٦١ ـ ٦٣. (٢) تفسير الطبرى:٦ : ٢٩٦ .

النفوس والجماعات، حين يستشرى فيها الفساد، وتسقط القيم، ويسيطر الشر.. وإن الإنسان لينظر إلى المجتمعات التى انتهت إلى مثل هذه الحال، فيرى كأنما كل من فيها يتسابقون إلى الشر.. إلى الإثم والعدوان.. قويهم وضعيفهم سواء..

والإثم والعدوان فى المجتمعات الهابطة الفاسدة لايقتصران على الأقوياء، بل يرتكبهما كذلك الضعفاء!

فحتى هؤلاء ينساقون فى تيار الإثم!

وحتى هؤلاء يملكون الاعتداء!

إنهم لا يملكون الاعتداء على الأقوياء طبعا.. ولكن يعتدى بعضهم على بعض.. ويعتدون على حرمات الله.. لأنها هى التى تكون فى المجتمعات الفاسدة الحمى المستباح الذى لا حارس له من حاكم ولا محكوم، فالإثم والعدوان طابع المجتمع حين يفسد، والمسارعة فيهما عمل هذه المجتمعات!

وكذلك كان مجتمع يهود فى تلك الأيام.. وكذلك أكلهم للحرام الذى هو سمة يهود فى كل آن!

﴿ لبئس ما كانوا يعملون ﴾

ويشير السياق إلى سمة أخرى من سمات المجتمعات الفاسدة، وهو يستنكر سكوت الربانيين القائمين على الشريعة، والأحبار القائمين على أمر العلم الدينى.. سكوت هؤلاء وهؤلاء على مسارعة القوم فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت، وعدم نهيهم عن هذا الشر الذين يتسابقون فيه:

﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾

فهذه السمة.. سمة سكوت القائمين على أمر الشريعة والعلم الدينى عما يقع فى المجتمع من إثم وعدوان.. هى سمة المجتمعات التى فسدت وآذنت بالانهيار! وبنو إسرائيل كما وصفهم القرآن:

﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾[1].

إن سمة المجتمع الفاضل الحى القوى المتماسك أن يسود فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. أن يوجد فيه من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن يوجد فيه من يستمع إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن يكون عرف المجتمع من القوة بحيث لا يجرؤ المنحرفون فيه على التنكر لهذا الأمر والنهى، ولا على إيذاء الآمرين بالمعروف : الناهين عن المنكر.

وكذا وصف الله الأمة المسلمة بقوله:

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[2]

ووصف بنى إسرائيل ــ كما سبق ــ فقال :

﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴾

فكان ذلك فيصلا بين المجتمعين وبين الجماعتين.

أما هنا فيجىء باللائمة على الربانيين والأحبار، الساكتين على المسارعة فى الإثم والعدوان وأكل السحت، الذين لا يقومون بحق ما استحفظوا عليه من كتاب الله سبحانه.

وإنه لصوت النذير.. فصلاح المجتمع أو فساده رهن بقيام الحفظة على الشريعة والعلم فيه بواجبهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

« وقالت اليهود يد الله مغلولة » :

ويجىء بعد ذلك قول اليهود الغبى اللئيم كنموذج من قولهم الإثم فى أبشع صورة:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[3].

---

(١) المائدة : ٧٩ . (٢) آل عمران : ١١٠ . (٣) المائدة : ٦٤ .

وقد بلغ من غلظ حسهم، وجلافة قلوبهم، ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذى أرادوه، وهو البخل، بلفظه المباشر، فاختاروا لفظا أشد وقاحة وكفرا، فقالوا:

﴿ يد الله مغلولة ﴾ .

الـرد عليهـــم :

ويجىء الرد عليهم بإحقاق هذه الصفة عليهم، ولعنهم ، وطردهم من رحمة الله جزاء على قولهم:

﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾

وكذلك هم، فهم أبخل خلق الله بحال!

ثم يصحح هذا التصور الفاسد السقيم، ويصف الله سبحانه بوصفه الكريم، وهو يفيض على عباده من فضله بلاحساب:

﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

وعطاياه التى لا تتوقف ولا تنفد لكل مخلوق ظاهرة للعيان.. شاهدة باليد المبسوطة، والفضل الغامر، والعطاء الجزيل، ناطقة بكل لسان..

ولكن يهود لاتراها؛ لأنها مشغولة عنها باللم والضم، وبالكنود وبالجحود، وبالبذاءة حتى فى حق الله!

ويبين الحق للرسول الحبيب المحبوب ﷺ ماسيبدو من القوم، وما سيحل بهم، بسبب حقدهم وغيظهم من اصطفاء الله له بالرسالة، وبسبب ما تكشفه هذه الرسالة من أمرهم فى القديم والحديث:

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾

فبسبب الحقد والحسد، وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله، سيزيد الكثيرون منهم طغيانا وكفرا؛ لأنهم وقد أبوا الإيمان. لابد أن يشتطوا فى الجانب المقابل، ولابد أن يزيدوا تبجحا ونكرا، وطغيانا وكفرا. فيكون الرسول الحبيب المحبوب ﷺ رحمة للمؤمنين، ووبالا على المنكرين.

« وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » :

ثم يحدثه عما قدر الله لهم من التعادى والتباغض فيما بينهم، ومن إبطال كيدهم وهو فى أشد سعيره تلهبا، ومن عودتهم بالخيبة فيما يشنونه من حرب على الجماعة المسلمة:

﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

وما تزال طوائف اليهود متعادية.. وإن بدا فى هذه الفترة أن اليهودية العالمية تتساند، وتوقد نار الحرب على البلاد الإسلامية وتفلح!

ولكن ينبغى ألا ننظر إلى فترة قصيرة من الزمان، ولا إلى مظهر لا يشتمل على الحقيقة كاملة. ففى خلال ألف وأربعمائة عام.. بل من قبل الإسلام.. واليهود فى شحناء، وفى ذل كذلك وتشرد.. ومصيرهم إلى مثل ما كانوا فيه.. مهما تقم حولهم الأسناد!

مفتاح الموقف :

ولكن مفتاح الموقف كله فى وجود العصبة المؤمنة التى يتحقق لها وعد الله.. فأين هى العصبة المؤمنة اليوم، التى تتلقى وعد الله ، وتقف ستارا لقدر الله، ويحقق الله بها فى الأرض ما يشاء؟ !

ويوم تفئ الأمة الإسلامية إلى الإسلام: تؤمن به على حقيقته، وتقيم حياتها كلها على منهجه وشريعته.. يومئذ يحق وعد الله على شر خلق الله..

و اليهود يعرفون هذا، ومن ثم يسلطون كل مافى جعبتهم من شر وكيد، ويصبون كل مافى أيديهم من بطش وفتك، على طلائع البعث الإسلامى فى كل شبر من الأرض، ويضربون ـ لا بأيديهم ـ ولكن بأيدى عملائهم ـ ضربات وحشية منكرة، لا ترعى فى العصبة المؤمنة إلا ولا ذمة!

ولكن الله غالب على أمره. ووعد الله لابد أن يتحقق..

« كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله » :

إن هذا الشر والفساد الذى تمثله يهود، لابد أن يبعث الله عليه من يوقفه ويحطمه، فالله لا يحب الفساد فى الأرض، ومالايحبه الله لابد أن يبعث عليه من عباده من يزيله:

﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

وروى الطبرى عن قتادة: (١) أولئك أعداء الله اليهود، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله، فلن تلقى اليهود ببلد إلا وجدتهم من أذل أهله، لقد جاء الإسلام حين جاء وهم تحت أيدى المجوس، أبغض خلقه إليه.. وعن السدى قال: كلما أجمعوا أمرهم على شيء فرقه الله..وأطفأ حدهم ونارهم، وقذف فى قلوبهم الرعب.

افتراء على اللـــه :

وروى ابن مردويه وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما:(٢) لما نزل قوله تعالى:

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ ﴾(٣).

قالت اليهود: يا محمد! افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله:

﴿ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾(٤).

ويروى الطبرى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال (٥): دخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه بيت المدراس فوجد من يهود ناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص، كان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له: أشيع، فقال أبو بكر رضى الله عنه لفنحاص: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله! إنك لتعلم أن محمدا رسول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل، قال فنحاص: والله ياأبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيا مااستقرض منا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك ياعدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ، وقال

---

(١) تفسير الطبرى: ٦: ٣٠٣ ـ ٣٠٤.
(٢) تفسير ابن كثير: ١: ٤٣٣ ـ ٤٣٤ والقاسمى: ٤: ١٠٥٠.
(٣) البقرة: ٢٤٥.
(٤) آل عمران: ١٨١.
(٥) تفسير الطبرى: ٤: ١٩٤ وتفسير ابن كثير: ١: ٤٣٤، وتفسير القاسمى: ٤: ١٠٥١، والسيرة النبوية لابن هشام: ٢: ٢٠٧ ط الحلبى.

يامحمد، انظر ما صنع بى صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: ماحملك على ما صنعت؟ » فقال يارسول الله! إن عدو الله قال قولا عظيما، زعم أن الله فقير، وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص، وقال ما قلت ذلك، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص ردا عليه وتصديقا لأبى بكر:

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾(٤).

وفى أبى بكر وما بلغه فى ذلك الغضب:

﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(١).

حقا، إنها سمات يهود.. الذين وجدوا فى أيديهم المال الذى آتاهم الله من فضله، فحسبوا أنهم أغنياء عن الله، ولا حاجة لهم فى جزائه، ولا إلى الأضعاف المضاعفة التى يضاعفها لمن يبذل فى سبيله، وهو مايسميه تفضلا منه ومنَّة إقراضاً له سبحانه، وقالوا ماقالوا فى وقاحة بالغة!

ويعجز القلم عن إعادة ما قالوا!

وهو تلاعب بالألفاظ ينم عن الوقاحة وسوء الأدب فى حق الله!

وهو تصور شائع ذائع فى كتبهم المحرفة ـ كما أسلفنا ـ ولكن هذه تبلغ مبلغا عظيما من سوء التصوير والتعبير، ومن سوء الأدب معا!

قتلهم الأنبياء :

ومن ثم استحقوا هذا التهديد المتلاحق:

﴿ **سنكتب ما قالوا** ﴾ .

لنحاسبهم عليه، فما هو بمتروك ولا منسى ولا مهمل!

وإلى جانبه تسجيل الآثام السابقة:

﴿ **وقتلهم الأنبياء بغير حق** ﴾ .

---

(١) آل عمران : ١٨٦

وقد حفظ تاريخهم سلسلة أثيمة فى قتل الأنبياء، آخرها محاولتهم قتل المسيح عليه السلام.. وهم يزعمون أنهم قتلوه، متباهين بهذا الجرم العظيم:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1].

ومن ثم كان الجزاء:

﴿ ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾

والنص على الحريق هنا مقصود، لتبشيع ذلك العذاب وتفظيعه، ولتجسيم مشهده بهوله وتأججه وضرامه، جزاء وفاقا، على القول الشنيع الفظيع:

﴿ إن الله فقير ﴾

﴿يد الله مغلولة ﴾

وجزاء على الفعل الفظيع الشنيع:

﴿ وقتلهم الأنبياء ﴾

ومن ثم كان ذلك العقاب :

﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ﴾

جزاءا وفاقا، لاظلم فيه، ولا قسوة:

﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾

والتعبير بالعبيد هنا إبراز لحقيقة وصفهم، وهم عبيد من العبيد، وهو يزيد فى شناعة الجرم وفظاعة سوء الأدب!

تحويل القبلة وسفاهة اليهود :

ومن القضايا التى أكثروا فيها الجدل، ابتغاء الفتنة، وابتغاء الطعن فى الرسالة والرسول ﷺ .. تحويل القبلة.

---

(١) النساء : ١٥٥ ـ ١٥٨ .

يروى الشيخان عن البراء بن عازب رضى الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر ـ أو سبعة عشر ـ شهرا، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يُوَجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله تعالى:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾(١).

فتوجه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس، وهم يهود:

﴿ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٢).

فصلى« مع النبى ﷺ رجل، ثم خرج بعدما صلى، فمر على قوم من الأنصار فى صلاة العصر نحو بيت المقدس، فقال: هو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ وأنه توجه نحو الكعبة، فتحرّف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة. (٣)

لقد انطلقت أبواق يهود، وقد عز عليهم أن يتحول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ والجماعة المسلمة، عن قبلتهم!

انطلقت أبواق يهود تلقى فى الصفوف بذور البغض والحقد!

وقد أعلم الله نبيه أن هؤلاء السفهاء سيقومون بهذة الحملة الضارية:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٤).

الحكمة من تحويل القبلـة :

لقد كان تحويل القبلة لحكمة أشار إليها قول الحق جل شأنه:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٥).

فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام فى جاهليتهم، ويعدونه من مجدهم، القومى(٦).

---

(١) البقرة:١٤٤. (٢) البقرة : ١٤٢ .

(٣) البخارى: ٨ ـ الصلاة: (٣٩٩)، واللفظ له، ومسلم : ٥ ـ المساجد ١١ (٥٢٥) .

(٤) البقرة: ١٤٢ . (٥) البقرة : ١٤٣. (٦) فى ظلال القرآن : ١ : ١٢٦ بتصرف .

ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامى المرتبط بالحق مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم.. فقد نزعهم نزعا من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه فترة إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به فى الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعا مجردا من كل إيحاء آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازا بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ، أو تتلبس بها فى خفايا المشاعر وحنايا الضمير أى تلبس من قريب أو من بعيد..

حتى إذا استسلم المسلمون، واتجهوا إلى القبلة التى أراد الله، وفى الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون هذا الموضع حجة لهم، صدر الأمر الإلهى الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام، ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه. هى حقيقة الإسلام.. حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصا لله، وليكون تراثا للأمة المسلمة..ودعوة إبراهيم أن يبعث الله بنبيه ورسولا منهم بالإسلام ، الذى كان عليه هو وبنوه وحفدته..

ولقد كان الحديث عن المسجد الحرام: بنائه وعمارته، وما أحاط بهما من ملابسات، والجدل مع أهل الكتاب ، والمشركين حول إبراهيم وبنيه ودينه وعهده ووصيته فى الآيات السابقة التى عرضنا لها.. كان هذا الحديث خير تمهيد للحديث عن تحويل قبلة المسلمين.. وكان الاتجاه الطبيعى المنطقى مع وراثة المسلمين للدين. فهو الاتجاه الحسى المتساوق مع الاتجاه الشعورى، الذى ينشئه ذلك التاريخ.

لقد عهد الله إلى إبراهيم أن يكون من المسلمين.، وعهد إبراهيم بهذا الإسلام إلى بنيه من بعده، كما عهد به يعقوب، وهو إسرائيل، ولقد علم إبراهيم أن ورثة عهد الله وفضله لا تكون للظالمين..

ولقد عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل بإقامة قواعد البيت الحرام..فهو تراث لهما، يرثه من يرثون عهد الله إليهما..

والأمة الإسلامية هى الوارثة لعهد الله مع إبراهيم وإسماعيل ولفضل الله عليهما، فطبيعى إذن ومنطقى كذلك أن ترث بيت الله فى مكة، وأن تتخذ منه قبلة..

فإذا اتجه المسلمون فترة من الزمان إلى المسجد الأقصى الذى يتجه إليه أهل الكتاب، فقد كان هذا التوجه لحكمة خاصة ـ كما سبق ـ فالآن وقد شاء الله أن يعهد بالوراثة إلى الأمة المسلمة، وقد أبى أهل الكتاب أن يفيئوا إلى دين أبيهم إبراهيم، وهو الإسلام فيشاركوا في هذه الوراثة..

الآن يجىء تحويل القبلة فى أوانه.. يجىء تحويل القبلة إلى أول بيت وضع للناس، الذى بناه إبراهيم لتتميز للمسلمين كل خصائص الوراثة الحسية والشعورية..

وراثة الدين..

ووراثة القبلة..

ووراثة الفضل من الله..

إن الاختصاص والتميز ضروريان للجماعة المسلمة:

الاختصاص والتميز فى التصور والاعتقاد..

والاختصاص والتميز فى القبلة والعبادة..

وهذه كتلك لابد من التميز فيها والاختصاص ..

وقد يكون الأمر واضحا فيما يختص بالتصور والاعتقاد، ولكنه قد لا يكون بهذه الدرجة من الوضوح فيما يختص بالقبلة وشعائر العبادة..

هنا تعرض التفاتة إلى قيمة أشكال العبادة.

إن الذى ينظر إلى هذه الأشكال مجردة عن ملابساتها، ومجردة كذلك عن طبيعة النفس البشرية وتأثراتها.. ربما يبدو له أن فى الحرص على هذه الأشكال بذاتها شيئا من التعصب والضيق، أو شيئا من التعبد للشكليات!

ولكن نظرة أرحب من هذه النظرة، وإدراكا أعمق لطبيعة الفطرة، يكشفان عن حقيقة أخرى لها كل الاعتبار..

إن فى النفس الإنسانية ميلا فطريا ناشئا من تكون الإنسان ذاته من جسد ظاهر وروح مغيب إلى اتخاذ أشكال ظاهرة للتعبير عن المشاعر المضمرة، فهذه المشاعر المضمرة لا تهدأ أولا تستقر حتى تتخذ لها شكلا ظاهرا تدركه الحواس، وبذلك يتم التعبير عنها.. يتم

فى الحس كما تم فى النفس، فتهدأ حينئذ وتستريح، وتفرغ الشحنة الشعورية تفريغا كاملا، وتحس بالتناسق بين الظاهر والباطن، وتجد تلبية مريحة لجنوحها إلى الأسرار والمجاهيل، وجنوحها إلى الظواهر والأشكال فى ذات الأوان.

وعلى هذا الأساس الفطرى أقام الإسلام شعائره التعبدية كلها.. فهى لا تؤدى بمجرد النية، ولا بمجرد التوجه الروحى. ولكن هذا التوجه يتخذ له شكلا ظاهرا: قياما واتجاها إلى القبلة، وتكبيرا وقراءة وركوعا وسجودا فى الصلاة. وإحراما من مكان معين، ولباسا معينا، وحركة وسعيا ، ودعاء وتلبية، ونحرا وحلقا فى الحج، ونية وامتناعاً عن الطعام والشراب والمباشرة فى الصوم..

وهكذا فى كل عبادة حركة، وفى كل حركة عبادة، ليؤلف بين ظاهر النفس وباطنها، وينسق بين طاقاتها، ويستجيب للفطرة جملة بطريقة تتفق مع تصوره الخاص.

ولقد علم الله أن الرغبة الفطرية فى اتخاذ أشكال ظاهرة للقوى المضمرة هى التى حادت بالمنحرفين عن الطريق السليم.. فجعلت جماعة من الناس ترمز للقوة الكبرى برموز محسوسة مجسمة من حجر وشجر، ومن نجوم وشمس وقمر، ومن حيوان وطير وشىء.. حين أعوزهم أن يجدوا متصرفا منسقا للتعبير الظاهر عن القوى الخفية.. فجاء الإسلام يلبى دواعى الفطرة بتلك الأشكال المعينة لشعائر العبادة.. فيتوجه الفرد إلى قبلة حين يتوجه إلى الله بكليته.. بقلبه وحواسه وجوارحه.. فتتم الوحدة والاتساق بين كل قوى الإنسان فى التوجه إلى الله عز وجل..

ولم يكن بد من تمييز المكان الذى يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة وتخصيصه، كى يتميز هو ويتخصص بتصوره ومنهجه واتجاهه.. فهذا التميز تلبية للشعور بالامتياز والتفرد، كما أنه بدوره ينشئ شعورا بالامتياز والتفرد.

ومن هنا كذلك كان النهى عن التشبه بمن دون المسلمين فى خصائصهم، التى هى تعبير عن مشاعر باطنة، كالنهى عن طريقتهم فى الشعور والسلوك سواء.

ولم يكن هذا تعصبا ولا تمسكا بمجرد شكليات، وإنما كان نظرة أعمق إلى ما وراء الشكليات، كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة، وهذه البواعث هى التى تفرق قوما عن قوم، ، وعقلية عن عقلية، وتصورا عن تصور، وضميرا عن ضمير، وخلقا عن خلق، واتجاها فى الحياة كلها عن اتجاه.

والله عز وجل يريد لهذه الأمة ــ كما عرفنا ــ أن تكون الوارثة للعقيدة، المستخلفة فى الأرض تحت راية العقيدة، ويريد لها أن تخلص له، وأن تتخلص من كل رواسب الجاهلية ووشائجها، وأن تتجرد من كل سماتها القديمة ورغباتها الدفينة، وأن تتعرى من كل رداء لبسته فى الجاهلية، ومن كل شعار اتخذته، وأن ينفرد فى حسها شعار الإسلام وحده، لا يلتبس به شعار آخر، وأن يتوحد المصدر الذى تتلقى منه لا يشاركه مصدر آخر.

ولما كان الاتجاه إلى البيت الحرام ـ كما أسلفنا ــ قد تلبست به فى نفوس العرب فكرة أخرى غير فكرة العقيدة الحقة، وكان البيت يعتبر فى ذلك الحين بيت العرب.. لما كان الاتجاه إلى البيت الحرام قد تلبست به هذه السمة الأخرى، فقد صرف الله للمسلمين عنه فترة، ووجههم إلى بيت المقدس، ليخلص مشاعرهم من ذلك التلبس القديم أولا، ثم ليختبر طاعتهم وتسليمهم للرسول الحبيب المحبوب ﷺ ثانيا، ويفرز الذين يتبعونه لأنه رسول الله، والذين يتبعونه لأنه أبقى على البيت الحرام قبلة، فاستراحت نفوسهم إلى هذا الإبقاء تحت تأثير شعورهم بجنسهم وقومهم ومقدساتهم القديمة.

إنها لفتة دقيقة شديدة الدقة..

إن العقيدة الإسلامية لا تطيق لها فى القلب شريكا، ولا تقبل شعارا غير شعارها المفرد الصريح، إنها لا تقبل راسبا من رواسب الجاهلية فى أية صورة من الصور. جل أم صغر.

وهذا هو إيحاء النص القرآنى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾

والله سبحانه يعلم كل ما يكون قبل أن يكون.. ولكنه عز وجل يريد أن يظهر المكنون من الناس، حتى يحاسبهم عليه، ويأخذهم به، فهو لرحمته بهم لا يحاسبهم إلا على ما يصدر عنهم ويقع بالفعل منهم..

ولقد علم الله أن الانسلاخ من الرواسب الشعورية، والتجرد من كل سمة وكل شعار له بالنفس علقة.. أمر شاق، ومحاولة عسيرة.. إلا أن يبلغ الإيمان من القلب مبلغ

الاستيلاء المطلق، وإلا أن يعين الله هذا القلب فى محاولته فيصله به ويهديه إليه:

﴿ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ .

فإذا كان الهدى فلا مشقة ولا عسر فى أن تخلع النفس عنها تلك الشعارات، وأن تنفض عنها تلك الرواسب، وأن تتجرد لله تسمع، حيثما وجهها الله عز وجل تتجه وحيثما قادها رسول الله ﷺ تقاد.

ثم يطمئن المسلمين على إيمانهم وعلى صلاتهم.. إنهم ليسوا على ضلال، وإن صلاتهم لم تضع:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

إنه يعرف طاقاتهم المحدودة، فلا يكلفهم فوق طاقاتهم، وإنه يهدى المؤمنين، ويمدهم بالعون من عنده لاجتياز الامتحان، حين تصدق منهم النية، وتخلص الطوية وتصح العزيمة.. وإذا كان البلاء مظهرا لحكمته، فاجتياز البلاء فضل ورحمته:

﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ .

بهذا يكسب فى قلوب المسلمين الطمأنينة ، ويذهب عنها القلق، ويفيض عليها الرضى والثقة واليقين.

بعد ذلك يعلن استجابة الله لرسوله ﷺ فى أمر القبلة، ويعلن عن هذه القبلة مع تحذير المسلمين من فتنة يهود، وكشف العوامل الحقيقية الكامنة وراء حملاتهم ودسائسهم.. فى صورة تكشف عن مدى الجهد الذى كان يبذل لإعداد تلك الجماعة المسلمة، ووقايتها من البلبلة والفتنة:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(١).

ويطالعنا هذا التعبير المصور لحالة النبى ﷺ :

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

وهو تعبير يصور تلك الرغبة القوية فى أن يوجهه ربه إلى قبلة غير القبلة التى كان عليها، بعدما كثر لجاج اليهود وحجاجهم، ووجدوا فى اتجاه الجماعة المسلمة لقبلتهم وسيلة للتمويه والتضليل والبلبة والتلبيس... حيث كان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يقلب وجهه فى السماء، ولا يصرح بدعاء، تأدبا مع ربه، وتحرجا أن يقترح عليه شيئا، أو أن يقدم بين يديه شيئا..

ولقد أجابه ربه إلى مايرضيه..

والتعبير عن هذه الاستجابة يصور تلك الصلة الرحيمة الحانية الودود:

﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾

ثم يعين له هذه القبلة التى علم سبحانه أنه يرضاها:

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾

قبلة له ولأمته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها:

﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾

من كل اتجاه، فى أنحاء الأرض جميعا..

قبلة واحدة، تجمع هذه الأمة، وتوحد بينها على اختلاف مواطنها، واختلاف مواقعها

(١) البقرة: ١٤٤ ـ ١٥٠.

من هذه القبلة، واختلاف أجناسها وألسنتها وألوانها..

قبلة واحده، تتجه إليها الأمة الواحدة فى مشارق الأرض ومغاربها.. فتحس أنها جسم واحد، وكيان واحد تتجه إلى هدف واحد، وتسعى لتحقيق منهج واحد. منهج ينبثق من كونها جميعا تعبد إلها واحدا، وتؤمن برسول واحد، وتتجه إلى قبلة واحدة.

وهكذا وحد الله هذه الأمة.

وحدها فى إلهها ورسولها ودينها وقبلتها.

وحدها على اختلاف المواطن والأجناس والألوان واللغات، ولم يجعل وحدتها تقوم على قاعدة من هذه القواعد كلها، ولكن تقوم على عقيدتها وقبلتها، ولو تفرقت فى مواطنها وأجناسها وألوانها ولغاتها..

إنها الوحدة التى تليق ببنى الإنسان. فالإنسان يجتمع على عقيدة القلب، وقبلة العبادة، إذا تجمع الحيوان على المرعى والكلأ والسياج والحظيرة!

ثم.. ما شأن أهل الكتاب وهذه القبلة الجديدة؟

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾

إنهم ليعلمون أن المسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس، رفع قواعده إبراهيم.. جد هذه الأمة الوارثة.. وإنهم ليعلمون أن الأمر بالتوجه إليه حق من عند الله لا مرية فيه..

ولكنهم مع هذا سيفعلون غيرما يوحيه هذا العلم الذى يعلمونه. فلا على المسلمين منهم، فالله جل شأنه هو الوكيل الكفيل برد مكرهم وكيدهم:

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

إنهم لن يقتنعوا بدليل؛ لان الذى ينقصهم ليس هو الدليل، وإنما هو الإخلاص والتجرد من الهوى، والاستعداد للتسليم بالحق حين يعلمونه:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ﴾

فهم فى عناد يقوده الهوى، ويحدوه الغرض !

ويظن كثيرون أن الذى يصد هؤلاء عن الإسلام أنهم لا يعرفونه، أو لأنه لم يقدم إليهم فى صورة مقنعة.. وهذا وهم.. إنهم لا يريدون الإسلام لأنهم يعرفونه! يعرفونه فهم

يخشونه على مصالحهم، وعلى سلطانهم، ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الناصب الذى لا يفتر، بشتى الطرق وشتى الوسائل . عن طريق مباشر وعن طرق أخرى غير مباشرة . يحاربونه وجها لوجه، ويحاربونه من وراء ستار، ويحاربونه بأنفسهم ويستهوون من أهله من يحاربه لهم تحت أى ستار .. وهم دائما عند قول الله لنبيه الكريم:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾

وفى مواجهة هذا الإصرار من أهل الكتاب على الإعراض عن قبلة الإسلام، ومنهجه الذى تشير هذه القبلة له، يقرر حقيقة شأن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وموقفه:

﴿ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾

ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلا. واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ فى بيان الشأن الثابت الدائم للرسول الحبيب المحبوب ﷺ تجاه هذا الأمر . وفيه إيحاء قوى للجماعة المسلمة من ورائه. فلن تختار قبلة غير قبلة رسولها التى اختارها له ربه ورضيها له ليرضيه، ولن ترفع راية غير رايتها التى تنسبها إلى الحق، ولن تتبع منهجا إلا المنهج الإلهى الذى تشير إليه هذه القبلة المختارة ..

هذا شأنها مادامت مسلمة ..

ويكشف عن حقيقة الموقف بين أهل الكتاب بعضهم وبعض، فهم ليسوا على وفاق لأن الأهواء تفرقهم :

﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾

والعداء بين اليهود والنصارى .. والعداء بين الفرق اليهودية المختلفة .. والعداء بين الفرق النصرانية المختلفة أشد عداء ... وهذا لايحتاج إلى بيان ..

وما كان للنبى ﷺ ، وهذا شأنه، وهذا شأن أهل الكتاب، وقد علم الحق فى الأمر، أن يتبع أهواء هم بعدما جاءه من العلم :

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

ونقف لحظة أمام هذا القول الصارم، فى هذا الخطاب الإلهى من الحق تبارك وتعالى إلى نبيه الكريم الذى أجابه من قبل إلى مايرضيه فى هذا المقام بذلك القول الرفيق الودود.. نقف لنبصر أن الأمر هنا يتعلق بالاستقامه على هدى الله وتوجيهه، ويتعلق بقاعدة التميز

والتجرد إلا من طاعة الله ونهجه، ومن ثم يجيء الخطاب فيه بهذا الحزم وذلك الجزم، وبهذه المواجهة وذلك التحذير:

﴿ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

إن الطريق واضح، والصراط مستقيم .. فإما العلم الذى جاء من عند الله، وإما الهوى فى كل ماعداه .

وليس للمسلم أن يتلقى إلا من الله .

وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب .

وما ليس من عند الله فهو الهوى بلا تردد .

وإلى جانب هذا الإيحاء الدائم نلمح كذلك أنه كانت هناك غمرة الدسائس اليهودية، وحملة التضليل الماكرة، التى تستدعى هذه الشدة فى التحذير، وهذا الجزم فى التعبير ..

وتمضى الآيات تقرر معرفة أهل الكتاب الجازمة بأن الحق فى هذا الشأن وفى غيره هو ماجاء به القرآن الكريم، وما أمر به الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ولكنهم يكتمون الحق الذى يعلمونه، للهوى الذى يضمرونه:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

ومعرفة الناس بأبنائهم هى قمة المعرفة .. وإذا كان أهل الكتاب على يقين من الحق الذي جاء به النبى ﷺ ومنه هذا الذى جاء به فى شأن القبلة، وكان فريق منهم يكتمون الذى يعلمونه علم اليقين .. فليس سبيل المؤمنين إذن أن يتأثروا بما يلقيه أهل الكتاب هؤلاء من أباطيل وأكاذيب .. وليس سبيل المؤمنين أن يأخذوا من هؤلاء الذين يستيقنون الحق ثم يكتمونه شيئا فى أمر دينهم، الذى يأتيهم به رسولهم الصادق الأمين ﷺ .

وهنا يوجه الخطاب إلى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بعد هذا البيان بشأن أهل الكتاب:

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

ورسول الله ﷺ ما امترى يوما ولا شك، ولكن توجيه الخطاب هكذا يحمل إيحاءً

قويا إلى من وراءه من المسلمين خشية أن تؤثر فيهم أباطيل اليهود وأحابيلهم .

وما أجدرنا نحن اليوم أن نستمع إلى هذا التحذير، ونحن فى بلاهة منقطعة النظير، نروح ونستفتى المستشرقين من اليهود والنصارى والشيوعيين وتلاميذهم المتغربين من أبناء جلدتنا فى أمر ديننا ، ونتلقى عنهم تاريخنا، ونأمنهم على القول فى تراثنا، ونسمع لما يدسونه من شكوك فى دراساتهم لقرآننا وحديث نبينا وسيرته، وسيرة سلفنا، ونرسل إليهم بعثات من طلابنا يأخذون عنهم علوم الإسلام، حيث الدراسات التخصصية فى القرآن وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه الإسلامى، والعقيدة الإسلامية، وما إلى ذلك من التخصصات التى يرأس الأقسام العلمية فيها عندهم أحبار يهود ويشاركهم قساوسة نصارى، ومن ثم يتخرج هؤلاء الطلاب فى تلك الجامعات، ويعودون إلينا مدخولى العقل والضمير !

أولئك هم السفهاء :

وحسبنا فى هذا المقام الذى عرفنا معالمه أن ندرك تلك الملابسات التى أحاطت بحادث تحويل القبلة، والدسائس التى حاولها اليهود بمناسبته، وأن ندرك أن القرآن الكريم أخذ الطريق على تلك الأقاويل والتساؤلات التى سيطلقها هؤلاء السفاء:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾

وفى الوقت ذاته نلمح وراء تفصيل القول فى تحويل القبلة مايشى بضخامة حملة الأضاليل والأباطيل، والعداء اليهودى السافر الكالح الفاضح !

وأدرك اليهود عملياً أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ليس مجرد زعيم يحترف السياسة، ويعتمد كل أسلوب لتحقيق أهدافه، وإنما هو صاحب رسالة عالمية إزاء العالم كله، صاحب رسالة عظيمة تتجاوز تعاليمها ومتطلباتها الحدود الإقليمية لشبه الجزيرة العربية .. باتجاه الإنسان فى كل مكان وزمان، وازداد الأمر وضوحا عندما توالت الآيات بالدعوة إلى الدخول فى الدين القيم، إن أراد أهل الكتاب الحفاظ على جوهر دعوة أنبيائهم الذين رفعوا راية التوحيد الخالص وأسلموا لله رب العالمين ..

ومن ثم تتضح حقيقة الصلة بين موكب الرسل عليهم صلوات الله وتسليماته .. وهى عهد الله عليهم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (١).

ومن ثم يتعين على أهل الكتاب أن يؤمنوا بخاتم النبيين ﷺ وينصروه ، ولكنهم لايوفون بعهد الله معهم ومع رسلهم الأولين !

وفى ظلال هذا العهد السارى يقرر الحق جل شأنه أن الذى يبتغى غير الإسلام يخرج فى الحقيقة على نظام الكون كله كما أراده الله:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

وهكذا يبدو هؤلاء الذين يخرجون عن إسلام أمرهم لخالقهم، والطاعة والاتباع لمنهج الله فى خضوع واستسلام.. يبدو هؤلاء شذاذا خارجين على نظام الوجود الكبير!

كما يبدو هؤلاء شذاذا خارجين على دين أنبيائهم:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

هذه هى ملة إبراهيم عليه السلام..

الإسلام الخالص الصريح..

لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه، سفيه عليها، مستهتر بها (٣).

هذه هى ملة إبراهيم. ووصيته فى ذريته، ووصية يعقوب، وهو إسرائيل الذى ينتسبون

---

(١) آل عمران : ٨١ ـ٨٣. (٢) البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٤. (٣) فى ظلال القرآن: ١: ١١٦ بتصرف.

إليه. ثم لا يلبون وصيته، تلك التى كانت شغله الشاغل، الذى لم يصرفه عنه الموت وسكراته!

عالمية التوحيد وانغلاق اليهود :

وظهر لليهود، يوما بعد يوم، المصدر الأساسى للخطر الذى تشكله دعوة الحق إزاء انحرافات اليهودية وضلالاتها؛ لأن دعوة الحق تقوم على التوحيد الخالص ، غير الذى يؤمن به اليهود، على أساس قومى استعلائى مغلق ، من أن الله عندهم ـ كما أسلفنا ـ هو « يهوه » وهو الذى اختاره لنفسه، من دون الناس، وبذلك كانوا يرون لأنفسهم ميزة على الناس !

ومن أجل ذلك كذبوا أنبياءهم، وحاربوا المسيح عليه السلام، وسَعَوْا إلى قتله!

فإذا ما جاءهم خاتم النبيين ﷺ فدعا الناس جميعا إلى الإيمان بالله عز وجل بغض النظر عن أجناسهم، فإنه بذلك يزيل عن بنى إسرائيل هذه العصبية التى كانوا يتعاظمون بها على الكافرين!

وإذا فلا تهاون بينهم وبين الرسول الحبيب المحبوب ﷺ [١]. الذى يدعو إلى تحطيم تلك القاعدة المزيفة لدى اليهود!

ومن هنا قامت المجادلات، ونشأت العداوات، وظهرت الخصومات، التى ما لبثت أن اتخذت من جانبهم موقف التحدى والمعاندة، ووصل بهم الحقد ـ كما عرفنا ـ إلى تفضيل الأصنام على التوحيد !

ورغم أن ولفنسون أكد على خطورة مبدأ التوحيد الإسلامى، وعالميته إزاء العقلية اليهودية، التى لا تلين أمام شىء يزحزحها عن عقيدتها، وتأبى أن تعترف بنبى من غير بنى إسرائيل! إلا أنه وقع فى خطأ القول بأن الرسول ﷺ لو لم يكلف اليهود الاعتراف برسالته، ولو وقفت تعاليمه عند حد محاربة الوثنية فحسب، لما وقع نزال بينهم وبين المسلمين ، ولكانوا قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول ، ولأيدوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم، حتى يحطم الأصنام، ويقضى على العقائد الوثنية!

ويمضى ولفنسون إلى القول بأن هذه المسألة يجب ألا تغرب عن الأذهان؛ لأنها

---

(١) مكة والمدينة : ٤١٢ وما بعدها بتصرف .

أساس ما حدث بين اليهود وبين الرسول من خلاف ونزاع، ولولا وجودها لما حدث شيء من الخلاف، أو لكان في الإمكان أن يتلافى ما قد ينشأ من ذلك! ونلاحظ هنا على معظم المستشرقين أنهم أهملوا هذه النقطة الجوهرية ، في بحثهم عن أسباب الخلاف بين الرسول واليهود،مع أنه مما لا شك فيه أنه إذا أهملت هذه النقطة فلا سبيل مطلقا للبحث في هذا الموضوع!(١).

وفاتت ولفنسون حقيقة على درجة كبيرة من الأهمية، تلك هي أن مسيرة الدعوة الإسلامية المتفتحة على العالم، واصطفاء خاتم النبيين من غير بني إسرائيل، وقيام الدولة الإسلامية في قلب المنطقة التي تتحرك فيها مصالح اليهود وأعمالهم المختلفة .. يشكل خطرا على اليهودية التي كانت موجودة، والتي أصابها التغيير والتحريف ، والتزييف والتخريف ؛ لأن نجاح الإسلام كفيل بحصر اليهودية المزيفة وعزلتها، وكشف أصحابها أمام العالم، وهنا يكمن الخطر المحدق بهم وبكل من على شاكلتهم.. الأمر الذي دفعهم بعد وقت قصير من إدراكهم أبعاد هذا الخطر، إلى أن يقفوا إلى جانب الوثنية، ويمتدحوا أصنامها ــ كما عرفنا ــ بمواجهة التوحيد الخالص الذي جاء به الإسلام !

ومن ثم فإن ولفنسون يناقض نفسه، عندما يشير إلى انغلاق العقلية اليهودية من جهة سكوتها، بل تعاونها ــ لو لم تدع إلى الإسلام ــ مع هذا الدين القيم، الذي جاء لكي يبطل الباطل، ويكشف المزاعم الدينية التي مارسها اليهود طويلا، ولكي ينفتح على الإنسان والعالم، ويقضي في طريقه على أسطورة شعب الله المختار، وما يتمخض عنها لصالح اليهود من مظالم لا يحصيها عد!

هذه هي الحقيقة، والنقطة الجوهرية في البحث عن أسباب الخلاف، والتي إذا ما أهملت - دون غيرها ــ فلا سبيل مطلقا للبحث في هذا الموضوع، وسيؤكد سياق الأحداث ذلك.

ومن هذا الخطأ يجد ولفنسون وعدد من المستشرقين أنفسهم مسوقين إلى خطأ آخر، هو أنه ما دام القتال قد نشب بين المسلمين واليهود في أعقاب بدر ــ كما سيأتي ــ فإن معنى هذا أن اليهود كان عليهم أن يندمجوا في الدين الجديد ــ كما يقولون ــ أو أن يجابهوا بحرب دموية، حتى ينتهوا أو ينتقلوا إلى مكان بعيد.. وأنه ما دام قد وقع قتال بين

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب : ١٢٢ ــ ١٢٣ بتصرف.

الطرفين، فإن معنى هذا ـ كما يزعمون ـ أن المهاجرين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر نتيجة مقاومة اليهود ؛ لأن حالتهم كانت سيئة جدا، إذ لم يكن لهم مال، ولا مزارع، ولا منازل، بل كانوا يسكنون مع الأنصار من الأوس والخزرج [1].

وفات هؤلاء أن طبيعة التعارض العقائدى بين الدين القيم الذى يقوم على التوحيد الخالص والانفتاح الكامل ، وبين اليهودية التى تقوم على الانغلاق الكامل ، والتبديل والتحريف، والتزييف والتخريف ـ كما أسلفنا ـ كان لا بد وأن يؤول ذلك إلى صراع حاسم، من أجل إحقاق الحق، وإبطال الباطل !

حقا، إنها سمات يهود!

وهل بالإمكان ـ فوق هذا كله ـ أن يتناسى المؤرخ الجاد ما قام به اليهود من جدل وافتراء، ودس ووقيعة بين المسلمين، مع المنافقين، للقضاء على المسلمين داخل المدينة، وتآمر مع المشركين ـ كما سيأتى ـ هل كان بالإمكان أن يتناسى المؤرخ الجاد ذلك أو بعضه؟!

ومع ذلك فإن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لم يقاتل اليهود فى هذه المرحلة، امتثالا لأمر الله فى العفو والصفح ـ كما أسلفنا ـ وتحمل سفه اليهود، وصبر على أذاهم ومكرهم وخداعهم، وضلالهم وكيدهم!

واكتفى بمجادلتهم بالتى هى أحسن، وتفنيد ضلالاتهم، ودحض شبهاتهم، ورد مفترياتهم.

---

(١) المرجع السابق : ١٢٦ـ ١٢٧ بتصرف.

أهـــم المـراجـــع

١ـ أحكام القرآن، للجصاص، ط البهية المصرية ١٣٤٧هـ .

٢ـ الأدب المفرد، للبخارى، ط السلفية بالقاهرة ١٣٧٥ هـ .

٣ـ أعلام النبـوة، للماوردى، ط شمس الحرية، مكتبة الكليات الأزهريـة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

٤ـ البداية والنهاية، لابن كثير، المعارف، بيروت، ط ثانية ١٩٧٧م.

٥ـ بنو إسرائيل فى القرآن والسنة، للدكتورمحمد سيد طنطاوى، جامعة البصرة، ط أولى ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٦ـ تاريخ اليهود فى بلاد العرب ، للدكتور إسرائيل ولفنسون، الاعتماد.

٧ـ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير ، البابى الحلبى.

٨ـ تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل القرآن) لابن جرير الطبرى، البابى الحلبى، ط ثالثة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٩ـ تفسير الطبرى ـ له أيضا ـ تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، ط دار المعارف، القاهرة.

١٠ـ تفسير القاسمى (محاسن التأويل) للقاسمى، عيسى البابى الحلبى، ط أولى ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

١١ـ تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٩٦٧م.

١٢ـ تفسير الكشاف، للزمخشرى، ط الاستقامة ١٣٦٥ هـ .

١٣ـ تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) للشيخ محمد عبده، تأليف محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

١٤ـ تهذيب سيرة ابن هشام، للأستاذ عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة، ط ثانية، القاهرة ١٩٦٤م.

١٥ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية، ط المجد التجارية.

١٦ ـ دراسة فى السيرة، للدكتور عماد الدين خليل، ط مؤسسة الرسالة، دار النفائس ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١٧ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، ط الإسلامية، طهران ١٣٧٧هـ .

١٨ ـ الرسالة، للشافعى، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، ط مصطفى الحلبي ١٣٥٨هـ .

١٩ ـ زاد المعاد في هدى خير العباد، لابن القيم، تحقيق الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، المنار الإسلامية، ط أولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

٢٠ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الفكر العربى .

٢١ ـ سنن أبى داود ، ط مصر التجارية الأولى، وط المدينة المنورة .

٢٢ ـ سنن البيهقى (السنن الكبرى) للبيهقى، ط دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ١٢٥٣هـ .

٢٣ ـ سنن الترمذى (الجامع الصحيح) للترمذى، ط بولاق ١٢٩٢هـ وط الهند، وط الحلبى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م .

٢٤ ـ سنن الدارمى، دار إحياء السنة النبوية .

٢٥ ـ سنن النسائى، بشرح جلال الدين السيوطى، وحاشية السندى، ط دار الكتاب العربى ، بيروت .

٢٦ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد، ط حجازى بالقاهرة وط الحلبى .

٢٧ ـ السيرة النبوية: ابن كثير: ت١ : ١٨٣ ـ ١٨٤ تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة ١٣٩٦هـ .

٢٨ ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٩ ـ صحيح مسلم، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى .

٣٠ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر .

٣١ ـ عمدة التفسير، لابن كثير، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، ط دار المعارف .

٣٢ ـ عيون الأثر في فنون المغازى والسير، لابن سيد الناس، ومعه اقتباس الاقتباس لحل مشكلة سيرة ابن سيد الناس، لابن عبد الهادي، دار المعرفة بيروت .

٣٣ ـ فتح البارى: شرح صحيح البخارى، لابن حجر، الرياض الحديثة، البطحاء، الرياض .

٣٤ ـ فى ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب، ط دار الشروق ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م .

٣٥ ـ مجموعة الوثائق للعهد النبوى والخلافة الراشدة، للدكتور محمد حميد الله، دار الإرشاد، بيروت، ط ثالثة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م .

٣٦ ـ محمد رسول الله ﷺ ، للأستاذ محمد الصادق عرجون، دار القلم دمشق، ط أولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

٣٧ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، وبذيله التلخيص، للذهبى، ط أولى حيدر آباد .

٣٨ ـ مسند أحمد، وبهامشه منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندسى، ط الميمنية بمصر .

٣٩ ـ المسند ـ له أيضا ـ تحقيق الأستاذ أحمد شاكر ، دار المعارف بمصر ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

٤٠ ـ مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول، للدكتور أحمد إبراهيم الشريف، ط دار الفكر العربى .

٤١ ـ منهج السنة فى الزواج، للدكتور محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ط أولى ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م .

٤٢ ـ الموطأ، لمالك، تصحيح وترقيم وتعليق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، عيسى البابى الحلبى ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م .

وهناك كتب ومطبوعات أخرى رجعنا إليها، وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه .

الفهــرس

الموضــوع	الصفحــة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضـوع	الصفحـة

* * *

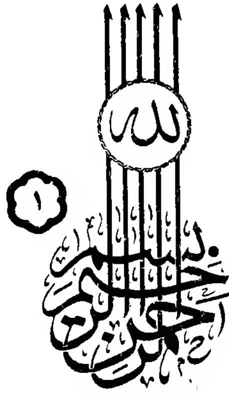
مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(٤)

الطبيعة اليهودية

تأليف
الدكتور سعد المرصفي

مكتبة آلاء
ت ٢٥٢٥٧١٧ ص.ب ١٣١ ٢٠١٣١ الصفاة



(١)

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٢) ٱلرَّحۡمَٰنِ

ٱلرَّحِيمِ (٣) مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ (٤)

إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ (٥)

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ (٦) صِرَٰطَ

ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ

ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ (٧)

الطبيعة اليهودية

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مكتبة المنار الإسلامية
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية



AL-MANAR ISLAMIC BOOK SHOP
Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045
Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tel. 2615045, Fax: 2636854, P.O Box 43099 Hawalli, Postal Coda No. 32045

مقدمـــة

معرفة طبيعة العدو هي خط الدفاع الأول.. واليهود أنفسهم ــ كما يشهد تاريخهم وتنطق آثارهم ــ يدركون أهمية هذه الحقيقة، ويعملون جاهدين على حشد كل جديد من المعلومات التى تفيدهم فى حروبهم!

والمسلمون يعيشون واقعا أليما، حيث ينقصهم هذا الجانب الضروري، كما ينقصهم الإعداد للمواجهة التى لابد منها سواء بسواء! مع أن اليهود قد ورد ذكرهم في القرآن الكريم فى نحو خمسين سورة من مائة وأربع عشرة سورة، وفى السنة النبوية كثير من الأحاديث التى تفوق الحصر والعد، وفى الواقع التاريخي الأليم الذى سجل كثيرا من المعارك الضارية!

وكيف يعيش المسلمون هكذا، وعندهم هذا الحشد الهائل من المعرفة التى تمثل خط الدفاع الأول، وتقود إلى الإعداد للمواجهة الفاصلة عن بينة بما تفرضه ضرورة المعركة ؟!

وحسبنا أن ندرك أن اليهود يحسبون كل حساب لهذا الدين وأهله.. ويعلمون جيدا أن الأرض لا تسعهم وتسع هذا الدين؛ لأنهم يعرفون ما فيه من حق، كما يعرفون أبناءهم، ويعرفون أيضا ما هم فيه من باطل، وأن الجاهلية التى صاروا إليها، وصارت إليها أوضاعهم، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين، أو يبقى عليها، وأنها معارك مستمرة لا تهدأ، حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض، ويستعلى الدين القيم ويكون كله لله..

وحسبنا ــ كذلك ــ أن ندرك أنهم عبر التاريخ يدرسون هذا الدين جيلا بعد جيل دراسة دقيقة عميقة، وينقبون عن أسرار قوته، وعن مداخله إلى النفوس، ومساربه فيها، ويبحثون بجد: كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة فى هذا الدين؟!

ولقد واجهوا الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التي قامت فيها دولة هذا الدين بالمدينة، وكادوا لهذه الأمة منذ اليوم الذى أصبحت فيه أمة، وما تزال هذه المواجهة لم تخب أوارها لحظة!

إنهم هذه الطبيعة الشريرة، والجبلة النكدة، التى ينغل الحقد فى صدورها على الرسالة والرسول، والتى تقود الحرب ضد الإسلام والمسلمين فى جميع الاتجاهات: تصعيدا لحرب

نفسية، ومطاردات جدلية، وفتنا اجتماعية، واغتيالات سياسية، وتحركات عسكرية، وتأليبا للقوى المعادية للإسلام وتجميعها كي تضرب عن قوس واحدة!

ولن يخلص الأرض المغتصبة والعالم كله من هذا الشر المستطير إلا الإسلام وأهله يوم يفيء أهله إليه!

ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى معرفة الطبيعة اليهودية، رجاء أن تكون هذه المعرفة خط الدفاع الأول، لنبدأ المواجهة الفاصلة التى تقود إلى النصر النهائى الذى تنطق به الأدلة من الكتاب والسنة.

وقد اقتضت منهجية البحث أن يشتمل على ما يأتي:

الفصل الأول: طبيعة وعداء.

الفصل الثانى: معركة عقيدة.

الفصل الثالث: غزوة بنى قينقاع.

والله أسأل: التوفيق والسداد، والعون والرشاد، إنه سميع مجيب،

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)

الكويت فى ٢٨ رمضان ١٤١٢ هـ

١ أبريل ١٩٩٢ م.

الفصل الأول

طبيعة وعداء

تمهيد ـ التعنت في الأسئلة ـ قصة البقرة ـ بنو إسرائيل في سورة البقرة ـ سالفة اليهود ـ اليهود المعاصرون للبعثة ـ قدامى المسلمين من لدن إبراهيم ـ حاضر المسلمين وقت البعثة ـ «أشد الناس عداوة».

تمهيد:

لقد شغل اليهود فى القرآن الكريم مكانا كبيرا، حيث ورد ذكرهم فى نحو خمسين سورة من مائة وأربع عشرة سورة..

وقد وجد المسلمون أنفسهم وجها لوجه مع اليهود الذين كانوا يتفاخرون على الأوس والخزرج، والعرب الذين كانوا عبدة الأوثان، وكان اليهود يعرفون صحة التنزيل معرفة واضحة، لا لبس فيها ولا غموض، ولا يتطرق إليها أى شك، كما يعرف الأب ابنه:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

ونلمح باستصحاب الواقع التاريخي، وموقف اليهود من هذا الدين (٢)، أنهم يعرفون أن هذا الكتاب حق، ويعرفون من ثم ما فيه من سلطان وقوة، ومن خير وصلاح، ومن طاقة دافعة للأمة التى تدين بالعقيدة التى جاء بها، وبالأخلاق التي تنبثق منها، وبالنظام الذي يقوم عليها.

ويحسبون كل حساب لهذا الكتاب وأهله، ويعلمون جيدا أن الأرض لا تسعهم وتسع أهل هذا الدين!

إنهم يعرفون ما فيه من حق، ويعرفون ما هم فيه من باطل.. ويعرفون أن الجاهلية التي صاروا إليها، وصارت إليها أوضاع قومهم وأخلاقهم وأنظمتهم، لا يمكن أن يهادنها هذا الدين، أو يبقى عليها. وأنها ـ من ثم ـ معارك مستمرة، لا تهدأ حتى تجلو الجاهلية عن هذه الأرض ويستعلي هذا الدين، ويكون الدين كله لله..

إن أهل الكتاب يعلمون جيدا هذه الحقيقة فى هذا الدين .. ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم.. وهم جيلا بعد جيل يدرسون هذا الدين دراسة دقيقة عميقة، وينقبون عن أسرار قوته، وعن مداخله إلى النفوس، ومساربه فيها، ويبحثون بجد: كيف يستطيعون أن يفسدوا القوة الموجهة في هذا الدين؟!

كيف يلقون بالريب والشكوك في قلوب أهل؟!

---

(١) الأنعام: ٢٠.

(٢) فى ظلال القرآن: ٢: ١٠٦١ بتصرف.

كيف يحرفون الكلم فيه عن مواضعه؟!

كيف يصدون أهله عن العلم الحقيقى به؟!

كيف يحولونه من حركة دافعة تحطم الباطل والجاهلية، وتسترد سلطان الحق فى الأرض، وتطارد المعتدين على هذا السلطان، وتجعل الدين كله لله.. إلى حركة ثقافية باردة، وإلى بحوث نظرية ميتة، وإلى جدل فارغ ؟!

كيف يفرغون مفهوماته فى أوضاع وأنظمة وتصورات غريبة عنه، مدمرة له، مع إيهام أهله أن عقيدتهم محترمة مصونة؟!

كيف في النهاية يملأون فراغ العقيدة بتصورات أخرى، ومفهومات أخرى، واهتمامات أخرى، ليجهزوا على الجذور العاطفية الباقية من العقيدة الباهتة؟

إن أهل الكتاب يدرسون هذا الدين دراسة جادة عميقة فاحصة، لا لأنهم يبحثون عن الحقيقة ـ كما يتوهم السذج من أهل هذا الدين! ـ ولا لينصفوا هذا الدين ـ كما يتصور بعض المخدوعين حيمنا يرون اعترافا من باحث أو مستشرق بجانب طيب فى هذا الدين! ـ كلا! إنما هم يقومون بهذه الدراسة الجادة العميقة الفاحصة، لأنهم يبحثون عن مقتل هذا الدين! لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يميعوها! لأنهم يبحثون عن أسرار قوته ليقاوموه منها! لأنهم يريدون أن يعرفوا كيف يبني نفسه فى النفوس ليبنوا على غراره التصورات المضادة التى يريدون ملء فراغ الناس بها! وهم من أجل هذه الأهداف والملابسات كلها يعرفونه كما يعرفون أبناءهم!

ومن واجبنا نحن أن نعرف ذلك.. وأن نعرف معه أننا نحن الأولى بأن نعرف ديننا كما نعرف أبناءنا!

إن الواقع التاريخي من خلال أربعة عشر قرنا ينطق بحقيقة واحدة.. هي هذه الحقيقة التي يقرها القرآن الكريم فى هذه الآية:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ ﴾

ولكن هذه الحقيقة تتضح في هذه الفترة وتتجلي بصورة خاصة.. إن البحوث التى تكتب عن الإسلام فى هذه الفترة تصدر بمعدل كتاب فى وقت قصير يعجز الخيال الشاخص عن تصوره، بلغة من اللغات الأجنبية.. وتنطق هذه البحوث بمدى معرفة أهل الكتاب بكل صغيرة وكبيرة عن طبيعة هذا الدين وتاريخه، ومصادر قوته، ووسائل

مقاومته، وطرق إفساد توجيهه!

ومعظمهم ـ بطبيعة الحال ـ لا يفصح عن نيته هذه، فهم يعلمون أن الهجوم الصريح على هذا الدين كان يثير حماسة الدفاع والمقاومة، وأن الحركات التى قامت لطرد الهجوم المسلح على هذا الدين ـ الممثل فى الاستعمار ـ إنما كانت ترتكز على قاعدة من الوعي الديني أو على الأقل العاطفة الدينية، وأن استمرار الهجوم على الإسلام ـ ولو في الصورة الفكرية ـ سيظل يثير حماسة الدفاع والمقاومة!

لذلك يلجأ معظمهم إلى طريقة أخبث.. يلجأ إلى إزجاء الثناء لهذا الدين، حتى ينوم المشاعر المتوفزة، ويخدر الحماسة المتحفزة، وينال ثقة القارئ واطمئنانه.. ثم يضع السم فى الكأس ويقدمها مترعة.. هذا الدين عظيم..

ولكنه ينبغى أن يتطور بمفهوماته، ويتطور كذلك بتنظيماته، ليجارى الحضارة الإنسانية الحديثة!

وينبغي ألا يقف موقف المعارضة للتطورات التي وقعت فى أوضاع المجتمع، وفى أشكال الحكم، وفي قيم الأخلاق!

وينبغى ـ فى النهاية ـ أن يتمثل فى صورة عقيدة في القلوب، ويدع الحياة الواقعية تنظمها نظريات وتجارب وأساليب الحضارة الإنسانية الحديثة!

ويقف فقط ليبارك ما تقرره الأرباب الأرضية من هذه التجارب والأساليب.. وبذلك يظل دينا عظيما..!

وفي أثناء عرض مواضع القوة والعمق في هذا الدين ـ وهي ظاهريا تبدو فى صورة الإنصاف الخادع والثناء المخدر ـ يقصد المؤلف قومه من أهل الكتاب، لينبههم إلى خطورة هذا الدين، وإلى أسرار قوته، ويسير أمام الأجهزة المدمرة بهذا الضوء الكشاف، ليسددوا ضرباتهم على الهدف، وليعرفوا هذا الدين كما يعرفون أبناءهم!

إن أسرار هذا القرآن ستظل تتكشف لأصحابه، جديدة دائما، كلما عاشوا فى ظلاله، وهم يخوضون معركة العقيدة، ويتدبرون بوعي أحداث التاريخ، ويطالعون بوعي أحداث الحاضر، ويرون بنور الله الذي يكشف الحق، وينير الطريق...

التعنت فى الأسئلة:

وحين وجد اليهود أن المجادلات قد فشلوا فيها ـ كما سبق ـ ومن ثم خرجوا منها

بالخيبة والخسران .. لجأوا إلى مسلك آخر (١) ، لتشكيك المسلمين فى عقيدتهم. ألا وهو توجيه الأسئلة المتعنتة إلى الرسول ﷺ، بقصد إحراجه، وإظهاره بمظهر العاجز عن إجابة مطالبهم..

وقد سجل القرآن الكريم هذا المسلك الخبيث من اليهود، ووبخهم عليه، فقال تعالى:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٢)

روى ابن جرير (٣) عن محمد بن كعب القرظي قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: إن موسى جاء بالألواح من عند الله، فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدقك، فأنزل الله:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾

إلى قوله:

﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ (٤)

وأخرج عن ابن جريج، قال: وذلك أن اليهود والنصاري أتوا النبي ﷺ، فقالوا: لن نتابعك على ما تدعونا إليه، حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان، أنك رسول الله، وإلى فلان بكتاب، أنك رسول الله، قال الله جل ثناؤه:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾

قال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن أهل التوراة سألوا رسول الله ﷺ أن يسأل ربه أن ينزل عليهم كتابا من السماء آية، معجزة جميع الخلق عن أن يأتوا بمثلها، شاهدة لرسول الله ﷺ بالصدق، آمرة لهم باتباعه، وجائز أن يكون الذى

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ١ : ٢٥٧ بتصرف.

(٢) النساء: ١٥٣ ــ ١٥٤.

(٣) تفسير الطبري: ٦ : ٧ ــ ٨ بتصرف.

(٤) النساء: ١٥٦ .

سألوه من ذلك كتابا مكتوبا ينزل عليهم من السماء إلى جماعتهم، وجائز أن يكون ذلك كتبا إلى أشخاص بعينهم، بل الذي هو أولى بظاهر التلاوة أن تكون مسألتهم إياه ذلك كانت مسئلة، لينزل الكتاب الواحد إلى جماعتهم، لذكر الله تعالى فى خبره عنهم الكتابِ بلفظ الواحد، يقول:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

ولم يقل: كتبا.

لقد وقف اليهود فى الجزيرة من الرسالة والرسول ﷺ ذلك الموقف العدائي المتعنت المكشوف [1]، وكادوا له ذلك الكيد المبيت المستمر العنيد، الذي وصفه القرآن تفصيلا، واستعرضنا ألوانا منه فيما سبق.. وهذا الذى تقصه الآيات هنا لون آخر.

إنهم يتعنتون فيطلبون إلى خاتم النبيين ﷺ أن يأتيهم بكتاب من السماء.. كتاب مخطوط ينزل عليهم من السماء.. يلمسونه بأيديهم..

ويتولى الحق الإجابة عن النبي ﷺ .. ويقص عليه وعلى الجماعة المسلمة ــ فى مواجهة اليهود ــ صفحة من تاريخهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم موسى عليه السلام.. الذي يزعمون أنهم يؤمنون به، ويرفضون التصديق بعيسى من بعده وبمحمد!

إن هذه الجبلة ليست جديدة عليهم، وليست طابع هذا الجيل وحده منهم، إنما هي جبلتهم من قديم!

إنهم هم من عهد موسى نبيهم وقائدهم ومنقذهم!

إنهم هم غلظ حس، فلا يدركون إلا المحسوسات!

وهم هم تعنتا وإعناتا، فلا يسلمون إلا تحت القهر والضغط!

وهم هم كفرا وغدرا، فسرعان ما ينقلبون فينقضون عهدهم، لا مع الناس وحدهم، ولكن مع ربهم كذلك!

وهم هم قحة وافتراء، فلا يعنيهم أن يتثبتوا من قول، ولا هم يتورعون كذلك عن الجهر بالمنكر!

وهم هم طمعا فى عرض الحياة الدنيا، وأكلا لأموال الناس بالباطل، وإعراضا عن أمر

---

(١) في ظلال القرآن: ٢: ٧٩٩ بتصرف.

اللّه وعما عنده من ثواب!

إنها حملة تفضحهم وتكشفهم، وتدل قوتها وتنوع اتجاهاتها، على ما كان يقتضيه الموقف لمواجهة خبث الكيد اليهودى للرسالة والرسول ﷺ في ذلك الأوان!

وهو هو خبث الكيد الذي ما يزالون يزاولونه ضد هذا الدين وأهله حتى الآن:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾

فلا عليك من هذا التعنت، ولا غرابة فيه ولا عجب منه:

﴿ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

ولم تبلغ الآيات البينات التى أظهرها اللّه لهم على يد نبيهم موسى أن تلمس حسهم، وتوقظ وجدانهم، وتقود قلوبهم إلى الطمأنينة والاستسلام، فإذا هم يطلبون رؤية اللّه سبحانه عيانا! وهو مطلب طابعه التبجح الذى لا يصدر عن طبع خالطته بشاشة الإيمان، أو فيه استعداد للإيمان:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (١)

قال ابن جرير(٢): وتأويل ذلك: واذكروا أيضا إذ قلتم ياموسى لن نصدقك، ولن نقر بما جئتنا به حتى نرى الله جهرة عيانا، برفع الساتر بيننا وبينه، وكشف الغطاء دوننا ودونه، حتى ننظر إليه بأبصارنا.. وأخرج عن ابن عباس قال: علانية.. وعن ابن زيد: حتى يطلع إلينا..

إن اليهود هم اليهود! هم كثافة حس، ومادية فكر، واحتجاب عن مسارب الغيب! إنهم يطلبون أن يروا الله جهرة، والذى طلب هذا ـ كما روى ابن جرير ـ هم السبعون المختارون منهم، الذين اختارهم موسى لميقات ربه:

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾ (٣)

---

(١) البقرة: ٥٥. (٢) تفسير الطبرى: ١: ٢٨٩ بتصرف. (٣) الأعراف: ١٥٥.

روى ابن جرير[1] عن محمد بن إسحاق قال: لما رجع موسى إلى قومه، ورأى ما هم فيه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامرى ما قال، وحرّق العجل وذراه فى اليم، اختار موسى منهم سبعين رجلا الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله عز وجل،فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهّروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا باذن منه وعلم، فقال له السبعون، فيما ذكر لى، حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا للقاء الله: ياموسى اطلب لنا إلى ربك، لنسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه الحجاب، ودنا للقوم، حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا، فسمعوه وهو يكلّم موسى يأمره وينهاه،افعل ولا تفعل.فلما فرغ من أمره، وانكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى:

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتهم الرجفة، وهى الصاعقة، فماتوا جميعا، وقام موسى يناشد ربه ويدعوه، ويرغب إليه ويقول:

﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾

قد سفهوا، أفتهلك من ورائى من بنى إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟ أى أن هذا لهم هلاك، اخترت منهم سبعين رجلا، الخير فالخير أرجع إليهم، وليس معى منهم رجل واحد، فما الذى يصدقونى به، أو يأمنونى عليه بعد هذا؟(إنا هدنا إليك) فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل، ويطلب إليه، حتى رد إليهم أرواحهم، فطلب إليه التوبة لبنى إسرائيل من عبادتهم العجل، فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم.

وروى أيضا عن السدى: لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل، وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضا كما أمرهم به، أمر الله موسى أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل،ووعدهم موعدا، فاختار موسى من قومه سبعين رجلا على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان:

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾

---

(١) المرجع السابق: ٢٩١ باصرف.

وساق البقية.. وقال ابن كثير(١): وهذا السياق يقتضى أن الخطاب توجه إلى بنى إسرائيل فى قوله:

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

والمراد: السبعون المختارون منهم، ولم يحك كثير من المفسرين سواه..

القول الثانى فى الآية: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح، قد كتب فيها التوراة، فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم، ففعلوا فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله، فيه أمركم الذى أمركم به، ونهيكم الذى نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذه بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله علينا، فيقول: هذا كتابى فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى، وقرأ قول الله:

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

قال ابن جرير بعد أن ذكر الأقوال الكثيرة الواردة فى سبب قولهم ذلك لموسى(٢): الصواب من القول فيه أن يقال: إن الله جل ثناؤه قد أخبر عن قوم موسى أنهم قالوا له:

﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾

كما أخبر عنهم أنهم قالوه، وإنما أخبر الله عز وجل بذلك عنهم الذين خوطبوا بهذه الآيات توبيخا لهم فى كفرهم بمحمد ﷺ، وقد قامت حجته على من احتج به عليه، ولا حاجة لمن انتهت إليه إلى معرفة السبب الداعى لهم إلى قيل ذلك، وقد قال الذين أخبرنا عنهم الأقوال التى ذكرناها، وجائز أن يكون بعضها حقا كما قال.

قلت: وسواء كان هذا أو ذاك،فإن اليهود هم اليهود، يرفضون الإيمان إلا أن يروا الله عيانا! والقرآن الكريم يواجههم هنا بهذا الذى كان منهم، لينكشف تعنتهم القديم الذى يشابهه تعنتهم الجديد مع خاتم النبيين، وطلبهم الخوارق منه بهذه الصورة! حقا، إنها طبيعة اليهود، تلك التى تشمل الجميع، ولا يكادون يتفاوتون فيها إلا بمقدار. وأعجب شيء أن يقولها آباؤهم وهم فى مقام التوبة والاستغفار!

والآيات الكثيرة(٣)، والنعم الإلهية، والعفو والمغفرة.. كلها لا تغير من تلك الطبيعة

(١) تفسير ابن كثير: ١: ٩٤ بتصرف.

(٢) تفسير الطبرى: ١: ٢٩٣.

(٣) فى ظلال القرآن: ١: ٧٢ بتصرف.

الجاسية القاسية، التى لا تؤمن إلا بالمحسوس، والتى تظل مع ذلك تجادل وتماحل ولا تستجيب إلا تحت واقع العذاب والتنكيل، مما يوحى بأن فترة الإذلال التى عاشوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفسادا عميقا!

ولا نعرف إفسادا أشد للفطرة من الذل الذى ينشئه الطغيان الطويل، والذى يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد.. استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمردا حين يرفع عنها السوط، وتبطرا حين يتاح لها شىء من النعمة والقوة..، وهكذا كان اليهود! وهكذا هم فى كل حين:

﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ﴾

اليهود هم اليهود! لا يفلح معهم إلا القهر والخوف:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾

ولكن اليهود الذين لا تستشعر قلوبهم الإيمان أبوا الاستسلام.. وهنا جاءهم القهر المادى الذى يناسب طبيعتهم الغليظة..

قال ابن كثير(١): وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى عليه السلام، ورفع الله على رؤوسهم جبلا، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى ما فوق رءوسهم، خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٢)

إن اليهود نظروا فرأوا الجبل فوق رؤوسهم(٣)، يهددهم بالوقوع عليهم، إذا هم لم يستسلموا ولم يتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد، وما كتب عليهم.. عندئذ فقط استسلموا، وأخذوا العهد، وأعطوا الميثاق.. ميثاقا غليظا.. مؤكدا وثيقا.. يذكره بهذه الصفة ليتناسق المشهد مع غلظ الصخر المرفوع فوقهم، وغلظ القلب الذى فى صدورهم، ثم يعطى إلى جانب التناسق معنى الجسامة والوثاقة والمتانة، على طريقة القرآن الكريم فى التعبير بالتصوير، وبالتخييل الحسى والتجسيم.

(١) تفسير ابن كثير: ١: ٥٧٣ بتصرف. (٢) الأعراف: ١٧١.
(٣) فى ظلال القرآن: ٢: ٨٠٠ بتصرف.

ولكن ماذا كان؟ إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم، وغياب القهر لهم، تملصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه بغير حق، وتبجحوا فقالوا: إن قلوبنا لا تقبل موعظة، ولا يصل إليها قول؛ لأنها غلف دون كل قول! وفعلوا كل الأفاعيل التي يقصها الله سبحانه على رسوله وعلى المسلمين، في مواجهة اليهود، في سياق هذه الآيات:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (١)

وهنا نبصر أن كفرهم جرّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته، فلا يقع منهم الإيمان، إلا قليلا من أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق واستشرفوه، فهداهم الله إليه ورزقهم إياه، وهم ــ كما أسلفنا ــ قلة قليلة.

وبعد هذا الاستدراك والتعقيب، يعود السياق إلى تعداد الأسباب التي استحقوا عليها ما استحقوا من تحريم بعض الطيبات عليهم في الدنيا، ومن إعداد النار وتهيئتها لهم، لتكون في انتظارهم في الآخرة:

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾

وقولهم

ويكرر صفة الكفر هنا كلما ذكر إحدى منكراتهم. فقد ذكرها عند قتلهم الأنبياء

---

(١) النساء: ١٥٥ــ١٥٩.

بغير حق:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (١)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (٢)

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (١)

وما يقتل نبى بحق أبدا، فهى حال التقرير الواقع!

وذكرها فى كثير من الآيات التى عرضناها لها من قبل.. وذكرها هنا بمناسبة قولهم على مريم بهتانا عظيما ـ كما سبق ـ حيث قالوا على مريم الطاهرة ذلك المنكر الذى لا يقوله إلا اليهود! ثم تبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه، وهم يتهكمون بدعواه الرسالة فيقولون: قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله!

وحين يصل السياق إلى هذه الدعوى منهم يأتى الرد عليها، وتقرير الحق فيها:

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

ومن قبيل الأسئلة المتعنتة ما رواه الشيخان عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال (٤)

بينا أنا مع النبى ﷺ فى حرث ـ وهو متكئ على عسيب ـ إذ مر اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الرُّوح، فقال ما رَابكم إليه ـ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشىء تكرهونه ـ فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبى ﷺ فلم يردُّ عليهم شيئا، فعلمت أنه يُوحى إليه، فقمت مقامى، فلما نزل الوحى قال:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٣)

---

(١) البقرة: ٦١. (٢) آل عمران: ٢١. (٣) آل عمران: ١١٢.

(٤) البخارى: ٦٥ ـ التفسير (٤٧٢١) ومسلم: ٥٠ ـ صفات المنافقين ٣٢ (٢٧٩٤).

(٥) الإسـراء: ٨٥.

ويروى مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال:

كنت قائما عند رسول الله ﷺ . فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمدُ! فدفعتُه دفعة كاد يُصْرَعُ منها. فقال: لِم تدفعنى؟

فقلت ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهودى: إنما ندعوه باسمه الذى سمّاه به أهلُه،فقال رسول الله ﷺ :

« إن اسمى محمدٌ الذى سمّانى به أهلى»

فقال اليهودى: جئت أسألك. فقال له رسول الله ﷺ:

«أينفعُك شيء إن حدَّثتك؟»

قال: أسمع بأذُنَيَّ. فَنكتَ رسولُ الله ﷺ بعود معه.

فقال:

« سلْ »

فقال اليهودى: أين يكون الناس يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ:

«هم فى الظلمة دون الجِسر»

قال: فمن أول الناس إِجازة؟ قال:

« فقراءُ المهاجرين»

قال اليهودى: فما تُحْفَتُهُمْ حين يدخلون الجنة؟ قال:

« زيادة كبد النُّون »

قال: فما غذاؤهم على إِثْرها؟ قال:

«يُنحر لهم ثورُ الجنة الذى كان يأكل من أطرافها»

قال: فما شرابُهم عليـه؟ قال:

« من عين فيهـا تسمَّى سلسبيلا»

قال: صدقْتَ. قال: وجئـت أسألك عن شىء لا يعلمه أحد من أهل الأرض. إلا نبىٌّ أو رجل أو رجلان. قال:

«ينفعك إن حدثتك؟»

قال: أسمع بأذنىّ. قال جئت أسألك عن الولد؟ قال:

«ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر. فإذا اجتمعا فَعَلا منىٌّ الرجل منىَّ المرأة أذْكَرَا بإذن الله. وإذا عَلا مَنِىٌّ المرأة منىَّ الرجل أنثا بإذن الله» .

قال اليهودى: لقد صدقتَ. وإنك لنبىٌّ. ثم انصرف فذهب. فقال رسول الله ﷺ:

« لقد سألنى هذا عن الذى سألنى عنه. ومالى علمٌ بشىءٍ منه. حتى أتانِىَ الله به»(١).

قـصـة البـقـرة:

إنه التنطع فى الدين، والتهرب من الانصياع لكلمة الحق، إما للتحلل من الامتثال، وإما لانطماس بصيرتهم عن فهم مقاصد الشريعة..

وقصة أمرهم بذبح بقرة على لسان نبيهم موسى عليه السلام خير دليل على ذلك، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ

(١) مسلم: ٣ ـ الحيض ٣٤ (٣١٥).

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠
قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ
ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ۝٧١ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ
وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧٢ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ
ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٧٣ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ
وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا
لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

جاء في المنار(٢): هذه القصة مما أراد الله تعالى أن يقصه علينا من أخبار بني إسرائيل في قسوتهم وفسوقهم للاعتبار بها.

ومن وجوه الاعتبار أن التنطع في الدين والإحفاء في السؤال، مما يقتضي التشديد في الأحكام، فمن شَدَّ شُدِّد عليه، ولذلك نهى الله تعالى هذه الأمة عن كثرة السؤال بقوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ
يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٠١ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ
مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ (١)

يروي البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال(٤):

« لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » .

قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم حنين. فقال رجل: من أبي؟ قال:

« أبوك فلان »

---

(١) البقرة: ٦٧ ـ ٧٤.

(٢) تفسير المنار: ١: ٣٤٥ بتصرف.

(٣) المائدة: ١٠١ ـ ١٠٢.

(٤) البخاري: ٦٥ ـ التفسير (٤٦٢١).

فنزلت هذه الآيـــة:

﴿ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾

ويروى مسلم عنه قال: بلغ رسولَ الله ﷺ عن أصحابه شىء. فخطب فقال [1]:

« عُرِضت علىّ الجنة والنار. فلم أر كاليوم فى الخير والشر. ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» .

قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشدُّ منه. قال: غطُّوا رؤوسهم ولهم حنين. قال: فقام عمر فقال: رضينا بالله ربا. وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا . قال: فقام ذاك الرجل فقال: من أبِى؟ قال:

« أبوك فلان » .

فنـزلـت:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾

وفى رواية للشيخين عنه أن النبى ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر، فلما سلم قام على المنبر فذكر الساعة وذكر أن بين يديها أمورا عظاما، ثم قال:

« من أحب أن يسأل عن شىء فليسأل عنه، فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم به ما دمت فى مقامى هذا» .

قال أنس: فأكثر الناس البكاء، وأكثر رسولُ الله ﷺ أن يقول:

« ســـلونـــى »

فقال أنس: فقام إليه رجل فقال: أين مَدْخلى يا رسول الله؟ قال:

---

(١) مسلم: ٤٣ ــ الفضائل ١٣٤ (٢٣٥٩) وقوله فى رواية البخارى:« حنين » ومسلم « خنين» قال ابن حجر: حنين الحاء المهملة للأكثر، وللكشميهنى بالخاء المعجمة، والأول: الصوت الذى يرتفع بالبكاء من الصدر، والثانى من الأنف، وقال الخطابى: الحنين بكاء دون الانتحاب، وقد يجعلون الحنين والخنين واحدا، إلا أن الحنين من الصدر، والخنين من الأنف، بالمعجمة: فتح البارى: ٨: ٢٨١ .

النار .

فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبى يارسول الله؟ قال:

« أبوك حذافة»

قال: ثم أكثر أن يقول:

« سلونى . سلونى»

فبرَك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا. قال: فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك. ثم قال رسول الله ﷺ:

« أوْلى. والذى نفسى بيده! لقد عُرضت علىّ الجنة والنار آنفا فى عُرْض هذا الحائط، وأنا أصلى، فلم أر كاليوم فى الخير والشر » (١).

قال الشيخ محمد عبده(٢): جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذى لم يسبق إليه ولم يلحق فيه، فهو لم يلزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب فى تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع، حتى فى القصة الواحدة.

وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك الفكر إلى النظر تحريكا، ويهز النفس للاعتبار هزا. وقد راعى فى قصص بنى إسرائيل أنواع المنن التى منحهم الله تعالى إياها، وضروب الكفران والفسوق التى قابلوها بها، وما كان فى أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات، وابتلائهم بالحسنات والسيئات، وكيف كانوا يحدثون فى إثر كل عقوبة توبة، ويحدث لهم فى إثر كل توبة نعمة، ثم يعودون إلى بطرهم، وينقلبون إلى كفرهم!

كان فى الآيات السابقة يذكر النعمة فالمخالفة فالعقوبة فالرحمة، كالتفضيل على العالمين، وأخذ الميثاق، والإنجاء من آل فرعون، وما كان فى أثر ذلك ـ كما أوضحنا من

(١) البخارى: ٩٦ ـ الاعتصام (٧٢٩٤) ومسلم: ٤٣ ـ الفضائل ١٣٦ (ت ٢٣٥٨) قال النووى: أما لفظة أوْلى فهى تهديد ووعيد. وقيل: كلمة تلهف، فعلى هذا يستعملها من نجا من أمر عظيم، والصحيح المشهور أنها للتهديد، ومعناها قرب منكم ما تكرهونه. صحيح مسلم بشرح النووى: ١٥: ١١٣.

(٢) تفسير المنار : ١: ٣٤٦ بتصرف.

من قبل وفصلنا ـ وفى هذه القصة اختلف النسق، فذكر المخالفة بعد، فى قوله:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا﴾

ثم المنة فى الخلاص منها فى قوله:

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾

وقدم على ذلك ذكر وثيقة الخلاص، وهى ذبح البقرة بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ما وراءها، حيث لم يسبق فى الكلام عهد بسبب أمر موسى لقومه أن يذبحوا البقرة، فالمفاجأة بحكاية ما كان من ذلك الأمر والجدال الذى وقع فيه يثير الشوق فى الأنفس إلى معرفة السبب، فتتوجه الفكرة بأجمعها إلى تلقيه، إذ الحكمة فى أمر الله أمة من الأمم بذبح بقرة خفية، وجديرة بأن يعجب منها السامع ويحرص على طلبها.لا سيما إذا لم يعتد فهم الأساليب الأخاذة بالنفوس الهازلة للقلوب.

إن قصة البقرة هنا مفصلة فى صورة حكاية(١)، على غير ما سبق ذكره فى الآيات، ذلك أنها لم ترد من قبل فى السور المكية، كما أنها لم ترد فى موضع آخر، وهى ترسم سمة اللجاجة والتعنت والتلكؤ فى الاستجابة، وتمحل المعاذير، التى يتسم بها اليهود!

وفى هذه القصة القصيرة ـ كما يعرضها السياق القرآنى ـ مجال للنظر فى جوانب شتى..

جانب دلالاتها على طبيعة اليهود، وجبلتهم الموروثة!

وجانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة!

ثم جانب الأداء المعجز فى عرض القصة بدءًا ونهاية واتساقا مع السياق..

إن السمات الرئيسة لطبيعة اليهود تبدو واضحة فى قصة البقرة هذه:

انقطاع الصلة بين قلوبهم وذلك النبع الشفيف الرقراق: نبع الإيمان بالغيب، والثقة بالله، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل. ثم التلكؤ فى الاستجابة للتكاليف، وتلمس الحجج والمعاذير والسخرية المنبعثة من صفات الجنان وسلاطة اللسان!

---

(١) فى ظلال القرآن : ١:٧٧ وما بعدها بتصرف.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾

وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفى للاستجابة والتنفيذ. فنبيهم هو زعيمهم الذى أنقذهم من العذاب المهين، برحمة من الله ورعاية وتعليم، وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه، إنما هو أمر الله، الذى يسير بهم على هداه.. فماذا كان الجواب؟

لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب، واتهاما لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم! كأنما يجوز لإنسان يعرف الله ـ فضلا عن أن يكون رسول الله ـ أن يتخذ اسم الله وأمره مادة مزاح وسخرية بين الناس:

﴿ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾

وكان رد موسى على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله، وأن يردهم برفق، وعن طريق التعريض والتلميح، إلى جادة الأدب الواجب فى حق الخالق جل علاه، وأن يبين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بجاهل بحق الله،لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه:

﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

يقول المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين:

وقد نبهت الآية الكريمة على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير، ومن الجهل ما يلقى صاحبه فى أسوأ العواقب، ويقذف به فى عذاب الحريق، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها فى مقام المزح والهزل، وقالوا: إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى بتدبر وخشوع، وليعمل به بتقبل وخضوع (١).

وكان فى هذا التوجيه كفاية ليثوبوا إلى أنفسهم، ويرجعوا إلى ربهم، وينفذوا أمر نبيهم.. ولكنهم هم اليهود!

نعم لقد كان فى وسعهم - وهم فى سعة من الأمر ـ أن يمدوا أيديهم إلى أية بقرة فيذبحوها، فإذا هم مطيعون لأمر الله، مفذون لإشارة رسوله. ولكن طبيعة التلكؤ والالتواء تدركهم، فإذا هم يسألون:

﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة: ٢: ١٧٠ نقلا عن: مجلة لواء الإسلام: العدد السابع: السنة الثانية:٨.

والسؤال بهذه الصيغة يشى بأنهم ما يزالون فى شكهم أن يكون موسى هازئا فيما أنهى إليهم!

فهم أولا: يقولون: «ادع لنا ربك» فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك! وكأن المسألة لا تعنيهم هم، إنما تعنى موسى وربه!

وهم ثانيا: يطلبون منه أن يدعو ربه ليبين لهم: «ما هى؟» والسؤال عن الماهية فى هذا المقام ـ وإن كان المقصود الصفة ـ إنكار واستهزاء.. «ما هى؟» إنها بقرة. وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولا سمة. بقرة وكفى!

قال الشيخ محمد عبده[1]: إن السؤال «بما هى» ليس جاريا هنا على اصطلاح علماء المنطق من جعله سؤالا عن حقيقة الماهية، وإنما هو على حسب أسلوب اللغة، والعرب يسألون «بما» عن الصفات التى تميز الشىء فى الجملة، كالذى ذكره فى الجواب:

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾

وهنا يردهم موسى إلى الجادة[2]، بأن يسلك فى الإجابة طريقا غير طريق السؤال. إنه لا يجبهم بانحرافهم فى صيغة السؤال، كى لا يدخل معهم فى جدل شكلى.. إنما يجيبهم كما ينبغى أن يجيب المعلم المربى من يبتليه الله بهم من السفهاء المنحرفين. يجيبهم عن صفة البقرة، بأنها لا هى عجوز ولا هى شابة، وإنما هى وسط بين هذا وذاك.

ثم يعقب على هذا البيان المجمل بنصيحة آمرة حازمة:

﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾

ولقد كان فى هذا كفاية لمن يريد الكفاية، وكان حسبهم وقد ردهم نبيهم إلى الجادة مرتين، ولمح لهم بالأدب الواجب فى السؤال وفى التلقى. أن يعمدوا إلى أية بقرة من أبقارهم، لا عجوز ولا صغيرة، متوسطة السن، فيخلصوا بها ذمتهم، وينفذوا بذبحها أمر ربهم، ويعفوا أنفسهم من مشقة التعقيد والتضييق.. ولكن اليهود هم اليهود!

لقد راحوا يسألون:

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾

---

(١) تفسير المنارة: ١: ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٢) فى ظلال القرآن: ١: ٧٨ بتصرف.

هكذا مرة أخرى: «ادع لنا ربك»!

قال ابن جرير[1] وهذا أيضا تعنت آخر منهم بعد الأول، وتكلف طلب ما قد كانوا كفوه فى المرة الثانية والمسألة الآخرة، وذلك أنهم لم يكونوا حصروا فى المرة الثانية، إذ قيل لهم بعد مسألتهم عن حلية البقرة التى كانوا أمروا بذبحها، فأبوا إلا تكلف ما قد كفوه من المسألة عن صفتها، فحصروا على نوع دون سائر الأنواع، عقوبة من الله لهم على مسألتهم التى سألوها نبيهم ﷺ تعنتا منهم له، ثم لم يحصرهم على لون منها دون لون، فأبوا إلا تكلف ما كانوا عن تكلفه أغنياء، فقالوا تعنتا منهم لنبيهم ﷺ:

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾

فقيل لهم عقوبة لهم:

﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾

فحصروا على لون منها دون لون.

ولم يكن بد ـ وقد شققوا الموضوع وطلبوا التفصيل ـ أن يأتيهم الجواب بالتفصيل.. وهكذا ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار ـ وكانوا من الأمر فى سعة ـ فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا، لا عن بقرة.. مجرد بقرة.. بل عن بقرة متوسطة السن، لا عجوز ولا صغيرة، وهى بعد هذا صفراء فاقع لونها، وهى بعد هذا وذاك ليست هزيلة ولا شوهاء:

﴿ تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾

وسرور الناظرين لا يتم إلا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع فى تلك البقرة المطلوبة، فهذا هو الشائع فى طباع الناس: أن يعجبوا بالحيوية والاستواء ويسروا، وأن ينفروا من الهزال والتشويه ويشمئزوا.

ولقد كان فى هذا التلكؤ كفاية ولكنهم يمضون فى طريقهم، يعقدون الأمور، ويشددون على أنفسهم، فيشدد الله عليهم!

لقد عادوا مرة أخرى يسألون عن الماهية:

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾

---

(١) تفسير الطبرى: ١: ٣٤٤ بتصرف.

ويعتذرون عن السؤال وعن ذلك التلكؤ بأن الأمر مشكل:

﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾

وكأنما استشعروا لجاجتهم هذه المرة، فهم يقولون:

﴿ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

ولم يكن بد كذلك أن يزيد الأمر عليهم مشقة وتعقيدا، وأن تزيد دائرة الاختيار المتاحة لهم حصرا وضيقا، بإضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة، كانوا فى سعة منها وفى غنى عنها:

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾

وهكذا لم تعد بقرة متوسطة العمر صفراء فاقع لونها فارهة فحسب. بل لم يعد أن تكون مع هذا بقرة غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقى الزرع، وأن تكون كذلك خالصة اللون لا تشوبها علامة.

هنا فقط .. وبعد أن تعقد الأمر وتضاعفت الشروط، وضاق مجال الاختيار:

﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾

الآن! كأنما كان كل ما مضى ليس حقا. أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة!

﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

عند ئذ ـ وبعد تنفيذ الأمر والنهوض بالتكليف ـ كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف:

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

وهنا نصل إلى الجانب الثانى من جوانب القصة.. جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة.. وهنا يتغير السياق من الحكاية إلى الخطاب والمواجهة..

لقد كشف الحق لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة.. لقد كانوا قد قتلوا نفسا منهم، ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه. ولم يكن هناك شاهد، فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته، وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة الذبيح.. وهكذا كان، فعادت إليه الحياة، ليخبر بنفسه عن قاتله، وليجلو الريب والشكوك التي أحاطت بمقتله، وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين.

وهاتان قصتان ـ كما قال صاحب الكشاف [1] ـ كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع، وإن كانتا متصلتين متحدتين.

فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك.

والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة.

وإنما قدم قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض من تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعد ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها، أن وصلت بالأولى، دلالة على اتحادهما، بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله: «اضربوه ببعضها» حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثنيته، بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها،وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة.

ونلاحظ أن القرآن الكريم أسند القتل إلى الأمة وإن كان القاتل واحدا ـ كما جاء في المنار [2] ـ باعتبار أن الأمة في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد. والتدارؤ تفاعل من الدرء، وهو الدفع، فمعناه التدافع، وهو يدل على وجود الخصام والاتهام، وأن كلا يدرأ عن نفسه ويدعي البراءة ويتهم غيره، وكان للقاتلين والعارفين بهم حظوظ وأهواء كتموا فيها الحقيقة، ولذلك قال تعالى بعد التذكير بالجريمة:

﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾

من الإيقاع بقوم برآء تتهمونهم بالقتل لإخفاء القاتل؛ أنه لا يخفى عليه مكركم.

وأما قوله:

---

(١) تفسير الكشاف: ١ ـ ٧٦ دار المعرفة. (٢) تفسير المنار: ١ : ٣٥٠ بتصرف.

﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾

فهو بيان لإخراج ما يكتمون.

ولكن فيم كانت هذه الوسيلة (١)، والله قادر على أن يحيي الموتي بلا وسيلة؟

ثم ما مناسبة البقرة المذبوحة مع القتيل؟

إن البقر يذبح.. وما في البعض الذي ضرب به القتيل حياة ولا قدرة على الإحياء..

والأمر لا يعدو أن يكون مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله، التى لا يعرف البشر كيف تعمل. فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها ولا طريقها فى العمل:

﴿ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾

كذلك بمثل هذا الذي ترونه واقعا ولا تدرون كيف وقع، وبمثل هذا اليسر الذي لا مشقة فيه ولا عسر.

إن المسافة بين حقيقة الموت وحقيقة الحياة مسافة شاسعة واسعة، هائلة تدير الرؤوس. ولكنها في حساب القدرة الإلهية أمر يسير.. كيف؟ هذا ما لا أحد يدريه.. وما لا يمكن لأحد إدراكه..

إن إدراك الماهية والكيفية هنا سر من أسرار الألوهية، لا سبيل إليه فى عالم الفانين! وإن يكن فى طوق العقل البشرى إدراك دلالته والاتعاظ بها:

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

وتعقيبا على هذا المشهد الأخير من القصة الذي كان من شأنه أن يستجيش فى قلوب بني إسرائيل الحساسية والخشية والتقوى، وتعقيبا كذلك على كل ما سلف من المشاهد والأحداث والعبر والعظات، تجيء هذه الخاتمة المخالفة لكل ما كان يتوقع ويرتقب:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

جاء فى المنار: (٢) وصفهم الله تعالى بأنه قد طرأ عليهم بعد رؤية تلك الآيات مأزال

---

(١) فى ظلال القرآن: ١:٧٩ بتصرف.

(٢) تفسير المنار: ١: ٣٥٢ وما بعدها بتصرف.

أثرها من قلوبهم، وذهب بعبرتها من عقولهم، فقال:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

فالعطف بثم يفيد أن من الأولين منهم من قد خشعت قلوبهم ـ كما أسلفنا ـ لما رأوا في زمن موسى عليه السلام ما رأوا، ثم خلف من بعدهم خلف كان أمر قسوتها ما وصفه عز وجل. والقسوة: الصلابة، وهي من صفات الأجسام. ووصف القلوب بالقسوة مجاز تشبيه، مما يسمونه الاستعارة بالكناية، ويصح فى «أو» الترديد والتشكيك، وهو بالنسبة إلى المخاطبين لا إلى المتكلم، باعتبار ما يعهد فى التخاطب العربي، كأن عربيا يحدث آخر يقول له: إن هذه القلوب فى قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها. ويصح فيها التقسيم: أى أن القسوة عمت قلوبكم، فأقلها قسوة يشبه الحجر الصلد، ومنها ما هو أشد منه قسوة، وأظهر منهما أن تكون للإضراب، على طريقة المبالغة، أي بل هي أشد قسوة من الحجارة، إذ لا شعور فيها يأتي بخير، ولا عاطفة تفيض منها بعبرة، والحجارة ليست كذلك؛ لأن منها ما يفيض بالخيرات، ومنها ما يكون موضع ظهور آثار القدرة الإلهية فى الجمادات.

وصف الحجارة بتلك الصفات بعد أن شبه القلوب بها فى الصلابة المطلقة، وفرق بين القلوب وبينها بالإضراب والانتقال إلى أن القلوب أشد صلابة، وأراد أن يبين بهذه الصفات وجه ضعف الصلابة فى الحجارة وشدتها فى القلوب مكان الكلام يشبه أن يكون عذرا عن الحجارة دون القلوب..

وفى الكلام من المبالغة أن هذه القلوب فقدت خاصة التأثر والانفعال، بمايرد عليها من المواعظ والآيات التي هي من خواص الروح الإنساني، حتى كأن أصحابها هبطوا من درجة الحيوان إلى دركة الجماد كالحجارة، بل نزلوا عن دركة الحجارة أيضا، وذلك ما أفاده قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

قال ابن القيم(١): وفى هذه القصة أنواع من العبر:

ـ منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله ﷺ.

ـ ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.

(١) إغاثة اللهفان: ٢ : ٣١٤ بتصرف.

ـ ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.

ـ ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.

ـ ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدي، وإعذارا وإنذارا للضال.

ـ ومنها: أنه لا ينبغى مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال... ولكن لما تعنتوا وشددوا شُدد عليهم.

روى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لو أن القوم نظروا أدنى بقرة ـ يعنى بنى إسرائيل ـ لأجزأت عنهم، ولكنهم شددوا فشدد عليهم، فاشتروها بملء جلدها دنانير [1].

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذى لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر . فإن القوم لما قال لهم نبيهم: «إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» قابلوا هذا الأمر بقولهم: «أتتخذنا هزوا؟» فلما لم يعلموا وجه الحكمة فى ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه، قالوا: «أتتخذنا هزوا؟» وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله. فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الأمر به. ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك. فلما قال لهم:«أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» وتيقنوا أن اللّٰه سبحانه أمره بذلك، أخذوا فى التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها. فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال، توقفوا فى الامتثال. ولم يكادوا يفعلون!

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم: قولهم لنبيهم: «**الآن جئت بالحق**» فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر. وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام فى تعيين البقرة المأمور بذبحها. فذلك جهل ظاهر. فإن البيان قد حصل بقوله: «إن اللّٰه يأمركم أن تذبحوا بقرة» فإنه لا إجمال فى الأمر، ولا في الفعل، ولا فى

---

(١) تفسير الطبرى: ١: ٣٤٨.

المذبوح. فقد جاء رسول اللّه بالحق من أول مرة.

قال ابن جرير[1]: وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم، وكفروا بقولهم لموسي «الآن جئت بالحق» ويزعم أنهم نفوا أن يكون موسى أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك من فعلهم وقيلهم كفر، وليس الذي قال من ذلك عندنا كما قال، لأنهم أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قيلهم الذى قالوه لموسى جهلة منهم، وهفوة من هفواتهم.

ــ ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها. قال عبد الصمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول: إن القوم بعد أن أحيي اللّٰه تعالى الميت فأخبرهم بقاتله، أنكروا قتله، وقالوا: واللّٰه ما قتلناه، بعد أن رأوا الآيات والحق. قال اللّٰه تعالى:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

ــ ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعا وقدرا. فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففضحه اللّٰه تعالى وهتكه وحرمه ميراث المقتول.

ــ ومنها: أن بنى إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب، ففتنوا بعبادة العجل، وفتنوا بالأمر بذبح البقرة. والبقر من أبلد الحيوان، حتى ليضرب به المثل.

والظاهر أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل. ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي،لا يصلح أن يكون إلها معبودا من دون اللّٰه تعالى، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل.

بنو إسرائيل فى سورة البقرة:

وبحسبك ــ أيها القارىء الكريم ــ أن تعلم أن أطول سورة فى القرآن الكريم سميت بهذا الاسم ــ سورة البقرة ــ وهي غرة السور المدنية، وأن المدنية كان يسكنها أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وأكثرهم جدالا فى دينهم بما أوتوه من العلم قبلهم.

بحسبك أن تعلم هذا وذاك ــ كما يقول المرحوم الدكتور محمد عبد اللّٰه دراز ــ [2] لتعرف سر تلك العناية الموفورة بهذا الجانب من الدعوة، نعنى دعوة بنى إسرائيل خاصة بعد دعوة الناس عامة، ولتعلم حكمة ذلك التبسط فى الحديث معهم تارة، والحديث عنهم تارة

---

(١) تفسير الطبري: ١ : ٣٥٤.

(٢) النبأ العظيم: ١٧٨ وما بعدها بتصرف.

أخرى، بألوان تختلف هجوما، ودفاعا، واستمالة، واستطالة، إلى ما بعد نصف السورة.

وذلك في ثلاث وعشرين ومائة آية [1]

وستري حين تنتقل في هذه الأحاديث مرحلة ما يملك قلبك من جمال نظامها ودقة تقسيمها.

بدأ الكلام معهم ـ كما سبق ـ بآية فذة، هي قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [2]

وهى على قلة كلماتها جامعة لأغراض الحديث كله: ففيها يناديهم بأحب أسمائهم، وأشرف أنسابهم، ويذكرهم بسابق نعمة الله عليهم إجمالا، ويبنى على ذلك دعوتهم إلى الوفاء بعهدهم، ويرغبهم ويرهبهم.

. ثم رجع إلى هذه الأغراض يفصلها على تدرج وبقدر معلوم، فشرح العهد الذي طلب منهم الوفاء به، في ست آيات سبق أن تحدثنا عنها ـ هي قوله تعالى:

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۢ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [3]

وبين مقدار النعمة التى امتن بها عليهم في قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [4]

ومقدار المخافة التى خوفهم منها في قوله جل شأنه:

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [5]

---

(١) البقرة: ٤٠ ـ ١٦٢. (٢) البقرة: ٤٠. (٣) البقرة: ٤١ ـ ٤٦.

(٤) البقرة: ٤٧. (٥) البقرة: ٤٨.

ثم قسم الحديث إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: يذكر فيه سالفة اليهود، منذ بعث فيهم موسى عليه السلام.

القسم الثاني: يذكر فيها أحوال المعاصرين منهم للبعثة المحمدية.

القسم الثالث: يذكر فيه أولية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام.

القسم الرابع: يذكر فيه حاضر المسلمين في وقت البعثة.

سالفة اليهود:

وقد استهل الخطاب في هذا القسم بثماني آيات، يعرف فيها بني إسرائيل بتفاصيل المنن التي امتن بها عليهم مرة بعد مرة، قال تعالى:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

إلى قوله جل شأنه:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]

وهي تلك النعم التاريخية القديمة التي اتصل أثرها، وسرى نفعها، من الأصول إلى الفروع، فجعل يذكرهم بأيام الله فيهم، يوم أنجاهم من آل فرعون، ويوم أنجاهم من اليم وأغرق أعداءهم فيه، ويوم واعدهم بإنزال الكتاب عليهم، ويوم حقق وعده بإنزاله، ويوم قبل توبتهم عن الردة والشرك بالله، ويوم قبل توبتهم عن التمرد على نبيهم واقتراح العظائم عليه، وإنها لنعم جليلة «سابقة للذنب ولاحقة» تلين ذكراها القلوب، وتحرك الهمم لشكر المنعم وامتثال أمره.

وقبل أن ينتقل من تذكيرهم بتلك النعم الجليلة المطمعة للشاكرين في المزيد، إلى تذكيرهم بجرائمهم وماحاق بهم من ضروب النكال الموجبة للامتثال والاعتبار جعل بين الحديثين برزخا مزج فيه ذكر بعض النعم بذكر ما قابلوها به، بعد أن أعد النفس للسير على هذا البرزخ بالتفاتة يسيرة، فيها رمز الإعراض وعدم الرضا، فبين أنه تعالى متعهم فوق هذا كله متاعا حسنا، إذ ظلل عليهم الغمام، ورزقهم من الطعام والشراب رزقا هنيئا من حيث لا يحتسبون، ومن حيث لاكد ولا نصب قال تعالى:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ

(١) البقرة:٤٩ ـ ٥٦.

مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(١)

فظلموا أنفسهم، وبطروا تلك النعمة، وحرفوا كلمة الشكر بتبديلها هزوا ولعبا، واقترحوا بدل ذلك الرزق الناعم عيشة الكدح والعناء، فألزمهم الله ما التزموا، وضرب عليهم الذلة والمسكنة.

وهنا محض الحديث لذكر المخالفات والعقوبات، فذكر أنهم باءوا بغضب من الله، لأنهم كفروا بآيات الله، وقتلوا النبيين ـ غير أنه استثني المؤمنين منهم من هذا الغضب ـ وتمردوا على أوامر التوراة جملة، حتى أرغموا عليها، ثم تولوا عنها بعد ذلك، حتى صاروا جديرين بأن ينزل بهم ما نزل بأهل السبت، لولا فضل الله عليهم، وأنهم تباطئوا فى تنفيذ أمر نبيهم، وبلغ بهم الجهل بمقام نبوته أن ظنوا فى بعض تبليغه عن ربه أنه هازل فيه غير جاد..

وأراد القرآن الكريم أن يصل حاضرهم بماضيهم، فانظر كيف وضع بينهما حلقة الاتصال فى هذه الآية التي ختم بها القسم الأول:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٢)

فقوله: «من بعد ذلك» كلمة حددت مبدأ تاريخ القسوة ولم تحدد نهايته، كأنها بذلك وضعت عليه طابع الاستمرار، وتركته يتخطى العصور والأجيال في خيال السامع، حتي يظن أن الحديث قد أشرف به على العصر الحاضر، ثم لم يلبث هذا الظن أن ازداد قوة، بصيغة الجملة الإسمية فى قوله: «فهي كالحجارة» دون أن يقول: فكانت كالحجارة.

ثم انظر كيف كان انتهاؤه إلى وصف قلوبهم بهذا الوصف توطئة لتغيير الأسلوب فيهم، فإن من يبلغ قلبه هذا الحد من القسوة التي لا لين فيها يصبح استمرار الخطاب معه نابيا عن الحكمة، ويصير جديرا بصرف الخطاب عنه إلى غيره ممن له قلب سليم.

وهكذا ينتقل الكلام من الحديث معهم فى شأن سلفهم إلى الحديث معنا فى شأن أنفسهم.

اليهود المعاصرون للبعثة:

افتتح الكلام في هذا القسم بجملة طريفة ليست على سنن ما قبلها وما بعدها من السرد الإخبارى، جملة استفهامية يكتنفها حرفان عجيبان:

(١) البقرة : ٥٧ . (٢) البقرة: ٧٤.

أحدهما: يعيد إلى الذاكرة كل ما مضى من وقائع القسم الأول.

والآخر: يفتح الباب لكل ما يأتي من حوادث هذا القسم.

وتقع هي بين التاريخين: القديم والحديث، موقع العبرة المستنبطة والنتيجة المقررة، بين أسباب مضت وأسباب تأتي، وذلك قوله تعالى:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١)

إلى قوله:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢)

فهذه الفاء تقول لنا: أبعد كل ما قصصناه يطمع طامع في إيمان هؤلاء القوم، وهم الوارثون لذلك التاريخ الملوث؟ وهذه الواو تقول:

﴿هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ (٣)

ويعود السرد الإخباري إلى مجراه التفصيلي، فيقص علينا من مساوئ الحاضرين منهم ومنكرات أفاعيلهم وأقاويلهم زهاء عشرين سببا، لا تبقى مطمعا لطامع في إيمانهم، سواء منها ما كان مختصا بهم، وما كان يشاركهم فيه غيرهم من أسلافهم أو من النصارى أو الوثنيين.

ثم لا يدع زعما من مزاعمهم إلا وقفي عليه بما يليق من الرد والتفنيد.

وقد بدأ هذا الوصف بتقسيمهم إلى فريقين:

علماء يحرفون كلام الله، ويتواصون بكتمان ما عندهم من العلم، لئلا يكون حجة عليهم.

وجهلاء أميين، هم أسارى الأماني والأوهام، وضحايا التضليل والتلبيس الذي يأتيه علماؤهم.

فمن ذا الذي يطمع في صلاح أمة، جاهلها مضلل مخدوع، يأخذ باسم الدين ما ليس بدين، وعالمها مضلل خادع، يكتب الكتاب بيده، ويقول: هذا من عند الله؟!

---

(١) البقرة: ٧٥. (٢) البقرة: ١٢١. (٣) المؤمنون: ٦٣.

وثنى ببيان منشأ اجترائهم على كل موبقة، ألا وهو غرورهم بزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة. ولقد أمر النبي ﷺ أن يوسع هذا الزعم دحضا وإبطالا، وأن يتدرج معهم في هذه المجادلة على درجات المنطق السليم والبحث المستقيم، فيبدأ بمطالبتهم البرهان على ما زعموا، ثم ينقضه ببيان مخالفته لقانون العدل الإلهي الذى لا يعرف شيئا من الظلم، ولا المحاباة لأحد، بل الخلق أمامه سواء: كل امرئ رهين بعمله، ومن يعلم سوءا أو حسنا يجز به، ثم يعارضه بقلب القضية عليهم، مبينا لهم أنهم من أولئك الذين كسبوا السيآت، وأحاطت بهم خطيآتهم:

ألم يؤخذ عليكم الميثاق بتقوى الله والإحسان إلى الناس فتوليتم؟!

ألم يؤخذ عليكم الميثاق بترك الإثم والعدوان فاعتديتم؟!

ثم آمنتم ببعض الكتاب وكفرتم ببعض، وحكمتم أهواءكم فى الشرائع، فكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم!

ثم أتبع ذلك سائر هناتهم، فذكر:

١ ـ تصامهم عن سماع الحق، بدعوى أن قلوبهم مقفلة!

٢ ـ كفرهم بالكتاب الجديد؛ لأنه أنزل على غيرهم، بعد أن كانت أعناقهم مشرئبة إليه، ينتظرون ظهوره على يد نبي ينصرهم على المشركين!

٣ ـ دعواهم القيام بواجبهم، وهو الإيمان بما أنزل عليهم وكفى، مع أنهم كافرون حتى بما أنزل عليهم، وتلك شنشنتهم منذ عبدوا العجل وأشربوا حبه فى قلوبهم!

٤ ـ زعمهم أن لهم الدار الآخرة خالصة، ثم مناقضتهم أنفسهم في ذلك، بكراهتهم الموت، وشدة حرصهم على الحياة!

٥ ـ عداوتهم لجبريل؛ لأنه أنزل الكتاب على غيرهم، مع أنه إنما أنزل بعلم الله!

٦ ـ تكرر نبذهم للعهود!

٧ ـ اشتغالهم بكتب السحر، وترك كتب الله وراء ظهورهم!

٨ ـ ليهم ألسنتهم في خطاب الرسول بكلمة تنطوى على الاستهزاء به والطعن فى دينه، وإن كان ظاهرها التعظيم له، وهى قوله «راعنا» وهى كلمة ظاهرها الأدب، ولكنها

في العربية لها معان أخرى حمقاء.

وفى العبرانية كلمة شتم قريبة منها، فإن لفظ «رع» عند اليهود معناه شقي شرير. ولفظ «راع» معناه الشر والشقاوة فإذا أضيف إلى ضمير المتكلمين صار بلسانهم«راعينو» ومعناه فى الخطاب أنت ضرنا وشقوتنا.. ولعلهم ـ والله أعلم ـ كانوا يلوون ألسنتهم في النطق ليقربوها من الصيغة العربية، سترا لنيتهم، واكتفاء بالرمز المفهوم فيما بينهم. فأمر الله المؤمنين أن يخاطبوا الرسول بقول «انظرنا» حتى لا يجد المنافقون سبيلا إلى التلاعب بلفظ ذي وجهين، وأيضا فإن «راعنا» كلمة يقولها السائل المستقصى، يطلب بها إصغاء المسئول إليه، حتى يفرغ هو من أسئلته. وتلك عادة اليهود عند إكثارهم من السؤال. فأمر الله المؤمنين أن يحافظوا على حسن الاستماع، حتى لا يحتاجوا إلى السؤال، وأن يقولوا «انظرنا» وهي كلمة يقولها المتعلم إذا أراد التثبت مما يقال له، لا الزيادة عليه.

- أو يراد أيضا إحراجه بكثرة الأسئلة والمقترحات، كما سئل موسى من قبل.. وقد سبق هذا فى قالب تحذير المؤمنين من أن يقولوا تلك الكلمة!

٩ـ حقدهم وأثرتهم هم وسائر المخالفين من أهل الكتاب والمشركين، وكراهيتهم أن ينزل الوحي على غيرهم، مع أن لله أن يختص بنبوته من يشاء، وله أن ينسخ شريعة ويأتي بشريعة أخرى مثلها أو خير منها!

١٠ ـ رغبة كثير منهم فى أن يردوا المؤمنين كفارا!

١١ ـ زعم كل من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة غيرهم، أماني يتمنونها بغير برهان!

١٢ ـ طعن كلتا الطائفتين في أختها بقول اليهود: ليست النصارى على شيء، وقول النصارى: ليست اليهود على شيء، وطعن المشركين فى كلتيهما!

١٣ـ اشتراك الطوائف الثلاث في السعي لإخلاء المساجد من ذكر الله!

١٤ ـ اشتراكهم في الجهل بالله ونسبتهم الولد إليه!

١٥ ـ اشتراكهم في التوقف عن الإيمان بالرسل، حتى يكلمهم الله بغير واسطة، أو ينزل عليهم آية ملجئة!

ثم ختم هذه الهنات بادعاها إلى اليأس من إيمانهم، وهو أنهم يطمعون في تحويل الرسول نفسه إلى اتباع أهوائهم، فكيف يطمع هو فى استتباعهم إلى هداه؟!

كلا، ولكن حسبه أن الراسخين فى العلم منهم، وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته يؤمنون بهذا الهدى الذى جاء به، والكافرون هم الخاسرون.

قدامى المسلمين من لدن إبراهيم:

وشأن المصلح الحكيم فى دعوته شأن الزارع، يبدأ بالأرض فيقتلع أشواكها وينقيها من حشائشها الضارة قبل أن يلقى فيها البذور الصالحة، أو يغرس فيها الأشجار النافعة.

وكذلك الداعي الحكيم، يبدأ بالنفوس فيلويها عن الباطل والفساد، ثم يوجهها إلى طريق الحق والهدى.

فهذان دوران، يقوم في أحدهما بالتطهير والتخلية وفي الثاني بالتكميل والتحلية.

وأنت قد رأيت الكلام في دعوة بني إسرائيل قد مضى إلى هذا الحد، في بيان عوج الطريق الذي يسلكونه.

ورأيته قد أوسع البيان في ذلك، حتى أتى على نهاية الدور الأول:

أليس من الحق إذاً أن يبدأ الدور الثانى، فيبين الطريق السوي الذى يجب أن يسلكوه؟

ثم رأيت كيف اختتم البيان السابق بذكر هدى الله، والعلم الذى علّمه لنبيه، وذكر الفريق الذى يرجي إيمانهم به من أهل الكتاب، وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته، أليس هذا الاختتام نفسه مطلعا تشرف النفس منه على هذا الافتتاح؟

ثم رأيت الحديث في الدور الأول منقسما إلى قسمين:

قسم يتحدث فيه عن ماضى اليهود.

وقسم يتحدث فيه عن حاضرهم.

ألا يكون من حسن التقابل أن يقسم الحديث الثاني إلى القسمين، عن ماضي المسلمين وعن حاضرهم؟

ذلك هو ما تراه فيما يلى:

بل سترى ما هو أتم مقابلة ومشاركة، فسيجري الكلام في القسم الأول هنا على سنن الخطاب مع بنى إسرائيل، والكلام فى القسم الثاني على سنن التحدث عنهم، كما جرى هنالك في القسمين سواء.

وأكبر من هذا كله أنك ترى الآيتين الكريمتين اللتين صدّر بها أول الحديث هناك قد صدّر بهما أول الحديث هنا، ليدعوهم إلى اعتناق الحق، بمثل ما دعاهم إلى اجتناب الباطل، وليتقرر فى نفس السامع من أول الأمر أن الحديث سيعود كما بدأ، ولكن في طريق يقابل ذلك الطريق، وبمعني جديد، هو عدل لذلك المعنى القديم:

﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝١٢٣ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (1)

وهكذا أنشأ يدعو بني إسرائيل إلى طريق السلف الصالح، لا بأسلوب الأمر والتحريض الذى جرب من قبل فلم ينجع فيهم، بل بأسلوب قصصي جذاب، يعرض فيه ذلك التاريخ المجيد لإبراهيم عليه السلام وأبنائه وأحفاده فى العصور الذهبية التي لا يختلف أحد من أهل الكتاب ولا المشركين في تعظيمها ومحبتها ومحبة الانتساب إليها.. مكررا على لسانهم جميعا تلك الكلمة العذبة التي تركها إبراهيم باقية في عقبه، فتوارثها أبناؤه وأحفاده، يوصى كل منهم بها بنيه: كلمة «الإسلام لله رب العالمين».

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٣٢ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (2)

وتراه فى أثناء عرضه لتاريخ إبراهيم عليه السلام وإمامته للناس، لا ينسى أن يسجل كلماته التي دعا بها ربه أن يجعل من ذريته إماما للناس كما جعله هو.

ثم تراه حين يروى قيام إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء البيت المعظم، الذي جعله الله

---

(1) البقرة: ١٢٢ - ١٢٤. (2) البقرة: ١٣١ - ١٣٣.

حراما آمنا، ومثابة للناس، وقبلة لصلاتهم، لا ينسى أن يسجل تضرعهما إلى الله أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة، وأن يبعث فيهم رسولا منهم يعلمهم ويزكيهم:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١)

وبهذا وذاك يمهد لتقرير الصلة التاريخية المتينة التي تربط هذا النبي وأمته بذينك النبيين الجليلين. لاصلة النبوة النسبية فحسب، بل صلة المبدأ، ورابطة الوحدة الدينية أيضا ـ كما أسلفنا ـ فهم من ذريتهما، ووجودهم تحقيق لقبول دعوتهما، وملتهم ملتهما، وقبلتهم قبلتهما، ومثابتهم في حجهم مثابتهما.

ويقرر فى الوقت نفسه انقطاع مثل هذه النسبة المشرفة عن اليهود الذين ينتسبون بالبنوة لإبراهيم ويعقوب، وهم عن ملتهما منحرفون، ولوصيتهما مخالفون!

فماذا يغني النسب عن الأدب؟

ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

حاضر المسلمين وقت البعثة :

واتصل ذكر الخلف بذكر السلف، وخرج الكلام من التلويح إلى التصريح، فأقبل

(١) البقرة: ١٢٥ ـ ١٢٩. (٢) البقرة: ١٣٤.

يقرر ـ فى جلاء ـ صلة هذه الأمة المسلمة بتلك الأمة الصالحة فى أصول ملتها، وفي أهم فروعها، ويقص علينا ما يحاوله سفهاء الأحلام من بني إسرائيل وغيرهم لحرمان المسلمين من تلك الصلة، وذلك بدعوتهم المسلمين إلى اتباع ملتهم تارة، وبالطعن في قبلتهم تارة أخرى، ويكر على كلتا المحاولتين الهدم والاستئصال:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٣٥ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (٣)

إلى قوله جل شأنه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٦١ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (١)

وقد رأيت الحديث الآنف كيف امتزج فيه ذكر ملة إبراهيم بذكر قبلته، فانظر كيف كان ذلك تأسيسا قويا لما يبنى عليه هنا من ذكر ملة المسلمين وذكر قبلتهم.

قال في شأن الملة: إن أهل الكتاب يدعونكم ـ بعد هذا البيان ـ أن تكونوا هودا أو نصاري. فقولوا لهم: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفا، وعرفوهم جلية الأمر في هذه الملة الحنيفية، وأنها إيمان بالله، وإيمان بكل ما أنزل على النبيين، لا نفرق بين أحد منهم، هذه عقيدتنا بيضاء ناصعة، فأي ركنيها تنقمون منا. وفي أيها تخاصموننا؟

أفي الله وهو ربنا وربكم، أم في إبراهيم وبنيه؟

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (٢)

وكان هذا الترديد وحده كافيا لإفحامهم، وإغلاق الباب في وجوههم من هذه الناحية، إذ تبين أن أصول هذه الملة أمنع من أن نقبل الجدال في شيء منها..

فانتقل عنها وشيكا إلى إبطال محاولتهم الأخرى فى مسألة الكعبة المعظمة، التي عليها

---

(١) البقرة: ١٣٥، ١٣٦. (٢) البقرة: ١٦١ ـ ١٦٢. (٣) البقرة: ١٤١

يدور العمل بشعيرتين هما أعظم شعائر الإسلام وأظهرها: الصلاة والحج، والتي قد تقرر ما لها من الأصل الأصيل في الدين باتخاذ إبراهيم وإسماعيل إياها مصلى.

ولكن هذا لم يكن كافيا لإسكات المجادلين الذين اتخذوا من تحول المسلمين إليها، وتركهم القبلة التي كانوا عليها مطعنا على النبوة ـ كما سبق ـ فمست الحاجة إلى مزيد بسط فى شأنها، تتقرر به الحجة، وتدحض به الشبهة، ولذلك تراه يوجه إليها أكبر الشطرين من عنايته:

فيأمر النبى بادئ ذى بدء أن يجيب المتسائلين عن حكمة هذا التحويل، جواب عزة وإباء يرد الأمر فيه إلى من لا يسأل عما يفعل، قائلا لهم: إن الجهات كلها سواء، يوجهنا الله منها إلى ما يشاء، وهو الذى يهدى إلى الصراط المستقيم.

ثم أخذ يأمر النبى تارة، والمؤمنين تارة، ويأمرهما معا تارة أخرى، في أسلوب مؤكد مفصل أن يثبتوا على هذه القبلة، حيث هم وفى كل مكان يقيمون فيه حضرا، وفى كل مكان يخرجون منه سفرا.

وطفق ينثر فى تضاعيف هذه الأوامر المؤكدة ما شاء من تعريف بأسرار التشريع القديم والجديد،فيقول:

إن تشريع تلك القبلة الوقتية ما كان إلا اختبارا لإيمان المهاجرين، ليتبين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وأما تشريع هذه القبلة الباقية فإنه ينطوى على الحكم البالغة، والمقاصد الجليلة، فهى القبلة الوسطى التى تليق بكم أيتها الأمة الوسطى، وهي القبلة التي ترضاها يأيها النبى، والتى طالما قلبت وجهك فى السماء مستشرفا إلى الوحي بها، وهي القبلة التي يعلم أهل الكتاب أنها الحق من ربهم، وإن كانوا يكتمون ذلك حسدا وعنادا، وهي القبلة التي يشهد الله بأنها الحق من عنده، وأخيرا هي القبلة التي لا تبقى لأحد من المنصفين حجة عليكم، أما الظالمون فلن ينقطع جدالهم في شأنها ما بقيت عداوتهم لكم.

ولكن لا تخشوهم، بل وطنوا أنفسكم على التضحية في سبيل الله، واصبروا ولا تحزنوا على من سيقتل منكم فى هذه السبيل، فإن الموت فيها هو الحياة الباقية.

ثم أومأ إلى أن الجدال في هذه القبلة ليس صدا عن الشعائر التي فى داخل المسجد الحرام فحسب، بل هو كذلك صد عما حوله من الشعائر.

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾(١)

ثم أكد أمر هاتين الشعيرتين على نحوما أكد أمر القبلة بالتعريض بأهل الكتاب الذين يعلمون أصلهما في تاريخ إبراهيم عليه السلام، ولكنهم يكتمون ما أنزله الله من البينات وهم يعلمون.

أرأيت هذه المراحل الأربع التي سلكها القرآن الكريم في دعوة بني إسرائيل، كيف رتبها مرحلة مرحلة، وكيف سار فى كل مرحلة منها خطوة خطوة!

فارجع البصر كرة أخرى إلى هذه المرحلة الأخيرة منها، لتنظر كيف استخدم موقعها هذا لتحقيق غرضين مختلفين، وجعلها حلقة اتصال بين مقصدين متنائيين.

فهى فى جملتها مناجاة للنبى والمؤمنين فى خاصة شأنهم، وفيما يعنيهم من أمر دينهم، ولكنه جعل هذه النجوى طرفين، لوّن كل طرف منها بلون المقصد الذى يتصل به، فالتقى المقصدان فيها على أمر قَدْ قُدِر.

ألم تر كيف بدأها بأن قص على المؤمنين مقالة أعدائهم في بعض حقائق الإسلام، وعمد إلى هذه الحقائق التي تماروا فيها فجعل يمسح غبار الشبهة عن وجهها حتي جلاها بيضاء للناظرين، فكانت هذه البداية كما ترى نهاية لتلك المعارك الطويلة التى حورب فيها الباطل فى كل ميدان!

ثم رأيت كيف ساق الحديث فجعل يثبت أقدام المؤمنين علي تلك الحقائق النظرية والعملية، ويحرضهم على الاستمساك بها في كثير من الآيات.. أفلا تكون هذه النهاية بداية لمقصد جديد بعدها يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الإسلام مفصلة؟

بلي.. إن ذلك هو ما توحي به سياقة هذه النجوى المتواصلة، التي مدت في خطاب المؤمنين مدا، وحولت مجرى الحديث معهم رويدا رويدا، حتي صار كل من ألقي سمعه إليها مليا، يسمع في طيها نداء خفيا: أن قد فرغنا اليوم من الأعداء جهادا، وأقبلنا على الأولياء تعليما وإرشادا، وأن قد طوينا كتاب الفجار، وجئنا نفتح كتاب الأبرار، وأن هذه الصفحة الأخيرة من دعوة بني إسرائيل لم تكن إلا طليعة من كتائب الحق، تنبئ أن

(١) البقرة : ١٥٨.

سيتلوها جيشه الجرار، أو شعاعة من فجر الهدى سيتحول الزمان بها من سواد الليل إلى بياض النهار.

ألا ترى الميدان قد أصبح خاليا من تلك الأشباح الإسرائيلية التي كانت تتراءى لك فى ظلام الباطل تهاجمها وتهاجمك، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا؟

أو لا ترى هذه الأشعة الأولى من شمس الشريعة الإسلامية قد انبعثت يسوق بعضها بعضا أصول جامعة نظرية، تتبعها طائفة من فروعها الكبرى العملية.. ألم يأن لسائر الفروع أن تجيء من خلفها حتى تبلغ الشمس ضحاها؟

هكذا تفتحت الآذان لسماع شرائع الإسلام مفصلة. فلو أنها أقبلت عليها الآن عدا وسردا ما حسبنا الحديث عنها حديثا مقتضبا.

لكن القرآن الكريم قد وضع على أدق الموازين البيانية وأرفقها بحاجات النفوس، لم يشأ أن يهجم علي المقصود مكتفيا بهذا التمهيد، بل أراد أن يقدم بين يديه شقة تستجم النفس فيها من ذلك السفر البعيد، وتأخذ أهبتها لرحلة أخرى إلى ذلك المقصد الجديد..

أشد الناس عداوة:

وفي القرآن الكريم صور كثيرة فاضحة لليهود، ولما كانوا يبيتون للإسلام من كيد، ويدبرون له من فتن، عرضنا لبعضها!

ولقد كانت الأمة المسلمة تتلقى المنهج الرباني، لتقرر ـ وفق توجيهاته وتقريراته ـ خطتها وحركتها، ولتتخذ [1] ـ وفق هذه التوجيهات والتقريرات ـ مواقفها من الناس جميعا.

فهذا الكتاب كان هو موجهها ومحركها ورائدها ومرشدها.. ومن ثم كانت تغلب ولا تُغلب؛ لأنها تخوض معركتها مع أعدائها وفق المنهج الرباني المباشر، وكان نبيها يقودها وفق الإرشادات الربانية العلوية..

وهذه الإرشادات الربانية ما تزال.. وتلك التقريرات التي تضمنها ذلك الكتاب الكريم ما تزال..

وعلينا أن نتلقي هذه التقريرات وتلك الإشارات كأننا نخاطب بها اللحظة، لنقرر

(١) في ظلال القرآن: ٢ : ٩٥٩ وما بعدها بتصرف.

على ضوئها مواقفنا من شتى الناس، ومن شتي المذاهب والمعتقدات والآراء، ومن شتى الأوضاع والنظم وشتى القيم والموازين.. اليوم وغدا وإلى آخر الزمان :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (٢)

إن صيغة العبارة تتضمن أمرا ظاهرا مكشوفا يجده كل إنسان..

فإذا تقرر هذا فإن الأمر الذي يلفت النظر في صياغة العبارة هو تقديم اليهود على الذين أشركوا في صدد أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وأن شدة عداوتهم ظاهرة مكشوفة، وأمر مقرر يراه كل من يرى، ويجده كل من يتأمل!

نعم، إن العطف بالواو فى التعبير العربي يفيد الجمع بين الأمرين، ولا يفيد تعقيبا ولا ترتيبا.. ولكن تقديم اليهود هنا، حيث يقوم الظن بأنهم أقل عداوة للذين آمنوا من المشركين ـ بما أنهم أهل كتاب ـ يجعل لهذا التقديم شأنا خاصا غير المألوف من العطف بالواو فى التعبير العربى! إنه ـ على الأقل ـ يوجه النظر إلى أن كونهم أهل كتاب لم يغيرمن الحقيقة الواقعة، وأنهم كالذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا.

ونقول: إن هذا «على الأقل». ولا ينفى هذا احتمال أن يكون المقصود هو تقديمهم في شدة العداء على الذين أشركوا.. وهو ما يؤيده ظاهر التعبير!

وحين يستأنس في تفسير هذا التقرير الربانى بالواقع التاريخى المشهود منذ مولد الإسلام حتى اللحظة الحاضرة، فإنه لا يتردد فى تقرير أن عداء اليهود للذين آمنوا كان دائما أشد وأقسى وأعمل إصرارا وأطول أمدا من عداء الذين أشركوا!

لقد واجه اليهود الإسلام بالعداء منذ اللحظة الأولى التى قامت فيها دولة الإسلام بالمدينة. وكادوا للأمة المسلمة منذ اليوم الأول الذي أصبحت فيه أمة.وتضمن القرآن الكريم من التقريرات والإشارات عن هذا العداء وهذا الكيد ما يكفى وحده لتصوير تلك الحرب المريرة التى شنها اليهود على الإسلام، وعلى رسول الإسلام ﷺ، وعلى الأمة المسلمة فى تاريخها الطويل، والتى لم تخب لحظة واحدة قرابة أربعة عشر قرنا، وما تزال حتى اللحظة يتسعر أوارها فى أرجاء الأرض جميعا!

لقد أضمروا العداء للإسلام والمسلمين، منذ اليوم الأول الذي جمع الله فيه الأوس

---

(٢) المائدة : ٨٢.

والخزرج على الإسلام، فلم يعد لليهود فى صفوفهم مدخل ولا مخرج، ومنذ اليوم الذي تحددت فيه معالم الأخوة بين المهاجرين والأنصار، ومنذ اليوم الذي تحددت فيه قيادة الأمة المسلمة، وأمسك بزمامها خاتم النبيين ﷺ، فلم تعد لليهود فرصة للتسلط!

ولقد استخدموا كل الأسلحة والوسائل التى تفتقت عنها عبقرية المكر اليهودية، وأفادتها من قرون السبى فى بابل، والعبودية فى مصر، والذل فى الدولة الرومانية!

ومع أن الإسلام قد وسعهم بعد ما ضاقت بهم الملل والنحل على مدار التاريخ، فإنهم ردوا للإسلام جميله عليهم أقبح الكيد وأ لأم المكر منذ اليوم الأول!

ولقد ألبوا على الإسلام والمسلمين كل قوى الجزيرة العربية المشركة، وراحوا يجمعون القبائل المتفرقة ـ كما سيأتى ـ لحرب الجماعة المسلمة، ويضيفون إلى ذلك العداء ـ كما عرفنا ـ هذا القول:

﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾[1]

ولما غلبهم الإسلام بقوة الحق، استداروا يكيدون له بدس المفتريات فى كتبه التى لم يسلم منها إلا القرآن الكريم الذى تكفل الله عز وجل بحفظه سبحانه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[2]

ويكيدون له بالدس بين صفوف المسلمين، وإثارة الفتن، عن طريق استخدام حديثى العهد بالإسلام، ومن ليس لهم فيه فقه، ويكيدون له بتأليب خصومه عليه في أنحاء الأرض.. حتى انتهى بهم المطاف أن يكونوا في العصر الأخير هم الذين يقودون المعركة مع الإسلام فى كل شبر على وجه الأرض، وهم الذين يستخدمون الصليبية والوثنية في هذه الحرب الشاملة، وهم الذين يقيمون الأوضاع، ويصنعون الأبطال، ويشنونها حربا صليبية صهيونية على كل معلم من معالم هذا الدين!

وصدق الله العظيم:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾

إن الذي ألب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة في المدينة، وجمع بين اليهود من

---

(١) النساء: ٥٠.　　(٢) الحجر: ٩.

بني قريظة وغيرهم ـ كما سيأتي ـ يهود!

وإن الذى قاد حملة الوضع والكذب في الروايات والسير والتاريخ.. يهود!

وإن الذى كان وراء إثارة النعرات القومية الجاهلية في دولة الخلافة الأخيرة، ووراء عزل الشريعة عن الحكم، ووراء إلغاء الخلافة.. يهود!

وإن وراء ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طوالع البعث الإسلامى، فى كل مكان عل وجه الأرض.. يهود!

ووراء النزعة المادية الإلحادية..يهود!

ووراء النزعة الحيوانية الجنسية .. يهود!

ووراء النظريات الهدامة لكل المقدسات والضوابط..يهود!

ولقد كانت الحرب المعلنة التى شنها اليهود على الإسلام أطول أمدا، وأعرض مجالا، من تلك التى شنها عليه المشركون والوثنيون ـ على ضراوتها قديما وحديثا!

إن المعركة مع مشركى العرب لم تمتد إلى أكثر من عشرين عاما فى جملتها!

وكذلك كانت المعركة مع فارس فى العهد الأول!

أما في العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بين الوثنية الهندية والإسلام ضراوة ظاهرة، ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالمية.. التي تعد الماركسية مجرد فرع لها، وليس هناك ما يقارب معركة اليهود مع الإسلام في طول الأمد وعرض المجال إلا معركة الصليبية، التي سنلقي الضوء عليها، إن شاء الله تعالى، فى دراسات خاصة تحت عنوان: «الرسول ﷺ والنصارى وجها لوجه».

فإذا قرأنا:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾

وأبصرنا تقدم اليهود فى النص على الذين أشركوا.. ثم أبصرنا هذا الواقع التاريخى، فإننا ندرك طرفا من حكمة الله فى تقديم اليهود على الذين أشركوا!

إنهم هذه الجبلة النكدة الشريرة، التى ينغل الحقد فى صدورها على الإسلام وعلى نبى الإسلام، فيحذّر الله نبيه وأهل دينه منها!

ولن يخلص العالم من هذه الجبلة النكدة الشريرة إلا الإسلام يوم يفيء أهله إليه!

الفصل الثاني

معركة عقيدة

حرب مستمرة ـ «إن الهدى هدى الله» ـ التحذير من اتباعهم ـ «وقطعناهم في الأرض أمما» ـ سماحة وتحذير ـ النهى عن موالاتهم ـ قصة قارون ـ سخط الله عليهم ولعنه إياهم.

حرب مستمرة:

إن الآيات القرآنية التي تتحدث عن أهل الكتاب تحمل الاتهام والإدانة لبنى إسرائيل! وتكشف المستور من خبثهم ومكرهم بآيات الله وبرسل الله، وبعباد الله، عبر التاريخ!

وتسجل عليهم أنهم يكفرون بآيات الله، وينكرون الحق بين يديها، مكابرة وجحودا، وعنادا وكنودا، وبغيا وحسدا ـ كما أسلفنا ـ وأنهم إذ كفروا بآيات الله، وإذ أهلكوا أنفسهم عن عمد بهذا الكفر، فإنهم يجرون من يستطيعون جره معهم من الناس، إلى الهاوية التي سقطوا فيها، ولذلك كان من سعيهم فى الحياة أن يصدوا الناس عن سبيل الله وأن يضلوهم عنها، أو يخرجوهم منها إن استطاعوا، حتى لا ينال أحد خيرا، وصدق الله العظيم:

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1]

إن الإحنة التي يكنها أهل الكتاب للجماعة المسلمة هي الإحنة المتعلقة بالعقيدة.[2] إنهم يكرهون لهذه الأمة أن تهتدي. يكرهون لها أن تفيء إلى عقيدتها الخاصة في قوة ويقين. ومن ثم يرصدون جهودهم كلها لإضلالها عن هذا المنهج والإلواء بها عن هذا الطريق:

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾

فهو ود النفس، ورغبة القلب، والشهوة التى تهفو إليها الأهواء من وراء كل كيد، وكل دس، وكل جدال، وكل تلبيس!

---

(١) آل عمران: ٦٩ ـ ٧٤. (٢) المرجع السابق: ١ ـ ٤١٣ وما بعدها بتصرف.

وهذه الرغبة القائمة على الهوى والحقد والشر، ضلال لا شك فيه.فما تنبعث مثل هذه الرغبة الشريرة الآثمة عن خير ولا عن هدى. فهم يوقعون أنفسهم فى الضلالة، فى اللحظة التى يودون فيها إضلال المسلمين. فما يحب إضلال المهتدين إلا ضال يهيم فى الضلال البهيم:

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

والمسلمون مكفيون أمر أعدائهم ما استقاموا على إسلامهم، وما لهم عليهم من سبيل. والله سبحانه يتعهد لهم ألا يصيبهم كيد الكائدين، وأن يرتد عليهم كيدهم ما بقى المسلمون مسلمين.

هنا يقرع أهل الكتاب بحقيقة موقفهم المريب المعيب:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٧٠ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ولقد كان أهل الكتاب وقتها ـ وما يزالون حتى اليوم ـ يشهدون الحق واضحا في هذا الدين سواء منهم المطلعون على حقيقة ما جاء فى كتبهم عنه من بشارات وإشارات ـ وكان بعضهم يصرحُ بما يجد من هذا كله، وبعضهم يسلم بناء على هذا الذى يجده في كتبه ويشهد متحققا أمامه ـ وسواء كذلك غير المطلعين، ولكنهم يجدون فى الإسلام من الحق الواضح ما يدعو إلى الإيمان .. غير أنهم يكفرون .. لا لنقص فى الدليل. ولكن للهوى والمصلحة والتضليل.. والقرآن يناديهم:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾

لأنها الصفة التي كان من شأنها أن تقودهم إلى آيات الله وكتابه الجديد.

كذلك يناديهم مرة أخرى ليفضح ما يقومون به من لبس الحق بالباطل، لإخفائه وكتمانه وتضييعه في غمار الباطل، على علم وعن عمد وفي قصد. وهو أمر مستنكر قبيح!

وهذا الذى ندد الله به سبحانه من أعمال أهل الكتاب حينذاك، هو الأمر الذى درجوا عليه من وقتها حتى اللحظة الحاضرة.. فهذا طريقهم على مدار التاريخ.. اليهود بدأوا منذ اللحظة الأولى .. ثم تابعهم الصليبيون!

وفي خلال القرون المتطاولة دسوا ـ مع الأسف ـ في التراث الإسلامى ما لا سبيل

إلى كشفه إلا بجهد القرون! ولبسوا الحق بالباطل ما وسعهم الجهد!

دسوا ولبسوا فى السيرة النبوية، مما جعلنى أقدم هذه الدراسات فى تلك الصور الموضوعية الجديدة، وفق أصول التحديث رواية ودراية.

ودسوا ولبسوا في المناهج التعليمية حتى تركوا تيها وقع فيه الكثيرون الذين لم يفيئوا إلى معالم الطريق!

ومن ثم وجدنا كثيرين في صورة المستشرقين وتلاميذ المستشرقين يشغلون مناصب القيادة الفكرية اليوم في كثير من البلاد الإسلامية!

وما يزال هذا الكيد قائما ومطردا!

وما تزال مثابة الأمان والنجاة منه هي اللياذ بهذا الكتاب المحفوظ الذي تكفل الله بحفظه أبد الآبدين ـ كما عرفنا ـ والحمد لله على فضله العظيم.

كذلك يعرض بعض المحاولات التى يبذلها فريق من أهل الكتاب لبلبلة الجماعة المسلمة فى دينها، وردها عن الهدى، من ذلك الطريق الماكر اللئيم:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُواْ بِالَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾

وهى طريقة ماكرة لئيمة.. فإن إظهارهم الإسلام ثم الرجوع عنه، يوقع بعض ضعاف النفوس والعقول وغير المتثبتين من حقيقة دينهم وطبيعته .. يوقعهم فى بلبلة واضطراب. وبخاصة العرب الأميين، الذين كانوا يظنون أن أهل الكتاب أعرف منهم بطبيعة الرسالات والكتب. فإذا رأوهم يؤمنون ثم يرتدون، حسبوا أنهم إنما ارتدوا بسبب اطلاعهم على خبيئة ونقص فى هذا الدين. وتأرجحوا بين اتجاهين، فلم يكن لهم ثبات على حال!

وما تزال هذه الخدعة تتخذ حتى اليوم فى شتى الصور التى تناسب تطور الملابسات والناس فى كل جيل..

ولقد يئس أعداء المسلمين أن تنطلي اليوم هذه الخدعة، فلجأت القوى المناهضة للإسلام فى العالم إلى طرق شتى، كلها تقوم على تلك الخدعة القديمة!

إن لهذه القوى اليوم في أنحاء العالم الإسلامي جيشا جرارا من العملاء في صورة أساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين، وأحيانا كتاب وشعراء وفنانين وصحفيين، يحملون

أسماء مسلمين؛ لأنهم انحدروا من سلالة مسلمة!

ولا يفوتني هنا أن أذكر أن الصحافة طالعتنا منذ فترة بأن المرشح لمنصب سفير الصهاينة في أمريكا يحمل اسم محمد! وهو من سلالة مسلمة!

هذا الجيش الجرار من العملاء موجه لخلخلة العقيدة في النفوس بشتى الأساليب، في صورة بحث وعلم وأدب وفن وصحافة وسياسة، وموجه لتوهين قواعدها من الأساس!

في صورة رفض السنة لمزاعم يفترونها!

وفي صورة التهوين من شأن العقيدة والشريعة سواء، وتأويلها وتحميلها ما لا تطيق. والدق المتواصل على رجعيتها!

والدعوة للتفلت منها. وإبعادها عن مجال الحياة، إشفاقا عليها من الحياة، أو إشفاقا على الحياة منها!

وابتداع تصورات ومثل وقواعد للشعور والسلوك تناقض وتحطم تصورات العقيدة ومثلها!

وتزيين تلك التصورات المبتدعة بقدر تشويه التصورات والمثل الإيمانية. وإطلاق الشهوات من عقالها، وسحق القاعدة الخلقية التي تستوى عليها العقيدة النظيفة العفيفة لتخر في الوحل الذي ينشرونه في الأرض نشرا !

ويشوهون التاريخ الإسلامي كله، ويحرفونه كما يحرفون النصوص !

وهم بعد يحملون أسماء المسلمين !

وهم بهذه الأسماء يعلنون الإسلام وجه النهار .. وبهذه المحاولات المجرمة يكفرون آخره .. ويؤدون بهذه وتلك دور أهل الكتاب القديم. لا يتغير إلا الشكل والإطار في ذلك الدور القديم!

وكان أهل الكتاب يقولون بعضهم لبعض: تظاهروا بالإسلام أول النهار واكفروا آخره لعل المسلمين يرجعون عن دينهم ! وليكن هذا سرا بينكم لا تبدونه ولا تأتمنون عليه إلا أهل دينكم:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾

وفعل الإيمان حين يتعدى باللام يعني الاطمئنان والثقة. أي ولا تطمئنوا إلا لمن تبع

دينكم، ولا تفضوا بأسراركم إلا لهؤلاء دون المسلمين!

وعملاء الصهيونية والصليبية اليوم كذلك!

إنهم متفاهمون فيما بينهم على أمر .. هو الإجهاز على هذه العقيدة في الفرصة السانحة التي قد لا تعود .. وقد لا يكون هذا التفاهم في معاهدة أو مؤامرة. ولكنه تفاهم العميل مع العميل على المهمة المطلوبة للأصيل!

ويأمن بعضهم لبعض، فيفضي بعضهم إلى بعض .. ثم يتظاهرون - بعضهم على الأقل - بغير ما يريدون وما يبيتون .. والجو من حولهم مهيأ، والأجهزة من حولهم معبأة .. والذين يدركون حقيقة هذا الدين في الأرض كلها أكثرهم مغيبون أو مشردون:

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾

«إن الهدى هدى الله» :

وهنا يوجه الله نبيه ﷺ أن يعلن أن الهدى هو وحده هدى الله، وأن من لا يفيء إليه لن يجد الهدى أبدا في أي منهج، ولا في أي طريق:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾

ويجيء هذا التقرير ردا على مقالتهم:

﴿ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

يجيء تحذيرا للمسلمين من تحقيق الهدف اللئيم. فهو الخروج من هدى الله كله. فلا هدى إلا هداه وحده، وإنما هو الضلال والكفر ما يريده بهم هؤلاء الماكرون!

يجيء هذا التقرير قبل أن ينتهي السياق من عرض مقولة أهل الكتاب كلها.. ثم يمضي يعرض بقية تآمرهم بعد هذا التقرير:

﴿ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ ﴾

بهذا يعللون قولهم:

﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾

فهو الحقد والحسد والنقمة أن يؤتي الله أحدا من النبوة والكتاب ما آتى أهل الكتاب!

وهو الخوف أن يكون في الاطمئنان للمسلمين واطلاعهم على الحقيقة التي يعرفها

أهل الكتاب، ثم ينكرونها، عن هذا الذين، ما يتخذه المسلمون حجة عليهم عند الله!

كأن الله سبحانه لا يأخذهم بحجة إلا حجة القول المسموع !

وهي مشاعر لا تصدر عن تصور إيماني بالله وصفاته، ولا عن معرفة بحقيقة الرسالات والنبوات، وتكاليف الإيمان والاعتقاد !

ويوجه الله سبحانه رسوله الكريم ليعلمهم ويعلم الجماعة المسلمة حقيقة فضل الله حين يشاء أن يمن على أمة برسالة ورسول:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾

وشاءت إرادة الله أن يجعل الرسالة والكتاب فى غير أهل الكتاب، بعد ما خاسوا بعهدهم مع الله، ونقضوا ذمة أبيهم إبراهيم، وعرفوا الحق ولبسوه بالباطل، وتخلوا عن الأمانة التي ناطها الله بهم، وتركوا أحكام كتابهم وشريعة نبيهم، وكرهوا أن يتحاكموا إلى كتاب الله بينهم. وخلت قيادة البشرية من منهج الله وكتابه ورجاله المؤمنين.. عندئذ سلم القيادة، وناط الأمانة، بالأمة المسلمة. فضلا منه ومنّة:

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٧٣ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

وليس أعظم من فضله على أمة بالهدى ممثلا فى كتاب.. وبالخير ممثلا فى رسالة .. وبالرحمة ممثلة فى رسول ..

فإذا سمع المسلمون هذا أحسوا مدى النعمة، وقيمة المنة، فى اختيار الله لهم، واختصاصه إياهم بهذا الفضل.. واستمسكوا به في إعزاز وحرص، وأخذوه بقوة وعزم، ودافعوا عنه فى صرامة ويقين، وتيقظوا لكيد الكائدين، وحقد الحاقدين.. وهذا ما كان يربيهم به القرآن الكريم، والرسول الحبيب المحبوب ﷺ، وهو ذاته مادة التربية والتوجيه للأمة المسلمة فى كل جيل.

التحذير من اتباعهم:

وإن طاعة أهل الكتاب، والتلقي عنهم، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم، تحمل ابتداء معنى الهزيمة الداخلية، والتخلي عن دور القيادة الذى من أجله أنشئت الأمة المسلمة.. كما تحمل معنى الشك فى كفاية منهج الحق لقيادة الحياة وتنظيمها، والسير بها صعدا فى

طريق النماء والارتقاء[1] .. وهذا بذاته دبيب الكفر في النفس، وهي لا تشعر به، ولاترى خطره القريب.

هذا من جانب المسلمين..

فأما من الجانب الآخر، فأهل الكتاب ـ كما عرفنا ـ لا يحرصون على شيء حرصهم على إضلال هذه الأمة عن عقيدتها، فهذه العقيدة هي صخرة النجاة، وخط الدفاع، ومصدر القوة الدافعة للأمة المسلمة.

وهم يعرفون هذا جيدا.. يعرفونه قديما ويعرفونه حديثا.. ويبذلون في سبيل تحويل هذه الأمة عن عقيدتها كل ما في وسعهم من مكر وحيلة، ومن قوة كذلك وعدة!

وحين يعجزهم أن يحاربوا هذه العقيدة ظاهرين يدسون لها ماكرين!

وحين يعييهم أن يحاربوها بأنفسهم وحدهم، يجندون من المنافقين المتظاهرين بالإسلام، أو ممن ينتسبون ـ زورا ـ للإسلام، جنودا مجندة، لتنخر لهم في جسم هذه العقيدة من داخل الدار، ولتصد الناس عنها، ولتزين لهم مناهج غير منهجها، وأوضاعا غير أوضاعها، وقيادة غير قيادتها..

فحين يجد أهل الكتاب من بعض المسلمين طواعية واستماعا واتباعا، فهم ولا شك سيستخدمون هذا كله في سبيل الغاية التي تؤرقهم، وسيقودونهم ويقودون الجماعة من ورائهم إلى الكفر والضلال! ومن ثم هذا التحذير الحاسم المخيف:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[2]

وما كان يفزع المسلم ـ حينذاك ـ ما يفزعه أن يرى نفسه منتكسا إلى الكفر بعد الإيمان. وراجعا إلى النار بعد نجاته منها إلى الجنة. وهذا شأن المسلم الحق في كل مكان، ومن ثم يكون هذا التحذير بهذه الصورة سوطا يلهب الضمير، ويوقظه بشدة لصوت النذير!

ومع هذا فإن السياق يتابع التحذير والتذكير!

فياله من منكر أن يكفر الذين آمنوا بعد إيمانهم، وآيات الله تتلى عليهم، ورسوله فيهم،

---

(١) المرجع السابق: ٤٣٨ وما بعدها بتصرف.
(٢) آل عمران: ١٠٠.

ودواعى الإيمان حاضرة، والدعوة إلى الإيمان قائمة، ومفرق الطريق بين الكفر والإيمان مسلط عليه النور:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١)

أجل. إنها لكبيرة أن يكفر المؤمن فى ظل هذه الظروف المعينة على الإيمان..

وإذا كان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قد استوفى أجله، واختار الرفيق الأعلى، فإن آيات الله باقية، وهدى رسوله ﷺ باق..

ونحن اليوم مخاطبون بهذا القرآن الكريم، كما خوطب به الأولون، وطريق العصمة بين، ولواء العصمة مرفوع.

أجل. إنه الاعتصام بالله يعصم، والله سبحانه هو الحي القيوم.

وآفة رجال الدين عند هؤلاء المفسدين، أن يصبحوا أداة طيعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدين:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢)

وهذه الحال التي يذكرها القرآن الكريم عن هذا الفريق من أهل الكتاب (٣)، نعرفها نحن جيدا في زماننا. فهم كانوا يؤولون نصوص كتابهم، ويلوونها ليا، ليصلوا منها إلى مقررات معينة، ويزعمون أنها مدلول هذه النصوص، وأنها تمثل إرادة الله منها!

بينما هذه المقررات تصادم حقيقة دين الله في أساسها. معتمدين على أن كثرة السامعين لا تستطيع التفرقة بين حقيقة الدين ومدلولات هذه النصوص الحقيقية، وبين تلك المقررات المفتعلة المكذوبة التي يلجئون إليها النصوص إلجاء!

ونحن اليوم نعرف هذا النموذج جيدا في بعض هؤلاء الذين ينسبون إلى الدين ظلما! الذين يحترفون الدين، ويسخرونه في تلبية الأهواء كلها، ويحملون النصوص ويجرون

---

(١) آل عمران: ١٠١.   (٢) آل عمران: ٧٨.   (٣) المرجع السابق: ٤١٩ بتصرف.

بها وراء هذه الأهواء، حيثما لاح لهم أن هناك مصلحة تتحقق، وأن هناك عرضا من أعراض هذه الحياة الدنيا يحصل ! يحملون هذه النصوص ويلهثون بها وراء تلك الأهواء، ويلوون أعناق هذه النصوص ليا لتوافق هذه الأهواء السائدة، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ليوافقوا بينه وبين اتجاهات تصادم هذا الدين وحقائقه الأساسية. ويبذلون جهدا لاهثا فى التمحل وتصيد أدنى ملابسة لفظية، ليوافقوا بين مدلول آية وهوى من الأهواء السائدة التى يهمهم تمليقها:

﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

كما يحكى القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب سواء. فهى آفة لا يختص بها أهل الكتاب وحدهم. إنما تبتلى بها كل أمة يرخص دين الله فيها على من ينتسبون إليه، حتى ما يساوي إرضاء هوى من الأهواء التى يعود تمليقها بعرض من أعراض هذه الأرض !

وتفسد الذمة، حتى ما يتحرج القلب من الكذب على الله، وتحريف كلماته عن مواضعها لتمليق عبيد الله، ومجاراة أهوائهم المنحرفة، التى تصادم دين الله!

وهكذا كان التحذير من هذا المسلك الوبىء، الذى انتهى بنزع أمانة القيادة من بنى إسرائيل!

وهكذا ـ أيضا ـ حال هؤلاء الذين ينسبون إلى الدين ظلما. !

« وقطعناهم فى الأرض أمما »:

وإزاء هذه الجرائم الغليظة، التى ارتكبها هؤلاء فى حربهم للحق والخير، وعدوانهم على معالم الهدى والنور، وإفسادهم فى الأرض!

إزاء هذه الجرائم الشنيعة، التى ذكرنا بعضها، وهى قل من كثر!

إزاء كل هذا أخذ الحق اليهود بالبأساء والضراء فى أجيالهم المتعاقبة، وأنزل بهم من البلاء ما أنزل، فرماهم بالغضب..

وضرب عليهم الذلة والمسكنة..

وجعل منهم القردة والخنازير..

وأغرى بهم الناس يسومونهم سوء العذاب فى كل مكان ينزلون به..

وقد تكشف للناس ما هم فيه من فساد وإفساد، وضلال وإضلال:

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (١)

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٢)

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣)

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ (٤)

فهو إذن الأبد الذى تحقق منذ صدوره(٥)، فبعث الله على اليهود فى فترات من الزمان من يسومهم سوء العذاب. والذى سيظل نافذا فى عمومه، فيبعث الله عليهم بين آونة وأخرى من يسومهم سوء العذاب، وكلما انتعشوا وانتفشوا وطغوا فى الأرض وبغوا، جاءتهم الضربة القاصمة ممن يسلطهم الله من عباده على هذه الفئة الباغية النكدة، الناكثة العاصية، التى لا تخرج من معصية إلا لتقع فى معصية، ولا تثوب من انحراف حتى تجنح إلى انحراف!

ولقد يبدو أحيانا أن اللعنة قد توقفت، وأن يهود قد عزت واستطالت! وإن هى إلا فترة عارضة من فترات التاريخ! ولا يدرى إلا الله من ذا الذى سيسلط عليهم فى الجولة الثانية، وما بعدها إلى يوم القيامة! لقد تأذن الله بهذا الأمر الدائم إلى يوم القيامة ـ كما أخبر الله نبيه فى قرآنه ـ معقبا على هذا الأمر بتقرير صفة الله سبحانه فى العقاب والرحمة:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

فهو بسرعة عقابه يأخذ الذين حقت عليهم كلمة العذاب.. وهو بمغفرته ورحمته

---

(١) البقرة: ٩٠. (٢) آل عمران: ١١٢. (٣) البقرة: ٦٥ ـ ٦٦.

(٤) الأعراف: ٢٦٧ ـ ٢٦٨. (٥) فى ظلال القرآن: ٣: ١٣٨٦ بتصرف.

يقبل التوبة ممن يتوب من بنى إسرائيل، ممن يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل.. فليس عذابه سبحانه عن نقمة ولا إحنة. إنما هو الجزاء العادل لمن يستحقونه، ووراءه المغفرة والرحمة..

سماحة وتحذير:

ومن ثم كان التحذير من أن يتخذ المسلمون بطانة منهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١)

إنها صورة كاملة السمات، ناطقة بدخائل نفوس هؤلاء، وشواهد الملامح تسجل المشاعر الباطنة، والانفعالات الظاهرة، والحركة الذاهبة الآيبة!

ومع كل هذا، لعله قد آن لنا بعد هذا القول الذى أراه مجملا، وقد يراه غيرى مفصلا بعض الشىء.. لعله قد آن لنا بعد أن عرضنا ملامح معبرة لصورة يهود، أن نختم ذلك ببيان سماحة الإسلام فى وجه كل هذا العداء (٢). فالله عز وجل يأمر المسلمين ألا يتخذوا بطانة من هؤلاء. وألا يجعلوهم موضع ثقتهم ولكنه لا يحرضهم على مقابلة الغل والحقد والكراهية والدس والمكر بمثلها!

إنما هى مجرد الوقاية للجماعة المسلمة وللصف المسلم، وللكينونة المسلمة.. مجرد الوقاية، ومجرد التنبية إلى الخطر الذى يحيطها به الآخرون!

أما المسلم فبسماحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعا، وبنظافة الإسلام يتعامل مع الناس جميعا، وبمحبة الخير الشامل يلقى الناس جميعا، ويتقى الكيد ولكنه لا يكيد، ويحذر الحقد ولكنه لايحقد. إلا أن يحارب فى دينه، وأن يفتن فى عقيدته، وأن يصد عن سبيل الله

---

(١) آل عمران: ١١٨-١٢٠.

(٢) المرجع السابق: ١:٤٥٢ بتصرف.

ومنهجه. فحينئذ هو مطالب أن يحارب، وأن يمنع الفتنة، وأن يزيل العقبات التى تصد الناس عن سبيل الله، وعن تحقيق منهجه فى الحياة.. يحارب جهادا فى سبيل الله، لا انتقاما لذاته.. وحبا لخير البشر، لا حقدا على الذين آذوه.. وتحطيما للحواجز الحائلة دون إيصال هذا الخير للناس، لا حبا للغلب والاستعلاء والاستغلال.. وإقامة للنظام القويم الذى يستمتع الجميع فى ظله بالعدل والسلام، لا لتركيز راية قومية، ولا لبناء إمبراطورية!

النهى عن موالاتهم:

إن هذا القرآن يربى الفرد المسلم على أساس إخلاص ولائه لربه ورسوله وعقيدته وجماعته المسلمة[1]، وعلى ضرورة المفاصلة الكاملة بين الصف الذى يقف فيه وكل صف آخر لا يرفع راية الحق، ولا يتبع قيادة رسول الله ﷺ، ولا ينضم إلى الجماعة التى تمثل حزب الله.. وعلى إشعاره أنه موضع اختيار الله، ليكون ستارا لقدرته، وأداة لتحقيق قدره فى حياة البشر، وفى واقع التاريخ. وأن هذا الاختيار ـ بكل تكاليفه ـ فضل من الله يؤتيه من يشاء، وأن مولاة غير الجماعة المسلمة معناه الارتداد عن دين الله، والنكول عن هذا الاختيار العظيم، والتخلى عن هذا التفضل الجميل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]

قال ابن جرير[3]: اختلف أهل التأويل فى المعنىّ بهذه الآية، وإن كان مأمورا بذلك جميع المؤمنين:

فقال بعضهم: عنى بذلك عبادة بن الصامت، وعبد الله بن أبى بن سلول، فى براءة عبادة من حلف اليهود، وفى تمسك عبد الله بن أبى بحلف اليهود، بعدما ظهرت عداوتهم لله ولرسوله ﷺ، وأخبره الله أنه إذا تولاهم وتمسك بحلفهم أنه منهم فى براءته من الله ورسوله كبراءتهم منهما.

وقال آخرون: بل عنى بذلك قوم من المؤمنين، كانوا هموا حين نالهم بأُحد من أعدائهم من المشركين ما نالهم أن يأخذوا من اليهود عصما، فنهاهم الله عن ذلك، وأعلمهم أن من فعل ذلك منهم فهو منهم.

وقال آخرون: بل عُنى بذلك أبو لبابة بن عبد المنذر فى إعلامه بنى قريظة إذ رضوا

---

(١) المرجع السابق: ٢: ٩٠٧ بتصرف.

(٢) المائدة: ٥١.

(٣) تفسير الطبرى: ٦: ٢٧٥ وما بعدها بتصرف.

بحكم سعد أنه الذبح.

وقال ابن جرير بعد أن ذكر الروايات فى ذلك: والصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرا وحليفا ووليا من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم فى التحزّب على الله ورسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان.. ثم قال: الصواب أن يحكم لظاهر التنزيل بالعموم على ما عمّ، ويجوز ما قاله أهل التأويل فيه من القول الذى لا علم عندنا بخلافه، غير أنه لا شك أن الآية نزلت فى منافق كان يوالى يهود أو نصارى، خوفا على نفسه من دوائر الدهر؛ لأن الآية التى بعد هذه تدل على ذلك، وذلك قوله:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ (١)

إن القرآن الكريم يربى وعى المسلم بحقيقة أعدائه(٢)، وحقيقة المعركة التى يخوضها معهم ويخوضونها معه.. إنها معركة العقيدة. فالعقيدة هى القضية القائمة بين المسلم وكل أعدائه.. وهم يعادونه لعقيدته ودينه، قبل أى شىء آخر وهم يعادونه هذا العداء الذى لا يهدأ، لأنهم فاسقون عن دين الله، ومن ثم يكرهون كل من يستقيم على دين الله:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (٣)

هذه هى العقيدة، وهذه هى الدوافع الأصيلة!

وقيمة هذا المنهج، وقيمة هذه التوجيهات الأساسية عظيمة. فإخلاص الولاء لله ورسوله ودينه وللجماعة المسلمة القائمة على هذا الأساس، ومعرفة طبيعة المعركة وطبيعة الأعداء فيها.. أمران مهمان، سواء فى تحقيق شرائط الإيمان، أو فى التربية الشخصية للمسلم، أو فى التنظيم السلوكى للجماعة المسلمة.. فالذين يحملون راية هذه العقيدة لا يكونون مؤمنين بها أصلا، ولا يكونون فى ذواتهم شيئا، ولا يحققون فى واقع الأرض أمرا

---

(١) المائدة: ٥٢.

(٢) فى ظـلال القرآن : ٢: ٩٠٨ وما بعدها بتصرف.

(٣) المائـدة : ٥٩.

مالم تتم فى نفوسهم المفاصلة الكاملة بينهم وبين سائر المعسكرات التى لاترفع رايتهم، وما لم يتمخض ولاؤهم لله ورسوله ولقيادتهم الخاصة المؤمنة به، ومالم يعرفوا طبيعة أعدائهم، وما لم يدركوا بواعثهم، وطبيعة المعركة التى يخوضونها معهم، وما لم يستيقنوا أنهم جميعا إلب عليهم، وأن بعضهم أولياء بعض فى حرب الجماعة المسلمة والعقيدة الإسلامية على السواء.

والآيات القرآنية هنا لا تقف عند كشف بواعث المعركة فى نفوس أعداء الجماعة المسلمة.. بل تكشف كذلك طبيعة هؤلاء الأعداء ومدى فسقهم وانحرافهم، ليتبين المسلم حقيقة من يحاربه، وليطمئن ضميره إلى المعركة التى يخوضها، وليقتنع وجدانه بضرورة هذه المعركة، وأنه لا مفر منها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ (١)

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢)

ومن هذه صفاتهم، ومواقفهم من الجماعة المسلمة، وتألبهم عليها، واستهزاؤهم بدينها وصلاتها، لا مناص للمسلم من دفعهم وهو مطمئن الضمير..

كذلك تقرر الآيات نهاية المعركة ونتيجتها، وقيمة الإيمان فى مصائر الجماعات فى هذه الحياة الدنيا قبل الجزاء فى الحياة الآخرة:

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (٣)

---

(١) المائدة: ٥٧ ـ ٥٨. (٢) المائدة: ٦١ ـ ٦٤. (٣) المائدة: ٥٦.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (١)

كما تقرر صفة المسلم الذى يختاره الله لدينه، ويمنحه هذا الفضل العظيم فى اختياره لهذا الدور الكبير: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢)

وكل هذه التقريرات خطوات فى المنهج، وفى صياغة الفرد المسلم، والجماعة المسلمة على الأساس المتين:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

سبق أن عرفنا أن الولاية تعنى التناصر والتحالف معهم.. .هى بهذا لا تتعلق بمعنى اتباعهم فى دينهم. فبعيد جدا أن يكون بين المسلمين من يميل إلى اتباع اليهود والنصارى فى الدين. إنما هو ولاء التحالف والتناصر، الذى كان يلتبس على المسلمين أمره، فيحسبون أنه جائز لهم، بحكم ما كان واقعا من تشابك المصالح والأواصر، ومن قيام هذا الولاء بينهم وبين جماعات من اليهود قبل الإسلام، وفى أوائل العهد بقيام الإسلام فى المدينة، حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله، بعدما تبين عدم إمكان قيام الولاء والتحالف والتناصر بين المسلمين واليهود فى المدينة..

وهذا المعنى معروف محدد فى الآيات القرآنية.. وقد جاء فى صدد الكلام عن العلاقة بين المسلمين فى المدينة والمسلمين الذين لم يهاجروا إلى دار الإسلام، فقال االله سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ

---

(١) المائدة: ٦٥، ٦٦.

(٢) المائدة: ٥٤.

ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١)

وطبيعى أن المقصود هنا ليس الولاية فى الدين. فالمسلم ولى المسلم فى الدين على كل حال.. إنما المقصود هو ولاية التناصر والتعاون..

وهذا النوع من الولاية هو الذى تمنع هذه الآيات أن يقوم بين الذين آمنوا وبين اليهود والنصارى بحال، بعدما كان قائما بينهم أول العهد بالمدينة.

إن سماحة الإسلام مع أهل الكتاب شيء، واتخاذهم أولياء شيء آخر، ولكنهما يختلطان على بعض المسلمين، الذين لم تتضح فى نفوسهم الرؤية الكاملة لحقيقة هذا الدين، بوصفه عقيدة منهجية واقعية، تتجه إلى إنشاء واقع فى الأرض، وفق التصور الإسلامى الذى يختلف فى طبيعته عن سائر التصورات التى تعرفها البشرية، وتصطدم - من ثم - بالتصورات والأوضاع المخالفة، كما تصطدم بشهوات الناس وانحرافهم وفسوقهم عن منهج الله، وتدخل فى معركة لا حيلة فيها، ولا بد منها، لإنشاء ذلك الواقع الجديد الذى تريده، وتتحرك إليه حركة إيجابية فاعلة منشئة..

وهؤلاء الذين تختلط عليهم تلك الحقيقة ينقصهم الحس النقى بحقيقة العقيدة، كما ينقصهم الوعى الذكى لطبيعة المعركة وطبيعة موقف أهل الكتاب فيها، ويغفلون عن التوجيهات القرآنية الواضحة الصريحة فيها، فيخلطون بين دعوة الإسلام إلى السماحة فى معاملة أهل الكتاب والبر بهم فى المجتمع المسلم الذى يعيشون فيه مكفولى الحقوق، وبين الولاء الذى لا يكون إلا لله ورسوله وللجماعة المسلمة، ناسين ما يقرره القرآن الكريم من أن أهل الكتاب.. بعضهم أولياء بعض فى حرب الجماعة المسلمة.. وأن هذا شأن ثابت لهم، وأنهم ينقمون من المسلم إسلامه، وأنهم لن يرضوا عن المسلم إلا أن يترك دينه ويتبع دينهم..

وهنا نبصر آيات الله تكشف للرسول ﷺ عن حقيقة المعركة بينه وبين أهل الكتاب، ونحن نقرأ قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (٢)

---

(١) الأنفال: ٧٢.	(٢) البقرة: ١٢٠.

وتلك هى العلة الأصلية[1]، ليس الذى ينقصهم هو البرهان، وليس الذى ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق وأن الذى جاءك من ربك الحق. ولو قدمت إليهم ما قدمت، ولو توددت إليهم ما توددت.. لن يرضيهم من هذا كله شىء، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق..

حقا، إنها العقيدة الدائمة التى نرى مصداقها فى كل زمان ومكان.. إنها هى العقيدة.. هذه حقيقة المعركة التى يشنها أهل الكتاب فى كل زمان وفى كل مكان، وفى كل جيل وفى كل قبيل، ضد الجماعة المسلمة..

إنها معركة العقيدة، هى المشبوبة بين المعسكر الإسلامى وبين هذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان فيما بينهما، قد تتخاصم شيع الملة الواحدة فيما بينهما، ولكنها تلتقى دائما فى المعركة ضد الإسلام والمسلمين!

إنها معركة العقيدة فى صميمها وحقيقتها.. ولكن المعسكرين العريقين فى العداوة للإسلام يلونانها بألوان شتى، ويرفعان عليها أعلاما شتى، فى خبث ومكر وتورية. إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة. ومن ثم استدار الأعداء العريقون فغيروا أعلام المعركة.. لم يعلنوها حربا باسم العقيدة ــ على حقيقتها ــ خوفا من حماسة العقيدة وجيشانها.. إنما أعلنوها باسم الأرض، والاقتصاد، والسياسة، والمراكز العسكرية.. وما إليها.. وألقوا فى روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها!ولا يجوز رفع رايتها، وخوض المعركة باسمها.. فهذه سمة المتخلفين المتعصبين! ذلك كى يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها.. بينما هم فى قرارة نفوسهم: اليهودية والصليبية ــ بإضافة الشيوعية وليدة اليهودية ــ جميعا يخوضون المعركة أولا وقبل كل شىء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التى نطحوها جميعا طويلا، فأدمتهم جميعا!

إنها معركة العقيدة.. إنها ليست معركة الأرض وما إليها من الرايات المزيفة كلها، لغرض فى نفوسهم دفين. ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها، فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا. ونحن نبعد عن توجيه الله لنبيه ﷺ ولأمته، وهو سبحانه أصدق القائلين:

---

(١) المرجع السابق: ١٠٨:١.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

فذلك هو الثمن الوحيد الذى يرتضونه. وما سواه فمرفوض ومردود!

ولكن الأمر الحازم، والتوجيه الصادق:

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾

على سبيل القصر والحصر. هدى الله هو الهدى. وما عداه ليس بهدى. فلا براح منه، ولا فكاك عنه، ولا محاولة فيه، ولا ترضية على حسابه، ولا مساومة فى شىء منه قليل أو كثير، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وحذار أن تميل بك الرغبة فى هدايتهم وإيمانهم، أو صداقتهم ومودتهم عن هذا الصراط الدقيق:

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

بهذا التهديد المفزع الشديد، وبهذا القطع الجازم الحاسم، وبهذا الوعيد الرهيب الرعيب.. ولمن؟ لنبى الله ورسوله وحبيبه ﷺ الكريم! إنها الأهواء.. إن أنت ملت عن الهدى.. هدى الله الذى لا هدى سواه.. وهى الأهواء التى تقفهم منك هذا الموقف، وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل!

إنهم مصرون على الحرب للإسلام وللجماعة المسلمة.. وقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر.. إلى آخر هذه التقريرات الحاسمة التى عرضنا لها من قبل!

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب ـ كما عرفنا ـ[1] ولكنه منهى عن الولاء لهم بمعنى التناصروالتحالف معهم. وإن طريقه لتمكين دينه وتحقيق نظامه المتفرد لا يمكن أن يلتقى مع طريق أهل الكتاب، ومهما أبدى لهم من السماحة والمودة فإن هذا لن يبلغ أن يرضوا له البقاء على دينه وتحقيق نظامه، ولن يكفهم عن موالاة بعضهم لبعض فى حربه والكيد له!

وسذاجة أية سذاجة، وغفلة أية غفلة، أن نظن أن لنا وإياهم طريقا واحدا نسلكه للتمكين للدين! أمام الكفار والملحدين!فهم مع الكفار والملحدين، إذا كانت المعركة مع

---

(١) المرجع السابق: ٢: ٩١٠وما بعدها بتصرف.

المسلمين!

وهذه الحقائق الواعية يغفل عنها السذج منا فى هذا الزمان وفى كل زمان، حين يفهمون أننا نستطيع أن نضع أيدينا فى أيدى أهل الكتاب فى الأرض، للوقوف فى وجه المادية والإلحاد، بوصفنا جميعا أهل دين! ناسين تعليم القرآن كله! وناسين تعليم التاريخ كله! فأهل الكتاب هؤلاء هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين:

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ (١)

وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين ألبوا المشركين على الجماعة المسلمة فى المدينة، وكانوا لهم درعا وردءا!

وأهل الكتاب هم الذين شنوا الحروب الصليبية خلال مائتى عام!

وأهل الكتاب هم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس!

وأهل الكتاب هم الذين شردوا المسلمين فى فلسطين، وأحلوا الذين لعنوا محلهم، وأمدوهم بكل وسائل البطش والقهر، متعاونين فى هذا مع الإلحاد والمادية!

وأهل الكتاب هم الذين يشردون المسلمين أينما قدروا.. ويتعاونون فى هذا التشريد مع الإلحاد والمادية والوثنية.. فى كل مكان!

ثم يظهر بيننا من يظن - فى بعد كامل عن تقريرات القرآن الجازمة ـ أنه يمكن أن يقوم بيننا وبين أهل الكتاب هؤلاء ولاء وتناصر. ندفع به المادية والإلحادية عن الدين!

إن هؤلاء لا يقرأون القرآن الكريم، وإذا قرأوه اختلطت عليهم دعوة السماحة التى هى طابع الإسلام، فظنوها دعوة الولاء الذى يحذر منه القرآن الكريم.

إن هؤلاء لا يعيش الإسلام فى حسهم، لا بوصفه عقيدة لا يقبل الله من الناس غيرها، ولا بوصفه حركة إيجابية تستهدف إنشاء واقع جديد فى الأرض، تقف فى وجه عداوات أهل الكتاب اليوم، كما وقفت له بالأمس. الموقف الذى لا يمكن تبديله. لأنه الموقف الطبيعى الوحيد!

وندع هؤلاء فى إغفالهم أو غفلتهم عن التوجيه القرآنى، لنعى نحن هذا التوجيه القرآنى الصريح:

---

(١) النساء: ٥١.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

هذا النداء موجه إلى الجماعة المسلمة فى المدينة .. ولكنه فى الوقت ذاته موجه لكل جماعة مسلمة تقوم فى أى ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة.. موجه لكل من ينطبق عليه ذات يوم صفة: «الذين آمنوا» .

ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء للذين آمنوا، أن المفاصلة لم تكن كاملة ولا حاسمة بين بعض المسلمين فى المدينة وبعض أهل الكتاب ــ وبخاصة اليهود ــ فقد كانت هناك علاقات ولاء وحلف، وعلاقات اقتصاد وتعامل، وعلاقات جيرة وصحبة.. وكان هذا كله طبيعيا مع الوضع التاريخى والاقتصادى والاجتماعى فى المدينة قبل الإسلام، بين أهل المدينة من العرب وبين اليهود بصفة خاصة.. وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم فى الكيد لهذا الدين وأهله، بكل صنوف الكيد التى عددتها وكشفتها الآيات القرآنية الكثيرة، والتى سبق استعراض بعضها، والتى تولت هذه الآيات التى معنا وصف بعضها كذلك .

ونزل القرآن الكريم ليبث الوعى اللازم للمسلمين فى المعركة التى يخوضها بعقيدته، لتحقيق منهجه الجديد فى واقع الحياة، ولينشىء فى ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة بينه وبين هؤلاء ومن على شاكلتهم.. المفاصلة التى لا تنهى السماحة الخلقية. فهذه صفة المسلم دائما. ولكنها تنهى الولاء الذى لا يكون فى قلب المسلم إلا لله ورسوله والذين آمنوا.. الوعى والمفاصلة إذن لا بد منهما للمسلم فى كل أرض وفى كل زمان ومكان وفى كل جيل وقبيل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

بعضهم أولياء بعض.. إنها حقيقة لا علاقة لها بالزمن.. لأنها حقيقة نابعة من طبيعة الأشياء.. إنهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة فى أى أرض ولا فى أى تاريخ.. وقد مضت القرون تلو القرون ترسم مصداق هذا القول الصادق..

لقد ولى بعضهم بعضا فى حرب الرسالة والرسول والجماعة المسلمة فى المدينة..!

وولى بعضهم بعضا فى كل فجاج الأرض، على مدار التاريخ..!

وولى بعضهم بعضا فى اغتصاب فلسطين وما يجرى فيها من قتل وتشريد ووحشية!

ولم تختل هذه القاعدة مرة واحدة،ولم يقع فى هذه الأرض إلا ما قرره القرآن الكريم، فى صيغة الوصف الدائم، لا الحادث المفرد.. واختيار الجملة الإسمية على هذا النحو.. «بعضهم أولياء بعض» ليس مجرد تعبير! إنما هو اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدائم الأصيل!

ثم رتب على هذه الحقيقة الأساسية نتائجها.. فإنه إذا كان اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض فإنه لا يتولاهم إلا من هو منهم. والفرد الذى يتولاهم من الصف المسلم، يخلع نفسه من هذا الصف ويخلع نفسه من صفته، وينضم إلى الصف الآخر؛ لأن هذه هى النتيجة الطبيعية الواقعية:

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾

لقد كان هذا تحذيرا للجماعة المسلمة فى المدينة، ولكنه تحذير ليس مبالغا فيه؛ لأنه يمثل الحقيقة الواقعة. فما يمكن أن يمنح المسلم ولاءه لليهود والنصارى ـ وبعضهم أولياء بعض ـ وهذا مفرق الطريق.

وما يمكن أن يتميع الحسم فى المفاصلة الكاملة بين المسلم وبين هؤلاء ومن على شاكلتهم، ثم يكون فى وسعه بعد ذلك أن يعمل عملا ذا قيمة من الأعمال التى تستهدف ـ أول ماتستهدف ـ إقامة نظام إسلامى يعتمد على تصور متفرد له خصائصه ومقوماته.

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم، الذى لا أرجحه فيه ولا تردد، بأن دينه هو الدين عند الله، وبأن منهجه الذى كلفه الله أن يقيم الحياة عليه، منهج متفرد، لا نظير له بين سائر المناهج، ولا يمكن الاستغناء عنه بمنهج آخر، ولا يمكن أن يقوم مقامه منهج آخر، ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا أن تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه.. هو وحده الذى يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض بتحقيق منهج الحق، فى وجه العقبات الشاقة، والتكاليف المضنية، والمقاومة العنيدة، والكيد الناصب، والألم الذى يكاد يجاوز الطاقة فى كثير من الأحيان.. وإلا فما العناء فى أمر يغنى عنه غيره، مما هو قائم فى الأرض من جاهلية.. سواء كانت ممثلة فى وثنية الشرك، أو فى انحراف أهل الكتاب ـ كما أسلفنا ـ أو فى الإلحاد السافر.. بل ما العناء فى إقامة المنهج الإسلامى، إذا كانت الفوارق بينه وبين مناهج أهل الكتاب أوغيرهم قليلة، يمكن الالتقاء عليها بالمصالحة والمهادنة؟!

إن الذين يحاولون تمييع هذه المفاصلة الحاسمة، باسم التسامح والتقريب بين المسلمين وأهل الكتاب، يخطئون فهم معنى الدين، كما يخطئون فهم معنى التسامح. فالدين عند الله الإسلام ــ كما عرفنا من قبل ــ والتسامح يكون فى المعاملات الشخصية،لافى التصور الاعتقادى ولا فى النظام التشريعى.. إنهم يحاولون تمييع اليقين الجازم فى نفس المسلم بأن الله لا يقبل دينا إلا الإسلام، وبأن عليه أن يحقق منهج الحق الممثل فى الإسلام.. هذا اليقين الذى ينشئه القرآن الكريم وهو يقرر: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ (١)

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (٢)

ويصور القرآن تلك الحالة التي كانت واقعة، والتي ينزل من أجلها بهذا التحذير:

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾

إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعا على أساس العقيدة. فالولاء والعداء لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا في العقيدة.. ومن ثم لا يمكن أن يقوم الولاء ــ وهو التناصر ــ بين المسلم وهؤلاء، إذ إنهما لا يمكن أن يتناصرا فى مجال العقيدة.. ولا حتى أمام الإلحاد مثلا ــ كما يتصور بعض السذج منا وبعض من لا يقرأون القرآن! ــ وكيف يتناصران وليس بينهما أساس مشترك يتناصران عليه!

إن الأمر فى التصور الإسلامي وفي حس المسلم واضح محدد.. الدين عند الله هو الإسلام..

والمسلم يتعامل مع أهل الكتاب هؤلاء، وهو مطالب بإحسان معاملتهم ــ كما سبق ــ ما لم يؤذوه فى الدين..

والمسلم مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام، وهو غير مأذون فى أن يكره أحدا من هؤلاء ومن على شاكلتهم على الإسلام .. وسبق بيان ذلك.

إن قضية الولاء والتناصر قضية اعتقادية إيمانية، كما أنها قضية تنظيمية سلوكية!

والإسلام يكلف المسلم أن يخلص سعيه كله لله .. ولا يتصور إمكان انفصال أية جزئية في السعي اليومى فى حياة المسلم عن ذلك.. لا يتصور إمكان هذا إلا من لا يعرف

---

(١) آل عمران: ١٩.   (٢) آل عمران: ٨٥.

حقيقة الإسلام وحقيقة المنهج الإسلامى .. ولا يتصور أن هناك جوانب في الحياة خارجة عن هذا المنهج يمكن التعامل فيها مع من يعادى الإسلام، أولا يرضى من المسلم إلا أن يترك إسلامه!

إنهما نهجان مختلفان، ناشئان عن تصورين مختلفين، وعن شعورين متباينين، ومثل هذا الاختلاف قائم على مدار الزمان بين قلب مؤمن وقلب لا يعرف الإيمان !

•

ويهدد القرآن المستنصرين بأعداء دينهم، المتألبين عليهم، المنافقين الذين لا يخلصون لله اعتقادهم ولا اعتمادهم.. يهددهم برجاء الفتح أو أمر الله الذي يفصل فى الموقف، أو يكشف المستور من النفاق:

﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾

وعندئذ ــ عند الفتح ــ يندم أولئك الذين فى قلوبهم مرض، على المسارعة والاجتهاد فى ولاء أهل الكتاب، وعلى النفاق الذى انكشف أمره، وعندئذ يعجب الذين آمنوا من حال المنافقين، ويستنكرون ما كانوا فيه من النفاق، وما صاروا إليه من الخسران.

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ (١)

جاء فى المنار (٢) : أى يقول بعضهم لبعض متعجبين من عاقبة المنافقين: أهؤلاء الذين أقسموا بالله أغلظ الأيمان مجتهدين فى توكيدها، إنهم منكم أيها المؤمنون وعلى دينكم، ومعكم فى حربكم وسلمكم؟ كما قال تعالى:

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ (٣)

أى فهم لفرقهم وخوفهم يظهرون الإسلام تقية:

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ (٤)

أى يسرعون إسراع الفرس الجموح، فرارا من الإسلام وأهله، وتواريا عنهم، واعتصاما منهم. أو يقولون ذلك لليهود الذين كانوا يغترون بموالاة المنافقين ومودتهم السرية

---

(١) المائدة : ٥٣.
(٢) تفسير المنار: ٦ : ٤٣٣ بتصرف.
(٣) التوبة : ٥٦.
(٤) التوبة : ٥٧ .

لهم، ويظنون أنهم إذا نقضوا عهد النبى ﷺ وحاربوه يجدون منهم أعوانا وأنصارا بين المسلمين يقاتلون معهم، أو يوقعون الفشل والتخذيل في جيش المسلمين لأجلهم، كما قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝١١ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (١)

ولقد جاء الفتح يوما، وتكشفت نوايا، وحبطت أعمال، وخسرت فئات. ونحن على موعد قائم بأن يجيء الفتح، كلما استمسكنا بالعروة الوثقى، وكلما أخلصنا الولاء لله وحده. وكلما وعينا منهج الله، وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا. وكلما تحركنا في الحياة على هدي الله. فلم نتخذ لنا وليا إلا الله ورسوله والذين آمنوا..

ونقرأ بعد ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٢)

يقول القاسمي: (٣) لما نهى تعالى ـ فيما سلف ـ عن موالاة اليهود والنصارى، وبين أن موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين بقوله: «فإنه منهم» وقوله: «حبطت أعمالهم» شرع في بيان حال المرتدين على الإطلاق. ونوه بقدرته العظيمة. فأعلم أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله سيستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة، وأقوم سبيلا، كما قال تعالى:

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ (٤)

---

(١) الحشر: ١١ ـ ١٢.
(٢) المائدة: ٥٤ ـ ٥٦.
(٣) تفسير القاسمي: ٦: ٢٠٣٢ بتصرف.
(٤) محمد: ٣٨.

وقال تعالى :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (٢)

وإذ ينتهي السياق من النداء الأول للذين آمنوا (٣) ، أن ينتهوا عن موالاة اليهود والنصارى، وأن يحذروا أن يصيروا منهم بالولاء لهم، وأن يرتدوا بذلك عن الإسلام وهم لا يشعرون أو لا يقصدون.

يأتي النداء الثاني للذين آمنوا يهدد من يرتد منهم عن دينه ـ بهذا الولاء أو بسواه من الأسباب ـ بأنه ليس عند الله بشيء، وليس بمعجز الله ولا ضار بدينه، وأن لدين الله أولياء وناصرين مدخرين في علم الله.. إن ينصرف هؤلاء يجيء بهؤلاء.. ويصور ملامح هذه العصبة المختارة المدخرة في علم الله لدينه، وهي ملامح محببة جميلة وضيئة .. ويبين جهة الولاء الوحيدة التي يتجه إليها المسلم بولائه .. ويختم هذا النداء بتقرير النهاية المحتومة للمعركة التي يخوضها حزب الله مع الأحزاب ! والتي يتمتع بها من يخلصون ولاءهم لله ولرسوله وللمؤمنين..

وإن تهديد من يرتد عن دينه من الذين آمنوا ـ على هذه الصورة وفى هذا المقام ـ ينصرف ابتداء إلى الربط بين موالاة اليهود والنصارى وبين الارتداد عن الإسلام. وبخاصة بعد ما سبق من اعتبار من يتولاهم واحدا منهم: منسلخا من الجماعة المسلمة، منضما إليهم: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم».

وعلى هذا الاعتبار يكون هذا النداء الثاني في السياق توكيدا وتقريرا للنداء الأول..

يدل على هذا كذلك النداء الثالث الذي يلي هذا النداء والسياق:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٤)

وهو منصب على النهي عن موالاة أهل الكتاب والكفار، يجمع بينهم على هذا

---

(١) النساء : ١٣٣.
(٢) إبراهيم : ١٩ ـ ٢٠ وفاطر ١٦ ـ ١٧.
(٣) في ظلال القرآن : ٢ : ٩١٧ وما بعدها بتصرف.
(٤) المائدة : ٥٧.

النحو، الذي يفيد أن موالاتهم كموالاة الكفار سواء، وأن تفرقة الإسلام فى المعاملة بين أهل الكتاب والكفار، لا تتعلق بقضية الولاء، إنما هي في شئون أخرى لا يدخل فيها الولاء:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

إن اختيار الله للعصبة المؤمنة، لتكون أداة القدر الإلهي في إقرار دين الله في الأرض، وتمكين سلطانه في حياة البشر، وتحكيم منهجه في أوضاعهم وأنظمتهم، وتنفيذ شريعته في أقضيتهم وأحوالهم، وتحقيق الصلاح والخير والطهارة والنماء في الأرض بذلك المنهج وبهذه الشريعة..

إن هذا الاختيار للنهوض بهذا الأمر هو مجرد فضل الله ومنته، فمن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه هذه المنة.. فهو وذاك. والله غني عنه وعن العالمين. والله يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم.

والصورة التي يرسمها للعصبة المختارة هنا في هذا النداء صورة واضحة السمات قوية الملامح، وضيئة جذابة حبيبة للقلوب:

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾

فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم .. الحب .. هذا الروح الساري اللطيف الرفاف المشرق الرائق البشوش .. هو الذي يربط القوم بربهم الودود.

وحب الله لعبد من عباده، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف الحق تبارك وتعالى بصفاته، كما وصف نفسه، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات فى حسه ونفسه، وشعوره وكينونته كلها..

أجل، لا يقدر حقيقة هذا العطاء، إلا الذى يعرف حقيقة المعطى.. الذى يعرف من هو الله..

من هو فى عظمته ..

ومن هو فى قدرته ..

ومن هو في تفرده ..

ومن هو في ملكوته ..

من هو ، ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب .. والعبد من خلقه .. وهو الجليل العظيم، الحي الدائم، الأول والآخر، والظاهر والباطن..

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد، لا يدركها كذلك إلا من ذاقها..

وإذا كان حب الله لعبد من عباده أمرا هائلا عظيما، وفضلا غامرا جزيلا، فإن إنعام الله على العبد، بهدايته لحبه، وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه.. هو إنعام هائل عظيم، وفضل غامر جزيل..

وإذا كان حب الله لعبد من عباده أمرا فوق التعبير أن يصفه، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام الصادقين..

وهذا الحب من الجليل للعبد، والحب من العبد للمنعم المتفضل، يشيع في هذا الوجود ويسري في هذا الكون العريض، وينطبع في كل حي، وفي كل شيء، فإذا هو جو وظل يغمران هذا الكون، ويغمران الوجود الإنساني كله، ممثلا في ذلك العبد المحب المحبوب..

والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب، وهو أصل وحقيقة، وعنصر في هذا التصور أصيل:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ (١)

﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾ (٢) ﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴾ (٣)

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ ﴾ (٤)

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾ (٥)

﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (٦)

---

(١) مريم : ٩٦ . (٢) هود : ٩٠ . (٣) البروج : ١٤ .
(٤) البقرة : ١٦٥ . (٥) البقرة : ١٨٦. (٦) آل عمران: ٣١.

إن نصاعة التصور الإسلامي تصور العلاقة بين الله والناس ذلك التصور الندى الحبيب..

فهى علاقة الرحمة، كما أنها علاقة العدل..

وهى علاقة الود، كما أنها علاقة التجريد..

وهى علاقة الحب، كما أنها علاقة التنزيه ..

إنه التصور الكامل الشامل، لكل حاجات الكينونة البشرية فى علاقتها برب العالمين ..

وهنا ـ فى هذه العصبة المختارة لهذا الدين ـ يرد ذلك القول العجيب :

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾

ويطلق شحنته كلها في هذا الجو، الذي يحتاج إليه القلب المؤمن، وهو يضطلع بهذا العبء .. شاعرا أنه الاختيار والتفضل، والقريب من المنعم الجليل ..

ثم يمضى السياق في هذا النداء يعرض بقية السمات لهؤلاء الذين يأتى الله بهم:

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وفي هذا التعبير ـ كما قال الزمخشرى ـ وجهان :

أحدهما: أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف ، كأنه قيل: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع.

والثانى : أنهم ـ مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين ـ خافضون لهم أجنحتهم.(١)

وهى صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين.. فالمؤمن ذلول للمؤمن.. غير عصى عليه ولا صعب.. هين لين .. ميسر مستجيب .. سمح ودود ...

وهذه هى الذلة للمؤمنين .. وما فى الذلة للمؤمنين من مذلة، ولا مهانة .. إنما هى الأخوة فى الله عز وجل .. ترفع الحواجز .. وتزيل التكلف .. وتخلط النفس بالنفس .. فلا يبقى معها ما يستعصى وما يحتجز دون الآخرين.. وتلك هى سمة الولاية فى المجتمع الإسلامى..

---

(١) تفسير القاسمي : ٦ : ٢٠٣٩ ـ ٢٠٤٠ .

إن حساسية الفرد بذاته متحوصلة متحيزة .. هى التى تجعله شموسا عصيا شحيحا على أخيه .. فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبة المؤمنة معه، فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصى به ..

وماذا يبقى له فى نفوسهم دونه، وقد اجتمعوا فى الله إخوانا، يحبهم ويحبونه، ويشيع هذا الحب بينهم ويتقاسمونه؟ !

ثم يمضي السياق يقرر أنهم:

﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

فيهم على الكافرين شماس وإباء واستعلاء .. ولهذه الخصائص هنا موضع .. إنها ليست العزة للذات، ولا الاستعلاء للنفس .. إنما هى العزة للعقيدة .. وإنما هو الاستعلاء للراية التى يقفون تحتها في مواجهة أهل الكتاب ومن على شاكلتهم .. إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذى معهم، لاأن يطوعوا الآخرين لأنفسهم، ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين، وما عند الآخرين !

ثم هي الثقة بغلبة دين الله على ما عداه، وبغلبة قوة الحق على تلك القوى، وبغلبة حزب الله على أحزاب الجاهلية !

فهم الأعلون ، حتى وهم ينهزمون فى بعض المعارك، فى أثناء الطريق الطويل، وهم:

﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾

فالجهاد فى سبيل الله، لإقرار منهج الله فى الأرض ، وإعلان سلطانه فى البشر، وتحكيم شريعته فى الحياة، لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس.. صفة العصبة المؤمنة، التي تتولى الله ورسوله والمؤمنين، والتى يختارها الله، ليصنع بها فى الحياة ما يريد .. وهم يجاهدون فى سبيل الله .. لا فى سبيل أنفسهم .. فى سبيل الله .. لتحقيق منهج الله، وتقرير سلطانه، وتنفيذ شريعته، وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق.. وليس لهم فى هذا الأمر شىء، وليس لأنفسهم من هذا حظ، إنما هو لله، وفى سبيل الله، بلا شريك.. وهم لا يخافون لومة لائم..

وفيم الخوف من لوم الناس، وهم قد ضمنوا حب رب الناس ؟ !

وفيم الوقوف عند مألوف الناس، وعرف الجيل، ومتعارف الجاهلية، وهم يتبعون سنة

الله، ويعرضون منهج الله للحياة ؟ !

إنما يخشى لوم الناس ! من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس، ومن يستمد عونه ومدده من عند الناس ! مثل هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض، المستنصرين بأعداء دينهم، المتألبين عليهم، الذين لا يخلصون لله اعتقادهم ولا ولاءهم ولا اعتمادهم سواء بسواء !

أما من يرجع إلى موازين الحق، ليجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواتهم وقيمهم.. وأما من يستمد قوته وعزته من قوة الله وعزته .. فما يبالى ما يقول الناس وما يفعلون ! كائنا هؤلاء الناس ما كانوا ! وكائنا واقع هؤلاء الناس ما كان ! وكائنة حضارة هؤلاء وثقافتهم ما تكون !

إننا نحسب حسابا لما يقول الناس، ولما يفعل الناس ، ولما يملك الناس، ولما يصطلح عليه الناس، ولما يتخذه الناس فى واقع حياتهم من قيم واعتبارات وموازين.. لأننا نغفل أو نسهوا عن الأصل الذى يجب أن نرجع إليه فى الوزن والقياس والتقويم .. إنه منهج الله وشرعه وحكمه .. فهو وحده الحق، وما خالفه فهو باطل، ولو كان عرف ملايين الملايين، ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون !

إنه ليست قيمة أى وضع، أو أى عرف .. أنه موجود ، وأنه واقع ، وأن ملايين البشر يعتنقونه، ويعيشون به، ويتخذونه قاعدة حياتهم ! فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامى .. إنما قيمة أى وضع، وأى عرف، وأى تقليد، أن يكون له أصل فى منهج الله ، الذى منه وحده تستمد القيم والموازين ..

ومن هنا تتولى العصبة المؤمنة المختارة منهج الله.

ومن هنا تتولى هذه العصبة الحق ورسوله والذين آمنوا، وتنفر من الولاء لأهل الكتاب ومن على شاكلتهم، وتجاهد فى سبيل الله، ولا تخاف لومة لائم .. فهذه سمة المختارين.

ثم إن ذلك الاختيار من الله، وذلك الحب المتبادل بين الله وبين المختارين، وتلك السمات التى يجعلها طابعهم وعنوانهم، وهذا الاطمئنان إلى الله في نفوسهم، والسير على هداه فى جهادهم.. ذلك كله من فضل الله:

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

يعطى عن سعة .. ويعطى عن علم .. وما أوسع هذا العطاء الذى يختاره الله لمن

يشاء، عن علم وعن تقدير ..

اللهم ! أعطنا ولا تحرمنا .. اللهم ! آمين.

ويحدد الله للذين آمنوا جهة الولاء الوحيدة التي تتفق مع صفة الإيمان، ويبين لهم من يتولون:

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

وقد جاء هذا الوعد بالغلب بعد بيان قاعدة الإيمان في ذاتها .. وأنها هي الولاء لله ورسوله وللمؤمنين، وبعد التحذير من الولاء لأهل الكتاب واعتباره خروجا من الصف المسلم إلى صف أهل الكتاب ومن على شاكلتهم، وارتدادا عن الدي٨٢

وهكذا نبصر أن القرآن الكريم سلك في النداء الأول طريق النهى المباشر، وطريق التخويف من أن يأتى الله بالفتح أو أمر من عنده، فينكشف ستر المنافقين..

وسلك في النداء الثانى طريق التحذير من الردة بموالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين، وطريق التحبيب فى أن يكونوا من العصبة المختارة، ممن يحبهم الله ويحبونه، وطريق الوعد بالنصر لحزب الله الغالب ..

وسلك في النداء الثالث إثارة الحمية فى نفوسهم لدينهم ولعبادتهم، وسوى فى النهى عن الموالاة بين أهل الكتاب والكفار ..

قصة قارون:

ولا يفوتنا أن نقف مع قصة قارون الذي كان من قوم موسى .. تلك القصة التى تعرض سلطان المال، وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر، والاستكبار على الخلق وجحود نعمة الخالق، وتقرر حقيقة القيم، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح، مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة، دون علو فى الأرض ولا فساد[1] .

ولا يحدد القرآن زمان القصة ولا مكانها، إنما يكتفى بأن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم. فهل وقعت هذه القصة وبنو إسرائيل وموسى فى مصر قبل الخروج؟ أم

(١) في ظلال القرآن : ٥ : ٢٧١ وما بعدها بتصرف.

وقعت بعد الخروج في حياة موسى ؟ أم وقعت فى بنى إسرائيل من بعد موسى ؟

أورد ابن جرير وابن كثير وغيرهما أقوالا في ذلك .. [١] والقصة كما وردت في القرآن الكريم كافية لأداء الغرض منها، ولتقرير القواعد التى جاءت لتقريرها. ولو كان تحديد زمانها ومكانها وملابساتها يزيد فى دلالتها شيئا ما ترك تحديدها..

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [٢]

هكذا تبدأ القصة فتعين اسم «قارون» وتحدد قومه « من قوم موسى » وتقرر مسلكه مع قومه، وهو مسلك البغى «فبغى عليهم » وتشير إلى سبب هذا البغى، وهو الثراء :

﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾

---

(١) انظر : تفسير الطبري : ٢٠ : ١٠٥ وما بعدها ، وتفسير ابن كثير : ٣ : ٣٩٨ وما بعدها ، وتفسير القرطبي : ١٣ : ٣١٠ وما بعدها .

(٢) القصص : ٧٦ – ٨٢ .

ثم تمضى بعد ذلك فى استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبتها في النفوس ..

لقد كان قارون من قوم موسى، فآتاه الله مالا كثيرا، يصور القرآن كثرته بأنه كنوز .. وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيى المجموعة من أقوياء الرجال.. من أجل هذا بغى قارون على قومه .. ولا يذكر فيم كان البغى، ليدعه يشمل شتى الصور. فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم ـ كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان ـ وذلك كما قال يحيى بن سلام وابن المسيب: كان قارون غنيا عاملا لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم، وكان منهم. [1] وربما بغى عليهم فتجاوز حده في الكبر والتجبر عليهم، كما قال ابن جرير، [2]وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب ..

وعلى أية حال فقد وجد قارون من قومه من يحاول رده عن هذا البغي، ورجعه إلى النهج القويم، الذى يرضاه الله فى التصرف بهذا الثراء، وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراءهم، ولا يحرمهم المتاع المعتدل بما وهبهم الله من مال، ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال، وقبل ذلك يفرض عليهم مراقبة الله الذى أنعم عليهم، ومراعاة الآخرة وما فيها من حساب:

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

وفى هذا القول جماع ما في المنهج الإلهى القويم من قيم وخصائص تفرده بين سائر مناهج الحياة..

قال ابن جرير: [3] إذ قال قومه: لا تبغ ولا تبطر فرحا، إن الله لا يحب من خلقه الأشرين البطريين .

«لا تفرح » فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفال بالثراء، والتعلق بالكنوز، والابتهاج بالملك والاستحواذ !

«لا تفرح » فرح البطر الذى ينسى المنعم بالمال، وينسى نعمته، وما يجب لها من الحمد والشكران !

---

(١) تفسير القرطبي: ١٣ : ٣١٠. (٢) تفسير الطبري : ٢٠ : ١٠٦ . (٣) المرجع السابق : ١١١.

« لا تفرح » فرح الذى يستخفه المال، فيشغل به قلبه، ويطير له لبه، ويتطاول به على العباد. وهو خلق يهود ! ومن على شاكلتهم!

« إن الله لا يحب الفرحين » .. فهم يردونه بذلك إلى الله، الذى لا يحب الفرحين ذين بالمال، المتباهين به، المتطاولين بسلطانه على الناس !

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾

وفى هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهى القويم .. المنهج الذى يعلق قلب واجد المال بالآخرة .. ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع فى هذه الحياة .. بل يحرضه على هذا ويكلفه إياه تكليفا، كى لا يتزهد الزهد الذى يهمل الحياة ويضعفها !

لقد خلق الله عز وجل طيبات الحياة ليستمتع بها الناس، وليعملوا فى الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض. ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هى الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها. والمتاع فى هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم، وتقبل لعطاياه، وانتفاع بها. فهو طاعة من الطاعات يجزى عليها الله بالحسنى.

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق فى حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحى الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة، التى لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة.

وقال ابن جرير: (١) يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل قوم قارون له: لا تبغ يا قارون على قومك بكثرة مالك، والتمس فيما آتاك الله من الأموال خيرات الآخرة بالعمل فيها بطاعة الله في الدنيا. وقوله: « ولا تنس نصيبك من الدنيا » يقول: ولا تترك نصيبك وحظك من الدنيا أن تأخذ فيها بنصيبك من الآخرة، فتعمل فيه بما ينجيك غدا من عقاب الله.

﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾

فهذا المال هبة من الله وإحسان. فليقابل بالإحسان فيه .. إحسان التقبل، وإحسان التصرف، والإحسان به إلى الخلق، وإحسان الشعور بالنعمة، وإحسان الشكران.

---

(١) المرجع السابق : ١١٢.

﴿ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

الفساد بالبغي والظلم .. والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة .. والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء .. والفساد بإنفاق المال في غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

كما أنه لا يحب الفرحين.

كذلك قال له قومه: فكان رده جملة واحدة، تحمل شتى معاني الفساد والإفساد، والطبيعة اليهودية:

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾

إنما أوتيت هذا المال استحقاقا على علمي الذي طوع لي جمعه وتحصيله. فما لكم تملون عليّ طريقة خاصة في التصرف فيه، وتتحكمون في ملكيتي الخاصة، وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدي الخاص، واستحققته بعلمي الخاص ؟

إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال، ويعميه الثراء ! وهو خلق يهود ! ومن على شاكلتهم !

وهو نموذج مكرر في البشرية، مثله مثل قارون ! فكم من الناس يظن أن علمه وكده وحدهما سبب غناه ! ومن ثم فهو غير مسئول عما ينفق وعما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله عز وجل حسابا، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه ! وهوخلق يهود ! ومن على شاكلتهم !

والإسلام يعترف بالملكية الفردية، ويقرر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها،ولا يهون من شأن الجهد الفردي أو يلغيه. ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهجا معينا للتصرف في الملكية الفردية ـ كما يفرض منهجا لتحصيلها وتنميتها ـ وهو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف، ولا في إمساكه حتى التقتير، ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال، ورقابتها على طرق تحصيله، وطرق تنميته، وطرق إنفاقه والاستمتاع به ... وهو منهج خاص، واضح الملامح، متميز السمات .

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربه، ولم يخضع لمنهجه القويم.. وأعرض عن هذا كله في استكبار لئيم، وفي بطر ذميم!

ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية، ردا على قولته الفاجرة المغرورة:

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾

فإذا كان ذا قوة وذا مال، فقد أهلك الله من قبله أجيالا كانت أشد منه قوة وأكثر مالا! وكان عليه أن يعلم هذا، فهذا هو العلم المنجي فليعلم، وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله، حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم، فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد!

﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

ذلك كان المشهد الأول من مشاهد قصة قارون، يتجلى فيه البغي والتطاول، والإعراض عن النصح، والتعالي عن العظة، والإصرار على الفساد، والاغترار بالمال، والبطر الذى يقعد بالنفس عن الشكران!

ثم يجيء المشهد الثاني حين يخرج قارون بزينته على قومه، فتطير لها قلوب فريق منهم، وتتهاوى لها نفوسهم، ويتمنون لأنفسهم مثل ما أوتي قارون، ويحسون أنه أوتى حظا عظيما يتشهاه المحرمون.. ذلك على حين يستيقظ الإيمان في قلوب فريق منهم فيعتزون به على فتنة المال وزينة قارون، ويذكرون إخوانهم المبهورين المأخوذين في ثقة وفى يقين:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾

وهكذا وقفت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوى المتهافت، ووقفت طائفة أخرى تستعلى على هذا كله بقيمة الإيمان، والرجاء فيما عند الله، والاعتزاز بثواب الله. والتقت قيمة المال وقيمة الإيمان في الميزان:

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

وفى كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب، وتبهر الذين يريدون الحياة

الدنيا، ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها، فلا يسألون بأى ثمن اشترى صاحب الزينة زينته؟ ولا بأي الوسائل نال ما نال من عرض الحياة ؟ من مال أو منصب أو جاه .. ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوي، كما يتهافت الذباب ويتهاوي ! ويسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذي أدوه ، ولا إلى الطريق الدنس الذي خاضوه، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذوها ! وهو خلق يهود ! ومن على شاكلتهم !

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة، وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع.. وهم أعلى نفسا، وأكبر قلبا من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعا.. ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد. وهؤلاء هم « الذين أوتوا العلم » العلم الصحيح الذي يقومون به الحياة حق التقويم :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾

يقول ابن جرير: [1] يقول تعالى ذكره: وقال الذين أوتوا العلم بالله، حين رأوا قارون خارجا عليهم في زينته، للذين قالوا: ياليت لنا مثل ما أوتي قارون: ويلكم اتقوا الله وأطيعوه، فثواب الله وجزاؤه لمن آمن به وبرسله، وعمل بما جاءت به رسله من صالحات الأعمال فى الآخرة، خير مما أوتى قارون من زينته وماله..

ثواب الله خير من هذه الزينة،وماعند الله خير مما عند قارون.. والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلا الصابرون .. الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم.. الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها.. الصابرون على الحرمان مما يتشهاه الكثيرون.. وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة .. درجة الاستعلاء على كل ما فى الأرض، والتطلع إلى ثواب الله فى رضى وثقة واطمئنان..

وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى، تتدخل يد القدرة لتضع حدا للفتنة، وترحم الناس الضعاف من إغرائها، وتحطم الغرور والكبرياء تحطيما..

ويجيء المشهد الثالث حاسما فاصلا:

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ

(١) المرجع السابق : ١١٦.

ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾

يقول ابن كثير: (١) لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه، وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح عند البخاري من حديث الزهري عن سالم بن عبد الله أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال:

«بينا رجل يجر إزاره إذ خُسِف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» .(٢)

وفي رواية له عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ:

«بينما رجل يمشي في حُلَّة تُعجبه نفسه، مُرَجِّلٌ جُمَّتَه، إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة» (٣).

ورواه مسلم عنه بلفظ:

« بينما رجل يمشي، قد أعجبته جُمَّتُهُ وبُرْدَاه ، إذْ خُسِف به الأرضُ، فهو يتجلجل في الأرض حتى تقوم الساعة».

وفي رواية:

« بينما رجل يتبختر، يمشي في برديه، قد أعجبته نفسه، فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» (٤) .

وقد ذكر ها هنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحا، كما قال ابن كثير.. وحسبنا أن الحق تبارك وتعالى قال:

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾

هكذا في جملة قصيرة، وفي لمحة خاطفة، فابتلعته الأرض وابتلعت داره، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا.. وذهب ضعيفا عاجزا، لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه أو مال !

وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس، وردتهم الضربة القاضية إلى الله، وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال ! وكان هذا المشهد الأخير:

(١) تفسير ابن كثير : ٣ : ٤٠٠ بتصرف .

(٢) البخاري : ٧٧ ـ اللباس (٥٧٩٠).

(٣) المرجع السابق: (٥٧٨٩).

(٤) مسلم: ٣٧ ـ اللباس ٤٩ ، ٥٠ (٢٠٨٨).

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس، ولم يؤتهم ما آتى قارون.. وهم يرون المصير البائس الذى انتهى إليه بين يوم وليلة .. وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى الله. فهو جل شأنه يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والغضب. ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد.. إنما هو الابتلاء الذى قد يعقبه الابتلاء.. وعلموا أن الكافرين لا يفلحون. وقارون لم يجهر بكلمة الكفر، ولكن اغتراره بالمال، ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يسلكونه فى عداد الكافرين، ويرون فى نوع هلاكه أنه هلاك للكافرين !

تلك هي قصة « قارون » وهى صورة مصغرة لبنى إسرائيل[1] وعنوان لكتابهم الأسود المشئوم فى هذه الحياة.. من رأى ظاهرهم حسدهم، وتمنى أن ينال مثل ما نالوا، ومن نظر إلى ما وراء هذا الظاهر فر منهم فرار السليم من المجذوم:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[2]

فمن نظر إلى قارون، وهو يرى هذا الثراء العريض الذى كان يعيش فيه، وهذه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة التي ضمت عليها خزائنه، وشهد موكبه وما يحف به من جند وأتباع، قال مثل هذا القول الذى كان يردده في سره وجهره كل من رآه من قومه من أهل الغفلة والجهالة:

﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

وأما من رآه من أهل العلم وأصحاب البصائر النافذة ـ كما أسلفنا ـ ورأى غروره وعجبه، واشتغاله بماله، واغتراره به، وكفرانه بنعمة ربه،أشاح بوجهه عنه، وحمد الله الذي عافاه من هذا البلاء الذي ينتظر قارون في الدنيا والآخرة جميعا،وقال مع القائلين:

﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾

ثم لم تلبث الأيام أن طلعت على الفريقين ـ كما أسلفنا ـ وقد أخذ الله قارون أخذ عزيز مقتدر ..

---

(١) اليهود في القرآن: ٣٣ بتصرف. (٢) هود: ١٠٢.

وإذا الذين كانوا يحسدون قارون، ويتمنون أن يلحقوا بركابه في الجاه والثراء .. يحمدون الله الذي لم يستجب لما تمنوه من قبل..

وهكذا بنو إسرائيل، وما ألبسهم الله تعالى من نعم، لم يرعوها، ولم يحمدوا الله عليها، بل زادتهم تلك النعم طغيانا وكفرا، فرماهم الله تعالى بغضبه ولعنته،وضرب عليهم الذلة والمسكنة، ومسخ طبيعتهم، وخرج بهم من عالم الإنسانية إلى عالم القردة والخنازير..

سخط الله عليهم ولعنه إياهم :

وقد أخبر الحق تبارك وتعالى في كثير من الآيات القرآنية أن بني إسرائيل استحقوا لعنته وغضبه، [1] بسبب كفرهم، وارتكابهم للمعاصي، وسكوتهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من السيآت التي تؤدي بصاحبها إلى الخزي والخسار في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [2]

في هذه الآيات بيان موقف أنبياء بني إسرائيل من كفار بني إسرائيل [3] على مدى التاريخ، ممثلا فى موقف داود وموقف عيسى عليهما السلام.. وكلاهما لعن كفار بنى إسرائيل، واستجاب الله له. بسبب عصيانهم وعدوانهم، وبسبب انحلالهم الاجتماعى، وسكوتهم على المنكر يفشو فيهم فلا يتناهون عنه، وبسبب توليهم الكافرين، فباءوا بالسخط واللعنة، وكتب عليهم الخلود فى العذاب..

وهكذا يبدو أن تاريخ بنى إسرائيل فى الكفر والمعصية واللعنة عريق .. وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وإنقاذهم، هم في النهاية الذين تولوا لعنتهم وطردهم من هداية

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة: ٢ : ٤١١ .

(٢) المائدة : ٧٨ ـ ٨١ .

(٣) في ظلال القرآن : ٢ : ٩٤٧ بتصرف.

الله، فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة علي بني إسرائيل.

والذين كفروا من بني إسرائيل هم الذين حرفوا كتبهم المنزلة، وهم الذين لم يتحاكموا إلى شريعة الله ـ كما سبق ـ وهم الذين نقضوا عهد الله معهم لينصرن كل رسول ويعزرونه ويتبعونه:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1]

وهنا نبصر مواجهة أهل الكتاب بحقيقة ما هم عليه، وبحقيقة صفتهم التي يستحقونها بما هم عليه..[2] ومواجهتهم بأنهم ليسوا على شيء.. ليسوا على شيء من الدين ولا العقيدة ولا الإيمان.. ذلك أنهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم. ومن ثم فلا شيء مما يدعونه لأنفسهم من أنهم أهل كتاب وأصحاب عقيدة..

وحينما كلف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يواجههم بأنهم ليسوا على شيء من الدين والعقيدة والإيمان.. بل ليسوا على شيء أصلا يرتكن عليه !

حينما كلف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بمواجهتهم هذه المواجهة الفاصلة، كانوا يتلون كتابهم، وكانوا يتخذون لأنفسهم صفة اليهودية أو النصرانية، وكانوا يقولون: إنهم مؤمنون.. ولكن هذا التبليغ الذي كلف الحق تبارك وتعالى خاتم رسله أن يواجههم به، لم يعترف لهم بشيء أصلا مما كانوا يزعمون لأنفسهم ؛ لأن «الدين» ليس كلمات تقال باللسان، ليس لها فى الجنان مكان، وليس كتبا تقرأ أو ترتل، وليس صفة تورث وتدعى .. إنما الدين منهج حياة .. منهج حياة يشمل العقيدة المستسرة في الضمير، والعبادة الممثلة فى الشعائر، والتي تتمثل فى إقامة نظام الحياة كلها على أساس هذا المنهج.. ولما لم يكن أهل الكتاب يقيمون «الدين» على قواعده هذه، فقد كلف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يواجههم بأنهم ليسوا على دين ، وليسوا على شيء أصلا من هذا القبيل !

وإقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، مقتضاها الأول الدخول في الدين القيم الذى أرسل الله به خاتم النبيين محمدا ﷺ، فقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يؤمنوا

---

(١) المائدة : ٦٨ .   (٢) المرجع السابق: ٩٣٨ بتصرف .

بكل رسول ويعزروه وينصروه، وصفة محمد وقومه ـ كما سبق ـ عندهم فى التوراة وعندهم فى الإنجيل، كما أخبر الله وهو أصدق القائلين، فهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، إلا أن يدخلوا في هذا الدين القيم، الذي يصدق ما لم يدخله تحريف مما بين أيديهم ويهيمن عليه.. فهم ليسوا على شيء ـ بشهادة الله سبحانه ـ حتى يؤمنوا بخاتم النبيين صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين .. الذي كلف أن يواجههم بهذا الحكم الإلهى فى شأنهم، وأن يبلغهم حقيقة صفتهم وموقفهم !

والله عز وجل يعلم أن مواجهتهم بهذه الحقيقة الحاسمة، وبهذه الكلمة الفاصلة، ستؤدي إلى أن تزيد كثيرا منهم طغيانا وكفرا، وعنادا ولجاجا... ولكن هذا لم يمنع من أمر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يواجههم بها، وألا يأسى على مايصيبهم من الكفر والطغيان والضلال والشرود، بسبب مواجهتهم بها، لأن حكمته سبحانه تقتضى أن يصدع بكلمة الحق، وأن تترتب عليها آثارها في نفوس الخلق. فيهتدى من يهتدى عن بينة، ويضل من يضل عن بينة، ويهلك من يهلك عن بينة، ويحيا من حيي عن بينة:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

وهنا نبصر منهج الدعوة، وحكمة الله في هذا المنهج، وأن هؤلاء إذا هاجتهم كلمة الحق فازدادوا طغيانا وكفرا، يستحقون هذا المصير البائس، لأن قلوبهم لا تطيق كلمة الحق، ولا خير في أعمالها ولا صدق. فمن حكمة الله أن تواجه بكلمة الحق، ليظهر ما كمن فيها وما بطن، ولتجهر بالطغيان والكفر، ولتستحق جزاء الطغاة والكافرين !

وعلى ضوء هذا التبليغ.. وعلى ضوء نتائجه التى قدر الله أن تكون في زيادة الكثيرين منهم طغيانا وكفرا.. نجد أن الحق تبارك وتعالى يقرر أن أهل الكتاب ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم.. وحتى يدخلوا في هذا الدين القيم تبعا لهذه الإقامة، كما هو بديهي من دعوتهم إلى الإيمان بالله والنبى، في كثير من الآيات ـ كما سبق ـ فهم إذن لم يعودوا على «دين الله» ولم يعودوا أهل «دين » يقبله الله.

ونجد أن مواجهتهم بهذه الحقيقة قد علم الله أنها ستزيد الكثيرين منهم طغيانا وكفرا.. ومع هذا فقد أمر الله خاتم رسله أن يواجههم بها دون مواربة، ودون أسى على ما سيصيب الكثيرين منها !

فإذا نحن اعتبرنا قول الله في هذه القضية هو القول الفصل ـ كما هو الحق والواقع ـ لم يبق هنالك موضع لاعتبار أهل الكتاب أهل دين .. يستطيع «المسلم» أن يتناصر معهم فيه للوقوف فى وجه الإلحاد والملحدين، كما ينادي بعض المخدوعين وبعض الخادعين ! فأهل الكتاب ليسوا على شيء .. وليس للمسلم أن يقرر غير ما قرره الله:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (١)

وقول الله باق لا تغيره الظروف والملابسات !

وإذا نحن اعتبرنا قول الله هو القول الفصل ـ كما هو الحق والواقع ـ لم يكن لنا أن نحسب حسابا لأثر المواجهة لأهل الكتاب بهذه الحقيقة، في هياجهم علينا، وفي اشتداد حربهم لنا، ولم يكن لنا أن نحاول كسب مودتهم بالاعتراف لهم بأنهم على «دين» نرضاه منهم، ونقرهم عليه، ونتناصر نحن وإياهم لدفع الإلحاد عنه .. كما ندفع الإلحاد عن الدين القيم الذى هو الدين الوحيد الذي يقبله الله من الناس ..

إن الله عز وجل لا يوجهنا هذا التوجيه . ولا يقبل منا هذا الاعتراف. ولا يغفر لنا هذا التناصر، ولا التصور الذي ينبعث منه. لأننا حينئذ نقرر لأنفسنا غير ما يقرر، ونختار في أمرنا غير ما يختار، ونعترف بعقائد محرفة ـ كما سبق ـ أنها «دين» .. يجتمع معنا في آصرة الدين القيم.. والله عز وجل يقول: إنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم .. وهم لا يفعلون !

إن دين الله ليس راية ولا شعارا ولا وراثة !

إن دين الله حقيقة تتمثل فى الضمير وفى الحياة سواء.. تتمثل فى عقيدة تعمر القلب، وشعائر تقام للتعبد، ونظام يصرف الحياة..

ولا يقوم دين الله إلا فى هذا الكل المتكامل ..

وإن التلطف في دعوة أهل الكتاب ومن على شاكلتهم إلى هذا الدين، ينبغى أن يكون فى الأسلوب لا فى الحقيقة التى يبلغهم إياها. فالحقيقة يجب أن تبلغ إليهم كاملة. أما الأسلوب فيتبع المقتضيات القائمة، ويرتكز على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة..

---

(١) الأحزاب: ٣٦.

ولقد ينظر بعضنا اليوم ـ مثلا ـ فيرى أن أهل الكتاب هم أصحاب الكثرة العددية، وأصحاب القوة المادية. وينظر فيرى أصحاب الوثنيات المختلفة يعدون بمئات الملايين فى الأرض، وهم أصحاب كلمة مسموعة، فى الشئون الدولية. وينظر فيرى أصحاب المذاهب المادية أصحاب أعداد ضخمة، وأصحاب قوة مدمرة. وينظر فيرى المسلمين هكذا كما نرى ونشاهد فى عالمنا المعاصر.. فيتعاظمه الأمر، ويستكثر أن يواجه هذه البشرية الضالة كلها بكلمة الحق الفاصلة، ويرى عدم الجدوى فى أن يبلغ الجميع أنهم ليسوا على شىء ! وأن يبين لهم «الدين» الحق !

وليس هذا هو الطريق.. إن الجاهلية هى الجاهلية .. وإن واقع أهل الكتاب ومن على شاكلتهم ليس بشىء ما لم يقم على « الدين » الحق:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

فهى المعصية والاعتداء، يتمثلان في كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء. وقد حفل تاريخ بنى إسرائيل ـ كما أسلفنا ـ بالمعصية والاعتداء!

ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالا فردية فى مجتمع بنى إسرائيل. ولكنها انتهت إلى أن تصبح طابع الجماعة كلها، وأن يسكت عنها المجتمع، ولا يقابلها بالتناهى والنكير:

﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

إن العصيان والعدوان قد يقعان فى كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين. فالأرض لا تخلو من الشر، والمجتمع لا يخلو من الشذوذ ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفا مصطلحا عليه، وأن يصبحا ـ كذلك ـ واقعا سهلا يجترىء عليه كل من يهم به .. وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير في مجتمع من المجتمعات، ويصبح الجزاء على الشر رادعا وجماعيا تقف الجماعة كلها دونه، وتوقع العقوبة الرادعة عليه.. عندئذ ينزوي الشر، وتنحسر دوافعه.. وعندئذ يتماسك المجتمع ، فلا تنحل عراه.. وعندئذ ينحصر الفساد فى أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع، ولا يسمح لها بالسيطرة .. وعندئذ لا تشيع الفاحشة، ولاتصبح هى الطابع العام، الذى هو سمة من سمات يهود ! ومن على شاكلتهم !

والمنهج الإسلامى ـ بعرضه لهذه الظاهرة فى المجتمع الإسرائيلى ـ فى صورة

الكراهية والتنديد، يريد للجماعة المسلمة أن يكون لها كيان حيّ متجمع صلب، يدفع كل بادرة من بوادر العدوان والمعصية، قبل أن تصبح ظاهرة عامة، ويريد للمجتمع الإسلامي أن يكون صلبا فى الحق، وحساسا تجاه الاعتداء عليه، ويريد للقائمين عليه أن يؤدوا أمانتهم التى استحفظوا عليها، فيقفوا فى وجه الشر والفساد والطغيان .. ولا يخافوا لومة لائم .. سواء جاء هذا الشر من المتسلطين بأى سبب كان، أو الجماهير المتسلطة بالهوى. فمنهج الله هو منهج الله، والخارجون عليه سواء!

والإسلام يشدد فى الوفاء بهذه الأمانة ، فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر، إذا هى سكتت عليه، ويجعل الأمانة فى عنق كل فرد، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة..

يروى مسلم وغيره عن أبى سعيد الخدري رضى الله عنه أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال: « **من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان** » [١] .

ذلك أن الشريعة وضعت ثلاث وسائل لمقاومة الشر والفساد فى المجتمع، وهي إما مقاومته وتنحيته باليد، أو باللسان أو بالقلب .. وهى على الترتيب فى الوجوب، والسبب ـ كما يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ـ [٢] ما لدينا من الاستطاعة والتمكن..

فأعلاها مرتبة التغيير العملي لمن توافرت لديه وسائل النفوذ والسلطان، وهذه هى مهمة رجال الدولة، وفى مقدمتهم رجال الأمن الذين هم سمع الدولة الذي تسمع به، وبصرها الذى تبصر به، ويدها التى تبطش بها.. الإسلام يرفعها إلى أعلى درجات المسئولية الاجتماعية..

يلى هذه الرتبة رتبة التغيير باللسان، وهذه هى مهمة الدعاة والمرشدين، الذين يملكون أدوات التعليم والبيان، ولم يوكل إليهم شيء من الضبط والسلطة العملية..

وآخر الوسائل وأدناها التغيير بالقلب، وهذه هى مهمة العامة والجمهور، وهى التى

---

(١) مسلم: ١ ـ الإيمان ٧٨ (٤٩) وأبو داود (١١٤٠) والترمذي (٢١٧٣) والنسائى : ٨ : ١١١ وابن ماجه (٤٠١٣) وأحمد : ٣ : ١٠ ، ٢٠ ، ٤٩ .

(٢) دراسات إسلامية: ٦١ وما بعدها بتصرف، وانظر: المسئولية الاجتماعية في الإسلام : ٢٥٠ وما بعدها .

قال فيها النبي ﷺ :

« **أضعف الإيمان** » .

ولابد لنا من التنبيه إلى خطأ شائع ذائع فى فهم معنى التغيير بالقلب، فإن كثيرين من الناس يظنون أن التغيير بالقلب هو أن تكره الشر فيما بينك وبين نفسك، ولا ترضى عنه بقلبك، دون أن يبدو عليك أدنى أثر للكراهية وعدم الرضى !

والواقع أن هذا الفهم تحريف لمعانى الكلمات فى اللغة العربية ! وتحريف لمقاصد الشريعة الإسلامية !

أما أنه تحريف لمعني الكلمة فى اللغة العربية، فلأن الإنكار بالقلب المجرد عن كل مظهر إيحابي أو سلبى لهذا الإنكار لا يسمى تغييرا للمنكر، بل يسمى إقرارا سكوتيا للمنكر، وتشجيعا عليه !

وأما أنه تحريف لمقاصد الشريعة، فلأن إبطال الكراهية للمنكر، مع بقاء المعاملة لصاحبه على وجه البشاشة والمجاملة العادية، ومع المحافظة على تحيته وتكريمه، كما يكرم المحسنون، هذا هو صريح النفاق، مع أن الحديث النبوى يجعل تغيير المنكر بالقلب مرتبة من مراتب الإيمان، وإن كانت ضعيفة، ويأمرنا بها عند عدم استطاعة غيرها. فكيف أن الشارع الحكيم يأمرنا بهذا النفاق؟ !

والحق أن المقصود من التغيير بالقلب ، الذى هو أضعف درجات الإيمان ، هو ما نسميه بالمقاومة السلبية ، عند العجز عن التغيير بالوسائل الإيجابية باليد أو اللسان..

هذه المقاومة السلبية ليس معناها الشتم أو الإهانة أو استعمال العنف الذى يحظره الأدب أو القانون، ولكنها موقف متحفظ ، يشعر فيه المسيء والمجرم بأنه كمية مهملة، وأنه محروم من التكريم والتعظيم الذي كان قد تعوده، يشعره باستياء الآخرين من سلوكه!

ويشعره أخيرا بأنه فى وحشة وعزلة ، بسبب هجران الآخرين له، ومقاطعتهم إياه !

ثم هو موقف نشعر فيه نحن بأننا بدلنا موقفنا المائع الفاتر المتراخي!

موقف المجاملة الكاذبة لكل أحد، ولو على حساب الحق والفضيلة !

واتخذنا موقفا آخر من الجد والغيرة، والشعور بمسئوليتنا ومسئولية كل منا عن الحقوق والآداب العامة !

هذا الموقف لا يتطلب منا أكثر من العزم والتصميم، والشجاعة الأدبية فى سبيل كرامة أمتنا، وكرامة أنفسنا !

لن يكلفنا شيئا، لا من المجهود البدني، ولا من المجهود المالي ، بل هو راحة بدن، وراحة ضمير، وتخلص من تكاليف المدنية السطحية في القيام للبر والفاجر، والابتسام فى وجه الصالح والطالح، والتعاون مع المحسن والمسيء !

على أنه لا يكفى أن يقوم بهذه المهمة فرد أو بضعة أفراد !

بل لابد من التعاون فى كل بيئة، وفى كل حى، وفى كل قرية، على مجانبة المفسدين ومقاطعتهم!

هذا هو العلاج الناجح الحاسم..

فإذا لم نقف هذا الموقف الحر الصريح ، وتركنا الأمور تسير على هذا التهاون الذى نحن عليه الآن، فكلنا آثمون !

ومن ثم كانت اللعنة على بنى إسرائيل ! ومن على شاكلتهم !

ومن ثم صرح فى الحديث بأنه ليس وراء هذه المرتبة مثقال حبة خردل من إيمان، فيما يرويه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال:

«ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب. يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره،ثم إنها تخلّف من بعدهم خُلوف. يقولون ما لا يفعلون . ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن. ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» . [١]

قال النووى: وأما الحواريون المذكورون فاختلف فيهم، فقال الأزهرى وغيره:

هم خلصان الأنبياء وأصفياؤهم، والخلصان الذين نقوا من كل عيب..

وقال غيره: أنصارهم .

وقيل: المجاهدون .

وقيل: الذين يصلحون للخلافة بعدهم .[٢]

---

(١) مسلم: ١ ــ الإيمان ٨٠ (٥٠).

(٢) مسلم بشرح النووي : ٢ : ٢٨ .

ويروى الطبراني بسند رجاله ثقات، عن عُرس بن عميرة، قال: قال رسول الله ﷺ :

« **إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى تعمل الخاصة بعمل تقدر العامة أن تغيره ولا تغيره، فذلك حين يأذن الله فى هلاك العامة والخاصة** ».

وفى رواية له بسند رجاله رجال الصحيح عن أبي موسي، عن النبي ﷺ قال:

«**إن من كان قبلكم من بني إسرائيل، إذا عمل فيهم العامل الخطيئة، فنهاه الناهى تعذيرا، فإذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه، كأنه لم يره على خطيئته بالأمس، فلما رأى الله تعالى ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض، على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، والذى نفسي بيده ! لتأمرن بالمعروف ، ولتنهن عن المنكر، ولتأخذن على أيدى المسيء، ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ويلعنكم كما لعنهم** » [١] .

ويروى أبو داود بسند حسن عن عُرس بن عميرة، أن النبى ﷺ قال:

« **إذا عملت الخطيئة في الأرض، كان من شهدها فكرهها ـ وقال مرة: أنكرها ـ كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها** » [٢].

وتتوارد النصوص تترى فى هذا المعنى ؛ لأن هذا التماسك فى كيان الجماعة، بحيث لا يقول أحد فيها ـ وهو يرى المنكر يقع من غيره ـ: وأنا مالى؟ ! [٣] وهذه الحمية ضد الفساد فى المجتمع، بحيث لا يقول أحد ـ وهو يرى الفساد يسرى ويشيع ـ وماذا أصنع والتعرض للفساد يلحق بى الأذى؟! وهذه الغيرة على حرمات الله، والشعور بالتكليف المباشر بصيانتها والدفع عنها للنجاة.. هذا كله هو قوام الجماعة المسلمة الذى لا قيام لها إلا به..

وهذا كله فى حاجة إلى الإيمان الصحيح بالله، ومعرفة تكاليف هذا الإيمان.. وإلى

---

(١) مجمع الزوائد ٧ : ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ورواه أبو داود (٤٣١٤) عون المعبود، ومعني (ولتأطرنه على الحق أطرا) كما قال الخطابي : أي لتردنه على الحق، وأصل الأطر : العطف والتثني. وقال في النهاية : تأطروه على الحق أطرا: تعطفوه عليه.وانظر : الترمذي (٣٠٥١) وابن ماجه (٤٠٠٦) والطبري : ١٠ : ٤٩١ ، (١٢٣٠٩، ١٢٣١١) تحقيق الأستاذ أحمد شاكر.

(٢) عون المعبود (٤٣٢٣) .

(٣) في ظلال القرآن : ٢ : ٩٤٩ بتصرف.

الإدراك الصحيح لمنهج الله، ومعرفة أنه يشمل كل جوانب الحياة.. وإلى الجد فى أخذ العقيدة بقوة، والجهد لإقامة المنهج الذى ينبثق منها فى حياة المجتمع كله .. فالمجتمع المسلم الذى يستمد قانونه من شريعة الله، ويقيم حياته كلها على منهجه، هو المجتمع الذى يوجه المسلم أن يزاول حقيقة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بحيث لا يصبح هذا عملا فرديا ضائعا فى الخضم، أو يجعله غير ممكن أصلا فى كثير من الأحيان ! كما هو الحال فى المجتمعات الجاهلية القائمة اليوم فى أرجاء الأرض، والتى تقيم حياتها على تقاليد ومصطلحات اجتماعية تسترذل تدخل أحد فى شأن أحد، وتعتبر الفسق والفجور والمعصية « مسائل شخصية » ! ليس لأحد أن يتدخل فى شأنها ! وذلك خلق يهود ! ومن على شاكلتهم !

كما تجعل من الظلم والبطش والاعتداء والجور سيفا مصلتا من الإرهاب يلجم الأفواه، ويعقد الألسنة، وينكل بمن يقول كلمة حق أو معروف في وجه الطغيان !

إن الجهد الأصيل، والتضحيات النبيلة يجب أن تتجه أولا إلى إقامة المجتمع الخير .. والمجتمع الخير هو الذى يقوم على منهج الله .. قبل أن ينصرف الجهد والبذل والتضحية إلى إصلاحات جزئية، شخصية وفردية..

على أنه إلام نحاكم الناس فى أمر ما يرتكبونه من منكرات؟ بأى ميزان نزن أعمالهم لنقول لهم : إن هذا منكر فاجتنبوه؟ أنت تقول: إن هذا منكر، فيطلع عليك عشرات من هنا ومن هناك يقولون لك: كلا ! ليس هذا منكرا ! لقد كان منكرا فى الزمان الخالى وليس فى الزمان الحالى ! والدنيا «تتطور» ! والمجتمع « يتقدم » ! وتختلف الاعتبارات ! وذلك خلق يهود ! ومن على شاكلتهم !

فلابد إذن من ميزان ثابت نرجع إليه بالأعمال، ولابد من قيم معترف بها ، نقيس إليها المعروف والمنكر . فمن أين نستمد هذه القيم ؟ ومن أين نأتى بهذا الميزان؟

من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم، وهى متقلبة لا تثبت على حال؟!

إننا ننتهى إذن إلى متاهة لا دليل فيها، وإلى خضم لا معالم فيه !

فلابد ابتداء من إقامة الميزان .. ولابد أن يكون هذا الميزان ثابتا لا يتأرجح مع الأهواء ..

هذا الميزان الثابت هو ميزان الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..

هذا وإلا حقت على المجتمع اللعنة: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾.

ثم يمضى السياق يصف حال بنى إسرائيل علي عهد خاتم النبيين صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين، وهى حالهم في كل زمان وفى كل مكان، فهم ـ كما سبق ـ يتولون الذين كفروا، ويتناصرون معهم ضد الجماعة المسلمة!

وعلة ذلك ـ مع أنهم أهل كتاب ـ أنهم لم يؤمنوا بالله والنبى، وأنهم لم يدخلوا فى الدين القيم .. ومن ثم فهم غير مؤمنين .. ولو كانوا مؤمنين ما تولوا الكافرين:

﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

وهذا التقرير كما ينطبق على حال اليهود على عهد رسول الله ﷺ ينطبق على حالهم اليوم وغدا، وفى كل حين! كذلك ينطبق على الفريق الآخر من أهل الكتاب فى معظم أرجاء الأرض اليوم! مما يدعو إلى التدبر العميق فى أسرار هذا القرآن، وفى عجائبه المدخرة للجماعة المسلمة فى كل آن..

لقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين، ويؤلبونهم على المسلمين:

﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ (١)

وقد تجلى هذا كله على أتمه فى غزوة الأحزاب، ومن قبلها ومن بعدها كذلك، إلى اللحظة الحاضرة!

وما قامت الصهيونية في أرض فلسطين أخيرا إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحدين!

فأما الفريق الآخر من أهل الكتاب، فهو يتعاون مع الفريق الأول منهم تعاونا وثيقا،

(١) النساء: ٥١.

كما نرى ونشاهد ، كما يتعاون مع المادية والإلحاد ، كلما كان الأمر أمر المسلمين !

وهم يتعاونون مع الوثنية المشركة كذلك، كلما كانت المعركة مع المسلمين !

حقا، إنها الإحنة التى لا تهدأ على هذا الدين القيم، ومن ينتمون إليه، ولو كانوا في انتمائهم مدعين !

وصدق الله العظيم:

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾

فهذه هى الحصيلة التى قدمتها لهم أنفسهم !

إنها سخط الله عليهم ! وخلودهم فى النار ! فما أبأسها من حصيلة ! وما أبأسها من تقدمة تقدمها لهم أنفسهم ! ويالها من ثمرة مرة ! ثمرة توليهم الكافرين !

فمن منا يسمع قول الله سبحانه عن القوم ؟ فلا يتخذ من عند نفسه مقررات لم يأذن بها الله : في الولاء والتناصر بين أهل هذا الدين، وأعدائه الذين يتولون الكافرين !

وما الدافع ؟ ما دافع اليهود ومن على شاكلتهم لتولى الذين كفروا ؟

إنه عدم الإيمان بالله والنبى :

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

هذه هى العلة ..

إنهم لم يؤمنوا بالله والنبى ..

إن أكثرهم فاسقون ..

إنهم يتجانسون إذن مع الذين كفروا فى الشعور والوجهة، فلا جرم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين ..

وتبرز لنا من ذلك ثلاث حقائق :

الحقيقة الأولى : أن أهل الكتاب جميعا ـ إلا القلة التي آمنت بمحمد ﷺ ـ غير مؤمنين بالله. لأنهم لم يؤمنوا بخاتم النبيين !

ولم ينف القرآن الكريم عنهم الإيمان بالنبى وحده . بل نفى عنهم الإيمان بالله كذلك:

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾

وهوتقرير من الحق لا يقبل التأويل. مهما تكن دعواهم فى الإيمان بالله .. وبخاصة إذا اعتبرنا ما هم عليه من انحراف التصور للحقيقة الإيمانية كما سلف ..

والحقيقة الثانية : أن أهل الكتاب جميعا مدعوون إلى الدخول فى الدين القيم، على لسان خاتم النبيين ﷺ .. فإن استجابوا فقد آمنوا، وأصبحوا على دين الله .. وإن تولوا فهم كما وصفهم الله ..

والحقيقة الثالثة: أنه لا ولاء ولا تناصر بينهم وبين المسلمين، فى شأن من الشئون.. لأن كل شأن من شئون الحياة عند المسلم خاضع لأمر الدين القيم ..

ويبقى أن الإسلام يأمر أهله بالإحسان إلى أهل الكتاب في العشرة والسلوك، وبحماية أرواحهم وأموالهم وأعراضهم فى دار الإسلام، ويتركهم إلى ما هم فيه من عقائدهم كائنة ما تكون ، وإلى دعوتهم بالحسنى إلى الإسلام ، ومجادلتهم بالحسنى كذلك.. والوفاء لهم ما وفوا بعهدهم ومسالمتهم للمسلمين .. وهم فى أية حال لا يكرهون على شىء فى أمر هذا الدين القيم ..

هذا هو الإسلام .. في وضوحه ونصاعته .. وفى بره وسماحته .

الفصل الثالث
غزوة بنى قينقاع

اليهود يتوعدون الرسول ﷺ ـ أول من نقض العهد من اليهود ـ تكشف الوجه اليهودي ـ إجلاؤهم ـ أخلاقنا وأخلاقهم ـ تعجلوا الشر فباءوا به ـ حقيقة القضية ـ عصابات من المرتزقة ـ وقع إجلائهم ـ قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود ـ بداية الخوف ـ عهد وميثاق ـ النبى لا يعلن الحرب إلا على من أعلنها ـ الوحدة السياسية في المدينة.

اليهود يتوعدون الرسول ﷺ:

وحين لم تجد تلك الحرب النفسية الشنيعة الغليظة التي أعلنها اليهود على الرسالة والرسول ﷺ لم يحتملوا السكوت على ما هم فيه من غيظ وحقد ـ كما عرفنا ـ فأعلنوها حربا سافرة، مغلفة بالختل والمراوغة، حتى إذا أخزاهم الحق، وأبطل كيدهم، حاولوا أن يتنصلوا مما جنته أيديهم، وأن يجدوا في مجال النفاق ـ وهم أساتذته ـ عذرا يعتذرون به !

وهكذا سعى اليهود إلى حتفهم ببغيهم !

وكان أول صدام بين المسلمين واليهود ـ كما سيأتي ـ هو ذلك الذي حدث في أعقاب بدر، حيث بدأوا يروجون الشائعات ضد المسلمين، ويشنون حربا نفسية متواصلة ضد الرسالة والرسول، بل توعدوا الرسول الحبيب المحبوب ﷺ حين ذكرهم بما أصاب المشركين يوم بدر، فيما رواه ابن إسحاق وغيره بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (١) لما أصاب رسول الله ﷺ قريشا يوم بدر، جمع يهود في سوق بني قينقاع فقال:

« يا يهود: أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشا يوم بدر »

فقالوا: إنهم كانوا لا يعرفون القتال، ولو قاتلتنا لعرفت أنا الرجال، فأنزل الله تعالى:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٢)

وفي رواية لأبي داود: (٣) قالوا: يا محمد، لا يغرنك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا ..

---

(١) فتح الباري: ٧: ٣٣٢ وانظر: البداية والنهاية: ٤: ٣ ـ ٤ والسيرة النبوية لابن كثير ٣: ٥ ـ ٦ تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد، والروض الأنف ٢: ٢٧٤ والمواهب اللدنية: ١: ٤٥٧ والسيرة النبوية لابن هشام: ٢: ١٧ والطبقات الكبرى: ٢: ٢٨ وعيون الأثر: ١: ٢٩٤ ومختصر سيرة الرسول ﷺ: ٢٣٩.

(٢) آل عمران: ١٣. (٣) عون المعبود (٢٩٨٥).

(٤) تفسير الطبري: ٣: ١٩٢.

وفي رواية لابن جرير: [٤] يا محمد، لا تغرنك نفسك، أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا ..

هكذا ظهر موقف اليهود على حقيقته !

وإذا كان الصراع المرير بين الإسلام وبين الوثنية بقيادة قريش: حروب عصابات، وحصارا اقتصاديا أول الأمر، ومجابهة عسكرية نظامية حاسمة بعد ذلك .. فإن موقف اليهود بدأ يتضح بعد الانتصار الذي حققه المسلمون فى بدر ، وإن بقاءهم ساكتين إزاء ما يجري من صراع سيمكن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ من تصفية أعدائه ، وتعزيز مركز الدولة الإسلامية فى الجزيرة، وسيجد اليهود أنفسهم آنذاك [١] منفردين بمواجهة الإسلام، مرغمين على قبول سلطته السياسية بشكل نهائي ، وهذا ما لا يمكن أن يتصوروه ؛ لأنه يمثل خطرا على مصالحهم وانغلاقهم وتفردهم التاريخى الطويل بالسلطان !

ومن ثم بدأوا يتحركون ـ فوق ما سبق ـ باتجاهات شتى ـ كما سيأتى ـ لعرقلة الحركة الإسلامية، ووضع المصاعب في طريقها، وسحقها فى النهاية ـ إن استطاعوا ـ ضاربين عرض الحائط بكل التزاماتهم وعهودهم ومواثيقهم ، ولم يدع اليهود فى تحركاتهم المضادة تلك أسلوبا إلا اتبعوه:

تصعيدا للحرب النفسية !

مطاردات جدلية !

فتنا اجتماعية !

اغتيالا فرديا !

تحركا عسكريا !

خيانة فى الأوقات الحرجة !

تأليبا للقوى المعادية للإسلام ، وتجميعها كي تضرب عن قوس واحدة !

ولم يتحركوا مجتمعين. .. الأمر الذى جعل التصدى موجها إلى كل قبيلة على حدة

---

(١) دراسة فى السيرة : ٣٣٣ بتصرف.

وفق جرمها ـ كما سنعرف ـ وربما فكر اليهود فى التحرك الجماعى المشترك ـ بادئ ذي بدء ـ لولا خوفهم العاقبة ، حيث سيؤدى ذلك حتما إلى كشفهم .. وهم لم يعتادوا العمل المكشوف، ومن ثم آثروا الأسلوب الآخر ، وهو أن تختار كل قبيلة منهم الفرصة المناسبة لضرب الإسلام وإضعاف دولته !

أول من نقض العهد من اليهود:

قال الحافظ ابن حجر (١) : كان الكفار بعد الهجرة مع النبى ﷺ على ثلاثة أقسام:

قسم وادعهم على ألا يحاربوه، ولا يمالئوا عليه عدوه ، وهم طوائف اليهود الثلاثة : قريظة ، والنضير ، وقينقاع .

وقسم حاربوه ، ونصبوا له العداوة، كقريش.

وقسم تاركوه، وانتظروا ما يؤول إليه أمره ، كطوائف من العرب، فمنهم من كان يحب ظهوره فى الباطن، كخزاعة ، وبالعكس كبني بكر، ومنهم من كان معه ظاهرا، ومع عدوه باطنا، وهم المنافقون.

فكان أول من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم في شوال بعد وقعة بدر فنزلوا على حكمه.

وفي الصحيح عن ابن عمرو: هم رهط عبد الله بن سلام (٢) .

تكشف الوجه اليهودي:

وتكشف الوجه اليهودى الانحلالى على حقيقته في هذه المعركة، قال ابن هشام : ذكر عبد الله بن جعفر [بن عبد الرحمن] بن المسور بن مخرمة، عن أبى عون، قال:

كان أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ هناك منهم، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها،فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فأغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع.

---

(١) فتح الباري : ٧ : ٣٣٠ ، وانظر : زاد المعاد : ٣ : ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٢) انظر: المواهب اللدنية: ١ : ٤٥٦.

إجلاؤهم:

فسار إليهم النبى ﷺ بعد أن استخلف أبا لبابة بن عبد المنذر ، فحاصرهم أشد الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة، وكان اللواء بيد حمزة بن عبد المطلب ، وكان أبيض ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ [١].

وكان إجلاؤهم بمستوى الجرم الذى اقترفوه.

أخلاقنا وأخلاقهم :

ولا نترك هذا الموقف حتى نذكر أن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف عفيف شريف [٢]. لاتهاج فيه الشهوات فى كل لحظة، ولا تستثار فيه دفعات اللحم والدم فى كل حين. فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهى إلى سعار شهوانى لا ينطفئ ولا يرتوى!

والنظرة الخائنة، وما يتبعها غالبا من الحركة المثيرة، والزينة المتبرجة، والجسم العارى.. كلها لا تصنع شيئا إلا أن تهيج ذلك السعار المجنون! وإلا أن يفلت زمام الأعصاب والإرادة!

فإما الإفضاء الفوضوى الذى لا يتقيد بقيد، وإما الأمراض العصبية، والعقد النفسية، الناشئة من الكبح بعد الإثارة!

وهى تكاد أن تكون عملية تعذيب!

وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف عفيف شريف هى الحيلولة دون هذه الاستثارة، وإبقاء الدافع الفطرى العميق بين الجنسين سليما، وبقوته الطبيعية، دون استثارة مصطنعة، وتصريفه فى موضعه المأمون 'النظيف العفيف الشريف.

ولقد شاع وذاع فى وقت من الأوقات أن النظرة المباحة، والحديث الطليق، والاختلاط الميسور، والدعابة المرحة بين الجنسين، والاطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة.. شاع وذاع أن كل هذا تنفيس وترويح، وإطلاق للرغبات الحبيسة، ووقاية من الكبت، ومن العقد النفسية، وتخفيف من حدة الضبط الجنسى، وما وراءه من اندفاع غير مأمون!

شاع وذاع هذا على إثر انتشار بعض النظريات المادية القائمة على تجريد الإنسان من

---

(١) البداية والنهاية : ٤:٣ ـ٤ والمواهب اللدنية : ١: ٤٥٧. وعيون الأثر: ١: ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢) فى ظلال القرآن: ٤: ٢٥١١ بتصرف.

خصائصه التى تفرقه من الحيوان، والرجوع به إلى القاعدة الحيوانية اليهودية الغارقة فى الوحل والطين!

وهذا ما يحمل وزره فى المقدمة هؤلاء اليهود، وبخاصة فرويد ونظريته الحيوانية!

وهذا هو ما قام به يهود بنى قينقاع ـ كما عرفنا ـ ويقوم به اليهود الآن فى المجتمعات المعاصرة، من دعوة إلى الإباحية الحيوانية!

ولسنا هنا فى مجال بيان الدليل على تحريم ذلك، فحسبنا أن نقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]

لقد رفع الإسلام ذوق المجتمع الإسلامى، وطهر إحساسه بالجمال، فلم يعد الطابع الحيوانى هو المستحب، بل الطابع الإنسانى المهذب النظيف العفيف الشريف.. والنظرة الخائنة تهبط بالإنسان إلى الحيوانية الهابطة، وتدع المجال مفتوحا إلى أن يستشرى الفساد الأخلاقى والانحلال الأخلاقى فى المجتمع الذى يريد الحق له أن يكون نظيفا عفيفا شريفا..

وإن نظرة عجلى على ظاهرة التحلل الأخلاقى الذى يسود كثيرا من المجتمعات الإسلامية تذكرنا بداهة بأن وراء ذلك يهود، حيث زينوا العرى والخلاعة وقدموا

---

(١) النــور: ٣٠ ـ ٣١.

الموديلات الحديثة مما يطول الحديث فيه ويطول!

فهل آن لنا أن نأخذ من إجلاء بنى قينقاع الدرس فى علاج قضايا التحلل المعاصرة، حيث لم يترك أمر بنى قينقاع، إلا بعد إجلائهم عن المدينة؟!

تلك هى أخلاقنا التى يجب أن نتمسك بها، وتلك هى أخلاقهم قديما وحديثا !

تعجلوا الشر فباءوا به:

ترى، أما كان خيرا لهم أن يؤدوا حقوق الجوار، ويوفوا بالعهود، ويعيشوا فى المدينة آمنين موفورين؟!

لقد تعجلوا الشر فباءوا بـه، حتى تم إجلاؤهـم!

وإن التغلغل فى فهم العواطف والمشاعر الإنسـانيـة يفسر كثيرا من المواقف الغامضة !

لقد رأينا المشركين من أهل مكة منطقيين مع شركهم، حين رحبوا بانتصار الفرس، وعدوه رمزًا لغلبة الوثنية فى كل صورها على الدين!

ذلك أن الترابط قائم بين الشرك والكفر فى كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان، مع أن الدول قديما لم تكن شديدة الاتصال، والأمم لم تكن وثيقة الارتباط، كما هو الشأن فى عصرنا الحاضر!

ومع هذا فإن المشركين فى مكة كانوا يحسون أن انتصار المشركين فى أى مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم!

وكان المسلمون ـ كما عرفنا ـ يحسون أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب، وحسبنا ما عرفنا من الموادعة وحسن الجوار مع اليهود!

وتلك حقيقة بارزة يغفل عنها الكثيرون من أهل زماننا، ولا ينتبهون لها، فتراهم ينادون بالصلح تارة! وبإقامة مجمع يضم المسجد والكنيسة والكنيست تارة! وبعقد مؤتمرات الأديان تارة! وبالحرب الكلامية تارة! وبالشعارات المستوردة تارة! وهكذا! مما يندى له الجبين!

حـقيقة القضيـة:

وما أحوجنا أن ندرك طبيعة المعركة، وحقيقة القضية، فلا تلهينا عنها الأعلام الزائفة

التى تتستر بها أحزاب الشرك والكفر، فإنهم لا يحاربوننا ـ كما أسلفنا ـ إلا على العقيدة، مهما تنوعت العلل والأسباب!

وكلنا يعلم أن اليهود يتجمعون تحت راية العقيدة، بغض النظر عن التحريف والتزييف والتخريف!

وكلنا يعلم ـ كذلك ـ أن الشرق والغرب وحزب الباطل معهم، وإن بدا من بعضهم التظاهر بالوقوف مع العرب، فإنما هو التقسيم للأدوار! ولا أحب أن أسترسل فى هذا الأمر، فلنا معه ـ إن شاء الله ـ حديث خاص فيما بعد ..

ونتساءل: ما معنى أن يغضب اليهود الموحدون ـ كما يزعمون ـ من انتصار الإسلام على الشرك؟!

وبم يفسر حنوهم على القتلى من عبدة الأصنام، وسعيهم الحثيث، لتغليب كفة الوثنية العربية على هذا الدين القيم؟!

إن التفسير الوحيد لهذا الموقف أن اليهود انقطعت صلاتهم بمعنى الدين، وأنهم لا يكترثون بما يقترب من عقيدة التوحيد أو أحكام التوراة كما أنزلها الله؛ لأن هذه وتلك مؤخرة أمام شهواتهم الغالبة، وأثرتهم اللازبة!

تلك هى الطبيعة الكنود، طبيعة الأثرة الضيقة التى تحيا فى نطاق من التعصب شديد، وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتلع منها، ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى، التى تربط بين البشر جميعا!

وهكذا عاش اليهود فى عزلة، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة، ويتربصون الدوائر، ويكنون البغضاء، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (١)

عصابات من المرتزقة:

إن طوائف هؤلاء عصابات من المرتزقة، اتخذت الدين عنوانا لمطامع اقتصادية بعيدة

(١) البقرة: ٩١ ـ ٩٢.

المدى، فلما توهمت أن هذه المطامع مهددة بالزوال ظهر الكفر المخبوء، فإذا هو كفر بالله وسائر المرسلين!

ولم يعرف أولئك شرفا فى حرب الإسلام، فلم يكن بد من إجلائهم وتنظيف الأرض منهم!

وقائع إجلائهم:

وقد كان لإجلاء بنى قينقاع وقعه فى نفوس اليهود، حيث امتنعوا فى أعقاب ذلك عن المجادلة الدينية، وكفوا عن رمى المسلمين بقوارض الكلم، وانفسح المجال أمام النبى لنشر دعوته(١).

قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود:

ولم يمض على ذلك كبير وقت، حتى سدد الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لليهود ضربة مناسبة لجرم طاغوت اليهود، الذى كان قد صعد نشاطه ضد الرسالة والرسول، فيما يرويه الشيخان وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

« مَنْ لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله»

فقام محمد بن مَسلمة فقال: يا رسول الله! أتحب أن أقتله؟ قال:

« نعم »

قال: فأذن لى أن أقول شيئا. قال:

« قل »

فأتاه محمد بن مسلمة، فقال:إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عنّانا، وإنى قد أتيتك أستسلِفك. قال: وأيضا والله! لتملّنه. قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين ـ وحدثنا عمرو غير مرة، فلم يذكر «وسقا أو وسقين» فقلت له: فيه« وسقا أو وسقين»؟ فقال أرى فيه« وسقا أو وسقين» فقال: نعم ، ارْهَنونى.قالوا: أىّ شيء تريد؟ قال: ارهنونى نساءكم. قالوا: كيف

---

(١) تاريخ اليهود: ١٣١.

نرهنك نساءنا، وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنونى أبناءكم . قالوا: كيف نرهنك أبناءنا، فيسب أحدهم، فيقال: رهن بوسق أو وسقين؟ هذا عار علينا، ولكنا نرهنك الّلأمة. قال سفيان: يعنى السلاح. فواعده أن يأتيه. فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة ـ وهو أخو كعب من الرضاعة ـ فدعاهم إلى الحصن، فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخى أبو نائلة. وقال غير عمرو: قالت أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم.

قال: إنما هو أخى محمد بن مسلمة ورضيعى أبو نائلة، إن الكريم لو دعى إلى طعنة بليل لأجاب. قال: ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين ـ قيل لسفيان: سماهم عمرو؟ قال: سمى بعضهم. قال عمرو: وجاء معه برجلين، وقال غير عمرو: أبو عبس بن جبر، والحارث بن أوس، وعباد بن بشر ـ قال عمرو: جاء معه برجلين، فقال: إذا ما جاء فإنى قائل بشعره فأشمه، فإذا رأيتمونى استَمْكَنْتُ من رأسه فدونكم فاضربوه. وقال مرة: ثم أشمكم. فنزل متوشحا وهو ينفح منه ريح الطيب. فقال: ما رأيت كاليوم ريحا ـ أى أطيب ـ وقال غير عمرو: وقال عندى أعطر نساء العرب وأكمل العرب. قال عمرو: فقال أتأذن لى أن أشم رأسك؟ قال: نعم، فشمه، ثم شم أصحابه. ثم قال: أتأذن لى؟ قال: نعم. فلما استمكن منه قال: دونكم، فقتلوه. ثم أتوا النبى ﷺ فأخبروه.(١).

قال ابن حجر(٢) : قال ابن إسحاق وغيره: كان عربيا من بنى نبهان، وهم بطن من طيء، وكان أبوه أصاب دما فى الجاهلية، فأتى المدينة، فحالف بنى النضير، فشرف فيهم وتزوج عقيلة بنت أبى الحقيق، فولدت له كعبا، وكان طويلا جسيما ذا بطن وهامة، وهجا المسلمين بعد وقعة بدر، وخرج إلى مكة، فنزل على ابن وداعة السهمى والد المطلب، فهجاه حسان وهجا امرأته عاتكة بنت أسيد بن أبى العيص بن أمية فطردته، فرجع كعب إلى المدينة، وتشبّب بنساء المسلمين حتى آذاهم. قال: وروى أبو داود والترمذى من طريق الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه: أن كعب بن الأشرف

---

(١) البخارى: ٦٤ ـ المغازى (٤٠٣٧)، ومسلم: ٣٢ ـ الجهاد ١١٩ (١٨٠١)، وأبو داود ((٢٧٥١) عون المعبود.
(٢) فتح البارى: ٣٣٧:٧.

كان شاعرا، وكان يهجو رسول الله ﷺ، ويحرض عليه كفار قريش، وكان النبى ﷺ قدم المدينة، وأهلها أخلاط، فأراد رسول الله ﷺ استصلاحهم، وكان اليهود والمشركون يؤذون المسلمين أشد الأذى، فأمر الله رسوله والمسلمين بالصبر، فلما أبى كعب أن ينزع عن أذاه أمر رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطا ليقتلوه. وذكر ابن سعد أن قتله كان فى ربيع الأول من السنة الثالثة.

بداية الخوف:

وسرعان ما تبددت ردود فعل اليهود إزاء مقتل شاعرهم وطاغوتهم خوفا وفرقا وجبنا. «فليس فى المدينة يهودى إلا وهو يخاف على نفسه»(١).

عهد وميثاق:

ودفعهم الفزع إلى مقابلة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، فيما يرويه أبو داود بسند رجاله ثقات عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه، وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم: وكان كعب بن الأشرف يهجو النبى ﷺ، ويحرض عليه كفار قريش، وكان النبى ﷺ قدم المدينة، وأهلها أخلاط، منهم المسلمون، والمشركون يعبدون الأوثان، واليهود، وكانوا يؤذون النبى ﷺ وأصحابه، فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالصبر والعفو، ففيهم أنزل الله:

﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾(٢)

فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى النبى ﷺ، أمر النبى ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطا يقتلونه، فبعث محمد بن مسلمة، وذكر قصة قتله، فلما قتلوه فزعت اليهود والمشركون، فغدوا على النبى ﷺ. فقالوا: طرق صاحبنا فقتل. فذكر لهم النبى ﷺ الذى كان يقول، ودعاهم النبى ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتابا ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبى ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة (٣).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٢: ٤٨٧ ـ ٤٩١ ، وابن سعد: ٢:١:٢١ ـ٢٣، وجوامع السيرة: ١٥٤ ـ١٥٦، والكامل: ٢:١٤٣ ـ١٤٤، والبداية والنهاية : ٤: ٥ ـ ٩.

(٢) آل عمران : ١٨٦.

(٣) أبو داود (٣٠٠٠) وقال المنذرى: قوله(عن أبيه) فيه نظر، فإن أباه أبا عبد الله بن كعب ليست له صحبة، ولا هو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، ويكون الحديث على هذا مرسلا، ويحتمل أن يكون أراد بأبيه جده وهو كعب بن مالك، وقد سمع عبد الرحمن من جده كعب بن مالك، فيكون الحديث على هذا مسندا، وهو كعب أحد الثلاثة الذين تيب عليهم. وقد وقع مثل هذا فى الأسانيد فى غير موضع يقول فيه عن أبيه،وهو يريد الجد. انظر: جامع الأصول: ١:٦٣٦ وعون المعبود:٨: ٢٣٠.

والمعنى أن النبى ﷺ قال لليهود والمشركين إن أنتم تنتهون عن السَّب والأذى فلا يتعرض لكم المسلمون ، ولا يقتلوكم، فكتب كتاب العهد والميثاق بين الفريقين .. [١].

النبى لا يعلن الحرب إلا على من أعلنها:

وإذا كنا قد رأينا ما كان يفعله كعب بن الأشرف طاغوت اليهود، المنطلق من كل العهود والمواثيق، فإننا رأينا كذلك ـ أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لم يترك هذا الطاغية يقوم بأعمال خطيرة، تؤجج النيران من كل جانب ضد المسلمين، ولا يتعدى الأمر إلى من ينتمى إليهم من بنى النضير، فأكثرهم لم ينالوا المؤمنين بمثل ما نال، ولا تزر وازرة وزر أخرى، والنبى عليه الصلاة والسلام لا يعلن الحرب إلا على من أعلنها.

ومن ثم كان لا بد من قتل هذا الطاغوت، حتى لا يحذو حذوه بقية يهود!

ولا بد ـ أيضا ـ أن يجتث الداء فى موضعه، ولا يتركه حتى يفسد الجسم كله، ولا منجاة حينئذ، فلم يبق إلا أن يقتل، وأن يدعو الرسول الحبيب المحبوب ﷺ من يتولى قتله فى مأمنه، وقد اتخذ ـ كما رأينا ـ حصنا يأوى إليه، فحرض عليه الصلاة والسلام من يقتله من غير ضجة، ولا إزعاج لأحد من الآمنين.

يقول المرحوم الشيخ أبو زهرة[٢]: ولقد وجدنا من الغربيين الذين يكتبون فى تاريخ الإسلام من أثاروا زوبعة حول النبى ﷺ، وكيف يأمر بالقتل، وهو نبى مرسل، قالوا ذلك، ونسوا أنه نبى لا يدعو إلى الاستسلام للشر، بل يقاومه، ويحتاج لحماية الناس من الدماء، وأنه بمقتضى حكمة النبوة يجب أن يدفع الضرر الكثير بالضرر القليل، وأنه فى سبيل أن تحقن الدماء فى القتال يجب منع أسبابها، وأن الذى كان يثير الحرب جذعا هو واحد، وقتل واحد شرير خير من قتل جماعة فى ميدان الحرب، فهو كان يحرض على الحرب!

قالوا: إن القتل كان غيلة، ونحن نقول فى ذلك: إن الرجل جاهر بالعداوة، وشبب بنساء المسلمين، وحرض اليهود على الانقضاض على المسلمين، ونكث العهود، ولم يكتف بذلك، بل ذهب إلى مكة وأثار الأحقاد، ودعا إلى أن يقاتلوا محمدا.

فعل كل ذلك جهارا نهارا، فإذا لم يتوقع من محمد ﷺ أنه يتربص به الدوائر الدائرة، وأنه يريد أن يقضى عليه ؛ لأنه مادة الشر ولسانه، إذا لم يقدر ذلك فهو أبله، ولم يكن كذلك، فمحمد ﷺ أمر بقتله، فى وقت كان هو يتوقع ذلك، أو ينبغى أن يتوقع

---

(١) عون المعبود: ٨: ٢٣٠.

(٢) خاتم النبيين : ٢: ٨٢١ وما بعدها بتصرف.

ذلك، ولا يعد القتل غيلة لمن يتوقع القتل، وإن أمر النبى ﷺ بالقتل يشبه من يعلن عن شرير بأنه ارتكب آثاما كثيرة، وأن من أحضره حيا أو ميتا، فله جزاء.

إننا فرضنا أن الحكمة والعدالة والأخلاق توجب التخلص منه، وإذا لم يجز التخلص منه بالطريقة التى حدثت، فكيف كان يمكن التخلص؟

أيحضره من ينتمى إليهم فيقدموه للنبى ﷺ؟!

إنهم لا يفعلون ذلك، ولم يوجد من يتحمل تبعة عمله وما يفعل، وإذا لم يكن ذلك، أيأمر النبى ﷺ بإحضاره بين يديه والحكم عليه بالقتل، ويتولى قتله؟

وما الفرق بين هذا، وبين ما كان من حيث المعنى؟

إن قتله كان أمرا لا بد منه، لما قام به، ويقوم به رئيس الدولة العادلة التى يحكمها ذلك الحاكم العادل، فإنه لا سبيل لدفع فساده وإفساده إلا بقتله، بأى طريق كان القتل، وكل ما فعله النبى ﷺ أنه أباح دمه، جزاء ما ارتكب، ومنعا لاستمراره فى غيه، فقد كان يقوم بجريمة مستمرة غير متحرج.

قلت: ومن ثم كان هذا الموقف بداية لإظهار خوف بقايا اليهود، حيث لم يعد يهودى فى المدينة ـ كما عرفنا ـ إلا وهو يخاف على نفسه، وكان ذلك سبيلا إلى عهد وميثاق، يمنع اليهود وأشياعهم من السب والأذى، حتى لا يتعرض لهم المسلمون بما يكرهون! ولكنها ـ كما سيأتى ـ طبيعة يهود!

الوحدة السياسية فى المدينة:

وإجلاء بنى قينقاع تصرف سياسى آية فى الدلالة على الحكمة وبعد النظر[1].. وهو مقدمة لم يكن منها بد للآثار السياسية التى ترتبت بعد ذلك على خطة الدعوة الإسلامية.. فليس شىء أضر على وحدة الوطن من تنازع الطوائف فيه.. وإذا كان نضال هذه الطوائف لا بد منته إلى تغلب طائفة على سائرها غلبة تنتهى إلى سيادتها.. وقد تحدث بعض المؤرخين منتقدا تصرف إجلاء اليهود، زاعما أن حكاية المرأة المسلمة التى ذهبت إلى الصائغ ـ كما سبق ـ كان من اليسير إنهاؤها، ما دام قد قتل من المسلمين رجل ومن اليهود رجل.. وقد نستطيع دفع هذا القول بأن مقتل اليهودى والمسلم لم يمح ما لحق بالمسلمين من إهانة فى شخص المرأة التى وقعت فى عبث هذا اليهودى، وأن مثل هذه

---

(١) حياة محمد: ٢٨١ بتصرف.

المسألة عند العرب، أكثر منها عند غيرهم من الأمم، جديرة أن تثور لها الثائرات، وأن يقوم من أجلها القتال بين قبيلتين أو طائفتين سنوات متتابعة..

وفى تاريخ العرب من ذلك أمثال يعرفها المطلعون على هذا التاريخ.. ولكن هنالك إلى جانب هذا الاعتبار اعتبارا آخر أقوى منه.. فحادث المرأة كان من حصار بنى قينقاع وإجلائهم عن المدينة ما كان مقتل ولىّ عهد النمسا بسيراجيفو سنة ١٩١٤م من الحرب الكبرى التى شاركت فيها أوربا جميعا.. هو إنما كان الشرارة التى ألهبت ما تأجج به نفوس المسلمين وغيرهم لهبا أدى إلى انفجارها، وإلى كل ما يحدث الانفجار من آثار..

والحق أن وجود اليهود والمشركين والمنافقين إلى جانب المسلمين بالمدينة، وما أذكى ذلك من أسباب الفرقة، قد جعل المدينة من الناحية السياسية على بركان لا مفر منه من أن ينفجر، وقد كان حصار بنى قينقاع وإجلاؤهم عن المدينة أول مظاهر هذا الانفجار.. ولا ننسى الجانب الأخلاقى ـ كما سبق ـ فهو الأهم..

ومن ثم كان طبيعيا ـ كما عرفنا ـ أن ينكمش اليهود وغيرهم بعد إجلاء بنى قينقاع عن المدينة، وأن تبدو من الهدوء والسكينة فى المظهر الذى يعقب كل عاصفة وكل إعصار.. وكان ذلك إلى حين..

ولا ننسى ما سبق من ذكر دعوة الإسلام إلى إقامة مجتمع نظيف عفيف شريف، وكيف أن الدين القيم رفع ذوق المجتمع، وطهر إحساسه، ومن ثم لم يعد الطابع الحيوانى هو المقبول، بل الطابع الأخلاقى الإسلامى المهذب النظيف العفيف الشريف.

أهـــم المـراجـــع

١ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى، دار المعارف، بيروت، ط ثانية ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥م.

٢ـ البداية والنهاية، لابن كثير، المعارف، بيروت، ط ثانية ١٩٧٧م .

٣ـ بنو إسرائيل فى القرآن والسنة، للدكتورمحمد سيد طنطاوى، جامعة البصرة، ط أولى ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

٤ـ تاريخ الرسل والملوك، للطبرى، دار المعارف.

٥ـ تاريخ اليهود فى بلاد العرب، للدكتور إسرائيل ولفنسون، الاعتماد.

٦ـ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير، البابى الحلبى.

٧ـ تفسير الطبرى(جامع البيان عن تأويل القرآن) للطبرى، البابى الحلبى، ط ثالثة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٨ ـ تفسير الطبرى ـ له أيضا ـ تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة.

٩ـ تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت١٩٦٧م.

١٠ـ تفسير الكشاف، للزمخشرى، ط الاستقامة ١٣٦٥هـ .

١١ـ تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) للشيخ محمد عبده، تأليف محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت.

١٢ـ جامع الأصول فى أحاديث الرسول، لابن الأثير، تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، الملاح، ط أولى١٣٨٩هـ ـ١٩٦٩م .

١٣ـ جوامع السيرة النبوية ، لابن حزم ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٣م وط ثانية تراث الإسلام.

١٤ـ حياة محمد، للدكتور محمد حسين هيكل، دار إحياء التراث العربى، ط ١٣ النهضة المصرية ١٩٦٨م.

١٥ ـ خاتم النبيين، للشيخ محمد أبو زهرة، المؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية، الدوحة ١٤٠٠هـ.

١٦ ـ دراسات إسلامية فى العلاقات الاجتماعية والدولية، للدكتور محمد عبد الله دراز، ط دار القلم، الكويت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

١٧ـ دراسة فى السيرة، للدكتور عماد الدين خليل، ط مؤسسة الرسالة، دار النفائس ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١٨ـ الروض الأنف، للسهيلى، ومعه السيرة النبوية، لابن هشام، دار المعرفة للطباعة والنشر ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

١٩ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد، لابن القيم، تحقيق الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة: المنار الإسلامية ط أولى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م.

٢٠ـ سنن ابن ماجه، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، ط دار الفكر العربى.

٢١ـ سنن أبى داود، ط مصر التجارية، الأولى، وط المدينة المنورة.

٢٢ـ سنن الترمذى (الجامع الصحيح) للترمذى، ط بولاق ١٢٩٢هـ و ط الهند وط الحلبى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٣ـ سنن النسائى، بشرح جلال الدين السيوطى، وحاشية السندى، ط دار الكتاب العربى، بيروت.

٢٤ـ السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد، ط حجازى بالقاهرة وط الحلبى.

٢٥ـ السيرة النبوية، لابن كثير، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد، دار المعارف، بيروت.

٢٦ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٧ـ صحيح مسلم، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٢٨ـ صحيح مسلم، بشرح النووى، ط المصرية.

٢٩ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر.

٣٠ـ عون المعبود: شرح سنن أبى داود، لابن القيم، تحقيق الشيخ عبد الرحمن عثمان، السلفية، ط ثانية ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٣١ـ عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، لابن سيد الناس، ومعه اقتباس الاقتباس لحل مشكلة سيرة ابن سيد الناس، دار المعرفة، بيروت.

٣٢ـ فتح البارى: شرح صحيح البخارى، لابن حجر، الرياض الحديثة، البطحاء، الرياض.

٣٣ـ فى ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب، ط دار الشروق ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٣٤ـ الكامل فى التاريخ، لابن الأثير، ط المنيرية ١٣٤٨هـ.

٣٥ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمى، بتحرير العراقى وابن حجر، دار الكتاب العربى، بيروت، ط ثالثة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٣٦ـ مختصر سيرة الرسول ﷺ، للشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٣٧ـ المسئولية الاجتماعية فى الإسلام، للدكتور سعد المرصفى، مكتبة المعلا، الكويت ط أولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٣٨ـ مسند أحمد، وبهامشه منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندى، ط الميمنية بمصر.

٣٩ـ المواهب اللدنية، للقسطلانى، مع شرح الزرقانى، وبهامشه زاد المعاد، لابن القيم، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٤٠ـ النبأ العظيم: نظرات جديدة فى القرآن، للدكتور محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط ثانية ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

٤١ـ اليهود فى القرآن، للأستاذ عبد الكريم الخطيب، دار الشروق، ط ثانية ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ وهناك كتب ومطبوعات أخرى رجعنا إليها، وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

الفهـــــــــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مطابع الوفاء - المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

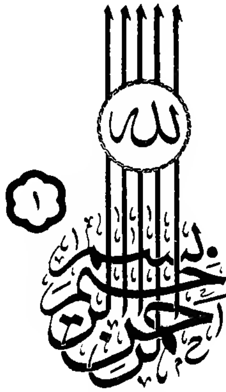
الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(٥)

التآمر اليهودي

على حياة الرسول ﷺ

تأليف
الدكتور سعد المرصفي

مكتبة المنار الإسلامية



ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥
ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ
ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

التآمر اليهودي

على حياة الرسول ﷺ

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مكتبة المنار الإسلامية
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية



AL-MANAR ISLAMIC BOOK SHOP
Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045
Kuwait · Hawalli Al-Mothana Street, Tel: 2615045, Fax. 2636854, P.O.Box: 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

مقدمـــة

كان المتوقع أن يكون اليهود أول المؤمنين بالرسالة والرسول ﷺ مذ كانوا يتوقعون ذلك، وعندهم البشارات الكثيرة التي تضمنها كتابهم ـ كما أسلفنا ـ وهم الذين كانوا يستفتحون بذلك على المشركين .. بيد أن الواقع كان على العكس من ذلك، ومن ثم كان كفرهم قبيحا. لأنهم كفروا بالنبي الذي ارتقبوه، حسدا أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها، وحقدا لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1] .

وهذه الطبيعة التي تبدو هنا في يهود هي الطبيعة الكنود، طبيعة الأثرة الضيقة التي تحيا في نطاق من التعصب شديد، وتحس أن كل خير يصيب سواها كأنما هو مقتطع منها، ولا تشعر بالوشيجة الإنسانية الكبرى ... وهكذا عاش اليهود في عزلة، يحسون أنهم فرع مقطوع من شجرة الحياة، ويتربصون بالبشرية الدوائر، ويكنون للناس البغضاء ، ويعانون عذاب الأحقاد والضغائن، ويذيقون البشرية رجع هذه الأحقاد فتنا يوقدونها، وحروبا يثيرونها، وهلاكا يسلطونه .. وما لهم وللحق؟! وما لهم أن يكون مصدقا لما معهم ؟ ! فلقد كفروا بما جاءهم به أنبياؤهم ، وقد حفظ تاريخهم سلسلة أثيمة في قتل الأنبياء !

وكانت الحروب التي شنها اليهود على الرسالة والرسول أعرض مجالا وأطول أمدا، من تلك التي شنها المشركون، والوثنيون، على ضراوتها وشدتها .. ولقد تآمروا على حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أكثر من مرة .. وحسبنا أن نذكر ما أجمع عليه بنو النضير، حيث أرسلوا إلى النبي ﷺ : اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك . ويلقاك ثلاثة من علمائنا،

---

(١) البقرة: ٨٩ ـ ٩١ .

فإن آمنوا بك اتبعناك. ففعل: فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بنى النضير إلى أخ لها من الأنصار مسلم تخبره بأمر بنى النضير، فأخبر أخوها النبى ﷺ قبل أن يصل إليهم ، فرجع ، وصبحهم بالكتائب فحصرهم يومه ....

ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى معرفة أهم صور التآمر اليهودى على حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ .. رجاء أن تكون هذه المعرفة دافعا قويا إلى الإعداد لمواجهتهم ، فهم أشد الناس عداوة للمؤمنين عبر التاريخ، ولم ينقطع هذا العداء لحظة منذ اليوم الأول للرسالة والرسول حتى اللحظة الحاضرة!

وقد اقتضت منهجية البحث أن تشتمل على ما يأتى :

الفصل الأول : غزوة بنى النضير .

الفصل الثانى : قتال أهل الكتاب .

الفصل الثالث : فى سبيل الله .

والله أسأل : التوفيق والسداد، والعون والرشاد . إنه سميع مجيب؛

الكويت فى : ٢٨ ذى القعدة ١٤١٢هـ
١ مايو ١٩٩٢م

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)

الفصل الأول
غزوة بنى النضير

متى كانت ؟ ـ يتآمرون على قتل النبى ـ اعترافهم بأن هذا نقض للعهد ـ خبر السماء ـ يهودى يقول : والله إنه لرسول الله ـ مؤامرة أخرى على قتل النبى ـ ترجيح ـ محاصرتهم ـ بين المنافقين واليهود ـ تقرير القرابة ـ صورة عجيبة ـ ملامح نفسية ـ بين بنى قينقاع وبنى النضير ـ « كمثل الشيطان » ـ منهج القرآن فى خطاب القلوب ـ إجلاؤهم ـ حقيقة إيمانية ـ « هو الذى أخرج الذين كفروا » ـ «فاعتبروا يا أولى الأبصار» ـ مصائر المشاقين لله ـ « الذين كفروا من أهل الكتاب » ـ تقطيع النخل وتحريقه ـ الشعر فى هذه الغزوة ـ حكم الفىء ـ حقيقة ضخمة ـ التنظيم الاقتصادى ـ النظرية الدستورية ـ من أسلم من بنى النضير ـ قصة قتل ـ هكذا كان إجلاؤهم .

متى كانت ؟:

قال البخاري: حديث بني النضير، ومخرج رسول الله ﷺ في دية الرجلين، وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ . قال الزهري عن عروة: كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل وقعة أحد . وقول الله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ (1) .

وجعله ابن إسحاق بعد بئر معونة وأحد . (2) .

وبنو النضير هؤلاء قبيلة كبيرة من اليهود .

قال ابن حجر (3) : (قول الزهرى) وصله عبد الرزاق فى مصنفه (4) . عن معمر عن الزهرى أتم من هذا، ولفظه عن الزهرى فى حديثه عن عروة: ثم كانت غزوة بني النضير وهم طائفة من اليهود، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ..

وحكى ابن التين عن الداودى أنه رجح ما قال ابن إسحاق من أن غزوة بنى النضير كانت بعد بئر معونة، مستدلا بقوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ (5)

قال : وذلك فى قصة الأحزاب.

قلت : وهو استدلال واه، فإن الآية نزلت فى شأن بنى قريظة، فإنهم هم الذين ظاهروا الأحزاب، وأما بنو النضير فلم يكن لهم فى الأحزاب ذكر، بل كان من أعظم الأسباب فى جمع الأحزاب ما وقع من جلائهم، فإنه كان من رؤوسهم حيي بن أخطب، وهو الذى حسن لبني قريظة الغدر وموافقة الأحزاب ـ كما سيأتى ـ حتى كان من هلاكهم ما كان ، فكيف يصير السابق لاحقا ؟!

قوله: وقول الله عز وجل :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ﴾

---

(1) الحشر : 2 .

(2) البخارى : 64 ـ المغازى : 14 باب حديث بني النضير .

(3) فتح البارى : 7: 330 بتصرف .

(4) المصنف (9732) .

(5) الأحزاب : 26

(6) الحشر : 2 .

وقد وضح المراد من ذلك فى أثر عبد الرزاق المذكور، وقد أورد ابن إسحاق تفسيرها لما ذكر هذه الغزوة . واتفق أهل العلم على أنها نزلت فى هذه القصة، قاله السهيلى، قال: ولم يختلفوا فى أن أموال بنى النضير كانت خاصة برسول الله ﷺ ، وأن المسلمين لم يوجفوا بخيل ولا ركاب، وأنه لم يقع بينهم قتال أصلا.

قوله: « وجعله ابن إسحاق بعد [1] بئر معونة وأحد » كذا هو فى المغازى لابن إسحاق مجزوما به ، ووقع فى رواية القابس « وجعله إسحاق » قال عياض: وهو وهم، والصواب «ابن إسحاق» وهو كما قال .

ووقع فى شرح الكرمانى « محمد بن إسحاق بن نصر » وهو غلط ، وإنما اسم جده يسار.

يتآمرون على قتل النبى :

قال الحافظ: وقد ذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم وغيره من أهل العلم أن عامر بن الطفيل أعتق عمرو بن أمية ، لما قتل أهل بئر معونة، عن رقبة كانت على أمه، فخرج عمرو إلى المدينة، فصادف رجلين من بنى عامر ، معهما عقد وعهد من رسول الله ﷺ ، لم يشعر به عمرو، فقال لهما عمرو: ممن أنتما ؟ فذكرا أنهما من بنى عامر، فتركهما حتى ناما فقتلهما عمرو، وظن أنه ظفر ببعض ثأر أصحابه، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال : « **لقد قتلت قتيلين لأدينهما** » [2] أى لأعطين ديتهما لما بيننا وبينهما من العهد.

قال ابن إسحاق وجل أهل المغازى فى سبب هذه الغزوة: ثم خرج عليه الصلاة والسلام إلى بنى النضير، ليستعين بهم فى دية ذينك القتيلين اللذين قتلها عمرو بن أمية، للجوار الذى كان ﷺ عقده لهما، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف .

قال فى المواهب: قال شيخنا : ولعل سؤالهم لسهولة الإعطاء عليهم، لكون المدفوع لهم من حلفائهم، إذ لو كانوا أعداؤهم لشق عليهم الإعطاء لهم ..

فلما أتاهم عليه الصلاة والسلام يستعينهم فى ديتهما قالوا : نعم ، يا أبا القاسم : نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه .

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام : ٢: ١٩٠، ١٩٤ ، والطبقات الكبرى : ٢: ٥٧ ـ ٥٩ ، والبداية والنهاية: ٤: ٧٤ ومابعدها ، وعيون الأثر : ٢: ٤٨ ومابعدها .

(٢) فتح الباري : ٧: ٣٣١ ، وعيون الأثر: ٢: ٤٤ ـ ٤٨، والمواهب اللدنية :٢: ٨٠ .

قال: يحتمل أنهم قالوا ذلك، ليتمكنوا من تدبير ما أرادوه، ويحتمل أنه لما طرأ لهم الغدر بعد حين رأوه جنب الجدار. وفي رواية: أنهم قالوا: نفعل ما أحببت،، قد آن لك أن تزورنا وأن تأتينا، اجلس حتى تطعم وترجع بحاجتك، ونقوم فنتشاور، ونصلح أمرنا فيما جئتنا به.

ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذا الحال، وكان ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم.

قالوا: من رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه؟!

فانتدب لذلك عمرو بن جَحَّاش بن كعب، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه الصخرة، وفي رواية: فجاء إلى رحى عظيمة ليطرحها عليه، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم: أبو بكر وعمر وعلي، زاد عكرمة وغيره: وعثمان، وطلحة، وعبد الرحمن ابن عوف، رواه ابن جرير، وزاد غيره: والزبير، وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد ابن عبادة.

اعترافهم بأن هذا نقض للعهد:

قال ابن سعد: فقال سلام بن مشكم لليهود: لا تفعلوا، والله ليخبرن بما هممتم، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، وفي رواية قال لهم: ياقوم، أطيعوني في هذه المرة، وخالفوني الدهر، والله لئن فعلتم ليخبرن بأنا قد غدرنا به، وإن هذا نقض للعهد الذي بيننا وبينه.

خبر السماء:

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام عليه الصلاة والسلام مظهرا أنه يقضي حاجته ويرجع، مخافة أن يفطنوا فيجتمعوا عليهم، وهم قليل، فقد يؤذون أصحابه، ولذا ترك أصحابه في مجلسهم، ورجع مسرعا إلى المدينة، واستبطأ النبي أصحابه، فقاموا في طلبه، فقال لهم حُيَيٌّ لقد عجل أبو القاسم، كنا نريد أن نقضي حاجته، ونَقْرِيَه.

يهودي يقول: والله إنه لرسول الله:

وندمت اليهود على ماصنعوا، فقال لهم كنانة بن صُوَيْراء: هل تدرون لم قام محمد؟ قالوا: والله ماندري، وما تدري أنت؟ فقال: والله! أُخْبِر بما هممتم به من الغدر، فلا

تخدعوا أنفسكم، والله إنه لرسول الله !

وحين انتهى الصحابة إلى النبى ﷺ قالوا: قمت ولم نشعر، فأخبرهم الخبر بما أرادت يهود من الغدر به، قال موسى بن عقبة: ونزل فى ذلك قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[1].

مؤامره أخرى على قتل النبى:

قال ابن حجر [2]: وروى مردويه قصة بنى النضير بإسناد صحيح إلى معمر عن الزهرى: أخبرنى عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال:

كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أبىٍّ وغيره ممن يعبد الأوثان قبل بدر، يهددونهم بإيوائهم النبى ﷺ وأصحابه، ويتوعدونهم أن يغزوهم بجميع العرب، فهمَّ ابن أبىّ ومن معه بقتال المسلمين، فأتاهم النبى ﷺ فقال:

« ما كادكم أحد بمثل ماكادتكم قريش، يريدون أن تلقوا بأسكم بينكم ».

فلما سمعوا ذلك عرفوا الحق فتفرقوا . فلما كادت وقعة بدر كتبت كفار قريش بعدها إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، ويتهددونهم، فأجمع بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبى ﷺ :

اخرج إلينا فى ثلاثة من أصحابك، ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك. ففعل.

فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بنى النضير إلى أخ لها من الأنصار مسلم تخبره بأمر بنى النضير، فأخبر أخوها النبى ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع، وصبحهم بالكتائب فحصرهم يومه، ثم غدا على بنى قريظة، فحاصرهم، فعاهدوه فانصرف عنهم إلى بنى النضير، فقاتلهم ..

ترجيح :

قال ابن حجر: وكذا أخرجه عبد بن حميد فى تفسيره عن عبد الرزاق، وفى ذلك

---

(١) المائدة : ١١ .

(٢) فتح البارى : ٧ : ٣٣١، والمواهب اللدنية : ٢ : ٨١.

رد على ابن التين فى زعمه أنه ليس فى هذه القصة حديث بإسناد.

قال: قلت :فهذا أقوى مما ذكر ابن إسحاق من أن سبب غزوة النضير طلبه أن يعينوه فى دية الرجلين، ولكن وافق قول ابن إسحاق جل أهل المغازى .

وقال: إذا ثبت أن سبب إجلاء بنى النضير ما ذكر من همهم بالغدر به ﷺ وهو إنما وقع عندما جاء إليهم، ليستعين بهم فى دية قتيلى عمرو بن أمية، تعين ماقال ابن إسحاق؛ لأن بئر معونة كانت بعد أحد بالاتفاق، وأغرب السهيلى فرجح ماقال الزهرى، ولولا ماذكر فى قصة عمرو لأمكن أن يكون ذلك فى غزوة الرجيع .

محاصرتهم :

قال ابن إسحاق(١) : فأمر ﷺ بالتهيؤ لحوبهم، والسير إليهم، قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم إماما على الصلاة، ولم يستعمل على أمرها أحدا لقربها؛ لأن بينها وبين المدينة ميلين، كما قال البيضاوى ـ ثم سار بالناس حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال، وقال ابن سعد وابن حبان وغيرهما :خمسة عشر يوما، وقال التيمى : قريبا من عشرين، وقال ابن الطلاع: ثلاثة وعشرين ليلة، وعن عائشة: خمسة وعشرين، وفى تفسير مقاتل: إحدى وعشرين ليلة، قال فى المواهب: وجمع شيخنا بأن حصار الستة كان وهم مصرون على الحرب، طمعا فيما منّاهم به المنافقون، ومازاد إلى الخمسة عشر كانوا آخذين فى أسباب الخروج، وفيما بعد خرجوا فى أوقات مختلفة، فكان آخر خروجهم خمسة وعشرين .

بين المنافقين واليهود :

بيد أن المنافقين أرسلوا إليهم أن اثبتوا ونحن معكم، ننصركم على محمد وأصحابه، والله عز وجل يخبر عن المنافقين (٢) كعبد الله بن أبى وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بنى النضير يعدونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ

(١) المواهب اللدنية: ٢ : ٨١ بتصرف .

(٢) تفسير ابن كثير : ٤ : ٣٤٠ بتصرف .

رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

وهي حكاية [2] لما قاله المنافقون ليهود بني النضير، ثم لم يفوا به. وخذلوهم فيه، حتى أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب...

ولكن في كل جملة قرآنية لفتة تقرر حقيقة، وتمس قلبا، وتبعث انفعالا، وتقر مقوما من التربية والمعرفة، والإيمان العميق...

تقرير القرابة:

وأول لفتة هي تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾

فأهل الكتاب هؤلاء كفروا. والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام!

ثم هذا التوكيد الشديد في وعد المنافقين لإخوانهم:

﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾

والله الخبير بحقيقتهم يقرر غير ما يقررون، ويؤكد غير ما يؤكدون:

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾

وكان ماشهد به الله. وكذب ما أعلنوه لإخوانهم وقرروه!

ثم يقرر حقيقة قائمة في نفوس المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾

---

(1) الحشر: ١١ - ١٧.

(2) في ظلال القرآن: ٦: ٣٥٢٨ وما بعدها بتصرف.

فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله. ولو خافوا الله ماخافوا أحدا من عباده. فإنما هو خوف واحد. ورهبة واحدة. ولا يجتمع فى قلب خوف من الله وخوف من شىء سواه. فالعزة لله جميعا، وكل قوى الكون خاضعة لأمره جل شأنه :

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ (1) .

فمم يخاف إذن ذلك الذى يخاف الله ؟ ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾

وهكذا يكشف عن حقيقة القوم الواقعة، ويقرر فى الوقت ذاته تلك الحقيقة المجردة، ويمضي يقرر حالة فى نفوس المنافقين الذين كفروا من أهل الكتاب، تنشأ من حقيقتهم السابقة، ورهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله:

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾

صورة عجيبة:

وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز فى « تشخيص » حالة المنافقين وأهل الكتاب، حيثما التقى المؤمنون بهم فى أى زمان وفى أى مكان، وفى أى جيل وفى أى قبيل، بشكل واضح للعيان !

ولقد شهدت الاشتباكات الأولى فى أواخر الأربعينات من هذا القرن العشرين بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة !

فما كانوا يقاتلونهم إلا فى فى المستعمرات المحصنة فى أرض فلسطين !

فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان، حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداء ، وسبحان العليم الخبير !

ملامح نفسية :

وتبقى الملامح النفسية الأخرى:

---

(1) هود: ٥٦ .

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾

على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم، وتجمعهم آصرة الإيمان، من وراء فواصل الزمان والمكان، والجنس والوطن والعشيرة:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾

والمظاهر قد تخدع ، فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم، ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض، كما نرى تجمع المنافقين أحيانا فى معسكر واحد !

ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك فى حقيقتهم، إنما هو مظهر خارجى خادع !

وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع، فيبدو من ورائه صدق الخبر فى دنيا الواقع المنظور، وينكشف الحال عن نزاع فى داخل المعسكر الواحد، قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء، وتصادم الاتجاهات !

وما صدق المؤمنون مرة ، وتجمعت قلوبهم على الله حقا ، إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم ، عن هذه الاختلافات، وهذا التضارب، وهذا الرياء الذى لايمثل حقيقة الحال !

وما صبر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل ينفسخ وينهار، وينكشف عن الخلاف الحاد، والشقاق والكيد، والدس فى القلوب الشتيتة المتفرقة !

إنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب .. من المسلمين .. عندما تتفرق قلوب المسلمين، فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين التى عرضتها الآيات السابقة فى هذه الصورة :

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ

﴿سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١) .

فأما في غير هذه الحالة فالمنافقون أضعف وأعجز، وهم الذين كفروا من أهل الكتاب متفرفو الأهواء والقلوب :

﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾

والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة في قلوب المؤمنين، ليهوّن فيها من شأن أعدائهم، ويرفع منها هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم. فهو إيحاء قائم على حقيقة، وتعبئة روحية ترتكن إلى حق ثابت .

ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله ، وتجمعت قلوبهم في الصف الواحد، فلم تقف لهم قوة في الحياة.

والمؤمنون بالله ينبغي لهم أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم. فهذا نصف المعركة. والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة في سياق وصفه لحادث وقع، وفي سياق التعقيب عليه، وشرح ما وراءه من حقائق ودلائل، شرحا يفيد منه الذين شهدوا ذلك الحادث بعينه، ويتدبره كل من جاء بعدهم وأراد أن يعرف الحقيقة من مصدرها الحقيقي !

بين بني قينقاع وبني النضير :

ولم يكن حادث بني النضير هو الأول من نوعه ، فقد سبقه حادث بني قينقاع ــ كما عرفنا ــ وهو الذي تشير إليه الآية التالية، كما قال ابن عباس، وقتادة، ومحمد بن إسحاق قال ابن كثير وهذا القول أشبه بالصواب : (٢) .

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

فهذه هي الواقعة التي يشير إليها القرآن الكريم، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا، ويقيس عليها حال بني النضير وحقيقتهم .. وحال المنافقين مع هؤلاء وهؤلاء !

«كمثل الشيطان» :

ويضرب للمنافقين الذين أغروا إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بالمقاومة، فانتهوا بهم إلى تلك النهاية البائسة .. يضرب لهم مثلا بحال دائمة .. حال الشيطان مع

---

(١) الحشر : ٨ ــ ١٠.
(٢) تفسير ابن كثير : ٤: ٣٤٠ بتصرف .

الإنسان، الذى يستجيب لإغرائه ، فينتهى وإياه إلى شر مصير :

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وصورة الشيطان هنا ودوره مع من يستجيب له من بنى الإنسان، تتفقان مع طبيعته ومهمته، فأعجب العجب أن يستمع إليه الإنسان. وحاله هو هذا الحال !

وهى حقيقة دائمة ينتقل السياق القرآنى إليها من تلك الواقعة العارضة، فيربط بين الحادث المفرد والحقيقة الكلية، فى مجال حيّ من الواقع ، ولا ينعزل بالحقائق المجردة فى الذهن ، فالحقائق المجردة الباردة لاتؤثر فى المشاعر، ولا تستجيش القلوب للاستجابة .

منهج القرآن فى خطاب القلوب :

وهذا فرق مابين منهج القرآن فى خطاب القلوب ، ومنهج الفلاسفة والدارسين والباحثين!

وبهذا المثل الموحى تنتهى قصة بنى النضير، وقد ضمت فى ثناياها وفى أعقابها هذا الحشد من الصور والحقائق والتوجيهات ، واتصلت أحداثها المحلية الواقعة بالحقائق الكبرى المجردة الدائمة، وكانت رحلة فى عالم الواقع وفى عالم الضمير، تمتد إلى أبعد من حدود الحادث ذاته، وتفترق روايتها فى كتاب الله عن روايتها فى كتب البشر، بمقدار ما بين صنع الله وصنع البشر من فوارق لا تقاس !

إجلاؤهم :

يروى الحاكم بسند صحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت :

كانت غزوة بنى النضير وهم طائفة من اليهود، على رأس ستة أشهر ،من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم فى ناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال ، إلا الحلقة « يعنى السلاح » فأنزل الله فيهم :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ﴾ (١).

---

(١) الحشر : ١ ـ ٢ .

فقاتلهم النبى ﷺ ، حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا ذلك لعذبهم فى الدنيا بالقتل والسبى، وأما قوله: « لأول الحشر » فكان جلاؤهم ذلك أول حشر فى الدنيا إلى الشام (١) .

حقيقة إيمانية :

وتطالعنا سورة الحشر بهذه الحقيقة التى وقعت وكانت فى الوجود، حقيقة تسبيح كل شىء فى السموات، وكل شىء فى الأرض لله، والاتجاه إليه بالتنزيه والتمجيد .. تفتتح السورة التى تقص قصة إخراج الله لهؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم، وإعطائها للمؤمنين به، المسبحين بحمده، الممجدين لأسمائه الحسنى : (٢) .

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (٣)

القوى القادر على نصر أوليائه وسحق أعدائه .. الحكيم فى تدبيره وتقديره .. ثم يقص نبأ الحادث الذى نزلت فيه السورة .

« هو الذى أخرج الذين كفروا » :

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (٤) .

ومن هذه الآيات نعلم أن الله هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . والله هو فاعل كل شىء ، ولكن صيغة التعبير تقرر هذه الحقيقة فى صورة مباشرة توقع فى الحس أن الله تولى هذا الإخراج من غير ستار لقدرته من فعل البشر !

---

(١) المستدرك : ٢ : ٤٨٣ وقال : صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى .

(٢) فى ظلال القرآن : ٦ : ٣٥٢١ وما بعدها بتصرف .

(٣) الحشر : ١ . (٤) الحشر : ٢ ـ ٤ .

وساق المخرَجِين للأرض التى منها يحشرون ، فلم تعد لهم عودة إلى الأرض التى أخرجوا منها .

ويؤكد فعل الله المباشر فى إخراجهم وسوقهم بالفقرة التالية فى الآية:

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾

فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم، ولا هم كانوا يسلّمون فى تصور وقوعه !

فقد كانوا من القوة والمنعة فى حصونهم، بحيث لا تتوقعون أنتم أن تخرجوهم منها كما أخرجوا، وبحيث غرتهم هذه المنعة، حتى نسوا قوة الله التى لاتردها الحصون !

﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ﴾

أتاهم من داخل أنفسهم ! لا من داخل حصونهم !

أتاهم من قلوبهم ، فقذف فيها الرعب، ففتحوا حصونهم بأيديهم !

وأراهم أنهم لايملكون ذواتهم، ولا يحكمون قلوبهم، ولا يمتنعون عن الله بإرادتهم وتصميمهم!

فضلا على أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم . وقد كانوا يحسبون حساب كل شيء إلا أن يأتيهم الهجوم من داخل كيانهم. فهم لم يحتسبوا هذه الجهة التى أتاهم الله منها. وهكذا حين يشاء الله أمرا .. يأتى له من حيث يعلم ، ومن حيث يقدر، وهو يعلم كل شيء وهو على كل شيء قدير .

فلا حاجة إذن إلى سبب ولا إلى وسيلة، مما يعرفه الناس ويقدرونه. فالسبب حاضر دائما ، والوسيلة مهيأة، والسبب والنتيجة من صنعه، والوسيلة والغاية من خلقه، ولن يمتنع عليه سبب ولا نتيجة، ولن يعز عليه وسيلة ولا غاية .. وهو العزيز الحكيم ..

ولقد تحصن الذين كفروا من أهل الكتاب بحصونهم، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب !

ولقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم، فسلط الله عليهم هذه الدور والبيوت يخربونها بأيديهم، ويمكنون المؤمنين من إخرابها !

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾

« فاعتبروا يا أولى الأبصار » :

وبهذا تتم حكاية ما وقع للذين كفروا من أهل الكتاب، في تلك الصورة الموحية، وهذه الحركة المصورة .. والله سبحانه يأتيهم من وراء الحصون فتسقط بفعلهم هم، ثم يزيدون فيخربونها بأيديهم وأيدى المؤمنين !

هنا يجيء أول تعقيب في ظل هذه الصورة، وعلى إيقاع هذه الحركة :

﴿ فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ .

وهو هتاف يجيء فى مكانه وفى أوانه. والقلوب متهيئة للعظة، متفتحة للاعتبار .

مصائر المشاقين لله :

والآية التالية تقرر أن إرادة الله فى النكاية بهم ما كانت لتعفيهم بأية حالة من نكال يصيبهم فى الدنيا، وغير ما ينتظرهم فى الآخرة :

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾

فهو أمر مقرر أن ينالهم النكال من الله .. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم عذابا آخر غير عذاب النار الذى ينتظرهم هناك. فقد استحقوا عذاب الله فى صورة من صوره على كل حال !

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

وهو موقف فيه تبجح قبيح، حين يقف المخاليق فى وجه الخالق يشاقونه!

وموقف كذلك رعيب، وهذه المخاليق الضئيلة الهزيلة تتعرض لغضب الله وعقابه. وهو شديد العقاب .

وهكذا تستقر في القلوب حقيقة مصائر المشاقين لله فى كل أرض وفى كل وقت ، وفى كل جيل وفى كل قبيل، من خلال مصير الذين كفروا من أهل الكتاب، وما استحقوا به هذا العقاب.

« الذين كفروا من أهل الكتاب » :

ولا يفوتنا أن نلحظ تسمية القرآن ليهود بنى النضير بأنهم :

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾

وتكرار هذه الصفة فى السورة. فهى حقيقة؛ لأنهم كفروا بدين الله فى صورته العليا، التى جاء بها محمد ﷺ ، وقد كان اليهود ـ كما عرفنا ـ ينتظرونها، وذكر هذه الصفة فى الوقت نفسه يحمل بيانا بسبب التنكيل بهم، كما أنه يعبىء شعور المسلمين تجاههم تعبئة روحية، تطمئن لها قلوبهم فيما فعلوا معهم، وفيما حل بهم من نكال وعذاب أليم ، فذكر هذه الحقيقة هنا ملحوظ !

تقطيع النخل وتحريقه :

ثم يطمئن الله المؤمنين على صواب ما أوقعوه بهؤلاء الذين كفروا وشاقوا الله ورسوله، من تقطيع نخيلهم وتحريقه، أو تركه كذلك قائما، وبيان حكم الله فيه. وقد دخل نفوس المسلمين شىء من هذا :

﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [1] .

يروى الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ حرّق نخل بنى النضير، قال : ولها يقول حسان بن ثابت :

وهان على سراة بنى لؤىّ حريق بالبويرة مستطير

قال : فأجابه أبو سفيان بن الحارث :

أدام الله ذلك من صنيع وحرق فى نواحيها السعير
ستعلم أينا منها بنزه وتعلم أى أرضينا تضير [2] .

يقول القرطبى : وذلك أن النبى ﷺ لما نزل على حصون بنى النضير [3] ـ وهى البويرة ـ يقول ابن حجر [4] : مصغر بؤرة، وهى الحفرة، وهى هنا مكان معروف بين المدينة وبين تيماء، وهى من جهة قبلة مسجد قباء إلى جهة الغرب، ويقال لها أيضا: البويلة، باللام بدل الراء حين نقضوا العهد .. [4] أمر بقطع نخيلهم وإحراقها. واختلفوا فى عدد ذلك، فقال قتادة والضحاك: إنهم قطعوا من نخليهم وأحرقوا ست نخلات، وقال محمد بن إسحاق : إنهم

(١) الحشر : ٥ . (٢) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٠٣٢) ، ومسلم : ٣٢ ـ الجهاد ٣٠ (ت١٧٤٦) .
(٣) تفسير القرطبى : ١٨ : ٦ بتصرف . (٤) فتح البارى : ٧: ٣٣٣ .

قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة. ،وكان ذلك عن إقرار رسول الله ﷺ أو بأمره، إما لإضعافهم بها، وإما لسعة المكان بقطعها، فشق ذلك عليهم فقالوا ـ وهم يهود أهل الكتاب ـ :

يامحمد ، ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ؟

وهل وجدت فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد فى الأرض ؟

فشق ذلك على النبى ﷺ . ووجد المؤمنون فى أنفسهم،حتى اختلفوا، فقال بعضهم: لا تقطعوا مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: اقطعوا لنغيظهم بذلك. فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع، وتحليل من قطع من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله .

وقد روى النسائى [١] عن ابن عباس فى هذ الآية، قال: يستنزلونهم من حصونهم ، وأمروا بقطع النخل، فحاك فى صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضا وتركنا بعضا، فلنسألن رسول الله ﷺ ،هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله: ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾.

وروى أبو يعلى عن جابر قال : رخص لهم في قطع النخل، ثم شدد عليهم، فأتوا النبى ﷺ فقالوا: يارسول الله ! علينا إثم فيما قطعنا أو علينا وزر فيما تركنا، فأنزل الله عزوجل الآية [٢] .

قلت : وقد استدل عامة العلماء بذلك ، وفي هذا تحقيق المصلحة وتلمس السبيل إليها، لأن الحكم الشرعى فى ذلك منوط بما يراه الإمام من مصلحة النكاية بأعداء المسلمين [٣] .

الشعر فى هذه الغزوة :

قال ابن إسحاق : وقال كعب بن مالك يذكر إجلاء بنى النضير ، وقتل كعب بن الأشرف:

لقد خزيت بغدرتها الحبور [٤] كذاك الدهر ذو صرف يـدور

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤: ٣٣٣.
(٢) انظر : خاتم النبيين : ٢: ٨٩٤ وما بعدها .
(٣) انظر : الأم : ٧: ٣٥٦ .
(٤) جمع حبر، وهم علماء اليهود .

وذلـك أنهــم كفـــروا بـربّ | عظيـم أمـــره أمـــر كبيـــر
وقـد أوتــوا معـا فهمــا وعلمــا | وجــاءهمُ مــن الله النـذيـــر
نـذير صـــادق أدى كتــابـــــا | وآيــات مبينـــة تنيـــــــر
فقـالــوا مـا أتيـت بأمـر صـــدق | وأنـت بمنـكر منـا جديـــــر
فقـال بـلى لقـد أديـت حـقـــا | يصـدقنى بـه الفـهـم الخبيـــر
فمـن يتبـعـه يهـد لكـل رشـد | ومـن يكفـر به يخـز الكفـور
فلمـا أشــربوا غـــدرا وكفـــرا | وجـد بهم عـن الحـق النفـور
أرى الله النبـى بـرأى صـــدق | وكان الله يحكـم لا يـجـور
فـأيـده وسـلطه عـليهــــــم | وكـان نصيره نعـم النـصيــر
فغـودر منهـــم كعـب صريعـــا | فذلت بعـد مصـرعـه النضير
على الكفيـــن ثـم وقد علتـــه | بأيـدينـا مـشهـرة ذكـــــور
بأمـــــر محمـــــد إذ دس ليلا | إلى كعـب أخـا كعـب يسـير
فماكــــره فأنـــزله بمـكـــــر | ومحمـــود أخـو ثـقة جسـور
فتـلـك بنو النضيـر بدار ســوء | أبارهم [1] بما اجترمـوا المبيـر
غداة أتاهم فى الزحف رهوا [2] | رســول الله وهو بهـم بصيـر
وغســـــان الحمــــاة مــؤازروه | على الأعداء وهــو لهـم وزيـر
فـقال السـلـم ويحكم فصـــدوا | وخـالف أمـرهم كـذب وزور
فذاقوا غِــبَّ أمرهـــم وبـــالا | لكـل ثلاثـــة منهـم بعيـــر
وأجلُــوا عامديــن لقينقـــاع | وغـودر منـهـمُ نـخـل ودور

وكان مما قيل فى بنى النضير قول ابن لُقَيْم العبسى، ويقال : قاله قيس بن بحر بن طريف الأشجعى:

أهـلـى فـداء لامــرىء غيـر هـالك | أحل اليهـود بالحســىّ المزنّم [3]

---

(1) أبارهم : أهلهم . (2) رهوا : سيرا سهلا .
(3) الحسى: ما يحسى من الطعم، والمزنّم: الرجل يكون فى القوم ليس منهم يريد: أحلهم بأرض غربة فى غير عشائرهم.

يقيلون فى جمر العضاه وبدّلوا ... أهيضب عُودى بالودىّ المكمّم (١)

فإن يك ظنى صادقا بمحمد ... تروا خيله بين الصّلا ويرمرم (٢)

يؤم بها عمرو بن بُهْثَة إنهم ... عدوّ وما حىّ صديق كمجرم

عليهن أبطال مساعير فى الوغى ... يهزون أطراف الوشيج المقوّم (٣)

وكلّ رقيق الشفرتين مهنّد ... تووِرثْن من أزمان عاد وجرهم

فَمَن مُبلغ عنى قريشا رسالة فهل ... بعدهم فى المجد من متكرّم

بأن أخاهم فاعلمّن محمدا ... تليد الندى بين الحجون وزمزم

فدينوا له بالحق تجسم أموركم ... وتسمو من الدنيا إلى كل معظم

نبىّ تلافته من الله رحمة ... ولا تسألوه أمر غيب مرجّم

فقد كان فى بدر لَعمرى عِبرة ... لكم ياقريش والقليب الملمّم

غداة أتى فى الخزرجية عامدا ... إليكم مطيعا للعظيم المكرّم

معانا بروح القدس ينكَى عدوّه ... رسولا من الرحمن حقا بمعلم

رسولاً من الرحمن يتلو كتابه ... فلما أنار الحق لم يتلعثم

أرى أمره يزداد فى كل موطن ... علوّا لأمر حمّه الله محكم (٤)

وهكذا جاء البيان يربط الفعل والترك بإذن الله، أراد به أن يخزى الفاسقين . وقطع النخيل يخزيهم بالحسرة على قطعه، وتركه يخزيهم بالحسرة على فوته، وإرادة الله وراء هذا وذاك على السواء .

وبهذا تستقر قلوب المؤمنين المتحرجة، وتشفى صدروهم مما حاك فيها، وتطمئن إلى حكم الله عزوجل .

---

(١) العضاة: شجر. وأهيضب: مكان مرتفع. والودى: صغار النخل. والمكمم: الذى خرج كمامه.

(٢) الصلا: موضع. ويرمرم: جبل. (٣) الوشيج: شجر الرماح.

(٤) السيرة النبوية لا بن كثير : ٣: ١٥٠ ـ ١٥٢ وانظر الروض الأنف : ٣: ٢٤٢ ـ ٢٤٤ وتفسير ابن كثير : ٤ : ٣٣٤ .

حكم الفئ :

ويأتى بعد هذه الآيات التى نزلت فى شأن بنى النضير، وعشنا فى رحابها، قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (١).

يروى الشيخان عن مالك بن أوس، عن عمر رضى الله عنه، قال:

« كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله ﷺ ، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خاصة، ينفق على أهله منها نفقة سنته، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدّة فى سبيل الله» (٢) .

والفيء ـ كما يقول ابن كثير(٣) ـ كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولاركاب، كأموال بنى النضير هذه، فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولاركاب، أى لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ، فأفاء الله على رسوله، ولهذا تصرف فيه كما يشاء، فرده على المسلمين فى وجوه البر والمصالح التى ذكرها فى هذه الآيات، فقال:

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ ﴾

أى من بنى النضير

﴿ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾

يعنى الإبل :

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

---

(١) الحشر : ٦ ـ ٧ .

(٢) البخارى : ٦٥ ـ التفسير (٤٨٨٥) ، ومسلم : ٣٢ ـ الجهاد ٤٨ (١٧٥٧) .

(٣) تفسير ابن كثير : ٤: ٣٣٥، وانظر تفسير القرطبى : ١٨: ١٤ وما بعدها ، تفسير الطبري : ٢٨: ٣٥ وما بعدها .

أى قدير لايغالب ولا يمانع، بل هو القادر لكل شيء ، ثم قال تعالى :

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾

أى جميع البلدان التى تفتح هكذا، فحكمها حكم أموال بنى النضير، ولهذا قال تعالى :

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾

إلى آخرها والتى بعدها، فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه .

حقيقة ضخمة :

وهذه الآيات (١) تحوى فى الوقت ذاته وصفا لأحوال الجماعة المسلمة في حينها، كما تقرر طبيعة الأمة المسلمة على توالى العصور، وخصائصها المميزة التى تترابط بها وتتماسك، على مدار الزمان، لا ينفصل فيها جيل عن جيل ، ولاقوم عن قوم، ولا نفس عن نفس، فى الزمن المتطاول بين أجيالها المتعاقبة في جميع بقاع الأرض. وهى حقيقة ضخمة كبيرة ، ينبغى الوقوف أمامها طويلا فى تدبر عميق . .

التنظيم الاقتصادى :

كما تعلل هذه القسمة، فتضع قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع الإسلامى :

﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾

وهى تمثل جانبا كبيرا من أسس النظرية الاقتصادية فى الإسلام فالملكية الفردية معترف بها فى هذه النظرية. ولكنها محددة بهذه القاعدة، قاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ممنوعا من التداول بين الفقراء. فكل وضع ينتهى إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية، كما يخالف هدفا من أهداف التنظيم الاجتماعى كله . وجميع الارتباطات والمعاملات فى المجتمع الإسلامى يجب أن تنظم بحيث لاتخلق مثل هذا الوضع أو تبقى عليه إن وجد .

ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة . ففرض الزكاة. وجعل حصيلتها محددة، وجعل للإمام الحق فى أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على

---

(١) فى ظلال القرآن: ٦: ٣٥٢٣ وما بعدها بتصرف .

الفقراء، وحرم الاحتكار، وحظر الربا، وهما الوسيلتان الرئيستان لجعل المال دولة بين الأغنياء، وهما أيضا من أساليب يهود، ومحاولة سيطرتهم على توجيه الأنظار إليهم عن هذا السبيل !

ومن ثم كانت هذه الآيات التى نزلت فى شأن بنى النضير تحتوى على هذه التوجيهات فى هذا المقام .

وكان النظام الإسلامى بهذه الخصائص، فليس هو النظام الرأسمالى، وليس هو النظام الاشتراكى، إنما هو نظام إسلامى من لدن حكيم خبير. نشأ وحده، وصار وحده ، وبقى حتى اليوم وحده، نظاما فريدا متوازن الجوانب، متعادل الحقوق والواجبات، متناسقا تناسق الكون كله، منذ كان صدوره عن خالق الكون، والكون كله متناسق موزون .

النظرية الدستورية :

وتأتى قاعدة تلقي الشريعة من مصدر واحد :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

فهى كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية. فسلطان القانون فى الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قرآنا وسنة. والأمة كلها والإمام معها لاتملك أن تخالف عما جاء به الرسول . فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا من سلطان ؛ لأنه فقد السند الأول الذى يستمد منه السلطان .

وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية، بما فيها تلك التى تجعل الأمة مصدر السلطات ، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ماتشاء ، وكل ماتشرعه فهوذو سلطان، فمصدر السلطات فى الإسلام هو شرع الله الذى جاء به الرسول الحبيب المحبوب ﷺ.

والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها، والإمام نائب عن الأمة فى هذا المجال.

وفى هذا تنحصر حقوق الأمة. فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فى أى تشريع .

فأما حين لاتوجد نصوص فيما جاء به الرسول بخصوص أمر يعرض للأمة ، فسبيلها أن تشرع له بما لايخالف أصلا من أصول ماجاء به الرسول. وهذا لا ينقض تلك النظرية، إنما هو فرع عنها . فالمرجع فى أى تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول إن كان هناك نص. وألا يخالف أصلا من أصوله فيما لانص فيه .

وتنحصر سلطة الأمة، والإمام نائب عنها، فى هذه الحدود، وهو نظام فريد، لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية.

وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله، ومن ثم كان مفتتح هذه السورة التى نزلت فى حادث بنى النضير من اليهود بحقيقة تسبيح كل شىء فى السماوات وكل شىء فى الأرض لله ــ كما عرفنا ـ وينسق بين ناموس الكون الذى وضعه الله له والقانون الذى يحكم البشر، وهو من الله، كى لايصدم قانون البشر بناموس الكون، فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح !

وتربط الآية هاتين القاعدتين فى قلوب المؤمنين بالأمر بالتقوى والخوف من عقاب الله:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

من أسلم من بنى النضير :

قال ابن إسحاق : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عمير، أبو كعب بن عمرو بن جحّاش، وأبو سعد بن وهب، أسلما على أموالهما فأحرزاها (١) .

وقال ابن حجر (٢) : أبو سعْد بن وهب النضرى (بفتح الضاد المعجمة) من بنى النضير، أخوه قريظة.

وقال : وأخرج له ابن سعد حديثا .. ووقع فى كلام أبى عمر أنه نزل إلى النبى ﷺ يوم قريظة ، وهو خطأ ، تعقبه الرشاطى، فإن قصة بنى النضير متقدمة على قصة بنى قريظة بمدة طويلة .

قصة قتل :

وقال ابن حجر (٣) : يامين بن عمير بن كعب، أبو كعب النضري .. ذكره أبو عمر فقال: كان من كبار الصحابة، أسلم فأحرز ماله من بنى النضير غيره، وغير أبى سعيد بن عمرو بن وهب فأحرزا أموالهما، قال ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم .

---

(١) الروض الأنف : ٣: ٢٤١، والإصابة : ٨٣ .

(٢) الإصابة: ٧: ٨٣ ـ٨٤ وانظر : ٩٦ حيث نقل عن ابن الأثير أنه (أبو سعيد بن وهب القرظى) وقال : كذا ذكره ابن الأثير فوهم فى الكنية، وإنما هو أبو سعْد ـ كما تقدم ـ وهو النضري، من بنى النضيرلا من بنى قريظة .

(٣) المرجع السابق : ٦: ٣٣٣ .

وقال ابن إسحاق أيضا : بلغنى أن يامين بن كعب لقى أبا ليلي عبد الرحمن بن كعب، وعبد الله بن مغفل، وهما يبكيان، فقالا : لم نجد عند النبى ﷺ ما يحملنا عليه، فأعطاهما ناضحا. وقال ابن إسحاق: حدثنى بعض آل يامين أن النبى ﷺ قال ليامين: ألم تر إلى ابن عمك عمرو بن جحاش، وما هم به من قتلى . يعنى فى قصة بنى النضير، وكان أراد أن يلقى على النبى ﷺ رحى فيقتله، فأنذره جبريل، فقام من مكانه ذلك ـ كما سبق ـ فجعل يامين لرجل جعلا على أن يقتل عمرو بن حجاش فقتله .

قلت : قال ابن إسحاق (١) : فقتله فيما يزعمون !

وقد آثرت ذكر هذا العنوان : « قصة قتل » لأن سندها هكذا !، ولأن ابن إسحاق ذكر فى آخرها «فيما يزعمون» وتلك طبيعة اليهود.

هكذا كان إجلاؤهم:

وهكذا كان إجلاء طائفة أخرى من اليهود، بسبب خرقها الميثاق، وخفرها الذمة، وخيانتها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، وتآمرها على قتله أكثر من مرة ـ كما عرفنا ـ وهو كما نرى منتهى العدل الذى لم تعرفه الدنيا فى تاريخها الطويل إلا فى هذا الدين القيم .

وهكذا نزلت سورة الحشر، وهى سورة بنى النضير، التى عشنا فى رحابها، كما روى البخارى عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر ، قال : قل سورة النضير (٢) .

أضف إلى تآمرهم على قتل النبى ماكان منهم قبل ذلك ـ كما عرفنا ـ من مواقف مشاقة مؤذية ومزعجة طفح بها الكيل، وحق عليهم من أجلها التنكيل .

---

(١) الروض الأنف : ٢: ٢٤١.

(٢) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٠٢٩) .

الفصل الثانى

قتال أهل الكتاب

هدى النبى ﷺ ـ الأمر بالقتال ـ صور ومواقف ـ حقيقة ماعليه أهل الكتاب ـ المنهج الواقعى لهذا الدين ـ بين أهل الكتاب ـ والمجتمع المسلم ـ وحدة هدف ـ واقع تاريخى ـ من أقوالهم ـ الجزية على ضآلتها فرصة اجتماعية للموادعة والتأمل ـ عروة فى عهد بالحماية ـ أين الإكراه والقهر فى نظام الجزية ؟ ـ من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ ـ وسيلة عملية ـ ضلال عقيدة أهل الكتاب ـ المستقبل للإسلام ـ هؤلاء هم أهل الكتاب .



هدى النبى ﷺ :

لقد كان ماحدث من اليهود كافيا لحمل من بقى منهم بجوار المدينة على التفكير فيما هم فيه ولكنهم تعجلوا الشر فباءوا به .. ومن ثم كان القتال ضرورة .

وقد لخص ابن القيم ترتيب سياق هدى النبى مع هؤلاء ومن على شاكلتهم من الكفار والمنافقين، من حين بعث إلى حين لقى الله عزوجل، فقال (١) :

أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذى خلق :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٢)

وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ فى نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ ، ثم أنزل عليه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ (٣).

فنبأه بقوله: «اقرأ» وأرسله بـ « يأيها المدثر » .

ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

ثم أنذر قومه، ثم أنذر من حولهم من العرب، ثم أنذر العرب قاطبة، ثم أنذر العالمين :

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٥)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٦) .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولاجزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح .

---

(١) زاد المعاد : ٣: ١٥٨ بتصرف . (٢) العلق : ١ ـ ٥ . (٣) المدثر : ١ ، ٢ .

(٤) الشعراء: ٢١٤ ، ٢١٥ . (٥) الحجر : ٩٤ . (٦) الأعراف : ١٥٨ .

(٧) الأنبياء : ١٠٧ .

قال ابن تيمية (١) : وكان الله لما بعث نبيه وأمره بدعوة الخلق إلى دينه لم يأذن له فى قتل أحد على ذلك ولا قتاله، حتى هاجر إلى المدينة، فأذن له وللمسلمين فى قوله:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٢)

وقال ابن القيم : (٣) فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، وأيده الله بنصره، بعباده المؤمنين الأنصار ، وألف بين قلوبهم بعد العداوه والإحنة التى كانت بينهم، فمنعته الأنصار وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج وكان أولى بهم من أنفسهم ، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشمروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله سبحانه وتعالى يأمرهم بالصبر والعفو والصفح، حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ فى القتال ، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة والسورة مكية، وهذا غلط لوجوه :

أحدها : أن الله لم يأذن بمكة لهم فى القتال ، ولا كان لهم شوكة يتمكنون بها من القتال بمكة .

الثانى : أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال:

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ ﴾ (٤)

وهؤلاء هم المهاجرون .

الثالث : قوله تعالى :

﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ ﴾ (٥)

نزلت فى الذين تبارزوا يوم بدر من الفريقين (٦) .

الرابع : أنه خاطبهم فى آخرها بقوله :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (٧) .

---

(١) السياسة الشرعية : ٥٦ (٢) الحج : ٣٩ . (٣) زاد المعاد : ٣: ٦٩ بتصرف .
(٤) الحج : ٤٠ . (٥) الحج : ١٩ .
(٦) البخارى : ٦٥ ــ التفسير (٤٧٤٣) ، (٤٧٤٤) . (٧) الحج :٧٧ .

والخطاب بذلك كله مدنى، فأما الخطاب « يأيها الناس » فمشترك .

الخامس : أنه أمر فيها بالجهاد الذي باليد وغيره، ولاريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة فأمر به في مكه بقوله :

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾[1] .

فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ، وجهاد الحجة، وأما الجهاد المأمور به في سورة الحج فيدخل فيه الجهاد بالسيف .

السادس : أن الحاكم روى عن ابن عباس قال : لما أخرج أهل مكة النبى ﷺ قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : « إنا لله وإنا إليه راجعون » أخرجوا نبيهم، ليهلكن ، قال فنزلت :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

قال أبو بكر الصديق : فعلمت أنها قتال، قال ابن عباس : وهى أول آية نزلت فى القتال.

قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى .[2] وهو كما قالا .

قال ابن القيم: ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال :

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾[3] .

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة،وكان محرما، ثم مأذونا به، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورا به لجميع المشركين، إما فرض عين على أحد القولين، أو فرض كفاية على المشهور .

وبمثله قال العلماء [4] .

قال ابن القيم: ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام [5] :

أهل صلح وهدنة.

وأهل حرب .

وأهل ذمة .

---

(١) الفرقان : ١٥٢ . (٢) المستدرك :٢: ٦٦ . (٣) البقرة :١٩٠ .

(٤) انظر : الأم : ٤: ١٥٩ وما بعدها ،والمبسوط : ١٢:١. (٥) زاد المعاد: ٣: ١٥٩ بتصرف .

فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفى لهم به، مااستقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة، نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد، وأمر بأن يقاتل من نقض عهده .

ولما نزلت « سورة براءة » نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية،أو يدخلوا فى الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة والبيان .

وأمره فيها بالبراءه من عهود الكفار ، ونبذ عهودهم إليهم، وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام:

قسما أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده، ولم يستقيموا له، فحاربهم وظهر عليهم.

وقسما لهم عهد مؤقت لم ينقضوه، ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم .

وقسما لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم، وهى الإشهر الأربعة المذكورة فى قوله:

﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ (1) .

وهى الحرم المذكورة فى قوله:

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ (2) .

فالحرم هاهنا: هى أشهر التسيير ، أولها يوم الأذان، وهو اليوم العاشر من ذى الحجة، وهو يوم الحج الأكبر الذى وقع فيه التأذين بذلك، وآخرها العاشر من ربيع الآخر، وليست هى الأربعة المذكورة فى قوله:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ (3) .

فإن تلك واحد فرد، وثلاثة سرد (4) : رجب ، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم ، ولم يسير المشركين فى هذه الأربعة، فإن هذا لايمكن ، لأنها غير متوالية، وهو إنما أجلهم

(1) التوبة : ٢ . (2) التوبة :٥ . (3) التوبة : ٣٦ .

(4) انظر تفسير ابن كثير : ٢: ٣٣٥ ففيه أقوال المفسرين فى المراد بالأشهر .

أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم، فقتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له، أو له عهد مطلق أربعة أشهر ، وأمره أن يتم للموفى بعهد عهده إلى مدته، فأسلم هؤلاء كلهم، ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم، وضرب على أهل الذمة الجزية ..

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءه على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد . وأهل ذمة، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة .

والمحاربون له خائفون منه.

فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام:

مسلم مؤمن به.

ومسالم له آمن .

وخائف محارب .

وأما سيرته في المنافقين ، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمره أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم ، فلن يغفر الله لهم ، فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين .

الأمر بالقتال :

قال تعالى :

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ

(١) البخاري : ٦٤ ـ المغازي (٤٠٢٩) .

ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [١].

نقرأ هذه الآيات التى تعنى كل أهل الكتاب.. سواء منهم من كان فى الجزيرة ومن كان خارجها كذلك [٢].

نقرأ هذه الآيات لنرى الأحكام النهائية التى تتضمنها تحتوى تعديلات أساسية فى القواعد التى كانت تقوم عليها العلاقات من قبل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب ــ وبخاصة النصارى منهم ــ فلقد كانت وقعت المواقع قبل ذلك مع اليهود، ولكن حتى هذا الوقت لم يكن قد وقع منها شىء مع النصارى.

والتعديل البارز فى هذه الأحكام الجديدة هو الأمر بقتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.. فلم تعد تقبل منهم عهود موادعة ومهادنة إلا على هذا الأساس.. أساس إعطاء الجزية.. وفى هذه الحالة تتقرر لهم حقوق الذمى المعاهد، ويقوم السلام بينهم .وبين المسلمين.. فأما إذا هم اقتنعوا بالإسلام عقيدة فاعتنقوه فهم من المسلمين إنهم لا يكرهون على اعتناق الإسلام. فالقاعدة الإسلامية المحكمة ــ كما أسلفنا ــ هى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ ﴾ [٣].

ولكنهم لا يتركون على ذلك إلا إذا أعطوا الجزية، وقام بينهم وبين المجتمع المسلم عهد على هذا الأساس.

وهذا التعديل الأخير فى قواعد التعامل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب لا يفهم على طبيعته إلا بالفقه المستنير لطبيعة العلاقات الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية من ناحية.. ثم لطبيعة المنهج الإسلامى، ومراحله المتعددة، ووسائله المتجددة المتكافئة للواقع البشرى المتغير من الناحية الأخرى.

وطبيعة العلاقة الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية هى عدم إمكان التعايش إلا فى

---

(١) التوبة : ٢٩ ــ ٣٥.

(٢) فى ظلال القرآن : ٣ : ١٦٢٠ وما بعدها بتصرف.

(٣) البقرة : ٢٥٦.

ظل أوضاع خاصة وشروط خاصة، قاعدتها ألا تقوم فى وجه الإعلان العام الذى يتضمنه الدين القيم لتحرير الإنسان بعبادة الله وحده، والخروج من عبادة البشر للبشر، أية عقبات مادية من قوة السلطان، ومن نظام الحكم، ومن أوضاع المجتمع على ظهر الأرض!

ذلك أن منهج الحق يريد أن يحكم، ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ـ كما هو الإعلان العام للإسلام ـ ومناهج الجاهلية تريد ـ دفاعا عن وجودها ـ أن تسحق الحركة المنطلقة بمنهج الحق فى الأرض، وتقضى عليها..

وطبيعة المنهج الإسلامى أن يقابل هذا الواقع البشرى بحركة مكافئة له ومتفوقة عليه، فى مراحل متعددة ذات وسائل متجددة.. والأحكام المرحلية والأحكام النهائية فى العلاقات بين المجتمع المسلم والمجتمعات الجاهلية تمثل هذه الوسائل فى تلك المراحل.

ومن أجل أن يحدد السياق القرآنى طبيعة هذه العلاقات، حدد حقيقة ما عليه أهل الكتاب، ونص على أنه «شرك» و «كفر» و «باطل» وقدم الوقائع التى يقوم عليها هذا الحكم، سواء من واقع معتقدات أهل الكتاب والتوافق والتضاهى بينها وبين معتقدات «الذين كفروا من قبل» أو من سلوكهم وتصرفهم الواقعى كذلك!

والنصوص الحاضرة تقرر:

أولا : أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

ثانياً : أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله.

ثالثاً : أنهم لا يدينون دين الحق.

رابعاً : أن اليهود منهم قالت : عزير ابن الله. وأن النصارى منهم قالت: المسيح ابن الله . وأنهم فى هذين القولين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، سواء من الوثنيين الإغريق، أو الوثنيين الرومان، أو الوثنيين الهنود، أو الوثنيين الفراعنة، أو غيرهم من الذين كفروا.. !

خامساً : أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . كما اتخذوا المسيح ربا. وأنهم بهذا خالفوا عما أمروا به من توحيد الله والدينونه للحق وحده، وأنهم لهذا «مشركون»!

سادساً : أنهم محاربون لدين الله، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، وأنهم لهذا « **كافرون** » !

سابعاً : أن كثيرا من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله!

وعلى أساس هذه الأوصاف وهذا التحديد لحقيقة ما عليه أهل الكتاب، قرر الأحكام النهائية التى تقوم عليها العلاقات بينهم وبين المؤمنين بالدين القيم، القائمين على منهج الحق..

ولقد يبدو أن هذا التقرير لحقيقة ما عليه أهل الكتاب مفاجئ ومغاير للتقريرات السابقة عنهم، كما يحلو للمستشرقين والمبشرين وتلاميذهم أن يقولوا، زاعمين أن خاتم النبيين ﷺ قد غير أقواله وأحكامه عن أهل الكتاب ـ كما سبق أن ذكرنا ـ عندما أحس بالقوة والقدرة على منازلتهم !

ولكن المراجعة الموضوعية للتقريرات القرآنية ـ المكية والمدنية ـ عن أهل الكتاب، تظهر بجلاء أنه لم يتغير شىء فى أصل نظرة الإسلام إلى عقائد أهل الكتاب التى جاء فوجدهم عليها، وانحرافها وبطلانها، وشركهم وكفرهم بالدين القيم ـ حتى بما أنزل عليهم منه وبالنصيب الذى أوتوه من قبل ـ أما التعديلات فهى محصورة فى طريقة التعامل معهم.. وهذه تحكمها الأحوال والأوضاع الواقعية المتجددة.. أما الأصل الذى تقوم عليه ـ وهو حقيقة ما عليه أهل الكتاب ـ فهو ثابت منذ اليوم الأول فى حكم الله عليهم.

صور ومواقف :

ونذكر هنا بعض الأمثلة من التقريرات القرآنية عن أهل الكتاب وحقيقة ما هم عليه.. ثم نستعرض مواقفهم الواقعية من الإسلام وأهله، تلك المواقف التى انتهت إلى هذه الأحكام النهائية فى التعامل معهم:

فى مكة لم تكن توجد جاليات يهودية أو نصرانية ذات عدد أو وزن فى المجتمع .. إنما كان هناك أفراد، يذكر القرآن الكريم عنهم: أن منهم من استقبلوا الرسالة والرسول ﷺ بالفرح والتصديق والقبول، ودخلوا فى الإسلام، وشهدوا له ولرسوله بأنه الحق المصدق لما بين أيديهم.. ولا بد أن يكون هؤلاء ممن كان قد بقى على التوحيد من أهل الكتاب، وممن كان معهم شىء من بقايا الكتب المنزلة.. وفى أمثال هؤلاء وردت مثل هذه الآيات:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾[1].

---

(١) القصص: ٥٢ ، ٥٣ .

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (١).

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (٢).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (٣).

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (٤).

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ (٥).

وقد تكررت هذه الاستجابة من أفراد كذلك فى المدينة ـ كما سبق ـ سجل القرآن الكريم عنهم بعض المواقف فى السور المدنية :

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (٦).

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧).

ولكن موقف هؤلاء الأفراد لم يكن يمثل موقف الغالبية من أهل الكتاب فى الجزيرة ـ ومن اليهود منهم بصفة خاصة ـ فقد جعل هؤلاء يشنون على الإسلام، منذ أن أحسوا

---

(١) الإسراء : ١٠٧ ـ ١٠٩ . (٢) الأحقاف : ١٠ . (٣) العنكبوت : ٤٧ .
(٤) الأنعام : ١١٤ . (٥) الرعد : ٣٦ .
(٦) آل عمران : ١٩٩ . (٧) المائدة : ٨٢ ـ ٨٥ .

خطره عليهم في المدينة، حربا خبيثة، يستخدمون فيها ـ كما سبق ـ كل الوسائل التي سجلها القرآن الكريم عنهم في آيات كثيرة، كما أنهم في الوقت ذاته رفضوا الدخول في الإسلام طبعا، وأنكروا وجحدوا ما في كتبهم من البشارة بالرسول ﷺ، ومن تصديق القرآن لما بين أيديهم من بقايا كتبهم الحقة، مما كان أولئك الأفراد الطيبون يعترفون به ويقررونه ويجاهرون به في وجه المنكرين الجاحدين!

حقيقة ما عليه أهل الكتاب :

كذلك أخذ القرآن الكريم يتنزل بوصف هذا الجحود وتسجيله، وبتقرير ما عليه أهل الكتاب هؤلاء من الانحراف والفساد والبطلان في شتى السور المدنية.. على أن القرآن المكي لم يخل من تقريرات عن حقيقة ما عليه أهل الكتاب. نذكر من ذلك :

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [1].

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [2].

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [3].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [4].

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا

---

(١) الزخرف: ٦٣ ـ ٦٥.
(٢) الشورى: ١٤.
(٣) الأعراف: ١٦١ ـ ١٦٣.
(٤) الأعراف: ١٦٧.

فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١).

أما القرآن المدنى فقد تضمن الكلمة الأخيرة فى حقيقة ما عليه أهل الكتاب، كما سجل عليهم أشنع الوسائل وأبشع الطرق فى حرب هذا الدين وأهله فى آيات كثيرة ـ عرضنا لبعضها من قبل ـ قبل أن يقرر الكلمة النهائية فى أمرهم كله فى تلك الآيات التى معنا...

وهنا نذكر بعض الآيات القرآنية الكثيرة فى هذا الشأن:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٧ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢).

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝٨٧ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٨٩ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٧٠ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤).

---

(١) الأعراف: ١٦٩. (٢) البقرة: ٧٥ ـ ٧٩.

(٣) البقرة: ٨٧ ـ ٩١. (٤) آل عمران: ٧٠ ـ ٧١.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾(٢).

من مراجعة هذه النصوص وأمثالها مما ورد فى كثير من القرآن المكى والمدنى على السواء .. يتبين أن النظرة إلى حقيقة ما عليه أهل الكتاب من الانحراف عن دين الله لم يتغير فيها شىء فى التقريرات الأخيرة الواردة فى الآيات التى معنا .. وأن وصمهم بالانحراف والفسوق والشرك والكفر ليس جديدا، ولا يعبر عن اتجاه جديد فيما يختص بحقيقة الاعتقاد .. وذلك مع ملاحظة أن القرآن الكريم ظل يسجل للفريق المهتدى الصالح من أهل الكتاب هداه وصلاحه ـ كما سبق ـ فقال تعالى منصفا للصالحين منهم :

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾(٣).

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٤).

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾(٥).

المنهج الواقعى لهذا الدين :

أما الذى وقع فيه التعديل فعلا فهو أحكام التعامل مع أهل الكتاب . فترة بعد فترة .

---

(١) آل عمران : ٩٨ ـ ٩٩. (٢) النساء : ٥١ ـ ٥٢ . (٣) الأعراف : ١٥٩ .
(٤) آل عمران : ٧٥ . (٥) آل عمران : ١١٢ ـ ١١٥ .

ومرحلة بعد مرحلة. وواقعة بعد واقعة وفق المنهج الواقعى لهذا الدين فى مواجهة أهل الكتاب وتصرفاتهم ومواقفهم مع المسلمين.

ولقد جاء زمان كان يقال فيه للمسلمين:

﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (1).

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (2).

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (3).

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (4).

ثم أتى بأمره الذى وكل المؤمنين إليه ، فوقعت أحداث ـ كما أسلفنا ـ وتعدلت أحكام، وجرى المنهج الواقعى الإيجابى فى طريقه ، حتى كانت هذه الأحكام النهائية الأخيرة، فى تلك الآيات التى معنا، على النحو الذى رأينا ..

إنه لم يتغير شىء فى نظرة هذا الدين إلى حقيقة ما عليه أهل الكتاب من فساد العقيدة، ومن الشرك بالله والكفر بآياته .. إنما الذى تغير هو قاعدة التعامل ..وهذه إنما تحكمها تلك الأصول التى نحن بصدد الحديث عنها ..

بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم :

والآن نأخذ فى شىء من استعراض طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم، سواء من الناحية الموضوعية الثابتة، أو من ناحية المواقف التاريخية العامة .. فهذه هى

---

(1) العنكبوت : 46 .   (2) البقرة : 136 ـ 137 .

(3) آل عمران : 64 .   (4) البقرة : 109 .

العناصر الرئيسة التى انتهت إليها هذه الأحكام النهائية ..

إن طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم يجب البحث عنها :

أولا : فى تقريرات الحق عنها، باعتبار أن هذه هى الحقيقة النهائية ، التي لا يأيتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وباعتبار أن هذه التقريرات ــ بسبب كونها ربانية ــ لاتتعرض لمثل ماتتعرض له الاستنباطات والاستدلالات البشرية من الأخطاء ..

وثانيا : فى المواقف التاريخية المصدقة لتقريرات الله سبحانه !

وحدة هدف :

إن القرآن الكريم يقرر طبيعة موقف أهل الكتاب من المسلمين فى عدة مواضع ...

وهو تارة يتحدث عنهم وحدهم ..

وتارة يتحدث عنهم مع الذين كفروا من المشركين، باعتبار أن هنالك وحدة هدف ــ تجاه الإسلام والمسلمين ــ تجمع الذين كفروا من أهل الكتاب والذين كفروا من المشركين ..

وتارة يتحدث عن مواقف واقعية لهم تكشف عن وحدة الهدف ووحدة التجمع لمواجهة الإسلام والمسلمين . .

والنصوص التى تقرر هذه الحقائق من الوضوح والجزم بحيث لاتحتاج إلى تعليق .. وهذه نماذج منها :

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[1].

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾[2].

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾[3].

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾[4]

---

(١) البقرة : ١٠٥.
(٢) البقرة : ١٢٠.
(٣) آل عمران : ٦٩.
(٤) آل عمران : ٧٢ ــ ٧٣ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾(1).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ﴾(2).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾(3).

وفى هذه النماذج وحدها مايكفى لتقرير حقيقة موقف أهل الكتاب من المسلمين .. فهم يودون لو يرجع المسلمون كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق !

وهم يحددون موقفهم النهائى من المسلمين بالإصرار على أن يكونوا يهودا أو نصارى، ولا يرضون عنهم ولا يسالمونهم إلا أن يتحقق هذا الهدف !

وهم يشهدون للمشركين الوثنيين بأنهم أهدى سبيلا من المسلمين !

وإذا نحن راجعنا الأهداف النهائية للمشركين تجاه الإسلام والمسلمين، كما يقررها الحق تبارك وتعالى فى قوله:

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾(4).

﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾(5).

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ

﴿ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾(7).

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾

---

(1) آل عمران : ١٠٠ .
(2) النساء : ٤٤ ـ ٤٥ .
(3) النساء : ٥١ .
(4) البقرة : ٢١٧.
(5) النساء : ١٠٢ .
(6) الممتحنة : ٢.
(7) التوبة : ٨ .
(8) التوبة : ١٠ .

إذا نحن راجعنا هذه التقريرات الربانية عن المشركين ، وجدنا أن الأهداف النهائية لهم تجاه الإسلام والمسلمين هى بعينها ـ وتكاد تكون بألفاظها ـ هى الأهداف النهائية لأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين كذلك .. مما يجعل طبيعة موقفهم من الإسلام والمسلمين هى ذاتها طبيعة موقف المشركين !

وإذا نحن لاحظنا أن التقريرات القرآنية الواردة في هؤلاء وهؤلاء ترد فى صيغ نهائية، تدل بصياغتها على تقرير طبيعة دائمة، لاعلى وصف حالة مؤقته، كقوله تعالى فى المشركين :

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾

وقوله تعالى فى شأن أهل الكتاب :

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

إذا نحن لاحظنا ذلك تبين لنا بغير حاجة إلى تأويل النصوص، أنها تقرر طبيعة أصيلة دائمة للعلاقات، ولاتصف حالة مؤقتة ولاعارضة !

واقع تاريخى :

وإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على الواقع التاريخى لهذه العلاقات متمثلة فى مواقف أهل الكتاب من الإسلام وأهله، على مدار التاريخ ، تبين لنا تماما ماذا تعنيه تلك النصوص والتقريرات الإلهية الصادقة ، وتقرر لدينا أنها كانت تقرر طبيعة مطردة ثابتة، ولم تكن تصف حالة مؤقتة عارضة.

إننا إذا استثنينا حالات فردية ـ أو حالات جماعية قليلة ـ من التى تحدث القرآن الكريم عنها، وحواها الواقع التاريخى، بدت فيها المودة للإسلام والمسلمين، وظهر الاقتناع بصدق خاتم النبيين ﷺ وصدق هذا الدين القيم، ثم الدخول فيه، والانضمام لجماعة المسلمين .. وهى الحالات التى أشرنا إليها فيما تقدم .. فإننا لانجد وراء هذه الحالات الفردية أو الجماعية القليلة المحدودة، إلا تاريخا من العداء العنيد، والكيد الناصب، والحرب الدائبة، التى لم تفتر على مدار التاريخ !

فأما اليهود فقد تحدثت سور كثيرة من القرآن الكريم ـ كما أسلفنا ـ عن مواقفهم وأفاعيلهم وكيدهم ومكرهم وحربهم، وقد وعى التاريخ من ذلك كله ما لم ينقطع لحظة

واحدة منذ اليوم الأول الذى واجههم الإسلام فى المدينة حتى اللحظة الحاضرة !

وحسبنا أن نشير إلى معالم تلك الحرب المسعورة التى شنها اليهود على الإسلام وأهله على مدار التاريخ !

لقد استقبل اليهود رسول الله ﷺ فى المدينة شر ما يستقبل أهل دين سماوى رسولا يعرفون صدقه !

استقبلوه بالدسائس والأكاذيب والشبهات والفتن يلقونها فى الصف المسلم فى المدينة بكافة الطرق الملتوية الماكره التي يتقنها اليهود .. شككوا فى رسالة الرسول ﷺ، وهم يعرفون أنه رسول الله، واحتضنوا المنافقين وأمدوهم بالشبهات التي ينشرونها فى الجو بالتهم والأكاذيب .. وما فعلوه فى حادث تحويل القبلة ـ كما سبق ـ وما فعلوه فى حادث الإفك ، وما فعلوه فى كل مناسبة ، ليس إلا نماذج من هذا الكيد اللئيم .. وفى مثل هذه الأفاعيل كان يتنزل القران الكريم .. مما يطول فيه الحديث ويطول ..

كذلك شهد التاريخ ـ كما عرفنا ـ نقض اليهود لعهودهم مرة بعد مرة، وتحرشهم بالمسلمين، مما أدى إلى وقائع بنى قينقاع وبني النضير ـ كما سبق ـ وبنى قريظة وخيبر كما سيأتى ..

ثم تابع اليهود كيدهم للإسلام وأهله منذ ذلك التاريخ .. كانوا عناصر أساسية فى إثارة الفتنة الكبرى التى انتثر بعدها شمل التجمع الإسلامى إلى حد كبير ..

وكانوا رأس الفتنة فيما وقع بعد ذلك .. وقادوا حملة الوضع فى الحديث والسيرة وروايات التفسير.. وكانوا من الممهدين لحملة التتار على بغداد، وتقويض الخلافة الإسلامية!

فأما فى العصر الحديث فهم وراء كل كارثة حلت بالمسلمين فى كل مكان على وجه الأرض، وهم وراء كل محاولة لسحق طلائع البعث الإسلامى، وهم حماة كل وضع من الأوضاع التى تتولى هذه المحاولة فى كل أرجاء العالم الإسلامى !

ذلك شأن اليهود، فأما شأن الفريق الآخر من أهل الكتاب ، فهو لايقل إصراراً على العداوة والحرب من شأن اليهود!

لقد كانت بين الرومان والفرس عداوات عمرها قرون .. ولكن ما إن ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية، وأحس هؤلاء بخطورة هذا الدين الحق على ماصنعوه هم بأيديهم، وهو ركام من الوثنيات القديمة والأضاليل الحديثة، متلبسا ببقايا قليلة من الكتاب المقدس .. حتى رأينا الرومان والفرس ينسون مابينهم من نزاعات تاريخية قديمة، وعداوات وثارات عميقة. ليواجهوا معا هذا الدين !

ولقد أخذ الروم يتجمعون فى الشمال هم وعمالهم من الغساسنة، لينقضوا على الرسالة والرسول .. حتى كانت المواجهة معهم فى معارك ضارية، سنتحدث عنها إن شاء الله فى دراسات موضوعية تحت عنوان « الرسول ﷺ والنصارى وجها لوجه » .

ثم اشتعل مرجل الحقد عندهم منذ موقعة اليرموك الظافرة، التي أعقبها انطلاق الإسلام لتحرير المستعمرات الإمبراطورية الرومانية فى الشام ومصر وشمال إفريقيا وجزر البحر المتوسط .. ثم بناء القاعدة الإسلامية الوطيدة فى الأندلس فى النهاية ..

إن الحروب الصليبية المعروفة بهذا الاسم فى التاريخ ، لم تكن هى وحدها التى شنها هؤلاء على الإسلام .. لقد كانت هذه الحروب مبكرة قبل هذا الموعد بكثير .. لقد بدأت فى الحقيقة منذ ذلك التاريخ البعيد .. منذ أن نسى الرومان عداوتهم مع الفرس، وأخذوا يعينونهم ضد الرسالة والرسول .. ثم تجلت ضراوتها ووحشيتها في الأندلس، عندما زحفوا على القاعدة الإسلامية فى أوربا، وارتكبوا من الوحشية فى تعذيب ملايين المسلمين وقتلهم هناك ما لم يعرف التاريخ له نظير من قبل .. وكذلك تجلت فى الشرق بمثل هذه البشاعة التى لاتتحرج ولاتندم، ولاتراعى فى المسلمين إلاًّ ولاذمة !

من أقوالهم :

يقول « جوستاف لوبون » وهو فرنسى مسيحى :

« كان أول ما بدأ به « ريكاردوس » الإنجليزى، أنه قتل أمام معسكر المسلمين، ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه، بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم. ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب ، مما أثار صلاح الدين الأيوبى النبيل، الذى رحم نصارى القدس ، فلم يمسهم بأذى، والذى أمد « فيليب » « وقلب الأسد » بالمرطبات والأدوية والأزواد، أثناء مرضهما »[1] .

---

(١) فى ظلال القرآن : ٣: ١٦٢٩ نقلا عن : « الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام » للأستاذ على على منصور.

كذلك كتب مسيحى آخر اسمه « يورجا » يقول :[1] .

« ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء فى القصور التى استولوا عليها. وقد أسرفوا فى القسوة، فكانوا يبقرون البطون، ويبحثون عن الدنانير فى الأمعاء! أما صلاح الدين، فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين ، ووفى لهم بجميع عهوده، وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم، حتى إن الملك العادل، شقيق السلطان، أطلق ألف رقيق من الأسرى، ومنّ على جميع الأرمن، وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة، وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهن » .

ولايتسع المجال لاستعراض ذلك الخط الطويل في تلك الحروب على مدار التاريخ .. وحسبنا أن هذه الحرب لم تضع أوزارها حتى اليوم .. ويكفى لتصوير نظرتهم إلى الإسلام أن ننقل فقرة من كتاب لمؤلف أوربى صدر سنة ١٩٤٤م يقول فيه:

« لقد كنا نُخَوَّف بشعوبٍ مختلفة . ولكننا بعد اختبار، لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف.. لقد كنا نخوّف من قبل بالخطر اليهودى ، والخطر الأصفر وبالخطر البلشفى .. إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه . إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد ! ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا. أما الشعوب الصفراء فهنالك دول ديمقراطية كبرى تقاومها. ولكن الخطر الحقيقى كان فى نظام الإسلام، وفى قوته على التوسع والإخضاع، وفى حيويته .. إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوربى »[2] .

ولا نستطيع أن نمضى أبعد من ذلك فى استعراض تاريخ تلك الحرب العاتية التى أعلنها هؤلاء على الإسلام وما تزال .. !

وهكذا نرى أن هذه الأحكام الأخيرة التى نحن بصدد الحديث عنها هى المقتضى الطبيعى لهذه الحقائق كلها مجتمعة، وأنها ليست أحكاما محددة بزمان، ولامقيدة بحالة.. مع مراعاة طبيعة المنهج الإسلامى، التى تواجه الواقع البشرى مواجهة واقعية، بوسائل متجددة، فى المراحل المتعددة.

---

(١) المرجع السابق : نفس الموضع .

(٢) المرجع السابق ١٦٣٠ عن كتاب « جورج براون » نقلا عن : التبشير والاستعمار فى البلاد العربية .

الجزية على ضآلتها فرصة اجتماعية للموادعة والتأمل :

إن الإسلام إيمان وأمان، وعدل ورحمة، وإخاء ومحبة، فمن قبله ودان به فهو أخ لكل مسلم ، له من الحقوق ما لكل مسلم[١] ، وعليه من الواجبات ما على كل مسلم ، فى دائرة طاقته واستعداده الروحى والمادى، ولاتكلف نفس إلا وسعها .

فإن لم يقبل هؤلاء الدخول فى الدين القيم فقد جاءت المرحلة الثانية بعد البيان الواضح والحجة النيِّرة، وهى الإلزام بخرج من المال لا يؤود من يلزم به من القادرين عليه ، وهو لا يضرب إلا على القادر عليه، وهذا الخرج سماه القرآن الكريم « جزية » .

ولفظها يحمل ما فى طياتها أنها جزاء فى مقابل الدفاع عن دافعيها وحمايتهم ممن يدهمهم بالاعتداء عليهم، وهى فى التقدير الاجتماعى فرصة موادعة للنظر فى حقيقة ماعرض على المدعوين، وطولبوا بالاستجابة له من أصول الإسلام وأحكام وآدابه، وهم على أكمل درجات الحرية الفكرية والاجتماعية ..

وتاريخ الدعوة إلى الله حافل بالذين نظروا فوفقوا واهتدوا، وسارعوا مستجيبين لدعوة الحق، ودخلوا فى ساحة المؤاخاة التكافلية، وفى قلوبهم إيمانهم، ليكونوا مع سائر المسلمين إخوة متكافلين، فكانوا من أقوى المؤمنين إيمانا، وأزكاهم جهادا فى سبيل الله، وذابت الجزية فى موجبات التكافل الأخوى، وكثر الداخلون إلى ساحة الإسلام، حتى تخوف بعض الولاة فى خلافة عمر بن عبد العزيز على بيت المال أن تصغر أركانه، وتخوى جوانبه من المال، فشكوا إلى الخليفة كثرة الداخلين فى الإسلام وخواء بيت المال، فقال لهم رضى الله عنه كلمته المعبرة عن هدف الإسلام فى شرعية الجهاد : إن الله تعالى بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يبعثه جابيا [٢] .

عروة فى عهد بالحماية:

وهذه الجزية مشروطة بتعهد من قبل قادة الجهاد أن يلتزموا بحماية أهل عهدهم الذين يؤدون الجزية[٣]، مادام أولئك القادة قادرين على هذه الحماية، فإن عجزوا عنها وجب عليهم أن يعلنوا ذلك لأهل عهدهم، وأن يردوا عليهم ما أخذوه عنهم من الجزية .

وقد جاء هذا صريحا فى عهد صلح أبى عبيدة بن الجراح القائد العام فى فتوح الشام

---

(١) محمد رسول الله : ٣: ٢٣١ بتصرف .　　(٢) البداية والنهاية : ٩: ١٨٨ .

(٣) محمد رسول الله : ٣ : ٢٣٨ وما بعدها بتصرف .

بعد خالد بن الوليد، فقد قال أبو يوسف :

إنما كان الصلح جرى بين المسلمين وأهل الذمة فى أداء الجزية، وفتحت المدن، على ألا تهدم بيعهم ولا كنائسهم ، داخل المدينة ولاخارجها، وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم، وعلى أن يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم، ويذبُّوا عنهم .

ثم قال: فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم، وحسن سيرهم فيهم، صاروا أشد على عدو المسلمين، وعونا للمسلمين على أعدائهم، فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالا من قبلهم يتجسسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم، ومايريدون أن يصنعوا ، فأتى أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بأن الروم قد أجمعوا جموعا . لم ير مثلها، فأتى رؤساء أهل كل مدينة إلى الأمير الذى خلفه أبو عبيدة عليهم، فأخبروه بذلك، فكتب والى كل مدينة ممن خلفه أبو عبيدة، إلى أبى عبيدة، يخبره بذلك، وتتابعت الأخبار على أبى عبيدة، فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين ، فكتب أبو عبيدة إلى كل وال ممن خلفه فى المدن التى صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ماجبى منهم من الجزية والخراج، وكتب لهم أن يقولوا لهم : إنا رددنا عليكم أموالكم ، لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لانقدر على ذلك. وقد رددنا عليكم ما أخذناه منكم، ونحن لكم على الشرط، وماكتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم .

وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يخبره بذلك، فكتب إليه عمر يقره على صنيعه مع المصالحين، ،ويقول له فى كتابه: وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم، وأكل أموالهم إلا بحقها، ووف لهم بشرطهم الذي شرط لهم فى جميع ما أعطيتهم .

وفى كتاب خالد بن الوليد فى مصالحته لأهل الحيرة الذى بعث به إلى أبى بكر الصديق يخبره فيه بما تم بينه وبينهم يقول :

إنى نظرت فى عدتهم فوجدتهم سبعة آلاف رجل، ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل، فأخرجتهم من العدة، وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والإنجيل أن لايخالفوا ولايعينوا كافرا على مسلم من العرب ولا من العجم، ولايدلوهم على عورات المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه الذى أخذ أشد ما أخذ على نبى من عهد أو ميثاق أو ذمة، فإن خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان، وإن هم

---

(١) محمد رسول الله : ٣: ٢٣٨ ومابعدها بتصرف .

حفظوا ذلك ورعوه، وأدوه إلى المسلمين، فلهم ماللمعاهد، وعلينا المنع لهم ، فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم، لهم بذلك عهد الله الذى أخذ أشد ما أخذ على نبى من عهد أو ميثاق، وعليهم مثل ذلك .

وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله .

هذه هى قصة الجزية فى الفتوحات الإسلامية، والإسلام فى أوج عظمته، وقوة اندفاعه فى الدعوة إلى الله، وهذه موادعتها وفرصتها للنظر المتأمل، وهذه صور ونماذج من معاملة المسلمين وقادتهم لمن عوهدوا منهم عليها.

أين الإكراه والقهر فى نظام الجزية ؟:

ونتساءل : أين السيف ؟ وأين القهر ؟ وأين الإكراه على الدخول فى الإسلام؟ لاشىء من ذلك قد كان قط، ولكن الذى كان إنما هو دعوة إلى الحق، وصفاء التوحيد، وإخلاص العبودية لله تعالى فى ظل من الحرية الطليقة من كل قيد، وفى ظل من حفاوة العدل والرحمة، وتحمل أعباء الحماية، والدفاع عن المعاهدين المصالحين، ممن يناوئهم ويعتدى عليهم .

فإن ركب المدعوون إلى الحق والهدى متن الشيطان بعد هذه الحفاوة الرحيمة، ولجوّا فى العناد والاستكبار، وفجور الكفر والإلحاد، لم يبق أمام المجاهدين فى سبيل الله ونشر النور والخير إلا القتال الذى يفلّ شوكة العتوّ العنيد، ويطهر الحياة من أوضار الشرك والوثنية الملحدة، وهما مصدر كل شر، ومنبع كل فساد فى الأرض، حتى يحكم الله بين كتائب المجاهدين وبين أعدائهم بإعلان كلمة الحق ونشر العدل، وإنقاذ المستضعفين فى الأرض من ظلم الطغاة والمتجبرين، والموت فى سبيل إحقاق الحق، وإقامة معالم التوحيد، وهدم الوثنيات المادية الطاغية، أحب إلى كتائب المجاهدين من حب أعدائهم أحلاس الشرك للحياة .

روى الطبرى أن خالد بن الوليد لما نزل الحيرة خرج إليه أشرافها مع أميرهم قبيصة بن إياس الطائى، فقال لهم خالد :

أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، فإن أجبتم فأنتم من المسلمين، لكم ما لهم وعليكم ماعليهم، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على

الحياة، وجاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم .

ما أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ :

هذا، وقد فاخرت الولايات المتحدة الأمريكية غيرها من الأمم فى القرن التاسع عشر بالكاتب « إيرفنج » الذى كتب سيرة النبى ﷺ بمفهومه هو، ووضع للكتاب خاتمة عرض فيها لقواعد الإسلام، وماحسبه المصادر التاريخية التى استندت إليها هذه القواعد.. وفيه هذه العبارة التى هى فى الحقيقة عار الغرب ووصمته، وجرثومة القضاء على كبريائه وعلى حضارته، يقول « إيرفنج » [1] .

إن بقاء الهلال حتى اليوم فى أوربا، حيث كان يوما ما بالغا غاية القوة، إنما يرجع إلى اختيار الدول المسيحية الكبرى، أو يرجع بالأحرى إلى تنافسها، ولعل الهلال باق ليكون دليلا جديدا على أن : « من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ » !

هذه آية الإنجيل يوجهها « إيرفنج » باسم المسيحية إلى الإسلام . ياعجبا ! لعل له من العذر أنه قالها منذ قرن مضى، حيث لم يكن الاستعمار الغربى فى تعبيرنا المسيحى فى تعبيره، قد بلغ من الشره والجشع ومن الأخذ بالسيف مابلغ اليوم !

لكن الماريشال « اللنبى » الذى استولى على بيت المقدس فى سنة ١٩١٨م باسم الحلفاء ، قد قال مثل هذه العبارة : إذ نادى فى ساحة المسجد الأقصى :

« اليوم انتهت الحروب الصليبية » !

وقد قال الدكتور « بيتر سن سميث » في كتابه عن سيرة « المسيح » :

« إن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حربا صليبية ثامنة، أدركت المسيحية فيها غايتها » .

ولقد يكون من الحق أن هذا الاستيلاء لم ينجح بمجهود المسيحيين، وإنما نجح بمجهود اليهود الذين سخروهم ليحققوا حلم بنى إسرائيل القديم، فيجعلوا أرض الميعاد وطنا قوميا لليهود !

ولئن صدقت كلمة الإنجيل هذه على قوم لهى أشد ماتكون صدقا اليوم على أوربا المسيحية ! أما الإسلام فلم يأخذ بالسيف ، ولن يؤخذ لذلك بالسيف، وأوربا قد أخذت

---

(١) حياة محمد : ٥٤٨ ، ٥٧٧ بتصرف

بالسيف ، حتى فى عصرنا هذا، إمعانا فى الإباحية والترف ، ممايتسبه « إيرفنج » باطلا للإسلام والمسلمين .

وسيلة عملية :

إن أهل الكتاب بصفاتهم تلك حرب على الدين القيم اعتقادا وسلوكا (١) كما أنهم حرب على المجتمع المسلم، بحكم طبيعة التعارض والتصادم الذاتيين بين منهج هذا الدين القيم ومنهج الجاهلية الممثلة فى عقيدة أهل الكتاب وواقعهم ـ وفق ما تصوره هذه الآيات التى معنا ـ كما أن الواقع التاريخي قد أثبت حقيقة التعارض وطبيعة التصادم ، وعدم إمكان التعايش بين المنهجين، وذلك بوقوف أهل الكتاب فى وجه دين الله فعلا، وإعلان الحرب عليه وعلى أهله بلا هوادة، خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآية:

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾

وخلال الفترة اللاحقة لها إلى اليوم أيضا !

والإسلام ـ بوصفه دين الحق الوحيد القائم فى الأرض ـ لابد أن ينطلق لإزالة العوائق المادية من وجهه، ولتحرير الإنسان من الدينونة بغير دين الحق، على أن يدع لكل فرد حرية الاختيار ـ كما أسلفنا ـ بلا إكراه منه ولا من تلك العوائق المادية كذلك .

وإذن فإن الوسيلة العملية لضمان إزالة العوائق المادية، وعدم الإكراه على اعتناق الإسلام فى الوقت نفسه، هى كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحق، حتى تستسلم، وتعلن استسلامها بقبول إعطاء الجزية فعلا .

وعندئذ تتم عملية التحرير فعلا، بضمان الحرية لكل فرد من هؤلاء أن يختار دين الحق عن اقتناع .. فإن لم يقتنع بقى على عقيدته، وأعطى الجزية، لتحقيق عدة أهداف :

أولها : أن يعلن بإعطائها استسلامه، وعدم مقاومته بالقوة المادية للدعوة إلى دين الحق .

---

(١) فى ظلال القرآن : ٣ : ٦٣٣ ومابعدا بتصرف .

وثانيها : أن يساهم ـ كما أسلفنا ـ في نفقات الدفاع عن نفسه وماله وعرضه، وحرماته التى يكفلها الإسلام لأهل الذمة ـ الذين يؤدون الجزية فيصبحون فى ذمة المسلمين وضمانتهم ـ ويدفع عنها من يريد الاعتداء عليها من الداخل أو من الخارج بالمجاهدين من المسلمين.

وثالثها : المساهمة في بيت مال المسلمين الذى يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل ، بما فى ذلك أهل الذمة، بلا تفرقة بينهم وبين المسلمين دافعى الزكاة .

ضلال عقيدة أهل الكتاب :

ولما أمر الله المسلمين بقتال أهل الكتاب « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » كانت هنالك ملابسات في واقع المجتمع المسلم فى المدينة .. تدعو إلى توكيد هذا الأمر وتقويته، وجلاء الأسباب والعوامل التى تحتمه، وإزالة الشبهات والمعوقات التى تحيك فى بعض النفوس تجاهه . وبخاصة أن طاعة هذا الأمر كانت تقتضى مواجهة الروم فى أطراف الشام، والروم كانوا مرهوبين من العرب قبل الإسلام، وكانوا مسيطرين على شمال الجزيرة لفترة طويلة، ولهم أعوان من القبائل العربية، وسلطنة خاصة لنفوذهم هى سلطنة الغساسنة..

وهنا كان بيان ضلال عقيدة أهل الكتاب هؤلاء وأنها تضاهىء عقيدة المشركين من العرب، والوثنيين من قدامى الرومان وغيرهم.. وأنهم لم يستقيموا على العقيدة الصحيحة التى جاءتهم بها كتبهم فى مبدأ نزولها، فلا عبرة إذن بأنهم أهل كتاب ، وهم يخالفون فى الاعتقاد الأصل الذى تقوم عليه العقيدة الصحيحة :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

والذى يلفت النظر هو ذكر اليهود هنا وقولهم : « عزير ابن الله » فى حين أن الآيات كانت بصدد التوجيه والتحضير لمواجهة الروم وحلفائهم من نصارى العرب .. وذلك يرجع إلى أمرين :

الأول : أنه لما كان نص الآيات عاما ، والأمر بقتال أهل الكتاب حتي يعطوا الجزية

عن يد وهم صاغرون عاما، فقد اقتضى السياق بيان الأصل الاعتقادى الذى يستند إليه هذا الأمر العام فى شأن أهل الكتاب عامة من اليهود والنصارى سواء.

الثانى : أن اليهود كانوا قد رحلوا من المدينة إلى أطراف الشام ، بعد ما اشتبكوا مع الإسلام والمسلمين فى حرب مريرة منذ مقدم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ إلى المدينة .. انتهت بإجلاء بنى قينقاع وبنى النضير ـ كما أسلفنا ـ إلى أطراف الشام . هم وأفراد من بنى قريظة .. فكان اليهود يومئذ فى طريق الانطلاق الإسلامى إلى أطراف الشام .. مما اقتضى أن يشملهم ذلك الأمر، وأن يشملهم هذا البيان ..

والتعقيب القرآنى علي قول اليهود « عزير ابن الله » وقول النصارى «المسيح ابن الله» يثبت أنهم فى هذا يماثلون قول الذين كفروا من قبل ومعتقداتهم وتصوراتهم :

﴿ ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾.

فهو أولا يثبت أن هذا القول صادر منهم، وليس مقولا عنهم. ومن ثم يذكر «أفواههم» لاستحضار الصورة الحسية الواقعية ـ على طريقة القرآن فى التصوير ـ إذ إنه مفهوم أن قولهم يكون بأفواههم فهذه الزيادة ليست لغوا ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ وليست إطنابا زائدا، إنما هى طريقة التعبير القرآنية التصويرية، فهى التى تستحضر « صورة » القول،وتحيلها واقعية، كأنها مسموعة مرئية ! وذلك فضلا على ماتؤديه من معنى بيانى آخر ـ إلى جانب استحياء الصورة وإثباتها ـ وهو أن هذا القول لاحقيقية له فى عالم الواقع، إنما هو مجرد قول بالأفواه، ليس وراءه موضوع ولا حقيقة !

جاء فى المنار [١] : « ذلك قولهم بأفواههم » أى ذلك القول الذى قالوه فى عزير والمسيح، هو قولهم الذى تلوكه ألسنتهم فى أفواههم، ما أنزل الله به من سلطان ، ولا يتجاوز حركة اللسان، إذ ليس له مدلول فى الوجود، ولا حقيقة فى مدارك العقول، فهو كقوله تعالى :

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً

---

(١) تفسير المنار : ١٠ : ٣٣٩ .

تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[1] .

وفي معناه قوله في التبني :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾[2] .

وقوله فى أهل الإفك :

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾[3] .

فذكر الأفواه، وكذا الألسنة مع العلم بها بالحس، لبيان ما ذكر، أى أنه قول لا يعدوها ولا يتجاوزها إلى شىء فى الوجود، فهو كما يقول العوام «كلام فارغ »!

وقوله تعالى « يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » أى يشابهون ويحاكون فيه قول الذين كفروا من قبلهم ــ كما أسلفنا ــ وقد علمنا من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب أن عقيدة الابن لله والحلول والتثليث كانت معروفة عند البراهمة فى الهند، والبوذيين فيها، وفى الصين واليابان، وقدماء الفرس، والمصريين، واليونان، والرومان .. وهذا البيان لهذه الحقيقة من معجزات القرآن الكريم، فإنه لم يكن يعرفها أحد من العرب، ولا ممن حولهم، بل لم تظهر إلا فى هذا الزمان .. ولم يتضح هذا المدى البعيد إلا حديثا بعد دراسة عقائد الوثنيين فى تلك البلاد التى أشرنا إليها . مما اتضح معه أصل العقائد المحرفة عند أهل الكتاب ..

« **قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟** » نعم .. قاتلهم الله ! وهذه الجملة تستعمل فى اللسان العربى للتعجب، فهو المراد بها لإظهار معناها.

قال ابن عباس : [4] لعنهم الله . « **أنى يؤفكون ؟** » أى كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل ؟

وهذا ــ كما يقول ابن كثير ــ إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه الشنيعة، والفرية على الله تعالى!

وينتقل السياق القرآنى إلى صفحة أخرى من صحائف الانحراف الذى عليه أهل الكتاب، تتمثل فى هذه المرة، لا فى القول والاعتقاد وحدهما، ولكن كذلك فى الواقع

---

(١) الكهف : ٤ ــ ٥ . (٢) الأحزاب : ٤ .

(٣) النور: ١٥ . (٤) تفسير ابن كثير : ٢: ٣٤٨ .

القائم على الاعتقاد الفاسد :

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

وفي هذه الآية ـ كما يقول القاسمي [١] ـ زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى، وفيه وصفهم بنوع آخر من الشرك .

والآية واضحة الدلالة لا تحتاج إلى تعليق أكثر .. وقد مضى من القول مايجعلنا في غير حاجة إلى مزيد بيان ..

ثم ينتقل السياق القرآني بعد ذلك خطوة أخرى في تحريض المؤمنين على القتال :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

إن أهل الكتاب هؤلاء لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق [٢] ، وعبادة أرباب من دون الله، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر ـ وفق المفهوم الصحيح للإيمان بالله واليوم الآخر ـ إنما هم كذلك يعلنون الحرب على دين الحق، ويريدون إطفاء نور الله في الأرض، المتمثل في هذا الدين، وفي الدعوة التي تنطلق به في الأرض، وفي المنهج الذي يصوغ على وفقه حياة البشر :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾

فهم محاربون لنور الله... سواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن، أو بما يحرضون به أتباعهم وأشياعهم على حرب هذا الدين وأهله، والوقوف سدا في وجهه كما كان هو الواقع الذي تواجهه هذه النصوص، وكما هو الواقع على مدار التاريخ ..

وهذا التقرير ـ وإن كان يراد به استجاشة قلوب المسلمين إذ ذاك ـ هو كذلك يصور طبيعة الموقف الدائم لأهل الكتاب من نور الله، والمتمثل في دينه الحق، الذي يهدي الناس بنور الله :

﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

وهو الوعد الحق من الله، الدال على سنته التي لا تتبدل ، في إتمام نوره بإظهار دينه،

---

(١) تفسير القاسمي : ٨ : ٣١٢٤ .

(٢) في ظلال القرآن : ٣: ١٦٤٣ بتصرف .

ولو كره الكافرون..

وهو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا ، فيدفعهم هذا إلى المضى فى الطريق على المشقة واللأواء فى هذا الطريق، وعلى الكيد والحرب من الكافرين ـ والمراد بهم هنا هم أهل الكتاب السابق ذكرهم ـ كما أنه يتضمن فى ثناياه الوعيد لهؤلاء الكافرين من أهل الكتاب وأمثالهم على مدار الزمان!

المستقبل للإسلام :

ويزيد السياق القرآنى هذا الوعيد وذلك الوعد توكيدا :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾

وفى هذا النص يتبين أن المراد بدين الحق الذى سبق فى قوله تعالى :

﴿ قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾

هو هذا الدين الحق . هو هذا الدين القيم . هو هذا الإسلام . وأن الذين لا يدينون بهذا الدين هم الذين يشملهم الأمر بالقتال ..

وهذا توكيد لوعد الله الأول : **﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون﴾** ولكن فى صورة أكثر تحديدا. فنور الله الذى قرر سبحانه أن يتمه، هو دين الحق الذى أرسل به رسوله ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون .

روى مسلم وغيره عن ثوبان، قال : قال رسول الله ﷺ :

« **إن الله زوى لى الأرض . فرأيت مشارقها ومغاربها . وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها ..** » الحديث [1] .

وروى أحمد وغيره بسند صحيح عن أبى قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص، وسئل : أى المدينتين تفتح أولا : القسطنطينية أو رومية ؟

---

(١) مسلم : ٥٢ . الفتن ١٩ (٢٨٨٩) وأحمد : ٥ : ٢٧٨ ، ٢٨٤ . وأبو داود و (٤٢٥٢) والترمذى (٢١٧٦) ، وابن ماجه (٣٩٥٢) .

فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتابا قال: فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذا سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولا : أقسطنطينية أو رومية ! فقال رسول الله ﷺ :

« مدينة هرقل تفتح أولا » .

يعنى قسطنطينية [1] .

ورومية : هى روما كما فى معجم البلدان ، وهى عاصمة إيطاليا اليوم .

وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثمانى، كما هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبى ﷺ بالفتح، وسيتحقق الفتح الثانى بإذن الله تعالى ولابد، كما أخبر الرسول ﷺ ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

وهذا الفتح الثاني يستدعى أن تعود الخلافة الراشدة إلى هذه الأمة التي تدين بهذا الدين القيم .. كما يبشرنا به الرسول ﷺ فيما رواه أحمد وغيره بسند حسن عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ :

« تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ماشاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ماشاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جيرية، فتكون ما شاء اللّه أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة » .

ثم سكت [2].

ولقد تحقق هذا بظهور هذا الدين الذى أرسل به خاتم رسله على الدين كله بهذا

---

(١) أحمد : ٢: ١٧٦ والدارمى : ١: ١٢٦ والحاكم : ٤: ٥٠٨ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وهو كما قالا .

(٢) أحمد : ٤: ٢٧٣ ثنا سليمان بن داود الطيالسى، ثنا دا ود بن إبراهيم الواسطى، حدثنى حبيب بن سالم، عن النعمان بن بشير قال: كنا قعود فى المسجد مع رسول الله ﷺ وكان بشير رجلا يكف حديثه، فجاء أبو ثعلبة الخشنى فقال : يابشير بن سعد : أتحفظ حديث رسول الله ﷺ فى الأمر ؟ فقال حذيفة : أنا أحفظ خطبته، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة : فذكره مرفوعا .. قال حبيب : فلما قام عمر بن عبد العزيز ، وكان يزيد بن النعمان بن بشير فى صحابته، فكتب إليه بهذا الحديث، أذكره إياه، فقلت له : إنى أرجو أن يكون أمير المؤمنين ، يعنى عمر ابن عبد العزيز بعد ذلك الملك العاض والجبرية، فأدخل كتابى على عمر بن العزيز فسربه وأعجبه، والطيالسى (٢٥٩٣) والهيثمى فى المجمع : ٥: ١٨٩ والبيهقى فى دلائل النبوة: مشكاة المصابيح (٥٣٧٨) .

المدلول الشامل العام !

تحقق فى حياة رسول الله ﷺ ، وخلفائه ومن جاء بعدهم فترة طويلة من الزمان .. وكان دين الحق أظهر وأغلب، وكان ماعداه يخاف ويرتجف ! ثم تخلى أصحاب دين الحق عنه، خطوة فخطوة بفعل عوامل داخلة فى تركيب المجتمعات الإسلامية من ناحية، وبفعل الحرب الطويلة المدى، المنوعة الأساليب، التى أعلنها عليه أعداؤه من الوثنيين وأهل الكتاب سواء ، من ناحية أخرى !

ولكن هذه ليست نهاية المطاف ـ كما سبق ـ فإن وعد الله قائم ، ينتظر العصبة المسلمة، التى تحمل الراية وتمضى، مبتدئة من نقطة البدء، التى بدأت منها خطوات رسول الله ﷺ ، وهو يحمل دين الحق، ويتحرك بنور الله ..

هؤلاء هم أهل الكتاب :

ثم يخطو السياق القرآنى الخطوة الأخيرة .. مصورا كيف أن أهل الكتاب لا يحرمون ماحرم الله ورسوله، بعدما أشار إلى هذه الحقيقة في قوله:

والمعنى كما يقول ابن كثير : أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، وقال السدى : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم [1]، ولهذا قال تعالى :

أى الذى إذا حرم الشىء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ ..

يخطو السياق القرآنى مخاطبا بهذه الحقيقة الذين آمنوا، كاشفا لهم فى هذا الخطاب عن حقيقة أهل الكتاب :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ

(١) تفسير ابن كثير : ٢: ٣٤٩ .

جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

إن هؤلاء الذين اتخذهم أهل الكتاب أربابا من دون الله، فاتبعوهم فيما يشرعون لهم من المعاملات ومن العبادات سواء .. يجعلون من أنفسهم ويجعلهم قومهم أربابا تتبع وتطاع ، وهم فيما يشرعون يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ..

وأكل أموال الناس بالباطل يتمثل فى صور شتى وما يزال :

منها ما يأخذونه على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال ، لصالح من يملكون المال أو السلطان !

ومنها ما يأخذه هؤلاء مقابل الاعتراف بالخطايا والغفران ! ومنها الربا ـ وهو من أوسع أبوابها وأبشعها ـ وغيرها كثير !

كذلك ما يجمعونه من أموال الناس لمحاربة دين الحق، وقد كان هؤلاء يجمعون مئات الملايين فى الحروب الصليبية، ومايزالون يجمعونها للتبشير والاستشراق، للصد عن سبيل الله !

ثم ها هى ذى نار جهنم حميت واحمرت تنتظر هؤلاء . وها هى ذى معدة مهيأة .. فليبدأ العذاب الأليم .. ها هى ذى الجباه تكوى .. لقدا انتهت عملية الكى فى الجباه، فليداروا على الجنوب .. ها هى ذى الجنوب تكوى .. لقد انتهت هذه فليداروا على الظهور.. ها هى ذى الظهور تكوى .. لقد انتهى هذا اللون من العذاب، فليتبعه الترذيل والتأنيب :

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

هذا هو بذاته الذى كنزتموه للذة، فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب !

ذوقوه بذاته، فهو هو الذى تذوقون منه مسه للجنوب والظهور والجباه !

ألا إنه لمشهد مفزع مروع، يعرض فى تفصيل وتطويل وأناة !

وهو يعرض أولا لتصوير مصائر الكثير من الأحبار والرهبان .. ثم لتصوير مصائر الكانزين للذهب والفضة لا ينفقونها فى سبيل الله ..

إن تعرية أهل الكتاب من شبهة أنهم على شيء من دين الله، ألزم وأشد ضرورة من بيان حال غيرهم الصريحين في شركهم الشاهدين على أنفسهم بالكفر بظاهر عقائدهم وشعائرهم ذلك أن نفوس المسلمين لاتنطلق الانطلاق الكامل لمواجهة الجاهلية إلاحين يتجلى لها تماما وجه الجاهلية ! ووجه الجاهلية مكشوف صريح فيما يختص بالمشركين، وليس الحال كذلك فيما يختص بأهل الكتاب! ومن ثم كانت تعرية أهل الكتاب بهذه الصورة ، وذلك هو فصل الخطاب في هذا الموضوع !

رجاء أن يكون في ذلك ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين.

قال ابن كثير :[1] والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى .

يروى الشيخان عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال :

« لتتبعن سنن من كان قبلكم . شبرا بشبر ، وذراعا بذراع. حتى لو دخلوا جُحْر ضبّ تبعتموهم ».

قلنا : يارسول الله ! آليهود والنصارى ؟ قال :

« **فمن ؟** »[2] .

* * *

(١) تفسير ابن كثير : ٢: ٣٥٠

(٢) البخاري : ٩٦ ـ الاعتصام (٧٣٢٠) ومسلم : ٤٧ ـ العلم ٦ (٢٦٦٩) .

الفصل الثالث

في سبيل الله

الوصية النبوية ـ هداية إنسان واحد خير من أعز معاز الدنيا ـ هداية الإنسانية ـ ضرورة المواجهة ـ شباب مخدوع ـ ضائع مضيّع ـ أخطر المخاطر ـ التسامح الذليل ـ والخوف من تيقظ المجتمع المسلم ـ رأى يدفع تهمة زائفة ـ علوم الإسلام ولغته ـ « الدين النصيحة » ـ علاج ضرورى ـ وسيلة لا غاية ـ تحرير الإنسانية ـ إعلاء كلمة الله ـ وجوب إعداد القوة ـ دستور الإعداد للقتال ـ سمات أصيلة ـ الحرب المقدسة ـ قذائف الحق .

الوصية النبوية :

يروى مسلم وغيره عن سليمان بن بريدة، عن أبيه. قال : كان رسول الله ﷺ، إذا أمَّر أميرا على جيش أو سرية، أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا . ثم قال :

« اغزوا باسم الله . في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تَغُلُّوا. ولا تغدِروا ولا تُمثِّلوا ولا تقتلوا وليدا . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام . فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين . وأخبرهم أنهم ، إن فعلوا ذلك ، فلهم ماللمهاجرين وعليهم ماعلى المهاجرين. فإن أبَوْا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين. يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين. ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء. إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوْا فسلهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإذا حاصرت أهل حِصْن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه. فلا تجعل لهم ذمة الله ولاذمة نبيه. ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك. فإنكم أن تُخْفِرُوا ذِمَمَكم وذِمم أصحابكم ، أهون من أن تخفروا ذمه اللّه وذمه رسوله. وإذا حاصرت أهل حصْن ، فأرادوك أن تُنْزلهم على حكم الله ، فلا تُنزلهم على حكم الله. ولَكِنْ أنْزلهم على حكمك . فإنك لاتدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا » [(١)] .

هداية إنسان واحد خير من أعز معاز الدنيا :

هذه الوصية النبوية الثابتة عن رسول الله ﷺ تدل بأسلوب ديباجتها على أنها كانت هى منهج الدعوة إلى الله، [(٢)] التى التزمها قادة الجهاد فى المجتمع المسلم؛ لأنها رسمت الإطار الذى تتجمع فيه صور الجهاد في سبيل الله، فكانت بذلك بيانا لمنهج الدعوة فى نظامها الذى يحقق المقصود من شرعية الجهاد، الذى جعلته هذه الوصية النبوية مراتب، لا يجوز لقادة الجهاد أن يتجاوزوا مرتبة منها فى وضعها من الوصية النبوية إلى غيرها من

(١) مسلم : ٣٢ ـ الجهاد ٣ (ت١٧٣١) واللفظ له ، وأبوداود (٢٦١٢) والترمذى (١٦١٧) .

(٢) محمد رسول اللّه : ٣: ٢٣٠ وما بعدها بتصرف.

المراتب، إلا إذا لم تقبل المرتبة التى قبلها، وعجز الإقناع أمام العناد المستكبر عن الوقوف عندها.

ونذكر مارواه الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر:

« لأعطِيَنَّ هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ».

قال: فبات الناس يدُوكون ليلتهم: أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال:

« أين علىّ بن أبى طالب؟ »

فقيل: هو يارسول الله! يشتكى عينيه. قال: فأرسلوا إليه، فأتى به فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه، ودعا له فبرأ، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. فقال على: يارسول الله! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال:

« انفُذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم مِنْ حق الله فيه، فوالله! لأنْ يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمْر النَّعم » [1].

وهذا الحديث الثابت الصحيح ظاهر الدلالة فى تصوير منهج الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لشرعية الجهاد فى الدعوة إلى الله عز وجل، وما ينبغى أن تستهدفه هذه الدعوة، فعلىّ رضى الله عنه يسأل الرسول الحبيب المحبوب ﷺ عن قتال هؤلاء اليهود الأعداء الخونة ـ كما سيأتى ـ ليبين للناس مانزّل إليهم من شرعية الجهاد؛ لحماية الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، والدفاع عنها فى مسيرتها، حتى يعلموا أن الجهاد فى هذا المنهج إنما هو وسيلة للهداية، وهى أعز ما يكسبه المجاهدون فى جهادهم، وأنها خير ما يؤتاه مدعو إليها فيستجيب لها، وأن تألف القلوب وجذبها إلى ساحتها هو ما يجب على المجاهدين أن يجعلوه نصب أعينهم، ومقصدهم من جهادهم.

---

(١) البخارى: ٦٤ ـ المغازى (٤٢١٠)، ومسلم: ٤٤ ـ فضائل الصحابة ٣٤ (٢٤٠٦)، وأحمد: ٥: ٣٣٣ وقوله: « يدوكون » بمهملة مضمومة ـ أى باتوا فى اختلاط واختلاف، والدوكة ـ بالكاف ـ الاختلاط. فتح البارى: ٧:٤٧٧.

قال ابن حجر : [1] يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله.

هداية الإنسانية :

فى إطار هذا المنهج ننظر فى أهم غزوات الرسول الحبيب المحبوب ﷺ [2] التى قادها بنفسه الكريمة، مع اليهود ومن على شاكلتهم، لنصور من واقعها فى الحياة أسبابها وأحداثها ووقائعها التى أملى سطورها المنهج النبوى، الذى قام على أساسه ترابط المجتمع المسلم، معتمدا على دعائم المؤاخاة التكافلية بين جماعات هذا المجتمع فى دستور معلوم بأمر خاتم النبيين ﷺ ، بعد أن أحكمت وشائج مؤاخاه الحب فى الله ولله بين أفراد طلائع هذا المجتمع المثالى من المهاجرين والأنصار الذين آخى بينهم النبى ﷺ فى مشرق حياتهم الجديدة بالمدينة بعد الهجرة ..

والمؤاخاه فى الله تعنى فى حياة هذا المجتمع المثالى: المتآخى على الحب فى الله، والحب يذيب الفواصل والفوارق الشخصية، ويمحو « الأنانية » فهى مواخاة تركز فى وجودها على التمازج بين المتآخيين تمازجا لا يرى فيه أحد الأخوين أن له شيئا ليس هذا الشيء عينه لأخيه، بل يرى أن هذا الشيء الذى فى يده هو لأخيه فى يده قبل أن يكون لنفسه.

فالمؤاخاة بنوعيها الفردى والجماعى آية من آيات المنهج النبوى التى أريد بها فيه أن تكون صورة حية للتربية السلوكية المنطلقة فى مسيرة الدعوة إلى الله بروحانيتها ووحدتها الإيمانية ، ليستعيد بها المجتمع ـ إذا عاد إليها ـ مكانته فى هداية الإنسانية لإصلاح ما أفسده العلم المادى من حياتها الفكرية وحياتها الروحية.

وقدكان يكفى البحث فى البرهنة القاطعة على أن غزوات الرسول الحبيب المحبوب ﷺ مع اليهود ومن على شاكلتهم، لم تكن لتستهدف ـ قط ـ إكراه أحد على اعتناق ما لم يؤمن به إيمانا عقليا وروحيا.

ما سبق أن ذكرناه من أن الهدف إنما هو دعوة خلق الله إلى دين الله، وفتح الطريق أمام مسيرة تبليغ الرسالة لإخراج الإنسانية من الظلمات إلى النور، وإنقاذها من التعبد للوثنيات التى وقع فيها أهل الكتاب ـ كما عرفنا ـ ووقع فيها غيرهم، لتعيش فى ظل من وحدة الإيمان ، ولتبنى حضارتها على المؤاخاه والحبّ ، لا على المادية المدمرة لمظاهر الحياة، المفسدة للتفكير، المنحرفة بالسلوك الإنسانى عن جادة الاستقامة .

---

(١) فتح البارى : ٧: ٤٧٨ .　　(٢) محمد رسول الله : ٣: ٢٤٥ ومابعدها بتصرف .

ضـرورة المواجهة :

بيد أننا رأبنا اليهود ومن على شاكلتهم قديما وحديثا من المتظاهرين بالبحث العلمي، وحرية الفكر ـ كما يزعمون ـ يتشكلون في صور وألوان مختلفة:

فهي تارة استشراقية: تدعي البحث العلمي ، وتتباكى على حرية التفكير.

وتارة تبشيرية: تزعم أنها تهدي إلى حق وإصلاح .

وأخرى سياسية: تحاول أن تجعل من الحياه حقلا لتجارب الظالمين الماديين في المجتمع البشري.

ومرة أخرى اجتماعية: تخدع الناس عن حرياتهم وتخادعهم عن خصائص إنسانيتهم، لتتخذ من هذا الخداع وتلك المخادعة منحدر إلى هاوية إذابة الفرد في تنور المجتمع البشري المشتعل بنيران الحقد المضطفن ، والتنافس المادي المثير للفتن والشرور . يتناولون في مؤلفاتهم وصحفهم ومجلاتهم ووسائل إعلامهم ، وأحاديث أنديتهم اليهودية ومن على شاكلتها المجتمع المسلم، ومنهجه في الحياة الطعن الجارح والألفاظ النابية، زاعمين أن هذا المجتمع مجتمع حرب وقتال ، تسفك فيه الدماء، وتجمع الغنائم والأموال، لإكراه الناس على الاندماج في تركيبه الاجتماعي الإيماني بقوة السيف والقهر، وهم مفترون كاذبون، يعلمون أنهم كاذبون، ولكن الطبيعة اليهودية، والعصبية الخانقة، والحقد المغيظ الذي يملأ قلوبهم على هذا المجتمع المسلم، وماورثوه عن أسلافهم في الكفر والإلحاد من أن هذا المجتمع المثالي القائد الرائد الذي أزهق باطلهم ودوّخ ممالكهم وقوّض إمبراطورياتهم، وأقام على أنقاضها مجتمعا مثاليا قائدا رائدا، عاش على منهج الدين القيم فيها قرونا، ثم أخرج منها، ولكن آثاره لاتزال ، رغم مرور الأعوام والقرون، قائمة تنادي المجتمع المسلم : أن تيقظ، فإن لك أوطانا سليبة تنتظرك إذا عدت لمنهجك الأصيل في الحياة .. هي التي أعمت بصائرهم عن الحق ، فلم يبصروه إلا من منظار الحقد الدفين، والحقد ظلمة في جنان الإنسان تحيط بأقطاره، فتحجب عنه كل أنوار الحياة .

شباب مخدوع :

ونرى إلى جانب هؤلاء اليهود الحاقدين ومن على شاكلتهم صورا من المستضعفين في أوطان الإسلام من ذوي الشخصيات « الببغاوية » ..ولا سيما الشباب الغرير المغرّر به، الذي خدعته وتخدعه دعاوى العصرية والتجدد والتجديد، والحرية التقدمية، والتفكير الصاعد، والمبادئ الاجتماعية المزركشة، والطرائق السياسية المنافقة، والنظم الاقتصادية

المخرّبة، والأوضاع السلوكية المفسدة، من كل ما يُرى فى أنماط الحياة المترفة، الخليعة الماجنة، المائعة التي يعيش فيها الشباب العارى من الحصانة الروحية، والخالى من المناعة الخلقية، الخاوى من المعرفة الإسلامية معرفة يستطيع بها مقاومة الإغراء المستهتر الخليع من خصائص الرجولية الحقة.

هذا الشباب الذى تقذف به إلى أحضان هؤلاء الأعداء من اليهود الحاقدين ومن على شاكلتهم، فى صورة بعوث تطلب العلم في محاضنه الاستشراقية والتبشيرية الإلحادية.. الكثره من أوطان المجتمع المسلم، الممكّنة من الوسائل المادية فى هذا العصر . . يردد إذا عاد إلى أوطانه من محاضن الإلحاد المادى والتميع الخلقى، أفكار هؤلاء اليهود من على شاكلتهم، فى التحيُّف على الرسالة والرسول، والمنهج التربوى الإسلامى، وبخاصة ما يتعلق بالقتال .. هذا الشباب الذي ينتمى انتماء جغرافيا، لايحمل من سمات المعرفة الإسلامية إلا قشورا يتشدق بها، مغرورا بما جاء به من إلحاد وجحود لتاريخ أمته ومقوماتهاالأساسية..

ضائع مضيَّع :

هذا الشباب المعذّر ضائع مضيّع، لايعرف عن حقيقة تاريخه الإسلامى ، وتراث هذا التاريخ الفكري إلا شيئا ضئيلا، لا يغنى فى حماية هذا الشباب من اللوثات المنحرفة أى غناء؛ لأنه شباب ضيعه أهله، وعيشوه فى جهالة مغلفة بشعارات دعائية، وتقاليد مستوردة من وراء البحار والسهوب، وأنظمة جوفاء فى أشباح جامعية، وصور دراسية، فى أوطانه المسلمة، وليس في هذه النظم والدراسات إلا تزجية لهذا الفراغ ، يتلقى فيها الشباب المسلم قشورا من المعرفة عسرة الهضم لاتنفع، ولكنها تضر، ثم تنتهى هذه الدراسات الخاوية بجوار الوظيفة أو البعث إلى أحضان سدنة العلم الخادع من طوائف المستشرقين من اليهود ومن على شاكلتهم فى جامعات كثيرة فى هذا العالم ، تقوم على تدريس كل مايتعلق بالعلوم الإسلامية من: تفسير وحديث وفقه وما إلى ذلك مما هو مشاهد، ليصنعوا من هذا الشباب خبزة سهلة الازدراء فى صورة « دكترة » تتيح له أن يتبوأ أعلى المناصب فى وطنه المخدوع، وهو مجالل بالجهالة لتاريخ أمته ومجتمعه، ولكنه مسربل بما لقّن من معارف غريبة عنه، وغريب هو عنها، لتكون مطية له ولأمثاله إلى اعتلاء مناصب التوجيه الفكرى والاجتماعى ..

وهؤلاء السدنة للبحث العلمى وحرية الفكر من أهل الكتاب ومن على شاكلتهم، المندسون وراء الحياد الفكرى يستقبلون هذا الشباب المسلم وهو مفعم الصدور بإعظامهم،

وإعظام حياة أوطانهم وجماعاتهم، والاستطارة فرحا بمظاهر حضارتهم المادية، وهم به فرحون فرح الصائد بما يقع فى شباكه من صيد ثمين، ثم يأخذون فى تلقينه مايريدون أن يهيئوه له ، ليكون حين عودته إلى وطنه ومجتمعه المسلم لسانهم الناطق، وعينهم الباصرة، وآذانهم اللاقطة، ويدهم الباطشة بكل فضيلة ، وكل فكر إسلامى، وكل سلوك حميد، ومايزالون به يتابعونه حتى يصلوا فى صنعه إلى خبىء ضمائرهم من المرتبة العليا فى التحبب إليهم بانحرافه عن العقيدة الإسلامية إلى إلحاد مغرور منتفخ متعال مستكبر بما توهّم أنه وصل إليه من علم ومعرفة وتفكير جديد، وديمقراطية، وعلمانية، وعندئذ يرسلونه إلى وطنه المسلم، يحمل لقبا علميا ضخما، وفى يمينه حفيظة الوصايا له ، وإليه، وبه، عند من بيدهم أزمّة الأمور فى ميادين الحياة فى المجتمع ..

أخطر المخاطر :

إن أخطر شىء فى حياة المجتمع المسلم وحاضره الذليل الممزق ضياع شبابه من حياته ووجوده بهذا الوباء اليهودى المتفشى مع انفجار الثراء الفاحش فى كثير من أوطان الإسلام، ومع الجهل الأفحش فى معرفة طرائق استخدام هذا الثراء لمصلحة المجتمع المسلم، وذلك الوباء هو وباء بعث الشباب إلى جامعات أعداء المجتمع المسلم، دون أن يكون لدى هذا الشباب حصانة خلقية وفكرية تحمى سلوكه من الانحراف وتصون تفكيره من الانزلاق إلى منحدرات الفكر اليهودى المحجّب والمكشوف على سواء !

إن شبابنا المسلم ــ وهو عصب حياتنا ــ لو كان فى دراسته المنهجية فى جميع مراحل التعليم قد درس ــ مثلا ــ السيرة النبوية دراسة موضوعية منهجية تربوية ــ كما فى هذه الدراسات ــ ودرس تاريخ الفتوحات الإسلامية، ولاسيما فى مطالعها الأولى التى كانت صورة متطابقة للمنهج النبوى فى تربية المجتمع المسلم، ودرس معها الانزلاقات المحرفة لهذا المنهج عن سمته الذى وضعه فيه النبى ﷺ ، لما كان من بينه من يقبل دعاوى الأعداء والأدعياء، ولاسيما هذه الدعوى البالية، دعوة انتشار الإسلام بالسيف والقهر وسفك الدماء وجمع المال ــ كما يزعم اليهود ومن على شاكلتهم ــ وهى دعوى باطلة ــ كما أسلفنا ــ حورب بها المد الإسلامى وهو فى قمة قوته واندفاع تياراته، حاملا دعوى الهدى والحق، وكان المجتمع المسلم قد بدأ يتحول عن مجراه التربوى السلوكى، الذى قام على أساس الوحدة التكافلية، حيث انصدعت صفات تلك الوحدة، وتناثرت إلى دويلات هزيلة، يكيد بعضها لبعض ، والعدو اليهودى من ورائها هو ومن على شاكلته، يشعل نيران الفتن هنا وهناك ، فانحسر تيار المسيرة المسلمة، وجمد ووقف مكبلا بأغلال الفرقة التى

لم يغب عنه ليلها المظلم .

وأصحاب هذه الدعوى الزائفة البالية الكاذبة وجدوا فيها سلاحا ماضيا، يحاربون المجتمع المسلم بعد أن أناموه بها، وبأمثالها من الافتراءات الباطلة، وأفقدوه الشعور بنفسه، وحياته وتاريخه ومنهجه، ومقوماته الذاتية، وخصائصه التربوية .

التسامح الذليل :

ومن أعجب العجب فى باب محاربة اليهود ومن على شاكلتهم لهذا المجتمع المسلم، والقضاء على حيويته، وهو يحشرج تحت وطأة هذه الأكاذيب أن أعداء هذا المجتمع وجدوا من بين أبنائه من أدعياء التجدد والتجديد، والتقدمية، والحرية الفكرية ـ على حد تعبيرهم ـ من ألبسوهم خلقة التسامح والترفع عن العصبية الدينية، ليعززوا بهم وبأكاذيبهم المتخاذلة تهمة الإكراه، والقهر، والسيف، وسفك الدماء التى زعموها القوة الدافعة فى انتشار دعوة المجتمع المسلم إلى الهدى ودين الحق، حتى عمت المعمور من الأرض فى أقصر زمن، لايعرف المجتمع البشرى مثله لدعوة من الدعوات ، أو لرسالة من الرسالات الإلهية .

وقد كان هؤلاء المتخاذلون تحت ستار التسامح الذليل، والترفع المصطنع عن العصبية، أبشع وأعضل ما حورب به المجتمع المسلم، لأنهم بدعاواهم المتخاذلة الذليلة المتسامحة بالهوان كانوا كحفارى القبور للأحياء قبل أن يموتوا.

وقد عزز افتراءاتهم المتخاذلة هذه أن المجتمع المسلم كان يئن تحت كابوس الجهل المطبق، الذى طحن برحاه بعض معالم الفكر الإسلامى، واستبدل بها أضغاثا من الأساطير والخرافات والأباطيل التى ألصِقت بمنهج المجتمع الإسلامى إلصاقا، وعاش فى ظلماتها قرونا كثيرة، وهى لا تزال تسيطر على كثير من جماهيره، بل على كثير ممن يزعم أنه من أهل العلم فى أوطان هذا المجتمع المستعبد فى كثير من صور تفكيره، وأوضاعه الاجتماعية والتربوية السلوكية، وهو يرى فى فرية التسامح المتخاذل صورة براقة، يحيا فى ظل ذلها وهوانها، يتجرع كأس الموت من أيدى هؤلاء المتخاذلين المخدوعين من أبنائه المزورين عليه.

ولا ندرى كيف يطلب من مجتمع لا يملك من أمر الحياة إلا صك استعباده المضروب عليه من أعدائه أن يتسامح مع من يملك عليه أنفاسه فى حياته؟!

فيم يكون التسامح مع المتجبر فى الاستعباد، وهو لم يترك شيئا من مقومات الإنسانية إلا سلبه؟!

ألا يستحى هؤلاء المتخاذلون حين يتكلمون فى شأن تسامح المجتمع المسلم مع المجتمعات الأخرى فى جبروتها وقوتها المادية وطغيانها السلوكى، وحط أثقالها على صدر المجتمع المسلم، ليكتموا أنفاسه، حتى لا يصحو من رقدته! ويستيقظ من غفلته! وينتبه من غفوته!

الخوف من تيقظ المجتمع المسلم:

وأصحاب هذه الدعاوى الكاذبة وأنصارهم من دعاة التسامح الذليل المتخاذل يخافون أشد الخوف أن يستيقظ المجتمع المسلم من رقدته، ويصحو من غفلته، وينتبه من غفوته، ويراجع تاريخه ومنهجه فى أيام عزته وقوته ووحدته، فيصبح تركيبه الاجتماعى على أساس المؤاخاة التكافلية، ويستعيد وحدته، ويندفع مرة أخرى فى سبيل نشر دعوته، دعوة الحق والهدى والنور، ويمضى فى تبليغ رسالته على منهجى: العقيدة والفكر الاجتماعى والتربوى السلوكى، فلم يجدوا ألين عجينة من هذا الشباب المخدوع برغائبه الحيوانية فى هذا المجتمع المسلم المتدفق. بجموعه على مناهج تعليمهم، ومخطط اليهودية العالمية ومن يسير فى هذا السبيل، ينشد منها خصائص حياة جديدة، يعيش فيها لإشباع رغائبه الحيوانيه المترفة، بعد مسغبة الغرائز وجوعها، لينسى تاريخ منهجه الذى قامت على أسسه حياة مجتمعه، ويعود إلى أوطانه المسلمة مسخا للتقدمية الداعرة، ليشكل مناهجها وبرامجها فى صور براقة بالمظاهر المادية التى تسيطر على عقول الجماهير، ولاسيما الشباب، فينغمس فيها، أو بالأحرى يغرق فى أتونها وآثامها، وهذا هو الذى قد كان ، وهو الكائن اليوم فى كثير من ديار المسلمين، وهذا هو الذى يجب على المجتمع المسلم فى جميع أوطانه أن يبادر مسرعا إلى مقاومته ووقف تياره الجارف، لإنقاذ شباب الإسلام من براثن الفكر اليهودى ومن يشايعه !

رأى يدفع تهمة زائفة:

وليس معنى هذا أننا ضد بعث الشباب إلى جامعات العالم المتجدد التفكير فى الحياة والكون، لكشف أسرار الطبيعة ومظاهرها، والتعرف على مافى عناصرها من مكونات أبدعها الخالق جل شأنه، وسخرها للإنسان، لتكون آيات بينات على اقتدار خالقها ومكونها، وليفيد منها الإنسان فى حياته العقلية والروحية والمادية؛ لأن هذا أصل من أصول ديننا، وعنصر من عناصر منهجنا التربوى السلوكى .

ولكن القصد ألا يدفع بشباب الإسلام إلى مجتمعات ليس لها حوافظ اجتماعية تتلاءم مع نشأة شبابنا ومنهجه فى حياته الإسلامية، قبل أن يحصّن هذا الشباب بما يحميه من الانحرافات الخلقية والإلحادية، التي يهدف لها يهود ومن على شاكلتهم، ومن ثم يصون عقيدته وتفكيره، ويعلى سلوكه.

ومن هنا كان من الواجب أن يسبق بعث الشباب إلى خارج أوطانه الإسلامية تحصينه خلقيا وفكريا واجتماعيا، ليكون أينما ذهب صورة ناطقة لمنهجه الإسلامي فى خلقه وتفكيره، ومعالمه الذاتية ومعارفه، وتاريخه وتربيته وسلوكه، وليس هذا التحصين كوبا من الشراب اللذيذ يقدم للشباب فيشربه متمتعا بحلاوته، متلذذا بمذاقه، متنعما بهناءته ومراءته، وإنما هو تحويل لمسيرة حياة الشباب تحويلا يجعل منه نمطا لمنهج الإسلام فى مقوماته وخصائصه وقوته الروحية والمادية واستقامته السلوكية.

وهذا بلاشك عمل شاق ، محفوف بالمعوقات التى لا يذللها إلا العزائم المرهفة الماضية التى لا تتردد، فهو عمل يحتاج إلى تخطيط، ووضع منهج تربوى إسلامى، يشمل جميع مراحل التعليم، بل يجب أن يرتبط بالبيت والأسرة، حتى يتوحد المنهج التربوى فى مراحل حياة الشباب، من البيت مدرسة الأسرة، إلى أن يصل إلى الجامعة ، والدراسات المتخصصة، ومراقبات البعوث الخارجية .. حتى لا نقع فى شرك اليهود ومن على شاكلتهم!

وهذا التخطيط في وضعه العملي يحتاج إلى نظر عميق، وبصر دقيق، ويحتاج إلى دراسة تربوية ومناهج دراسية، وإلى نوع من العلماء المسلمين العاملين المتخصصين .. مما يجب أن يعتمد على دراسة المنهج النبوي بروحه وفكرته وتطبيقه فى واقع الحياة ، والتكيف بحقائقه عمليا، ويكون أشبه بمخطط هذه الدراسات التى نقدمها، مع قدر كبير من التلطف والترفق في الاتصالات الواعية بالشباب ومراقبة سلوكه داخل دور التعليم وخارجها، مع الاعتصام بمراقبة الله الذى يعلم السر وأخفى .

علوم الإسلام ولغته:

بيد أننا ــ كما سبق ــ نرى كثيرا من جامعات العالم الأوربى تقدم دراسات إسلامية من حيث الاسم، غير إسلامية من حيث المسمى، لهؤلاء الراغبين فى لقب «الدكتور» وما أكثرهم ! تحت إشراف أحبار اليهود! ومن على شاكلتهم!

ومن ثم فإن الشباب المسلم لا يحتاج إلى أن يأخذ علوم الإسلام ومعارفه، وفنون اللغة العربية وآدابها من خارج أوطانه المسلمة؛ لأن هذه العلوم والمعارف هى تراث الإسلام ولغته، وهى بين يديه وتحت سمعه وبصره فى مكتبات الأوطان الإسلامية، لكنها تحتاج إلى إنشاء مؤسسة كبرى، تنهض بعبء جمع التراث الإسلامى وتحقيق ما يحتاج إلى تحقيق، وتنقيته من الأساطير والخرافات والأكاذيب الإسرائيلية، والأباطيل التى أدخلت على معارف الإسلام فى غفلة المجتمع المسلم، لتنشر هذا التراث بين المجتمعات الإسلامية بأفضل طرائق النشر طباعة وتصحيحا وتحقيقا، ليكون هذا النشر أقوى سند علمى للدعوة إلى الله.

والشباب المسلم يحتاج إلى من يتخصص من أفراده فى علوم الحياة، وفنون الطبيعة، والمعارف الكونية وغيرها مما تنهض بالمجتمع المسلم من كبوته، ليلحق بقافلة الحياة.. وهذه العلوم والمعارف كان للمجتمع المسلم فيها مجالات ضاعت منه آثارها فيما ضاع له من أوطان وآثار، وهى علوم إنسانية لا وطن لها، ولا اختصاص لها بجيل أو قبيل؛ لأن العلم الإنسانى العام حق مشاع للإنسانية كلها، لا وطن له ، يأخذه من يتأهل لأخذه بوسائله الفكرية والمادية والعملية.

وها نحن نرى ونشاهد صناعة اليهود ومن على شاكلتهم للأسلحة الفتاكة التى تستخدمها ضد الإسلام والمسلمين، فضلا عن الابتكارات الكثيرة فى شتى ما تحتاج إليه المجتمعات.

وللفكر المسلم شعاع ينطبق أول ما ينطبق على العلوم والمعارف، ذلك أن الشعار المنهجى النبيل: هو أن الحكمة ضالة المؤمن،[1] فحيث وجدها فهو أحق بها، وأن العلم ضالة المؤمن، حيث وجده أخذه، ولكن ذلك يحتاج إلى خبرة لّماحة تحسن الاختيار بقدر المستطاع، والله تعالى من وراء القصد.

فهل يسمع الممكنون من الوسائل فى أوطان الإسلام لهذه الدعوة بإخلاص وصبر ودراسة، ويتخففون من الشعارات الدعائية فى صورها وأشكالها وألوانها الخادعة، ويوجهون المجتمع المسلم إلى العمل الصامت الدؤوب، فيما يحتاج إليه من صناعات دقيقة، ليستخرج بها كنوز أرضه ، ويحررها من أيدى أعدائه؟ لعل وعسى..

---

(١) انظر: المقاصد الحسنة (٤١٥) وكشف الخفاء (١١٥٩).

ولا يفوتنى أن أنوه بأن فى مجتمعاتنا الإسلامية علماء وشبابا على درجة كبيرة جدا من تلك المعارف .. وكثيرون منهم يعيشون فى تلك المجتمعات الأوربية التى تتيح لهم فرص الابتكارات والاختراعات، وتكافئهم بمرتبات مجزية تتعادل مع تضحياتهم بمفارقة أوطانهم، وما يبذلون من جهد فى هذا المضمار.. وإن نسينا فلا ننسى الدكتور الباز المصرى الذى قدم لأمريكا ما قدم فى مجال الأقمار الصناعية مما لا يحتاج إلى بيان...

فهل آن لنا أن نستقطب نحن هذه العقول المفكرة ونتيح لها فرص الابتكارات والاختراعات، ونساعدها على أن تقوم بإعداد الشباب إعدادا علميا حتى نستطيع أن نواجه مخططات الصهيونية ومن على شاكلتها؟ لعل وعسى..

الدين النصيحة :

هذه نصيحة ممن لا يملك إلا الكلمة يضعها بين القادرين الذين يملكون أن يحولوها إلى عمل جاد مسدد من قادة المجتمع المسلم الممكنين فى الأرض، وقد يراها المتعجلون ضربا من الخيال، ولكنها فكرة، فيها مجال لبدء عمل جاد قوى شامل، يجمع شمل المجتمع المسلم، ويصحح تركيبه الاجتماعى ، وما على الممكنين المالكين للوسائل إلا أن يبدأوا ويمكنوا المؤهلين للعمل، تحت رقابة تحاسب وتشجع، وتمنح وتمنع، حتى يكون العمل حقيقة واقعة فى حياة المجتمع المسلم، ولا يضر قادة هذا المجتمع الممكنين أن يطول بهم الزمن على ظهور النتائج؛ لأن أعمار الأمم والمجتمعات لا تقاس بالأيام والشهور والأعوام والدهور، ولكنها تقاس بما يقع فيها من أعمال.

وللمجتمع المسلم نموذجه فى انتشار دعوته إلى الله، لهداية الخلق وتحرير الأمم والشعوب من الوثنيات اليهودية وغيرها فى شتى صورها وأشكالها، وقد تم فى زمن لا يوضع فيه غيره فى مقاييس الأزمان والأعمال.

هذه نصيحة .. « والدين النصيحة» كما يروى مسلم (١) عن تميم الدارىّ ، أن النبى ﷺ قال:

«الدين النصيحة»

قلنا : لمن ؟ قال :

(١) مسلم: ١ ـ الإيمان ٩٥ (٥٥) وانظر : مسلم بشرح النووي : ٢ : ٣٧ ـ ٣٨ .

« لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ».

وليعلم كل مسلم أن الإسلام دين الله عز وجل ، وقد وعد بإظهاره على الدين كله، وسبق أن ذكرنا ذلك في مجال تحريض المؤمنين على قتال أهل الكتاب في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [1]

وعرفنا أنهم كما قال الله:

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾

وهو الوعد الحق ، الذي تطمئن له قلوب المؤمنين ، فيدفعهم هذا إلى المضى فى الطريق على المشقة واللأواء، وعلى الكيد والحرب:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾

وهو سبحانه لا يخلف الميعاد ، وهو الفعال لما يشاء.. يجري ما يشاء على يد من شاء وفق ما يشاء، لا تقيد إرادته بجنس من الناس ولا لون ، ولا جيل ولا قبيل، ولا زمان ولا مكان، وإنما ينصر الله من ينصره كائنا من كان.

فليتقدم صاحب الخطوة العظمي أينما كان في أرض الإسلام، وليأخذ زمام مسيرة إصلاح المجتمع ليضعه على النقطة الأولى من الخط المستقيم، على أساس المنهج النبوى الذى سبق ذكره، وكل إصلاح لا يقوم على أساس هذا المنهج النبوى إنما هو فعقعة دعائية فاسدة، كما نرى ونشاهد من وقوف الكثيرين عند حد عبارة « العدو الإسرائيلى ».. والله لا يصلح عمل المفسدين.

وليحرص الممكنون فى الأرض على إصلاح الشباب أشد الحرص؛ لأن الشباب عصب حياة المجتمع المسلم، ومن الشباب يبدأ الإصلاح الفكرى والاجتماعى ، لتغيّر هذه المناهج التى لا يتفق بعضها مع المنهج الإسلامى ، وتوضع مكانها مناهج تربوية إسلامية تستمد روحها وقوتها وصلاحيتها من المنهج النبوى الذى قام على دعائمه بناء المجتمع الإسلامى فى قيادة الإنسانية ونشر الهداية وتبليغ الرسالة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

علاج ضروري :

وبهذا يتبين أن القتال في الإسلام كان علاجا ضروريا لمرض فجور الكفر وعتو العناد المستكبر، بعد اليأس من الشفاء بالحجة البينة، والبيان المنير، وبعد عرض الموادعة بالجزية ـ كما أسلفنا ـ للتأمل والنظر في الدلائل الهادية إلى الحق ..

وسيلة لا غاية :

ومع هذا فإن الجهاد في الإسلام وسيلة لا غاية [1] ، وطريق إلى هدف إذا وصل إليه المجتمع المسلم وقف عنده يحميه ويذود عنه، لا يجاوزه ولا يتعداه؛ لأن الجهاد بأنواعه الحجاجية والقتالية ـ كما أسلفنا ـ إنما يستهدف هداية الناس أينما كانوا أو كيفما كانوا ، على كلمة سواء، هي كلمة التوحيد التي تجعل من المجتمع المسلم كله، على اختلاف أوطانه وأجناسه وألوانه ولغاته، ومؤثراته، وتأثراته البيئية وحدة إيمانية متساوية الحقوق والواجبات.

ومن هنا كان على المجتمع المسلم ألا ينفر إلى القتال إلا بعد أن يستنفذ كل ما يملك من طاقات في قوة البيان والحجاج العقلي ، والرغائب الوجدانية، والدوافع العاطفية التي تجذب النفوس إلى الانضواء تحت لواء المؤاخاة التكافلية ـ ومن ثم أسلم بعض اليهود كما سبق ـ وهذه المؤاخاة التكافلية أساس بناء المجتمع الإسلامي، وهي الوسيلة العظمى في المنهج النبوي لتجميع الإنسانية في وحدة إيمانية متحررة من العبودية المادية المفرّقة لوحدة الإنسانية في نشأتها.

وإلا بعد أن يستنفد أعظم ما يملك من طاقات روحية يصب في قالبها منهج دعوته وهدايته، لتكون صورة لنقاء فطرته وصفاء مقاصده ، وإخلاص مؤاخاته، ليستطيع أن ينهض بعبء القيادة الإنسانية إلى آفاق متجددة من صور الحضارة الفكرية والاجتماعية، ليقاوم عرامة الإلحاد المادي الذي يخطط له اليهود ومن على شاكلتهم ـ كما سبق ـ هذا الإلحاد المادي الذي جعل من الإنسانية أشلاء من الأشباح الهامدة، والهياكل الخامدة، والصور الجامدة، وأشتاتا متنافرة الوسائل والأهداف والمقاصد في الحياة، لا تعيش إلا لشهواتها الدنيا.

والمجتمع الإسلامي ـ كما أسلفنا ـ نشأ مجتمعا متكافلا في ظل وحدة المؤاخاة

---

(١) محمد رسول الله : ٣ : ٢٢٥ وما بعدها بتصرف.

الفردية والجماعية، وهو بمقتضى هذه الوحدة، وبما آتاه الله في منهجه التربوي السلوكي من خصائص القيادة الإنسانية يجعله خير أمة أخرجت للناس، وكلف أن ينهض بالدعوة إلى نشر الحق إيجابا وسلبا :

إيجابا: بإقامة معالم التوحيد، وإخلاص العبودية لله وحده، والتحرر المطلق من عبودية المخلوقين، فى شتى صورها، واختلاف أشكالها ومصادرها، ومواردها الوثنية الملحدة، كما يفعل اليهود ومن على شاكلتهم !

وسلبا: بالنهوض المشمِّر عن قوة الإيمان إلى تقويض دعائم الشرك العتيّ والوثنية البليدة المتحجرة اللذين استعبد بهما الطغاة البغاة الناس من أجل لقمة العيش ، كما يفعل اليهود ومن على شاكلتهم !

وهى فى منهج المجتمع الإسلامى فى حق كريم لكل حيّ على ظهر هذه الأرض، لكن الفكر اليهودى المادى، والوثنية الفكرية القديمة والحديثة لا تعطى هذا الحق الكريم لأحد من المستضعفين فى الحياة إلا فى أطباق سوداء من الذل والمهانة، وتمريغ الإنسانية فى حمأة الوحل المذل ، ونزيز الهوان !

تحرير الإنسانية:

وتحرير الإنسانية من ربقة هذه المخططات اليهودية الطاغية،وتلك العبودية المادية العاتية ـ وهى أحط صور الوثنية في القديم والحديث ـ هو الطريق الموصل إلى إعلاء منهج الحق الذى من أجله كان الجهاد، ليصد المعوقين لمسيرة الدعوة وتبليغ الرسالة، فلابد إذن من تعبيد هذا الطريق وتطهيره من أوضار تلك المخططات اليهودية فى القديم والحديث، ليصل المجتمع الإسلامى إلى هدفه فى إقامة معالم الحق، وتحرير العقول من الاستعباد الفكرى الذى خدع المجتمع الإسلامى، ولا يزال يخدعه ، حتي أخرجه عن معالم منهجه، وإقرارا للعدل فى حياة الناس، ليشعروا أنهم جميعا عباد الله الذى خلقهم، وهو الذى يرزقهم، وليسوا عبيد السدنة اليهودية الطاغية والوثنية الباغية !

إعلاء كلمة الله:

وقد رسم المنهج النبوى فى إطار الدعوة إلى الله ، ونشر الحق الإلهى ، الخطوط العريضة التى تتألف منها صورة الجهاد فى سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الحق التى تنبع منها روافد الفضائل الإنسانية، لتستقى بنميرها تلك القلوب المؤمنة، وتجذب إلى منازلها الأفئدة

المستعدة بفطرتها لتقبل الهداية، وهي تنهمر كالغيث المتنزل من سماء الإيمان بالله إلها واحدا ، موصوفا بكل كمال يليق بجلال ألوهيته.

وهذا المنهج قد جعل من الجهاد وسيلة ــ كما أسلفنا ــ لبيان الحق بيانا لا يدع شبهة فى نفس من يريد الإيمان ، ولبيان أن إرساء قواعد الحق مصدر كل خير في هذه الحياة وأن الشرك بالله مصدر كل شر وفساد فى الأرض، وأن الدعوة إلى الحق واجبة على كل فرد أو جماعة فى المجتمع الإسلامى، أينما كانت أممه وشعوبه فى أوطانها من هذه الأرض .

وجعل الجهاد وسيلة إلى بيان الحق وإقراره فى القلوب والعقول؛ لأن الوثنيين الماديين من اليهود ومن على شاكلتهم ــ كما أسلفنا ــ أعداء كل خير وهدى، ولا يتركون الحق الذى هو هدف أصحاب الدين القيم يمشى على الأرض مطمئنا، يعرض نفسه على الناس، وهم آمنون مطمئنون؛ لأن هؤلاء يعلمون أن هذا الحق هو فطرة الله التى فطر عباده عليها ، ولكن صدأ الجهالة الباغية ، وفجور الوثنية الطاغية ، غطى على أبصارهم وبصائرهم، فضلوا طريقه، فإذا ذكروا به ورأوه فى حقيقته الوضيئة المضيئة المشرقة الجذابة، لم يملكوا أنفسهم أن ينشعبوا إلى اعتناقه ــ كما عرفنا ــ وفى ذلك طاقة الطاقات وداهية الدواهى على هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم؛ لأن ذلك يزلزل سلطان وثنيتهم وتحكمهم فى مصائر المستضعفين فى الأرض، ويقوض بنيان سيطرتهم على العقول المخدوعة والقلوب الفارغة بما فى أيديهم من سراب مضلِّل، ولن يستسلموا أو يسلموا بمجرد عرض الحق فى صورته المشرقة ، ولن تقنعهم بيناته وحججه وبراهينه، لأنهم معاندون مكابرون، ولكنهم يسهبون بكل ما لديهم من قوة مادية مدمرة، مدافعين عن وثنيتهم الفاجرة، لا يبالون أن يسفكوا فى سبيلها الدماء، ويخربوا الديار، ويدمروا الحياة.

وجوب إعداد القوة :

ومن ثم كان لابد للمجتمع الإسلامي، وهو حامل راية الدعوة إلى الله عز وجل، وتبليغ رسالته، من إعداد نفسه بالقوة الزاجرة المرهبة لليهود ومن على شاكلتهم ، ليصد بها طغيان هؤلاء وأولئك ، وليفتح الطريق أمام الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، لإعلاء كلمته فى الآفاق : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [1] .

يقول ابن جرير: [2] : يقول تعالى ذكره: إن شر الدواب عند الله الذين كفروا الذين عاهدت منهم يا محمد، يقول: أخذت عهودهم ومواثيقهم ألا يحاربوك، ولا يظاهروا عليك محاربا لك، كقريظة ونظرائهم ممن كان بينك وبينهم عهد وعقد، ثم ينقضون عهدهم ومواثيقهم، كلما عاهدوا دافعوك وحاربوك وظاهروا عليك، وهم لايتقون الله ، ولا يخافون فى فعلهم ذلك أن يوقع بهم وقعة تجتاحهم وتهلكهم.. وروى بسنده عن مجاهد قال: قريظة مالئوا على محمد يوم الخندق أعداءه .

وجاء فى المنار [3] : المراد بهم طوائف يهود المدينة، ولا يظهر التبعيض فيه إلا إذا كانت الآيات فى يهود بلاد العرب كلهم، وقيل: قريظة، بناء على أن أصل الكلام فى يهود المدينة، وهم منهم، وقيل: زعماؤهم الذين تولوا عقد العهد معه ﷺ، بناء على أن أصل الكلام فى بنى قريظة، وإنما قال «ينقضون» بفعل الاستقبال ، مع أنهم كانوا قد نقضوه قبل نزول الآية، لإفادة استمرارهم على ذلك ، وأنه لم يكن هفوة رجعوا عنها وندموا عليها .. بل إنهم ينقضونه « فى كل مرة » وإن تكرر ، وهو يصدق على عهود طوائف اليهود الذين كانوا حول المدينة فى جملتهم ، وهم ثلاث طوائف..

وبنو قريظة كانوا أشدهم كفرا ، فقد روى أنه تكرر عهده ﷺ لهم . قال بعض المفسرين: وعزى إلى ابن عباس: هم بنو قريظة نقضوا عهد رسول الله ﷺ ، وأعانوا عليه بالسلاح يوم بدر، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا، فعاهدهم الثانية، فنقضوا العهد ، ومالئوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق، وركب زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة، فحالفهم على محاربة النبى ﷺ « وهم لا يتقون » الله فى نقض العهد، ولا يتقون ماقد يترتب عليه من قتالهم والظفر بهم ..

وعبر عنهم بالدواب، وهو اللفظ الذى غلب استعماله فى البهائم ذوات الأربع، أو فيما يركب منها، لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط، بل هم أضل من عجماوات الدواب؛ لأن فيها منافع للناس، وهؤلاء اليهود لا خير فيهم، ولا نفع لغيرهم منهم، فإنهم

---

(١) الأنفال: ٥٥ ـ ٦٠.	(٢) تفسير الطبرى: ١٠ : ٢٥.

(٣) تفسير المنار: ١٠ : ٤٨ ـ ٥٠ بتصرف.

لشدة تعصبهم لجنسهم قد صاروا أعداء لسائر البشر، كما قال في وصف أمثالهم:

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾(١).

وكما قال:

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(٢).

وقال « الذين كفروا » فعبر عنهم بفعل الكفر دون الوصف «الكافرون » للإشارة إلى أنهم كانوا مؤمنين ، فعرض لهم الكفر، وهذا ظاهر في جملة اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ ، كما كفروا بمن قبله، وهم فى عرف القرآن متكافلون متشابهون ، آخرهم فى ذلك كأولهم، وهو أظهر في يهود المدينة الذين كانوا في عصر الرسالة المحمدية ، فإنهم ـ كما أسلفنا ـ كانوا يعلمون أن الله تعالى سيبعث النبى الكامل ، الذى بشر به موسى فى التوراة.. وكانوا يعلمون أنه سيبعث من العرب، لأن من نصوص التوراة الموجودة إلى الآن أنه تعالى يبعث لهم نبيا مثل موسى بين بنى إخوتهم، أى بنى إسماعيل، وكانوا يطمعون في أن يكون هذا النبى منهم، ويرون أنه يكفى فى صحة خبر التوراة ظهوره بين العرب وإن لم يكن منهم؛ لأن النبوة بزعمهم محتكرة محتجنة لبني إسرائيل، على ما اعتادوا من التحريف والتأويل !

وقال « فهم لا يؤمنون » لأن كلمة « كفروا » لا تقتضى الثبات على الكفر دائما ، فعطف عليها الإخبار بأن كفرهم دائم ، لا يرجعون عنه في جملتهم ، حتى ييأس الرسول والمؤمنون مما كانوا يرجون من إيمانهم، وهذا لا ينافى وقوع الإيمان من بعض اليهود ، وقد وقع ـ كما سبق ـ وهذا الخبر من أنباء الغيب ...

حقا ، إنهم شر الدواب !

إنهم هؤلاء الذين كفروا حتى بلغ بهم الكفر ألا يصير حالهم إلى الإيمان ! (٣).

إنهم هؤلاء الذين ينقضون عهدهم فى كل مرة ولا يتقون الله فى كل مرة !

إنهم هؤلاء الذين كفروا ولجوا فى الكفر، ففسدت بذلك فطرتهم، وباتوا بذلك شر الدواب عند الله !

---

(١) الفرقان : ٤٤ .　(٢) الأنفال : ٢٢ .　(٣) فى ظلال القرآن : ٣ : ١٥٤١ بتصرف.

إنهم هؤلاء الذين تجردوا من خصيصة التقيد بالعهد، وانطلقوا من كل قيد، كما تنطلق البهيمة، لولا أن البهيمة مقيدة بضوابط تحكمها، وهؤلاء لا ضابط لهم، فهم بذلك شر الدواب عند الله !

إنهم هؤلاء الذين لا يستطيع أحد أن يطمئن إلى عهدهم وجوارهم !

ومن ثم كان جزاؤهم هو حرمانهم الأمن، كما حرموا غيرهم الأمن، وكان جزاؤهم هو تخويفهم وتشريدهم، والضرب على أيديهم بشدة لا ترهبهم وحدهم، إنما ترهب من يتسامع بهم ممن وراءهم من أمثالهم !

والرسول الحبيب المحبوب ﷺ ـ ومن بعده من المسلمين مأمورون ـ إذا التقوا باليهود ومن على شاكلتهم فى القتال .. أن يصنعوا بهم ذلك الصنيع :

﴿ فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ﴾ .

وإنه لتعبير عجيب، يرسم صورة للأخذ المفزع ، والهول المرعب ، الذى يكفى السماع به للهرب والشرود!

فما بال من ينزل به هذا العذاب الرعيب الرهيب ؟

إنها الضربة المروعة، يأمر الحق تبارك وتعالى رسول الله ﷺ أن يأخذ بها هؤلاء اليهود الذين مردوا على نقض العهد، وانطلقوا من ضوابط الإنسان، ليؤمن المعسكر الإسلامى أولا، وليدمر هيبة الخارجين عليه أخيرا ، وليمنع كائنا من كان أن يجرؤ على التفكير فى الوقوف فى وجه المد الإسلامى من قريب أو من بعيد..

إنها طبيعة هذا المنهج التى يجب أن تستقر صورتها فى قلوب العصبة المؤمنة ..

إن هذا الدين لابد له من هيبة، ولابد له من قوة ، ولابد له من سطوة، ولابد له من الرعب الذى يزلزل الطواغيت حتى لا تقف يهود للمد الإسلامى، وهو ينطلق لتحرير «الإنسان» فى «الأرض» من كل طاغوت ..

والذين يتصورون أن منهج هذا الدين هو مجرد الدعوة والتبليغ ، في وجه العقبات المادية من قوى الطاغوت اليهودى، هم ناس لا يعرفون شيئا عن حقيقة هذا الدين !

وهذا هو الحكم الأول: يتعلق بحالة نقض العهد فعلا مع المعسكر الإسلامي، وما ينبغى أن يتبع فى ضرب الناقضين للعهد وإرهابهم، وإرهاب من وراءهم بالضربة

القاصمة المروعة الهائلة.

فأما الحكم الثاني: فيتعلق بحالة الخوف من نقض العهد وتوقع الخيانة، وذلك بظهور أفعال وأمارات تدل على ذلك :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾

يقول ابن جرير [١] : يقول تعالى ذكره: وإما تخافن يا محمد من عدو لك ، بينك وبينه عهد وعقد أن ينكث عهده ، وينقض عقده، ويغدر بك، وذلك هو الخيانة والغدر «فانبذ إليهم على سواء » يقول: فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم، بما كان من ظهور آثار الغدر والخيانة منهم ، حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذوا للحرب آلتها، وتبرأ من الغدر «إن الله لا يحب الخائنين » الغادرين بمن كان منه في أمان وعهد .. أن يغدر به ، فيحاربه قبل إعلامه إياه أنه له حرب، وأنه قد فاسخه العقد.

فإن قال قائل: وكيف يجوز نقض العهد بخوف الخيانة، والخوف ظن لا يقين؟

قيل: إن الأمر بخلاف ما إليه ذهبت ، وإنما معناه: إذا ظهرت آثار الخيانة من عدوك، وخفت وقوعهم بك، فألق إليهم مقاليد السلم، وآذنهم بالحرب. وذلك كالذى كان من بنى قريظة، إذ أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ﷺ، ومحاربتهم معه بعد العهد الذي كانوا عاهدوا رسول الله ﷺ على المسالمة، ولن يقاتلوا رسول الله ﷺ، فكانت إجابتهم إياه إلى ذلك موجبا لرسول ﷺ خوف الغدر به وبأصحابه منهم، فكذلك حكم كل قوم أهل موادعة للمؤمنين، ظهر لإمام المسلمين منهم من دلائل الغدر مثل الذى ظهر لرسول ﷺ وأصحابه من قريظة منها، فحق على إمام المسلمين أن ينبذ إليهم على سواء ، ويؤذنهم بالحرب.

ومعنى قوله «**على سواء** » أى حتى يستوى علمك وعلمهم بأن كل فريق منكم حرب لصاحبه لا سلم . وقيل : نزلت الآية فى بنى قريظة .

إن الإسلام [٢] يعاهد ليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية، ولم يخن ولم يغدر ، ولم يغش ولم يخدع ، وصارح الآخرين بأنه نفض يده من

---

(١) تفسير الطبرى : ١٠ : ٢٦ بتصرف.

(٢) فى ظلال القرآن: ٣:١٥٤٢ بتصرف.

عهدهم. فليس بينه وبينهم أمان.. وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة .. إنه لا يبيت للآخرين بالهجوم الغادر الفاجر، وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ، ولا يروع الذين لم يأخذوا حذرهم ، حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم ..

فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة؛ لأن كل خصم قد أخذ حذره، فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به، إنما هو غافل ! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة؛ لأنها ليست غادرة !

إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع ، ويريد للبشرية أن تعف، فلا يبيح الغدر فى سبيل الغلب، وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد، ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة.

إن الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين من هؤلاء اليهود، ومن على شاكلتهم الذين ينقضون العهود، ومن ثم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد فى سبيل غاية مهما تكن شريفة ..

إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ، ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة..

وإن مبدأ تبرير الوسيلة بالغاية غريب عن الحس الإسلامى والحساسية الإسلامية ؛ لأنه لا انفصال فى تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات ..

إن الشط الممرع لا يغرى المسلم بخوض بركة من الوحل، فإنه لابد أن تلوثه الأقدام الملوثة فى النهاية ..

من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾

ويجب أن نذكر أن هذه الأحكام كانت تتنزل والبشرية بجملتها لا تتطلع إلى مثل هذا الأفق المشرق.. لقد كان قانون الغابة هو قانون المتحاربين، حتى ذلك الزمان .. قانون القوة التى لا تتقيد بقيد متى قدرت ــ كما نرى ونشاهد ما يحدث فى الأرض المحتلة تماما ــ ويجب أن نذكر هنا أن قانون الغابة هو الذى ظل يحكم المجتمعات الجاهلية كلها بعد ذلك

إلى القرن الثامن عشر الميلادى ، حيث لم تكن أوربا تعرف شيئا عن المعاملات الدولية، إلا ما تقتبسه فى أثناء تعاملها مع النظام الإسلامى .. ثم هى لم ترتفع قط حتى اللحظة إلى هذا الأفق فى عالم الواقع ، حتى بعدما عرفت نظريا ما يسمى القانون الدولى !

وعلى الذين يَبْهَرهم « التقدم الفني في صناعة القانون » أن يدركوا حقيقة « الواقع» بين الإسلام والنظم المعاصرة جميعا !

وفي مقابلة هذه الصناعة وهذه النظافة يعد الله المسلمين النصر، ويهون عليهم أمر هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

فتبييتهم الغدر والخيانة لن يمنحهم فرصة السبق؛ لأن الله لن يترك المسلمين وحدهم ، ولن يُفلت الخائنين لخيانتهم .. والذين كفروا من هؤلاء أضعف من أن يعجزوا الله حين يطلبهم ، وأضعف من أن يعجزوا المسلمين والله عز وجل ناصرهم.

فليطمئن أصحاب الوسائل النظيفة ـ متى أخلصوا النية فيها لله ـ من نتيجة المعركة مع أصحاب الوسائل الخسيسة. فإنما هم منصورون بالله الذي يحققون سنته فى الأرض، ويعلون كلمته في الناس، وينطلقون باسمه .. يجاهدون ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك.

وفى هذه الآية ـ كما جاء فى المنار ـ [١] دليل على أن ما أوجبه الإسلام من المحافظة على العهود مع المخالفين من أعدائه المخالفين له فى الدين ، وما حرمه من الخيانة لهم فيها، وما شرعه من العدل والصراحة فى معاملتهم .. ليس عن ضعف ولا عن عجز، بل عن قوة وتأييد إلهى، وقد نصر الله تعالى المسلمين على اليهود الخائنين الناقضين لعهودهم، وثبت بهذا أن قتال المسلمين لهم وإجلاءهم لبقية السيف منهم من جوار عاصمة الإسلام، ثم من مهده ومعقله «الحجاز» ـ كما سيأتى ـ كان عدلا وحقا .

دستور الإعداد للقتال:

ويتخذ الإسلام للنصر عدته الواقعية التى تدخل فى طوق العصبة المسلمة[٢] ،فهو لا يعلق أبصارها بتلك الآفاق العالية إلا وقد أمن لها الأرض الصلبة التى تطمئن عليها أقدامها ، وهيأ لها الأسباب العملية التى تعرفها فطرتها وتؤيدها تجاربها، وإلا إذا أعدها هى للمعركة

---

(١) تفسير المنار : ١٠ : ٥٣ بتصرف.

(٢) فى ظلال القرآن : ٣ : ١٥٤٣ بتصرف .

الواقعية التي تحقق هذه الغايات العلوية:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

وقد علم من الآيات التي قبل هذه ـ كما في المنار ـ [1] أن أهل الكتاب من اليهود، الذين عقد النبي ﷺ معهم العهود التي أمنهم بها على أنفسهم وأموالهم وأنه لا إكراه في الدين، قد خانوه ونقضوا عهده، وساعدوا عليه أعداءه من المشركين الذين أخرجوه هو ومن آمن به من ديارهم ووطنهم، ثم تبعوهم إلى مهجرهم، يقاتلونهم فيه، وأنه بذلك صار أهل الحجاز الذين كفروا بما جاء به من الحق حربا له، المشركون وأهل الكتاب سواء، فناسب بعد ذلك أن يبين الله تعالى للمؤمنين ما يجب عليهم فى حال الحرب التى كانت أمر واقعا، لم يكونوا هم المحدثين له ولا البادئين بالعدوان فيه، كما أنه سنة من سنن الاجتماع البشرى فى المصارعة بين الحق والباطل، والقوة والضعف، وذلك قوله عز وجل:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾

إن الشريعة الإسلامية واقعية تواجه الواقع البشرى بالحل العملى، وما دام الصراع بين الحق والباطل والخير والشر سنة من سنن هذا الاجتماع البشرى، وما دامت الموعظة الحسنة لا تجدى، ولا تنفع عند أصحاب النفوس المريضة، ولا ترد ظلما ولا تدفع عدوانا، فلابد للحق من قوة يدفع بها، حتى تتحقق سنن الله عز وجل فى النصر.

ولهذا أمر الحق تبارك وتعالى بإعداد القوة التى ترهب هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم حتى لا يضيع الحق، ويقف هؤلاء وأولئك عند حدودهم.

وقوله: «**وأعدوا**» يدفعنا إلى الاستعداد بما فى الطوق، وهذا الاستعداد فريضة تصاحب فريضة الجهاد، وهذه الكلمة واسعة الدلالة، تشمل كل ما يمكن الاستعانة به فى مقاومة هذا الطغيان الجائر، من قوى مادية ومعنوية، على سواء...

ولا تكون هذه الاستعانة إلا حين نمتلك من القوة ما يتفوق على ما عند هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم من حيث الكم والنوع، وهذا يدفعنا بالتالى إلى التصنيع الحربى من جديد، بما يتناسب وفنون القتال فى عالمنا المعاصر، وواضح أننا كأمة إسلامية لنا فى هذا

---

(١) تفسير المنار: ١٠ : ٦٠ بتصرف.

الميدان تاريخ نعتز به، ويعرفه القاصي والداني، وقد كنا فى بداية هذا القرن العشرين نبيع السلاح لغيرنا، أما الآن فإننا نعيش واقعا أليما لا يحتاج إلى تعليق !

ومن ثم فإن هذه الآية الكريمة تدفعنا دفعا، وهي تحمل الأمر بالإعداد، إلى التصنيع الحربى، وهو يحتاج إلى عقل سليم، وجهد كبير، وعلم واسع بفنون الحرب، وهنا نجد فى نفس الآية كلمة « ما استطعتم » وهى تؤيد ما قررته كلمة «وأعدوا » كما نجد كلمة «ترهبون » وهى تقرر ذلك فى جلاء ووضوح ..

حقا إنه لابد للإسلام من قوة ينطلق بها فى الأرض «لتحرير» الإنسان ...

وأول ما تصنعه (١) هذه القوة فى حقل الدعوة الإسلامية أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم فى اختيارها ، فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها.. وطالما أحس فى قرارة نفسى تجاه الذين يعتنقون الدين القيم فى عصرنا هذا، وقد عايشت بعضهم من جنسيات كثيرة، بعون الله وتوفيقه .. بالإشفاق عليهم بعد دخولهم في هذا الدين، وبعضهم كان من أهل الكتاب، ومصدر هذا هو حال الأمة الإسلامية ، الذي لا يدفع ولا يحمى !

ومع كل هذا فإن الدين القيم هو دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها.. ومن ثم فإن الداخلين فيه تدفعهم هذه الفطرة دفعا، وتجعلهم يشعرون بعظمته شعورا أصيلا، وترفعهم إلى حمل راية هذا الحق مهما تحملوا فى سبيل ذلك من عقبات !

والأمر الثانى الذى تصنعه هذه القوة، هوأن ترهب أعداء هذا الدين القيم، من اليهود ومن على شاكلتهم، فلا يفكروا ــ مجرد تفكير ــ فى الاعتداء على المسلمين بحال من الأحوال!

والأمر الثالث الذى تصنعه هذه القوة، هو أن يبلغ الرعب بهم ألا يفكروا ــ مجرد تفكير أيضا ــ فى الوقوف فى وجه المد الإسلامى ، وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله فى «الأرض» كلها!

والأمر الرابع الذى تصنعه هذه القوة، هو أن تحطم كل قوة فى الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية ، فتحكم الناس بشرائعها هى وسلطانها.. ومن ثم تكون السعادة !

إن الإسلام ليس نظاما لاهوتيا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة فى القلوب، وتنظيما

---

(١) فى ظلال القرآن : ٣: ١٥٤٣ بتصرف.

للشعائر ، ثم تنتهى مهمته ! إنما هو منهج عملى واقعى للحياة يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات، وتقف وراءها قوى مادية!

ومن ثم فلا مفر للإسلام ـ لإقرار منهجه الرباني ـ من تحطيم تلك القوى المادية الطاغية الباغية التى يقود حركتها اليهود ومن على شاكلتهم ، ولا مفر من تدمير هذا المخطط الصهيونى !

وينبغي للمسلم ألا يتمتم ولا يجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة.. ينبغى ألا يستشعر الخجل من حقيقة منهجه الرباني .. ينبغى أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق فى الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده، وتحطيم ألوهية العبيد !

إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر ، ولا ينطلق لتقرير سلطان أو جنس كما يفعل اليهود ومن على شاكلتهم، إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد، ليقوموا بالزراعة كالرومان، ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية، ولا لغرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية الهدامة !

إنما ينطلق بمنهج ربانى كريم، لتقرير ألوهية الله وحده وسلطانه، لتحرير الإنسان في الأرض من العبودية للعبيد !

وإذا كانت الغاية من إعداد القوة ـ كما أسلفنا ـ إرهاب العدو وتخويفه، فمن المعلوم أن هذا لا يتأتى عن طريق شراء الأسلحة من الخارج، ولا سيما إذا كان ذلك لا يتم فى الغالب إلا عن طريق العدو اليهودى ومن على شاكلته، والكفر ملة واحدة.. ومن ثم فهم يعرفون ما عندنا من سلاح، ويعرفون موطن النقص في إعدادنا ، وعليه فهم لا يخافون منا ولا يرهبون جانبنا ، وحروبنا الحديثة مع الصهيونية خير شاهد!

والآية تدفعنا دفعا إلى أن نبذل كل ما في استطاعتنا:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾

والاستطاعة فى الواقع ـ كما يقول المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود [1] ـ لا حدود لها ، وهذا الإعداد إذن لا ينتهى، ولا يفتر فى يوم من الأيام.

ومن ثم فإن كلمة «**قوة**» وردت نكرة، لتشمل جميع أنواع القوة ... وإذا نظرنا إلى

---

(١) الجهاد : ١٤ من أعمال المؤتمر الرابع للبحوث الإسلامية ١٩٦٨م .

تاريخنا كأمة وجدنا معالم فى هذا المقام، حيث تسلحت أمتنا حينا من الدهر بما أخاف أعداءها، فعاشت مهيبة الجانب، مرهوبة المكانة!

ومن المعلوم بالبداهة ـ كما فى المنار(١) ـ أن إعداد المستطاع من القوة يختلف امتثال الأمر الربانى به باختلاف درجات الاستطاعة فى كل زمان ومكان بحسبه..

يروى مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ، وهو على المنبر يقول:

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. ألا إن القوة الرمى. ألا إن القوة الرمى. ألا إن القوة الرمى» (٢).

وإطلاق الرمى فى الحديث يشمل كل ما يُرمي به العدو من سهم أو قذيفة، أوطيارة، أو صاروخ، وغير ذلك، وإن لم يكن هذا معروفا فى عصره ﷺ، فإن اللفظ يشمله، والمراد منه يقتضيه.. وما يدرينا لعل الله تعالى أجراه على لسانه ﷺ مطلقا هكذا، ليدل على العموم لأمته، فى كل عصر، بحسب ما يرمى به فيه..

وها نحن نعيش هذا العصر الذى يمتلك فيه العدو الصهيونى من وسائل الفتك والبطش ما يشهد به الواقع الأليم، مما يندى له الجبين!

وهذا يدفعنا إلى ضرورة الإعداد وفق مقتضيات العصر، بل وفق مقتضيات ما نرهب به اليهود؛ لأن الله عز وجل يقول:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾

ولفظ الآية أدل على العموم؛ لأنه أمر بالمستطاع، موجه إلى الأمة فى كل زمان ومكان وجيل وقبيل.. والواجب على المسلمين فى هذا العصر بنص القرآن الكريم صنع الأسلحة التى ترهب اليهود ومن على شاكلتهم، كما يجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التى يتوقف عليها صنع هذه الأسلحة..

وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب..

وقد ذكر الآلوسى فى تفسيره ما نصه:

---

(١) تفسير المنار: ١٠ : ٦١ وما بعدها بتصرف.

(٢) مسلم: ٣٣ ـ الإمارة ١٦٧ (١٩١٧) وأبو داود (٢٥١٤) والترمذى (٣٠٨٣) وابن ماجه (٢٨١٣) والحاكم: ٢ : ٣٢٨ وأحمد: ٤ : ١٥٧.

وأنت تعلم أن الرمى بالنبال اليوم لا يصيب هدف القصد من العدو؛ لأنهم استعملوا الرمي بالبندق والمدافع، ولا يكاد ينفع معها نبل . وإذا لم يقابلوا بالمثل عم الداء العضال، واشتد الوبال والنكال ، وملك البسيطة أهل الكفر والضلال، فالذى أراه، والعلم عند الله تعالى، تعين تلك المقابلة على أئمة المسلمين، وحماة الدين ولعل فضل ذلك الرمى يثبت لهذا الرمي، لقيامه مقامه في الذب عن بيضة الإسلام.

وقد جزم العلماء قبله ــ كما قال صاحب المنار ــ بعموم نص الآية :

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾

قال الرازى بعد أن أورد ثلاثة أقوال فى تفسيرها، منها: الرمى الوارد فى الحديث: قال أصحاب المعانى:

الأوْلى أن يقال : إن هذا عام فى كل ما يتقوى به على حرب العدو، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة ..

وقد دلت هذه الآية ــ كما يقول القاسمى [1] ــ على وجوب إعداد القوة الحربية، اتقاء بأس العدو وهجومه. ولما عمل الأمراء بمقتضي هذه الآية، أيام حضارة الإسلام، كان الإسلام عزيزا عظيما، أبى الضيم، قوى القنا، جليل الجاه، وفير السنا، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض ، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار، وخضد شوكة المستبدين الكافرين ، وزحزح سجوف الظلم والاستبعاد، وعاش بنوه أحقابا متتالية، وهم سادة الأمم ..

وأما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ، ومالوا إلى النعيم والترف، فأهملوا فرضا من فروض الكفاية ، فأصبحت الأمة جميعها آثمة بترك هذا الفرض ، ولذا تعانى اليوم من غصته ما تعانى، وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية، التى لا ترى فيها معامل للأسلحة ، وذخائر الحرب، بل كلها مما يشترى من بلاد العدو؟!

أما آن لنا أن نتنبه من غفلتنا ، وننشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية؟ فلقد ألقى عليها تنقص العدو بلادها من أطرافها درسا يجب أن تتدبره، وتتلافى ما فرطت به !

نعم ، هذا ما فعله اليهود منذ قامت بيننا وبينهم الحروب!

---

(١) تفسير القاسمى : ٨ : ٣٠٢٥ بتصرف.

فهل آن لنا أن نصحو من غفلتنا، ونتنبه من غفوتنا، وندرك حقيقة ما نحن عليه وما عليه اليهود؟ إنه لابد من الإعداد لمواجهة اليهود بما يرهبهم!

يقول المرحوم الشيخ شلتوت[1] : ورحم الله ذلك الزمان الذي كانت فيه آيات القرآن فى قلوب حامليها أقوى حافز على التضحية بالنفوس في سبيل إنقاذ الدولة ورد الطغيان عنها، وتعسا وخزيا لزمن جعل فيه العلم وحفظ القرآن عنوانا على عجز أهله، حتى اتخذوا علمهم بالدين، وحفظهم للقرآن وسيلة من الوسائل التى تبررهم فى الجبن والضعف والخور !

وقد تناقلت الأخبار أن أحبار اليهود كانوا فى مقدمة من شاركوا فى الحروب بيننا وبينهم عام ١٩٦٧، حتى يعطوا الحرب قداسة ويدفعوا الجنود إلى المواجهة، أما نحن فالواقع يندى له الجبين !

إنها معركة عقيدة ـ كما أسلفنا ـ وعلينا أن نرتفع إلى مستوى المواجهة مع هؤلاء اليهود إخوان القردة والخنازير !

والرسول الحبيب المحبوب ﷺ كان يدرب رجاله على فنون الحرب، واشترك معهم فى الاستعداد للمعارك، بل والمشاركة فيها، كما هو معلوم، وقد زود هؤلاء الرجال بثقافة إسلامية لا تعلوها ثقافة، ألا وهى ثقافة القرآن والسنة، ولعلنا نذكر أن التفكير فى جمع القرآن الكريم كان من بواعثه الخوف أن يذهب بذهاب هؤلاء القراء الذين كانوا أكثر القوم إقداما وبسالة فى القتال ، وكان هذا الإقدام سببا فى أن يستحر القتل فيهم ، وأن يهرع أصحاب رسول الله إلى خليفة رسول الله يستنهضونه فى سرعة العمل على جمع هذا القرآن...

والرسول الحبيب المحبوب ﷺ كان يحرضهم على ركوب البحر، وذلك فيما رواه الشيخان وغيرهما عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه سمعه يقول:

كان رسول الله ﷺ يدخل على أم حرام بنت مِلْحان فتطعمه ، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ ، فأطعمته، وجعلت تَفْلى رأسه، فنام رسول الله ﷺ ، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت فقلت: وما يُضحكك ؟ يا رسول الله ؟ قال:

---

(١) تفسير القرآن الكريم : ٢٥٠.

«ناس من أمتي عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ هذا البحر، ملوكا على الأسرة» أو «مثل الملوك على الأسرة».

شك إسحاق قالت فقلت: يا رسول الله ! ادع الله أن يجعلنى منهم. فدعا لها رسول الله ﷺ . ثم وضع رأسه، ثم استيقظ وهو يضحك . فقلت : وما يضحكك يا رسول الله ؟ قال:

«ناس من أمتى عُرضوا عليّ غزاة في سبيل الله » .

كما قال فى الأول. قالت فقلت: يا رسول الله ! ادع الله أن يجعلنى منهم ، قال :

« أنت من الأوَّلين » .

فركبتْ البحر فى زمان معاوية بن أبى سفيان ، فصُرعت عن دابتها، حين خرجت من البحر فهلكت [١] .

يقول النووى:[٢] اتفق العلماء على أنها كانت محرما له ﷺ ، واختلفوا فى كيفية ذلك، فقال ابن عبد البر وغيره: كانت إحدى خالاته من الرضاعة، وقال آخرون: بل كانت خالة لأبيه أو لجده، لأن عبد المطلب كانت أمه من بنى النجار.

وقد كشف القرآن الكريم للمؤمنين عن منابع القوة وعناصرها، وأمرهم بالبحث عنها، واستخدامها ومسايرة التقدم البشرى، والسبق فى الكشف والاختراع والسلطان، وبين لهم أنها فى الحديد وما يستخرج منه من المصنوعات النافعة بواسطة النار التى هى أقوى منه كنتيجة للفكر والعمل ، وأثبت لهم هذه الحقيقة ، حتى جعلها عقيدة، لا قيام لدينهم ولا لدولتهم إلا بها ، حيث أعلمهم أن الله سبحانه أنزل الحديد مع الكتاب إشارة إلى أن القوة مع الحق ـ كما يقول المرحوم الشيخ شلتوت[٣] ـ ولا قيام له إلا بها، فقال تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[٤] .

---

(١) البخارى: ٥٦ ـ الجهاد (٢٧٨٨)، (٢٧٨٩) ومسلم: ٣٣ ـ الإمارة ١٦٠ (١٩١٢)، والموطأ: ٢١ ـ الجهاد (٣٩)، وأبو داود (٢٤٩٠ ـ ٢٤٩٢)، والترمذى (١٦٤٥)، والنسائى: ٦: ٤٠ ـ ٤١.

(٢) مسلم بشرح النووى: ١٣ : ٥٧ ـ ٥٨. (٣) تفسير القرآن الكريم : ٢٤٨. (٤) الحديد: ٢٥.

وهذه إشارة إلى ما فى الحديد من قوة لشد عضد المسلمين فى التمسك بحقهم، والمحافظة عليه، ولنتأمل قوله تعالى فى هذه الآية..

وكيف زاوج بين الكتاب والميزان وبين الحديد فى أنه أنزل الجميع فى آن واحد، وكيف خلع على الحديد الذي به قوام الميزان وحفظ القسط هذين الوصفين: البأس الشديد والنفع العظيم.. نتأمل هذا ثم ننظر مما تتخذ أدوات القتال برية وبحرية وجوية .. ثم نتأمل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾

لنعلم أن نصر الله معقود لمن سخر الحديد واتخذ منه القوة والبأس (١).

وفى هذه السورة ـ سورةالحديد ـ إشارة إلى شيء من أحوال أهل الكتاب، ومواقفهم السابقة والحاضرة فى ذلك الأوان (٢)، كالإشارة السابقة إلى قسوة قلوبهم عند تحذير الذين آمنوا أن يكونوا:

﴿ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (٣).

وهى إشارة إلى اليهود خاصة فى الغالب ـ كما سبق ـ وكالإشارة إلى النصارى قرب نهاية السورة فى قوله:

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (٤).

ثم يجيء الهتاف الأخير للذين آمنوا، وهم الحلقة الأخيرة في سلسلة المؤمنين، وورثة الرسالة الذين يقومون عليها إلى يوم الدين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (٥).

---

(١) الإسلام والعلاقات الدولية: ٤٩.
(٢) فى ظلال القرآن: ٦ : ٣٤٧٦ وما بعدها بتصرف.
(٣) الحديد: ١٦.
(٤) الحديد: ٢٧.
(٥) الحديد: ٢٨ ، ٢٩.

والنداء على هذا النحو: «يأيها الذين آمنوا» فيه لمسة خاصة لقلوبهم، واستحياء لمعنى الإيمان، وتذكير برعايته حق رعايته، واستجاشة للصلة التي تربطهم بربهم الذى يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب. وباسم هذه الصلة يدعوهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله. فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص.. معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار.

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾

وسواء قلنا بما ذهب إليه ابن عباس رضى الله عنهما، حيث حمل هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما في الآية التى فى القصص ـ كما سبق ذكر ذلك بالتفصيل ـ وأنه قد وافقه الضحاك وعتبة بن أبى حكيم وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير [١]، أو بما ذهب إليه سعيد بن جبير حيث قال: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، أنزل الله تعالى هذه الآية في حق هذه الأمة.. سواء قلنا بهذا أو بذاك فإن الظاهر أن لفظ الآية أعم، وأن المقصود بها ـ كما قال القاسمى [٢] ـ حث كل من آمن بالنبى ﷺ على الثبات فى الإيمان والرسوخ فيه، والانصياع لأوامره.. ومنه ما حرض عليه فى الآيات قبلها من الإنفاق فى سبيله، وسخاوة النفس فيه .. وأن لهم فى مقابلة ذلك أجرا وافرا، كما فى أول السورة.

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [٣].

فآخر السورة فيه رجوع لأوائلها بتذكير ما أمرت به، وما سبق نزولها لأجله.

وفى التعبير القرآنى ﴿ **يؤتكم كفلين من رحمته** ﴾ زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض...

﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وهذا العطاء هبة لدنية، يودعها الله القلوب التى تستشعر تقواه، وتؤمن حق الإيمان برسوله.. هبة تنير القلوب فتشرق، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز، ومن وراء الأشكال والمظاهر، فلا تتخبط، ولا تلتوى بها الطريق.. وتكون المغفرة والرحمة ..

﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ﴾

فقد كان أهل الكتاب ـ كما سبق ـ يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله

---

(١) تفسير الطبرى: ٢٧ : ٢٤١ وما بعدها، وتفسير ابن كثير: ٤ : ٣١٧.

(٢) تفسير القاسمى: ١٦ : ٥٧٠١. (٣) الحديد: ٧.

وأحباؤه .. ومن ثم كانت دعوة الذين آمنوا إلى استحقاق رحمة الله وجنته ومغفرته، حتى يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على احتجاز شيء من فضله:

﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

وهي دعوة فيها تخصيص واستجاشة واستثارة للسباق إلى الجنة والرحمة..

وإذا عرف المسلمون قيمة فضل الله عليهم وعلى الناس بهذا الحديد الذى أنزله، فليعرفوا أنه جعل الحديد رادعا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، وليذكروا فضل الله على نبيه داود عليه السلام، فى إلهامه طرق الانتفاع بالحديد، لتكون لنا منه العبرة والذكرى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾[1].

وفى هذا ما يدفع المسلمين ـ كما يقول المرحوم الشيخ شلتوت[2] ـ إلى إنشاء المصانع التى تخرج لهم ما يحتاجون إليه في حفظ حياتهم، وتعصمهم من التطلع إلى ما فى أيدى أعدائهم، غير مشغولين بشيء سوى الافتنان والتعجب منه، والوقوف أمامه كالمبهوت المستغرب.

وقد علم الحق تبارك وتعالى داود عليه السلام صناعة أسلحة القتال، فقال جل شأنه:

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾[3].

يقول القرطبى[4] : هذه الآية أصل فى اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب ، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء، فالسبب سنة الله فى خلقه، فمن طعن فى ذلك فقد طعن فى الكتاب والسنة .. وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع.. والصنعة يكفّ بها الإنسان نفسه عن الناس، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس.

---

(١) سبأ: ١٠ ـ ١٣.
(٢) تفسير القرآن الكريم: ٧٤٧.
(٣) الأنبياء: ٨٠.
(٤) تفسير القرطبى: ١١: ٣٢١ بتصرف.

والمسلمون مأمورون بالسبق فى هذا المضمار الذى لا نهاية له ، حتى يحققوا أمر الله تعالى فى إعداد الأسلحة التى ترهب عدوهم ..

وقد كان سلفنا الصالح على مستوى المسئولية وكانوا قادة فسادوا العالم، وقادوا الشعوب، ونشروا لواء الإسلام .

يقول « لوبو » عند الكلام عن حصار دمشق سنة ٦٣٤ :

تعلم المسلمون من العرب الذين كانوا استخدموا فى كتائب الإمبراطورية البيزنطية صنع آلات الحرب واستعمالتها فكانوا يضربون هذه المدنية بشدة [١].

وقد عرفنا أن الغرض من إعداد القوة إلقاء الرعب والرهبة فى قلوب هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم، الذين هم أعداء العصبة المؤمنة فى الأرض [٢] الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون ، ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم، أو لم يجهروا لهم بالعداوة ، والله يعلم سرائرهم وحقائقهم. وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم ..

والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين فى الأرض ، ولتكون كلمة الله هى العليا ، وليكون الدين كله لله:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾

ولما كان إعداد العدة يقتضي أموالا، وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال فى سبيل الله:.

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾

وهكذا يجرد الإسلام الجهاد والنفقة فى سبيله، من كل غاية أرضية ، ومن كل دافع شخصى، ومن كل شعور قومى أو طبقى ، ليتمخض خالصا « فى سبيل الله » لتحقيق كلمة الله، ابتغاء رضوان الله.

ومن ثم ينفى الإسلام من حسابه ـ منذ الوهلة الأولى ـ كل حرب تقوم على أمجاد الأشخاص والدول ! وكل حرب تقوم للاستغلال وفتح الأسواق! وكل حرب تقوم

---

(١) آيات الجهاد فى القرآن الكريم: ١١٩ نقلا عن: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية: باريس سنة ١٦٧٨.
(٢) فى ظلال القرآن : ٣: ١٥٤٤ بتصرف.

للقهر والإذلال! وكل حرب تقوم لتسويد وطن على وطن ، أو قوم على قوم، أو جنس، أو طبقة على طبقة !

ويستبقى نوعا واحدا من الحركة..

حركة الجهاد فى سبيل الله عز وجل..

والله سبحانه لا يريد تسويد جنس ولا وطن ولا قوم ولا طبقة ولا فرد ولا شعب..

إنما يريد أن تسود ألوهيته وحاكميته .. وهو غنى عن العالمين.

ولكن هذه السيادة هى وحدها التى تكفل الخير والبركة والحرية والكرامة للعالمين.

سمات أصيلة:

وما دمنا نتحدث عن قتال أهل الكتاب، فإن علينا أن نتصور ما حدث من اليهود الذين تعجلوا الشر فباءوا به، ومن ثم كان القتال ضرورة ـ كما سبق ـ وعلينا في الوقت ذاته أن نتذكر قول ابن القيم في ترتيب سياق هدى النبى ﷺ مع هؤلاء ومن على شاكلتهم، لأنه ـ كما عرفنا ـ تلخيص جيد لمراحل الجهاد فى الإسلام، تتجلى فيه سمات أصيلة عميقة [1] .

السمة الأولى: هى الواقعية الجدية في منهج هذا الدين القيم.. فهو حركة تواجه واقعا بشريا من اليهود ومن على شاكلتهم .. إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية ـ كما سبق فى حديثنا عن الفكر اليهودى ـ تقوم عليها أنظمة واقعية عملية، تسندها سلطات ذات قوة مادية .. ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع اليهودى والوثنى كله بما يكافئه.. وهذا معلوم من أحداث السيرة، حيث كانت المعارك متنوعة، تارة مع المشركين، وتارة مع اليهود، وتارة معهما معا، وتارة مع النصارى، وهكذا ...

وهذا يدفعنا إلى ضرورة دراسة السيرة النبوية ـ كما قلنا ـ دراسة موضوعية، وفق المنهج الذى نقدم به هذه الدراسات، حتى تتبين المعالم، مع ضرورة الالتزام بقواعد التحديث رواية ودراية، حتى نستطيع تقديم هذه المعالم وفق معايير النقد عند المحدثين، وتنقية الآثار الواردة من الإسرائيليات ، وفى الوقت نفسه نعرض أحداثنا المعاصرة على ما يقابلها من أحداث السيرة، حتى تكون الدراسة منهجية موضوعية علمية تربوية معاصرة..

وهذه الحركة الإسلامية تواجه الواقع بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات،

---

(١) المرجع السابق: ١٤٣٢ بتصرف.

وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة هذا الباطل ومن يحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات، وتخضعهم بالقهر والتضليل، وتعبدهم لغير ربهم الجليل...

إنها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه هذا الطغيان، كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الناس.. وهذه كتلك سواء فى منهج هذا الدين، وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله عز وجل وحده .

والسمة الثانية : في منهج هذا الدين القيم : هي الواقعية الحركية . فهو حركة ذات مراحل : كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية . وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها ـ كما سبق أن عرفنا ـ فهو لا يقابل الواقع اليهودى وغيره بنظريات مجردة . كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة .. والذين يسوقون النصوص من الكتاب والسنة للاستشهاد بها على منهج هذا الدين القيم فى الجهاد، ولايراعون هذه السمة فيه، ولايدركون طبيعة المراحل التى مر بها هذا المنهج، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مراحلها .. والذين يصنعون هذا يخلطون خلطا شديدا، ويحملون هذه النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد..

والسمة الثالثة : هى أن هذه الحركة الدائبة، والوسائل المتجددة، لاتخرج هذا الدين عن قواعده المحددة، ولاعن أهدافه المرسومة. فهو منذ اليوم الأول .. سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين، أو يخاطب قريشا، أو يخاطب العرب أجمعين، أو يخاطب أهل الكتاب، أو يخاطب العالمين، إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة، ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد.. هو إخلاص العبودية لله، والخروج من العبودية للعباد .. لامساومة فى هذه القاعدة .. ثم تمضى إلى تحقيق هذا الهدف الواحد، فى خطة مرسومة، ذات مراحل محددة، ولكل مرحلة وسائلها المتجددة، كما عرفنا فى سياق هدي النبى ﷺ مع هؤلاء جميعا..

والسمة الرابعة: هى ذلك الضبط التشريعى للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى .. وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمى الذى على أهل الكتاب ومن على شاكلتهم أن يفيئوا إليه، أو أن يسالموه. بجملته .. ومن ثم لايقبل منهم أن يقفوا لدعوته بأى حائل من نظام سياسى، أو قوة مادية .. وإنما عليهم أن يتركوا لكل إنسان أن يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته . على ألايقاومه ولايحاربه !

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير « الإنسان » فى « الأرض » من العبودية للعباد .. ومن العبودية لهواه أيضا .. وذلك بإعلان ألوهيته الله وحده وربوبيته للعالمين .. لاكما يزعم اليهود بأن لهم إلها خاصا بهم، يطلقون عليه ــ كما سبق ــ كلمة « يهوه » وفى هذا يقول « ول ديورانت » :

يبدو أن الفاتحين اليهود عمدوا إلى أحد آلهة كنعان فصاغوه فى الصورة التى كانوا هم عليها، وجعلوا منه إلها، ويؤيد ذلك أن من بين الآثار التى وجدت فى كنعان سنة ١٩٣١م قطعا من الخزف من بقايا عصر البرنز (٣٠٠٠ ق م) عليها اسم إله كنعانى يسمى « ياه » أو « ياهو » [(١)].

وعلى هذا تكون كلمة « يهوه » معروفة قبل ميلاد إبراهيم عليه السلام!

وفى أسفارهم المقدسة أن إبراهيم عرف « يهوه » بلفظه ومعناه !

ومن ثم كانت المواجهة مع اليهود !

إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها : الثورة الشاملة على الجاهلية فى كل صورها وأشكالها !

وإن هذا الإعلان معناه تحطيم الجاهلية فى الاعتقاد والتصور، لإقامة دين الله، كما يحب الله :

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [(٢)].

إنها لدعوة منصفة من غير شك [(٣)]. دعوة لايريد بها الرسول الحبيب والمحبوب ﷺ أن يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين .. كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى

(١) مقارنة الأديان : اليهودية : ١٦٠ نقلا عن قصة الحضارة : ٢ : ٣٤٠ .

(٢) آل عمران : ٦٤ــ٦٨ . (٣) المرجع السابق : ١ : ٤٠٦ بتصرف .

واحد .. لايعلو بعضهم على بعض، ولايتعبد بعضهم بعضا .. دعوة لا يأباها إلامتعنت مفسد، لايريد أن يفيء إلى الحق القويم .

إنها دعوة إلى عبادة الله وحده لايشركون به شيئا، لابشرا ولاحجرا .. ودعوة إلى ألا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله . لانبيا ولارسولا : فكلهم لله عبيد .. إنما اصطفاهم الله للتبليغ عنه، لالمشاركته فى الألوهية والربوبية :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

فإن أبوا عبادة الله وحده دون شريك . والعبودية لله وحده دون شريك. وهما المظهران اللذان يقرران موقف العبيد من الألوهية .. إن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون .

وهذه المقابلة بين المسلمين وبين هؤلاء الذين يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، تقرر بوضوح حاسم من هم المسلمون ..إنهم هؤلاء الذين يعبدون الله وحده، ويتعبدون لله وحده، ولايتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله .. هذه هى خصيصتهم التى تميزهم من سائر الملل والنحل، وتميز منهج حياتهم من مناهج حياة البشر جميعا ..

إن الإسلام هو التحرر المطلق من العبودية للعبيد ..

وإن النظام الإسلامى هو وحده من بين سائر النظم هو الذى يحقق هذا التحرر ..

ومن ثم ينكر تبارك وتعالى ـ كما قال ابن كثير[1] ـ على اليهود والنصارى فى محاجتهم فى إبراهيم الخليل عليه السلام، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، كما قال محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ ، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار : ماكان إبراهيم إلايهوديا، وقالت النصارى : ماكان إبراهيم إلانصرانيا، فأنزل الله تعالى :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

أى كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهوديا، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة

---

(١) تفسير ابن كثير : ١: ٣٧٢ بتصرف .

على موسى، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانيا ، وإنما حدثت النصرانية بعده بدهر، ولهذا قال تعالى :

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

ثم قال تعالى :

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾

أي متحنفا عن الشرك، قاصدا إلى الإيمان :

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

وهذه الآية كقوله تعالى :

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(1) .

وهذه الحقيقة نبصرها في قوله :

﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾

ولكن إبرازها هنا يشير إلى عدة من لطائف الإشارة والتعبير :

يشير أولا إلى أن أهل الكتاب هؤلاء الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة ـ كما أسلفنا ـ مشركون .. ومن ثم لايمكن أن يكون إبراهيم يهوديا ولانصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما !

ويشير ثانيا إلى أن الإسلام شيء والشرك شيء آخر . فلا لقاء بينهما بحال من الأحوال .. والإسلام هو التوحيد المطلق بكل خصائصه، وكل مقتضياته .. ومن ثم لا يلتقى مع ألوان الشرك أصلا !

ويشير ثالثا إلى إبطال دعوى المشركين أنهم على دين إبراهيم، وسدنة بيته في مكة، فهو حنيف مسلم، وهم مشركون !

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

ومادام إبراهيم عليه السلام كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين، فليس لأى من أهل الكتاب أو المشركين أيضا أن يدعى وراثته، ولاالولاية على ذلك ، وهم بعيدون عن

---

(1) البقرة : ١٣٥ .

عقيدته.. والعقيدة هى الوشيجة الأولى التى يتلاقى عليها الناس فى الإسلام. حين لايلتقون على نسب ولا أرومة ولاجنس ولا أرض، إذا أنبتت تلك الوشيجة التى يتجمع عليها أهل الإيمان. فالإنسان فى ميزان الإسلام إنسان بروحه. بالنفخة التى جعلت منه إنسانا .. ومن ثم فهو يتلاقى على العقيدة أخص خصائص الروح فيه. ولايلتقى على مثل ماتلتقى عليه البهائم من الأرض والجنس والكلأ والمرعى والحد والسياج ! والولاية بين فرد وفرد، وبين مجموعة ومجموعة، وبين جيل من الناس وجيل ، لاترتكن إلى وشيجة أخرى سوى وشيجة العقيدة. يتلاقى فيها المؤمن والمؤمن. والجماعة المسلمة والجماعة المسلمة. والجيل المسلم والأجيال المسلمة، ومن وراء حدود الزمان والمكان، ومن وراء فواصل الدم والنسب، والقوم والجنس، ويتجمعون أولياء ـ بالعقيدة وحدها ـ والله من ورائهم ولى الجميع :

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

فالذين اتبعوا إبراهيم فى حياته، وساروا على منهجة، واحتكموا إلى سنته هم أولياؤه.. ثم هذا النبى الذى يلتقى معه فى الإسلام بشهادة الله أصدق الشاهدين .. ثم الذين آمنوا بهذا النبى ﷺ، فالتقوا مع إبراهيم عليه السلام فى المنهج والطريق :

﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

فهم حزبه .. ينتمون إليه، ويستظلون برايته، ويتولونه ولايتولون أحدا غيره .. وهم أسرة واحدة. وأمة واحدة . من وراء الأجيال والقرون، ومن وراء المكان والزمان، ومن وراء القوميات والأجناس، ومن وراء الأرومات والبيوت !

فأين اليهود ومن على شاكلتهم من ذلك ؟!

إن هذه الصورة هى أرقى صورة للتجمع الإنسانى تليق بالكائن الإنسانى .. وتميزه من القطيع ! كما أنها هى الصورة الوحيدة التي تسمح بالتجمع بلا قيود، لأن القيد الواحد فيها اختيارى يمكن لمن يشاء أن يفكه عن نفسه بإرادته الذاتية . فهو عقيدة يختارها بنفسه فينتهى الأمر .

على حين لايملك الفرد أن يغير جنسه إن كانت رابطة التجمع هى الجنس كما يفعل اليهود !

ولايملك أن يغير قومه ... إن كانت رابطة التجمع هى القوم ... كما يفعلون أيضا !

ولايملك أن يغير لونه .. إن كانت رابطة التجمع هى اللون !

ولا يملك ــ بيسر ــ أن يغير لغته .. إن كانت رابطة التجمع هى اللغة !

ولا يملك ــ بيسر ــ أن يغير طبقته .. إن كانت رابطة التجمع هى الطبقة !

بل قد لا يستطيع أن يغيرها أصلا إن كانت الطبقات وراثة كما فى الهند مثلا !

ومن ثم تبقى الحواجز قائمة أبدا دون التجمع الإنسانى ما لم ترد إلى رابطة العقيدة والتصور .. الأمر المتروك للاقتناع الفردي ، والذى يملك الفرد بذاته، بدون تغير أصله أو لونه أو طبقته أن يختاره ، وأن ينضم إلى الصف على أساسه .

وذلك فوق مافيه من تكريم للإنسان، يجعل رابطة تجمعه مسأله تتعلق بأكرم عناصره، المميزه له من القطيع !

والبشرية إما أن تعيش ــ كما يريدها الإسلام ــ أناسيّ تتجمع على زاد الروح وسمة القلب وعلامة الشعور .. وإما أن تعيش قطعانا خلف سياج الحدود الأرضية، أو حدود الجنس ــ كما يفعل اليهود ومن على شاكلتهم ــ وكلها حدود وقيود وسدود مما يقام للماشية فى المرعى حتى لايختلط قطيع بقطيع !

إن هذا الإعلان العام لتحرير « الإنسان » فى « الأرض »(١) من كل سلطان غير سلطان الله، بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين، لم يكن إعلانا نظريا فلسفيا سلبيا .. إنما كان إعلانا واقعيا إيجابيا .. إعلانا يراد له التحقيق العملى في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلاشريك .. ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل الواقعية الإيجابية إلى جانب شكل البيان .. ذلك ليواجه هذا الواقع اليهودى ومن على شاكلته بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه !

والواقع اليهودى ومن على شاكلته، أمس واليوم وغدا، يواجه هذا الدين القيم ــ بوصفه إعلانا عاما لتحرير « الإنسان » فى « الأرض » من كل سلطان غير سلطان الله ــ بعقبات اعتقادية تصورية، وعقبات مادية واقعية .. ، ومن ثم كان الغزو الفكرى بكل صوره وأشكاله حربا مريرة يقود حركتها أهل الكتاب ومن على شاكلتهم .. عقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية، إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورت الباطلة.. وتختلط هذه بتلك . وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد ..

---

(١) المرجع السابق : ٣: ١٤٣٤ بتصرف .

ومن ثم كان قتال اليهود ضرورة لدعوة الحق، مادامت الأهداف هى إعلان تحرير «الإنسان» إعلانا جادا يواجه الواقع الفعلى بوسائل مكافئة له فى كل جوانبه، ولايكتفى بالبيان الفلسفى النظرى السلبى:

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (١).

الحرب المقدسة :

يقول أبو الأعلى المودودى (٢) : لقد جرت عادة الإفرنج أن يعبرو عن كلمة « الجهاد» «بالحرب المقدسة » « HOIYWAR » إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم، وقد فسروها تفسيرا منكرا، وتفننوا فيها، وألبسوها ثوبا فضفاضا من المعانى المموهة الملفقة، وقد بلغ الأمر فى ذلك أن أصبحت كلمة « الجهاد » عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدماء . وقد كان من لباقتهم وحسن بيانهم وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة أنه كلما قرع سمع الناس صورة هذه الكلمة « الجهاد » تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة، مصلتة السيوف، متقدة الصدور، بنار التعصب والغضب، متطايرا من عيونها شرار الفتك والنهب، عالية الأصوات، بهتاف « الله أكبر » زاحفة إلى الأمام، ما إن رأت كافرا حتى أمسكت بخناقه، وجعلته بين أمرين :

إما أن يقول كلمة « لا إله إلا الله » فينجو بنفسه .

وإما أن يضرب عنقه ، فتشخب أوداجه دما.

ولقد رسم الدهاة هذه « الصورة » بلباقة فائقة، وتفننوا فيها بريشة المتفنن المبدع ،

---

(١) التوبة : ٢٩ ـ ٣٢.

(٢) الجهاد فى سبيل الله : ٥ ومابعدها بتصرف ، وظلال القرآن : ٣: ١٤٤٤ ومابعدها .

وكان من دهائهم ولباقتهم فى هذا الفن أن صبغوها بصبغ من النجيع الأحمر، وكتبوا تحتها:

« هذه الصورة مرآة لما كان بسلف هذه الأمة من شره إلى سفك الدماء، وجشع إلى الفتك بالأبرياء »!

والعجب كل العجب، أن الذين عملوا هذه الصورة، وقاموا بما كان لهم من حظ موفور فى إبرازها وعرضها على الأنظار، هم الذين مضت عليهم قرون وأجيال يتقاتلون ويتناحرون فيما بينهم، إرضاء لشهواتهم الدنيئة، وإطفاء لأوار مطامعهم الأشعبية!

وتلك هى حربهم الملعونة غير المقدسة، التى آثاروها على الأمم المستضعفة، فى مشارق الأرض ومغاربها، وجاسوا خلال ديارهم يبحثون عن أسواق لبضائعهم، وأراض لمستعمراتهم التى يريدون أن يستعمروها، ويستبدوا بمنابع ثروتها، دون أصحابها الشرعيين وهم يفتشون عن المناجم وعن المعادن وعما تغله أرض الله الواسعة من الحاصلات التى يمكن أن تكون غذاء لبطون مصانعهم ومعاملهم، ويبحثون عن كل ذلك، وقلوبهم كلها جشع وشره إلى المال والجاه، وبين أيديهم الدبابات المدججة، وفوق رؤوسهم الطائرات المحلقة فى جو السما، ووراء ظهورهم مئات الألوف من العساكر المدربة، يقطعون على البلاد سبل رزقها، وعلى أهاليها الوادعين طريقهم إلى الحياه الكريمة، يريدون بذلك أن يهيئوا وقودا لنيران مطامعهم الفاحشة التى لاتزيدها الإيام إلا التهابا واضطرابا!

فلم تكن حروبهم فى « سبيل الله » وإنما كانت « فى سبيل شهواتهم الدنيئة، وأهوائهم الذميمة، ومطامعهم الأشعبية!

وإن تعجب فعجب حملاتهم وغاراتهم على شعوب وادعة آمنة، لم تكن من ذنبها إلا أن الله قد أنعم عليها بمعادن وكنوز فى أرضها. أو أنها كانت تملك تربة خصبة تغل أنواعا من الحبوب وخيرات الأرض، وإن لم يكن هذا ولا ذاك، فبحسبها ذنبا أنها يمكن أن تكون سوقا لبضائعهم النافقة، أو مستعمرة لبنى جلدتهم الذين ضاقت عليهم أرضهم فلفظتهم!

وأدهى من كل ذلك وأمر أنهم كثيرا مايغيرون على بلاد آمنة مطمئنة، بمجرد أنها تقع فى طريقهم إلى بلاد قد استولوا عليها من قبل، أويريدون الآن أن يستولوا عليها، ويأخذوا زمام أمرها بأيديهم!

هذه هى حال الذين يصموننا بالغزو والقتال . والذى سبق لنا من أعمال الفتوح والحروب المشروعة قد مضت عليها أحقاب طويلة!

أما أعمالهم المخزية هذه ـ والتى نبصرها الآن شاخصة منذ أكثر من أربعين عاما فى فلسطين ـ وما يزالون يقترفونها ليل نهار، بمرأى ومسمع من العالم المعاصر ! فهذه حرب مقدسة عندهم ! ونخطئ كثيرا حين نطلق نحن هذا الاسم « الحرب المقدسة » !

وأى بلاد الله، ياترى، قد سلمت من عدوانهم، وماتخضبت أراضيها بدماء أبنائها ؟!

وأية هذه القارات ماذاقت وبال تلك الحروب الملعونة ؟!

لكن هؤلاء الدهاة رسموا صورتنا بلباقة منكرة، وأبدأوا وأعادوا فى عرضها بشكل هائل بشع، قد سحب ذيل النسيان على صورتهم الذميمة، حتى لايكاد يذكرها أحد بجانب الصورة المنكرة التى صوروا بها تاريخنا ومآثر أسلافنا !

ومن ثم قال اليهود فى حرب ٦٧: إلى خيبر ! ولكن فاتهم أن الدائرة عليهم؛ لأن كثيرين من المسلمين اليوم أدركوا حقيقة الموقف ، وضرورة العودة إلى الله، والتجمع تحت لواء الإسلام .

وعلى كلٍ .. فما أعظم دهاءهم ، وما أبرعهم فى التزوير والتمويه !

قذائف الحق :

إن الجهاد الإسلامى ليس بجهاد لا غاية له، وإنما هو الجهاد فى « سبيل الله» وقد لزمه هذا الشرط لاينفك عنه أبدا :

﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[1].

إن الإسلام لايعرف قتالا إلا فى هذا السبيل .. لايعرف القتال للغنيمة ! ولايعرف

---

(١) النساء : ٧٤ ـ ٧٦ .

القتال للسيطرة ! ولايعرف القتال للمجد الشخصى أو القومى !

ومن ثم فإن النكسات توالت فى معاركنا مع اليهود منذ رفع الشعار القومى، وكأن كلمة « **فى سبيل الله** » لم تعد تصلح ! إن علينا أن نحذر تلك الشعارات البراقة الخداعة، وأن نلزم النصوص القرآنية التى تحدد شرط الجهاد بأنه « **فى سبيل الله** ».

إنه لايقاتل إلا « **فى سبيل الله** » لإعلاء كلمة الله فى الأرض ، ولتمكن منهجة من تصريف الحياة . ولإسعاد البشرية بخيرات هذا المنهج ، وعدله المطلق بين الناس مع ترك كل فرد حرا فى اختيار العقيدة التى يقتنع بها .. فى ظل المنهج الربانى الإنسانى العالمى العام ..

ومن ثم فإن اليهود يخافون أشد الخوف من أن يتكون جيل يعرف ذلك؛ لأنهم حينئذ يواجهون قوما يحبون الموت فى سبيل الله كما يحبون هم الحياة الدنيا، فالموت فى سبيل الله حياة :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ (٢) .

إن اليهود يخافون أشد الخوف من مواجهة هؤلاء الذين يحملون أعناقهم على أكفهم طلبا للشهادة؛ لأنهم يعرفون نتيجة القتال حينئذ ، والتاريخ قديما وحديثا يشهد بذلك .. قديما حين خرجوا من الجزيرة .. وحديثا حين قابلوا المجاهدين فى الأربعينات من هذا القرن العشرين .. ومن ثم يخافون أشد الخوف من مواجهة الإسلاميين الذين يقاتلون « **فى سبيل الله** ».

وإن هذا التعبير القرآنى تعديل كامل لمفهوم الموت ـ متى كان فى سبيل الله ـ وللمشاعر المصاحبة له فى نفوس المجاهدين أنفسهم، وفى النفوس التى يخلفونها من ورائهم.. وإفساح لمجال الحياة ومشاعرها وصورها، بحيث تتجاوز نطاق هذه العاجلة، كما تتجاوز مظاهر الحياة الزائلة . وحيث تستقر فى مجال فسيح عريض ، لتعترضه

---

(١) آل عمران : ١٦٩ ـ ١٧١ .

(٢) البقرة : ١٥٤ .

الحواجز التى تقوم فى أذهاننا وتصوراتنا عن هذه النقلة من صورة إلى صورة ، ومن حياة إلى حياة!

والذين يضحون بأرواحهم « **فى سبيل الله** » هم عادة أكرم القلوب وأزكى الأرواح، وأطهر النفوس، ومن ثم فإن اليهود يخافونهم أشد الخوف، ولكن غدا لناظره قريب، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ، ولهذا فإنهم يرصدون الحركة الإسلامية ويرقبونها ويعينون عليها حزب الباطل فى شتى صوره وأشكاله .

إن المسلم حين يقاتل هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم ، يقصد إعلاء كلمة الحق، وتمكين منهجه فى الحياة .. ويرجو إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة :

﴿ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

بهذه اللمسة [١] يتجه المنهج القرآنى إلى رفع هذه النفوس، وإلى تعليقها بالرجاء فى فضل الله العظيم، فى كلتا الحالتين. وأن يهون عليها ما تخشاه من القتل ، وما ترجوه من الغنيمة كذلك !

فالحياة الدنيا أو الغنيمة لا تساوى شيئا إلى جانب الفضل العظيم من الله..

كما يتجه إلى تنفيرها من الصفقة الخاسرة إذا هى اشترت الدنيا بالآخرة ولم تشتر الآخرة بالدنيا.. فهى خاسرة، سواء غنموا أو لم يغنموا فى معارك الأرض..

وأين الدنيا من الآخرة ؟

وأين غنيمة المال من فضل الله ؟ وهو يحتوى المال ــ فيما يحتويه ــ ويحتوى سواه ؟

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

وكيف تقعدون عن القتال فى سبيل الله ، واستنقاذ هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ؟ !

---

(١) فى ظلال القرآن: ٢ : ٧٠٨ بتصرف.

هؤلاء الذين ترتسم صورهم الآن فى الأرض المحتلة فى مشهد مثير لحمية المسلم، وكرامة المؤمن، ولعاطفة الرحمة الإنسانية على الإطلاق؟ !

هؤلاء الذين يعانون أشد المحنة والفتنة؛ لأنهم يعانون المحنة فى عقيدتهم، والفتنة في دينهم.. وقد رأيت قبل كتابة هذا الموضوع بدقائق ـ كما رأى الكثيرون ـ عبر شاشة التليفزيون، محاصرة اليهود للمسجد الأقصى حتى لا يتجمع المسلمون لأداء صلاة الجمعة الأخيرة من رمضان ! ومع كل هذا دخل المسلمون، وكان العدوان اليهودى !

إن المحنة فى العقيدة أشد من المحنة فى المال والأرض والنفس؛ لأنها محنة فى أخص خصائص الوجود الإنسانى، الذى تتبعه كرامة النفس والعرض، ويتبعه حق المال والأرض ! فكيف إذا كان العدوان اليهودى يشمل كل ذلك ؟ !

وإن مشهد المرأة الكسيرة والتى ألقت جنينها، والتى اعتدى عليها... لمشهد مؤثر مثير !

وإن مشهد الولد الضعيف الذي تكسر يده لمجرد أنه يحمل حجراً في وجه المدفع والدبابة والطائرة والصاروخ .. لمشهد مؤثر مثير !

ولا يقل عن هذا وذاك مشهد الشيوخ الذين لايملكون أن يدافعوا .. وإنه لمشهد مؤثر مثير !

هذا المشهد كله معروض في مجال الدعوة إلى الجهاد.. وهو وحده يكفي .. لذلك يستنكر القرآن القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

وهو أسلوب عميق الوقع، بعيد الغور فى مسارب الشعور والإحساس .. إن راية المسلم التى يحامى عليها هى عقيدته... وقد عرفنا من قبل أن اليهود يحاربوننا باسم عقيدتهم مع مافيها من وثنية وخرافات متعددة ! فلتتحول معركتنا معهم باسم الحق وفي سبيل الله ، حتى ينصرنا الله عليهم، حين تكون المقابلة بين الحق والباطل، وما علينا إلا أن نعلنها فى «سبيل الله » ومن ثم تكون قذائف الحق، ويكون إزهاق الباطل.. واليهود يعرفون هذا جيدا كما يعرفون أبناءهم.

وقد أخبرني أحد الإخوة الفلسطينيين بأن أحد المسئولين في الجيش اليهودي قال له: إننا نعرف أن حربا ستقوم بيننا وبينكم وأن الحجر سينطق بأن اليهودي سيكون وراءه، وأن هذا الحجر ينادي المسلم ليقتل اليهودي، فاتركونا بعض الوقت لنتمتع بالحياة!

وهي على كلٍّ طبيعة يهود!

وتأتي لمسة أخرى، لاستنهاض الهمم، واستجاشة العزائم، وإنارة الطريق، وتحديد القيم والغايات والأهداف:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾

وفي لمسة واحدة يقف الناس على مفرق الطريق.. وفي لحظة ترتسم الأهداف، وتتضح الخطوط ... وينقسم الناس إلى فريقين اثنين، تحت رايتين متميزتين:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾

والطاغوت ــ كما جاء في المنار (١) ــ هو ما تكون عبادته والإيمان به سببا للطغيان والخروج عن الحق، من مخلوق يعبد، ورئيس يقلد، وهوى يتبع ..

ومن ثم يكون التعجب من أمر هؤلاء اليهود الذين يؤمنون بالجبت والطاغوت:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ (٢).

إنهم هؤلاء الذين يشترون الضلالة، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويزكون أنفسهم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ

(١) تفسير المنار: ٣ : ٣٧، ٥ : ١٥٧.

(٢) النساء: ٥١ ــ ٥٢.

وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (١).

وسبق أن عشنا مع هذه الآيات وما فيها من دروس .. والكلام متصل بما قبله، فإنه تعالى ـ كما قال الشيخ محمد عبده (٢) ـ ذكر أن اليهود يؤمنون بالجبت والطاغوت .. وذكر من سوء حالهم ووعيدهم ما ذكر، ثم أمر المؤمنين بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل؛ لأن أولئك خانوا بجعلهم الكافرين أهدى سبيلا من المؤمنين، وأمرهم بطاعة الله ورسوله فى كل شيء، وطاعة أولى الأمر فيما يجمعون عليه، مختارين لا مسيطر عليهم فيه، وبرد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، في مقابلة طاعة أولئك للطاغوت وإيمانهم به وبالجبت واتباعهم للهوى.

وبعد هذا بين لنا حال طائفة أخرى بين الطائفتين، وهم المنافقون الذين يزعمون أنهم آمنوا، ومن مقتضى الإيمان امتثال ما أمر به المؤمنون فى الآيتين السابقتين، ولكنهم مع هذه الدعوى يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت الذى عليه تلك الطائفة ، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (٣).

وقد ذكر المفسرون أسبابا متعددة لنزول هذه الآية، يمنعنا اختلافها ، وتشتت رواياتها أن نجزم بواحدة معينة منها وإنما نسترشد بمجموعها إلى معرفة حال من أعرضوا عن حكم الرسول ﷺ ..

والطاغوت مصدر الطغيان، وهو يصدق على كل من جاءت الروايات فى سبب النزول بالتحاكم إليهم ..

ومن قصد التحاكم إلى أي حاكم يريد أن يحكم له بالباطل ، ويهرب إليه من الحق ،

---

(١) النساء: ٤٤ ـ ٥٠ . (٢) تفسير المنار : ٥ : ٢٢٣. (٣) النساء: ٦٠.

فهو مؤمن بالطاغوت، ولا كذلك الذي يتحاكم إلى من يظن أنه يحكم بالحق، وكل من يتحاكم إليه من دون الله ورسوله ممن يحكم بغير ما أنزل الله على رسوله فهو راغب عن الحق إلى الباطل، وذلك عين الطاغوت الذي هو بمعنى: الطغيان الكثير ، ويدخل في هذا ما يقع كثيرا من تحاكم الخصمين إلى الدجالين..

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1].

وهى نص فى أن كل نبى أرسله الله تعالى قد أمر أتباعه باجتناب الطاغوت. وقال جل شأنه :

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾[2].

إن اليهود إذن يقاتلون فى سبيل الطاغوت الذي ندد الحق به ! يقاتلون فى سبيل الطاغوت لغرض الباطل، وإقامة حزب الشيطان! هذا الحزب الذى يسانده الشرق والغرب، كما نرى ونشاهد، وإن اختلفت الأدوار !

وما علينا إلا أن نتجمع تحت راية القرآن، مستندين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته، فإن هؤلاء اليهود يستندون إلى ولاية الشيطان بشتى الصور والمناهج والطرائق!

ومن ثم يأمرنا الله عز وجل بالقتال:

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾

وهكذا يقف المسلمون على أرض صُلبة فى قتالهم، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد. مقتنعى الوجدان بأنهم يخوضون معركة للحق ، فى « سبيل الله » ليس لأنفسهم منها نصيب، ولا لذواتهم منها حظ .. إنما هى لله وحده، ولمنهجه وشريعته..

ومن هنا يتقرر مصير المعركة فى حس المؤمنين[3] ، وتتحدد نهايتها قبل أن يدخلوها. وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن فى المعركة ـ فهو واثق من النتيجة ـ أو بقى حتى غلب، ورأى بعينيه النصر، فهو واثق من الأجر العظيم.

من هذا التصور الحقيقى للأمر فى كلتا حالتيه، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التى

---

(١) النحل : ٣٦ . (٢) البقرة : ٢٥٥ .

(٣) فى ظلال القرآن : ٢ : ٧٠٩ بتصرف .

حفظها تاريخ الجهاد « **فى سبيل الله** » فى حياة الجماعة المسلمة الأولى، والتى تناثرت على مدى التاريخ فى أجيال كثيرة..

ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامى العجيب ، فى أقصر فترة عرفت في التاريخ، فقد كان هذا التصور جانبا من جوانب التفوق الذى حققه المنهج الربانى للجماعة المسلمة، على المعسكرات المعادية..

إن هذا القرآن يخوض المعركة بالجماعة المسلمة[1] فى كل جبهة .. فى الضمائر والمشاعر، حيث ينشئ فيها عقيدة حقة، ومعرفة بربها كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وتصور للوجود وفق المنهج الربانى، ويقيم فيها موازين القسط ، وينشئ فيها قيما إيمانية، ويستنقذ فطرتها من ركام الجاهلية، ويمحو ملامح الطاغوت فى النفس والمجتمع، وينشئ ويثبت ملامح الإسلام الوضيئة الجميلة.. ثم يقودها فى المعركة مع أعدائها المتربصين بها فى الداخل والخارج .. اليهود والمنافقين ومن على شاكلتهم.. وهى على أتم استعداد للقائهم، والتفوق عليهم، بأصالة بنائها الداخلى الاعتقادى والأخلاقى والاجتماعى والتنظيمى سواء..

ولقد كان التفوق الحقيقى للمجتمع المسلم على المجتمعات الجاهلية من حوله ــ بما فيها مجتمع اليهود القائم فى قلب المدينة ــ هو تفوقه في البناء الروحى والخلقى والاجتماعى والتنظيمى ــ بفضل المنهج القرآنى الربانى ــ قبل أن يكون تفوقا عسكريا أو اقتصاديا أو ماديا على العموم ! مع دعوة القرآن إلى إعداد القوة ــ كما أسلفنا ــ ومن ثم كان التفوق الحقيقى فى ذلك البناء الروحى والخلقى والاجتماعى ــ ومن ثم السياسى والقيادى ــ الذى أسسه الإسلام بمنهجه الربانى المتفرد.

وبهذا التفوق اجتاح الحق الجاهلية ..

اجتاحها أولا في الجزيرة العربية، وواجه اليهود فى تلك الغزوات التى نقدمها فى هذه الدراسات ، وكانت الهزيمة لهم ...

واجتاحها ثانيا في الإمبراطوريتين الممتدتين حوله:

إمبراطوريتى: كسرى وقيصر.

ثم بعد ذلك فى جوانب الأرض الأخرى..

---

(١) المرجع السابق : ٦٧٢ بتصرف.

ولولا هذا التفوق ما وقعت تلك الخارقة التى لم يعرف التاريخ لها نظيرا، حتى فى الاكتساحات العسكرية التاريخية الشهيرة ...

لقد كان تفوقا « إنسانيا » كاملا .. تفوقا فى كل خصائص الإنسانية ومقوماتها .. كان ميلاد آخر للإنسان. ميلاد إنسان جديد غير الذى تعرفه الأرض على وجه اليقين والتأكيد.. ومن ثم صبغ البلاد التى غمرها هذا المد بصبغته، وترك عليها طابعه الخاص، وتغلب على رواسب الحضارات التى عاشت عشرات القرون من قبل فى بعض البلاد. كالفرعونية فى مصر وحضارة البابليين والآشوريين فى العراق ، والفنيقيين والسريان فى الشام . لأنه كان أعمق جذورا فى الفطرة البشرية ، وأوسع مجالا فى النفس الإنسانية ، وأضخم قواعد وأشمل اتجاهات فى حياة بنى الإنسان ، من كل تلك الحضارات .

وغلبة لغة القرآن واستقرارها في هذه البلاد ، ظاهرة عجيبة ..

إذ إن اللغة من العمق فى الكينونة البشرية ومن التشابك مع الحياة الاجتماعية، بحيث يعد تغييرها على هذا النحو معجزة كاملة ! وليس الأمر فى هذا أمر اللغة العربية، فقد كانت قائمة ، ولكنها لم تصنع هذه المعجزة فى أى مكان على ظهر الأرض قبل الإسلام !

وهذا ما نشاهده فى عصرنا الحاضر مع الإخوة الذين هداهم الله للإسلام، وهم من بلاد شتى، ولهم لغات شتى ! إنهم يقرءون القرآن ، ويحسون إحساسا عميقا بحلاوته، مع أنهم لا يتكلمون العربية !

وكذلك اتجهت العبقريات الكامنة فى البلاد المفتوحة للحرية والنور والطلاقة .. وأنتجت فى كل حقل من حقول الثقافة نتاجا تبدو فيه الأصالة، ولا يلوح عليه الاحتباس من معاناة التعبير.. ذلك أن الرصيد الذى حملته لغة القرآن كان من الضخامة أولا ، ومن ملاصقة الفطرة ثانيا، بحيث كان أقرب إلى النفوس وأعمق فيها، من ثقافاتها القديمة. ومن لغاتها القديمة أيضا !

لقد كان هذا الرصيد هورصيد العقيدة والتصور، ورصيد البناء الروحى والعقلى والخلقى والاجتماعى الذى أنشأه المنهج الإسلامى فى فترة وجيزة.. وكان من الضخامة والعمق واللصوق بالفطرة، بحيث أمد هذه اللغة بسلطان لا يقاوم. كما أمد الجيوش الإسلامية بسلطان لا يقاوم كذلك !

ومن ثم كانوا قرآنا يتحرك ويقود .. وكانوا أهلا لنصر الله على اليهود ..

وهذا هو الطريق .. وتلك هى قذائف الحق التى تدفع باطل اليهود..

أهم المراجع

١ ـ الإسلام والعلاقات الدولية فى السلم والحرب، للشيخ محمود شلتوت ، الأزهر ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م .

٢ـ الإصابة فى تمييز الصحابة، لابن حجر ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣ ـ الأم، للشافعى، دار المعرفة، بيروت، ط ثانية ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣م .

٤ ـ آيات الجهاد فى القرآن الكريم ، للدكتور كامل سلامه الدقس ، دار البيان ، الكويت ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م .

٥ ـ البداية والنهاية ، لابن كثير، المعارف، بيروت ، ط ثانية ١٩٧٧ م .

٦ ـ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير ، البابى الحلبى.

٧ ـ تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل القرآن) لابن جرير الطبرى ، البابى الحلبى، ط ثالثة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م .

٨ ـ تفسير القاسمى (محاسن التأويل) للقاسمي ، تعليق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، البابى الحلبى ، ط أولى ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م.

٩ ـ تفسير القرآن الكريم ، للشيخ محمود شلتوت ، دار القلم.

١٠ ـ تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبى ، دار إحياء التراث العربى، بيروت١٩٦٧م.

١١ ـ تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم) للشيخ محمد عبده، تأليف محمد رشيد رضا، دار المعرفة ، بيروت .

١٢ ـ الجهاد، للدكتور عبد الحليم محمود، من أعمال المؤتمر الرابع للبحوث الإسلامية ١٩٦٨م.

١٣ ـ الجهاد فى سبيل الله ، الشيخ أبو الأعلى المودودى ، دار الفكر.

١٤ ـ حياة محمد ، للدكتور محمد حسين هيكل، دار إحياء التراث العربى، ط ١٣ النهضة المصرية ١٩٦٨م.

١٥ ـ خاتم النبيين، للشيخ محمد أبو زهرة ، المؤتمر العالمى الثالث للسيرة والسنة النبوية الدوحة ١٤٠٠ هـ .

١٦ ـ الروض الأنف، للسهيلى ، ومعه السيرة النبوية ، لابن هشام ، دار المعرفة ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م.

١٧ ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد، لابن القيم ، تحقيق الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، المنار الإسلامية ، ط أولى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

١٨ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار الفكر العربى.

١٩ ـ سنن أبى داود، ط مصر التجارية الأولى، وط المدينة المنورة.

٢٠ ـ سنن الترمذى (الجامع الصحيح) للترمذى ، ط بولاق ١٢٩٢ هـ وط الهند وط الحلبى ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م

٢١ ـ سنن الدارمى، دار إحياء السنة النبوية .

٢٢ ـ السياسية الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية، لابن تيمية، ط الخيرية ١٣٢٢هـ.

٢٣ ـ السيرة النبوية ، لابن كثير، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد ، دار المعارف، بيروت .

٢٤ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ط حجازى بالقاهرة وط الحلبى.

٢٥ ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٦ ـ صحيح مسلم ، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٢٧ ـ صحيح مسلم بشرح النووى ، ط المصرية.

٢٨ـ الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر.

٢٩ ـ عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، لابن سيد الناس ، ومعه اقتباس الاقتباس لحل كل مشكلة سيرة ابن سيد الناس ، لابن عبد الهادى ، دار المعرفة ، بيروت.

٣٠ ـ فتح البارى : شرح صحيح البخارى، لابن حجر، الرياض الحديثة ، البطحاء ، الرياض.

٣١ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للعجلونى، تعليق أحمد القملاس، الرسالة، ط الرابعة ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م.

٣٢ ـ المبسوط، للسرخسى، السعادة، ط العاشرة ١٣٤٢ هـ.

٣٣ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمى، بتحرير العراقي وابن حجر ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط ثالثة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.

٣٤ ـ محمد رسول الله ﷺ للأستاذ محمد الصادق عرجون، دار القلم، دمشق، ط أولى ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

٣٥ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، وبذيله التلخيص ، للذهبى، ط أولى حيدر آباد.

٣٦ ـ مسند أحمد، وبهامشه منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للمتقى الهندى، ط الميمنية بمصر.

٣٧ ـ مشكاة المصابيح ، للخطيب التبريزى ، تحقيق الشيخ محمد ناصرالدين الألبانى ، ط ثانية ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

٣٨ ـ المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، للسخاوى، تعليق الأستاذ عبد الله محمد الصديق، وتقديم الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر العربى ، بيروت ، ط أولى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

٣٩ ـ منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى أبى داود ، مزيلا بالتعليق المحمود على منحة المعبود، للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، الشهير بالساعاتى، مكتبة الفرقان مصر ، ط ثانية ١٤٠٣ هـ .

٤٠ ـ المواهب اللدنية، للقسطلانى، مع شرح الزرقانى ، وبهامشه زاد المعاد، لابن القيم، دار المعرفة ، بيروت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.
٤١ ـ مقارنة الأديان : اليهودية، للدكتور أحمد شلبى، ط ثانية ١٩٦٧ م النهضة المصرية
وهناك كتب ومطبوعات أخرى، رجعنا إليها ، وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

الفهـــــــــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

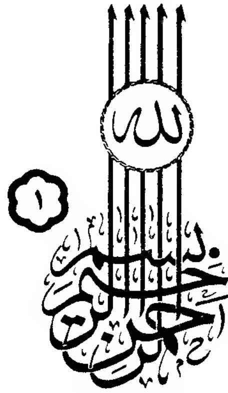
الموضوع	الصفحة

الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(٦)

اليهود والخيانة

تأليف
الدكتور سعد المرصفي

مكتبة المنار الإسلامية



ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

اليهود والخيانة

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مكتبة المنار الإسلامية
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية

AL-MANAR ISLAMIC BOOK SHOP
Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes
كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045
Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tel.: 2615045, Fax: 2636854, P.O.Box: 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

مقدمـــة

اليهود مجبولون على الخيانة والغدر ونقض العهود، فهم لا يستمسكون بعقد ، ولا يوفون بوعد عبر تاريخهم.. وسبق أن ذكرنا طرفا من ذلك فى موقف بنى قينقاع وبنى النضير..

وقد كان فجور زعماء اليهود وراء حشود الأحزاب، فهم الذين أشعلوا نارها، وحركوا زنادها، وحملوا لواءها، وانتهضوا لها ببواعث الحقد الأسود، والحسد الذى ملأ صدورهم، والغدر الذى هو ديدنهم!

وقد انضم إليهم من هم على شاكلتهم ممن امتزج الغيظ والحنق بدمائهم، من بقايا غثاء الإنسانية فى قريش ولفائفها على حرب الرسالة والرسول ﷺ .. وقد أحس الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بروح الغدر والخيانة تمشى فى الظلام، فهو أعلم الناس ـ كما أسلفنا ـ بطبيعة اليهود الغادرة، وجبلتهم الفاجرة، لايطمئن إلى عهودهم بحال، ومن ثم فهويخشى غدرهم، فى الوقت الذى هو مشغول فيه بمواجهة أعدائه المتحزبين عليه.. وقد أرسل من أتى بخبرهم، وتأكد من غدرهم ونقضهم العهد!

وما أسوأ عاقبة الخيانة ـ كما عرفنا ـ فقد تكون الأمة مرتاحة البال، هادئة الخاطر، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النفع، فيجلب عليهم الضر، ويشتتهم من ديارهم، وهذا ما حدث لليهود.. فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر، ولكن اليهود لم يوفوا بتلك العهود حسدا منهم وبغيا،فتم عليهم ما تم، وعلى الباغى تدور الدوائر! وتلك سنة الله فى المفسدين!

وأراح الله المسلمين من شر هؤلاء وأولئك:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾[1].

ودارت المعركة، وسارت فى طريقها، وانتهت إلى نهايتها.. فى يد الحق، يصرفها كيف يشاء.. وأثبت النص القرآنى هذه الحقيقة بطريقة تعبيره. فأسند إلى الله تعالى إسنادا مباشرا كل ما تم من الأحداث والعواقب، تعقيبا لهذه الحقيقة، وتثبيتا لها فى القلوب، وإيضاحا للتصور الإسلامى الصحيح.. ولم تدر الدائره على هؤلاء المشركين وحدهم.. بل دارت كذلك على بنى قريظة الذين كفروا من يهود! وهو موضوع حديثنا!

رجاء أن تكون هذه الدراسة سبيلا إلى الحيطة والحذر وعدم الاطمئنان إليهم من جهة، ودافعا إلى الإعداد للمواجهة بما تفرضه ضرورة المعركة من جهة ثانية..

وقد اقتضت منهجية البحث أن يشتمل هذا الموضوع على ما يأتى :

الفصل الأول : بين بنى قريظة والأحزاب .

الفصل الثانى : فى الطريق إلى بنى قريظة .

الفصل الثالث : محاكمة عادلة .

والله أسأل : التوفيق والسداد.

والعون والرشاد ، إنه سميع مجيب !!

الكويت فى : ٣٠ من ذى القعدة ١٤١٢ هـ
١ يونيو ١٩٩٢ م

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)

---

(١) الأحزاب : ٢٥ ـ ٢٧ .

الفصل الأول

بين بني قــريظة والأحزاب

متى كانت الغزوة ؟ ـ اليهود وراء حشود الأحزاب ـ حرس المدينة ـ نقض العهد ـ الرسول يخشى غدر بنى قريظة ـ التأكد من غدرهم ونقضهم العهد ـ حكمة بالغة ـ عظم البلاء ـ موقف المنافقين ـ خصائص المنافقين مستمدة من خصائص اليهود ـ صورة نفسية تثير السخرية ـ صورتان متقابلتان ـ ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ ـ صورة المؤمنين ـ درس مستفاد ـ مقابلة فى معرض التربية ـ قصة حذيفة ـ من صفات الفدائى المسلم ـ « ورد الله الذين كفروا » ـ قصة نعيم بن مسعود ـ موقف حكيم ـ « نغزوهم ولا يغزوننا » ـ لمحات من آيات الله ـ تربية واقعية ـ « اذكروا نعمة الله عليكم » .

متى كانت الغزوة ؟ :

قال البخاري : باب غزوة الخندق، وهي الأحزاب. قال موسى بن عقبة: كانت في شوال سنة أربع. (١)

قال ابن حجر: (٢) يعني أن لها اسمين ، وهو كما قال ، والأحزاب جمع حزب : أي طائفة .

فأما تسميتها الخندق فلأجل الخندق الذي حفر حول المدينة بأمر النبي ﷺ ، وكان الذي أشار بذلك سلمان فيما ذكر أصحاب المغازي، منهم أبو معشر، قال: قال سلمان للنبي ﷺ : إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، وعمل فيه بنفسه ترغيبا للمسلمين، فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه، وجاء المشركون فحاصروهم .

وأما تسميتها الأحزاب فلاجتماع طوائف المشركين على حرب المسلمين، وهم قريش، وغطفان، واليهود ومن تبعهم .

وقد أنزل الله تعالى في هذه القصة صدر سورة الأحزاب ..

وقال من قول موسى بن عقبة: هكذا رويناه في مغازيه. قلت: وتابع موسى على ذلك مالك، وأخرجه أحمد عن موسى بن داود عنه.

وقال ابن إسحاق: كانت في شوال سنة خمس، وبذلك جزم غيره من أهل المغازي، ومال المصنف إلى قول موسى بن عقبة، وقواه بما أخرجه من قول ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ عرضه يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه، وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه. (٣)

قال ابن حجر: فيكون بينهما سنة واحدة، وأحد كانت سنة ثلاث، فيكون الخندق سنة أربع، ولا حجة فيه إذ ثبت أنها كانت سنة خمس، ولاحتمال أن يكون ابن عمر في أحد كان أول ما طعن في الرابعة عشر وكان في الأحزاب قد استكمل الخمس عشرة، وبهذا أجاب البيهقي.

---

(١) البخاري: ٦٤ ــ المغازي ٢٩ ــ باب غزوة الخندق.. (٢) فتح الباري:٧: ٣٩٢ وما بعدها بتصرف.

(٣) البخاري: ٦٤ ــ المغازي (٤٠٩٧) ورواه مسلم : ٣٣ ــ الإمارة ٩١ (١٨٦٨) .

ويؤيد قول ابن إسحاق أن أبا سفيان قال للمسلمين لما رجع من أحد: موعدكم العام المقبل ببدر، فخرج النبى ﷺ من السنة المقبلة إلى بدر، فتأخر مجىء أبى سفيان تلك السنة للجدب الذى كان حينئذ، وقال لقومه: إنما يصلح الغزو فى سنة الخصب، فرجعوا بعد أن وصلوا إلى عسفان أو دونها، ذكر ذلك ابن إسحاق وغيره من أهل المغازى.

وقد بين البيهقى سبب هذا الاختلاف، وهو أن جماعة من السلف كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذى وقع بعد الهجره، ويلغون الأشهر التى قبل ذلك إلى ربيع الأول، وعلى ذلك جرى يعقوب بن سفيان فى تاريخه، فذكر أن غزوة بدر الكبرى كانت فى السنة الأولى، وأن غزوة أحد كانت فى الثانية، وأن الخندق كانت فى الرابعة، وهذا عمل صحيح على ذلك البناء، لكنه بناء واه مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة، وعلى ذلك تكون بدر فى الثانية، وأحد فى الثالثة، والخندق فى الخامسة، وهو المعتمد.

وقال ابن القيم: [١] كانت فى سنةخمس ، من الهجرة فى شوال على أصح القولين ، إذ لا خلاف أن أحداً كانت فى شوال سنة ثلاث وواعد المشركون رسول الله ﷺ فى العام المقبل، وهو سنة أربع، ثم أخلفوه لأجل جدب تلك السنة، فرجعوا، فلما كانت سنة خمس ، جاءوا لحربه، هذا قول أهل السير والمغازى.

وخالفهم موسى بن عقبة وقال: بل كانت سنة أربع ، قال أبو محمد بن حزم:[٢] وهذا هو الصحيح الذى لا شك فيه، واحتج عليه بحديث ابن عمر الذى سبق، وقال: فصح أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة.

وقد أجاب ابن القيم عن هذا بما سبق ذكره..

ونقل ابن كثير قول ابن حزم هذا، واحتجاجه بحديث ابن عمر، وعلق عليه بقوله:[٣] هذا الحديث مخرج فى الصحيحين، وليس يدل على ما ادعاه ابن حزم؛ لأن مناط إجازة الحرب كانت عنده ﷺ خمس عشرة سنة، فكان لا يجيز من لم يبلغها، ومن بلغها أجازه، فلما كان ابن عمر يوم أحد ممن لم يبلغها ، لم يجزه ولما كان قد بلغها يوم الخندق أجازه وليس ينفى هذا أن يكون قد زاد عليه بسنة أو سنتين أو ثلاث أو أكثر من ذلك، فكأنه قال: وعرضت عليه يوم الخندق وأنا بالغ أو من أبناء الحرب .

---

(١) زاد المعاد : ٣: ٢٦٩ .
(٢) جوامع السيرة : ١٥٨.
(٣) الفصول : ٥٦ .

وقال ولى الدين العراقى: المشهور أنها فى السنة الرابعة. قال الزرقانى: لمزيد إتقان القائلين بذلك، كيف وهم موسى بن عقبة، ومالك، والبخارى ولذا صححه النووى فى الروضة. (١).

قلت: وهذا الذى أرجحه فى هذا المقام.وإنما ذكرت ذلك بالتفصيل؛ لأن غزوة بنى قريظة كانت عقب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب. مباشرة، يوم الأربعاء الذى انصرف فيه من الخندق لسبع بقين من ذى القعدة، قاله ابن سعد. (٢)

اليهود وراء حشود الأحزاب :

يقول ابن القيم: (٣) وكان سبب غزوة الخندق أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أحد، وعلموا بميعاد أبى سفيان لغزو المسلمين، فخرج لذلك، ثم رجع للعام المقبل، وخرج أشرافهم كسلاَّم بن أبى الحقيق، وسلاَّم بن مشكم، وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة، يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ، ويؤلبونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم، فاستجابوا لهم، ثم طافوا فى قبائل العرب، يدعونهم إلى ذلك، فاستجاب لهم من استجاب فخرجت قريش، وقائدهم أبو سفيان فى أربعة آلاف ووافقتهم بنو سليم بمر الظهران، وخرجت بنو أسد، وفزارة وأشجع، وبنو مرة، وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن وكان من وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف.

فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه، استشار الصحابة فأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة فأمر به رسول الله ﷺ، فبادر إليه المسلمون، وعمل بنفسه فيه، وبادروا هجوم الكفار عليهم وكان فى حفره من آيات نبوية، وأعلام رسالته، ما قد تواتر لخبره وكان حفر الخندق أمام سلع، وسلع: جبل خلف ظهور المسلمين،والخندق بينهم وبين الكفار.

وخرج رسول الله ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين، فتحصن بالجبل من خلفه، وبالخندق أمامهم.

وقال ابن إسحاق: خرج فى سبعمائة، وهذا غلط من خروجه يوم أحد .

---

(١) المواهب اللدنية :٢:٤ · ١ .   (٢) المرجع السابق: ١٢٦ .

(٣) زاد المعاد : ٣:٢٧٠ وما بعدها بتصرف.

وقال الشافعي: (١) ووهم من قال كانوا سبعمائة.

وأمر النبى ﷺ بالنساء والذرارى، فجعلوا فى آطام المدينة، واستخلف عليها ابن أم مكتوم.

حرس المدينـــة :

وفى المواهب: قال ابن سعد: (٢) كان يبعث سلمة بن أبى أسلم فى مائتى رجل وزيد ابن حارثة فى ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير خوفا على الذرارى من بنى قريظة، زاد غيره فإذا أصبحوا أمنوا.

نقض العهـــد :

قال ابن إسحاق: وخرج عدو الله حيى بن أخطب، حتى أتى كعب بن أسد القرظي، صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم، وكان وادع رسول ﷺ على قومه وعاقده، فأغلق كعب دونه باب حصنه، وأبى أن يفتح له، وقال: ويحك ياحيى، إنك امرؤ مشئوم، وإنى قد عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بينى وبينه، فإنى لم أر منه إلاوفاء وصدقا. فقال ويحك افتح لى، ولم يزل به حتى فتح له. وذلك أنه نسبه إلى البخل بالطعام فقال: والله إن أغلقت دونى إلا تخوفا على جشيشتك أن آكل معك منها، ففتح له، فقال: ويلك ياكعب، جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش حتى أنزلهم بمجتمع الأسيال ومن دونه غطفان، وقد عاهدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه، فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر، وبجهام قد هراق ماؤه، يرعد ويبرق، وليس فيه شىء، ويحك يا حيى، دعنى وما أنا عليه فإنى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء ولم يزل به يفتله فى الذروة والغارب حتى نقض عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول اللهّ ﷺ أعطاه عهدا على أنه إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك فى حصنك، يصيبنى ما أصابك.

الرسول يخشى غدر بنى قريظة :

وفى الوقت ذاته كان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أعلم الناس بطبيعة اليهود الغادرة، لا يطمئن إلى عهودهم، ويخشى غدرهم، وهو ﷺ مشغول بمواجهة أعدائه المتحزبين عليه وقد أحس الرسول ﷺ بروح الغدر تمشى فى الظلام إلى بنى قريظة، فقال لأصحابه فيما يرويه البخارى عن عبد اللّه بن الزبير رضى الله عنهما قال: كنت يوم الأحزاب،

(١) المواهب اللدنية :٢:١١١ .

(٢) المرجع السابق .

جعلت أنا وعمر بن أبى سلمة فى النساء، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بنى قريظة، مرتين أو ثلاثا. فلما رجعت قلت: يا أبت! رأيتك تختلف، قال: أوهل رأيتنى يابنى؟ قلت: نعم! قال : كان رسول الله ﷺ قال :

« من يأت بنى قريظة فيأتينى بخبرهم ؟ »

فانطلقت، فلما رجعت جمع لى رسول الله ﷺ أبويه، فقال: «**فداك أبى وأمى**»[1].

التأكد من غدرهم ونقضهم العهد :

ولما انتهى خبر بنى قريظة إلى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وأنهم نقضوا عهده، أراد كما فى رواية أصحاب المغازى، أن يتأكد مما بلغه،حتى لا يصل الخبر إلى عامة المجاهدين إلا وهم قد علموا أن رسول الله ﷺ قد أحاط خبرا، واتخذ له من الأحداث أقرانه .

حينئذ بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، [2] ومعهما ابن رواحة، وخوَّات بن جبير الأنصارى الأوسى، زاد الواقدى: وأسيد بن حضير، ليعرفوا الخبر.

قال ابن القيم[3] : هل هم على عهدهم، أو قد نقضوه؟ فلما دنوا منهم، فوجدوهم على أخبث ما يكون، وجاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ فانصرفوا عنهم ولحنوا إلى رسول الله ﷺ لحنا يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد، وغدروا، فعظم ذلك على المسلمين .

جاء فى المواهب [4] رواية أصحاب المغازى هذه لا تنافى رواية الصحيح أنه أرسل الجميع دفعة، أو بعد إرسال الزبير، لا حتمال أن يرجعوا إلى العهد بعد نقضه، حياء من حلفائهم، لأنهم كانوا حلفاء الأوس، وقد أرسل إليهم سيدهم، فغلبت عليهم الشقوة، وليس لك أن تقول: أو لاحتمال أن الزبير علم من غيرهم نقض العهد، فاكتفى به، لأنه ظن سوء بمثل الزبير تأباه مروءته وشجاعته.

حكمـة بالغــة :

وفى بعث السعدين ومن معهما لون من الحكمة السياسية [5] البالغة، يمثل معلما من

(١) البخارى: ٦٢ ـ فضائل الصحابة (٣٧٢٠)، ورواه مسلم : ٤٤ فضائل الصحابة ٤٩(٢٤١٦)، والترمذى مختصرا(٣٧٤٣) وانظر ما قاله الحافظ فى فتح البارى: ٧:٨١ حول رواية مسلم.

(٢) المواهب اللدنية:٢:١١٢ ـ١١٣ .

(٣) زاد المعاد: ٣:٢٧٢.

(٤) المواهب اللدنية :٢ : ١١٣ .

(٥) محمد رسول الله:٤/ ١٥٦ وما بعدها بتصرف.

معالم منهج الرسالة الخالدة، التي قصد إليهاالرسول الحبيب المحبوب ﷺ فى أخذ بنى قريظة بغدرهم ونقضهم العهد.

ذلك أنه ﷺ بعث حواريه الزبير بن العوام إلى بنى قريظة، ليتعرف حالهم ـ كما أسلفنا ـ فذهب إليهم الزبير، ورجع إلى رسول الله ﷺ يخبره أنهم على أخبث حال، يضمرون الغدر، وينقضون العهد..

لم يشك لحظة فى صدق خبر الزبير عنهم، ولكنه ﷺ كان على أكمل العلم بما كان بين الأنصار وطوائف اليهود من روابط جاهلية لم تنفصم عراها، وكانت هذه الروابط تبرزعند مناسباتها، فى أوقات الأزمات والمحن، وكان بين الأنصار من الأوس والخزرج تنافس قديم، وكانت هناك حمية لهذه الروابط،يكرهون أن تمس من غيرهم، وكثيراً ما كان يقع التفاؤل والتصاول بين الحيين من وراء هذه الروابط بين الحيين من جراء هذه الروابط الجاهلية!

فرأى رسول الله ﷺ أن يحتاط، ويجعل أمر بنى قريظة فى أخذهم بغدرهم قائما على أخبار حلفائهم، مواليهم من الأنصار الذين أصبحوا سادة المجتمع المدنى، حتى إذا أخذوا بغدرهم كان أخذهم بأيدى من كانوا يرتبطون بهم، ويدافعون عنهم.

ولذلك اختار القرظيون تحكيم سعد بن معاذ ـ كما سيأتى ـ فى نهاية أمرهم، بعد أن حاصرهم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ حصارا شديدا، ولكن سعد بن معاذ كان رجلا قوى الإيمان راسخ اليقين، غسل الإيمان قلبه من تلك الروابط الجاهلية، فلم تأخذه فيه لومة لائم، وحكم فيهم بحكم الله تعالى، الذى ارتضاه رسوله ﷺ ، والمؤمنون، وقد كان الأوس قوم سعد بن معاذ يرجون منه أن يحسن إليهم وينقذهم من أسوأ مصير ينتظرهم..

هذه سياسة حكيمة بالغة رسمت للمجتمع المسلم جانبا من جوانب منهج الرسالة الخالدة، ليكون دعامة الدعائم الاجتماعية فى سياسة المجتمع المسلم فى مستقبل حياته.

عظـم البلاء :

ونزلت حشود الأحزاب وجموعهم منازلها من ميدان المعركة، محيطين بكتائب المجاهدين، إذ جاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، واشتد البلاء وعظم الخطب، وزاغت الأبصار، وتعاظم البلاء :

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ

﴿ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[1].

وعن ابن مردويه عن ابن عباس : [2]

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾

قال: عيينة بن حصن.

﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾

وأبو سفيان بن حرب، حتى ظن المؤمنون كل ظن.

﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾

أى المختلفة بالنصر واليأس.

حقا، إنها صورة الهول الذى روع المدينة [3] ، والكرب الذى شملها، والذى لم ينج منه أحد من أهلها. وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان، واليهود من بنى قريظة، من كل جانب. من أعلاها ومن أسفلها. فلم يختلف الشعور بالكرب والهول فى قلب عن قلب، وإنما الذى اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنها بالله، وسلوكها فى الشدة، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج. ومن ثم كان الابتلاء كاملا، والامتحان دقيقا، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسما لا تردد فيه.

وننظر اليوم فنرى الموقف بكل سماته، وكل انفعالاته، وكل خلجانه، وكل حركاته، ماثلا أمامنا، كأننا نراه من خلال هذا النص القصير.

ننظر فنرى الموقف من خارجه.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾

ثم ننظر فنرى أثر الموقف فى النفوس:

﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾

وهو تعبير مصور لحالة الخوف والكربة والضيق، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب:

---

(١) الأحزاب: ١٠ ــ ١١ .
(٢) المواهب اللدنية :٢: ١١٣.
(٣) فى ظلال القرآن: ٥ : ٣٧ ٢٨ بتصرف.

﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾

ولا يفصل هذه الظنون. ويدعها مجملة ترسم حالة الاضطراب فى المشاعر والخوالج، وذهابها كل مذهب، واختلاف التصورات فى شتى القلوب.

ثم تزيد سمات الموقف بروزا، وتزيد خصائص الهول فيه وضوحا:

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

والهول الذى يزلزل المؤمنين لابد أن يكون هولا مروعا رعيبا، حتى شغلوا عن الصلاة الوسطى، يروى الشيخان وغيرهما عن على رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال يوم الخندق:

«ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى، حتى غابت الشمس». (١)

موقف المنافقين:

ونقرأ بعد ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (٢).

وإذا كنا قد أبصرنا عظم البلاء على المسلمين، وهم محصورون بالمشركين من جهة، ويتوقعون ما يجىء من بنى قريظة من جهة، حتى لم يكونوا يأمنون فى أية لحظة أن ينقض عليهم المشركون، وأن تميل عليهم يهود، وهم قلة من بين هذه الجموع، التى جاءت بنية استئصالهم فى معركة حاسمة أخيرة، فإننا نبصر فى الوقت ذاته ما كان من كيد المنافقين والمرجفين فى المدينة وبين الصفوف:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾

---

(١) البخارى: ٦٤ ـ المغازى (٤١١١)، ومسلم: ٥ ـ المساجد ٢٠٣ (ت ٦٢٧)، والترمذى: ٤٨ التفسير (٢٩٨٤)، وأبو داود: الصلاة (٤٠٥) عون المعبود، والنسائى: ١: ٢٣٦، وابن ماجه: الصلاة (٦٨٤).

(٢) الأحزاب: ١٢ ـ ١٣.

فقد وجد هؤلاء فى الكرب المزلزل، (١) والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئةنفوسهم، وهم آمنون من أن يلومهم أحدا، وفرصة للتوهين والتخذيل، وبث الشك والريبة فى وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون.

فالواقع بظاهره يصدقهم فى التوهين والتشكيك، وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم، فالهول فد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل، وروع نفوسهم ترويعا لا يثبت له إيمانهم المهلهل! فجهروا بحقيقة ما يشعرون، غير مبقين ولا متجملين!

ومثلُ هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمٌ فى كل جماعة، وموقفهم فى الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء. فهم نموذج مكرر فى الأجيال والجماعات على مدار الزمان..

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾

فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف، والعودةإلى بيوتهم، بحجة أن إقامتهم لا موضع لها ولا محل، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم..

وهى دعوة خبيثة تأتى النفوس من الثغرة الضعيفة فيها، ثغرة الخوف على النساء والذرارى، والخطر محدق، والهول جامح، والظنون لاتثبت ولا تستقر!

﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾

يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو، متروكة بلا حماية.

وهنا يكشف القرآن الكريم عن الحقيقة، ويجردهم من العذر والحجة:

﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ﴾

ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال، والجبن والفرار:

﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾

ويقف السياق القرآنى عند هذه العبارة المصورة لموقف البلبلة والفزع والمراوغه.. يقف ليرسم صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض..صورة نفسية داخلية لوهن العقيدة، وخور القلب، والاستعداد للانسلاخ من الصف بمجرد مصادفة، غير مبقين على شىء، ولا متجملين لشىء:

---

(١) فى ظلال القرآن: ٥: ٢٨٣٨ وما بعدها بتصرف.

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ (١)

ذلك كان شأنهم والأعداء خارج المدينة، ولم تقتحم عليهم بعد. ومهما يكن الكرب والفزع، فالخطر المتوقع غير الخطر الواقع، فأما لو وقع واقتحمت المدينة من أطرافها:

﴿ ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ ﴾

وطلبت إليهم الردة عن دينهم:

﴿ لَآتَوْهَا ﴾

سراعا غير متلبثين، ولا مترددين:

﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾

من الوقت، أو إلا قليلا منم يتلبثون شيئا ما قبل أن يستجيبوا ويستسلموا ويرتدوا كفارا!

فهى عقيدة واهنة لا تثبت! وهو جبن عامر لا يملكون معه مقاومة!

هكذا يكشفهم القرآن الكريم ويقف نفوسهم عارية من كل ستار!

خصائص المنافقين مستمدة من خصائص اليهود:

ثم يصمهم بعد هذا بنقض العهد، وخلف الوعد.

ومع من؟

مع الله الذى عاهدوه من قبل على غير هذا، ثم لم يراعوا مع الله عهدا:

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ (٢).

قال الطبرى: ذكر أن ذلك نزل فى بنى حارثة لما كان من فعلهم فى الخندق بعد الذى كان منهم بأحد (٣).

فأما يوم أحد فقد تداركهم الله برحمته ورعايته وثبتهم، وعصمهم من عواقب

(١) الأحزاب: ١٤. (٢) الأحزاب: ١٥. (٣) تفسير الطبرى: ٢١: ١٣٧.

الفشل، وكان ذلك درسا من دروس التربية فى أوائل العهد بالجهاد.

فأما اليوم، وبعد الزمن الطويل، والتجربة الكافية فالقرآن الكريم يواجههم هذه المواجهة، ويقرر إحدى القيم الباقية التى يقررها فى أوانها،، ويصحح التصور الذى يدعوهم إلى نقض العهد والفرار:

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (1).

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر، يدفعها فى الطريق المرسوم، وينتهى إلى النهاية المحتومة.

والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه، فى موعده، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر. ولن ينفع الفرار فى دفع القدر المحتوم عن فار. فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب، فى موعده القريب، وكل موعد فى الدنيا قريب، وكل متاع فيها قليل.

ولا عاصم من الله، ولا من يحول دون نفاذ مشيئته، سواء أراد بهم سوءًا أم أراد بهم رحمة، ولا مولى لهم ولا نصير، من دون الله، يحميهم ويمنعهم من قدر الله.

فالاستسلام الاستسلام.

والطاعة الطاعة.

والوفاء الوفاء بالعهد مع الله، فى السراء والضراء.

ورجع الأمر إليه، والتوكل الكامل عليه.

ثم يفعل الله ما يشاء.

صورة نفسية تثير السخرية:

ثم يستطرد إلى تقرير علم الله بالمعوقين، الذين يقعدون عن الجهاد ويدعون غيرهم إلى القعود..

---

(1) الأحزاب: ١٦ ـ ١٧.

ويرسم لهم صورة نفسية معبرة، و هى ـ على صدقها ـ تثير الضحك والسخرية من هذا النموذج المكرور فى الناس!

صورة للجبن والانزواء، ، والفزع والهلع، فى ساعة الشك!

والانتفاش وسلاطة اللسان، عند الرخاء!

والشح على الخير والضن ببذل أى جهد فيه!

والجزع والاضطراب عند توهم الخطر من بعيد!

والقرآن الكريم يرسم هذه الصورة فى لمسات مبدعة لا سبيل إلى استبدالها أو ترجمتها فى غير سياقها المعجز:

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝١٩ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(1).

وأول ما يطالعنا تقرير علم الله المؤكد بالمعوقين الذين يسعون بالتخذيل فى صفوف الجماعة المسلمة، الذين يدعون إخوانهم إلى القعود:

﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

ولا يشهدون بالجهاد إلا لماما، فهم مكشوفون لعلم الله، ومكرهم مكشوف.

ثم تأتى بقية سمات هذا النموذج:

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾

---

(1) الأحزاب: ١٨ ـ ٢٠.

ففى نفوسهم كزازة على المسلمين!

كزازة بالجهد، وكزازة بالمال، وكزازة فى العواطف والمشاعر على السواء:

﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾

وهى صورة شاخصة، واضحة الملامح، متحركة الجوارح، وهى فى الوقت ذاته مضحكة تثير السخرية من هذا الصنف الجبان، الذى تنطق أوصاله وجوارحه فى لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار!

وأشد إثارة للسخرية صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويجىء الأمن:

﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾

فخرجوا من الجحور، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش، وانتفخت أوداجهم بالعظمة، ونفشوا بعد الانزواء، وادعوا فى غير حياء، ماشاء لهم الادعاء، من البلاء فى القتال، والفضل فى الأعمال، والشجاعة والاستبسال.

ثم هم:

﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾

فلا يبذلون للخير شيئا من طاقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم، مع كل ذلك الادعاء العريض، ؛ وكل ذلك التبجح وطول اللسان!

وهذا النموذج من الناس لاينقطع فى جيل ولا فى قبيل!

فهو موجود دائما !

وهو شجاع فصيح بارز، حيثما كان هناك أمن ورخاء!

وهو جبان صامت منزو، حيثما كان هناك شدة وخوف!

وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير، لا ينالهم منهم إلا سلاطة اللسان!

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾

فهذه هى العلة الأولى!

العلة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشة الإيمان، ولم تهتد بنوره، ولم تسلك منهجه:

﴿ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

ولم ينجحوا، لأن عنصر النجاح الأصيل ليس هناك:

﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

وليس هناك عسيرا على الله، وكان أمر الله مفعولا.

ويمضى التعبير القرآنى فى تصويرهم يوم الأحزاب صورة مضحكة زرية:

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾

فهم ما يزالون يرتعشون، ويتخاذلون، ويخذِّلون!

ويأبون أن يصدقوا أن الأحزاب قد ذهبت، وأنه قد ذهب الخوف، وجاء الأمان!

﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾

يا للسخرية!

ويا للتصوير الزرى!

ويا للصورة المضحكة!

وإن يأت الأحزاب يودوا هؤلاء الجبناء لو أنهم لم يكونوا من أهل المدينة يوما من الأيام. ويتمنون أن لو كانوا من أعراب البادية، لا يشاركون أهل المدينة فى حياة ولا مصير. ولا يعلمون حتى مايجرى عند أهلها. إنما هم يجهلونه، ويسألون عنه سؤال الغريب عن الغريب مبالغة فى البعد والانفصال، والنجاة من الأهوال!

يتمنون هذه الأمنيات المضحكة، مع أنهم قاعدون، بعيدون عن المعركة، لا يتعرضون لها مباشرة، إنما هو الخوف من بعيد! والفزع من بعيد!

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

وبهذا ينتهى رسم الصورة لهذا النموذج الذى كان يعيش فى الجماعة المسلمة الناشئة فى المدينة، والذى مايزال يتكرر فى كل جيل وكل قبيل. بنفس الملامح، وذات السمات..

ينتهى رسم الصورة وقد تركت فى النفوس الاحتقار لهذا النموذج، والسخرية منه، والابتعاد عنه، وهوانه على الله وعلى الناس!

صورتان متقابلتان :

ذلك كان حال المنافقين والذين فى قلوبهم مرض والمرجفين فى الصفوف، وتلك كانت صورتهم الرديئة!

ولكن الهول والكرب والشدة والضيق لم تحول الناس جميعا إلى هذه الصورة الرديئة..

كانت هنالك صورة وضيئة فى وسط الظلام، مطمئنة فى وسط الزلزال، واثقة بالله، راضية بقضاء الله، مستيقنة من نصر الله بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب..

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » :

ويبدأ السياق بهذه الصورة الوضيئة بالرسول الحبيب المحبوب ﷺ :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾(١).

وقد كان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ على الرغم من الهول المرعب، والضيق المجهد، مثابة الأمان للمسلمين، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان.

وهنا تأتى ضرورة دراسة موقفه ﷺ فى صدق جهاده (٢) وقوة صبره على لأواء الحياة وشظفها وشدة أزماتها، وتحمل أشد البلاء فى سبيل نشر رسالته لإعلاء كلمة الله، ومجاهدة شراذم الكفر، وفئات النفاق.. ليعلموا أن ليس فى قلوب المؤمنين هوادة لهم، ولا مداراة لمخازيهم!

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) محمد رسول الله : ٤ : ١٦٤ بتصرف .

ولن يتحقق هذا التأسى بالرسول الحبيب المحبوب ﷺ إلا لمن صفا قلبه، واستنار بنور الهداية فؤاده، واستوى فى الإخلاص للإسلام باطنه وظاهره، وهذا الاستواء فى الإخلاص لا يكون إلا بمعرفة حق رسول الله ﷺ على كل مؤمن برسالته، والإيمان بأنه ﷺ المحفوظ بتوفيق الله وتسديده بوحيه، فلا يخدع بنفاق المنافقين.

وهذا معنى تأكيد التأسى برجاء اليوم الآخر، والإيمان بمجيئه لتوفية كل عامل جزاء عمله.

وأمارة ذلك أن يذكر العبد ربه ذكرا قلبيا، يغسل درن النفاق، وذكرا لسانيا يتطابق مع الذكر القلبى، ليكون ذلك عنوانا على إخلاص الإيمان، وصدق المؤمنين.

وهذا تحريض للمجتمع المسلم فى جميع أجياله[1]، وأزمانه وأوطانه، على التسامى بأنفسهم وأخلاقهم، وقوة إيمانهم، ورسوخ يقينهم، إلى آفاق البطولة الروحية والمادية التى تتطلبها المكانة القيادية الإنسانية، التى نيطت بهذا المجتمع المسلم.

وهو تحريض لهذا المجتمع على الاعتصام بعظائم الأمور، وإعداد أقرانها لها، مهما تكن محفوفة بمخاطر المحن، وشدائد البلاء.

وهو تحريض للمجتمع المسلم أينما كان وجوده من أرض الله، علي أن يتخذ من الصبر وقاية يتقى بها المزالق أمام أحداث الحياة، كيفما كانت مضائقها.

وحظ الصحابة رضوان الله عليهم من هذه الأسوة أن الله أشهدهم بذواتهم أعمال الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، وهي تجري على يديه حركات دائبة في سبيل نشر دعوته، وتبليغ رسالته، إلى الإنسانية في أرجاء الحياة.

أما حظ من جاء بعدهم من أجيال المجتمع المسلم، فهو حظ الحارس الأمين في الحفاظ على ما أسندت إليه أمانة حفظه،وحراسته بمثل ما كان عليه من سلموا له الأمانة من العمل في الدفاع عن هذه الأمانة ، وتبليغها ونشرها فى الآفاق.

ولا يكون المؤمن أمينا على القيام بحفظ أمانته إلا إذا علم قدرها، وعرف كيف يؤديها كما أديت إليه.

---

(١) المرجع السابق : ١٩٩ بتصرف.

وأسلوب الآية الكريمة يجعل من ذات رسول الله ﷺ بوصفه رسولا من الله الأسوة نفسها لمجتمعه المسلم، فهو ﷺ بوصف أنه رسول الله هو الأسوة نفسها، فكل عمل من أعمال رسالته هو موضع للتأسي به، يجب على كل فرد من أفراد مجتمعه وأمته أن يتخذ هذا العمل أسوة له، بقدر استعداده الفطري، واستطاعته المكتسبة.

وهذه مبالغة قصد بها إفادة أن جميع ما يصدر عنه ﷺ إنما يصدر عنه بهذاالوصف الذي هو موجب لمتابعته فى جميع ما يثبت عنه من الأقوال والأفعال على محاملها.

فرسالته ﷺ هى منبع التأسي به، وهذا المنبع موحد الإمداد بكل ما يكون فيه التأسي والاقتداء،وفي هذا غنية عن الحديث عن الخصائص البشرية التي منحها ﷺ فاختص بها واختصت به، لأن أمر هذه الخصائص خارج عن التقيد بوصف الرسالة إلا باعتبارها مخبرة عنه، لأن الأصل عموم التأسى، وهذا كالاستثناء المخصص للعموم.

وفي الآية نكتة بيانية من متعلقات الإعجاز القرآني في هدايته وروعة أسلوبه، وهذه النكتة تعطي معنى التأسي به ﷺ صورة من قوة الإيمان، ورسوخ اليقين، فى متابعته ﷺ متابعة تجعلها لباب الإيمان، وزبدة الإخلاص.

وتلمح هذه النكتة في قوله:

﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾

بعد قوله:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾

الذي هو في مطلق معناه عين ما جاء بعده في إجمال هذا المعنى .

بيد أن قوله : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾ ربط تأسيهم بزبدة الإخلاص الذي هو مرتبة فوق مرتبة قوة الإيمان.

فإذا كان التأسي بالنسبة لصادقي الإيمان الذين صعد بهم إيمانهم إلى ذروة الإخاء كافيا أن يقال فيه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾

باعتبار عودة ضمير الخطاب إلى صادقي الإيمان، فإنه بالنسبة لعامة الأمة ممن لم يصل

إيمانهم إلى درجة الإخلاص علما وعملا غير كاف أن يقال فيه:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾

بل هو في حاجة إلى حياطته بشيء من التوثق في داخل نفوسهم بشيء من الربط بما هو غيب لا يعرف مكان الإيمان منه، وليس ذلك إلا رجاء فضل الله ورحمته، ورجاء تفضله وإحسانه على كل مؤمن لقيه بعقيدة الإيمان، والرجاء مرتبة بين الإخلاص والإيمان.

ولهذا عقب ذلك بقوله:

﴿ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾

لأن كثرة ذكر الله هي العروة الوثقى فى الربط بين الإيمان ورجاء فضل الله وإحسانه في اليوم الآخر.

صـــورة المؤمنين:

وتأتي صورة [1] الإيمان الواثق المطمئن، وصورة المؤمنين المشرقة الوضيئة، في مواجهة الهول، وفى لقاء الخطر .. الخطـر الذى يزلزل القلوب المؤمنـة، فتتخذ من هذا الزلزال مادة للطمأنينة والثقة والاستبشار واليقين:

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [2].

لقد كان الهول الذي واجهه المسلمون فى هذا الحادث من الضخامة، وكان الكرب الذى واجهوه من الشدة، وكان الفزع الذى لقوه من العنف، بحيث زلزلهم زلزالا شديدا، كما قال عنهم أصدق القائلين:

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

لقد كانوا ناسا من البشر. وللبشر طاقة. لا يكلفهم الله ما فوقها. وعلى الرغم من ثقتهم بنصر الله فى النهاية، وببشارة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لهم، تلك البشارة التي تتجاوز الموقف كله إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق ..

---

(١) فى ظلال القرآن: ٥ : ٢٨٤٣ بتصرف .   (٢) الأحزاب : ٢٢.

على الرغم من هذا كله، فإن الهول الذى كان حاضرا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم ..

ولكن كان إلى جانب الزلزلة، وزوغان الأبصار، وكرب الأنفاس.. كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله، والإدراك الذي لا يضل عن سنن الله، والثقة التى لا تتزعزع بثبات هذه السنن، وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها...

ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببا في انتظار النصر. ذلك أنهم صدقوا قول الله من قبل:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (١).

وها هم أولاء يزلزلون. فنصر الله إذن منهم قريب ! ومن ثم قالوا:

﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾

هذا الهول ، وهذا الكرب، وهذه الزلزلة، وهذا الضيق ، وعدنا عليه النصر. فلابد أن يجيء النصر:

﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾

صدق الله ورسوله فى الإمارة ، وصدق الله ورسوله في دلالتها ..

ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر الله ووعد الله:

﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾

لقد كانوا ناسا من البشر، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر، وضعف البشر. وليس مطلوبا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشرى ، ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس ، ويفقدوا خصائصه ومميزاته. فلهذا خلقهم الله.. خلقهم ليبقوا بشرا، ولا يتحولوا

---

(١) البقرة : ٢١٤.

جنسا آخر.. لا ملائكة ولا شياطين، ولا بهيمة ولا حجرا.. كانوا ناسا من البشر يفزعون، ويضيقون بالشدة، ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة .. ولكنهم كانوا مع هذا مرتبطين بالعروة الوثقى التى تشدهم إلى الله، وتمنعهم من السقوط، وتجدد فيهم الأمل ، وتحرسهم من القنوط .. وكانوا بهذا وذاك نموذجا فريدا فى تاريخ البشرية لم يعرف له نظير.

درس مســتفاد :

وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور ..

علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرا، بكل ما تحمله طبيعة البشر من قوة وضعف.

وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مهيأة لبنى الإنسان ، في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء.

وحين نرانا ضعفنا مرة، أو زلزلنا مرة، أو فزعنا مرة، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق.. فعلينا ألا نيأس من أنفسنا ، وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا، أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدا !

ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا، لأنه من فطرتنا البشرية، ونصر عليه، لأنه يقع لمن هم خير منا، فإن هنالك العروة الوثقي التي لا انفصام لها .. هنالك عروة السماء وعلينا أن نستمسك بها، لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة،ونتخذ من الزلزال بشيرا بالنصر. فنثبت ونستقر ، ونقوى ونطمئن، ونسير فى الطريق..

مقابلة فى معرض التربية :

وهذا هو التوازن الذى صاغ ذلك النموذج الفريد في ضوء الإسلام.. النموذج الذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية، وحسن بلائه وجهاده، وثباته على عهده مع الله، فمنهم من لقيه، ومنهم من ينتظر إلى أن يلقاه:

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[1].

وهذه الصورة الوضيئة المضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة

---

(١) الأحزاب : ٢٣ .

الإيمان .. في مقابل صورة النفاق والضعف ونقض العهد من ذلك الفريق، لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن.

ويعقب عليها ببيان حكمة الابتلاء، وعاقبة النقض والوفاء، وتفويض الأمر في هذا كله لمشيئة الله:

﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١).

ومثل هذا التعقيب يتخلل تصوير الحوادث والمشاهد، ليرد الأمر كله إلى الله ويكشف عن حكمة الأحداث والوقائع. فليس شيء منها عبثا ولا مصادفة .. إنما تقع وفق حكمة مقدرة، وتدبير قاصد، وتنتهي إلى ما شاء الله من العواقب. وفيها تتجلي رحمة الله بعباده ، ورحمته ومغفرته أقرب وأكبر .

قصة حذيفة :

ولا يفوتنا هنا أن نذكر قصة دخول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بين حشود الأحزاب، وتخلله جموعهم ،(٢) وتولجه بين صفوفهم، بأمرالرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، ليتعرف له أخبارهم، ويسبر أحوالهم ، ويكشف عن أسرارهم ، وما نزل بهم من كوارث البلاء، وفوادح المحن ، وما تفعله بهم الريح التي أرسلها الله تعالى عليهم ، مع جنود من التدبير، وجوائح الخطوب، وقاصفات العواصف، ومزلزلات الكروب، مما جعل مقامهم في منازلهم من ميدان المعركة محالا ، مع ما أصابهم من تفكك عرى روابطهم الزائفة التى شتت شملهم، ومزقت كلمتهم، حتي شغل كل فريق منهم بنفسه عن نفسه، لما واقعهم من مفاجآت النوازل، وصاخّات المصائب، حتي رحلوا وهم على أبشع حال من البلاء .

يروى مسلم عن إبراهيم التيميّ عن أبيه، قال:

كنا عند حذيفة . فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت . فقال حذيفة:

---

(١) الأحزاب: ٢٤ .

(٢) محمد رسول الله : ٤ : ١٩٠ وما بعدها بتصرف.

أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب . وأخذتنا ريح شديدة وقُرّ . فقال رسول الله ﷺ :

« **ألا رجل يأتيني بخبر القوم ، جعله الله معي يوم القيامة ؟** »

فسكتنا فلم يجبه منا أحد. ثم قال:

« **ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله الله معى يوم القيامة ؟** »

فسكتنا. فلم يجبه منا أحد.ثم فقال:

« **ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله اللّه معى يوم القيامة ؟** » **فسكتنا. فلم يجبه منا أحد . فقال** : « **قم يا حذيفة ! فَأْتنا بخبر القوم** » .

فلم أجد بدا . إذ دعاني باسمى ، أن أقوم . قال:

« **اذْهب . فأتنى بخبر القوم . ولا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ** »

فلما ولّيت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام. حتى أتيتهم. فرأيت أبا سفيان يَصْلِي ظهرَه بالنار. فوضعت سهما في كبد القوس . فأردت أن أرميه. فذكرت قول رسول الله ﷺ :

«**ولا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ** »

ولو رميته لأصبته. فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام. فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم ، وفرغت قُرِرْتُ . فألبسَني رسولُ الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يُصَلِّي فيها . فلم أزل نائما حتى أصبحت. فلما أصبحت قال:

« **قُمْ يَا نَوْمَانُ** » (١).

وقد تعددت الروايات في ذلك، وحسبنا أن نذكر تلك الرواية التفسيرية التي رواها البزار بسند رجاله ثقات عن حذيفة أن الناس تفرقوا عن رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، فلم يبق معه إلا اثنا عشر رجلا ، فأتاني رسول الله ﷺ وأنا جاثم من القوم ، فقال:

« **يا بن اليمان ، قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب ، فانظر إلى حالهم** » .

(١) مسلم: ٣٢ ـ الجهاد ٩٩ (١٧٨٨) .

قلت : يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق، ما قمت لك إلا حياء من البرد ، قال:

« **انطلق يا بن اليمان ، فلا بأس عليك من بَرْدٍ ولا حَرّ ، حتى ترجع لى** ».

فانطلقت حتى أتيت عسكرهم، فوجدت أبا سفيان يوقد النار في عصبة حوله ، وقد تفرق الأحزاب عنه، فجئت حتى أجلس فيهم، فحسَّ أبو سفيان أنه قد دخل فيهم مِنْ غيرِهم، فقال: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، قال: فضربت بيديِ على الذي عن يميني، فأخذتُ بيده، ثم ضربت بيدي على الذي عن يساري، فأخذت بيده، فلبثت فيهم هُنَيْهَةً ، ثم قمت ، فأتيت النبى ﷺ ، وهو قائم يصلي ، فأومأ إِلىَّ أن أَدْنو، فدنوت حتى أرسل علىَّ من الثوب الذى كان عليه ليدفئنى، فلما فرغ من صلاته قال :

« **يا بن اليمان ، اقعد ، ما خبر الناس ؟** » .

فقلت: يا رسول اللّه ! تفرق الناس على أبي سفيان، فلم يبق إلا في عصبة توقد النار، وقد صبَّ الله تبارك وتعالى عليهم من البرد الذي صبّ علينا، ولكنا نرجو من الله مالا يرجون [1] .

ورواه الحاكم وغيره [2] .

من صفات الفدائى المسلم :

وهكذا ذهب حذيفة رضى الله عنه إلى جموع الأحزاب ، ودخل بينهم ، والظلام الشديد يستره.. دخل بينهم دخول الفدائي المسلم الذي يكتنفه الموت من جميع أكنافه، ويحتويه من سائر جوانبه، وهو لا يبالى، ولكن حذيفة كان حاذق الرأى ، خبيرا بتصرف الأمور إذا تأزمت، سريع البادرة، ثابت اليقين، راسخ الإيمان، فطن الفطرة ، زكيَّ الفؤاد ، متماسك الشخصية.

وهذه هي الصفات التي يجب أن تتوافر فى الأفراد والجماعات الذين يكونون موضع الثقة الخاصة للقيادة، عند اشتداد الأزمات واستحكام الأخطار.

---

(١) مجمع الزوائد ٦ : ١٣٦.

(٢) المستدرك : ٣ : ٣١ وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي، وانظر : البداية : ٤ : ١١٤ ـ ١١٥ ، وابن هشام : ٢ : ١٩٤ ، وأحمد : ٥ : ٣٩٢ ـ ٣٩٣ ، والمواهب اللدنية : ٢ : ١١٧ وما بعدها .

وقد عرف حذيفة خبر الأحزاب ، ورجع فأخبر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ خبر القوم .

ولا ننسى موقفه من أبي سفيان وهو يصلى خاصرته بالنار من شدة البرد، وتمكنه من قتله، لولا تذكره قول النبي ﷺ !

«ولاتذْعَرْهُمْ عَلَيَّ » .

وهو موقف يمثل الانضباط الكامل للجندية الفدائية.

ولا ننسى كذلك موقفه وهو يسمع أبا سفيان يقول حين أحسّ بوجوده بينهم: ليأخذ كل منكم بيد جليسه. فإذا بحذيفة رضي الله عنه يضرب بيده على الذي عن يمينه، والذي عن يساره.

وهو موقف يمثل الثبات الكامل والحركة المناسبة في الوقت المناسب.

« ورد الله الذين كفروا » :

وهنا نقرأ ختام الآيات عن الحدث الضخم بعاقبته التي تُصدِّق ظن المؤمنين بربهم، وضلال المنافقين والمرجفين وخطأ تصوراتهم، وتثبت القيم الإيمانية بالنهاية الواقعية:

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾[1] .

وهكذا بدأت المعركة، وسارت في طريقها، وانتهت إلى نهايتها ، وزمامها في يد الحق، يصرفها كيف يشاء، وأثبت النص القرآني هذه الحقيقة بطريقة تعبيره فأسند إلى الله إسنادا مباشرا كل ما تم من الأحداث والعواقب، تقريرا لهذه الحقيقة، وتثبيتا لها في القلوب، وإيضاحا للتصور الإسلامى الصحيح.

قصة نعيم بن مسعود :

قال ابن حجر : [2] وذكر أهل المغازي سبب رحيلهم، وأن نعيم بن مسعود الأشجعى ألقى بينهم الفتنة فاختلفوا، وذلك بأمر النبي ﷺ له بذلك، ثم أرسل الله عليهم

---

(١) الأحزاب : ٢٥.
(٢) فتح الباري : ٧ : ٣٩٣.

الريح فتفرقوا، وكفى الله المؤمنين القتال.

قلت: ذكر هذه القصة ابن إسحاق بدون إسناد، وعنه ابن هشام، [1] وقد أوردها علماء السير، وقال ابن كثير بعد ذكره للقصة: [2] وهذا الذى ذكره ابن إسحاق من قصة نعيم بن مسعود أحسن مما ذكره موسى بن عقبة. وقد أورده عنه البيهقى في الدلائل .. وقد عقب ابن كثير بقوله: وقد يحتمل أن تكون قريظة لما يئسوا من انتظام أمرهم مع قريش وغطفان بعثوا إلى رسول الله ﷺ يريدون منه الصلح،على أن يرد بنى النضير إلى المدينة.

قلت: وأرى في هذا الاحتمال من ابن كثير صرف الرواية عن ظاهرها.. وعلى كل فقد أحسن ابن سعد [3] حيث جعل دور ابن مسعود موقوفا عليه، قال:

وكان نعيم بن مسعود الأشجعي قد أسلم فحسن إسلامه، فمشي بين قريش وغطفان، وأبلغ هؤلاء عن هؤلاء كلاما، وهؤلاء عن هؤلاء كلاما، يرى كل حزب منهم أنه ينصح له، فقبلوا قوله، وخذله عن رسول الله ﷺ ، واستوحش كل حزب من صاحبه، وطلبت قريظة من قريش الرهن، حتي يخرجوا فيقاتلوا معهم، فأبت قريش واتهموهم، واعتلت قريظة بالسبت، وقالوا: لا نقاتل فيه، لأن قوما منا عدوا في السبت فمسخوا قردة وخنازير، فقال أبو سفيان بن حرب: ألا أرانى أستعين بإخوة القردة والخنازير؟ وبعث الله الريح ليلة السبت ففعلت بالمشركين وتركت ، لا تقر لهم بناء ولا قدرا.

موقف حكيم :

وفى قصة نعيم بن مسعود وتخذيله الأحزاب مثل وشواهد [4] من منهج الرسالة الخاتمة، جعلت منها إطارا لما ينبغى أن يكون عليه المجتمع المسلم إذا تفاقمت به الأزمات ، واستحكمت الشدائد ، وأحاطت به الكوارث، وقاسيات البلايا والمحن، واكتنفته المآزق، وتملكه الرعب والجزع، واستولى عليه الخوف والهلع، واستحوذ عليه الاضطراب والفزع، وسدت فى وجهه أبواب المخارج من المضايق.

وجعلت منه إطارا لما كشفت عنه الأحداث من محكم السياسة التى تصرفت في دائرتها قيادة المجتمع من حسن التدبير، وإحكام الرأي فى كيد الأعداء الذى أخرج في إبانه بعد أن توافرت دواعيه.

---

(١) ابن هشام : ٢ : ١٩٣ ـ ١٩٤ .

(٢) البداية والنهاية : ٤ : ١١٢ ـ ١١٣.

(٣) الطبقات الكبري : ٢ : ٦٩.

(٤) محمد رسول الله : ٤ : ١٨٧ بتصرف.

وأول ذلك أن تلجأ القيادة الحكيمة إلى الرأي الرصين الحكيم تستشيره وتوقظه، كما هومعلوم من الأدلة الكثيرة التي تدعو إلى الشورى، ليتحرك في اتجاه النظر في بؤرة المجمعة لقوة الأعداء، ومصادرها وعناصر تركيبها، حتي تتعرف إلى مافيها من شروخ يسترها النفاق والدعاوى الكاذبة، فتعمد إلى كشفها وتسليط سياسة تمزيق الروابط بين عناصر تلك القوة التركيبية، حتى تتفكك وسائل الترابط الزائف بين تلك القوة المتورمة في حشود العدو.

ويسبق ذلك إعداد العناصر القوامة بما يطلب منها في شأن تفريق كلمة العدو، لتؤدى واجبها دون أن يتنبه لها العدو ، مما يوجب أن يؤخذ وهو مستغرق في غفلة الغرور عن تدبير ما يدبر له.

وإذا دلف إلى القيادة عنصر من عناصر الكيد والمكر بالعدو، وجب على القيادة أن تضع هذا العنصر دون شعور منه تحت مخبار التجربة، بعيدا عن جو ما يكلفه من عظائم الأحداث.

وإذا أظهرت التجربة صحة الوضع في هذا العنصر الطارئ وجب على القيادة أن تسرع إلى انتهاز الفرصة المتاحة لاستغلالها في سرعة وإتقان، ومباعدة للشك والاسترابة، مع اليقظة المتوثبة بالمشاعر المرهفة (١) .

وهذا هو الجانب المنهجي في هذه القصة .. الجانب الذي أقيم علي دعائم السياسة الحكيمة المحكمة، التي يجب أن تكون سطرا في دروس التربية للقادة والدعاة في رسالة الإسلام ، فقد بلغت الأمور بالمسلمين المدى من الشدائد والمحن والتأزمات، وكان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يترقب الفرج ويستشرفه من آفاق العزة الإلهية ، فأسرع نعيم تدفعه مشاعر الصدق والإخلاص ، يحاول أن يعمل عملا يرفع به عن المجتمع المسلم آصار الحصار والشدائد ، فمضي إلى الأحزاب يكيدهم ويمكر بهم ويخادعهم ، ويلقي بينهم بذور الشك ، فجعل بأسهم بينهم، مع ما أنزل الله تعالى من آيات غيبية معجزة لنبيه ﷺ، من الريح التى أكفأت قدورهم، وهدمت بنيانهم، وشدة البرد التى أهرأت أجسامهم بصقيعها، فترحلوا مدحورين.

---

(١) المرجع السابق : ٢٠١ بتصرف.

« نغزوهم ولا يغزوننا » :

وقد كانت أحداث الأحزاب دروسا تربوية لحياة المجتمع المسلم، [1] التى أقام الرسول الحبيب المحبوب ﷺ دعائمها على الكفاح والنضال،والاستنصار بالله وآياته ، وجنود الحق التى أمد الله بها نبيه ﷺ في جهاده لنشر دعوته، وتبليغ رسالته.

انصرف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بأصحابه بعد رحيل الأحزاب بحشودهم وجموعهم منهزمين أذلة مدحورين، وبشر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أصحابه بأن هذه الغزوة المهاجمة هي آخر غزوات أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ ، وأعداء رسالته، التى يغزون فيها المجتمع المسلم.

يروى البخارى عن سليمان بن صرد قال : قال النبى ﷺ يوم الأحزاب :

« **نغزوهم ولا يغزوننا** » .

وفي رواية له عنه أيضا يقول: سمعت النبى ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه:

« **الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم** » [2].

يقول ابن حجر : وفيه إشارة إلى أنهم رجعوا بغير اختيارهم، بل بصنع الله تعالى لرسوله ، وذكر الواقدي أنه ﷺ قال ذلك بعد أن انصرفوا ، وذلك لسبع بقين من ذى القعدة، وفيه علم من أعلام النبوة، فإنه ﷺ اعتمر فى السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت، ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها، فكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال ﷺ.

وأخرج البزار بإسناد حسن من حديث جابر أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب ، وقد جمعوا له جموعا كثيرة:

« **لا يغزونكم بعد هذا أبدا ، ولكن أنتم تغزونهم** » [3] .

لمحات من آيات الله :

وقد كان في هذه الغزوة من آيات الله ومعجزاته الكونية أمور كثيرة، أكرم الله بها

(١) المرجع السابق ٢٠١ ، بتصرف.

(٢) البخارى: ٦٤ ـ المغازى (٤١٠٩ ، ٤١١٠).

(٣) فتح البارى : ٧ : ٤٠٥ .

نبيه ﷺ، وحسبنا أن نذكر ما جاء فى كتاب الله تعالى مما لا يمكن أن يحوم حول حماه شيء من الشك من إرسال الريح والجنود ، وما صنعت بجموع الشرك والوثنية من جموع الأحزاب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[1] .

تربية واقعية :

كانت الشخصية المسلمة تصاغ فى معترك الحياة ومصطرع الأحداث، ويوما بعد يوم، وحدثا بعد حدث، كانت هذه الشخصية تنضج وتنمو، وتتضح سماتها[2] .

وكانت الجماعة المسلمة التى تتكون من تلك الشخصيات تبرز إلى الوجود بمقوماتها الخاصة ، وقيمها الخاصة، وطابعها المميز بين سائر الجماعات.

وكانت الأحداث تقسو على الجماعة الناشئة، حتى لتبلغ أحيانا درجة الفتنة، وكانت فتنة كفتنة الذهب ، تفصل بين الجوهر الأصيل والزبد الزائف ، وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها، فلا تعود خليطا مجهول القيم .

وكان القرآن الكريم ينزل في إبان الابتلاء أوبعد انقضائه، يصور الأحداث ، ويلقي الأضواء على منحنياته وزواياه ، فتنكشف المواقف والمشاعر، والنوايا والضمائر، ثم يخاطب القلوب وهى مكشوفة في النور عارية من كل رداء وستار، ويلمس فيها التأثر والاستجابة، ويربيها يوما بعد يوم، وحادثا بعد حادث ، ويرتب تأثراتها واستجاباتها وفق منهجه الذي يريد.

ولم يترك المسلمون لهذا القرآن، يتنزل بالأوامر والنواهي، وبالتشريعات والتوجيهات جملة واحدة، إنما أخذهم الله بالتجارب والابتلاءات، والفتن والامتحانات، فقد علم الله أن هذه الخليقة البشرية لا تصاغ صياغة سليمة، ولا تنضج نضجا صحيحا، ولا تصح وتستقيم على منهج إلا بذاك النوع من التربية التجريبية الواقعية، التي تحفر فى القلوب، وتنقش فى الأعصاب، وتأخذ من النفوس، وتعطي فى معترك الحياة، ومصطرع الأحداث.

---

(١) الأحزاب : ٩ .　　　(٢) فى ظلال القرآن : ٥ : ٢٨٣١ بتصرف .

أما القرآن الكريم فيتنزل ليكشف لهذه النفوس عن حقيقة ما يقع ودلالته، وليوجه تلك القلوب وهي منصهرة بنار الفتنة، ساخنة بحرارة الابتلاء، قابلة للطرق، مطاوعة للصياغة !

ولقد كانت فترة عجيبة حقا، تلك التي قضاها المسلمون في حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، فترة اتصال السماء بالأرض اتصالا مباشرا ظاهرا، مبلورا فى أحداث وكلمات.

ذلك حين كان يبيت كل مسلم وهو يشعر أن عين الحق عليه، وأن سمع الله إليه، وأن كل كلمة منه، وكل حركة ، بل كل خاطر ، وكل نية ، قد يصبح مكشوفا للناس ، يتنزل فى شأنه قرآن على رسول الله ﷺ.

وحين كان كل مسلم يحسّ الصلة المباشرة بينه وبين ربه، فإذا حزبه أمر، أو واجهته معضلة ، انتظر أن تفتح أبواب السماء ليتنزل منها حل لمعضلته، وبيان فى أمره، وقضاء في شأنه. وياله من أمر هائل عجيب !

لقد كانت فترة عجيبة حقا، يتملاها الإنسان اليوم، ويتصور حوادثها ومواقفها ، وهو لا يكاد يدرك كيف كان ذلك الواقع !

ولكن الله عز وجل لم يدع المسلمين لهذه المشاعر وحدها تربيهم ، وتنضج شخصيتهم المسلمة .. بل أخذهم بالتجارب الواقعية، والابتلاءات التى تأخذ منهم وتعطى، وكل ذلك لحكمة يعلمها ، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

هذه الحكمة تستحق أن نقف أمامها طويلا، ندركها ونتدبرها، ونتلقى أحداث الحياة وامتحاناتها على ضوء ذلك الإدراك وهذا التدبير.

والقرآن الكريم يصور نماذج البشر وأنماط الطباع، ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية.. هذه التي لا تنتهي بانتهاء الحادث ، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص،ولا تنقضي بانقضاء الملابسات .. ومن ثم تبقي قاعدة ومثلا لكل جيل ولكل قبيل.. ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص ، وتظهر فيها يد الحق القادر وتدبيره اللطيف ، ويقف عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير.

ومع أنه كان يقص القصة على الذين عاشوها، وشهدوا أحداثها، فإنه كان يزيدهم بها خبرا ، ويكشف لهم من جوانبها ما لم يدركوه وهم أصحابها وأبطالها !

ويُلقي الأضواء على سراديب النفوس، ومنحنيات القلوب ، ومخبآت الضمائر ويكشف للنور الأسرار والنوايا ، والخوالج المستكنة في أعماق الصدور .. ذلك إلى جمال التصوير ، وقوته وحرارته ، مع التهكم القاصم ، والتصوير الساخر للجبن والخوف، والنفاق والتواء الطباع !

ومع الجلال الرائع، والتصوير الموحي للإيمان والشجاعة والصبر والثقة في نفوس المؤمنين..

إن القرآن الكريم معد للعمل، لا فى وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب .. ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك ، وفي كل تاريخ ..

معد للعمل في النفس البشرية إطلاقا كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهه في الآماد الطويلة ، والبيئات المنوعة. بنفس القوة التي عمل بها في الجماعة الأولى .

ولا يفهم القرآن حق الفهم إلا من يواجه مثل الظروف التي واجهتها النصوص أول مرة.

هنا تتفتح تلك النصوص عن رصيدها المذخور ، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة.

وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات .. وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها .. تنتفض خلائق حية، موحية ، دافعة ، دافقة ، تعمل فى واقع الحياة ، وتدفع بها إلى حركة حقيقية ، فى عالم الواقع ، وعالم الضمير ..

إن القرآن ليس كتابا للتلاوة ولا للثقافة .. وكفى .. إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة، وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث ! ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة، متي وجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب، ووجد الظرف الذى يطلق الطاقة المكنونة فى تلك النصوص ذات السر العجيب !

وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرات ، ثم يقف الموقف، أويواجه الحادث ،

فإذا النص القرآني جديد، يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط ، ويجيب على السؤال الحائر، ويفتي في المشكلة المعقدة، ويكشف الطريق الخافي ، ويرسم الاتجاه القاصد، ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه، وإلى الاطمئنان العميق..

وليس ذلك لغير القرآن في قديم ولا حديث ..

« اذكروا نعمة الله عليكم » :

ويبدأ السياق القرآني الحديث عن حادث الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم أن رد عنهم الجيش الذي همَّ أن يستأصلهم ، لولا عون الله وتدبيره اللطيف.

ومن ثم يجمل طبيعة ذلك الحادث، وبدءه ونهايته، قبل تفصيله وعرض مواقفه ـ كما سبق ـ لتبرز نعمة الله التي يذكرهم بها ، ويطلب إليهم أن يتذكروها، وليظهر أن الله الذي يأمر المؤمنين باتباع وحيه ، والتوكل عليه وحده ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، هو الذي يحمي القائمين على دعوته ومنهجه ، من عدوان الكافرين والمنافقين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

وهكذا يرسم في هذه البداءة المجملة بدء المعركة وختامها، والعناصر الحاسمة فيها .. مجيء جنود الأعداء، وإرسال ريح الله وجنوده التي لم يرها المؤمنون ، ونصر الله المرتبط بعلم الله بهم، وبصره بعملهم..

ثم يأخذ بعد هذا الإجمال في التفصيل والتصوير ..

وسبق أن تحدثنا عن عظم البلاء ، وموقف المنافقين وخصائصهم المستمدة من خصائص اليهود !

الفصل الثانى

فى الطريق إلى بنى قريظة

نقض العهد ـ الأمر بالخروج ـ الجمع بين الروايتين ـ من فقه الحديث ـ أيهما كان أصوب ؟ ـ تأخير الصلاة ـ احترام وجهات النظر ما دامت عن اجتهاد ـ أمير المدينة ـ عليّ يحمل الراية ـ طبيعة اليهود ـ محاولة إنقاذ الموقف ـ صورة وضيئة ـ « خير أمة » ـ ترغيب أهل الكتاب فى الإيمان ـ « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » ـ «ثم لا ينصرون»ـ المعصية والاعتداء ـ « ليسوا سواء » ـ عمرو بن سعد القرظي ـ مقاومة اليهود واشتداد الحصار عليهم ـ يهودية تقتل مسلما ـ رئيس بنى قريظة ينصح قومه ـ الوقت والمباغتة ـ محاولة اليهود الأخيرة ـ أهل أبى لبابة وأمواله فيهم ـ أبو لبابة يربط نفسه في المسجد ـ توبة أبى لبابة ـ تحذير وتذكير .

نقض العهد :

سبق أن عرفنا أن طوائف الكفار، وفي المقدمة هؤلاء اليهود ، قد أيقنوا أن هدفهم لن يكسب ضمانه النهائي إلا إذا حاولوا جاهدين جمع أعداء الحق معهم، ومن ثم كان غدر بني قريظة، وكان تأليب أحزاب الكفر على الرسالة والرسول ﷺ.. وكان أن عرف المسلمون مبلغ الخطر المحدق بهم ، فرسموا ـ على عجل ـ الخطة التي يدفعون بها عن دعوتهم ودولتهم ، وكانت خطة فريدة ، لم تسمع العرب من قبل بمثلها ، وهم الذين لا يعرفون إلا قتال الميادين المكشوفة .. وكان أن انقضت حشود الأحزاب حول المدينة [١] ، وعادت المطي بها ، من حيث أتت ، تذرع رحاب الصحراء، وليس تحمل معها إلا الفشل، والخيبة، وبقي يهود قريظة وحدهم، وبقيت معهم غدرتهم التي فضحت طواياهم، وكشفت نواياهم، فأصبحوا وأمسوا أشبه بالمجرم الذي ثبتت إدانته، فهو يرقب بوجه كالح قصاص العدالة منه!

وكانت مشاعرا التغيظ فى أفئدة المسلمين نحو أولئك اليهود قد بلغت ذروتها، إنهم هم الذين استخرجوا العرب استخراجا، واستقدموهم إلى دار الهجرة ليجتاحوها من أقطارها، ويستأصلوا المسلمين فيها !

إن جراحات المسلمين لطردهم من ديارهم ومطاردتهم في عقيدتهم، واستباحة أموالهم ودمائهم لكل ناهب ومغتال ، لمَّا تندمل بعد، بل لن تندمل أبدا، فكيف ساغ لأولئك الخونة من بني إسرائيل أن يرسموا بأنفسهم الخطة لإهلاك الإسلام وأبنائه على هذا النحو الذليل ؟ !

ثم ما الذى يجعل بنى قريظة خاصة ـ وهم لم يروا فى جوار الرسول إلا البر والوفاء ـ يستديرون بأسلتحهم، منضمين إلى أعداء الإسلام ـ كما عرفنا ـ كى يشركوهم فى قتل المسلمين وسلبهم ؟ !

وها قد دخل في حصونهم حيي بن أخطب رأس العصابة التي طافت بمكة، ونجد تحرض الأحزاب على الله ورسوله، وتزعم أن الوثنية أفضل من التوحيد !

الأمر بالخروج :

وما إن وثق المسلمون من منصرف الأحزاب عن المدينة، حتى كان التوجه إلى بنى

---

(١) فقه السيرة : ٣٠٩ بتصرف.

قريظة، وذلك فيما رواه الشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت : **أصيب سعد يوم الخندق . رماه رجل من قريش يقال له حِبَّان بن العَرِقَة ، رماه في الأكْحَل، فضرب النبى ﷺ خيمة في المسجد ، ليعوده من قريب. فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق، ووضع السلاح واغتسل ، فأتاه جبريل عليه السلام ، وهو ينفض رأسه من الغبار. فقال: قد وضَعْتَ السلاح ؟ والله ! وماوضعتُه ، اخرج إليهم. قال النبى ﷺ : « فأين ؟ » فأشار إلى بنى قريظة. فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه ، فرد الحكم إلى سعد . قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم.**

قال هشام : فأخبرنى أبى عن عائشة أن سعدا قال :

اللهم !! إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه. اللهم ! فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقى من حرب قريش شيء فأبقنى له ، حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتي فيها.

فانفجـرت من لبته . فلم يَرعْهـم ــ وفى المسـجد خيمة من بنى غفـار ــ إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذى يأتينا من قبلكم ؟

فإذا سعد يغذو جرحه دما، فمات منها رضى الله عنه (١) .

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال النبىﷺ يوم الأحزاب :

« لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة » .

فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلى، لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ، فلم يعنف واحداً منهم (٢) .

---

(١) البخاري ٦٤ ــ المغازي (٤١٢٢) واللفظ له، ومسلم :٣٢ ــ الجهاد ٦٥ ــ ٦٧ (١٧٦٩) .

(٢) البخارى : ٦٤ ــ المغازي (٤١١٩) .

ورواه مسلم عن عبد الله قال: نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف عن الأحزاب:

« أن لايصلين أحد الظهر إلا فى بنى قريظة » .

فتخوف ناس فوْت الوقت. فصلوا دون بني قريظة. وقال آخرون: لا نصلّي إلا حيث أمرنا رسول اللّه ﷺ ، وإن فاتنا الوقت. قال: فما عنّف واحدا من الفريقين (١) :

وروى البيهقى فى الدلائل بإسناد صحيح إلى الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن كعب بن مالك، عن عمه عبيد الله بن كعب، أن رسول الله ﷺ لما رجع من طلب الأحزاب ، وجمع عليه اللأْمة، واغتسل واستجمر، تبدّى له جبريل فقال :(٢)

عذيرك من محارب ! فوثب فزعا، فعزم على الناس أن لا يصلوا العصر حتى يأتوا بنى قريظة ، قال فلبس الناس السلاح ، فلم يأتوا قريظة حتى غربت الشمس ، قال فاختصموا عند غروب الشمس ، فصلت طائفة العصر ، وتركتها طائفة ، وقالت : إنا في عزمة رسول الله ﷺ ، فليس علينا إثم ، فلم يعنِّف واحدا من الفريقين.

وأخرجه الطبراني من هذا الوجه موصولا بذكر كعب بن مالك فيه، وللبيهقى من طريق القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها نحوه مطولا، وفيه: « فصلت طائفة إيمانا واحتسابا، وتركت طائفة إيمانا واحتسابا ».

الجمع بين الروايتين :

ونجد أنفسنا أمام ذكر أقوال العلماء في الجمع بين الروايتين، حيث ورد لفظ «العصر» في جميع النسخ عند البخارى، وورد لفظ «الظهر» في جميع النسخ عند مسلم، مع اتفاق البخاري ومسلم على روايته عن شيخ واحد بإسناد واحد ـ كما يقول ابن حجر (٣) ـ وقد وافق مسلما أبو يعلى وآخرون، وكذلك أخرجه ابن سعد عن أبى عتبان مالك بن إسماعيل عن جويرية بلفظ «الظهر» وابن حبان من طريق أبي عتبان (٤) كذلك ، ولم أره من رواية جويرية إلا بلفظ «الظهر» غير أن أبا نعيم فى «المستخرج» أخرجه من طريق أبى

(١) مسلم: ٣٢ ـ الجهاد ٦٩ (١٧٧٠).
(٢) فتح البارى : ٧ : ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) فى هامش طبعة بولاق. فى نسخة « أبى غسان » .

حفص السلمى عن جويرية فقال « العصر» .

وأما أصحاب المغازي فاتفقوا على أنها «العصر».

وقال ابن حجر عقب رواية البيهقي وغيره: وهذا كله يؤيد رواية البخاري في أنها «العصر»، وقد جمع بعض العلماء بين الروايتين باحتمال أن يكون بعضهم قبل الأمر كان صلى «الظهر»، وبعضهم لم يصلها، فقيل لمن لم يصلها لا يصلين أحد «الظهر» ولمن صلاها لا يصلين أحد «العصر».

وجمع بعضهم باحتمال أن تكون طائفة منهم راحت بعد طائفة، فقيل للطائفة الأولى «الظهر» وقيل للطائفة الثانية التى بعدها «العصر».

وكلاهما لا بأس به، لكن يبعده اتحاد مخرج الحديث، لأنه عند الشيخين كما بيناه بإسناد واحد من مبدئه إلى منتهاه، فيبعد أن يكون كل من رجال إسناده قد حدث به على الوجهين، إذ لو كان كذلك لحمله واحد منهم عن بعض رواته على الوجهين ، ولم يوجد ذلك.

ثم تأكد عندى أن الاختلاف في اللفظ المذكور من حفظ بعض رواته، فإن سياق البخاري وحده مخالف لسياق كل من رواه عن عبدالله بن محمد بن أسماء، وعن عمه جويرية..

فالذي يظهر من تغاير اللفظين أن عبد الله بن محمد بن أسماء شيخ الشيخين فيه لما حدث به البخاري حدث به على هذا اللفظ، ولما حدث به الباقين حدثهم به على اللفظ الأخير، وهو اللفظ الذى حدث به جويرية، بدليل موافقة أبي عتبان له عليه، بخلاف اللفظ الذي حدث به البخارى، أو أن البخاري كتبه من حفظه ولم يراع اللفظ، كما عرف من مذهبه في تجويز ذلك، بخلاف مسلم فإنه يحافظ على اللفظ كثيرا، وإنما لم أجوز عكسه لموافقة من وافق مسلما على لفظه، بخلاف البخاري ، لكن موافقة أبى حفص السلمي له تؤيد الاحتمال الأول، وهذا كله من حديث ابن عمر.

أما بالنظر إلى حديث غيره فالاحتمالان المتقدمان في كونه قال «الظهر» لطائفة، و«العصر» لطائفة متجهة، فيحتمل أن تكون رواية « الظهر» هى التى سمعها ابن عمر، ورواية «العصر» هى التى سمعها كعب بن مالك وعائشة.

من فقه الحديث :

قال السهيلى وغيره: فى هذا الحديث من الفقه أنه لايعاب على من أخذ بظاهر حديث أو آية، ولا على من استنبط من النص معنى يخصصه، ومنه أن كل مختلفين في الفروع من المجتهدين مصيب.

قال السهيلى : ولا يستحيل أن يكون الشيء صوابا في حق إنسان وخطأ فى حق غيره، وإنما المحال أن يحكم فى النازلة بحكمين متضادين فى حق شخص واحد.

قال: والأصل فى ذلك أن الحظر والإباحة صفات أحكام لا أعيان.

قال: فكل مجتهد وافق اجتهاده وجها من التأويل فهو مصيب.

قال ابن حجر: والمشهور أن الجمهور ذهبوا إلى أن المصيب في القطعيات واحد ..

ثم قال: وأما ما لا قطع فيه فقال الجمهور أيضا: المصيب واحد وقد نقل ذلك الشافعي وقرره، ونقل عن الأشعري أن كل مجتهد مصيب، وأن حكم الله تابع لظن المجتهد. وقد قال بعض الحنفية وبعض الشافعية: هو مصيب باجتهاده، وإن لم يصب ما فى نفس الأمر فهو مخطئ ، وله أجر واحد ..

ثم الاستدلال بهذه القصة على أن كل مجتهد مصيب على الإطلاق ليس بواضح ، وإنما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه واجتهد، فيستفاد منه عدم تأثيمه.

وحاصل ما وقع في القصة أن بعض الصحابة حملوا النهى على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحا للنهى الثانى على النهى الأول ، وهو ترك تأخير الصلاة عن وقتها، واستدلوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب، بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق، فقد روى الشيخان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، جعل يَسبُّ كفار قريش، وقال: يا رسول الله! ما كدت أن أصلى حتي كادت الشمس أن تغرب. قال النبى ﷺ :

« **والله ! ما صلَّيتُها** » .

فنزلنا مع النبى ﷺ بُطْحان ، فتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ، ثم

صلى بعدها المغرب [1].

وفي رواية لهما عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال يوم الخندق :

«ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى ، حتى غابت الشمس » [2] .

قال ابن حجر: [3] وذلك لشغلهم بأمر الحرب، فجوزوا أن يكون ذلك عاما فى كل شغل يتعلق بأمر الحرب، ولا سيما والزمان زمان التشريع.

والبعض الآخر حملوا النهى على غير الحقيقة، وأنه كناية عن الحث والاستعجال والإسراع إلى بنى قريظة.

وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد ، لأنه ﷺ لم يعنِّف أحدا من الطائفتين، فلو كان هناك إثم لعنّف من أثم ، واستدل به ابن حبان على أن تارك الصلاة حتى يخرج وقتها لا يكفر، وفيه نظر لايخفى.

واستدل به غيره على جواز الصلاة على الدواب في شدة الخوف، وفيه نظر قد أوضحته في باب صلاة الخوف.

وعلى أن الذى يتعمد تأخير الصلاة حتى يخرج وقتها يقضيها بعد ذلك، لأن الذين لم يصلّوا العصر صلّوها بعد ذلك، كما وقع عند ابن إسحاق أنهم صلّوها في وقت العشاء، وعند موسى بن عقبة أنهم صلّوها بعد أن غابت الشمس وكذلك في حديث كعب بن مالك، وفيه نظر أيضا؛ لأنهم لم يؤخروها إلا لعذر تأولوه، والنزاع إنما هو فيمن أخر عمدا بغير تأويل.

وأغرب ابن المنير فادّعى أن الطائفة الذين صلّوا العصر لما أدركتهم في الطريق إنما صلّوها وهم على الدواب، واستندوا إلى أن النزول إلى الصلاة ينافي مقصود الإسراع في الوصول، قال: فإن الذين لم يصلّوا عمدوا بالدليل الخاص، وهو الأمر بالإسراع ، فترك عموم إيقاع العصر في وقتها إلى أن فات ، والذين صلّوا جمعوا بين دليلي وجوب الصلاة

---

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازي (٤١١٢)، ومسلم : ٥ ـ المساجد ٢٠٩ (٦٣١) .

(٢) البخارى : ٦٤ ـ المغازي (٤١١١)، ومسلم : ٥ ـ المساجد ٢٠٢ (٦٢٧) .

(٣) فتح البارى : ٧ : ٤١٠ .

ووجوب الإسراع فصلوا ركبانا، لأنهم لو صلّوا نزولا لكان مضادة لما أمروا به من الإسراع، ولا يظن ذلك بهم، مع تقرب أفهامهم.

قال ابن حجر: وفيه نظر ، لأنه لم يصرح لهم بترك النزول ، فلعلهم فهموا أن المراد بأمرهم أن لا يصلّوا العصر إلا في بني قريظة المبالغة في الأمر بالإسراع، فبادروا إلى امتثال أمره، وخصوا وقت الصلاة من ذلك، لماتقرر عندهم من تأكيد أمرها، فلا يمتنع أن ينزلوا فيصلّوا ، ولا يكون فى ذلك مضادة لما أمروا به، ودعوى أنهم صلّوا ركبانا يحتاج إلى دليل، ولم أره صريحا فى شىء من طرق هذه القصة.

أيهما كان أصــوب ؟ :

قال ابن القيم: اختلف الفقهاء أيهما كان أصوب ؟ (١) .

فقالت طائفة : الذين أخروها هم المصيبون ، ولو كنا معهم لأخرناها كما أخروها، ولما صلينا إلا فى بنى قريظة امتثالا لأمره، وتركا للتأويل المخالف للظاهر.

وقالت طائفة أخرى: بل الذين صلّوها في الطريق في وقتها حازوا قصب السبق، وكانوا أسعد بالفضيلتين، فإنهم بادروا إلى امتثال أمره فى الخروج ، وبادروا إلى مرضاته فى الصلاة فى وقتها، ثم بادروا إلى اللحاق بالقوم، فحازوا فضيلة الجهاد، وفضيلة الصلاة فى وقتها، وفهموا مايراد منهم، وكانوا أفقه من الآخرين ، ولا سيما تلك الصلاة، فإنها كانت صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى بنص رسول الله ﷺ الصريح، الذي لا مدفع له ، ولا مطعن فيه، ومجىء السنة بالمحافظة عليها، والمبادرة إليها، والتبكير بها، وأن من فاتته فقد وتر أهله وماله، أو قد حبط عمله، (٢) فالذى جاء فيها أمر لم يجىء مثله فى غيرها .

وأما المؤخرون لها فغايتهم أنهم معذورون، بل مأجورون أجرا واحدا، لتمسكهم بظاهر النص، وقصدهم امتثال الأمر.

وأما أن يكونوا هم المصيبين في نفس الأمر، ومن بادر إلى الصلاة وإلى الجهاد مخطئا،فحاشا وكلا، والذين صلّوا في الطريق جمعوا بين الأدلة، وحصلوا الفضيلتين، فلهم أجران، والآخرون مأجورون أيضا رضى الله عنهم.

---

(١) زاد المعاد:٣ : ١٣١ بتصرف.

(٢) انظر: البخارى: ٩ ــ مواقيت الصلاة (٥٥٢، ٥٥٣)، ومسلم : ٥ ــ المساجد: ٢٠٠ ، ٢٠١ (٦٢٦).

تأخير الصلاة :

فإن قيل: كان تأخير الصلاة للجهاد حينئذ جائزا مشروعا، ولهذا كان عقب تأخير النبى ﷺ العصر يوم الخندق إلى الليل ، فتأخيرهم صلاة العصر إلى الليل كتأخيره ﷺ لها يوم الخندق إلى الليل سواء، ولا سيما أن ذلك كان قبل شروع صلاة الخوف.

قيل: هذا سؤال قوى، وجوابه من وجهين:

أحدهما: أن يقال: لم يثبت أن تأخير الصلاة عن وقتها كان جائزا بعد بيان المواقيت، ولادليل على ذلك إلا قصة الخندق، فإنها هي التي استدل بها من قال ذلك، ولا حجة فيها، لأنه ليس فيها بيان أن التأخير من النبى ﷺ كان عن عمد، بل لعله كان نسيانا، وفي القصة ما يشعر بذلك ، فإن عمر لما قال له فى الحديث السابق الذى رواه الشيخان : يا رسول الله! ما كدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب، قال النبى ﷺ :

« **والله ! ما صليتها** » .

فنزلنا مع النبي ﷺ بُطحان، فتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب.

قال: وهذا مشعر بأنه ﷺ كان ناسيا بما هو فيه من الشغل، والاهتمام بأمر العدو المحيط به، وعلى هذا يكون قد أخرها بعذر النسيان، كما أخّرها بعذر النوم في سفره، وصلاها بعد استيقاظه،وبعد ذكره ، لتتأسى أمته به.

والجواب الثانى: أن هذا على تقدير ثبوته إنما هو فى حال الخوف والمسايفة عند الدهش عن تعقل أفعال الصلاة، والإتيان بها، والصحابة فى مسيرهم إلى بني قريظة لم يكونوا كذلك، بل كان حكمهم حكم أسفارهم إلى العدو قبل ذلك وبعده، ومعلوم أنهم لم يكونوا يؤخرون الصلاة عن وقتها، ولم تكن قريظة ممن يخاف قوتهم، فإنهم كانوا مقيمين بدارهم ، فهذا منتهى أقدام الفريقين في هذا الموضع [1] .

احترام وجهات النظر ما دامت عن اجتهاد :

وعلى كل فإن ذلك يمثل احترام الإسلام لاختلاف وجهات النظر ما دامت عن

(١) انظر تفصيل القول في ذلك : طرح التثريب في شرح التقريب: ٣ : ١٣٠ وما بعدها.

اجتهاد برىء سليم [1]، والناس غالبا أحد رجلين :

رجل يقف عند حدود النصوص الظاهرة لا يعدوها .

ورجل يتبين حكمتها، ويستكشف غايتها، ثم يتصرف فى نطاق ما وعى من حكمتها وغايتها، ولو خالف الظاهر القريب .

وكلا الفريقين يشفع له إيمانه واحتسابه، ومن ثم صلت طائفة إيمانا واحتسابا ، وتركت طائفة إيمانا واحتسابا ـ كما سبق في رواية البيهقى من طريق القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها ـ سواء أصاب الحق أو ندَّ عنه.

ومن العلماء من أهدر الوقت المعين للصلاة بعذر القتال، قال البخارى : [2] قال الأوزاعى : إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلّوا إيماء، كلّ امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخروا الصلاة، حتى ينكشف القتال، أو يأمنوا فيصلّوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلّوا ركعة وسجدتين لا يجزئهم التكبير، ويؤخروها حتى يأمنوا، وبه قال مكحول. وقال أنس: حضرت عند مناهضة حِصْنِ تُسْتَر عند إضاءة الفجر ـ واشتد اشتعال القتال ـ فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبى موسى، فَفُتح لنا. وقال أنس: وما يسرُّني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها [3].

وإن ترتيب الواجبات المنوطة بأعناق العباد من أهم ما يحدد رسالة المسلم فى الحياة ، بل إنه لا يفهم دينه فهما صحيحا إلا إذا فقه هذا الترتيب المطلوب.

إن الإسلام تعاليم وأعمال شتى، فيها الفرائض وفيها النوافل.

ولابد أن نعلم أن الله لا يقبل نافلة حتي تؤدي الفريضة، فالرجل الذى يستكثر من أعمال التطوع فى الوقت الذى يهمل فيه فرائض لازمة رجل ضال.

والفرائض المطلوبة لحفظ الإيمان كالأغذية المطلوبة لحفظ الجسم.

وكما أن الجسم لا يقوم إلا على استكمال جمل منوعة من الغذاء، وإلا تعرض الجسم

---

(١) فقه السيرة : ٣١١ بتصرف.

(٢) البخارى : ١٢ ـ الخوف ٤ ـ باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو.

(١) انظر: فتح البارى : ٢ : ٤٣٤ وما بعدها.

لعلل قد تنهكه أو تقتله، فكذلك الدين ، إنه لا قيام له في كيان الفرد أو فى صفوف الجماعة إلا بجملة من الفرائض المطلوبة، تصون حياته، وتضمن عافيته ونماءه.

وعلى المسلم أن يقسم وقته، وأن ينظمه على هذه الفرائض المطلوبة، فلا يشغله واجب عن واجب، وبالأحرى لا تشغله نافلة عن واجب !

وقد رأى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن مباغتة بني قريظة قبل أن يستكملوا عدتهم، ويقووا حصونهم، هو الواجب الأول في تلك الساعة، فقال ـ كما سبق في رواية البخاري:

« لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة » .

فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلى ، لم يرد منا ذلك ، فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فلم يعنف واحدا منهم.

وحدود وقت الصلاة تذوب أمام ضرورات القتال.

وتستطيع ـ على ضوء هذا الإرشاد النبوي ـ أن تحكم على مسالك المسلمين اليوم..

إن المدرس الذى ينشغل عن تعاليم تلاميذه، والتاجر الذى ينشغل عن تثمير ثروته، والموظف الذي ينشغل عن أداء عمله، لا يقبل الله من أحدهم عذرا أبدا في تضييع هذه الفرائض ، ولو كان أحدهم قد عاقه عن واجبه أنه صلى مائة ركعة، أو قرأ ألف آية، أو عدّ أسماءالله الحسنى سبعين ألف مرة، كما يفعل الكثيرون !

ذلك أنه انشغاله عن الفرائض المطلوبة بنوافل لم تطلب، وتعطيل لأمة يستحيل أن تنهض إلا إذا أجهدت نفسها في محاربة جهلها وفقرها وفوضاها !

والجهاد العام فريضة لا يغض من قدرها شيء ، ولا يزاحمها على وقتها عبادة كما رأيت.

أمير المدينـــة :

ولما كانت منازل بني قريظة الواقعة جنوب شرقي المدينة ، تبعد عن المدينة عدة أميال، فقد استخلف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، حتى يفرغ من أمر

بني قريظـة [1].

عليّ يحمل الراية :

وحمل راية المسلمين إلى حصون قريظة عليّ بن أبي طالب [2] ، واستبق المسلمون يحتشدون حولها، حتى إذا اقترب الجيش من منازل اليهود كان القوم لا يزالون على غوايتهم ، فقد نظروا إلى المسلمين ، وعلموا أنها الحرب ولا شيء سواها.

طبيعة اليهـــود :

هنا اندفعوا في ليونة الأفاعي ـ كما هو معلوم من الروايات الكثيرة ـ يظهرون الكلام المغلَّف حين العجز، [3] وتلك هي جبلة اليهود، وطبيعتهم المتغلغلة في نفوسهم أبد الدهر .. لا يتورعون عن ارتكاب أية جريمة مهما كانت بشاعتها إذا ما قدروا ، ولا يخجلون من أن يقفوا موقف الذلة والمهانة إذا ما أحاطت بهم خطيئتهم وأدركهم الوهن !

ولكنهم نسوا أو تناسَوْا أنهم قد ضربوا بكل القيم الإنسانية، والمثل الأخلاقية عرض الحائط، وداسوا العهد والمواثيق بأرجلهم في خسة ونذالة ، عندما رأوا جيوش الأحزاب الجرارة تحيط بالقلة المسلمة إحاطة البحر الهائج بالجزيرة الصغيرة من كل جانب.. ومن ثم أعلنوا الترحيب بهذه الجيوش الغازية الباغية الطاغية ـ كما أسلفنا ـ وأعلنوا الانضام إليها ضد المسلمين الذين تربطهم بهم رابطة معاهدة !

نعم، تناسى هؤلاء اليهود أنهم لم يكتفوا في تلك اللحظات الحرجة بمخالفة نصوص تلك المعاهدة بتوقفهم عن المساندة، بل أنكروا في وقاحة وصفاقة أن يكون بينهم وبين الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أى عهد !

نعم نسي هؤلاء اليهود الذين يطلبون الرحمة الآن، أن جوابهم كان مناقضا للعهد !

نعم، تناسى هؤلاء اليهود أنهم في الوقت الذي بلغت فيه قلوب المسلمين الحناجر من شدة الحصار، قد تفجرت فى نفوسهم ينابيع الخسة والغدر، فاغتنموا اشتداد محنة

---

(١) انظر: الطبقات : ٢ : ٧٤ ، وزاد المعاد : ٣ : ١٣٣ ، والبداية : ٤ : ١١٦.

(٢) انظر: المراجع السابقة. (٣) غزوة بني قريظة ١٦٨ وما بعدها بتصرف.

المسلمين فسارعوا إلى إحكام حلقاتها، فانضموا إلى جيوش الغزاة، بالرغم من العهد الذى بينهم وبين المسلمين، مستهدفين بعملهم الدنيء هذا استعجال إبادة المسلمين ومحو كيانهم من الوجود، ظنا منهم أن تلك الأيام العصيبة هى الأيام الأخيرة للكيان الإسلامي الذي كان هؤلاء اليهود يعتقدون أن جيوش الأحزاب الغازية لن تعود إلى بلادها إلا بعد تحطيم هذا الكيان.

والآن وقد دحر الله جيوش الأحزاب الغازية الطاغية الباغية وتبددت الأحلام العريضة التي كانت تحملها قريظة، وجاءت كتائب الحق لتصفي الحساب مع هؤلاء الخونة الغادرين الناكثين، أخذت الأفاعى السامة الغادرة تتظاهر بالبراءة،وتبدي مظهرها الناعم اللِّين.

هكذا وقفت قريظة الغدر والخيانة عندما أحاطت بها خطيئتها، وحاق بها مكرها السيىء ، فوجدت حصونها الشامخة غارقة في بحر متلاطم من جند الحق الذين بلغت فى نفوسهم مشاعر الغيظ حد الغليان على هؤلاء اليهود، الذين ما كانوا ليترددوا لحظة واحدة في سحق المسلمين سحقا كاملا لو تمكنوا من ذلك، فقد كان هذا غاية مرادهم عندما نقضوا الحلف، وخانوا العهد، ولكن الله غالب على أمره، فقد أبى إلا أن ينصر عبده، ويعز جنده، ويهزم الأحزاب وحده.

فهاهم اليهود من قريظة الخائنة الغادرة يتعثرون في دروب الحسرة والندامة، ويسيرون نحو المصير المرعب الذى أرادوه للمسلمين، وسعوا جهدهم للدفع بهم إليه:

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾(١).

محاولة إنقاذ الموقف:

ومع كل هذا نجد العقلاء ـ وهم قلة ـ قد حذروا قومهم من مغبة الكفر بالرسالة والرسول ﷺ وفيما رواه ابن السكن من طريق سعيد بن بزيع عن ابن إسحاق، قال: (٢) حدثني عاصم.. أن شيخا من بني قريظة حدثه أن إسلام ثعلبة بن سعية، وأسد بن سعية، وأسد بن عبيد، إنما كان عن حديث ابن الهيبان، فذكر قصته بطولها، وأنه كان يعلمهم

(١) فاطر : ٤٣.
(٢) الإصابة : ١: ٣١ بتصرف، وانظر: ميزان الاعتدال: ٢: ٣٥٥.

بقدوم النبي ﷺ قبل الإسلام، فلما كان الليلة التي كان في صبحها فتح قريظة، قال لهم هؤلاء الثلاثة:

يا معشر يهود، إنه والله للرجل الذى كان وصف لنا ابن الهيبان، فاتقوا الله واتبعوه، فأبوا عليهم ، فنزل الثلاثة إلى النبى ﷺ فأسلموا .

ورواه أيضا من طريق يحيى بن محمد بن عباد الشجرى، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر، عن سعيد بن المسيب، عن جابر، والإسناد الأول أقوى .

ورواه الطبرى (١)، وابن مندة من طريق أخرى، عن ابن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسد بن عبيد، وأسد أو أسيد بن سعية، قالت يهود: ما أتى محمدا إلا شرارنا، فأنزل الله تعالى :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢).

ورواه الطبرانى ورجاله ثقات عن ابن عباس ، وفيه : قالت أحبار يهود أهل الكفر: ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله عز وجل :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾

إلى قوله تعالى : ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٣).

صورة وضيئة:

وتلك صورة وضيئة للمؤمنين من هؤلاء. فقد آمنوا إيمانا صادقا، وكاملا شاملا، وانضموا للصف المسلم،وقاموا على حراسة هذا الدين.. آمنوا بالله واليوم الآخر.. وقد

(١) انظر : تفسير الطبرى: ٤:٥٢ ـ٥٣.
(٢) آل عمران : ١١٣ ـ١١٤.
(٣) مجمع الزوائد: ٦:٣٢٧ وفيه« ثعلبة بن شعبة» بدل « ثعلبة بن سعية».

نهضوا بتكاليف الإيمان، وحققوا سمة الأمة المسلمة التى انضموا إليها:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ۝١١٠ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١١١ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (١).

والتعبير بكلمة« أخرجت» المبنى لغير الفاعل، تعبير يلفت النظر(٢)، وهو يكاد يشى باليد المدبرة اللطيفة، تخرج هذه الأمة إخراجا، وتدفعها إلى الظهور دفعا من ظلمات الغيب، ومن وراء الستار السرمدى الذى لا يعلم ما وراءه إلا الله..

إنها كلمة تصور حركة خفيفة المسرى، لطيفة الدبيب.. حركة تخرج على مسرح الوجود أمة.. أمة ذات دور خاص، لها مقام خاص ولها حساب خاص..

« خيـــر أمـــة » :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

وهذا ما ينبغى أن تدركه الأمة المسلمة، لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة، بما أنها هى خير أمة.

والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر فى هذه الأرض.. ومن ثم لا ينبغى لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية.. إنما ينبغى دائما أن تعطى هذه الأمم مما لديها.. وأن يكون لها دائما ما تعطيه.. من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والعلم الصحيح.. هذا واجبها الذى يحتمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها .. واجبها أن تكون فى الطليعة دائما، وفى مركز القيادة دائما.. ولهذا المركز

---

(١) آل عمران: ١١٠ ــ ١١٢.

(٢) فى ظلال القرآن : ١:٤٤٧ بتصرف.

تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاء، ولا يسلم لها به إلا أن تكون هى أهلا له .. وهى بتصورها الاعتقادى، وبنظامها الاجتماعى أهل له.. فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمى، وبعمارتها للأرض ـ قياما بحق الخلافة ـ أهلا له كذلك..

ومن هذا يتبين أن المنهج الذى تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشىء الكثير، ويدفعها إلى السبق فى كل مجال.. لو أنها تتبعه وتلتزم به، وتدرك مقتضياته وتكاليفه..

وفى أول مقتضيات هذا المكان، أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد. وأن تكون لها القوة التى تمكنها من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهى خير أمة أخرجت للناس.. لا عن مجاملة أو محاباة، ولا عن مصادفة أو جزاف ـ تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا ـ وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون:

﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ (1).

كلا! إنما هو العمل الإيجابى لحفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذى يحدد المعروف والمنكر:

﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾

فهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب، وبكل ما فى طريقها من أشواك..

إنه التعرض للشر، والتحريض على الخير، وصيانة المجتمع من عوامل الفساد.. وكل هذا متعب شاق، ولكنه كذلك ضرورى لإقامة المجتمع الصالح وصيانته، ولتحقيق الصورة التى يحب الله أن تكون عليها الحياة ..

ولا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم، والتعرف الصحيح للمعروف والمنكر،، فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفى. فقد يعم الفسادحتى تضطرب الموازين وتختل. ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير والشر، وللفضيلة والرذيلة، وللمعروف والمنكر، يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس فى جيل من الأجيال..

وهذا ما يحققه الإيمان، بإقامة تصور للوجود وعلاقته بخالقه، وللإنسان وغاية وجوده

---

(1) المائدة: ١٨.

ومركزه الحقيقى فى هذا الكون..

ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية.. ومن الباعث على إرضاء الله وتوقّى غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد.. ومن سلطان الله فى الضمائر، وسلطان شريعته فى المجتمع، تقوم الحراسة على هذه القواعد كذلك..

ثم لا بد من الإيمان أيضا ليملك الدعاة إلى الخير، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر، أن يمضوا فى هذا الطريق الشاق، ويحتملوا تكاليفه.. وهم يواجهون طاغوت الشر فى عنفوانه، ويواجهون طاغوت الشهوة فى عرامتها وشدتها، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم، وثقلة المطامع.. وزادهم هو الإيمان، وعدتهم هى الإيمان، وسندهم هو الله.. وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد. وكل عدة سوى عدة الإيمان تُفَلُّ، وكل سند غير سند الله ينهار!

ترغيب أهل الكتاب فى الإيمان :

﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

وهو ترغيب لأهل الكتاب فى الإيمان. فهو خير لهم.. فى هذه الدنيا، يستعصمون به من الفرقة والهلهلة التى كانوا عليها فى تصوراتهم الاعتقادية، والتى ما تزال تحرمهم تجمع الشخصية. إذ تعجز هذه التصورات عن أن تكون قاعدة للنظام الاجتماعى لحياتهم،فتقوم أنظمتهم الاجتماعية ــ من ثم ــ على غير أساس، عرجاء أو معلقة فى الهواء ككل نظام اجتماعى لا يقوم على أساس اعتقادى شامل، وعلى تفسير كامل للوجود، ولغاية الوجود الإنسانى، ومقام الإنسان فى هذا الكون.. وخير لهم فى الآخرة، يقيهم ماينتظر غير المؤمنين من مصير.

« منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » :

ثم هو بيان كذلك لحالهم، لا يبخس الصالحين حقهم :

﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

وقد آمن من أهل الكتاب جماعة وحسن إسلامهم ــ كما أسلفنا ــ وإلى هؤلاء

هنا بالإجمال.. أما الأكثرون فقد فسقوا عن دين الله، حين لم يفوا بميثاق الله مع النبيين: أن يؤمن كل منهم بأخيه الذى يجىء بعده، وأن ينصره.. وفسقوا عن دين الله، وهم يأبون الاستسلام لإرادته فى إرسال آخر الرسل من غير بنى إسرائيل، واتباع هذا الرسول وطاعته، والاحتكام إلى آخر شريعة من عند الله، أرادها للناس أجمعين..

« ثم لا ينصـــرون » :

ولما كان بعض المسلمين ما يزالون على صلات منوعة باليهود فى المدينة، ولما كانت لليهود حتى ذلك الحين قوة ظاهرة: عسكرية واقتصادية يحسب حسابها بعض المسلمين، فقد تكفل القرآن بتهوين شأن هؤلاء الفاسقين فى نفوس المسلمين، وإبراز حقيقتهم الضعيفة، بسبب كفرهم وجرائمهم وعصيانهم، وتفرقهم شيعا وفرقا، وما كتب الله عليهم من الذلة والمسكنة:

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

بهذا يضمن الله للمؤمنين النصر وسلامة العاقبة، ضمانة صريحة حيثما التقوا بأعدائهم هؤلاء، وهم معتصمون بدينهم وربهم فى يقين:

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

فلن يكون ضررا عميقا ولا أصيلا يتناول أصل الدعوة، ولن يؤثر فى كينونة الجماعة المسلمة، ولن يجليها من الأرض..إنماهو الأذى العارض فى الصدام، والألم الذاهب مع الأيام ... فأما حين يشتبكون مع المسلمين فى قتال، فالهزيمة مكتوبة عليهم ــ فى النهاية ــ والنصر ليس لهم على المؤمنين.. ذلك أنه قد«ضربت عليهم الذلة» وكتبت عليهم مصيرا. فهم فى كل أرض يذلون، لا تعصمهم إلا ذمة الله وذمة المسلمين ــ حين يدخلون فى ذمتهم فتعصم دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وتنيلهم الأمن والطمأنينـة .. ولم تعـرف يهود منذ

ذلك الحين الأمن إلا فى ذمة المسلمين! ولكن يهود لم تعاد أحدا فى الأرض عداءها للمسلمين !

﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

كأنما رجعوا من رحلتهم يحملون هذا الغضب..

﴿ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ﴾

تعيش فى ضمائرهم، وتكمن فى مشاعرهم..

ولقد وقع ذلك كله بعد نزول هذه الآية. فما كانت معركة بين المسلمين وأهل الكتاب إلا كتب الله فيها للمسلمين النصر ـ ما حافظوا على دينهم، واستمسكوا بعقيدتهم، وأقاموا منهج الله فى حياتهم ـ وكتب لأعدائهم المذلة والهوان، إلا أن يعتصموا بذمة المسلمين، أو أن يتخلى المسلمون عن دينهم.

المعصية والاعتداء:

ويكشف القرآن عن سبب هذا القدر المكتوب على يهود..فإذا هو سبب عام يمكن أن تنطبق آثاره على كل قوم، مهما تكن دعواهم فى الدين: إنه المعصية والاعتداء:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾

فالكفر بآيات الله ـ سواء بإنكارها أصلا، أو عدم الاحتكام إليها وتنفيذها فى واقع الحياة ـ وقتل الأنبياء بغير حق. وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، كما جاء فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[1].

---

(١) آل عمران: ٢١ ـ ٢٢.

والعصيان والاعتداء.. هذه هى المؤهلات لغضب الله، وللهزيمة والذلة والمسكنة..

« ليسوا سواء » :

وإنصافا للقلة الخيرة من أهل الكتاب، يعود السياق عليهم بالاستثناء، فيقرر أن أهل الكتاب ليسوا سواء. فهناك المؤمنون. يصور حالهم مع ربهم، فإذا هى حال المؤمنين الصادقين. ويقرر جزاءهم عنده،فإذا هو جزاء الصالحين:

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾[1].

وهى ــ كما أسلفنا ـ صورة وضيئة ترفع أمام الراغبين فى هذه الشهادة، وفى هذا الوعد، ليحققها فى ذات نفسه كل من يشتاق إلى نورها الوضىء فى أفقها المنير.

عمرو بن سعد القرظى :

وها هو موقف زعيم كان يهوديا، قد أبى الاشتراك فى جريمة خيانة المسلمين والغدر بهم، وأعلن للملأ أنه باق على عهده، وفى الوقت نفسه حاول أن ينقذ قومه ــ كما حاول غيره من قبل ــ من المصير المرعب الذى كان ينتظرهم جزاء غدرهم وخيانتهم، وذلك بأن دعاهم إلى الدخول فى الإسلام، لا سيما وأنهم يعلمون أن محمدا ﷺ نبى مرسل، كما هو مكتوب عندهم فى التوراة.. ذكره الطبرى والبغوى وابن شاهين وغيرهم فى الصحابة[2]، وهو الذى نزل من حصن بنى قريظة، فى الليلة التى فتح حصنهم، فلم يدر أين ذهب، قال ابن حجر: قال الواقدى: حدثنا الضحاك بن عثمان، ومحمد بن يحيى بن حبان قال: قال عمرو بن سعد: يا معشر يهود، إنكم قد حالفتم محمدا على ما حالفتموه عليه، على أن لا تنصروا عليه أحدا، وأن تنصروه ممن دهمه، فنقضتم ولم أدخل فيه.. فذكر القصة إلى أن قال: فإنى برىء منكم، وخرج فى تلك الليلة فمر بحرس النبى ﷺ

---

(١) آل عمران : ١١٣ ــ ١١٥.

(٢) الإصابة: ٤ : ٣٠٠ بتصرف.

وعليهم محمد بن سلمة.. إلى أن قال: فخلى سبيله، فخرج حتى أتى مسجد النبى ﷺ فبات فيه وأسلم..[1].

مقاومة اليهـود واشتداد الحصار عليهم :

ومع كل هذا فقد استمرت قريظة فى غيها، ورفضت كل تلك النصائح، فاعتصمت بحصونها، مصممة على القتال والمقاومة..

أما المسلمون فقدأحكموا الحصار حول الحصون، وقاموا بتطويقها من كل جانب، وقطع الجيش الإسلامى كل اتصال بين اليهود وبين الخارج.

وعند ابن إسحاق أنهم كانوا ستمائة، وبه جزم أبو عمرو، وفى ترجمة سعد بن معاذ[2]، وعند ابن عائذ من مرسل قتادة: كانوا سبعمائة، وقال السهيلى: المكثر يقول: إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة. وفى حديث جابر عند الترمذى والنسائى وابن حبان بإسناد صحيح أنهم كانوا أربعمائة مقاتل. قال ابن حجر :فيحتمل فى طريق الجمع أن يقال:إن الباقين كانوا أتباعا، وقد حكى ابن إسحاق أنه قيل إنهم كانوا تسعمائة.

أما المسلمون فقد قال ابن سعد[3]: هم ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثون فرسا.

قال ابن إسحاق [4] : وحاصرهم عليه الصلاة والسلام خمسا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار.

وعند ابن سعد [5] : خمسة عشر يوما ما أشد الحصار، وعند ابن عقبة[6]: بضع عشرة ليلة.

يهودية تقتل مسلما :

ولم يقع خلال الحصار إلا بعض المناوشات الخفيفة الطفيفة بالنبل والحجارة [7]، كان من أثرها استشهاد أحد المسلمين مصابا برحى رمته بها امرأة يهودية من فوق سطح منزلها، فقد روى أبو يعلى من طريق عبد الخبير بن قيس بن ثابت بن قيس بن شماس

---

(١) انظر: عيون الأثر : ٢: ٧١ وفيه « عمرو بن سعدى ، وابن هشام: ٢:٢٣٨، والبداية: ٤ :١٢١

(٢) فتح البارى : ٧:٤١٤.

(٣) الطبقات : ٢:٧٤.

(٤) المواهب اللدنية: ٢:١٣٠ بتصرف.

(٥) الطبقات: ٢:٧٤.

(٦) المواهب : ٢:١٣٠ .

(٧) انظر : الرسول القائد: ٢٤٥.

عن أبيه عن جده قال: استشهد شاب من الأنصار يوم قريظة، يقال له خلاد، فقال النبى ﷺ: (١).

« **أما إن له أجر شهيدين** »

قالوا : لم يا رسول الله ؟ قال :

« **لأن أهل الكتاب قتلوه** » .

قال ابن مندة: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه قال ابن حجر:زعم ابن الأثير أن خلادا هذا هو خلاد بن سويد ـ أى ابن ثعلبة الأنصارى الخزرجى ـ وقد ذكره ابن إسحاق وموسى بن عقبة وغيرهما فى البدريين، وأنه استشهد بقريظة، طرحت عليه امرأة منهم رحا فشدخته، فقال النبى ﷺ:

« **إن له أجر شهيدين** » .

قال ابن حجر: وعاب ـ أى ابن الأثير ـ على من أفرده بترجمة فلم يصب، لأن الحديث ناطق بأن هذا شاب، وخلاد بن سويد له ولد يقال له السائب، صحابى معروف، وابن ابنه خلاد بن السائب صحابى أيضا، ولا يلزم من كون خلاد بن السائب قتل يوم قريظة بيد المرأة، وقال النبى ﷺ :

« **إن له أجر شهيدين** » .

أن لا يقتل آخر فيها، فيقال له ذلك.

رئيس بنى قريظة ينصح قومه:

ولما أيقنوا بأن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ غير منصرف عنهم، حتى يناجزهم، دعا كعب بن أسد زعماء قومه، لتبادل وجهات النظربشأن الموقف الحربى(٢)، ولإبداء الرأى حول ما يجب اتخاذه لإنقاذ هذا الموقف المتدهور.

ولما اجتمع رؤساء الغدر والخيانة برئيسهم، وكان عاقلا متزنا، لولا رفقاء السوء الذين غلبوه على أمره، وحملوه على نقض العهد الذى بينه وبين النبى ﷺ ـ كما أسلفنا ـ فقد

---

(١) الإصابة : ٢ : ١٤٠ بتصرف.

(٢) غزوة بنى قريظة : ١٧٨ بتصرف.

كان كعب كارها لنقض العهد، وراغبا رغبة أكيدة فى البقاء على ولائه للمسلمين، ومن أجل ذلك أغلق باب حصنه، وأبى أن يفتحه عندما علم أن حيىّ بن أخطب جاء لمقابلته، عندما وصلت جيوش الأحزاب إلى ضواحى المدينة، لأنه كان يعلم أن حييّا هذا ما جاء إلا ليطلب من بنى قريظة الغدر بالمسلمين، والانضمام إلى الأحزاب، فكان كعب متخوفا من نقض العهد، وكان يقدر النتائج الوخيمة التى ستترتب على الغدر بالمسلمين قبل وقوعها.

ولهذا رفض أول الأمر مقابلة حيىّ بن أخطب، واستقبح رأيه الداعى إلى الغدر بالمسلمين، حيث قال بكل صراحة: ويحك يا حيىّ إنك امرؤ مشئوم، وإنى قد عاهدت محمدا، فلست بناقض ما بينى وبينه، فإنى لم أر منه إلا وفاء وصدقا.

وعندما أراد حيى التأثير عليه بقوة الأحزاب الضاربة، وإقناعه بأن قضاءها على المسلمين فى حكم المؤكد قال له: ويحك، افتح لى، ولم يزل به حتى فتح له، فقال: ويلك يا كعب، جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش حتى أنزلهم بمجتمع الأسيال ومن دونه غطفان، وقد عاهدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه، فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر، وبجهام قد هراق ماؤه، يرعد ويبرق، وليس فيه شىء، ويحك يا حيىّ، دعنى وما أنا عليه، فإنى لم أر من محمد إلا وفاء وصدقا، ولم يزل به يفتله فى الذروة والغارب حتى نقض عهده، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ وأعطاه عهدا ـ كما سبق أن عرفنا ـ على أنه إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن يدخل معه فى حصنه..

وعندما اجتمع يهود بنى قريظة برئيسهم كعب بن أسد، عندما خنقهم الحصار، قال كعب(١) يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا، فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هى؟ قال:

نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله! لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل، وأنه للذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم.

وقالوا: لانفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره.

قال: فإذا أبيتم هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا، ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك

---

(١) الروض الأنف : ٣: ٢٦٨ بتصرف.

نهلك، ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه، وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟

قال: فإن أبيتم علىّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة.

قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ!

قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما! (١).

الوقت والمباغتة:

ولا شك أن إسراع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لتطويق اليهود ـ كما عرفنا ـ حال بينهم وبين الاستعانة بحلفائهم، أو إقناع اليهود الآخرين بمعاونتهم(٢)، أو التشبث بالحصول على قوات من القبائل لتساند قواتهم، ولكان بإمكانهم إكمال قضاياهم الإدارية التى يحتاجون إليها فى القتال، حتى يستطيعوا الصمود فى حصارهم أطول مدة ممكنة.

ولكن إسراع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بتحريك قواته لتطويقهم، حال بين يهود بنى قريظة وبين كل ذلك، إذ لم يكن عندهم علم بالموعد الأكيد لانسحاب الأحزاب، ليسبقوا النظر فى إعداد كل متطلبات القتال المتوقع ضد المسلمين.

بل إن حركة المسلمين السريعة لم تترك الوقت الكافى لهم لتنظيم خطة دفاعية عن حصونهم، كما لم تترك الوقت الكافى لتنظيم أى خطة عسكرية على الإطلاق يقابلون بها المسلمين، فقد ظهر لنا من سيرحوادث غزوة بنى قريظة أنهم لم يفعلوا شيئا، وكانوا مترددين فى كل شىء، وأكثر من ذلك فإن حركة المسلمين المبكرة شلت معنويات اليهود وقضت على روح المقاومة فيهم فلم يستطيعوا أن يستفيدوا من المحسنات العسكرية التى كانت بجانبهم، والتى كان بإمكانهم ـ لو أحسنوا التصرف ـ الاستفادة من تلك المحسنات لكى يقاوموا المسلمين وقتا غير قصير.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ٢:٢٣٦، والمواهب: ٢:١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) الرسول القائد: ٢٥٧ بتصرف.

حصونهم قوية منيعة، وعددهم كبير، وسلاحهم وفير، والأرزاق والماء لديهم.. كل ذلك يساعدهم على الصمود، ولكن هذه المحصنات العسكرية التى بجانب يهود بنى قريظة لا تفيد شيئا، مادامت معنوياتهم منحطة تماما..

ومما يزيد من قيمة حرص المسلمين على المحافظة على الوقت أن ظروفهم ـ كما عرفنا ـ لم تكن حسنة بعد انسحاب الأحزاب.

لقد كانوا منهوكى القوى لسهرهم الطويل على حراسة مواضعهم ما يقرب من شهر، فى موقف عصيب يحطم أعصاب أشجع الشجعان.

وكان الطقس باردا، وقدتحملوا البرد فى العراء وقتا طويلا أثناء حصارهم، فلما انسحبت الأحزاب آن لهم أن ينالوا بعض الدفء فى بيوتهم القريبة.

وكانت قضاياهم الإدارية بشكل لا يحسدون عليه.

إن عدم اكتراث المسلمين بكل هذه المشاكل لغرض الإسراع بتطويق حصون بنى قريظة يدعو إلى الإعجاب والتقدير.

والمباغتة تكون بالوقت والمكان والأسلوب.

أما المباغتة بالمكان فهى أن تقوم بحركة من مكان لا يتوقعه العدو.

وأما المباغتة بالزمان فهى أن تقوم بحركة فى وقت لا يتوقعه العدو.

وأما المباغتة بالأسلوب فهى أن تقوم بالقتال بأسلوب جديد أو بسلاح جديد.

والقائد العبقرى هو الذى يحاول أن يباغت خصمه حتى يقضى عليه ماديا ومعنويا، لأن المباغتة الناجحة تشل حركة العدو وتقضى عليه كليا.

ولقد طبق الرسول الحبيب المحبوب ﷺ كل أساليب المباغتة، فقد رأينا كيف باغت الأحزاب بأسلوب جديد فى القتال، هو حفر الخندق، كما رأينا كيف باغت بنى قريظة بالزمان فى حركته بسرعة ما كانوا ليتوقعوها، فشل معنوياتهم، واحتفظ بالمبادأة بيده حتى نهاية المعركة.

والدارس لسيرة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يرى أنواع المباغتة، وأنها أهم مبادئ

الحرب قديما وحديثا، وأن المسلمين قد حرصوا على تطبيق هذا المبدأ فى أكثر غزواتهم، مما ساعدهم على النصر..

محاولة اليهود الأخيرة :

ولا شك أن يهود بنى قريظة، قبل أن يستسلموا، قد قلبوا الأمر من جميع وجوهه للاستعانة والاستغاثة بأية فئة يمكنها المساهمة فى تخليص رقابهم من الموت المحقق الذى ينتظرهم جزاء خيانتهم العظمى.

ولكن هكذا انقطعت بهم الأسباب،وهكذا كان الحال، وعليه فلا مناص من الاستسلام لقوات المسلمين، والنزول على حكم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ومن ثم رأوا أن يقوموا بمحاولة أخيرة، وذلك أنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، لنستشيره فى أمرنا. فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه، فرق لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، أنه الذبح (١).

أهل أبى لبابة وأمواله فيهم :

وإنما كان اختيارهم لأبى لبابة لما روى سعيد بن منصور عن عبد الله بن أبى قتادة فى سبب نزول قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

قال: نزلت فى أبى لبابة، حين حاصر رسول الله ﷺ قريظة، وأمرهم أن ينزلوا على حكم سعد، فاستشار قريظة من أبى لبابة فى النزول على حكم سعد، وكان أهل أبى لبابة وأمواله فيهم، فأشار إلى حلقه، أنه الذبح (٣).

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ٢ : ٢٣٦، وتهذيب السيرة: ٢:٥، والمواهب اللدنية: ٢: ١٣١، والسيرة الحلبية : ٢:١١٧، والبداية: ٤:١١٩، وجوامع السيرة ١٩٣.

(٢) الأنفال: ٢٧.

(٣) تفسير القاسمى : ٨:٢٩٧٩.

أبو لبابة يربط نفسه فى المسجد :

قال أبو لبابة: ما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله.

ثم حلف ألا يذوق ذواقا حتى يموت أو يتوب الله عليه. وانطلق إلى المسجد، فربط نفسه بسارية،فمكث أياما حتى كان يخر مغشيا عليه من الجهد، ثم أنزل الله توبته، وحلف لا يحله إلا رسول الله ﷺ، فحله، فقال: يا رسول الله! إنى كنت نذرت أن أنخلع من مالى صدقة، فقال:

« **يجزيك الثلث أن تصدق به** » [1].

ورواه مالك عن ابن شهاب، أنه بلغه أن أبا لبابة بن عبد المنذر، حين تاب الله عليه، قال: يا رسول الله! أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب، وأجاورك. وأنخلع من مالى صدقة إلى الله، وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ :

« **يجزيك من ذلك الثلث**» [2].

قال بعض المفسرين[3]: دل هذا السبب على جواز إظهار الجزع على المعصية، وإتعاب النفس وتوبيخها، لأنه ﷺ لم ينكر على أبى لبابة.

ودل على أنه يستحب إتباع المعصية بالصدقة، لأنه عليه السلام قال:

« **يجزيك من ذلك الثلث** ».

وهذا سبيل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [4]

وفى قوله تعالى:« وأنتم تعلمون» دليل على أن ذنب العالم بالخطيئة أعظم من غيره، لأن المعنى : وأنتم تعلمون تبعة ذلك ووباله.

قال الرازى: ثم إنه لما كان الداعى إلى الإقدام على الخيانة هو حب الأموال والأولاد، نبه تعالى على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن المضارة المتولدة من ذلك الحب فقال:

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الموطأ: ٢٢ ـ النذور ١٦.

(٣) تفسير القاسمى : ٨:٢٩٧٩.

(٤) هود: ١١٤.

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾[1].

قال ابن هشام: وأقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال، تأتيه امرأته، في وقت كل صلاة، فتحله للصلاة، ثم يعود فتربطه بالجذع، قال في المواهب[2]: وكأن هذه الست تقيدت به فيها امرأته، وباقي البضع عشرة بنته..

وقال أبو عمر: روى ابن وهب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر أن أبا لبابة ارتبط بسلسلة ثقيلة[3]، بضع عشرة ليلة، حتى ذهب سمعه، وكاد يذهب بصره، وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة، أو أراد أن يذهب لحاجة، فإذا فرغ أعادته. قال في المواهب: والظاهر كما قال الشامي أن زوجه كانت تحله مرة، وبنته أخرى.

توبـــة أبي لبابـــة:

وروى ابن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ، قال ابن هشام والآية التي نزلت في توبته قول الله عز وجل:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[4].

وهو في بيت أم سلمة..!وهذا مرسل، وقد رواه ابن مردويه بسند فيه الواقدي موصولا عن أم سلمة، وفيه: وأنزل الله تعالى:

﴿ وَءَاخَرُونَ ﴾ الآيـة.

ويحتمل أن يزيد حمله عنها، وقد يشعر به قوله: قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر، وهو يضحك فقالت: قلت يا رسول الله! مم تضحك ؟ أضحك الله سنك، قال:

« **تيب على أبي لبابة** »

قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله!قال:

---

(١) الأنفال: ٢٨. (٢) المواهب اللدنية: ٢: ١٣٢-١٣٣ بتصرف.

(٣) في عيون الأثر: ٢: ٧٠ ربوض، والربوض: الثقيلة، وفي المواهب: أي عظيمة غليظة.

(٤) التوبـــة: ١٠٢.

« **بلى، إن شئـت** ».

ولفظ ابن مردويـة قال:

« **مـا شـئت** ».

وكله إليها، حتى لا يشـق عليها بالليل.

قال: فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب، فقالت: فقلت يا أبا لبابـة، أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله! حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده، فلما مر عليه خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه.

قال السهيلى: فإن قيل: الآية ليست نصا فى توبة الله عليه أكثر من قوله:

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾

فالجواب أن عسى منه سبحانه واجبة وخبر صدق، فإن قيل: القرآن نزل بلسان العرب، وعسى ليست فى كلامهم بخبر، ولا تقتضى وجوبا، قلنا: عسى تعطى الترجى مع المقاربة، ولذا قال :

﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾[1] .

ومعناه الترجى مع الخبر بالقرب، كأنه قال: قرب أن يبعثك، فالترجى مصروف إلى العبد، والخبرعن القرب مصروف إلى الله، وخبره حق، ووعده حتم، فما تضمنه من الخبر فهو الواجب دون الترجى الذى هو محال على الله.

وروى عن ابن عباس من طرق عند ابن مردوية وابن جرير ما دل على سبيل الصراحة على أن ارتباطه بسـارية المسـجد كان بتخلفـه عن غـزوة تبـوك ، كما قال ابن المسـيب . قال : وفى ذلك نزلت هذه الآية . وقد أخرجه أبو الشيخ وابن مندة عن جابر بسند قوى، وعلى تقدير صحة الخبرين فيجمع باحتمال تعدد رباط نفسه..

---

(١) الإسراء: ٧٩.

تحذيـــر وتذكيـــــر:

ولا نترك هذا الموقف قبل أن نأخذ منه أن الأموال والأولاد قد تقعد الناس عن الاستجابة خوفا وبخلا، وأن الحياة فى رحاب الإيمان حياة كريمـة، لا بد لها من تضحيات [1].. لذلك يعالج القرآن هذا الحرص بالتنبيه إلى فتنة الأموال والأولاد ـ فهى موضع ابتلاء واختبار وامتحان ـ وبالتحذير من الضعف عن اجتياز هذا الامتحان، ومن التخلف عن دعوة الجهاد، وعن تكاليف الأمانة والعهد والبيعة.. واعتبار هذا التخلف خيانة لله والرسول، وخيانة للأمانات التى تضطلع بها الأمة فى الأرض، وهى إعلاء كلمة الله، وتقرير ألوهيته وحده للعباد، والوصاية على البشرية بالحق والعدل.. ومع هذا التحذير التذكير بما عند الله من أجر عظيم يرجح الأموال والأولاد، التى قد تقعد الناس عن التضحية والجهاد:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٧ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

إن التخلى عن تكاليف الأمة المسلمة فى الأرض خيانة لله والرسول .. يحذر الله منها العصبة المؤمنة التى آمنت به، وأعلنت الإيمان، فأصبح متعينا عليها أن تجاهد لتحقيق مدلوله الواقعى، والنهوض بتكاليف هذا الجهاد فى الأنفس والأموال والأولاد.

كذلك يحذرها خيانة الأمانة التى حملتها يوم بايعت على الإسلام، فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان ليس لها فى الجنان مكان، وليس مجرد عبارات وأدعيات. إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاق.. إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله، وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق، ورد المجتمع إلى حاكميته وشريعته، ورد الطغاة البغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء، وتأمين الحق والعدل للناس جميعا، وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت، وتعمير الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها بمنهج الله..

وكلها أمانات، من لم ينهض بها فقد خانها، وخاس بعهده الذى عاهد الله عليه، ونقض بيعته التى بايع بها..

---

(١) فى ظلال القرآن: ٣: ١٤٩٧ بتصرف.

وكل أولئك فى حاجة إلى التضحية والصبر والاحتمال، وإلى الاستعلاء على فتنة الأموال والأولاد، وإلى التطلع إلى ما عند الله من الأجر العظيم، المدخر لعباده الأمناء على أمانته، الصابرين المؤثرين المضحين..

إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية، بما يعلم خالقها من تركيبها الخفى، وبما يطلع منها على الظاهر والباطن، وعلى المنحنيات والدروس والمسالك!

وهو سبحانه يعلم مواطن الضعف فى هذه الكينونة، ويعلم أن الحرص على الأموال وعلى الأولادمن أعمق مواطن الضعف فيها.. ومن هنا ينبهها إلى حقيقة هبة الأموال والأولاد.. لقد وهبها الله للناس ليبلوهم بها ويفتنهم فيها.. فهى من زينة الحياة الدنيا التى تكون موضع امتحان وابتلاء ليرى الله فيها صنيع العبد وتصرفه.. أيشكر عليها ويؤدى حق النعمة فيها؟ أم يشتغل بها حتى يغفل عن أداء حق الله فيها؟:

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١)

إن الابتلاء بالشر مفهوم أمره. ليتكشف مدى احتمال المبتلى(٢)، ومدى صبره على الضر، ومدى ثقته فى ربه، ورجائه فى رحمته.. فأما الابتلاء بالخير فهو فى حاجة إلى بيان..

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر..

إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر، ولكن القلة القليلة هى التى تصمد للابتلاء بالخير..

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة، ويكبحون جماح القوة الهائجة فى كيانهم، الجامحة فى أوصالهم..

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان، فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان، وما يغريان به من متاع، وما يثيرانه من شهوات وأطماع!

---

(١) الأنبياء : ٣٥.　　(٢) المرجع السابق : ٤: ٢٣٧٧.

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم،ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء!

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح، ثم لا يصابون بالحرص الذى يذل أعناق الرجال، وبالاسترخاء الذى يقعد الهمم، ويذلل الأرواح!

إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء، ويستحث المقاومة، ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخى الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة!

لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا فى الابتلاء!

وذلك شأن البشر.. إلا من عصم الله، فاليقظة للنفس فى الابتلاء بالخير أولى من اليقظة فى الابتلاء بالشر، والصلة بالله فى الحالين وحدها هى الضمان..

فإذا تنبه القلب إلى موضع الامتحان والاختبار، كان ذلك عونا له على الحذر واليقظة والاحتياط، أن يستغرق وينسى ويخفق فى الامتحان والفتنة..

ثم لا يدعه الله بلا عون ولا عوض.. فقد يضعف عن الأداء بعد الانتباه، لثقل التضحية، وضخامة التكليف، وبخاصة فى موطن الضعف فى الأموال والأولاد! إنما يلوح له بما هو خير وأبقى، ليستعين به على الفتنة ويتقوى:

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

إنه سبحانه هو الذى وهب الأموال والأولاد.. وعنده وراءهما أجر عظيم لمن يستعلى على فتنة الأموال والأولاد، فلا يقعد أحد إذن عن تكاليف الأمانة وتضحيات الجهاد.. وهذا العون والمدد للإنسان الضعيف الذى يعلم خالقه مواطن الضعف فيه.

الفصل الثالث

محاكمة عادلة

تمهيد ـ التهديد بالاقتحام ـ استسلام اليهود ـ شفاعة الأوس ـ موقف سعد ـ الحكم الجريح ـ «قوموا إلى سيدكم» ـ القيام للداخل ـ الحكم على بنى قريظة ـ تنفيذ الحكم ـ أفى كل موطن لا تعقلون؟ ـ شيطان بنى النضير يتكلم قبل إعدامة ـ الرجل الوحيد الذى لم يقتل ـ قصة عجيبة ـ المرأة الوحيدة التى أعدمت ـ تقسيم الغنائم ـ هدى النبى ﷺ فى التقسيم ـ الجهاد والغنائم ـ رسول الله يصطفى ريحانة ـ قتل أبى رافع ـ قول حسان ـ شهيد يهتز له عرش الرحمن ـ نهاية المعركة.

تمهـيد :

ونعود إلى محاولة اليهود الأخيرة ، فنجد أن استشارة أبى لبابة كانت آخر محاولة قام بها بنو قريظة ــ كما عرفنا ــ للحصول على أي شرط يحقنون به دماءهم عند الاستسلام، ولكنهم بدلا من أن يظفروا بشيء من ذلك تلقوا من أبي لبابة بإشارته تلك ما يؤكد لهم أن الموت مصيرهم (١) .

وبهذا انقطع آخر خيط من الأمل لهم فى التخفيف ، وبدلا من أن يكون ذلك حافزا لهم على المقاومة حتى الموت ، تملكهم الرعب والفزع ، والخوف والهلع ، والجبن والجزع، وسيطرت عليهم روح الجبن ، كما هو شأن اليهود ، فانهاروا انهيارا كليا .

لقد كان بوسع بنى قريظة ــ وخاصة فى ذلك الظرف ــ أن يستمروا فى المقاومة لأشهر طويلة، وكان المسلمون المحاصرون لهم فى حالة تعب شديد، ونتيجة الجهد المضنى الذى بذلوه فى ليالى الخندق المخيفة، التى تحالف فيها البلاء على المسلمين، وأحاطهم من كل جانب، حرموا فيها حتى النوم، لشدة الخوف ودوام الحراسة والمرابطة فى وجه أعدائهم المحاصرين لهم!

ويضاف إلى ذلك أن المسلمين كانوا فى شدة، ويرابطون حول اليهود فى العراء، فيتعرضون للفح البرد الشديد، بينما بنو قريظة يحتمون بحصونهم المنيعة الشامخة، فى مأمن من لفح البرد القارص، وعندهم كل مايحتاجون من الطعام لأشهر طويلة، كما أن الماء كان موجودا لديهم بصفة دائمة داخل الحصون، حيث كانت تحتوى على آبار كثيرة.

ولكن اليهود ــ مع كل هذه العوامل التى توحى بقوتهم المادية التى تمكنهم من الاستمرار فى المقاومة لمدة طويلة ــ قد انهارت أعصابهم، وتحطمت معنوياتهم إلى درجة أنهم لم يحتملوا الحصار، فقد قذف الله فى قلوبهم الرعب، ومن ثم كانوا لا يفكرون ــ مجرد تفكيرــ فى استعمال السلاح للدفاع عن حصونهم، وانهاروا تماما.

التهديد بالاقتحام:

ومع شدة الجزع والفزع والهلع، والرعب والخوف، والانهيار الكلى الذى عم يهود بنى قريظة، فقد ظلوا يماطلون فى التسليم، فى انتظار خارقة تتدخل لإنقاذهم من وحل

---

(١) غزوة بنى قريظة : ١٩٢ وما بعدها بتصرف .

الورطة الخانقة، ولكن هيهات هيهات، فالمسلمون لما رأوا مماطلة اليهود فى التسليم ـ مع الانهيار الذى لاحظوه عليهم ـ أرهبوهم إرهابا شديدا، إذ أعلنوا أنهم سيقتحمون الحصون ويفتحونها بحد السيف.

ولقد كان المسلمون، دون ما شك، يفضلون أن يتم استسلام بنى قريظة، دون ما قتال، ولهذا ظلوا على ماهم فيه من تعب وشدة، يحاصرونهم هذه المدة..

ولكنهم لما رأوا مماطلتهم فى الاستسلام، رأوا أن بقاء القوات الإسلامية مرابطة فى العراء هكذا حول الحصون، فى ذلك البرد القارص، مع تلك الشدة، مما يعود بالضرر الكبير على القوات الإسلامية المحاصرة، وقد يعود بالفائدة على اليهود، قرروا اقتحام الحصون المغلقة وفتحها، مهما كان الثمن.

قال ابن هشام: (١) حدثنى من أثق من أهل العلم أن على بن أبى طالب صاح، وهم محاصرو بنى قريظة: ياكتيبة الإيمان، وتقدم هو و الزبير بن العوام، وقال: والله! لأذوقن ماذاق حمزة أو أقتحم حصنهم.

استسلام اليهــــود:

وبعد هذا الإنذار الذى سمعه يهود بنى قريظة من حامل لواء الجيش على بن أبى طالب (٢)، تحركت قوات الجيش الإسلامى وتأهبت للهجوم العام، واقتحام الحصون فى هجوم كاسح.

ولكن اليهود ـ وهذا الذى كانت تتوقعه القيادة الإسلامية منهم ـ لما رأوا كتائب الجيش الإسلامى تتحرك، وأيقنوا أن الهجوم على حصونهم أمر لامفر منه، طلبوا إيقاف الهجوم، وأعلنوا الاستسلام والنزول على حكم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، دونما قيد أو شرط.

فأوقف المسلمون الهجوم، وسارع اليهود إلى فتح أبواب معاقلهم وحصونهم فورا، بعد أن ألقوا سلاحهم، وأخذوا فى مغادرة الحصون مستسلمين.

فابتدرهم جند الإسلام لحراستهم، وصاروا يجمعونهم منعزلين فى ناحية، وبعد أن

---

(١) البداية : ٤ : ١٢٢ .

(٢) غزوة بنى قريظة: ١٩٥ وما بعدها بتصرف.

تكامل خروجهم من الحصون رجالا ونساء وأطفالا، أمر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ باعتقال الرجال، ووضع القيود فى أيديهم. وقد تم ذلك تحت إشراف محمد بن مسلمة.

أما النساء والذرارى، فقد أمر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بعزلهم عن الرجال، فجعلوا فى ناحية، بعد أن وكل أمرهم عبد الله بن سلام .(١)

وبعد أن تمت عملية الاستسلام أمر النبى ﷺ أن يوضع الزجال فى حبس خاص بهم.

وذكر ابن إسحاق أنهم حبسوا فى دار بنت الحارث، وفى رواية أبى الأسود عن عروة فى دار أسامة بن زيد، ويجمع بينهما بأنهم جعلوا فى بيتين، ووقع فى حديث جابر عند ابن عائذ التصريح بأنهم جعلوا فى بيتين .(٢)

واختلف فى عدتهم: فعند ابن إسحاق أنهم كانوا ستمائة، وبه جزم أبو عمرو فى ترجمة سعد بن معاذ، وعند ابن عائذ من مرسل قتادة: كانوا سبعمائة، وقال السهيلى: المكثر يقول: إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة، وفى حديث جابر عند الترمذى والنسائى وابن حبان بإسناد صحيح أنهم كانوا أربعمائة مقاتل، فيحتمل فى طريق الجمع أن يقال: إن الباقين كانوا أتباعا، وقد حكى ابن إسحاق أنه قيل أنهم كانوا تسعمائة.(٣)

شفاعة الأوس :

وقد كان بنو قريظة ـ كما عرفنا ـ حلفاء الأوس فى الجاهلية، كما كان بنو النضير وبنو قينقاع حلفاء الخزرج.

ومن ثم كلمت الأوس رسول الله ﷺ أن يهبهم لهم. (٤)

قال ابن إسحاق: فما أصبحوا ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله!! إنهم كانوا موالينا، دون الخزرج.، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت، يعنون عفوه عن بنى قينقاع، حين سأله فيهم عبد الله بن أبى، (٥) فاكتفى ـ كما عرفنا ـ بمعاقبتهم بنفيهم من المدينة.

---

(١) الطبقات الكبرى: ٢ : ٧٥ بتصرف .

(٢) فتح البارى: ٧ : ٤١٤، والمواهب اللدنية:٢ : ١٣٦ .

(٣) فتح البارى: ٧ : ٤١٤، والبداية: ٤ : ١٢٤

(٤) الطبقات الكبرى : ٢: ٧٥.

(٥) البداية : ٤ : ١٢١

موقف ســعد :

ومع فظاعة الجريمة.. جريمة الغدر والنكث والخيانة العظمى التى ارتكبها يهود بنى قريظة، فإن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لم يشأ أن يرفض وساطة الأوس.

بل مراعاة لهؤلاء الصحابة الأجلاء الذين تحت ضغط رماحهم وإرهاب سيوفهم استسلم هؤلاء المجرمون من اليهود، جعل مصيرهم فى أيدى الأوس أنفسهم، حيث فوض أمر هؤلاء اليهود إلى سيد الأوس، سعد بن معاذ، ليحكم فيهم بما يريه الله تعالى.

وقد طابت نفس الأوس بهذا التفويض.. إلا أن حكم سيدهم سعد بن معاذ فى هؤلاء جاء فى خلاف ما كان يتوقع قومه، فقد قالوا:

أحسن فى مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذة فى الله لومة لائم [١]..

الحَكَـمُ الجريح :

وكان سعد بن معاذ رضى الله عنه تحت العلاج من جرحه الخطير الذى أصابه وقطع شريانه يوم الخندق ـ كما أسلفنا ـ نتيجة سهم أصابه.

وكانت تقوم بالعلاج سيدة صحابية جليلة، كانت قد أقامت لها خيمة فى المسجد النبوى، تحتسب فيها عند الله القيام بمداواة جرحى المعارك من الصحابة، ممن لم يكن له من يعالجة من أهله.

وسعد بن معاذ رضى الله عنه سيد الأوس، وله أهله وعشيرته والقادرين على رعايته وعلاجه، ولكن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أمر أن يكون فى خيمة المسجد، ليعوده ويتعرف حاله متى شاء.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها «رفيدة» فى مسجده كانت تداوى الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين [٢] .

---

(١) البداية: ٤ : ١٢١، والمواهب اللدنية: ٢: ١٣٤، وابن هشام: ٢: ٢٣٩

(٢) تهذيب السيرة : ٢: ٦ .

وقال ابن حجر: « كعيبة » بنت سعيد الأسلمية.. ذكر أبو عمرو عن الواقدى أنها شهدت خيبر مع رسول الله ﷺ، فأسهم لها سهم رجل، وقال ابن سعد: هى التى كانت تكون فى المسجد لها خيمة تداوى المرضى والجرحى، وكان سعد بن معاذ حين رمى عندها تداوى جرحه حتى مات.. فهما امرأتان وقع الخلاف فيهن تنسب إليه الخيمة منهما، وليس أحدهما اسما والأخر لقبا (١).

قلت: والأول أولى، فقد روى البخارى فى الأدب المفرد بسند صحيح عن محمود ابن لبيد: لما أصيب أكحل سعد يوم الخندق فثقل، حولوه عند امرأة يقال لها «رفيدة» وكانت تداوى الجرحى،وكان رسول الله ﷺ إذا مر به يقول :

« **كيف أمسيت ؟** »

وإذا أصبح يقول :

« **كيف أصبحت ؟** »

فيخبره، وأورده فى التاريخ فى قصة وفاة سعد، وسنده صحيح، ،أورده المستغفرى من طريق البخارى، وأبو موسى من طريق المستغفرى (٢).

وقد توجه أعيان الأوس لمقابلة سعد بن معاذ فى المسجد النبوى، وأخبروه أن النبى ﷺ قد ولاه ـ كما عرفنا ـ ومن ثم قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم.. وهنا رجع بعض من كان معه من قومه إلى داربنى عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمته التى سمع منه (٣).

ولما كان جرح سعد جرحا خطيرا، فقد هيأ له قومه حمارا لأعرابى عليه قطيفة، وقد وطؤا له زيادة على ذلك بوسادة من أدم، لمشقة ركوبه على القطيفة للجرح، ولأنه كان رجلا جسيما، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ (٤).

« قوموا إلى سـيدكم » :

ولقد وصل سعد بن معاذ رضى الله عنه إلى مقر قيادة النبى ﷺ، وكان هذا

---

(١) المواهب اللدنية:٢:١٣٤، والإصابة: ٨: ١٧٦.
(٢) المواهب اللدنية:٢: ١٣٤، والإصابة ٨:٨١.
(٣) البداية : ٤: ١٢١.
(٤) المواهب اللدنية: ٢: ١٣٤.

الاستقبال له، فيما يرويه الشيخان وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد، هو ابن معاذ، بعث رسول الله ﷺ ــ وكان قريبا منه ــ فجاء على حمار، فلما دنا قال رسول الله ﷺ :

« قوموا إلى سيدكم » .

فجاء فجلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال له :

« إن هؤلاء نزلوا على حكمك » .

قال: فإنى أحكم أن تقتل المقاتلة ، وأن تسبى الذرية .

قال : « لقد حكمت فيهم بحكم الملك » (١) .

القيام للداخـــل :

وهنا أرى ضرورة ذكر أقوال العلماء فى ذلك فقد ترجم له البخارى أيضا بقوله: باب قول النبى ﷺ :

« قوموا إلى سيدكم » (٢) .

وقد أفاد ابن حجر وأجاد، حيث قال: (٣) هذه الترجمة معقودة لحكم قيام القاعد للداخل، ولم يجزم فيها بحكم، للاختلاف، بل اقتصر على لفظ الخبر كعادته.

قال ابن بطال : فى هذا الحديث أمر الإمام الأعظم بإكرام الكبير من المسلمين ، ومشروعية إكرام أهل الفضل فى مجلس الإمام الأعظم، والقيام فيه لغيره من أصحابه ، وإلزام الناس كافة بالقيام إلى الكبير منهم.

وقد منع من ذلك قوم، واحتجوا بحديث أبى أمامة قال: خرج علينا النبى ﷺ متوكئا على عصا، فقمنا له،فقال:

« لا تقوموا كما تقوم الأعاجم بعضهم لبعض » .

---

(١) البخارى: ٥٦ ــ الجهاد (٣٠٤٣)، ومسلم: ٣٢ ــ الجهاد ٦٤ (١٧٦٨)، وأبو داود (٥١٩٣) عون المعبود، وانظر أحمد : ٦: ١٤١ ــ ١٤٢ .

(٢) البخارى: ٧٩ ــ الاستئذان ٢٦ باب قول النبى ﷺ « قوموا إلى سيدكم » .

(٣) فتح البارى : ١١: ٤٩ وما بعدها بتصرف .

وأجاب عنه الطبرى بأنه حديث ضعيف مضطرب السند، فيه من لا يعرف [1] .

قال ابن حجر: واحتجوا أيضا بحديث عبد الله بن بريدة أن أباه دخل على معاوية فأخبره أن النبى ﷺ قال :

« من أحب أن يتمثل له الرجال قياما وجبت له النار » .

وأجاب عنه الطبرى بأن هذا الخبر إنما فيه نهى من يقام له عن السرور بذلك لا نهى من يقوم له إكراما له .

وأجاب عنه ابن قتيبة بأن معناه من أراد أن يقوم الرجال على رأسه، كما يقام بين يدى ملوك الأعاجم، وليس المراد به نهى الرجل عن القيام لأخيه إذا سلم عليه.

واحتج ابن بطال للجواز بما أخرجه النسائى من طريق عائشة بنت طلحة غن عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا رأى فاطمة بنته قد أقبلت رحب بها، ثم قام فقبلها، ثم أخذ بيدها حتى يجلسها مكانه.

قلت: وحديث عائشة هذا أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وصححه ابن حبان والحاكم، وأصله فى الصحيح لكن ليس فيه ذكر القيام،وترجم له أبو داود «باب فى القيام» وأورد معه فيه حديث أبى سعيد ـ السابق ـ « **قوموا إلى سيدكم أو إلى خيركم**» [2].

وكذا صنع البخارى فى الأدب المفرد، وزاد معهما حديث كعب بن مالك فى قصة توبته،وفيه « فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول » وقد أشار إليه فى الباب الذى يليه.

قال : وحديث أبى أمامة المبدأ به أخرجه أبو داود وابن ماجة .

وحديث ابن بريدة أخرجه الحاكم من رواية حسين المعلم عن عبد الله بن بريدة عن معاوية فذكره، وفيه :

« ما من رجل يكون على الناس فيقوم على رأسه الرجال، يحب أن يكثر عنده الخصوم فيدخل الجنة » .

---

(١) انظر عون المعبود، (٥٢٠٨) وأحمد: ٥:٢٥٣ .

(٢) عون المعبود (٥١٩٣)، (٥١٩٥) .

وله طريق أخرى عن معاوية، أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه، والبخارى فى الأدب المفرد [١] من طريق أبى مجلز، قال: خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« **من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار** » .

هذا لفظ أبى داود وأخرجه أحمد من رواية حماد بن سلمة عن حبيب بن الشهيد عن أبى مجلز[٢]؛ وأحمد عن إسماعيل بن علية عن حبيب مثله، وقال: «العباد» بدل «الرجال» ومن رواية شعبة عن حبيب مثله، وزاد فيه: «ولم يقم ابن الزبيروكان أرزنهما، قال: فقال مه» فذكر الحديث، وقال فيه:

« **من أحب أن يتمثل له عباد الله قياما** » .

وأخرجه أيضا عن مروان بن معاوية عن حبيب بلفظ: خرج معاوية فقاموا له، وباقيه كلفظ حماد.

وأما الترمذى فإنه أخرجه من رواية سفيان الثورى عن حبيب، ولفظه:

« خرج معاوية فقام عبد الله بن الزبير وابن صفوان حين رأوه، فقال اجلسا » فذكر مثل لفظ حماد، وسفيان وإن كان من جبال الحفظ إلا أن العدد الكثير، وفيهم مثل شعبة أولى بأن تكون روايتهم محفوظة من الواحد، وقد اتفقوا على أن ابن الزبير لم يقم، وأما إبدال ابن عامر بابن صفوان ، فسهل لاحتمال الجمع بأن يكونا معا وقع لهما ذلك، ويؤيده الإتيان فيه بصيغة الجمع، وفى روايةمروان بن معاوية المذكورة .

وقد أشار البخارى فى الأدب المفرد إلى الجمع المنقول عن ابن قتيبة فترجم أولا : «باب قيام الرجل لأخيه» وأورد الأحاديث الثلاثة التى أشرت إليها، ثم ترجم «باب قيام الرجل للرجل القاعد» «وباب من كره أن يقعد ويقوم له الناس » وأورد فيها حديث جابر اشتكى النبى ﷺ فصلينا وراءه وهو قاعد فالتفت إلينا فرآنا قياما ، فأشار إلينا فقعدنا ، فلما سلم قال :

---

(١) الأدب المفرد (٩٧٧)، وأبو داود (٥٢٢٩)، والترمذى (٢٧٥٥)

(٢) انظر: أحمد :٤ : ٩٣، ١٠٠ .

« إن كدتم لتفعلوا فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا »

وهو حديث صحيح أخرجه مسلم عنه قال اشتكى رسول الله ﷺ فصلينا وراءه وهو قاعد. وأبو بكر يسمع الناس تكبيره. فالتفت إلينا فرآنا قياما. فأشار إلينا فقعدنا. فصلينا بصلاته قعودا. فلما سلم قال:

« إن كدتم آنفا لتفعلون فعل فارس والروم. يقومون على ملوكهم وهم قعود. فلا تفعلوا. ائتموا بأئمتكم. إن صلى قائما فصلوا قياما. وإن صلى قاعدا فصلوا قعودا » (١).

قال: وترجم البخارى أيضا «قيام الرجل للرجل تعظيما» وأورد فيه حديث معاوية من طريق أبى مجلز.

ومحصل المنقول عن مالك: إنكار القيام مادام الذى يقام لأجله لم يجلس، ولو كان فى شغل نفسه فإنه سئل عن المرأة تبالغ فى إكرام زوجها فتتلقاه وتنزع ثيابه وتقف حتى يجلس، فقال أما التلقى فلا بأس به، وأما القيام حتى يجلس فلا، فإن هذا فعل الجبابرة، وقد أنكره عمر بن عبد العزيز.

وقال الخطابى: فى حديث الباب جواز إطلاق «السيد» على الخير الفاضل، وفيه أن قيام المرءوس للرئيس الفاضل والإمام العادل والمتعلم للعالم مستحب، وإنما يكره لمن كان بغير هذه الصفات.

ومعنى حديث « **من أحب أن يقام له** » أى بأن يلزمهم بالقيام له صفوفا على طريق الكبر والنخوة.

ورجح المنذرى ما تقدم من الجمع عن ابن قتيبة والبخارى، وأن القيام المنهى عنه أن يقام عليه وهو جالس، وقد رد ابن القيم فى «حاشية السنن» على هذا القول بأن سياق حديث معاوية يدل على خلاف ذلك، وإنما يدل على أنه كره القيام له لما خرج تعظيما، ولأن هذا لا يقال له القيام للرجل وإنما هو القيام على رأس الرجل أو عند الرجل، قال: والقيام ينقسم إلى ثلاث مراتب:

---

(١) مسلم: ٤ـ الصلاة ٨٤ (٤١٣).

قيام على رأس الرجل، وهو فعل الجبابرة.

وقيام إليه عند قدومه، ولا بأس به.

وقيام له عند رؤيته، وهو المتنازع فيه.

ثم قال ابن حجر: وفى مسند عائشة عند أحمد من طريق علقمة بن وقاص عنها فى قصة غزوة بنى قريظة، وقصة سعد بن معاذ ومجيئه مطولا، وفيه: قال أبو سعيد : فلما طلع على رسول الله ﷺ قال:

« **قوموا إلى سيدكم فأنزلوه** » .

فقال عمر: سيدنا الله عزو جل. قال:

« **انزلوه، فأنزلوه** » وسنده حسن (١) .

قال ابن حجر: وهذه الزيادة تخدش فى الاستدلال بقصة سعد على مشروعية القيام المتنازع فيه. وقد احتج به النووى فى كتاب القيام، ونقل عن البخارى ومسلم وأبى داود أنهم احتجوا به، ولفظ مسلم: لا أعلم فى قيام الرجل للرجل حديثا أصح من هذا، وقد اعترض عليه الشيخ أبو عبد الله بن الحاج فقال ما ملخصه:

لو كان القيام المأمور به لسعد هو المتنازع فيه لما خص به الأنصار، فإن الأصل فى أفعال القرب التعميم، ولو كان القيام لسعد على سبيل البر والإكرام لكان هو ﷺ أول من فعله وأمر به من حضر من أكابر الصحابة، فلما لم يأمر به ولا فعله ولافعلوه، دل على أن الأمر بالقيام لغير ما وقع فيه النزاع، وإنما هو لينزلوه عن دابته، لما كان فيه من المرض، كما جاء فى بعض الروايات، ولأن عادة العرب أن القبيلة تخدم كبيرها، فلذلك خص الأنصار بذلك دون المهاجرين، مع أن المراد بعض الأنصار لا كلهم،وهم الأوس منهم لأن سعد بن معاذ كان سيدهم دون الخزرج، وعلى تقدير تسليم أن القيام المأمور به حينئذ لم يكن للإعانة فليس هو المتنازع فيه، بل لأنه غائب قدم، والقيام للغائب إذا قدم مشروع ، قال: ويحتمل أن يكون القيام المذكور إنما هو لتهنئته بما حصل له من تلك المنزلة الرفيعة من تحكيمه، والرضا بما يحكم به، والقيام لأجل التهنئة مشروع أيضا. ثم نقل عن أبى الوليد بن رشد أن القيام يقع على أربعة أوجه :

---

(١) انظر : أحمد : ٦ : ١٤١ ـ ١٤٢.

الأول: محظور، وهو أن يقع لمن يريد أن يقام إليه تكبرا وتعاظمًا على القائمين إليه.

والثاني: مكروه، وهو أن يقع لمن لا يتكبر ولايتعاظم على القائمين، ولكن يخشى أن يدخل نفسه بسبب ذلك مايحذر، ولما فيه من التشبه بالجبابرة.

والثالث: جائز، وهو أن يقع على سبيل البر والإكرام لمن لا يريد ذلك، ويؤمن معه التشبه بالجبابرة.

الرابع: مندوب، وهو أن يقوم لمن قدم من سفر فرحا بقدومه ليسلم عليه، أو إلى من تجددت له نعمة فيهنئه بحصولها، أو مصيبة فيعزيه بسببها.

وقال التوربشتى فى «شرح المصابيح» معنى قوله قوموا إلى سيدكم أى إلى إعانته وإنزاله من دابته ولو كان المراد التعظيم لقال: قوموا لسيدكم. وتعقبه الطيبى بأنه لا يلزم من كونه ليس للتعظيم أن لا يكون للإكرام، وما اعتل به من الفرق بين إلى واللام ضعيف، لأن إلى فى هذا المقام أفخم من اللام، كأنه قيل: قوموا وامشوا إليه تلقيا وإكراما، وهذا مأخوذ من ترتب الحكم على الوصف المناسب المشعر بالعلية، فإن قوله «سيدكم» علة للقيام له، وذلك لكونه شريفا على القدر.

وقال البيهقى: القيام على وجه البر والإكرام جائز كقيام الأنصار لسعد، وطلحة لكعب، ولا ينبغى لمن يقام له أن يعتقد استحقاقه لذلك، حتى إن ترك القيام له حنق عليه أو عاتبه أو شكاه.

قال أبو عبد الله: وضابط ذلك أن كل أمر ندب الشرع المكلف بالمشى إليه تأخر حتى قدم المأمور لأجله فالقيام إليه يكون عوضا عن المشى الذى فات.

واحتج النووى أيضا بقيام طلحة لكعب بن مالك.

وأجاب ابن الحاج بأن طلحة إنما قام لتهنئته ومصافحته، ولذلك لم يحتج به البخارى للقيام، وإنما أورده فى المصافحة (١) ، ولو كان قيامه محل النزاع لما انفرد به، فلم ينقل أن النبى ﷺ قام له، ولا أمر به، ولا فعله أحد ممن حضر، وإنما انفرد طلحة لقوة المودة بينهما، على ماجرت به العادة أن التهنئة والبشارة ونحو ذلك تكون على قدر المودة والخلطة،

---

(١) انظر: البخارى: ٧٩ ـ الاستئذان ٢٧ ـ باب المصافحة.

بخلاف السلام فإنه مشروع على من عرفت ومن لم تعرف. والتفاوت فى المودة يقع بسبب التفاوت فى الحقوق، وهو أمر معهود.

قال ابن حجر: ويحتمل أن يكون من كان لكعب عنده من المودة مثل ما عند طلحة لم يطلع على وقوع الرضا عن كعب، واطلع عليه طلحة، لأن ذلك عقب منع الناس من كلامه مطلقا، وفى قول كعب: «لم يقم إلى من المهاجرين غيره إشارة إلى أنه قام إليه غيره من الأنصار.

ثم قال ابن الحاج: وإذا حمل فعل طلحة على محل النزاع لزم أن يكون من حضر من المهاجرين قد ترك المندوب، ولا يظن بهم ذلك.

واحتج النووى بحديث عائشة المتقدم فى حق فاطمة، وأجاب عنه ابن الحاج باحتمال أن يكون القيام لها لأجل إجلاسها فى مكانه إكراما لها، لا على وجه القيام المنازع فيه، ولاسيما ما عرف من ضيق بيوتهم، وقلة الفرش فيها، فكانت إرادة إجلاسه لها فى موضعه مستلزمة لقيامه، وأمعن فى بسط ذلك..

ثم قال ابن حجر: وفى الجملة متى صار ترك القيام يشعر بالاستهانة أو يترتب عليه مفسدة امتنع، وإلى ذلك أشار ابن عبد السلام.

ونقل ابن كثير عن بعض المحققين التفصيل فيه فقال: المحذور أن يتخذ ديدانا كعادة الأعاجم، كما دل عليه حديث أنس، وأما إن كان لقادم من سفر أو لحاكم فى محل ولايته فلا بأس به.

قال ابن حجر: ويلتحق بذلك ما تقدم فى أجوبة ابن الحاج كالتهنئة لمن حدثت له نعمة، أو لإعانة العاجز، أو لتوسيع المجلس، أو غير ذلك.

وقال الغزالى: القيام على سبيل الإعظام مكروه، وعلى سبيل الإكرام لا يكره.

قال ابن حجر: وهذا تفصيل حسن [1] .

الحكم على بنى قريظة :

وجاءت اللحظة الرهيبة الرعيبة الحاسمة فى تاريخ بنى قريظة، ووقف سعد بن معاذ

---

(١) انظر: زاد المسلم: ١ : ٢٦٩ ـ ٢٧٢.

ليعلن كلمته النهائية [1]، وأرهف هؤلاء الخونة أسماعهم مشدودة ناحية حليفهم الذى أصبح مصيرهم جميعا فى يده، وسمروا أبصارهم عليه فى قلق وجزع، وخوف وهلع، وركضت قلوبهم الخبيثة بين جنوبهم ووقفت نبضاتها فى انتظار النطق بالحكم عليهم.

وحتى الذين فى المعسكر من المسلمين، شدت أبصارهم ناحية سعد، وخاصة الأوس الذين بذلوا كل المساعى لتخفيف الحكم على بنى قريظة.

شدت أبصار الجميع إلى سعد، ليروا كيف يصدر حكمه على هؤلاء اليهود، لأن الجميع لا يعلمون يقينا ما هو الحكم وإن كانوا يتوقعون أنه سيكون صارما قويا حاسما ورهيبا.

وحكم ـ كما أسلفنا ـ بالقتل على كل من بلغ الحلم من الرجال.

كما حكم أن تسبى النساء والذرارى، فقد روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل النبى ﷺ إلى سعد فأتى على حمار، فلما دنا من المسجد قال للأنصار:

« **قوموا إلى سيدكم ، أوخيركم** » فقال : « **هؤلاء نزلوا على حكمك** » .

فقال : تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم . قال :

« **قضيت بحكم الله** » .

وربما قال : « **بحكم الملك** » [2] .

وعند ابن سعد من مرسل حميد قال: [3] قال بعضهم: وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار. قال: فقالت الأنصار إخوتنا كنا معهم، فقال: إنى أحببت أن يستغنوا عنكم.

وقد صعق الخونة لهذا الحكم، وعلاهم الذهول، وخيم عليهم الوجوم، ولم يروا أحدا من المؤرخين أنهم ناقشوا الحكم أو عارضوه بأى احتجاج! لأن هؤلاء اليهود أولا قد نزلوا ـ كما أسلفنا ـ على حكم رسول الله ﷺ دونما قيد أوشرط! ولأنهم ثانيا قد وافقوا بعد

---

(١) غزوة بنى قريظة: ٢٠٥ وما بعدها بتصرف.

(٢) البخارى:: ٦٤ ـ المغازى (٤١٢١)، ومسلم : ٣٢ ـ الجهاد ٦٤(١٧٦٨).

(٣) الطبقات الكبرى : ٢ : ٧٧ ـ ٧٨

استسلامهم على تحكيم سعد! ولأنهم ثالثا يعلمون ماقاموا به من خيانة ما بعدها خيانة!

وكيف ينسى سعد رضى الله عنه أن الإسلام وكل المنتسبين إليه، وأن المدينة وما فيها من أعراض وحرمات، وثمار وحرث ونسل، وأن كل كيان الإسلام الدينى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى كان قاب قوسين أو أدنى من التدمير والتخريب، بسبب غدر هؤلاء اليهود ونقضهم العهد، وأنه لم ينج إلا بمعجزة خارقة، ولو لم تحدث لانتهى الكيان الإسلامى إلى الأبد؟!

وكيف ينسى فى زحمة موجات الرجاء الموجه إليه أن هؤلاء اليهود لو تم لهم وللأحزاب النصر على المسلمين لا ستأصلوا شأفة المسلمين، وهتكوا الأعراض، وخربوا الديار، ودمروا كل شىء، كما هو الاتفاق بينهم وبين قيادة الأحزاب، وعندما طلبت منهم هذه القيادة الغدر بالمسلمين ونقض عهدهم؟!

لذلك لم يلبث سعد رضى الله عنه أن قال قولته الخالدة ـ كما أسلفنا ـ:لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم.

ومن ثم أصدر ذلك الحكم الصارم، الذى هو فى مستوى الأحداث، والذى جاء عقوبة على قدر الجريمة.

ومن الجدير بالذكر أن سعد بن معاذ ـ كما عرفنا ـ كان قد أرسله النبى ﷺ هو وسعد بن عبادة إلى بنى قريظة، ليتعرفا حالهم ويؤكدا خيرهم، وذلك بعد أن بلغه أن بنى قريظة قد خانوا العهد، وانضموا إلى معسكر الأحزاب، وبعث مع السعدين عبدالله بن رواحة، وخوّات بن جبير، وأسيد بن حضير[1]... وذهبوا إليهم واختبروا حالهم فوجدوهم على أخبث ما بلغه عنهم، وتكلموا فى حق رسول الله ﷺ وتبرؤوا من عقده وعهده!

ومن ثم تجسدت أمام سعد رضى الله عنه خسة هؤلاء اليهود ونذالتهم، عندما وجهوا إلى المسلمين تلك الطعنة فى أحرج الساعات وأدق الظروف التى مرت بالمسلمين فى هذا الوقت.

ولم ينس سعد فى ضجيج الاستعطاف الموجه إليه من هؤلاء أنه قد حذرهم ونصحهم

---

(١) محمد رسول الله : ٤:١٥٥ وما بعدها.

أن يوفوا بعهدهم وأن لا يغدروا برسول الله ﷺ، لئلا ينتهوا إلى هذا المصير المرعب الذى قادهم إليه أخيرا غدرهم وسعت بهم إليه خيانتهم!

ولم ينس تلك المقالة القبيحة منهم حينما قال لهم:إنكم قد علمتم الذى بيننا وبينكم يابنى قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بنى النضير أو أمرّ منه. فقالوا: أكلت أير أبيك!

فقال: غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن[1].

لهذا فإن سعد رضى الله عنه كان قد امتلأ يوم ذاك غيظا على هؤلاء اليهود الخونة الأراذل، الذين جمعوا الأحزاب، وكان يتمنى أن يشفى الله غليله منهم[2]..

وهنا نبصر أن حكم سعد على هؤلاء اليهود إنما جاء بعد دراسة متأنية، وإلمام كامل بنفسيات بنى قريظة، واقتناع بأنهم ـ بعد خبرة وتجربة عاشها معهم ولمسها فيهم ـ جرثومة وباء قاتلة لا مفر من إبادتها.

تنفيذ الحكـــم :

وبعد أن تمت إجراءات الحكم فى بنى قريظة، وكان ذلك فى ديارهم، تحرك الرسول الحبيب المحبوب ﷺ نحو المدينة فدخلها، وكانت عودته من بنى قريظة يوم الخميس لسبع ليال، كما قاله الدمياطى، أو لخمس ، ـ كما قاله مغلطاى[3] ـ خلون من ذى الحجة، ولا يتأتى واحد منهما على ما قدمه، أن مدة الحصار خمس وعشرون، أو خمس عشرة، وأنه خرج لسبع بقين من ذى القعدة، نعم يتأتى على أنه بضع عشرة يجعله أقل من خمس عشرة.

وعلى كل فقد أمر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بيهود بنى قريظة بعد نزولهم من الحصن، فكتفوا ونُحّوا ناحية [4]، والنساء والذرية ناحية، فأدخلوا المدينة ـ كما أسلفنا ـ وحفر لهم أخدود فى السوق[5]، وجلس ﷺ ومعه أصحابه، وأخرجوا إليه، فضربت أعناقهم، ضربها عليّ والزبير وأسلم الأنصارى كما فى الطبرانى، قال فكنت أضرب عنق من أنبت وأجعل غيره فى المغانم، وفى هذا يروى الترمذى وغيره بسند حسن عن عبد الملك

(١) البداية: ٤:٤ ١٠

(٢) انظر : أحمد : ٦:١٤١ ـ١٤٢، والبداية: ٤:١٢٣ ـ١٢٤ ،ومجمع الزوائد: ٦:١٣٦ ـ ١٣٨.

(٣)المواهب : ٢:١٣٦.

(٤) الطبقات الكبرى:٢:٧٥. (٥) المواهب : ٢: ١٣٦ ـ ١٣٧ بتصرف.

ابن عمير عن عطية القرظى قال: عرضنا على النبى ﷺ يوم قريظة، فكان من أنبت قتل، ومن لن ينبت خلّى سبيله، فكنت ممن لم ينبت، فخلِّى سبيلى. قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم أنهم يرون الإنبات بلوغا إن لم يعرف احتلامه، ولا سِنّه، وهو قول أحمد وإسحاق[1].

وجاء سعد بن عبادة[2]، والخباب بن المنذر، فقالا: يا رسول الله! إن الأوس قد كرهت قتل بنى قريظة لمكان حلفهم، فقال سعد بن معاذ: ما كرهه من الأوس أحد فيه خير، فمن كرهه فلا أرضاه الله، فقام أسيد بن حضير، فقال: يا رسول الله! لا يبقين دار من الأوس إلا فرقتهم فيها، فمن سخط فلا يرغم الله إلا أنفه.فابعث إلى دارى أول دورهم، ففرقهم فى دور الأوس فقتلوهم، وهذا يفيد أن الذين فرقوا على الأوس من لم يكن قتله على والزبير، لمجيء ابن عبادة والخباب أثناء القتل، وبقى عليه السلام عند الأخدود، حتى فرغوا منهم عند الغروب، فردعليهم التراب، فكان الذين أرسلوا إلى الأوس حملوا بعد القتل إلى الأخدود.

أفى كل موطن لا تعقــلون ؟ :

وكان بنو قريظة المتحجزون فى السجن مع سيدهم كعب بن أسد، كلما استدعى الحرس جماعة منهم لإعدامهم، لاذوا بسيدهم كعب، يسألونه فى جزع وهلع وفزع.. ما تراه يصنع بنا؟ .

فيجيبهم: أفى كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعى لا ينزع، وأنه من ذهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتل![3].

شيطان بنى النضيــر يتكلـم قبل إعــدامه :

وعندما جيء بشيطان بنى النضير حيّى بن أخطب إلى ساحة الإعدام، لم يخف بغضه للرسول الحبيب ﷺ، وحقده عليه، بل أعلن ذلك بكل صراحة وتبجّح، فى تلك الساعات الأخيرة من حياته الشريرة.

قال ابن إسحاق ـ يصف موقف حييّ ساعة إعدامه [4] ـ وأتى بحييّ بن أخطب

---

(١) الترمذى (١٥٨٤)، وأبو داود (٤٤٠٤)، والنسائى: ٦: ١٥٥، وابن ماجه (٢٥٤١).

(٢) المواهب : ٢: ١٣٧ بتصرف.

(٣) الروض الأنف: ٣: ٢٧٠.

(٤) سيرةابن هشام: ٢: ٢٤١.

عدو الله، وعليه حلّة فُقا حيّة ـ قال ابن هشام: فقاحية : ضرب من الوشى ـ[1].

قد شققها عليه من كل ناحية قدر أنملة، لئلا يُسلبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل.

فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال:

أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس، فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن أم المؤمنين صفية رضى الله عنها، هى ابنة هذا اليهودى حييّ بن أخطب، تزوجها رسول الله ﷺ بعد أن قتل زوجها فى خيبر ـ كما سيأتى ـ فكانت رضى الله عنها من خيرة أمهات المؤمنين ومن أرجحهن عقلا.

الرجل الوحيد الذى لم يقتل :

قال ابن إسحاق: وحدثنى أيوب بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى صعصعة أخو بنى عدى بن النجار: أن سلمى بنت قيس، أم المنذر، أخت سليط بن أخت سليط بن قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ، قد صلت معه القبلتين، وبايعته بيعة النساء، سألته رفاعة بن سموأل القرظى، وكان رجلا قد بلغ، فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك، فقالت : يا نبى الله! بأبى أنت وأمى، هب لى رفاعة، فإنه سيصلّى، ويأكل لحم الجمل، قال: فوهبه لها فاستحييته[2].

قصة عجيبة :

وفى الوقت الذى تم فيه تنفيذ حكم الإعدام العادل فى عصابة الغدر والخيانة والإجرام من يهود بنى قريظة[3] ، حدثت قصة عجيبة مثيرة، محورها محارب يهودى قديم عنيد .

كان هذا اليهودى المحارب، واسمه: الزَّبير[4] بن باطا، من قادةبنى قريظةفى الجاهلية، وكان قد أسدى معروفا كبيرا إلى ثابت بن قيس قبل الإسلام، فحاول هذا الصحابى الجليل أن يجزى هذا اليهودى على معروفه السابق، وأن يطلب العفو عنه، وكان له ما أراد،

---

(١) انظر : الروض الأنف : ٣: ٢٧٠، ولسان العرب (فقح).

(٢) المرجع السابق : ٢٧١ .　　　(٣) غزوة بنى قريظة : ٢٢٤ بتصرف .

(٤) عيون الأثر : ٢:٧٤ «الزَّبير» بفتح الزاى المشددة، و « الزُّبير » بضم الزاى إلا هذا .

ولكن الغريب فى الأمر أن هذا اليهودى أبى ـ بعد صدور العفو عنه ـ إلا أن يُقتل كما قُتل قومه، ليلحق بهم إلى الجحيم!

وتفصيل ذلك، هو أن بنى قريظة كانوا يُعتبرون فى السلم والحرب جزءا من قبيلة الأوس، وذلك بفعل رابطة التحالف القائمة بين القبيلتين، كما هى القاعدة المتبعة عند العرب فى الجاهلية.

ولذلك فإن يهود بنى قريظة كانوا إذا ما نشبت فى تلك الحروب الأهلية الطويلة معركة بين الأوس والخزرج يقفون إلى جانب الأوس، فيقاتلون معهم حتى النهاية كجزء لا يتجزأ منهم، كما كان يفعل يهود بنى النضير وبنى قينقاع مع الخزرج حلفائهم.

وعندما نشبت معركة« بعاث» الشهيرة فى الجاهلية بين الأوس والخزرج، والتى كان النصر الساحق فيها للأوس على الخزرج، وقع ثابت بن قيس بن شماس الخزرجى أسيرا فى يد القائد اليهودى الزَّبير بن باطا هذا، الذى كان يقود بعض اليهود فى تلك المعركة ضد الخزرج.

وقد منّ الزَّبير هذا على ثابت بن قيس، حيث أخلى سبيله، بعد أن جزّ ناصيته، فحفظها ثابت يدا بيضاء له.

وعندما وقع بنو قريظة فى عملهم السيىء، وكان الحكم ـ كما عرفنا ـ تذكر ثابت ابن قيس ما لهذا اليهودى من يد، فأحب أن يرد له جميله، ولكن هذا اليهودى العنيد رفض ذلك وأبى إلا أن يموت كما مات زملاؤه فى الخسة والغدر والخيانة من بنى قريظة!

قال ابن إسحاق(١): وقدكان ثابت بن قيس كما ذكر لى ابن شهاب الزهرى أتى الزَّبير بن باطا القرظى، وكان يكنى أبا عبد الرحمن، وكان الزَّبير قد منّ على ثابت بن قيس فى الجاهلية، ذكر لى بعض ولد الزَّبير أنه كان منّ عليه يوم بعاث(٣)، أخذه فجزّ ناصيته، ثم خلّى سبيلة، فجاء ثابت وهو شيخ كبير، فقال: يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفنى؟ قال: وهل يَجهل مثلى مثلك، قال:إنى قد أردت أن أجزيك بيدك عندى. قال: إن الكريم يجزى الكريم. ثم أتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنه كان للزّبير عليّ منة، وقد أ حببت أن أجزيه بها، فهب لى دمه، فقال رسول الله ﷺ : « **هو لك** » فأتاه

---

(١) عيون الأثر : ٢: ٧٤ ـ ٧٥ والبداية : ٤: ١٢٥، والروض الأنف : ٣: ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٢) انظر : مجمع الزوائد : ٦: ١٤١ ـ ١٤٢ فقد رواه الطبرانى فى الأوسط عن عائشة، وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف.

فقال:إن رسول الله ﷺ قد وهب لى دمك فهو لك. قال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ قال فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! بأبى أنت وأمى، امرأته وولده، قال: « **هم لك** » قال: فأتاه فقال: قد وهب لى رسول الله ﷺ أهلك وولدك، فهم لك، قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! ما له؟ قال: « **هو لك** » فأتاه ثابت فقال: قد أعطانى رسول الله ﷺ مالك، فهو لك. قال: أى ثابت، ما فعل الذى كأن وجهَه مرآة صينية تتراءى فيه عذارى الحى: كعب بن أسد؟ قال: قُتل. قال: فما فعل سيد الحاضر والبادى: حييّ بن أخطب؟ قال: قُتل. قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا عزال بن سموأل؟ قال: قُتل. فما فعل المجلسان: يعنى بنِى كعب بن قريظة، وبنى عمرو بن قريظة؟ قال: ذهبوا، قتلوا. قال: فإنى سائلك يا ثابت، بيدى عندك،إلا ألحقتنى بالقوم، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله قبلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة، فقدمه ثابت، فضرب عنقه.

فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله:« ألقى الأحبة» قال: يلقاهم والله فى نار جهنم خالدا مخلدا.

قال ابن سيد الناس(١): وذكر أبو عبيدة هذا الخبر، وفيه فقال رسول الله ﷺ:

« **لك أهله وماله إن أسلم** » .

المرأة الوحيدة التى أعدمت :

ولم يقتل من نساء بنى قريظة إلا امرأة واحدة، قال ابن إسحاق(٢): وقد حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة، قالت: والله! إنها لعندى تحدث معى، وتضحك ظهرا وبطنا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها فى السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانه؟ قالت:أنا والله، قالت: قلت لها ويلك، ما لك؟ قالت: أُقتل، قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته، فانطلق بها فضربت عنقها، فكانت عائشة تقول: فوالله! ما أنسمى عجبا منها، طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل.

---

(١) عيون الأثر : ٢: ٧٥، وانظر : زاد المعاد : ٣: ١٣٥.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢: ٢٤٢، والروض الأنف: ٣: ٢٧٠ والسيرة الحلبية: ٢: ١٢٠ ، وعيون الأثر:٢:٧٣.

قال ابن هشام: وهى التى طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته.

تقسيم الغنائـــم :

وبعد أن تم تنفيذ الحكم كان جمع أمتعتهم، وما فى حصونهم من الحلقة والأثاث والثياب، فوجد فيها:

- (٢٠٠٠) ألفان من الرماح [١].
- (١٥٠٠) ألف وخمسمائة سيف.
- (٣٠٠) ثلاثمائة درع.
- (١٥٠٠) ألف وخمسمائة ترس وجحفة، وخمر، وجرار سكر، فأهريق ذلك.

وأخرج الخمس من المتاع والسبى، ثم أمر بالباقى فبيع فيمن يريد، قال فى المواهب[٢]: ظاهره أنه بيع ما عدا الخمس، وهو مخالف قول ابن إسحاق وغيره: بعث ﷺ سعد بن زيد الأنصارى الأشهلى بسبايا من بنى قريظة إلى نجد، فابتاع لهم بهم خيلا وسلاحا، وعند الواقدى بعث سعد بن عبادة بطائفة إلى الشام يبيعهم ويشترى بهم خيلا وسلاحا.

وقسمه بين المسلمين، فكانت على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهما، للفرس سهمان، لأن الخيل كانت ستة وثلاثين فرسا، ولصاحبه سهم قال: وعلى هذا مضت السنة فى المغازى[٣].

قال فى المواهب[٤]: وروى أنه أعطى: صفية بنت عبد المطلب، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، وأم سعد بن معاذ، والسميراء بنت قيس، حضرن القتال، ولم يسهم لهن.

وصار الخمس إلى مَحْمِية بن جَزْء الزُّبيدى[٥]، فكان رسول الله ﷺ يعتق منه ويهب منه، ويُخدم منه من أراد، وكذلك صنع بما صار إليه من الرثّة.

هدى النبى ﷺ فى التقسـيم :

وكان النبى ﷺ إذا ظفر بعدوه، [٦] أمر مناديا، فجمع الغنائم كلها، فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها، ثم أخرج خمس الباقى، فوضعه حيث أراه الله، وأمره به من مصالح

---

(١) الطبقات الكبرى: ٢: ٧٥ بتصرف، والمواهب اللدنية : ٢: ١٣٧.
(٢) المواهب اللدنية: ٢: ١٣٧. (٣) انظر الروض الأنف: ٣: ٢٧١. (٤) المواهب : ٢: ١٣٧.
(٥) الطبقات الكبرى: ٢: ٧٥ . (٦) زاد المعاد: ٣: ١٠٠ بتصرف .

الإسلام، ثم يَرْضَخ - أي يعطي العطية القليلة - من الباقي لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد.

يروى مسلم من حديث ابن عباس [١]: ... كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء، وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى، ويُحْذَيْن من الغنيمة، وأمّا بسهم، فلم يضْرب لهن.. وفيه أيضا حين سئل عن العبد والمرأة يحضران المغنم، هل يقسم لهما شيء؟ وإنه ليس لهما شيء. إلا أن يُحذيا..

قال ابن القيم: ثم قسم الباقي بالسوية بين الجيش، للفارس ثلاثة أسهم: سهم له، وسهمان لفرسه، وللراجل سهم، هذا هو الصحيح الثابت عنه [٢].

وكان ينفِّل من صلب الغنيمة بحسب ما يراه من المصلحة، وقيل: بل كان النَّفل من الخمس، وقيل وهوأضعف الأقوال: بل كان من خمس الخمس.

وجمع لسلمة بن الأكوع فى بعض مغازيه بين سهم الراجل والفارس، فأعطاه أربعة أسهم لعظم غنائه فى تلك الغزوة [٣].

وكان يُسوّى الضعيف والقوى فى القسمة ما عدا النفل.. أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس، ورجاله ثقات[٤].. وفى الباب عن عبادة بن الصامت فيما أخرجه أحمد[٥]، وأيضا من حديث مكحول عن سعد قال[٦]: قلت يا رسول الله! الرجل يكون حامية القوم أيكون سهمه وسهم غيره سواء؟ قال:

« ثكلتك أمك ابن أم سعد ، وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم » .

ورجاله ثقات، إلا أن مكحولا لم يسمع من سعد.

ويروى البخارى عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلا على

---

(١) مسلم: ٣٢ - الجهاد ١٣٧، ١٣٩ (١٨١٢)

(٢) انظر : البخارى : ٥٦ - الجهاد (٢٨٦٣) ، ومسلم: ٣٢ - الجهاد ٥٧ (١٧٦٢).

(٣) مسلم: ٣٢ - الجهاد ١٣٢ (١٨٠٧) وفيه: ثم أعطانى رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس ، وسهم الراجل، فجمعهما لى جميعا.. وأبو داود (٢٧٥٢).

(٤) أبو داود (٢٧٣٩). (٥) أحمد : ٥: ٣٢٣، ٣٢٤. (٦) أحمد : ١: ١٧٣.

من دونه، فقال النبى ﷺ:

« **هل تنصرون إلا بضعفائكم** » [١].

وفى رواية للنسائى عنه بسند صحيح :

« **إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم** »[٢].

وكان إذا أغار فى أرض العدو، بعث سرية بين يديه، فما غنمت أخرج خمسه، ونفّلها ربُع الباقى، وقسم الباقى بينها وبين سائر الجيش، وإذا رجع فعل ذلك، ونفّلها الثلث، وذلك فيما أخرجه أبو داود بسند صحيح من حديث حبيب بن مسلمة الفهرى، شهدت النبى ﷺ نفّل الربع فى البدأة، والثلث فى الرجعة [٣].

وكان يسهم لمن غاب عن الواقعة لمصلحة المسلمين، كما أسهم لعثمان سهمه من بدر، ولم يحضرها، لمكان تمريضه لامرأته رقية ابنة رسول الله ﷺ فقال:

« **إن عثمان انطلق فى حاجة الله وحاجة رسوله وإنى أُبَايع له** » .

فضرب له رسول الله ﷺ بسهم، ولم يضرب لأحد غاب غيره

رواه أبو داود من حديث ابن عمر، ورجاله ثقات[٤].

وقد استدل بهذا الحديث على أنه يسهم الإمام لمن كان غائبا فى حاجة له بعثه لقضائها[٥]، وأما من كان غائبا عن القتال لا لحاجة للإمام وجاء بعد الوقعة فذهب الشافعى ومالك والأوزاعى والثورى والليث إلى أنه لا يسهم له، وذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أنه يسهم لمن حضر قبل إحرازها إلى دار الإسلام..

الجهاد والغنائم :

ومع أن غاية الجهاد قد تحددت معالمها، وتبين منها أنه جهاد لله، وفى سبيل أهداف تخص دعوة الله ودينه ومنهجه للحياة..

---

(١) البخارى: ٥٦ ـ الجهاد(٢٨٩٦). (٢) النسائى : ٦: ٤٥.

(٣) أبو داود (٢٧٥٠) وصححه ابن حبان (١٦٧٢) وله شاهد من حديث عبادةبن الصامت عند أحمد : ٥: ٣١٩، ٣٢٠، وابن ماجة (٢٨٥٢)، والترمذى (١٥٦١)

(٤) أبو داود (٢٧٢٦). (٥) عون المعبود : ٧: ٣٩٨.

ومع أن ملكية الغنائم التى تتخلف عن هذا الجهاد قد بت فى أمرها، فردت إلى الله والرسول وجرد منها المجاهدون، لتخلص نيتهم وحركتهم لله :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

مع هذا وذاك (٢)، فإن المنهج القرآنى الربانى يواجه الواقع الفعلى بالأحكام المنظمة له.. فهناك غنائم، وهناك محاربون..

وهؤلاء المحاربون يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم : هم يتطوعون للجهاد ، وهم يجهزون أنفسهم على نفقتهم الخاصة ، وهم يجهزون غيرهم من المجاهدين الذين لا يجدون ما ينفقون..

ثم هم يغنمون من المعركة غنائم، يغنمونها بصبرهم وثباتهم وبلائهم فى الجهاد..

ولقد خلص الحق نفوسهم وقلوبهم من أن يكون فيها شىء يحيك من شأن هذه الغنائم، فرد ملكيتها ابتداء لله ورسوله..

وهكذا لم يعد من بأس فى إعطائهم نصيبهم من هذه الغنائم - وهم يشعرون أنهم إنما يعطيهم الله ورسوله - فيلبى هذا الإعطاء حاجتهم الواقعية، ومشاعرهم البشرية، دون أن ينشأ عنه محظور من التكالب عليه، والتنازع فيه، بعد ذلك الحسم الذى جاء فى قوله تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

إنه منهج الله الذى يعلم طبيعة البشر، ويعاملهم بهذا المنهج المتوازن المتكامل، الذى يلبى حاجات الواقع، كما يلبى مشاعر البشر، وفى الوقت ذاته يتقى فساد الضمائر وفساد المجتمع، من أجل تلك المغانم..

---

(١) الأنفال: ٤١. (٢) فى ظلال القرآن: ٣: ١٥١٨ وما بعدها بتصرف. (٣) الأنفال : ١.

وبين الروايات المأثورة والآراء الفقهية خلاف طويل حول مدلول « الغنائم» ومدلول «الأنفال » مما يطول الحديث فيه..

وإن موضوع الغنائم بجملته ليس واقعا إسلاميا يواجهنا اليوم أصلا. فنحن اليوم لسنا أمام قضية واقعة، فقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية أول مرة، ورجع الناس إلى الجاهلية التى كانوا عليها.. فأشركوا مع الله أربابا أخرى تصرف حياتهم بشرائعها البشرية! ولقد عاد هذا الدين أدراجه ليدعوا الناس من جديد إلى الدخول فيه.. إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.. إلى إفراد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية والسلطان..

هذه هى القضية الحية الواقعية التى تواجه اليوم هذا الدين، وليس هناك - فى البدء - قضية أخرى سواها .. ليس هناك قضية غنائم، لأنه ليس هناك قضية جهاد!

ومنذ متى كانت قضية الغنائم من سمات المجتمع الإسلامى؟!

ها هم اليهود الذين لعنهم الله فى كتابه، وضرب عليهم الذلة والمسكنة يعيشون وسط المجتمع الإسلامى، ويصولون ويجولون!

وحسبنا أن نتبع الأصل الإيمانى فى السياق التاريخى الحركى، والمنهج القرآنى التربوى، فهذا هوالعنصر الثابت، الذى لا يتأثر بالزمن، وكل ما عداه تبع له وقائم عليه.

وحسبنا - كذلك - أن نتذكر هدى النبى ﷺ فى تقسيم الغنائم، عسى أن نعيش عصر النصر على اليهود، ونبصر هذا الحكم واقعا عمليا..

لقد نزع الله ملكية الغنيمة ممن يجمعونها فى المعركة، وردها إلى الله والرسول، ليخلص الأمر كله لله والرسول، وليتجرد المجاهدون من كل ملابسة من ملابسات الأرض، وليسلموا أمرهم كله - أوله وآخره - لله ربهم وللرسول قائدهم، وليخوضوا المعركة لله فى سبيل الله، وتحت راية الحق، طاعة لله، يحكّمونه فى أرواحهم، ويحكّمونه فى أموالهم، ويحكمونه فى أمرهم كله بلا تعقيب ولا اعتراض. فهذا هو الإيمان:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

حتى إذا استسلموا لأمر الله، وارتضوا حكمه ذاك، فاستقر فيهم مدلول الإيمان..

عاد ليرد عليهم أربعة أخماس الغنيمة، ويستبقي الخمس على الأصل ـ لله والرسول ـ يتصرف فيه رسول الله ﷺ، وينفق منه على من يعولهم في الجماعة المسلمة من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل..

عاد ليرد عليهم الأخماس الأربعة، وقد استقر في نفوسهم أنهم لا يملكونها ابتداء بحق الغزو والفتح، فهم إنما يغزون ويفتحون لدين الله، إنما هم يستحقونها بمنح الله لهم إياها، كما أنه هو الذى يمنحهم النصر من عنده، ويدبر أمر المعركة وأمرهم كله..

وعاد كذلك ليذكرهم بأن الاستسلام لهذا الأمر الجديد هو الإيمان.. هو شرط الإيمان، وهو مقتضى الإيمان :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

وهكذا تتواتر النصوص، لتقرر أصلا واضحا جازما من أصول هذا الدين، في اعتبار مدلول الإيمان وحقيقته وشرطه ومقتضاه..

ثم نقف أمام وصف الله سبحانه لرسوله ﷺ بقوله: «عبدنا» في هذا الموضع الذى يرد إليه فيه أمر الغنائم كلها ابتداء، وأمر الخمس المتبقى أخيرا..

﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ ﴾

إنه وصف موح.. إن العبودية لله هي حقيقة الإيمان، وهي في الوقت ذاته أعلى مقام للإنسان يبلغ إليه بتكريم الله له، فهي تجلى وتذكر في المقام الذى يوكل فيه إلى رسول الله ﷺ التبليغ عن الله، كما يوكل إليه في التصرف عما خوله الله.

وإنه لكذلك في واقع الحياة!

إنه لكذلك مقام كريم.. أكرم مقام يرتفع إليه الإنسان..

إن العبودية لله وحده هي العاصم من العبودية للهوى، والعاصم من العبودية للعباد.. وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدر له، إلا حين يعتصم من العبودية لهواه، كما يعتصم من العبودية لسواه.

إن الذين يستنكفون أن يكونوا عبيدا لله وحده، يقعون من فورهم ضحايا لأحط العبوديات الأخرى! يقعون من فورهم عبيدا لهواهم وشهواتهم ونزواتهم ودفعاتهم! فيفقدون من فورهم إرادتهم الضابطة التى خص الله بها نوع« الإنسان » من بين سائر الأنواع، وينحدرون فى سلم الدواب، فإذا هم شر الدواب، وإذا هم كالأنعام بل هم أضل، وإذا هم أسفل سافلين بعد أن كانوا ــ كما خلقهم الله ـ فى أحسن تقويم.

كذلك يقع الذين يستنكفون أن يكونوا عبيدا لله فى شر العبوديات الأخرى وأحطها.. يقعون فى عبودية العبيد من أمثالهم، يصرفون حياتهم وفق هواهم، ووفق ما يبدو لهم من نظريات واتجاهات قصيرة النظر، مشوبة بحب الاستعلاء، كما هى مشوبة بالجهل والنقص والهوى!

ويقعون فى عبودية « الحتميات » التى يقال لهم: إنه لا قبل لهم بها، وإنه لا بد من أن يخضعوا لها ولا يناقشوها : –

« حتمية التاريخ »!

و« حتمية الاقتصاد»!

و« حتمية التطور »!

وسائر الحتميات المادية التى تمرغ جبين « الإنسان» فى الرغام، وهو لا يملك أن يرفعه، ولا أن يناقش ـ فى عبوديته البائسة الذليلة ــ هذه الحتميات المذلة المخيفة!

أما الحديث عن « يوم الفرقان » فهو حديث عن يوم بدر، حيث كانت غزوة بدر فرقانا بين الحق والباطل.. وفرقانا بمعنى أشمل وأوسع وأدق وأعمق كثيرا.. وفرقانا فى منهج هذا الدين ذاته، تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقته فى حس المسلمين أنفسهم.. وإنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته، حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع فى نفوس الكثيرين! حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين.

رسول الله يصطفى ريحانة :

ونعود للحديث عن آثار هذه الغزوة، فنجد أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قد

اصطفى لنفسه ريحانة بنت شمعون بن زيد، قال ابن حجر: (١) قيل: زيد بن عمرو بن قنافة ــ بالقاف ــ أو خناقة ــ بالخاء المعجمة ــ من بنى النضير.. وقال ابن إسحاق: من بنى عمرو بن قريظة، وقال ابن سعد: ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خناقة بن شمعون بن زيد، من بني النضير، وكانت متزوجة رجلا من بنى قريظة، يقال له: الحكم، ثم روى ذلك عن الواقدى. قال ابن إسحاق في الكبرى: كان رسول الله ﷺ سباها، فأبت إلا اليهودية، فوجد رسول الله ﷺ فى نفسه، فبينما هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه، فقال: «هذا ثعلبة بن شعبة يبشرنى بإسلام ريحانة» فبشره، وعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها، ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يارسول الله! بل تتركنى فى ملكك، فهو أخف على وعليك، فتركها، وماتت قبل وفاة رسول الله ﷺ بستة عشر، وقيل: لما رجع عن حجة الوداع.

وأخرج ابن سعد عن الواقدى بسند له عن عمر بن الحكم قال: كانت ريحانة عند زوج لها يحبها، وكانت ذات جمال، فلما سبيت بنى قريظة عرض السبى على النبى ﷺ فعزلها، ثم أرسل إلى بيت أم المنذر بنت قيس، حتى قتل الأسرى، وفرق السبى، فدخل إليها، فاختبأت منه حياء، قالت: فدعانى فأجلسنى بين يديه، وخيرنى فاخترت الله ورسوله، فأعتقنى وتزوج بى، فلم تزل عنده حتى ماتت، وكان يستكثر منها ويعطيها ماتسأله، وماتت مرجعه من الحج، ودفنها بالبقيع.

وقال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثنى صالح بن جعفر، عن محمد بن كعب، قال: كانت ريحانة مما أفاء الله على رسوله، وكانت جميلة وسيمة، فلما قتل زوجها وقعت فى السبى، فخيرها رسول الله ﷺ، فاختارت الإسلام، فأعتقها وتزوجها،وضرب عليها الحجاب، فغارت عليه غيرة شديدة فطلقها، فشق عليها وأكثرت البكاء، فراجعها، فكانت عنده حتى ماتت قبل وفاته .

وأخرج من طريق الزهرى أنه لما طلقها كانت فى أهلها، فقالت : لايرانى أحدٌ بعده. قال الواقدى: وهذا وهم فإنها توفيت عنده، وذكر محمد بن الحسن فى أخبار المدينة عن الدراوردى عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعد أن رسول الله ﷺ خلا فى منزل من دار

(١) الإصابة: ٨: ٨٧ ــ ٨٨ بتصرف.

قيس بن قهد، وكانت ريحانة القرظية زوج النبى ﷺ سكنه، وقال أبو موسى: ذكرها ابن منده فى ترجمة مارية، ولم يفردها بترجمة، وقيل: اسمها «ربيحة» بالتصغير.

قال ابن حجر: بل أفردها، فإنه قال ما هذا نصه بعد ذكر الأزواج الحرائر: وسبى جويرية فى غزوة المريسع، وهى ابنة الحارث بن أبى ضرار، وسبى صفية بنت حيى بن أخطب من بنى النضير، وكانت مما أفاء الله عليه، فقسم لهما.. ثم قال: واستسرى ريحانة من بني قريظة، ثم أعتقها فلحقت بأهلها، واحتجبت وهى عند أهلها، وهذه فائدة جليلة أغفلها ابن الأثير.

وأخرج ابن سعد عن الواقدى من عدة طرق أنه ﷺ تزوجها وضرب عليها الحجاب، ثم قال: وهذا الأثر عند أهل العلم، وسمعت من يروى أنه كان يطؤها بملك اليمين.

وأورد ابن سعد من طريق أيوب بن بشر المغافرى أنها خيرت، فقالت: يارسول الله! أكون فى ملكك، فهو أخف على وعليك، فكانت فى ملكه يطأها إلى أن ماتت [(١)].

قتل أبى رافع:

وكان أبو رافع ممن ألب الأحزاب على رسول الله ﷺ، ولم يقتل مع بنى قريظة، كما قتل صاحبه حيى بن أخطب [(٢)]، ورغبت الخزرج فى قتله مساواة للأوس فى قتل كعب بن الأشرف، طاغوت اليهود ـ كما سبق فى غزوة بنى قينقاع ـ وكان الله سبحانه وتعالى قد جعل هذين الحيين يتصاولان بين يدى رسول الله ﷺ فى الخيرات، فاستأذنوه فى قتله، فأذن لهم.

قال البخارى: [(٣)] باب قتل أبى رافع عبد الله بن أبى الحقيق، ويقال سلام بن أبى الحقيق، كان بخيبر، و يقال فى حصن له بأرض الحجاز. وقال الزهرى: هو بعد كعب بن الأشرف. وروى البخارى عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ رهطا إلى أبى رافع، فدخل عليه عبد الله بن عتيك بيته ليلا وهو نائم فقتله.

وفى رواية قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبى رافع اليهودى رجالا من الأنصار، فأمر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذى رسول الله ﷺ، ويعين عليه، وكان فى

---

(١) انظر: عيون الأثر: ٢: ٧٥، ٣٠٦، والمواهب: ٢: ١٣٧، وزاد المعاد: ١: ١١٣.

(٢) زاد المعاد: ٣: ٢٧٥.

(٣) البخارى: ٦٤ ـ المغازى ١٦ باب قتل أبى رافع.

حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه ـ وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم ـ (١) فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلى أن أدخل فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه، كأنه يقضى حاجة، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإنى أريد أن أغلق الباب، فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق على ود. (٢) قال: فقمت إلى الأقاليد (٣) فأخذتها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان فى علالى له (٤)، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت على من داخل. قلت: إن القوم نذروا بى، (٥) لم يخلصوا إلى حتى أقتله فانتهيت إليه فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله، لا أدرى أين هو من البيت، فقلت أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت، فأضربه ضربة بالسيف، وأنا دهش، فما أغنيت شيئا، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه، فقلت ما هذا الصوت ياأبا رافع؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلا فى البيت ضربنى قبل بالسيف، قال: فأضربه ضربة أثخنته، ولم أقتله، ثم وضعت ضبيب (٦) السيف فى بطنه، حتى أخذ فى ظهره، فعرفت أنى قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا، حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلى، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت فى ليلة مقمرة، فانكسرت ساقى، فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت لا أخرج الليلة حتى أعلم: أقتلته؟ فلما صاح الديك: قام الناعى على السور فقال: أنعى (٧) . أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابى، فقلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبى ﷺ فحدثته، فقال لى:

---

(١) أى رجعوا بمواشيهم التى ترعى وسرح بفتح المهملة وسكون الراء بعدها مهملة هى السائمة من إبل وبقر وغنم. فتح البارى: ٧: ٤٤٣.

(٢) الأغاليق جمع غلق بفتح أوله: مايغلق به الباب، والمراد بها المفاتيح، كأنه كان يغلق بها ويفتح بها، كذا فى رواية أبى ذر، وفى رواية غيره بالعين المهملة وهو المفتاح بلا أشكال، والود: بفتح الواو وتشديد الدال هو الوتد. المرجع السابق: ٣٤٤. (٣) الأقاليد جمع إقليد، وهو المفتاح.

(٤) العلالى بالمهملة جمع علّية بتشديد التحتانية، وهى الغرفة.

(٥) نذروا بكسر الذال المعجمة: أى علموا، وأصله من الإنذار، وهو الإعلام بالشىء الذى يحذر منه.

(٦) وزن رغيف، قال الخطابى هكذا يروى وما أراه محفوظا، وإنما هو ظبة السيف، وهو حرف حد السيف، ويجمع على ظبات، قال: والضبيب لا معنى له هنا، لأنه سيلان الدم من الفم، قال عياض: هو فى رواية أبى ذر بالصاد المهملة، وكذا ذكره الحربى، وقال: أظنه طرفه، وفى رواية غير أبى ذر بالمعجمة، وهو طرف السيف.

(٧) كذا ثبت فى الروايات بفتح العين، قال ابن التين: هى لغة، والمشهور: انعوا: والنعى: خبر الموت، والاسم الناعى. وذكر الأصمعى أن العرب كانوا إذا مات فيهم الكبير ركب راكب فرسا وسار فقال: نعي فلان.

« **ابسط رجلك** » .

فبسط رجلي فمسحها، فكأنها لم أشتكها منها قط.

وفى رواية قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبى رافع عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن عتبه، فى ناس معهم، فانطلقوا حتى دنوا من الحصن، فقال لهم عبد الله بن عتيك : امكثوا أنتم، حتى أنطلق أنا فأنظر، قال: فتلطفت أن أدخل الحصن، ففقدوا حمارا لهم، فخرجوا بقبس يطلبونه، قال: فخشيت أن أعرف، قال: فغطيت رأسى كأنى أقضى حاجة، ثم نادى صاحب الباب: من أراد أن يدخل فليدخل قبل أن أغلقه، فدخلت ثم اختبأت فى مربط حمار عند باب الحصن، فتعشوا عند أبى رافع، وتحدثوا حتى ذهبت ساعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم، فلما هدأت الأصوات، ولا أسمع حركة خرجت، قال: ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفتاح الحصن فى كوة فأخذته ففتحت باب الحصن، قال: قلت: إن نذر بى القوم انطلقت على مهل، ثم عمدت إلى أبواب بيوتهم،فغلقتها عليهم من ظاهر، ثم صعدت إلى أبى رافع فى سلم، فإذا، البيت مظلم قد طفئ سراجه، فلم أدر أين الرجل؟ فقلت: ياأبا رافع، قال: من هذا؟ قال: فعمدت نحو الصوت، فأضربه، وصاح، فلم تغن شيئا، قال: ثم جئت كأنى أغيثه، فقلت: مالك يا أبا رافع؟ وغيرت صوتى، فقال: ألا أعجبك؟ لأمك الويل، دخل على رجل فضربنى بالسيف، قال، فعمدت له أيضا، فأضربه أخرى، فلم تغن شيئا، فصاح، وقام أهله، قال: ثم جئت وغيرت صوتى كهيئة المغيث فإذا هو مستلق على ظهره، فأضع السيف فى بطنه، ثم أنكفئ عليه، حتى سمعت صوت العظم، ثم خرجت دهشا، حتى أتيت السلم، أريد أن أنزل، فأسقط منه، فانخلعت رجلى فعصبتها، ثم أتيت أصحابى أحجل، فقلت: انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ ، فإنى لأبرح حتى أسمع الناعية، فلما كان فى وجه الصبح صعد الناعية، فقال:أنعى أبا رافع، قال: فقمت أمشى ما بى قلبة، فأدركت أصحابى قبل أن يأتوا النبى ﷺ فبشرته (١) .

قال ابن حجر: (٢) قال ابن إسحاق: هو سلام ــ أى بتشديد اللام ــ قال: لما قتلت الأوس كعب بن الأشرف استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ فى قتل سلام بن أبى الحقيق،وهو بخيبر فأذن لهم قال: فحدثنى الزهرى عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: كان مما صنع الله لرسوله أن الأوس والخزرج كانا يتصاولان تصاول الفحلين، لا تصنع

---

(١) البخارى : ٦٤ ــ المغازى (٤٠٣٨، ٤٠٣٩، ٤٠٤٠) وانظر : ٥٦ ــ الجهاد (٣٠٢٢)، (٣٠٢٣) .

(٢) فتح البارى : ٧: ٣٤٢ وما بعدها بتصرف.

الأوس شيئا إلا قالت الخزرج: والله! لا تذهبون بهذه فضلا علينا، وكذلك الأوس، فلما أصابت الأوس كعب بن الأشرف تذاكرت الخزرج، من رجل له من العداوة لرسول الله ﷺ كما كان لكعب؟ فذكروا ابن أبى الحقيق، وهو بخيبر.

وقوله: « ويقال فى حصن له بأرض الحجاز» وهو قول وقع فى سياق الحديث الموصول السابق، ويحتمل أن يكون حصنه كان قريبا من خيبر فى طرف أرض الحجاز.

ووقع عند موسى بن عقبه: «فطرقوا أبا رافع بن أبى الحقيق بخيبر، فقتلوه فى بيته»

قول الزهرى: «هو بعد كعب بن الأشرف» وصله يعقوب بن سفيان فى تاريخه عن حجاج بن أبى منيع عن جده عن الزهرى.

قال ابن سعد: [١] سرية عبد الله بن عتيك إلى أبى رافع سلام بن أبى الحقيق النضرى بخيبر فى شهر رمضان سنة ستة من مهاجر رسول الله ﷺ .

وقيل: [٢] فى ذى الحجة سنة خمس، وقيل فيها سنة أربع، وقيل فى رجب سنة ثلاث.

قال ابن حجر: وفى هذا الحديث من الفوائد: [٣]

١ ــ جواز اغتيال المشرك الذى بلغته الدعوة وأصر.

٢ ــ وقتل من أعان على رسول الله ﷺ بيده أو ماله أو لسانه.

٣ ــ وجواز التجسيس على أهل الحرب وتطلب غرتهم.

٤ ــ والأخذ بالشدة فى محاربة المشركين.

٥ ــ وجواز إبهام القول للمصلحة.

٦ ــ وتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين.

٧ ــ والحكم بالدليل والعلامة، لاستدلال ابن عتيك على أبى رافع بصوته، واعتماده على صوت الناعى بموته.

---

(١) الطبقات الكبرى: ٢: ٩١ (٢) فتح البارى: ٧:٣٤٢ (٣) المرجع السابق: ٣٤٥.

قول حسـان :

وهنانذكر قول حسـان بن ثابت وهو يذكر قتـل أبى الحقـيق، وكعـب بن الأشـرف: (١).

لله درّ عصـابـة لا قيتهـم .·. يا بن الحُقيق وأنت يا ابن الأشـرَف

يَسْـرُون بالبيض الدقاق إليكمُ .·. مَرَحاً كأُسْدٍ فى عرينٍ مُغْـرِفِ (٢)

حتى أتوْكُمْ فى محلّ بلادكمْ .·. فسـقوكمُ حتفاً ببيضٍ قَـرْقَفِ (٣)

مُستبصِرين لنصر دين نبيِّهـم .·. مُسْتَصغِرين لكلّ أمرٍ مُجْحِفِ (٤)

شهيد يهتز له عرش الرحمن :

وإذا كنا قد ذكرنا دعاء سعد رضى الله عنه، فإن لنا أن نقف أمام قوله:

«فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم» فقد قال بعضهم:

لم يصب فى هذا الظن، لما وقع من الحروب فى الغزوات بعد ذلك، فيحمل على أنه دعا بذلك، فلم تقع الإجابة، وادخر له ماهو أفضل من ذلك.. (٥) أو أن سعدا أراد بوضع الحرب، أى فى تلك الغزوة الخاصة لافيما بعدها. وذكر ابن التين عن الداودى أن الضمير لقريظة، قال ابن التين: وهو بعيد جدا، لنصه على قريش...

قال ابن حجر: والذى يظهر لى أن ظن سعد كان مصيبا، وأن دعاءه فى هذه القصة كان مجابا، وذلك أنه لم يقع بين المسلمين وبين قريش من بعد وقعة الخندق حرب يكون ابتداء القصد فيها من المشركين، فإنه ﷺ تجهز إلى العمرة فصدوه عن دخول مكة، وكاد الحرب أن يقع بينهم فلم يقع، كما قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٦).

ثم وقعت الهدنة،واعتمر ﷺ من قابل، واستمر ذلك إلى أن نقضوا العهد ، فتوجه

---

(١) ديوان حسان بن ثابت الأنصارى: ١٥٩، وانظر: المواهب اللدنية: ٢: ١٧٠.

(٢) المغرف: أى الذى فى الغريف، و،هو الأجمة من البردى.

(٣)القرقف: الخمر التى ترعد شاربها، وأراد هنا بسيوف تصرعكم تصرع الخمر شاربها.

(٤) المجحف: الذاهب بالنفوس والأموال المرجع السابق.

(٥) فتح البارى : ٧: ٤١٤ بتصرف .

(٦) الفتح: ٢٤.

إليهم غازيا، ففتحت مكة، فعلى هذا المراد بقوله: «أظن أنك وضعت الحرب » أى أن يقصدونا محاربين، وهو كقوله ﷺ فى الحديث الماضى:

« **نغزوهم ولا يغزوننا** » .

وقد بين سبب انفجار جرح سعد في مرسل حميد بن هلال عند ابن سعد، ولفظه: أنه مرت به عنز وهو مضطجع، فأصاب ظلفها موضع الجرح فانفجر حتى مات.

ولمسلم من طريق عبدة عن هشام: (١) فانفجر من ليلته. فما زال يسيل حتى مات، وزاد فى الحديث قال: فذاك حين يقول الشاعر:

ألا ياسعدُ سعدَ بنى مُعاذٍ .·. فما فعلتْ قريظةُ والنضيرُ

لعمْرك إن سعدَ بنى معاذ .·. غداةَ تحمّلوا لهُوَ الصبورُ

تركتمْ قِدْركم لاشىء فيها .·. وقدْرُالقوم حامية تفُورُ

وقد قال الكريم أبو حُباب .·. أقيموا قَيْنقَاعُ ولا تسَيرُوا

وقد كانوا بِبَلْدَتهم ثِقَالا .·. كما ثَقُلَتْ بِمَيطَانَ (٢) الصُّخُورُ

وذكر ابن اسحاق قول حسان :

تفاقَدَ معشرٌ نصروا قريشا .·. وليس لهم ببلدتهم نصير

همُ أوتوا الكتاب فضيَّعُوه .·. فهمْ عمىٌ من التَّوْراة بُورُ

كفرتم بالقُرآن وقد أُتيتُمْ .·. بتصديقِ الذى قال النزيرُ

وهان على سَرَاة بنى لُؤَىّ .·. حريقٌ بالبوَيْرَة (٣) مستطيرُ (٤)

هذا هو سعد بن معاذ الذى قال فيه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فيما رواه الشيخان والترمذى عن أبى إسحاق قال: سمعت البراء بن عازب رضى الله عنه يقول: أهديت للنبى ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يمسونها ويعجبون من لينها فقال:

---

(١) مسلم: ٣٢ ـ الجهاد ٦٨ (ت ١٧٦٩) .

(٢) اسم جبل من أرض الحجاز فى ديار بنى مزينة: جامع الأصول : ٨: ٢٧٤ .

(٣) البويرة: موضع بنى قريظة.

(٤) ديوان حسان: ١١٠، وانظر: فتح البارى :٧: ١١٥ ـ ١١٦

« أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ خير منها وألين » [1] .

وفي رواية عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول :

« اهتز العرش لموت سعد بن معاذ » .

زاد البخارى: فقال رجل لجابر: فإن البراء يقول اهتز السرير فقال: إنه كان بين الحيين ضغائن، سمعت النبى ﷺ يقول:

« اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » .

وفى رواية لمسلم قال: قال رسول الله ﷺ ، وجنازة سعد بن معاذ بين أيديهم :

« اهتز لها عرش الرحمن » [2] .

قال الخطابى: إنما قال جابر ذلك، لأن سعد كان من الأوس، والبراء خزرجى والخزرج لا تقر للأوس بفضل، كذا قال ابن حجر: [3] وهو خطأ فاحش، فإن البراء أيضا أوسى، لأنه ابن عازب بن الحارث بن عدى بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج ابن عمرو بن مالك بن الأوس، يجتمع مع سعد بن معاذ فى الحارث بن الخزرج، والخزرج ولد الحارث بن الخزرج، وليس هو الخزرج الذى يقابل الأوس وإنما سمى على اسمه، نعم الذى من الخزرج الذين هم مقاتلو الأوس جابر، وإنما قال جابر ذلك إظهاراً للحق ، واعترافًا بالحق لأهله ، فكأنه تعجب من البراء كيف قال ذلك مع أنه أوسى، ثم قال: أنا وإن كنت خزرجيا، وكان بين الأوس والخزرج ما كان، لا يمنعنى ذلك أن أقول الحق ، فذكر الحديث. والعذر للبراء أنه لم يقصد تغطية فضل سعد بن معاذ، وإنما فهم ذلك فجزم به، هذا الذى يليق أن يظن به، وهو دال على عدم تعصبه.

ولما جزم الخطابى بما تقدم احتاج هو ومن تبعه إلى الاعتذار عما صدر من جابر فى حق البراء، وقالوا فى ذلك ما محصله: إن البراء معذور، لأنه لم يقصد ذلك على سبيل العداوة لسعد، وإنما فهم شيئا محتملا فحمل الحديث عليه.

والعذر لجابر أنه ظن أن البراء أراد الغض من سعد، فساغ له أن ينتصر له.

---

(١) البخارى: ٦٣ ـ مناقب الأنصار (٣٨٠٢)، ومسلم: ٤٤ ـ فضائل الصحابة ١٢٦ (٢٤٦٨)، والترمذى (٣٨٤٦) .

(٢) البخارى:٦٣ ـ مناقب الأنصار (٣٨٠٣)،ومسلم:٤٤ فضائل الصحابة١٢٣ (٢٤٦٦)، والترمذى (٣٨٤٧).

(٣) فتح البارى : ٧: ١٢٣ ـ ١٢٤ بتصرف.

وقد أنكر ابن عمر ما أنكره البراء فقال: إن العرش لا يهتز لأحد، ثم رجع عن ذلك، وجزم بأنه اهتز له عرش الرحمن، أخرج ذلك ابن حبان من طريق مجاهد عنه، والمراد باهتزاز العرش استبشاره وسروره بقدوم روحه، يقال لكل من فرح بقدوم قادم عليه اهتز له، ومنه اهتزت الأرض بالنبات، إذا خضرت وحسنت.. ثم ذكر حديث الترمذى بسند صحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، وذلك لحكمه فى بنى قريظة، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال:

« **إن الملائكة كانت تحمله** » (١) .

ورواه الحاكم عنه بسند صحيح، فقال :

« **لا ولكن الملائكة كانت تحمله** » (٢) .

وقيل: المراد باهتزاز العرش اهتزاز حملة العرش .. (٣) .

وقيل: هى علامة نصبها الله لموت من يموت من أوليائه، ليشعر ملائكته بفضله .

وقال الحربى: إذا عظموا الأمر نسبوه إلى عظيم، كما يقولون: قامت لموت فلان القيامة، وأظلمت الدنيا، ونحو ذلك، وفى هذه منقبة عظيمة لسعد.

وأما تأويل البراء على أنه أراد بالعرش السرير الذى حمل عليه فلا يستلزم ذلك فضلا له، لأنه يشركه فى ذلك كل ميت، إلا أنه يريد اهتز حملة السرير فرحا بقدومه على ربه فيتجه.

ثم قال: وقد جاء حديث اهتزاز العرش لسعد بن معاذ عن عشرة من الصحابة أو أكثر، وثبت فى الصحيحين، فلا معنى لإنكاره..

لك الله ياسعد..

لك الله ياشهيد..

لك الله يامن اهتز عرش الرحمن لموتك..

---

(١) الترمذى (٣٨٤٩) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) الحاكم: ٣: ٢٠٧ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

(٣) فتح البارى : ٧: ١٢٤ بتصرف.

لك الله يامن حملتك الملائكة..

ألا إن التاريخ الإنسانى، بطوله وعرضه، لم يشهد من الصدق والثبات، بعد الأنبياء والمرسلين، ماشهده فى أولئك الشهداء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه..

نعم، لم يشهد التاريخ الإنسانى، بطوله وعرضه، بعد الأنبياء والمرسلين، مؤمنين صادقين عقدوا عزمهم ونواياهم، على غاية تناهت فى الإجلال والإكبار، ثم نذروا لها حياتهم على نسق تناهى فى التضحية والعطاء والبذل والفداء، كما شهد فى أولئك الشهداء رضى الله عنهم.. حقا، لقد جاءوا والدنيا فى أوانهم المرتقب، ويومهم الموعود..

حين كانت الحياة تهيب بمن يجدد لقيمها الروحية شبابها وصوابها..

وحين كانت تهيب بمن يضع عن البشرية الرازحة أغلالها وأصفادها.. ويحرر وجودها ومصيرها..

وحين كانت تهيب بمن يستشرف للحضارة الإنسانية مطالع جديدة ورشيدة..

جاءوا دعاة تقاة..

جاءوا ناسكين عابدين..

جاءوا يحملون أعناقهم على أكفهم فى سبيل نصر دينهم وتبليغ دعوتهم..

يشيدون بالدين القيم عالما جديدا.. يهتز نضرة.. ويتألق عظمة.. ويتفوق اقتدارا..

ولكم الله ياشهداء الإسلام عبر التاريخ..

وألحقنا الله بكم فى مستقر رحمته إخوانًا على سرر متقابلين.. آمين.

نهاية المعركـــة:

ونعود إلى القرآن الكريم فنجده يختم الحديث عن هذا الحدث الضخم بعاقبته التى تصدق ظن المؤمنين بربهم، وضلال المنافقين والمرجفين وخطأ تصوراتهم ـ كما أسلفنا ـ وتثبت القيم الإيمانية بالنهاية الواقعية:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾[1].

وقد بدأت المعركة[2]، وسارت فى طريقها، وانتهت إلى نهايتها ـ كما عرفنا ـ وزمامها فى يد الحق، يصرفها كيف يشاء..

وأثبت النص القرآنى هذه الحقيقة بطريقة تعبيره. فأسند إلى الله تعالى إسنادا مباشرا كل ماتم من الأحداث والعواقب، تعقيبا لهذه الحقيقة، وتثبيتا لها فى القلوب، وإيضاحا للتصور الإسلامى الصحيح.

ولم تدر الدائرة على المشركين من قريش وغطفان وحدهم.. بل دارت كذلك على بنى قريظة حلفاء المشركين من يهود.

يقول ابن كثير[3]: قوله تعالى: «وأنزل الذين ظاهروهم» أى عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ«من أهل الكتاب» يعنى بنى قريظة من اليهود، من بعض أسباط بنى إسرائيل، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما طمعا فى اتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾[4].

فعليهم لعنة الله، وقوله تعالى «من صياصيهم» يعنى حصونهم، كذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والسدى وغيرهم من السلف، ومنه سمى صياصى البقر، وهى قرونها، لأنها أعلى شىء فيها «**وقذف فى قلوبهم الرعب**» وهو الخوف، لأنهم مالؤوا المشركين على حرب النبى ﷺ، وليس من يعلم كمن لايعلم، وأخافوا المسلمين، وراموا قتلهم، ليعزوا هم فى الدنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلب إليهم القتال[5]، لما انشمر المشركون، وراحوا بصفة المغبون، فكما راموا العز ذلوا، وأرادوا استئصال المسلمين

---

(١) الأحزاب: ٢٥ ـ ٢٧.

(٢) انظر فى ظلال القرآن: ٥: ٢٨٤٥.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣: ٤٧٨ بتصرف.

(٤) البقرة: ٨٩.

(٥) تفسير القاسمى: ١٣: ٤٨٤٥ ـ ٤٨٤٦ بتصرف.

فاستؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة، فصارت الجملة أن هذه هى الصفقة الخاسرة، ولهذا قال تعالى:

﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾

يعنى قتل الرجال المقاتلة، وسبى الذرارى والنساء..

وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة، ولم يبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها، وهم الذين كانوا السبب فى إثارة الأحزاب!

يا لله! ما أسوأ عاقبة الطيش! قد تكون الأمة مرتاحة البال، هادئة الخواطر، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح، فيجلب عليهم الشرور، ويشتتهم من ديارهم. وهذا ما حصل لليهود فى الحجاز، فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر، ولكن اليهود لم يوفوا بتلك العهود حسدا منهم وبغيا.فتم عليهم ماتم، سنة الله فى المفسدين..

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾

فهذا هو التعقيب المنتزع من الواقع[1]، وهو التعقيب الذى يرد الأمر كله إلى الله.

وقد مضى السياق فى عرض المعركة كلها ـ كما عرفنا ـ يرد الأمر كله إلى الله، ويسند الأفعال فيها إلى الله مباشرة، تثبيتا لهذه الحقيقة الكبيرة التى يثبتها الله فى قلوب المسلمين بالأحداث الواقعة، وبالقرآن بعد الأحداث، ليقوم عليها التصور الإسلامى فى النفوس.

وهكذا يتم استعراض ذلك الحادث الضخم. وقد اشتمل على السنن والقيم والتوجيهات والقواعد التى جاء القرآن الكريم ليقيمها فى قلوب الجماعة المسلمة وفى حياتها على السواء.

وهكذا تصبح الأحداث مادة للتربية، ويصبح القرآن الكريم دليلا للحياة وأحداثها، ولا تجاهها وتصوراتها.. وتستقر القيم، وتطمئن القلوب، بالابتلاء والقرآن سواء!

---

(١) فى ظلال القرآن: ٥: ٢٨٤٩ بتصرف.

أهـم المراجـع

١ ـ الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبان، علاء الدين الفارسى، تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٢م.

٢ ـ الأدب المفرد، للبخارى، ط السلفية بالقاهرة ١٣٧٥هـ.

٣ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة،لابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤ ـ البداية والنهاية، لابن كثير، بيروت، ط ثالثة ١٩٧٨م.

٥ ـ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير، ط دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى وشركاه.

٦ ـ تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل القرآن) لابن جرير الطبرى، البابى الحلبى، ط ثالثة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٧ ـ تفسير القاسمى (محاسن التأويل) للقاسمى، عيسى البابى الحلبى، ط أولى ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

٨ ـ تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت١٩٦٧م.

٩ ـ تهذيب سيرة ابن هشام، للأستاذ عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة،ط ثانية، القاهرة ١٩٦٤م.

١٠ ـ جامع الأصول فى أحاديث الرسول، لابن الأثير، تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، الملاح، ط أولى ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

١١ ـ جوامع السيرة النبوية، لابن حزم، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣م و ط ثانية، تراث الإسلام.

١٢ ـ ديوان حسان بن ثابت الأنصارى، دار صادر بيروت .

١٣ ـ الرسـول القائد ، للواء الركن محمـود شـيت خطاب ، دار الفكـر ، بيروت ، ط خامسة.

١٤ ـ الروض الأنف ، للسهيلى، ومعه السيرة النبوية، لابن هشام، دار المعرفة للطباعة والنشر ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

١٥ ـ زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم (فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم) للشنقيطى،ط مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع.

١٦ ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد، لابن القيم، تحقيق الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة المنار الإسلامية، ط أولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٧ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، ط دار الفكر العربى.

١٨ ـ سنن أبى داود، ط مصر التجارية الأولى و ط المدينة المنورة.

١٩ ـ سنن الترمذى (الجامع الصحيح) للترمذى، ط بولاق ١٢٩٢هـ ـ وط الهند وط الحلبى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٠ ـ سنن النسائى، بشرح جلال الدين السيوطى، وحاشية السندى، ط دار الكتاب العربى، بيروت.

٢١ ـ السيرة الحلبية(إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون) للحلبى، بيروت، المكتبة الإسلامية، دار إحياء التراث العربى، وبهامشه السيرة النبوية والآثار المحمدية،لأحمد زينى دحلان.

٢٢ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد،ط حجازى بالقاهرة وط الحلبى.

٢٣ ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٤ ـ صحيح مسلم، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٢٥ ـ صحيح مسلم، بشرح النووى، ط المصرية.

٢٦ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر.

٢٧ ـ طرح التثريب فى شرح التقريب، للعراقى وأبى زرعة، دار المعارف، سوريا.

٢٨ ـ عون المعبود: شرح سنن أبى داود، لابن قيم الجوزية، تحقيق الأستاذ عبد الرحمن عثمان، السلفية، ط ثانية ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٢٩ ـ عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، لابن سيد الناس، ومعه اقتباس الاقتباس لحل مشكلة سيرة ابن سيد الناس، لابن عبد الهادى، دار المعرفة بيروت.

٣٠ ـ غزوة بنى قريظة، للأستاذ محمد أحمد باشميل، دار الفكر، ط ثانية ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

٣١ ـ فتح البارى : شرح صحيح البخارى ، لابن حجر، الرياض الحديثة ، البطحاء ، الرياض.

٣٢ ـ الفصول فى (اختصار) سيرة الرسول، لابن كثير، دمشق، بيروت، مؤسسة علوم القرآن، دار القلم ١٩٨٠م وأيضا المدينة المنورة، مكتبة دارالتراث ١٩٨٣م.

٣٣ ـ فقه السيرة، للشيخ محمد الغزالى، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى، ط دار القلم، الثانية، دمشق ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٣٤ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمى،بتحرير العراقى وابن حجر، دار الكتاب العربى، بيروت، ط ثالثة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٣٥ ـ محمد رسول الله ﷺ، للأستاذ محمد الصادق عرجون، دار القلم، دمشق، ط أولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٣٦ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، وبذيله التلخيص، للذهبى،ط أولى حيدر آباد.

٣٧ ـ مسند أحمد، لأبى عبد الله أحمد بن حنبل، وبهامشه كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندى، ط الميمنية بمصر.

٣٨ ـ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، للهيثمى، تحقيق الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، بيروت، دار الكتب العلمية ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٨م.

٣٩ ـ المواهب اللدنية، للقسطلانى، مع شرح الزرقانى، وبهامشه زاد المعاد، لابن القيم، دار المعرفة،بيروت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٤٠ ـ الموطأ، لمالك بن أنس، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.

٤١ ـ ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، للذهبى، عيسى البابى، تحقيق الأستاذ على محمد البجاوى، ط أولى ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م.

ـ وهناك كتب ومطبوعات أخرى رجعنا إليها، وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

الفهـــــــرس

الموضوع | **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

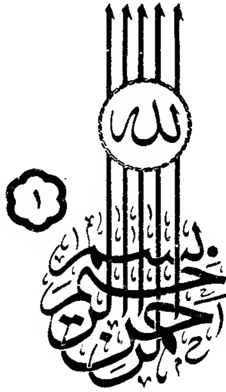
الموضوع	الصفحة

الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(٧)

القضاء على اليهود عسكرياً

تأليف
الدكتور سعد المرصفي

مكتبة المنار الإسلامية



ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

القضاء على اليهود

عسكرياً

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مكتبة المنار الإسلامية
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية



AL-MANAR ISLAMIC BOOK SHOP
Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045
Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tel 2615045, Fax 2636854, PO Box 43099 Hawalli, Postal Code No 32045

مقدمة

كان يهود خيبر أقوى العناصر اليهودية المحاربة فى شبه جزيرة العرب .. ومع ذلك ظلوا على الحياد حيال ماحدث ليهود بنى قينقاع ! ثم بنى النضير!، وأخيرا بنى قريظة !، إلى أن نزل عليهم شيطان بنى النضير ـ حيي بن أخطب ـ منفيا هو وقومه من المدينة، حيث تحولت من منطقة حيادية إلى أخطر وكر تحاك فيه الدسائس، وترسم خطط التآمر على الرسالة والرسول ﷺ، تحت إشراف هؤلاء اليهود المنفيين !، ومن ثم أصبح وكر يهود خيبر يجمع كل الإمكانات الحربية والمالية فى خدمة أغراض العدوان على الرسالة والرسول !

وقد تحصّن هؤلاء اليهود داخل حصون كثيرة .. وفى الوقت نفسه كانوا على درجة كبيرة من كثرة العدد، ووفرة العتاد والعدة، بالإضافة إلى مناعة القلاع والحصون المشحونة بالمقاتلين الذين يفوقون المسلمين أضعافا مضاعفة، وكانت هناك رداءة الجو فى خيبر، بسبب كثرة المستنقعات التى جعلتها مستوطنا للحمى التى أثرت على قوى المسلمين !

ومن ثم كانت أطول معركة خاضها المسلمون مع اليهود فى حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ .. وفى الوقت ذاته كانت أخطر معركة، حيث لم يكن هناك من وجهة النظر العسكرية المجردة أى عامل مادى يتفوق به المسلمون على اليهود، فضلا عن أن الجيش الإسلامى هو المهاجم ، واليهودى هو المدافع، ومهمة المهاجم أشق من مهمة المدافع !

ومع كل هذا كانت المفاجأة التى أبطلت كل المقاييس العسكرية التقليدية، وأثبتت عمليا أن القوة الحربية مهما عظم شأنها ليست وحدها كافية لإحراز النصر، كما أثبتت أن انتصار المسلمين فى هذه المعركة يبصرنا بحقيقة وأهمية دور رسوخ العقيدة الصادقة فى نفس الجندى المقاتل ، وأن السير فى دروب الكفاح على هدى نور هذه العقيدة طريق النصر .

وهنا نبصر تجربة الاعتزاز بقوة الإيمان التي هى فى الحقيقة أكبر من قوة الواقع المادي المنظور .. وتلك لايصمد لها إلامن اكتمل إيمانهم، فاتصلت بالله قلوبهم، وأصبحت لهم موازين خاصة يستمدونها من واقع إيمانهم.. ومن ثم ترتقى الأمة الدرج الشاق، وماعليها،

مادامت قد بذلت كل الاستعدادات الممكنة ،فمهما يلاقوا من شدة، ومهما يواجهوا من ابتلاء، فهم أمام إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة ..

ومن هنا كان صلاح القلوب وثباتها على الحق طريقا إلى النصر .. ومن ثم كان القضاء على اليهود عسكريا..

وقدا اقتضت منهجية البحث أن يشتمل على الفصول التالية:

الفصل الأول : اليهود فى خيبر .

الفصل الثانى : فى الطريق إلى خيبر .

الفصل الثالث : الهزيمة العسكرية .

والله أسأل: التوفيق والسداد ؛

والعون والرشاد .؛

إنه سميع مجيب ؛

الكويت فى : غزة المحرم ١٤١٣ هـ
١ يوليــو ١٩٩٢م

سعد محمد محمد (المرصفى)

الفصل الأول

اليهود فى خيبر

تمهيد ـ متى جاء اليهود إلى خيبر ؟ ـ اليهود عنصر دخيل فى الجزيرة ـ قوة يهود خيبر ـ وكر للتآمر على المسلمين ـ وعد الله المسلمين بفتح خيبر ـ علاقة المجتمع المسلم بسائر المجتمعات ـ مقدمات المعاهدة ـ بناء إنسانى ينخر فيه سوس الفناء ـ طريق الدعوة ـ اليهود والمنافقون ـ الرسول ﷺ يمد يد المسالمة ـ أثر هذه السياسة ـ بشرى من الله ـ عدم قبول تجنيد المخلفين ـ حصون خيبر ـ المنافقون طابور خامس ـ استعداد اليهود للمواجهة.

تمهـيد :

تقع خيبر فى الشمال الشرقي للمدينة، وعلى بعد حوالى سبعين ميلا منها ،[1] وتشتمل على حصون ومزارع ونخل كثير .. وهى واحة واسعة ذات تربة خصبة وعيون ومياه غزيرة ..

متى جاء اليهود إلى خيبر ؟:

وقد اختلف المؤرخون حول تحديد الوقت الذى وُجد فيه اليهود فى خيبر[2] .

وقد جزم الدكتور جواد على الذى هو أكثر المؤرخين اعتناء بتاريخ العرب قبل الإسلام، بعدم صحة ماتناقله الإخباريون من أن الوجود اليهودى فى خيبر وكل أعالى الحجاز يرجع إلى أواخر عهد النبى موسى عليه السلام قائلا :[3] .

أما متى دخل اليهود منطقة يثرب، وكيف استقروا فى خيبر والمناطق الأخرى فعلم ذلك عند الله، وليس الذى يرويه أهل الأخبار عن إرسال موسى جيشا إلى الحجاز، واستقرار ذلك الجيش فى يثرب بعد فتكه بالعماليق، وبعد وفاة موسى، ثم مايذكرونه من هجرة داود مع سبط يهوذا، ثم عودته إلى إسرائيل ..[4] وأمثال هذا إلاقصصا من هذا النوع الذى ألفنا قراءته فى كتب أهل الأخبار، لاأستبعد أن يكون مصدره يهود تلك المنطقة ، أو من أسلم منهم، لإثبات أنهم ذوو نسب وحسب فى هذه الأرض قديم .. وأنهم كانوا ذوى بأس شديد، وأن تاريخهم فى هذه البقعة يمتد إلى أيام الأنبياء وابتداء إسرائيل ، وأنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين .

وسبق أن ذكرنا فى حديثنا عن هجرة اليهود إلى الجزيرة طرفا من هذا الخلاف، وأن الرأى القريب من الصواب هو أن تاريخ هجرة اليهود إلى الجزيرة كان بعد تدمير « أور شليم » الثانى على يد « تيطس » الرومانى ، وكان حلولهم بها من أهم أسبابه فرارهم من وجه الرومان، حتى ينجو من بطشهم وفتكهم بهم .

---

(١) فتح البارى : ٧ : ٤٦٤، والمواهب اللدنية : ٢ : ٢١٧، وغزوة خيبر : ٢٤ .

(٢) انظر : كتاب العبر، لابن خلدون : القسم الأول : المجلد الثانى : ٢ : ١٦٨ والأغانى: للأصبهانى : قصة اليهود : ١٩ ووفاء الوفاء للسمهودى : ١ : ١٥٦ وما بعدها .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٦ : ١٠ بتصرف .

(٤) انظر : وفاء الوفاء : ١ : ١٦٠ .

يقول الدكتور « إسرائيل ولفنسون » : [١] .

« بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠م التى انتهت. بخراب فلسطين، وتدمير هيكل بيت المقدس، وتشتت اليهود فى أصقاع العالم، قصدت جموع قصيرة من اليهود بلاد العرب، كما حدثنا بذلك المؤرخ اليهودى « يوسيفوس » الذى شهد تلك الحروب، وكان قائد البعض وحداتها » .

ثم يقول : « وتؤيد المصادر العربية كل هذا : فقد ذكر صاحب الأغانى أنه لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعا بالشام فوطئوهم وقتلوهم، ونكحوا نساءهم، خرج بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو بهدل، هاربين منهم إلى من بالحجاز من بنى إسرائيل لـمّا غلبتهم الروم على الشام، فلما فصلوا عنها بأهليهم بعث ملك الروم فى طلبهم ليردهم فأعجزوه، وكان مابين الشام والحجاز مغاوز وصحارى لانبات فيها ولاماء ، فلما طلب الروم التمر انقطعت أعناقهم عطشا فماتوا، وسمى الموضع « تمر الروم » فهو اسمه إلى اليوم ».

ويرجح الدكتور جواد على ـ أيضا ـ أن هجرة اليهود إلى الجزيرة كانت بعد غزو الرومان لهم فيقول : [٢] .

« أما ما ورد فى روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالى الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام، وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم، مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم، فإنه يستند إلى أساس تاريخى صحيح.، فالذى نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج، فلا يستبعد أن يكون يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين ».

اليهود عنصر دخيل فى الجزيرة :

وسواء قلنا بهذا أو بذاك فإن المجمع عليه عند جميع المؤرخين ـ إسلاميين وغير إسلاميين ـ أن اليهود فى خيبر والمدينة وباقى المناطق هم أجانب دخلاء.، لاتربطهم بأى من سكان هذه المناطق فى جزيرة العرب أية رابطة من لغة أودين أودم ، ـ كما يقول الأستاذ باشميل ـ [٣] وإنما هم لاجئون سيطروا على خيبر وباقى المناطق فى غفلة من

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب: ٩.
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦ : ١٠.
(٣) غزوة خيبر: ٣٤ وما بعدها بتصرف.

الزمن، وفى وقت كان العرب الوثنيون فيه تمزقهم روح الجاهلية القبلية الضيقة، التى ساهم وجودها وتحكمها فى المجتمع العربى .. فى التمكين لهؤلاء اليهود الدخلاء فى هذه المناطق من جزيرة العرب .. الذين زادوا المجتمعات العربية فسادا على فساد، كما هى طبيعة العنصر اليهودى الذى لايكون له نفوذ فى أرض إلا وأشاع فيها الفساد، وبذر بذور الشحناء، وأشعل نيران التفرقة والتخاصم بين أهلها !

وقد ظل العنصر اليهودى الدخيل هذا شأنه منذ استوطن خيبر، وباقى الأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية، حتى اقتلع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ جذور هذا العنصر نهائيا بالعمليات الحربية التى قام بها فى خيبر ، وغيرها من المناطق الأخرى التى كانت واقعة تحت سلطان هؤلاء اليهود .

قوة يهود خيبر :

وشىء يجب ألايغيب عن بال المؤرخ ، وهو أن يهود خيبر كانوا ــ عبر العصور ــ بالإضافة إلى تفوقهم على جميع اليهود من ناحية القوة .. كانوا متماسكين فيما بينهم .. عكس اليهود الآخرين الذين لم ينجوا من آفات الاختلافات ... بل والاقتتال فيما بينهم ــ كما هو شأن اليهود غالبا ــ لأن قلوبهم شتى .. كما أن يهود خيبر لم ينشب بينهم وبين جيرانهم العرب الوثنيين نزاع مسلح، مما ساهم فى جعلهم أقوى قوة يهودية دخيلة فى بلاد العرب !

فإذا كان اليهود فى المدينة ــ كما أسلفنا ــ لم يسلموا من نشوب حرب أهلية قبلية فيما بينهم ، فرّقت جمعهم، وصدّعت كيانهم، كما حدث بين يهود بنى قينقاع وبنى النضير من تخاصم وتقاتل وعداء شديد، ظل أثره باقيا بينهما، حتى بعد ظهور الإسلام ومخاصمة الفريقين له .

إذا كان اليهود فى المدينة قد تعرضوا لهذه الانشقاقات، وتلك الاصطدامات الدامية، فيما بينهم عبر وجودهم فى المدينة، فإن يهود خيبر لم يرو أحد من المؤرخين ــ فيما أعلم ــ أنهم تعرضوا منذ وطئت أقدامهم منطقة خيبر، لشىء مما تعرض له اليهود فى المدينة من اختلافات شديدة، واصطدامات دامية .

الأمر الذى جعل يهود خيبر طيلة وجودهم في هذه المنطقة متحدين لم تبدد شيئا من طاقاتهم العسكرية أو وحدتهم السياسية حروب أهلية، أو نزاعات قبلية، كما هو الحال بالنسبة لليهود فى المدينة .

وإذا كان اليهود فى المدينة قد تعرضوا فى الفترة التى مرت على وجودهم قبل الرسالة والرسول ، لضربات عسكرية من جيرانهم العرب، كادت تقتلع وجودهم، وتهدم كيانهم .. كما حدث لهم فى أوائل القرن الأول الميلادى على أيدى المهاجرين اليمانيين من منطقة «مأرب» ـ الأوس والخزرج، الذين منذ استقرارهم فى المدينة ظلوا ينازعون هؤلاء اليهود السلطان، لاستئثارهم بالمناطق الزراعية الخصبة دونهم .. ولنظرة هؤلاء اليمانيين إلى هؤلاء اليهود كعنصر أجنبى دخيل على بلاد العرب الأمر الذي ساعد على إشعال نار المقت فى نفوس اليمانيين، حتى تمكنوا من خضد شوكتهم، بمساعدة إخوتهم الغساسنة اليمانيين الذى خفُّوا لنجدتهم من الشام . ثم من قهرهم نهائيا بقيادة مالك بن العجلان الذى وضع حدا قبل الإسلام لسطان هؤلاء اليهود المطلق على المدينة.

فقد ذكر هؤلاء المؤرخون أن الضربة العنيفة التى أنزلها الأوس والخزرج باليهود بقيادة سيد الأوس والخزرج مالك بن العجلان قبل الإسلام بعدة قرون، كادت تستأصل شأفة العنصر اليهودى الدخيل على الجزيرة العربية، لولا أن زعماء اليهود ـ كعادتهم دائما ـ انحنوا للعاصفة وخضعوا وسلموا بالهزيمة .. ثم لكى ينجوا من الهلاك قبلوا الانضواء بالحِلْف تحت لواء مختلف القبائل المنتصرة عليهم .. فاندمجوا فيهم، وبذلك ضمنوا سلامة أجسادهم وممتلكاتهم، ولكن على حساب التسليم بهدم سلطانهم السياسى والعسكرى الذى كان سائدا !

وهكذا فإن هؤلاء اليهود إذا كانت الهزات العنيفة التى زلزلت سلطانهم ومزقت وحدتهم ، سواء بسبب تعرضهم لهجمات المهاجرين اليمانيين الضاربة، أو بسبب النزاعات القبلية المسلحة التي نشبت بين اليهود أنفسهم قبل ظهور الإسلام بعدة قرون، فإن يهود خيبر ظلوا طيلة وجودهم بمنجاة عن مثل هذه الهزات الخطيرة التى ذهبت بسلطان اليهود فى المدينة .

الأمر الذى أبقى على وحدة يهود خيبر وتماسكهم . وذلك دون ماشك من أعظم أسباب تفوقهم فى القوة والمنعة والشجاعة على جميع العناصر اليهودية الدخيلة المبعثرة فى ذلك الركن من جزيرة العرب .

فالمؤرخون مجمعون على أن يهود خيبر أشجع وأقوى العناصر اليهودية المحاربة في جزيرة العرب، دون ماستثناء .

ولعل أكبر دليل على صحة هذا القول ، هو أن اليهود فى المدينة ـ بالرغم من كونهم أكثر عددا وأوسع ثراء من يهود خيبر ـ فإنهم قد جبنوا عن مواجهة المسلمين فى أية معركة فاصلة ـ كما أسلفنا ـ إذ فضّلوا الاستسلام، ثم النفى ، على خوض أية معركة فاصلة، عندما وصلوا فى عدائهم للمسلمين إلى درجة النزاع المسلح، كما حدث لبنى قينقاع، ثم بني النضير ، وأخيرا بنى قريظة !

وكر للتآمر على المسلمين :

وظل يهود خيبر على الحياد حيال النزاع المسلح إلى أن نزل عليهم شيطان بنى النضير ـ حيى بن أخطب ـ منفيا هو وقومه من المدينة ـ كما عرفنا ـ فى السنة الرابعة من الهجرة.

ففى هذه السنة طرأ تحول خطير على موقف الحياد الذين كانت خيبر تلتزمه إزاء تلك النزاعات المسلحة التي نشبت عبر العصور بين المشركين وبين يهود يثرب قبل الإسلام ، ثم بين هؤلاء اليهود وبين المسلمين بعد بزوغ شمس الإسلام .

فلم يكد بنو النضير بقيادة شيطانهم ـ حيى بن أخطب ـ ينزلون على خيبر، ويستقر بهم المقام فيها، حتى تحولت من منطقة حيادية إلى أخطر وكر تحاك فيه الدسائس ، وترسم خطط التآمر على الرسالة والرسول ﷺ تحت إشراف هؤلاء اليهود المنفيين من المدينة .

وسبق أن عرفنا موقف شيطان بنى النضير وقت إعدامه مع بنى قريظة، وقوله للرسول الحبيب المحبوب ﷺ :

أما والله مالمت نفسى فى عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل ، ثم أقبل على الناس، فقال : أيها الناس، إنه لابأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة على بنى إسرائيل ثم جلس فضربت عنقه ! (١) .

إنه الحقد اليهودى !

ومن ثم أصبح وكر يهود خيبر يجمع كل الإمكانات الحربية والمالية فى خدمة أغراض العدوان على الرسالة والرسول !

---

(١) الروض الأنف : ٣: ٢٧٠ .

وعد الله المسلمين بفتح خيبر :

وهنا نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢١ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (١)

نقرأ هذه الآيات لنبصر من خلالها وعد الله المسلمين بفتح خيبر كما روى ابن جرير عن مجاهد قال : عجل لكم خيبر . وعن قتادة : هى خيبر . وقال آخرون : بل عنى بذلك: الصلح الذى كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش . وروى عن مجاهد أيضا : المغانم الكثيرة التى وعدوا : ما يأخذونها إلى اليوم . قال ابن جرير: وعلى هذا التأويل يحتمل الكلام أن يكون مراد بالمغانم الثانية المغانم الأولى، ويكون معناه عند ذلك ، فأثابهم فتحا قريبا، ومغانم كثيرة يأخذونها، وعدكم الله أيها القوم هذه المغانم التي تأخذونها. وأنتم إليها واصلون عدة فجعل لكم الفتح القريب من فتح خيبر. ويحتمل أن تكون الثانية غير الأولى، وتكون الأولى من غنائم خيبر، والغنائم الثانية التى وعدهموها من غنائم سائر أهل الشرك سواهم. وقال آخرون : هذه المغانم التى وعد الله هؤلاء القوم هى مغانم خيبر .

وأولى الأقوال فى تأويل ذلك بالصواب ـ كما قال ابن جرير ـ ماقاله مجاهد ، وهو أن الذى أثابهم الله من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب المغانم الكثيرة من مغانم خيبر، وذلك أن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة، ولم يفتحوا فتحا أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها من فتح خيبر وغنائمها . (٢)

---

(١) الفتح : ١٨ ـ ٢٣ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٦ : ٨٩ ـ ٩٠ بتصرف ، وانظر : تفسير القاسمى : ١٥ : ٥٤١٨.

وعلى كل فإننا نقف مع هذه الآيات القرآنية التي تذكرنا بتلك المجموعة الفريدة السعيدة التي بايعت الرسول الحبيب المحبوب ﷺ تحت الشجرة .. تلك المجموعة الفريدة السعيدة التى سمعت قول الحق تبارك وتعالى :

﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

تلك المجموعة الفريدة السعيدة التى سمعت قول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فيما رواه الشيخان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية :

« أنتم خير أهل الأرض »

وكنا ألفاً وأربعمائة. ولو كنت أُبصر اليوم لرأيتكم مكان الشجرة.(١)

تلك المجموعة الفريدة السعيدة هى التى بشرها الحق تبارك وتعالى بما أعد لها من مغانم كثيرة وفتوح، فى مقدمتها خيبر، وماجاء بعد ذلك ، وما أحاطها به من رعاية وحماية فى هذه الرحلة، وفيما سيتلوها ، وفيما قدر لها من نصر موصول بسنته التى لاينالها التبديل أبدا.. وفى الوقت ذاته ينددد بأعدائها الذين كفروا تنديدا شديدا، ويكشف لها عن حكمته فى هذا الذى كان فى هذا العام .. ويؤكد لها صدق الرؤيا التى رآها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ عن دخول المسجد الحرام. وأن المسلمين سيدخلون آمنين لا يخافون. وأن دينه سيظهرعلى الدين كله فى الأرض جميعا، فى خيبر وغيرها، ولوكره أهل الكتاب والمشركون .

يقول صاحب الظلال: (٢) وإننى لأحاول اليوم من وراءِ ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التى شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوى الكريم من الله العلى العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة من المؤمنين ..

أحاول أن أستشرف صفحة الوجود فى تلك اللحظة وضميره المكنون، وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهى الكريم، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك فى بقعة معينة من هذا الوجود ..

---

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤١٥٤) ومسلم : ٣٣ ـ الإمارة ٧١ (ت١٨٥٦) .

(٢) فى ظلال القرآن : ٦: ٣٣٢٥ ومابعدها بتصرف .

وأحاول أن أستشعر بالذات شيئا من أولئك السعداء الذين يسمعون بآذانهم ، أنهم منهم، بأشخاصهم وأعيانهم، يقول الله عنهم : لقد رضى عنهم . ويحدد المكان الذى كانوا فيه، والهيئة التى كانوا عليها، حين استحقوا هذا الرضى :

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق، عن الله العظيم الجليل.

يا لله ! : كيف تلقوا ــ أولئك السعداء ــ تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهى؟

التبليغ الذى يشير إلى كل أحد ، فى ذات نفسه ، ويقول له : أنت. أنت بذاتك . يبلغك الله لقد رضي عنك . وأنت تبايع تحت الشجرة! وعلم ما فى نفسك . فأنزل السكينة عليك ! وأثابك فتحا قريبا ! ووعدك مغانم خيبر وغيرها !

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (1)

فيسعد . يقول في نفسه : ألست أطمع أن أكون داخلاً في هذا العموم ؟

ويقرأ أو يسمع :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (2)

فيطمئن . يقول فى نفسه: ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين ؟

وأولئك الرجال السعداء يسمعون ويبلغون. واحدا واحدا. أن الله يقصده بعينه وبذاته. ويبلغه : لقد رضى عنه ! وعلم ما فى نفسه. ورضى عما فى نفسه! وأثابه فتحا قريبا ! ووعده مغانم خيبر وغيرها !

يالله ! إنه أمر مهول !

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

---

(1) البقرة : ٢٥٧ .   (2) البقرة : ١٥٣ الأنفال : ٤٦ .

علم ما فى قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم . وعلم ما فى قلوبهم من الصدق فى بيعتهم . وعلم ما فى قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم، ليقفوا خلف كلمة الحق طائعين مسلمين صابرين .

﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ ﴾

بهذا التعبير الذى يرسم السكينة نازلة فى هدوء ووقار، تضفى على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة، بردا وسلاما وطمأنينة وارتياحا .

﴿ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾

وفتح خيبر ــ كما أسلفنا ــ هو هذا الفتح القريب الذى جعله الله للمسلمين ، وأولى الأقوال ــ كما قال ابن جرير ــ وهو أولى بالصواب ..

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ ﴾

إما مع الفتح إن كان المقصود هو فتح خيبر. وإما تاليا له، إن كان الفتح هو هذا الصلح، الذى تفرغ به المسلمون لفتوح شتى .. وتلك المعاهدة التى تمثل أساسا لسياسة علاقة المجتمع المسلم بسائر المجتمعات حربا وسلما ..

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾

وهو تعقيب مناسب للآيات قبله، ففى الرضى والفتح والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة، كما تتجلى الحكمة والتدبير .. وبهما يتحقق الوعد الإلهى الكريم ..

علاقة المجتمع المسلم بسائر المجتمعات :

وهنا أجدنى مضطراً إلى النظر بسرعة في قصة هذه المعاهدة التى تمثل أساسا لسياسة علاقة المجتمع المسلم بسائر المجتمعات البشرية حربا وسلما، وهى تصور ــ فى جملتها ــ جوانب من أهم منهج الرسالة الخالدة ــ كما يقول المرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون ــ (١) وهى جوانب تربوية اجتماعية، جعلها الإسلام خصائص مميزة لمجتمعه، من بين سائر المجتمعات البشرية فى الأرض .. حتى تتبين معالم علاقة المجتمع المسلم بهذه المجتمعات كلها، فى كل زمان ومكان، وجيل وقبيل ..

---

(١) محمد رسول الله: ٤: ٢٦١ وما بعدها بتصرف.

هذه المعاهدة تعد أساسا عمليا لتطبيق التشريع الإسلامى المتعلق بتحديد العلاقة فيما بين المسلمين وغيرهم من الطوائف والأمم والشعوب، وأساسا لكل مايتصل بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت مرارته وشدته، ومهما تكن آثاره وقسوته.

ذلك لأن النبى ﷺ، وهو رسول الله الذي بعثه لدعوة الناس كافة إلى الهدي ودين الحق، ليخرجهم به من ظلمات الكفرو والجهالة إلى نور الإيمان والعلم، هو الذى تولى بنفسه عقد هذه المعاهدة ورضي شروطها، وكان على علم بما فيها من تفاوت فى موازين عدالة المعاهدات، لم يُخدع فيها عن صواب الرأى، ولكنه أراد بتوفيق الله وتسديده أن يفتح للدعوة بابا سلميا تقف من ورائه خصومة تشتعل بين طرفيها حرب عصبية لا هواد فيها.

وهى حرب يتمثل فيها الإيمان بالحق فى أصدق صوره وأرسخها يحمل رايتها الإسلام والمسلمون بقيادة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ. وهى حرب يتمثل فيها الظلم والطغيان، والجهالة فى أبشع صورها يحمل رايتها الشرك والمشركون بقيادة جبابرة الطغاة البُغاة العتاة، من فجرة الوثنيين وطواغيت قريش.

والنبى ﷺ إذ يتولى بنفسه تطبيق مبدأ من أهم مبادئ السياسة الشرعية لأمته، إنما يرسم بنفسه طريق التأسى به لمن يتولى بعده أمرا من أمور الحياة فى مستقبل هذه الأمة.

وعمله ﷺ فى تطبيق المبادئ التشريعية هو الأصل الأول فى البناء التربوى للمجتمع الإسلامى، ومن ثم كان عقد هذه المعاهدة، والوفاء بشروطها، له الأهمية الكبرى فى تأسيس التشريع الإسلامى المحدد للعلاقة بين المسلمين وغيرهم من الأمم والجماعات.

وكان لهذه المعاهدة مقدمات كانت الطريق إلى الوصول إليها وكان لها آثار بعيدة المدى، عميقة الجذور فى تاريخ المد الإسلامى وانتشار الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته.

فأما آثارها فتتمثل فى أحداث التاريخ، وفى سياسة الفتوحات التى جاءت متتابعة بعد توقيعها.. ومنها فتح خيبر والقضاء على اليهود عسكريا، وما جاء بعد ذلك من فتوح.

مقدمات المعاهدة:

وأما مقدماتها فلم تكن تؤذن بوقوعها على صورتها التى وقعت بها ولذلك كان وقع المفاجأة بها قاسيا شديدا على نفوس المسلمين، وهذه المقدمات بعضها بعيد، وبعضها قريب، ولكنها متصله الحلقات، متسلسلة الوقائع.

فالنبى ﷺ من عند الله، ختم الله به الرسالات الإلهية، ورسالته هى رسالة الإسلام، والإسلام ثورة إصلاحية نيط بها تغيير جذرى فى بناء المجتمع البشرى ، وإصلاح مافسد فى أممه وشعوبه فكريا، وسياسيا، واجتماعيا، وروحيا، وكان المجتمع الذي نبتت فيه هذه الأمة الإسلامية مجتمعا مريضا، أسقمه المرض إلى حد جعل كيانه الاجتماعى والروحى كيانا متهاويا،لايتماسك فى عقيـدة يؤيدها عقل أو منطق ، حتى الكتابية ـ كما أسلفنا ـ ولايتماسك فى نظام اجتماعى يؤيده علم يهدى إلى حق وخير .

بناء إنسانى ينخر فيه سوس الفناء :

ويحيط بهذا المجتمع المتهافت فى بنائه الاجتماعى مجتمعات بشرية ممزقة الأوصال، تعيش على أصداء باهتة، لتاريخ ظلوم غشوم، قاتم الآفاق، يحمل رايته السوداء دولتان أو أمتان كانتا فى عهد إشراق شمس الدعوة الإسلامية شبحا لبناء إنسانى متهدم، ينخر فيه سوس الفناء وتنسج حوله الحياة أكفان الزوال .

ففى الشرق كانت بقايا دولة الفرس تتنفس لاهثة، من طول ماعانت من أمراض الاضطرابات الداخلية، والخلافات المذهبية، وآثار الحروب الخارجية مع منافسيهم الرومان .

وفى الغرب كانت دولة الرومان تطفو على سطح الحياة جسدا عريضاً لا روح فيه، أنهكته المظالم الإقطاعية، والمجادلات المذهبية، والحروب الخارجية مع الفرس .

وبين هاتين الدولتين أو الأمتين شراذم إنسانية المظهر، متناثرة هنا وهناك تناثر الدَّقَل أو الحصى على الأرض ـ كما عرفنا عن حال اليهود ومن على شاكلتهم ـ تعيش كما تعيش الأنعام فى غياهب البرارى وغياض الغابات إن أدركتها يد إحدى الدولتين اعتصرتها إن توهمت فيها شيئا من عصارة، حتى تتركها عودا ناشفا لاتطعمه إلا نيران الجهالة والهمل .

طريق الدعوة :

وفى هذا الجو القاتم أشرقت شمس الهداية من أفق الجزيرة العربية ببعثة محمد بن عبد الله رسولا إلى الناس كافة بشريعة هى خاتمة الشرائع الإلهية، فدعا أول مادعا قومه، استجابة لأمر الله له فى قوله :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾(١)

(١) الشعراء : ٢١٤ .

فدعاهم إلى توحيد الله وترك عبادة الأوثان، وحذّرهم من عقابه، وأنذرهم بطشه ، فتولّوا عنه مدبرين، وما آمن منهم إلا قليل، فصبر عليهم وصابرهم، وتحمل منهم أشد الأذى، ولم ينتهوا حتى تآمروا على قتله، ولما لم يجد سبيلا إلى قلوبهم عرض نفسه ودعوته على غيرهم من القبائل والبطون، يذهب إليهم في مواطنهم ومحافلهم، أو يستقبل الوافدين من قبائل العرب وبطونها إلى بلده، ليعظّموا بيت ربهم بما تعودوه فى جاهليتهم من مناسك وشعائر ، وأقبل عليه أبناء المدينة أوسهم وخزرجهم، وجمع الله به كلمتهم بعد فرقة وقتال بينهم، وبايعوه على أن ينصروه نصرهم لأنفسهم، ويحموا دعوته حمايتهم لأولادهم وأعراضهم، إن أوى إليهم وهاجر إلى بلدهم، فبايعهم وأشار على أصحابه الذين أوذوا في سبيل الله بالهجرة إلى إخوانهم أنصار الله وأنصار رسوله ودينه ..

وفى المدينة دوّى صوت الدعوة حتى عم أرجاءها، فلم يبق بيت من بيوتها إلادخله الإسلام، وذُعرت مكة، بل رُعبت وركبت ظهر الشيطان، فجرى بها إلى أسوإ تدبير، وأعلم الله نبيه ﷺ بما بيتت من كيد ومكر، فخرج إلى المدينة مهاجرا يصاحبه الصديق رضى الله عنه .

واستقر رسول الله ﷺ بالمدينة ، وأقبل عليه أهلها يؤمنون بدعوة الله عزوجل .

اليهود والمنافقون :

وكانت المدينة ـ كما أسلفنا ـ مستوطنا لجاليات من اليهود ، يملكون الثروة فيها، فتحرك فيهم عرق الحسد فنافقوا ـ كما هو ديدن اليهود عبر التاريخ ـ حين ظهرت القوة، واستنفقوا قوما ممن شاركوهم في رذيلة الحسد، وتعاونوا وإياهم على الإثم والعدوان، وهموا بما لم ينالوا، واليهود والمنافقون جبناء لايجرؤون على الوقوف نهارا جهارا أمام دعوة الحق وجندها وأنصارها، فهم كما وصفهم الله تعالى بوصف إخوانهم ـ كما سبق ـ فى قوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ

وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ (١)

وفي قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (٢)

وفي قوله :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (٣)

ورأى النبي ﷺ ـ كما أسلفنا ـ أن يهادن اليهود، ويفك عرى قوتهم، ويذل غرورهم، ويكبت حسدهم، ولكنهم هم اليهود دائما، حيث الخيانة والغدر ! ،كان الإذن بالقتال، وكان النصر للرسالة والرسول ، ومن ثم ظهر مكر اليهود وخبث النفاق، واشرأبت أعناقهم خشية أن تعلو كلمة الإسلام، فنقضوا العهود والموادعات، وتجمع أحزاب الكفر والضلال من اليهود والمشركين مع شراذم المنافقين، وتعاهدوا على الغدر والفجور، وكانت وقائع وأحداث، من أهمها غزوة الأحزاب التي تألب فيها المشركون من ألفاف القبائل التى لم يدخل الإسلام قلوبها، وظاهرهم اليهود ـ كما أسلفنا ـ وكذلك المنافقون ، فهزمهم الله، ونصر جنده .

الرسول ﷺ يمد يد المسالمة :

ورأى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بعد انتصاراته المتوالية أن يمد يد المسالمة والرفق إلى مكة، وأن يوادع أهلها موادعة من لايرغب في الحرب، ولايستهدف العدواة والقتال، بل يدعو إلى الأمن والسلام، وخرج إلى العمرة بمن معه من المهاجرين والأنصار، عامدا إلى البيت الحرام زائرا، وساق معه الهدى ليأمن الناس، ويعلموا أنه خرج معظما للبيت،

---

(١) الحشر : ١١ ـ ١٤ .　　(٢) المنافقون : ٤ .　　(٣) البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٦ .

متعبداً لربه، ولكن غطرسة المشركين الباغية، وعجرفتهم الطاغية، أبيا إلاعنادا فاجرا، وعقدوا الخناصر على أن يصدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن تعظيم بيت ربهم فى رحلتهم المسالمة ..

أثر هذه السياسة :

وكان للسياسة الحكيمة الحازمة المسالمة التى ساس بها رسول الله ﷺ الموقف أثرها فى توجيه الأمور إلى نهايتها التى قصد إليها رسول الله ﷺ من هذه السياسة التى تحمّل فيها على نفسه ومجتمعه المسلم، وامتحن فيها أصحابه رضى الله عنهم أشد الامتحان، فصبروا للمحنة بعد أن محّصوا تمحيصا أخلص أنفسهم للتأسى والتسليم بما يراه رسول الله ﷺ ، ولو خفيت عليهم حكمته وأسراره وكانت المبايعة ... وكانت الصورة الوضيئة المضيئة لتلك المجموعة الفريدة السعيدة التي هى خير أهل الأرض كما قال الرسول الحبيب المحبوب ﷺ .. كانت تلك الصورة وسط هذه المعالم المترابطة ..

بشرى من الله :

وبعد التبليغ العلوى الكريم للرسول الأمين عن المؤمنين المبايعين ـ كما أسلفنا ـ يجىء الحديث إلى المؤمنين أنفسهم .. الحديث عن هذا الفتح الذى تلقوه صابرين مستسلمين:

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (١)

وهذه بشرى من الله للمؤمنين سمعوها وايقنوها، (٢) وعلموا ان الله اعد لهم مغانم كثيرة، وعاشوا بعد ذلك ما عاشوا وهم يرون مصداق هذا الوعد الذى لايتخلف . وهنا يقول لهم : إنه قد عجل لكم هذه .. وهذه خيبر ـ على الراجح كما أسلفنا ـ لأنها أقرب غنيمة وقعت بعد الحديبية ..

ويمنّ الله عليهم بأنه كف أيدى الناس عنهم، وفى هذا يقول ابن جرير : (٣) اختلف

---

(١) الفتح : ٢٠ ـ ٢١ .
(٢) فى ظلال القرآن : ٦: ٣٣٢٦ وما بعدها بتصرف .
(٣) تفسير الطبرى: ٢٦: ٩٠ بتصرف .

أهل التأويل فى الذين كُفَّت أيديهم عنهم من هم ؟

فقال بعضهم : هم اليهود، كف الله أيديهم عن عيال الذين ساروا من المدينة مع رسول الله ﷺ إلى مكة !

وروى عن قتادة: عن بيوتهم وعن عيالهم بالمدينة، حين ساروا إلى الحديبية وإلى خيبر، وكانت خيبر فى ذلك الوجه .

وقال آخرون : بل عنى بذلك أيدى قريش، إذ حبسهم الله عنهم، فلم يقدروا على مكروه. قال ابن جرير : والذى قاله قتادة فى ذلك عندى أشبه بتأويل الآية، وذلك أن كف أيدي المشركين من أهل مكة عن أهل الحديبية قد ذكره الله بعد هذه الآية في قوله :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ (1)

فعلم بذلك أن الكف الذى ذكره الله فى قوله :

﴿ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾

غير الكف الذى ذكره الله بعد هذه الآية فى قوله :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾

وعلى كل فقد كف الله أيدى هؤلاء وهؤلاء الذين يتربصون بهم الدوائر. وهم قلة على كل حال، والناس كثرة، ولكنهم كانوا هكذا فى تلك الصورة الوضيئة المضيئة ـ كما عرفنا ـ فكف الله أيدى الناس عنهم .

﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

جزاء طاعتكم وامتثالكم وصدق سريرتكم ..

وهكذا يجمع لهم بين المغنم ينالونه، والهداية يرزقونها. فيتم لهم الخير من كل جانب.

وهكذا يعلمهم أن اختيار الله لهم هو الاختيار، ويربى قلوبهم على الطاعة والامتثال.. كذلك يمنّ عليهم ويبشرهم بأخرى غير هذه لم يقدروا عليها بقوتهم، ولكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره :

---

(1) الفتح : ٢٤ .

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾

وتختلف الروايات فى هذه الأخرى. أهى فتح مكة ؟ أهى فتح خيبر؟

أهى مملكتى كسرى وقيصر ؟ أهى فتوح المسلمين التى تلت هذه الوقعة جميعا ؟

وأقرب ماايناسب السياق أن تكون هى فتح مكة، لما روى ابن جرير عن قتادة قال : بلغنا أنها مكة. قال ابن جرير : (١) وهذا القول الذى قاله قتادة أشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل . .

وبمناسبة هذه الإشارة إلى الغنيمة الحاضرة، والغنيمة التى قد أحاط الله بها، وهم فى انتظارها، يقرر لهم أنهم منصورون :

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

وهكذا يربط نصرهم وهزيمة هؤلاء وأولئك بسنة الله الثابتة التى لاتتبدل. فأية سكينة؟ وأية ثقة ؟ وأى تثبيت يجده أولئك المؤمنون فى أنفسهم، وهم يسمعون أن نصرهم وهزيمة أعدائهم من اليهود ومن على شاكلتهم سنة من سننه الجارية فى هذا الوجود ؟

وهى سنة دائمة لاتتبدل، ولكنها قد تتأخر إلى أجل . ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم، واستقامتهم الاستقامة التى يعرفها الله لهم. أوتتعلق بتهيئة الجو الذى يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين، لتكون له قيمته وأثره. أو لغير هذا وذاك مما يعلمه الله. ولكن السنة لاتتخلف . والله أصدق القائلين :

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

إنها سنة ثابتة لا تتبدل .

عدم قبول تجنيد المخلفين :

وقبل هذه الآيات التى معنا، وهى تذكر وعد الله المسلمين بفتح خيبر، نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

---

(١) تفسير الطبرى: ٢٦ : ٩٢ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ۝١١ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٢ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ۝١٣ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٤ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١)

وهنا نطالع تصويراً رهيبا جليلا للبيعة بينهم وبين الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، ونطالع حال الواحد منهم وهو يشعر أن يد الله فوق يده وأيدى الجميع .. (٢) ومن ؟ الله ! ياللهول! وياللروعة ! ويا للجلال !

إن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة ـ مهما غاب شخص رسول الله ﷺ ـ فالله آخذ فى هذه البيعة ومعط، وهو عليها رقيب .

﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

---

(١) الفتح : ١٠ ـ ١٧ .

(٢) فى ظلال القرآن : ٦ : ٣٣٢٠ وما بعدها بتصرف .

ويلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ ، لسوء ظنهم بالله، ولتوقعهم الشر والضر للمؤمنين الخارجين، الذاهبين إلى قريش فى عقر دارها، وهى غزت المدينة قبل ذلك عامين متواليين.

يلتفت إليهم لينبىء الرسول الحبيب المجبوب ﷺ عما سيعتذون به إليه، بعد عودته سالما، وقد هادنته قريش ولم تقاتله، وعقدت معه معاهدة يبدو فيها ـ مهما كانت شروطها ـ التراجع من قريش، واعتبار الرسول الحبيب المحبوب ﷺ نداً لها تهادنه، وتتقى خصومته..

ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه، ويفضحهم ويقفهم مكشوفين أمام رسول الله ﷺ وأمام المؤمنين .

كما ينبئه بما فيه البشرى له وللخارجين معه، وهو أنهم سيخرجون إلى مغانم قريبة ميسورة، وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه، لينالوا من هذه الغنائم السهلة، ويلقنه طريقة معاملتهم حينذاك والرد عليهم. فلا يقبل تجنيد المخلفين فى هذا الوجه القريب الميسور، الذى سيقتصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية. إنما ينبئهم بأن هنالك وجها آخر فيه مشقة، وفيه قتال مع قوم أولى بأس شديد. فإن كانوا حقا يريدون الخروج فليخرجوا يومئذ، حيث يقسم اللّٰه لهم بما يريد . فإن أطاعوا كان لهم الأجر الكبير، وإن عصوا كما عصوا من قبل لهم العذاب الشديد..

والقرآن الكريم لا يكتفى بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها، ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس، وهواجس القلوب، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيدا لعلاجها والطب لها. ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة، وقواعد الشعور والتصور والسلوك .

فهؤلاء المخلفون سيقولون اعتذارا عن تخلفهم :

﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾

وليس هذا بعذر. فللناس دائما أهل وأموال. ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة، وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها.. وسيقولون :

﴿ فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾

وهم ليسوا صادقين فى طلب الاستغفار، كما ينبئ الله رسوله ﷺ:

﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذى لا يد فعه تخلف، ولا يغيِّره إقدام، وبحقيقة القدرة التى تحيط بالناس، وتتصرف فى أقدارهم كما تشاء. وبحقيقة العلم الكامل الذى يصرف الله قدره على وفقه:

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

وهو سؤال يوحى بضرورة الاستسلام لقدر الله، والطاعة لأمره بلا توقف ولا تلكؤ. فالتوقف أو التلكؤ لن يدفع ضررا، ولا يؤخر نفعا. وانتحال المعاذير لايخفى على علم الله. ولايؤثر فى جزائه وفق علمه المحيط. وهو توجيه تربوى فى وقته وفى جوه وفى مناسبته على طريقة القرآن:

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾

وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين، وجها لوجه أمام ما أضمروا من نية، وما ستروا من تقدير، وما ظنوا بالله من السوء. وقد ظنوا أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم، فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة.

لقد ظنوا ظنهم، وزين هذا الظن فى قلوبهم، حتى لم يروا غيره، ولم يفكروا فى سواه. وكان هذا هو ظن السوء بالله، الناشئ من أن قلوبهم بور. وهو تعبير عجيب موح. فالأرض البور ميتة جرداء. وكذلك قلوبهم. وكذلك هم بكل كيانهم. بور لاحياة ولاخصب ولا إثمار. وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله! يكون بورا. ميتا أجرد نهايته إلى البوار والدمار.

وكذلك يظن الناس فى عصرنا هذا بالجماعة المؤمنة .. الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله .. البور .. الخالية قلوبهم من الروح والحياة .. هكذا يظنون دائما بالجماعة المؤمنة، عندما يبدو أن كفة الباطل هى الراجحة، وأن قوى الأرض الظاهرة فى جانب أهل الشرك والضلال ــ كما نرى ونشاهد فى مؤازرة حزب الشيطان لليهود ــ

وأن المؤمنين الصادقين الذين ينتظر منهم تطهير الأرض المغتصبة التى يدنسها هذا العدو اليهودى قلة فى العدد، أو قلة فى العدة، أو قلة فى المكان والجاه والمال ...

وفاتهم أن يتذكروا ما حدث فى أواخر الأربعينات فى فلسطين من هذا القرن العشرين .

ولكن هكذا يظن الأعراب وأشباههم فى كل زمان ومكان أن المؤمنين لا ينقلبون إلى أهليهم أبدا إذا هم واجهوا الباطل المنتفش بقوته الظاهرة .

هكذا يتجنبون المؤمنين الصادقين حبا للسلامة، ويتوقعون فى كل لحظة أن يستأصلوا، وأن تنتهى دعوتهم، فيأخذون هم بالأحوط ويبعدون عن طريقهم المحفوف بالمهالك !

ولكن الله يخيب ظن السوء هذا، ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو، وبتدبيره هو، وحسب ميزان القوى الحقيقية .. الميزان الذى يمسكه الحق بيده، فيخفض به قوما ويرفع به آخرين، من حيث لا يعلم هؤلاء الظانون بالله ظن السوء فى كل مكان وفى كل حين ! وفى كل جيل وفى كل قبيل !

إن الميزان هو ميزان الإيمان .. ومن ثم يرد الحق أولئك إليه، ويقرر القاعدة العامة للجزاء وفق هذا الميزان، مع التلويح لهم برحمة الله القريبة، والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة، والتمتع بمغفرة الله عز وجل ورحمته:

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۝١٣ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

لقد كانوا يعتذرون بأموالهم وأهليهم. فماذا تنفعهم أموالهم وأهليهم فى هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله ؟

إنهما كفتان، فليختاروا هذه أو تلك على يقين ..

والله يجزى الناس بأعمالهم، ولكن مشيئته مطلقة، لاظل عليها ولاقيد، وهو يقرر هذه الحقيقة هنا لتستقر فى القلوب . غير متعارضة مع ترتيب الجزاء على العمل، فهذا الترتيب اختيار مطلق لهذه المشيئة .

ومغفرة الله ورحمته أقرب . فليغتنمهما من يريد، قبل أن تحق كلمة الله بعذاب من لم يؤمن بالله ورسوله، بالسعير الحاضرة المعدة للكافرين. ثم يلوح ببعض ما قدر الله

للمؤمنين، مخالفا لظن المخالفين، بأسلوب يوحى بأنه قريب :

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يقول ابن جرير: (١) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ سيقول ـ يامحمد ـ المخلفون فى أهليهم عن صحبتك إذا سرت معتمرا تريد بيت الله الحرام، إذا انطلقت أنت ومن صحبك فى سفرك ذلك إلى ما أفاء الله عليك وعليهم من الغنيمة« لتأخذوها» وذلك ماكان وعد أهل الحديبية من غنائم خيبر « ذرونا نتبعكم » إلى خيبر ، فنشهد معكم قتال أهلها « يريدون أن يبدلوا كلام الله » يقول: يريدون أن يغيروا وعد الله الذى وعد أهل الحديبية، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم ووعدهم ذلك عوضا من أهل غنائم أهل مكة إذا انصرفوا عنهم على صلح، ولم يصيبوا منهم شيئا .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل ..

ومع هذا فإن النص يظل له إيحاؤه .. فهو يوحى بالفتح القريب .. ولعل الذى جعل المفسرين يخصصون خيبر ، أنها كانت بعد قليل من صلح الحديبية .. وأنها كانت وافرة الغنائم .. وقد كانت حصون خيبر آخر مابقى لليهود فى الجزيرة من مراكز قوية غنية .. وكان قد لجأ إليها بعض بنى النضير وبنى قريظة من قبل .

وتتوارد أقوال المفسرين أن الله عز وجل وعد أصحاب البيعة فى الحديبية، الذين هم خير أهل الأرض ـ كما أسلفنا ـ أن تكون مغانم خيبر لهم لا يشركهم فيها أحد ..

وقد أمر الله نبيه أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الميسرة القريبة. وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله. وأخبر نبيه ﷺ أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج :

﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾

فتمنعوننا من الخروج، لتحرمونا من الغنيمة. ثم قرر أن قولهم هذا ناشئ عن قلة

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٦ : ٧٩ ـ ٨٠ .

فقههم لحكمة الله وتقديره. فجزاء المتخلفين الطامعين أن يحرموا، وجزاء الطائعين المتجردين أن يعطوا من فضل الله، وأن يكون لهم المغنم حين يقدره الله، جزاء اختصاصهم بالطاعة والإقدام، يوم كانوا لا يتوقعون إلا الشدة فى الجهاد .

ثم أمر الله نبيه أن يخبرهم أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء، يقاتلونهم على الإسلام، فإذا نجحوا فى هذا الابتلاء كان لهم الأجر، وإن هم ظلوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان الأخير :

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

وتختلف الأقوال فيمن هم أولو البأس الشديد .. والمهم أن نلحظ طريقة التربية القرآنية، وطريقة علاج النفوس والقلوب، بالتوجيهات القرآنية ـ والابتلاءات الواقعية .. وهذا كله ظاهر فى كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين، وفى توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيمانى القويم .

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع ، فقد بين الله أصحاب الأعذار الحقيقية الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد، بلا حرج ولا عقاب :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

يقول ابن جرير : (١) يقول تعالى ذكره : ليس على الأعمى منكم أيها الناس ضيق، ولا على الأعرج ضيق، ولا على المريض ضيق أن يتخلفوا عن الجهاد مع المؤمنين، وشهود الحرب معهم إذا هم لقوا عدوهم، للعلل التى بهم، والأسباب التى تمنعهم من شهودها .

والأمر فى حقيقته هو أمر الطاعة والعصيان . هو حالة نفسية لا أوضاع شكلية فمن يطع الله ورسوله فالجنة جزاؤه. ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره. ولمن شاء يوازن بين مشقات الجهاد وجزائه، وبين راحة القعود وماوراءه .. ثم يختار .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٦ : ٨٤ .

حصون خيبر :

وكما هى عادة اليهود نجدهم فى خيبر قد تحصنوا فى حصون كثيرة، نتحدث عنها إن شاء الله تعالى حين نتحدث عن المواجهة بين الرسول ﷺ وهؤلاء اليهود .. وهذا يدفعنا إلى تصور حقيقة ماعليه هؤلاء اليهود فى خيبر، ومايتطلبه هذا اللقاء من إعداد ...

المنافقون طابور خامس :

ولا ننسى دور المنافقين فى هذا المقام، فقد كانوا منذ بزغت شمس الإسلام ووصل شعاع هذا الدين إلى المدينة ، يشكلون مع اليهود جبهة قوية مناوئة للرسالة والرسول ..

وإن كان دور المنافقين ـ كما أسلفنا ـ يكشف قناع قلوبهم عن الجبن والهلع، والخور والجزع .. فإننا قد عرفنا أن هذه الخصائص مستمدة من خصائص اليهود .. ومن ثم كان التجمع بين هؤلاء وأولئك..

وإذا كان اليهود يمثلون المعارضة الصريحة والمعاداة السافرة .. فإن المنافقين يقفون وراء هؤلاء اليهود كعناصر سرية مساندة، تشجعهم على التحرش بالمسلمين، وتشد من عضدهم، بل وتمد إليهم يد العون بكل ماتستطيع ..

وقد أوجد هذا الطابور الخامس من المنافقين للمسلمين ـ كما عرفنا ـ متاعب كثيرة ومشاكل معقدة بالتواطؤ مع العناصر اليهودية، عندما كان كيانها الدخيل لا يزال قائما فى المدينة (١) .

ولقد عرف التاريخ كيف كان هؤلاء المنافقون يقفون موقف العطف والتأييد لليهود فى أى خلاف ينشب بينهم وبين المسلمين .

وسبق أن عرفنا كيف كان المنافقون يشجعون يهود بنى قينقاع على العصيان والتمرد والتحرش بالمسلمين . وكيف حرضوا يهود بنى النضير على عدم الرضرخ للإنذار بالجلاء.

وعندما اضطر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ إلى محاصرة هؤلاء اليهود لتأديبهم على ما ارتكبوا من نكث للعهود، ونزل هؤلاء اليهود على حكم الرسول ﷺ ..لم يخف هذا الطابور الخامس من هؤلاء المنافقين جزعهم الشديد لهذا الحادث .

---

(١) غزوة خيبر : ٩٧ وما بعدها بتصرف .

ولم يكتموا جزعهم وخوفهم ــ كما أسلفنا ــ على مصير اليهود الذين كان الموت ينتظرهم كخونة متمردين ناكثين أُرغموا على الاستسلام بالقوة ..

ولعل أبرز أدوار التعاطف والتلاحم بين هؤلاء وأولئك هو ما حدث فى بنى النضير ــ كما عرفنا ــ وعندما انهارت مقاومة اليهود وقبلوا شرط الجلاء ، ومن ثم نزلوا واستوطنوا خيبر مع غيرهم ،ظلوا على صلة وثيقة بأصدقائهم المنافقين فى المدينة، وهذا واضح لايحتاج إلى مزيد بيان ..

وظل هؤلاء المنافقون يقومون بين صفوف المسلمين بأعمال الطابور الخامس لحساب يهود خيبر، حيث صاروا يتجسسون على المسلمين، فينقلون من أخبار وأسرار المسلمين مايهم يهود خيبر معرفته والإلمام به.

ولا أدل على ذلك من أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لما اعتزم التوجه إلى خيبر، سارع عبد الله بن أبيّ وأشعر يهود خيبر بذلك وطلب منهم أن يستعدوا ويأخذوا حذرهم، وصار يرفع من معنوياتهم بالتوهين فى شأن قوة المسلمين، والإشادة بقوات أولئك اليهود، وذلك فى رسالة مستعجلة بعث بها أحد أعوانه إلى خيبر ، ومما جاء في هذه الرسالة :

« **إن محمدا سائر إليكم، فخذوا حذركم، وأدخلوا أموالكم حصونكم، واخرجوا لقتاله، ولاتخافوا منه، إن عددكم كثير، وقوم محمد شرذمة قليلون، عزل لاسلاح معهم إلا القليل** » (١) .

استعداد اليهود للمواجهة :

ولقد كان يهود خيبر منذ فشل خطة غزو الأحزاب التى هى من وحى اليهود وتدبيرهم ــ كما عرفنا ــ يتوقعون أن يقوم المسلمون بتأديبهم عن طريق حرب وقائية شاملة، ولذلك كانوا يستعدون للمواجهة بصفة عامة ، إلا أنهم ما كانوا يعلمون على وجه التحديد متى ستكون تلك المواجهة .

إلا أنهم بعد أن تلقوا عن طريق عملائهم المنافقين فى المدينة تلك التفاصيل عن مدى قوة المسلمين، أخذوا فى التهيؤ والاستعداد للمواجهة، وعلى أوسع نطاق، وبصورة أكبر جدية .

(١) السيرة الحلبية : ٢: ١٥٧ .

فحشدوا كافة قواهم العسكرية، واتخذوا كافة الإجراءات التى يرونها ضرورية للمواجهة .

والمتتبع لأسلوب استعداد يهود خيبر للحرب، يرى أن خطتهم الأساسية كانت خطة دفاعية، بالرغم من تفوقهم على المسلمين تفوقا ساحقا فى كل شىء مادى :

فبالإضافة إلى إعطاء حصونهم وقلاعهم المنيعة والحصينة أصلا مزيدا من القوة والتحصين أخلوا كل الحصون والقلاع الأمامية من النساء والذرارى ـ كما سيأتى ـ ونقلوهم إلى حصون خلفية، قرروا بموجب خطة المواجهة التى وضعوها أن تكون هذه الحصون الخلفية خط الدفاع الثانى، إذا ما اجتاح المسلمون خط الدفاع الأول المتمثل فى الحصون والقلاع الأمامية التى أخلوها من كل شىء ، ولم يسمحوا لأحد أن يبقى فيها غير حملة السلاح الذين امتلأت بهم ساحات وأبراج هذه الحصون.

كما نقلوا شيئا عظيما من المواد الغذائية إلى خط الدفاع الثانى ، ليكون ذلك عونا لهم على مواجهة الحصار الذى كانوا يتوقعونه.

* * *

الفصل الثانى

الطريق إلى خيبر

متى كانت غزوة خيبر؟ ـ والى المدينة ـ مدى قوة المسلمين ـ أدلاء الجيش ـ طريق الجيش إلى خيبر ـ النبى ﷺ وخط الرجعة ـ موقف حرج ـ سر صمود المسلمين ـ الانتصار بالرعب ـ بشائر النصر ـ اختلاف قادة اليهود فى وضع الخطط ـ « الله أكبر ! خربت خيبر » ـ دعاء النبى ﷺ ـ تربية الأمة ـ إعداد ودعاء وثبات ـ الوحدة الإيمانية ـ الكفاح الصبور ـ الربط بين الأسباب والمسببات تحكمه مشيئة الله ـ مقام العبودية ـ انقلاب الميزان ـ مفاجأة اليهود ـ مصير القرى الفاجرة ـ دور « فرويد اليهودى » ـ من مخططات يهود ـ حقائق أساسية ـ حرب من الله ورسوله .

متى كانت غزوة خيبر ؟:

قال ابن حجر: (١) قال ابن إسحاق : خرج النبى ﷺ فى بقية المحرم سنة سبع، فأقام يحاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها فى صفر وروى يونس بن بكير فى المغازى عن ابن إسحاق فى حديث المسور ومروان قالا : انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله فيها خيبر، بقوله :

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ (٢)

يعنى خيبر، فقدم المدينة فى ذى الحجة، فأقام بها حتى سار إلى خيبر فى المحرم.

وذكر موسى بن عقبة فى المغازى عن ابن شهاب أنه ﷺ أقام بالمدينة عشرين ليلة أو نحوها، ثم خرج إلى خيبر.

وعند ابن عائذ من حديث ابن عباس : أقام بعد الرجوع من الحديبية عشر ليال .

وفى مغازى سليمان التيمى: أقام خمسة عشر يوما.

وحكى ابن التين عن ابن الحصار أنها كانت فى آخر سنة ست، وهذا منقول عن مالك، وبه جزم ابن حزم .

وهذه الأقوال متقاربة، والراجح منها ماذكره ابن إسحاق، ويمكن الجمع بأن من أطلق سنة ست بناه على أن ابتداء السنة من شهر الهجرة الحقيقى، وهو ربيع الأول، وأما ذكره الحاكم عن الواقدى، وكذا ذكره ابن سعد أنها كانت فى جمادى الأول، فالذى رأيته فى مغازى الواقدى أنها كانت فى صفر، وقيل فى ربيع الأول، وأغرب من ذلك ما أخرجه ابن سعد وابن أبى شيبة من حديث أبى سعيد الخدرى قال : خرجنا مع النبى ﷺ إلى خيبر لثمان عشرة من رمضان .. الحديث ، وإسناده حسن، إلا أنه خطأ، ولعلها كانت إلى حنين فتصحفت، وتوجيهه بأن غزوة حنين كانت ناشئة عن غزوة الفتح، وغزوة الفتح خرج النبى ﷺ فيها فى رمضان جزما، والله أعلم .

وذكر الشيخ أبو حامد فى التعليقة أنها كانت سنة خمس ، وهو وهم، ولعله انتقال من الخندق إلى خيبر .

---

(١) فتح الباري : ٧ : ٤٦٤ وانظر : زاد المعاد : ٣ : ٣١٦ ـ ٣١٧ والمواهب : ٢ : ٢١٧ .

(٢) الفتح : ٢٠ .

والي المدينة :

وقبل أن يخرج الرسول الحبيب المحبوب بجيشه من المدينة ـ وكما هى سنته فى مثل هذه الظروف ـ استخلف على المدينة ـ كما قال ابن هشام ـ نُمَيْلة (بنون مصغر) ابن عبد الله الليثى، وعند أحمد والحاكم من حديث أبى هريرة أنه سباْعُ بنُ عُرفُطَةَ، وهو أصح [1] .

يروى أحمد بسند قوى أن أبا هريرة قدم المدينة فى رهط من قومه والنبى ﷺ بخيبر، وقد استخلف سباع بن عرفطة على المدينة، قال : فانتهيت إليه وهو يقرأ فى صلاة الصبح فى الركعة الأولى بـ :

﴿ كهيعص ﴾ [2]

وفى الثانية :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [3]

قال : فقلت لنفسى : ويل لفلان، إذا اكتال اكتال بالوافى، وإذا كال كال بالناقص، قال : فلما صلى زوَّدنا شيئا حتى أتينا خيبر، وقد افتتح النبى ﷺ خيبر، قال: فكلّم رسول الله ﷺ المسلمين فأشركونا فى سهامهم . [4]

ورواه الحاكم بسند صحيح عن أبى هريرة قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر استعمل سباع بن عرفطة الغفارى بالمدينة [5] .

ويمكن الجمع ـ كما فى المواهب ـ [6] بأنه استخلف أحدهما أولا، ثم عرض مايقتضى استخلاف الآخر .

مدى قوة المسلمين :

وأما عن مدى قوة المسلمين، فقد كان معه ﷺ ألف وأربعمائة راجل ومائتا فارس ـ كما فى المواهب ـ وهذا مخالف لما عند ابن إسحاق ـ أن عدة خيبر ألف سهم وثمانمائة سهم، برجالهم وخيلهم، والرجال ألف وأربعمائة ، والخيل مائتا فرس، لكل فرس

---

(١) فتح البارى : ٧: ٤٦٥ .
(٢) مريم : ١ .
(٣) المطففين : ١ .
(٤) أحمد: ٢: ٣٤٥ ـ ٣٤٦ .
(٥) المستدرك : ٣: ٣٦: ٣٧ .
(٦) المواهب: ٢: ٢١٧ .

سهمان، ولفارسه سهم [1] .

أدلاء الجيش :

وقد استعان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بخبيرين من قبيلة أشجع التى يرتاد رجالها دائما منطقة خيبر، ليتعرف معالم الطريق . وهما حسيل ـ بالتصغير ويقال بالتكبير ـ ابن خارجة ـ كما يقول الحافظ ابن حجر ـ [2] وقيل ابن نُويرة الأشجعى . وحكى ابن منده أنه يقال فيه حسين ـ بالنون أيضا ـ والذى يظهر أنه أخوه . [3] وروى الطبرانى وغيره من طريق إبراهيم بن حويصة الحارثى عن خاله معن بن حَوِيّة ـ بفتح المهملة وكسر الواو وتشديد التحتانية ـ عن حسيل بن خارجة الأشجعى قال : قدمت المدينة فى جلب أبيعه، فأتى بى رسول الله ﷺ فقال:

«ياحسيل، هل لك أن أعطيك عشرين صاع تمر، على أن تدل أصحابى على طريق خيبر».

ففعلت ، قال: فأعطاني، فذكر القصة، قال: فأسلمت .

وروى ابن مندة من هذه الطريق عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ خيبر، فضرب للفرس سهمين، ولصاحبه سهما .

وروى عمر بن شبة من هذه الطريق عنه، قال: بعث يهود فدك إلى رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر : أعطنا الأمان، وهى لك، فبعث إليهم حويصة فقبضها، فكانت له خاصة .

أما الثانى فهو عبد الله بن نعيم الأشجعى .. ذكره أبو القاسم البغوى في الصحابة، وقال: كان دليل النبىﷺ إلى خيبر، ولم يذكر سنده فى ذلك، وكذا ذكره أبو جعفر الطبرى، واستدركه ابن فتحون [4] .

طريق الجيش إلى خيبر :

وتقع خيبر ـ كما أسلفنا ـ شمال شرقى المدينة، وقد سلك الرسول الحبيب المحبوب

---

(١) المرجع السابق .   (٢) الإصابة : ٢: ١٤ (١٧١٦) .

(٣) انظر : المرجع السابق : ٦١ (١٩٧٣) .

(٤) المرجع السابق : ٤: ١٣٦ (٤٩٨٧) .

ﷺ طريقا خاصا حين خرج من المدينة إلى خيبر، حيث اتجه إلى عِصر ـ كما قال ابن إسحاق ـ [1] وبنى له فيها مسجدا، ثم على الصّهباء، ثم أقبل بجيشه حتى نزل به بواد يقال له : الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يُمِدُّوا أهل خيبر، كانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ، فبلغنى أن غطفان لما سمعوا بذلك جمعوا، ثم خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، حتى إذا ساروا منقلةً سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسّاً، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا فى أموالهم وأهليهم، وخلّوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر .

ويروى البخارى عن بشير بن يسار أن سُوَيْد بن النعمان أخبره أنه خرج مع النبى ﷺ عام خيبر، حتى إذا كنا بالصّهباء ـ وهى من أدنى خيبر ـ صلى العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يُؤتَ إلا بالسّويق، فأمر به فثرّى، فأكل وأكلنا، ثم قام إلى المغرب فَمَضْمَضَ ومضْمَضْنا، ثم صلّى ولم يتوضّأ . [2]

النبي ﷺ وخط الرجعة :

وبالرغم من مرور عشرين عامًا على بزوغ شمس الإسلام، وبالرغم من مرور سبع سنوات على الرسالة والرسول فى المدينة، وبالرغم من ازدياد نفوذ الإسلام وتكاثر أهله فى هذه المنطقة، فإن جميع القبائل العربية الواقعة شرقى وشمالى المدينة ظلت على عدائها للإسلام ـ كما يقول الأستاذ باشميل ـ [3] وخاصة القبائل النجدية القوية الحليفة لليهود والمجاورة لخيبر .

وعلى هذا فإن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ عندما فكّر فى الزحف على خيبر كان يعلم أنه سيمر بجيشه فى أرض تقع تحت سلطان أعداء الإسلام.. وفى هذا دون ماشك خطر لا يمكن أن يغيب عن بال الرسول القائد .

ولاشك أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ـ كقائد عسكرى ـ أدخل فى حسابه وجود هذا الخطر، فاتخذ من الاحتياطات ـ فوق ما أسلفنا ـ ما يدفع عنه وعن جيشه هذا الخطر الماثل فى انتشار القبائل الوثنية عن يمينه وعن شماله ومن خلفه وأمامه ..

وأهم ما يمكن أن يخشاه قائد محارب يكون فى الوضع الذى كان عليه النبى ﷺ

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير : ٣: ٣٤٥ .
(٢) البخارى : ٦٤ ـ المغازى :(٤١٩٥) .
(٣) غزوة خيبر : ١١٧ ومابعدها بتصرف .

وهو فى طريقه إلى خيبر، هو أن يقطع على الأعداء خط الرجعة عندما يكون يحارب فى خيبر .

لأن القبائل التى ستكون أو بإمكانها أن تكون خلفه، عندما يتوغل بجيشه نحو خيبر، هى ــ كما قلنا ــ قبائل وثنية معادية موتورة .

موقف حرج :

وتفبدنا الخطة التى اتفق عليها اليهود والمرتزقة من غطفان ضد المسلمين الذين لم يزد عددهم ــ كما أسلفنا ــ عن ألف وأربعمائة راجل ومائتى فارس ، يقابلهم للأعداء أعداد ضخمة ــ كما سيأتى ــ بأن المسلمين فى موقف حرج .

تتمثل هذه الخطة فيما يأتى :

أولا: أن تبعث قبائل غطفان بمجموعة من رجالها المسلمين إلى اليهود، ليكونوا معهم فى حصونهم، وقد فعلوا ذلك ، فأرسلوا عدة كتائب بقيادة عيينة بن حصن، وطليحة بن خويلد، وحذيفة بن بدر الفزارى . (١)

ثانيا: أن يقوم أربعة آلاف مقاتل من غطفان بحركة التفاف على المسلمين، لضربهم من الخلف، عندما يكونون قريبين من خيبر .

وقد تعهد زعماء خيبر لغطفان بأن يمنحوهم نصف ثمار خيبر مقابل هذه المساندة العسكرية ضد المسلمين .

ولقد نفذ الغطافيون البند الأول من الاتفاقية قبل أن يتحرك المسلمون بجيشهم من المدينة، إذ وصلت إلى خيبر عدة كتائب من جيوش غطفان وبنى أسد بقيادة طليحة بن خويلد الأسدى، وعيينة بن حصن، وحذيفة بن بدر الفزاريين، فرابطت هذه القوات مع اليهود داخل قلاعهم وحصونهم . (٢)

وأما البند الثانى من الاتفاقية فقد شرع الوثنيون فى تنفيذه، إذ لم يكد النبى ﷺ يصل بقواته إلى ضواحى خيبر، حتى تحركت من خلفهم أربعة آلاف مقاتل من غطفان، بقصد الالتفاف على المسلمين ، لقطع الرجعة عليهم وجعلهم بين نارين . (٣)

---

(١) انظر : السيرة الحلبية : ٢. ١٧٥ . (٢) انظر مختصر مغازى الواقدى : ٢ ١ ٣ .

(٣) انظر : ابن هشام : ٢: ٣٣ والسيرة الحلبية : ٢: ١٧٥ .

يروى ابن إسحاق أن غطفان لما علموا أن النبى ﷺ قد تحرك نحو خيبر، خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، وتحركت قواتهم لضرب الجيش النبوى من الخلف، واستمرت فى تحركها يوما وليلة .(١)

وحين يتصور الخبير بشئون الحرب وقوع جيش المسلمين بين هذه الجموع، يدرك مدى الخطورة التى كانت عليها تلك القوة المسلمة القليلة العدد، التى هى فى حالة أشبه ماتكون بالتطويق .

سر صمود المسلمين :

ومع كل هذا، فقد سار المسلمون فى طريقهم نحو المعركة الفاصلة، وكلهم ثقة واطمئنان، فلم يكن لتلك القوات الضاربة من الأعداء أى أثر ضار على معنوياتهم الحربية، لأنهم بعد وعد الله الذى وعدهم ـ كما أسلفنا ـ لم يزنوا الأمور ويقيسوها بموازين ومقاييس مادية صرفة من حيث العدد والعدة، ولو فعلوا ذلك لأدخل فى روعهم، ولم يعودوا قادرين على المواجهة بحال من الأحوال .

ولكن الثقة بالله، والاطمئنان إلى وعده بالنصر، وزخم العقيدة الصافية الذى يدفعهم إلى الأمام .. كل أولئك كان قاعدتهم التى منها ينطلقون، وعلى ضوئها يتحركون .

ولهذا فقد كانت نفس كل واحد منهم مشحونة بطاقات روحية هائلة تجعله فى قرارة نفسه موقنا بأنه قادر أن يواجه أعدادا هائلة من هؤلاء اليهود ويتغلب عليهم .

وهذا هو سر صمودهم وثباتهم وعدم اكتراثهم بتلك القوات الضاربة من الأعراب واليهود، التى أجمعت على حربهم، وهم بعيدون عن أرضهم .

الانتصار بالرعب :

وعلى كل حال، وبالرغم من أن كل شيء ـ حسب المقاييس المادية المجردة ـ هو ضد المسلمين، وإلى جانب اليهود وحلفائهم فى هذه الحروب، لإنهاء الوجود اليهودى الزنيم، فقد مضى المسلمون لسبيلهم، وساروا نحو خيبر على تعبئتهم، وفق الخطة التى رسموها لخوض المعركة، غير مبالين بتلك القوات الضاربة من اليهود والأعراب ..

يروى الشيخان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

(١) انظر مختصر مغازى الواقدى : ٣١٢ .

« أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلّت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة » (١) .

بشائر النصر :

والجيش الإسلامى على يقين من ذلك، وعلى يقين أيضا من وعد الله لهم بفتح خيبر ـ كما أسلفنا ـ ومن ثم رأينا بشائر النصر تلمع فى الأفق، قبل أن يحدث اشتباك مسلح بين المسلمين وأعدائهم، وبدأت الصفوة من أصحاب الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ترى وعد الله لها بالنصر يظهر جليا فى صور شتى ، وهو يكاد يتجسد، فقويت نفوسهم ـ وهى المؤمنة القوية أصلا ـ وازدادوا عزما على عزم، وصار لديهم اليقين الذى لايخالطه أى شك أن قوات أعدائهم المحيطة بهم من كل جانب، وهى كثيرة العدد قوية العدّة، لا تلبث أن يهزمها الحق وينزل الرعب فى قلوبها فتنداح أمامهم ساعة الروع كما ينداح الورق اليابس أمام العاصفة فى فصل الخريف .

وهذا هو الذى حدث بالفعل للقوات الرئيسة من قبائل غطفان، وهى القوات التى بلغت أربعة آلاف مقاتل، وخرجت من ديارهم، تسير خلف المسلمين وهم سائرون إلى خيبر وتتعقبهم، قاطعة عليهم خط الرجعة، ومقررة الهجوم عليهم من الخلف لإرباكهم، وجعلهم بينها وبين حلفائها من يهود خيبر الهدف الأول لتحركات الجيش الإسلامى .

فقد ذكر المؤرخون أن هذه القوات النجدية الوثنية الضاربة، بينما كانت تتحرك فى إثر الرسول ﷺ وأصحابه، لتضربهم من الخلف، لحساب يهود خيبر حلفائها، إذا بقادة هذه القوات يسمعون صريخ من خلفهم، يصيح فيهم منذرا إياهم بأن كتائب المسلمين قد خلفوهم وأغاروا على ديارهم ومضاربهم، وأنهم على وشك استياق أموالهم وسبى نسائهم وذراريهم .

قال ابن إسحاق: بلغنى أن غطفان لمّا سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له ، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا منقلة ـ أى مرحلة ـ سمعوا خلفهم

---

(١) البخارى : ٨ ـ الصلاة (٤٣٨) واللفظ له، ومسلم : ٥ ـ المساجد ٣ (٥٢١) وانظر : النسائى : ١: ٢١٠ ـ ٢١١ .

فى أموالهم، ظنوا أن القوم ـ أى المسلمين ـ قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا فى أهليهم وأموالهم، وخلّو بين رسول الله ﷺ وبين خيبر . (١)

كما سمع الذين مع اليهود فى حصونهم صوت نفس الصائح، فانسحبوا وتركوا اليهود وحدهم .

وقال الواقدى : إن غطفان سمعوا صائحا يصيح، لايدرون من السماء أومن الأرض :

يامعشر غطفان : أهلكم أهلكم، الغوث الغوث، بحيفاء ـ صيح ثلاث مرات ـ لا تربة ولا مال، قال: فخرجت غطفان على الصعب والذلول، وكان أمرا صنعه الله عز وجل لنبيه. فلما أصبحوا أخبر كنانة بن أبيِ الحُقَيق ـ سيد خيبر ـ وهو فى الكتيبة (٢) بانصرافهم ، فسقط فى يديه، وذل وأيقن بالهلكة وقال: كنا من هؤلاء الأعراب فى باطل، إنا سرنا فيهم فوعدونا النصر وغرّونا، ولعمرى لولا ما وعدونا من نصرهم ما نابذنا محمدا بالحرب، ولم نحفظ كلام سلام بن أبى الحقيق إذ قال: لاتستنصروا بهؤلاء الأعراب ـ يعنى غطفان ـ أبدا، فإنا قد بلوناهم .. لنصر بنى قريظة، ثم غرُّوهم. فلم نر عندهم وفاءً لنا، وقد سار فيهم حييّ ابن أخطب، وجعلوا يطلبون الصلح من محمد، ثم زحف محمد إلى بنى قريظة، وانكشفت غطفان راجعة إلى أهلها. (٣)

ويستمر الواقدى فى سرد قصة انسحاب غطفان مرعوبين فيقول:

فلما انتهى الغطفانيون إلى أهلهم بحيفاء وجدوا أهلهم على حالهم فقالوا: هل راعكم شيء ؟ قالوا: لا والله، فقالوا: لقد ظننا أنكم قد غنمتم، فما نرى معكم غنيمة ولاخيرا ! فقال : عيينة بن حصن لأصحابه: هذا والله من مكائد محمد وأصحابه، خدعنا والله ! فقال له الحارث بن عوف المرّى : بأى شيء ؟ قال عيينة : إنا فى حصْن النطاة بعد هدأة، إذ سمعنا صائحا يصيح، لاندرى من السماء أو من الأرض : أهليكم أهليكم بحيفاء ـ صيح ثلاثة ـ فلا تربة ولامال، فقال الحارث ابن عوف : ياعيينة والله لقد غبِرت ـ أى بقيت ـ إن انتفعت، والله إن الذى سمعت لمن السماء، والله ليظهرن محمد على من ناوأه حتى لو ناوأته الجبال لأدرك منها ما أراد. فأقام عيينة أياما فى أهله، ثم دعا أصحابه

---

(١) ابن هشام : ٢: ٣٣٠ ، وانظر عيون الأثر : ٢: ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٢) الكتيبة : منطقة فى خيبر بها حصون لهم.

(٣) غزوة خيبر : ١٢٨ وانظر: الواقدى : ٢: ٦٥١ .

للخروج إلى نصر اليهود، فجاءه الحارث بن عوف فقال: ياعيينة أطعنى وأقم فى منزلك، ودع نصر اليهود، مع أنى لا أراك ترجع إلى خيبر إلا وقد فتحها محمد، ولا آمن عليك .. فأبى عيينة أن يقبل قوله وقال: لا أسْلم حلفائى لشى (١) . وقال الحارث أيضا : والله ـ ياعيينة ـ ليظهرن محمد على مابين المشرق والمغرب .. يهود يخبروننا بذلك. أشهد أنى لسمعت أبا رافع سلاّم بن أبى الحُقيق يقول:

إنا لنحسد محمدا على النبوة، حيث خرجت من بنى هارون، وهو ـ أى محمد ـ نبى مرسل .. ويهود لاتطاوعنى على هذا .. ولنا منه ذبحان .. واحد بيثرب ـ وقد كان ـ وواحد بخيبر .. فقلت له : ياسلاّم، يملك الأرض جميعا ؟ قال : نعم والتوراة التى أنزلت على موسى .. وما أحب أن يعلم يهود بقولى فيه(٢) . ومع كل هذا تحرك عيينة بمن أطاعه من غطفان، محاولا إمداد يهود خيبر ومساندتهم ضد المسلمين، إلا أنه لم يصل خيبر حتى وجد الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قد قضى على اليهود عسكريا، كما سيأتى إن شاء الله تعالى ..

تلك بشائر النصر فى الطريق إلى خيبر

اختلاف قادة اليهود فى وضع الخطط :

وكان قادة اليهود عندما ما أحسوا بمسير الرسول الحبيب المحبوب ﷺ إليهم بجيشه عقدوا مجلسا عسكريا تبادلوا فيه الرأى حول أفضل الخطط التى يجب اتباعها لمواجهة الجيش الإسلامى(٣) .

وأثناء بحث هذا الموضوع انقسم قادة اليهود إلى فئات ثلاث :

فئة ترى أن يتحصن اليهود فى الحصون والقلاع، التى سنتحدث عنها فيما بعد، ويقاتلوا المسلمين من وراء الأسوار، بحجة أن ذلك يُضجر المسلمين، فيجبرّهم فى النهاية على الانسحاب، دون أن يقدروا على اقتحام الحصون، لمناعتها وكثرة المقاتلين فيها .

وفئة ترى أن على يهود خيبر أن يعسكروا خارج الحصون والقلاع، ويواجهوا المسلمين فى العراء، فيخوضوا معهم معركة فاصلة خاطفة، بدلا من التحصن داخل الحصون والقلاع .

---

(١) انظر : الواقدى : ٢: ٦٥٢ .
(٢) المرجع السابق : ١٠٩ .
(٣) المرجع السابق : ٢ : ١٠٢ بتصرف .

وكان على رأس الفريق الثانى أحد قادتهم الكبار، وهو الحارث الملقّب بأبى زينب، وهو أخو مرحب، وكلاهما من قبيلة حمير.

فقد قال الحارث شارحا وجهة نظره ومحبذا البروز للمسلمين :

إنى قد رأيت من سار إلى محمد من الحصون، لم يكن لهم بقاء بعد أن حاصرهم حتى نزلوا على حكمه، ومنهم من سُبى، ومنهم من قتل صبرا .. ثم استرسل فى شرح فوائد فكرة الاصطدام بالمسلمين خارج القلاع، والحصون فى معركة سريعة حاسمة، محاولا إقناع زملائه من القادة بقبول فكرته الجريئة .

غير أن اقتراحه لم يلق أى تجاوب من القادة اليهود، حيث رفضوه وأيدوا فكرة التحصن داخل القلاع ومواجهة المسلمين من وراء أسوارها قائلين :

ياأبا زينب، إن حصوننا هذه ليست مثل تلك، هذه حصون منيعة فى ذُرى الجبال، ثم خالفوه . (١)

أما الفئة الثالثة فقد ذهبت فى الجرأة إلى أبعد مما ذهب إليه الحارث أبو زينب، حيث اقترحت القيام بغزو المسلمين فى المدينة، وضربهم فيها قبل أن يتحركوا بقواتهم نحو خيبر .

وكان على رأس هذه الفئة سلاّم بن مشكم النضرى، القائد العام للقوات اليهودية فى خيبر، والذى يقال له فى ذلك العصر: صاحب حربهم. (٢)

فقد ذكر المؤرخون أن سلاّم بن مشكم قال فى اجتماع لهم ـ مُحَمّلاً حيّي بن أخطب ما أصاب يهود يثرب، وخاصة ماحل ببنى قريظة ـ : هذا كله عمل حييّ بن أخطب .. خالفنا فى الرأى، فأخرجنا من أموالنا وشرفنا، وقتل إخواننا ـ يعنى بنى قريظة الذين غرَّر بهم حيّي بن أخطب فخانوا عهد المسلمين ـ وأشد من القتل سبى الذرية، لاقامت يهود بالحجاز أبدا، ليس لليهود عزم ولا رأى . فقالوا: فما الرأى ياأبا عمرو ؟- وهذه كنيته ـ قال : وما تصنعون برأى لاتأخذون منه حرفا؟

« الله أكبر ! خربت خيبر » :

وفى هذا الجو من الإعداد والصمود وبشائر النصر على اليهود .. نذكر مارواه

---

(١) المرجع السابق : ٣ : ١٠٣، وانظر الواقدى : ٣: ٦٣٧ .

(٢) انظر: المرجع السابق.

الشيخان وغيرهما عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال:

خرجنا مع النبى ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلا، فقال رجل من القوم لعامر : ياعامر، ألا تسمعنا من هُنَيْهاتك ؟ وكان عامرٌ رجلا شاعراً !. فنزل يَحْدُو بالقوم يقول:

اللهم ! لولا أنت ما اهتدينا ولاتصدّقنا ولاصلّينا

فاغفر فداء لك ما اقتفيْنا وثبِّت الأقدام إن لاقَيْنا

وألْقِيَنْ سكينة علينا إنا إذا صِيحَ بِنا أبيْنا

وبالصِّياح عوّلوا علينا

فقال رسول الله ﷺ :

« مَن هذا السائق ؟»

قالوا: عامرُ بن الأكوع . قال:

« يرحَمُه الله»

قال رجلٌ من القوم: وجبَتْ يانبىّ الله! لولا أمتَعْتَنا به .. فأتيْنا خيبر فحاصرناهم، حتى أصابتنا مخمصة شديدة . ثم إن الله تعالى فتَحها عليهم . فلما أمسى الناس مساء اليوم الذى فُتحت عليهم أوقدُوا نيراناً كثيرة، فقال النبى ﷺ :

« ماهذه النيران ؟ على أىّ شىء توُقِدون ؟»

قالوا: على لحم ، قال:

« على أىّ لحم ؟»

قالوا: لحمُ حُمُر الإنسيّة. قال النبى ﷺ:

« أهْريقو ها واكسروها »

فقال رجل يارسول الله! أو نُهريقها ونغسلها ؟ فقال:

« أوْ ذاك »

فلما تصَافّ القوم كان سيفُ عامرٍ قَصيرًا، فتناول به ساق يهودىّ

ليضربه. ويرجعُ ذُباب سيفه فأصاب عيْن رُكبة عامر فمات منه . قال : فلما قَفَلوا قال سلمة : رآني رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدى . قال:

« مالَكَ؟»

قلتٌ له: فِداك أبي وأمي، زعَموا عامرًا حَبِطَ عمله. قال النبي ﷺ:

« إن له لأجْرَيْن »

وجمع بين إِصبعيه :

« إنه لجاهد مجاهد، قَلَّ عربيّ مشى بها مثله » (١).

وفي رواية ـ أيضا ـ عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ غزا خيبر فصلّينا عندها صلاة الغداة بغلَس ، فركب نبى الله ﷺ، وركب أبو طلحة، وأنا رديف أبى طلحة ، فأجرى نبى الله ﷺ في زُقاق خيبر، وإن ركبَتى لتمَسُّ فخذ نبى الله ﷺ . ثم حسرَ الإزار عن فخذه، حتى إنى أنظر إلى بياض فخذ نبى الله ﷺ . فلما دخل القرية قال:

« الله أكبر ! خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين »

قالها ثلاثا. قال: وخرج القوم إلى أعمالهم، فقالوا محمد ! ـ قال عبد العزيز : وقال بعض أصحابنا ـ والخميس. يعنى الجيش . قال: وأصبْناها عنوة .. الحديث (٢) .

قال ابن حجرَ : وزيادة التكبير في معظم الطرق عن أنس وعن حميد، (٣) قيل : مناسبة ذلك القول أنهم استقبلوا الناس بمساحيهم ومكاتلهم (٤)، وهى من آلات الهدم (٥) .

وسمى الجيش خميسا؛ لأنه خمسة أقسام: مقدمة، وساقة، وقلب وجناحان. وقيل : من تخميس الغنيمة، وتعقبه الأزهرى بأن التخميس إنما ثبت بالشرع، وقد كان أهل

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤١٩٦) ومسلم : ٣٢ ـ الجهاد ١٢٣ (١٨٠٢) وأبو داود (٢٥٣٨) والنسائى :٦: ٣٠ ـ ٣١ .

(٢) البخارى : ٨ ـ الصلاة (٣٧١) ومسلم : ٣٢ ـ الجهاد ١٢٠ (١٣٦٥) والنسائى : ٦: ١٣١ ـ ١٣٤ وانظر: الموطأ: ٢١ ـ الجهاد (٤٨) والترمذى (١٥٥٠) وأحمد: ٣: ١٠٢، ١٦٤، ٢٠٦، ٢٤٦، ٢٦٣.

(٣) فتح البارى : ٧: ٤٦٨ .

(٤) بمساحيهم: بمهملتين، جمع مسحاة، وهى من آلات الحرث . ومكاتلهم : جمع مكتل، وهو القفة الكبيرة التى يحول فيها التراب وغيره. المرجع السابق : وانظر الروض الأنف : ٤: ٥٨ .

(٥) المرجع السابق : ١: ٤٨١ .

الجاهلية يسمُّون الجيش خميسا، فبان أن القول الأول أولى (١).

قال السهيلى : فيه التفاؤل وقوة لمن استجاز الرجز .. وذلك أنه لما رأى المساحى والمكاتل، وهى من آلة الهدم والحفر، مع أن لفظ المسحاة من سحوت الأرض ، إذ قشرتها، فدل ذلك على خراب البلدة التى أشرف عليها (٢) .

قال ابن حجر : ويحتمل أن يكون قال : « خربت خيبر » بطريق الوحى . ويؤيده قوله بعد ذلك : « إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » (٣) .

وهكذا كان التفاؤل مصاحبا للبشائر ..

دعاء النبى ﷺ :

ومع تلك البشائر وهذا التفاؤل هذا الدعاء فيما رواه الحاكم بسند صحيح من حديث صهيب رضى الله عنه أن النبى ﷺ لم يرَ قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها :

« **اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذَرَيْن، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها، وشر أهلها، وشر ما فيها** »(٤).

ويروى الطبرانى بسند حسن عن أبى لبابة بن عبد المنذر أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد دخول قرية لم يدخلها حتى يقول :

« **اللهم رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين السبع وما أقلت، ورب الرياح وما أذرت، ورب الشياطين وما أضلت، إنى أسألك خيرها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها** » (٥).

وهكذا يكون الدعاء مع الإعداد والبشائر والتفاؤل .

وهذا درس يجب أن نعيه ، لأن الذى تتحلب إليه سوانح الخواطر فى إدراكنا

---

(١) المرجع السابق ، وانظر : المواهب : ٢: ٢٢٢. (٢) الروض الأنف : ٢: ٥٨ .

(٣) فتح البارى : ٧: ٤٦٨.

(٤) المستدرك : ١: ٤٤٦، ٢: ١٠٠ ـ ١٠١ وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وهو كما قالا.

(٥) مجمع الزوائد : ١٠ : ١٣٤ .

البشرى، فيما يمكن الوصول إليه من المعالم التربوية فى هذا الموقف : [1] أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ كان وهو يتضرع متذللا إلى الحق تبارك وتعالى فى خشوع وخضوع شهد فيه كبرياء جلال الحق ـ كما أسلفنا من وعد الله المسلمين بفتح خيبر وماتلاه من معالم ـ وقد تمثل له أصحابه في قلّة عددهم وعدّتهم، وفى أيديهم الحق والهدي والنور والخير، يدعون إليه فجّار اليهود وغوغاءهم، وقد جمعوا لهم ما جمعوا من السلاح والمؤن بما يفوق ما كان عليه المسلمون أضعافا مضاعفة، وهذا وضع بمقتضى الطبع البشرى ووسائل الحياة المألوفة بين الناس لا يمكن أن يتحقق معه نصر لهذه القلة المؤمنة ـ كما أسلفنا ـ ومن ثم كان هذا الدعاء ، وكان موقف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فى مقام العبودية المطلقة الذى تذوب فيه خصائص البشرية، حتى لايبقى لمظاهر العبودية البشرية شيء تردّ إليه أسباب ما يرجى أن يكون من فيض الرحمة الغامرة .

وهنا لايبقي للعبد شهود لتعبداته مهما كانت ضروبها وأنواعها، وإنما يبقى له مظهر الاستسلام الضارع لخالقه، وكأنه مسلوب الرغائب والإرادات، والمحاب والمكاره، بل يصير نقطة فى خط القضاء الإلهى تنساب فيها إرادة الله ومشيئته فى طريق الأقدار، نافذه مبرمة .

فالرحمة والنقمة والرضا والغضب تجليات متمازجة في وحدة من غيث الحق، لاتناقض بينها هناك، وهذه الوحدة المتمازجة في نظر العقل هى التى يراها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فى هذا الدعاء الذى ذكرنا، في مقام العبودية المطلقة ..

كذلك كان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فى مناجاته الضارعة بين يدى ربه، مع وجود البشائر والتفاؤل، واليقين بوعد الله عز وجل ـ كما أسلفنا ـ فى مشهد جلال الحق، والتسليم المطلق، والعبودية المطلقة التى لاتشهد من الكون إلا أنها ذرة من ذرات وجوده، تقلبها رياح الأقدار بما جرى ويجرى به الغيب المحجب عن ذوى الشهود النظرى من خاصة المقربين، ولعل موقف الشهود النبوى هو المعبّر عنه تلميحا بعين اليقين، ويقابله موقف شهود الخاصة المعبر عنه بعلم اليقين، وبين مقامى عين اليقين، وعلم اليقين ما بين مقامى علم العالمين، وشهود المشاهدين، والله تعالى محيط بما كان وما يكون .

---

(١) محمد رسول الله : ٣: ٣٥٤ ومابعدها بتصرف .

تربية الأمة :

وهذا نوع من التربية للأمة يقوم على العلم والعمل، العلم بحقائق الرسالة وأحكامها وشرائعها، والعمل الذى يجعل من هذه الرسالة منهجا عمليا تطبيقيا، تعيش الأمة فى ظله حياتها كلها، ممثلة فى جميع شئونها العقائدية والتعبدية والسياسية والعسكرية والاجتماعية.

وبهذه التربية تضمن الأمة ألا يقع زمام قيادها فى يد جهول ، يتلعب بمقدراتها فى حاضرها ومستقبلها، ليفسد عليها حياتها، ويرديها فى مهاوى المهالك، كما حدث فى المواجهة العسكرية حديثا مع اليهود.

وبهذه التربية ــ أيضا ــ تستطيع الأمة الإسلامية أن تذود بكل ما تملك من قوة فكرية ومادية عن حمى قيادها كل عليم اللسان، مظلم الجنان، منافق السلوك، لايعنيه من أمرها فى حاضرها ومستقبلها إلا كلمات مزخرفات، تقال وتنشر هنا وهناك، خاوية من حقائق منهج الرسالة، بعيدة عن التطبيق العملى الذى أخذ به الرسول الحبيب المحبوب ﷺ مجتمعه المسلم فى قيادته له، وتربيته تربية تعدّه لقيادة المعركة بيننا وبين اليهود والنصر عليهم، وتطهير الأرض من رجسهم، وتعدّه كذلك لقيادة الإنسانية قيادة ترفعها عن الإخلاد إلى الأرض، صاعدة بها إلى آفاق التحرر العقدى والتعبدى والاجتماعى والسياسى، والعسكرى ، أداء لحق اختيارها خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أمرا ونهيا لايقفان عند معايير منحرفة عن معالم المنهج الربانى الذى لايفرق فى إقامة العدل بين الأشخاص والأمم ..

ومن ثم تصلح المناهج التعليمة ، وتصبح منارات على الطريق، ويضبح العلماء في مكان القيادة والريادة والجهاد .. لا أن يكونوا في المؤخرة وسبق أن ذكرنا أن أحبار اليهود كانوا فى مقدمة جيشهم حين اشتعلت نار الحرب بيننا وبينهم فيما عرف باسم نكسة «٦٧» ! وحينئذ تكون للحرب قيادتها وتكون لها قداستها، وينصرنا الله على اليهود.

والله تعالى لم يُقم بناء هذه الأمة على المعجزات وكفى، ليجعلها كسيحة التفكير، متواكلة الحركات، متربصة للحظوظ والمصادفات، وإنما أقام بناءها على أساس وحدة إيمانية، متماسكة العرى، وثيقة الروابط، ووحدة مؤاخاة تكافلية ــ كما أسلفنا ــ تجعل من الفرد لبنة فى بناء شامخ، تحمل نصيبها في تماسك البناء .

والتكافل عمل متواصل موصول بالحياة الاجتماعية المتحركة فى إطار المنهج الإلهى الذى جعلته الرسالة أساسها في رسوخ الإيمان .

وللمعجزات مناسبات خاصة تقتضيها فتقع عندها، فتكون فى وقتها لونا من ألوان العمل التربوى لإنقاذ الموقف إذا أحاطت به الأزمات، واكتنفته الشدائد، وهى مع الإنقاذ تبشير يحرك العزائم، حتى تمضى قدما إلى الهدف ، شاكرة متحرزة.

والمعجزات لا تأتي فى منهج الرسالة الخاتمة إلا بعد إعداد تربوى يدخلها فى نطاق العمل المحفوف بالتأييد الإلهى المسدّد بالتوفيق .

إعداد ودعاء وثبات :

وسبق أن عرفنا كيف كان الإعداد لمواجهة اليهود فى خيبر .. وكيف كان وعد الله لهم بالنصر .. وكيف كان الدعاء .. ومع كل هذا وذاك، كان الثبات ..

وهذا يعلمنا أن حركة المسلم فى هذه الحياة لاتستقيم وتصل إلى هدفها إلا حين يرفع بصره وفؤاده، وعقله وسمعه، وحسه وشعوره، إلى الحق، يتلقى العون والنصر، وصدق الحركة وانتصار قيمها .

ويعلمنا كذلك أن هذا التوجه يجب أن يقترن بثبات الخطى على الأرض، وبتحمل مسئولية السمع والبصر والفؤاد بأمانة كاملة، وبصياغة الحرية الإنسانية بما ينسجم فى المدى القريب والبعيد مع قدر الله تعالى ونواميسه وسننه .

وبدون هذا التلاقى بين قدر الله وحركة الإنسان .. بين نور السماء وشفافيتها، وبين كثافة الأرض ووعورة الطريق .. بدون هذا الحوار الدائم الفعال، بين انطلاق الروح وشد الجسد .. بدون هذا التواصل الدائم، بين الحضور والغياب .. بدون هذا وذاك لن تكون هناك حركة جادة، ولن تكون هناك ثمرة مرجوة، ولن يكون هناك نصر نرجوه..

وتتجمع هذه الأدوار كلها فى دقة وإحكام ، لتعطينا تنظيما عسكريا لامثيل له فى غير المنهج الإسلامى ولاشبيه بحال من الأحوال .. وحينئذ ينصرنا الله على اليهود .

الوحدة الإيمانية :

والجيش الإسلامى الذى نصره الله على يهود خيبر ـ كما سيأتي ـ كان يمثل الوحدة

الإيمانية التي تجمع بين أفراده :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١).

وكلمة « إنما » تعنى فى التطبيق العلمى لمنهج الرسالة بمعناها لاستعمالى فى اللغة العربية عنصرا أساسيا فى بناء الجملة المقررة للوحدة الإيمانية، (٢) والإيمان فى كلمة «المؤمنون» لايعنى قط الخلافات المتفلسفة التى أفنت أعمار الفلاسفة والمتكلمين دون طائل، وإنما يعنى الإيمان كما جاء فى نص منهج الرسالة :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (٣)

إن الإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله . (٤) التصديق الذى لايرد عليه شك ولا ارتياب. التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذى لايتزعزع ولايضطرب، ولاتهجس فيه الهواجس، ولايتلجلج فيه القلب والشعور . والذى ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله. فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه ، لابد مندفع لتحقيق حقيقته فى خارج القلب. فى واقع الحياة . فى دنيا الناس .

يريد أن يوحد بين ما يستشعره فى باطنه من حقيقة الإيمان، وما يحيط به فى ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة ولايطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية فى حسه، والصورة الواقعية من حوله؛ لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه فى كل لحظة .

ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس، فهذا انطلاق ذاتى فى نفس المؤمن. يريد أن يحقق الصورة الوضيئة المضيئة فى قلبه، ليراها ممثلة فى واقع الحياة والناس.

والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيماني وواقعه العملى . وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيمانى الكامل الجميل المستقيم فى سبيل واقعه العملى الناقص الشائن المنحرف. فلابد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله .

---

(١) الحجرات : ١٠ .　　(٢) المرجع السابق : ٣٧٧ ومابعدها بتصرف .

(٣) الحجرات : ١٥ .　　(٤) فى ظلال القرآن : ٦ : ٣٣٤٩ بتصرف .

وفى المقدمة كل مايتعلق بالفكر اليهودى والسلوك العملى، حتى تنتنى هذه الجاهلية إلى التصور الإيمانى والحياة الإيمانية :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ الصادقون فى عقيدتهم .. الصادقون حين يقولون : إنهم مؤمنون. فإذا لم تتحقق تلك المشاعر فى القلب ولم تتحقق آثارها فى واقع الحياة، فالإيمان لا يتحقق. والصدق فى كمال العقيدة وفى ادعائها لايكون .

ونقف قليلا أمام هذا الاحتراس المعترض فى الآية :

﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾

ونبصر أنه ليس مجرد عبارة. إنما هو لمس لتجربة شعورية واقعية. وعلاج لحالة تقوم فى النفس. حتى بعد تدنيها :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ وشبيه بهذا الاحتراس قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾(١) وفى هذا إشارة إلى ما قد يعتور النفس المؤمنة تحت تأثير التجارب القاسية، والابتلاءات الشديدة، من ارتياب ومن اضطراب .. وإن النفس المؤمنة لتصطدم فى الحياة بشدائد تزلزل، ونوازل تزعزع. والتى تثبت فلا تضطرب، وتثق فلا ترتاب، وتظل مستقيمة موصولة هى التى تستحق هذه الدرجة عند الله.

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق وأخطار الرحلة فى هذه الحياة، والمواجهة مع اليهود ومن على شاكلتهم، لتعزم أمرها، وتستمسك بأخوتها، وتحتسب وتستقيم ولاترتاب عندما يدلهم الأفق ، ويظلم الجو ، وتتناوبها الرياح والعواصف!

وهنا نبصر استجاشة القلوب المؤمنة، واستحياء الرابطة الوثيقة بين المؤمنين، والتى جمعتهم بعد تفرق، وألّفت بينهم بعد خصام، ونبصر التذكير بتقوى الله عز وجل ، والتلويح برحمته التى تنال بتقواه، ونحن نقرأ :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

وإذا ختم النص المنهجى جملة الوحدة الإيمانية بكلمة « إخوة » كانت هذه الكلمة

---

(١) فصلت : ٣٠ والأحقاف : ١٣ .

هى اللبنة التى بها يستمسك بناء الجملة كلها، لتكون نموذجاً لمنهج الرسالة في دستور المؤاخاة التكافلية التى عقدها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بين أفراد المجتمع المسلم .. الذين يتكون منهم الجيش الإسلامى المتجه إلى يهود خيبر ...

وهنا نبصر أخوة الدين جليلة القدر، وعظيمة الأثر، كبيرة النفع عميقة الفائدة ..

حقا، إنها الأُخُوّة الزكية، الصافية النقية، والمحبة الندية، والمودة الرضية، والنفحة العلوية، والألفة القدسية، التى تنشىء فى القلب إدراكا كاملا، ونورا شاملا، ونبضا متصلا، وحياة مباركة ، هى سراج مابطن وملاك ماعلن، تنطف نورا كأنها قناع رحمة الله ..

نبصر هذا ونحن نقرأ :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١)

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله التى نبصرها حية شاخصة فى هذا الجيش الإسلامى المتجه إلى يهود خيبر ركيزة أساسية من ركائز النصر .. ونعمة يمتن الله عز وجل بها على الجماعة المسلمة الأولى .. وهى نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائما .. وفى هذه الآية التى معنا يذكرهم كيف كانوا فى الجاهلية « أعداء » وما كان أعدى من الأوس والخزرج فى المدينة أحد . وهما الحيان العربيان ..

يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة، وينفخون فى نارها حتى تأكل روابط الحيّين جميعا . ومن ثم تجد يهود مجالها الذى لاتعمل إلا فيه، ولاتعيش إلا معه.

وحاضر الأمة الإسلامية من التفرّق والتمزّق دليل معاصر على أثر مخططات الصهيونية فى هذا المقام، حتى لاتتوحد الأمة، وحتى لايكون النصر للمسلمين ..

ونبصر الآن معالم الدعوة إلى الوحدة الإيمانية .. ونبصر خلفا يحاول جاهدا أن يسير في نفس الطريق.. وعسى أن يؤلف اللّه بين القلوب كما ألف بين قلوب الحيّين من العرب

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

بالإسلام حتى تجمعوا تحت راية الأنصار التى التقت مع راية المهاجرين، وتكوّن هذا المجتمع المثالى، ومن ثم كان هذا الجيش المتوجه إلى خيبرصورة حية معبرة شاخصة لجند الحق، الدين كتب الله لهم النصر على اليهود ..

وليس إلا حبل الله الذى يعتصم به الجميع .. وما يمكن أن يجمع القلوب، ويكوّن الجيش الإسلامى الذى نرجو أن يتوجه إلى الأرض المحتلة ليعيدها إلى أصحابها إلا الأخوة فى الله، تلك التى تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية، والثارات القبلية، والأطماع الشخصية، والرايات العنصرية .. ويتجمع الصف من جديد تحت لواء الحق ..

ويقف الفكر سابحا، والحس مشدوها، أمام وقع التصوير والتعبير والإدراك والتقدير، فى لمسات وجدانية عقلية، روحية فكرية، فطرية نفسية، لا يؤثر فيها إلا الضمير، ولايطلع عليها إلا اللطيف الخبير. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إلى أن يجمعها الحق جل شأنه فى مستقر رحمته :

﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ (١)

آمين آمين .

وكل مايقرره القرآن الكريم من سنن إلهية عامة أو خاصة، يمثل جانبا من جوانب المنهج فى الرسالة الخاتمة، وهذا المنهج ـ كما أسلفنا ـ علم وعمل، والرسالة الخاتمة فى جملتها وتفصيلها تعبير فكرى عن الجانب العلمى فى منهجها، وتطبيق واقعى لجوانب العمل فى هذا المنهج .

وقد كانت سياسة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ النابعة من منهج رسالته فى تربية المجتمع المسلم تربية تنقله من تراث الرواسب الموروثة .. بين هذا المجتمع لقيادة الحياة وبين سنن الله الكونية العامة التى تحكم سير الحياة ونظامها العام، وتربط الأحداث والوقائع بأسبابها المألوفة .. ومن ثم كان النصر على اليهود .

الكفاح الصبور :

وهذا الوضع فى هذه الرسالة الخاتمة أساس تربية المجتمع المسلم على الكفاح الصبور، والنضال المتحفز فى سبيل إحقاق الحق وإبطال الباطل حتى لايركن هذا المجتمع إلى الكسل المستسلم، وللخمول المتحجر والتثاؤب النؤوم فى انتظار الخوارق والآيات تتنزّل عليه،

---

(١) الحجر : ٤٧ .

وترقب للمعجزات تسوقه فى حياته، مما يؤدى إلى الاستغراق فى تعطل القوى الإنسانية التى منحها الله لكل إنسان على قدر استعداده اطّراحا للأسباب والأخذ بها، والإخلاد إلى الأرض فى استسلام متبلّد واستكانة متجمدة .

وقدكان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ محيط العلم فى تربيته لمجتمعه المسلم بأن الأسباب المألوفة العامة فى حياة الناس ليست إلا نوعا من الأحداث المشاهدة فى واقع الحياة، كالغائب المحجوب كما تقتضى به فاعلية السنن العامة فى مسيرة الحياة ونظامها، وتحركات الكون بما فيه من عناصر السلب والإيجاب والنفى والإثبات .. ومن ثم كان النصر على اليهود .

الربط بين الأسباب والمسببات تحكمه مشيئة الله :

وهذا الربط بين الأسباب ومسبباتها فى دائرة السنن الكونية العامة ليس ربطاً محتّم الوقوع بمقتضى مدركات العقل ومنطقه ، لأنه قد يتخلف إذا كان أدنى من مستوى الإيجاب الحتمى لتدخل بعض خفيّات الأمور التى هى فوق مستوى الإدراك العقلى تدخلا يحد من فاعلية الأسباب فى ترتب مسبباتها عليها .

ومن ثم كان الإيمان بعدم الوقوف عند هذه الأسباب وظواهرها المتسقة مع مجرى السنن الكونية العامة ضرورة فى التربية العملية والتوجيه السلوكى للمجتمع المسلم، ليعلم هذا المجتمع أن وراء هذه الأسباب فى تسيير الحياة ونظامها موجبات أخرى لها آثارها فى وقوع الأحداث على غيرما تقضى به السنن الكونية العامة، ولكن هذه الموجبات لايحكمها المنطق العام للعقل وحده، ولاتخضع خضوعا مطلقا لمجرى السنن الكونية العامة فى نظام الحياة، وإنما يحكمها نظام خاص يربطها بسنن إلهية خاصة، يتحكم فى ربط بعض الأحداث بموجباتها الغيبية عند توافر دواعيها ومقتضياتها .. ومن ثم أبصرنا الجيش الإسلامى يتحرك نحو خيبر، رغم الفوارق الكبيرة فى العدد والعدة .. ومن ثم كان القضاء على اليهود عسكريا .

وهذه السنن الخاصة لايظهر أثرها فى التحكم فى سير بعض الأحداث إلا فى أوقات خاصة ومقتضيات خاصة، وقد يعم أثرها نظام الحياة فى هذه الأوقات الخاصة، فتشتبه معالمها فى عموم أثرها بالسنن الكونية العامة.

والمثل الواضح لذلك فى تاريخ الرسالات عبر التاريخ البشرى هو آيات الله تعالى التى

يؤيد بها رسله، وقد تشتبه بها عند بعض ذوى العقول القاصرة والوقوف عند ثبات العلم الكونى، واستكشاف تفاعلات عناصر الطبيعة التى يضيق حيّزها عمن ليس من أهلها، فلا يدخل إلا قلة ضئيلة من ذوى العقول الموهوبة بالتفرد، لمعرفة سنن الكون فى سيره وتحركات عناصره وكشف أسراره، مع الغفلة عن دلالاتها على مبدع سنن الكون العامة والخاصة .

وهذا الوضع متحقق فى منهج الرسالة الخاتمة أكمل تحقق بجانبيه العلمى والعملى، وعلى أساسه أقام الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بناء مجتمعه المسلم فى تربيته السلوكية والعسكرية على سواء فقد أخذ ﷺ أفراد هذا المجتمع وجماعاته بدءاً على ضرورة معرفة السنن الكونية العامة، وربط الأسباب بمسبباتها، وأخذهم نهايةً على وجوب تطبيق هذه المعرفة على أحداث الحياة ووقائعها، ووكَل أمر السنن الخاصة لمناسباتها ومقتضياتها .. ومن ثم كان النصر على اليهود .

مقام العبودية :

ونعود إلى دعاء النبى ﷺ الذى كان لايدخل قرية إلا قاله ــ كما عرفنا ــ نعود لنرى فيه هذا الموقف فى مقام العبودية وهو يناشد ربه :

« اللهم ! رب السموات السبع وما أظلت، ورب الأرضين السبع وما أقلت ، ورب الرياح وما أذرت، ورب الشياطين وما أضلت، إنى سائلك خيرها وخيرما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها ».

نعود لنتصور الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بعد أن عبأ أصحابه، وبذل كل الأسباب الممكنة ــ كما أسلفنا ــ مع وجود البشائر والتفاؤل..

نعود لنتصور حال الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وهو فى هذا الدعاء المبتهل، وقد نظر إلى أصحابه فى قلة عددهم وضعف عدتهم، وهم العصبة المؤمنة التى تحمل أعناقها على أكفها، زاحفة نحو خيبر التى تجمع بين التفوق العددى والإمكانات العسكرية، يحملون أعلام الوثنية الفكرية اليهودية الجاحدة ، وتخفق فوق هاماتها رايات العنصرية البغيضة الحاقدة، والتعطش لسفك دماء المؤمنين الموحدين، ومعهم قوى العتاد المادى ، وتوافر أسباب الغلبة القتالية من الرجال والسلاح ..

نعود لنبصر تلك الصورة الوضيئة المضيئة لهذه المناجاة الضارعة فى محراب العبودية

المطلقة، والمناشدة البالغة منتهى ما يمكن تصوره فى ميزان الموقف، وما ينتظر من نتائجه العملية لو لم تتغير الأحداث .. تدل على ما كان يتوقعه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ من مفاجآت، وما كان يستطلعه فى آفاق مناشدته ربه من مدد إلهى جعل من أصحابه فى قوة إيمانهم، وعظيم ثقتهم بربهم، قوة غالبة، تقتحم الحواجز للقاء الموت وجها لوجه، فى خيبر، فى فدائية لا تبالى أوقعت على الموت أم وقع عليها الموت، وبهذه الفدائية الإيمانية تم لأصحاب رسول الله ﷺ النصر الذى أذهل كل من سمع به، لأن كل الأحوال المادية المحتفة بالمعركة تجعله بعيد المنال فى واقع تلك الأحوال ..

انقلاب الميزان :

ولم يكن هذا الوضع المتباعد المتفاوت فى القوة عددا وعدة بعيدا عن تصور هؤلاء اليهود البغاة و- من شايعهم من الوثنيين الطغاة ــ كما أسلفنا ــ بل كان بين أيديهم وتحت أسماعهم وأبصارهم منذ اللحظة الأولى .. ومع ذلك نبصر انقلاب الميزان بين القوتين ــ كما سيأتى ــ ونبصر تحول مجرى الأحداث، حيث شحنت القلة المؤمنة بقوة الإيمان الفدائى، ومن ثم خارت عزائم الفجور اليهودى والوثنى فى قوة العدد وكثرته وقوة العدة وأسلحتها، فقاتلت القلة المؤمنة وبين عينيها هدفها الإيمانى، ليُعبد اللهُ وحده، وليذهب الشرك والوثنية والعنصرية اليهودية وحزب الشيطان إلى مهاوى الفناء، وقاتلت الكثرة الفاجرة اليهودية ومعها الوثنية، وهدفها نشر أجنحة الطغيان على آفاق الحياة، ليعم الفجور فجاج الأرض، وليبقى الباطل اليهودى الغشوم هو صاحب السلطان على تلك المنطقة، ويهيمن على مقدراتها، لينتفخ ويتورّم ويملأ الأرض بنتنه وفجوره، ويبقى عبيد الوثنية وأحلاس الشرك العائشون لبطونهم وشهواتهم هم المتحكمون فى مصائر الحياة، يستعبدون الإنسانية من أجل ما فى أيديهم من لعاعات الدنيا ولقمة العيش !

ولكن الله عز شأنه الذى خلق الحياة وما فيها ومن فيها، وجعل زمام العزة فيها للإنسان، أيا كان هذا الإنسان الذى هو بحكم إنسانيته سيد هذه الحياة بإيمانه بربه وخالقه.. لم يخلقها ليجعل سلطان قيادها فى أيدى حثالة الإنسانية من اليهود البغاة الطغاة الفجرة، ومن على شاكلتهم ممن يشايعهم، يمرحون فيها، ويسرحون فى حمآت الشهوات الداعرة والرغائب الطاغية، وإنما خلقها ليعرّفها بما خلق فيها من أسرار الكون وجلال وحدانيته، ومحكم تدبيره، وقهر سلطانه، لتفرده وحده بالعبادة حتى تصل بهذه المعرفة إلى الكشف عن أسرار نفسها، ليكون لها من هذا الكشف تحقيق تحررها من عبودية المخلوقين فى شتى صورهم وأشكالهم وحقائقهم، وهذا التحرر هو الدعامة التى ترتكز

عليها الحياة فى أوضاعها الاجتماعية، حتى يستحوذ الصالحون لعمارة الأرض من أبناء الإنسانية على زمام قيادتها بالقوة القاهرة، قوة الإيمان وعزة الحياة وكرامة الإنسان، وتحرير الرازحين فى أغلال الظلم الاجتماعى الظلوم من عبودية لهـذا الظلم الفاجـر الداعر .

وهذه القوة القاهرة ليست فى كثرة عدد الظالمين، ولافيما يملكون من عدة مادية طاغية باغية، وإنما هى كامنة فى معرفة الإنسان لحقوقه وواجباته فى هذه الحياة، والغضب لسلب هذه الحقوق، وهذا مالا يتحقق إلا بقوة الإيمان بالله عز شأنه، وصدق التوكل عليه، وحب الموت فى سبيل الله عز وجل .

وهذا الإيمان هو العامل الفعال الذى قلب ميزان معركة خيبر وجعل القلة المؤمنة هى سيدة الموقف فيها، ذلك الموقف الذى انتهى بأعظم نصر عرفته المعارك التى دارت فى عصر الرسالة مع اليهود، ومن ثم كان القضاء عليهم عسكريا .

مفاجأة اليهود :

ومع علم اليهود بتحرك الجيش الإسلامى ـ كما أسلفنا ـ فإنهم قد فوجئوا بالمسلمين يصبّحون خيبر. وقد كان وصول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بجيشه إلى خيبر ليلا... وكان اليهود حتى اليوم الذى وصل فيه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ مشارف خيبر فى حالة استنفار قصوى؛ لأنهم كانوا يتوقعون المواجهة فى أية لحظة، وكانوا فوق ذلك يستعرضون المقاتلين منهم تقوية لقلوبهم التى أصابها الخوف ـ كما هو شأن اليهود ـ إلا أنهم في هذه الليلة لم يشعروا إلا وجيش المسلمين على مشارف حصونهم التى فتحوها ، وغدَوْا إلى أعمالهم معهم المساحى والمكاتل، وقالوا فى جزع وهلع : محمد والخميس. ثم ولّوْا هاربين إلى حصونهم .. ـ كما سبق ـ وقال النبى ﷺفيما رواه الشيخان وغيرهما :

« الله أكبر ! خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »

مصير القرى الفاجرة :

والقرى الفاجرة تجرّ على نفسها الهلاك إن آجلا وإن عاجلا .. يروى الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال :

« نهى رسول الله ﷺ أن تشترى الثمرة حتى تطعم » وقال :

« **إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله** » (١) واليهود يشيع فيهم هذا الفساد المزدوج، فهم إلى اليوم دعاة الربا فى العالم، وهم قادة التبرج الذى يدفع إلى الاستثارة المستمرة التى تنتهى ـ غالبا ـ عند الذين لاوازع عندهم ولاعاصم من دين وخلق إلى سعار شهوانى لاينطفئ ولايرتوى .. والنظرة الخائنة، والحركة المثيرة، والزينة المتبرجة ، والجسم العارى .. كلها من صنع يهود .. وكلها لاتصنع شيئا إلا أن تثير ذلك السعار الحيوانى المجنون ! وإلا أن يفلت زمام الأعصاب والإرادة فإمّا الإفضاء الفوضوى الذى يتقيد بقيد، وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة! وهى تكاد تكون عملية تعذيب ! وهذا من صنع يهود !

دور « فرويد اليهودى » :

ولقد شاع وذاع أن النظرة المباحة والحديث الطليق، والاختلاط الميسور، والدعابة المرحة بين الجنسين، والاطلاع على مواطن الفتنة المخبوءة !شاع وذاع أن هذا كله تنفيس وترويح، وإطلاق للرغبات الحبيسة، ووقاية من الكبت، ومن العقد النفسية، وتخفيف من حدة الضغط الجنسى، وما وراءه من اندفاع غير مأمون !

شاع وذاع هذا على إثر انتشار بعض النظريات المادية القائمة على تجريد الإنسان من خصائصه التى تفرقه من الحيوان، والرجوع به إلى القاعدة الحيوانية الغارقة فى الوحل والطين ! وبخاصة نظرية « فرويد اليهودى » ـ تلك النظرية التى ألف كتابا خاصا بشأنها ولكن كتبه الأخرى تدور حول الغريزة الجنسية؛ لأنه يجعلها مدار الحياة كلها، ومنبع المشاعر البشرية جميعها بلا استثناء ، فيأتى بالأعاجيب(٢) !.

ويصرّ أكثر من ذلك ـ وهذا هو المهم ـ على أن يفسر الدين والأخلاق بصفة عامة بأنها انبثاق جنسى .. وجنسى على وجه التحديد!

مصادفة!

الحياة كلها جنس، ومنبثقة من خلال الجنس!

والجنس بيدأ مبكرا .. لافى مرحلة البلوغ أو المراهقة كما يحسب الجهلاء من الناس.. وإنما من لحظة الميلاد، بل يولد الإنسان جنسا خالصا مركزا فى إهاب طفل حيوانى صغير!.

---

(١) المستدرك : ٢ : ٣٧.

(٢) انظر : الإنسان بين المادية والإسلام : ١٦٧ ومابعدها .

والتطور والثبات : ٤٧ وما بعدها .

كل أعمال الطفل تعبير عن طاقة الجنس !.

الرضاعة جنس !

ومص الإبهام جنس !.

وتحريك العضلات جنس !.

والتبول والتبرز جنس !.

والالتصاق بالأم جنس !.

وهذا الأخير بصفة خاصة هو الذى يشكل الحياة النفسية للبشرية كلها أفرادا وجماعات ! .

فالطفل يعشق أمه بدافع الجنس، ثم يجد الأب حائلا بينها وبينه فيكبت هذا العشق. فتنشأ في نفسه عقدة « أوديب» !.

والطفلة تعشق أباها بدافع الجنس كذلك، ثم تكبت العشق فتنشأ فى نفسها عقدة «إليكترا »!.

ومن هذه العقدة اللعينة ينشأ الضمير والدين والأخلاق والتقاليد، وكل « القيم العليا » فى حياة البشرية .

والأمر كله مستمد من تلك الحادثة التى « رآها » فرويد اليهودى في منشأ تاريخ البشرية !.

ذلك أن الأبناء ــ في مطلع البشرية ــ اتجهوا نحو أمهم بدافع الجنس، ثم وجدوا أباهم عائقا فى الطريق فقتلوه، ثم أحسوا بالندم على قتل أبيهم فأقسموا ليقدسنّ ذكراه، فعبدوه، ومن ذلك نشأت عبادة « الأب » ثم تحولت إلى عبادة « الطوطم »، لأنه فى النفس البشرية هكذا يرتبط الأب برمز الحيوان ! (لماذا ؟!)وفى الوقت ذاته وجد الأبناء أنهم سيتقاتلون فيما بينهم للحصول على الأم. وهذا أمر لايجوز ! (لماذا ؟!) فقرروا تحريمها على أنفسهم، فنشأ بذلك أول تحريم (جنسى) وانصب على الأم. كما قرروا التعاون فيما بينهم بدل الخصام والعراك (لماذا ؟!) فنشأت «القيم»!

وهذه القصة التى « رآها » فرويد اليهودى تحدث فى البشرية الأولى ليست حادثة تاريخية مفردة، فقد تركت طابعها فى الحياة البشرية كلها منذ ذلك الحين : فكل طفل

يعشق أمه بدافع الجنس. وكل طفل يكبت ذلك العشق. ثم ينمو الدين والأخلاق والتقاليد.. والقيم العليا والحضارة، من ذلك الكبت الجنسى لعشق الأم .. ومع ذلك فالكبت لم ينته، وإنما هو يتحول إلى قلق نفسى دائم لايترك الناس فى راحة !

[«وكل الديانات التى جاءت بعد ذلك هى محاولات لحل المشكلة ذاتها (إحساس الأبناء بالجريمة) وهى تختلف بحسب مستوى الحضارة التى ظهرت فيها ، والوسائل التى تطبقها، ولكنها جميعا تهدف إلى شىء واحد .. رد الفعل لنفس الحدث العظيم (قتل الأب) الذى نشأت عنه الحضارة، والذى لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة!» (فرويد اليهودى)].

واضح أن هذا التفسير للإنسان تفسير حيوانى بحت !

إن هذا كله انحدار بالإنسان إلى عالم البهيمية وأشد، وإننا لنرى فى أشد البلاد إباحية وتفلتا من جميع القيود الأخلاقية، ما يكذب هذا الهراء اليهودى وينقضه من أساسه! ونشاهد الأمراض النفسية والعقد والشذوذ بكل أنواعه.. نجد كل هذا ثمرة مباشرة لهذا الفجور اليهودى!

وواضح مدى تلويث فكرة الدين والأخلاق والتقاليد، وتقديرها فى نفوس الناس بغمسها فى مستنقع الجنس المستقذر فى بلاد كثيرة وإخراجها منه يتقاطر منها نقيع الجنس المكبوت!

جاء فى بروتوكولات حكماء صهيون :

« يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل زمان فتسهل سيطرتنا .. إن فرويد منا. وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه » !

وعلينا أن ندرك خطورة أثر هذا الدور اليهودى فى المجتمع الإسلامى حتى لايحل بنا عذاب الله كما حل بيهود خيبر، وكما سيحل بهم فى الأرض المحتلة حين نواجههم بعقيدتنا وأخلاقنا، وحين يكون علماؤنا فى الخطوط الأمامية ـ كما كان سلفنا الصالح ـ وحين يتوحد الصف الإسلامى على الجهاد فى سبيل الله عز وجل ..

من مخططات يهود:

وفى الوقت ذاته علينا أن ندرك ضرورة البعد عن الربا فى كل صوره وأشكاله، لأنه

من مخططات يهود، والربا عملية تصطدم ابتداء مع قواعد التصور الإيمانى إطلاقا، ومن ثم فلا رعاية للمبادئ والأخلاق والغايات التى يريد الله للبشر ان تقوم حياتهم عليها ..

إنه يقوم على أساس تصور خاطئ فاسد. هو أن غاية الغايات للوجود الإنسانى هو تحصيله للمال ـ بأية وسيلة ـ [1] واستمتاعه به على النحو الذى يهوى ! ومن ثم يتكالب على جمع المال وعلى المتاع به، ويدوس فى الطريق كل مبدأ وكل صالح للآخرين ! وهذا خلق يهود !

ثم ينشئ فى النهاية نظاما يسحق البشرية سحقا، ويشقيها فى حياتها أفرادا وجماعات ودولا وشعوبا، لمصلحة حفنة من المرابين، ويحطها أخلاقيا ونفسيا وعصبيا، ويحدث الخلل فى دورة المال ونمو الاقتصاد البشرى نموا سويا .. وينتهى ـ كما انتهى فى العصر الحديث ـ إلى تركيز السلطة الحقيقية والنفوذ العملى على البشرية كلها فى أيدى زمرة من أحط خلق الله وأشدهم شرا، وشرذمة ممن لايرعون فى البشرية إلاّ ولاذمة ، ولايراقبون فيها عهدا ولاحرمة .. وهؤلاء هم الذين يداينون الناس أفرادا، كما يداينون الحكومات والشعوب فى داخل البلاد وخارجها ـ وترجع إليهم الحصيلة الحقيقية لجهد البشرية كلها، وكدّ الآدميين وعرقهم ودمائهم، فى صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم فيها جهدا !

وهم لا يملكون المال وحده .. إنما يملكون النفوذ .. ولما لم تكن لهم مبادئ ولا أخلاق ولا تصور دينى أو أخلاقى على الإطلاق، بل لما كانوا يسخرون من كل مايتصل بالدين والأخلاق والمثل والمبادئ، فإنهم بطبيعة الحال يستخدمون هذا النفوذ الهائل الذى يملكونه فى إنشاء الأوضاع والأفكار والمشروعات التى تمكنهم من زيادة الاستغلال، ولاتقف فى طريق جشعهم وخسة أهدافهم .. وأقرب الوسائل هى تحطيم أخلاق البشرية وإسقاطها فى مستنقع آسن من اللذائذ والشهوات التى يدفع فيها الكثيرون آخر فلس يملكونه، حيث تسقط الفلوس بعد سقوط النفوس فى المصائد والشباك المنصوبة ! وذلك مع التحكم فى جريان الاقتصاد العالمى وفق مصالحهم المحدودة، مهما أدى هذا إلى الأزمات المعروفة فى علم الاقتصاد، وإلى انحراف الإنتاج الصناعى والاقتصادى كله عما فيه مصلحة المجموعة البشرية إلى مصلحة الممولين المرابين، الذين تتجمع فى أيديهم خيوط الثروة العالمية ! وهذا من أهداف يهود !

---

(١) فى ظلال القرآن : ١ : ٣٢٠ ومابعدها بتصرف .

والكارثة التى تمت فى العصر الحديث ـ ولم تكن بهذه الصورة البشعة فى الجاهلية الأولى ـ هى أن هؤلاء المرابين الذين كانوا يتمثلون فى الزمن الماضى فى صورة أفراد أو بيوت مالية كما يتمثلون الآن فى صورة مؤسسى المصارف العصرية ـ قد استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها، وبما يملكون كذلك وسائل التوجيه والإعلام .. أن ينشئوا عقلية عامة بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك اليهود المرابون ومن على شاكلتهم عظامهم ولحومهم، ويشربون دماءهم فى ظل النظام الربوى .. هذه العقلية العامة خاضعة للإيحاء الخبيث المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعى المعقول وقد طالعتنا إحدى الصحف وأنا أكتب هذا الموضوع بأن الفائدة التى تقدمها البنوك الربوية حلال، فقلت فى نفسى : إنها العقلية التى خضعت لهذا الإيحاء الخبيث المسموم مهما كان أصحابها !

ثم إن هذا النظام يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين فى التجارة والصناعة علاقة مقامرة ومشاكسة مستمرة. فإن المرابى يجتهد فى الحصول على أكبر فائدة، ومن ثم يمسك المال حتى يزيد الاضطرار فيه فيرتفع سعر الفائدة، ويجد العاملون أنه لافائدة لهم من استخدام هذا المال .. وعندئذ ينكمش حجم المال المستخدم في هذه المجالات التى يعمل فيها الملايين .. ويتعطل العمال .. ويجد المرابون أن الطلب على المال قد نقص أو توقف .. وعندئذ يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطرارا ! .. وهكذا دواليك تقع الأزمات الاقتصادية الدورية العالمية . ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة! وهذا من أهداف يهود !

وإن جميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين اليهود ومن على شاكلتهم.. وقلما ينتهى الأمر عند هذا الحد، ولا يكون الاستعمار هو نهاية الديون .. وهنا تكون الحروب بسبب الاستعمار ! وهذا من أهداف يهود !

حقائق أساسية :

ولا نستعرض عيوب هذا النظام الربوى فى هذا المقام ..وحسبنا أن نشير إلى جملة حقائق أساسية فيما يأتى :

الحقيقة الأولى : أن كل ما يقوله أصحاب الفتاوى فى تحليل الربا كذب ودجل، وخداع ودخل، وتمويه ودغل، وأن أساس النظام الإسلامى يصطدم اصطداما مباشرا بالنظام الربوى، ونتائجه العملية فى حياة الناس وتصوراتهم وأخلاقهم !

والحقيقة الثانية: أن النظام الربوى بلاء على الإنسانية ـ لا في إيمانها وأخلاقها وتصورها للحياة فحسب ـ بل كذلك فى صميم حياتها الاقتصادية والعملية، وأنه أبشع نظام يمحق سعادة البشرية محقا ، ويعطل نموها الإنسانى المتوازن !

والحقيقة الثالثة : أن النظام الأخلاقى والنظام العملى فى الإسلام مترابطان تماما، وأن الإنسان فى كل تصرفاته مرتبط بعهد الاستخلاف وشرطه، وأنه مختبر وممتحن فى كل نشاط يقوم به فى حياته، ومحاسب عليه فى آخرته. فليس هناك نظام أخلاقى وحده، ونظام عملى وحده ، وإنما هما معا يؤلفان نشاط الإنسان، وكلاهما عبادة يؤجر عليها إن أحسن، وإثم يؤاخذ عليه إن أساء، وأن الاقتصاد الإسلامى الناجح لايقوم بغير أخلاق، وأن الأخلاق ليست نافلة يمكن الاستغناء عنها ثم تنجح حياة الناس العملية.

والحقيقة الرابعة: أن التعامل الربوي لا يمكن إلا أن يفسد ضمير الفرد وخلقه، وشعوره تجاه أخيه فى الجماعة، وإلا أن يفسد حياة الجماعة البشرية وتضامنها بما يبثه من روح الشره والطمع والأثرة والمخاتلة والمقامرة بصفة عامة.

أما فى العصر الحديث فإنه يّعد الدافع الأول لتوجيه رأس المال إلى أحط وجوه الاستثمار. كي يستطيع رأس المال المستدان بالربا أن يربح ربحا مضمونا، فيؤدى الفائدة الربوية ويفضل منه شيء للمستدين. ومن ثم فهو الدوافع المباشر لاستثمار المال فى الأفلام السافلة الخليعة، والصحافة الساقطة الرقيعة، وسائر الاتجاهات التى تحطم الأخلاق تحطيما!

والحقيقة الخامسة : أن الإسلام نظام متكامل .. فهو حين يحرم التعامل الربوى يقيم نظمه كلها على أساس الاستغناء عن الحاجة إليه، وينظم جوانب الحياة الاجتماعية كلها على هذا الأساس، بحيث تنتفى منها الحاجة إلى هذا النوع من التعامل، بدون مساس بالنمو الاقتصادى والاجتماعى والإنسانى المطرد .

والحقيقة السادسة : أن الإسلام ـ حين يتاح له أن ينظم الحياة وفق تصوره ومنهجه الخاص ـ لن يحتاج عند إلغاء التعامل الربوى، إلى إلغاء المؤسسات والأجهزة اللازمة لنمو الحياة الاقتصادية العصرية نموها الطبيعى السليم، ولكنه فقط سيطهرها من لوثة الربا ودنسه. ثم يتركها تعمل وفق قواعد أخرى سليمة. وفى أول هذه المؤسسات والأجهزة : المصارف والشركات وما إليها من مؤسسات الاقتصاد الحديث .

والحقيقة السابعة : ـ وهى الأهم ـ ضرورة اعتقاد أن هناك استحالة عقائدية فى أن يحرم الله أمرا لاتقوم الحياة البشرية ولاتتقدم بدونه! كما أن هناك استحالة عقائدية كذلك فى أن يكون هناك أمر خبيث ويكون فى الوقت ذاته حتميا لقيام الحياة وتقدمها .. فالله سبحانه هو خالق هذه الحياة، وهو مستخلف الإنسان فيها، وهو الآمر بتنميتها وترقيتها، وهو المريد لهذا كله الموفق إليه. فهناك استحالة إذن فى تصور المسلم أن يكون فيما حرمه الله شىء لاتقوم الحياة البشرية ولاتتقدم بدونه . وأن يكون هناك شىء خبيث هو حتمى لقيام الحياة ورقيها. وإنما هو سوء التصور . وسوء الفهم والدعاية اليهودية المسمومة الخبيثة الطاغية الباغية العاتية التى دأبت على بث فكرة : أن الربا ضرورة للنمو الاقتصادى والعمرانى، وأن النظام الربوى هو النظام الطبيعى . وبث هذا التصور الخادع فى مناهل الثقافة العامة، ومنابع المعرفة الإنسانية فى مشارق الأرض ومغاربها. ثم قيام الحياة الحديثة على هذا الأساس فعلا بسعى بيوت الأموال والمرابين من اليهود ومن على شاكلتهم. وصعوبة تصور قيامها على أساس آخر وهى صعوبة تنشأ أولا من عدم الإيمان . كما تنشأ ثانيا من ضعف التفكير وعجزه عن التحرر من ذلك الوهم الذى اجتهد المرابون من اليهود ومن على شاكلتهم فى بثه وتمكينه بما لهم من قدرة على التوجيه ، وملكية للنفوذ داخل الأنظمة العالمية، وملكية لأدوات الإعلام العامة والخاصة.

والحقيقة الثامنة: أن استحالة قيام الاقتصاد العالمى اليوم وغدا على أساس غير الأساس الربوى ..ليست سوى خرافة. أوهى أكذوبة ضخمة تعيش لأن الأجهزة التى يستخدمها أصحاب المصلحة فى بقائها أجهزة ضخمة فعلا ! وأنه حين تصح النية، وتخلص الطوية، وتعزم الأمة الإسلامية أن تسترد حريتها من قبضة العصابات الربوية العالمية من اليهود ومن على شاكلتهم، وتريد لنفسها الخير والسعادة والبركة، مع نظافة الخلق، وطهارة المجتمع ، فإن المجال مفتوح لإقامة النظام الآخر الرشيد الذى أراده الله للبشرية، والذى طبق فعلا، ونمت الحياة فى ظله فعلا قديما وحديثا، هنا وهناك، وماتزال قابلة للنمو تحت إشرافه وفى ظلاله لو عقل الناس ورشدوا .. ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** ﴾ على اليهود ومن على شاكلتهم .

حرب من الله ورسوله:

ولننظر كيف كانت ثورة الإسلام على تلك الشناعة الربوية التى ذاقت منها البشرية ما لم تذقة قط من بلاء .. يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧٥ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٧٧ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ اتَّقُوا۟ اللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٩ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٨٠ وَاتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١)

لقد كانت للربا فى الجاهلية مفاسده وشروره .. ولكن الجوانب الشائهة القبيحة من وجهه الكالح الفاضح الواضح ما كانت كلها بادية فى مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت فى عالمنا المعاصر، ولا كانت البثور والدمامل في ذلك الوجه اليهودى الذميم مكشوفة كلها كما كشفت اليوم فى مجتمعنا الحديث. فهذه الحملة المفزعة البادية فى هذه الآيات على ذلك النظام الربوى المقيت، تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع فى حياة البشرية، أشد مما كانت متكشفة فى الجاهلية الأولى .

ويدرك اليوم من يريد أن يتدبر حكمة الله عز وجل، وعظمة هذا الدين، وكمال هذا المنهج، ودقة هذا النظام .. يدرك اليوم من هذا كله ما لم يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مرة . وأمامه اليوم من واقع العالم عامة، والعالم الإسلامى خاصة، مايصدّق كل كلمة تصديقا حيا مباشرا واقعا.

والبشرية الضالة التى تقع فى هذا المخطط اليهودى ومن يشايعه فى العالم كله، تأكل الربا وتوكله، ومن ثم تنصب عليها البلايا الماحقة الساحقة من جراء هذا النظام التربوى، فى أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها، وتتلقى ــ حقا ــ حربا من الله تصب عليها النقمة والعذاب.. أفرادا وجماعات، وأمما وشعوبا، وهى لاتعتبر ولاتفيق !

---

(١) البقرة :٢٧٥ ــ ٢٨١ .

حقا، إنها الحملة المفزعة، وإنه التصوير الرعيب، وإنه التهديد الرهيب:

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾

وهنا نبصر تنفيرا من الربا، وتبشيعا لحال آكله. والمراد بالأكل ـ كما فى المنار ـ[1] الأخذ لأجل التصرف، وأكثر مكاسب الناس تنفق في الأكل، ومن تصرف فى شىء من مال غيره يقال: أكله وهضمه، أى أنه تصرف فيه تمام التصرف، حتى لامطمع فى رده.

وأما قيام آكلى الربا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس فقد قال ابن عطية فى تفسيره: المراد تشبيه المرابى فى الدنيا بالمتخبط المصروع، كما يقال لمن يصرع بحركات مختلفة قد جن.. وقال الجمهور: المراد بالقيام القيام من القبر عند البعث، وأن الله تعالى جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون كالمصروعين. ورووا ذلك عن ابن عباس وابن مسعود.. وقدوردت آثار فى ذلك.. [2]

وحسبنا أن نذكر ماروا الحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال: [3].

« الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قُلّ »

وفى رواية أيضا بسند صحيح عن النبى ﷺ قال:

« الربا ثلاثة وسبعون بابا، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم ».

وفى رواية أخرى بسند صحيح ـ كما سبق ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله ».

فهل يرضى عاقل أن تصير الكثرة إلى قُلّ ؟!

وهل يرضى عاقل أن يقع فى باب من أبواب الربا أيسرها كمن ينكح أمه ؟!

وهل يرضى عاقل أن ينزل به وببلده عذاب الله ؟!

---

(١) تفسير المنار: ٣: ٩٤ بتصرف. (٢) انظر: تفسير الطبرى: ٣: ١٠١ ومابعدها.

(٣) المستدرك: ٢: ٣٧.

من هنا نطلب من كل حاكم وعالم ومؤمن يريد لنفسه ولوطنه الخير والسلامة والعافية والهدى والعفاف والغنى أن يحذر الوقوع فى الربا فى كل صوره وأشكاله ..

وعلى كل فما كان أى تهديد ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة .. صورة الممسوس المصروع .. والنص يستحضرها لتؤدى دورها الإيحائى فى إفزاع الحس، لاستجاشة مشاعر المرابين، وهزها هزة عنيفة تخرجهم من مألوف حياتهم وعادتهم فى نظامهم الاقتصادى، ومن حرصهم على مايحققه لهم من الفائدة .. وهى وسيلة فى التأثير التربوى ناجعة فى مواضعها. بينما هى فى الوقت ذاته تعبر عن حقيقة واقعة وقائمة الآن، ومسلطة على البشرية الضالة التي تتخبط كالممسوس من عقابيل النظام التربوى الذى يحميه ويشجعه اليهود ومن على شاكلتهم ..

والذين يأكلون الربا ليسوا هم الذين يأخذون الفائدة الربوية وحدهم.. وإن كانوا هم أول المهددين بهذا النص الرعيب الرهيب ..

يروى مسلم عن جابر قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال:

« **هم سواء** » (١) .

وخيبر ـ كما قلنا ـ كان يشيع فيها الربا .. يروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ استعمل رجلا على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله ﷺ :

« **أكلُّ تمر خيبر هكذا ؟** »

قال: لا والله ! يارسول الله ! إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة، فقال رسول الله ﷺ :

« **لاتفعل ، بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبا** » (٢) .

إنهم لايقومون فى الحياة ولايتحركون إلا حركة الممسوس المضطرب، القلق

---

(١) مسلم : ٢٢: المساقاة ١٠٦ (١٥٩٨).

(٢) البخارى ٣٤ ـ البيوع (٢٢٠١، ٢٢٠٢) ومسلم : ٢٢ ـ المساقاة ٩٥ (ت١٥٩٣) والجنيب : قال مالك : هو الكبيس، وقال الطحاوى : هو الطيب ، وقيل: الصلب،وقيل: الذى أخرج منه حشفه ورديئه وقال غيرهم : هو الذى لايخلط بغيره بخلاف الجمع : فتح البارى ٤: ٤٠٠ .

المتخبط الذى لاينال استقرارا ولاطمأنينة ولاراحة ..

وإنها الشقوة البائسة المنكودة التى هى ثمرة التخطيط اليهودى ومن يشايعه.. الشقوة التى لاتزيلها الحضارة المادية، وخفضها ولينها .. وما قيمة هذا كله إذا لم ينشئ فى النفوس السعادة والرضى والاستقرار والطمأنينة ؟

إنها حقيقة تواجه من يريد أن يرى، ولايضع على عينيه غشاوة من صنع نفسه كى لايرى !

حقيقة أن الناس فى أكثر بلاد الأرض رخاء .. ليسوا سعداء! إنهم قلقون يُطل القلق من عيونهم وهم أغنياء !

وإن الملل يأكل حياتهم وهم مستغرقون فى الإنتاج !

ومن ثم فهم يقعون فى « التقاليع » الشاذة اليهودية. وفى الشذوذ! ثم يحسون بالحاجة الملحة إلى الهرب .. الهرب من أنفسهم .. الهرب من الخواء المرير الذى يعانون منه أشد المعاناة .. ومن الشقاء المفزع الذى ليس له سبب ظاهر من مرافق الحياة وجريانها .. ثم يطاردهم شبح القلق والخواء والفراغ ولايدعهم يستريحون أبدا !

لماذا ؟

السبب الأول طبعا هو خواء هذه الأرواح الضالة المنكودة .. من زاد الروح .. من الإيمان .. من الاطمئنان إلى الله .. وخواؤها من الأهداف الإنسانية الكبيرة التى ينشئها الإيمان .. وكل ذلك ــ كما أسلفنا ــ من صنع يهود ومن على شاكلتهم !

ويتفرع من ذلك السبب الكبير.. بلاء الربا.. تلك الحقيقة الواقعة :

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾

والذين لايرون هذه الحقيقة فى واقع البشرية، هم الذين لايريدون أن يروا، لأن لهم هوى فى عدم الرؤية ! وهم الذين رانت على أعينهم غشاوة الفكر اليهودى الأثيم ومن يشايعه !

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾

وفى الصفحة المقابلة لصفحة الكفر والإثم، والتهديد الساحق لأصحاب منهج الربا

ونظامه، يعرض القرآن الكريم صفحة الإيمان والعمل الصالح، وخصائص الجماعة المؤمنة التى نصرها الله على اليهود فى هذا الجانب، وقاعدة الحياة المرتكزة إلى نظام الزكاة المقابل لنظام الربا، رجاء أن يعيش المسلمون فى حاضرهم فى رحاب الإيمان ونظامه حتى ينصرهم الله على اليهود :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

ويهتف بالذين آمنوا الهتاف الأخير فى هذا المقام ليحولوا حياتهم عن النظام الربوى الدنس المقيت، الذى يقود حملته اليهود ومن على شاكلتهم، وإلا فهى الحرب المعلنة من الله ورسوله، بلا هوادة ولا إمهال ولا تأخير :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

يقول ابن كثير : (١) وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار ..

ويروى ابن جرير عن ابن عباس قال: (٢) فمن كان مقيما على الربا لاينزع عنه، فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع ، وإلاضرب عنقه .

من هنا نطلب من كل حاكم وإمام للمسلمين وعالم ومؤمن غيور يريد لنفسه ولأمته الخير والفلاح والعافية والغنى أن يستتيب أهل الربا وأن يواجههم تلك المواجهة ـ كما قال ابن عباس رضى الله عنهما ـ حتى لا تواجهنا تلك الحرب :

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾

ياللهول! حرب من الله ورسوله.. حرب تواجهها النفس البشرية..

ياللهول! حرب رهيبة معروفة المصير .. حرب رعيبة مقررة العاقبة.. فأين الإنسان الضعيف الفانى من تلك القوة الجبارة الساحقة الماحقة ؟!

ياللهول! حرب معلنة فى صورتها الشاملة الداهمة الغامرة .. حرب على الأعصاب

---

(١) تفسير ابن كثير : ١: ٣٣٠ . (٢) تفسير الطبرى : ٣: ١٠٨ .

والقلوب .. وحرب على البركة والرخاء .. وحرب على السعادة والطمأنينة ..

ياللهول ! حرب يسلط الله فيها بعض العصاة على بعض .. حرب المطاردة والمشاكسة حرب الظلم والقلق .. وأخيرا حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول!

يا للهول! حرب مشبوبة دائما.. أعلنها الله على المتعاملين بالربا الذى هو خلق يهود ومن على شاكلتهم :

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

وتأتى السماحة الندية العلوية الرضية، التى يحملها الإسلام للبشرية .. فالإسلام وحده هو الظل الظليل الذى تأوى إليه البشرية فى هجير الأثرة والشح والطمع، والأنانية والجشع ، والتكالب والسعار .. وهذه السماحة الندية العلوية الرضية هى الرحمة للدائن والمدين وللمجتمع الذى يظل الجميع :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

ويجىء التعقيب العميق الإيحاء، الذى ترتجف منه النفس المؤمنة وتتمنى لو تنزل عن الدَّين كله ، ثم تمضى ناجية يوم الحساب :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

وهذا اليوم الذى يرجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ماكسبت له فى الجنان المؤمن وقع، ومشهده حاضر فى ضميره ، وله فيه هول .. والوقوف بين يدى الله فى هذا اليوم خاطر يزلزل الكيان !

وهو تعقيب يتناسق مع جو المعاملات .. جو الأخذ والعطاء .. جو الكسب والجزاء.. إنه التصفية الكبرى للماضى جميعه بكل ما فيه.. والقضاء الأخير بين كل من فيه. فما أجدر الجنان المؤمن أن يخشاه وأن يتوقاه .. وما أجدرنا أن نظهر اقتصادنا من هذا النظام الربوى، وأن نحذر الوقوع فى حبائل هذا المخطط الذى يقود حركته اليهود ومن على شاكلتهم ، حتى ينصرنا الله ونسترد الأرض المغتصبة .

* * *

الفصل الثالث

الهزيمة العسكرية

عليّ يحمل الراية ـ يامنصور أمت ـ حصون خيبر ـ الحراسة ـ أول عمل حربى ـ معسكر المسلمين الأول ـ أول شهيد ـ قتل مرحب اليهودى ـ شدة الموقف ـ سقوط حصن ناعم ـ اليهودى الذى طلب الأمان فأعطيه ـ حصن الصعب ـ الحباب بن المنذر يحمل الراية ـ المدافعون عن الحصن ـ المبارزة ـ التراشق بالسهام ـ هجوم مضاد ـ معركة ضارية ـ مصرع سلاّم بن مشكم ـ انهزام اليهود ـ بداية النهاية ـ تطهير منطقة النطاة ـ قلعة الزبير ـ صعوبة الاقتحام ـ فتح الحصن ـ حصون الشق ـ ضرب الحصار على القلعة ـ فتح القلعة ـ حصن النزار ـ الهجوم على الحصن ـ نصب المنجنيق ـ زحف الجيش الإسلامى ـ الاستسلام النهائى ـ تسامح الرسول ﷺ ـ معالم اتفاقية التسليم ـ هكذا فتحت خيبر ـ نهاية الطاغوت اليهودى ـ ما أشبه الليلة بالبارحة ـ الرسول القائد ـ النبى ﷺ يعيد التوراه لليهود ـ اعتراف ولفنسون ـ النبى ﷺ يتزوج صفية ـ اليهود يقدمون شاة مسمومة للنبى ﷺ ـ قدوم مهاجرى الحبشة ـ استسلام يهود فدك ـ فتح وادى القرى ـ يهود تيماء يدفعون الجزية ـ قصة الرهان ـ حسان يهجو يهود خيبر ـ المسلمون واليهود وجها لوجه ـ « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة » ـ « إن تنصروا الله ينصركم » ـ موقف شهيد ـ صورة مقابلة .

عليٌّ يحمل الراية :

سبق أن عرفنا متى كانت تلك الغزوة .. وهنا نذكر مارواه الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر :

« لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه.، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » .

قال: فبات الناس يدُوكون ليلتهم : أيُّهُم يُعطاها ؟ فلما أصبح الناس غَدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يعُطاها، فقال :

« أين عليٌّ بن أبى طالب ؟ »

فقيل : هو يارسول الله ! يشتكى عينيه . قال: فأرسلوا إليه، فأتى به فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه، ودعاله فبرأ، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. فقال على : يارسول الله! أُقاتلُهم حتى يكونوا مثلنا. فقال:

« انفُذْ على رِسْلك . حتى تنزل بساحتهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله ! لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعم » (١).

وهذا الحديث الثابت الصحيح ظاهر الدلالة فى تصوير منهج الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لشرعية الجهاد فى الدعوة إلى الله عز وجل ـ كما أسلفنا ـ وما ينبغى أن تستهدفه هذه الدعوة، فعليّ رضى الله عنه يسأل الرسول الحبيب المحبوب ﷺ عن قتال هؤلاء اليهود الأعداء الخونة الغدرة ـ كما عرفنا ـ ليبين للناس مانزّل إليهم من شرعية الجهاد لحماية الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، والدفاع عنها فى مسيرتها ، حتى يعلموا أن الجهاد فى هذا المنهج إنما هو وسيلة للهداية، وهى أعز ما يكسبه المجاهدون فى جهادهم، وأنها خير مايؤتاه مدعو إليها فيستجيب لها، وأن تألف القلوب وجذبها إلى ساحتها هو مايجب على المجاهدين أن يجعلوه نصب أعينهم، ومقصدهم من جهادهم.

---

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٢١٠)، ومسلم : ٤٤ ـ فضائل الصحابة ٣٤ (٢٤٠٦) وأحمد : ٥: ٣٣٣ وقوله « يدوكون » ـ بمهملة مضمومة ـ : أى باتوا فى اختلاط واختلاف ، والدوكة ـ بالكاف ـ : الاختلاط : فتح البارى : ٧: ٤٧٧ .

قال ابن حجر (١) يؤخذ منه أن تألف الكافر أولى من المبادرة إلى قتله.

ونبصر من خلال هذ الحديث أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يسوق هذا النصح الرشيد، ليقطع تطلع النفوس إلى الغنائم المعجلة، فإن ثروة يهود ـ إذا هزموا ـ ضخمة، ولكن ثواب مقاتليهم ـ إذا اهتدوا ـ أضخم .

ولو ترك اليهود الخلال الدنيئة ، ونزلوا على أحكام الله، لأراحوا واستراحوا. ولكنهم تعجلو الشر فباءوا به !

ويروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر :

«لأعطين هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله. يفتح الله على يديه».

قال عمر بن الخطاب : ما أحبَبْت الإمارة إلا يومئذ قال: فتساورْت لها (٢) رجاء أن أدْعى لها. قال: فدعا رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب. فأعطاه إياها . وقال: « أمْشِ. ولا تلتفت. حتى يفتح الله عليك».

قال : فسار علىّ شيئا، ثم وقف ولم يَلْتَفت . فصرخَ : يارسول الله ! علَى ماذا أقاتلُ الناس ؟ قال :

« قاتلهم حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم. إلا بحقها. وحسابهم على الله » (٣).

قال ابن حجر : (٤) والراية بمعنى اللواء، وهو العلم الذى فى الحرب يُعرف به موضع صاحب الجيش، وقد يحملة أمير الجيش، وقد يدفعه لمقدم العسكر، وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما، لكن روى أحمد والترمذى من حديث ابن عباس : « كانت راية رسول الله ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض» ومثله عند الطبرانى عن بريدة، وعن ابن عدى عن أبى هريرة، وزاد « مكتوبا فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله ». وهو ظاهر فى التغاير، فلعل التفرقة بينهما عرفية، وقد ذكر ابن إسحاق، وكذا أبو الأسود عن عروة: أن أول ما وجدت الرايات يوم خيبر ، (٥) وماكانوا يعرفون قبل ذلك إلا الألوية. وفى المعجم

---

(١) فتح البارى : ٧: ٤٧٨ .

(٢) معناه : تطاولت لها . أى حرصت عليها. أى أظهرت وجهى وتصديت لذلك ليتذكرنى .

(٣) مسلم : ٤٤ ـ فضائل الصحابة ٣٣ (٢٤٠٥) .

(٤) فتح البارى : ٧ :٤٧٧ . (٥) انظر : الطبقات الكبرى : ٢: ١٠٦ .

الوسيط : (١) اللواء : العلم ، وهو دون الراية.

قال ابن سعد وغيره: كانت راية النبى ﷺ السوداء من برُد لعائشة تُدْعَى العُقاب، ولواؤه أبيض دفعه إلى علىّ بن أبى طالب . (٢)

يامنصور أمت :

وقبل الهجوم أعطى النبىﷺ راية إلى الحباب بن المنذر، وراية إلى سعد ين عبادة، وكان شعارهم: يامنصور أمت . (٣)

حصون خيبر :

وقد تحصّن اليهود ـ كما هى عادتهم دائما ـ داخل الحصون، وهى ذوات عدد:

منها : النّطاَة، ومنها : حصْن الصَّعْب بن مُعاذ، وحصْن ناعم، وحصْن قلعة الزّبير، والشّق وبه حصون :منها حصْن أبىّ، وحصْن النّزار، وحصون الكتيبة : منها : القموص، والوطيح، وسُلا لم، وهو حصْن بنى أبى الحُقيق. (٤)

الحراسة :

وقد أنشأ الرسول الحبيب المحبوبﷺ قوة للحراسة، تقوم بالدوريات أثناء الليل، لترقب حركات العدو، والطواف حول قلاعه وحصونه، وكان من بين الذين تولوا حراسة المعسكر الإسلامى وقاموا بالدورية ليلا عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٥) أما قيادة المعسكر وإدارة شئونه فى الرجيع فقد أسندت إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه . (٦)

أول عمل حربى :

ويستفاد من أحاديث المؤرخين أن أول عمل حربى قام به الجيش الإسلامى ـ بعد إنذار اليهود ـ هو الشروع فى الاستيلاء على المزارع والنخيل، كما قاموا بقطع أربعمائة نخلة فقط إرهابا للعدو، وكانت هذه المزارع وما فيها من نخيل تقع فى الشق الأول من منطقة « النّطاة » والشق الأول من خيبر، والتى شهدت ـ كما سيأتى ـ أعنف

---

(١) المعجم الوسيط (لوى) .

(٢) الطبقات الكبرى : ٢: ١٠٦ والمواهب : ٢: ٢٢٢ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

(٥) غزوة خيبر : ١٤٦ نقلا عن : السيرة الحلبية :٢: ١٥٩ .

(٦) إمتاع الأسماع : ١٣٢ .

المعارك. (١)

معسكر المسلمين الأول :

وكان حصن « ناعم » أول ما فتح من حصون خيبر، كما ذكر ابن إسحاق . (٢) ومعلوم أن اقتحام هذه الحصون وتلك القلاع مهمة صعبة جدا، لأن ذلك يتطلب آلات تدميرية، ولأن اليهود متحصنون وراء أسوار هذه الحصون وتلك القلاع ..

وحصن «ناعم» هو حصن «مرحب» فارس اليهود المشهور .. وقد دار القتال عنيفا، وشدد المسلمون الهجوم، ولكنهم لاقوا من اليهود ـ بقيادة مرحب وأخويه ياسر والحارث ـ مقاومة عنيفة، وبلغ اليهود فى الاستماتة للدفاع أن يفتحوا أبواب هذا الحصن ويقوموا بهجوم معاكس، فسالت كتائبهم على المسلمين .. وقد تمكن الأنصار من دحر القائد اليهودى .. وطاردوهم حتى أدخلوهم الحصن فأغلقوا على أنفسهم الأبواب. غير أن اليهود عاودوا الهجوم من جديد، ففتحوا أبواب الحصن، وشنوا هجمات عنيفة، فصمد لهم المسلمون، ولكن اليهود ضغطوا عليهم بعنف .. (٣)

أول شهيد :

وفى اليوم الأول كان أول شهيد فى هذه المعركة ، وهو محمود بن مسلمة رضى الله عنه .. قتل غيلة ، حيث ألقى عليه مرحب رحى فأصابت رأسه، فهشمت البيضة رأسه، وسقطت جلدة جبينه على وجهه، وأُتى به إلى رسول الله ﷺ ، فرد الجلدة فرجعت كما كانت ، وعصبها بثوب، فمكث محمود ثلاثة أيام، ثم مات رضى الله عنه (٤).

قتل مرحب اليهودى :

يروى مسلم من حديث سلمة بن الأكوع .. قال : (٥) .. خرج ملكهم مرحبُ يخطر بسيفه ويقول :

قد علمتْ خيبرُ أنى مرحبُ   شاكِى السلاح بطلٌ مُجرّبُ
إذا الحروب أقبلتْ تلهّب

(١) انظر السيرة الحلبية : ٢: ١٥٨ .
(٢) الروض الأنف : ٤: ٤٠ والإصابة : ٦: ٦٧ : (٧٧١٦) .
(٣) غزوة الأحزاب : ١٥٠ نقلا عن : إمتاع الأسماع : ٣١٤ .
(٤) الإصابة : ٦: ٦٧ .
(٥) مسلم ٣٢ ـ الجهاد ١٣٢ (١٨٠٧) .

قال: وبرزله عمّى عامر، فقال :

قـد علمتْ خيبـر أنى عامـرُ   شـاكى السـلاح بطل مغامـرُ

قال : فاختلفا ضرْبتين. فوقع سيفُ مرحب فى ترُس عامر. وذهب عامر يسْفُل له .(١) فرجع سيفه على نفسه. فقطع أكحَله. فكانت فيها نفسه.

قال سلمة : فخرجْت فإذا نفر من أصحاب النبىﷺ يقولون : بطلَ عملُ عامرٍ . قتل نفسه. قال فأتيت النبى ﷺ وأنا أبكى فقلت : يارسول الله! بطل عمل عامر ؟ قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ قال ذلك ؟»

قال قلت : ناس من أصحابك . قال:

« كذَب من قال ذلك . بل له أجره مرتين »

ثم أرسلنى إلى علىّ ، وهو أرمد. فقال:

« لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله، أو يحبه الله ورسوله »

قال: فأتيتُ عليّا فجئت به أقوده، وهو أرمد. حتى أتيت به رسول الله ﷺ . فبسق فى عينيه فبرأ . وأعطاه الراية. وخرج مرحب فقال:

قد علمتْ خيبـر أنى مرحبُ   شاكى السلاح بطلٌ مجرّب

إذا الحـروب أقبـلتْ تَـلهّب

فقال على :

أنا الذى سمّتنى أمّى حيـدره (٢)   كَلَيْث غابـاتٍ كريـه المَنْظره

أوفيهِمُ بالصاع كيْل السّنْدره (٣)

---

(١) يسغل له : أى يضربه من أسفله. مسلم بشرح النووى : ١٢ : ١٨٥.

(٢) حيدرة : اسم للأسد : وكان علىّ رضى الله عنه قد سمىّ أسدا فى أول ولادته، وكان مرحب قد رأى فى المنام أن أسدا يقتله، فذكره علىّ بذلك ليخيفه ويضعف نفسه.. وسمى الأسد حيدرة لغلظه، والحادر : الغليظ القوى . ومراده : أنا الأسد على جرأته وإقدامه وقوته. المرجع السابق . وانظر : المواهب : ٢: ٢٢٤.

(٣) كيل السندرة : معناه : أقتل الأعداء قتلا واسعا ذريعا. والسندرة : مكيال واسع، وقيل: هى العجلة. أى اقتلهم عاجلا، وقيل: مأخوذ من السندرة. وهى شجرة الصنوبر يعمل منها النبل والقسى. المرجع السابق.

قال: فضرب رأس مرحبٍ فقتله. ثم كان الفتح على يديه.

وقال الحاكم : إن الأخبار متواترة بأسا نيد كثيرة أن قاتل مرحب أمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه (١).

قال ابن حجر : (٢) وخالف ذلك أهل السير، فجزم ابن إسحاق وموسى بن عقبة والواقدى بأن الذى قتل مرحباً هو محمد بن مسلمة، وكذا روى أحمد بإسناد حسن عن جابر، وقيل: إن محمد بن مسلمة كان بارزه فقطع رجليه فأجهز عليه عليّ ، وقيل : إن الذى قتله هو الحارث أخو مرحب، فاشتبه على بعض الرواة، فإن لم يكن كذلك وإلا فما فى الصحيح مقدم على ماسواه، ولا سيما وقد جاء من حديث بريدة أيضا عند أحمد والنسائى وابن حبان والحاكم (٣).

قال ابن عبد البر: إنه الصحيح . وقال ابن الأثير: الصحيح الذى عليه أهل السير والحديث أن عليا قاتله. وقال الشامى : ما فى مسلم مقدم من وجهين :

أحدهما : أنه أصح إسنادا .

الثانى : أن جابرا لم يشهد خيبر، كما ذكر ابن إسحاق والواقدى وغيرهما، وقد شهدها سلمة وبريدة وأبو رافع، فهم أعلم ممن لم يشهدها، وما قيل : إن ابن مسلمة قطع ساقى مرحب ولم يجهز عليه، ومرّ به عليّ فأجهز عليه ، يأباه حديث سلمة وأبى رافع(٤).

شدة الموقف :

وقد دلت المعارك الضارية التى خاضها المسلمون أمام حصن «ناعم» على أنه أمنع وأقوى حصون خيبر.. وأن المسلمين الذين يحاولون جاهدين الاستيلاء على هذا الحصن قد أصابتهم الحمى ، فقد روى البيهقى فى الدلائل عن أبى عثمان النهدى أو عن أبى قلابة قال: لماقدم النبىﷺ خيبر، قدم والثمرة خضرة ، قال: فأسرع الناس إليها فحمّوا ــ أى أصابتهم الحمّى ــ فشكوْا ذلك إليه ، فأمرهم أن يقْرسوا الماء ــ أى يجعلونه شديد البرودة ــ فى الشّنان، ثم يجرونه عليهم إذا أتى الفجر، ويذكرون اسم الله عليه ، ففعلوا

---

(١) المستدرك : ٣: ٤٣٧ .　　(٢) فتح البارى : ٧: ٤٧٨ .

(٣) المواهب : ٢: ٢٢٤ وابن هشام : ٢: ٣٣٣ ــ ٣٣٤ عن ابن إسحاق ، وأحمد : ٣: ٣٨٥ والحاكم : ٣: ٤٣٦ وزاد المعاد : ٣: ٣٢١ ــ ٣٢٢ .

(٤) المواهب : ٢: ٢٢٤ .

ذلك ، فكأنما نشطوا من عقل . (١)

سقوط حصن ناعم :

ويدل سياق المؤرخين ــ كما تقدم ــ أن أعنف قتال شهدته خيبر إنما هو القتال الذى دار حول هذا الحصن .. وقد بلغ اعتداد اليهود المرابطين بأنفسهم إلى أن خرجوا أكثر من مرة ، وهاجموا المسلمين .. وبالرغم من هذه الجولة التى قتل فيها مرحب اليهودى ، فإن حصن ناعم لم يستلسم للمسلمين فى الحال، بل ظل هؤلاء اليهود محتفظين به، يدافعون عنه بضراوة ، وظل ياسر بعد مقتل أخويه ــ مرحب والحارث. ويدافع عن الحصن، وبلغت به الجرأة ــ بعد أن لقى أخواه مصرعهما ــ إلى حد غير معهود عن اليهود فى تاريخهم، فقد تحدى المسلمين وخرج من الحصن تحرسه قوات كثيفة، وركز رمحه، وأخذ يجول بفرسه، وهو يطلب المبارزة . وأخيراً قتل (٢) وجاء بعده القائد الرابع، عامر اليهودى ، قتله علىّ رضى الله عنه أمام الحصن، (٣) كما قتل محمد ابن مسلمة قائدا يهوديا خامسا ..

وانهارت المقاومة فى صفوف هؤلاء اليهود المدافعين عن الحصن الذى شدد المسلمون عليه حتى اقتحموه ففتحوه .

اليهودى الذى طلب الأمان فأعطيه:

وقرب انتهاء مقاومة اليهود فى الحصن، وبينما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقوم بأعمال الدورية ليلا، والمسلمون على وشك اقتحام حصن ناعم، ألقى رجاله من الحرس القبض على رجل من اليهود، فأتى به إليه، فأمر به عمر أن تُضرب عنقه، ظنا منه أنه جاسوس لليهود، بيد أن اليهودى قال لعمر: اذهب بى إلى نبيكم حتى أكلمه، فأمسكه عمر، وانتهى به إلى رسول الله ﷺ ، فوجده يصلى ، فدخل عليه به، وطلب اليهودى الأمان على أن يصدقه، وقال: خرجت من حصن النطاة من عند قوم ليس لهم نظام، تركتهم يتسللون من الحصن فى هذه الليلة، وأرشد إلى المكان الذى يتوجهون إليه، وبيّن أن اليهود قد رعبوا ، وأن أفئدتهم لتخفق، ومضى اليهودى فى حديث طويل عن حال اليهود، وترك النبى ﷺ اليهودى وشأنه حرا، وانشغل بإدارة دفة المعارك، وعندما وضعت

---

(١) البداية والنهاية : ٤: ١٩٥ .

(٢) غزوة خيبر : ١٦٧ وما بعدها بتصرف ، وانظر: ابن هشام :٢: ٣٣٤ وإمتاع الأسماع : ٣١٦ والسيرة الحلبية : ٢: ١٦٣ .

(٢) انظر : إمتاع الأسماع : ٣١٦ .

الحرب أوزارها، واستولى المسلمون على جميع حصون خيبر ـ كما سيأتى ـ أسلم اليهودى ..[1] واسمه سمّاك الخيبرى .. قال ابن حجر : ذكر الواقدى أن عمر أسره يوم خيبر لما فتحوا النطاة، فقدمه ليضرب عنقه، فقال : أبلغنى أبا القاسم ،فأبلغه فدله على عوراتهم، ثم أسلم سماك وخرج من خيبر، فلم يعد إليها بعد أن استوهب من النبى ﷺ زوجته فقبله فوهبها له . استدركه ابن فرحون، وذكره الرشاطى فى الخيبريين . [2]

حصن الصعب :

ثم كان حصن الصعب بن معاذ من حصون النطاة، المنطقة الواقعة فى القسم الأول من خيبر . [3]

ويعتبر الحصن الثانى من حيث القوة والمناعة والتحصين .. وقدكان قادة اليهود عندما رسموا خطتهم أن يكون حصن ناعم ـ كما أسلفنا ـ خط الدفاع الأول، لمكانه الاستراتيجى ، ومن ثم نقلوا منه ـ قبل وصول المسلمين ـ النساء والأطفال وكل أموالهم إلى حصن النّزار، ولم يتركوا فى حصن ناعم سوى حملة السلاح الذين عليهم أن يدافعوا عن الحصن.

وذلك ليسهل عليهم الانسحاب ـ وقت الضرورة العسكرية ـ من حصن ناعم إلى خط الدفاع الثانى ـ حصن الصعب بن معاذ ـ ولتكون نساؤهم وذراريهم وأموالهم فى مأمن إذا ماقدّر للمسلمين أن يستولوا على حصن ناعم . وفعلا فإن مقاومة اليهود عندما انهارت ـ كما أسلفنا ـ وعجزوا عن صد هجوم المسلمين، تمكنوا بكل سهولة من الانسحاب إلى حصن الصعب، ويدلنا على ذلك أن أحدا من اليهود لم يقع فى أسر المسلمين .

ومن ثم توجه المسلمون إلى خط الدفاع الثانى ـ حصن الصعب بن معاذ ـ فضربوا عليه الحصار تمهيدا لاقتحامه وفتحه .

الحباب بن المنذر يحمل الراية :

وكانت قيادة الجيش للحباب بن المنذر الأنصارى ، للقيام بالهجوم على هذا الحصن،

---

(١) انظر : السيرة الحلبية : ٢: ١٥٩ والواقدى : ٢: ٦٤٦ ـ ٦٤٨ .

(٢) الإصابة : ٣: ١٢٩ .

(٣) غزوة خيبر : ١٨٣ وما بعدها بتصرف .

ومن ثم تولى أمر الهجوم حتى فتحه . (١)

المدافعون عن الحصن :

وكان حصن الصعب منيع الأسوار عالى الأبراج، وكان مشحونا بالمقاتلين اليهود، ومعهم رماة على غاية من المهارة فى إصابة الهدف وكان عدد المدافعين خمسائة مقاتل، بقيادة اثنين : أحدهما يقال له : «يوشع» والثانى : « الديّال » (٢) .

المبارزة :

وذكر المؤرخون أن اليهود دافعوا عن حصن الصعب بن معاذ بشراسة وضراوة لاتقلان عن الضراوة والشراسة فى الدفاع عن حصن ناعم ـ كما أسلفنا ـ بل كان دفاعهم عن حصن الصعب أشد وأقوى؛ لأنه كان يضم كثيرا من الأموال والعتاد الحربى (٣).

وعندما أخذت قوات الجيش الإسلامى مواقعها، وضربت الحصار على اليهود فى هذا الحصن، خرج كبير قادة اليهود على فرسه أمام الحصن، وطلب المبارزة ، على الطريقة التقليدية آنذاك، وهذا القائد : «يوشع» الذى خرج لملاقاته حامل لواء الجيش الإسلامى، والمكلف بقيادة الهجوم :

« الحباب بن المنذر » فنازله ـ مبارزة ـ وبعد كرّ وفرّ ومقارعة عنيفة بالسيوف تمكن القائد المسلم من قتل القائد اليهودى .

وهنا خرج القائد اليهودى الثانى : « الدّيال » فخرج إليه عمارة بن عقبة الغفارى، وجرت المطاردة، وحمل عمارة حملة صادقة على القائد اليهودى فسدد إليه ضربة كانت القاضية.

وكان قتل هذين القائدين اليهوديين مبارزة أمام الحصن بداية سيئة لليهود المدافعين .

التراشق بالسهام :

وقد استشاط اليهود غضبا لمقتل قائديهم : « يوشع » و« الدّيال » فقاموا بهجوم عنيف معاكس على المسلمين، مهّدوا له بقذف شديد من سهامهم التى صبّوها كالمطر على

---

(١) انظر : إمتاع الأسماع : ٣١٦ وما بعدها .

(٢) انظر : السيرة الحلبية : ٢: ٦٤ .

(٣) المرجع السابق : ١٨٩ ومابعدها بتصرف .

المسلمين من أبراج الحصن، وقد ركز اليهود أثناء قذفهم المسلمين بالسهام على الموقع الذى يقف فيه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بغية إصابته ..

وقد تساقطت نبال اليهود حول هذا الموقع، فأقام المسلمون من أنفسهم تُرْساً حول النبى القائد ﷺ .. وكان المسلمين يردون على هذا القذف بمثله، ولكن اليهود كانوا يتسترون وراء أسوار وجدران حصنهم، بينما كان المسلمون مكشوفين أمام الحصن..

هجوم مضاد :

وبعد معركة التراشق بالسهام ، وانتصار المسلمين فى عمليات المبارزة شدد المسلمون من حصارهم حول الحصن، وحاولوا اقتحامه بهجوم عام، إلا أنهم قوبلوا من قبل اليهود بمقاومة عنيفة حالت بينهم وبين الاقتحام .

بل إن اليهود بلغ بهم الحقد والغيظ والشراسة فى الدفاع إلى أن يفتحوا أبواب الحصن، ويقوموا بهجوم مضاد عنيف.. وصمد المسلمون.. وشن اليهود هجوما معاكسا ثانيا، وفتحوا أبواب حصنهم، وحملوا على المسلمين حملة شرسة، وثبت المسلمون مع قائدهم الحباب ابن المنذر، وقابلوا هجوم اليهود بهجوم مضاد آخر، فدارت أمام الحصن معركة طاحنة استمات فيها الفريقان، وسقط من المسلمين عدد من الشهداء، وكان النصر فى النهاية للمسلمين الذين دحروا اليهود، حتى ولّوا منهزمين فدخلوا حصنهم ـ كما هو شأن اليهود ـ وأغلقوا على أنفسهم الأبواب !

معركة ضارية :

يقول المقريزى : [1] ولما أقام المسلمون على حصن الصعب يومين عدا بهم الحباب بن المنذر فى اليوم الثالث، ومعه الراية، فقاتلهم أشد قتال، وبكر رسول الله ﷺ فتراموْا بالنبل، وقد ترّس المسلمون على رسول الله ﷺ ، ثم حملت اليهود حملة منكَرة، فانكشف المسلمون، حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ، وهو واقف قد نزل عن فرسه ومدعم[2] ـ مولى رسول الله ﷺ ـ يمسك الفرس، وثبت الحباب برايته يرميهم على فرسه .

فندب رسول الله ﷺ الناس وحضّهم على الجهاد، فأقبلوا حتى زحف بهم الحباب، واشتد الأمر ، فانهزمت اليهود، وأغلقوا الحصن عليهم، ورموا على جدره بالحجارة رميا كثيرا، فتباعد عنهم المسلمون، ثم كروا فخرجت اليهود وقاتلوا أشد قتال، فقتل ثلاثة من

---

(١) انظر : إمتاع الأسماع : ٣١٧ . (٢) انظر : الإصابة : ٦: ٧٤ .

المسلمين ، ثم هزمهم الله تعالى .

قال الواقدى : حدثنى خالد بن إلياس عن جعفر بن محمود بن محمد عن محمد بن مسلمة قال : كنت فيمن ترّس عن النبى ﷺ ، فجعلت ـ عند اشتداد الهجوم ـ أصيح بأصحابه: تراموا بالجحف ! ففعلوا، فرمونا ـ أى اليهود ـ حتى ظننت أن لايُقلعوا، فرأيت رسول الله ﷺ رمَى بسهم، فما أخطأ رجلا منهم، وتبسّم إلىّ رسول الله ﷺ ، وانفرجوا ودخلوا الحصن .

وحدث الواقدى أيضا عن جابر بن عبد الله الأنصارى أنه قال يصف القتال العنيف أمام حصن الصعب بن معاذ : لما انتهينا إلى حصن الصعب بن معاذ وغزا بنا الحباب بن المنذر بن الجموح، ومعه رايتنا وتبعه المسلمون، وقد أقمنا على حصن الصعب يومين نقاتلهم أشد القتال، فلما كان اليوم الثالث بكّر رسول الله ﷺ ، فخرج رجل من اليهود من الحصن كأنه الدَّقَل (١)، وخرج وعاديته معه، (٢) فرموا بالنبل ساعة سراعا، وترّسنا عن رسول الله ﷺ ، وأمطرونا بالنبل، فكأن نبلهم الجراد، حتى ظننت ألا يُقلِعوا، ثم حملوا حملة رجل واحد، فانهزم المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو واقف ، قد نزل عن فرسه، ومدعم مولاه يمسك فرسه، وثبَّتَ الحباب رايتنا، والله ! ما يزال يراميهم على فرسه .

وندب رسول الله ﷺ المسلمين، وحضّهم على الجهاد ورغّبهم فيه، وأخبرهم أن الله قد وعده خيبر يغنّمه إياها، قال :ـفأقبل الناس جميعا حتى أتوا إلى صاحب رايتهم، ثم زحف بهم الحباب، فلم يزل يدنو قليلا قليلا، وتراجع اليهود على أدبارها حتى لَحَمَها الشر، فانهزموا سراعا ودخلوا الحصن وغلّقوا عليهم، ووافَوْا على جدُر ـ ولهم جُدر دون جدر ـ (أى سور خلف سور) فجعلوا يرموننا بالجندل ـ أى الصخر ـ رميا كثيرا، ونحّونا عن حصنهم بوقع الحجارة، حتى رجعنا إلى موضع الحباب الأول .

ثم إن اليهود تلاومت بينها، وقالت : مانستبقى لأنفسنا ؟ قد قتل أهل الجد والجلد فى حصن ناعم، فخرجوا مستميتين، ورجعنا إليهم، فاقتتلنا على باب الحصن أشد قتال.

---

(١) الدّقل : خشبة طويلة تشد فى وسط السفينة يمد عليها الشراع، وتسميه البحرية: الصارى.! المعجم الوسيط ـ (دقل) وقد شبه اليهودى بالدقل لطول جسمه .

(٢) العادية : جماعة من القوم يعدون للقتال. (المعجم الوسيط ـ عدا) وتلك عادة عند اليهود وبعض الأمم الأخرى كالأحباش، ترى هؤلاء يجرون أمام دابة القائد أو الحاكم .

وقتل يومئذ ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ :

أبو ضياح بن النعمان، من أهل بدر . (١) ضربه رجل بالسيف فأطن رقحف رأسه (٢).

وعدى بن مرة بن سراقة ، حليف الأنصار، (٣) طعنه أحد اليهود بين ثدييه بحربة منها، ذكره أبو عمر .

والحارث بن حاطب، وقد شهد بدرا، رماه رجل من الحصن فدمغه(٤) .

وقد قتلنا منهم على الحصن عدة، كما قتلنا منهم رجلا حملوه حتى يدخلوه الحصن .

مصرع سلاّم بن مشكم :

وفى معارك حصون النطاة لقى سلاّم بن مشكم مصرعه، أثناء القتال وهو أحد سادات اليهود من بنى النضير، وزوج زينب بنت الحارث التى دست السم للنبى ﷺ فى الشاة بغية قتله ــ كما سيأتى ــ وبالرغم من إشارة المؤرخين إلى أن سلاّم بن مشكم كان القائد العام للقوات المحاربة فى منطقة النطاة التى شهدت أعنف المعارك بين المسلمين واليهود، وبالرغم من الإشارة إلى أن هذا القائد اليهودى قد لقى مصرعة في هذه المعارك، فإن أغلب المؤرخين لم يذكروا له دورا حربيا يذكر بالرغم من أنهم أكدوا أنه قتل فى معارك النطاة، إلا أن الواقدى قد أعطى تفسيرا لعدم مباشرة سلام بين مشكم القتال مثل غيره من قادة اليهود .. وهو أنه كان مريضا، وبالرغم من مرضه المقعد، لم يترك النطاة حتى قتل، مع أنه قد نصحه بأن يهرب إلى منطقة (الكتيبة) ليكون فى مأمن ؛ لأن خبراء اليهود كانوا يتوقعون أن أهل (الكتيبة) لن يقاتلوا المسلمين .

قال الواقدى : قال عبد الله : سألت إبراهيم بن جعفر عن قول زينب ابنة الحارث للنبى ﷺ : قتلت أبى، (٥) قال : قُتل يوم خيبر أبوها الحارث، وأشجع اليهود، وأخوه زبير قُتل يومئذ، فكان زوجها سيدهم وأشجعهم ــ سلاّم بن مشكم ــ مريضاً، وكان في

---

(١) الطبقات الكبرى : ٢ : ١٠٧ وقيل : أبو الصباح . انظر: مجمع الزوائد : ٦: ١٥٥ .

(٢) القحف ــ بكسر أوله وسكون ثانيه ــ أحد أقحاف ثمانية تكوّن عُلية عظيمة هى الجمجمة، وفيها الدماغ. وما انفلق من الجمجمة فبان (المعجم الوسيط ـ قحف) .

(٣) الإصابة : ٤ : ٢٣٢ . (٤) انظر : الطبقات الكبرى : ٢: ١٠٧ .

(٥) انظر : مغازى الواقدى : ٢ : ٦٨ ، ووقع عند ابن سعد عن الواقدى بأسانيده المتعددة ــ كما نقل ابن حجر ــ أنها قالت : قتلت أبى وزوجى وعمى وأخى ، ونلت من قومى ما نلت : فتح البارى : ١٠ : ٢٤٦ .

حصون النطاة ، فقيل له: إنه لاقتال فيكم، فكن فى الكتيبة، قال: لاأفعل أبدا، فقُتل وهو مريض، وهو ـ أى سلاّم بن مشكم ـ أبو الحكم الذى يقول فيه الرّبيع ابن أبى الحُقيق :

ولما تداعوا بأسيافهم فكان الطعان دعونا سلاما

وكنا إذا مادعونا بـه سقينا سراة العدو السِّماما

وهو ـ أى سلاّم ـ صاحب حربهم ـ أى قائدهم الحربى الأعلى ـ ولكن الله شغله بالمرض .

انهزام اليهود :

وبالرغم من أن اليهود المدافعين عن حصن الصعب بن معاذ أغلقوا الأبواب عند تراجعهم أمام الحباب بن المنذر ورجاله، إلا أن الاضطراب قد عمّهم ، وأخذت معنوياتهم فى الانهيار، ولحظ ذلك قائد الجيش الإسلامى، فاغتنم فرصة اضطراب اليهود وتدنى معنوياتهم، فرسم فى الحال خطة عسكرية لاقتحام الحصن وفتحه .

وبموجب هذه الخطة شن القائد المسلم برجاله هجوما عاما خاطفا على الحصن، فاقتحموه وقاتلوا بضراوة حتى افتتحوه، واستولوا على كل ما فيه من معدات ثقيلة وأسلحة وغيرها، وكانت شيئا عظيما فرَّج الله به الضائقة التى كان يعانى منها الجيش الإسلامى . .

وقد سقط قتلى كثيرون من اليهود الذين كانوا يدافعون ، كما وقع عدد منهم فى الأسر .

بداية النهاية :

وبسقوط هذا الحصن ظهر رجحان كفة المسلمين فى المعركة، وبدأ اليأس والجزع يتسربان إلى قلوب اليهود، وأخذت حالتهم المعنوية فى الضعف، بعد أن كانوا يتسربان إلى قلوب اليهود، وأخذت حالتهم المعنوية فى الضعف، بعد أن كانوا لايتصورون أن قواتهم، وهى الأكثر عددا وعدة، ستأخذ فى التقهقر أمام الجيش الإسلامى الذى لايزيد عدده على ألف وأربعمائة مقاتل ومائتى فارس ـ كما أسلفنا ـ مكشوفين فى العراء أمام أبراج اليهود المشحونة بآلاف الرماة .. ولكن الذى حدث كان مفاجأة مذهلة لهؤلاء اليهود وأنصارهم ، حيث تمكن الجيش الإسلامى من اقتحام هذين الحصنين اللذين كان اقتحامهما بداية نهاية مقاومة اليهود فى خيبر .

تطهير منطقة النطاة :

وتدل تقارير المؤرخين على أن هناك حصونا أخرى غير هذين الحصنين، إلا أنها ليست ذات أهمية من الناحية العسكرية.

ولهذا فإن وحدة الجيش الإسلامى قد بقيت فى منطقة النطاة للتفتيش فى هذه الحصون وتعقب مايمكن أن يكون مختبئا من المسلحين اليهود ثم القضاء عليهم .

قلعة الزبير :

وتوجه الجيش الإسلامى إلى فتح قلعة الزبير، الحصن الثالث من حصون النطاة الواقعة فى الشطر الأول من خيبر(١) .

وهذا الحصن منيع جداً، يقع على قمة جبل عالية صعبة المسالك وحسب خطة انسحاب اليهود جعلوا من هذه القلعة خط دفاعهم الثالث. ومن ثم شحنوا الأبراج بالمقاتلين ، ووضعوا كتائب الرماة فى مواضع تشرف على قوات المسلمين.

صعوبة الاقتحام :

وقام الجيش الإسلامى بعدة محاولات للاقتحام، ولكنهم لم يتمكنوا لأسباب عسكرية واضحة. ولم يقم اليهود أول الأمر بفتح الأبواب لمهاجمة المسلمين أو طلب مبارزتهم كما فعلوا أثناء حصار حصن «ناعم» وحصن « الصعب بن معاذ».

ويظهر أن ذلك راجع إلى اطمئنانهم إلى العلو الشاهق الذى يقع عليه هذا الحصن، وإلى أن الجيش الإسلامى لن يقدر على اقتحامه لصعوبة الوصول إليه وفتحه بقوة السلاح.

فتح الحصن :

قال الواقدى : لما تحولت اليهود من حصن ناعم وحصن الصعب بن معاذ إلى قلعة الزبير حاصرهم رسول الله ﷺ ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود يقال له « عزّال » فقال : ياأبا القاسم تؤمننى على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة، وتخرج إلى أهل الشق، فإن أهل الشق قد هلكوا رعبا منك، قال : فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله ، فقال له اليهودى : إنك لو أقمت شهراً تحاصرهم مابالوا بك ، إن لهم تحت الأرض دُبولا ــ أى جداول ــ(٢) يخرجون بالليل فيشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم. فأمر رسول

---

(١) غزوة خيبر : ٢٠٧ بتصرف ، وانظر : مغازى الواقدى : ٢ : ٦٦٦ . (٢) المعجم الوسيط (دبل) .

الله ﷺ بقطع دُبولهم، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، وقتل من المسلمين يومئذ نفر، وأصيب من اليهود عشرة، وافتتحه رسول الله ﷺ (١)، وكان آخر حصون النطاة .

حصون الشق :

وبعد أن فقد اليهود حصون وقلاع النطاة، وخسروا كبار قادتهم فى تلك المعارك الضارية، تحولت فلولهم المدحورة إلى قلاع الشق . (٢)

وقد تمركزت قواتهم الرئيسة فى حصن أمامى يقال له « قلعة أبىّ» وتحصنوا فى هذه القلعة استعدادا لمقاومة الجيش الإسلامى الذى كان يتعقبهم فى زحفه.

ضرب الحصار على القلعة :

وكانت قلعة أبىّ قلعة منيعة للغاية ولكنها على كل حال ليست أحصن ولا أمنع من قلاع النطاة التى اقتحمها المسلمون ـ كما أسلفنا ـ بعد مراحل من أهوال القتال الضارى العنيف .

ولهذا لم يترددوا فى مهاجمتها بسرعة ، فقد قام الجيش الإسلامى بضرب الحصار على هذه القلعة، تمهيدا لاقتحامها، وكان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بنفسه يدير دفة القتال.

فتح القلعة :

فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها « سموان » (٣) فقاتل عليها أشد القتال ، فخرج منهم رجل يقال له « عزول » فدعا إلى البراز، فبرز له الحباب بن المنذر ، فقطع يده اليمنى من نصف ذراعه ووقع السيف فى يده، وفر اليهودى راجعا ، فأتبعه الحباب، فقطع عرقوبه، وبرز منهم آخر، فقام إليه رجل من المسلمين ، فقتله اليهودى، فنهض إليه أبو دجانة فقتله وأخذ سلبه، وأحجموا عن البراز، فكبر المسلمون، ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه، وأمامهم أبو دجانة، فوجدا فيه أثاثا ومتاعا وغنما وطعاما، وهرب من كان فيه من المقاتلة، وتقحموا الجزر كأنهم الضباب حتى صاروا إلى حصن البزاة بالشق، وتمنعوا أشد الامتناع .

---

(١) البداية والنهاية : ٤ : ١٩٨.

(٢) غزوة خيبر : ٢١٧ ومابعدها بتصرف، وانظر : المرجع السابق .

(٣) البداية والنهاية : ٤ : ١٩٨.

حصن النزار :

وكان حصن « النزار» هو الحصن الثانى من حصون « الشق » والحصن الخامس والأخير من حصون القسم الأول من خيبر، والتى تحصن فيها اليهود وقاتلوا المسلمين.

وكان آخر أمل لهؤلاء اليهود معقودا على هذا الحصن فقد كان يجمع النساء والذرية؛ لأن قادة اليهود ـ بالرغم من قوة الحصون الأربعة ـ غير واثقين من قدرتها على الصمود طويلا أمام هجمات المسلمين، ولهذا جردوها للمقاتلين فقط، وأجلوا عنها النساء والصبيان .

ولكن هؤلاء اليهود لشدة ثقتهم بمناعة وحصانة وقوة حصن النزار، ولكونهم على ما يشبه اليقين عندهم بأن قوات الجيش الإسلامى ستعجز عن فتح هذا الحصن، وستضجر من طول المقام محاصرة له، دون أن تتمكن من فتحه، فتعود أدراجها، أو ستجبر على الدخول فى مفاوضة مع اليهود، وهم فى وضع من القوة يجعلهم يحصلون على شروط أفضل فى صلح يعقدونه مع المسلمين...

من أجل هذا كله شحن اليهود حصن النزار بأفضل ما لديهم من المحاربين، ثم جمعوا فيه النساء والذرية، وكانوا حوالى ألفين ، [١] ثم تحصنوا فى هذا الحصن أشد التحصن وامتنعوا فيه أشد الامتناع، وصاروا يدافعون عنه دفاع المستميت، لأنهم يدركون تمام الإدراك أن سقوط هذا الحصن فى أيدى المسلمين، يعنى سقوط الشطر الأول والأهم من خيبر، وبالتالى يعنى انهيار المقاومة اليهودية انهيارا كاملا، قد يجعلهم غير قادرين على الدفاع عن الشطر الثانى الذى لم يكن مستوى أهله كمستوى يهود الشق والنطاة ، من حيث الصبر على القتال، وقد كان قادة وزعماء اليهود فى الشطر الثانى من خيبر يعرفون هذا، وقد صرح به أحد قادتهم « كنانة بن أبى الحقيق النضرى » حيث قال عند سقوط آخر حصن من حصون النطاة والشق فى أيدى المسلمين: قد فرغ محمد من النطاة، وليس أحدها هنا يقاتل، قد قتلت يهود حيث قتل أهل النطاة[٢].

الهجوم على الحصن :

وفى منطقة الشق كانت حصون كثيرة، ولكن يظهر أن اليهود أخلوها وتجمعوا في حصن النزار لمناعته وقوة تحصينه، ثم هربوا جميعا بعد سقوطه إلى حصون الكتيبة فى

---

(١) انظر : إمتاع الأسماع : ٣١٨ .
(٢) مغازى الواقدى : ٢ : ٦٧٤ .

الشطر الثانى من خيبر . (١)

وبعد أن سقطت قلعة أبىّ ـ كما سبق ـ وانهزم المدافعون عنها إلى حصن النزار، سارع المسلمون إلى مطاردتهم ، فلم يتركوا لهم فرصة يستريحون فيها ، بل سارعوا إلى ضرب الخناق عليهم بقيادة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، وصاروا يضغطون عليهم ليستسلموا .

ولكن اليهود قاوموا من داخل الحصن، ولم يطلب أحد منهم المبارزة.. وكل مافعلوه هو أنهم شحنوا الأبراج بالرماة، واعتصموا داخل الحصن، وصاروا يسلطون الحجارة على المسلمين بغية إبعادهم عن الأسوار ..

وواضح أن الرماة من اليهود كانوا يركزون سهامهم على الموقع الذى يرابط فيه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ حول الحصن ، ومن ثم أصابت بعضها ثيابه ﷺ ، وهو يدير العمليات العسكرية ضدهم . (٢)

نصب المنجنيق :

ويدل سياق المؤرخين على أن يهود قلعة النزار قد صمدوا طويلا وصَدُّوا كل المحاولات التى قامت بها وحدات من مشاة الجيش الإسلامى لاقتحام الحصن وفتحه بقوة السلاح، وذلك راجع إلى تحصين القلعة ووعورة الوصول إليها، وعنادهم فى المقاومة. الأمر الذى جعل المسلمين يضيقون من طول المقام بدون نتيجة.

لذلك رأينا بعض الروايات التاريخية تفيد أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قرر استخدام آلات التدمير لضرب أبراج الحصن وأسواره لتدميرها وليتمكن مشاة المسلمين من الاقتحام، ولم يكن هناك مجال للخيل فى عمليات الهجوم، لعدم وجود أى طريق تستطيع الخيل سلوكه، ومن ثم كانت هجمات الجيش الإسلامى مقتصرة على وحدات من المشاة .

وكان المسلمون قد غنموا فى حصن الصعب بن معاذ فى النطاة بعض المنجنيقات، وبعض الدبابات، وفق اللغة العسكرية المناسبة للعصر الذى تجرى فيه هذه الأحداث .. ومن ثم أمر النبى ﷺ بنصب آلات المنجنيق،(٣) لتدمير الحصن وإجبار اليهود على

---

(١) انظر : المرجع السابق : ٦٦٩ .
(٢) انظر : السيرة الحلبية : ٢ : ١٦٥، والبداية والنهاية : ٤ : ١٩٨ .
(٣) السيرة الحلبية : ٢ : ١٦٥ .

الاستسلام أو الانسحاب.

ومع تحدث بعض المؤرخين عن قصة نصب النبى ﷺ آلات المنجنيق على حصن النزار بعد أن استعصى فتحه، فإن أحدا منهم لم يذكر هل قذف النبى ﷺ هذا الحصن بقذائف هذه الآلات التدميرية أم لا ؟

ولاشك أن قتالا عنيفا دار بين الجيش الإسلامى ويهود حصن النزار داخل الحصن، بدليل أن اليهود انهزموا شر هزيمة، وتركوا للمسلمين غنائم كثيرة، وسواء قلنا بهذا أو بذاك فإن الأمر لا يترتب عليه خلاف حول النتيجة .. حيث استسلم اليهود .. وتم للجيش الإسلامى النصر على الشطر الأول من خيبر .

زحف الجيش الإسلامى :

وهنا توجه الجيش الإسلامى إلى الشطر الثاني ، الذى تحوّل إليه المنهزمون من الشطر الأول، والتحقوا بإخوانهم المتحصنين فى القلاع المنيعة، فى مقدمتها « القموص، والوطيح، وسلالم » .

« أما القموص » فقد فتحه علىّ رضى الله عنه ، (١) وهو أعظم حصون « الكتيبة » الذى منه سُبِيت صفية رضى الله عنها ..

وأما « الوطيح» و « سُلالم » فقد استسلم اليهود المعتصمون بهما بعد الحصار الشديد وبعد أن أيقنوا بالهلكة . (٢)

الاستسلام النهائى :

وذكر المؤرخون أن اليهود حينما حصرهم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أربعة عشر يوما سألوه الصلح، حيث قرر كنانة بن أبى الحُقيق التسليم، وبعث إلى النبى ﷺ بوفد يطلب باسمه التفاوض، على أساس إنهاء الحرب بتسليم اليهود للمسلمين ، وكان «شماخ» رئيس الوفد .(٣)

وعندما خرج « شماخ » (٤) ــ رسول كنانة بن أبى الحقيق ــ من حصن القموص اعتقله الحرس النبوى .. ومن ثم أعلن استعداد يهود الشطر الثانى من خيبر للمفاوضة، وأن

---

(١) المواهب : ٢ : ٢٢٨ .

(٢) ابن هشام : ٢ : ٣٣٧ .

(٣) انظر : مغازى الواقدى : ٢ : ٦٧٠ .

(٤) غزوة خيبر : ٢٦٤ ومابعدها بتصرف .

ملك اليهود ـ كنانة ـ يرغب في ذلك .. وأجيب إلى ذلك.. وهنا حاول كنانة ومن معه الحصول على شروط وضمانات مثل التى يحصل عليها أهل الذمة الذين يقبلون الدخول فى مفاوضات مع قائد الجيش الإسلامى قبل إعلان الحرب فيعقدون معه الصلح الذى بموجبه يكون لهم حق البقاء فى بلادهم مع الاحتفاظ بأموالهم وممتلكاتهم ، وإعفاء النساء والذرارى من السبى وحقن دماء الجميع، مقابل الجزية، مع الاعتراف بسلطان الإسلام ، وأن يعيشوا لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .

بيد أن هذا الاستعداد جاء متأخرا .. ذلك أنهم لم يبدوا استعدادهم للتسليم على أساس الصلح، إلا بعد أن قاوموا أشد المقاومة ، وامتنعوا بحصونهم، وحاربوا المسلمين ـ كما أسلفنا ـ وقاوموهم إلى درجة كبيرة جعلت اقتحام حصونهم صعبا، بالرغم من المحاولات الهجومية التى استمرت حوالى نصف شهر.. الأمر الذى جعلنا نرجح الروايات التاريخية التى تقرر نصب المنجنيق ـ كما سبق ـ لضرب أبراج الحصون وأسوارها، ليسهل على المسلمين اقتحامها، وهذا جعل كنانة بن أبى الحقيق والمدافعين عن هذه الحصون يوقنون بالهلاك، ويفكرون فى المفاوضة والتسليم، بعد أن تأكدوا أن مقاومتهم لن تجدى نفعا إذا ما تمكنت تلك القوة من تدمير أبراج وأسوار الحصون التى امتنع فيها هؤلاء اليهود وقرروا محاربة المسلمين حتى النهاية.

وعلى كل حال ـ سواء قلنا بهذه الرواية التاريخية أو لم نقل ـ كما سبق ـ فإن اليهود قد استسلموا الاستسلام النهائى .

تسامح الرسول ﷺ :

ومع كل هذا العداء اليهودى ـ كما عرفنا ـ فإن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قد تسامح مع هؤلاء اليهود ، حيث أبرم معهم اتفاقية، أهم ما حصلوا عليه فيها (حقن دمائهم وإعفاء نسائهم وذراريهم من السبى) وهو أمر ماكانوا ليظفروا به لولا روح التسامح التى عاملهم بها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ .

معالم اتفاقية التسليم :

ويمكن تلخيص معالم الاتفاق النهائى فيما يلى :

أولا : على اليهود أن يُخلوا جميع القلاع والحصون، ويتركوا كل مافيها من آلات حربية وأسلحة، ليستولى عليها الجيش الإسلامى لتصبح جزءا من مغانم هذه الغزوة.

ثانيـــا : على اليهود أن يسلموا للمسلمين كل ما فى حوزتهم من أسلحة وألا يحملوا سلاحا ماداموا فى خيبر .

ثالثـــا : يتعهد الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بحقن دماء هؤلاد اليهود ويعفى نساءهم وأطفالهم من الاسترقاق.

رابعـــا : على اليهود أن يجلوا عن خيبر ويغادروها إلى الشام .

خامسا : يسمح المسلمون لليهود عند جلائهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ماحملت ركابهم.

سادسا : يتعهد اليهود ـ وعلى رأسهم سيدهم كنانة بن أبى الحقيق ـ أن يدلّوا المسلمين على جميع الأموال ، بما فى ذلك الكنوز المخفية ويسلموها للفاتحين.

سابعا : يوافق اليهود على أن لاذمـة لهم، وأن المسلمين فى حل من كل التزامات هـذه الاتفاقيـة، وأن دمـاء اليـهود وأموالهم حـلال للمسلمين إذا ماخالفوا شيئا مما اتفق عليه، أو غيبوا أو كتموا شيئا مما يجب أن يظهروه .

هكذا فتحت خيبر:

تلك هى معالم اتفاقيـة التسليم النهائى، كمـا جـاءت فى روايات كثيرة.. وهكذا فتحت خيبر . .

وهنا نذكر مارواه الشيخان وغيرهما عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

قسم رسول اللّه ﷺ يوم خيبر للفرس سهمين، وللراجل سهما، قال: فسَّره نافع فقال: إذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة أسهم، فإن لم يكن له فرس فسهم .(١)

وفى رواية للبخارى عن زيد عن أبيه أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: أما والذى نفسى بيده ! لولا أن أترك آخر الناس ببّانا، ليس لهم شىء، مافُتحت علىّ قرية إلا قسمتها كما قسم النبى ﷺ خيبر ، ولكنى

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٢٢٨) ، ومسلم : ٣٢ ـ الجهاد ٥٧ (١٧٦٢)، وأبو داود (٢٧٣٣)، والترمذى (١٥٥٤)، وابن ماجه (٢٨٥٤)، والدارمى : ٢ : ٢٢٥ ـ ٢٢٦، وأحمد : ٢ : ٢ ، ٦٢، ٧٢، ٨٠ .

أتركها خزانة لهم يقتسمونها . [1]

ورواه ـ أيضا ـ أبو داود عن عمر قال : لولا آخر المسلمين، ما فتحت عليّ قرية إلا قسمتها كما قسم النبى ﷺ خيبر [2]

قال ابن كثير : وهذا السياق يقتضى أن خيبر بكمالها قسمت بين الغانمين .[3]

وروى أبو داود عن ابن شهاب قال بلغنى أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة بعد القتال، ونزل من نزل من أجلها على الجلاء بعد القتال.

وفى رواية قال : خمّس رسول الله ﷺ خيبر ، ثم قسم سائرها على من شهدها ومن غاب عنها من أهل الحديبية . [4]

وفى رواية له عن الزهرى أيضا أن سعيد بن المسيّب أخبره [5] أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة.

قال أبو داود : وقرئ على الحارث بن مسكين وأنا شاهد : أخبركم ابن وهب قال : حدثنى مالك عن ابن شهاب : أن خيبر كان بعضها عنوة وبعضها صلحا، والكتيبة أكثرها

---

(١) البخارى : ٦٤ المغازى (٤٢٣٥) وقوله « بيّانا » قال ابن حجر كذا للأكثر ـ بموحدتين مفتوحتين ، الثانية ثقيلة، وبعد الألف نون ـ قال أبو عبيدة بعد أن أخرجه عن ابن مهدى : قال ابن مهدى : يعنى شيئا واحدا ، قال الخطابى: ولا أحسب هذه اللفظة عربية، ولم أسمعها فى غير هذا الحديث. وقال الأزهرى : بل هى لغة صحيحة ، لكنها غير فاشية فى لغة معد، وقد صححها صاحب العين وقال : ضوعفت حروفه . وقال البيّان: المعدم الذى لاشىء له، ويقال : هم على بيان واحد ، أى على طريقة واحدة، وقال ابن فارس : يقال هم ببان واحد ، أى شىء واحد. قال الطبرى : البيّان فى المعدم الذى لاشىء له، فالمعنى لولا أن أتركهم فقراء معدمين لاشىء لهم، أى متساويين فى الفقر. وقال أبو سعيد الضرير فيما تعقبه على أبى عبيد : صوابه بيانا ـ بالموحدة ثم تحتانية بدل الموحدة الثانية ـ أى شيئا واحد ، فإنهم قالوا لمن لا يعرف! هو هيان بن بيان . قلت : وقد وقع من عمر ذكرهذه الكلمة فى قصة أخرى، وهو أنه كان يفضل فى القسمة فقال : « لئن عشت لأجعلن الناس بيّانا واحدا» ذكره الجوهرى. وهو مما يؤيد تفسيرها بالتسوية. وروى الدارقطنى فى « غرائب مالك » من طريق معن بن عيسى عن مالك بسند حديث الباب عن عمر قال: « لئن بقيت إلى الحول لألحقن أسفل الناس بأعلاهم » .. ونقل صاحب « المطالع » عن أهل العربية أنه لم يلتق حرفا من جنس واحد فى اللسان العربى ، وتعقب بأن ذلك لا يعرف عن أحد من النحويين ولا اللغة ،وقد ذكر سيبويه الببر ـ بموحدة مفتوحة ثم ساكنة ـ وهى دابة تعادى الأسد، وفى الأعلام «ببة» بموحدتين الثانية ثقيلة ، لقب عبد الله بن الحارث الهاشمى أمير الكوفة . فتح البارى : ٧ : ٤٩٠ .

(٢) البخارى : ٦٤ـ المغازى (٤٢٣٦)، وأبو داود (٣٠٠٤) عون المعبود.

(٣) البداية والنهاية : ٤ : ٢٠١ .

(٤) أبو داود (٣٠٠٢ ، ٣٠٠٣) عون المعبود .

(٥) المرجع السابق (٣٠٠١) وهو مرسل .

عنوة وفيها صلح . قلت لمالك : وما الكُتَيبة ؟ قال : أرض خيبر وهى أربعون ألف عَذْق.

وفى رواية عن عبيد الله بن عمر قال: أحسبه عن نافع عن ابن عمر: أن النبى ﷺ قاتل أهل خيبر فغلب على الأرض والنخل [على النخل والأرض] وألجأهم إلى قصرهم فصالحوه على أن لرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء والحلقة، ولهم ماحَملت ركابهم، على أن يكتموا ولا يفوّتوا شيئا، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد ، فغيبّوا مسْكاً لحيىٍّ بن أخطب، وقد كان قتل قبل خيبر ، كان احتمله معه يوم بنى النضير، حين أجليت النضير فيه حليهم. وقال : فقال النبى ﷺ لسعية:

« أينْ مَسْك حيّى بن أخطب ؟ » .

قال : أذهبته الحروب والنفقات، فوجدوا المسك، فقُتل بن أبى الحُقيق، وسبى نساؤهم وذراريهم ، وأراد أن يجليهم، فقالوا : يامحمد، دعنا نعمل فى هذه الأرض ، ولنا الشطر مابدالك، ولكم الشطر .. الحديث (١)

وزاد البلاذرى فيه : (٢) قال : فدفع رسول الله ﷺ سعية بن عمرو إلى الزبير، فمسّه بعذاب، فقال : رأيت حيّاً يطوف فى هذه الخِربة، ففتّشوها، فوجدوا المسك. فقتل النبى ﷺ ابنى أبى الحُقيق، وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب، وسبى نساءهم وذراريهم، وقسم أموالهم، للنكث الذى نكثوا، ففى هذا أنها فتحت صلحا، وأن الصلح انتقض ، فصارت عنوة، ثم خمسها رسول الله ﷺ وقسمها .

وفى رواية بشير بن يسار المرسلة : أنه عليه السلام عزل شطرها ثمانية عشر سهما لنوائب المسلمين، فكان منها: الوطيح، والسلالم والكتيبة التى كان بعضها صلحا وبعضها عنوة وقد تكون غلب عليها حكم الصلح، فلذلك لم يقسم فيما قسم بين الغانمين، والوطيح والسلالم، لم يجر لهما ذكر صريح فى العنوة، فصار هذا القول قويا .

قال أبو الفتح : ويترجح ما قاله موسى بن عقبة وغيره : إن بعض خيبر كان صلحا... وذكر مارواه أبو داود فى الرواية السابقة عن الزهرى أن خيبر كان بعضها عنوة وبعضها صلحا .. (٣)

---

(١) المرجع السابق (٢٩٩٠) والحديث سكت عنه المنذرى .

(٢) نصب الراية : ٣ : ٤٠٠ .

(٣) المرجع السابق : ٣٩٩ ، وانظر : زاد المعاد : ٣ : ٣٢٨ .

قال ابن القيم (١) : قسم رسول الله ﷺ خيبر على ستة وثلاثين سهما، جمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم ، فكان لرسول ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك ، وهو ألف وثمانمائة سهم، لرسول الله ﷺ كسهم أحد المسلمين، وعزل النصف الآخر وهو ألف وثمانمائة سهم، لنوائبه ومانزل به من أمور المسلمين .

وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم، لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية، من شهد منهم ومن غاب عنها، وكانوا ألفا وأربعمائة، وكان معهم مائتا فرس، لكل فرس سهمان، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم، ولم يغب عن خيبر من أهل الحديبية إلا جابر ابن عبد الله ، فقسم له ﷺ كسهم من حضرها، وقسم للفارس ثلاثة سهام وللراجل سهما وكانوا ألفا وأربعمائة فارس وفيهم مائتا فارس، وهذا هو الصحيح .

قال البيهقى : إن خيبر فتح شطرها عنوة وشطرها صلحا، فقسم مافتح عنوة بين أهل الخمس والغانمين ، وعزل مافتح صلحا، لنوائبه ومايحتاج إليه من أمور المسلمين .

قال ابن القيم : وهذا بناء منه على أن أصل الشافعى أنه يجب قسم الأرض المفتوحة عنوة، كما تقسم الغنائم، فلما لم يجد قسم الشطر من خيبر ، قال : إنه فتح صلحا.

ومن تأمل السير والمغازى حق التأمل تبين له أن خيبر إنما فتحت عنوة، وأن رسول الله ﷺ استولى على أرضها كلها بالسيف عنوة ولوشىء منها فتح صلحا لم يجلهم رسول الله ﷺ منها ، فإنه لما عزم على إخراجهم منها قالوا: نحن أعلم بالأرض منكم، دعونا فيها ونعمرها لكم بشطر مايخرج منها، وهذا صريح جدا فى أنها فتحت عنوة. وقد حصل بين اليهود والمسلمين من الحرب والمبارزة والقتل بين الفريقين ماهو معلوم، ولكنهم لما ألجئوا إلى حصنهم نزلوا على الصلح الذى ذكر أن لرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء والحلقة والسلاح، ولهم رقابهم وذريتهم ويجلوا عن الأرض، فهذا كان الصلح، ولم يقع بينهم صلح : أن شيئا من أرض خيبر لليهود، ولا جرى ذلك ألبتة، ولو كان كذلك لم يقل فيما رواه الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما :

« **نقركم بها على ذلك ما شئنا** »

فقرّوا بها حتى أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحاء . (٢)

---

(١) عون المعبود : ٨ : ٢٤٥ ـ ٢٤٧ .

(٢) البخارى : ٤١ ـ المزارعة (٢٣٣٨)، ومسلم : ٢٢ ـ المساقاة ٦ (١٥٥١) .

فكيف يقرهم على أرضهم ما شاء أولا، وكان عمر أجلاهم كلهم من الأرض ولم يصالحهم أيضا ، على أن الأرض للمسلمين ، وعليها خراج يؤخذ منهم ، هذا لم يقع ، فإنه لم يضرب على خيبر خراجا ألبتة.

فالصواب الذى لا شك فيه أنها فتحت عنوة ، والإمام مخير فى أرض العنوة بين قسمها ووقفها، وقسم بعضها ووقف البعض، وقد فعل رسول الله ﷺ الأنواع الثلاثة ، فقسم قريظة والنضير ، ولم يقسم مكة وقسم شطر خيبر وترك شطرها .

نهاية الطاغوت اليهودى :

وبسقوط منطقة خيبر [١] فى أيدى المسلمين انهار آخر وأقوى معقل لطاغوت اليهود الدخيل الزنيم فى جزيرة العرب.. هذا الطاغوت اليهودى الذى دام فى المدينة وخيبر بصفة خاصة مدة طويلة قبل الرسالة والرسول ﷺ ، والذى ظل طيلة هذه المدة مصدر الشرور والفتن والقلاقل والحروب الأهلية الطاحنة بين العرب ، تلك التى دأب اليهود بأساليبهم التقليدية الشريرة على إثارتها وتغذية أسبابها للتمكين لوجودهم فى بلاد العرب كأقلية دخيلة لايمكنها الاستقرار والبقاء فى أرض غير أرضها، وبين شعب هى غريبة عنه جنسا ولغة ودينا ولحما ودما، إلا باستمرار التخاصم والتناحر والتفرق والتعادى بين عناصر هذا الشعب والعمل على تصعيد أسباب الخلاف الدامى بين مختلف فئات هذا الشعب، الذى لو توحّد وتخلّت عناصره ذات القوة الذاتية عن مساوئ التخاصم الجاهلى والتنافر القبلى ، لما استطاع هؤلاء اليهود الدخلاء، أن يجدوا موطئ قدم فى جزيرة العرب ، ولا اضطروا إلى العودة من حيث أتوا ، وهو ماحدث لهم مرغمين بالفعل بعد أن توحدت هذه الأمة تحت راية التوحيد ..

ما أشبه الليلة بالبارحة :

فهل يتقى الله هؤلاء الذين يحملون شعارات القومية والعروبة وهم بعيدون عن حقيقة الإسلام ؟ !

وهلى يتقى الله هؤلاء الذين يعملون على زيادة تمزيق وحدة الأمة تحت راية تلك الشعارات البراقة ؟ !

إن الوجود اليهودى الزنيم الدخيل فى فلسطين ، لا يستمد بقاءه من قوته الذاتية مهما

---

(١) غزوة خيبر : ٢٦٨ وما بعدها بتصرف .

تعددت وتنوعت وتفوقت، بقدر ما يستمد بقاءه البغيض من تمزيق وحدة هذه الأمة واختلاف الكلمة ، وكيد بعضهم لبعض .. وما أشبه الليلة بالبارحة..

وعلينا أن نتصور قوة الجيش الاسلامى الذى نصره الله على اليهود فى التجمع تحت راية العقيدة والأخوة فى الله.. وأن ندرك أن معالم النصر فى عصرنا وإلى أن تقوم الساعة هى معالم النصر التى أبصرنا فى تلك المعارك ..

الرسول القائد:

وهل آن لنا أن تجد هذه الدراسات العسكرية والمعارك التى قادها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وعمل فيها بكل مبادئ الحرب المعروفة ـ كما يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب ـ[1] بالإضافة إلى مزاياه الشخصية الأخرى فى القيادة ـ كما عرفنا ـ هل آن لنا أن تجد هذه الدراسست العسكرية سبيلها إلى الكليات الحربية فى البلاد الإسلامية؟.

إن المسلم حقا ، هو الذى يقدّر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ حق قدره ، فيعترف بأن كفاية الرسول ﷺ قائدا متميزا، وكفاية أصحابه رضى الله عنهم جنودا متميزين، هى التى أمّنت لهم النصر العظيم ..

أما أن نستند على الخوارق وحدها فى الحرب، ونجعلها السبب المباشر لانتصار المسلمين، فذلك يجعل النصر لاقيمة له من الناحية العسكرية، بالإضافة إلى مخالفة الأمر بالأخذ بالأسباب ـ كما أسلفنا ـ وإعداد القوة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ..

إن أعمال الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، ومنها العسكرية، سنة متبعة فى كل زمان ومكان، فهل يبقى أتباعه ينتظرون الخوارق، لينتصروا على أعدائهم، أم يعدّون ما استطاعوا من قوة ، لينالوا هذا النصر ؟

إن سيرة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ العسكرية، تثبت بشكل جازم حاسم لايتطرق إليه الشك، أن انتصاره ـ من الناحية البشرية ـ كان لشجاعته الشخصية، وسيطرته على أعصابه فى أحلك المواقف ولقراراته السريعة الجازمة الحاسمة فى أخطر الظروف ، ولعزمه الأكيد فى التشبث بأسباب النصر ، ولتطبيقه كل مبادئ الحروب المعروفة فى كل معاركه، تلك العوامل الشخصية التى جعلته يتفوق على أعدائه فى الميدان. .

---

(١) الرسول القائد : مقدمة ، بتصرف .

ويمتاز الرسول الحبيب المحبوب ﷺ عن غيره من القادة في كل زمان ومكان بميزتين مهمتين:

الأولى : أنه كان قائدا عصاميا.

والثانية : أن معاركه كانت للدفاع عن الدعوة، ولحماية حرية نشر الإسلام، ولتوطيد أركان السلام، لاللعدوان والاغتصاب والاستغلال.

وعلى ذلك يمكن تقسيم حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ من الناحية العسكرية إلى أربعة أدوار :

دور الحشد.

ودور الدفاع عن العقيدة .

ودور الهجوم.

ودور التكامل .

وبهذا التطور المنطقى، تدرج هذا القائد العصامى بقواته من الضعف إلى القوة ، ومن الدفاع إلى الهجوم ، ومن الهجوم إلى التعّرض وبذلك بزّ كل قائد فى كل أدوار التاريخ، لأنه أوجد قوة كبيرة ذات عقيدة واحدة وهدف واحد من لاشىء ..

تلك هى الميزة الأولى للرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام ..

والميزة الثانية لقيادته : هى أن معاركه كانت حرب فروسية بكل معانى الكلمة، الغرض منها حماية نشر الإسلام ، وتوطيد أركان السلام فلم ينقض عهدا، ولم يمثّل بعدو، ولم يقتل ضعيفا، ولم يقاتل غير المحاربين..

وإن مهمة القائد فى العصور السابقة كانت أصعب من مهمته فى العصر الحديث ـ كما رأينا فى هذه المعارك بين المسلمين واليهود ـ لأن سيطرة القائد ومزاياه الشخصية، كانت العامل الحاسم فى تلك الحروب بينما يسيطر القائد فى الحروب الحديثة على قواته بمقاومة عدد ضخم من ضباط الركن الذين يعاونونه فى مهمته، ويراقبون تنفيذ أوامره فى الوقت والمكان المطلوبين، كما يسيطر القائد على قواته بواسطة المواصلات الداخلية الدقيقة من أجهزة لاسلكية وسلكية ورادار وطيارات وأقمار صناعية ووسائط آلية ..

بل إن هيئات الركن مسئولة حتى عن تهيئة خطط القتال قبل الوقت المناسب ، ولا يقوم القائد إلا بمهمة الإشراف على التنفيذ ..

إن القائد فى الحرب الحديثة يحتاج إلى العقل وحده، والقائد فى الحروب القديمة يحتاج إلى العقل والشجاعة .. ومن هنا تأتى أهمية هذه الدراسات العسكرية لجنودنا فى الكليات الحربية حتى ينصرنا الله على اليهود .

النبى ﷺ يعيد التوراة لليهود :

وعند إحصاء الغنائم فى خيبر وجد المسلمون من بينها صحائف من التوراة، وقد طلب هؤلاء اليهود من الرسول ﷺ أن يعيد إليهم تلك الصحائف ، فاستجاب لطلبهم ـ رغم ما فيها من التخريف والتزييف كما أسلفنا ـ وأمر بإعادتها إليهم فأعيدت. (١)

وفى إعادة صحائف التوراة إلى اليهود البرهان الذى يُلقم متهمى الإسلام بالتعصب ومصادرة غير المسلمين فى معتقداتهم وإجبارهم اعتناق الدين القيم يلقمهم حجرا .

فإعادة تلك الصحائف إلى اليهود ـ (٢) وخاصة فى ذلك الوقت الذى انتهى فيه الطاغوت اليهودى عسكريا كما أسلفنا ـ الدليل العملى على تسامح الإسلام، وإطلاقه الحريات لمن يخالفه فى العقيدة ، فى عصر بلغ فيه التعصب الأعمى للدين والمذهب بين الأمم الأخرى ـ كالرومان ـ إلى أن أباحوا لأنفسهم سفك دم الذين يخالفونهم فى المذهب، داخل إطار الدين الواحد، كما فعل حكام الروم البيزنطية بيعاقبة النصارى فى مصر. فكيف بمن يخالفهم فى جوهر الدين ذاته ؟! وأين تصرفات المسلمين الفاتحين المنتصرين المتسامحين بإطلاقهم الحريات لمخالفيهم فى الدين، ليمارسوا شعائرهم فى ظل الدولة الإسلامية كما يريدون ، من تصرفات الصليبيين الذين أعماهم الحقد والتعصب ؟ فلم يكتفوا بمصادرة حرية المسلمين فى ممارسه شعائر دينهم، بل لجأوا إلى تخييرهم بين أمرين :

إما قتلهم وتحريقهم بالنار !.

وإما مفارقة الإسلام واعتناق النصرانية !

كما حدث من الملك « فرديناند» والملكة « إيزابيلا » فى الأندلس « إسبانيا » عندما كُتبت لهم الغلبة هناك ، فأقاموا لهم محاكم التفتيش الوحشية التى نفذت حكم الإعدام

---

(١) انظر : السيرة الحلبية : ٢: ١٦٦ .

(٢) غزوة خيبر : ٢٧٣ بتصرف .

ـ ضربا بالسيف وحرقا بالنار ـ في مئات الآلاف من المسلمين ..

وكما حدث من ملك الصليبيين « قلب الأسد » عندما ذبح ثلاثة آلاف مسلم من أسرى المسلمين، بالرغم من إعطائهم الأمان، عند استيلائه على مدينة القدس، التى استعادها منه صلاح الدين بقوة السلاح، والذى لم يقتل أسيرا مسيحيا واحدا، بالرغم من تلك المجازر التى ارتكبها الصليبيون على يد « قلب الأسد» الإنكليزى .. وقد بلغ التسامح الإسلامى بصلاح الدين إلى أن يعوده وهو فى مرضه، ويأمر طبيبه بمعالجته حتى شفى من مرضه، كما تشهد بذلك مصادر التاريخ الغربى فى أوربا قبل الشرق فى بلاد الإسلام.

اعتراف ولفنسون :

ويعترف ولفنسون بأن الرسول أجاب اليهود إلى طلبهم، بعدما أيقنوا بالهلكة، حيث طلبوا أن يُجليهم عن المنطقه، وأن يحقن دماءهم، ولكنهم بعد ذلك عرضوا عليه أن يبقيهم فى الأرض، لقاء شطر ما يخرج منها، فوافق الرسول على العرض، إجابة لطلبهم، ورغبة فى الإفادة من أية طاقة فى إعمار الأراضى واستثمارها، إلا أنه بين لهم أن موافقته غير ملزمة إلى الأبد .. لما يعرفه عن طبع اليهود، من عدمَ الوفاء بالعهد، ومن انتهاز أية فرصة تسنح للغدر والخيانة!

ويزيد ولفنسون مسألة يهود خيبر وضوحا فيبين أن خيبر كانت واسعة الأطراف .. ومادامت شوكة اليهود فى الحجاز قد انكسرت فليس ما يخشى من وجود يهود خيبر فى أراضيهم . (١).

ويمضى ولفنسون فى حديثه فيقول:

وهناك أمر يستوقف النظر، وهو أنه كان بين الغنائم التى غنمها المسلمون فى غزوة خيبر، صحائف متعددة من التوراة، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبى بتسليمها لهم... مما جعل اليهود يشيرون إلى النبى بالبنان، حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم... ويذكرون بإزاء ذلك، ما فعله الرومان، حين تغلّبوا على أورشليم وفتحوها! إذ أحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس، حيث أحرقوا أيضا صحف التوراة!

هذا هو البون الشائع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام!

---

(١) تاريخ اليهود : ١٦٩ ومابعدها بتصرف .

لكن اليهود بعد قليل لم يذكروا هذه المواقف السمحة العادلة إزاءهم، وسعوا إلى الانتقام كلما سنحت الفرصة لذلك! ولم يكفهم أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ عاملهم على خيبر!

النبي ﷺ يتزوج صفية :

وكان من السبايا اللواتي وقعن في أيدي المسلمين، صفية بنت حييّ ابن أخطب، سيد بني النضير، كانت تحت سلاّم بن مشكم، ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق، فقتل كنانة يوم خيبر، [١] وكان سبب قتله ـ كما أسلفنا ـ ما أخرجه البيهقي بإسناد رجاله ثقات من حديث ابن عمر: أن النبي ﷺ لما ترك من ترك من أهل خيبر، على ألا يكتموه شيئا من أموالهم، فإن فعلوا فلاذمة لهم ولا عهد، قال فغيّبوا قسطا فيه مال وحليّ لحيي بين أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر، فسألهم عنه فقالوا: أذهبته النفقات، فقال : العهد قريب والمال أكثر من ذلك. قال: فوُجد بعد ذلك في خرِبة، فقتل النبيﷺ ابني أبي الحقيق، وأحدهما زوج صفية . [٢] فصارت صفية مع السبي .

يروي مسلم عن أنس قال : كنت ردف أبي طلحة يوم خيبر. وقدمي تَمَسُّ قدَم رسول الله ﷺ قال: فأتيناهم حين بزغت الشمس وقد أخرجوا مواشِيهم وخرجوا بفؤوسهم ومكاتلهم ومُرورهم. فقالوا : محمد ، والخميس قال: وقال رسول الله ﷺ: [٣]

«خربت خيبر ! إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين ».

قال : وهزمهم الله عز وجل. ووقعت في سهم دحية جارية جميلة. فاشتراها رسول اللهﷺ بسبعة أرؤس . ثم دفعها إلى أم سُلَيمْ تَصنَعّها له وتهيئَها (قال: وأحسبه قال) وتعتدُّ في بيتها. وهي صفية بنت حييّ قال : وجعل رسول اللهﷺ وليمتها التمر والأقطِ والسَّمْن. فحصت الأرض أفاحيص. وجيء بالأنطاع. فوُضِعَتْ فيها. وجيء بالأقط والسَّمْن فشبع الناس. قال : وقال الناس : لاندري أتزوجها أم اتخذها أُم ولد. قالوا: إن حجبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أم ولد. فلما أراد أن يركب حجبها. فَقَعَدَتْ على عَجزُ البعير فعرفوا أنه تزوجها. فلما دَنَوْا من المدينة دفع رسول الله ﷺ. ودفَعْنا . قال : فَعَثَرت الناقة العضْباء. وندر رسول اللهﷺ ونَدَرَتْ . فقام فَستَرَها. وقد أشرفت

---

(١) الإصابة: ٨: ١٢٦ (٦٤٧) .
(٢) فتح الباري : ٧: ٤٧٩ .
(٣) مسلم : ١٦ ـ النكاح ٨٧ (١٣٦٥) .

النساء . فقُلْن : أبْعَدَ اللهُ اليهودية.

قال : قلت: ياأبا حمزة! أوَقَعَ رسول الله ﷺ؟ قال : **إى. والله! لقدْ وقع.**

وحديث زواج النبى ﷺ صفية رواه البخارى .. وغيره . (١)

وروى أبو داود وأحمد وصححه وابن حبان والحاكم من طريق أبى أحمد الزبيدى عن سفيان الثورى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة : كانت صفية من الصّفىّ ـ بفتح المهملة وكسر الفاء وتشديد التحتانية ـ فسّره محمد بن سيرين فيما أخرجه أبو داود بإسناد صحيح عنه قال: كان يضرب للنبى ﷺ بسهم مع المسلمين، والصفىّ يؤخذ له رأس من الخمس قبل كل شىء .

ومن طريق الشعبى قال: كان للنبى ﷺ سهم يدعى الصفى، إن شاء عبدا وإن شاء أمة، وإن شاء فرسا، يختاره من الخمس .

ومن طريق قتادة : كان النبى ﷺ إذا غزا كان له سهم صاف يأخذه من حيث شاء ، وكانت صفية من ذلك السهم.

وقيل: إن صفية كان اسمها قبل أن تسبى زينب. فلما صارت من السبى سميت صفية(٢) .

جاء فى المواهب: (٣) وإنما أخذ ﷺ صفية، لأنها بنت ملك من ملوكهم، فقد كان أبوها سيد بنى النضير، والملك يطلق على ذى السيادة والعظمة، كما فى قوله :

﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾(٤)

أى أصحاب حشم وخدم .. وليست مما توهب لدحية، لكثرة من كان فى الصحابة مثل دحية وفوقه، وقِلّة من كان في السبى مثل صفية فى نفاستها، نسبا وجمالا، فقد قالت أم سنان الأسلمية: كانت صفية من أضوأ مايكون من النساء . رواه ابن سعد. فلو خصه بها لأمكن تغيّر خاطر بعضهم، فكان من المصلحة العامة ارتجاعها منه، واختصاصه عليه الصلاة والسلام بها، فإن فى ذلك رضى الجميع رضى الله عنهم .. وقال مغلطاى وغيره :

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٢١١ ، ٤٢١٢ ، ٤٢١٣) والإصابة : ٨: ١٢٦ ـ ١٢٧ ومجمع الزوائد : ٩: ٢٥٠ ـ ٢٥٢ .

(٢) فتح البارى: ٧ : ٤٧٩ ـ ٤٨٠ .

(٣) المواهب : ٢: ٢٣٢ ـ ٢٣٣ بتصرف .

(٤) المائدة : ٢٠ .

وكانت صفية قبل رأت القمر سقط فى حجرها فتُؤُوِّل بذلك .

يروى الطبرانى بسند رجاله رجال الصحيح عن ابن عُمر رضى الله عنهما قال:

كان بعينىْ صفية خضُرة، فقال لها النبى ﷺ :

« ما هذه الخضرة يعينيْكِ ؟»

قالت: قلت لزوجى : إنى رأيت فيما يرى النائم كأن قمراً وقع فى حجرى، فلطمنى وقال: أتريدين ملك يثرب. قالت : وماكان أبغض إلىّ من رسول الله ﷺ ، قَتَلَ أبى وزوجى، فمازال يعتذر إلىّ وقال:

« ياصفية، إن أباك ألّب علىّ العرب، وفَعَل وفَعَل »

حتى ذهب ذلك من نفسى (١)

ورواه أبو حاتم وابن حبان. (٢)

ويروى أحمد والترمذى بسند صحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال:

بلغ صفية أن حفصة قالت : إنى ابنةُ يهودىّ، فبكتْ، فدخل عليها النبى ﷺ، وهى تبكى، فقال :

«ماشأنك ؟ »

فقالت : قالت لى حفصة: إنى ابنة يهودى . فقال النبى ﷺ :

« إنك ابنـة نبى، وإن عمك لنبى، وإنك لتحت نبى، فبم تفخـر عليك؟»

فقال:

« اتق الله ! ياحفصة » (٣)

ونبصر من خلال هذا الزواج لهذة السيدة فى قومها، تلك التى أعتقها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وتزوجها، كما فى الصحيحين من حديث أنس رضى الله عنه... (٤)

---

(١) مجمع الزوائد : ٩: ٢٥١ . (٢) المواهب: ٢: ٢٣٣ .

(١).أحمد : ٣: ١٣٥ ــ ١٣٦ والترمذى (٣٨٩٤)، وانظر: المواهب : ٣: ٢٥٥ ــ ومابعدها، والطبقات: ٨: ١٢٠ ــ ١٢٩، والاستيعاب : ٤: ١٨٧١ ــ ١٨٧٢، وأسد الغابة: ٥: ٤٩٠ ــ ٤٩١، وتهذيب التهذيب : ١٢: ٤٢٩،والمستدرك : ٤: ٢٨ ــ ٢٩ .

(٢) البخارى : ٦٧ ــ النكاح (٥٠٨٦)، ومسلم : ١٦ ــ النكاح ٨٤ (١٣٦٥) .

شرف الغاية، ونبل المقصد ... كما نبصر وصل السبب بالأنبياء السابقين عليهم السلام ..
فهل يفهم الحاقدون على الرسالة والرسول هذه الحقائق المشرقة، وتلك المقاصد النبيلة السامية، التى يحاولون طمسها بألوان قاتمة كالحة من الشكوك الباغية الظالمة ؟!

اليهود يقدمون شاة مسمومة للنبى ﷺ:

ومع كل هذا نجد اليهود يقدمون شاة مسمومة للرسول الحبيب المحبوب ﷺ ..

يروى البخارى وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: لمّا فُتحت خيبر أُهْدِيت لرسول الله ﷺ شاة « فيها سُمّ، فقال رسول الله ﷺ :

« اجمعوا لىِ من كان ها هنا من اليهود »

فجُمعوا له ، فقال رسول الله ﷺ :

« إنّى سائلكم عن شىء، فهل أنتم صادقونى عنه ؟»

فقالوا: نعم يا أبا القاسم: فقال لهم رسول اللّه ﷺ:

« مَن أبوكم ؟»

قالوا: أبونا فلان. فقال رسول الله ﷺ :

« كذَبتم، بل أبوكم فلان »

فقالوا : صدَقْتَ وبرَرْت. فقال:

« هل أنتم صادقونى عن شىء إن سألتكم عنه ؟»

فقالوا : نعم ياأبا القاسم، وإن كذَبناك عرفْت كذبنا كما عرفته فى أبينا. قال لهم رسول الله ﷺ :

« مَنْ أهل النار ؟»

فقالوا: نكون فيها يسيرا، ثم تخلُفوننا فيها. فقال لهم رسول ﷺ :

« اخسئوا فيها، والله ! لانخلُفكم فيها أبدا »

ثم قال لهم :

هل أنتم صادقونى عن شىء إن سألتكم عنه؟

قالوا: نعم. قال:

هل جعلتم فى هذه الشاة سما؟

فقالوا: نعم . فقال:

« ماحملَكم على ذلك؟ »

فقالوا: أردنا إن كنت كاذبا نستريح منك، وإن كنت نبيا لم يَضُرّك»(١)

وفى رواية لمسلم عن أنس ، أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة. فأكل منها. فجىء بها إلى رسول الله ﷺ . فسألها عن ذلك؟ فقالت: أردتُ لأُقتلك . قال:

«ماكان اللهُ ليسلّطك علىَ ذاك »

قال: أو قال:

«علىّ »

قال : قالوا:

« ألا نَقْتُلها ؟ »

قال:

« لا »

قال: فمازلت أعرفها فىَ لَهَوَات رسول الله ﷺ . (٢)

إنه العداء اليهودى الذى يعجز الخيال الشاخص عن تصوره .. فهل آن لأتباع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يدركوا ذلك ؟!

إنها حرب سافرة .. لا تقف عند حد .. حرب سافرة تحمل نذر بلاء وعذاب فى كل مايتصل بها .. ومن ثم يجب على أتباع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يستعدوا لمواجهة هؤلاء اليهود الجاحدين .. البغاة المفسدين .. الطغاة المجرمين .. حتى يتحقق فيهم قضاء الله بالتشتيت والمهانة فى هذه الدنيا، والتمزق فى وجوه الأرض ..

---

(١) البخارى : ٧٦ ـ الطب (٥٧٧٧)، والدارمى : ١: ٣٣ ـ ٣٤ وأحمد : ٢: ٤٥١ .

(٢) مسلم : ٣٩ ـ السلام ٤٥ (١٢٩٠).

قدوم مهاجرى الحبشة :

ووسط هذا الجو الذى تتابعت فيه الأحداث بهذه الصورة .. وعقب فتح خيبر .. قدم الذين هاجروا إلى الحبشة .. وقد سُرَّ الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لمجيئهم بعد هذه الفترة الطويلة منذ رجب من السنة الخامسة من النبوة (١) وأمر الرسالة يعلو، وسلطان الإسلام يمتد شمال شبه الجزيرة وجنوبها، وعندما نزلوا بالمدينة قال الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فيما يرويه الحاكم بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: لما قدم جعفر بن أبى طالب من أرض الحبشة قال رسول الله ﷺ :

« **ما أدرى بأيهما أفرح، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر** » (٢) .

وجعفر وإخوانه مكثوا فى الحبشة بضعة عشر عاما، نزل خلالها قرآن، ودارت معارك شتى مع هؤلاء اليهود وغيرهم.. وتقلّب المسلمون قبل الهجرة وبعدها فى أطوار متباينة.. ولم يمض كبير وقت على أولئك المهاجرين العائدين حتى انتظموا فى معارك القتال، مع من سبقوهم.

استسلام يهود فدك:

وكانت هناك عدة جيوب حول خيبر تنتظر نتائج المعركة .. منها يهود فدك. وقد اختلف المؤرخون فى كيفية استسلامهم للجيش الإسلامى .. فقيل : صالحوه على حقن دمائهم والجلاء ويخلوا بينه وبين الأموال، ففعل .. (٣)

وقال ابن إسحاق : فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك، فقدمت عليه رسلهم بخيبر، أو بالطائف، أو بعد ماقدم المدينة، فقبل ذلك منهم فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة لأنه لم يوجف عليها بخيل ولاركاب. (٤)

---

(١) الفتح الربانى : ٢: ٢٢٤ .

(٢) المستدرك : ٢: ٦٢٤ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى.

(٣) انظر: المواهب: ٢ : ٢٤٨.

(٤) الروض الأنف : ٤: ٥٠، وانظر : الكامل فى التاريخ: ٢: ١٥٠، ١٥٢، وابن هشام : ٢: ٣٥٣، والسيرة الحلبية : ٢: ١٧٥، ومغازى الواقدى ٢: ٧٠٦ وانظر: المواهب: ٢: ٢٤٨.

فتح وادى القرى :

وكان اليهود فى وادى القرى وتيماء لا يتوقعون (١) أن تكون الغلبة للمسلمين على خيبر؛ لأنهم أهل عدد وعدة ومنعة وقوة، ولكن الذى حدث كان مفاجأة ليهود هذه الجيوب الذين سارع بعضهم ـ كما هى عادة اليهود ـ إلى الاستسلام حينما يواجهون القوة، وبعضهم دَفَع الجزية .. وقاوَمهم البعض الآخر، ولم يستسلم إلا بعد قتال كوادى القرى .

ويقع هذا الوادى بين خيبر والمدينة، وهو واد خصب، وبه مزارع عظيمة، وعيون كثيرة، وكانت تقطنه ـ عند فتح خيبرـ جماعة من اليهود، على جانب لايستهان به من القوة، ولهذا فقد كان يهود هذا الوادى هم الوحيدين من بين الفئات اليهودية التى رفضت ـ بعد سقوط خيبر ـ الاستسلام للجيش الإسلامى، وقرَّرت المقاومة بحد السلاح .. وقد كان يهود هذا الوادى ـ كيهود خيبر ـ يمتنعون بقلاع وحصون حربية، كما أنهم استغاثوا بجمع من الأعراب الوثنيين استعدادا لمواجهة المسلمين الذين كانوا فى طريقهم إلى وادى القرى من خيبر .

يقول ابن القيم: (٢) انصرف رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادى القرى، وكان بها جماعة من اليهود، وقد انضاف إليهم جماعة من العرب، فلما نزلوا استقبلهم يهود بالرمى، وهم على تعبئة، فَقُتل مدْعَمٌ عبْد رسول الله ﷺ ، فقال الناس : هنيئاً له الجنة، فقال النبى ﷺ فيما يرويه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

«خرجنا يوم خيبر، فلم نغنم ذهبا ولا فضة، إلا الأموال والثياب والمتاع، فأهدَى رجل من بنى الضبيْب، يقال له : رفاعة بن زَيْد لرسول الله ﷺ غلاما يقال له: مِدْعَمٌ، فوجه رسول الله ﷺ إلى وادى القُرى حتى إذا كان بوادى القُرى ، بينما مِدْعَمٌ يَحُطُّ رحْلاً لرسول الله ﷺ إذا سهم عَائِرٌ فقتله، فقال الناس : هنيئا له الجنة، فقال رسول الله ﷺ :

«كلا . والذى نفسى بيده ! إن الشَّمْلَةَ التى أخذها يوم خيبر من المغانم لمْ يُصبْها المقاسم، لتشتعل عليه نارا » .

فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكيْن إلى النبى ﷺ فقال:

---

(١) غزوة خيبر : ٢٩١ ومابعدها بتصرف .

(٢) زاد المعاد: ٣: ٣٥٤ ومابعدها بتصرف .

« شراك من نار أو شراكان من نار » (١) .

فعبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال، وصفهم ، ودفع لواءه إلى سعد ابن عُبادة، وراية إلى الحُباب بن المنذر، وراية إلى سَهل بن حُنيف، وراية إلى عبَّاد بن بشر، ثم دعاهم إلى الإسلام، وأخبرهم أنهم إن أسلموا، أحرزوا أموالهم، وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله، فبرز رجل منهم، فبرز إليه الزّبير بن العوام، فقتله، ثم برز آخرُ، فقتله، ثم برزآخر ، فبرز إليه علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقتله، حتى قَتل منهم أحد عشر رجلا، كلما قُتل منهم رجلٌ، دعا من بقى إلى الإسلام، وكانت الصلاة تحضُر ذلك اليوم، فيُصلىَّ بأصحابه، ثم يعود فيدعهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله، فقاتَلهُم حتى أمْسوا، وغَدا عليهم، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعْطَوْا مابأيديهم، وفتحها عنوة، وغنّمه الله أموالهم، وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا، وأقام رسول الله ﷺ بوادى القُرى أربعة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادى القُرى، وترك الأرض والنخيل بأيدى اليهود ، وعاملهم عليها .

وباستسلام يهود وادى القرى (٢) تم القضاء على أقوى جيب من جيوب المقاومة اليهودية فى جزيرة العرب، كانت قد قاومت الجيش الإسلامى بعد سقوط خيبر :

يهود تيماء يدفعون الجزية:

وقدكانت تيماء الواقعة فى الركن الشمالى الغربى للجزيرة بها مجموعة من اليهود، وكانت لهم حصون فى قمم الجبال، وكان من المتوقع أن يبدوا شيئا من المقاومة، إلا أنه لما بلغهم استسلام خيبر، ثم فدك، ووادى القرى، للجيش الإسلامى، بعثوا من تلقاء أنفسهم إلى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يطلبون الصلح، ويعرضون دفع الجزية للمسلمين، فقبل، منهم النبى ﷺ الجزية، وترك لهم ما بأيديهم من أموال، فلم يستول المسلمون على شىء منها، لأنهم بدفعهم الجزية أصبحوا أهل ذمة، شأنهم غير شأن العدو المحارب الذى لم يستسلم إلا بعد قتال وحرب .. قال البلاذرى فأقاموا ببلادهم، وأرضهم فى أيديهم، وولاها رسول الله ﷺ يزيد بن أبى سفيان، وكان إسلامه يوم فتحها وروى أن عمر أجلى أهل فدك وخيبر وتيماء . (٣)

---

(١) البخارى : ٨٣ ـ الإيمان (٦٧٠٧) ، ومسلم : ١ ـ الإيمان ١٨٣ (١١٥)، ومالك : ٢١ ـ الجهاد (٢٥) وأبو داود (٢٧١١)، والنسائى : ٧: ٢٤ .

(٢) غزوة خيبر : ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

(٣) المواهب: ٢: ٢٤٨، وانظر : البداية : ٢: ٢١٨، والسيرة الحلبية : ٢: ١٨٣، وزاد المعاد: ٣: ٣٥٥ ، وإمتاع =

قصة الرهان:

والآن وقد عاد الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بجيشه منتصرا من خيبر ذلك الانتصار الساحق الرائع ، الذى قضى على اليهود عسكريا .. فإننا نرى رجالات قريش ينظرون إلى نتائج معركة خيبر على أنها الفيصل القاطع فى الصراع الدائر بين الكفر والإيمان .. بين الحق والباطل .. وأنه على ضوء نتائج هذه المعركة ـ التى هى أعظم وأخطر معركة حربية يخوضها المسلمون فى حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ـ سيتقرر المصير النهائى لكل من المعسكرين .. لا فى خيبر وحدها، بل فى الجزيرة كلها . (١)

لأنه لا توجد فى جزيرة العرب ـ يومها ـ قوة تناوئ المسلمين أعظم من يهود خيبر وحلفائهم الغطفانيين، سواء من ناحية العدد والعدة أو من ناحية متانة وحصانة القلاع والحصون التى يعتصم بها اليهود فى خيبر ..

لذلك كان أهل مكة يترقبون بحساسية بالغة واهتمام شديد أنباء المعارك الدائرة فى خيبر. ولأهمية تلك المعارك كان الحديث عنها وعن نتائجها شغل قريش الشاغل فى أنديتها، وكثيرا مايدور الجدل فى تلك الأندية حول أىّ من الفريقين يكون له النصر فى هذه المعارك .. المسلمون أو اليهود ؟

قال موسى بن عقبة وغيره : (٢) وكان بين قريش حين سمعوا بخروج رسول الله ﷺ إلي خيبر تراهُنٌ عظيم، وتبايع، فمنهم من يقول: يظهر محمد وأصحابه ، ومنهم من يقول: يظهرالحليفان ويهود خيبر وكان الحجاجِ بن علاط السّلمى قد أسلم وشهد خيبر، وكانت تحته أم شيبة أخت بنى عبد الدار بن قصى ، وكان الحجاج مكثرا من المال كانت له معادن بأرض بنى سُليم، فلما ظهر النبىﷺ على خيبر ، قال الحجاج بن علاط : إن لى ذهبا عند امرأتى، وإن تعلمْ هى وأهلها بإسلامى، فلا مال لى، فأذن لى، فلأسرع السَّير وأسبق الخبر، ولأخبرن أخبارا إذا قدمت أدرأ بها عن مالى ونفسى، فأذن له رسول الله ﷺ، فلما قدم مكة، قال لامرأته : أخفىِ علىّ واجمعى ماكان لى عندك من مال ، فإننى أريد أن أشترى من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوُا، وأُصيبت أموالهم، وإن محمدا قد أسر، وتفرّق عنه أصحابه وإن اليهود قد أقسموا : لَتَبْعَثَنّ به إلى مكة، ثم لَتَقْتُلَنَّه

= الأسماع : ٣٣٢ ، ومغازى الواقدى : ٢: ٧٠٩ ومابعدها، وابن هشام : ٢: ٣٣٨ وابن سيد الناس : ٢: ١٤٣ .

(١) غزوة خيبر : ٣٠١ ومابعدها بتصرف .

(٢) زاد المعاد : ٣٠ : ٣٣٧ ومابعدها بتصرف ، وانظر : البداية : ٤: ٢١٥ ومابعدها .

بقتلاهم بالمدينة وفشا ذلك بمكة، واشتدّ على المسلمين، وبلغ منهم، وأظهر المشركون الفرح والسرور، فبلغ العباسَ عمَّ رسول الله ﷺ زَجَلَةُ الناس وجَلَبتهُم وإظهارُهُم السرور، فأراد أن يقوم ويخرج، فانْخَزَل ظهرُه، فلم يقدر على القيام، فدعا ابناً له يقال له: قُثَمُ، وكان يشبه رسول الله ﷺ، فجعل العباس يَرْتَجِزُ، ويرفعُ صوته، لئلا يشمتَ به أعداءُ الله:

حِبّى قُثَمْ حِبّى قُثَمْ ... شبيهُ ذِي الأنْف الأشَمْ

نَبِىّ ربىّ ذِي النّعَم ... بِرغْم أنفِ مَنْ رَغَمْ

وحُشر إلى باب داره رجال كثيرون من المسلمين والمشركين، منهم المظُهر للفرح والسرور، ومنهم الشّامِت المُغْرى، ومنهم مَنْ به مثل الموت من الحزن والبلاء، فلما سمع المسلمون رجز العباس وتَجَلّدَه، طابت نفوسهم، وظن المشركون أنه قد أتاه ما لم يأتهم، ثم أرسل العباس غلاما له إلى الحجاج، وقال له: اخلُ به، وقل له: ويلك ماجئت به، وما تقول، فو الذى وعد الله خيرٌ مما جئت به؟ فلما كلمه الغلام قال له: اقرأْ على أبى الفضل السلام، وقل له: فَلْيَخْلُ بى فى بعض بيوته حتى آتيه فإن الخبر على ما يَسُرُّه، فلما بلغ العبد باب الدار، قال: أبشر يا أبا الفضل، فوثب العباس فرحا كأنه لم يُصبه بلاء قط، حتى جاءه وقبّل مابين عينيه، فأخبره بقول الحجاج، فأعتقه، ثم قال: أخبرنى. قال: يقول لك الحجاج. اخْلُ به فى بعض بُيوتك حتى يأتِيك ظهرا، فلما جاءه الحجاج، وخلا به، أخذ عليه لتَكْتُمَنَّ خبَرى، فوافقه عباس على ذلك فقال له الحجاج: جئتُ وقد افتتح رسول الله ﷺ خيبر، وغنم أموالهم وجرتْ فيها سهام الله، وإن رسول الله ﷺ قد اصطفى صفية بنت حيي لنفسه، وأعرس بها، ولكن جئت لمالى أردتُ أن أجمعه وأذهب به وإنى استأذنت رسول الله ﷺ أن أقول، فأذن لِي أن أقول ماشئت فأخْفِ علىّ ثلاثا، ثم اذكر ماشئتَ. قال: فجمعتْ له امرأته متاعه، ثم انشمر راجعا، فلما كان بعد ثلاث، أتى العباس امرأة الحجاج،فقال: مافعل زوجك؟ قالت: ذهب، وقالت: لايحزُنْك الله يا أبا الفضل، لقد شقّ علينا الذى بلغك. فقال: أجل ،لايحْزُنُنى الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحب، فتح الله على رسوله خيبر، وجرت فيها سهام الله واصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه، فإن كان لك فى زوجك حاجة فالحقى به. قالت: أظنك والله صادقا. قال: فإنى والله صادق، والأمر على ما أقول لك. قالت: فمن أخبرك بهذا؟ قال: الذى أخبرَك بما أخبرك، ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش، فلما رأوْه قالوا: هذا والله التجلُّد يا أبا الفضل،

ولا يُصيبك إلا خير. قال: أجل لم يُصبْنى إلا خير والحمدُ لله، أخبَرنى الحجاج بكذا وكذا، وقد سألنى أن أكتُمَ عنه ثلاثا لحاجة، فردّ الله ماكان للمسلمين من كآبة وجزع على المشركين وخرج المسلمون من مواضعهم حتى دخلوا على العباس، فأخبرهم الخبر، فأشرقت وجوه المسلمين.

أخرجه عبد الرزاق، وعند أحمد بسند صحيح، وذكره الهيثمى وزاد نسبته إلى البزار والطبرانى، ورجاله رجال الصحيح . (١)

حسان يهجو يهود خيبر :

وصدق حسان بن ثابت رضى الله عنه وهو يهجو يهود خيبر :

بئس ماقاتَلَتْ خيابر عمـــا   جمعتْ من مزارعٍ ونخيـــلِ

كرِهُوا الموتَ فاستُبيح حماهُم   وأقَامُــوا فعْــل اللئيم الذليــلِ

أمِنَ الموت ترهبـون؟ فـإن المـ   ـوْتَ موت الهُزال غيـر جميل(٢)

المسلمون واليهود وجها لوجه :

ويتضح مما سبق أنه لم يكن هناك ـ (٣) من وجهة النظر العسكرية المجردة ـ أى عامل مادى يتفوق به الجيش الإسلامى على اليهود .. بل يبدو واضحا أن هؤلاء اليهود فى خيبر كانوا فى وضع حربى ممتاز، يمكن القول معه ـ وحسـب المقاييس العسكرية المادية المجردة ـ أن لديهم كل العوامل والأسباب التي يحتاجونها للانتصار على الجيش الإسلامى ، وأهم هذه العوامل والأسباب ما يلى :

أولا : التفوّق العددى .. فقد كان عدد قوات اليهود ـ كما عرفنا ـ أكثر من عدد قوات الجيش الإسلامى ، ويساندهم آلاف من حلفائهم .. ظلوا لهم كالاحتياطى ضد قوات الجيش الإسلامى، حتى انتهت معارك خيبر، بل حاولوا ضرب القوات الإسلامية من الخلف ، لحساب حلفائهم اليهود .

ثانيا : إزاء هذا العدد الهائل، كانت قوات الجيش الإسلامى لاتزيد على ألف وأربعمائة راجل ومائتى فارس ـ كما أسلفنا ـ وهذا يعنى أن التفوّق العددى لليهود تفوّق

---

(١) المصنف (٩٧٧١) وأحمد : ٣: ١٣٨ والمجمع : ٦: ١٥٤ .

(٢) ديوان حسان : ٢٠٥ .   (٣) غزوة خيبر : ٣١٢ وما بعدها بتصرف .

هائل ، مما يجعل توقع الانتصار بالنسبة للمسلمين بعيدا وبالنسبة لليهود قريبا .

ثالثا : التفوق الساحق فى العتاد والسلاح ... فقد كان اليهود مع كثرتهم العددية الغامرة يتفوّقون على الجيش الإسلامى تفوّقا ساحقا حيث كان اليهود على غاية من جودة التسليح واستكمال عدة الحرب الدفاعية والهجومية .. وذلك لما تحت أيديهم من ثروات هائلة تمكنهم من الحصول على أى نوع من أنواع السلاح والعتاد .

رابعا : الاستراتيجية الممتازة التى كان يتمتع بها المحارب اليهودى فى خيبر .. فقد كان اليهود ــ مع تفوقهم العددى الساحق ووفرة العتاد لديهم وجودة التسليح بينهم ــ متحصنين داخل حصون وقلاع كبيرة منيعة ــ كما أسلفنا ــ بُنيت على قمم جبال وتلال حسب تخطيط عسكرى مدروس، بحيث يكاد يكون من المستحيل الإقدام على مهاجمتها، فضلا عن اقتحامها واقتتاحها، لأن هذه القلاع والحصون تقع فى مرتفعات عالية، وبها أبراج يكتشف المرابطون فيها كل ماحواليها ويتمكنون من أن يصبّوا سهامهم القاتلة على كل من يقترب منها .

خامسا : وفرة المواد الغذائية .. فقد خزن اليهود فى قلاعهم وحصونهم ــ استعدادا للقتال ــ كميات هائلة من المواد الغذائية المختلفة.. تكفى لتموينهم عدة سنوات كما دل على ذلك إحصاء الغنائم التى غنمها المسلمون عند استيلائهم على هذه الحصون والقلاع.. أما الماء فقد كان متوافرا فى جميع الحصون والقلاع بصفة دائمة، الأمر الذى يمكّنهم من الاستمرار فى القتال سنوات عديدة .

سادسا : مكانة يهود خيبر من الناحية العسكرية .. فقد أثبت سير المعارك الضارية ــ كما أسلفنا ــ على مدى مكانتهم العسكرية وهم يدافعون عن حصونهم وقلاعهم .. ومن ثم رأينا بعض قادتهم قتلوا فى ساحة الحرب وبأيديهم السيوف .. مع أن ذلك ليس معهودا عن اليهود عبر تاريخهم ، حينما يواجهون مثل هذه المعارك.

سابعا : التعصب اليهودى.. فاليهود وإن كان فكرهم الدينى مدخولا ــ كما عرفنا ــ إلا أنهم يتعصبون له ، ومن ثم جعلوه فكرا دينيا عنصريا خاصا بهم وحدهم، لأنهم ــ كما يزعمون ــ شعب الله المختار .. وهو أمر يجعلهم لا يحتملون وجود أى فكر دينى إلى جانب فكرهم وانطلاق المحارب من مفهوم عقيدته، وإن كانت غير صحيحة، يجعله شديد العناد والضراوة فى قتاله ، وخاصة إذا كان فى مثل هذا المقام .

ثامنا : عامل الحفاظ على المال والزوجة والولد والجاه والسلطان .. فقد كان يهود خيبر يقاتلون وبينهم نساؤهم وأطفالهم، وهم أعز مايحافظ عليه الإنسان .. كذلك كان اليهود ذوى ثروات طائلة، وأموال عظيمة منقولة وغير منقولة.. كما أنهم فى خيبر لا ينازعهم منازع.. وكل هذه الأمور العزيزة لديهم ، يعلمون حق العلم ــ بموجب شرعة الحرب المعمول بها عالميا فى هذا العصر ــ أنهم سيفقدونها إذا ماتغلب عليهم المسلمون واحتلوا خيبر .. ولهذا كان من البدهى أن يكون قتال اليهود ــ تحت تأثير عوامل الحفاظ على كل هذه الأمور ــ قتالا عنيدا شرسا، لا هوادة فيه ، ولا تساهل .. وهو أمر يجعل مهمة المسلمين المهاجمين شاقة إلى أبعد الحدود، حيث واجه الجيش الإسلامى من يهود خيبر نوعا من القتال لم يشهد مثله فى الضراوة والشراسة فى أية معركة خاضها مع اليهود.

تاسعا : الجيش الإسلامى هو المهاجم .. والجيش اليهودى هو المدافع ..

ومن المعلوم عسكريا أن مهمة المهاجم أشق من مهمة المدافع . كما يتوجب ــ بدهيا ــ على من يريد القيام بهجوم فى حرب شاملة أن تكون قواته أكثر قوة من قوات عدوه . وإذا علمنا أن اليهود يتحصنون خلف أسوار وأبراج وحصون وقلاع منيعة، وأن عددهم أكثر من عدد المسلمين ــ كما عرفنا ــ أدركنا مدى الصعوبة الكبرى التى واجهها الجيش الإسلامى وهو يهاجم اليهود فى حصونهم وقلاعهم .

وأمام كل هذا التفوق فى العدد والعتاد والسلاح والاستراتيجية والتمتع بالمواقع الدفاعية الحصينة ، وتوفر كل العوامل المادية التى يحتاجونها ، لتحقيق النصر ، كان المسلمون فى المقابل على غير ذلك .

وهكذا فقد كان كل شىء ــ حسب المقاييس المادية والتقديرات العسكرية المجردة ــ يشير إلى أن يهود خيبر سيتمكنون ــ بكل سهولة ــ من دحر المسلمين والتغلب عليهم ، عندما يقومون بالهجوم ..

ولكن الذى حدث هو العكس .. وهو انتصار المسلمين القلة القليلة التى ينقصها كل شىء مادى على الكثرة اليهودية الغامرة التى توفرت لديها كل الإمكانات المادية لكسب النصر .

وقد كان ذلك مفاجأة مذهلة، أبطلت المقاييس العسكرية التقليدية.. وأثبتت عمليا أن القوة الحربية ــ مهما عظمت ــ ليست وحدها كافية لكسب النصر فى المعارك .

كما أثبت انتصار المسلمين على اليهود فى خيبر أن النقص في السلاح والعتاد، والقلة فى عدد الرجال لا يكونان ـ دائما وفى كل الأحوال ـ سببا فى الانهزام أو عدم تحقيق النصر المطلوب .

ولعلنا هنا ـ وعلى ضوء هذه الحقائق ـ لسنا بحاجة إلى أن نقول : إن العقيدة الإسلامية الراسخة التى كان المجاهد المسلم يلتزم بها ويقاتل ـ بصدق ووفاء ـ تحت لوائها، هى التى قلبت موازين القوى في معارك خيبر، وكانت العامل الحاسم الأول فى انتصار تلك القلة المسلمة على تلك الكثرة اليهودية الفاجرة التى تتفوق تفوقا ساحقا في كل شيء يحتاجه المحارب .

«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة» :

وفى طيات تفاصيل معارك خيبر الحاسمة من نماذج البطولة والتضحية، وزخم العقيدة، وصدق الجهاد، وقوة الإيمان ، مايجب أن يتفهمه ويعيه ويجعله شعاعا يستضيء به على دروب الجهاد وصون الكرامات واستعادة الحقوق المسلوبة والأرض المغتصبة كل الذين تضع الأقدار فى أيديهم مسئولية حماية الأمة الإسلامية ، وغسل العار الذى لحق بها ولطخ جبينها، ودنّس مقدساتها، وأذل كرامتها بأيدى اليهود فى عالمنا المعاصر .

لقد التحم فى معارك خيبر ـ كما أسلفنا ـ عدد قليل من المسلمين بعدد هائل من اليهود يفوق عدد المسلمين بآلاف كثيرة .. فضلا عن العتاد الهائل والحصون المنيعة .. واستمرت المعارك كأعنف ما يكون .. وكان المسلمون مكشوفين أمام هذا العدد الهائل وتلك الاستعدادات الضخمة ..

ومع كل هذا وذاك كان النصر فى النهاية للمسلمين على اليهود .. وهذا دليل عملى قائم يؤكد أن التفوق الساحق فى العدد ووفرة السلاح وجودة التسليح والعلوم الحربية ـ التكنولوجيا ـ ليس وحده الذى يضمن النصر فى المعارك، وإنما الذى يضمن ذلك ويحققه ـ بالدرجة الأولى ـ رسوخ العقيدة الصادقة فى نفس المحارب، والسير فى دروب الكفاح على هدى نور هذه العقيدة قبل حشد الرجال وتكديس السلاح الذى لا قيمة حربية له إذا لم تحمله الأيادى المتوضئة التى يحركها قلب مليء بالإيمان بالله تعالى .. وصدق الله العظيم :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [1] .

---

(١) البقرة : ٢٤٩ .

هكذا ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ .. بهذا التكثير (١) . فهذه هى القاعدة فى حس المؤمنين . القاعدة : أن تكون الفئة المؤمنة قليلة، لأنها هى التى ترتقى الدرج الشاق، حتى تنتهى إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار .. ولكنها تكون الغالبة، لأنها تتصل بمصدر القوى ، ولأنها تمثل القوة الغالبة، قوة الله الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزى الظالمين من اليهود ومن على شاكلتهم ، وقاهر المتكبرين ..

. هم يكلون هذا النصر ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ويعللونه بعلته الحقيقية : ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . فيدلون بهذا كله على أنهم اختيروا من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل.

﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾:

ومن ثم أبصرنا الفئة القليلة في العدد والعدة من هؤلاء الصحابة الكرام يتوجهون إلى خيبر لملاقاة هؤلاء اليهود الذين هم أكثر عددا وعدة ــ كما أسلفنا ــ أبصرنا هذه الفئة المؤمنة المجاهدة الواثقة بوعد الله، التى تستمد صبرها كله من اليقين بهذا الوعد ، وتستمد قوتها كلها من إذن الله، وتستمد يقينها كله من الثقة فى وعد الله، وأنه مع الصابرين..

أبصرنا هذه الفئة المؤمنة الواثقة الصابرة الثابتة ، التى لم تزلزلها كثرة اليهود عددا وعدة ، مع ضعفها وقلتها ..

أبصرنا هذه الفئة ــ بهذه الصورة ــ هى التى تواجه اليهود فى عقر حصونهم .. وهى التى تقرر مصير المعركة مع هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩ ۞أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (٢).

وكيف ينصر المؤمنون الله، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ماشرط لهم من النصر والتثبيت ؟

(١) فى ظلال القرآن : ١ : ٢٦٩ بتصرف .

(٢) محمد : ٧ ــ ١١ .

إن لله فى نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئا : شركا ظاهرا أو خفيا ، وألا تستبقى فيها معه أحدا ولا شيئا ، وأن يكون الله أحب إليها من ذواتها ومن كل ماتحب وتهوى ، وأن تحكمه فى رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها ، وسرها وعلانيتها ، ونشاطها كله وخلجاتها.. فهذا نصر الله فى ذوات النفوس .. فهل واقعنا اليوم هكذا .. حتى ينصرنا الله على اليهود ؟ !

وإن لله شريعة ومنهاجا للحياة ، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة .. ومعلوم أن نصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها فى الحياة كلها بلا استثناء .. فهذا نصر الله فى واقع الحياة .. فهل واقعنا اليوم هكذا حتى ينصرنا الله على اليهود ؟ !(١).

ونقف لحظة أمام قوله تعالى قبل الآيات التى معنا :

﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ (٢)

وقوله جل شأنه :

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾

وفي كلتا الحالتين : حالة القتل، وحالة النصرة ، يشترط أن يكون هذا لله وفى سبيل الله... وهى لفتة بدهية.. ولكن كثيرا من الغبش يغطى عليها عندما تنحرف العقيدة فى بعض الأجيال. وعندما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم .

إنه لاجهاد ، ولا شهادة ولاجنة ، إلا حين يكون الجهاد فى سبيل الله وحده، والموت في سبيله وحده ، والنصر له وحده ــ كما أسلفنا ــ فى ذات النفس وفى منهج الحياة ..

لاجهاد ولا شهادة ، ولا جنة ، إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هى العليا.. وأن تهيمن شريعته ومنهاجه فى ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم، وفى أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء.. فهل واقعنا اليوم هكذا .. حتى ينصرنا الله على اليهود ؟ !

---

(١) المرجع السابق : ٦ : ٣٢٨٨ وما بعدها بتصرف .
(٢) محمد : ٤ ــ ٦ .

وإن تعجب فعجب أن ترى شعارات مرفوعة ، وأسماء غريبة عن الإسلام، حتى فى حروفها.. تعلن عن نفسها فى ميدان القتال مع اليهود ويظن كثيرون من المسلمين السذج الذين ينقصهم الوعى الإسلامى بأنهم جادون فى تحرير الأرض المغتصبة .. بل رأينا شعارات ترتفع بإقامة الدولة العلمانية ! وكل هذا زيف وضلال ! فهل مع هذا ينصرنا الله على اليهود ؟!

إنه ليس هنالك من راية أخرى ، أو هدف آخر ، يجاهد فى سبيله من يجاهد ويستشهد فى سبيله من يستشهد، فيحق له وعد الله بالجنة ، إلا تلك الراية وإلا هذا الهدف. من كل مايروج فى الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات !

ويحسن أن يدرك أتباع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ هذه اللفتة البدهية، وأن يخلصوها فى نفوسهم من الشوائب التى تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة، وألا يلبسوا برايتهم راية ، ولا يخلطوا بتصورهم تصورا غريبا على حقيقة العقيدة.. حتى ينصرنا الله على اليهود !

لاجهاد إلا لتكون كلمة الله هى العليا.. العليا فى النفس والضمير.. والعليا فى الخلق والسلوك.. والعليا فى الأوضاع والنظم.. والعليا فى العلاقات والارتباطات فى كل أنحاء الحياة..

وما عدا هذا فليس لله . ولكن للشيطان!

وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة، وليس هناك استشهاد !

وفيما عدا هذا ليس هناك جنة، ولا نصر من عند الله، ولاتثبيت للأقدام .. وإنما هو الغبش وسوء التصرف و الانحراف !

وإذا عز على غير أتباع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يتخلصوا من هذا الغبش وسوء التصرف والانحراف فلا أقل من أن يخلص المؤمنون المجاهدون أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذى لا يتفق مع البدهية الأولى فى شرط الله .

﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾

هذا شرط الله على الذين آمنوا .

فأما شرطه لهم فهم النصر وتثبيت الأقدام ...

وعد الله لا يخلفه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ (١)

فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم .. ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتما من عدوه .. ولكن الله عز وجل لم يرد أن يكون حملة دعوته من « التنابلة » الكسالى، الذين يجلسون فى استرخاء (٢) ، ثم يتنزل عليهم نصره سهلا هينا بلا عناء ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويؤدون ما أوجب الله عليهم ويرتلون القرآن، ويتوجهون إلى الله بالدعاء ، كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء !

نعم ، إنهم يجب أن يقيموا الصلاة ، ويؤدوا ما أوجب الله عليهم ، ويرتلوا القرآن ، ويتوجهوا إلى الله بالدعاء فى السراء والضراء .. ولكن هذه العبادة وحدها لاتؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها ، إنما الزاد الذى يتزودونه للمعركة ، والذخيرة التى يدخرونها للموقعة ، والسلاح الذى يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ، ويزيدون عليه: سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله عز وجل .

لقد شاء الله أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم .. كى يتم نضجهم هم فى أثناء المعركة . فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهى تواجه الخطر ، وهى تدفع وتدافع ، وهى تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة.. عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدى دورها، ولتتساند مع الخلايا الأخرى فى العمليات المشتركة، ولتؤدى أقصى ما تملكه ، وتبذل آخر ما تنطوى عليه ، وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وماهى مهيأة له من الكمال ...

ولنا عود على بدء نتحدث فيه بالتفصيل ـ إن شاء الله ـ عن معالم النصر على اليهود.. فنحن هنا فى مجال الحديث عن الدروس المستفادة من معارك خيبر .. وإن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر ، ويكون سببا فيه ، وهذا صحيح ، ولكن تأخير ذكره فى قول الله تعالى فى الآيات التى معنا :

﴿ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾

يوحى بأن المقصود معنى آخر من معانى التثبيت. معنى التثبيت على النصر وتكاليفه . فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان ، وبين الحق والباطل . فللنصر تكاليفه فى

---

(١) الحج : ٣٨ .   (٢) المرجع السابق : ٤ : ٢٤٢٥ ومابعدها بتصرف .

ذات النفس وفى واقع الحياة .. للنصر تكاليفه فى عدم الزهو به والبطر ، وفى عدم التراخى بعده والتهاون .. وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء ، ولكن القليل هو الذى يثبت على النصر والنعماء. وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر .

موقف شهيد :

ويطيب لنا أن نذكر موقف شهيد من الشهداء ليكون ذكرى لمن يطلبون الشهادة، ومعلما على طريق الكفاح .. يروى الحاكم وغيره بسند صحيح عن شداد بن الهاد أن رجلا من الأعراب آمن برسول الله ﷺ ، وقال: أهاجر معك ، فأوصى النبى ﷺ أصحابه به ، فلما كانت غزوة خيبر أو حنين ، غنم رسول الله ﷺ شيئا فقسم ، وقسم له فأعطى أصحابه ماقسم له وكان يرعى ظهرهم فلما جاد دفعوه إليه فقال : ماهذا ؟ قالوا : قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه فجاء فقال : يا محمد ، ماعلى هذا اتبعتك ، ولكنى اتبعتك على أن أرقى هاهنا وأشار إلى حلقه بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال :

« **إن تصدق الله يصدقك** »

«**فلبثوا قليلا ، ثم دحضوا فى قتال العدو، فأتى به يحمل ، وقد أصابه سهم ، حيث أشار ، فقال النبى ﷺ :**

« **أهو هو ؟** »

قالوا : نعم . قال :

« **صدق الله فصدقه** »

« **فكفَّنه النبى ﷺ، ثم قدمه فصلّى عليه ، وكان مما ظهر من صلاتِه عليه :**

« **اللهم ! هذا عبدك خرج مهاجرا فى سبيلك ، فقُتل شهيدا، فأنا عليه شهيد** » (١)

صورة مقابلة :

وفى الصورة المقابلة نقرأ :

---

(١) الحاكم : ٣ : ٥٩٥ ــ ٥٩٦ ، والنسائى : ٤ : ٦٠ والطحاوى فى شرح معاني الآثار : ١ : ٢٩١ والبيهقى : ٤ : ١٥ ــ ١٦ وإسناده صحيح .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾

وذلك عكس النصر وتثبيت الأقدام ، فانه دعاء بالتعس قضاء من الله سبحانه بالتعاسة والخيبة والخذلان .. وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾

وهو تصوير لما يعتمل فى قلوبهم ويختلج فى نفوسهم من الكراهية لما أنزل الله من قرآن وشريعة ومنهج واتجاه .. وهذا هو الذى يدفع باليهود ومن على شاكلتهم إلى الكفر والعناد والخصومة والملاحاة، وهى حالة كثيرمن النفوس الفاسدة التى تكره بطبعها ذلك النهج السليم القويم ، وتصادمه من داخلها ، بحكم مغايرة طبيعتها لطبيعته . وهى نفوس خبيثة حاقدة يلتقى بها الإنسان كثيرا فى كل زمان وفى كل مكان وفي كل جيل وفى كل قبيل ، وإن رفعت رايات أخرى ويحس الإنسان منها النفرة والكراهية لهذا الدين وما يتصل به، حتى إنها لتفزع من مجرد ذكر اسم الإسلام ، كما لوكانت أصابتها العقارب ! وتتجنب أن يجىء ذكره أو الإشارة إليه فيما تسمع حولها من حديث !

ولعلنا نشاهد فى هذه الأيام حالة من هذا الطراز، فى الأرض المغتصبة، لا تخفى على الملاحظة !

وكان جزاء هذه الكراهية لما أنزل الله أن أحبط أعمالهم .. وإحباط الأعمال تعبير تصويرى على طريقة القرآن الكريم فى التعبير بالتصوير. فالحبط ـ كما يقول ابن فارس (١) يدل على بطلان أو ألم. يقال : أحبط الله عمل الكافر : أى أبطله. وأما الألم فالحبط : أن تأكل الدابة حتى تنتفخ لذلك بطنها .. وكذلك انتفخت أعمالهم وورمت وانبعجت .. ثم انتهت إلى الضياع !

حقا ، إنها صورة وحركة ، ونهاية مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل الله، من اليهود ومن على شاكلتهم ، ثم تعاجبوا بالأعمال الضخام المنتفخة كبطون الأنعام ، حين ترعى حتى تنتفخ !

ثم يلوى أعناقهم إلى مصارع الغابرين قبلهم فى شدة وعنف :

﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ

---

(١) معجم مقاييس اللغة : (حبط) .

عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾

وهى لفتة عنيفة مروعة ، فيها ضجة وفرقعة ، وفيها مشاهد ومشاهد للذين من قبلهم دمر الله عليهم . فإذا أنقاض متراكمة ، وإذا هم تحت هذه الأنقاض المتراكمة !

وذلك المشهد الذى يرسمه التعبير مقصود بصورته هذه وحركته والتعبير يحمل فى إيقاعه وجرسه صورة هذا المشهد وفرقعته في انقضاضه وتحطمه !

وعلى مشهد التدمير والتحطيم ـ كما أسلفنا فى معارك خيبر ـ يلوح للكافرين، ولكل من يتصف بهذه الصفة ، بأن هذه النتيجة فى انتظارهم وهذه الوقعة المدمرة التى تدمر عليهم كل شىء وتدفنهم بين الأنقاض فى انتظارهم :

﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾

وتفسير هذا الأمر الهائل المروع الذى يدمر على هؤلاء وأمثالهم وينصر المؤمنين فى كل زمان ومكان ، وجيل وقبيل ، هو القاعدة الأصيلة الدائمة :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾

ومن كان الله وليه وناصره فحسبه ، وفيه الكفاية والغناء ، وكل ماقد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير ، لاتخليا من الله عن ولايته له، ولا تخلفا لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده .

ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له، ولواتخذ الشياطين فى الدنيا كلها أولياء ـ كما هو واقع اليهود ـ فإن النهاية معروفة ومقررة .. هى القضاء على اليهود ومن على شاكلتهم عسكريا ـ كما عرفنا ـ ولو تجمعت كل أسباب الحماية وكل أسباب القوة التى يعرفها الناس ! .

أهم المراجع

١ ـ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، لابن عبد البر ، مجلس دائرة المعارف النظامية ، ط أولى ، الهند ١٣١٨ هـ .

٢ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، لعز الدين أبى الحسن على الجزرى، ابن الأثير ، ط جمعية المعارف، مصر ١٢٨٥ هـ .

٣ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

٤ ـ الإنسان بين المادية والإسلام ، للأستاذ محمد قطب ، دار الشروق، ط سابقة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .

٥ ـ البداية والنهاية ، لابن كثير، المعارف ، بيروت ، ط ثالثة ١٩٧٨م .

٦ ـ تاريخ العرب قبل الإسلام ، للدكتور جواد على ، ط المجمع العلمى العراقى .

٧ ـ تاريخ اليهود فى بلاد العرب ، للدكتور إسرائيل ولفنسون ط الاعتماد.

٨ ـ التطور والثبات فى حياة البشرية ، للأستاذ محمد قطب ، دار الشروق ، ط خامسة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م .

٩ ـ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ط دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى وشركاه.

١٠ ـ تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل القرآن) عيسى البابى الحلبى ط ثالثة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م .

١١ ـ تفسير الطبرى ، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، ط دار المعارف القاهرة.

١٢ ـ تفسير القاسمى (محاسن التأويل) عيسى البابى الحلبى، ط أولى ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧م.

١٣ ـ تفسير الكشاف، للزمخشرى، دار المعرفة بيروت .

١٤ ـ تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم) للشيخ محمد عبده، تأليف الشيخ محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .

١٥ ـ تهذيب التهذيب ، لابن حجر ، مجلس دائرة المعارف النظامية الهند ١٣٢٥هـ .

١٦ ـ الرسول القائد، للواء الركن محمود شيت خطاب، دار الفكر بيروت ، ط خامسة.

١٧ ـ ديوان حسان بن ثابت الأنصارى، دار صادر، بيروت.

١٨ ـ الروض الأنف، للسهيلى، ومعه السيرة النبوية، لابن هشام، دار المعرفة للطباعة والنشر ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

١٩ ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد، لابن القيم، تحقيق الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، المنار الإسلامية،ط أولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

٢٠ ـ سنن ابن ماجه ، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، ط دار الفكر العربى.

٢١ ـ سنن أبى داود، ط مصر التجارية، الأولى، وط المدينة المنورة.

٢٢ ـ سنن البيهقى (السنن الكبرى) ط دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ١٢٥٣ هـ.

٢٣ ـ سنن الترمذى (الجامع الصحيح) ط بولاق ١٢٩٢هـ، والهند، والحلبى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٤ ـ سنن الدارمى، دار إحياء السنة النبوية .

٢٥ ـ سنن النسائى ، بشرح جلال الدين السيوطى، وحاشية السندى ط دار الكتاب العربى ، بيروت .

٢٦ ـ السيرة الحلبية، للحلبى بيروت، المكتبة الإسلامية، دار إحياء التراث العربى .

٢٧ ـ السيرة النبوية، لابن كثير ، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد دار المعارف، بيروت .

٢٨ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد،ط حجازى، وط الحلبى، القاهرة.

٢٩ ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٣٠ ـ صحيح مسلم، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، دار إحياء التراث العربى .

٣١ ـ صحيح مسلم ، بشرح النووى، ط المصرية .

٣٢ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر.

٣٣ ـ عون المعبود : شرح سنن أبى داود، لابن قيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبد الرحمن عثمان، السلفية، ط ثانية ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م .

٣٤ ـ عيون الأثر فى فنون المغازى والسير، لابن سيد الناس، ومعه اقتباس الاقتباس لحل مشكلة سيرة ابن سيد الناس، لابن عبد الهادى، دار المعرفة، بيروت.

٣٥ ـ غزوة خيبر، للأستاذ محمد أحمد باشميل، ط أولى، التجارية، بيروت.

٣٦ ـ فتح البارى : شرح صحيح البخارى لابن حجر، الرياض الحديثة، الرياض.

٣٧ ـ الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيبانى، ومعه بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى ، للشيخ عبد الرحمن البنا، الشهير بالساعاتى، وبحاشيته القول المسدد فى الذب عن مسند أحمد لابن حجر، ط أولى، الإخوان المسلمين، القاهرة.

٣٨ ـ فى ظلال القرآن ، للأستاذ سيد قطب، ط دار الشروق ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م .

٣٩ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمى، بتحرير العراقى وابن حجر، دار الكتاب العربى بيروت ، ط ثالثة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م.

٤٠ ـ محمد رسول الله ﷺ ، للأستاذ محمد الصادق عرجون، دار القلم، دمشق ط أولى ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م

٤١ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، وبذيله التلخيص، للذهبى ، ط أولى ، حيدر آباد .

٤٢ ـ مسند أحمد، وبهامشه كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندى ، ط الميمنية ، مصر .

٤٣ ـ مسند أحمد ، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، دار المعارف، مصر ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

٤٤ ـ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار إحياء التراث العربى.

٤٥ ـ معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، دار الكتب العلمية، إيران .

٤٦ ـ المواهب اللدنية، للقسطلانى ، مع شرح الزرقانى، وبهامشه زاد المعاد، لابن القيم، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .

٤٧ ـ الموطأ ، لمالك بن أنس، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.

٤٨ ـ نصب الراية للزيلعى، المجلس العلمى، ط ثانية ١٣٩٣ هـ المكتب الإسلامى.

ـ وهناك كتب ومطبوعات أخرى رجعنا إليها ، وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

الفهـــــــــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الرسول ﷺ واليهود وجهاً لوجه

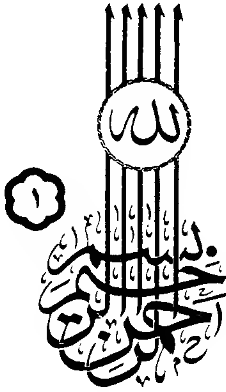
(٨)

محاكمة اليهود

تأليف

الدكتور سعد المرصفي

مكتبة المنار الإسلامية



﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

مُحاكمة اليهود

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

AL-MANAR ISLAMIC BOOK SHOP
Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes



مكتبة المنار الإسلامية
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045
Kuwait Hawalli Al Mothana Street Tel 2615045 Fax 2636854, P.O Box 43099 Hawalli, Postal Code No 32045

مقدمـــة

عرفنا كيف بدأ اليهود الصراع ضد الرسالة والرسول .. وكيف وقفوا في مكة مع المشركين .. وكيف نقضوا العهد والميثاق أكثر من مرة ! وكيف قام بنو قينقاع بالاعتداء على امرأة مسلمة ، ومن ثم كان إجلاؤهم !

وكيف قام بنو النضير بمحاولة قتل الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، ومن ثم إجلاؤهم!

وكيف قام بنو قريظة بالتآمر مع الأحزاب ضد الرسالة والرسول،ومن ثم كان عقابهم العادل الذى يستحقونه!

وكيف تجمعت فلول اليهود فى خيبر، واجتمع الحقد والعداء اليهودى، ومن ثم كان القضاء عليهم عسكريا!

بيد أن غير المسلمين يحرصون دائما على نشر ظلال من الشكوك حول ما عوقب به اليهود، وكذلك بعض المنتسبين إلى الإسلام و المحسوبين عليه، يثيرون شكوكا حول عقوبة القتل، مع أن تلك العقوبة مطابقة لكل قواعد العدالة التى يلتزمها القضاء والحكم فى كل عصر، حتى فى القرن العشرين، وتتمشى مع كل قواعد الإنسانية، وليس فيها أى تنافر مع إحساسات الضمائر الحية، والوجدانات المستقيمة، فهم خونة لا أسرى حرب، ولا وجه للمقارنة بين تلك العقوبة وما حدث لسكان هيروشيما ونجازاكى، وإعدام ثلاثة آلاف أسير فى فلسطين، وغير ذلك، مما يبين خرافة مدنية القرن العشرين !

وهنا نذكر أن الإصحاح العشرين من سفر التثنية ينص على أن لليهود ضرب جميع الذكور بحد السيف، وامتلاك النساء والأطفال وكل ما يملكون! يقول:

« وإن لم تسالمك أية قرية، بل حاربتك، فحاصرها،وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال، والبهائم وكل ما فى المدينة، وكل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك»!

والنص واضح فى الأمر بضرب جميع الذكور بحد السيف، ولم يشترط بلوغا! وهذا يعنى أن اليهود لو نجحوا فى مؤامراتهم، وتم لهم ولأحلافهم التغلب على المسلمين،

وهذا يعنى لما ترددوا لحظة فى إبادة جميع الذكور من المسلمين، وسبى النساء والذرارى ومصادرة كل الممتلكات!

وبهذا يتضح أن كل اعتراض على مانزل باليهود اعتراض على التوراة من باب أولى، وتسليم بأن الدين القيم يجب أن يرجع إليه. وأن يحتكم الناس جميعا إلى شريعته ، وأيما مقارنة فى هذا الصدد خليق بها أن تكشف ـ فى وضوح بالغ ـ أى قانون رفيق عطوف رحيم قدمه الإسلام للناس!

وتسقط شبهة الاسترقاق.. ومع ذلك فإن قصة الرق فى الإسلام صفحة مشرقة فى تاريخ البشرية،حيث أعلنها ثورة غاضبة على هذا الوباء الذى يتساقط فيه الناس، تساقط الفراش فى النار، وحيث كان هذا الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة،والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة، ومن ثم شرع وسائل مكافحة الرق.. وعمل على منع إنشائه وابتدائه، وتصفية الموجود منه وإنهائه .

ومع كل هذا وذاك كان لابد من بيان دور اليهود فى انحطاط الأخلاق على مدى التاريخ، حتى تظهر معاول الفناء، رجاء أن نقاومها بعوامل البناء.

وقد اقتضت منهجية البحث أن يشتمل على ما يأتى:

الفصل الأول: عدالة مثالية.

الفصل الثانى: الإسلام والرق.

الفصل الثالث: دور اليهود فى انحطاط الأخلاق.

والله أسأل: التوفيق والسداد.

والعون والرشاد.

إنه سميع مجيب ،

الكويت فى ٢ صفر ١٤١٣ هـ
١ أغسطس ١٩٩٢ م

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)

الفصل الأول

عدالة مثالية

تمهيد ـ الطاعنون فى حكم إعدام المقاتلين ـ تحذير لكل مسلم ـ طبيعة اليهود الأبدية ـ سؤال قانونى ـ بنو قريظة فى نظر القانون الدولى ـ خونة لا أسرى حرب ـ هدى النبى ﷺ فى الأسارى ـ بين سكان «هيروشيما» و«بنى قريظة» ـ سكان «نجازاكى» ـ خرافة مدنية القرن العشرين ـ إعدام ثلاثة آلاف أسير فى فلسطين ـ حكم اليهود فى شريعتهم ـ إنصاف سعد بن معاذ ـ قانون العقوبات المصرى ـ القانون الكويتى ـ اتفاق القوانين المعاصرة ـ التقول على الإسلام ـ مقارنة بين قبائل اليهود ـ اعتراض على التوراة من باب أولى ـ تبعات الحكم ـ رأى «مونتجمرى وات» ـ استرقاق نساء وأطفال بنى قريظة ـ السماح لليهود بالإقامة فى خيبر ـ إجلاء عمر لليهود.

تمهيد:

وبعد أن عرفنا موقف اليهود من الرسالة والرسول ﷺ .. وموقف يهود بنى قينقاع.. ويهود بنى النضير.. ويهود بنى قريظة.. ويهود خيبر ـ كما أسلفنا ـ وما ترتب على هذه المواقف من نتائج خطيرة..

لابد لنا من وقفة على أطلال يهود بنى قريظة بالذات، واليهود الذين قتلوا ـ كما يقول الأستاذ باشميل [1] ـ نتناول فيها بالبحث والتحليل هذه الناحية، لإزالة ما يكون قد علق ببعض الأذهان حول حكم الإعدام والمصادرة والسبى.. والذى يبدو لأول وهلة للسطحيين وأعداء الحق ـ وما أكثرهم ـ أن فيه شيئا من القسوة والوحشية!

كما لابد لنا فى هذه الوقفة من مناقشة الطعون ، والرد على الانتقادات التى أوردها البعض بشأن هذا الحكم.

الطاعنون فى حكم إعدام المقاتلين:

وهناك فريقان، لا يمر أحدهما بحادثة عقوبة القتل النازلة بيهود بنى قريظة المقاتلين، إلا ويعلن استنكاره للحكم النافذ فى هؤلاء اليهود، ويصفه بأنه عمل يتسم بالوحشية والقسوة.

الأول: غيرالمسلمين الذين يحرصون دائما على نشر الظلال من الشكوك حول دعوة الإسلام، وإيجاد المطاعن فى الرسالة والرسول.. وأهداف هذا الفريق الخبيثة ومقاصده السيئة معروفة مكشوفة، فهم أعداء أساسيون للإسلام ونبى الإسلام!

الثانى: بعض المنتسبين إلى الإسلام والمحسوبين عليه، الذين لايعرفون عن هذا الدين القيم إلا ماتلقوه فى مدارس ومعاهد وجامعات أعدائه!

كل هؤلاء وأولئك يلمحون ويصرحون أحيانا بأن عملية الإعدام التى تمت بحق المقاتلين على تلك الصورة السريعة، هى عملية قد اتسمت بطابع الوحشية والانتقام الذى يتنافى مع قواعد الإنسانية وروح القرن العشرين المتمدنة لا سيما وأن اليهود قد وقعوا أسرى حرب فى أيدى المسلمين!

---

(١) غزوة بنى قريظة: ٢٣٧ وما بعدها بتصرف .

تحذير لكل مسلم:

وقبل الدخول فى مناقشة هؤلاء الطاعنين فى الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بنى قريظة،وقبل رد هذه المطاعن وإبطالها بالحجج المنطقية والوجدانية والقانونية المعاصرة، لابد لنا ولكل مسلم من الإقرار والتسليم ـ صيانة لديننا وحماية لإيماننا ـ بأنه ليس لنا الحق فى أى تعقيب أو مناقشة ـ فضلا عن الانتقاد ـ فى أى حكم بهذه الصورة، وقد عرفنا من رواية البخارى ومسلم وغيرهما أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال لسعد :

« **لقد حكمت فيهم بحكم الملك** » .

وهنا لابد لنا من ذكر هذا المقوم الأول من مقومات العقيدة ونحن نقرأ قوله تعالى

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[1] .

هـذا المقـوم مـن مقومـات العقيـدة هـو الذى استقر فى قلـوب الجماعـة الأولى مـن المسلمين استقرارا حقيقيا، [2] واستيقنته أنفسهم، وتكيفت به مشاعرهم ..

هذا المقوم يتلخص فى أنه ليس لهم فى أنفسهم شىء، وليس لهم من أمرهم شىء.. إنما هم خلق الله. يصرفهم كيف يشاء ، ويختار لهم ما يريد .. وإن هم إلا بعض هذا الوجود الذى يسير وفق الناموس العام .. وخالق هذا الوجود ومدبره يحركهم مع حركة الوجود العام ، ويقسم لهم دورهم فى رواية الوجود الكبيرة، ويقرر حركاتهم على مسرح الوجود العظيم.. وليس لهم أن يختاروا الدور الذى يقومون به، لأنهم لا يعرفون الرواية كاملة، وليس لهم أن يختاروا الحركة التى يحبونها، لأن ما يحبونه قد لا يستقيم مع الدور الذى خصص لهم!

وهم ليسوا أصحاب الرواية ولا المسرح، وإن هم إلا أجراء، لهم أجرهم على العمل وليس لهم ولا عليهم فى النتيجة!

عندئذ أسلموا أنفسهم حقيقة لله.. أسلموها بكل ما فيها، فلم يعد لهم منها شىء.. وعندئذ استقامت نفوسهم مع فطرة الكون كله، واستقامت حركاتهم مع دورته العامة ، وساروا فى فلكهم كما تسير تلك الكواكب والنجوم فى أفلاكها، لا تحاول أن تخرج

---

(١) الأحزاب: ٣٦ .

(٢) فى ظلال القرآن : ٥: ٢٨٦٦ بتصرف .

عنها، ولا أن تسرع أو تبطئ فى دورتها المتناسقة مع حركة الوجود كله.

وعندئذ رضيت نفسوهم بكل ما يأتى به قدر الله، لشعورهم الباطن الواصل بأن قدر الله هو الذى يصرف كل شىء .. واستقبلوا قدر الله فيهم بالمعرفة المدركة المريحة الواثقة المطمئنة..

وشيئا فشيئا لم يعودوا يحسون بالمفاجأة لقدر الله يصيبهم، ولا بالجزع الذى يعالج بالتجمل، أو بالألم الذى يعالج بالصبر. إنما عادوا يستقبلون قدر الله استقبال العارف المنتظر المرتقب لأمرمألوف فى حسه، معروف فى ضميره، ولا يثير مفاجأة ولارجفة ولا غرابة!

ومن ثم لم يعودوا يستعجلون دورة الفلك ليقضوا أمرا هم يريدون قضاءه، ولم يعودوا يستبطئون الأحداث، لأن لهم أربا يستعجلون تحقيقه، ولو كان هذا الأرب هو نص دعوتهم وتمكينها!

إنما ساروا فى طريقهم مع قدر الله، ينتهى بهم إلى حيث ينتهى، وهم راضون مستروحون، يبذلون ما يملكون من أرواح وجهود وأموال، في غير عجلة ولا ضيق، وفى غير منّ ولا غرور، وفى غير حسرة ولا أسف، وهم على يقين أنهم يفعلون ماقدر الله لهم أن يفعلوه، وأن مايريده الله هو الذى يكون، وأن كل أمر مرهون بوقته وأجله المرسوم.

إنه الاستسلام المطلق ليد الحق تقود خطاهم، وتصرف حركاتهم، وهم مطمئنون لليد التى تقودهم، شاعرون معها بالأمن والثقة واليقين سائرون معها فى بساطة ويسر ولين.

وهم ـ مع هذا ـ يعملون ما يقدرون عليه، ويبذلون مايملكون كله، ولايضيعون وقتا ولا جهدا، ولايتركون حيلة ولا وسيلة..ثم لا يتكلفون ما لا يطيقون، ولايحاولون الخروج عن بشريتهم وما فيها من خصائص، ومن ضعف وقوة، ولا يدعون ما لا يجدونه فى أنفسهم من مشاعر وطاقات، ولايحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، ولا أن يقولوا غير ما يفعلون.

وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر الله، والعمل الجاهد بكل مافى الطاقة، والوقوف المطمئن عندما يستطيعون.. هذا التوازن هو السمة التى طبعت حياة تلك المجموعة الأولى وميزتها، وهى التى أهلتها لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة التى تنوء بها الجبال!

واستقرار ذلك المقوم الأول فى أعماق الضمائر هو الذى كفل لتلك الجماعة الأولى

تحقيق تلك الخوارق التى حققتها فى حياتها الخاصة، وفى حياة المجتمع الإنسانى إذ ذاك.. وهو الذى جعل خطواتها وحركاتها تتناسق مع دورة الأفلاك، وخطوات الزمان ولا تحتك بها أوتصطدم، فتتعوق أو تبطئ نتيجة الاحتكاك والاصطدام، وهو الذى بارك تلك الجهود، فإذا هى تثمر ذلك الثمر الحلو الكثير العظيم فى فترة قصيرة من الزمان.

ولقد كان ذلك التحول في نفوسهم، بحيث تستقيم حركتها مع حركة الوجود، وفق قدر الله المصرف لهذا الوجود.. كان هذا التحول فى تلك النفوس هو المعجزة الكبرى التى لايقدر عليها بشر، إنما تتم بإرادة الله المباشرة التى أنشأت الأرض والسماوات، والكواكب والأفلاك، ونسقت بين خطاها ودوراتها ذلك التنسيق الإلهى الخاص..

وذلك هو الهدى بحقيقته الكبيرة ومعناه الواسع.. هدى الإنسان إلى مكانه فى هيكل هذا الوجود، وتنسيق خطاه مع حركة هذا الوجود.

ولن يؤتى الجهد كامل ثماره إلا حين يستقيم القلب على هدى الله بمعناه، وتستقيم حركة الفرد مع دورة الوجود، ويطمئن الضمير إلى قدر الله الشامل الذى لايكون فى الوجود أمر إلا وفق مقتضاه.

ومن هنا يتبين أن هذه الآية القرآنية أشمل وأوسع وأبعد مدى من أى حادث يكون قد نزل فيه هذا المقوم، وأنه يقرر كلية أساسية، أوالكلية الأساسية فى منهج الإسلام. وهذه حقيقة لها وزنها.. حيث إن الدين منهج حياة واقعية.. بتشكيلاتها وتنظيماتها، وأوضاعها، وقيمها، وأخلاقها وآدابها. وعباداتها وشعائرها كذلك..

وهذا كله يقتضى أن يكون للرسالة سلطان [1] .. سلطان يحقق المنهج، وتخضع له النفوس خضوع طاعة وتنفيذ.. والله أرسل رسوله ليطاع بإذنه فى حدود شرعه، فى تحقيق منهج هذا الدين.. منهج الله الذى أراده لتصريف هذه الحياة:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [2].

---

(١) المرجع السابق: ٢: ٦٩٦ بتصرف.

(٢) النساء: ٦٤ ــ ٦٥.

ولم يرسل الله الرسل لمجرد التأثر الوجداني، والشعائر التعبدية.. فهذا وهم في فهم الدين، لايستقيم مع حكمة الله من إرسال الرسل .. وهى إقامة منهج معين للحياة. فى واقع الحياة وإلا فما أهون دنيا كل وظيفة الرسول فيها أن يقف واعظا. لا يعنيه إلا أن يقول كلمته ويمضى.. يستهتر بها المستهترون، ويبتذلها المبتذلون!

ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان.. كان دعوة وبلاغا.. ونظاما وحكما.. وخلافة بعد ذلك عن رسول الله ﷺ ، تقوم بقوة الشريعة والنظام ، على تنفيذ الشريعة والنظام.. لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول.. وتحقيق إرادة الله من إرسال الرسول..

وليست هنالك صورة أخرى يقال لها : الإسلام ، أو يقال لها: الدين ، إلا أن تكون طاعة للرسول، محققة في وضع وفى تنظيم.. ثم تختلف أشكال هذا الوضع ما تختلف، ويبقى أصلها الثابت، وحقيقتها التى لا توجد بغيرها.. استسلام لمنهج الله، وتحقيق لمنهج رسول الله، وتحاكم إلى شريعة الله، وطاعة للرسول فيما بلغ عن الله.

ويجئ ذلك الإيقاع الحاسم الجازم.. إذ يقسم الله سبحانه بذاته العلية، أنه لايؤمن مؤمن، حى يحكّم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ في أمره كله.. ثم يمضى راضيا بحكمه، مسلما بقضائه. ليس فى صدره حرج منه،ولا فى نفسة تلجلج فى قبوله:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

والحكم الصادر فى حق يهود بنى قريظة ــ كما سبق ــ هو حكم الله الذى أراده وارتضاه..

ومع إيماننا الكامل بكل ما ذكرنا، وتسليمنا المطلق بعدالة ذلك الحكم الذى صدر بحق يهود بنى قريظة ونفذ فيهم [1]، فإننا مستعدون لمناقشة المعترضين الطاعنين فى هذا الحكم، وأن نثبت لهم شرعية ووجاهة هذا الحكم ، ومطابقته لكل قواعد العدالة التى يلتزمها القضاء والحكم فى كل عصر، وحتى فى القرن العشرين، وأنه يتمشى كل التمشى مع قواعد الإنسانية، وأن ليس فيه أى تنافر مع إحساسات الضمائر الحية والوجدانات المستقيمة.

طبيعة اليهود الأبدية :

وأول مايطالعنا فى ذلك هو طبيعة اليهود الأبدية، فقد أثبتت مجريات الأحداث منذ

(١) غزوة بنى قريظة: ٢٣٩ وما بعدها بتصرف.

وصول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ إلى المدينة أن جميع اليهود على أمر مبيَّت للكيد للنبى ﷺ والقضاء عليه وعلى دعوته بأية وسيلة، مهما بلغت من الخسة والوضاعة!

وأثبتت مجريات الأحداث كذلك أن الغدر والخيانة واستحلال دماء وأعراض وأموال كل من يخالف اليهود في دينهم، ولا ينحدر من جنسهم، قاعدة عامة ثابتة لديهم ، وطبيعة خبيثة متأصلة فى نفوسهم وسابحة فى دمائهم! لا تلبث أن تظهر وتبرز وتتجلى عندما تسنح لهم الفرصة، فيسيرون على هذه القاعدة اللعينة، حتى ولو كانوا قد أعطوا ألف عهد ووقَّعوا ألف ميثاق!

وسبق أن عرفنا أن اليهود جمعيا بقبائلهم الثلاث عندما سنحت لهم الفرصة داسوا العهود والمواثيق وشرعوا ــ دون إقامة أى اعتبار لخلق أو وجدان أو ضمير أو دين ــ فى تسديد ضربتهم التى يحرصون على أن تكون قاتلة حاسمة!

ولقد عانى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ من هذا الخلق اليهودى الخبيث المتأصل متاعب كثيرة!

ولقد رأينا كيف صنع يهود بنى قينقاع، وبنى النضير، وبنى قريظة، ويهود خيبر، وكيف أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قد اكتفى بنفى بنى قينقاع، وبنى النضير، بعد أن ظفر بهم، وكانت عقوبة النفى هذه فى مستوى الخطيئة التى ارتكبها بنو قينقاع، وبنو النضير!

يروى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

حاربت قريظة والنضير، فأجلى بنى النضير، وأقر قريظة، ومنَّ عليهم ، حتى حاربت قريظة، فقتل رجالهم، وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحقوا بالنبى ﷺ فأمنهم وأسلموا. وأجلى يهود المدينة كلهم : بنى قينقاع ، وهم رهط عبد الله ابن سلام ، ويهود بنى حارثة ، وكلَّ يهود المدينة (١) .

ولكن هؤلاء اليهود عندما سنحت لهم الفرصة، وظنوا أنهم قادرون على سحق المسلمين، وإبادة خضرائهم إبادة كاملة، أقدموا على أحط عمل، وأنذل صنيع، في تاريخ النكث والغدر والخيانة!

---

(١) البخارى : ٦٤ ــ المغازى (٤٠٢٨) .

فقد استغل هؤلاء الجبناء الموقف العصيب الذى صار إليه المسلمون، حينما أغرقتهم جيوش الأحزاب الحانقة الجرارة من كل مكان!

وثارت بهم آنذاك خصائص النذالة المتأصلة فى نفوسهم، وطبيعة الخيانة السابحة فى دمائهم، فكشفوا القناع، وظهروا على حقيقتهم!

وإذا بالعهود والمواثيق التى أبرموها مع المسلمين تصبح وكأنها لم تكن!

فقد مزق هؤلاء اليهود هذه العهود، وتلك المواثيق، ووطؤوها بأقدامهم، حينما ذهبوا إلى قيادة الأحزاب الغزاة، يضعون يدهم فى أيديهم، ويعاهدونهم فى تلك الساعات الرهيبة الرعيبة الحاسمة من تاريخ الإسلام والمسلمين، على سحق المسلمين، وهدم كيان الإسلام إلى الأبد!

ويأتى إليهم المسلمون، الذين ـ كما شهد زعيم هؤلاء اليهود كعب بن أسد ـ لم يَرَوْا منهم ومن نبيهم إلا صدقا فى المعاملة، ووفاء بالعهد.. يأتون إليهم ليطلبوا منهم الثبات على العهد، ويذكّروهم بالمسئولية العظمى، والنتائج الوخيمة التى تترتب على النكث بهذه العهود وتلك المواثيق، وخاصة فى مثل تلك الظروف الحربية الدقيقة الحرجة! وإذ بالجواب يأتى من قبل هؤلاء اليهود، سخرية واستهزاء بالرسول الحبيب المحبوب ﷺ وبالمسلمين، وبالعهود والمواثيق التى أبرموها معهم:

«من هو محمد (هذا الذى يقول إن بيننا وبينه عهدا) ومن هو رسول الله؟ نحن لانعرف محمدا وليس بيننا وبينه أى عهد» !

هكذا كان جواب يهود بنى قريظة للمسلمين، عندما جاء وفدهم إلى هؤلاء اليهود، يطلب منهم الثبات على العهد الذى بين الفريقين، والقيام بالالتزامات العسكرية التي عليهم!

وهؤلاء اليهود لمْ يسلكوا هذا المسلك الوضيع المنحط إلا وقد تكون لديهم ما يشبه اليقين بأنهم ـ بمساعدة الأحزاب ـ قادرون على تدمير الكيان الإسلامى تدميرا كليا، ولهذا لم يترددوا فى الغدر بحلفائهم المسلمين، وعلى تلك الصورة الفظيعة البشعة!

ولو أن هؤلاء اليهود قد ظفروا بالمسلمين، وتمكنوا ـ بمساعدة الأحزاب ـ من احتلال المدينة ، لمَاَ تردّدوا لحظة فى الوصول بالمسلمين إلى أقصى ما يتصوره عقل يعرف طبيعة اليهود، ولا أدل على ذلك من أن هؤلاء اليهود قد اتفقوا مع قادة جيوش الأحزاب على

ألا ينصرفوا بجيوشهم عن المدينة إلا بعد القضاء على المسلمين وسحقهم سحقا كاملاً، وذلك كشرط أساسى لانضمام هؤلاء اليهود إلى الأحزاب ضد المسلمين وإعلانهم نقض العهد الذى بينهم!

ولحرص هؤلاء اليهود على استئصال شأفة المسلمين وإبادتهم إبادة كاملة، طلبوا من القيادة المشتركة للأحزاب أن يسلموا إليهم رهائن من أبنائهم سبعين شابا ليضمنوا أن جيوش الأحزاب لن تنسحب من منطقة المدينة إلا بعد أن تفرغ من المسلمين. وتقضى عليهم قضاء تاما.

فهل بعد هذا الصنيع الذى صنعه اليهود مع سبق الإصرار، والذى لم يقدموا عليه إلا بعد درس وتخطيط، وخبث نية مبيتة، هل بعد هذا الصنيع الخسيس الوضيع الذى قام به هؤلاء اليهود، يجوز لعاقل منصف أن يسمح لنفسه بالقول: إن حكم الإعدام الذى صدر ونفّذ بحق المقاتلين من يهود بنى قريظة هو حكم غير إنسانى وغير عادل؟ !

سؤال قانونى :

والسؤال الذى نحب توجيهه إلى المعترضين والمستهجنين (١) للحكم الصادر والنافذ بحق هؤلاء المقاتلين هو:

ما هو الحكم اليوم الذى يجب إنزاله ــ فى جميع القوانين الدولية ــ بمن خان وطنه، وغدر بأمته، وشرع ــ أثناء ظروف حربية قائمة ــ فى الاتصال بالعدو الذى جاء غازيا لاحتلال وطنه، وسحق مواطنيه، وأخذ ــ بطريقة أو بأخرى ــ ييسر له سبل هذا الاحتلال؟!

أعتقد أن أحدا من هؤلاء المعترضين لن يستطيع القول بأن قانونا واحدا فى أى بلد من بلاد الدنيا سيقول لمن أقدموا على مثل هذه الجرائم التى ذكرنا ، اذهبوا فأنتم الطلقاء !

بل أعتقد أن واحدا من هؤلاء المعترضين لن يستطيع إلا أن يقول: إن أقل عقوبة يمكن إنزالها بمن ارتكب مثل هذه الجرائم التى أشرنا إليها إلا الموت، لأن جميع قوانين الدنيا ــ بلا استثناء ــ تنص على أن الموت ومصادرة الممتلكات هى العقوبة العادلة التى يجب أن تنزل بمن ارتكب مثل تلك الجرائم التى ذكرنا !

---

(١) غزوة بنى قريظة : ٢٥٠ وما بعدها بتصرف.

بنو قريظة فى نظر القانون الدولى:

إذا عرفنا هذا، واتفقنا على أنه ليس من الظلم، ولامن الوحشية فى شىء إصدار حكم الإعدام وتنفيذه بحق المواطن الذى يتصل بالعدو فى حالة الحرب القائمة، وييسر له ـ ولو ببعض المعلومات ـ مهمة احتلال وطنه، أو الإضرار بدولته وأمته، فإن سؤالا آخر أهم من السؤال الأول ـ فى عرف جميع القوانين ـ لابد للمعترضين على الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بنى قريظة من الإجابة عليه، وهو:

ما هو حكم الذى ينقل معلومات إلى العدوّ تنفعه، وتيسر له الإضرار بالأمة، وتعرّض الوطن للخطر؟ وما هو حكم الذىِ يستغل ظروف وطنه ومواطنيه فيخون ويغدر، ويطعن وطنه وأمته من الخلف، فيشهر السلاح فى وجه دولته ومواطنيه، ويعلن انضمامه إلى العدو الغازى، في تلك الظروف الحربية الدقيقة المخيفة، قاصدا من وراء غدره وخيانته إخضاع وطنه للغزاة، وسحق الفئات الأخرى من بنى وطنه، وإسقاط النظام القائم ـ بحد السلاح وبالتواطؤ مع العدو ـ الذى ارتضاه واعترف به، وعاش فى ظله آمنا مطمئنا لم يهضم له حق، ولم يكن إلا محل الرعاية والوفاء؟!

أعتقد أن أحدا ـ وحتى من المستبشعين للحكم الصادر فى بنى قريظة ـ لن يكن جوابه ـ إذا كان يحترم عقله ـ على هذا السؤال، إلا الاعتراف بأن جميع قوانين وأعراف الدنيا فى الماضى والحاضر تنص ـ بالإجماع ـ على أن الموت والمصادرة هى عقوبة كل من يقدم على هذه الجرائم التى أشرنا إليها.

وحيث إن هذا أمر متفق عليه ـ بلا جدال ـ عند جميع الأمم ـ قديما وحديثا ـ فإنه من التحامل والتعسف والافتراء القول بأن الحكم الصادر في حق بنى قريظة هو حكم غير عادل، ومخالف لقواعد الإنسانية، لأن هؤلاء اليهود قد جمعوا في تصرفاتهم الخائنة الغادرة ضد المسلمين كل الجرائم التى عقوبة واحد منها ـ فقط ـ الموت فى جميع قوانين الدنيا!

فاليهود لم يكتفوا بالتجسس على مواطنيهم لحساب العدو في حالة الحرب، ولم يكتفوا بمدّ هذا العدو بالمساعدات التى تيسر له مهمة احتلال المدينة، وطن الجميع المشترك ـ يوم ذاك ـ.. وهى أعمال تصنّف فى باب الخيانة العظمى التى عقوبتها الموت فى جميع قوانين العالم.

نعم لم يكتفوا بهذه الأعمال فحسب، بل ـ بالإضافة إلى كل ذلك ـ أعلنوا قطع كل صلة بحلفائهم، مستغلين الموقف الدقيق المتأزم، حيث بلغت حالة المسلمين من الضيق والشدة حد الاختناق، ضاربين بكل المثل والأعراف والقوانين والعهود والمواثيق عرض الحائط!

إن يهود بنى قريظة ـ وقد ظهرت نواياهم الخبيثة، وتكشفوا على تلك الحالة من اللؤم والخسة والدناءة ـ لو تم النصر لهم وللأحزاب على المسلمين، لما رضوا إلا باستئصال شأفة المسلمين، ومصادرة كل أملاكهم، وسبى جميع نسائهم وذراريهم!

وهذا أمر مبيت منهم للمسلمين ـ بالتأكيد ـ فهم لم يقدموا على تلك الخيانة العظمى فيتواطؤوا مع العدو الغازى إلا وقد وضعوا نصب أعينهم ـ كهدف أول ـ إبادة المسلمين عن آخرهم !

وقد تجلى هذا المقصد الخبيث من اليهود عندما طلبوا من الأحزاب ـ كشرط أساسى لا نضمامهم إليهم ـ ألا ينسحبوا ويفكوا الحصار عن المدينة إلا بعد سحق المسلمين، واستئصال شأفتهم وأخذوا بذلك العهد على مندوب الأحزاب حيى بن أخطب فتعهّد لهم بذلك باسم الأحزاب !

فكيف إذن بعد هذه الحقائق الدامغة كلها، وبعد هذه الأعمال التى قام بها اليهود، والتى يكفى البعض منها .. فكيف بها مجتمعة ، لإدانة هؤلاء اليهود بالخيانة العظمى التى عقوبتها الموت والمصادرة فى جميع قوانين الدنيا!

كيف بعد هذا كله يسوغ لعاقل منصف يحترم نفسه أن ينفى صفة العدل والإنصاف عن الحكم الصادر والنافذ بحق هؤلاء اليهود الذين لم ينتهوا إلا إلى المصير الذى حاولوا ـ خيانة وغدرا وبكل الوسائل الخسيسة ـ أن يصلوا بالمسلمين إليه؟!

ولماذا يكون من العدل والإنصاف تنفيذ حكم الإعدام فى هذا العصر فيمن ارتكب جريمة واحدة فقط من الجرائم التى أشرنا إليها، والتى تكفى واحدة منها بإنزال عقوبة الإعدام بمرتكبها، كنقل أسرار حربية إلى العدو ـ فقط ـ كما يحدث فى هذا العصر، ولايكون من العدل والإنصاف ، بل يصبح من القسوة والوحشية والظلم، تنفيذ حكم الإعدام فيمن ارتكب كل هذه الجرائم الخطيرة مجتمعة، كما فعل بنو قريظة؟!

ألأن المحكومين يهود، والحاكمين مسلمون، أم ماذا ؟!

إننا لانزال نسمع كل يوم بأحكام الإعدام تصدر بحق أناس فى أمريكا وأوربا وكل العالم المسمى بالعالم الحر، لا لأنهم انضموا إلى الأعداء، وشهروا السلاح فى وجه دولتهم ومواطنيهم، وإنما لأنهم نقلوا إلى العدو معلومات تفيده وتيسر له الإضرار بوطنهم ومواطنيهم.

فما حل ليهود بنى قريظة إذن من عقاب إنما هو جزاء عادل ـ كما عرفنا ـ وفى الوقت ذاتة يؤيده القانون الدولى قديما وحديثا!

خونة لا أسرى حرب:

قد يقول قائل: لماذا لم يعامل الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يهود بنى قريظة كما يعامل القائد المنتصر رجال جيش العدو الذى حارب ، وكتب له الفشل فى حربه فانهزم واستسلم ، كما هو الحال فى هذا العصر؟

والجواب على هذا التساؤل ـ من ناحية القانون الدولى المعاصر ـ :

أن اليهود عندما فعلوا مافعلوا بانضمامهم إلى قوات الأحزاب الغازية ضد المسلمين، لم يكونوا فى حالة حرب مع المسلمين، بل لم يكونوا حتى فى حالة تعاد أو تنافر. وإنما كانوا متحالفين، بل ومواطنين هم والمسلمون يشكلون وحدة وطنية لا تتجزأ، ملزمون على حد سواء بالدفاع المشترك عن الوطن الواحد المشترك!

ومن ثم فيهود بنى قريظة ـ من وجهة نظر القانون الدولى العام ـ لا يمكن وضعهم فى مكان العدو الذى استسلم وهو يخوض حربا، كالحرب التى تنشب لسبب من الأسباب بين دولة ودولة.

وإنما مكان هؤلاء اليهود ـ من وجهة نظر القانون الدولى العام ـ هو مكان الخائن المتآمر مع العدو على وطنه وهو في حالة الحرب القائمة، وحكم الذى شأنه هكذا عند الظفر به معروف لدى الخاص والعام، ومنصوص عليه فى جميع القوانين الدولية، وهو الإعدام لا غير .

إنهم ليسوا أسرى حرب بالمعنى المتعارف عليه دوليا، حتى يقال: لماذا لم يعاملهم محمد ﷺ مثلما عامل غيرهم ممن وقع في يده من أسرى الحرب الآخرين، وإنماهم خونة غادرون، ارتكبوا جريمة الخيانة العظمى ضد وطنهم فظفرت بهم يد العدالة، بعد أن أدانتهم بالتواطؤ مع العدو ضد الوطن الذى هو وطنهم!

ولهذا فإن الحكم الذى صدر بحق هؤلاء اليهود ونفّذ فيهم ، إذا نظرنا إليه ـ فقط ـ من زاوية العرف والقانون المتعارف عليه، والمعمول به فى القرن العشرين، عند جميع الدول وجدنا أنه يتفق كل الاتفاق مع هذا العرف، وذلك القانون، من جميع الوجوه.

ولعل الذين يستبشعون الحكم الذى صدر ونفّذ بحق يهود بنى قريظة، ينسون أو يتناسون أنه فى القرن العشرين هذا ـ قرن التقدمية والتمدّن كما يسمونه ـ قد سمعنا ولا نزال نسمع بأحكام تصدر بالموت، وتنفذ فى ظل القانون بحق أناس، لا لأنهم ارتكبوا مثلما ارتكب يهود بنى قريظة من جرائم الغدر والخيانة العظمى ضد مواطنيهم، وإنما لأنهم نقلوا ـ فقط ـ إلى عدو غير محارب بعض الأسرار التى تتعلق بسلامة الجيش والقوات المسلحة، كذلك الأمريكى الذى نفّذ فيه حكم الإعدام لأنه كان على اتصال بالروس ، ونقل إليهم أسرارا حربية تتعلق بصنع القنبلة الذرية وغيرها.

فكيف يكون من العدل المتمشى مع روح القرن العشرين إعدام مواطن أومواطنين لأنهم ـ فقط ـ نقلوا إلى العدو أسرارا تتعلق بسلامة الجيش.. أسرارا ليس من المؤكد أن نقلها سيعرض الجيش للإبادة، وإنما يمكّن قيادة العدو المنتظر ـ روسيا ـ من الاستفادة عسكريا، ويكون من الظلم والوحشية إعدام المواطن الذى لم يكتف بنقل أسرار جيش بلاده إلى العدو والمحارب المحيط ببلاده، بل شرع بالاتفاق مع العدو الغازى فى تسديد طعنة إلى ذلك الجيش ، واتصل بالعدو إتصالا مباشرا مكشوفا، وأعلن انضمامه إليه، مستهدفا إبادة المسلمين؟!

إنه لاجواب عند هؤلاء المعترضين والمستبشعين لما نزل بيهود بنى قريظة إلا الفلسفة الفارغة، والمغالطة المكشوفة التى تمليها الرغبة المبيتة الملحّة فى الطعن والتشويه لكل ماهو إسلامى فحسب!

إن يهود بنى قريظة ليسوا أسرى حرب بالمعنى المعروف، حتى يقال إن إعدام المقاتلين منهم على تلك الصورة السابقة وحشية وقسوة تتنافى وروح القرن العشرين، بل هم قوم ارتكبوا ضد وطنهم الخيانة العظمى وعلى درجة لم يصل إليها أحد قبلهم، ولا بعدهم في البشاعة والفظاعة والدناءة!

هدى النبى ﷺ فى الأسارى :

والمتعارف عليه دوليا في كل زمان أن لكل دولة قانونها الخاص الذى تسير عليه فى

سلمها وحربها.

ودولة الإسلام لها قانونها الثابت فى هذا المقام..

وهدى النبى ﷺ فى الأسارى أنه ـ كما يقول ابن القيم [1] ـ كان يمنّ على بعضهم، ويقتل بعضهم، ويفادى بعضهم بالمال، وبعضهم بأسرى المسلمين، وقد فعل ذلك كله بحسب المصلحة ففادى أسارى بدر بمال، وقال فيما رواه البخارى وغيره عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن النبى ﷺ قال فى أسارى بدر:

«لو كان المطعم بن عدىّ حيّاً، ثم كلمنى فى هؤلاء النّتنى، لتركتهم له». [2]

وهبط عليه في صلح الحديبية ثمانون متسلّحون يريدون غِرّته، فأسرهم ثم من عليهم، وذلك فيما رواه مسلم وغيره [3] عن أنس بن مالك، أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلّحين يريدون غِرة [4] النبى ﷺ وأصحابه، فأخذهم سلما. فاستحياهم. فأنزل الله عز وجل:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [5].

وأسر ثمامة بن أُثال سيد بنى حنيفة، فربطه بسارية المسجد، ثم أطلقه فأسلم، وذلك فيما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريره ـ واللفظ لمسلم ـ يقول: [6]

بعث رسول الله ﷺ خيلا قِبل نجد. فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له: ثمامةُ بن أثال. سيد أهل اليمامة. فربطوه بسارية من سوارى المسجد. فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال:

«ماذا عندك ؟ يا ثمامة ! »

---

(١) زاد المعاد: ٣: ١٠٩ وما بعدها بتصرف، وانظر: المغنى لابن قدامة : ٨ : ٣٧٢ وما بعدها.

(٢) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٠٢٤) ، وأبو داود (٢٦٧٢) عون المعبود وأحمد : ٤ : ٨٠ .

(٣) مسلم: ٣٢ ـ الجهاد ١٣٣ (١٨٠٨) وأحمد : ٣: ١٢٤ ـ ١٢٥، وأبو داود (٢٦٧١) عون المعبود، والترمذى (٣٢٦٤).

(٤) أى يريدون أن يصادفوا منه ومن أصحابه غفلة عن التأهب لهم، ليتمكنوا من غدرهم ، والفتك بهم .

(٥) الفتح: ٢٤.

(٦) البخارى:٨ ـ الصلاة(٤٦٢) ومسلم:٣٢ ـ الجهاد (١٧٦٤) وأبو داود (٢٦٦٢) عون المعبود من حديث أبى هريرة.

فقال: عندى يا محمد! خير. إن تقتل تقتل ذا دم . وإن تُنْعْم تنعم على شاكر. وإن كنت تريد المال فَسَلْ تُعْطَ منه ماشئت. فتركه رسول الله ﷺ . حتى كان بعد الغد فقال:

« ما عندك؟ يا ثمامة! »

« قال : ما قلت لك . إن تنعم تنعم على شاكر. وإن تقتل تقتل ذا دم . وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد . فقال :

« ماذا عندك؟ يا ثمامة! »

« قال : عندى ما قلت لك . إن تنعم على شاكر . وإن تقتل تقتل ذا دم . وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فقال رسول الله ﷺ :

« أطلقوا ثمامة » :

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد . فاغتسل. ثم دخل المسجد فقال: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. يامحمد! والله! ماكان على الأرض وجهٌ أبغضَ إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه كلّها إليّ. والله! ماكان من دين أبغض إليّ من دينك. فأصبح دينك أحب الدين كلِّه إليّ . والله! ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك. فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ. وإن خَيْلَكَ أخذتنى وأنا أريد العُمْرة. فماذا ترى؟ فبَشَّره رسول الله ﷺ وأمره أن يَعْتَمر. فلما قدم مكة قال له قائل أصبوت؟ فقال: لا. ولكنى أسلمت مع رسول الله ﷺ. ولا ، والله! لايأتيكم من اليمامة حبَّةُ حِنْطَةٍ حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ .

واستشار الصحابة فى أسارى بدر، فقال لأبى بكر وعمر:

« ماترون فى هؤلاء الأسارى » .

فقال أبوبكر: يانبى الله! هم بنو العم والعشيرة. أرى أن تأخذ منهم فدية. فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله ﷺ :

«ماترى؟ يا ابن الخطاب!»

قلت: لا. والله ! يارسول الله! ما أرى الذى رأى أبو بكر و لكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم. فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه. وتمكنّى من فلان (نسيبا لعمر) فأضرب عنقة. فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر.

ولم يهو ماقلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان. قلت يارسول الله! أخبرنى من أى شيء تبكى أنت وصاحبك. فإن وجدت بكاء بكيت. وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ :

« أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة » .

(شجرة قريبة من نبى الله ﷺ) وأنزل الله عز وجل :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

إلى قوله:

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾[1].

فأحل الله الغنيمة لهم. [2]

وقد تكلم الناس، فى أى الرأيين كان أصوب، فرجحت طائفة قول عمر، لهذا الحديث، ورجحت طائفة قول أبى بكر، لاستقرار الأمر عليه، وموافقته الكتاب الذى سبق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته على الرحمة التى غلبت الغضب [3].. ولحصول الخير العظيم الذى حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين ، ولحصول القوة التى حصلت للمسلمين بالفداء ، ولموافقة رسول الله ﷺ لأبى بكر أولا، ولموافقة الله له آخرا حيث استقر الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصديق، فإنه رأى ما يستقر عليه حكم الله آخرا، وغلب جانب الرحمة على جانب العقوبة.

قالوا: وأما بكاء النبى ﷺ ،فإنما كان رحمة لنزول العذاب لمن أراد بذلك عرض الدنيا، ولم ير ذلك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر .. واستأذنه الأنصار أن يتركوا للعباس عمه فداءه، وذلك فيما رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه: أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ائذن فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، فقال.

---

(١) الأنفال : ٦٧ ـ ٦٩ .

(٢) مسلم: ٣٢ ـ الجهاد ٥٨(١٧٦٣) وأحمد: ١ :٣٠ ـ ٣١ من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

(٣) انظر: نفحات رمضان وأثرها فى تكوين الشخصية الإسلامية : ٢١٠ وما بعدها، وتفسير الطبرى : ١٠ : ٤٢ وما بعدها، وتفسير القرطبي : ٨ : ٤٥ وما بعدها، وتفسير ابن كثير : ٢ : ٣٢٥ وما بعدها، وتفسير المنار : ١٠ : ٨٣ وما بعدها.

« **لا تدعون منها درهما** » . [1]

واستوهب من سلمة بن الأكوع جارية نفله إياها أبو بكر في بعض مغازيه، فوهبها له [2] ففدى بها ناسا من المسلمين كانوا أسروا بمكة . .

ورد سبي هوزان عليهم بعد القسمة واستطاب قلوب الغانمين، فطيبوا له وعوض من لم يطيب من ذلك بكل إنسان ست فرائض، وذلك فيما رواه البخاري من حديث مروان والمسور [3] .

وقتل عقبة بن أبي معيط من الأسرى، فيما رواه أبو داود بسند حسن عن ابن مسعود أن النبي ﷺ لما أراد قتل عقبة بن أبي معيط، قال : من للصبية. قال :

« **النار** » [4] . .

وعلى ضوء هذا فإن يهود بني قريظة، حتى لو كانوا أسرى حرب جدلا فإنه لا مكان للاستنكار أيضا! ولا لوم من وجهة النظر الدولية ولا اعتراض على من طبق قانون بلاده فيها على غير أبناء بلاده فكيف بالمواطنين من أبناء بلده؟ !

بين سكان «هيروشيما» و« بني قريظة » :

وإن تنفيذ الحكم العادل على بني قريظة إذا قارناه بما ارتكبه ولا يزال يرتكبه هؤلاء الذين يتشدقون بذكر وحشية عملية إبادة بني قريظة ويتبجحون بذكر مدنية [5] القرن العشرين، وحقوق الإنسان، لوجدنا أن عملية واحدة من عمليات الإبادة التي أقدموا عليها تكفي لأن تجعل عملية تنفيذ الحكم في بني قريظة شيئا لا يذكر. فكم سمعنا ولانزال نسمع، ويسمع العالم ويرى كيف يحصد هؤلاء المتمدنون مئات الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال الذين لم يكونوا يوما من المحاربين، ويستأصلون شأفتهم باسم القانون، وحماية الوطن، وسلامة الدولة!

فأين ـ مثلا ـ قتل هذا العدد القليل من المقاتلين من بني قريظة ـ كما أسلفنا ـ من (٢٥٠)خمسين ومائتي ألف غير محاربين ولا خونة، ولا ناكثين ولا غادرين، مسحتهم من الوجود هم ومدينتهم نساء وأطفالا وشيوخا ، قنبلة ذرية واحدة، ألقت بها عليهم ـ عن

---

(١) البخاري :٥٦ ـ الجهاد (٣٠٤٨) . (٢) مسلم : ٣٢ ـ الجهاد ٤٦ (١٧٥٥).

(٣) البخاري : ٦٤ ـ المغازي (٤٣١٨ ، ٤٣١٩) ، وأبو داود (٢٦٧٧) ، عون المعبود ، وابن هشام : ٢ : ٤٨٩ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٤) أبو داود (٢٦٦٩) عون المعبود، وابن هشام: ١: ٦٤٤ .عن ابن إسحاق .

(٥) غزوة بني قريظة : ٢٦٢ وما بعدها بتصرف.

قصد وسابق تخطيط ـ طائرة حربية تابعة لدولة يقال حتى هذه اللحظة : إنها أم الحريات ومعقل الدفاع عن الإنسانية ، وهى دولة الولايات المتحدة الأمريكية ، التى ألقى سلاح طيرانها تلك القنبلة على مدينة « هيروشيما العزلاء الآمنة فى اليابان » فى أواخر الحرب العالمية الثانية !

سكان « نجازاكى » :

كما ألقى مثلها على سكان مدينة «نجازاكى» العزلاء كذلك فأبادوا وشوهوا أيضا مئات الآلاف من الشيوخ والنساء والأطفال العزل؟!

نعم، أين إعدام هذا العدد القليل من بنى قريظة بعد محاكمة وإدانة صريحة بالخيانة العظمى والغدر البشع، من حصد أرواح مئات الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال العزل.. دون أن يقترفوا ذنبا ، أو يرتكبوا خطيئة؟!

وبعد ألا يخجل هؤلاء المتعصبون ضد الإسلام، والباحثون كل يوم عن مطعن يحط من شأنه! ألا يخجل هؤلاء هم وتلاميذهم من المنتسبين إلى الإسلام ، والطاعنين ـ باسم الإنسانية ـ فى الحكم الصادر والنافذ بحق هؤلاء اليهود الخونة! ألا يخجل هؤلاء هم وتلاميذهم من المحسوبين على الإسلام، حينما يتشدقون بطعونهم في حكم الإعدام الصادر والنافذ بحق هؤلاء اليهود الذين ارتكبوا الخيانة العظمى ، ويصفونه بأنه عقاب وحشى لا يتفق وروح هذا القرن العشرين المتمدنة، وهم يعلمون أن أسيادهم، ومن يعتبرون فى الذروة من مدنية القرن العشرين، قد حصدوا أرواح مئات الآلاف من غير المحاربين من الشيوخ والنساء والأطفال، عن قصد وتخطيط وسابق إصرار ؟!

خرافة مدنية القرن العشرين:

وأية مدنية القرن العشرين هذه التى يتبجح بها هؤلاء المتعصبون وتلاميذهم بسموها وعلو روحها، ويجعلون منها مقياسا للعدل والرحمة والتمدن، وبمعيارها يصدرون حكمهم بالقسوة والوحشية والهمجية على قرار حكم الإعدام الذى صدر ونفذ فى حق المقاتلين من يهود بنى قريظة!

أهى هذه المدنية التى ـ كما رأينا ورأى العالم ـ سمح أقطابها وحماتها وسدنتها لأنفسهم أن يمسحوا من الوجود بسلاح وحشى رهيب رعيب مئات الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال العزل؟!

أهى هذه المدنية التى سمح حماتها وسدنتها لطياريهم فى الحرب العالمية الثانية أن

يقتلوا تحت الأنقاض فى ليلة واحدة أهل مدينة همبورج الشهيرة فى ألمانيا الغربية أربعين ألف [(١)] إنسان من المدنيين العزل؟!

أهي هذه مدنية القرن العشرين التى يتشدق بها الببغاوات من المحسوبين على الإسلام، ويجعلونها مثلهم الأعلى، ومرجعهم الأول، فى الحديث عن الإنسانية والمدنية، وحقوق الإنسان، ويحتجون بأن إعدام هذا العدد القليل من المقاتلين من يهود بنى قريظة يتنافى مع روح مدنيتهم هذه؟!

أهذه هى مدنية القرن العشرين التى أباحت بقانون دم إنسان زنجى، إذ حكمت عليه بالإعدام، ونفذ فيه الحكم، لأنه سرق دولارين من إنسان أبيض، وحكمت بالإعدام على زنجى آخر، لأنه ـ فقط ـ راود امرأة بيضاء عن نفسها، ولم يرتكب الخطيئة؟! [(٢)].

أهذه هى المدنية العالمية التى يجعلها الحاقدون على الإسلام، والمفتونون من المنتسبين إليه، مقياسا أعلى للإنسانية والرحمة والعدل، توزن بميزان روحها أعمال أعظم وأعدل وأرحم رجل عرفه التاريخ: محمد بن عبد الله ﷺ، ويصفون حكم الإعدام بالقسوة والهمجية، بحجة أنه يتنافى مع روح هذه المدنية، مدنية القرن العشرين إياها ؟!

إعدام ثلاثة آلاف أسير فى فلسطين :

وأين هؤلاء الذين لا يعجبهم هذا الحكم بحجة أنه يتسم بطابع الوحشية والانتقام!

أين هؤلاء المتمدنون من فعلة ريتشارد (قلب الأسد) قائد الحملة الصليبية فى فلسطين، الذى أعدم (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف آسير من المسلمين فى فلسطين، بعد أن أعطاهم الأمان، وقطع على نفسه عهدا بحقن دمائهم؟!

وقد أثبت ذلك جوستاف لوبون فى كتابه «حضارة الغرب» !

يقول الأستاذ باشميل: لقد تعمدنا فى مناقشة المعترضين على حكم الإعدام الجماعى الصادر بحق يهود بنى قريظة ـ المقاتلين ـ والنافذ فيهم.. تعمدنا إغفال النصوص الشرعية والاحتجاج بها، ومناقشتهم في حدود مفهوم الأعراف والقوانين العصرية التى يقدسونها، لأنهم لا يؤمنون با لإسلام الذى هو مصدر تلك الأحكام التى نفذت فى اليهود.. فصار من غير المجدى محاولة إقناعهم بوجاهة ذلك الحكم وعدالته عن طريق الرجوع بهم إلى قواعد ونصوص الشريعة الإسلامية من آيات وأحاديث. فهذه النصوص والقواعد إنما يناقش فى حدودها من يؤمن بمصدرها، ويرى نفسه ملزما بالرضوخ لها، والاحتكام إليها.

---

(١) انظر: غزوة بنى قريظة: ٢٦٤ هامش.
(٢) انظر : صراع مع الباطل: ١١٧ .

وأعداء الإسلام هؤلاء وتلاميذهم من الذين يسيرون على أصول قوانينهم في تشريعاتهم الوضعية، إنما يهدفون بمحاولتهم الطعن في الحكم الصادر بحق اليهود، انتقاص أصول الشريعة الإسلامية الغراء، ولهذا لزم إبطال مزاعمهم ونقض مطاعنهم في حدود قانونهم وبمنطقهم ذاته.

حكم اليهود في شريعتهم:

وهناك أمر آخر مهم لابد من ذكره بهذه المناسبة، وهو أن الحكم الذى صدر على يهود بنى قريظة قد جاء فى التوراة عندهم، فقد نص الإصحاح العشرون فى سفر التثنية من كتابهم المقدس على أن لهم قتل كل الذكور من أعدائهم، إذا ظفروا بهم وامتلاك نسائهم وأطفالهم، وكل ما يملكون!

وهذا هو نص الإصحاح:

«وإن لم تسالمك أية قرية، بل حاربتك فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال، والبهائم وكل ما في المدينة، وكل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك» (١).

وسبق أن عرفنا أن القتل الذى صدر ونفذ فى يهود بنى قريظة كان خاصا بمن بلغ من المقاتلين، أما نص التوراة الذى معنا فإنه يأمر بضرب جميع الذكور بحد السيف، ولم يشترط بلوغا!

وعلى كل فإنه يجعل هؤلاء اليهود بالتأكيد يرون أن من حقهم تنفيذ حكم الإعدام فيمن وقع فى أيديهم من الذكور جميعهم ، وسبى النساء والأطفال ومصادرة كل الممتلكات .

وهذا يعنى أن اليهود لو نجحوا فى مؤامراتهم وتم لهم ولأحلافهم التغلب على المسلمين، لما ترددوا لحظة فى إبادة جميع الذكور منهم وسبى نسائهم وذراريهم، ومصادرة ممتلكاتهم. تمشيا مع حكم كتابهم المقدس الذى جاء صريحا فى الإصحاح العشرين من سفر التثنية !

ولهذا لم يبق ـ لا من الناحية الدينية ولا من الناحية الوجدانية ولا من الناحية القانونية ـ أى مجال للانتقاد فى الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بنى قريظة!

---

(١) سفر التثنية: ٢٠: ١٣ ـ ١٤ .

وبالإضافة إلى كل ما سبق من حجج لا تقبل الجدل ، نقول لهؤلاء الطاعنين والمستبشعين لهذا الحكم .. إن أى واحد لو كان مسئولا عسكريا عن سلامة أمته، وفى أى عصر من العصور، فتعرض هو وجيشه ووطنه وأمته لمثل ذلك الموقف من خطر خيانة بنى قريظة وغدرهم بانقلابهم على المسلمين فى ذلك الظرف، ذلك الغدر الذى جعل جيش المدينة يقع فى أخطر مأزق يمر به فى تاريخ حياته العسكرية، حيث وصل هذا الجيش بسبب خيانة بنى قريظة إلى درجة من الخطر كانت قاب قوسين أو أدنى من الإبادة ، لولا عناية الله التى أنقذت المسلمين بمعجزة!

نعم ، نقول لهؤلاء المعترضين، لو أن واحدا منكم كان قائدا عسكريا، وتعرّض هو وجيشه وأمته ووطنه لمثل ذلك الموقف، لما وسعه إلا أن ينزل بهم مثل ما نراه ونسمعه من الإبادة للجميع بالأساليب المحرمة دوليا!

إنصاف سعد بن معاذ:

ولقد كتب الأستاذ محمد البيومى مقالا تحت هذا العنوان فى مجلة الحج بمكة المكرمة في عددها الثانى عشر من سنتها الثامنة عشرة، فند فيه مزاعم المستشرقين، وأنحى باللوم على المنتسبين إلى الإسلام من الذين تأثروا بوساوس المستشرقين جاء فيه:

ليس من الغريب أن يندفع غلاة المستشرقين فى تجريد سيد الأوس سعد بن معاذ، حين أصدر حكمه العادل باستئصال بنى قريظة ـ المقاتلين ـ إذ خانوا الله ورسوله، وتآمروا بالمسلمين، فحالفوا قريشا على حرب محمد ﷺ ناقضين عهودهم الوثيقة، ومعلنين دفائن أحقادهم الثائرة!

ويوم صدق الله وعده فرد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وحان أوان القصاص فارتضوا سعد بن معاذ حكما، فجزاهم بما اقترفوا من العقوق والغدر أعدل الجزاء.

ليس من الغريب أن يندفع غلاة المستشرقين في ذلك عن غرض جائر وهوى مريض إنما الغريب حقا أن يستمع إليهم بعض عقلائنا المسلمين من كبار رجال القانون، فيروا فى حكم سعد مغالات كبيرة!

ولا أدرى كيف يقولون ذلك، وقد درسوا القوانين المعاصرة دراسة نافذة، وكان في مقدرتهم أن يطبقوها على قضية بنى قريظة، ليروا أن قوانين القرن العشرين لاتختلف فى شيء عما أصدره سعد بن معاذ..

ولكن أقوال ذوى الغرض من المستشرقين قد خدعت رجالنا عن عقولهم، فنسوا ما يحفظون، وتجاهلوا ما يعلمون ..

ثم يعرج على تلك المطاعن، فيثبت بطلانها عن طريق المقارنة بين القوانين العصرية الوضعية وبين حكم سعد على اليهود قائلا:

وسنضطرها هنا إلى مخاطبتهم بلغتهم القانونية.. ثم يقول:

لقد كان بين الرسول ﷺ وبين يهود بنى قريظة معاهدة تحفظ حقوق الفريقين، وتقضى على كل فريق أن ينصر الآخر إذا واجه خطرا فى حرب..

ولكنهم ـ أى اليهود ـ تآمروا فانضموا إلى أعدائه، وأوقعوه بين شقى الرحى فى المدينة مصطليا بنار أعدائه المشركين من جهة، واعتداء حلفائه اليهود فى ساعة العسرة من جهة ثانية. فاقترفوا بذلك الغدر ثلاث جرائم:

أولا: رفع السلاح ضد سلطان المدينة مع الأجنبى المعتدى.

ثانيا: دس الدسائس لدى العدو ضد المسلمين.

ثالثا: تسهيل دخول العدو للبلاد.

قانون العقوبات المصرى:

ثم يعقب على إدانة اليهود بهذه الجرائم الثلاث فيقول:

وقانون العقوبات المصرى ـ وهو أقرب قانون يعرفه من يؤاخذون سعدا من رجالنا القانونيين ـ يجعل الإعدام عقوبة كل جريمة من الجرائم الثلاث التى ارتكبها اليهود.

وينص على ذلك فى المواد ٧٧، ٧٨، ٧٩، وهذه هى نصوصه على الترتيب:

[المادة ٧٧] يعاقب بالإعدام كل مصرى رفع السلاح على مصر أو التحق على وجه بعمل فى القوات المسلحة لدولة تحارب مصر.

[المادة ٧٨] كل من ألقى الدسائس إلى دولة أجنبية أو إلى أحد من مأموريها أو إلى أى شخص يعمل لمصلحتها أو تخابر معها أو معه بقصد استعدائه على مصر أو تمكينه من العدوان عليها يعاقب بالإعدام، سواء تحقق الغرض أم لم يتحقق.

[المادة ٧٩] يعاقب بالإعدام كل من سهل دخول العدو إلى البلاد أو سلمه مواقع أو سفنا أو طائرات مما يستعمل فى الدفاع عن البلاد، أو نقل إليه أخبارا أو أرشده أو حرض الجنود على الإنضمام إليه أو أثار الفتن والشائعات أو نحو ذلك.

القانون الكويتي:

ونظرا لأن هذه الدراسات قدمت من إذاعة القرآن الكريم من الكويت، وأعيدت من إذاعة البرنامج العام، فإني أقدم نص القانون الكويتي على ذلك في مادة (١٥٠) ومادة (١٥١) فيما يأتي:

أ ـ كل من ارتكب عمدا فعلا يؤدى إلى المساس باستقلال البلاد أو وحدتها أو سلامة أراضيها.

ب ـ كل من سعى لدى دولة أجنبية أو تخابر معها أو مع أحد ممن يعملون لمصلحتها للقيام بأعمال عدائية ضد الكويت.

جـ ـ كل من سعى لدولة أجنبية معادية أو تخابر معها أو مع أحد ممن يعملون لمصلحتها لمعاونتها في عملياتها الحربية أو للإضرار بالعمليات الحربية لدولة الكويت.

د ـ كل كويتي رفع السلاح وهو فى الخارج على الكويت أو التحق بأى وجه بصفوف العدو أو بالقوات المسلحة لدولة فى حالة حرب مع الكويت.

وتكون العقوبة الإعدام أو السجن المؤبد إذا كان التحاق الكويتي بقوة مسلحة لجماعة معادية ليست لها صفة المحاربين.

[مادة ١٥١] يعاقب بالإعدام:

أ ـ كل من تدخل لمصلحة العدو فى تدابير لزعزعة إخلاص القوات المسلحة أو إضعاف روحها أو روح الشعب المعنوية أو قوة المقاومة عنده.

ب ـ كل من حرض الجند فى زمن الحرب على الإنخراط فى خدمة دولة أجنبية أو سهل لهم ذلك، وكذا من تدخل عمدا بأية كيفية في جمع الجند أو رجال أو أموال أو مؤن أو عتاد أو تدبير شيء من ذلك لمصلحة دولة فى حالة حرب مع الكويت.

جـ ـ كل من سهل للعدو دخول البلاد أو سلمه جزءا من أراضيها أو منشآت أو مواقع عسكرية أو موانئ أو ترسانات أو مخازن أو سفنا أو طائرات أو وسائل مواصلات أو مصانع أو أسلحة أو ذخائر أو مهمات حربية أو مؤنا أو أغذية أو غير ذلك مما أعد للدفاع أو يستعمل فيه، وكل من عاون العدو على بلوغ شيء من ذلك بأن نقل إليه أخبارا أو كان له مرشدا.

اتفاق القوانين المعاصرة:

وبالرجوع إلى جميع القوانين الوضعية المعاصرة يتضح أنها جميعا تتفق على هذه العقوبات فى محاكمتها للمواطنين الخونة.

ويؤكد عدالة العقوبة النازلة بيهود بنى قريظة ـ من وجهة نظر مدنية القرن العشرين ـ فيقول : الأستاذ محمد البيومى فقانون القرن العشرين صريح فى إدانة بنى قريظة، حيث ارتكبوا جميع ما تستحق جريمة واحدة منه الإعدام.

وسنعرض لخيانتهم(١) بالتفصيل حين نتذكر بإيجاز سيرة سعد، ليعلم المنصف، كم تجنى عليه أعداء الإسلام، إذ وصفوه بالوحشية والقسوة والغدر!

ولم تنكب رجالنا من القانونيين سبيل الإنصاف، حين زعموا أن حكمه القضائى لايوائم أحكام القرن العشرين، وقد فاتهم أن يحيطوا بالقضية من أطرافها، ليروا شططهم البعيد!

أما الرجل ـ يعنى سعد بن معاذ ـ فبطل صادق، ومسلم صريح، وإن هؤلاء الغادرين قد آسفوه بخيانتهم الأثيمة، فما راعوا إلا ولاذمة، وكان سعد مع قومه من الأوس قدشفع لديهم ـ بادئ ذى بدء ـ ليرجعوا عن غدرهم الفاضح، فما راقبوا الله فى حلف أو ميثاق، حتى انكشفت الغمة، فقبعوا فى حصونهم يترقبون ما تتمخض عنه الحوادث!

وطبيعى أن يعجّل المسلمون بعقاب هؤلاء الخونة عقابا رادعا، فاتجهوا إليهم على الفور، وحاصروهم فى ديارهم ـ كما أسلفنا ـ واتجهت أنظارهم إلى حلفائهم ليكونوا شفعاءهم.. ورسول الله ﷺ يدرك نفسيات قومه، فوضع الشيء فى موضعه، حين اختار سعد بن معاذ، ليكون فيصلا قاطعا ينزل الفريقان على رأيه.

وعرفنا أن سعدا رضى الله عنه قد قدر الموقف تقدير من شاهد كروبه ومآذقه، وعرف النذر المستطيرة التى تراءت فى الأفق، فأوشكت أن تطيح بالعصبة المؤمنة، لولا عناية الله عز وجل.

ومن ثم كان الحكم الذى لاقى فيه المقاتلون من يهود بنى قريظة أسوأ مصير على أفظع خيانة!

التقول على الإسلام :

ويعقب الأستاذ البيومى على ذلك بقوله:

(١) غزوة بنى قريظة: ٢٧١ وما بعدها بتصرف.

وقد كانت صرامة هذه العقوبة مدعاة للتقول على الإسلام دون عدالة وإنصاف، فالمسلمون لم يتجنوا على بنى قريظة بإستئصالهم المبيد، لأنهم متهمون بالخيانة العظمى، وقد ثبتت إدانتهم ثبوتا قامت دلائله، وفدحت نتائجه وهذه الخيانة الخطيرة ليس لها فى جميع الشرائع غير الإعدام السريع!

مقارنة بين قبائل اليهود:

ولم يكن اليهود أسرى حرب، فيميل بهم إلى الشفقة، ولكنهم شر من الأعداء، إذ يبيتون لأناس يأمنونهم، ويخصونهم بحقوق الجار والمواطن، وواجبات الذمام، وموقفهم هنا يختلف اختلافا واضحا عن موقف بنى قينقاع وموقف بنى النضير.

فيهود بنى قينقاع قد أبدوا البغضاء من أفواههم ـ كما أسلفنا ـ وأشاعوا الريب والشكوك، ورأوا في الدعاية المغرضة سلاحا لايفل.

ويهود بنى النضير ـ كما عرفنا ـ قد ائتمروا على قتل الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، وتحالفوا مع بعض المنافقين على المناجزة دون أن تتيح لهم الفرصة طريقا يصلون منه إلى التنفيذ!

وهؤلاء وأولئك؛ أهون خطبا من الذين سلوا السيوف، ووقفوا فى صفوف العدو، وأوقعوا الهلع فى قلوب يحيط بها الروع من كل ناحية، فتعادل الكفتين بينهما طيش لا يقره إنصاف!

وقد جلا بنو قينقاع وبنو النضير عن المدينة، فكانوا مثار القلق والفتنة، ومبعث الضيق للمسلمين.. ومن ثم حزب اليهود الأحزاب، وجمعوا القبائل مع المشركين ليوم الخندق، فأعطوا بمؤامرتهم المزعجة ما يوجب استئصال شأفتهم، وتتبع الأفاعى فى كل مكمن، ليطفئ ذلك لهبا يستعر إذا هبت عليه الريح.

وقد تحقق ذلك مبدئيا في يهود بنى قريظة، وظهرت نتائجه الحاسمة فى خيبر ـ كما سبق ـ حيث تعرضوا لزلزال رهيب، كان لابد منه.

اعتراض على التوراة من باب أولى:

وإن كل إعتراض على هذا الحكم اعتراض على التوراة من باب أولى ـ كما

عرفنا ـ وتسليم بأن شريعة الإسلام السمحة يجب أن يرجع إليها، وأن يحتكم الناس جميعا إلى أحكامها، ويؤمنوا بها، وأيما مقارنة فى هذا الصدد ، خليق بها أن تكشف ـ فى وضوح بالغ ـ أى قانون رفيق عطوف رحيم قدمه الإسلام إلى الناس (١).

تبعات الحكم:

يقول الشيخ الغزالى: (٢) أجل، هو القتل، وإنما تقع تبعات الحكم به على من تعرض له بسوء صنيعه وبما أسلف من نيات خبيثة لم يسعفها الحظ فتحقق، ولو قد تحققت لكان ألوف المسلمين هلكى تحت أقدام الأحزاب المنسابة من كل ناحية، يحرضهم ويؤازرهم أولئك اليهود!

وربما كانت مغامرات نفر من طلاب الزعامة سببا في هذه الكارثة التى حلت ببنى قريظة، ولو أن حيى بن أخطب وأضرابه سكنوا فى جوار الإسلام، وعاشوا على ما أوتوا من مغانم، ما تعرضوا ولا تعرض قومهم لهذا القصاص الخطير!

لكن الشعوب تدفع من دمها ثمنا فادحا لأخطاء قادتها!

وفي عصرنا هذا دفع الروس والألمان وغيرهم من الشعوب أثمانا باهظة لأثرة الساسة المخدوعين!

ولذلك ينعى القرآن على أولئك الرؤساء مطامعهم ومظالمهم التى يحملها غيرهم قبلهم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ (٣).

ألم ترى إلى هذا الحال العجيب (٤) .. حال الذين وهبوا نعمة الله، ممثلة فى رسول، وفي دعوة إلى الإيمان، وفى قيادة إلى المغفرة، وفي مصير إلى الجنة.. فإذا هم يتركون هذا كله.. ويأخذون بدله «كفرا»! أولئك هم السادة القادة الذين قادوا قومهم إلى جهنم، وبئس ما أحلوهم من مستقر وبئس القرار من قرار!

---

(١) انظر المرجع السابق: ٢٧٤ وما بعدها.

(٢) فقه السيرة: ٣١٦ بتصرف.

(٣) إبراهيم: ٢٨ ـ ٢٩ .

(٤) فى ظلال القرآن: ٤: ٢١٠٥ بتصرف .

ألم تر إلى تصرف القوم العجيب، بعدما رأوا ما حل بمن قبلهم.. لقد استبدلوا بنعمة الرسالة والرسول كفرا، وبنعمة الهدى ضلالا، وبنعمة الأمان حربا، وبنعمة السلام عداء!

وما أشد ما تنطبق هذه الآية فى العصر الحاضر على الذين دفعوا بخيرة جندهم ليموتوا بالآلاف فى حرب خاسرة ظالمة، كما يموت المعتدى الأثيم الباغى، وما أسوأ المصير الذى يؤول إليه المسلم، إذ يقتله مسلم وهو يصد عدوانه عن عرضه وأرضه!

وفي هذه الأيام بالذات أريقت الدماء المسلمة بغزارة رخيصة، لا لتحرير وطن من غاز أو محتل دخيل، وإنما لإشباع شهوات فئة مصابة بوباء السيطرة والتسلط ، ومن ثم أزهقت على مذابح أطماع هؤلاء المتهوسين أرواح تفوق الحصر والعد، وذهبت دماؤهم هدرا!

ولن تعدم المبادئ الباطلة، والنحل الهازلة أتباعا يفتدونها، غير أن شيئا من هذا لا يجعل الباطل حقا، ولا الجور عدلا!

أقول هذا بعدما عشت فى الكويت كل أيام العدوان العراقى الغاشم على هذا البلد، وتعرضت للقتل أكثر من مرة.. وأحتسب ذلك عند الله تعالى.

ومعلوم أن موقف اليهود من الإسلام بالأمس هو نفس الموقف من المسلمين اليوم ، فألوف من إخواننا ذبحهم اليهود في صمت وهم يحتلون فلسطين!

والغريب أن اليهود تركوا من نصب لهم المجازر فى أقطار أوربا، وجبنوا عن مواجهتهم بشر! واستضعفوا المسلمين الذين لم يسيئوا إليهم غير هذا التاريخ فنكلوا بهم على النحو المخزى الفاضح الكالح، الذى لا يزال قائما فى فلسطين.. تشهده وتؤيده وتسانده دول الكفر والإلحاد!

رأى «مونتجمرى وات» :

وإذا كانت جمهرة كتاب الغرب قد جانبت الصواب، [1] وحادت عن جادة الإنصاف، عندما وصفت الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بنى قريظة بالوحشية والقسوة، فإن «مونتجمرى وات» يقول: [2]

---

(١) غزوة بنى قريظة: ٢٨١ بتصرف.

(٢) محمد نبى ورجل دولة: ١٧١ وما بعدها.

لقد انتقد بعض الأوربيين الحكم الصادر بحق بنى قريظة، ووصفوه بالهمجية، وقد اندهش بعض معاصرى محمد لعدم اكتراثه بالعواقب التى قد تنتج عن قتل بنى قريظة.. إلا أن عمل هذه القبيلة أثناء محاصرة المدينة كان يعتبر ناقضا للمعاهدة المبرمة مع محمد..

ولا داعى للافتراض بأن محمدا قد ضغط على سعد بن معاذ لينزل هذه العقوبة ببنى قريظة، فإن رجلا بعيد النظر كسعد لابد أنه أدرك أن طغيان الولاء القبلى على الولاء الإسلامى سيجدد المعارك الدموية التى جاءوا ـ أى الأوس والخزرج ـ بمحمد لينقذهم منها، ويقال: إنه عندما مثل ـ سعد ـ أمام محمد لينفذ حكمه أشار سعد إلى أن قرب نهايته يحتم عليه أولا القيام بواجبه تجاه ربه والجماعة الإسلامية، حتى على حساب الأحلاف القديمة.

ثم يشير الكاتب الإنكليزى إلى حكمة الرسول فى اختيار ـ سعد بن معاذ ـ ليحكم فيهم، ويستدل من ذلك على بعد النبى ﷺ عن الدكتاتورية التي اتهمه بها خصومه فيقول:

إن تعيين سعد بن معاذ من قبل محمد لم يكن يقصد به التستر وراء سلطة ديكتاتورية، لم يكن محمد يملكها فى ذلك الوقت، بل كان محاولة لمعالجة مشكلة عويصة بأحصف وأحذق طريقة ممكنه.

ثم يؤكد الدكتور « مونتجمرى » بأن الحكم النافذ في حق بنى قريظة لم ينفذ لأنهم يهود، بل لأنهم خونه ارتكبوا الخيانة العظمى فيقول:

لم تبق قبيلةيهودية ذات أهمية بالمدينة بعد القضاء على بنى قريظة، بل كانت هناك بعض المجموعات الصغيرة.. وتشير بعض الروايات إلى أن أحد أثرياء اليهود قد اشترى بعض نساء وأطفال بنى قريظة، ولا شك أن اليهود الذين تخلفوا في المدينة كانوا على جانب كبير من الحذر، فلم يتمنعوا عن بعض النشاطات المعادية فحسب، بل حتى عن بعض النشاطات الاجتماعية، غير أن عواطفهم كانت بلا شك مع إخوانهم اليهود فى غزوة خيبر.

إن استمرار وجود بعض اليهود فى المدينة يمكن أن يعتبر دليلا ضد وجهة نظر بعض العلماءالأوربيين التى تقول:

إن محمدا انتهج فى السنه الثانية للهجرة سياسة إبادة جميع يهود المدينة، لمجرد كونهم يهود، وإن هذه السياسة أخذت تزداد عنفا..

ثم يقول الدكتور «مونتجمرى»: إلا أن محمد لم يكن من طبيعته سلوك مثل هذه السياسة، فقد كان يتمتع بنظرة معتدلة لأسس المشاكل المعاصرة، ولسياسة طويلة الأمد، يكون على ضوئها سياسته بموجب العوامل.. أما بالنسبة لهجومه على القبيلتين اليهوديتين فقد كانت مجرد فرصة مواتية ، غير أنه كانت هناك بعض الأسباب العميقة.. فقد كان اليهود من جانبهم يحاولون زعزعة المجتمع الإسلامى بانتقاداتهم الموجهة ضد الوحي القرآني، كما أنهم كانوا يمنحون تأييدهم السياسى لأعداء محمد ومناوئيه من المنافقين، وقد سمح لهم محمد ـ مع هذا ـ بالعيش فى المدينة دون أن يمسهم منه أى أذى.

استرقاق نساء وأطفال بنى قريظة:

بقيت مسألة عميقة الجذور، لابد من التعرض لها بالبحث والمناقشة ـ كما سيأتى ـ وهى مسألة إسترقاق نساء وأطفال بنى قريظة وتقسيمهم من جملة الغنائم بين المحاربين المسلمين. فأعداء الإسلام بصفة عامة، والمعترضون على الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بنى قريظة بصفة خاصة يجعلون من ذلك نقطة هجوم على الإسلام قائلين:

إن هذا تصرف مخالف لروح القرن العشرين ومناف لحقوق الإنسان، يجعل الإسلام فى صفوف النظم الهمجية التى تبيح استعباد الإنسان لأخيه الإنسان!

وهى أخبث الشبه والتهم التى فى أبواقها ينفخ الشيوعيون والصليبيون وكل الخائفين من قيام سلطان الإسلام .. لإدخال وساوس الإلحاد والتشكيك فى صلاحية هذا الدين القيم.

وحتى الشباب المسلم صار الكثير منه ـ نتيجة لهذه الوساوس ـ نهبا لنوازع الشك والحيرة والتساؤل.. كيف أباح الإسلام الرق؟ [1] هذا الدين الذى لاشك في نزوله من عند الله، ولاشك فى صدقه، وفي أنه جاء لخير البشرية كلها في جميع أحوالها.. كيف أباح الرق؟ الدين الذى قام على المساواة الكاملة.. الذى رد الناس جميعا إلى أصل واحد، وعاملهم على أساس هذه المساواة فى الأصل المشترك.. كيف جعل الرق جزءا من نظامه وشرع له؟ أو يريد الله للناس أن ينقسموا أبدا إلى سادة وعبيد أو تلك مشيئته فى الأرض؟ أو يرضى الله للمخلوق الذى كرمه ؟ [2] إذ قال:

---

(١) شبهات حول الإسلام: ٣٣ بتصرف. (٢)انظر : المسئولية الاجتماعية في الإسلام: ١٩٥ وما بعدها.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾[1]

أن يصير طائفة منه سلعة تباع وتشترى كما كان الحال مع الرقيق؟

وإذا كان الله لا يرضى بذلك، فلماذا لم ينص في كتابه صراحة على إلغاء الرق، كما نص علي تحريم الخمر والميسر والربا وغيرها مما كرهه الإسلام ؟

وإن الشباب المؤمن ليعلم أن الإسلام دين الحق، ولكنه كإبراهيم عليه السلام :[2]

﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[3].

أما الشباب الذى أفسد الإستعمار عقله وعقائده، فإنه لا يتلبث حتى يتبين حقيقة الأمر، وإنما يميل به الهوى فيقرر دون مناقشة أن الإسلام نظام عتيق قد استنفد أغراضه!

وأما الشيوعيون خاصة فأصحاب دعاوى «علمية» مزيفة، يتلقونها من سادتهم هناك، فينتفشون بها عجبا، ويحسبون أنهم وقعوا على الحقيقة الأبدية الخالدة التى لامراء فيها ولا جدال، وهى المادية الجدلية، التى تقسم الحياة البشرية إلى مراحل اقتصادية معينة لا معدى عنها ولا محيص..

وهذا ما سنتحدث عنه بالتفصيل فى الفصل الثانى من هذا الكتاب..

السماح لليهود بالإقامة فى خيبر:

وقد عرفنا كيف أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ سمح لليهود بالإقامة فى خيبر ـ بعد تلك المعارك الطاحنة التى انتهت بالقضاء عليهم عسكريا رغم الخيانة ونقض العهد ومحاولة اغتيال النبى ﷺ كما أسلفنا ـ حتى أجلاهم عمر رضى الله عنه..

إجلاء عمر لليهود:

ويروى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لما فدع[4] أهل خيبر عبد الله بن

---

(١) الإسراء: ٧٠ . (٢) انظر: فى ظلال القرآن ١: ٣٠١ ـ ٣٠٢. (٣) البقرة: ٢٦٠.

(٤) فدع ـ بفتح الفاء والمهملتين ـ الفدع ـ بفتحتين ـ زوال المفصل، فدعت يداه: إذا أزيلتا من مفاصلهما. وقال الخليل: الفدع عوج في المفاصل، وفي خلق الإنسان الثابت، إذا زاغت القدم من أصلها من الكعب وطرف الساق فهو الفدع. وقال الأصمعى: هو زيغ فى الكف بينها وبين الساعد، وفي الرجل بينها وبين الساق، هذا الذى في جميع الروايات ، وعليها شرح الخطابى، وهو الواقع فى هذه القصة. ووقع في رواية ابن السكن بالغين المعجمة، أى فدغ، وجزم به الكرمانى، وهو وهم ، لأن الفدغ بالمعجمة كسر الشىء المجوف ، قاله الجوهرى، ولم يقع ذلك لابن عمر في القصة. فتح البارى: ٥: ٣٢٨.

عمر قام عمر خطيبا فقال: إن رسول الله ﷺ عامل يهود خيبر على أموالهم، وقال:

« **نقركم ما أقركم الله** »

وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك، فعدى عليه من الليل، فَفُدِعَتْ يداه ورجلاه، وليس لنا هناك عدوٌّ غيرهم، هم عدونا وتهمتنا، وقد رأيت إجلاءهم .

فلما أجمع عمر على ذلك أتاه أحد بنى أبى الحقيق فقال:

يا أمير المؤمنين، أتخرجنا وقد أقرنا محمد ﷺ وعامَلنا على الأموْال وشرط ذلك لنا؟

فقال عمر: أظننت أنى نسيت قول رسول الله ﷺ :

« **كيف بك إذا أخرجت من خيبر ، تعدو بك قلوصك** (٤) **لَيلة بعد ليلة ؟** ».

فقال: كان ذلك هزيلة (٢) من أبى القاسم.

فقال: كذبت يا عدو الله! فأجلاهم عمر وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالا وإبلا وعروضاً من أقتاب وحبال وغير ذلك (٣) .

تلك عدالة مثالية، لم تعرفها البشرية عبر تاريخها الطويل إلا في هذا الدين القيم .

---

(١) قلوصك ـ بفتح القاف والصاد المهملة ـ : الناقة الصابرة على السير. وقيل: الشابة. وقيل: أول ما يركب من إناث الإبل . وقيل الطويلة القوائم . المرجع السابق .

(٢) هزيلة: تصغير الهزل وهو ضد الجد . المرجع السابق .

(٣) البخارى: ٥٤ ـ الشروط (٢٧٣٠)، وانظر (٦٩٤٤، ٧٣٤٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه، وفيه «اعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإنى أريد أن أجليكم، فمن وجد منكم بماله شيئا فليبعه، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله» ومسلم: ٣٢ ـ الجهاد ٦١ (١٧٦٥)، وأحمد (١٦٩١، ١٦٩٤) ، عن أبى عبيدة قال: آخر ما تكلم به النبى ﷺ : « أخرجوا يهود أهل الحجاز، وأهل نجران، من جزيرة العرب..» الحديث ، والدارمى: ٢:٢٣٣، ومجمع الزوائد: ٥:٣٢٥ ، والبيهقي: ٩: ٢٠٨ .

الفصل الثانى

الإسلام والرق

تمهيد ـ استرقاق الأفراد والشعوب ـ الرق عند اليونان ـ الرق عند الهنود ـ الرق عند اليهود ـ الرق عند النصارى ـ نبأ ما قبل الإسلام ـ معاملة الرقيق ـ ثورة حكيمة منظمة ـ الكيان النفسى وعلاجه ـ أخوة كريمة ـ ثلاثة أجهزة ـ أسرى المحاربين ـ معاملة بالمثل ـ أهداف الحرب ـ حكم الضرورة ـ إجراء مؤقت ـ وسائل مكافحة الرق ـ صورتان متقابلتان .

تمهيد :

قد يقول قائل : إذا كان الإسلام قد كرم الفرد ـ كما عرفنا ـ وهو لبنة في بناء البشرية، فما لنا نراه يبيح استرقاق النساء والأطفال، كما رأينا في يهود بني قريظة ؟

ونحن نعجب لمن يتحدث عن الإسلام والرق[1] ، كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج، على حين أن الرق والإسلام ضدان، لا يلتقيان إلا كما يلتقي سواد الليل وبياض النهار!

وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية؟!

وهل كانت الحملة الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع، والخنوع لشيء أو لأحد غير الله؟!

إن الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية، فكيف يكون من صنع الإسلام الذي أعلن كرامة الإنسان؟!

وإن الاستبداد تبديل للفطرة ، فكيف يكون من نظم الإسلام الذي هو دين الفطرة؟!

استرقاق الأفراد والأمم والشعوب :

وإن تعجب لشيء فاعجب لأن الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق أبيضه وأسوده!

وأنهم أفشوه ونشروا وباءه في العالم من أبشع الطرق وأشنعها، من طريق الخداع والتمويه، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب!

وأنهم جاوزوا فيه الحدود، ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب !

الرق عند اليونان :

وقد كان مذهب أرسطوا في الرق أن فريقا من الناس مخلوقون للعبودية، لأنهم

---

(١) دراسات إسلامية: ٣٧ بتصرف.

يعملون عمل الآلات التى يتصرف فيها الأحرار ذوو الفكر والمشيئة [1].فهم آلات حية تلحق فى عملها بالآلات الجامدة، ويحمد من السادة الذين يستخدمون تلك الآلات الحية أن يتوسموا فيها القدرة على الاستقلال والتمييز، فيشجعوها ويرتقوا بها من منزلة الأداة المسخرة إلى منزلة الكائن العاقل الرشيد !

وأستاذ أرسطو ـ أفلاطون ـ يقضى فى جمهوريته الفاضلة بحرمان العبيد حق «المواطنة» وإجبارهم على الطاعة والخضوع لأحرار من سادتهم أو من السادة الغرباء، ومن تطاول منهم على سيد غريب أسلمته الدولة إليه ليقتص منه كما يريد!

وقد شرعت الحضارة نظام الرق العام، كما شرعت نظام الرق الخاص، أو تسخير العبيد في خدمة البيوت والأفراد، فكان للهياكل فى أسيا الصغرى أرقاؤها الموقوفون عليها. وكانت عليهم واجبات الخدمة والحراسة، ولم يكن من حقهم ولاية أعمال الكهانة والعبادة العامة!

الرق عند الهنـــود :

ويعتقد الهنود أن الرقيق «المنبوذين» [2] خلقوا من قدم الإله، ومن ثم فهم بخلقتهم حقراء مهينون، ولا يمكن أن يرتفعوا عن هذا الوضع المقسوم لهم إلا بتحمل الهوان والعذاب، عسى أن تنسخ أرواحهم بعد الموت مخلوقات أفضل! وبذلك تضاف إلى لعنة الوضع السيئ الذى يعيشـون فيه لعنة أخرى روحيـة تقضى عليهم أن يرضـوا بالـذل ولا يقاوموه!

الرق عنـد اليهـود:

وسبق أن ذكرنا طرفا من التوراة فى بيان أن الحكم الذى صدر على يهود بنى قريظة قد جاء فى الإصحاح العشرين من سفر التثنية بما هو أشد، وهنا نذكر النص بكامله فى شريعة العهد القديم، كما نص عليها نفس الإصحاح، تقول للمؤمن بها [3] :

«حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، وتستعبد لك، وإن لم

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه : ٢٨٦ بتصرف.

(٢) شبهات حول الإسلام: ٣٨ هامش.

(٣) حقائق الإسلام : ٢٩٤ وما بعدها.

تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال ، والبهائم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا، التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبقى منها نسمة ما .... » .

وأقسى من هذا الجزاء جزاء المدن التى ينجم فيها ناجم بالدعوة إلى غير إله إسرائيل، فإنها كما جاء فى الإصحاح الثالث عشر من سفر التثنية :

« فضربا تضرب بحد السيف، وتحرم بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها، وتحرق بالنار.. المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعده ... » .

الرق عند النصـــارى :

ونشأت المسيحية والرق مباح، فلم تحرمه، ولم تنظر إلى تحريمه في المستقبل، وأمر «بولس» العبيد بإطاعة سادتهم كما يطيعون المسيح، فقال في رسالته إلى أهل أفسس: [(١)]

«أيها العبيد! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح، ولا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة ، كما للرب ليس للناس ! عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدا كان أم حرا » .

وأوصى «بطرس» بمثل هذه الوصية، وأوجبها آباء الكنيسة، لأن الرق كفارة من ذنوب البشر، يؤديها العبيد، لما استحقوه من غضب السيد الأعظم، وأضاف القديس الفيلسوف «توما الأكوينى» رأى الفلسفة إلى رأى الرؤساء الد ينيين، فلم يعترض على الرق بل زكاه، لأنه على رأى أستاذه «أرسطو» ــ كما سبق ــ حالة من الحالات التى خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية وليس مما يناقض الإيمان أن يقنع الإنسان من الدنيا بأهون نصيب!

نبأ ما قبل الإسلام:

وانقضى على العالم عصور بعد عصور، ، وهذا النظام شائع فى أرجائه بين الأمم

---

(١) المرجع السابق: ٢٨٥ وما بعدها بتصرف.

المعروفة فى القارات الثلاث، ينتشر بين أمم الحضارة ، وقبائل البادية التي يكثر فيها غارات السلب والمرعى، ،ويقل انتشاره بين الأمم الزراعية عند أودية الأنهارالكبرى كوادى النيل وأودية الأنهار الهندية. إلا أن الأمم فى الأودية الهندية كانت تأخذ بنظام الطبقة المسخرة أو الطبقة المنبوذة، وهى فى حكم الرقيق العام من وجهة النظر إلى المكانة الاجتماعية، والحقوق الإنسانية .

معاملة الرقيق :

وهنا وقفة عند حقائق التاريخ [1]. ففظائع الرق الرومانى في العالم ترينا أن الرقيق في عرف الرومان كانوا «شيئا» لا بشرا! «شيئا» لا حقوق له البتة، وإن كان عليه كل ثقيل من الواجبات!

ولنعلم أولا من أين كان يأتى هذا الرقيق؟ كان يأتى من طريق الغزو! ولم يكن هذا الغزو لفكرة ولا مبدأ، وإنما كان سببه الوحيد شهوة استعباد الآخرين وتسخيرهم لمصلحة الرومان! فلكى يعيش الرومانى عيشة البذخ والترف يستمتع بالحمامات الباردة والساخنة والثياب الفاخرة، وأطايب الطعام من كل لون، ويفرق في المتاع الفاجر.. كان لابد لكل هذا من استعباد الشعوب الأخرى وامتصاص دمائها. ومصر مثل لذلك حين كانت فى قبضة الرومان، قبل أن يخلصها من نيرهم الإسلام! إذ كانت حقل قمح للإمبراطورية، ومورد للأموال !

فى سبيل هذه الشهوة الفاجرة كان الاستعمار الرومانى، وكان الرق الذى نشأ من ذلك الاستعمار. أما الرقيق فكانوا «أشياء» ليس لها كيان البشر، ولاحقوق البشر! كانوا يعملون فى الحقول، وهم مصفدون في الأغلال الثقيلة التى تكفي لمنعهم من الفرار! ولم يكونوا يطعمون إلا إبقاء على وجودهم ليعملوا، لا لأن من حقهم ـ حتى كالبهائم ـ أن يأخذوا حاجاتهم من الغذاء! وكانوا ـ في أثناء العمل ـ يساقون بالسوط، لغير شيء إلا للذة الفاجرة التى يحسها السيد أو وكيله في تعذيب هذه المخلوقات. ثم كانوا ينامون فى «زنزانات» مظلمة كريهة الرائحة تعيث فيها الحشرات والفئران.. ولا يتاح لهم حتى الفراغ الذى يتاح بين بقرة وبقرة فى حظيرة الحيوانات!

ولكن الشناعة الكبرى كانت شيئا أفظع من كل ذلك، وأدل على الطبيعة الوحشية

---

(١) شبهات حول الإسلام: ٣٥ بتصرف.

التي ينطوى عليها ذلك الرومانى القديم، والذى ورثها عنه الأوربى الحديث فى وسائل الاستعمار والاستغلال.

تلك كانت حلقات المبارزة بالسيف والرمح، وكانت من أحب المهرجانات إليهم، فيجتمع إليها السادة وعلى رأسهم الإمبراطور أحيانا، ليشاهدوا الرقيق يتبارزون مبارزة حقيقية، توجه فيها طعنات السيوف والرماح إلى أى مكان فى الجسم بلا تحرر ولا احتياط من القتل! بل كان المرح يصل إلى أقصاه، وترتفع الحناجر بالهتاف والأكف بالتصفيق وتنطلق الضحكات السعيدة العميقة الخالصة حين يقضى أحد المتبارزين على زميله قضاء كاملا، فيلقيه طريحا على الأرض فاقد الحياة!

ذلك كان الرقيق فى العالم الرومانى، ولا نحتاج أن نقول شيئا عن الوضع القانونى للرقيق عندئذ وعن حق السيد المطلق في قتله وتعذيبه واستغلاله، دون أن يكون له حق الشكوى، ودون أن تكون هناك جهة تنظر فى هذه الشكوى أو تعترف بها، فذلك لغو بعد كل الذى سردناه!

ولم تكن معاملة الرقيق في فارس والهند وغيرها تختلف كثيرا عما ذكرنا، من حيث إهدار إنسانية الرقيق إهدارا كاملا، وتحميله بأثقل الواجبات، دون إعطائه حقا مقابلها، وإن كانت تختلف فيما بينها قليلا أو كثيرا في مدى قسوتها وبشاعتها!

ثورة حكيمة منظمة:

وعلي هذه الحالة كان العالم كله يوم مبعث الدعوة الإسلامية، ليس فيه من يستنرب هذه الحالة أو من يشعر بحاجة إلي تعديل فيها، حيث يكثر الأرقاء أو يقلون! بل كانت هناك شرائع في الشرق والغرب والشمال والجنوب فتحت باب الرق على مصراعيه، وكان جزاء، القاتل أن يكون عبدا لولى الدم! وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه [1] ! وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقا لرب المال! ومصداقه في قصة يوسف عليه السلام:

﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [2] .

وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من

---

(١) دراسات إسلامية: ٣٨ بتصرف.
(٢) يوسف: ٧٥.

شاء، وأن يبيع من شاء وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر! إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته!

هكذا كانت أوضاع المجتمع الإنساني قبل ظهور محمد خاتم النبيين وقدوة المصلحين ﷺ.

فماذا صنع محمد ﷺ حين جاء بالإسلام؟

إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها.. ولكنها ثورة حكيمة منظمة، كثورته على الخمر، وثورته على الربا وثورته على سائر النظم الفاسدة المزمنة، والرذائل الموروثة المتمكنة!

لقد كانت سوق الرق مقبرة مفتحة المداخل، موصدة المخارج، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة!

والإسلام ـ وهو الدين القيم ـ نزل لتهذيب البشر فى حدود فطرتهم [1] وطبيعتهم البشرية، والارتفاع بهم ـ دون كبت ولاقهر ـ إلى أقصى ما يستطيعونه من ارتفاع. وقد وصل إلى حد الإعجاز في ذلك من حيث النوع والكم إلى ما لم يصل إليه نظام آخر في التاريخ. ولكنه مع ذلك كله لم يكن مكلفا أن يحول جموع الناس إلى هذا المستوى النادر. ولو أراد الله ذلك لخلق الناس منذ البدء ملائكة، وكلفهم تكاليف الملائكة:

﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [2].

ولكنه، وقد خلقهم بشرا، يعرف طاقاتهم، والمدى اللازم لإنضاجهم، ويكفى الإسلام على أى حال أن يكون هو الذى بدأ حركة التحرير في العالم، قبل أن تفيىء إليها البلاد التى لم تعتنق الإسلام بعدة قرون، وأنه في الواقع قد جفف منابع الرق القديمة كلها فى الجزيرة العربية، وكان جديرا أن يلغيه بالنسبة للمستقبل في العالم الإسلامى، لولا منبع جديد ظل يفيض بالرق في كل مكان، ولم يكن فى وسع الإسلام يومئذ القضاء عليه، لأنه لا يتعلق به وحده، وإنما يتعلق بأعدائه الذين ليس له عليهم سلطان، ذلك هو رق الحرب الذى نحن بصدد الحديث عنه.

---

(١) شبهات حول الإسلام: ٤٥ بتصرف.

(٢) التحريم : ٦ .

الكيان النفسى وعلاجه :

ويجب أن نذكر أن الحرية لا تمنح، وإنما تؤخذ. وتحرير الرقيق بإصدار مرسوم لم يكن ليحرر الرقيق!

والتجربة الأمريكية في تحرير الرقيق بجرة قلم علي يد «إبراهام لنكولن» خير شاهد لما نقول، فالعبيد الذين حررهم «لنكولن ـ من الخارج ـ بالتشريع ، لم يطيقوا الحرية، وعادوا إلى سادتهم يرجونهم أن يقبلوهم عبيدا لديهم كما كانوا، لأنهم ـ من الداخل ـ لم يكونوا قد تحرروا بعد ».

والمسألة على غرابتها ليست غريبة حين ينظر إليها على ضوء الحقائق النفسية. فالحياة عادة. والملابسات التى يعيش فيها الإنسان هى التي تكيف مشاعره، وتصوغ أحاسيسه، وأجهزته النفسية ـ على الرغم من أن دعاة المذهب المادى يقولون: إن الملابسات الخارجية هى التى «تخلق» المشاعر! ونحن لا نؤمن بذلك؛ لأن فيه مغالطة صارخة. فهناك رصيد نفسى سابق فى وجوده لهذه الملابسات والملابسات «تكيف» هذا الرصيد ، لكنها لا تخلقه من العدم ـ والكيان النفسى للعبد يختلف عن الكيان النفسى للحر، لا لأنه جنس آخر كما ظن القدماء ولكن لأن حياته فى ظل العبودية الدائمة جعلت أجهزته النفسية تتكيف بهذه الملابسات، فتنمو أجهزة الطاعة إلى أقصى حد، وتضمر أجهزة المسئولية واحتمال التبعات إلى أقصى حد..

فالعبد يحسن القيام بكثير من الأمور حين يأمره بها سيده، فلا يكون عليه إلا الطاعة والتنفيذ. ولكنه لايحسن شيئا تقع مسؤليته على نفسه، ولو كان أبسط الأشياء، لا لأن جسمه يعجز عن القيام بها، ولا لأن فكره ـ فى جميع الأحوال ـ يعجز عن فهمها، ولكن لأن نفسه لا تطيق احتمال تبعاتها، فيتخيل فيها أخطارا موهومة، ومشكلات لا حل لها، فيفر منها إبقاء على نفسه من الأخطار!

ولعل الذين ينعمون النظر فى الحياة الشرقية فى العهود الأخيرة يدركون أثر هذه العبودية الخفية التى وضعها الاستعمار الخبيث في نفوس الشرقيين ليستعبدهم للغرب، يدركونها فى المشروعات المعطلة التى لا يعطلها ـ فى كثير من الأحيان ـ إلا الجبن عن مواجهة نتائجها! والمشروعات المدروسة التى لا تنفذها الحكومات، حتى تستقدم خبيرا إنجليزيا أو أمريكيا ... إلخ ، ليحتمل عنها مسئولية المشروع ، ويصدر الإذن بالتنفيذ!

والشلل المروع الذى يخيم على المواطنين فى الدواوين ويقيد إنتاجهم بالروتين المتحجر، لأن أحدا من الموظفين لا يستطيع أن يصنع إلا ما يأمره به «السيد» الموظف الكبير، وهذا بدوره لا يملك إلا إطاعة «السيد» الوزير لا لأن هؤلاء جميعا يعجزون عن العمل ولكن لأن جهاز التبعات عندهم معطل، وجهاز الطاعة عندهم متضخم، فهم أشبه بالعبيد، وإن كانوا رسميا من الأحرار!

هذا التكيف النفسى للعبد هو الذى يستعبده.. وهو ناشئ فى أصله من الملابسات الخارجية بطبيعة الحال، ولكنه يستقل عنها، ويصبح شيئا قائما بذاته كفرع الشجرة الذى يتدلى إلى الأرض ثم يمد جذورا خاصة به ويستقل عن الأصل. وهذا التكيف النفسى لايذهب به إعلان تصدره الدولة بإغلاق الرق، بل ينبغى أن يغير من الداخل، بوضع ملابسات جديدة تكيف المشاعر على نحو آخر، وتنمى الأجهزة الضامرة فى نفس العبد، وتصنع كيانا بشريا سويا من كيانه المشوه الممسوخ!

وذلك ماصنعه الإسلام.

أخوة كريمـــة :

إن هذا الدين يتعامل مع الإنسان في حدود فطرته، وفي حدود طاقته، وفي حدود واقعه، وفي حدود حاجاته الحقيقية.. وقد جاء ليرد لهؤلاء البشر إنسانيتهم [1] ... جاء ليقول للسادة عن الرقيق:

﴿ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ ﴾ [2].

وذلك فى بيان أن العلاقة بين السادة والرقيق ليست علاقة الاستعلاء والاستعباد، أو التسخير أو التحقير، وإنماهى علاقة القربى والأخوة . فالسادة «أهل» الجارية يستأذنون فى زواجها :

﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ [3]

جاء ليأمر السادة أمرا أن يحسنوا معاملتهم للرقيق:

---

(١) المرجع السابق: ٣٧ بتصرف.
(٢) النساء: ٢٥.
(٣) النساء : ٢٥.

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[1].

ومن ثم لن يعد الرقيق «شيئا»! وإنما صار بشراً له روح كروح السادة، وقد كانت الأمم الأخرى كلها تعتبر الرقيق جنسا آخر غير جنس السادة، خلق ليستعبد ويستذل، ومن هنا لم تكن ضمائرهم تتأثم من قتله وتعذيبه وكيه بالنار، وتسخيره فى الأعمال القذرة والأعمال الشاقة ـ كما عرفنا ـ ومن هنالك رفعه الإسلام إلى مستوى الأخوة الكريمة،لا في عالم المثل والأحلام فحسب، بل فى عالم الواقع كذلك. ويشهد التاريخ ـ الذى لم ينكره أحد ـ حتى الصليبيون المتعصبون من أهل أوربا ـ بأن معاملة الرقيق فى صدر الإسلام بلغت حدا من الإنسانية لم تبلغه فى أى مكان آخر حدا جعل الرقيق المحررين يأبون مغادرة سادتهم السابقين ـ مع أنهم يملكون ذلك بعد أن تحرروا اقتصاديا، وتعودوا علي تحمل تبعات أنفسهم ـ لأنهم يعتبرونهم أهلا لهم، يربطهم ما يشبه رابطة الدم! بل أقوى!

وأصبح الرقيق كائنا إنسانيا له كرامة يحميها القانون، ولا يجوز الاعتداء عليها بالقول ولا بالفعل.

ولا شيء كحسن المعاملة يعيد توازن النفس المنحرفة، ويرد إليها اعتبارها، فتشعر بكيانها الإنسانى، وكرامتها الذاتية، وحين ذلك تحسن طعم الحرية فتتذوقه، ولاتنفر منه، كما نفر عبيد أمريكا المحررون، الذين لم يطيقوا الحرية!

وقد وصل الإسلام فى حسن المعاملة ورد الاعتبار الإنسانى للرقيق إلى درجة عجيبة، فلم يكتف بالنية الطيبة كما فعل «لنكولن» حين أصدر تشريعا لارصيد له فى داخل النفوس، مما يثبت عمق إدراك الإسلام للطبيعة البشرية، وفطنته إلى خير الوسائل لمعالجتها. وهذا إلى جانب تطوعه بإعطاء الحقوق لأصحابها، مع تربيتهم علي التمسك بها واحتمال تبعاتها ـ على أساس الحب والمودة بين جميع طوائف المجتمع ـ قبل أن يتصارعوا من أجل هذه الحقوق، كما حدث في أوربا، ذلك الصراع البغيض الذى يجفف المشاعر، ويورث

---

(١) النساء: ٣٦.

الأحقاد. فيفسد كل ما يمكن أن تصيبه البشرية من الخير في أثناء الطريق.

ثلاثة أجهزة:

وإن نظرة إلى السبيل الذى أعده نبى الإسلام لإنقاذ الإنسانية المحترقة المتآكلة ترينا أنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة: (١)

- نطاق من الحواجز ضربه حول النار، حتى لا يندلع لهيبها إلى خارجها .
- ومفاتيح فتح بها أبواب الدار، لينطلق منها كل من استطاع النجاة .
- وميازيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار، لتكون النار عليهم بردا وسلاما.. ريثما يتيسر لهم الخروج منها .

وسأفسر لك ذلك:

فأما النطاق الذى ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة، فذلك هو الدواء الواقى الذى أوقف به سير الداء، حتى لا تسرى عداوة إلى غير المصابين.

ذلك هو القانون الذى منع به استرقاق الأحرار وأمّنهم منه، بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب.. فاليوم لا الخطف والسلب، ولا البيع والشراء، ولا التغلب فى المشاجرات والغارات، ولا تحكم رب الأسرة، ولا العجز عن وفاء الدين، ولا السرقة ولا القتل.. لم يعد شيء من هذا كله، منذ ظهر الإسلام، يصلح مبررا لاستعباد الإنسان .

ولم يكتف الإسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء إلا فى حالة الاضطرار، وخشية العنت، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام قبل أن يبدأ بالعلاج الشافى من الرق القاتل بالفعل، أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء.

أسرى المحاربين:

غير أن ها هنا شبهة تجول في الخواطر، وهى موضوع حديثنا، ونرى من الأمانة

---

(١) دراسات إسلامية: ٣٨ بتصرف.

العلمية أن نعرضها، وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها.

أما الشبهة فهى أن الإسلام وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشرنا إليها، والتى كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد ، إلا أنه قد ترك بجانب هذه الأبواب منفذا صغيرا لم يغلقه ذلك هو حال الحرب الإسلامية المشروعة، وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام.

وقد كان العرف السائد يومئذ (١) هو استرقاق أسرى الحرب أو قتلهم.. وجاء فى الموسوعة التاريخية المسماة «تاريخ العالم» ما ترجمته: وفي سنة ٥٩٩ رفض الإمبراطور الروماني «موريس» ــ بسبب رغبته فى الإقتصاد ــ أن يفتدى بضع ألوف من الأسرى وقعوا فى يد الآوار «فقتلهم» « خان الآوار » عن بكرة أبيهم!

وكان هذا العرف قديما جدا، موغلا فى ظلمات التاريخ، يكاد يرجع إلى الإنسان الأول، ولكنه ظل ملازما للإنسانية فى شتى أطوارها!

وجاء الإسلام والناس على هذا الحال، ووقعتْ بينه وبين أعدائه الحروب، فكان الأسرى المسلمون يسترقون عند أعداء الإسلام، فتسلب حرياتهم، ويعامل الرجال منهم بالعسف والظلم الذى كان يجرى يومئذ على الرقيق! وتنتهك أعراض النساء لكل طالب يشترك فى المرأة الواحدة الرجل وأولاده وأصدقائه من يبغى الاستمتاع منهم، بلا ضابط ولانظام، ولا احترام لإنسانية أولئك النساء أبكارا كن أم غير أبكار! أما الأطفال ــ إن وقعوا أسرى ــ فكانوا ينشأون فى ذل العبودية البغيض!

معاملة بالمثل :

عندئذ لم يكن في وسع الإسلام أن يطلق ــ ابتداء ــ سراح من يقع في يده من أسرى الأعداء.. فليس من حسن السياسة أن تشجع عدوك عليك بإطلاق أسراه، بينما أهلك وعشيرتك وأتباع دينك يسامون الخسف والعذاب عند هؤلاء الأعداء. والمعاملة بالمثل هنا هى أعدل قانون تستطيع استخدامه، أو هى القانون الوحيد.

وإذن فقد كانت ضرورة لا فكاك للإسلام منها، مادام العدو مصرا على استرقاق الأسرى، والإسلام لاسلطان له عليه.. ضرورة تظل قائمة حتى يتفق العالم على مبدأ آخر

---

(١) شبهات حول الإسلام : ٥٠ بتصرف.

في معاملة هؤلاء الأسرى غير مبدأ الاسترقاق.

أهـداف الحـرب:

ومع ذلك فينبغي أن نلاحظ فروقا عميقة بين الإسلام وغيره من النظم فى شأن الحرب وأسرى الحرب.

كانت الحروب ـ وما تزال ـ في غير العالم الإسلامى لا يقصد بها إلا الغزو والفتك والاستعباد! كانت تقوم على رغبة أمة فى قهر غيرها من الأمم، وتوسيع رقعتها على حسابها، أو لاستغلال مواردها وحرمان أهلها منها، أو لشهوة شخصية تقوم فى نفس ملك أو قائد حربى، ليرضى غروره الشخصى وينتفش كبرا وخيلاء، أو لشهوة الانتقام.. أو ما إلى ذلك من الأهداف الأرضية الهابطة!

وكان الأسرى الذين يسترقون، لايسترقون لخلاف في عقيدة، ولا لأنهم في مستواهم الخلقى أو النفسى أو الفكرى أقل من آسريهم، ولكن فقط لأنهم غلبوا فى الحرب.

وكذلك لم تكن لهذه الحرب تقاليد تمنع من هتك الأعراض أو تخريب المدن المسالمة، أو قتل النساء والأطفال والشيوخ، وذلك منطقى مع قيامها لغير عقيدة ولا مبدأ ولاهدف رفيع.

فلما جاء الإسلام أبطل ذلك كله، وحرم الحروب كلها، إلا أن تكون جهادا فى سبيل الله.. جهادا لدفع اعتداء عن المسلمين.. أو لتحطيم القوى الباغية التي تفتن الناس عن دينهم بالقهر والعنف.. أو لإزالة القوى الضالة التى تقف في سبيل الدعوة وإبلاغها للناس ليروا الحق ويسمعوه:

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (1)

﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ ﴾ (2).

فهى دعوة سلمية لا تكره أحد:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ (3).

---

(1) البقرة: ١٩٠ (2) الأنفال: ٣٩. (3) البقرة: ٢٥٦

وبقاء اليهود والمسيحيين في العالم الإسلامى علي دينهم حتى اللحظة برهان قاطع لا يقبل الجدل ولا المماحكة، يثبت أن الإسلام لم يكره غيره علي اعتناقه بقوة السيف [١].

فإذا قبل الناس الإسلام، واهتدوا إلي دين الحق، فلا حرب ولاخصومة، ولا خضوع من أمة لأمة ولا تمييز بين مسلم ومسلم على وجه الأرض، ولا فضل لعربى على عجمى إلابالتقوى.

فمن أبى الإسلام وأراد أن يحتفظ بعقيدته في ظل النظام الإسلامى.. فله ذلك دون إكراه ولا ضغط، على أن يدفع الجزية مقابل حماية الإسلام له، بحيث تسقط الجزية أو ترد إن عجز المسلمون عن حمايته [٢]. فإذا أبوا الإسلام والجزية فهم إذن معاندون متبجحون، لا يريدون للدعوة السلمية أن تأخذ طريقها، وإنما يريدون أن يقفوا بالقوة المادية في طريق النور الجديد يحجبونه عن عيون قوم، ربما اهتدوا لو خلى بينهم وبين النور.

عندئذ فقط يقوم القتال، ولكنه لا يقوم بغير إنذار وإعلان، لإعطاء فرصة أخيرة لحقن الدماء، ونشر السلم في ربوع الأرض:

﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [٣].

تلك هى الحرب الإسلامية، لا تقوم على شهوةالفتح، ولارغبة الاستغلال، ولا دخل فيها لغرور قائد حربى أو ملك مستبد، فهي حرب في سبيل الله وفي سبيل هداية البشرية. حين تخفق الوسائل السلمية كلها في هداية الناس.

ولها مع ذلك تقاليد عامة ـ كما سبق تفصيل القول في ذلك ـ وهنا نذكر قول الرسول ﷺ فيما رواه مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية، أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال:

«اغزوا باسم الله. في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا. ولا تغدروا ولاتمثلوا ولا تقتلوا وليدا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم

---

(١) شهد بذلك مسيحى أوربى هو السير.و. أرنولد في كتابه «الدعوة إلى الإسلام».

(٢) انظر ماورد في المرجع السابق: ٥٨ .

(٣) الأنفال: ٦١

ادعهم إلى الإسلام. فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين. وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك ، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . فإن أبَوْا أن يتحوّلوا منها ، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين . ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء . إلا أن يجاهدوا مع المسلمين،. فإن هم أبوا فسلهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه . فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه. ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك. فإنكم إن تُخْفِرُوا ذممكم وذمم أصحابكم، أهون من أن تُخْفِرُوا ذمة الله وذمة رسوله. وإذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله. ولكن أنزلهم على حكمك . فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا » (١) .

فلا قتل لغير المحارب الذى يقف بالسلاح يقاتل المسلمين، ولا تخريب ولاتدمير، ولا هتك للأعراض، ولا إطلاق لشهوة الشر والإفساد:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

وقد راعى المسلمون تقاليدهم النبيلة هذه فى كل حروبهم ، حتى فى الحروب الصليبية الغادرة ، حين انتصروا على عدوهم الذى كان في جولة سابقة قد انتهك الحرمات، واعتدى على المسجد الأقصى فهاجم المحتمين فيه بحمى الله ــ رب الجميع ــ وأسال دماءهم فيه أنهارا، فلم ينتقموا لأنفسهم حين جاءهم النصر، وهم يملكون الإذن من الدين بالمعاملة بالمثل:

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (٣) .

ولكنهم ضربوا المثل الأعلى الذى يعجز عنه غير المسلمين فى كل الأرض، حتى العصر الحديث.

---

(١) مسلم: ٣٢ ــ الجهاد ٣ (ت ١٧٣١)، وراه أبو داود (٢٥٩٥) عون المعبود، والترمذى(١٦١٧) وابن ماجة (٢٨٥٨) والدارمى : ٢: ٢١٦ ــ ٢١٧، وأحمد : ٥: ٣٥٨.

(٢) القصص : ٧٧.

(٣) البقرة: ١٩٤.

ذلك فارق أساسي في أهداف الحرب وتقاليدها بين المسلمين وغير المسلمين. وقد كان الإسلام يملك لو أراد ـ والحق يسنده فى ذلك ـ أن يعتبر من يقع في يده من الأسرى ـ ممن وقفوا بالقوة المسلحة يعاندون الهدى ، ويصرون على وثنيتهم الهابطة وشركهم المخرف ـ قوما ناقصى الآدمية، ويسترقهم بهذا المعنى وحده فما يصر بشرا على هذه الخرافة ـ بعد إذ يرى النور ـ إلا أن يكون فى نفسه هبوط، أو في عقله انحراف، فهو ناقص فى كيانه البشرى ، غير جدير بكرامة الآدميين ، وحرية الأحرار من بنى الإنسان !

ومع ذلك فلم يلجأ الإسلام إلى هذا الطريق، ولم يسترق الأسرى لمجرد اعتبار أنهم ناقصون فى آدميتهم. وإنما لجأ إلى المعاملة بالمثل فحسب ـ كما أسلفنا ـ فعلق استرقاقه للأسرى على اتفاق الدول المتحاربة على مبدأ آخر غير الاسترقاق، ليضمن فقط ألا يقع أسرى المسلمين في ذل الرق بغير مقابل.

حكم الضرورة :

وهنا يرد سؤال: أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين في هذه الحال أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث:

ـ إما بإطلاق سراحهم.

ـ وإما باسترقاقهم.

ـ وإما بقتلهم.

والجواب [١] أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثلاث. فالواقع أنها فى نظر الإسلام، ليست سواء فى المشروعية. فنحن إذا نظرنا فى نصوص القرآن الكريم، لم نجد فيه أثرا لقتل الأسير ولا استرقاقه، وإنما نجد فيه مصيرا واحدا كريما، وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل:

﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [٢].

---

(١) دراسات إسلامية: ٤٠ بتصرف.، والمسئولية الاجتماعية فى الإسلام: ٢١١.

(٢) محمد: ٤.

كما أننا إذا تتبعنا سنة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لم نجد فيها أنه أذن قط بقتل الأسير إلا في حالة شاذة نادرة، كان الأسير فيها معروفا بخطورته وشدة نكايته بالمسلمين، فهو ليس قاعدة عامة، وإنما هو استثناء يطبق على الشاذين الخطرين!

وهذا هو ما يعرف فى لغة العصر باسم عقوبة مجرمى الحرب (١).

بقى الاسترقاق.. وواضح أنه يلى القتل في القسوة والشناعة، وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل، كما أن الحرية فى نظره شقيقة الحياة، ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة؟

إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة ، فإن رفع الرقيق إلى مستوى الحرية يعد. إدراجا له فى زمرة الأحياء.. بعد أن كان محسوبا فى عداد الأموات.

وهكذا يتبين لنا أنه ليس فى روح التشريع الإسلامى ولا في نصوصه مايشجع المسلمين على استرقاق أسراهم، أو يجعله فى نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية، فإن لجأ الإسلام يوما إلى استرقاق الأسير فإنما يكون ذلك نزولا على حكم الضرورة، اتقاء لخطره ، وكسرا لشوكته وشوكة قومه.

إجـــراء مؤقـت :

على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائى.. وإنما يأخذه إجراء مؤقتا، وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذى يرضاه، ويلح فى المطالبة بتحقيقه.. ألا وهو التحرر الكامل .

وســـائل مكافحـــة الرق :

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الشطر الثانى من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق، وأعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية .

ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب كان هو مفتاح القلوب.. فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل، قال تعالى:

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ ﴾ (١).

هذه هى العقبة (٢) التى تقف بين الإنسان وبين الجنة، ولو تخطاها لوصل! وتصويرها

---

(١) انظر : نفحات رمضان وأثرها فى تكوين الشخصية الإسلامية : ٢٠٥ وما بعدها . (٢) البلد: ١١ ــ ١٣ .

كذلك حافز قوى، واستجاشة للقلب البشرى وتحريك له ليقتحم العقبة، وقد وضحت ووضح معها أنها الحائل بينه وبين هذا المكسب الضخم :

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾

ففيه تخصيص ودفع وترغيب!

ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم:

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾

إنه ليس تضخيم العقبة، ولكنه تعظيم شأنها عند الله، ليحفز به «الإنسان» إلى اقتحامها وتخطيها ، مهما يتطلب ذلك من جهد ومن كبد. فالكبد واقع واقع . وحين يبذل لا قتحام العقبة يؤتى ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده، ولايذهب ضياعا، وهو واقع واقع على كل حال !

ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذى كانت البيئة الخاصة التى تواجهها الدعوة فى أمس الحاجة إليه : فك الرقاب العانية.. وقد ورد أن فك الرقبة هو المشاركة فى عتقها، وأن العتق هو الإستقلال بهذا.. وأيا ما كان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة.

وقد نزل هذا النص والإسلام فى مكة محاصر، وليست له دولة تقوم على شريعته.

ويذكر التاريخ أن عددا ضخما من الأرقاء قد حرر بطريق العتق ، [١] وأن هذا العدد الضخم لا مثيل له فى تاريخ الأمم الكبرى، لاقبل الإسلام ، ولا بعده بقرون عدة، حتى مطلع العصرالحديث. كما أن عوامل عتقهم كانت إنسانية بحتة، تنبع من ضمائر الناس ابتغاء مرضاة الله، ولاشيء غير مرضاة الله.

مفتاح آخر هو مفتاح خزائن الدولة [٢] إذ جعل فيها سهما مقررا في كل عام لا فتداء الأسرى وتحرير المستعبدين:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [٣].

وبهذا وذاك يكون الإسلام قدخطا خطوات فعلية واسعة في سبيل تحرير الرقيق [٤].

---

(١) فى ظلال القرآن: ٦ : ٣٩١١ بتصرف. (٢) شبهات حول الإسلام : ٤١ .

(٣) دراسات إسلامية: ٤١ ، والمسئولية الاجتماعية فى الإسلام: ٢١٢ بتصرف .

(٤) التوبة : ٦٠ .

وسبق بها التطور التاريخى كله بسبعة قرون على الأقل، وزاد على هذا التطور عناصر ـ كرعاية الدولة ـ لم يفئ إليها العالم إلا في مطلع تاريخه الحديث. وعناصر أخرى لم يفئ إليها أبدا، سواء فى حسن معاملة الرقيق، أو في عتقه تطوعا ـ كما أسلفنا ـ بغير ضغط من التطورات الاقتصادية أو السياسية التى اضطرت الغرب اضطرار لتحرير الرقيق كما تقول الحضارة الزائفة!

وبهذا تسقط حذلقة الشيوعيين ودعاواهم «العلمية» الزائفة التى تزعم أن الإسلام حلقة من حلقات التطور الاقتصادى جاءت فى موعدها الطبيعى حسب سنة المادية الجدلية ـ فها قد سبقت موعدها بسبعة قرون ـ والتى تزعم أن كل نظام ـ بما فى ذلك الإسلام ـ إن هو إلا انعكاس للتطور الاقتصادى القائم وقت ظهوره، وأن كل عقائده وأفكاره تلائم هذا التطور وتستجيب له ولكنها لا تسبقه ، ولا تستطيع أن تسبقه، كما قرر العقل المزعوم! عقل « ماركس »! فها هو الإسلام لم يعمل بوحى النظم الاقتصادية القائمة حيئذ فى جزيرة العرب وفى العالم كله، لا فى شأن الرقيق، ولا فى غيره وإنما كان ينشئ نظمه تطوعا وإنشاء على نحو غير مسبوق، ولا يزال فى كثير من أبوابه متفردا فى التاريخ .

ومفتاح ثالث [٢] ، وهو مفتاح قانون الكفارات ، وهو القانون الذي يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا، كالحنث في اليمين، والفطر فى رمضان والقتل الخطأ، وغير ذلك.

ومن أهم هذه الأنواع: كفارة الإساءة التى تقع من السيد في حق المملوك نفسه، وفي ذلك يقول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فيما رواه مسلم وغيره عن ابن عمر رضى الله عنهما :

«من لطم مملوكه، أو ضربه، فكفارته أن يعتقه» [٣].

وفي رواية عن ابن مسعود الأنصارى رضى الله عنه قال: كنت أضرب غلاما لى، فسمعت من خلفي صوتا:

« اعلم ، أبا مسعود ! لله أقدر عليك منك عليه» .

فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ. فقلت: يارسول الله! هو حر لوجه الله. فقال:

---

(١) شبهات حول الإسلام: ٤٢ بتصرف .

(٢) دراسات إسلامية : ٤١، والمسئولية الاجتماعية فى الإسلام: ٢١٣ بتصرف.

(٣)مسلم: ٢٧ ـ الأيمان ٢٩ (١٦٥٧) ، وأحمد: ٢: ٢٥، ٤٥، ٦١، أبو داود (٥١٦٨).

«أما لو لم تفعل، للفحتك النار، أو لمستك النار» [1]

هذا جزاء اللطمة أوالضربة أما الجرح أو تشويه الجسم، فإن حكمه عند أكثر الأئمة أنه يصير العبد حرا بمجرد إصابته، فينزع من ملك السيد قهرا عنه. وكذلك إذا كلفه سيده أعمال فوق طاقته وتكرر منه ذلك.

وهكذا يقودنا الحديث إلي الشطر الثالث والأخير من العلاج الإسلامى الرحيم.

لقد رأينا أبوابا فتحت أمام الحرية.. أشرنا إلى بعضها: وغيرها كثيرا مثل عتق الأصل إذا ملكه الفرع، ومثل المكاتبة، والتدبير، والاستيلاد ...

ورأينا أبوابا أغلقت دون الرق..

وبين هذين الطرفين ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج، ولكنهم لم يصلوا إليه بعد..

إنهم هنالك ينتظرون دورهم فى استنشاق هواء الحرية المطلق، فهل صنع الإسلام شيئا لهذه الفئة في فترة الانتظار؟

نعم، لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية وأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم فى هذه الفترة يحيون حياة الإنسان، ولا يشعرون بتلك الفوراق الظالمة بين الطبقات، ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادمهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم.

هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما عن المعرور قال: لقيت أبا ذر بالربذة ، وعليه حلة، وعلى غلامه حله فسألته عن ذلك فقال: إنى سابت رجلا فعيرته بأمه، فقال لى النبى ﷺ :

« يا أبا ذر! أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية. إخوانكم خولكم [2] **، جعلهم الله تحت أيديكم. فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه**

---

(١) مسلم : ٢٧ ـ الأيمان ٣٥ (ت١٦٥٩) ، وأبو داود (٥١٥٩، ٥١٦٠) ،الترمذى (١٩٤٨).

(٢) الخَول ـ بفتح المعجمة والواو ـ : هم الخدم، سموا بذلك لأنهم يتخولون الأمور. أى يصلحونها، ومنه الخولى لمن يقوم بإصلاح البستان ويقال: الخول جمع خائل، وهو الراعى ، وقيل: التخويل التمليك، تقول: خولك الله كذا، أى ملكك إياه فتح البارى : ٥: ١٧٤، وانظر المعجم الوسيط (خول).

مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » [١] .

يقول المبعوث رحمة للعالمين فيما يرويه مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«لا يقولن أحدكم : عبدى وأمتي . كلكم عبيد الله . وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامي وجاريتي، وفتاى وفتاتي» [٢].

فهل من منصف يقولها معي:

أما والله! لهؤلاء فى ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار فى كل نظام!

صورتان متقابلتان :

تلك هي - كما عرفنا - قصة الرق في الإسلام: [٣] صفحة مشرقة في تاريخ البشرية. فالإسلام لم يوافق على الرق من حيث المبدأ، بدليل أنه سعى إلى تحريره بشتى الوسائل، وجفف منابعه لكى لا يتجدد. وإنما كانت هناك ضرورة لا يملك الإسلام الخلاص منها، لأنها لا تتعلق به وحده، وإنما تتعلق بدول وأقوام لا سلطان للإسلام عليهم، يسترقون الأسرى المسلمين، ويسومونهم سوء العذاب، فلا بد من معاملتهم بالمثل فى مبدأ الاسترقاق على الأقل، وإن لم يكن فى طريقة معاملة الرقيق .

وحين تأتى اللحظة المواتية التى تزول فيها تلك الضرورة فإن الإسلام يرجع إلى قاعدته العظمى التى قررها بصراحة كاملة لا مواربة فيها، وهى: الحرية للجميع والمساواة للجميع.

أما ما حدث فى بعض العهود الإسلامية من الرق فى غير أسرى الحروب الدينية، ومن نخاسة واختطاف وشراء لأناس لا يجوز استرقاقهم أصلا، فإن نسبته إلى الإسلام ليست أصدق ولا أعدل من نسبة كثيرين من المسلمين اليوم إلى الإسلام بما يرتكبونه من موبقات

---

(١) البخـارى : ٢ ـ الإيمان (٣٠) ، مسلم : ٢٧ الأيمان ٣٨ ـ ٤٠ (١٦٦١) ، وأبو داود (٥١٥٧، ٥١٥٨ ، ٥١٦١)، وانظر: العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة: ٢٢٤ وما بعدها.

(٢) مسلم : ٤٠ ـ الألفاظ ١٣ (٢٢٤٩) ، وانظر: أحمد : ٢ : ٤٢٣ ، ٤٤٤ ، ٤٦٣ ، ٤٨٤ ، ٤٩١ ، ٤٩٦ ، ٥٠٨ ، البخـارى : ٤٩ ـ العتق (٢٥٥٢) ، والأدب المفرد (٢٠٩ ، ٢١٠) ، وعون المعبود (٤٩٥٤ ، ٤٩٥٥) .

(٣) شبهات حول الإسلام: ٥٦ وما بعدها بتصرف.

وآثام وينبغي أن ننتهى من هذا الحديث إلى عدة أمور:

الأول: هو تعدد منابع الرق عند الدول الأخرى بغير ضرورة ملجئة، سوى شهوة الاستعباد، من استرقاق أمة لأمة، وجنس لجنس، واسترقاق للفقر، واسترقاق بالوراثة من الميلاد فى طبقةٍ معينة، واسترقاق بسبب العمل فى الأرض.. إلخ، وإلغاء هذه المنابع كلها فى الإسلام، فيما عدا المنبع الوحيد الذى لم يكن يملك أمره ـ كما سبق ـ وإنما كان خاضعا فيه للضرورة، وريثما تنتهى هذه الضرورة.

والثانى: أن أوربا مع تعدد موارد الرق فيها بغير ضرورة لم تلغ الرق حين ألغته متطوعة، وكتابهم يعترفون بأن الرق ألغى حين ضعف إنتاج الرقيق، لسوء أحوالهم المعيشية، وفقدان الرغبة أو القدرة على العمل، بحيث أصبحت تكاليف العبد من إعاشة وحراسة أكثر من إنتاجه ! فهى إذن حسبة اقتصادية لاغير ، يحسب فيها المكسب والخسارة ، ولاظل فيها لأى معنى من المعانى الإنسانية التى تشعر بكرامة الجنس البشرى، فتمنح الرقيق حريته من أجلها! هذا بالإضافة إلى الثورات المتتابعة التى قام بها الرقيق فاستحال معها دوام استرقاقه!

ومع ذلك فإن أوربا حينئذ لم تمنح هؤلاء الحرية، ولكنهاحولت القضية من رقيق للسيد إلى رقيق للأرض، يباع معها ويشترى، ويخدم فيها، ولايجوز له أن يغادرها، وإلا اعتبر آبقا وأعيد إليها بقوة القانون مكبلا بالسلاسل مكويا بالنار! وهذا اللون من الرق هو الذى بقى حتى حرمته «الثورة الفرنسية» في القرن الثامن عشر، أى بعد أن قرر الإسلام مبدأ التحرير بما يزيد على ألف ومائة عام!

والثالث: أنه لايجوز أن تخدعنا الأسماء! فقد ألغت «الثورة الفرنسية» الرق فى أوربا وألغى « لنكولن » الرق في أمريكا، ثم اتفق العلماء على إبطال الرق.. كل ذلك من الظاهر!.. وإلا فأين هو الرق الذى ألغى؟

وما اسم ما يحدث اليوم فى كل أنحاء العالم؟!

ما اسم الذى كانت تصنعه فرنسا فى المغرب الإسلامى؟!

وما اسم الذى تصنعه أمريكا فى الزنوج، وإنجلترا فى الملونين فى جنوب أفريقيا؟!

أليس الرق فى حقيقته هو تبعية قوم لقوم آخرين، وحرمان طائفة من البشر من الحقوق المباحة للآخرين؟ أم هو شىء غير ذلك؟ وماذا يعنى أن يكون هذا تحت عنوان الرق، أو

تحت عنوان الحرية والإخاء والمساواة؟ ماذا تعنى العناوين البراقة إذا كانت الحقائق التي وراءها أخبث ما عرفته البشرية من الحقائق فى تاريخها الطويل؟!

لقد كان الإسلام صريحا مع نفسه ومع الناس فقال: هذا رق، وسببه الوحيد هو كذا، والطريق إلى التحرر منه مفتوح، والطريق إلى إلغائه كذلك موجود، ولكن فتحه مرهون باتفاق العالم على عدم استرقاق أسرى الحرب!

أما الحضارة الزائفة التى نعيش اليوم فى أحضانها ، فلا تجد فى نفسها هذه الصراحة، فهى تصرف براعتها فى تزييف الحقائق وطلاء اللافتات البراقة! فقتل مئات الألوف فى تونس والجزائر ومراكش وغير ذلك من البلاد .. لغير شىء سوى أنهم يطالبون بالحرية والكرامة الإنسانية: حريتهم فى أن يعيشوا فى بلادهم بلا دخيل، وأن يتكلموا لغتهم ويعتقدوا عقيدتهم، ولا يخدموا إلا أنفسهم.. وحريتهم فى التعامل المباشر مع العالم فى السياسة والاقتصاد.. قتل هؤلاء الأبرياء وحبسهم في السجون القذرة بلا طعام ولاماء، وانتهاك أعراضهم والسطو على نسائهم وقتلهن بلا مبرر وشق بطونهم للتراهن على نوع الجنين! هذا اسمه فى القرن العشرين حضارة ومدنية ونشر لمبادئ الحرية والإخاء والمساواة! أما المعاملة المثالية الكريمة التى منحها الإسلام للرقيق قبل ثلاثة عشر قرنا تطوعا منه، وإكراما للجنس البشرى فى جميع حالاته، مع إعلانه العملى بأن الرق وضع مؤقت وليس حالة دائمة ــ كما أسلفنا ــ فهذا اسمه تأخر وانحطاط وهمجية!

وحين يضع الأمريكان على فنادقهم ونواديهم لافتات تقول: «للبيض فقط»! أو تقول فى وقاحة كريهة: «ممنوع دخول السود والكلاب»! وحين يفتك جماعة من البيض «المتحضرين»! بواحد من الملونين، فيطرحونه أرضا ويضربونه بأحذيتهم حتى يسلم الروح، ورجل البوليس واقف لايتحرك ولايتدخل، ولايهم لنجدة أخيه فى الوطن وفى الدين واللغة.. فضلا عن الأخوة فى البشرية.. كل ذلك لأنه ــ وهو ملون ــ تجرأ فمشى إلى جانب فتاة أمريكية بيضاء لاعرض لها ــ وبإذنها لا كرها عنها ــ يكون هذا أقصى ما وصل إليه القرن العشرون من التحضر والارتفاع!

أما حين يتهدد العبد المجوسى عمر بالقتل، ويفهم عنه عمر ذلك، ثم لا يحبسه ولا ينفيه من الأرض، ولا نقول يقتله، وهو مخلوق ناقص الآدمية حقا، لأنه يعبد النار ويصر على عبادتها تعصبا منه للباطل بعد أن رأى الحق بعينيه، فما أشد موقف عمر، وما أشد ازدراءه لكرامة الجنس البشرى لأنه قال: «تهددنى العبد» ثم تركه حراً، حتى ارتكب جريمته فقتل

خليفة المسلمين، لأنه لم يكن يملك عليه سلطانا قبل أنْ يقترف الجريمة!

وقصة الملونين في أفريقيا، وحرمانهم من حقوقهم البشرية وقتلهم أو «اصطيادهم» حسب تعبير الصحافة الإنجليزية، لأنهم تجرؤوا فأحسوا بكرامتهم، وطالبوا بحريتهم!

هذا هو العدل البريطاني فى قمته، وتلك هى الحضارة الإنسانية فى أوجها! والمبادئ السامية التي تجيز لأوربا الوصاية على العالم!

أما الإسلام فهو يسترق أسرى الحرب معاملة بالمثل، لا إقراراً لمبدأ الرق! وهو متأخر جدا لأنه لم يتعلم «اصطياد» البشر والتلهى بقتلهم، لأنهم سود البشرة! وهو يقول فيما رواه البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال:

«**اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأنه رأسه زبيبة**» (١).

ويقول فيما رواه مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه قال:

«**إن خليلى أوصانى أن أسمع وأطيع وإن كان عبدا مُجدَّع الأطراف**»(٢).

وفى رواية له عن يحيى بن حصين قال: سمعت جدتى تحدث أنها سمعت النبى ﷺ يخطب في حجة الوداع. وهو يقول:

«**ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا**».

وفى رواية أخرى عنه عن جدته أم الحصين. قال: سمعتها تقول: حججت مع رسول الله ﷺ حجة الوداع. قالت: فقال رسول الله ﷺ قولا كثيرا، ثم سمعته يقول:

«**إن أُمّرّ عليكم عبد مجدَّعٌ (حسبتها قالت) أسودُ، يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا**» (٣).

أما المرأة فلها حساب آخره، لأن أسيرات الحرب فى البلاد الأخرى ينحدرن إلى حمأة الرذيلة، بحكم أنه لاعائل لهن، ولأن سادتهن لا يشعرن نحوهن بحمية العرض، فيشغلوهن فى هذه المهمة البغيضة، ويكسبون من هذه التجارة القذرة ـ تجارة الأعراض ـ والرجل الأوربى لا يريد أن يعول أحدا: لا زوجة ولا أولاداً!

---

(١) البخارى: ٩٣ ـ الأحكام (٧١٤٢)، وانظر أحمد: ٣: ١١٤، ١٧١، وابن ماجه (٢٨٦٠).

(٢) مسلم: ٣٣ ـ الإمارة ٣٦ (١٨٣٧).

(٣) مسلم: ٣٣ ـ الإمارة ٣٧ (١٨٣٨)، وانظر: الترمذى (١٧٠٦)، والنسائى: ٧: ١٥٤.

يريد أن يستمتع دون أن يتحمل تبعة! يريد جسد امرأة ولا يعنيه من تكون هذه المرأة! ولا يعنيه مشاعرها نحوه ولا مشاعره نحوها! فهو جسد ينزو كالبهيمة، وهى جسد يتلقى بلا اختيار! ويتلقاها لا من واحد بعينه، ولكن من أى عابر سبيل!

هذه هى «الضرورة» الاجتماعية التي تبيح استرقاق النساء فى الغرب فى العصر المتحضر! وما هى بضرورة لو ارتفع الرجل الأوربى إلى مستوى «الإنسانية» ولم يجعل لأنانيته كل هذا السلطان!

ومن ثم سمعنا عن الأمراض الجنسية الخطيرة التى تنشأ من تلك الدعارة!

تلك هى صورة الرق عند غير المسلمين حتى القرن العشرين.. رق الرجال والنساء والأمم والأجناس.. المتعدد المنابع المتجدد الموارد الهابط إلى أسفل سافلين!

ومن قبل عرفنا وسائل مكافحة الرق.. وعرفنا قصة الرق فى الإسلام، وإنها صفحة مشرقة فى تاريخ البشرية.. وهذا هو موقف الإسلام من الرق: [1].

١ ــ منع لإنشائه وابتدائه.

٢ ــ عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه.

٣ ــ عطف سابغ عليه فى أثناء محنته وبليته.

---

(١) دراسات إسلامية: ٤٢.

الفصل الثالث

دور اليهود في انحطاط الأخلاق

الثالوث اليهودى ـ ماركس والاقتصاد ـ فرويد وعلم النفس ـ دركايم وعلم الاجتماع ـ التطور والعداء للدين والأخلاق ـ المرأة والجنس ـ شهادة التاريخ ـ فى اليونان ـ فى الرومان ـ فى أوربا المسيحية ـ فى أوربا الجديدة ـ عوامل شيطانية ثلاثة ـ شهادة من كاتب غربى ـ جاهلية القرن العشرين ـ شباب العالم فى طريق الضياع ـ مهنة الدعارة.

الثالوث اليهودى :

وهنا أرى من الحق أن أنقل صورة مجملة عن دور اليهود الثلاثة: «ماركس وفرويد ودركايم» وفق ما يقتضيه المقام من كلام الأستاذ محمد قطب، رجاء أن ندرك دور اليهود فى انحطاط الأخلاق، ورجاء ألا تبقى هناك حجة لقائل يقول: إن الحكم الذى صدر ونفذ فى اليهود ـ رغم ما سبق ـ لا يتمشى مع روح العصر الحاضر [١]، وموقف أهله من التعاطف مع اليهود:

لقد اتخذ اليهود الثلاثة نواحى مختلفة من الفكر! فكتب « ماركس» فى الاقتصاد! و«فرويد» فى علم النفس! و«دركايم» فى علم الاجتماع ! ولكنهم فى النهاية يلتقون فى عدة أمور.

لقد أخذوا كلهم بادئ ذى بدء، من النظرية الداروينية فكرة حيوانية الإنسان وماديته، فمدوها ووسعوا نطاقها وعمموا إيحاءاتها المسمومة فى كل اتجاه!

ولسنا بصدد مناقشة هذه النظرية، فهى هابطة ساقطة، وحسبنا أن ندرك أنها ذات إيحاء قوى بحيوانية الإنسان!

يقول جوليان هكسلى فى كتابه «الإنسان فى العالم الحديث» [٢] ـ وهو من علماء الداروينية الحديثة: «وبعد نظرية داروين لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا»!

وهذا الإيحاء هو الذى مده اليهود الثلاثة ووسعوه على أوسع نطاق!

وهنا يخطر ـ من أجل الحقيقة التاريخية ـ سؤال: هل كان فى الإمكان حبس نظرية داروين فى المعمل الذى نشأت فيه، وحجزها عن التأثير فى المجتمع الغربى والفكر البشري كله؟

ربما كان هذا مستحيلا فى نظرية من هذا النوع، وفى ظروف كالتى ولدت فيها تلك النظرية الخطيرة!

ومع ذلك فلم يكن حتما أن تتجه هذا الاتجاه في التأثير، لو تلقفتها أيد أخرى!

إن الفكر الغربى الذى كان يعيش فى ظل فكرة الثبات المطلق، قد فوجئ مفاجأة

---

(١) التطور والثبات: ٣٧ وما بعدها بتصرف.

(٢) ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر.

عنيفة بفكرة التطور، فأفقدته الهزة صوابه، وصار عرضة للانحراف.. ولكن لم يكن حتما أن ينحرف.. كان يمكن أن يرتد إلى الصواب حين يجد الهداة الذين يرددونه إلى الصواب.

ولقد عرف المسلمون التطور معرفة وثيقة، وصاحبوه مصاحبة عميقة فى تاريخهم الحى كله، فلم ينحرفوا به عن سواء السبيل..

يقول «دريبر» الأمريكى في كتابه: «النزاع بين العلم والدين» :

« وإننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج هذا العصر . ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذى يعتبر مذهباحديثا، كان يدرس في مدارسهم. وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه، وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن أيضا» (١).

وينبغى الاحتراس هنا من مثل هذا القول، وإن كان يقال فى معرض إنصاف الإسلام والفكر الإسلامى. فالذى اهتدى إليه المسلمون فى تفكيرهم شىء آخر غير مذهب النشوء والارتقاء، كما قرره داروِن وولاس. لقد لاحظوا التدرج فى مراتب المخلوقات من الجوامد إلى الإنسان. ولكنهم لم يقولوا ـ كما قال داروِن ـ إن الإنسان من أصل حيوانى، ولم يبخسوه قدره، ولا نفوا عنه مزاياه التى تفرد بهاوردوا تميزه ـ ابتداء ـ إلى إرادة الحق الصريحة من خلقه هكذا متميزاً متفردا ، ليصبح خليفة فى الأرض. ومن ثم عرفوا فكرة التطور، ولكنها لم تتحول فى تفكيرهم إلى لوثة مدمرة كما حدث في الفكر الغربى!

وظلوا مع ذلك مؤمنين بإنسانية الإنسان ، ومؤمنين بالأخلاق .. ذلك أنهم يؤمنون بالله..

ويتجلى الثبات في المصادرالأصلية النصية للتشريع، (٢) من كتاب الله تبارك وتعالى، وسنة رسول الله ﷺ وتتجلى المرونة في المصادر الاجتهادية التى اختلف فقهاء الأمة فى مدى الاحتجاج بها ما بين موسع ومضيق، ومقل ومكثر، مثل الإجماع، والقياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة، وأقوال الصحابة وغير ذلك .

---

(١) الإسلام دين عام خالد : ٢٣٣.

(٢) الخصائص العامة للإسلام: ٢٠٧ وما بعدها بتصرف.

من مآخذ الاجتهاد وطرائق الاستنباط .يقول ابن القيم: الأحكام نوعان: [1].

نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها. لابحسب الأزمنه ولا الأمكنه، ولا اجتهاد الأئمة، كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم، ونحو ذلك ، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه.

والنوع الثانى: مايتغير بحسب اقتضاء المصلحة له، زمانا، ومكانا ، وحالا كمقادير التعزيرات وأجناسها، وصفاتها، فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة.

وضرب لذلك عدة أمثلة من سنة النبى ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده.. ثم قال :

وهذا باب واسع، اشتبه فيه على كثير من الناس الأحكام الثابته اللازمة التى لا تتغير بالتعزيرات التابعة للمصالح وجودا وعدماً [2].

أما اليهود الثلاثة فلم يأخذوا على عاتقهم رد أوربا إلى صوابها بعد هزة التطور، وإنما أخذوا على عاتقهم أن ينفخوا فى انحرافاتها بقوة وعنف[3] وإصرار وتمكن، حتى تزيد الهوة اتساعا وتشتد سرعة الانزلاق!

كانت نظرية «دارون» قد أعطت إيحاء بين متصاحبين:

الإيحاء بالتطور الدائم الذى يلغى فكرة الثبات!

والإيحاء بحيوانية الإنسان وماديته بإرجاعه إلى الأصل الحيواني من ناحية، وحصر القوى التى تؤثر فيه من ناحية أخرى بالقوى المادية الممثلة فى « البيئة » أو على الأكثر فى«الطبيعة» وإغفال الجانب الروحى إغفالا تاما، وإغفال تدخل الحق فى عملية الخلق أو عملية التطور سواء! يقول دارون: «إن تفسير النشوء والإرتقاء بتدخل الله، هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة فى وضع ميكانيكى بحت!

ومن هذين الإيحاءين ـ أحدهما أو كليهما ومتصلين أو منفصلين ـ أخذ اليهود الثلاثة!

---

(١) إغاثة اللهفان : ١ : ٣٣٠ وما بعدها بتصرف .

(٢) انظر : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته: ٨٤ ومابعدها ، ومنهج الفن الإسلامى :٤٨ وما بعدها، ومعركة التقاليد: ٨٤ وما بعدها ، والعمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة :١٠ وما بعدها، والفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار الغربى : ٣١١ وما بعدها، والثقافة الإسلامية: ٧٤ وما بعدها .

(٣) التطور والثبات: ٣٩ وما بعدها بتصرف.

ماركس والاقتصاد:

فأما ماركس فقد كان ميدان بحثه علم الاقتصاد، ولكنه لم يقصر بحثه على دراسات أكاديمية في علم الاقتصاد، وإنما وضع مذهبا كاملا، يتناول تصورا كاملا للحياة من زاوية معينة، يتمثل فيها الإيحاءان الداروينيان متصلين متصاحبين!

فهو قد وطد أركان التفسير المادي للتاريخ، وهو تفسير يجعل للقوى المادية السلطان الأكبر على نشاط الإنسان كله كما يجعل هذا النشاط ماديا بصفة أساسية، ومنبعثا عن الكيان الحيوانى للإنسان!

القوى المادية ــ والاقتصادية ــ هى العنصر الفعال في تاريخ البشرية:

« فى الإنتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لاغنى لهم عنها، وهى مستقلة عن إرادتهم.. فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة، ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم، بل إن وجودهم هو الذى يعين مشاعرهم » (كارل ماركس) .

« تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتى: وهو أن الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هوالأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعى. فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها فى عقول الناس، أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين ، وإنما فى التغييرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل» (فردريك انجلر).

كلام صريح لا يدارى هدفه الصريح!

فأسلوب الإنتاج فى الحياة المادية، وأسلوب الإنتاج والتبادل ــ وليس الحق و العدل الأزليان ــ هو الذى يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية فى الحياة، وإليه ترجع الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية!

وتاريخ البشرية كله هو هذا التاريخ المادى !. اختراع آلة جديدة أو تغير أساليب الإنتاج هو الذى يصنع التاريخ. و« الأطوار » التى مرت فيها البشرية من أول الشيوعية الأولى ، إلى الرق إلى الإقطاع ، إلى الرأسمالية ، إلى الشيوعية الثانية و(الأخيرة) ترجع كلها إلى اختراع الآلات وتغير أساليب الإنتاج!

والعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية ليست قيما قائمة بذاتها، أصيلة فى الكيان البشرى!

إنما هى انعكاس لأسلوب الإنتاج في الحياة المادية! أى نتيجة للكيان المادى.. فى الحياة والإنسان!

والحق والعدل الأزليان ليسا قيمة حقيقية من قيم الإنسانية!

إنما القيمة الحقيقية هى التغييرات التى تطرأ علي أسلوب الإنتاج والتبادل .. وحين نرسم دستورا للحياة البشرية، فهو محصور فى نطاق «المطالب الرئسية للإنسان» المأكل والمسكن والإشباع الجنسى (المنيفستو أو الإعلان الشيوعى).

أما الدين والأخلاق والتقاليد فهى السخرية العظمى فى نظر ماركس!

الرسالات السماعية بادئ ذى بدء وهم من أكبر أوهام البشرية! «فحقيقة العالم تنحصر فى ما يته»! (كارل ماركس)

وفى ظل التفسير المادى للتاريخ لا يوجد الله. ولا الوحى . ولا الرسالات !

والدين ثانيا ـ أفيون الشعوب ـ شيء ابتدعه الإقطاعيون لتخدير العبيد والطبقة الكادحة عن المطالبة بحقوقهم المسلوبة، وإغرائهم بالصبر على سوء أحوالهم والرضى بها طمعا فى الجنة الآخرة، مما ييسر لهؤلاء الإقطاعيين أن يستمتعوا بالثروات المغتصبة وهم آمنون!

والقيم ثالثا ـ ومن بينها القيم الخلقية ـ إنما هى مجرد انعكاس للوضع الاقتصادى، ومن ثم ليس لها وجود أصيل في الحياة البشرية، فضلا عن كونها غير ثابتة. فهي متطورة بحسب التطور الاقتصادى الذى تمر به البشرية ولما كانت الأطوار الاقتصادية للبشرية حتمية ومتعاقبة فالقيم الخلقية تأخذ أوضاعا محددة ومتطورة.. وهى حتمية التطور مع تطور أوضاع البشرية!

وإلى هنا يتضح المقصود من النظرية فى أوضح صورة وأصرحها:

أولا: لادين!

فالدين أسطورة ابتدعها أصحاب المصالح هنا في الأرض، ولا علاقة له بالسماء، ولا رصيد له من الحقيقة!

وثانيا : لا قيم ولا أخلاق!

فالقيم ليس لها وجود ذاتي إنما هي انعكاس للأوضاع الاقتصادية. وليس لها ثبات، لأن مصدرها - وهو الأوضاع الاقتصادية - دائم التغيير. ثم هي حتمية التطور، فلا يمكن الإمساك بها على وضع معين، مهما حاول المحاولون من المفكرين أو من دعاة الدين!

ولم يقل «دارون» كل ذلك ولاشيئا من ذلك!

ولا كان همه أن يقول!

ولكن هذا اليهودي الذي أخذ إيحاء نظريته المسموم، قد مده مدة واسعة فشملت الحياة كلها، تحت ستار البحث «العلمي» في علم الاقتصاد!

وانتشر هذا الإيحاء المسموم - على يد «ماركس» - فدخل كل الحياة الغربية على الاتساع!

حقيقة إن روسيا وحدها في مبدأ الأمر - هي التي اعتنقت المذهب الشيوعي كاملا، وأعطته قوة التطبيق.. وروسيا وحدها - في مبدأ الأمر - هي التي قاومت الدين مقاومة «رسمية» على نطاق واسع. واضطهدته كل أنواع الاضطهاد،

من أول القتل والاعتقال والمصادرة والنفي، إلى تدريس الإلحاد رسميا في المدارس والجامعات!

ولكن الغرب كله - الذي لم يصبح شيوعيا من حيث المذهب - قد أخذ مع ذلك بالتفسير المادي للتاريخ!

أخذ به في إعطاء الجانب الاقتصادي الاهتمام الأكبر، والميل إلى تفسير الحياة الإنسانية كلها من خلال التفسير الاقتصادي والمادي، وإغفال «القيم» وأثرها في الحياة، وفي توجيه سلوك الناس!

وأخذ به في اعتبار القيم الأخلاقية «متطورة» لاثبات لها، ولاسبيل إلى ثباتها.. ومتطورة على أساس التطور الاقتصادي بصفة خاصة!

وأخذ به في اعتبار الدين آخر ما يمكن أن يؤثر في الحياة!

وصارت الحياه الغربية في ظل النظام الرأسمالي - المضاد للنظام الشيوعي - لا تفترق كثيرا في الأساس الفكري والحضاري «والإنساني» عن مثيلتها في العالم الشيوعي!

صحيح أن الدين فى الغرب لم يصادر..

وصحيح أن الأفراد هناك «متدينون» بمعنى الذهاب للكنيسة يوم الأحد، ورسم علامة الصليب في الصلاة، والإيمان بأن هناك ربا خلق الحياة والإنسان، ويقدر على كثير من الأمور!

ولكن هذا «الدين» لا يكيف شيئا فى حياة الناس الواقعية ولا مشاعرهم.. فالتنظيم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والفكرى قائم على أساس أن الحياة المادية هى الأصل، وهى الحقيقة بالعناية. وهى المسعى الذى يستغرق نشاط الإنسان. وهى «حقيقة» الحياة!

ثم إنه لا وجود ـ في واقع المجتمع ـ للأخلاق المستمدة من مفهوم الدين! فالنشاط الجنسي «الحر» للأولاد والبنات والرجال والنساء لا صلة له البتة بمفهوم الدين!

والصراع المتكالب على الحياة لا صلة له البتة بمفهوم الدين!

والمتاع الجنسى الزائد عن الحد لاصلة له البتة بالمفهوم المسيحى على وجه الخصوص!

والإيمان السارى عند الجماهير كلها فى الغرب ـ أوربا وأمريكا سواء ـ هو أن مقاييس الأخلاق قد تغيرت، وأن «تطورها» كان حتميا في ظل المجتمع الصناعى، وأنه لا مجال مطلقا للمقاييس القديمة للأخلاق(التى كانت مستمدة من الدين) لأن المرأة قد تحررت (اقتصاديا)، ولأن النظرة « الزراعية» للعفة لم يعد لها مجال!

أى .. أنه التفسير المادى للتاريخ، هو الذى يحكم الحياة في الغرب! ويحكمها فى ذات النقطة أو النقطتين اللتين أراد « ماركس » تحطيمهما ـ تحت ستار البحث العلمى فى علم الاقتصاد ـ وهما الدين والأخلاق!

ومعناه مرة أخرى أن الإيحاء المسموم للداروينية قد وصل على يد هذا اليهودى الأكبر إلى مناطق من الحياة البشرية لم يكن حتماأن يصل إليها، فحطم به فى واقع الحياة الدين والأخلاق، والتقاليد فى صورة علمية منظمة، لا تقوم على مذهب شخصى(في ظاهر الأمر)، وإنما تقوم ـ كما يقال على أساس البحث «العلمى» والدراسة والتحقيق!

ومن ثم يجد فيها المنحرفون الضالون سندا يسند ضلالهم وانحرافهم، ولا يحوجهم إلى الإعتذار عن إهمال الدين وتحطيم الأخلاق والتقاليد، بل يجعلهم يسعون إليه سعيا؟

فرويد وعلم النفس:

أما فرويد فلم يأخذ من داروِن جانب التطور، وإنما أخذ عنه حيوانية الإنسان!

إنه ككل باحث نفسى ـ يرسم صورة ثابتة لكيان الإنسان، وإن كان فى كتابه To-tem & taboo وربما كان هذ الكتاب وحده ـ يأخذ جانب التطور أيضا، وهو يتحدث ـ إلى جانب سيكلوجية الفرد ـ عن سيكلوجية الجماعات، وعن تطور الدين، وتطور المحرمات.. ولكنه يرسم هذه الصورة من جانب «الحيوان» لا من جانب «الإنسان»!

ولئن كان ماركس قد تحدث عن الدين والأخلاق، وسخافتهما وبعدهما عن أن يكونا قيما أصيلة، فى ظل البحث «العلمى» فى الاقتصاد فإن فرويد قد تحدث عن الموضوع ذاته والاتجاه ذاته في ظل البحث «العلمى فى علم النفس » !

إن ميدان بحثه هو النفس الإنسانية .. هو المشاعر والانفعالات .. هو العالم الداخلى فى مواجهة العالم الخارجى الذى تحدث عنه ماركس.. النفس فى نظره هى الميدان الأصيل للحياه، عن تركيبها الذاتى تنبثق الأفعال والأفكاروالمشاعر، وتتحول إلى وقائع عملية فى واقع الحياة.. أى أنه ـ من جهة البحث ـ يأخذ بالضبط الجانب المقابل لماركس ، ومع ذلك ـ ومن عجب ـ يصل معه إلى النتيجة ذاتها في موضوع الدين والأخلاق، ويتخذ فى بحثه نفس التفسير الحيوانى للحياة الإنسانية وللإنسان!

مصادفة!

ولكن الحق أن الصورة التى يرسمها فرويد للنفس الإنسانية ـ وإن التقت مع ماركس في النهاية عند نقطة تسخيف الدين والأخلاق، واعتبارهما قيما غير أصيلة في الحياة البشرية، وإنما انعكاسا لشىء آخر مادى في أصله وحيوانى ـ فإن فرويد كان أفحش وأخطر فى تلويثه لتلك النفس، والانحطاط بها إلى الحضيض!

إن الحياة النفسية للإنسانية ليست حيوانية فحسب، ولكنها كلها تنبع من جانب واحد من جوانب الحيوان، وهو الجنس المسيطر على كل أفعال الإنسان!

إن حياة الإنسان بادئ ذى بدء حياة حيوانية بحته «فغرائزه» هي التي تحكمه. هي التى تسيطر على كل نشاطه. والجانب المسمى «الروح» لا وجود له على الإطلاق (وإلى هنا يلتقى مع ماركس التقاءً كاملا فى تصور النفس الإنسانية)!

أما الجانب الذى اسمه «العقل» فهو موجود بكل تأكيد. وهو «طبقة» من طبقات النفس . وهو الوعى. وهو الضابط لتصرفات الإنسان وهو الذى يواجه الحياة الواقعية، ويقر موقف الإنسان إزاءها. ولكن أى نتيجة ياترى لوجود العقل ـ أو الذات الواعية فى كيان الإنسان؟!

النتيجة: أن موقع الذات بين الطاقة الشهوانية (التى هى الحقيقة الباطنية للنفس فى نظر فرويد) وبين الحقيقة الخارجية ، كثيرا ما يغريها بأن تكون منافقة مخادعة نهازة للغرض ، كالسياسى الذى يرى الحقائق ، ولكنه يحب أن يحافظ على مكانته بين الجماهير» . (1)

ومن ثم «فالقيم» في كلمة واحدة هى خرافة « وضحك على الذقون »! عملة زائفة يتبادلها الناس، وهم فى حقيقتهم عالمون بأنها خداع!

(وهنا يلتقى ـ من بعيد ـ بفكرة ماركس عن القيم، وإن كانت الأسانيد مختلفة في الحالين)!

ولكن فرويد بعد ذلك «يتخصص» فيأتى بالأعاجيب:

إن حقيقة الإنسان الباطنية العميقة ليست هى الطاقة الشهوانية فحسب، وإنما هى على وجه التحديد الطاقة الجنسية. الجنسية بالذات دون أى طاقة أخرى من طاقات الإنسان أو (الحيوان)!

وليس هنا مجال مناقشة فرويد(2) ولكنا نلحظ فقط شيئا بارزا فى نظريته النفسية.. فقد كان الجنس ـ فى أوربا المسيحية المتزمتة (رغم بدء الانحلال الخلقى فيها) ـ طاقة مستقذرة ، ينفر الناس من الحديث عنها وكشفها للنور . فيجىء فرويد . فيصر إصراراً محموما على أن يفسر النفس كلها، بجميع ألوان نشاطها، من خلال هذه الطاقة المستقذرة بالذات! ويصر ـ أكثر من ذلك (وهذا هو المهم) ـ على أن يفسر الدين والأخلاق بصفة عامة بأنها انبثاق جنسي.. وجنسى على وجه التحديد!

مصادفة!

الحياة كلها جنس، ومنبثقة من خلال الجنس!

---

(1) انظر: المرجع السابق: ٤٧ هامش.

(2) انظر: الإنسان بين المادية والإسلام : ١٩ وما بعدها.

والجنس يبدأ مبكرا جدا.. لا فى مرحلة البلوغ أو المراهقة كما يحسب الجهلاء من الناس.. وإنما من لحظة الميلاد، بل يولد الإنسان جنسا خالصا مركزا فى إهاب طفل حيوانى صغير!

كل أعمال الطفل تعبير عن طاقة الجنس!

الرضاعة جنس!

ومص الإبهام جنس!

وتحريك العضلات جنس!

والتبول والتبرز جنس!

والالتصاق بالأم جنس!

وهذا الأخير بصفة خاصة هو الذى يشكل الحياة النفسية للبشرية كلها أفرادا وجماعات!

فالطفل يعشق أمه بدافع الجنس. ثم يجد الأب حائلا بينها وبينه فيكبت هذا العشق. فتنشأ فى نفسه عقدة أوديب!

والطفلة تعشق أباها بدافع الجنس كذلك ثم تكبت العشق فتنشأ فى نفسها عقدة إليكترا!.

ومن هذه العقدة اللعينة ينشأ الضمير والدين والأخلاق والتقاليد، وكل «القيم العليا» فى حياة البشرية!

والأمر كله مستمد من تلك الحادثة التى «رآها!» فرويد اليهودى في منشأ تاريخ البشرية!

ذلك أن الأبناء ـ في مطلع البشرية ـ اتجهوا نحو أمهم بدافع الجنس، ثم وجدوا أباهم عائقا فى الطريق فقتلوه، ثم أحسوا بالندم على قتل أبيهم فأقسموا ليقدسن ذكراه، فعبدوه، ومن ذلك نشأت عبادة الأب، ثم تحولت إلى عبادة الطوطم، لأنه في النفس البشرية هكذا يرتبط الأب برمز الحيوان! (لماذا؟!)

وفى الوقت ذاته وجد الأبناء أنهم سيتقاتلون بينهم للحصول على الأم. وهذا أمر لا يجوز! (لماذا ؟!)

فقرروا تحريمها على أنفسهم، فنشأ بذلك أول تحريم (جنسى) وانصب على الأم . كما قرروا التعاون فيما بينهم بدل الخصام والعراك (لماذا ؟!)

فنشأت «القيم»!

وهذه القصة التى «رآها» فرويد تحدث في البشرية الأولى، ليست حادثة تاريخية مفردة، فقد تركت طابعها في الحياة البشرية كلها منذ ذلك الحين. فكل طفل يعشق أمه بدافع الجنس. وكل طفل يكبت ذلك العشق، ثم ينموا الدين والأخلاق والتقاليد.. والقيم العليا والحضارة، من ذلك الكبت الجنسى لعشق الأم!

ومع ذلك فالكبت لم ينته، وإنما هو يتحول إلى قلق نفسى دائم لا يترك الناس فى راحة!

وكل الديانات التى جاءت بعد ذلك هى محاولات لحل المشكلة ذاتها (إحساس الأبناء بالجريمة) وهى تختلف بحسب مستوى الحضارة التى ظهرت فيها، والوسائل التي تطبقها، ولكنها جميعا تهدف إلى شىء واحد.. رد فعل لنفس الحدث العظيم (قتل الأب) الذى نشأت عنه الحضارة، والذى لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة! (فرويد) [١].

واضح أن هذا التفسير للإنسان تفسير حيوانى بحت!

فالقصة كلها التى «رآها!» فرويد مستمدة من ملاحظات دارون فى عالم الحيوان . فقد لاحظ أنه فى عالم البقر تتجه الثيران الفتية للحصول على البقرة الأم، فتجد أباها عائقا فى الطريق، فتتجه كلها نحوه لقتله. فإذا فرغت من ذلك عادت فاصطرعت فيما بينها حتى يتغلب أحدها ــ وهو أقواها ــ فيفوز وحده بالأم، ويصبح هو السيد الجديد!

وواضح كذلك مدى تلويث فكرة الدين والأخلاق والتقاليد، وتقذيرها فى نفوس الناس، بغمسها في مستنقع الجنس المستقذر فى أوربا المسيحية، وإخراجها منه يتقاطر منها نقيع الجنس المكبوت!

جاء فى كتاب بروتوكولات حكماء صهيون:

---

(١) انظر المرجع السابق : ٤٩ .

يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا! إن فرويد منا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس، لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعند ئذ تنهار أخلاقه! إن هناك هدفا مزدوجا يتم فى نفس الوقت : فالجنس ينظف ليستباح! لتنطلق الغرائز «المكبوتة»! لينطلق الشباب كالبهائم، دون أن يحسوا فى ضميرهم لذعا، ولا في نفوسهم ندامة، ولكن فى الوقت ذاته يقذر الدين والأخلاق والتقاليد بتصويرها نابعة فى الأصل من الجنس المستقذر حينئذ في النفوس!

أى أنه عملية إبدال دقيقة خبيثة بشعة.. فينزل الدين والأخلاق إلى مكان الجنس المســتقذر، ويرتفع الجنـس إلى مكان الدين والأخلاق فى النظافة والتقديـس! وليـس هنا ـ كما أسلفت ـ مجال المناقشة مع فرويد.. إنما نثبت هنا فقط مجموعة من الحقائق حول هذا التفسير الجنسى للسلوك البشرى:

أولا: أنه استمد من إيحاءات نظرية دارون ذلك التفسير الحيوانى للإنسان.. ولم يقل دارون بطبيعة الحال شيئاً من ذلك، ولا كان همه أن يقول، ولكن هذا اليهودى الذى أخذ إيحاء نظريته المسموم، قد مده مدة واسعة فشملت الحياة كلها، تحت ستار البحث «العلمى» في علم النفس!

ثانيا: أنه وجه الإيحاء المسموم كله الذى استمده من دارون إلي نقطتين مركزتين، فى أثناء هذه الجولة الواسعة من باطن النفس، وفي التاريخ، هما الدين والأخلاق. فسعى إلى تلويثهما بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ كله! ووضعها فى صورة منفرة مقززة ينفر منها كل إنسان! ولم يكتف في ذلك بالتلميح، بل كان صريحا جدا وهو يقول:

«إن التسامى» نوع من الشذوذ!

وإن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى في درجتها الطبيعية العادية!

وإن أساطير المسيحية تصور فى حقيقتها رغبة الابن (المسيح) فى قتل والده (الرب الإله) وإن كان قد كبت هذه الرغبة فقتل نفسه بدلا من أبيه، ولكنه أصبح إلها مكان أبيه!

وإن الحضارة تتعارض مع النمو الحر للطاقة الجنسية !

وإن الدين والأخلاق والحضارة تنشأ من الكبت الجنسى، والكبت الجنسى خطر

على الكيان النفسى والعصبى، لأنه يصيب النفس بالعقد والاضطرابات ! [١] (كل كتب فرويد بلا استثناء !) .

دركايم وعلم الاجتماع :

ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتابه « اليهودية فى ضوء التحليل النفسى : موسى والتوحيد » [٢]

أما دركايم فله قصة ثالثة ..

إنه ـ مرة أخرى ـ يقف من فرويد موقف التقابل الكامل .

إنه لايعترف أن الكيان النفسى للفرد هو أساس الحياة الاجتماعية. بل العكس فى نظره أقرب إلي الصواب. إن الحياة الاجتماعية هى التى تشكل مشاعر الفرد . وعليه فلا يجوز أن نفسر الحياة من نفسية الفرد كما يصنع علم النفس كله، وإنما ينبغى أن نفرق بين الظاهرة النفسية والظاهرة الاجتماعية تفريقا كاملا، حتى وإن قام بينهما ـ أحيانا ـ نوع من الاتصال:

« ولكن الحالات النفسية التى تمر بشعور الجماعة تختلف فى طبيعتها عن الحالات التى تمر بشعور الفرد، وهى تصورات من جنس آخر، وتختلف عقلية الجماعات عن عقلية الأفراد، ولها قوانينها الخاصة بها » [٣] .

« .. إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد، الذين يجبرون على الخضوع لها فى كل لحظه من لحظات حياتهم ». [٤]

« ولكن لما كان هذا العمل المشترك ـ الذى تنشأ عنه الظواهر الاجتماعية ـ يتم خارج شعور كل فرد منا، وذلك لأنه نتيجة لعدد كبير من الضمائر الفردية ، فإنه يؤدى بالضرورة إلى تثبيت وتقرير بعض الضروب الخاصة من السلوك والتفكير ، وهى تلك الضروب التى توجد خارجة عنا، والتى لاتخضع لإرادة أى فرد منا » [٥] .

« ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة ـ التى تفسر الظواهر الاجتماعية من

---

(١) انظر : المرجع السابق : ٥١ .

(٢) ترجمة عبد المنعم الحفنى، مراجعة محمد الدمياطى . ط الدار المصرية . القاهرة .

(٣) قواعد المنهج فى علم الاجتماع تأليف إميل دركايم ، ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور محمد بدوى ـ مقدمة الطبعة الثانية : ١٥ .

(٤) المرجع السابق : ٢٢ .　　(٥) المرجع السابق : ٢٥ .

داخل نفوس الأفراد ـ على الظواهر الاجتماعية ، اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها ! ويكفى فى البرهنة على ذلك أن نعود إلى التعريف الذى سبق أن حددنا به الظواهر الاجتماعية. فلما كانت الخاصة الجوهرية التى تمتاز بها هذه الظواهر تنحصر فى القيام بضغط خارجى على ضمائر الأفراد، كان ذلك دليلا على أنها ليست وليدة هذه الضمائر » [١] .

« وبهذا المعنى ، ولهذه الأسباب، يمكننا بل يجب علينا أن نتحدث عن شعور اجتماعى يختلف عن شعور الأفراد. وإذا أردنا تبرير هذه التفرقة بين الشعور الاجتماعى والشعور الفردى، فلسنا فى حاجة إلى تجسيد الشعور الاجتماعي ، فإن لهذا الشعور وجودا من جنس خاص. ومن الواجب أن نعبر عنه بمصطلح خاص، لمجرد السبب الآتى، وهو : أن الحالات التى تدخل فى تركيبه تختلف عن الحالات النفسية التى يتركب منها شعور الفرد اختلافا نوعيا .. ومن جهة أخرى فما كان يرمى تعريفنا للظاهرة الاجتماعية إلا تحديد الفرق بين كل من الشعور الاجتماعى والشعور الفردى » . [٢]

هكذا لايعترف دركايم بأن الحياة البشرية ـ ذات الصبغة الاجتماعية ـ يمكن أن تفسر عن طريق نفسية الفرد وطبيعته وكيانه الفردى. وإنما يفسرها وجود « العقل الجمعى » خارق نطاق الأفراد !

ومرة ثانية يقف دركايم من فرويد موقف التقابل الكامل .

ففى كتاب « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » يتحدث عن « تطور » الجماعات شأن كل باحث فى علم الاجتماع ـ ولكنه يأبى أن ينسب هذا التطور إلى عنصر من عناصر النفس المفردة :

«ولن نستطيع معرفة المصدر الذى تنبع منه هذه التيارات الاجتماعية، إلا إذا صعدنا فى مجراها حتى منابعها الأولى، وحينئذ يجب علينا أن نلاحظ الظواهر الاجتماعية فى ذاتها.. ويجب أن ندرس هذه الظواهر من الخارج، على أنها أشياء خارجية .. ولئن خيل إلينا أن وجود هذه الظواهر خارج شعور الأفراد ليس إلا وجودا بحسب الظاهر، فسوف يتبدد هذا الشك كلما تقدم علم الاجتماع. وسيرى المرء حينئذ كيف تقتحم الظاهرة الاجتماعية الخارجية الشعور الداخلى للأفراد » . [٣]

ومع ذلك .!

---

(١) المرجع السابق : ١٦٦ . (٢) المرجع السابق : ١٦٨ ـ ١٦٩ . (٣) المرجع السابق : ٦٦ .

أهى مصادفة تلك التى يتحدث بها عن الدين والأخلاق؟!

« فمن هذا القبيل أن الناس يفسرون عادة نشأة النظام الأسرى بوجود العواطف التى يكنها الآباء للأبناء، ويشعر بها الأبناء تجاه الآباء، كما يفسرون نشأة الزواج بالمزايا التى يحققها لكل من الزوجين وفروعهما، والألم بما يحدث من غضب الفرد إذا أصيبت مصالحه بضرر جسيم. وترجع الحياة الاقتصادية فى نهاية الأمر ـ كما يفهمها ويفسرها الاقتصاديون، وبخاصة أصحاب المذهب المحافظ ـ إلى هذا العامل الفردى البحت، وهو الرغبة فى تحصيل الثروة. وليس الأمر على خلاف ذلك فيما يتعلق بالظواهر الخلقية . فإن الأخلاقيين يتخذون واجبات المرء نحو نفسه أساسا للأخلاق . وكذا الأمر فيما يتعلق بالدين، فإن الناس يرون أنه وليد الخواطر التى تثيرها القوى الطبيعية الكبرى أو بعض الشخصيات الفذة لدى الإنسان .. إلخ .. ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر الاجتماعية، اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها ! » .

« ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان، وبأن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية، والبر بالوالدين، ومحبة الأبناء، وغير ذلك من العواطف ، وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو. ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان ! » .

« وحينئذ فإنه يمكن القول بناء على الرأى السالف بأنه لاوجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية فى ذاتها ، إذا صح هذا التعبير .. ومن ثم فليس من الممكن تبعا لهذا الرأى، أن تصبح مجموعة القواعد الخلقية التى لاوجود لها فى ذاتها موضوعا لعلم الأخلاق ! » (١) .

واضح ؟ !

إن الدين ليس شيئا فطريا ! وكذلك الزواج والأسرة ! والقواعد الخلقية لاوجود لها!

ولن نناقش هنا دركايم ! لن نناقش أسطورة « العقل الجمعى » القائم خارج نطاق الأفراد والمخالف لكيان الأفراد، والذى يقهرهم من الخارج على غير رغبة منهم ولا استعداد فطرى !

ولكننا نثبت فقط ما حول هذه الأسطورة من الحقائق :

---

(١) المرجع السابق : ٥٩ ـ ٦٠ .

لقد أخذ دركايم كثيرا عن دارون :

أخذ عنه بادئ ذى بدء فكرة التطور الدائم الذى يُلْغِى فكرة الثبات !

وأخذ عنه فكرة «القهر الخارجى» الذى يقهر الفرد على غير رغبة ذاتية منه فيطوّره!

وأخذ عنه التفسير الحيوانى للإنسان، فهو لا يفتأ يستشهد فى كل حالة بما يحدث فى عالم الحيوان :

« أضف إلى ذلك أنه لم يقم قط برهان على أن الميل إلى الاجتماع كان غريزة وراثية وجدت لدى الجنس البشرى منذ نشأته، وإنه لمن الطبيعى جداً أن ننظر إلى هذا الميل على أنه نتيجة للحياة الاجتماعية التى تشربت بها نفوسنا على مر العصور والأحقاب. وذلك لأننا نلاحظ فى الواقع أن الحيوانات تعيش جماعات أو أفرادا تبعا لطبيعة مساكنها التى توجب عليها الحياة فى جماعة أو تصرفها عن هذه الحياة »[(١)].

« ولكن أليس معنى ذلك أن «كونت» يفسر الماء بالماء، وأنه يشرح التقدم بوجود ميل فطرى يدفع الإنسان إلى التقدم الذى لايعدو أن يكون سوى فكرة ميتافيزيقية ليس ثمة مايدل على وجودها بحسب الواقع؟ وذلك لأن الفصائل الحيوانية ـ بما فى ذلك الفصائل الراقية منها كل الرقى ـ لاتشعر قط بهذه الحاجة التى تدفعها إلى التقدم » .. [(٢)] إلخ .

ولم يقل دارون بطبيعة الحال شيئا مما قاله دركايم، ولاكان من شأنه أن يقول . ولكن هذا اليهودى أخذ الإيحاء الحيوانى لنظريته، ومده مدة واسعة ، فشملت الحياة كلها، تحت ستار من البحث « العلمى » فى علم الاجتماع .

ثم إنه ـ فى جولته الواسعة فى علم الاجتماع ـ قد عنى عناية خاصة بأن يقول : إن الدين ليس فطرة !

والزواج ليس فطرة !

والأخلاق ليست قيمة ذاتية، ولا هى ثابتة على وضع معين ، فإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذى توجد فيه، فإن « المجتمع » هو الأصل في كل الظواهر الاجتماعية ، وليس «الإنسان» .

---

(١) المرجع السابق : ١٧٣ .

(٢) المرجع السابق: ١٧٦ .

التطـور والعداء للدين والأخلاق :

ومن حصيلة هذا كله حدثت حركات ضخمة فى المجتمع الغربى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

لقد التقت توجيهات اليهود الثلاثة ـ وغيرهم بطبيعة الحال ، ولكنهم هم فى المقدمة ـ التقت عند نقط رئيسة، متصلة ومتصاحبة :

الحملة على الدين والأخلاق والتقاليد، ونفى القداسة عنها ، وتشويه سمعتها أو التشكيك فى قيمتها !

والقيام بهذه الحملة باسم « العلم » والبحث العلمى !

والربط بين هذا التحلل الدينى والانحلال الخلقى وبين « التطور » !

والإيحاء بأن هذا التحلل والانحلال أمر « حتمى » لأن التطور حتمى لاقبل لأحد بوقفه عن طريقه المحتوم !

تقول بروتوكولات حكماء صهيون :

« لقد رتبنا نجاح داروين وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم . وإن الأثر الهدام للأخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد » !

ونيتشه فيلسوف ألمانى نادى فى تشنج هستيرى بفكرة الإنسان الأعلى ! و« موت الإله » ! وهو يعفى هذا الإنسان من التقيد بالأخلاق المسيحية لأنها أخلاق الأذلاء ! ومن ثم تجد فيه « بروتوكولات حكماء صهيون » بغيتها المنشودة !

ولقد حدث بالفعل ذلك الأثر الهدام للأخلاق !

وسرت فى الجماهير لوثتان معا فى ذات الوقت :

لوثة التطور !

ولوثة العداء للدين والأخلاق !

وربما برز اسم فرُويد فى هذا الأثر المدمرُ أكثر من زميليه الآخرين، لأن آراءه أخذت « شعبية » واسعة النطاق ، بينما بقى الآخران ـ وخاصة دركايم ـ فوق مستوى الجماهير . ولكن الحصيلة النهائية للوثة التطور ولوثة العداء للدين والأخلاق ترد لهم جميعا، وإن تفاوتت النسب و « حقوق التأليف » بين أعضاء الثالوث !

لقد صارت « الموضة » هى التطور . ومالا يتطور بذاته ينبغى أن يطور بالقوة !

إنه لاينبغى أن يظل شىء على الإطلاق ثابتا فى كل الأرض . لا الدين ولا فكرة الله. ولا الأخلاق . ولا التقاليد. ولا القيم. ولا الروابط الاجتماعية. لا شىء .. لا شىء على الإطلاق !

ينبغى أن نتطور . وأن نتحرر من السكون الميت والثبات المعيب !

ينبغى أن نحطم قيود الأخلاق ! فهى قيد يعوق التطور. وقد تقيدنا بها فى الماضى فى المجتمع الزراعى، فينبغى أن نطرحها اليوم فى المجتمع الصناعى المتطور (ماركس) !

أو تقيدنا بها نتيجة الجهل الخطير بحقيقة النفس الباطنية، وبأن الأخلاق « كبت » ضار بكيان الإنسان (فرويد) !

أو تقيدنا بها جهلا منا بأنه لاتوجد حقيقة ثابتة للقيم الخلقية، وإنما هى تتطور بتطور الإنتاج (ماركس) !

أو بتطور حالة المجتمع (دركايم) !

وينبغى أن نحطم الدين ! فهو قيد آخر يعوق التطور ! وقد ورثناه من أسلافنا فى عماية وجهالة وجمود وتأخر، وقد كان هذا كله يناسب المجتمع الزراعى المتأخر، ونحن اليوم فى المجتمع الصناعى المتطور الذى لايطيق هذه الخزعبلات (ماركس)!

أو قدكان هذا يناسب عصر الجهالة السابق، يوم كنا نظن الدين شيئا له قداسة، منزلا من السماء، قبل أن نعرف أنه كبت جنسى ضار مؤذ منفر (فرويد) !

أو يوم ظننا ــ خطأ منا وجهالة ــ أنه فطرة إنسانية (دركايم) !

ينبغى أن ننشئ أنفسنا إنشاء فى المجتمع الجديد .. المتطور .. المتحرك .. الوثاب !

ينبغى أن ننطلق مع وثباته الظافرة بلا دين ! بلا خلق ! بلا تقاليد ! فهذا هو السبيل الوحيد للتقدم الصحيح ! (اليهود الثلاثة !) .

المرأة والجنس:

وتركزت الفتنة كلها فى « تحرير المرأة » على حد تعبيرهم !

فقد كانت القوى الشريرة كلها التى تعمل فى الأرض تعلم أنه لا وسيلة لإفساد الأمم

كلها إلا أن تخرج المرأة إلى الطريق فتنة للرجل ، لكى تفسد أخلاقه وتنهار !

ينبغى بأى ثمن أن تخرج المرأة إلى الطريق !

تخرج بحجة الاستقلال الاقتصادى ..

تخرج بحجة ممارسة حقها فى الحياة ...

تخرج بحجة التعليم أو بحجة العمل ..

تخرج « للاستمتاع » !

المهم أن تخرج ولكن أهم من ذلك أن تخرج فى صورة إغراء !

إنها إن خرجت تتعلم أو تعمل أو تمارس حقها فى الحياة ، وهى محتشمة متحفظة، محافظة على أخلاقها، وعلى طبيعتها « المنزلية » بمعنى الرغبة فى « الاستقرار » فى أسرة حين تسنح الظروف .. فلا فائدة إذن من كل « التعب » الذى تعبناه في إفساد البشرية !

ينبغى أن تخرج المرأة فى صورة تفتن الرجل وتغريه .. وإلا فما الفائدة ؟ ولكن كيف السبيل ؟

السبيل هو الدعوة إلى ذلك !

يكتب الكتاب !

ويكتب الصحفيون !

ويكتب القصاصون !

السبيل هو السينما !

تمثّل الأفلام الداعرة العارية الداعية إلى الفساد !

السبيل هو الإذاعة والتليفزيون (على التوالى) !

السبيل هو بيوت الأزياء !

السبيل هو صناعة أدوات الزينة !

السبيل ــ بكل سبيل ــ هو إيجاد صورة من « الحياة الاجتماعية » لا تستغنى عن المرأة الفاتنة المغرية ! ــ بهجة المجتمع ! ــ وإيجاد تصور للحياة لا يستغنى عن المرأة الفاتنة المغرية « لتشارك » الرجل فى حمل الأعباء، وإيجاد « واقع عملى » لا يستغنى عن المرأة الفاتنة المغرية كجزء واقعى من الحياة .

ووجد كل ذلك بالفعل !

واستراحت القوى التى تعمل لإفساد البشرية .. وطلبت المزيد !

وجاء المزيد ـ قصدا أم عرضا ؟ ـ بالحربين العالميتين !

قتل فى الحرب الأولى عشرة ملايين من الشباب، وفى الثانية حوالى أربعين !

ووجدت ـ بعددهم ـ أسر بلا عائل ، ونساء بلا رجال !

وخرجت المرأة ـ راضية أو مكرهة ـ تعمل وتبحث عن الجنس ! وحدث مزيد من « التحرر » .. من انحلال الأخلاق !

وصار الروتين العادى فى الحياة الغربية أن تعمل كل فتاة .. وأن يكون لها صديق ـ أى عشيق ـ تمارس معه نشاط الجنس، كاملا فى أغلب الأحيان، روتين عادى لايستنكر ! لايفكر أحد فى استنكاره على الإطلاق. إلا المجانين! الذين يظنون أنه يوجد دين ! أو أخلاق ! أو تقاليد !

المجانين الجهلاء الرجعيون المتزمتون المتحجرون المتعفنون .. الذين يعيشون بعقلية القرون الوسطى .. الذين يحجبون عن أعينهم النور.. الذين يريدون إرجاع الساعة إلى الوراء .. الذين لايعرفون أنه التطور .. التطور الحتمى الذى لاقبل لأحد بوقفه .. التطور الذى أحدثه القرن العشرون !

شهادة التاريخ :

وحين يعيش الإنسان فترة من الحياة فإنه يراها مجسمة مضخمة، لأنه يعيش دقائقها وتفصيلاتها وجميع لحظاتها، لحظة إثر لحظة، فيراها ـ من ثم ـ أضخم من أى فترة أخرى من التاريخ !

وهذا أمر « بشرى » من جميع جوانبه !

ومن ثم فنحن محتاجون إلى قراءة التاريخ !

فلنسمع شهادة التاريخ !

فى اليونان :

يقول الأستاذ المودودى : (١) أرقى الأمم القديمة حضارة، وأزهرها تمدنا فى التاريخ،

(١) الحجاب : ١٢ ومابعدها بتصرف .

هم أهل اليونان، وفى عصرهم البدائى كانت المرأة فى غاية من الانحطاط وسوء الحال ، من حيث نظرية الأخلاق، والحقوق القانونية، والسلوك الاجتماعى جميعا !

فلم يكن لها فى مجتمعهم منزلة أو مقام كريم . وكانت الأساطير (mythology)

اليونانية قد اتخذت امرأة خيالية تسمى (باندورا) (pandora) ينبوع جميع آلام الإنسان ومصائبه، كما جعلت الأساطير اليهودية حواء : العين التى تنشق منها جداول الآلام والشدائد !

وغير خاف على أحد ما كان لهذه الأساطير اليهودية الشنيعة عن حواء من تأثير عظيم فى سلوك الأمم اليهودية والمسيحية قبل المرأة ، وماكان لها من مفعول قوى فى حقول القانون والأخلاق والاجتماع عند هؤلاء الشعوب !

وكذلك أو دونه بقليل كان تأثير الأسطورة اليونانية عن (باندورا) فى عقولهم وأذهانهم . فلم تكن المرأة عندهم إلا خلقا من الدرك الأسفل، فى غاية من المهانة والذل فى كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية. وأما منازل العز والكرامة فى المجتمع فكانت كلها مختصة بالرجل !

وبقى هذا السلوك قبل المرأة في أول عهدهم بالنهضة المدنية ثابتا على حاله، ربما تخللته تعديلات قليلة. فإنه كان من تأثير ذيوع العلم وانتشار أنوار الحضارة أن ارتفعت مكانة المرأة فى المجتمع ، وأصبحت أحسن حالا، وأرفع منزلة، من ذى قبل ، وإن بقيت منزلتها القانونية على حالها لم تتبدل. فهى أصبحت ربة البيت، منحصرة واجباتها فى حدوده، وأصبح لها فى داخله سلطة ونفوذ تام .. وكان عفافها وتصونها من أغلى وأنفس مايملك، ومما ينظرإليه بعين التقدير والتعظيم .

وأيضا كان الحجاب شائعا فى البيوتات العالية . فكانوا يبنون بيوتهم على قسمين :

قسم للنساء ، وآخر للرجال .

وما كان نسوتهم يشاركن فى المجالس والأندية المختلطة، ولايبرزن فى الأماكن العامة. وكان يعد زواج المرأة وملازمتها لزوجها دون غيره من أمارات النجابة والشرف ولأمثالها كانت الحرمة والمنزلة فى المجتمع .

وبالعكس من ذلك كانوا ينظرون إلى حياة العهر والدعارة نظرة كره وازدراء .. !

هذا فى عصر كانت الأمة اليونانية فيه فى إبان مجدها وعنفوان شبابها وقوتها، وكانت تنمو صعدا إلى الرقى والكمال.

ولا ريب أنه كانت توجد عندهم مفاسد خلقية فى ذلك العصر، إلا أنها كانت منحصرة فى نطاق محدود. وذلك أن الرجال لم يكونوا يطالبون بمثل من العفاف، وطهارة الأخلاق، وذكاء السجية، كانت تطالب بها المرأة وتؤاخذ عليها، بل كانوا يستثنون من التخلق بتلك الأخلاق الحسنة، ولم يكن من المتوقع منهم أن يعيشوا عيشة ذوى العفاف والحشمة. ومن أجل ذلك كانت المومسات جزءا من صميم المجتمع اليونانى لاينفك عنه أبدا، ولايعاب المرء إذا عاشرهن وخادنهن !

ثم جعلت الشهوات النفسية تتغلب على أهل اليونان، ويجرف بهم تيار الغرائز البهيمية، والأهواء الجامحة، فتبوأت العاهرات والمومسات مكانة عالية فى المجتمع لانظير لها فى تاريخ البشرية كله، وأصبحت بيوت العاهرات مركزا يؤمه سائر طبقات المجتمع، ومرجعا يلجأ إليه الأدباء والشعراء والفلاسفة، فكانت شموسا فى سماء العلم والأدب يدور حولها كواكب الفلسفة والأدب والشعر والتاريخ، وماعداها من الفنون .. بل أصبحن القطب الذى تدور حوله رحى الأمة اليونانية، فما كن يرأسن أندية العلم ومجالس الأدب فحسب، بل كانت المشاكل السياسية أيضا تحل عقدها، وتفك معضلاتها بحضرتهن وتحت إشرافهن !

وقد بلغ بهم التعسف فى هذا الشأن أن كانوا يرجعون فى المسائل الرئيسة التى تعلو بها أمة وتسفل، وتحيا لها وتموت، إلى المرأة التى ربما لاترضى أن تعاشر رجلا بعينه أكثر من ليلة أو ليلتين !

ثم زاد أهل اليونان حبهم للجمال وتذوقهم المفرط له تماديا فى الغى، وارتطاما فى حمأه الرذائل، وأضرم فى قلوبهم ناراً للشهوة لا تخمد. فالتماثيل – نماذج الفن العاريه – التى كانوا يظهرون بها وبالافتتان فى صنعها وإتقانها ذوقهم هذا، كانت هى التى تحرك فيهم الشهوات دوما، وتمد فى غرائزهم البهيمية !

ولايخطر لهم ببال أن الاستسلام للشهوات شىء ذميم فى قانون الأخلاق والاندفاع وراء تيار الأهواء عار وهجنة !

وتبدلت مقاييس الأخلاق عندهم إلى حد جعل كبار فلاسفتهم، وعلماء الأخلاق عندهم، لايرون فى الزنى وارتكاب الفحشاء غضاضة يلام عليها المرء ويعاب . وأصبح عامتهم ينظرون إلى عقد الزواج نظرة من لايهتم به، ولايرى إليه من حاجة ، وقلما يرون بأسًا بأن يعاشر الرجال المرأة ويخادعنها علنا من غير عقد ولا نكاح !

فكانت النتيجة أن خضعت لأخلاقهم وغرائزهم الشهوانية هذه ديانتهم أيضا، وانتشرت فيهم عبادة أفروديت (aphrodite) التى كان من قصتها عندهم فى الأساطير (mgthology) أنها خادنت ثلاثة آلهة، مع كونها زوجة إله خاص !

وأيضا كان من أخدانها رجل من عامة البشر، علاوة على تلك الآلهة .. ومن بطنها تولد كيوبيد (kupid) إله الحب، نتيجة اتصالها بذلك الخدن البشرى !

ومارأيك فى أخلاق أمة وانحطاطها المعنوى والخلقى، اتخذت من هذه الطباع (character) رمزا للكمال ، بل إلها يعبد ، ويقدم له جميع آداب العبودية والذل والخنوع ؟!

هذه ، ولاريب، درجة من الانحطاط الخلقى إذا تردت فيها أمة، لم تتمكن من النهوض مرة أخرى !

وفى مثل هذا العصر البالغ من الانحطاط أسفله (بام مارك) وفى إيران (المزدكية) وأيضا فى مثل هذا العصر نفسه، أصبحت الفحشاء والدعارة ينظر إليهما بعين التقديس والإجلال فى « بابل»، فلم تمض على ذلك عشية أو ضحاها حتى آل أمرها إلى الانقراض، وأصبح أمرها من خبر كان وأمس الدابر !

ولما انتشرت عبادة أفروديت فى اليونان، أصبحت مواخير الدعارة، وأماكن الفجور مركز للعبادة، وأصبحت المومسات متنسكات وخوادم للمعابد، وعظم شأن الزنى، إلى أن ألبسوه كساء من العمل الدينى المبرور !

ثم ظهرت الغريزة البهيمية فى أهل اليونان بمظهر آخر، هو أن انتشرت فيهم سوأة قوم لوط انتشارا كاد يقضى على الأخضر واليابس، ورحبت بها الديانة والأخلاق أيضا!

ومما هو حريِ بالذكر أننا لانرى لهذه السوأة المنكرة أثرا فى عصر هوميروس وهسيود، ولكنه لما ترقت المدينة، وأخذت فى تزيين العرى، واتباع الشهوات بالأسماء

الجذابة، كالفن وتذوق الجمال (aesthatictaste) التهبت الغرائز الشهوانية فى القوم التهابا جعلهم يتنكبون الطريق الفكرى، ويتخذون لإرواء غليل شهواتهم طريقا تأباه الفطرة، وتمجه الطباع السليمة. وساعدهم على ذلك حذاق الفن بإبراز هذه العاطفة فى التماثيل. وشهد علماء الأخلاق عندهم بأن هذه (العلاقة) آصرة للصداقة وثيقة بين الرجلين. واليونانيان اللذان هما أول من عظمتهم الأمة وأكرمتهم ببناء تماثيلهم هما: هرموديس وارستوجيتن اللذان جمع بينهما ذلك الحب المنكر الذى تأباه الفطرة البشرية !

وبعد ، فالتاريخ شاهد بأن اليونان لم يكن من نصيبهم المجد والرقى بعد ذلك مرة أخرى !

فى الرومان :

والذين تسنموا ذروة المجد والرقى فى العالم بعد اليونانيين هم الرومان، وفى هذه الأمة أيضا نرى تلك السلسلة من الصعود و الهبوط التي قد شاهدناها فى اليونان .. !

فى أوربا المسيحية :

ثم جاء عصر النصرانية فى أوربا، وأرادت أن تتدارك الفوضى الخلقية .. إلا أن الفكرة التى كان يحملها المسيحيون عن علاقة ما بين الرجل والمرأة كانت قد جاوزت حد التطرف فى جانب ، وكانت حربا على الفطرة البشرية في جانب آخر .. !

فى أوربا الجديدة :

ولما نهض فلاسفة أوربا وأولوا الرأى والعلم منهم فى القرن الثامن عشر، ورفعوا عقيرتهم لحماية حقوق الفرد والمجتمع، ونفخوا فى أبواق الحرية الفردية، كان بين أيديهم ذلك النظام التمدنى الفاسد الذى كان تولد بتفاعل الاتحاد الثلاثى من نظم الأخلاق وفلسفة الحياة المسيحيين ونظام الإقطاعية (Feudalsgstem) وقيد الروح البشرية بقيود مثقلة غير طبيعية ..

وفى القرن التاسع عشر كان الخروج على جميع المبادئ الخلقية .

وفى القرن العشرين كانت سورة هذه الإباحية قد انتهت إلى غايتها القصوى ..

عوامل شيطانية ثلاثة :

وذكرت مجلة أمريكية الأسباب التى لاتزال تؤدى إلى رواج الفحشاء وقبولها بالكلمات الآتية :

عوامل شيطانية ثلاثة، يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم، وهى جميعها فى تسعير سعير لأهل الأرض:

أولها: الأدب الفاحش الخليع، الذى لا يفتأ يزداد فى وقاحته ورواجه بعد الحرب العالمية بسرعة عجيبة !

وثانيها : الأفلام السينمائية ، التى لاتذكى فى الناس عواطف الحب الشهوانى فحسب، بل تلقنهم دروسا عملية فى بابه !

وثالثها: انحطاط المستوى الخلقى فى عامة النساء،الذى يظهر فى ملابسهن، بل فى عريهن، وفى إكثارهن من التدخين، واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام !

هذه المفاسد الثلاثة فينا إلى الزيادة والانتشار بتوالى الأيام، ولابد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر، فإن نحن لم نحد من طغيانها، فلا جرم أن يأتى تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان ومن تبعهم من سائر الأمم الذين قد أوردهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء مع ما كانوا فيه من خمور ونساء، ومشاغل رقص ولهو وغناء !

هذه الأسباب الثلاثة التى قد طبقت أجواء التمدن والاجتماع ـ كما يقول الأستاذ المودودى (١) ـ لاتنفك أبدا عن تحريك العواطف فى كلّ شاب وشابة يجرى فى عروقه ولو قليل من الدم الحار، وماكثرة الفواحش هذه إلانتيجة لازمة لهذا التحريك المستمر !

وسبق أن ذكرنا دور الأساطير اليهودية الشنيعة فى هذا الشأن !

شهادة من كاتب غربى :

يقول« ول ديورانت » فى كتابه « مباهج الفلسفة » : (٢)

إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التى أقلقت بال سقراط. نعنى كيف نهتدى إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التى بطل أثرها فى نفوس الناس ؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعى بهذا الفساد الماجن ! (٣) .

واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر فى تغير أخلاقنا. فقد كان القانون

---

(١) المرجع السابق : ١٠٥ ـ ١٠٦ .
(٢) جاهلية القرن العشرين : ٢٠٩ ومابعدها نقلا عن : المرجع الأصلى.
(٣) المرجع الأصلى : ١ : ٦ .

الأخلاقى قديما يقيد الصلة الجنسية بالزواج، لأن النكاح يؤدى إلى الأبوة، بحيث لا يمكن الفصل بينهما، ولم يكن الوالد مسئولا عن ولده إلا بطريق الزواج. أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفا لم يكن آباؤنا يتوقعونه، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة فى التغير نتيجة لهذا العامل ! (١)

فحياة المدنية تفضى إلى كل مثبط عن الزواج، فى الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية، وكل سبيل يسهل أداءها. ولكن النمو الجنسى يتم مبكرا عما كان قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادى. فإذا كان قمع الرغبة شيئا عمليا ومعقولا فى ظل النظام الاقتصادى الزراعى فإنه الآن يبدو أمرا عسيرا أو غير طبيعى فى حضارة صناعية. أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال، حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين ولامفر من أن يأخذ الجسم فى الثورة، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم. وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعا للسخرية، ويختفى الحياء الذى كان يضفى على الجمال جمالا، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم، وتطالب النساء بحقها فى مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال. ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مألوفا، وتختفى البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس. لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقى الزراعى، ولم يعد العالم المدنى يحكم به ! (٢)

وواضح أن الكاتب ـ كما يقول الأستاذ محمد قطب ـ يفسر الأمور على هدى التفسير المادى للتاريخ، فيفسر التحلل الخلقى بالتطور الاقتصادى. ولكنه أغفل حقيقة هامة ينبغى الإشارة إليها والتوكيد عليها .. إن الدولة الشيوعية التى تملك أرزاق الناس « وتحررهم » من سلطان رأس المال .. لم توجه الشبان فى بلادها إلى الزواج المبكر الذى يمنع الفساد الخلقى، رغم أنها ـ فيما تزعم ـ رفعت لعنة الضرورة الاقتصادية عن كاهل الناس ! إن الأمر ليس تطورا اقتصاديا فى حقيقته، ولكنه توجيه مسموم لتدمير البشرية !

ويقول « ول ديورانت » : ولسنا ندرى مقدار الشر الاجتماعى الذى يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولا عنه. ولا فى أن بعض هذا الشر يرجع إلى مافينا من رغبة فى التعدد لم تهذب. ولكن معظم هذا الشر يرجع فى أكبر الظن فى عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعى للحياة الزوجية ومايحدث من إباحة بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هذه الصناعة المزدهرة، وقد نتجاوز عنها

(١) المرجع الأصلى : ١ ـ ١٢٠ .

(٢) المرجع الأصلى : ١٢٦ : ١٢٧ .

باعتبار أنها أمر لامفر منه فى عالم خلقه الإنسان (!) وهذا هو الرأى الشائع لمعظم المفكرين فى الوقت الحاضر . غير أنه من المخجل أن نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكيه يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية وهى تعرض علينا فى المسارح وكتب الأدب المكشوف، تلك التى تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية فى الرجال والنساء المحرومين ــ وهم فى حمىّ الفوضى الصناعية ــ من حِمي الزواج ورعايته للصحة .

ولايقل الجانب الآخر من الصورة كآبة. لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن فى إبتذال ظاهـر. ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة فى هذه الفترة من التأجيل، نظاما دوليا مجهزا بأحدث التحسينات ، ومنظما بأسمى ضروب الإدارة العلمية. ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها . (١)

وأكبر الظن أن هذ التجدد فى الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم داون على المعتقدات الدينية. وحين اكتشف الشبان والفتيات ــ وقد أكسبهم المال جرأة ــ أن الدين يشهر بملاذهم، التمسوا فى العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين ! (٢)

ولما كان زواجهما [الرجل والمرأة فى المجتمع الحديث] ليس زواجا بالمعنى الصحيح ــ لأنه صلة جنسية لارباط أبوة ــ فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذى يقوم عليه ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع. وينكمش الزوجان فى نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان. وتنتهى الغيرة الموجودة فى الحب إلي فردية يبعثها ضغط حياة المساخر. وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية فى التنويع، حين تؤدى الألفة إلى الاستخفاف. فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته ! (٣)

لندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا. أكبر الظن أنها لن تكون شيئا نرغب فيه أو نريده، فنحن غارقون فى تيار من التغيير، سيحملنا بلاريب إلى نهايات محتومة لاحيلة لنا فى اختيارها. وأى شىء قد يحدث مع هذا الطوفان الجارف من العادات والتقاليد والنظم، فالآن وقد أخذ البيت فى مدننا الكبرى فى الاختفاء، فقد فقد الزواج القاصر [المقصور] على واحدة جاذبيته الهامة. ولاريب أن زواج المتعة سيظهر بتأكيد أكثر فأكثر، حيث لايكون النسل مقصودا. وسيزداد الزواج الحر، مباحا كان أم غير مباح. ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل

(١) المرجع الأصلى : ١٢٧ ــ ١٢٨ . (٢) المرجع الأصلى ١٣٤ . (٣) المرجع الأصلى : ٢٢٥ .

شرا من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لايغازلها أحد. سينهار « المستوى المزدوج » وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شىء على التجربة قبل الزواج سينمو الطلاق، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة. ثم يصاغ نظام الزواج بأسره فى صور جديدة أكثر سماحة. وعندما يتم تصنيع المرأة ويصبح ضبط الحمل سرا شائعا فى كل طبقة يضحى الحمل أمرا عرضا فى حياة المرأة ، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت .. وهذا كل شىء[1] !

جاهلية القرن العشرين :

تلك شهادة من كاتب غربى ، جديرة بأن تغنينا عن التعليق !

إن المفاسد التى يشرحها الكاتب، والتى نجمت فى النفس والمجتمع عن التحلل الجنسى لجديرة بأن تفتح عيوننا على شناعة الجاهلية الحديثة فى هذا الشأن .. المنذرة بتدمير كيان الإنسان في مجموعه، لافى المجال الضيق الذى يعرف عادة « بالأخلاق » !

إن هذا التحلل الجنسى لم يترك فى النفس والمجتمع ناجيا من الفساد !

ماذا بقى بعد الصورة الكريهة المنفرة التى عرضها هذا الكاتب ؟!

ومما تجدر الإشارة إليه أن المؤلف كتب كتابه هذا سنة ١٩٢٩ ! ونحن الآن فى أواخر النصف الثانى من القرن العشرين ، قرن الجاهلية الكبرى، نشاهد بأعيننا أن كل ماتنبأ به الكاتب قد حدث، وانتشر فى كل بقاع الأرض، واستشرى بحيث لم تعد الجاهلية ذاتها تملك رده لو أرادت. لأن الزمام أفلت من أيديها، ولم يعد لها على الفساد سلطان !

ولكن تلك المقتطفات التى نقلناها هنا لم تشر إلى كل أمور الفساد ! أولم تفصلها !

شباب العالم فى طريق الضياع :

ونشرت جريدة « أخبار اليوم » فى مصر فى عددها الصادر فى ١٢ مايو ١٩٦٢ تحقيقا صحفيا بهذا العنوان « شباب العالم فى طريق الضياع !» جعلت مقدمته هكذا :

إلى أين يتجه شباب العالم؟!

فى أمريكا يرتفع ترمومتر الانحراف بين الشباب !

---

(١) المرجع الأصلى : ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

وفى بريطانيا تتألف عصابات من المراهقين للسطو وتدخين الحشيش !

وفى سويسرا يتزايد الانحلال !

وفى روسيا يجتمع المجلس الأعلى للسوفيت ليبحث مشكلة انحراف الشباب الروسى !

لقد أبرقت « أخبار اليوم » إلي مندوبيها ومراسليها فى عواصم العالم، وطلبت منهم صورة كاملة عن الانحراف الجارف الذى يهدد شباب العالم !

ونقل الأستاذ محمد قطب نص التحقيق الذى استغرق عشر صفحات [١]، وعلق عليه بقوله :

إنها أمور خطيرة جدا، تلك التى تقولها شهادة القرن العشرين !

إنها تقول أولا: إن هذا التحلل الخلقى ليس « تطورا » وإنما هو انحراف !

وتقول ثانيا : إنه انحراف ضار بالكيان البشرى مؤد إلى الدمار !

وتقول بالتالى : إن هناك فطرة للإنسان، تتأذى من كل شىء لا يلائم طبيعتها، وتمرض من استمرار تعاطيه !

وتقول كذلك : إن هذه الفطرة ثابتة، فما كان يؤذيها ويدمرها قبل ألفى عام يؤذيها ويدمرها بعد مرور الأجيال الطوال، ولم يحدث فيها « تطور » تجعلها تصح على ماكانت تمرض به فى تلك الأزمان. بل هى مازالت تمرض به على نفس الصورة وبنفس المقدار !

وتقول أخيرا : إن الجانب الخلقى ـ على الأقل ـ من حياة الإنسان، ذو مقياس ثابت يقاس به فى جميع الأجيال ، فما كان صوابا فى علاقات الناس ـ وعلاقات الجنسين بصفة خاصة ـ قبل ألفى عام، مايزال هو الصواب، وماكان خطأ وانحراف فى تلك العلاقات مايزال هو الخطأ والانحراف ، بعد كل « التقدم » العلمى ، و« التطور » الاجتماعى والاقتصادى والسياسى و« التحور » النفسى فى ألفين بل ألوف من الأعوام !

وخلاصة ذلك كله أن أى نظام لحياة البشرية ينبغى أن يجعل فى حسابه ذلك المقياس الثابت للأخلاق ، مهما كانت مرونته فى الجوانب المادية والاقتصادية والاجتماعية

---

(١) التطور والثبات : ١٦٤ ـ ١٧٤ .

والسياسية، التي ينبغي أن تنمو، وينبغي أن يسمح لها بالنمو في ظل أي نظام صالح للحياة!

مهنة الدعارة :

وجاء في جريدة الأخبار المصرية في عددها الصادر في ٩مارس ١٩٧٨ مايلي:

اعترفت إسرائيل رسميا. بمهنة الدعارة كمهنة رسمية، بعد أن قبلت مؤسسة التأمينات طلبا تقدمت به إحدى العاهرات الإسرائيليات للسماح لها بدفع التأمينات الاجتماعية على دخلها الذي يبلغ ثلاثة آلاف دولار سنويا، كما ستحصل على اثنى عشر دولارا أيضا كمنحة شهرية لكل طفل تنجبه من مهنتها، وإعانة تبلغ ٧٥٪ من دخلها في الشهور الثلاثة الأخيرة من الحمل .

أعلن ذلك « موردخاي كوهين » المدير المالي لمؤسسة التأمينات في إسرائيل، وقال:

إن مهمتنا تأمين جميع المهن، والدعارة أقدم مهنة في التاريخ !

وجاء في جريدة السياسة الكويتية في عددها الصادر في ٢٩ نوفمبر ١٩٧٨ ما يلي :

دعت المومسات البريطانيات في مؤتمرهن الليلة قبل الماضية الزبائن البارزين إلى الإعلان عن أنفسهم على الملأ، والتوقف عن التنديد علنا بما يمارسونه سرا !

وكانت الجمعية البريطانية للمومسات قد هددت في الأسبوع الماضي أن تبدأ بنشر أسماء الزبائن الذين قالت إن بينهم سياسيين بارزين، ورجال دين ، ورؤساء بوليس !

وقد عقد المؤتمر لدعم مطالب الجمعية بتنظيم مهنة البغاء على أساس شرعي ، وحضر المؤتمر حوالي ٢٠٠ شخص، بينهم مومسات ، ورجال دين، ودعاة لحقوق المرأة، وتليت في المؤتمر رسائل تأييد من جمعيات المومسات في سان فرانسيسكو ونيويورك وباريس .[١]

وهكذا كان دور الثالوث اليهودي في انحطاط الأخلاق :

ماركس والاقتصاد :

فرويد وعلم النفس !

دركايم وعلم الاجتماع!

---

(١) العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة : ٤٣ ــ ٤٤ .

وهكذا كانت شهادة التاريخ :

فى اليونان !

في الرومان !

فى أوربا المسيحية !

فى أوربا الجديدة !

وهكذا كان دور العوامل الشيطانية الثلاثة !

فى الأدب الفاحش !

والأفلام السينمائية !

وانحطاط المستوى الخلقى !

وأخيرا وليس آخرا !

جاهلية القرن العشرين !

والخطر المحدق بشباب العالم !

ومهنة الدعارة !

وحسبنا أن نذكر مرة أخرى ماجاء فى « بروتوكولات حكماء صهيون ».

يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا ! إن فرويد منا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس، لكى لايبقى فى نظر الشباب شىء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه ! » .

« لقد رتبنا نجاح داروِن وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم ، وإن الأثر الهدام للأخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد » .

أهـــم المراجـــع

١ـ الأدب المفرد، للبخارى، ط السلفية، القاهرة ١٣٧٥هـ.

٢ـ الإسلام دين عام خالد، للأستاذ محمد فريد وجدى ، ط ثانية القاهرة.

٣ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم، تحقيق الشيخ محمدحامد الفقى، دار المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ط ثانية ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

٤ـ الإنسان بين المادية والإسلام،للأستاذ محمد قطب،دار الشروق، ط سابعة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢م.

٥ـ التطور والثبات فى حياة البشرية، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق، ط خامسة ١٤٠٣هـ ـ١٩٨٣م.

٦ـ تفسير ابن كثير(تفسير القرآن العظيم) ط دار إحياء الكتب العربية، الحلبى وشركاه.

٧ـ تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل القرآن) الحلبى،ط ثالثة ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م.

٨ـ تفسير الطبرى ـ أيضا ـ تحقيق الأستاذ أحمد شاكر،ط دار المعارف،القاهرة.

٩ـ تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٩٦٧م.

١٠ـ تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم) للشيخ محمد عبده، تأليف الشيخ محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت.

١١ـ الثقافة الإسلامية ، للمؤلف وآخرين ، جامعة الكويت ، ط أولى ١٤٠٩هـ ـ ١٨٨٩م.

١٢ـ جاهلية القرن العشرين، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق.

١٣ـ الحجاب، للأستاذ المودودى، دار الفكر.

١٤ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، للأستاذ عباس العقاد، دار الكتاب العربى، بيروت ط ثالثة ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦م.

١٥ ـ خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، للأستاذ سيد قطب، الحلبى ١٩٦٥م.

١٦ ـ الخصائص العامة للإسلام، للدكتور يوسف القرضاوى ، الرسالة .

١٧ـ دراسات إسلامية فى العلاقات الاجتماعية والدولية، للدكتور محمد عبد الله دراز، ط دار القلم،الكويت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

١٨ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد ، لابن القيم ، تحقيق الأرنؤوط ، الرسالة، المنار الإسلامية، ط أولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٩ـ سنن ابن ماجه، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار الفكر العربى.

٢٠ـ سنن أبى داود، ط مصر التجارية، الأولى، والمدينة المنورة.

٢١ـ سنن البيهقى (السنن الكبرى) ط دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد ١٢٥٣هـ .

٢٢ـ سنن الترمذى(الجامع الصحيح) ط بولاق ١٢٩٢هـ ، والهند، والحلبى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٣ـ سنن الدارمى، دار إحياء السنة النبوية.

٢٤ـ سنن النسائى، بشرح السيوطى، وحاشية السنوى، ط دار الكتاب العربى، بيروت.

٢٥ـ السيرة النبوية ، لابن هشام ، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط حجازى ، والحلبى، القاهرة.

٢٦ـ شبهات حول الإسلام، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٢٧ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٨ـ صحيح مسلم، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٢٩ـ العمل والعمال بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة ـ للمؤلف، دار البحوث العلمية،ط أولى، الكويت ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٣٠ـ عون المعبود: شرح سنن أبى داود، تحقيق الشيخ عبد الرحمن عثمان، السلفية ط ثانية ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٣١ـ غزوة بنى قريظة، للأستاذ محمد أحمد باشميل، دار الفكر، ط ثانية ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

٣٢ـ فتح البارى : شرح صحيح البخارى ، لابن حجر الرياض الحديثة ، البطحاء ، الرياض.

٣٣ـ فقه السيرة، للشيخ محمد الغزالى، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى، ط دار القلم الثانية، دمشق ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٣٤ـ الفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار الغربى، للدكتور محمد البهى، القاهرة.

٣٥ـ فى ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب،دار الشروق ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٣٦ـ الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) ط بيروت.

٣٧ـ المسئولية الاجتماعية فى الإسلام، للمؤلف، مكتبة المعلا، ط أولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٣٨ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمى، بتحقيق العراقى وابن حجر بيروت، ط ثالثة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٣٩ـ مسند أحمد، وبهامشه كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندى، ط الميمنية. بمصر.

٤٠ـ المسند ، له أيضا ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر ، دار المعارف بمصر ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

٤١ـ المعجم الوسيط، لمجموعة من المؤلفين، مجمع اللغة العربية، دار إحياء التراث العربى.

٤٢ـ معركة التقاليد، للأستاذ محمد قطب، الشروق.

٤٣ـ المغنى، لابن قدامة، الرياض الحديثة، الرياض.

٤٤ـ منهج الفن الإسلامى، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق.

٤٥ـ نفحات رمضان وأثرها فى تكوين الشخصية الإسلامية، للمؤلف، مؤسسة الرسالة، ط أولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

ـ وهناك كتب ومطبوعات أخرى أشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

الفهـــــــرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

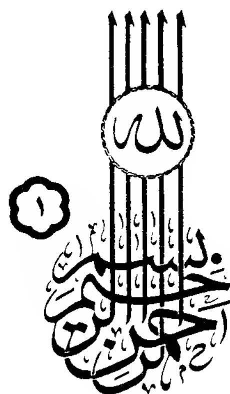
الموضوع	الصفحة

الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(٩)

الخطر اليهودي

الدكتور سعد المرصفي

مكتبة المنار الإسلامية



ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

الخطر اليهودي

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مكتبة المنار الإسلامية
طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية



AL-MANAR ISLAMIC BOOK SHOP
Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045
Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tel. 2615045, Fax. 2636854, P.O Box 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

مقدمـــة

قضى الله لبنى إسرائيل فى الكتاب أنهم سيفسدون فى الأرض.. وسيعلون على الناس بغير حق ويستكبرون.. وأنهم كلما اتخذوا ذلك وسيلة للإفساد سلط الله عليهم من عباده من يقهرهم، ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميرا.. وذلك يكشف عن العلاقة المباشرة بين مصارع الأمم وفشو الفساد فيها، وفاقا لسنة الله، حيث يحل الهلاك والدمار، والضياع والبوار!

وسبق أن ذكرنا بعض مظاهر الخطر اليهودى فى حديثنا عن أسطورة الوطن اليهودى، والفكر اليهودى، وموقف اليهود من الرسالة والرسول ﷺ، والطبيعة اليهودية، والتآمر اليهودى على حياة الرسول ﷺ، واليهود والخيانة، والقضاء عليهم عسكرياً، ومحاكمتهم .!

ومع كل هذا جاءت بروتوكولات حكماء صهيون رد فعل لما عاناه اليهود، من اضطهاد، وما نزل بهم من جور وعسف، خلال القرن التاسع عشر فى أوربا.. جاءت مؤامرة شريرة ضد البشرية، تدعو إلى الانتقام، حيث اعتقد اليهود أن البشرية كلها قد اشتركت بطريق أو بأخرى فى إذلالهم والنيل منهم وهى تنضح بل تفيض بالحقد والنقمة على العالم أجمع، وتكشف عن خسة ولؤم ودهاء حكماء صهيون.. وقد سجلها أخطر كتاب ظهر فى العالم تحت هذا العنوان «بروتوكولات حكماء صهيون» وتكاد لا تعرف بغيره، حتى فى اللغة الإنجليزية التى أضافت إليه عنوان « الخطر اليهودى» وهو ينطبق تماما على ما تحتويه تلك البروتوكولات من إشاعة الفوضى والإباحية، وتسليط المذاهب الفاسدة والدعوات المنكرة على العقول، وتقويض كل دعائم الدين والخلق فى جميع الأقطار!

وفى مايو ١٩٢٠ نشرت جريدة « آلتيمس » [١] مقالا عن الخطر اليهودى سمته «رسالة مقلقة: دعوة للتحقيق» ومنذئذ بدأت جريدة «المودننغ بوست» بمجموعة من المقالات فى ١٢ يوليو تنشر تحقيقا مضنيا جدا تحت عنوان «العالم المضطرب: خلف الستار

(١) انظر: الخطر اليهودى: بروتوكولات حكماء صهيون: ٣٨.

الأحمر» وسمى كاتبها البروتوكولات يومئذ «الإنجيل البلشفى» وهى تسمية منه بالغة الجدارة!

وعمل اليهود على تقويض نظام الحكم القيصرى، والتسلل فى كل دول العالم للقبض على مراكز القوة.. وتقويض الخلافة الإسلامية واتخذوا من مدينة «سلانيك» الوكر الأول لدسائسهم ومؤامراتهم [1] لأنها تضم أوفر عدد من اليهود فى تركيا، ومركز «الدونمة» وهم يهود تظاهروا بالإسلام نفاقا، ليعملوا على تقويض الخلافة وهم ضمن صفوفها، وعلى هدم الإسلام وهم داخل حصونه، ودعوا إلى الجامعة الطورانية للتخلص من الإسلام واللغة العربية، مما كان له الأثر البالغ فى توجيه حكم أتاتورك، الذى كان فيه عرق من «الدونمة» ومن ثم كان سقوط الخلافة الإسلامية، وتقسيمها إلى دويلات، وكانت مساعدة أعداء المسلمين على تحقيق منافع مادية من الميراث الضخم الذى خلفته وراءها، لكى يظفروا بمساعدتهم فى إقامة دولتهم فى فلسطين اغتصابا!

ومن ثم كانت خطورة هذا الكتاب، وكان القتل للذين ترجموه، مما دعانا إلى نشره فى هذه الدراسات، حتى يكون حجة ناطقة بما كتبت أيديهم! ، وكان التحذير مرات كثيرة أثناء إذاعة هذه الدراسات من إذاعة القرآن الكريم صباحا، وإعادتها مساء من البرنامج العام من إذاعة الكويت على مدى سبعة أشهر كاملة!

وقد اقتضت منهجية البحث أن يشتمل على فصلين:

الأول: بنو إسرائيل والإفساد فى الأرض.

الثانى: بروتوكولات حكماء صهيون.

والله أسأل : التوفيق والسداد.

والعون والرشاد. إنه سميع مجيب

الكويت فى : ٤ ربيع الأول ١٤١٣ هـ
١ سـبتمبر ١٩٩٢ م

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)

---

(١) انظر: مكايد يهودية: ٢٥٣ وما بعدها.

الفصل الأول

بنو إسرائيل والإفساد في الأرض

تمهيد ـ العصر الذهبى ـ عهد الانقسام وزوال ملك بنى إسرائيل ـ مع الآيات القرآنية ـ أشهر أقوال المفسرين ـ مقياس النصر والهزيمة ـ رأى جديد ـ سورة بنى إسرائيل ـ «لتفسدن فى الأرض مرتين» ـ رد الكرة ـ فرصة للاختيار ـ بشرى للمؤمنين ـ تعليق على المقال.

تمهيد:

يقول الله تعالى:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾ (١)

هذه الآيات تتضمن نهاية بنى إسرائيل التى صاروا إليها (٢)، وذالت دولتهم بها. وتكشف عن العلاقة المباشرة بين مصارع الأمم وفشو الفساد فيها، وفاقا لسنة الله التى ستذكر بعد قليل فى السورة ذاتها. وذلك أنه إذا قدر الهلاك لقرية جعل إفساد المترفين فيها سببا لهلاكها وتدميرها:

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ۝١٦ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (٣)

---

(١) الإسراء ٢ ـ ٨.

(٢) فى ظلال القرآن: ٤ : ٢٢١٢، وما بعدها بتصرف.

(٣) الإسراء: ١٦ ـ ١٧.

وهؤلاء هم الذين تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع فى الفسق والمجانة، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ فى الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا فى الأرض فسادا، ونشروا الفاحشة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التى لا تعيش الشعوب الراقية إلا بها ولها. ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخى،وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها.

وإذا ماقدر الله لقرية أنها هالكة، لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون، فلم تضرب على أيديهم، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها، فعم فيها الفسق، فتحللت وترهلت، فحقت عليها سنة الله، وأصابها الهلاك والدمار، ونزل بها الضياع والبوار.. وهى المسئولة عما يحل بها، لأنها لم تضرب على أيدى هؤلاء المفسدين، ولم تصلح من نظامها الذى يسمح بوجود هؤلاء المتحللين. فوجودهم ذاته هو السبب الذى من أجله سلطهم الله عليهم ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك.

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف، وسننا لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحق كلمته. والله لا يأمر بالفسق، ولا يأمر بالفحشاء. لكن وجود هؤلاء فى ذاته دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها، وسارت فى طريق الانحلال، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقا.. وهى التى تعرضت لما أصابها بسماحها لهؤلاء بالوجود والحياة.

فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجيه القهرى الذى ينشئ السبب ولكنها ترتب النتيجة على السبب.. الأمر الذى لا مفر منه، لأن السنة جرت به.. والأمر ليس أمرا توجيهيا إلى الفسق، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود هؤلاء المترفين، وهى الفسق.

وهنا تبرز تبعة الجماعة فى ترك النظم الفاسدة تنشىء آثارها التى لا مفر منها. وعدم الضرب على أيدى المفسدين فيها كى لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميرا.

هذه السنة قد مضت فى الأولين من بعد نوح، قرنا بعد قرن، كلما فشى التحلل فى أمة انتهى بها إلى ذلك المصير، والله هو الخبير بذنوب عباده البصير:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

ونبصر الحديث فى الآيات التى معنا يبدأ بذكر كتاب موسى ـ التوراة ـ وما اشتمل

عليه من إنذار لبنى إسرائيل، وتذكير لهم بهذا النبى ـ نوح ـ العبد الشكور، والأولين الذين حملوا معه فى السفينة:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾

ذلك الإنذار وهذا التذكير مصداق لوعد الله الذى يتضمنه سياق السورة كذلك وذلك ألا يعذب الله قوما، حتى يبعث إليهم رسولا ينذرهم ويذكرهم:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (١)

وقد نص على القصد الأول من إيتاء موسى الكتاب:

﴿ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾

فلا اعتماد إلا على الله وحده، ولا توجه إلا إلى الله وحده. فهذا هو الهدى، وهذا هو الإيمان. فما آمن ولا اهتدى من اتخذ من دون الله وكيلا.

ولقد خاطبهم باسم الآباء الذين حملهم مع نوح، وهم خلاصة البشرية على عهده.. خاطبهم بهذا ليذكرهم باستخلاص الله للأولين، مع نوح العبد الشكور، وليردهم إلى هذا النسب المؤمن العريق..

فى ذلك الكتاب الذى آتاه الله لموسى، ليكون هدى لبنى إسرائيل، أخبرهم بما قضاه عليهم من تدميرهم بسبب إفسادهم فى الأرض.. وتكرار هذا التدمير مرتين، لتكرر أسبابه من أفعالهم.. وأنذرهم بمثله كلما عادوا إلى الفساد فى الأرض كما قضت سنة الله الجارية التى لا تتخلف:

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

العصر الذهبى:

وهنا نذكر قصة الملأ من بنى إسرائيل فى قوله تعالى:

---

(١) الإسراء: ١٥.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١)

وسبق أن تحدثنا عن هذه الآيات بما يجعلنا فى غنى عن إعادة ما تضمنته من دروس ..

وحسبنا أن نشير بإجمال إلى أن دولة اليهود قد تأسست برئاسة طالوت.. وتولى الملك بعده داود عليه السلام.. وقد دام ملكه ـ كما تقول المصادر التاريخية ـ زهاء أربعين سنة، وكانت عاصمة ملكه فى أول العهد (حبرون) التى تسمى (الخليل) الآن. أما

(١) البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥١.

المدة الباقية فكانت (أورشليم) وقد ازدهرت المملكة فى عهده ازدهارا عظيما، واتسعت رقعتها، وشيدت فيها المبانى الفاخرة، والحصون المنيعة، ورأت عهدا زاخرا بالأمان والاطمئنان والرخاء والقوة [(١)].

وبعد داود عليه السلام، تولى ملك بنى إسرائيل ابنه سليمان عليه السلام، فازدادت حالتهم فى عهده رقيا ومنعة.

ويصف أحد الكتاب حال بنى إسرائيل فى عهد سليمان عليه السلام فيقول:

وفي عهد سليمان اعتز شأن الإسرائيليين، وامتد ملكهم من البحر الأحمر إلى نهر الفرات الكبير، وهابتهم الأمم المجاورة لهم.. وأرسل سفنه فى الآفاق تجوب البحار، وتأتيه بالذهب والفضة والأحجار الكريمة، وكانت مدة حكمه أربعين سنة، ذاق فيها الإسرائيليون الهناء والرخاء [(٢)].

والخلاصة أن عهد حكم داود وسليمان عليهما السلام لبنى إسرائيل يعتبرالعصر الذهبى لهم، والفترة الزاهية من تاريخهم، إذ اتسع فيها ملكهم، وعظم نفوذهم، وترادفت النعم والخيرات عليهم، ومع كل هذا لم يسلم داود وسليمان من افتراءات اليهود ـ كما أسلفنا ـ فتلك هى طبيعتهم دائماً!

عهد الانقسام وزوال ملك بنى إسرائيل:

وبعد وفاة سليمان عليه السلام، تولى (رحبعام) فانتشرت فى عهده ـ كما يقول المؤرخون ـ الفتن ، وكثرت المنازعات، واضطربت الأحوال، فأدى ذلك إلى انقسامها إلى قسمين: مملكة يهوذا، ومملكة إسرائيل.

أما مملكة يهوذا فكانت عاصمتها أورشليم، وملكها (رحبعام) وكانت تتكون من سبطى يهوذا وبنيامين، وقد تعاقب عليها واحد وعشرون ملكا.

وكانت نهايتها علي يد(بختنصر) الذى غزاها سنة ٥٨٨ ق م. فدمرها تدميرا، وساق الأحياء من أهلها أسرى إلى بابل، ومكثوا فى الأسر زهاء خمسين سنة، وما فعله(بختنصر) مع بنى إسرائيل يسمى بخراب أورشليم الأول.

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ٢: ٣٤٩وما بعدها بتصرف.

(٢) المرجع السابق : نقلا عن : تاريخ الإسرائيليين: ٢٣ شاهين مكاريوس.

وأما مملكة إسرائيل فكانت عاصمتها(السامرة) ـ نابلس الآن ـ وقد تأسست كأختها مملكة يهوذا سنة ٩٧٥ ق م، وملكها (يربعام) أخو (رحبعام) وكانت تتكون من بقية الأسباط العشرة، وقد تعاقب عليها تسعة عشر ملكا، وكانت نهايتها على يد (سرجون) ملك آشور، الذى غزاها وانتصر عليها، وأجلى سكانها من اليهود إلى ما وراء الفرات، وكان ذلك سنة ٧٢١ ق م.

وفى سنة ٥٣٨ ق م نشبت حرب بين (قورش) ملك الفرس (وبختنصر) ملك بابل، انتهت بانتصار ملك الفرس، فأصدر أمرا سنة ٥٣٦ ق م يأذن فيه لليهود بالعودة إلى أورشليم، ولكن أكثر اليهود كانوا قد ألفوا الحياة البابلية، وامتدت بها أعراقهم، ومن ثم فقد ترددوا فى العودة إليها، ولم يقبل العودة إلا عدد قليل منهم، أكثرهم من سبطى يهوذا وبنيامين ، وقد أعاد هؤلاء العائدون بناء الهيكل بتصريح من (قورش) سنة٥١٥ ق م تقريبا.

ومن ذلك التاريخ أصبحت كلمة(اليهود) تعنى: من اعتنق اليهودية، ولو لم يكن من بنى إسرائيل، وهذا هو الفرق بين اليهودى والإسرائيلى.

وظل اليهود بعد ذلك يتولى أمرهم كهنة منهم تحت رقابة حكام من الفرس، وكانت المناوشات بينهم لا تنقطع، إلى أن زال حكم الفرس عنهم سنة ٣٢٢ ق م.

وفى سنة ٣٢٣ ق . م . التى مات فيها الإسكندر المقدونى، قسمت مملكته بين قواده، فكانت أورشليم من نصيب بطليموس ملك مصر فحكمها بالعنف والشدة، رغم مقاومة اليهود له،وقد اضطر أمام ثوراتهم المتكررة إلى هدم جزء كبير منها، وقتل الكثيرين من سكانها، وإرسال مائة ألف من اليهود إلى مصر سنة ٣٢٠ ق م.

وقد تعاقب البطالسة على حكم أورشليم فترة طويلة، بعضهم عامل اليهود فيها بالقسوة والشدة، وبعضهم عاملهم باللين والعطف، حتى استولى السلوقيون عليها من البطالسة سنة ١٩٨ ق م.

وقد أوقع السلوقيون باليهود أشد الضربات وأقساها ، فعندما احتل (أنطوخيوس) السلوقى أورشليم هدم أسوارها ، ونهب ما فيها من أموال ، وقتل من اليهود ثمانين ألفا ، وأذل كهنتهم إذلالا شديدا.

وفى سنة ١٦٨ ق م قام اليهود بقيادة الكاهن (ماتياس) بثورة ضد السلوقيين لم

تنجح ، ومات بعدها بعام واحد ، فتولى ابنه الكاهن (مكابياس) قيادة الثائرين اليهود من جديد، وإلى هذا الكاهن تنسب أسرة المكابيين، وهم فريق من كهان اليهود اتصفوا بالحنكة وسعة الحيلة وكانوا أقرب إلى القادة العسكريين منهم إلى رجال الدين، وقد استطاعوا أن يستقلوا بحكم أورشليم لفترة من الزمان.

وفى سنة ٦٣ ق م كان الخلاف قد بلغ أشده بين المكابيين، وضعف مركزهم، فانتهزت الدولة الرومانية هذه الفرصة، وانقضت على أورشليم فاحتلتها بقيادة (بمبيوس) الرومانى.

ومنذ ذلك التاريخ خضعت أورشليم لحكم الرومان، إلى أن استولى عليها الفرس سنة ٦١٤م ثم عادت إلى الرومان.. ثم فتحها المسلمون سنة ١٥هـ ـــ ٦٣٦م فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وبقيت بعد ذلك دولة إسلامية، حتى اقتطع اليهود جزءا كبيرا منها أقاموا عليه دولتهم سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

وتوالى بعد ذلك العدوان والتوسع إلى وقتنا هذا، وسنعرض لذلك بالتفصيل فى حديثنا عن معالم النصر على اليهود.

ولعلنا بهذا نكون قد ألقينا الضوء على تاريخ اليهود الإجمالى.فى فلسطين منذ عهد داود عليه السلام حتى وقتنا الحاضر.. وقد تبين بجلاء ووضوح أهم ما تعرض له اليهود من تشتيت ودمار واحتلال وبوار..

ولنا عود على بدء نتحدث فيه بالتفصيل عن عصر التشرد وأثره عقب سقوط دولة اليهود تحت أقدام الآشوريين، ومن ثم تفرق اليهود ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة، ولم يعد لهم فى التاريخ شأن يذكر.. حتى الأربعينات من هذا القرن العشرين، وما تلا ذلك من أحداث حتى وقتنا الحاضر..

مع الآيات القرآنية:

ونعود إلى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

نعود لنبصر هذا القضاء إخبارا من الله تعالى لهم بما سيكون منهم حسب ما سبق فى

علمه الإلهى من مآلهم.. فالله عز وجل قد قضى لبنى إسرائيل فى الكتاب الذى آتاه لموسى أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين وأنهم سيعلون بغير حق على الناس ويستكبرون.. وكلما ارتفعوا بغير حق فاتخذوا ذلك وسيلة للإفساد سلط الله عليهم من عباده من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ويدمرهم تدميرا..

وكان من مظاهر إفسادهم فى الأرض - كما أسلفنا - تحريفهم للتوراة، وتركهم العمل بما جاء فيها، وقتلهم الأنبياء وافتراؤهم عليهم واعتداؤهم على الذين يأمرون بالقسط من الناس، وشيوع الفواحش والرذائل فيهم.

فإن قال قائل (١) : وما فائدة أن يخبر الله تعالى بنى إسرائيل فى التوراة أنهم يفسدون فى الأرض مرتين، وأنه يعاقبهم على ما كان منهم بتسليط الأعداء عليهم للتدمير؟

فالجواب: أن إخبارهم بذلك يفيد أن الحق تبارك وتعالى لا يظلم الناس شيئا، وإنما يعاقبهم على ما يكون منهم من إفساد ويعفو عن كثير، وأن رحمته مفتوحة للمفسدين متى أصلحوا وأنابوا إليه.

وهناك فائدة أخرى لهذا الإخبار، نبصرها فى تنبيه العقلاء فى جميع الأمم أن يحذروا من مواقعة المعاصى التى تؤدى بالأمة إلى الهلاك، وأن يحذّروا أممهم من ذلك، ويبصروهم بعواقب العصيان والإفساد فى الأرض، حتى لا يعرضوا أنفسهم لعقوبة الله تعالى.

والفائدة الثالثة من هذا الإخبار، بيان أن الأمم المغلوبة تستطيع أن تستعيد قوتها، وأن تسترد مجدها السالف، إذا صحت عزائمها على طاعة الله تعالى، والعمل بما جاءهم به الأنبياء عليهم صلوات الله وتسليماته.

ومن فوائد إيراد هذا الخبر فى القرآن الكريم، تنبيه اليهود المعاصرين للرسول الحبيب المحبوب ﷺ، ومن على شاكلتهم.. إلى سنة من سنن الله تعالى فى خلقه، وهى أن الإفساد فى الأرض، والانصراف عن طاعة الله سبحانه، والتعدى لحدوده، والمخالفة لأوامره، والعصيان لرسله، كل ذلك يؤدى إلى الخسران فى الدنيا والآخرة، فعلى اليهود وغيرهم من الناس أن يؤمنوا بخاتم النبيين ﷺ، الذى ثبتت نبوته ثبوتا لا شك فيه حتى يسعدوا فى دنياهم وأخراهم.

ثم بين الحق تبارك وتعالى أنه يسلط عليهم بعد الإفساد الأول من يقهرهم، ويستبيح

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة ٢ : ٣٥٣ وما بعدها بتصرف.

حرماتهم، ويدمرهم تدميرا، عقوبة لهم على ما كان منهم، فقال تعالى:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾

والمعنى: فإذا جاء وعد عقابكم، يا بنى إسرائيل، على أولى المرتين اللتين تفسدون فيهما فى الأرض، وجهنا إليكم، وسلطنا عليكم ﴿ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ذوى قوة وبطش فى الحرب شديد ﴿ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ ترددوا بين المساكن لقتلكم، وسلب أموالكم، وتخريب دياركم ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ أى كان ذلك العقاب بسبب إفسادكم فى الأرض وعدا نافذا لا مرد له ولا مفر لكم منه..

وهكذا يفسد اليهود فى الأرض، فيبعث الله عليهم عبادا من عباده أولى بأس شديد، وأولى بطش وقوة، يستبيحون الديار، ويروحون فيها ويغدون باستهتار، ويطأون ما فيها ومن فيها بلا تهيب، وكان ذلك وعدا لا يتخلف..

ثم بين سبحانه أنه إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والذل [1]، فرجعوا إلى ربهم، وأصلحوا أحوالهم، وأفادوا من البلاء المسلط عليهم.. وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم، فطغوا هم الآخرون وأفسدوا فى الأرض، أدال الله للمغلوبين من الغالبين، ومكن للمستضعفين من المستكبرين:

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

فمن الواجب أن تقدروا هذه النعمة، وتحسنوا الاستفادة منها، فقد جرت سنة الله تعالى أن يمن على الذين استضعفوا فى الأرض، ويجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين، متى استقاموا على طريق الحق، وخافوا مقامه، ونهوا أنفسهم عن الهوى..

فعليكم يا بنى إسرائيل أن تذكروا نعمة الله عليكم، وأن تشكروه عليها أجزل الشكر، وأن تؤمنوا بنبيه محمد ﷺ، الذى تعرفون صدقه كما تعرفون أبناءكم..

ثم تتكرر القصة من جديد!

وقبل أن يتم السياق القرآنى بقية النبوءة الصادقة والوعد المفعول يقرر قاعدة العمل والجزاء:

---

(١) فى ظلال القرآن: ٤ : ٢٢١٤ بتصرف.

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾

القاعدة التى لا تتغير فى الدنيا وفى الآخرة، والتى تجعل عمل الإنسان كله له، بكل ثماره ونتائجه.. وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، منه تنتج، وبه تتكيف، وتجعل الإنسان مسئولا عنه نفسه، إن شاء أحسن إليها، وإن شاء أساء، لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء..

فإذا تقررت القاعدة مضى السياق يكمل النبوءة الصادقة:

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾

ويحذف السياق ما يقع من بنى إسرائيل بعد الكرة من إفساد فى الأرض، اكتفاء بذكره من قبل:

﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾

ويثبت ما يسلطه عليهم فى المرة الآخرة:

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾

بما يرتكبونه معكم من نكال يملأ النفوس بالإساءة، حتى تفيض على الوجوه، أو بما يجبهون به وجوههم من مساءة وإذلال.. ويستبيحون المقدسات، ويستهينون بها:

﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾

يقال: تَبَره وتَبَّره، ، وتَبَّر الله عمل الكافرين: أى أهلكه وأبطله (١)، قال تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

وقال جل شأنه:

﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ (٣)

وفى قوله: ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ يقول ابن جرير: وليدمِّروا ما

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ولسان العرب، والمفردات، والمعجم الوسيط (تبر).

(٢) الأعراف: ١٣٩.

(٣) نوح: ٢٨.

غلبوا عليه من بلادكم تدميرا . يقال منه : دمَّرت البلد : إذا خرّبته وأهلكت أهله. [1].

وهى صورة للدمار الشامل الكامل الذى يطغى على كل شىء والذى لا يُبقى على شىء..

وكان من ضروب إفسادهم فى الأرض فى هذه المرة الثانية، قتلهم زكريا ويحيى عليهما السلام ــ كما تنطق آثارهم ــ ومحاولتهم قتل عيسى عليه السلام، وعدم تناهيهم عن منكر فعلوه، واستحلالهم لمحارم الله.. إلى غير ذلك من الرذائل التى فشت فيهم، واشتهروا بها فى كل زمان ومكان، وفى كل جيل وقبيل..

ثم بين الحق تبارك وتعالى أن هذا الدمار الذى حل بهم، بسبب إفسادهم فى الأرض مرتين، قد يكون طريقا لرحمتهم، وسببا فى توبتهم وإنابتهم ، إن هم فتحوا قلوبهم للحق، واعتبروا بالحوادث الماضية وفهموا عن الحق سنته التى لا تتخلف ، وهى أن الإحسان يؤدى إلى السعادة ، والإفساد يؤدى إلى الهلاك:

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾

إن أفدتم منه عبرة.

فأما إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد فى الأرض فالجزاء حاضر والسنة ماضية:

﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾

ولقد عادوا إلى الإفساد، حيث كذّبوا الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ــ كما أسلفنا ــ وكتموا ما جاء بشأنه فى كتبهم، وهموا بقتله أكثرمن مرة، وقدّموا له السم، فكانت المواجهة.. وكانت المعارك التى فصلنا القول فيها.. حتى كان إجلاؤهم من الجزيرة كلها..

ثم عادوا إلى الإفساد ، فسلط الله عليهم آخرين ، حتى كان العصر الحديث ــ كما سيأتى ــ حيث اغتصبوا الأرض ، وقتلوا النساء والأطفال، وعاثوا فى فلسطين فسادا.. وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب تصديقا لوعد الله القاطع، وفاقا لسنته التى لا تتخلف.. وقد بدت المقدمات للأيادى المتوضئة التى تستحق نصر الله.. وإن غدا لناظره قريب:

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥ : ٤٣ .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾ (١)

ثم بين سبحانه عقوبتهم ومن على شاكلتهم في الآخرة:

﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾

مهادا وبساطا لهم، أو سجنا حاصرا لهم لا رجاء لهم فى الخلاص منه، بسبب كفرهم وبغيهم، ففى الدنيا لهم ما تقدم وصفه من الإهلاك والتدمير، وفى الآخرة لهم عذاب السعير، المحيط بهم من جميع الجهات، جزاء فسادهم وإفسادهم.. تحصرهم فلا يفلت منهم أحد، وتتسع لهم فلا يند عنها أحد.

أشـهر أقوال المفسرين:

ومع أنه لم يصح عن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ حديث فى بيان المراد بالعباد الذين سلطهم الحق تبارك وتعالى على بنى إسرائيل فى مرتى هذا الإفساد..

ومع أن إفساد بنى إسرائيل قد حدث كثيرا، بحيث لا يحصى ولا يعد ـ كما أسلفنا ـ وأن المقصود من الآيات التى معنا إنما هو إظهار مرتين حدث فيهما الإفساد منهم.. وأن نفس الآيات تدل على أن التسليط عليهم مستمر إلى يوم القيامة، بسبب كفرهم وفسوقهم:

﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

ومع أن أقوال المؤرخين والمفسرين قد اختلفت فى المقصود من مرتى إفسادهم، وفيمن سلطه الله عليهم ، على حسب ما يتراءى لكل قائل فيما حدث من بنى إسرائيل من فساد، وما تبعه من عقوبات ..

ومع أن المقصود من سياق الآيات إنما هو بيان سنة من سنن الله فى الأمم، حال صلاحها وفسادها.. وأن القرآن الكريم قد ساق هذا المعنى بأحكم عبارة، حين قرر القاعدة التى لا تتغير فى الدنيا والآخرة، والتى تجعل عمل الإنسان كله له، بكل ثماره

---

(١) الأعراف : ١٦٧ ـ ١٦٨.

ونتائجه.. وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، منه تنتج، وبه تتكيف، وتجعل الإنسان مسئولا عن نفسه إن شاء أحسن إليها،،وإن شاء أساء لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء:

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾

يعجبنى قول ابن كثير بعد أن ذكر بعض الأقوال وعلق عليها : [١].

وفيما قص الله علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم، وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء.

ويعجبنى ما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾

قال : بعث الله عليهم فى المرة الأولى جالوت، فجاس خلال ديارهم، وضرب عليهم الخراج والذل، فسألوا الله تعالى أن يبعث لهم ملكا يقاتلون فى سبيل الله، فبعث الله طالوت، فنصر الله بنى إسرائيل ، وقتل جالوت بيد داود، ورجع إلى بنى إسرائيل ملكهم، فلما أفسدوا بعث الله عليهم فى المرة الآخرة بختنصر، فخرب المساجد، وتبّر ما علوا تتبيرا، قال الله تعالى بعد الأولى والآخرة :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾

قال: فعادوا فسلط الله عليهم المؤمنين [٢].

وفى رواية لهما ـ أيضا ـ عن قتادة قال:

أما المرة الأولى فسلط الله عليهم جالوت، حتى بعث طالوت ومعه داود، ثم رد

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ : ٢٥ .

(٢) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ٢ : ٣٦٢ وما بعدها، نقلا عن تفسير : الدر المنثور: ٤: ١٦٣ ، انظر : تفسير الطبرى: ١٥: ٢٨.

الكرة لبنى إسرائيل:

﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

أى عددا، وذلك فى زمان داود:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾

آخر العقوبتين:

﴿ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾

قال : ليقبحوا وجوهكم

﴿ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

قال: كما دخل عدوهم قبل ذلك:

﴿ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾

قال: يدمروا ما علوا تدميرا، فبعث الله عليهم فى الآخرة بختنصر البابلى المجوسى، أبغض خلق الله إليه، فسَبى وقتل وضرب بيت المقدس وسامهم سوء العذاب [(١)].

وهذا الرأى الذى نختاره ـ كما يقول الدكتور محمد سيد طنطاوى ـ [(٢)] نستند فى اختيارنا له إلى أمور، أهمها ما يلى:

أولا: ذكر القرآن الكريم عند عرضه لقصة القتال الذى دار بين طالوت قائد بنى إسرائيل وبين جالوت قائد أعدائهم ما يدل على أن بنى إسرائيل كانوا قبل ذلك مقهورين مهزومين من أعدائهم، ويتجلى هذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ ﴾ [(٣)].

---

(١) المراجع السابقة .

(٢) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة ٢:٣٦٦ وما بعدها بتصرف.

(٣) البقرة : ٢٤٦.

فقولهم كما حكى القرآن عنهم:

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾

يدل دلالة قوية على أنهم قبل قتالهم لجالوت كانوا قد هزموا على أيدى أعدائهم هزائم منكرة، اضطروا معها إلى الخروج من ديارهم ومفارقة أبنائهم.

ثانيا :صرح بعض المفسرين بأن الأعداء الذين أخرجوا بنى إسرائيل من ديارهم وأبنائهم هم قوم جالوت، وأنهم كانوا قد غلبوا بنى إسرائيل، وقتلوا عددا كبيرا منهم، وذلك قبل أن تعود الكرة لبنى إسرائيل عليهم بقيادة طالوت.

قال الآلوسى: وكان سبب طلب بنى إسرائيل من نبيهم أن يبعث لهم ملكا ليقاتلوا فى سبيل الله، أن أعداءهم هم العمالقة قوم جالوت، ظهروا عليهم، وتغلّبوا على كثير من بلادهم، وضربوا عليهم الجزية (١).

ثالثا: قوله تعالى:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾

صريح فى أن الله تعالى نصر بنى إسرائيل بعد أن تابوا وأنابوا، على أعدائهم الذين قهروهم وأذلوهم، وجاسوا خلال ديارهم.

وهذا المعنى ينطبق على ما قصه القرآن الكريم علينا من أن بنى إسرائيل بقيادة طالوت قد انتصروا على جالوت وجنوده، ومن أن داود قد قتل جالوت، قال تعالى :

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ (٢)

ولقد كان هذا النصر نعمة كبرى لبنى إسرائيل، لأنه آتاهم بعد أن أخرجوا من ديارهم وأبنائهم، وبعد أن اعترضوا على اختيار طالوت ملكا عليهم، وبعد أن قاتل مع

---

(١) المرجع السابق : نقلا عن تفسير الآلوسى : ٢ : ١٤١ بتصرف.

(٢) البقرة : ٢٥٠ ـ ٢٥١.

طالوت عدد قليل منهم: ولا شك أن النصر فى هذه الحالة أدعى لطاعة الله تعالى وشكره على آلائه.

رابعا: قوله تعالى:

﴿ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

أكثر ما يكون انطباقا على عهد حكم داود وسليمان عليهما السلام لبنى إسرائيل، ففى هذا العهد الذى دام زهاء ثمانين سنة، ازدهرت مملكتهم، وعز سلطانهم، وأمدهم الله خلاله بالأموال الوفيرة، وبالبنين الكثيرة، وجعلهم أكثر من أعدائهم قوة وعددا!

أما بعد هذا العصر الذهبى ـ كما أسلفنا ـ فقد انقسمت مملكتهم إلى قسمين: مملكة يهوذا، ومملكة إسرائيل، واستمرتا فى صراع ونزاع وتدهور، حتى قضى الآشوريون على مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ ق.م وقضى بختنصر عل مملكة يهوذا سنة ٥٨٨ ق م. وتاريخهم بعد ذلك ما هو إلا سلسلة من المآسى والنكبات والعقوبات التى حلت بهم من الشعوب المختلفة، فى شتى مراحل التاريخ، بسبب فسادهم وإفسادهم فى الأرض ..

أما المراد بالعباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الثانى فى الأرض، فيرى جمهور المفسرين أنهم البابليون بقيادة بختنصر.. الذى غزاهم ثلاث مرات:

الأولى سنة ٦٠٦ ق م.

والثانية سنة ٥٩٩ ق م.

والثالثة سنة ٥٨٨ ق م وفى هذه المرة الثالثة قتل الآلاف منهم، وهدم هيكلهم، وساق الأحياء أسارى إلى بابل..

وهذا الرأى الذى قاله جمهور المفسرين ليس ببعيد، لما ذكرنا من تنكيله بهم.. إلا أننا نؤثرعلى هذا الرأى أن يكون المسلط عليهم بعد إفسادهم الثانى، هم الرومان بقيادة تيطس لأمور، أهمها:

أولا:الذى يتتبع التاريخ يرى أن رذائل بنى إسرائيل فى الفترة التى سبقت تنكيل الرومان بهم أشد وأكبر من رذائلهم التى سبقت بختنصر لهم، وبالتالى كان تسليط الرومان عليهم أنكى وأقسى، فهم ـ على سبيل المثال ـ قبيل بطش الرومان بهم بقيادة تيطس كانوا قد قتلوا من أنبياء الله زكريا ويحيى عليهما السلام ـ كما أسلفنا ـ وحاولوا

قتل عيسى عليه السلام، واتخذوا لذلك كافة السبل، ولكنهم لم يفلحوا لأسباب خارجة عن إرادتهم، وكانت الرذائل والمنكرات قد فشت فيهم، مما أدى إلى لعنهم بسبب ذلك:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (١)

فكانت ضربات الرومان القاصمة لهم، والهادمة لكيانهم ، عقابا مناسبا من الحق تبارك وتعالى لهم نتيجة عصيانهم لأوامره، واعتدائهم على خلقه، وعدم تناهيهم عن منكر فعلوه.

ثانيا: المفسرون يذكرون أن تسليط الله عليهم بختنصر فى المرة الثانية من مرتى إفسادهم، كان من أسبابه قتلهم ليحيى عليه السلام.. وبختنصر كان سابقا على يحيى عليه السلام فى الزمن بأكثر من خمسة قرون، والذين كانت أورشليم تحت سيطرتهم فى عهد يحيى عليه السلام هم الرومان، وقد قتل بنو إسرائيل زكريا ويحيى عليهما السلام فى عهدهم كذلك.

وإذاً فما ذكره المفسرون من أن الله تعالى سلط عليهم بختنصر بعد إفسادهم الثانى بسبب قتلهم يحيى عليه السلام ينطبق على عهد الرومان، لأنه كان معاصرا لهم.. ولا ينطبق على عهد بختنصر، لأنه قبل يحيى عليه السلام بأكثر من خمسة قرون كما ذكرنا.

ثالثا: ضربات الرومان فى ذاتها كانت أشد وأقسى على بنى إسرائيل من ضربات بختنصر لهم، فمثلا عدد القتلى من اليهود على يد الرومان بقيادة تيطس بلغ مليون قتيل، وبلغ عد الأسرى نحو مائة ألف أسير ـ كما يقول المؤرخون ـ (٢) بينما عدد القتلى والأسرى منهم على يد بختنصر كان أقل من هذا العدد بكثير، ولقد وصف المؤرخون النكبة التى أوقعها تيطس باليهود بأوصاف تفوق بكثير ما وصفوا به ما أوقعه بختنصر بهم.

يقول أحد الكتاب واصفا ما حل باليهود على يد تيطس:

كان تيطس فى الثلاثين من عمره ، حينما وقف سنة ٧٠م أمام أسوار أورشليم على رأس جيشه. وبدأت المدينة تعانى أهوال الحصار، وتقاسى فى الوقت نفسه هولا أكبر، هو

---

(١) المائدة : ٧٨ ـ ٧٩ .
(٢) تاريخ الإسرائيليين : ٧٦ .

هول الحرب الأهلية، فقد احتل المتعصبون والمتطرفون ورجال العصابات من اليهود بعض أحياء المدينة وأخذوا يشنون هجمات وحشية على أحيائها الأخرى، حتى جرت الدماء فى الطرقات، وسرت المجاعة اليهودية، فكانوا يخرجون على أيديهم وأرجلهم كالأشباح الذابلة، تسبقهم الشائعات بأنهم قد ابتلعوا ذهبهم فى بطونهم، فكان الجنود يفتحون بطونهم بعد قتلهم بحثا عن الذهب.. وبعد أن اقتحم تيطس وجنده المدينة أصدر أمره إليهم أن احرقوا وانهبوا واقتلوا، فأموال اليهود وأعراضهم حلال لكم.. وقد أحرق الرومان معبد اليهود ودمروه، وتحققت نبوءة المسيح عليه السلام حين قال:

(ستلقى هذه الأرض بؤسا وعنتا وسيحل الغضب على أهلها، وسيسقطون صرعى على حد السيف، ويسيرون عبيداً إلى كل مصر، وستطأ أورشليم الأقدام)[1].

رابعا : نكبة التى أنزلها الرومان بقيادة تيطس باليهود ـ من حيث آثارها ـ أشنع بكثير من النكبة التى أنزلها بهم بختنصر، لأنهم بعد تنكيل بختنصر بهم وسجنهم فى أسره زهاء خمسين سنة، عادوا إلى أورشليم مرة أخرى ، بمساعدة قورش ملك الفرس وبدأوا يتكاثرون من جديد.. أما بعد تنكيل الرومان بهم، فلم تقم لهم قائمة، ومزقوا فى الأرض شر ممزق، وانقطع دابرهم كأمة، وقضى على كيان مجتمعهم.. ولقد وصل بالرومان أنهم فى سنة ١٣٥م دمروا أورشليم تدميرا تاما، وحرثوا أرضها، وخلطوها بالملح، حتى لا ينبت بها الزرع، وأقام الإمبراطور الرومانى (أدريانوس) مكان الهيكل اليهودى هيكلا وثنيا باسم الإله المشترى، إذ لم تكن الكنيسة قد اعترف بها بعد، وبقى هذا الهيكل إلى أن قامت المسيحية فى أورشليم، فدمره المسيحيون من أساسه فى عهد الإمبراطور قسطنطين ، وقد صرح بهذا المعنى صاحب (تاريخ الإسرائيليين) حيث قال بعد وصفه ما أوقعه (تيطس) بهم:

إلى هنا ينتهى تاريخ الإسرائيليين كأمة، فإنهم بعد خراب أورشليم ـ كما تقدم ـ تفرقوا فى جميع بلاد الله، وتاريخهم فيما بقى من العصور ملحق بتاريخ الممالك التى توطنوها أو نزلوا فيها..[1].

---

(١) تدمير أرشليم : مجلة الأزهر : المجلد ٢١ : ٤٧ عمر طلعت زهران.

(٢) تاريخ الإسرائيليين : ٧٧ .

وإذاً فما أنزله (تيطس) ومَن بعده من الرومان باليهود يعتبر - فى رأينا ـ أشد وأقسى، فى ذاته وفى آثاره، مما أنزله بختنصر بهم، بل لعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا : إن ضربة(تيطس) الرومانى هى أكبر عقوبة حلت بهم منذ موت سليمان عليه السلام حتى أواخر القرن الأول الميلادى.

ولهذه الأسباب نرجح أن يكون المراد بالعباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل عقب إفسادهم الثانى فى الأرض هم الرومان بقيادة (تيطس).

ومع ترجيحنا بأن المسلط عليهم فى المرة الأولى (جالوت) وجنوده.. وفى المرة الثانية الرومان بقيادة (تيطس)..

مع ترجيحنا لذلك، إلا أننا نعود فنكرر ما قلنا سابقا، من أن المقصود من الآيات الكريمة إنما هو بيان سنة من سنن الله الكونية فى الأمم حال صلاحها وفسادها.

مقياس النصر والهزيمة:

نقول هذا لأن الأمة التى تطيع خالقها، وتباشر الأسباب السليمة فى الوصول إلى حقوقها، وتتبع الطريق المستقيم فى سلوكها، ينصرها الله فى دنياها، ويسعدها فى آخرتها، قال تعالى :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴾ (١)

إن وعد اللّه قاطع.. وفى الوقت ذاته يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ـ كما فى تاريخ بنى إسرائيل ـ ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذّبا مطرودا (٢)، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب، وفيهم من يلقى فى الأخدود، وفيهم من يستشهد، وفيهم من يعيش فى كرب وشدة واضطهاد كما نرى ونشاهد ما يجرى فى الأرض المحتلة ـ فأين وعد الله لهم بالنصر فى الحياة الدنيا؟!

ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل، ويفعل بها الأفاعيل!

ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور.. ويغفلون عن قيم كثيرة فى التقدير..

---

(١) غافر : ٥١.

(٢) فى ظلال القرآن ٥: ٣٠٨٥ وما بعدها بتصرف.

إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان وهى مقاييس بشرية صغيرة.. فأما المقياس الشامل فيعرض القضية فى الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان.. ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان فى هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك.. وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها. فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتى خارج وجودها. وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها!

والناس كذلك يقصرون معنى النصرعلى صورة معينة معهودة لهم قريبة الرؤية لأعينهم، ولكن صور النصر شتى..وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة ـ كما عرفنا فى مواجهة الجيش الإسلامى لليهود فى خيبر ـ ولكن النتيجة كانت نصر الجيش الإسلامى ..

ولا ننسى أن نذكر موقف إبراهيم عليه السلام وهو يلقى فى النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها.. أكان فى موقف نصر أم فى موقف هزيمة؟!

ما من شك ـ فى منطق العقيدة ـ أنه كان فى قمة النصر وهو يلقى فى النار. كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار.. هذه صورة وتلك صورة .. وهما فى الظاهر بعيد من بعيد. فأما فى الحقيقة فهما قريب من قريب!

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته، ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده.. وما كان يملك أن يودع القلوب من المعانى الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التى يكتبها بدمه، فتبقى حافزا محركا للأبناء والأحفاد. وربما كانت حافزا محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال ..

ما النصر ؟

وما الهزيمـة ؟

إننا فى حاجة إلى أن نراجع ما استقر فى تقديرنا من الصور.. ومن القيم.. قبل أن نسأل: أين وعد الله بالنصر فى الحياة الدنيا ؟!

على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر فى صورته الظاهرة القريبة.. ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة.. لقد انتصر الرسول الحبيب المحبوب

ﷺ على اليهود وغيرهم فى حياته ـ كما أسلفنا ـ لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة فى الأرض. فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعا.. من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة.. فشاء الله أن ينتصر صاحب العقيدة فى حياته، بعد تلك المعارك الضارية، والمواجهات العسكرية، التى أبصرنا طرفا منها فى مواجهة اليهود، وصبر وصابر ورابط، حتى كان النصر للإسلام، وكانت الهزيمة لأعدائه، وذلك ليحقق هذه العقيدة فى صورتها الكاملة،ويترك هذه الحقيقة مقررة فى وقائع تاريخية محددة مشهودة ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية، وفق تقدير الله وترتيبه.

وهذا الذى نكتبه ونقوله شىء، والذى يجرى فى الأرض المحتلة من أطفال الحجارة ومواجهة المؤمنات والشيوخ لهذا العدوان اليهودى شىء آخر..

وشتان شتان ما بينهما..

الأول : فكر ونظر ودراسة وتحليل، لا يخرج عن ذلك، مهما كان الصدق فى القول والإخلاص فى النية..

والثانى : جهاد وتطبيق ودفاع ومواجهة للباطل، وإن كان الثمن هو الروح ..

أترانا بعد هذا نساوى أطفال الحجارة، ناهيك عن المؤمنات والشيوخ هناك؟

إننا نتطلع إليهم من بعيد.. وعسى أن يكتب الله لنا أن نشارك ونتبع القول بالعمل، ويكتب الله لنا الشهادة.. آمين..

وهنا ينقلب هذا الذى نكتبه من عبارات وكلمات وحروف إلى نور على نور..

ترى أى معلّم كان.. وأى إنسان.. هذا المترع عظمة وأمانة وسموا.. ألا إن الذين بهرتهم عظمته لمعذورون.. وإن الذين وقفوا أمام كل موقف من تلك التى عرضنا لها فى مواجهة اليهود وافتدوه بأرواحهم.. وصلوا وسلموا عليه وساروا على نهجه لهم الرابحون؟

إنه الرسول القائد الحبيب المحبوب ﷺ..

الرسول الذى علمنا كيف ننتصر على اليهود ومن على شاكلتهم.. فهل آن لنا أن تجد

هذه المعالم طريقها إلى كلياتنا الحربية حتى ينصرنا الله على اليهود؟!

اللهـــم وفـق.

وهنالك اعتباراً آخر تحسن مراعاته كذلك وهو أنه لا بد أن توجد حقيقة الإيمان فى القلوب التى ينطبق هذا الوعد عليها.. وحقيقة الإيمان كثيرا ما يتجوز الناس فيها. وهى لا توجد إلا حين يخلو القلب من الشرك فى كل صوره وأشكاله. وإن هنالك لأشكالا من الشرك خفية لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وحده، ويتوكل عليه وحده ويطمئن إلى قضاء الله فيه، وقدره عليه، ويحسّ أن الله وحده هو الذى يصرفه فلا خيرة له إلا ما اختاره الله.. ويتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضى والقبول.. وحين يصل إلى هذه الدرجة فلن يقدم بين يدى الله، لن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير، فسيكل هذا كله لله.. ويلتزم.. ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير..

وذلك معنى من معانى النصر..

النصر على الذات والشهوات..

وهو النصر الداخلى الذى لا يتم نصر خارجى بدونه بحال من الأحوال..

وقد أبصرنا هذا فى مواجهة الجيش الإسلامى بعدده القليل لهذا الجيش اليهودى بعدده الكثير وعدده الوفيرة.. حيث كان النصر فى قلوب المجاهدين الذين لم يشهد التاريخ الإنسانى بطوله وعرضه، من قوة الإيمان وحسن التوكل ما شهده فى هؤلاء المجاهدين الذين جاءوا الحياة فى أوانهم المرتقب، ويومهم الموعود.. حين كانت تهيب بمن يضع عن البشرية الرازحة أغلالها، ويحرر وجودها ومصيرها من إفساد اليهود ومن على شاكلتهم..

ومن ثم شادوا بالقرآن وكلماته عالما إسلاميا مثاليا يهتز نضرة.. ويتألق عظمة.. ويتفوق اقتدارا.. وفى الوقت ذاته كانت الهزيمة فى قلوب اليهود مع كثرة عددهم ووفرة عدتهم..

فهل نبصر نحن فى واقعنا الإسلامى الآن مقياس النصر والهزيمة ؟

إن الأمة التى تتكبر فى الأرض، وتستحب العمى على الهدى وتصم آذانها عن سماع كلمة الحق والعدل، وتعتدى على من يحاول إرشادها وتقويمها.. ثم بعد ذلك كله

لا تأخذ بأسباب القوة فى حياتها، ولا يقدر أفرادها مسئوليتهم كما يجب وينبغى.. مصيرها إلى الاضمحلال والهوان:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ (١)

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢)

إنه من جانب يقرر عدل الله عز وجل فى معاملة العباد(٣)، فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم، ويبدلوا سلوكهم ويقبلوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التى لم يقدروها ولم يشكروها..

وهذا هو واقعنا كأمة أمام اليهود الذين تشهد الأرض المغتصبة وما حولها مفاسدهم وكأننا فى عداد الموتى !

ومن الجانب الثانى يكرم هذا المخلوق الإنسانى أكبر تكريم، حين يجعل هذا القدر ينفذ ويجرى عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ويجعل التغيير فى حياة الناس مبنيا على التغير الواقعى فى قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم، وأوضاعهم التى يختارونها لأنفسهم..

فهل آن لنا أن ندرك قيمة هذا التكريم ونرتفع إلى مستوى المسئولية الذى يفرضه علينا الواجب تجاه الأرض المحتلة؟!

ومن الجانب الثالث يلقى تبعة عظيمة تقابل هذا التكريم على الإنسان. . فهو يملك أن يستبقى نعمة الله عليه، ويملك أن يزاد عليها إذا هو عرف فشكر، كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر ، وانحرفت نواياه فانحرفت خطاه .

وهذه الحقيقة الكبيرة تمثل جانباً من جوانب التصور الإسلامى لحقيقة الإنسان ، وعلاقته القدرية فى هذا الوجود، وعلاقته هو بهذا الكون وما يجرى فيه..

---

(١) الرعد : ١١ . (٢) الأنفال : ٥٣.

(٣) فى ظلال القرآن : ٣: ٥٣٥ بتصرف.

ومن هذا الجانب يتبين تقدير هذا الإنسان فى ميزان الله، وتكريمه بهذا التقدير، كما تتبين فاعلية الإنسان فى مصير نفسه وفى مصير الأحداث من حوله، فيبدو عنصرا إيجابيا فى صياغة هذا المصير ـ بإذن الله وقدره الذى يجرى من خلال حركته وعمله ونيته وسلوكه ـ وتنتفى عنه تلك السلبية الذليلة التى تفرضها عليه المذاهب المادية، التى تصورها عنصرا سلبيا إزاء الحتميات الجبارة.. حتمية الاقتصاد. وحتمية التاريخ وحتمية التطور.. إلى آخر الحتميات التى ليس للكائن الإنسانى إزاءها حول ولا قوة، ولا يملك إلا الخضوع المطلق لما تفرضه عليه وهو ضائع خانع!

كذلك تصور هذه الحقيقة ذلك التلازم بين العمل والجزاء فى حياة هذا الكائن ونشاطه، وتصور عدل الحق المطلق، فى جعل التلازم سنة من سننه يجرى بها القدر، ولا يظلم فيها عبد من العباد..

فهل آن لنا أن ندرك هذا التلازم بين العمل والجزاء، ونحن نرجو أن ينصرنا الله على اليهود؟!

إن هذا يدفعنا حتمًا إلى بذل أقصى الطاقات السلوكية والحربية للمواجهة الفاصلة التى يفرضها علينا الدين القيم حتى تتحرر الأرض المغتصبة!

إنها الحقيقة تلقى علينا تبعة ثقيلة جدا، حيث قضت مشيئة الله وجرت سنته، أن تترتب النتيجةعلى المقدمات..

وها نحن نبصر مقدمات تبشر بالخير للمعركة الفاصلة بيننا وبين اليهود..

رأى جـديـــــد:

ونعود إلى تلك الآيات القرآنية اتى تتحدث عن مرتى إفساد بنى إسرائيل ..

نعود لنجد أقوال المفسرين تتفق على أمرين:

الأول: أن مرتى إفساد بنى إسرائيل بنى إسرائيل فى لأرض كانتا قبل الإسلام.

الثانى: أن العباد الذين سلطهم الله عليهم ليذلوهم عقب إفسادهم الأول والثانى كانوا ـ أيضا ـ قبل الإسلام..

وخلاف المفسرين إنما هو فيما سوى هذين الأمرين.

وسبق أن ذكرنا أشهر أقوال المفسرين فى ذلك .

ولكن رأيا جديدا فى تفسير الآيات القرآنية للشيخ عبد المعز عبد الستار [١] ، خالف فيه إجماع المفسرين ، نعرضه هنا بإيجاز، حيث ذهب إلى أن هاتين المرتين لم تكونا قبل البعثة، وإنما هما فى الإسلام ، وأن المرة الأولى كانت على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه، والآخرة هى التى نحن فيها الآن ..

يقول: أطبق المفسرون على أن ذلك الإفساد وقع منهم مرتين فى الماضى قبل الإسلام أيام أن علوا وغلوا وقتلوا الأنبياء وكذبوا المرسلين وإن اختلفت أقوالهم فى ذلك اختلافا كبيرا فى تحديد نوع إفسادهم الأول وزمنه، والمسلط عليهم، وكذلك فى الثانى.

والذى يعنينى أن أكشف عنه وأن أثبته فى هذا أمران:

الأول: أن هاتين المرتين لم تكونا قبل البعثة، وإنما هما فى الإسلام.

الثانى: أن المرة الأولى كانت على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه، والآخرة هى التى نحن فيها الآن، والتى سنسوء فيها وجوههم، وندخل المسجد كما دخلناه .. إن شاء الله رب العالمين .

وأبادر فأطمئن الذين قد يهولهم هذا التخريج، فيرونه مخالفا للمأثور أوالمعروف من أقوال المفسرين، إلى أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ فيه شىء، وإلى أن المأثور عن بعض الصحابة مضطرب لا تقوم به حجة وإلى أن الأمر لا يعدو أن يكون تاريخا أو تأويلا، لا يقال فى مخالفته إنه تحريف للكلم عن مواضعه.

وأعود لإثبات الأمر الأول فأقول :

الحديث عن الإسراء تبشير وإنباء بمستقبل: الثابت أن الإسراء وقع لرسول الله ﷺ وهو بمكة قبل الهجرة، فإن سورة الإسراء أنزلت كذلك، فهى مكية ، إلا آيات معلومات، وقد كان المسلمون يومئذ بمكة مستضعفين فى الأرض، يخافون أن يتخطفهم الناس، فلم يكن لبنى إسرائيل يومئذ صلة ولا شأن مع المسلمين،ولم يكن لهم أثر بمكة، ولا خطر يقتضى أن يتحدث القرآن عنهم فى سورة مكية بمثل هذا التفصيل.

فما السر أن يخبر الله عن إسرائه برسوله ﷺ فى آية واحدة أول السورة، ينقطع

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ٢ : ٣٧٣ وما بعدها بتصرف، نقلا عن مجلة الأزهر المجلد ٢٨ : ٦٨٩ تحت عنوان : سورة الإسراء تقص نهاية إسرائيل .

بعدها الحديث عن الإسراء جملة إلى آخرها، ويبدأ الحديث عن بنى إسرائيل وما أنعم عليهم وعهد إليهم، وعن دور خطير يكون لهم؟

وما وجه المناسبة بين هذه الآيات والأحداث؟

السر فى ذلك أن الله عز وجل يخبر عن الإسراء بمقدار ما يبشر به نبيه، والمسلمين المضطهدين بمكة، المستضعفين فى الأرض، بأن أمرهم سيمتد ويعلو وشيكا، حتى تدين لهم عاصمة الشرك، وعاصمة أهل الكتاب، فهو سبحانه يقول:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (١)

لم يقل من مكة إلى بيت المقدس كما هو الحال، إذ الكعبة يومئذ لم تكن مسجدا، وإنما كانت بيتا تقوم حوله الأصنام، ويطوف به العائذون والمشركون، ولم يكن هيكل دولة داود وسليمان فى دولة يهوذا وإسرائيل مسجدا، وإنما كان بيتا يأكلْ بنو إسرائيل من حوله السحت ويعيثون الفساد.

ولكن الله عز وجل أخبر عن هذا الإسراء بأنه انتقال من مسجد إلى مسجد، تبشيرا للمسلمين بأن أمرهم سيعلو ويتم، بحيث يصبح البلد الذى استضعفوا فيه وهانوا، وحلت حرماتهم فيه مسجدا حراما ودار أمن وإسلام، ليس هذا فحسب، بل سيمتد نفوذه وضياؤه، بحيث يصل عاصمة أهل الكتاب، ويصبح هيكل داود وسليمان لهم مسجدا أقصى كذلك، فهم أولى به:

﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (٢)

وهنا يتضح الجواب، ويظهر وجه المناسبة بين قوله تعالى:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ... وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾

وبين آية الإسراء الأولى .

فقد اتصل الحديث، وإن انتقل الكلام من الإنباء بمصير الهيكل إلى الإنباء عن مصير أهله.

---

(١) الإسراء : ١ .

(٢) الأنفال : ٣٤ .

سورة بنى إسرائيل :

وبحق ما سميت سورة الإسراء سورة بنى إسرائيل، فإنها أحق بهذه التسمية وأجدر؛ لأنها لم تتحدث عن الإسراء إلا بمقدار ما بشرت بصيرورة الكعبة والهيكل للمسلمين حرما ومسجدا، ثم اتصل الحديث ببنى إسرائيل وخطبهم مع المسلمين بعد، فقال تعالى:

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾

فإذا لاحظنا أن الله عز وجل لم يخبر عن بنى إسرائيل فى سور مكية إلا بمقدار ما تساق العبرة من مواقفهم من موسى ووصاياه، وموقفهم من فرعون وجنوده، وأخبر عنهم فى السور المدنية كثيرا،فسجل لهم ضروبا من الفساد والإفساد، فأخبر عن نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف وأخبر عن ظلمهم وصدهم عن سبيل الله كثيرا، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأخبر عن اعتدائهم فى السبت، وحذرهم الموت وسكوتهم عن المنكر، واشتراءهم بآيات الله ثمنا قليلا، وأخبر عن قتلهم أنفسهم، وإخراجهم فريقا من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، وقولهم ليس علينا فى الأميين سبيل.. الخ .

« لتفسدن فى الأرض مرتين » :

فإذا لاحظنا هنا أن الله ينص على أنه قضى أنهم يفسدون فى الأرض مرتين، فإذا جاء وعد أولاهما كان كذا، وإذا جاء وعد الآخرة كان كذا.. دل ذلك على أن المرتين غير ما سبق أن سجل لهما، وأنهما يقعان فى المستقبل، بالنسبة لمن أنزل عليه الكتاب ﷺ، لأن الحديث من أوله تبشير وإيماء لمستقبل، فذلك من الإنباء بالغيب، والإخبار بما لم يقع، وإلا فهم أفسدوا من قبل سبعين مرة، فالمرتان المعنيتان فى الآية وقعتا بعد، وقد أكد ذلك إعجاز القرآن وصدق ما جاء به محمد ﷺ.

أولاهما: قال تعالى:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ ﴾ الخ.

لا تنطبق هذه المرة تمام الانطباق إلا على الدور الذى قاموا به على عهد النبى ﷺ وأصحابه، وما عاقبهم الله به، وسلط عليهم فيه.

فهم أفسدوا فى الأرض، ونقضوا عهد الله ورسوله، وكان ﷺ قد عاهدهم أول ما وصل المدينة.. (١).

رغم هذه الرعاية والمصافاة والمواساة، انطلقوا بالبغى والمكر والفساد فى الأرض يشككون فى شخص النبى ﷺ ونزاهته ورسالته، ويفتون المشركين أنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلا.

ويفتحون دورهم وصدورهم لأعداء النبى ﷺ، ويدلونهم على عورات المؤمنين، وبلغ من أمرهم أن هموا بقتل الرسول ﷺ ـ أكثر من مرة كما أسلفنا ـ وهيجوا قريشا وغطفان، حتى حصروا المدينة، للقضاء على رسول الله ودعوته وأتباعه، وانضموا لهم، ونقضوا عهد الله ورسوله فى ساعة العسرة ويوم الأحزاب، فسلط الله عليهم عباده المؤمنين، فأجلوا بنى قينقاع وبنى النضير وقتلوا المقاتلين من بنى قريظة ثم فتحوا خيبر، ثم من عليهم الرسول فاستبقاهم عملاء، حتى أجلاهم عمر فى خلافته، وكان وعدا من الله للمؤمنين بالتمكين، وقد فعل وهذه هى المرة الأولى، لا تنطبق أوصافها إلا على أصحاب رسول الله ﷺ.

فهم الذين يستحقون شرف هذه النسبة «عبادا لنا» لأنهم الموحدون أتباع عبده الذى أسرى به. أما أتباع بختنصر أو غيره مما اضطربت فيه أقوال المفسرين، فقد كانوا عباد وثن، لايستحقون شرف الاختصاص بالله فى قوله «**لنا**»

وهم الذين وصفهم الله فى كتابه بأنهم!

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ (٢)

وهم الذين لم يكلفهم تأديب اليهود إلا أن :

﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾

أما أتباع بختنصر فقد ذكروا أنه قتل على دم زكريا وحده سبعين ألفا، وأنه دخل المقدس فى أهله، وسلب حليّه.. الخ، فهو اجتياح وليس جوسا.

---

(١) ذكر هنا نصوصا من وثيقة موادعة اليهود، وقد رواها ابن إسحاق: ٢:١٦ ـ ١٨ بدون إسناد. انظر : كتابنا: الهجرة النبوية: ٢٤٣ ففيه تفصيل القول فى ذلك .

(٢) الفتح : ٢٩ .

رد الكرة :

قال تعالى :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾

ردت لليهود الكرة علينا بعد ألف وثلاثمائة ونيف وسبعين سنة من تأديب الله لهم ، منذ بعث عليهم عباده المؤمنين من أصحاب رسول الله، فجاسوا خلال الديار.

بعد هذه المقدمة ـ التي أشار القرآن لطولها بقوله «**ثم**» التي تقتضى فى العطف تراخيا فى الأجل ـ ردت لليهود الكرة، وأمدوا بثلاث ما أمدوا بمثلها في تاريخهم:

١ ـ بأموال تتدفق عليهم من أقطار الأرض، على ما أرادوا من صعبه أو سهله.

٢ ـ بنين مهاجرين ومقاتلين ينتخبون لحماسهم وصلاحيتهم لبناء دولتهم.

٣ ـ ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

ولم يكن اليهود في يوم ما أكثر نفيرا وناصرا منهم اليوم، ولم يتمتع اليهود فى تاريخهم، ولا أمة في الأرض غيرهم، بمثل ما يتمتعون به، من كثرة الناصر لهم، والنافر لنجدتهم: إذا غضبوا غضبت لهم أمريكا وإنجلترا وفرنسا وأمم الغرب جميعا ، وإن دعوا أجابهم الظالمون، وتنادوا لنصرتهم.. لقد اتفق الشرق والغرب ـ ولم يتفق يوما ـ على إنشاء إسرائيل وتقسيم فلسطين، وسكتوا ـ ولم يسكتوا يوما ـ على مأساه اللاجئين والمنكوبين والمشردين.

كل هذه الأوصاف تؤكد أن الدور الذى نعانيه اليوم هو الكرة المعنية فى الآية، وكل ما ذكره المفسرون بعيد، لا تنطق عليه هذه الصفات.

فرصة للاختيار:

قال تعالى:

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾

بعد أن قرر سبحانه أنه سيرد لليهود الكرة، قرر أنها فرصة لهم ليختاروا لأنفسهم، وليرسموا نهايتهم، فللذين أحسنوا الحسنى، وللذين أساءوا السوآى، ثم قرر سبحانه أنهم

لن ينفكوا عن فسادهم وإفسادهم فقرر بعد ذلك على الفور عاقبة أمرهم، لأنها معروفة محتومة، فقال تعالى:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴾

يقرر الله عز وجل أنهم لن يستقبلوا النعمة بالشكر، ولا الكرة بالذكر والانتهاء عن الفساد، وإنما سيعاودون فسادهم الموروث،على نحو يدخلهم فى شديد مقت الله ونقمة عباده، بما يبعد أن تدركهم عند ذلك رحمته فيقول :

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ ﴾

سلطنا عليكم عبادنا الأولين الذين دخلوا المسجد، ثم ردت لكم الكرة على خلافئهم:

﴿ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ ﴾

بما ترون من مصارعكم، ومصارع أحلامكم، وما تعاينون من سوء المنظر فى المال وأهل والولد :

﴿ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ ﴾

دخول العزيز الظاهر:

﴿ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

ظافرين منصورين:

﴿ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ ﴾

تدميرا.

وذلك دورنا المرتقب، وعملنا الذى نرجو أن يشرفنا الله به فى القريب، فإنا لنطمع أن يعذبهم الله بأيدينا ويخزهم، وينصرنا عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين..

وقد قرر سبحانه أنه سيجمعهم ألفافا، لنبيدهم فقال:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

بشرى للمؤمنين:

يؤكد هذه النهاية ويبشر بقرب وقوعها قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا جَآءَ ﴾

فإن العطف بالفاء يقتضى الترتيب مع التعقيب، فالوعد واقع قريبا بعد هذه الكرة.

والتعبير (**بإذا**) يدل على تحقيق المجيء لامحالة.

وبشائر النصر التى تحدونا أولا وأخيرا فى هذه السورة.

قال تعالى بعد هذه الآيات:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (١)

وقال تعالى فى آخر السورة:

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ (٢)

تعليق على المقال:

والذى يقرأ هذا المقال يتبين له أن كاتبه يرى أن المراد من (**الكتاب**) فى قوله تعالى:

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ ﴾

هو القرآن الكريم لا التوراة:

وهذا الفهم لا يمكن أن ينساق إلى ذهن من يقرأ الآيات القرآنية بتدبر، لأن اللّه تعالى يقول:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

---

(١) الإسراء: ٩. (٢) الإسراء: ١٠٤.

ثم يقول بعد ذلك:

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾

فالكتاب فى الآية الثانية يقصد به عين الكتاب في الآية الأولى، وهو التوراة التى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام، وجعلها هدى لبنى إسرائيل، وسبق أن بينا ذلك، وأنه المعنى المتبادر من الآيات، والذى لايمكن أن يفهم المتأمل فى كتاب الله غيره، فقد أجمع عليه جمهور المفسرين، ، وقليل منهم أضاف إلى ذلك أنه يجوز أن يراد به اللوح المحفوظ، ومنهم القاسمى، [1]. وقد سبق بيان فائدة إخبار الله بنى إسرائيل فى التوراة أنهم يفسدون فى الأرض مرتين.

وبإثباتنا أن المراد بالكتاب فى الآية الثانية هو التوراة، نكون قد رددنا أساس رأيه من أن المراد به هو القرآن ـ كما يقول الدكتور طنطاوى ـ[2] ورددنا ما بناه على هذا الرأى من أن مرتى الإفساد فى الإسلام، وأن ذلك من الإنباء بالغيب الذى يكون فى المستقبل بالنسبة لنزول الآية الكريمة على النبى ﷺ..

ولنا تعليقات يسيرة على بعض ما جاء فى هذا المقال منها:

أولا: يقول: ما السر فى أن يخبر الله عن إسرائه برسوله ﷺ فى آية واحدة أول السورة، ينقطع بعدها الحديث عن الإسراء جملة إلى آخر السورة، ويبدأ الحديث عن بنى إسرائيل وما أنعم الله عليهم وعهد إليهم وعن دور خطير يكون لهم، وما وجه المناسبة بين هذه الآيات والأحداث..؟ الخ.

ونقول: إن الله تعالى ما ذكر الإسراء إلا ليكون آية من الآيات من أول الإسراء مثارا لتشكيك من فى قلوبهم مرض فى رسالة النبى ﷺ وصدق نبوته، كما اتخذها ذريعة للسخرية برسول الله ﷺ ومن آمن به فالله تعالى يقول لهؤلاء الذين فى قلوبهم مرض، ويصدون عن سبيل الله من آمن، ويهزأون برسوله الكريم ﷺ إن لم تنتهوا عن إثارة الفساد فى الأرض، ووضع العراقيل أمام الدعوة، ليصيبنكم ما أصاب بنى إسرائيل قبلكم، حين عاثوا فسادا في الأرض مرتين، وعلوا علوا كبيرا، فقد سلط الله عليهم بعد كل من المرتين

(١) تفسير القاسمى : ١٠ : ٣٩٠٢ .

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة:٢: ٣٨١ وما بعدها بتصرف.

من يسومهم سوء العذاب، ومن يجوس خلال ديارهم بالقتل والتخريب.

وتبدأ السورة بتسبيح اللّه..

وتضم موضوعات شتى، معظمها عن العقيدة، [1] وبعضها عن قواعد السلوك الفردى والجماعى وآدابة القائمة على العقيدة، إلى شىء من القصص عن بنى إسرائيل يتعلق بالمسجد الأقصى الذى كان إليه الإسراء..

ولكن العنصر البارز فى كيان هذه السورة ومحور موضوعاتها الأصيل هو شخص الرسول الحبيب المحبوب ﷺ .. وموقف القوم منه فى مكة.. والقرآن الذى نزل عليه.. وطبيعة هذا القرآن، وما يهدى إليه، واستقبال القوم له.. واستطرد بهذه المناسبة إلى طبيعة الرسالة والرسل، وإلى امتياز الرسالة الإسلامية بطابع غير طابع الخوارق الحسية وما يتبعها من هلاك المكذبين بها.. وإلى تقرير التبعة الفردية فى الهدى والضلال الاعتقادى، والتبعة الجماعية فى السلوك العملى فى محيط المجتمع.. كل ذلك بعد أن يعزر الله سبحانه إلى الناس، فيرسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير والبيان والتفصيل:

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ [2]

ويتكرر فى سياق السورة تنزيه الله وتسبيحه وحمده وشكر آلائه.. ففى مطلعها:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ [3]

وفى أمر بنى إسرائيل بتوحيد الله يذكرهم بأنهم من ذرية المؤمنين مع نوح:

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [4].

وعند دعاوى المشركين عن الآلهة يعقب بقوله :

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [5].

---

(١) فى ظلال القرآن : ٤ : ٢٢٠٨ وما بعدها بتصرف .

(٢) الإسراء : ١٢. (٣) الإسراء : ١ .

(٤) الإسراء : ٣ . (٥) الإسراء : ٤٣ ــ ٤٤ .

وفي حكاية قول بعض أهل الكتاب حين يتلى عليهم القرآن:

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (١)

وتنتهى السورة بالحمد:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ (٢)

فى تلك الموضوعات المنوعة حول ذلك المحور الواحد الذى بينا يمضى سياق السورة فى مواقف متتابعة..

يبدأ الموقف الأول بالإشارة إلى الإسراء:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾

مع الكشف عن حكمة الإسراء:

﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾

وبمناسبة المسجد الأقصى يذكر كتاب موسى وما قضى لبنى إسرائيل، من نكبة وهلاك وتشريد مرتين، بسبب طغيانهم وإفسادهم، مع إنذارهم بثالثة ورابعة:

﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾

ثم يقرر أن الكتاب الأخير ـ القرآن ـ يهدى للتى هى أقوم، بينما الإنسان عجول مندفع، لا يملك زمام انفعالاته.. ويقرر قاعدة التبعة الفردية فى الهدى والضلال، وقاعدة التبعة الجماعية فى التصرفات والسلوك..

وهكذا نجد السياق ينتقل من سيرة بنى إسرائيل، وكتابهم الذى آتاه الله موسى عليه السلام، ليهتدوا به فلم يهتدوا، بل ضلوا فهلكوا.. ينتقل السياق إلى القرآن:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

(١) الإسراء: ١٠٨.   (٢) الإسراء: ١١١.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١)

هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقواما وأجيالا بلا حدود من زمان أو مكان، ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدى إليه البشر فى كل زمان ومكان..

يهدى للتى هى أقوم فى عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة التى لا تعقيد فيها ولا غموض ـ كما عرفنا عن عقيدة اليهود ومن على شاكلتهم ـ والتى تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية فى تناسق واتساق..

ويهدى للتى هى أقوم فى التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هى كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التى لا تنفصم، متطلعة إلى أعلى وهى مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعا واستمتاعا بالحياة، فلا مادية.. كما نشهد الواقع اليهودى المادى.. ولا رهبانية أيضا..

ويهدى للتى هى أقوم فى عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تترخص حتى تشيع فى النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال..

ويهدى للتى هى أقوم فى علاقات الناس بعضهم ببعض: أفراد وأسرا، وحكومات وشعوبا، ودولا وأجناسا.. كما رأينا فى هدى النبى ﷺ فى علاقته باليهود.

وعرفنا أنه يقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التى لا تتأثر بالرأى والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض.. الأسس التى أقامها العليم الخبير لخلقه، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم فى كل أرض وفى كل جيل، فيهديهم للتى هى أقوم فى نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولى اللائق بعالم الإنسان..

ويهدى للتى أقوم فى تبنى الرسالات السماوية ـ ومنها رسالة موسى ـ والربط بينهما،

---

(١) الإسراء: ٩ ـ ١٠.

وتعظيم مقدساتها، وفق هدى الحق، وصيانة حرماتها، وفق وحى السماء، فإذا البشرية كلها بجميع رسالاتها السماوية فى سلام ووئام..

ولكن اليهود ـ كما عرفنا ـ هم اليهود!

فأما الذين لا يهتدون بهدى القرآن، فهم متروكون لهوى الإنسان.. الإنسان العجول..

الإنسان الجاهل بما ينفعه وما يضره، المندفع الذى لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها الشر له:

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا ﴾ (١)

ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها، ولقد يفعل الفعل وهو شر، ويعجل به على نفسه وهو لا يدرى. أو يدرى ولكنه لا يقدر على كبح جماحه وضبط زمامه.. فأين هذا من هدى القرآن الثابت الهادئ الهادى؟

ألا إنهما طريقان مختلفان : شتان شتان . هدى القرآن وهوى الإنسان!

ومن الإشارة إلى الإسراء وما صاحبه من آيات، والإشارة إلى نوح ومن حُملوا معه من المؤمنين، والإشارة إلى قصة بنى إسرائيل، وما قضاه الله لهم فى الكتاب، وما يدل عليه هذا القضاء من سنن الله فى العباد، ومن قواعد العمل والجزاء، والإشارة إلى الكتاب الأخير الذى يهدى للتى هى أقوم ..

من هذه الإشارة إلى آيات الله التى أعطاها للرسل ، ينتقل السياق إلى آيات الله الكونية فى هذا الوجود، يربط بها نشاط البشر وأعمالهم، وجهودهم وجزاءهم، وكسبهم وحسابهم، فإذا نواميس العمل والجزاء والكسب والحساب مرتبطة أشد ارتباط بالنواميس الكونية الكبرى، محكومة بالنواميس ذاتها، قائمة على قواعد وسنن لا تتخلف ، دقيقة منظمة دقة النظام الكونى الذى يصرف الليل والنهار، مدبرة بإرادة الخالق الذى جعل الليل والنهار آيتين..

ويبدأ الموقف الثانى بقاعدة التوحيد ـ وهى قد أصابها التحريف اليهودى والتخريف الصهيونى الجهول ـ كما أسلفنا ـ وذلك ليقيم عليها البناء الاجتماعى كله، وآداب العمل

---

(١) الإسراء : ١١ .

والسلوك فيه، ويشدها إلى هذا المحور الذى لا يقوم بناء الحياة إلا مستندا إليه..

ويتحدث فى الموقف الثالث: عن أوهام الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله، وعن البعث واستبعادهم لوقوعه، وعن استقبالهم للقرآن الكريم، وتقولاتهم على الرسول الحبيب المحبوب ﷺ.. ويأمر المؤمنين أن يقولوا قولا آخر، ويتكلموا بالتى هى أحسن..

وفى الموقف الرابع: يبين لماذا لم يرسل الله خاتم النبيين ﷺ بالخوارق، فقد كذب بها الأولون، فحق عليهم الهلاك اتباعا لسنة الله، كما يتناول موقف المشركين من إنذار الله لهم فى رؤيا الرسول ﷺ وتكذيبهم وطغيانهم..

ويجىء فى هذا السياق طرف من قصة إبليس، وإعلانه أنه سيكون حربا على ذرية آدم.. يجىء هذا الطرف من القصة كأنه كشف لعوامل الضلال الذى يبدو من المشركين، والإفساد فى الأرض الذى يقوم به اليهود.. ويعقب عليه بالتخويف من عذاب الله، والتذكير بنعم الله فى تكريم الإنسان، وما ينتظر الطائعين والعصاة:

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (١)

وهو مشهد يصور الخلائق محشورة.. وكل جماعة تنادى بعنوانها باسم المنهج الذى اتبعته، أو الرسول الذى اقتدت به، أو الإمام الذى ائتمت به فى الحياة الدنيا..

فهل تبع اليهود موسى عليه السلام؟!

إنهم انحرفوا عن رسالته، وكفروا بالحق الذى آمن به ودعا إليه!

إن موسى عليه السلام ــ كما أسلفنا ــ من المسلمين، فهل أتباعه ـ كما يزعمون ـ كذلك؟!

وهنا فى هذا الموقف الرهيب الرعيب تنادَى كل جماعة، ليُسلَّم لها كتاب عملها وجزائها فى الدار الآخرة.. فمن أوتى كتابه بيمينه فهو فرح بكتابه يقرؤه ويتملاه، ويوفّى

---

(١) الإسراء ٧١ ــ ٧٢ .

الأجر! ومن عمى فى الدنيا عن دلائل الحق ـ كهؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم ـ فهو فى الآخرة أعمى عن طريق النجاة، وأضل سبيلا، وأشد ضلالا.. وجزاؤه معروف. ولكن السياق يرسمه فى هذا المشهد المزدحم المهيب، الهائل الرعيب، أعمى ضالا يتخبط، لا يجد من يهديه ولا ما يهتدى به ويدعه كذلك لا يقرر فى شأنه أمرا هنا؛ لأن مشهد العمى والضلال فى ذلك الموقف العصيب الرهيب الرعيب هو وحده جزاء مرهوب، يؤثر فى القلوب!

ويستعرض في الموقف الأخير كيد المشركين للرسول الحبيب المحبوب ﷺ، ومحاولة فتنته عن بعض ما أُنزل إليه، ومحاولة إخراجه من مكة. ولو أخرجوه قسرا ـ ولم يخرج هو مهاجرا بأمر الله ـ لحل بهم الهلاك الذى حل بالقرى من قبلهم حين أخرجت رسلها أو قتلتهم ـ كما عرفنا فى تاريخ اليهود ـ ويأمر الرسول ﷺ أن يمضى فى طريقه يقرأ القرآن ويقيم الصلاة، ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه، ويعلن مجىء الحق وزهوق الباطل، ويعقب بأن هذا القرآن الذى أرادوا فتنته عن بعضه فيه شفاء وهدى للمؤمنين، بينما الإنسان قليل العلم، وهو يعرض موقفا من مواقف هؤلاء اليهود ـ كما أسلفنا ـ وهم يسألون عن الروح ما هو؟ والمنهج الذى سار عليه القرآن ـ وهو المنهج الأقوم ـ أن يجيب الناس عما هم فى حاجة إليه، وما يستطيع إدراكهم البشرى بلوغه ومعرفته، فلا يبدد الطاقة العقلية التى وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا يثمر، وفى غير مجالها الذى تملك وسائله وتحيطُ به. فلما سألوه عن الروح أمره الله أن يجيبهم بأن الروح من أمر اللّه، اختص بعلمه دون سواه:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١)

وليس فى هذا حجر على العقل البشرى أن يعمل.. ولكن فيه توجيها لهذا العقل أن يعمل فى حدوده وفى مجاله الذى يدركه. ولكنها سمات يهود فلا جدوى من الخبط فى التيه، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه، لأنه لا يملك وسائل إدراكه..!

والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه، وسر من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشرى وبعض الخلائق التى لا نعلم حقيقتها.. وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق، وأسرار هذا الوجود أوسع من أن يحيط بها العقل البشرى المحدود.. والإنسان لا يدبر هذا الكون، فطاقاته ليست شاملة، إنما وهب منها بقدر محيطه وبقدر

(١) الإسراء: ٨٥.

حاجته ليقوم بالخلافة فى الأرض، ويحقق فيها ما شاء الله أن يحقق، فى حدود علمه القليل.

ولقد أبدع الإنسان فى هذه الأرض ما أبدع، ولكنه وقف حسيرا أمام ذلك السر اللطيف ـ الروح ـ لا يدرى ما هو، ولا كيف جاء، ولا كيف يذهب، ولا أين كان ولا أين يكون، إلا ما يخبر به العليم الخبير فى التنزيل .

ويستمر فى الحديث عن القرآن وإعجازه، بينما هم يطلبون خوارق مادية، ويطلبون نزول الملائكة، ويقترحون أن يكون للرسول بيت من زخرف أو جنة من نخيل وعنب، يفجر الأنهار خلالها تفجيرا ! أو يفجر لهم من الأرض ينبوعا! أو أن يرقى هو فى السماء ثم يأتيهم بكتاب مادى معه يقرأونه..

إلى آخر هذه المقترحات التى يمليها العنت والمكابرة ـ وكما هو شأن اليهود أيضا ومن على شاكلتهم ـ لا طلب الهدى والاقتناع..

ويرد على هذا كله بأنه خارج عن وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة، ويكل الأمر إلى الله.. ويتهكم على أولئك الذين يقترحون هذه الاقتراحات كلها بأنهم لو كانوا يملكون خزائن رحمة الله ـ على سعتها وعدم نفاذها ـ لأمسكوا خوفا من الإنفاق! وقد كان حسبهم أن يستشعروا أن الكون وما فيه يسبح لله:

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

وأن الآيات الخارقه قد جاء بها موسى من قبل، فلم تؤد إلى إيمان هؤلاء المتعنتين، لأن كثرة الخوارق لا تنشىء الإيمان فى القلوب الجاحدة:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ (١)

وهذا المثل من قصة موسى وبنى إسرائيل يذكر لتناسقه مع سياق السورة، وذكر المسجد الأقصى فى أولها، وطرف من قصة بنى إسرائيل مع موسى. وكذلك يعقب عليه بذكر الآخرة والمجىء بفرعون وقومه لمناسبة مشهد القيامة القريب فى سياق السورة، ومصير المكذبين..

وتنتهى السورة بالحديث عن القرآن والحق الأصيل فيه.. القرآن الذى نزل مفرقا ليقرأه الرسول على القوم زمنا طويلا بمناسبته ومقتضياته، وليتأثروا به ويستجيبوا له استجابة حية عملية، والذى يتلقاه الذين أوتوا العلم من قبله بالخشوع والتأثر إلى حد البكاء والسجود:

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۩ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (٢)

وهو مشهد موح يلمس الوجدان.. ويرسم تأثير هذا القرآن فى القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه، العارفة بطبيعته وقيمته، بسبب ما أوتيت من العلم قبله.. هذا المشهد الموحى للذين أوتو العلم من قبله يعرضه السياق بعد تخيير القوم فى أن يؤمنوا بهذا القرآن أولا يؤمنوا..

يقول ابن كثير « **إن الذين أوتوا العلم من قبله** » أى من صالحى أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه، ولم يبدلوه.(٣).

فهل يفهم اليهود ذلك؟!

---

(١) الإسراء: ١٠١ ـ ١٠٤.   (٢) الإسراء: ١٠٥ ـ ١٠٩.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣:٦٨، وانظر: تفسير القرطبى: ١٠: ٣٤٠، والكشاف: ٢: ٣٧٨، والماوردى: ٢: ٤٦٢.

من هذا العرض الموجز لمقاصد السورة يتبين لنا أن الحديث فيها ـ كما سبق ـ مسوق لإثبات رسالة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، وحقيقة ما أنزل عليه.. وأن الذين يقترحون غيره من الآيات ما تأملوه وما عرفوه حق المعرفة، وأنهم إذا استمروا فى هذا الإعراض سيصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم، وكذلك ما أصاب بنى إسرائيل بعد فسادهم وإفسادهم فى الأرض..

ثانياً : ما قاله من أن الآيات مكية ، وأن المسلمين بمكة كانوا مستضعفين ، فلم يكن لبنى إسرائيل يومئذ صلة ولا شأن مع المسلمين، ولم يكن لهم أثر بمكة يقتضى أن يتحدث الله عنهم فى سورة مكية بمثل هذا التفصيل.. الخ.

هذا القول نوافقه عليه فى جملته.. إلا أننا ـ كما يقول الدكتور طنطاوى ـ[1] نخالفه فيما ذهب إليه من أنه لم يكن لبنى إسرائيل صلة بالمسلمين، تقتضى أن يتحدث القرآن عنهم بمثل هذا التفصيل..

ومن أسباب مخالفتنا له، أن عدم وجود الصلة التجارية أو السكنية بين مسلمى مكة واليهود، وعدم وجود الأثر أو الخطر، لا يقتضى أن يترك القرآن الكريم الحديث عن بنى إسرائيل بالتفصيل، إذ هناك ما هو أهم من كل ذلك، وهو تشابه موقف أهل مكةواليهود من الدين الحق، فكلاهما قد وقف من الرسالات السماوية موقف الجاحد العاصى، فبين القرآن الكريم لأهل مكة أن الله تعالى قد أنزل التوراة على موسى لهداية بنى إسرائيل، ولكنهم لم يعملوا بها، بل أفسدوا فى الأرض، فكان مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفارا:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2]

فبنو إسرائيل حملوا التوراة، وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة« **ثم لم يحملوها** » لأن حملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه، وينتهى بالعمل لتحقيق مدلولها فى عالم الضمير، وعالم الواقع ولكن سيرة بنى إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم لا تدل على أنهم قدروا هذه الأمانة، ولا أنهم فقهوا حقيقتها، ولا أنهم عملوا بها ـ كما يشهد بذلك واقعهم قديما وحديثا ـ ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام، وليس له منها إلا الثقل، فهو ليس صاحبها. وليس شريكا فى الغاية منها!

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ٢ : ٣٨٤ وما بعدها بتصرف .

(٢) الجمعة : ٥ .

وهى صورة زرية بائسة، ومثل سيىء شائن، ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة..

ومثل هؤلاء اليهود هؤلاء الذين غبرت بهم أجيال كثيرة، والذين يعيشون فى هذا الزمان، وهم يحملون أسماء، ويرفعون رايات، ولا يعملون عمل المسلمين. وبخاصة أولئك الذين يقرأون الكتب، ويقومون بدور المعلم والموجه والمفكر والأستاذ مهما كانت مناصبهم ـ وهم لا ينهضون بما تفرضه عليهم العقيدة، وهم كثيرون كثيرون! وهذا خلق يهود! فليست المسألة مسألة كتب تحمل وتدرس، إنما هى مسألة فقه وعمل بما فى الكتب!.

وسبق أن عرضنا لآيات كثيرة فى سور مكية لبنى إسرائيل..

وحسبنا أن نذكر مثلا للانحراف عن سوء الفطرة، ونقض لعهد الله المأخوذ عليها، ونكوص عن آيات الله بعد رؤيتها والعلم بها..

ذلك الذى آتاه الله آياته، فكانت فى متناول نظره وفكره، ولكنه انسلخ منها، وتعرى عنها، ولصق بالأرض، واتبع الهوى، فلم يستمسك بالميثاق الأول، ولا بالآيات الهادية، فاستولى عليه الشيطان، وأمسى مطرودا من حمى الله، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار..

ولكن البيان القرآنى المعجز لا يصوغ المثل هذه الصياغة! إنما يصوره فى مشهد حى متحرك، عنيف الحركة شاخص السمات، بارز الملامح، واضح الانفعالات، يحمل كل إيقاعات الحياة الواقعة، إلى جانب العبارات الموحية:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ (١)

روى عبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: هو رجل من بنى

---

(١) الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٧.

إسرائيل يقال له: بلعام بن باعوراء، وكذا رواه شعبة وغير واحد عن منصور به.. وتعددت الروايات وتنوعت فيمن هو.. قال ابن كثير: وأما المشهور فى سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين فى زمن بنى إسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف..[1].

جاء فى المنار: والضمير فى « **عليهم**» للناس المخاطبين بالدعوة، وأولهم كفار مكة، والسورة مكية، وقيل: لليهود، لأن المثل تابع لقصة موسى فى السورة..[2].

وعلى كل فهو مثل ينطبق تمام الانطباق على اليهود ومن على شاكلتهم.. وعلينا أن نأخذ من النبأ ما وراءه [3]. فهو يمثل حال الذين يكذبون بآيات الله بعد أن تبين لهم فيعرفوها ثم لا يستقيموا عليها.. وما أكثر ما يتكرر هذا النبأ فى حياة البشر ـ وبخاصة اليهود ـ ما أكثر الذين يعطون علم دين الله، ثم لا يهتدون به، إنما يتخذون هذا العلم وسيلة لتحريف الكلم عن مواضعه، واتباع الهوى به.. هواهم وهوى المتسلطين الذين يملكون لهم ـ فى وهمهم ـ عرض الحياة الدنيا.. وهو خلق يهود!

وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها، ويعلن غيرها، ويستخدم علمه فى التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول بها هذا السلطان المعتدى على سلطان الحق وحرماته فى الأرض جميعا!

لقد رأينا من هؤلاء من يدعو للطواغيت الذين يدعون حق التشريع ويبارك الجاهلية.. ويخلع على هذا الفجور رداء الدين وشاراته وعناوينه!

فماذا يكون هذا إلا أن يكون مصداقا لنبأ الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ؟!

وماذا يكون هذا إلا أن يكون المسخ الذى يسجله القرآن عن صاحب النبأ:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾

ولو شاء الله لرفعه بما آتاه من العلم بآياته. ولكنه سبحانه لم يشأ؛ لأن ذلك الذى علم

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢: ٢٦٤ ـ ٢٦٥ بتصرف.

(٢) تفسير المنار : ٩: ٤٠٥ .

(٣) فى ظلال القرآن : ٣: ١٣٩٧ بتصرف .

الآيات أخلد إلى الأرض واتبع هواه ولم يتبع الآيات!

إنه مثل كل من آتاه الله من العلم ، فلم ينتفع بهذا العلم، ولم يستقم على طريق الإيمان، وانسلخ من نعمة الله، ليصبح تابعا ذليلا للشيطان، ولينتهى إلى المسخ فى مرتبة الحيوان، وهو خلق يهود!

ثم ما هذا اللهاث الذى لا ينقطع ؟

إنه ــ فى حسنا كما توحيه إيقاعات النبأ وتصوير مشاهده فى القرآن ــ ذلك اللهاث وراء أعراض هذه الحياة الدنيا التى من أجلها ينسلخ الذين يؤتيهم الله آياته فينسلخون منها.. وذلك اللهاث القلق الذى لا يطمئن أبدا. والذى لا يترك صاحبه، سواء وعظته أم لم تعظه، فهو منطلق فيه أبدا، وهو خلق يهود!

والحياة البشرية ما تنى تطلع علينا بهذا المثل فى كل زمان وفى كل مكان، وفى كل جيل وفى كل قبيل.. حتى إنه لتمر فترات كثيرة، وما تكاد العين تقع إلا على هذا المثل. فيما عدا الندرة النادرة ممن عصم الله ممن لا ينسلخون من آيات الله، ولا يخلدون إلى الأرض، ولا يتبعون الهوى، ولا يستذلهم الشيطان، ولا يلهثون وراء الحطام الذى يملكه أصحاب السلطان! فهذا مثل لا ينقطع وروده ووجوده، وما هو بمحصور فى قصة وقعت، فى جيل من الزمان، فهو خلق يهود ومن على شاكلتهم!

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يتلو هذا النبأ على قومه الذين كانت تتنزل عليهم آيات الله، كى لا ينسلخوا منها وقد أوتوها.. ثم ليبقى من بعده ومن بعدهم يتلى، ليحذر الذين يعلمون من علم الله شيئا أن ينتهوا إلى هذه النهاية البائسة، وأن يصيروا إلى هذا اللهاث الذى لا ينقطع أبدا، وأن يظلموا أنفسهم ذلك الظلم الذى لا يظلمه عدو لعدو، فإنهم لا يظلمون إلا أنفسهم بهذه النهاية النكدة!

إنه مشهد من المشاهد العجيبة، الجديدة كل الجدة على ذخيرة هذه اللغة من التصورات والتصويرات.. إنسان يؤتيه الله آياته، ويخلع عليه من فضله، ويكسوه من علمه، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع.. ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخا.. ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه، فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة، انسلاخ الحى من أديمه اللاصق بكيانه.. لأنه يهودى الخلق!

أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان؟!

ها هو ذا ينسلخ من آيات الله، ويتجرد من الغطاء، الواقى، والدرع الحامى، وينحرف عن الهدى ليتبع الهوى، ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم، فيصبح غرضا للشيطان، لا يقيه منه واق، ولا يحميه منه حام فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه، لأنه يهودى الخلق!

ثم إذا نحن أولاء أمام مشهد مفزع بائس نكد .. إذا نحن بهذا المخلوق، لاصقا بالأرض، ملوثا بالطين! ثم إذا مسخ فى هيئة الكلب، يلهث إن طورد، ويلهث إن لم يطارد!

كل هذه المشاهد المتحركة تتتابع وتتوالى، والخيال شاخص يتبعها فى انفعال وانبهار وتأثر.. فإذا انتهى المشهد الأخير منها.. مشهد اللهاث الذى لا ينقطع.. سمع التعليق المرهوب الموحى، على المشهد كله:

﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾

ذلك مثلهم! فلقد كانت آيات الهدى وموحيات الإيمان متلبسة بفطرتهم وكيانهم وبالوجود كله من حولهم.. ثم إذا هم ينسلخون منها انسلاخا.. ثم إذا هم أمساخ شائهو الكيان، هابطون عن مكان الإنسان، إلى مكان الحيوان.. مكان الكلب الذى يتمرغ فى الطين.. وكان لهم من الإيمان جناح يرفون به إلى عليين، وكانوا من فطرتهم الأولى فى أحسن تقويم، فإذا هم ينحطون إلى أسفل سافلين:

﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾

وهل أسوأ من هذا المثل؟

وهل أسوأ من الانسلاخ والتعرى من الهدى؟!

وهل أسوأ من اللصوق بالأرض واتباع الهوى؟!

وهل يظلم إنسان نفسه كما يظلمها من يصنع بها هكذا؟ من يعريها من الغطاء الواقى والدرع الحامى، ويدعها غرضا للشيطان يلزمها ويركبها، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض، الحائر القلق اللاهث لهاث الكلب أبدا؟!

حقا إنه خلق يهود، ومن على شاكلتهم!

وقد ترتب على ذلك أن سلط الله عليهم من يذلهم بسبب فسوقهم عن أمر الله[1]، فإذا ما سار أهل مكة على هذا الطريق المعوج الذى سار عليه بنو إسرائيل بعد أن جاءهم خاتم النبيين ﷺ بالهدى ودين الحق، فسيصيبهم من العقاب ما أصابهم.

وهذا التفصيل الذى تحدث القرآن الكريم به هنا عن بنى إسرائيل، قد جاء ما هو أطول منه بكثير فى سور مكية، كسورة الشعراء، والأعراف، وطه، والقصص، وغير ذلك من السور المكية التى تحدثت عنهم باستفاضة.

وإذاً فهناك مقتض لهذا الحديث المفصل عن بنى إسرائيل فى سورة الإسراء المكية، وهو تماثل موقف أهل مكة وبنى إسرائيل من الدين الحق، ومخالفة الفريقين لشريعة سماوية خالدة، هى شريعة الإسلام، لا لقانون وضعى أو لعرق دنيوى، وتبشير للمسلمين. بحسن العقبى، لاستجابتهم لله ولرسوله ﷺ.

ثالثا : قال فى قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ ﴾

لا تنطبق هذه المرة تمام الانطباق إلا على الدور الذى قاموا به على عهد النبى ﷺ وأصحابه، وما عاقبهم الله به، وسلط عليهم فيه.. إلخ.

ونحن لا نوافقه فيما ذهب إليه للأسباب التالية:

١ـ الذى عليه المفسرون أن المراد بالأرض فى قوله تعالى:

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾

أرض الشام التى كان يسكنها اليهود وقت نزول التوراة، وليس المراد بها أرض الجزيرة العربية، لأنها ـ كما عرفنا ـ لم تكن سكنا لهم عند نزول التوراة.

٢ـ نحن نعرف أنهم حصل منهم إفساد فى عهد النبى ﷺ ـ كما سبق ولكن هذا الإفساد ـ رغم ضراوته ـ كان دون ما قاموا به من إفساد قبل ذلك، بدليل أن الحق تبارك وتعالى قد نعى عليهم فى القرآن الكريم رذائل كثيرة اقترفوها..

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة : ٢: ٣٨٥ وما بعدها بتصرف.

منها أنهم قتلوا قبل بعثة خاتم النبيين ﷺ بعض أنبياء الله، وحاولوا قتل عيسى، واتخذوا لذلك كافة الطرق والوسائل، إلا أنهم لم يفلحوا فى مسعاهم لأسباب خارجة عن إرادتهم.

وإذاً فإفسادهم فى الأرض قبل بعثة النبى ﷺ كان أشد وأفحش من إفسادهم بعد بعثته ﷺ.

٣ـ إفسادهم فى الأرض فى عهد النبى ﷺ وأصحابه، كان يأخذ فى غالبه ـ كما أسلفنا ـ طابع النفاق والمخادعة وعدم المجاهرة، خوفا من المسلمين، عدا ما عرفنا من معارك خيبر، أما إفسادهم قبل ذلك فكان يأخذ طابع الظلم الصريح، والعصيان الواضح، والطغيان المتعمد، كما يفيده قوله تعالى:

﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

وهذا يدل على أن المقصود بإفسادهم فى الأرض مرتين، ما كان منهم قبل بعثة خاتم النبيين ﷺ.

٤ـ قوله تعالى﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ هذا العلو الكبير الذى وصفتهم به الآية الكريمة لا ينطبق على حالهم فى عهد النبى ﷺ ولا فى عهد أصحابه، لأن اليهود فى هذه الفترة كانوا يمثلون جزءا من اليهود المنتشرين فى الأرض، وبلغ بهم ضعف الحال أن بعضهم انضم إلى طائفة الخزرج، وبعضهم انضم إلى طائفة الأوس ـ كما عرفنا ـ فإذا ما حصل قتال بين الطائفتين، قاتل حلفاء الخزرج من اليهود إخوانهم المنضمين إلى الأوس، وقاتل حلفاء الأوس من اليهود أبناء عمومتهم حلفاء الخزرج، وقد بين القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ (١)

وإذاً فقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ عقب قوله تعالى:

---

(١) البقرة: ٨٥.

﴿ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ ينطبق على أدوار الفساد الكبيرة التى قاموا بها قبل الإسلام، أيام أن طغوا وبغوا وعلوا علوّا كبيرا فى الأرض.

٥ـ ما أصابهم من عقوبات فى عهد النبى ﷺ وفى عهد أصحابه، جزاء غدرهم ـ كما أسلفنا ـ شيء هين بالنسبة لما أصابهم من عقوبات قبل ذلك، على أيدى البابليين والرومان وغيرهم، لأن ما أصابهم فى العهد النبوى كان عدلا، وكان يختلف من موقف إلى آخر، وكان فى الوقت ذاته ينصب على الجزء الذى يسكن الجزيرة العربية من اليهود، بينما العقوبات التى نزلت بهم قبل ذلك، على أيدى البابليين والرومان ـ مثلا ـ كانت لجميع اليهود الذين كانوا متجمعين فى منطقة واحدة، هى أرض الشام.

ثم إن العقوبات التى أنزلها المسلمون بهم فى صدر الإسلام، كانت فى أوقات متفرقة، وكانت على قدر إساءة المسيء منهم..

ومن هذا نرى أن ما قام به اليهود من إفساد فى المرة الأولى ينطبق على الدور الذى قاموا به قبل الإسلام، وأن العباد الذين سلطهم الله عليهم

عليهم لإذلالهم بسبب فسادهم وإفسادهم كانوا أيضا قبل الإسلام.

رابعا : جزم بأن المعاقبين لليهود فى المرة الأولى لا تنطبق أوصافهم إلى على أصحاب رسول الله ﷺ، فهم الذين يستحقون شرف هذه النسبة.. وهم الذين لم يكلفهم تأديب اليهود إلا أن جاسوا خلال الديار، أما أتباع بختنصر فقد ذكروا أنه قتل على دم زكريا وحده سبعين ألفا .. فهو اجتياح وليس جوسا..

ونحن نخالفه فى ذلك لأمور، أهمها:

أ ـ أن الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم عباد لله تعالى، والذين سلطهم الله على بنى إسرائيل لإذلالهم بعد إفسادهم الأول هم عباد له مع كفرهم.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى :

﴿ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ (١)

(١) الزمر : ١٦ .

ففى هذه الآية نسب الله تعالى العباد إلى نفسه. بصيغة العموم التى تشمل مؤمنهم وكافرهم، وهناك آيات أخرى نسب الله فيها العباد جميعا إلى ذاته، سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين[1].

ب ـ يقول: وهم الذين لم يكلفهم تأديب اليهود إلا أن جاسوا خلال الديار.. ولم يبين لنا معنى الجوس عنده. إلا أن الذى يفهم من كلامه أن الجوس ـ فى رأيه ـ معناه التردد بين الدور والمساكن بدون قتال يذكر.

وهذا التفسير للجوس - فى رأينا ـ يأباه سياق الآيات، ومخالف للمشهور عن أئمة التفسير واللغة..

أما أنه يأباه سياق الآيات، فلأن الآية تذكر أن فسادا كبيرا، وطغيانا عظيما يقع على بنى إسرائيل فى المرة الأولى من مرتى إفسادهم، وأنهم بعد ذلك يؤدبون على إفسادهم، بأن يبعث الله عليهم عبادا له أقوياء، وقد بين الله تعالى مهمة هؤلاء العباد فقال: ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أى فترددوا بين مساكنكم يا بنى إسرائيل، لقتلكم ولسلب أموالكم ولتخريب دياركم. وهذا ينطبق على ما نزل باليهود من عقوبات عامة مدمرة قبل الإسلام، على يد البابليين والرومان وغيرهم، ولا ينطبق على العقوبات التى أنزلها المسلمون بهم فى العهدالنبوى، لأنها كانت عقوبات تتسم بالعدالة ـ كما عرفنا ـ إذ لم تتناول إلا من يستحقها منهم.

وأما أنه مخالف للمشهور عن أئمة التفسير واللغة فى معنى الجوس فإليك الدليل:

١ ـ قال ابن جرير: وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول:

معنى جاسوا: قتلوا، ويستشهد لقوله ذلك ببيت حسان:

ومنّا الذى لاقَى بسيف محمـد فجاس به الأعداءَ عُرض العساكـر

قال: وجائز أن يكون معناه: فجاسوا خلال الديار، فقتلوهم ذاهبين وجائين[2].

قال القرطبى: فجمع بين قول أهل اللغة[3].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (عبد).

(٢) تفسير الطبرى: ١٥: ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) تفسير القرطبى: ١٠: ٢١٦.

٢ـ وقال صاحب الكشاف: وأسند الجوس ـ وهو التردد خلال الديار بالفساد ـ إليهم، فتخريب المسجد وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم [١].

٣ـ وقال البيضاوى [٢] : **(فجاسوا)** ترددوا لطلبكم.. (**خلال الديار**) وسطها للقتل والغارة، فقتلوا كبارهم، وسبوا صغارهم، وحرقوا التوراة، وخربوا المسجد.

٤ـ وقال ابن منظور:الجوْس: مصدر جاس جوسا وجوَسانا: تردد، وفى التنزيل العزيز: «**فجاسوا خلال الديار**» أى ترددوا بينهما للغارة ، وهو الجوَسان ، وقال الفراء : قتلوكم بين بيوتكم .. وقال الزجاج : « فجاسوا خلال الديار» أى فطافوا فى خلال الديار ينظرون، هل بقى أحد لم يقتلوه؟ [٣].

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن الجوْس معناه هنا التردد بين الديار للقتل والإفساد..

ثم على فرض التسليم برأيه فى معنى الجوْس لنا أن نسأل: هل المسلمون لم يكلفهم تأديب اليهود إلا أن جاسوا خلال الديار؟

الذى يبدو أن المسلمين كلفهم تأديب اليهود أكثر من ذلك، لأنهم بالنسبة لبنى قينقاع حاصروهم بضعة عشر يوما، وأجلوهم عن المدينة ـ كما أسلفنا ـ بعد مفاوضات ومجادلات .. وبالنسبة لبنى النضير حاصرهم المسلمون ـ كذلك ـ حتى اضطروا إلى الجلاء عن المدينة .. وبالنسبة لبنى قريظة حاصرهم المسلمون ـ أيضا ـ ثم قتلوا المقاتلين .. وبالنسبة ليهود خيبر دارت معارك ضارية ـ كما عرفنا ـ انتهت بالقضاء على اليهود عسكريا.. فتأديب اليهود قد كلف المسلمين أكثر من جوس الديار، بالمعنى الذى يراه.

جـ ـ قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾

يفيد أن المسجد يؤخذ من أيدى اليهود عنوة، ومن يأخذه يخربه ويهدمه، وهذه الأوصاف والأعمال تنطبق على البابليين والرومان وغيرهم، لأنهم عندما دخلوا أورشليم قبل الإسلام دمروها وهدموا هيكلها.

---

(١) تفسير الكشاف: ٢: ٣٥٢ . (٢) تفسير البيضاوى : ٣٧١ .

(٣) لسان العرب : (جوس)، وانظر : تاج العروس ، والمعجم الوسيط.

أما المسلمون فإنهم عندما فتحوا فلسطين فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ١٥ هـ ـ ٦٣٦ م لم يكن لليهود أثر فيها، ولم يأخذوا المسجد الأقصى منهم، وإنما أخذوه من النصارى، وهم الرومان يومئذ، الذين كانوا قد استولوا على بلاد الشام مئات السنين، ثم بعد أن دخلوه أزالوا معالم الوثنية والشرك، وطهروه للعابدين، ولم يحصل من المسلمين تخريب أو تدمير لمسجد أو غيره من بلاد الله كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾

وإذاً فالعباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول فى الأرض، تنطق أوصافهم وأعمالهم وعقوباتهم المدمرة لبنى إسرائيل على العباد الذين أذلوهم قبل الإسلام، كالبابليين والرومان، ولا تنطبق على أصحاب رسول الله ﷺ كما قال.

خامسا: تحدث تحت عنوان رد الكرة فقال: قال تعالى:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾

ردت ليهود الكرة علينا بعد ألف وثلاثمائة ونيف وسبعين من تأديب الله لهم، منذ بعث عليهم عباده المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ فجاسوا خلال الديار..إلخ

ونحن لا نوافقه لأمور، منها:

أ ـ أن قوله تعالى:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾

يفيد أنه حسنت حالهم، وتركوا ما هم عليه من فساد وإفساد، حتى رد الله لهم الكرة على عدوهم، وتلك سنة الله فى خلقه، ينصر من تاب إليه وأناب، وهذا المعنى الذى تفيده الآية لا يمكن أن يوصف به اليهود فى عصرنا، إذ هم ما زالوا على فسادهم وإفسادهم وكفرهم وطغيانهم، ولكن يمكن أن توصف به القلة المؤمنة التى أطاعت طالوت وقاتلت معه ـ كما أسلفنا ـ وأيدت داود عليه السلام وناصرته، وقالت عندما برزت لجالوت وجنوده:

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

وإذا فقوله تعالى :

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾

أكثر ما يكون انطباقا على بنى إسرائيل الذين قاتلوا مع طالوت بعزيمة صادقة، وإيمان راسخ، وصبر جميل، ولهذا نصرهم الله على أعدائهم .

ب ـ ما قاله من أن اليهود ردت الكرة علينا، وأُمدوا بثلاث، ما أُمدوا فى تاريخهم بمثلها: بأموال تتدفق عليهم من أقطار الأرض.. وبنين مهاجرين ومقاتلين.. وكثرة الناصر لهم والنافر لنجدتهم.. الخ ينطبق على حالهم فى عهد داود عليه السلام ـ كما أسلفنا ـ لأنهم فى ذلك العهد أمدهم الله بالأموال الكثيرة، والبنين الوفيرة، وصاروا أكثر عددا من أعدائهم، ولعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا: إن عهد حكم داود وسليمان عليهما السلام لبنى إسرائيل هو العهد الذهبى الوحيد لهم طوال تاريخهم، أما ما جاء بعد ذلك من تاريخ بنى إسرائيل إلى وقتنا الحاضر، فما هو إلا سلسلة من المآسى والنكبات ـ كما عرفنا وكما سيجىء ـ وسيستمر احتقار العالم لهم، وكرهه إياهم، وانتقامه منهم إلى يوم القيامة، وإن بدا فى عصرنا هذا أنه متعاطف معهم ومساند لباطلهم، وذلك بسبب أنانيتهم وسعيهم فى الأرض فسادا، وقد صرح القرآن الكريم بذلك فى قوله تعالى:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ (١)

هذا، وإن اليهود مهما أُمدوا وأُعينوا من دول الكفر الكبرى فهم ليسوا أكثر أبناء ولا نفيرا منا نحن المسلمين، وليسوا أيضا أكثر أموالا منا إذا وازنا بين ما نملكه من ثروات فوق الأرض وتحتها، ومن قدرة على العمل الذى يجلب المال بحكم كثرة العدد، لو أحسنا التصرف فيما نملك.

وعندما يطبق المسلمون تعاليم إسلامهم تطبيقا كاملا، ويؤدون رسالتهم فى الحياة كما أمرهم الله، ويحسنون الشعور بالمسئولية، ويراقبون الله فى كل تصرفاتهم.. عندما يكونون كذلك يفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض..

سادسا: يقول: وقد قرر سبحانه أنه سيجمعهم ألفافا لنبيدهم، فقال:

---

(١) الأعراف : ١٦٧ .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

ويبدو بوضوح أنه يفسر (**الآخرة**) هنا بمعنى المرة الآخرة من مرتى إفسادهم.. وهو مخالف لأقوال المفسرين.

قال ابن جرير[1] : فإذا جاءت الساعة، وهى وعد الآخرة، جئنا بكم لفيفا، يقول: حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة لفيفا: أى مختلطين، قد التف بعضكم ببعض، لا تتعارفون، ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيّه.

وقال القرطبى[2]: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أى القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أى من قبوركم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر، لا يتعارفون.

وقال صاحب الكشاف [3]: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ يعنى قيام الساعة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ جميعا مختلطين إياكم وإياهم، ثم يحكم بينكم، ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم.

وقال القاسمى: أى قيام الساعة [4]..

سابعا: يقول فى صدر مقاله : وأبادر فأطمئن الذين يهولهم هذا التخريج فيرونه مخالفا للمأثور والمعروف من أقوال المفسرين إلى أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ فيه شىء، وإلى أن المأثور عن بعض الصحابة مضطرب لا تقوم به حجة، وإلى أن الأمر لا يعدو أن يكون تاريخا أو تأويلا، لا يقاول فى مخالفته إنه تحريف للكلم عن مواضعه

وهذا القول نرد عليه ــ أولا ــ بأنه خروج عن ظاهر القرآن، بل عن صريحه الذى لا يمكن للمتأمل أن يفهم غيره، وهو أن المراد من الكتاب فى قوله تعالى ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ هو التوراة، لا القرآن الكريم.. وهذا ــ كما سبق ــ هو قول جمهور المفسرين.

والخروج عن النصوص الصريحة يعتبر مجافاة للحق، ولا ينبغى للمسلم أن يتجاوز مدلول الألفاظ القرآنية ويخرج عما تقتضيه معانيها.

---

(١) تفسير الطبرى : ١٥: ١٧٦ ــ ١٧٧.

(٢) تفسير القرطبى : ١٠ : ٣٣٨.

(٣) تفسير الكشاف : ٢: ٣٧٧.

(٤) تفسير القاسمى : ١٠ : ٤٠٠٨.

ونرد عليه ـ ثانيا ـ بأن ذلك لا يساعد عليه التاريخ الصحيح ـ كما أسلفنا ـ فإذا ضممنا إلى ذلك أن الآيات تفيد أن رد الكرة لليهود يكون نتيجة صلاح فى الدين، وإحسان فى العمل، وتوبة من الآثام.. كان استيلاء اليهود اليوم على فلسطين نتيجة لذلك .. وهذا كله يناقض الواقع الذى نلمسه بأيدينا، من حيث فسادهم وإفسادهم واعتداؤهم وطغيانهم .. وعلينا أن نجتمع على العقيدة ونمكن لدين الله فى الحياة .. حتى ينصرنا الله..

ويومئذ يفرح المؤمنين بنصر الله..

*　　*　　*

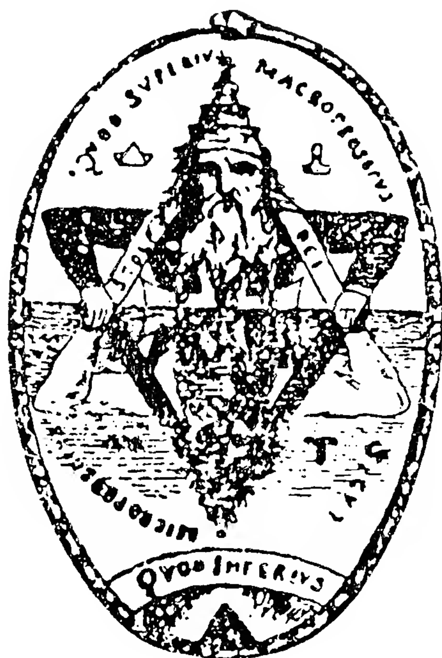
الفصل الثانى

بروتوكولات حكماء صهيون

تاريخ البروتوكولات ـ مؤامرة شريرة ضد البشرية ـ معنى البروتوكولات ـ أخطر كتاب ظهر فى العالم ـ قرارات المؤتمر الصهيونى الأول واختلاس البروتوكولات ـ ذعر اليهود لنشر البروتوكولات وأثر ذلك ـ استمرار المعارك ـ الاغتيال ـ تقدير العقاد ـ تصدير الطبعة الخامسة للترجمة الإنجليزية ـ كيف ظهرت البروتوكولات للعالم ـ البروتوكول الأول ـ البروتوكول الثانى ـ البروتوكول الثالث ـ البروتوكول الرابع ـ البروتوكول الخامس ـ البروتوكول السادس ـ البروتوكول السابع ـ البروتوكول الثامن ـ البروتوكول التاسع ـ البروتوكول العاشر ـ البروتوكول الحادى عشر ـ البروتوكول الثانى عشر ـ البروتوكول الثالث عشر ـ البروتوكول الرابع عشر ـ البروتوكول الخامس عشر ـ البروتوكول السادس عشر ـ البرتوكول السابع عشر ـ البروتوكول الثامن عشر ـ البروتوكول التاسع عشر ـ البروتوكول العشرون ـ البروتوكول الحادى والعشرون ـ البروتوكول الثانى والعشرون ـ البروتوكول الثالث والعشرون ـ البروتوكول الرابع والعشرون ـ تعقيب الأستاذ سرجى نيلوس ـ قول ماركس اليهودى.

«نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسديه. ومحركي الفتن فيه وجلاديه».

(الدكتور أوسكار ليفي)



الشعار اليهودي- البلشفي محوطاً بالأفعى الرمزية. انظر تصدير البريطان، والبروتوكول ٣، وتعقيب الأستاذ نيلوس.

تاريخ البروتوكولات :

يقول الدكتور أحمد شلبى[1] تدل الظواهر على وجود علاقة زمنية بين البروتوكولات وبين نهاية القرن التاسع عشر، وعلى وجود ارتباط بين هذه البروتوكولات وبين مؤتمر « بال » الذى عقد سنة ١٨٩٧م [2].

مؤامرة شريرة ضد البشرية:

وهذه البروتوكولات عبارة عن مؤامرة شريرة ضد البشرية، ويبدو أنها كانت رد فعل لما عاناه اليهود خلال القرن التاسع عشر من اضطهاد فى أوربا، وما نزل بهم من جور وتعسف، فتدارسوا فى هذا المؤتمر ـ ضمن ما تدارسوه ـ وسائل الانتقام من البشرية جميعا التى اعتقد اليهود أنها اشتركت كلها بطريق أو بآخر فى إذلالهم والنيل منهم.

معنى البروتوكولات:

وبروتوكولات معناها: محاضر جلسات، ويسميها بعض الباحثين « قرارات » وتلتقى التسميتان إذا لاحظنا نصوص البروتوكولات، وأنها عبارة عن تقرير وضعه بعض الباحثين ـ وأن هذا التقرير عرض على المؤتمرين فى « بال » بسويسرا، وأن المؤتمرين أقروه، فالبروتوكولات تقرير بالنسبة لواضعيها، ومحاضر بالنسبة لعرضها على المؤتمرين فى جلساتهم، وقرارات بالنسبة لقبولها وتأييدها.

أخطر كتاب ظهر فى العالم:

والكتاب الذى ضم أول ترجمة عربية أمينة كاملة لتلك البروتوكولات ، أخطر كتاب ظهر فى العالم ـ كما يقول المرحوم الأستاذ محمد خليفة التونسى[3] ـ ولا يستطيع أن

---

(١) مقارنةالأديان : اليهودية : ٢٥٦ بتصرف.

(٢) يرى بعض الباحثين أن هذه البروتوكولات كانت القرارات السرية لمؤتمر بال ، أما القرارات العلنية فهى التى أعلنت عن ضرورة قيام دولة لليهود فى فلسطين.

(٣) الخطر اليهودى : بروتوكولات حكماء صهيون: ٢٩ وما بعدها بتصرف.

يقدره حق قدره إلا من يدرس البروتوكولات كلها كلمة كلمة فى أناة وتبصر، ويربط بين أجزاء الخطة التى رسمتها، على شرط أن يكون بعيد النظر، فقيها بتيارات التاريخ وسنن الاجتماع، وأن يكون ملما بحوادث التاريخ اليهودى والعالمى بعامة، لا سيما الحوادث الحاضرة وأصابع اليهود من ورائها، ثم يكون خبيرا بمعرفة الاتجاهات التاريخية والطبائع البشرية، وعندئذ وحسب ستتكشف له مؤامرة يهودية جهنمية، تهدف إلى إفساد العالم وانحلاله، لإخضاعه كله لمصلحة اليهود، ولسيطرتهم دون سائر البشر!

ولو توهمنا أن مجمعا من أعتى الأبالسة الأشرار قد انعقد ليتبارى أفراده أو طوائفه منفردين أو متعاونين فى ابتكار أجرم خطة لتدمير العالم واستعباده، إذن لما تفتق عقل أشد هؤلاء الأبالسة إجراما وخسة وعنفا عن مؤامرة شر من هذه المؤامرة التى تمخض عنها المؤتمر الأول لحكماء صهيون سنة ١٨٩٧م، وفيه درس المؤتمرون خطة إجرامية لتمكين اليهود من السيطرة على العالم، وهذه البروتوكولات توضح أطرافا من هذه الخطة!

إن هذا الكتاب لينضح بل يفيض بالحقد والاحتكار والنقمة على العالم أجمع العالم أجمع ويكشف عن فطنة حكماء صهيون إلى ما يمكن أن تنطوى عليه النفس البشرية من خسة وقسوة ولؤم، كما يكشف عن معرفتهم الواسعة بالطرق التى يستطاع بها استغلال نزعاتها الشريرة العارمة، لمصلحة اليهود وتمكينهم من السيطرة على البشر جميعا، بل يكشف عن الوسائل الناجحة التى أعدها اليهود للوصول إلى هذه الغاية!

هذا الكتاب يوقف أمامنا النفس البشرية على مسرح الحياة اليومية الأرضية مفضوحة كل معايبها، عارية من كل ملابسها التى نسجتها الإنسانية فى تطورها من الوحشية إلى المدنية، لتستر بها عوراتها، وتلطف بها من حدة نزعاتها، وتتسامى بها إلى أفق مهذب!

إن هذه الملابس أو الضوابط كالشرائع والقوانين والعادات الكريمة قد استطاعت خلال تطورات التاريخ أن تخفى كثيرا من ميول النفس السيئة، وتعطل كثيرا منها ومن آثارها، ولكن حكماء صهيون هنا قد هتكوا كل هذه الملابس، وأنكروا كل هذه الضوابط، وفضحوا أمامنا الطبيعة البشرية، حتى ليحس الإنسان ـ وهو يتأملها فى هذا الكتاب ـ بالغثيان، والاشمئزاز والدوار، ويود لو يغمض عينيه، أو يلوى وجهه، أو يفر بنفسه هربا من النظر إلى بشاعتها، وبينما هم يبرزون الجوانب الشريرة فى الطبيعة البشرية يخبئون النواحى الخيرة منها، أو يهملونها من حسابهم. فيخطئون. وهنا تظهر مواضع الضعف فى نظرياتهم وما يرتبون عليها من خطط..!

وهم لا يخطئون غالبا إلا مغرضين، وذلك عندما تعميهم اللهفة والحرص على تحقيق أهدافهم قبل الأوان، أو يفيض فى نفوسهم الحقد العريق الذى يمد لهم مدا فى اليأس من كل خير فى الضمير البشرى، فيتساهلون مضطرين فى اختيار الأسس والوسائل القوية لهذه الغايات، وندر ما نظروا إلى شىء إلا وعيونهم مكحولة بل مغشاة بالأهواء الجامحة، ولذلك قلما تسلم لهم خطة تامة إلى أمد بعيد!

قرارات المؤتمر الصهيونى الأول واختلاس البروتوكولات:

عقد زعماء اليهود ثلاثة وعشرين مؤتمرا منذ سنة ١٨٩٧م حتى سنة ١٩٥١م وكان آخرها هو المؤتمر الذى انعقد فى القدس لأول مرة فى أغسطس من هذه السنة، ليبحث فى الظاهر مسألة الهجرة إلى إسرائيل وحدودها، كما ذكرت جريدة الزمان فى ١٩٥١/٧/٢٨م وكان الغرض من هذه المؤتمرات جميعا دراسة الخطط التى تؤدى إلى تأسيس مملكة صهيون العالمية.

أما أول مؤتمراتهم فكان فى مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧م برياسة زعيمهم «هرتزل» وقد اجتمع فيه نحو ثلثمائة من أعتى حكماء صهيون كانوا يمثلون خمسين جمعية يهودية، وقد قرروا فى المؤتمر خطتهم السرية لاستعباد العالم كله تحت تاج ملك من نسل داود، وكان قراراتهم فيه سرية محوطة بأشد أنواع الكتمان والتحفظ إلا عن أصحابها بين الناس، أما غيرهم فمحجوبون عنها، ولو كانوا من أكابر زعماء اليهود، فضلا عن فضح أسرارها سرا، وإن كان فيما ظهر منها ما يكشف بقوة ووضوح عما لا يزال خافيا!

فقد استطاعت سيدة فرنسية أثناء اجتماعها بزعيم من أكابر رؤسائهم فى وكر من أوكارهم الماسونية السرية فى فرنسا، أن تختلس بعض الوثائق ثم تفر بها، والوثائق المختلسة هى هذه البروتوكولات التى بين أيدينا.

وصلت هذه الوثائق إلى «أليكس نيقولا نيفتش» كبير جماعة أعيان روسيا الشرقية فى عهد القيصرية، فقدر خطورتها ونياتها الشريرة ضد العالم، لا سيما بلاده روسيا، ثم رأى أن يضعها فى أيدى أمينة أقدر من يده على الانتفاع بها ونشرها، فدفعها إلى صديقه العالم الروسى الأستاذ «سرجى نيلوس» الذى لا شك أنه درسها دراسة دقيقة كافية، وقارن بينها وبين الأحداث السياسية الجارية يومئذ، فأدرك خطورتها أتم إدراك، واستطاع من

جراء هذه المقارنة أن يتنبأ بكثير من الأحداث الخطيرة التى وقعت بعد ذلك بسنوات كما قدرها، والتى كان لها دوى هائل فى جميع العالم، كما كان لها أثر فى توجيه تاريخه وتطوراته..!

منها نبوءته بتحطيم القيصرية فى روسيا، ونشر الشيوعية فيها، وحكمها حكما استبداديا غاشما، واتخاذها مركزا لنشر المؤتمرات والقلاقل فى العالم!

ومنها نبوءته بسقوط الخلافة الإسلامية العثمانية على أيدى اليهود قبل تأسيس إسرائيل!

ومنها نبوءته بعودة اليهود إلى فلسطين،وقيام دولة إسرائيل فيها!

ومنها نبوءته بسقوط الملكيات فى أوربا، وقد زالت الملكيات فعلافى ألمانيا والنمسا ورومانيا وأسبانيا وإيطاليا!

ومنها إثارة حروب عالمية لأول مرة فى التاريخ، يخسر فيها الغالب والمغلوب معا، ولا يظفر بمغانمها إلا اليهود. وقد نشبت منها حربان واليهود يهيئون الأحوال الآن لنشوب الثالثة، فنفوذ اليهود فى أمريكا لا يعادله نفوذ أقلية، ثم إنهم أهل سلطان فى روسيا، وهاتان الدولتان أعظم قوتين عالميتين، واليهود يجرونهما إلى الحرب لتحطيمهما معا،وإذا تحطمتا ازداد طمع اليهود فى حكم العالم كله حكما مكشوفا بدل حكمهم إياه حكما مقنعا!

ومن نبوءته أيضا نشر الفتن والقلاقل والأزمات الاقتصادية دوليا، وبنيان الاقتصاد على أساس الذهب الذى يحتكره اليهود!

وغير ذلك من النبوءات كثير!

يقول الأستاذ التونسى: وأنا لا أتقول على الأستاذ «نيلوس» فى كل ذلك لأضيف إليه فصلا ليس له، لأنه كله مدون تفصيلا فى المقدمة والتعقيب اللذين كتبهما هو للبروتوكولات، وهما مترجمتان فى طبعتنا هذه ـ التى نقدمها فى هذا الكتاب ـ وجميع ذلك يدل على إحاطة الرجل خبرا بحوادث زمانه، وحسن دراسته للبروتوكولات، وبعد نظره السياسى، وفقهه بالاجتماع.

ذعر اليهود لنشر البروتوكولات وأثر ذلك:

وقع الكتاب فى يد «نيلوس» سنة ١٩٠١م، وطبع منه نسخا قليلة لأول مرة بالروسية

سنة ١٩٠٢ فافتضحت نيات اليهود الإجرامية، وجن جنونهم خوفا وفزعا ، ورأوا العالم يتنبه إلى خططهم الشريرة ضد راحته وسعادته، وعمت المذابح ضدهم فى روسيا.. واشتد هلعهم لذلك كله، فقام زعيمهم الكبير الخطير «تيودور هرتزل» أبو الصهيونية، وموسى اليهود فى العصر الحديث يلطم ويصرخ لهذه الفضيحة، وأصدرعدة نشرات يعلن فيها أنه قد سرقت من« قدس الأقداس » بعض الوثائق السرية التى قصد إخفاؤها على غير أصحابها، ولو كانوا من أعاظم اليهود، وأن ذيوعها قبل الأوان يعرض اليهود فى العالم لنشر النكبات، وهب اليهود فى كل مكان يعلنون أن البروتوكولات ليست من عملهم، لكنها مزيفة عليهم، ولكن العالم لم يصدق مزاعم اليهود للاتفاقات الواضحة بين خطة البروتوكولات والأحداث الجارية فى العالم يومئذ، وهذه الاتفاقات لا يمكن أن تحدث مصادفة لمصلحة اليهود وحدهم، وهى أدلة بينة أو قرائن أكيدة لا سبيل إلى إنكارها أو الشك فيها ، فانصرف الناس عن مزاعم اليهود ، وآمنوا إيمانا وثيقا أن البروتوكولات من عملهم، فانتشرت هى كما انتشرت تراجمها إلى مختلف اللهجات الروسية، وانتشرت معها المذابح والاضطهادات ضد اليهود فى كل أنحاء روسيا، حتى لقد قتل منهم فى إحدى المذابح عشرة آلاف، وحوصروا فى أحيائهم!

واستقتل اليهود فى الدفاع عن أنفسهم، وسمعتهم المهتوكة، وجدُّوا فى إخفاء فضيحتهم أو حصرها فى أضيق نطاق، فأقبلوا يشترون نسخ الكتاب من الأسواق بأى ثمن، ولكنهم عجزوا، واستعانوا بذهبهم ونسائهم وتهديداتهم ونفوذ هيئاتهم وزعمائهم فى سائر الأقطار الأوربية، لا سيما بريطانيا، لكى تضغط على روسيا دبلوماسيا، لإيقاف المذابح، ومصادرة نسخ الكتاب علنيا ، فتم لهم ذلك بعد جهود جبارة!

ولكن «نيلوس» أعاد نشر الكتاب مع مقدمة وتعقيب بقلمه سنه ١٩٠٥م، ونفدت هذه الطبعة بسرعة غريبة بوسائل خفية، لأن اليهود جمعوا نسخها من الأسواق بكل الوسائل وأحرقوها، ثم طبع فى سنة ١٩١١م فنفدت نسخة على هذا النحو، ولما طبع سنة ١٩١٧م صادره البلاشفة الشيوعيون الذين استطاعوا فى تلك السنة تدمير القيصرية، والقبض على أزمة الحكم فى روسيا، وكان معظمهم من اليهود الصرحاء أو المستورين أو من صنائعهم، ثم اختفت البروتوكولات من روسيا حتى الآن !

وكان قد وصلت نسخة من الطبعة الروسية سنة ١٩٠٥م إلى المتحف البريطانى British Mvseum فى لندن ختمت بخاتمة، وسجل عليها تاريخ تسليمها

(١٠أغسطس سنة ١٩٠٦م) وبقيت النسخة مهملة حتى حدث الانقلاب الشيوعى فى روسيا سنة ١٩١٧م، فوقع اختيار جريدة ال«مورننغ بوست »Morning post على مراسلها الأستاذ «فكتور مارسدن» ليوافيها بأخبار الانقلاب الشيوعى من روسيا، واطلع قبل سفره على عدة كتب روسية كانت من بينها البروتوكولات التى بالمتحف البريطانى، فقرأ النسخة وقدر خطرها، ورأى ـ وهو فى سنة ١٩١٧م ـ نبوءة ناشرها الروسى الأستاذ نيلوس بهذا الانقلاب سنة ١٩٠٥م، أى قبل وقوعه باثنتى عشرة سنة، فعكف المراسل فى المتحف على ترجمتها إلى الانجليزية ثم نشرها ـ وهو الذى أطلق عليها عنوان « الخطر اليهودى » إضافة إلى عنوانها الأول، وقدمه عليه فى طبعته، وكتبه بحروف أكبر ليزيده تنويها ـ وقد أعيد طبعها مرات بعد ذلك. وكانت الأخيرة الخامسة منها سنة ١٩٢١م (ومنها نسختنا) ثم لم يجرؤ ناشر فى بريطانيا ولا أمريكا على طبعها بعد ذلك كما يقول مؤرخ إنجليزى معاصر، هو الأستاذ «دجلاس» فى كتابه على حوادث سرية المعاصرة، ودون أن نطيل القول فى أسباب صمت الناشرين عنها ـ على ما وضحها الأستاذ «ريد» ـ نتبين أصابع اليهود من وراء كل صمت مريب!

وفى سنة ١٩١٩م ترجم الكتاب إلى الألمانية، ونشر فى برلين، ثم توقف طبعه بعد أن جمعت أكثر نسخه،وكان هذا مظهرا من مظاهر نفوذ اليهودية فى ألمانيا قبل انتصارها عليها بعد الحرب العالمية الأولى...!

ومن المتعذر أن نتتبع رحلة هذا الكتاب العجيب فى بلاد العالم بين الظهور والاختفاء..

استمرار المعارك:

واستمرت المعارك حول البروتوكولات تضعف أو تشتد فى بريطانيا.. وازدادت عنفا خلال الحرب العالمية الثانية وفى أدبارها، عندما حاول اليهود جهدهم تسخير بريطانيا لإقامة دولتهم « إسرائيل» وإجلاء العرب عن فلسطين وتخوم سيناء الشرقية فى مصر..!

وخلال ذلك كله كان ذوو الأقلام الجريئة بين الساسة والصحفيين والمفكرين والأدباء فى بريطانيا يبدأون ويعيدون فى حديث المؤامرة الصهيونية ضد بلادهم ودينهم..!

ومن دراسات هؤلاء الكتاب هناك مقالات صحفية نشر كثير منها فى الصحيفتين البريطانيتين «المونغ بست» و«التايمز»، ومجلة «الرسالة» و«المقتطف» فى مصر نحو سنة

١٩٤٨م وأيضا فصول من كتب، من أدق ما نشر منها فصل طويل للمؤرخ الإنجليزى المعاصر «دجلاس ريد»، فى القسم الرابع من كتابه« من الدخان إلى الخنق».

كما ظهرت كتب خاصة، من أوفاها فى تحليل البروتوكولات ومقارنتها بأقوال زعماء اليهود والأحداث الجارية كتاب للمستر «جون كريج سكوت»، ظهر بالإنجليزية سنة١٩٥٤م أى بعد ظهور طبعتنا العربية بسنوات ـ وهى التى نقدمها فى هذا الكتاب ـ وقد ترجم كتابه إلى العربية فى مصر سنة ١٩٥٧م ونشرته دار النصر بعنوان « الحكومة السرية فى بريطانيا».

وقامت هذه كلها بتوضيح خطط البروتوكولات وأهدافها ووسائلها، معززة بالشواهد الكثيرة من الفتن العالمية، وتصريحات قادة اليهود فى القرنين الأخيرين..!

الاغتيـال:

وشاع أنه ما من أحد ترجم هذا الكتاب أو عمل على إذاعته بأى وسيلة إلا انتهت حياته بالاغتيال أو بالموت الطبيعى ظاهرا، ولكن فى ظروف تشكك فى وسيلته!

وأفزعت هذه الشائعة بعض الناس ومنعتهم ترجمته، ومن ذلك أن جريدة الأساس ـ إحدى الجرائد المصرية ـ تمكنت فى سنة ١٩٤٦م من الحصول بوسيلة صحفية على نشر للبروتوكولات، مكتوبة بالآلة الكاتبة لقاء ثمانين جنيها، ودفعت النسخة إلى أحد المترجمين فيها، وطلبت منه ترجمتها لقاء أجر إضافى كاف لإغرائه، فأحجم عن ترجمتها برهة، بعد أن بلغته تلك الشائعة..

وقد صرح الأستاذ التونسى بأن الذى طلبت منه الترجمة هو الأستاذ «أنيس منصور»، وقد أشار إلى ذلك فى الأخبار ٢٠/١٠/١٩٥٦م حيث قال ما نصه:

فى سنة ١٩٤٧م كنت محررا فى جريدة الأساس، وكلفتنى الجريدة بترجمة بروتوكولات حكماء صهيون، وهذه البروتوكولات من الكتب السرية عند اليهود، ولا تعطى إلا لليهود فقط، ولاتباع فى المكتبات،لأنها مجموعة من الخطط المنطقية الخبيثة جدا للاستيلاء على العالم كله، وبدأت أقرأ هذه البروتوكولات التى نقلها لى على الآلة الكاتبة صحفى ألمانى اسمه« هنرى كاستر» يحرر الآن صحيفة« درأرينت » الألمانية التى تصدر فى مصر، وفهمت فى ذلك الوقت أنه سرق كتاب البروتوكولات من مكتبة الحاخام!

وبدأت أقرأ الكتاب، وأجد كل الذين ترجموه فى انجلترا وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا قد قتلوا جميعا، وأن الصحف التى نشرته قد نسفت، لأن اليهود حريصون على أن يظل سرا!

وترددت قليلا.. ثم كثيرا.. وسألت العقاد عن صحة هذا الكلام فأيده ضاحكا، ولم أفهم فى ذلك الوقت هل كان العقاد جادا أو ساخرا.

وقرأت كتابا للصحفى الألمانى« كونرا دمامبرن » عن «الزعيم هتلر » وجاء فى الفصل الأول من هذا الكتاب أن فيلسوفه « روزنبرغ » قد استفاد من هذا الكتاب وطبقه على يهود ألمانيا وأبادهم جميعا!

ووجدت للكتب معنى آخر.. وفكرت فى ترجمته، ولم أكد أبدأ فى كتابة المقدمة له حتى عرفت أن أديبا آخر هو « خليفة التونسى » قد فرغ من ترجمته.. وحمدت الله..

وذكر التونسى أن أنيس منصور لما علم أن الترجمة ستنشر تباعا فى «مجلة الرسالة» حذره كثيرا، ولما رأى إصراره لقبه« الشهيد الحى» وكرر نصيحته بالحذر.

ويقول: وأنا أشكر لصديقنا الأستاذ أنيس خالص نصحه وإشفاقه وصراحته.. ولا أنسى أن أشكر له أيضا جملته الأخيرة هنا « وحمدت الله » بكل معانيها الظاهرة والخفية، سواء منها الطيبة و..الطيبة أيضا.. وأقول ما قال شاعر قديم يناجى نفسه أمام خطر كهذا:

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة   وإلا فإنى إخالك ناجيا

قلت: وقد جاءنى التحذير مرات، أثناء إذاعة هذه الدراسات من إذاعة القرآن الكريم صباحا، وإعادة إذاعتها من البرنامج العام مساء، من إذاعة الكويت، على مدى سبعة أشهر كاملة!

ولا أدرى ماذا يحدث بعد إعادة النظر فيها وطبعها وتداولها بين الناس، وأفوض أمرى إلى الله الذى استخلص لنفسه أنفسنا فلم يعد لنا منها شيء . ولم يعد لنا خيار فى إقدام أو إحجام.. وما علينا إلا أن نمضى فى الطريق إلى الله لانتلفت ولا نتخير، وإنها الحسنى على كل حال.. والشهادة فى سبيل الحق عليا الدرجات عند الله .. والمؤمن يستشعر ـ دائما ـ أنه أقوى من تهديد الطغاة البغاة العتاة، حين ينتصر الإيمان فيه على الحياة، ويدرك أن النفس

إلى موت ، وأن المال إلى فوت ، سواء أنفقهما فى سبيل الله أم فى سبيل سواه ! وهنا تفوح رائحة الجنة ، وتهب نفحات الإيمان ، ويدرك المؤمن أنه قضاء الله الغالب وقدره الذى لا يرد.

تقدير العقاد:

وفى مقدمة هذا الكتاب تقدير الأستاذ العقاد كما نشر فى جريدة الأساس فى ١٩٥١/١١/٢٣ وفيه:

والترجمة العربية التى بين أيدينا اليوم منقولة من الطبعة الإنجليزية الخامسة، نقلها الأديب المطلع الأستاذ محمد خليفة التونسى، وحرص على ترجمتها بغير تصرف يخل بمبناها ومعناها، فأخرجها فى عبارة دقيقة واضحة، وأسلوب فصيح سليم..

ثم قال: أجمل الأستاذ المترجم ما اشتملت عليه فصول الكتاب من شرح الخطط المتفق عليها، وهى تتلخص فى تدبير الوسائل للقبض على زمام السياسة العالمية من وراء القبض على زمام الصيرفة، وفيها تفسير للمساعى التى انتهت بقبض الصيارفة الصهيونيين على زمام الدولار فى القارة الأمريكية ومن ورائها جميع الأقطار، وتفسير إلى جانب ذلك للمساعى الأخرى التى ترمى إلى السيطرة على المعسكر الآخر من الكتلة الشرقية، وانتهت بتسليم ذلك المعسكر إلى أيدى أناس من الصهيونيين أو الماديين الذين بنوا بزوجات صهيونيات يعملن فى ميادين السياسة والاجتماع.

وتتعدد وسائل الفتنة التى تمهد لقلب النظام العالمى وتهدده فى كيانه بإشاعة الفوضى والإباحة بين شعوبه، وتسليط المذاهب الفاسدة والدعوات المنكرة على عقول أبنائه،وتقويض كل دعامة من دعائم الدين أوالوطنية أو الخلق القويم!

ذلك هو فحوى الكتاب، وجملة مقاصده ومراميه..

وها نحن نقدم البروتوكولات وفق أول ترجمة عربية أمينة كاملة. بتصرف يسير للتعليقات، حيث اقتضت الضرورة حذف أرقام الصفحات المقيدة بالطبعة التى نقل منها، وحذف بعض الهوامش لإحالتها إلى أخرى، وتصويب بعض الأخطاء المطبعية، كما فى الهامش الثانى من البروتوكول الأول، حيث ورد (انظر البروتوكول ٣٠) والصواب (البروتوكول٢٠).. وتعقيبنا على ما جاء فى الهامش قبل الأخير من التعليق على تقرير «نيلوس»!

تصدير الطبعة الخامسة للترجمة الإنجليزية

إن نفاد طبعة أخرى أيضاً من هذا الكتاب ليدل على أنه لم ينقص تلهف الناس على استقبال أخبار بروتوكولات صهيون PROTOCOLS OFZION ، وانه ليزداد وضوحاً فى كل يوم أن سياسة البروتوكولات الآن تطبق بعنف على الأمميين، لأن حكوماتها كما يفاخر المستر إسرائيل زانجفيل Mr . Israel Zangwill مطوقة باليهود ووكلائهم. وأن العالم مدين للأستاذ سرجى نيلوس Milus Professor Sergyei بنشر هذا الكتاب المفزع. وهكذا بينما روسيا تتخذ ضحية لبغضاء اليهودية الخالدة، ويقع عليها اختيار حكماء صهيون لتكون عبرة الانتقام اليهودى ـ فإن روسيا كذلك تكشف مدى الخطر الذى أيقظ العالم. وإن العالم لمدين لشجاعة هذا الابن الحق لروسيا الحقيقية، ولعزمه ووفائه، بأن كشفت الآن اليد الخفية Hidden Hand حتى جلدها ومخالبها، وأن الفوضى والعماء Chaos (١) ، الذى يطبق على كل مكان هنا ليجد فى هذا الكتاب غايته وسببه واضحين.

على كل قارىء أن يدرس المقدمة والتعقيب اللذين قدمهما لنا نيلوس نفسه، ولا سيما التعقيب وصلته بالبروتوكول الثالث الذى يكشف خطوات الأفعى الرمزيةSympolic Serpent (٢) فى التفافها القاتل حول أوربا. وأن حسرة الكاتب البالغة على مصير بلاده

---

(١) وضع الدكتور أحمد أمين بك (كلمة العماء) مقابلة لكلمة « Chaos » حين ترجم عن الإنجليزية كتاب « مبادئ الفلسفة » للأستاذ رايوبرت وذكر هناك سبب اختياره اياها ، وقد تابعناه فى ذلك مع اختلاف استعمال الكلمة هنا عن استعمالها هناك من حيث الحقيقة والمجاز ، وهذا الاختلاف لا يمنع من متابعته ، لأن الكلمة معناها الفلسفى « المادة فى حالة الاختلال وعدم الانتظام » ومعناها المجازى هنا« الأحداث فى اختلالها وعدم انتظامها» فبين المعنيين الأصلى والمجازى تشابه واضح .

(١) ورد ذكر الأفعي الرمزية في البروتوكول الثالث .. كما ورد أيضا ذكرها والمراد منها بالتفصيل في التعقيب الذي كتبه الأستاذ نيلوس أول ناشر الكتاب (انظر فى آخر الكتاب) وحسبنا هنا أن نذكر باختصار أن الأفعي رمز الأمة اليهودية، فرأسها يرمز إلى المتفقهين في أسرار السياسة من حكماء اليهود، وبدنها يرمز إلى بقية الشعب اليهودي من الرعاع، وهي اليوم شعار البلاشفة في روسيا السوفيتية .. وهم يكادون يكونون جميعا من اليهود، فالحكومة الروسية حكومة يهودية تقريباً وسياستها لا تختلف كثيراً عن سياسة البروتوكولات، فهي ولا ريب من تأليف اليهود وإخراجهم كما يظهر لكل متأمل. وينبغى ألا تفوتنا الإشارة هنا في اتخاذ اليهود الأفعى شعاراً لهم أنهم نقلوه عن المصريين القدماء، لأن الأفعى المقدسة فى نظر الفراعنة رمز الحكمة والقوة والدهاء وكانوا يجسمونها =

المحبوبة (روسيا) الذى كان يوشك أن يحل بها، والذى حاول هو سدى أن يتفاداه ـ لا يمكن أن تخيب فى أن تزلزل عواطف كل قارئ يشعر شعوره، وفى تنفذ إلى أعماق فؤاده.

ويجب وجوباً أن نستحضر فى عقولنا أن الأستاذ نيلوس قد نشر البروتوكولات أولاً فى سنة ١٩٠٢ وأن الطبعة التى أخذت ترجمتنا عنها قد نشرت سنة ١٩٠٥، وأن النسخة ذاتها التى اتخذناها فى الترجمة هى الآن فى المتحف البريطانى مختوماً عليها تاريخ تسليمها وهو ١٠ أغسطس سنة ١٩٠٦، أنه لا يمكن تفنيد هذه التواريخ التى تبرهن على أن الحرب العالمية، وصلب روسيا، والإضرابات، والثورات، والاغتيالات ـ قد حدثت جميعاً « وفق خطة» . كما تبرهن على أن تلك الخطة لم تكن خطة ألمانيا ولا خطة إنجلترا ولا أى أمة أخرى إلا أمة اليهودية بلغتها السرية ـ اليد الخفية The hidden Hand ـ التى كشف عنها الآن بعد أمد طويل فى البروتوكولات التى لا حاجة بنا إلى القول بأنها لم يقصد منها أن تراها عيون الأمميين (غير اليهود).

ويزعم اليهود ، ضرورة أن البروتوكولات زور ، ولكن الحرب العظمى[١] ليست زوراً، ولا مصير روسيا زوراً، وبهذين الأمرين تنبأ حكماء صهيون منذ أمد طويل يرجع إلى سنة ١٩٠١م.

إن الحرب العظمى لم تكن حربا ألمانية بل إنها مكيدة دبرتها اليهودية، وقتال بسبب اليهود على تبادل ذخائر العالم، لقد كان اليهود هم الذين سخروا كل قواد الجيش وكل قواد الأساطيل، وأن بيانات معركة جتلاند gutland Battle ونتيجتها ـ لتقدم مثلاً واحدا صغيرا يبين كيف قاد اليهود الحرب سواء في البر أو البحر، وكيف حازوا «مغانم» الحرب لليهود، وكيف أنهم حصلوا على سلطة القيادة والتوجيه على كل المتحاربين من أجل اليهود.

= على تيجانهم كما يظهر من آثارهم، وليست الأفعى وحدها كل ما نقل اليهود عن المصريين الأقدمين وغيرهم، إذ لا شيء فى عقائدهم ونظمهم قد ابتدعوه بل هم ينقلون ما ينقلون ويهودونه حتى يناسب عصرهم الشرير، وهم حتى اليوم عالة على غيرهم من الأمم فى كل مناشط الحياة ومظاهر الحضارة، يأخذون ولا يعطون كما يتضح من تاريخهم وعدم مشاركتهم في ابتداع شيء من صور الحضارة منذ أقدم العصور.

(١) أي الحرب العالمية الأولي، والمعني أن حدوث هذه النكبات فعلا كما حددت البروتوكولات لا يمكن أن يكون بالمصادفة بل بتدبير اليهود، وفيه أدلة على أن البروتوكولات من عمل اليهود، ليست مزيفة عليهم..

أيها القارئ: إن نشر هذا الكتاب ليلقى عليكِ مسئولية كبيرة.

«لندن» أغسطس سنة ١٩٢١.   البريطان

كيف ظهرت البروتوكولات للعالم[1].

لقد تسلمت من صديق [2] شخصى ـ هو الآن ميت ـ مخطوطاً يصف بدقة ووضوح عجيبين خطة وتطوراً لمؤامرة عالمية مشئومة، موضوعها الذى تشمله هو جر العالم الحائر إلى التفكك والانحلال المحتوم.

هذه الوثيقة وقعت في حوزتي منذ أربع سنوات (١٩٠١)، وهى بالتأكيد القطعى صورة حقة فى النقل من وثائق أصلية سرقتها سيدة فرنسية من أحد الأكابر ذوى النفوذ والرياسة السامية من زعماء الماسونية الحرة Freomasoary [*] وقد تمت السرقة في نهاية اجتماع سرى بهذا الرئيس فى فرنسا حيث وكر «المؤتمر الماسونى اليهودى jewish malsonieconspiracy ».

وللذين يريدون أن يروا ويسمعوا، أخاطر [3] بنشر هذا المخطوط تحت عنوان «بروتوكولات حكماء صهيون» وبالتفرس المبدئي خلال هذه المذكرات ـ قد تشعرنا بما نشعر به أمام ما نسميه عادة « الحقائق المسلمة truisms ». إنها تظهرْ فى هيئة الحقائق المألوفة كثيراً أو قليلاً، وإن عبر عنها بحدة وبغضاء لا تصاحبان عادة الحقائق المألوفة، فبين سطورها تتأجج بغضاء دينية، وعنصرية عميقة الغور متغطرسة قد خبئت بنجاح أمداً طويلاً، وإنها لتجيش وتفيض، كما هو واقع، من أناة طافح بالغضب والنقمة، مدرك تمام الإدراك أن نصره النهائى قريب.

ونحن لا نستطيع أن نغفل الإشارة إلى أن عنوانها لا ينطبق تماماً على محتوياتها، فهي ليست على وجه التحديد مضابط جلسات بل هى تقرير وضعه شخص ذو نفوذ، وقسمه أقساماً ليست مطردة اطراداً منطقياً على الدوام. وهي تحملنا على الاحساس بأنها جزء من

---

(١) كاتب هذه المقدمة هو الأستاذ سرجي نيلوس أول ناشر للبروتوكولات بالروسية، وهذا ما يفهم من تصدير الطبعة الخامسة الإنجليزية الذي سبق هنا، وإن لم تذيل المقدمة باسمه ولم تصدر منسوبة إليه صراحة.

(٢) هو إليكسي نيقولا نيفتش، كبير جماعة أعيان روسيا الشرقية أيام القيصرية.

(*) الماسونية الحرة الشرقية (عن الأصل الإنجليزى).

(٣) هكذا يقول الناشر الروسي، وليس في هذا التعبير غلو ولاشطط وحسب القارئ أن يتصور مقدار ما تفضح البروتوكولات من أسرار سياسة اليهود، وسعة نفوذهم في العالم، وعدم إحجامهم عن ارتكاب أي جريمة فردية أو جماعية عن طريق وكلائهم الأشرار الفاسدين..

عمل أخطر وأهم، بدايته مفقودة. وأن كان أصل كل هذه الوثائق السالف ذكرها يعبر هنا عن نفسه بوضوح.

ووفق تنبؤات الآباء القديسين Holy Fathers لابد أن تكون دائما أعمال أعداء المسيح محاكاة [١] لحياة المسيح، ولابد أن يكون لهم خائنهم [٢] غير أن خائنهم،من وجهة نظر دنيوية، لن يظفر بغاياته طبعاً، وإذن فمن المؤكد أن ينتصر « الحاكم العالمى » انتصاراً كاملاً، لكن لفترة وجيزة. وهذه الإشارة إلى كلمات وسولوفيف W. Soloviev لا يقصد بها أن تتخذ برهاناً على سندهم authority العلمى، فالعلم من وجهة النظر الأخروية eschatological لا مكان له، والجانب المهم هو القضاء والقدر. أن سولوفيف يعطينا النسيج CAUVAS والمخطوط المعروض أمامنا سيقوم بالتطريز embroidery [٣].

وقد نكون ملومين حقاً علي التشكك في طبيعة هذه الوثيقة، غير أنه لو أمكن البرهان على هذه المؤامرة العالمية الواسعة بخطابات أو تصريحات من شهود عيان، وأمكن أن يكشف قناع زعمائها وهم ممسكون بخيوطها الدموية ـ إذن لكشفنا بهذه الواقعة الحقة «أسرار الظلم» ولكن لكي تحقق المؤامرة نفسها يجب أن تبقى سراً حتى يوم تجسدها فى « ابن الفناء » [٤].

---

(١) يظهر أن الأستاذ نيلوس يشير بذلك إلى ما ورد في العهد الجديد عن المسحاء (جمع مسيح) الكاذبين الذين لهم مثل سيرة المسيح الظاهرة لا الباطنة ويزعمون أنهم مسحاء من عند الله، وقد حذر السيد المسيح عيسى أتباعه منهم (انظر مثلا إنجيل متى : الإصحاح ٢٤ الآيات ٢٣ ـ ٢٧).

(٢)في الأصل Judas وهى تستعمل بمعنى خائن، ولكنها أصلاً علم على شخص هو يهوذا الاسخريوطى، وهو حواري المسيح، وقد جعل له كهنة اليهود ثلاثين من الفضة كي يسلم لهم المسيح، فخان معلمه وسلمه لهم (انظر قصته في إنجيل متى :الإصحاح ٢٦، وإنجيل مرقص: الإصحاح ١٤، وإنجيل لوقا: الإصحاح ٢٢، وإنجيل يوحنا: الإصحاح ١٨) ومن ذلك صار يهوذا صفة تطلق على كل خائن، ووصف الكريم عندنا (حاتم) وأصله حاتم الطائي، والطامع أشعب وأصله رجل من المدينة اشتهر بالطمع ، والمراد التشبيه.

(٣) المعنى أن كلمات سولوفيف (التى يحيل إليها نيلوس دون أن يعينها) تمد القارئ بفكرة عامة عن الموضوع، والبروتوكولات تمده بالتفصيلات.

(٤) يعتقد أكثر المسيحيين أن الأقنوم الثاني (الابن) اتخذ جسداً في أحشاء مريم بقوة الروح المقدس فصار إنساناً حقيقيا ليتمكن من تخليص العالم من الخطيئة. وما دامت حياة عدو المسيح محاكاة لحياته، فلابد من تجسد، وكما تجسد المسيح تتجسد المؤامرة اليهودية التي حملتها القرون الطويلة حتى تضعها ممثلة في إنسان من اليهود، أو مسيح كاذب يحكم العالم فيعيد الملك إلى إسرائيل حسب اعتقاد اليهود، والأستاذ نيلوس يسخر هنا حين يقيس تجسد المسيح الكاذب الفاني على تجسد الأقنوم الثانى الخالد في السيد المسيح عليه السلام.

إننا لا نستطيع البحث عن براهين مباشرة في مشكلات الخطط الإجرامية التي أمامنا، ولكن علينا أن نقنع بالبينات العرضية أو القرائن. وإن مثلها ليملأ عقل كل متأمل مسيحى[1] غيور.

إن المكتوب فى هذا الكتاب ينبغى أن يقنع «من لهم آذان للسمع» [2] لما فيه من وضوح، ولأنه مقدم إليهم بقصد حثهم على حماية أنفسهم، إذ الوقت متسع لهذه الحماية، حتى يكونوا على حذر.

إن ضميرنا سيكون راضيا إذا وصلنا بفضل الله إلى هذا الغرض الأهم من تحذير العالم الأممى (غير اليهودى) دون إثارة الحقد فى قلبه ضد شعب إسرائيل الأعمى. ونحن نثق بأن الأمميين لن يضمروا مشاعر الكراهية ضد جمهور إسرائيل المؤمن خطأ ببراءة الخطيئة الشيطانية لزعمائه [3] من الكتبة والفريسيين pharisees [4] الذين برهنوا مرة قبل ذلك على أنهم هم أنفسهم سبب ضلال إسرائيل [5] وإذا نحينا جانبا نقمة الله من الظالمين لم تبق إلا وسيلة واحدة: هى اتحاد المسيحيين جميعا فى سيدنا يسوع المسيح والفناء الشامل فيه مستغفرين لأنفسنا وللآخرين.

ولكن أهذا ممكن مع حالة العالم الضالة الآن ؟ إنه مستحيل مع سائر العالم، ولكنه ممكن مع حالة روسيا المؤمنة [6]. فالظروف السياسية الحاضرة للدول الأوربية الغربية

---

(١) إنما خص الأستاذ نيلوس بكلامه المسيحيين هنا، لأنه مسيحي يخاطب مسيحيين ليستنهضهم وينذرهم ، ويحاول أن يقنعهم عن طريق الدين، وليس معنى هذا أنه يستبعد من خطابه المسلمين وغيرهم، بل يخاطب من وراء ذلك كل متدين، سواء أكان مسيحيا أم مسلما أم غير ذلك، إذ يلزمه تدينه بالثورة على هذه المؤامرة الصهيونية اليهودية التي تحاول القضاء علي الأديان والأخلاق والمبادى الإنسانية ومقاييسها ونظمها الاجتماعية وتجعل المجتمع أنانياً منحلاً فاسداً ليكون عبيداً لليهود.

(٢) هذه كلمة المسيح وردت في الأناجيل، وكان الأستاذ نيلوس يصرخ بها صرخة المسيح لأمته المسيحية (روسيا) كي يثير حماستهم الدينية ضد اليهود كما أشرنا في الهامش السابق.

(٣) يؤمن اليهود بأن الله أباح لهم ولزعمائهم كل شرضد غير اليهود.

(٤) جرينا في ترجمة الكلمتين على نهج الترجمة العربية للأناجيل، والكتبة والفرنسيون (المراءون) كانوا يلاحقون السيد المسيح بالامتحان رغبة فى تعجيزه وفضحه، ولكنه كان منتصرا عليهم دائما، وكانوا متمسكين بحرفية النصوص ولو أدت إلى عكس المراد من ورائها، بينما كان هو ينفذ إلى اللب ويراعي الحكمة من وراء النصوص.

(٥) يشير نيلوس إلى إنكار اليهود للمسيح عيسى حين جاءهم، ثم اضطهادهم إياه ضالين ظالمين .

(٦) هذا (علي رأي نيلوس) أيام كانت روسيا محكومة بالقياصرة قبل أن يستولي عليها أبالسة الشيوعية من اليهود وصنائعهم، وينشروا الإلحاد والفساد فيها.

والأقطار التابعة لها فى الجهات الأخرى قد تنبأ بها أمير الحواريين prince of Apostles .

إن النوع البشري ـ في استرواحه sspiration لإكمال حياته الأرضية وبحثه عن مملكة الاكتفاء العام [١] التي تحقق المثل الأعلى للحياة الإنسانية ـ قد غير اتجاه مثله بدعوى أن الإيمان المسيحى كاذب قطعاً، وأنه لا يحقق الآمال المعلقة عليه. وأن العالم ـ الذى حطم معبوداته السابقة وخلق معبودات جديدة، وأقام آلهة جديدة على قواعدها ـ إنما يبنى لهذه الآلهة الجديدة هياكل: كل منها أعظم فخفخة، وأكبر فخامة من الآخر؛ ثم يعود فينكسه [٢] ويدمره.

إن النوع البشري قد فقد الفهم الصحيح للسلطة التي منحها الملوك المسحاء [٣] من الله، وهو يقترب من حالات الفوضى . وسرعان ما تبلى بلى تاماً ضوابط الموازين الجمهورية والدستورية، وستنهار هذه الموازين، وستجر معها فى انهيارها كل الحكومات إلى أغوار هاوية الفوضى المتلفة.

إن آخر حصن للعالم، وآخر ملجأ من العاصفة المقبلة هو روسيا . فإيمانها لا يزال حياً، وإمبراطورها المسيح لا يزال قائما كحاميها المؤكد.

إن كل جهود الهدم من جانب أعداء المسيح اليساريين الظاهرين Sinistors الظاهرين وعماله الفطناء الأغبياء ـ مركزة على روسيا. والأسباب مفهومة والغايات معلومة، فيجب أن تكون معروفة لروسيا المتدينة المؤمنة.

وإن اللحظة التاريخية المقبلة أعظم وعيداً، وإن الأحداث المقتربة ـ وهى مقنعة بالغيوم الكثيفة ـ أشد هولاً، فيجب أن يضرب الروسيون ذوو القلوب الجريئة الباسلة بشجاعة عظيمة، وتصميم جبار، وينبغي أن يعقدوا أيديهم بشجاعة حول لواء كنيستهم المقدس، وحول عرش إمبراطورهم. وطالما الروح تحيا، والقلب الجياش يخفق فى الصدور فلا مكان لطيف اليأس القاتل. ولكننا نعتمد على أنفسنا وعلى ولائنا وإيماننا لنظفر برحمة

---

(١) أى حكومة دنيوية يحصل فيها كل فرد على ما يكفيه، وهذا حلم بشرى محال .

(٢) أى يقلبه، من نكست الإناء، أي قلبته.

(٣) المسحاء جمع مسيح، وكان الملوك قديما يمسحون بالزيت المقدس مباركة لهم واعترافا بسلطتهم علي أيدي زعماء رجال الدين.

اللّه القادر Almighty، ولنؤجل ساعة انهيار روسيا [١] (١٩٠٥).

---

(١) من العجيب أن يتنبأ الأستاذ نيلوس في الفقر الأربع الأخيرة هنا وفي التعقيب آخر الكتاب بالانقلاب السياسى الشيوعي البلشفي اليهودي قبل حدوثه بنحو اثنى عشر عاما، ولقد نصح قومه مخلصا، وأنذرهم بالكارثة قبل حلولها، وصرخ فيهم صرخة المسيح «من كان له أذنان للسمع فليسمع» ولكن صرخته لم تسمع. ولم تنجح في تفادي الكارثة ولا في تأخيرها عن موعدها. فلقد نجح ذهب اليهود ودسائسهم ضد روسيا ، ثم التضحية ببعض جيوشهم السرية هناك في قتلها وتمكين اليهود من حكمها، واتخاذها وكراً للدسائس ونشر المبادئ الهدامة في العالم أجمع، توصلاً إلى إقامة مملكة يهودية يجلس علي عرشها ملك من نسل داود ويدين لها العالم كله بالخضوع والولاء ، جاء في كتاب «المؤامرة اليهودية» ما ترجمته: «إن المحفل الأمريكاني الماسونى الذى يدير الماسونية الكونية ـ كل أعضائه من أعاظم زعماء اليهود وحدهم ـ عقد مؤتمرا قرر فيه خمسة من اليهود أصحاب الملايين خراب روسيا القيصرية بإنفاق مليار دولار، وتضحية مليون يهودى لإثارة الثورة فى روسيا، وهؤلاء الخمسة الذين تبرعوا بالمال ثم: إسحاق موتيمر وشستر، وليفي ، ورون. وشيف ، وكان المال مرصوداً للدعاية وإثارة الصحافة العالمية على القيصرية وذلك على أثر المذابح الدائرة ضد اليهود حوالي نهاية القرن التاسع عشر». هذا وكان تروتسكي اليهودى كما يعرف ذلك العارفون، من أعظم الممكنين للرفيق لينين من السيطرة على روسيا بعد الانقلاب، ثم طرده ستالين هذا اليهودى ودبر اغتياله ولم يزل أغلب أعضاء المجلس السوفييتي الشيوعي الذي يحكم روسيا الآن (١٩٥١) من اليهود الصرحاء.

البروتوكول الأول:

سنكون صرحاء، ونناقش دلالة كل تأمل، ونصل إلى شروح وافية بالمقارنة والاستنباط، وعلى هذا المنهج سأعرض فكرة سياستنا وسياسة الجوييم Goys (وهذا هو التعريف اليهودى لكل الأميين [1] Gentiles).

يجب أن يلاحظ أن ذوى الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عدداً من ذوى الطبائع النبيلة. وإذن فخير النتائج فى حكم العالم ما ينتزع بالعنف والإرهاب، لا بالمناقشات الأكاديمية academic [2]. كل إنسان يسعى إلى القوة، وكل واحد يريد أن يصير دكتاتوراً، على أن يكون ذلك فى استطاعته. وما أندر من لا ينزعون إلى إهدار مصالح غيرهم توصلا إلى أغراضهم الشخصية.

ماذا كبح الوحوش المفترسة ـ التى نسميها الناس ـ عن الافتراس؟ وماذا حكمها حتى الآن؟ لقد خضعوا فى الطور الأول من الحياة الاجتماعية للقوة الوحشية العمياء، ثم خضعوا للقانون، وما القانون فى الحقيقة إلا هذه القوة ذاتها مقنعة فحسب. وهذا يتأدى بنا إلى تقرير أن قانون الطبيعة هو: الحق يكمن فى القوة.

إن الحرية السياسية ليست حقيقة، بل فكرة. ويجب أن يعرف الإنسان كيف يسخر هذه الفكرة عندما تكون ضرورية، فيتخذها طعماً لجذب العامة إلى صفه، إذا كان قد قرر أن ينتزع سلطة منافس له. وتكون المشكلة يسيرة إذا كان هذا المنافس موبوءاً بأفكار الحرية Freedom التى تسمى التحررية [3]. Liberalism ومن أجل هذه الفكرة يتخلى

---

(١) المراد بالجوييم أو بالأميين من عدا اليهود، ومعني الكلمة عندهم البهائم والأنجاس والكفرة والوثنيون، وفي هذا ما يدل علي أن اليهود ينظرون إلى من عداهم نظرات الحقد والاحتقار والمقت والاشمئزاز، ولقد استعملنا كلمة الأمي والأميين والأمية علماً للدلالة على من عدا اليهود ترجمة لكلمة ،.Gentil .

(٢) المناقشات الأكاديمية المناقشات على طريقة الجامعات عقلية نظرية يترك لكل مناقش فيها مطلق الحرية فى الرأى والقول.

(٣) التحررية تتسم بأنها نزعة في السلوك أكثر مما هي مذهب عقلي في التفكير،ويقصد بها انسلاخ الفرد من كل ما ما تواضع عليه المجتمع من آداب وقوانين في رغباته وشهواته، ثم سيرته حسب ضميره ونزعته الخاصة. وقد وضعنا هذا المصدر النسبي ـ حسب المصطلحات الدالة علي المذاهب ـ مقابل المصدرliberalism ، واستعملنا تصريفات أخري من جذره مع مراعاة تشديد الراء في كل الصيغ مقابل تصريفات الكلمة الإنجليزية الأخرى، كي لا نخلط بينها وبين الحريةfreedom وتصريفاتها الأخرى. ويراد بالتحررية أحيانا الضمير والعدل ومعرفة كل واحد حقوق غيره.

عن بعض سلطته.

وبهذا سيصير انتصار فكرتنا واضحا، فإن أزمة الحكومة المتروكة خضوعاً لقانون الحياة ستقبض عليها يد جديدة. وما على الحكومة الجديدة إلا أن تحل محل القديمة التى أضعفتها التحررية، لأن قوة الجمهور العمياء لا تستطيع البقاء يوماً واحداً بلا قائد.

لقد طغت سلطة الذهب على الحكام المتحررين Fiberal ولقد مضى الزمن الذى كانت الديانة فيه هي الحاكمة، وإن فكرة الحرية لا يمكن أن تتحقق، إذ ما من أحد يستطيع استعمالها استعمالاً سديدا.

يكفى أن يعطى الشعب الحكم الذاتى فترة وجيزة لكى يصير هذا الشعب رعايا بلا تمييز، ومنذ تلك اللحظة تبدأ المنازعات والاختلافات التي سرعان ما تتفاقم، فتصير معارك اجتماعية، وتندلع النيران فى الدول ويزول أثرها كل الزوال.

وسواء انهكت الدول الهزاهز[١] الداخلية أم أسلمتها الحروب الأهلية إلى عدو خارجى، فإنها فى كلتا الحالتين تعد قد خربت نهائيا كل الخراب وستقع فى قبضتنا. وأن الاستبداد المالى ـ والمال كله في أيدينا ـ سيمد إلى الدولة عوداً لا مفر لها من التعلق به، لأنها ـ إذا لم تفعل ذلك ـ ستغرق فى اللجة لا محالة.

ومن يكن متأثراً ببواعث التحررية [٢] فتخالجه الإشارة إلى أن بحوثا من هذا النمط منافية للأخلاق، فسأسأله هذا السؤال: لماذا لا يكون منافيا للأخلاق لدى دولة يتهددها عدوان: أحدهما خارجى، والآخر داخلى ـ أن تستخدم وسائل دفاعية ضد الأول تختلف عن وسائلها الدفاعية ضد الآخر، وأن تضع خطط دفاع سرية، وأن تهاجمه فى الليل أو بقوات أعظم ؟

ولماذا يكون منافياً للأخلاق لدى هذه الدولة أن تستخدم هذه الوسائل ضد من يحطم أسس حياتها وأسس سعادتها؟

هل يستطيع عقل منطقى سليم أن يأمل فى حكم الغوغاء حكماً ناجحاً باستعمال المناقشات والمجالات، مع أنه يمكن مناقضة مثل هذه المناقشات والمجادلات بمناقشات أخرى

---

(١) Convulsions معناها الهزات أوالارتجافات، وقد فضلنا ترجمتها بالهزاهز لأنها أدق وفي المصباح المنير «الهزاهز الفتن يهتز فيها الناس».

(٢) أى من يثقل ضميره اتباع هذه الوسائل فيراها مخالفة للأخلاق الفاضلة.

وربما تكون المناقشات الأخرى مضحكة غير أنها تعرض فى صورة تجعلها أكثر إغراء فى الأمة لجمهرتها العاجزة عن التفكير العميق، والهائمة وراء عواطفها التافهة وعاداتها وعرفها ونظرياتها العاطفية [١].

إن الجمهور الغر الغبى، ومن ارتفعوا من بينه، لينغمسون فى خلافات حزبية تعوق كل إمكان للاتفاق ولو على المناقشات الصحيحة، وإن كان كل قرار للجمهور يتوقف على مجرد فرصة، أو أغلبية ملفقة تجيز لجهلها بالأسرار السياسية حلولا سخيفة فتبزر بذور الفوضى فى الحكومة.

إن السياسة لا تتفق مع الأخلاق فى شىء. والحاكم المقيد بالأخلاق ليس بسياسى بارع، وهو لذلك غير راسخ على عرشه [٢].

لابد لطالب الحكم من الالتجاء إلى المكر والرياء، فإن الشمائل الإنسانية العظيمة من الإخلاص، والأمانة تصير رذائل فى السياسة، وأنها تبلغ فى زعزعة العرش أعظم مما يبلغه ألد الخصوم. هذه الصفات لا بدّ أن تكون هى خصال البلاد الأممية (غير اليهودية) ولكننا غير مضطرين إلى أن نقتدى بهم على الدوام.

إن حقنا يكمن فى القوة. وكلمة« الحق » فكرة مجردة قائمة على غير أساس فهى كلمة لا تدل على أكثر من « اعطنى ما أريد لتمكننى من أن أبرهن لك بهذا على أنى أقوى منك » .

أين يبدأ الحق وأين ينتهى؟ أى دولة يساء تنظيم قوتها، وتنتكس فيها هيبة القانون

---

(١) من المؤسف أن هذا صحيح فى البلاد التى لم تنضج سياسياً ولكنه غير صحيح فى البلاد التى نضجت سياسياً كالجزر البريطانية فالمناقشات هناك هى سبيل الحكم والشعب هناك يعرف الحدود بل يحسها بالتربية كإحساس الغريزة ويلتزمها، والحرية هناك مطلقة والرأى إقناع واقتناع ، والرأى النافذ للأغلبية.

(٢) يلاحظ أن البروتوكولات هنا تغترف من كتاب « الأمير » لمكيافلى اغترافاً (راجع الترجمة الإنجليزية لكتاب الأمير The prince ص ١٣٠، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٣، ١٤٤، ١٧٨، طبعة أفريمان)، ودعواها هنا كاذبة، حتى فى سياسة الشعوب التى لم تنضج سياسياً. وسير الحكام الأفاضل مثل عمر فى التاريخ تهدم هذا الرأى من أساسه، ولا دليل حق على أن الشعوب فى عهد الحكام الأشرار كانت أحسن حالاً منها فى عهد الحكام الأخيار. بل إن التاريخ يثبت على الدوام أن الشعوب فى عهد ساسة الأخيار يكون أسعد حالاً منها فى عهد ساستها الأشرار. والمغالطة ناشئة من أن بعض الحكام غير الناضجين فى السياسة يكونون ذوى نيات خيرة، ولكن ليست لهم المقدرة السياسية على تنفيذها، فيتعثرون ويعثرون شعوبهم معهم. غير أن السبب هو النقص فى مقدرتهم السياسية لا فى تمسكهم بالأخلاق الفاضلة.

وتصير شخصية الحاكم بتراء عقيمة من جراء الاعتداءات التحررية [١] المستعمرة - فإنى أتخذ لنفسى فيها خطا جديداً للهجوم، مستفيداً بحق القوة لتحطيم كيان القواعد والنظم القائمة، والإمساك بالقوانين وإعادة تنظيم الهيئات جميعاً. وبذلك أصير دكتاتوراً على أولئك الذين تخلوا بمحض رغبتهم عن قوتهم، وأنعموا بها علينا [٢].

وفى هذه الأحوال الحاضرة المضطربة لقوى المجتمع ستكون قوتنا أشد من أى قوة أخرى، لأنها ستكون مستورة حتى اللحظة التى تبلغ فيها مبلغاً لا تستطيع معه أن تنسفها أى لحظة ماكرة.

ومن خلال الفساد الحالى الذى نلجأ إليه مكرهين ستظهر فائدة حكم حازم يعيد إلى بناء الحياة الطبيعية نظامه الذى حطمته التحررية [٣].

إن الغاية تبرر الوسيلة، وعلينا ـ ونحن نضع خططنا - ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقى بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضرورى ومفيد [٤].

وبين أيدينا خطة عليها خط استراتيجى Strategie [٥] موضح. وما كنا لننحرف عن هذا الخط إلا كنا ماضين فى تحطيم عمل قرون.

إن من يريد إنفاذ خطة عمل تناسبه يجب أن يستحضر فى ذهنه حقارة الجمهور وتقلبه، وحاجته إلى الاستقرار، وعجزه عن أن يفهم ويقدر ظروف عيشته وسعادته، وعليه

---

(١) أى الاعتداءات التى مصدرها نزعة الناس إلى التحرر، دون نظر إلى عواقب الاعتداءات.

(٢) هكذا فعل اليهود بروسيا حين دمروا الحكم القيصرى مستغلين مفاسده فى إثارة الجماهير ضده، حتى إذا تخلصوا منه حكموها حكمهم الشيوعى، وأن نهج الشيوعيين فى الحكم هو النهج المرسوم هنا، وللقارئ العربى إذا أراد معرفة ذلك الرجوع إلى كتاب« آثرت الحرية» المترجم للعربية ومؤلفه « فكتور كرافتشنكو» ترجمة الأستاذ محمد بدران والدكتور زكى نجيب محمود .

(٣) المعنى أن الفساد الحالى سيشعر الناس بالحاجة إلى الحكم« الإسرائيلى» الحازم، ويحملهم على ترقبه ومعرفته والخضوع له عند مجيئه.

(٤) سياسة البروتوكول هنا تغترف اغترافاً مما كتبه مكيافلى فى كتاب« الأمير» بل هذه كلماته بنصها أحياناً لا بروحها ومعناها فحسب.

(٥) فضلنا تعريب الكلمة على ترجمتها لأنها مشهورة يعرفها حتى العامة ومعنى الاستراتيجية فى قيادة الجيوش وما تستتبعه هذه القيادة، ولا توجد كلمة فى العربية تؤدى معناها كاملا. ومعنى الفقرة: أن موقفنا فى حربنا ضد العالم وحكمه قد وضع أساسه أبطالنا الأقدمون، وسعى فى تنفيذه حكماؤنا منذ قرون حتى الآن، فإذا سالمنا العالم أفسدنا كل أعمالهم الماضية.

أن يفهم أن قوة الجمهور عمياء خالية من العقل المميز، وأنه يعير سمعه ذات اليمين وذات الشمال.

إذا قاد الأعمى أعمى مثله فيسقطان معاً فى الهاوية. وأفراد الجمهور الذين امتازوا من بين الهيئات ــ ولو كانوا عباقرة ــ لا يستطيعون أن يقودوا هيئاتهم كزعماء دون أن يحطموا الأمة.

ما من أحد يستطيع أن يقرأ الكلمات المركبة من الحروف السياسية إلا من نشأ تنشئة للملك الأوتوقراطى autocratisc [١]، وإن الشعب المتروك لنفسه أى للمتازين من الهيئات [٢]، لتحطمه الخلافات الحزبية التى تنشأ من التهالك على القوة والأمجاد، وتخلق الهزاهز والفتن والاضطراب.

هل فى وسع الجمهور أن يميز بهدوء ودون ما تحاسد، كى يدبر أمور الدولة التى يجب ألا تقحم معها الأهواء الشخصية؟ وهل يستطيع أن يكون وقاية ضد عدو أجنبى؟ هذا محال. إن خطة مجزأة أجزاء كثيرة بعدد ما فى أفراد الجمهور من عقول لهى خطة ضائعة القيمة، فهى لذلك غير معقولة، ولا قابلة للتنفيذ[٣]: إن الأوتوقراطى autoctrat وحده هو الذى يستطيع أن يرسم خططا واسعة، وأن يعهد بجزء معين لكل عضو فى بنية الجهاز الحكومى ومن هنا نستنبط أن ما يحقق سعادة البلاد هو أن تكون حكومتها فى قبضة شخص واحد مسئول. وبغير الاستبدال المطلق لا يمكن أن تقوم حضارة.[٤]، لأن الحضارة لا يمكن أن تروج وتزدهر إلا تحت رعاية الحاكم كائناً من كان، لا بين أيدى الجماهير.

إن الجمهور بربرى، وتصرفاته فى كل مناسبة على هذا النحو، فما أن يضمن الرعاع

---

(١) الأوتوقراطية نظام الحاكم الفرد المستبد المطلق وقد فضلنا كعادتنا تعريب الكلمة على ترجمتها وهم يريدون بذلك مثل مملكتهم وملكها المسيح المخلص.

(٢) هذه مغالطة، لأن الممتاز فى مواهبه السياسية لا بد أن يكون حاكماً ممتازاً، ومنشأ الخلط هنا، وفى سياسة الهيئات، وهو وضع الحكم فى أيدى رجال لهم امتيازاتهم فى غير ميادين السياسة أو ليست لهم مواهب سياسية ناضجة.

(٣) أقرب نظام يشبه النظام المرسوم هنا هو نظام الحكم فى روسيا الشيوعية التى يحكمها طاغية مطلق، والنظام الشيوعى وضعه وينفذه اليهود (انظر كتاب «آثرت الحرية»).

(٤) يريد أن الخطة التى تنشأ عن التوفيق بين آراء أعضاء البرلمان خطة مرقمة فاسدة، على عكس الفكرة الموحدة المتماسكة التى يديرها حاكم مستبد وحده. (انظر البروتوكول العاشر وهوامشه)؟

الحرية، حتى يمسخوها سريعاً فوضى، والفوضى فى ذاتها قمة البربرية.

وحسبكم فانظروا إلى هذه الحيوانات المخمورة alceholised التى أفسدها الشراب، وإن كان لينتظر لها من وراء الحرية منافع لا حصر لها، فهل نسمح لأنفسنا وأبناء جنسنا بمثل ما يفعلون ؟.

ومن المسيحيين أناس قد أضلتهم الخمر، وانقلب شبانهم مجانين بالكلاسيكيات Classics والمجون المبكر الذين أغراهم به وكلاؤنا [١] ومعلمونا، وخدمنا، وقهرماناتنا [٢] فى البيوتات الغنية وكتبتنا [٣] Clerks ومن إليهم، ونساؤنا فى أماكن لهوهم ـ وإليهن أضيف من يسمين « نساء المجتمع» ـ والرغبات من زملائهم فى الفساد والترف.

يجب أن يكون شعارنا كل « وسائل العنف والخديعة ».

إن القوة المحضة هى المنتصرة فى السياسة، وبخاصة إذا كانت مقنعة بالألمعية اللازمة لرجال الدول. يجب أن يكون العنف هو الأساس. ويتحتم أن يكون ماكراً خداعاً حكم تلك الحكومات التى تأبى أن تداس تيجانها تحت أقدام وكلاء agents قوة جديدة. إن هذا الشر هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هدف الخير ولذلك يتحتم ألا نتردد لحظة واحدة فى أعمال الرشوة والخديعة والخيانة إذا كانت تخدمنا فى تحقيق غايتنا .

وفى السياسة يجب أن نعلم كيف نصادر الأملاك بلا أدنى تردد إذا كان هذا العمل يمكننا من السيادة والقوة. إن دولتنا ـ متبعة طريق الفتوح السلمية ـ لها الحق فى أن تستبدل بأهوال الحرب أحكام الإعدام، وهى أقل ظهوراً وأكثر تأثيراً، وإنها لضرورة لتعزيز الفرع الذى يولد الطاعة العمياء. إن العنف الحقود وحده هو العامل الرئيسى فى قوة العدالة [٤] فيجب أن نتمسك بخطة العنف والخديعة لا من أجل المصلحة فحسب، بل من أجل الواجب والنصر أيضاً.

---

(١) أى صنائعنا الذين نتخذهم آلات لتنفيذ أغراضنا.

(٢) وضعنا كلمة قهرمانات لكلمة Governesse والقهرمانة هى القيمة على شئون المنزل، أو على شئون الأطفال فيه،وهى المربية (الدادة) وقلما تخلو منها البيوت الكبيرة.

(٣) اخترنا هذا الجمع لأنه المعروف بيننا لمن يكتبون الرسائل والحسابات ونحوها فى البيوت التجارية ودواوين الحكومة وما إليها، وقد خصص لفظ الكتاب جمع كاتب أيضاً للأدباء، مقابل كلمة Writers.

(٤) هكذا تحكم روسيا الآن كما يدل على ذلك كتاب « آثرت الحرية » والنظام الإدارى الذى رسمه حكماء اليهود هنا هو الذى طبقه خلفاؤهم اليهود فى روسيا.

إن مبادئنا فى مثل قوة وسائلنا التى نعدها لتنفيذها، وسوف ننتصر ونستعبد الحكومات جميعاً تحت حكومتنا العليا لا بهذه الوسائل فحسب بل بصرامة عقائدنا أيضاً، وحسبنا أن يعرف عنا أننا صارمون فى كبح كل تمرد[١].

كذلك كنا قديماً أول من صاح فى الناس « الحرية والمساواة والإخاء »[٢] كلمات ما انفكت ترددها منذ ذلك الحين ببغاوات جاهلة متجمهرة من كل مكان حول هذه الشعائر، وقد حرمت بترددها العالم من نجاحه، وحرمت الفرد من حريته الشخصية الحقيقية التى كانت من قبل فى حمى يحفظها من أن يخنقها السفلة.

إن أدعياء الحكمة والذكاء من الأمميين (غير اليهود) لم يتبينوا كيف كانت عواقب الكلمات التى يلوكونها، ولم يلاحظوا كيف يقل الاتفاق بين بعضها وبعض، وقد يناقض بعضها بعضاً[٣]. أنهم لم يروا أنه لا مساواة فى الطبيعة، وأن الطبيعة قد خلقت أنماطاً غير متساوية فى العقل والشخصية والأخلاق والطاقة. وكذلك فى مطاوعة قوانين الطبيعة[٤].

إن أدعياء الحكمة هؤلاء لم يكهنوا ويتنبأوا أن الرعاع قوة عمياء وإن المتميزين المختارين حكامًا من وسطهم عميان مثلهم فى السياسة. فإن المرء المقدور له أن يكون حاكما ــ ولو كان أحمق ــ يستطيع أن يحكم،ولكن المرء غير المقدور له ذلك ــ ولو كان عبقرياً ــ أن يفهم شيئا فى السياسة. وكل هذا كان بعيداً عن نظر الأمميين مع أن الحكم الوراثى قائم على هذا الأساس. فقد اعتاد الأب أن يفقه الابن فى معنى التطورات السياسية

---

(١) هذه هى المملكة العلوية الفاضلة التى يعد اليهود بها العالم ليكون فيها خدماً أذلاء، مقابل حياتهم ونظمهم الحاضرة، فليذكر ذلك الغافلون.

(١) يدعى اليهود بهذا أنهم واضعو شعار الثورة الفرنسية وأنهم المثيرون لها.

(٢) إن هذه المبادى لا تتناقض إلا حين يفهم كل منها مطلقاً من حدوده وهذا فهم خطأ، كما لا يسوء استعمالها إلا حين لا يقف مزاولوها عند حدودها الحقيقية العملية، ولكن إذا عرف كل واجبه ومقامه، واستعمل حريته فى القيام بواجباته حسب الطريقة المناسبة لمواهبه وظروفه، وعرف لذى الفضل فضله ولمن دونه واحب تقويمه وانصافه كأنه من أسرته، لم يكن ضرر فى هذه المبادى ولم يكن هناك تناقض بينها، واليهود يسلمون بذلك (انظر البرتوكول الرابع). ومن ذلك يظهر تناقضهم.

(٣) إن هذا الاختلاف لا يناقض مبدأ المساواة كما يفهمها العقلاء مساواة فى حرية الحياة والملك والفوز بثمرات العمل والمواهب ونحو ذلك فأما ما وراء ذلك من اختلاف فى العقل والشخصية والطاقة والعمل ونحو ذلك فهو خير للناس ومعروف عندهم، لا ريب فيه ولا مهرب منه، ولكنه لا يحول بينهم وبين المساواة فى حق الحياة والامتلاك ونحوهما مما ذكرنا.

وفى مجراها بأسلوب ليس لأحد غير أعضاء الأسرة المالكة أن يعرفه وما استطاع أحد أن يفشى الأسرار للشعب المحكوم (١). وفى وقت من الأوقات كان معنى التعليمات السياسية ـ كما تورثت من جيل إلى جيل ـ مفقوداً. وقد أعان هذا الفقد على نجاح أغراضنا.

إن صيحتنا« الحرية والمساواة والإخاء» قد جلبت إلى صفوفنا فرقاً كاملة من زوايا العالم الأربع عن طريق وكلائنا المغفلين،وقد حملت هذه الفرق ألويتنا فى نشوة ، بينما كانت هذه الكلمات ـ مثل كثير من الديدان ـ تلتهم سعادة المسيحيين، وتحطم سلامهم واستقرارهم، ووحدتهم، مدمرة بذلك أسس الدول. وقد جلب هذا العمل النصر لنا كما سنرى بعد، فإنه مكننا بين أشياء أخرى من لعب دور الآس(٢) فى أوراق اللعب الغالبة، أى محق الامتيازات، وبتعبيرآخر مكننا من سحق كيان الأرستقراطية (٣) الأممية (غير اليهودية) التى كانت الحماية الوحيدة للبلاد ضدنا.

لقد أقمنا على أطلال الأرستقراطية الطبيعية والوراثية أرستقراطية من عندنا على أساس بلوقراطى Plutorcatic (٤) وعلى العلم (٥) الذى يروجه علماؤنا ولقد عاد النصر أيسر فى الواقع، فإننا من خلال صلاتنا بالناس الذين لا غنى لنا عنهم ولقد أقمنا الأرستقراطية الجديدة على الثروة التى نتسلط عليها كنا دائماً نحرك أشد أجزاء العقل الإنسانى إحساساً، أى نستثير مرض ضحايانا من أجل المنافع، وشرهم ونهمهم، والحاجات

---

(١) ينشأ عن احتكار الحكام للأسرار السياسية كلها وأسبابها قصور المحكومين عن فهم الحوادث وأسبابها الحقيقية ببساطة فهماً صحيحاً، فتلتوى لذلك أمامها الحقائق أو يضربون فى متاهات من الخيالات، ولو اكتفى الحكام باحتكار الأسرار العليا وحدها ومرنوا المحكومين على النظر فى الحوادث وأسبابها السهلة مدة طويلة وشاركوهم فى الحكم وتحمل المسئوليات لكفاهم ذلك وكفى الناس متاعب كثيرة،لأن تمرين المحكومين على ذلك سيربيهم تربية سياسية صحيحة كما يجرى الآن فى بريطانيا.

(٢) فى أوراق اللعب(الكوتشينه) أوراق ممتازة أعلاها الآس، فإنه يقلبها جميعاً والمعنى أن اليهود تغلبوا على امتيازات المختارين من غير اليهود كما يغلب الآس سائر الأوراق الممتازة.

(٣) الأرستقراطية حكومة الأقلية الفاضلة، العادلة كما عرفها أرسطو.

(٤) أى الحكم على أساس الغنى والثروة، فالبلوتقراطية حكومة الأقلية الغنية التى تملك معظم الثروة، أو هى حكومةالأغنياء وهؤلاء لا تعنيهم إلا الثروة وجمعهامن أى سبيل دون رعاية لأى مبدأ أو عاطفة شريفة.

(٥) المراد بالعلم الذى يروجه علماؤهم علم الاقتصاد السياسى political economy وقد دسوا فيه نظريات لا تعتمد على أساس من واقع الحياة (انظر البرتوكول ٢٠) .

المادية للإنسانية [١] وكل واحد من هذه الأمراض يستطيع وحده مستقلاً بنفسه أن يحطم طليعة الشعب [٢] وبذلك نضع قوة إراد الشعب تحت رحمة أولئك الذين سيجردونه من قوة طليعته.

إن تجرد كلمة «الحرية» جعلها قادرة على إقناع الرعاع بأن الحكومة ليست شيئاً آخر غير مدير ينوب عن المالك الذى هو الأمة، وأن فى المستطاع خلعها كقفازين باليين. وأن الثقة بأن ممثلى الأمة يمكن عزلهم قد أسلمت ممثليهم لسلطاننا، وجعلت تعيينهم عملياً فى أيدينا.

البروتوكول الثانى:

يلزم لغرضنا أن لا تحدث أى تغييرات إقليمية عقب الحروب، فبدون التعديلات الإقليمية ستتحول الحروب إلى سباق اقتصادى، وعندئذ تتبين الأمم تفوقنا فى المساعدة التى سنقدمها، وأن اطراد الأمور هكذا سيضع الجانبين كليهما تحت رحمة وكلائنا الدوليين ذوى ملايين العيون الذين يملكون وسائل غير محدودة على الإطلاق. وعندئذ ستكتسح حقوقنا الدولية كل قوانين العالم، وسنحكم البلاد بالأسلوب ذاته الذى تحكم به الحكومات الفردية رعاياها.

وسنختار من بين العامة رؤساء إداريين ممن لهم ميول العبيد، ولن يكونوا مدربين على فن الحكم[٣] ، ولذلك سيكون من اليسير أن يمسخوا قطع شطرنج ضمن لعبتنا فى أيدى مستشارينا العلماء الحكماء الذين دربوا خصيصاً على حكم العالم منذ الطفولة الباكرة، وهؤلاء الرجال - كما علمتهم من قبل - قد درسوا علم الحكم من خططنا السياسية، ومن تجربة التاريخ ، ومن ملاحظة الأحداث الجارية [٤]. والأمميون (غير اليهود) لا ينتفعون بالملاحظات التاريخية المستمرة بل يتبعون نسقاً نظريا من غير تفكير فيما يمكن أن تكون

---

(١) أليست هذه هى الطريقة الشيوعية اليهودية التى يوقع بها الشيوعيون ضحاياهم فى أحابيلهم؟ فهم لا يستغلون فى الإنسان عاطفة كريمة، بل يستثيرون أخس عواطفه وشهواته ليسلطوه على المجتمع.

(٢) المراد بطليعة الشعب الممتازون الذين يتقدمون طوائف الشعب ويتزعمونها ويقضون فى أمورها؛ واليهود يركزون ضرباتهم على هؤلاء المتزعمين، فإذا حطموهم تحطمت دون مشقة الطوائف التى تسير وراءهم بلا تفكير.

(٣) من المؤسف أن السياسة فى معظم البلاد تسير على هذا النحو سواء كان ذلك بسبب اليهود أو بغيرهم، واليهود على كلا الحالين يستفيدون كثيراً من الجرى على هذه السياسة.

(٤) فى هذه السطور تتركز أصول الاجتهاد فى الحكم والفقه والعلوم وغيرها.

نتائجه. ومن أجل ذلك لسنا فى حاجة إلى أن نقيم للأميين وزناً.

دعوهم يتمتعون ويفرحون بأنفسهم حتى يلاقوا يومهم، أو دعوهم يعيشون فى أحلامهم بملذات وملاه جديدة، أو يعيشوا فى ذكرياتهم للأحلام الماضية. دعوهم يعتقدوا أن هذه القوانين النظرية التى أوحينا إليهم بها إنما لها القدر الأسمى من أجلهم. وبتقييد أنظارهم إلى هذا الموضوع، وبمساعدة صحافتنا نزيد ثقتهم العمياء بهذه القوانين زيادة مطردة. أن الطبقات المتعلمة ستختال زهواً أمام أنفسها بعلمها، وستأخذ جزافاً فى مزاولة المعرفة التى حصلتها من العلم الذى قدمه إليها وكلاؤنا رغبة فى تربية عقولنا حسب الاتجاه الذى توخيناه.

لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء. ولا حظوا هنا أن نجاح دارون Darwin وماركس Marx ونيتشيه Nietsche [(١)] قد رتبناه من قبل. والأثر غير الأخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى (غير اليهودى) سيكون واضحاً لنا على التأكيد. ولكى نتجنب ارتكاب الأخطاء فى سياستنا وعملنا الإدارى، يتحتم علينا أن ندرس ونعى فى أزهاننا الخط الحالى من الرأى، وهو أخلاق الأمة وميولها.

ونجاح نظريتنا هو فى موافقتها لأمزجة الأمم التى نتصل بها، وهى لا يمكن أن تكون ناجحة إذا كانت ممارستها العملية غير مؤسسة على تجربة الماضى مقترنة بملاحظات الحاضر.

إن الصحافة التى فى أيدى الحكومة القائمة هى القوة العظيمة التى بها نحصل على توجيه الناس. فالصحافة تبين المطالب الحيوية للجمهور وتعلن شكاوى الشاكين، وتولد الضجر أحياناً بين الغوغاء. وإن تحقيق حرية الكلام قد ولد فى الصحافة، غير أن الحكومات لم تعرف كيف تستعمل هذه القوة بالطريقة الصحيحة، فسقطت فى أيدينا، ومن خلال الصحافة أحرزنا نفوذاً، وبقينا نحن وراء الستار، وبفضل الصحافة كدسنا الذهب، ولو أن ذلك كلفنا أنهاراً من الدم. فقد كلفنا التضحية بكثير من جنسنا ، ولكن كل تضحية من جانبنا تعادل آلافاً من الأميين (غير اليهود) أمام اللّه.

---

(١) تنبأ نيتشه فى كتابه « وراء الخير والشر » لفلسفة ماركس اليهودية الشيوعية بالانتشار وحدد الدولة التى ستعتنقها وهى روسيا، وما كان أحد يتصور يومئذ ذلك، فتحققت نبوءته، وقد أكرهت روسيا بالعنف والخديعة على احتضان شيوعية ماركس اليهودى على أيدى اليهود..

البروتوكول الثالث:

أستطيع اليوم أن أؤكد لكم أننا على مدى خطوات قليلة من هدفنا ولم تبق إلا مسافة قصيرة كى تتم الأفعى الرمزية Sympolic Serpeni [1] ـ شعار شعبنا ـ دورتها، وحينما تغلق هذه الدائرة ستكون كل دول أوربا محصورة فيها بأغلال لا تكسر.

إن كل الموازين[2] البنائية القائمة ستنهار سريعًا، لأننا على الدوام نفقدها توازنها كى نبليها بسرعة أكثر، ونمحق كفايتها.

لقد ظن الأمميون أن هذه الموازين، قد صنعت ولها من القوة ما يكفى، وتوقعوا منها أن تزن الأمور بدقة، ولكن القوامين عليها ـ أى رؤساء الدول كما يقال ـ مرتبكون بخدمهم الذين لا فائدة لهم منهم، مقودون كما هى عادتهم بقوتهم المطلقة على المكيدة والدس بفضل المخاوف السائدة فى القصور.

والملك لم تكن له سبل إلا قلوب رعاياه، ولهذا لم يستطع أن يحصن نفسه ضد مدبرى المكايد والدسائس الطامحين إلى القوة. وقد فصلنا القوة المراقبة عن قوة الجمهور العمياء، فقدت القوتان معاً أهميتهما، لأنهما حين انفصلتا صارتا كأعمى فقد عصاه.

ولكى نغرى الطامحين إلى القوة بأن يسيئوا استعمال حقوقهم ـ وضعنا القوى: كل واحد منها ضد غيرها، بأن شجعنا ميولهم التحررية نحو الاستقلال، وقد شجعنا كل مشروع فى هذا الاتجاه ووضعنا أسلحة فى أيدى كل الأحزاب وجعلنا السلطة هدف كل طموح إلى الرفعة. وقد أقمنا ميادين تشتجر فوقها الحروب الحزبية بلا ضوابط ولا التزامات. وسرعان ما ستنطلق الفوضى، وسيظهر الإفلاس فى كل مكان.

لقد مسخ الثرثارون الوقحاء [3] المجالس البرلمانية والإدارية مجالس جدلية.

---

(١) انظر تعقيب نيلوس فى آخر الكتاب، والشعار اليهودى البلشفى ..

(٢) أى السنن التى تضبط المجتمع وتسيره، فى تفكيره وإحساسه وسلوكه، واليهود دائمو النقد لها، وتعطيل آثارها بهدمها، وتشكيك الناس فيها وتركهم فى حيرة من أمرهم وأمرها، وفى الوقت ذاته يقدمون بدلها وضدها مقاييس مضللة يطبعونها بطابع علمى فيغتر قصار النظر بها. ولو كانوا من قادة الفكر والرأى، إذا لم يكونوا ذوى أصالة فى النظر، وتجربة طويلة واعية..

(٣) Insuppressable ومعناها الذى لا يقهر والمقصود الأعضاء الذين لا يقدرون العواقب. والوقاحة هى الصلابة، والوقحاء أصحاب وجوه صلاب.

والصحفيون الجريئون، وكتاب النشرات Pamphleteers [(١)] الجسورون يهاجمون القوى الإدارية هجوماً مستمراً. وسوف يهيىء سوء استعمال السلطة تفتت كل الهيئات لا محالة، وسينهار كل شيء صريعاً تحت ضربات الشعب الهائج.

إن الناس مستعبدون في عرق جباههم للفقر بأسلوب أفظع من قوانين رق الأرض. فمن هذا الرق يستطيعون أن يحرروا أنفسهم بطريقة أو بأخرى، على أنه لا شيء يحررهم من طغيان الفقر المطبق. ولقد حرصنا على أن نقحم حقوقاً للهيئات خيالية محضة، فإن كل ما يسمى« حقوق البشر » لا وجود له إلا في المثل التي لا يمكن تطبيقها عملياً. ماذا يفيد عاملاً أجيراً قد حنى العمل الشاق ظهره، وضاق بحظه ـ أن يجد ثرثار حق الكلام، أو يجد صحفي حق نشر أي نوع من التفاهات؟ ماذا ينفع الدستور العمال الأجراء إذا هم لم يظفروا منه بفائدة غير الفضلات التي نطرحها إليهم من موائدنا جزاء أصواتهم لانتخاب وكلائنا؟

إن الحقوق الشعبية سخرية من الفقير ، فإن ضرورات العمل اليومي تقعد به عن الظفر بأي فائدة على شاكلة هذه الحقوق، وكل ما لها هو أن تنأى به عن الأجور المحدودة المستمرة، وتجعله يعتمد على الإضرابات والمخدومين والزملاء . وتحت حمايتها أباد الرعاع الأرستقراطية التي عضدت الناس، وحميتهم لأجل منفعتهم، وهذه المنفعة لا تنفصل عن سعادة الشعب، والآن يقع الشعب بعد أن حطم امتيازات الأرستقراطية تحت نير الماكرين من المستغلين والأغنياء المحدثين.

إننا نقصد أن نظهر كما لو كنا المحررين للعمال، جئنا لنحررهم من هذا الظلم، حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين والفوضويين والشيوعيين. ونحن على الدوام نتبني الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعاً لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة للإنسانية، وهذا ما تبشر به الماسونية الاجتماعية [(٢)].

إن الأرستقراطية التي تقاسم الطبقات العاملة عملها ـ قد أفادها أن هذه الطبقات

---

(١) من كلمة pamphlet (أي الملزمة) أو الرسالة أو النبذة وهم كتاب النشرات أو الرسائل القصيرة أو الكتيبات ، وقد جرى الاصطلاح بين المتأدبين قديماً على تسمية كتاب الرسائل بالمترسلين أخذاً من الرسالة فوجدناها وافية بالمراد مقابل pamphleteteers ولكنها غريبة على القراء، فوضعنا بدلها كلمة: كتاب النشرات، لأنها أكثر معرفة عند القراء في الاصطلاح التأليفي.

(٢) هنا تلتقي الماسونية والشيوعية والصهيونية وتظهر الصلة بينها جميعاً. وكذلك تلتقي في مواضع أخرى .

العاملة طيبة الغذاء جيدة الصحة قوية الأجسام، غير أن فائدتنا نحن فى ذبول الأمميين وضعفهم. وإن قوتنا تكمن في أن يبقي العامل في فقر ومرض دائمين، لأننا بذلك نستبقيه عبداً لإرادتنا، ولن يجد فيمن يحيطون به قوة ولا عزماً للوقوف ضدنا. وإن الجوع سيخول رأس المال حقوقا على العامل أكثر مما تستطيع سلطة الحاكم الشرعية أن تخول الأرستقراطية من الحقوق [١].

ونحن نحكم الطوائف باستغلال مشاعر الحسد والبغضاء التي يؤججها الضيق والفقر، وهذه المشاعر هى وسائلنا التي نكتسح بها بعيداً كل من يصدوننا عن سبيلنا [٢].

وحينما يأتى أوان تتويج حاكمنا العالمى سنتمسك بهذه الوسائل نفسها، أى نستغل الغوغاء كيما نحطم كل شيء قد يثبت أنه عقبة فى طريقنا.

لم يعد الأمميون قادرين على التفكير فى مسائل العلم دون مساعدتنا. وهذا هو السبب في أنهم لا يحققون الضرورة الحيوية لأشياء معينة سوف نحتفظ بها حين تبلغ ساعتنا أجلها، أعنى أن الصواب وحده بين كل العلوم وأعظمها قدراً هو ما يجب أن يعلم فى المدارس، وذلك هو علم حياة الإنسان والأحوال الاجتماعية، وكلاهما يستلزم تقسيم العمل، ثم تصنيف الناس فئات وطبقات. وأنه لحتم لازم أن يعرف كل إنسان فيما بعد أن المساواة الحقة لا يمكن أن توجد. ومنشأ ذلك اختلاف طبقات أنواع العمل المتباينة. وأن من يعملون بأسلوب يضر فئة كاملة لابد أن تقع عليهم مسئولية تختلف أمام القانون عن المسئولية التى تقع على من يرتكبون جريمة لا تؤثر إلا فى شرفهم الشخصى فحسب.

إن علم الأحوال الاجتماعية الصحيح الذي لا نسلم أسراره للأمميين سيقنع العالم أن الحرف والأشغال يجب أن تحصر في فئات خاصة كي لا تسبب متاعب إنسانية تنشأ عن تعليم لا يساير العمل الذي يدعي الأفراد إلى القيام به. وإذا ما درس الناس هذا العلم فسيخضعون بمحض إرادتهم للقوى الحاكمة وهيئات الحكومة التي رتبتها. وفي ظل الأحوال الحاضرة للجمهور والمنهج الذى سمحنا له باتباعه ـ يؤمن الجمهور في جهله إيماناً أعمى بالكلمات المطبوعة وبالأوهام الخاطئة التي أوحينا بها إليه كما يجب، وهو يحمل

(١) ليت العمال يسمعون ذلك ويعونه ، ليعرفوا أي سم يدس لهم اليهود، أو غيرهم حينما يتظاهرون بالعطف عليهم ويعدونهم ويمنونهم بمالا يمكن تحقيقه ولو حسنت النيات فكيف إذا ساءت؟ وأدعياء الإصلاح لا يعدونهم إلا غروراً.

(٢) ومن هنا يظهر أن الشيوعيين وغيرهم الذين لا يعرفون طريقاً لاستغلال الإنسان إلا على هذا النحو الوضيع ليسوا غير منفذين للسياسة الصهيونية ولو بغير وعي.

البغضاء لكل الطبقات التى يظن أنها أعلى منه لأنه لا يفهم أهمية كل فئة . وإن هذه البغضاء ستصير أشد مضاء حيث تكون الأزمات الاقتصادية مستحكمة، لأنها ستوقف الأسواق والإنتاج والإنتاج، وسنخلق أزمة اقتصادية عالمية بكل الوسائل الممكنة التى فى قبضتنا، وبمساعدة الذهب الذى هو كله فى أيدينا. وسنقذف دفعة واحدة إلى الشوارع بجموع جرارة من العمال فى أوربا ، ولسوف تقذف هذه الكتل عندئذ بأنفسها إلينا فى ابتهاج، وتسفك دماء أولئك الذين تحسدهم ـ لغفلتها ـ منذ الطفولة، وستكون قادرة يومئذ على انتهاب ما لهم من أملاك. إنها لن تستطيع أن تضرنا، لأن لحظة الهجوم ستكون معروفة لدينا، وسنتخذ الاحتياطات لحماية مصالحنا.

لقد أقنعنا الأمميين بأن مذهب التحررية سيؤدى بهم إلى مملكة العقل وسيكون استبدادنا من هذه الطبيعة لأنه سيكون فى مقام يقمع كل الثورات ويستأصل بالعنف اللازم كل فكرة تحررية من كل الهيئات.

حينما لاحظ الجمهور أنه قد أعطي كل أنواع الحقوق باسم التحرر تصور نفسه أنه السيد، وحاول أن يفرض القوة. وأن الجمهور مثله مثل كل أعمى آخر ـ قد صادف بالضرورة عقبات لا تحصى، ولأنه لم يرغب فى الرجوع إلى المنهج السابق وضع عندئذ قوته تحت أقدامنا.

تذكروا الثورة الفرنسية التى نسميها « الكبرى » ان أسرار تنظيمها التمهيدى معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا (١). ونحن من ذلك الحين نقود الأمم قدماً من خيبة إلى خيبة، حتى أنهم سوف يتبرأون منا، لأجل الملك الطاغية من دم صهيون، وهو المالك الذى نعده لحكم العالم. ونحن الآن ـ كقوة دولية ـ فوق المتناول، لأنه لو هاجمتنا إحدى الحكومات الأممية لقامت بنصرنا أخريات. إن المسيحيين من الناس فى خستهم الفاحشة ليساعدوننا على استقلالنا حينما يخرون راكعين أمام القوة، وحينما لا يرثون للضعيف، ولا يرحمون فى معالجة الأخطاء، ويتساهلون مع الجرائم، وحينما يرفضون أن يتبينوا متناقضات الحرية وحينما يكونون صابرين إلى درجة الاستشهاد فى تحمل قسوة الاستبداد الفاجر.

---

(١) انظر ما كتب عن مسار الأفعى الرمزية في التعقيب الملحق بآخر البروتوكولات وهنا وفي مواضع أخرى يدعي اليهود أن الثورة الفرنسية من عمل أيديهم وهذه دعوى مسرفة.

إنهم ـ على أيدى دكتاتورييهم الحاليين من رؤساء وزراء ووزراء ـ ليتحملون إساءات كانوا يقتلون من أجل أصغرها عشرين ملكاً، فكيف بيان هذه المسائل؟

ولماذا تكون الجماعات غير منطقية على هذا النحو فى نظرها إلى الحوادث؟

السبب هو أن المستبدين يقنعون الناس على أيدى وكلائهم بأنهم إذا أساؤوا استعمال سلطتهم ونكبوا الدولة، فما أجريت هذه النكبة إلا لحكمة سامية، أى التوصل إلى النجاح من أجل الشعب ومن أجل الإخاء والوحدة والمساواة الدولية.

ومن المؤكد أنهم لا يقولون لهم: إن هذا الاتحاد لا يمكن بلوغه إلا تحت حكمنا فحسب، ولهذا نرى الشعب يتهم البرىء، ويبرىء المجرم مقتنعاً بأنه يستطيع دائما أن يفعل ما يشاء وينشأ عن هذه الحالة العقلية أن الرعاع يحطمون كل تماسك، ويخلقون الفوضى فى كل ثنية وكل ركن.

إن كلمة «الحرية» تزج بالمجتمع فى نزاع مع كل القوى حتى قوة الطبيعة وقوة الله. وذلك هو السبب فى أنه يجب علينا ـ حين نستحوذ على السلطة ـ أن نمحق كلمة الحرية من معجم الإنسانية باعتبار أنها رمز القوة الوحشية الذى يمسخ الشعب حيوانات متعطشة إلى الدماء. ولكن يجب أن نركز في عقولنا أن هذه الحيوانات تستغرق فى النوم حينما تشبع من الدم، وفى تلك اللحظة يكون يسيراً علينا أن نسخرها وأن نستعبدها. وهذه الحيوانات إذا لم تعط الدم فلن تنام، بل سيقاتل بعضها بعضاً.

البروتوكول الرابع:

كل جمهورية تمر خلال مراحل متنوعة: أولاها فترة الأيام الأولى لثورة العميان التي تكتسح وتخرب ذات اليمين وذات الشمال. والثانية هى حكم الغوغاء الذى يؤدى إلى الفوضى، ويسبب الاستبداد. إن هذا الاستبداد من الناحية الرسمية غير شرعى، فهو لذلك غير مسؤول. وإنه خفى محجوب عن الأنظار ولكنه مع ذلك يترك نفسه محسوساً به. وهو على العموم تصرفه منظمة سرية تعمل خلف بعض الوكلاء، ولذلك سيكون أعظم جبروتاً وجسارة. وهذه القوة السرية لن تفكر في تغيير وكلائها الذين تتخذهم ستاراً، وهذه التغييرات قد تساعد المنظمة التي ستكون كذلك قادرة على تخليص نفسها من خدمها القدماء الذين سيكون من الضرورى عندئذ منحهم مكافآت أكبر جزاء خدمتهم

الطويلة.

من ذا وماذا يستطيع أن يخلع قوة خفية عن عرشها؟ هذا هو بالضبط ما عليه حكومتنا الآن. إن المحفل الماسونى المنتشر فى كل أنحاء العالم ليعمل فى غفلة كقناع لأغراضنا. ولكن الفائدة التي نحن دائبون على تحقيقها من هذه القوة فى خطة عملنا وفى مركز قيادتنا ــ ما تزال على الدوام غير معروفة للعالم كثيراً.

يمكن ألا يكون للحرية ضرر، وأن نقوم فى الحكومات والبلدان من غير أن تكون ضارة بسعادة الناس، لو أن الحرية كانت مؤسسة على العقيدة وخشية الله، وعلى الأخوة والإنسانية، نقية من أفكار المساواة التى هى مناقضة مناقضة مباشرة لقوانين الخلق. والتى فرضت التسليم. إن الناس محكومين بمثل هذا الإيمان سيكونون موضوعين تحت حماية كنائسهم [١] (هيئاتهم الدينية) وسيعيشون فى هدوء واطمئنان وثقة تحت إرشاد أئمتهم الروحيين، وسيخضعون لمشيئة الله على الأرض. وهذا هو السبب الذي يحتم علينا أن ننتزع فكرة الله ذاتها من عقول المسيحيين، وأن نضع مكانها عمليات حسابية وضرورية مادية. ثم لكي نحول عقول المسيحيين [٢] عن سياستنا سيكون حتماً علينا أن نبقيهم منهمكين في الصناعة والتجارة، وهكذا ستنصرف كل الأمم إلى مصالحها، ولن تفطن فى هذا الصراع العالمى إلى عدوها المشترك. ولكن لكي تزلزل الحرية حياة الأمميين الاجتماعية زلزالاً، وتدمرها تدميراً ــ يجب علينا أن نضع التجارة على أساس المضاربة.

وستكون نتيجة هذا أن خيرات الأرض المستخلصة بالاستثمار لن تستقر فى أيدى الأمميين (غير اليهود) بل ستعبر خلال المضاربات إلى خزائننا.

إن الصراع من أجل التفوق، والمضاربة في عالم الأعمال ستخلقان مجتمعا أنانيا غليظ القلب منحل الأخلاق. هذا المجتمع سيصير منحلاً كل الانحلال ومبغضاً أيضاً من الدين والسياسة. وستكون شهوة الذهب رائده الوحيد. وسيكافح هذا المجتمع من أجل

---

(١) ليس المراد بالكنائس هنا أماكن العبادة عند المسيحيين بل الهيئات الدينية عند جميع المتدينين على اختلاف مللهم ونحلهم كما يقال في الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستنتينية أي الهيئة الدينية الكاثوليكية و .. ولذلك يقولون أحياناً: الكنيسة الإسلامية أي الهيئة الدينية الإسلامية.

(٢) خصت البروتوكولات المسيحيين بالذكر لأنهم أكثر عدداً وأعظم قوة من غيرهم من ذوى الملل والنحل، فإذا استطاعوا تدمير المسيحية سهل عليهم تدمير غيرها من الأديان كما ذكر فى آخر البروتوكول ١٩، فالمراد هنا أصحاب الأديان جميعا كما جاء ذلك في عدة مواضع .

الذهب متخذاً اللذات المادية التي يستطيع أن يمده بها الذهب مذهبا أصيلا. وحينئذ ستنضم إلينا الطبقات الوضيعة ضد منافسينا الذين هم الممتازون من الأمميين دون احتجاج بدافع نبيل، ولا رغبة فى الثورات أيضاً بل تنفيساً عن كراهيتهم المحضة للطبقات العليا.

البروتوكول الخامس :

ما نوع الحكومة الذى يستطيع المرء أن يعالج به مجتمعات قد تفشت الرشوة والفساد فى كل أنحائها: حيث الغنى لا يتوصل إليه إلا بالمفاجآت الماكرة، ووسائل التدليس، وحيث الخلافات متحكمة على الدوام ، والفضائل فى حاجة إلى أن تعززها العقوبات والقوانين الصارمة، لا المبادئ المطاعة عن رغبة، وحيث المشاعر الوطنية والدينية مستغرقة فى العقائد العلمانية Cosmopolitam .

ليست صورة الحكومة التي يمكن أن تعطاها هذه المجتمعات بحق إلا صورة الاستبداد التي سأصفها لكم.

إننا سننظم حكومة مركزية قوية، لكي نحصل على القوى الاجتماعية لأنفسنا. وسنضبط حياة رعايانا السياسية بقوانين جديدة كما لو كانوا أجزاء كثيرة جداً في جهاز. ومثل هذه القوانين ستكبح كل حرية، وكل نزعات تحررية يسمح بها الأمميون (غير اليهود) وبذلك يعظم سلطاننا فيصير استبدادا يبلغ من القوة أن يستطيع في أي زمان وأي مكان سحق الساخطين المتمردين من غير اليهود.

سيقال: إن نوع الاستبداد الذى أقترحه لن يناسب تقدم الحضارة الحالي، غير أني سأبرهن لكم على أن العكس هو الصحيح. إن الناس حينما كانوا ينظرون إلى ملوكهم نظرهم إلى إرادة الله كانوا يخضعون في هدوء لاستبداد ملوكهم. ولكن منذ اليوم الذي أوحينا فيه إلى العامة بفكرة حقوقهم الذاتية ــ أخذوا ينظرون إلى الملوك نظرهم إلى أبناء الفناء العاديين. ولقد سقطت المسحة المقدسة [١] عن رؤوس الملوك في نظر الرعاع، وحينما انتزعنا منهم عقيدتهم هذه انتقلت القوة إلى الشوارع [٢] ، فصارت كالملك المشاع فاختطفناها. ثم أن من بين مواهبنا الإدارية التي نعدها لأنفسنا موهبة حكم الجماهير

(١) أى زالت عنهم مسحة القداسة وأنكر الناس علي الملوك الحق الإلهي المطلق في حكم الشعوب.

(٢) أي صارت السلطة للشعوب لا الملوك وصارت الأمم مصدر السلطات.

والأفراد بالنظريات المؤلفة بدهاء، وبالعبارات الطنانة، وبسنن الحياة وكل أنواع الخديعة الأخري. كل هذه النظريات التي لا يمكن أن يفهمها الأمميون أبداً مبنية على التحليل والملاحظة ممتزجين بفهم يبلغ من براعته ألا يجارينا فيه منافسونا أكثر مما يستطيعون أن يجارونا في وضع خطط للأعمال السياسية والاغتصاب، وأن الجماعة المعروفة لنا لا يمكن أن تنافسنا في هذه الفنون ربما تكون جماعة اليسوعيين Jesuits ، ولكننا نجحنا في أن نجعلهم هزواً وسخرية في أعين الرعاع الأغبياء، وهذا مع أنها جماعة ظاهرة بينما نحن أنفسنا باقون في الخفاء محتفظون بمنظمتنا سراً.

ثم ما الفرق بالنسبة للعالم بين أن يصير سيده هو رأس الكنيسة الكاثوليكية، وأن يكون طاغية من دم صهيون؟.

ولكن لا يمكن أن يكون الأمزان سواء بالنسبة إلينا نحن «الشعب المختار» قد يتمكن الأمميون فترة من أن يسوسونا ولكننا مع ذلك لسنا في حاجة إلى الخوف من أي خطر ما دمنا في أمان بفضل البذور العميقة لكراهيتهم بعضهم بعضاً، وهي كراهية متأصلة لا يمكن انتزاعها.

لقد بذرنا الخلاف بين كل واحد وغيره في جميع أغراض الأمميين الشخصية والقومية، بنشر التعصبات الدينية والقبلية خلال عشرين قرناً. ومن هذا كله تتقرر حقيقة: هي أن أي حكومة منفردة لن تجد لها سنداً من جاراتها حين تدعوها إلى مساعدتها ضدنا، لأن كل واحدة منها ستظن أن أى عمل ضدنا هو نكبة علي كيانها الذاتى (١).

نحن أقوياء جداً، فعلى العالم أن يعتمد علينا وينيب إلينا. وأن الحكومات لا تستطيع أبداً أن تبرم معاهدة ولو صغيرة دون أن نتدخل فيها سراً.

« بحكمى فليحكم الملوك Per me reges rogunt » .

إننا نقرأ في شريعة الأنبياء أننا مختارون من الله لنحكم الأرض، وقد منحنا الله العبقرية، كي نكون قادرين على القيام بهذا العمل إن كان في معسكر أعدائنا عبقرى فقد

---

(١) هذه محنة من شر المحن التي تقاسيها الشعوب التي عظم فيها نفوذ اليهود،لأن هذا النفوذ غالبا يستعمل ضد مصلحة الشعوب، وإذا أرادت الأمة التخلص منه لم تستطع إلا بتضحية كثير من مصالحها لشدة الترابط بين مصالحها ومصالح اليهود. كما حدث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى .

يحاربنا، ولكن القادم الجديد لن يكن كفؤاً لأيد عريقة (١) كأيدينا.

إن القتال بيننا سيكون ذا طبيعة مقهورة لم ير العالم لها مثيلاً من قبل والوقت متأخر بالنسبة إلى عباقرتهم. وإن عجلات جهاز الدولة كلها تحركها قوة، وهذه القوة فى أيدينا هي التي تسمى: الذهب.

وعلم الاقتصاد السياسي: الذي محصه علماؤنا الفطاحل قد برهن على أن قوة رأس المال أعظم من مكانة التاج.

ويجب الحصول على احتكار مطلق للصناعة والتجارة، ليكون لرأس المال مجال حر، وهذا ما تسعى لاستكماله فعلا يد خفية فى جميع أنحاء العالم. ومثل هذه الحرية ستمنح التجارة قوة سياسية، وهؤلاء التجار سيظلمون الجماهير بانتهاز الفرص.

وتجريد الشعب من السلاح في هذه الأيام (٢) أعظم أهمية من دفعه إلى الحرب، وأهم من ذلك أن نستعمل العواطف المتأججة في أغراضنا بدلاً من إخمادها وأن نشجع أفكار الآخرين ونستخدمها في أغراضنا بدلاً من محوها، إن المشكلة الرئيسية لحكومتنا هي: كيف تضعف عقول الشعب بالانتقاد (٣) وكيف تفقدها قوة الإدراك التى تخلق نزعة المعارضة، وكيف تسحر عقول العامة بالكلام الأجوف.

فى كل الأزمان كانت الأمم ـ مثلها مثل الأفراد ـ تأخذ الكلمات على أنها أفعال، كأنما هي قانعة بما تسمع، وقلما تلاحظ ما إذا كان الوعد قابلا للوفاء فعلاً أم غير قابل. ولذلك فإننا ـ رغبة في التظاهر فحسب ـ سننظم هيئات يبرهن أعضاؤها بالخطب البليغة على مساعداتهم في سبيل «التقدم» ويثنون عليها (٤).

---

(١) أي أن العبقري الجديد لن يبلغ في المقدرة على الحكم مبلغ حكماء صهيون الذين تدربوا على سياسة الجماهير منذ قرون يورث خلالها السابقون منهم اللاحقين أسرار السياسة ويدربونهم على الحكم.

(٢) إن تجريد الشعوب من السلاح وخاصة في الأوقات التي يتهددها فيها خطر خارجي يجمد في قلوبها الشجاعة والنخوة،ويغريها باليأس والاستسلام. وهذا ما تقاسيه بعض البلاد العربية الآن وهو من شر ما تصاب به الشعوب من البلايا.

(٣) إن النقد على غير أساس صحيح يربك العقول ويضللها، ويغريها بالإفراط في الجدال لمحض الجدل، لا لرغبة في معرفة الحق. وهومن شر البلايا التي تسلط على الشعوب الجاهلة.

(٤) هذه حقيقة جديرة بالالتفات في السياسة، والزعماء الدجالون يلجأون في تضليل الشعوب إلى الوعود البراقة، وإن الجماهير الجاهلة تميل دائما إلى تصديقها غفلة، أو أملاً كاذبا في تغيير الحال أو ثقة زائفة بالزعماء، أو كل ذلك ونحوه.

وسنزيف مظهـراً تحرريـاً لكـل الهيئـات وكل الاتجاهـات ، كما أننا سنضفى هـذا المظهـر علـى كل خطبائنـا . وهـؤلاء سيكونون ثرثارين بلا حد ، حتى إنهم سينهكون الشعب بخطبهم ، وسيجد الشعب خطابة من كل نوع أكثر مما يكفيه ويقنعه.

ولضمان الرأي العام يجب أولاً أن نحيره كل الحيرة بتغييرات من جميع النواحي لكل أساليب الآراء المتناقضة حتى يضيع الأمميون (غير اليهود) فى متاهتهم . وعندئذ سيفهمون أن خيرما يسلكون من طرق هو أن لا يكون لهم رأي في المسائل السياسية: هذه المسائل لا يقصد منها أن يدركها الشعب، بل يجب أن تظل من مسائل القادة الموجهين فحسب. وهذا هو السر الأول [١] .

والسر الثاني [٢] ــ وهو ضروري لحكومتنا الناجحة ــ أن تتضاعف وتتضخم الأخطاء والعادات والعواطف والقوانين العرفية في البلاد، حتى لا يستطيع إنسان أن يفكر بوضوح في ظلامها المطبق، وعندئذ يتعطل فهم الناس بعضهم بعضاً .

هذه السياسة ستساعدنا أيضاً فى بذر الخلافات بين الهيئات،وفى تفكيك كل القوى المتجمعة، وفى تثبيط كل تفوق فردى ربما يعوق أغراضنا بأى أسلوب من الأساليب.

لا شيء أخطر من الامتياز الشخصى . فإنه إذا كانت وراءه عقول فربما يضرنا أكثر مما تضرنا ملايين الناس الذين وضعنا يد كل منهم على رقبة الآخر ليقتله .

يجب أن نوجه تعليم المجتمعات المسيحية [٣] فى مثل هذا الطريق: فكلما احتاجوا إلى كفء لعمل من الأعمال فى أى حال من الأحوال سقط فى أيديهم وضلوا فى خيبة بلا أمل .

إن النشاط الناتج عن حرية العمل يستنفد قوته حينما يصطدم بحرية الآخرين. ومن هنا تحدث الصدمات الأخلاقية وخيبة الأمل والفشل.

(١ ، ٢) هذان السران من أخطر الأسرار السياسية، وعليهما تبني النتائج الخطيرة المشار إلى بعضها في الفقرة التالية لهما.

(٣) هذا أيضا يشمل المجتمعات غير المسيحية.

بكل هذه الوسائل سنضغط المسيحيين [1] ، حتى يضطروا إلى أن يطلبوا منا أن نحكمهم دولياً. وعندما نصل إلى هذا المقام سنستطيع مباشرة أن نستنزف كل قوى الحكم فى جميع أنحاء العالم، وأن نشكل حكومة عالمية عليا.

وسنضع موضع الحكومات القائمة ماردا Monstor يسمى إدارة الحكومة العليا Administration of the supergovernment وستمتد أيديه كالمخالب الطويلة المدى، وتحت إمرته سيكون له نظام يستحيل معه أن يفشل فى إخضاع كل الأقطار.

البروتوكول السادس :

سنبدأ سريعاً بتنظيم احتكارات عظيمة ـ هى صهاريج للثورة الضخمة ـ لتستغرق خلالها دائما الثروات الواسعة للأمميين (غير اليهود) إلى حد أنها ستهبط جميعها وتهبط معها الثقة بحكومتها يوم تقع الأزمة السياسية [*] .

وعلى الاقتصاديين الحاضرين بينكم اليوم هنا أن يقدروا أهمية هذه الخطة.

لقد انتهت أرستقراطية الأمميين كقوة سياسية، فلا حاجة لنا بعد ذلك إلى أن ننظر إليها من هذا الجانب. لكن الأرستقراطيين من حيث هم ملاك أرض ما يزالون خطراً علينا. لأن معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم . ولذلك يجب علينا وجوباً أن نجرد الأرستقراطيين من أراضيهم بكل الأثمان. وأفضل الطرق لبلوغ هذا الغرض هو فرض الأجور والضرائب. إن هذه الطرق ستبقى منافع الأرض فى أحط مستوى ممكن.. وسرعان ما سينهار الأرستقراطيين من الأمميين لأنهم ـ بما لهم من أذواق موروثة [1] ـ غير قادرين على القناعة بالقليل.

وفى الوقت نفسه يجب أن نفرض كل سيطرة ممكنة على الصناعة والتجارة وعلى المضاربة بخاصة فإن الدور role الرئيسى لها أن تعمل كمعادن للصناعة.

---

(١) ليست عداوة اليهود مقصورة على المسيحيين بل تشمل كل من عدا اليهود، وهم يختصونهم بالذكر فى هذا الوضع وغيره من الكتاب، لأن الأمم المسيحية أكثر وأقوى مما عداها. فإذا انتصر اليهود عليهم سهل أن ينتصروا على غيرهم من المسلمين والبوذيين ونحوهم كما أشاروا إلى ذلك فى مواضع هنا.

(*) المقصود كما يظهر أن اليهود سيسحبون أموالهم فى اللحظة الأخيرة (عن الأصل الإنجليزى).

(٢) أى أن الأرستقراطيين بما اعتادوه ونشأوا عليه من حب للترف وغرام بالبذخ لا يستطيعون أن يقنعوا بالمال القليل الذى تمدهم به غلات الأرض حين تنحدر فى مستوى خفيض فيضطرون إلى التنازل عن أراضيهم بالبيع أو الرهن.

وبدون المضاربة ستزيد الصناعة رؤوس الأموال الخاصة، وستتجه إلى إنهاض الزراعة بتحرير الأرض من الديون والرهون العقارية التى تقدمها البنوك الزراعية . وضرورى أن تستنزف الصناعة من الأرض كل خيراتها وأن تحول المضاربات كل ثروة العالم المستفادة على هذا النحو إلى أيدينا.

وبهذه الوسيلة سوف يقذف بجميع الأمميين (غير اليهود) إلى مراتب العمال الصعاليك Proletariat وعندئذ يخر الأمميون أمامنا ساجدين ليظفروا بحق البقاء .

ولكى نخرب صناعة الأمميين، ونساعد المضاربات ـ سنشجع حب الترف المطلق الذى نشرناه من قبل، وسنزيد الأجور التى لن تساعد العمال، كما أننا فى الوقت نفسه سنرفع أثمان الضروريات الأولية متخذين سوء المحصولات الزراعية عذراً عن ذلك (١) كما سننسف بمهارة أيضا أسس الإنتاج ببذر بذور الفوضى بين العمال، وبتشجيعهم على إدمان المسكرات. وفى الوقت نفسه سنعمل كل وسيلة ممكنة لطرد كل ذكاء أممى (غير يهودى) من الأرض. ولكيلا يتحقق الأمميون من الوضع الحق للأمور قبل الأوان ـ سنستره برغبتنا فى مساعدة الطبقات العاملة على حل المشكلات الاقتصادية الكبرى، وأن الدعاية التى لنظرياتنا الاقتصادية تعاون على ذلك بكل وسيلة ممكنة.

البروتوكول السابع (٢) :

إن ضخامة الجيش، وزيادة القوة البوليسية ضروريتان لإتمام الخطط السابقة الذكر. وإنه لضرورى لنا ، كى نبلغ ذلك، أن لا يكون إلى جوانبنا فى كل الأقطار شىء بعد إلا طبقة صعاليك ضخمة، وكذلك جيش كثير وبوليس مخلص لأغراضنا.

---

(١) رفع أجور العمال يرهق أصحاب الأعمال، وقد يعجزهم عن الاستمرار فى عملهم، وفى الوقت نفسه قد لا يستفيد العمال من رفع الأجور، لأن أثمان المواد الضرورية مرتفعة فيضطرون إلى إنفاق أجورهم مهما ترتفع، على حين يغريهم اليهود بإدمان المسكرات ويثيرون فى نفوسهم عوامل الحسد والسخط على حياتهم، وغير ما تحارب به هذه الفكرة خفض أسعار المواد الضرورية ليستطيع العامل أن يعيش بأجره ولو كان منخفضا، وإفهامه أن حقه على المجتمع أن يكفل له ما يعيش به لا أن يكون فى غنى فلان وغيره، وليلاحظ القارئ سباق فئات الموظفين فى الحكومات والشركات فى المطالبة برفع الأجور، وهى حال سيئة تقوم الآن فى بعض بلادنا.

(٢) يجب أن يدقق القارئ فى هذا البروتوكول فإن كل ما ورد فيه ينطبق بكل حروفه على روسيا الشيوعية، وهو أوضح دليل على ما بين الشيوعية واليهود من صلات، وعلى أن الشيوعية ليست إلا فكرة يهودية تسخر روسيا وغيرها للاستيلاء على العالم، فالجيش والقوة البوليسية هما عماد الحكم الإرهابى فى روسيا.

فى كل أوروبا، وبمساعدة أوروبا ــ يجب أن ننشر فى سائر الأقطار الفتنة والمنازعات والعداوات المتبادلة. فإن فى هذا فائدة مزدوجة: فأما أولاً: فبهذه الوسائل سنتحكم فى أقدار كل الأقطار التى تعرف حق المعرفة أن لنا القدرة على خلق الاضطرابات كما نريد، مع قدرتنا على إعادة النظام، وكل البلاد معتادة على أن تنظر إلينا مستغيثة عند إلحاح الضرورة متى لزم الأمر. وأما ثانيا فبالمكايد والدسائس، سوف نصطاد بكل أحابيلنا وشباكنا التى نصبناها فى وزارات جميع الحكومات، ولم نحبكها بسياستنا فحسب، بل بالاتفاقات الصناعية والخدمات المالية أيضا.

ولكى نصل إلى هذه الغايات يجب علينا أن ننطوى على كثير من الدهاء والخبث خلال المفاوضات والاتفاقات ولكننا فيما يسمى «اللغة الرسمية» سوف نتظاهر بحركات عكس ذلك، كى نظهر بمظهر الأمين المتحمل للمسئولية (١) .

وبهذا ستنظر دائماً إلينا حكومات الأمميين ــ التى علمناها أن تقتصر فى النظر على جانب الأمور الظاهرى وحده ــ كأننا متفضلون ومنقذون للإنسانية.

ويجب علينا أن نكون مستعدين لمقابلة كل معارضة بإعلان الحرب على جانب ما يجاورنا من بلاد تلك الدولة التى تجرؤ على الوقوف فى طريقنا. ولكن إذا غدر هؤلاء الجيران فقرروا الاتحاد ضدنا ــ فالواجب علينا أن نجيب على ذلك بخلق حرب عالمية.

إن النجاح الأكبر فى السياسة يقوم على درجة السرية المستخدمة فى اتباعها، وأعمال الدبلوماسى لا يجب أن تطابق كلماته. ولكى نعزز خطتنا العالمية الواسعة التى تقترب من نهايتها المشتهاة ــ يجب علينا أن نتسلط على حكومات الأمميين بما يقال له لآراء العامة التى دبرناها نحن فى الحقيقة من قبل، متوسلين بأعظم القوى جميعاً، وهى الصحافة، وإنها جميعاً لفى أيدينا إلا قليلاً لا نفوذ له ولا قيمة يعتد بها.

وبإيجاز ، من أجل أن نظهر استعبادنا لجميع الحكومات الأممية فى أوروبا ــ سوف

---

(١) أى الوفى بعهوده المنفذ لما يلتزم به، سواء أوفى بذلك مضطراً أم غدر مع قدرته على الغدر والإخلاف، ومن أمثلة ذلك نشر روسيا اليهودية للفتن والاضطرابات فى كل الأقطار، واتهامها الدول الغربية بالعمل على قيام الحرب ومن ذلك تظاهرها هى بحب السلام والدعوة إليه، لتكسب أنصاراً إلى جانبها فى كل البلاد من المخدوعين أو الأشرار وروسيا ظاهرة جدا فى هذا البروتوكول .

نبين(١) قوتنا لواحدة منها (٢) متوسلين بجرائم العنف وذلك هو ما يقال له حكم الإرهاب(*) وإذا اتفقوا جميعا ضدنا فعندئذ سنجيبهم بالمدافع الأمريكية أو الصينية (٣) أو اليابانية.

البروتوكول الثامن :

يجب أن نأمن كل الآلات التى قد يوجهها أعداؤنا ضدنا. وسوف نلجأ إلى أعظم التعبيرات تعقيداً وإشكالاً فى معظم القانون ـ لكى نخلص أنفسنا ـ إذا أكرهنا على إصدار أحكام قد تكون طائشة أو ظالمة. لأنه سيكون هاماً أن نعبر عن هذه الأحكام بأسلوب محكم، حتى تبدو للعامة إنها من أعلى نمط أخلاقى، وأنها عادلة وطبيعية حقاً. ويجب أن تكون حكومتنا محوطة بكل قوى المدنية التى ستعمل خلالها. إنها ستجذب إلى نفسها الناشرين والمحامين والأطباء ورجال الإدارة الدبلوماسيين، ثم القوم المنشئين فى مدارسنا التقدمية الخاصة (٤) . هؤلاء القوم سيعرفون أسرار الحياة الاجتماعية، فسيتمكنون من كل اللغات مجموعة فى حروف وكلمات سياسية، وسيفقهون جيداً فى الجانب الباطنى للطبيعة الإنسانية بكل أوتارها العظيمة المرهفة اللطيفة التى سيعزفون عليها. إن هذه الأوتار هى التى تشكل عقل الأمميين، وصفاتهم الصالحة والطالحة، وميولهم،

---

(١) الكلمات المكتوبة بالخط الأسود فى الإنجليزية بالحروف المائلة (الإيطالية halic) ، لتوجيه النظر إليها.

(٢) هذه الواحدة هى الحكومة الروسية القيصرية التى وقع عليها اختيار اليهود لتكون عبرة ونكالا لغيرها، وقد تنبأ بهذا ناشر البروتوكولات الأول قبل حدوثه باثنتى عشرة سنة (كما جاء فى مقدمته هنا) فقد ازالوا قيصرها وأسسوا حكومتهم الشيوعية الماركسية اليهودية، ولا يزالون يطبقون فيها سياسة البروتوكولات الإرهابية ويبثون القلاقل فى كل ركن فى العالم.

(*) لاحظ الحالة الحاضرة فى روسيا. (عن الاصل الإنجليزى)

(٣) لقد نجح الشيوعيون اليهود أخيراً فى النفوذ إلى الصين على أيدى وكلائهم من الصينيين وغيرهم، وشرعوا يبسطون سلطانهم علانية بالعنف والخديعة على آسيا، إلى جانب ما استحوذوا عليه من الأقطار الأوروبية ولا يوجد قطر فى العالم لم تتسرب إليه الشيوعية اليهودية مستغلة ضيق الناس وشرههم وجهلهم، ومثيرة حسدهم وبغضهم على من هم أعلى منهم هذا إلى صنائعهم فى الحكومات والشركات وغيرها ممن لا يعملون باسم الشيوعية ظاهراً، وليسوا مع ذلك إلا صنائع وخدماً منفذين لأغراض صهيون، وفى ذلك ما يدل على أنهم يريدون تسخير الصين وأمريكا كما هو حاصل، وتسخير اليابان أيضا ضد أوربا عند الضرورة،وهذا شيء لم يكن فى حساب سياسى قط منذ خمسين سنة إلا حكماء اليهود.

(٢) لا يخلو قطر فى العالم من صنائع اليهود بين هذه الطوائف المذكورة وغيرها ينفذون خطط صهيون ويخدمونها عن وعى وعن غير وعى.

وعيوبهم، من عجيب الفئات والطبقات. وضرورى أن مستشارى سلطتنا هؤلاء الذين أشير هنا إليهم ـ لن يختاروا من بين الأمميين (غير اليهود) الذين اعتادوا أن يحتملوا أعباء أعمالهم الإدارية دون أن يتدبروا بعقولهم النتائج التى يجب أن ينجزوها،ودون أن يعرفوا الهدف من وراء هذه النتائج. إن الإداريين من الأمميين يؤشرون على الأوراق من غير أن يقرأوها، ويعملون حباً فى المال أو الرفعة، لا للمصلحة الواجبة.

إننا سنحيط حكومتنا بجيش كامل من الاقتصاديين، وهذا هو السبب فى أن علم الاقتصاد هو الموضوع الرئيسى الذى يعلمه اليهود. وسنكون محاطين بألوف من رجال البنوك، وأصحاب الصناعات، وأصحاب الملايين ـ وأمرهم لايزال أعظم قدراً ـ إذ الواقع أن كل شىء سوف يقرره المال. وما دام ملء المناصب الحكومية بإخواننا اليهود فى أثناء ذلك غير مأمون بعد ـ فسوف نعد بهذه المناصب الخطيرة إلى القوم الذين ساءت صحائفهم وأخلاقهم، كى تقف مخازيهم فاصلاً بين الأمة وبينهم، وكذلك سوف نعد بهذه المناصب الخطيرة إلى القوم الذين إذا عصوا أوامرنا توقعوا المحاكمة والسجن (١) والغرض من كل هذا أنهم سيدافعون عن مصالحنا حتى النفس الأخير الذى تنفث صدورهم به.

البروتوكول التاسع :

عليكم أن تواجهوا التفاتاً خاصا فى استعمال مبادئنا إلى الأخلاق الخاصة بالأمة التى

---

(١) إن اليهود إنما يختارون صنائعهم غالبا من هؤلاء، فهم دائما يحاولون استغلال أحط العناصر من أحط مشاعر الناس الإنسانية، وقد انتشر صنائعهم على هذا النحو فى ميادين كثيرة لا سيما الإدارة الحكومية والصحافة (انظر ماكتب فى البروتوكول الأول..، والعاشر..، والثانى عشر .. . وفى بلادنا العربية وغيرها كثير من صنائعهم ذوى الصحائف السود بين الأدباء والوزراء ورجال الشركات ونحوهم. وهؤلاء الصنائع ذوو ميول ونزعات مختلفة فى الظاهر غالبا، وهم مندسون بين كل الطوائف ، والطبقات حتى الخدم فى البيوت والمشارب، والعاهرات مكشوفات ومستورات ورجال التمثيل ونسائه، والمغنين والمغنيات، والوصيفات، فى البيوتات الغنية وسيدات الصالونات وسادته، وزعماء الشعوب وقادة الفكر، بل إن رجال الأديان مسيحيين ومسلمين لا يخلون من عناصر يهودية أو عناصر من صنائع اليهود تعمل لمصلحتهم، أو عناصر من أصول يهودية تنصرت أو أسلمت لتندمج فى المسيحيين والمسلمين دون أن تثير ريبتهم، وليلاحظ خاصة أن من أغراض اليهود القضاء على جميع الأديان، والتوصل لذلك باتخاذ صنائع لهم من رجال الأديان، أو دس يهود يدخلون فى المسيحية أو الإسلام للكيد والهدم من الداخل كعبد الله ابن سبأ فى الإسلام.. وديزائيلى وكارل ماركس فى المسيحية، وهناك طائفة عددها نحو ٤٠٠ أسلموا فى مصر سنة ٩٣٨ ، ٩٤٢ وقد أشاروا فى البروتوكولات إلى خطتهم ليصلوا إلى جعل بابا الفاتيكان منهم وهذا ليس بغريب على من عرف من تاريخهم فى المسيحية والإسلام عشرات الأمثلة على ذلك.

أنتم بها محاطون، وفيها تعملون، وعليكم ألا تتوقعوا النجاح خلالها فى استعمال مبادئنا بكل مشتملاتها حتى يعاد تعليم الأمة بآرائنا، ولكنكم إذا تصرفتم بسداد فى استعمال مبادئنا فستكشفون أنه ـ قبل مضى عشر سنوات ـ سيتغير أشد الأخلاق تماسكاً، وسنضيف كذلك أمة أخرى إلى مراتب تلك الأمم التى خضعت لنا من قبل.

إن الكلمات التحررية لشعارنا الماسونى هى « الحرية والمساواة والإخاء » وسوف لا نبدل كلمات شعارنا، بل نصوغها معبرة ببساطة عن فكرة، وسوف نقول: «حق الحرية، وواجب المساواة، وفكرة الإخاء». وبها سنمسك الثور من قرنيه (١) ، وحينئذ نكون قد دمرنا ـ فى حقيقة الأمر ـ كل القوى الحاكمة إلا قوتنا، وإن تكن هذه القوى الحاكمة نظريا ما تزال قائمة، وحين تقف حكومة من الحكومات نفسها موقف المعارضة لنا فى الوقت الحاضر فإنما ذلك أمر صورى، متخذ بكامل معرفتنا ورضانا، كما أننا محتاجون إلى انفجاراتهم المعادية للسامية (٢) ، كيما نتمكن من حفظ إخواننا الصغار فى نظام . ولن أتوسع فى هذه النقطة فقد كانت من قبل موضوع مناقشات عديدة .

وحقيقة الأمر أننا نلقى معارضة، فإن حكومتنا ـ من حيث القوة الفائقة جداً ذات مقام فى نظر القانون يتأدى بها إلى حد أننا قد نصفها بهذا التعبير الصارم: الدكتاتورية.

وإننى أستطيع فى ثقة أن أصرح اليوم بأننا أصحاب التشريع، وأننا المتسلطون فى

---

(١) أرجو أن يعرف القارئ أن هذه الترجمة جميعها تكاد تكون حرفية فكل ما فيها من تشبيهات ومجازات واستعارات هو فى الأصل كما هنا.

(٢) لقد أشير هنا وفى مواضع متعددة من البروتوكولات إلى هذه العداوة ضد السامية، ولكى نفهم ذلك يجب أن نشير إلى أن الأوروبيين يعتبرون أنفسهم آريين. وإنهم أسمى عنصراً من الساميين، والساميون فى الحياة الأوروبية اليومية يقصد بهم اليهود وقداضطهد اليهود فى كثير من الأقطار كألمانيا وروسيا باسم العداوة للجنس السامى إذ لا يوجد ساميون يعيشون هناك إلا اليهود، والبروتوكولات تقرر هنا وفى مواضع مختلفة أن هذه العداوة التى سببت اضطهادات كثيرة لليهود فى مختلف البلاد قد أفادت حكماء اليهود، إذ مكنتهم من المحافظة على تماسك صغارهم وولائهم لحكمائهم لحاجتهم الشديدة إليهم ، ولولا هذه الاضطهادات التى جعلت اليهود يخافون ويتدبرون فيعتمدون على معاونة بعضهم بعضا وتكتل بعضهم مع بعض سراً وعلانية لذاب صغار اليهود المشتتين بين أقطار مختلفة فى سكان هذه الأقطار .. وقد كان الكبار من اليهود يمدون أيديهم بالمعونة إلى الصغارفى كل محنة ويحفظونهم من أن يبيدوا أو يتفككوا حيث كان الكبار أنفسهم فى مأمن على الدوام من الاضطهاد، بما يتخذون من صنائع لهم بين كبار الحاكمين فى كل الأقطار من أهلها، وبما يقدم اليهود لهم من أموال ونساء وعضوية فى شركاتهم ومساعدات أخرى ظاهرة وباطنة.

الحكم، والمقررون للعقوبات، وأننا نقضى بإعدام من نشاء ونعفو عمن نشاء، ونحن ــ كما هو واقع ــ أولو الأمر الأعلون فى كل الجيوش، الراكبون رؤوسها، ونحن نحكم بالقوة القاهرة ، لأنه لا تزال فى أيدينا الفلول التى كانت الحزب القوى من قبل، وهى الآن خاضعة لسلطاننا، إن لنا طموحاً لا يحد ، وشرها لا يشبع ، ونقمة لا ترحم ، وبغضاء لا تحس. إننا مصدر إرهاب بعيد المدى. وإننا نسخر فى خدمتنا أناسا من جميع المذاهب والأحزاب؛ من رجال يرغبون فى إعادة الملكيات ، واشتراكيين ، وشيوعيين ، وحالمين بكل أنواع الطوبيات Utopias [1] ، ولقد وضعناهم جميعا تحت السرج، وكل واحد منهم على طريقته الخاصة ينسف ما بقى من السلطة، ويحاول أن يحطم كل القوانين القائمة وبهذا التدبير تتعذب الحكومات ، وتصرخ طلباً للراحة وتستعد ــ من أجل السلام ــ لتقديم أى تضحية ولكننا لن نمنحهم أى سلام حتى يعترفوا فى ضراعة بحكومتنا الدولية العليا.

لقد ضجت الشعوب بضرورة حل المشكلات الاجتماعية بوسائل دولية [2] ، وإن الاختلافات بين الأحزاب قد أوقعتها فى أيدينا، فإن المال ضرورى لمواصلة النزاع، والمال تحت أيدينا.

إننا نخشى تحالف القوة الحاكمة فى الأمميين (غير اليهود) مع قوة الرعاع العمياء، غير أننا قد اتخذنا كل الاحتياطات لنمنع احتمال وقوع هذا الحادث. فقد أقمنا بين القوتين سداً قوامه الرعب الذى تحسه القوتان، كل من الأخرى، وهكذا تبقى قوة الشعب سنداً إلى جانبنا وسنكون وحدنا قادتها، وسنوجهها لبلوغ أغراضنا.

---

(١) الطوبيات يقصد بها ما يسمي : الممالك الفاضلة أو كما سماها الفارابي المدينة الفاضلة ومفرد هذه الكلمة Utopiea (لا أرض) وأول من استعملها في الإنجليزية السير توماس مورSir Thomas More (١٤٨٩ - ١٥٣٥) للدلالة على مملكة فاضلة تخيلها، وتخيل الناس فيها سعداء جميعاً، وقد صارت بعد ذلك تطلق على كل فكرة من هذا القبيل وقد ترجمناها أحيانا بالممالك الفاضلة مستأنسين بتسمية الفارابي الفيلسوف المسلم لفكرة له تشبه فكرة توماس مور، وكتب فيها كتاباً يسمى أهل المدينة الفاضلة ، كما ترجمناها في غير هذا الموضوع بكلمة طوبي لما بين الاسمين من التشابه في اللفظ والمعني، فأما اللفظ فظاهر، وأما المعني فلأن طوبى فى العربية ــ كما وردت في القرآن والترجمة العربية للإنجيل ــ تؤدى معنى الجزاء الحسن في عالم آخر للصالحين بما عملوا من خير، وقد جعلنا النسبة إليها طوباوية وطوباوياً.

(٢) هكذا جرت الأمور كما ظهر من تأليف عصبة الأمم، ثم هيئة الأمم ومجلس الأمن واليونسكو ... والموجهون لسياستها معظمهم من اليهود أو صنائعهم.

ولكيلا تتحرر أيدى العميان من قبضتنا فيما بعد ـ يجب أن نظل متصلين بالطوائف اتصالاً مستمراً، وهو أن لا يكن اتصالاً شخصيا فهو على أى حال اتصال من خلال أشد إخواننا إخلاصاً. وعندما نصير قوة معروفة سنخاطب العامة شخصيا فى المجامع السوقية، وسنثقفها فى الأمور السياسية فى أى اتجاه يمكن أن يلتئم مع ما يناسبنا.

وكيف نستوثق مما يتعلمه الناس فى مدارس الأقاليم (١) ؟ من المؤكد أن ما يقوله رسل الحكومة، أو ما يقوله الملك نفسه ـ لا يمكن أن يجيب فى الذيوع بين الأمة كلها، لأنه سرعان ما ينتشر بلغط الناس .

ولكيلا تتحطم أنظم الأمميين قبل الأوان الواجب، أمددناهم بيدنا الخبيرة ، وأمنا غايات اللوالب فى تركيبهم الآلى . وقد كانت هذه اللوالب ذات نظام عنيف ، لكنه مضبوط فاستبدلنا بها ترتيبات تحررية بلا نظام. إن لنا يداً فى حق الحكم، وحق الانتخاب، وسياسة الصحافة وتعزيز حرية الأفراد، وفيما لا يزال أعظم خطراً وهو التعليم الذى يكون الدعامة الكبرى للحياة الحرة .

ولقد خدعنا الجيل الناشىء من الأمميين ، وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادئ ونظريات معروف لدينا زيفها التام، ولكننا نحن أنفسنا الملقنون لها، ولقد حصلنا على نتائج مفيدة خارقة من غير تعديل فعلى للقوانين السارية من قبل، بل بتحريفها فى بساطة، وبوضع تفسيرات لها لم يقصد إليها مشترعوها.

وقد صارت هذه النتائج أولاً ظاهرة بما تحقق من أن تفسيراتنا قد غطت على المعنى الحقيقى، ثم مسختها تفسيرات غامضة إلى حد أنه استحال على الحكومة أن توضح مثل هذه المجموعة الغامضة من القوانين.

ومن هنا قام مذهب عدم التمسك بحرفية القانون، بل الحكم بالضمير، ومما يختلف فيه أن تستطيع الأمم النهوض بأسلحتها ضدنا إذا اكتشفت خططنا قبل الأوان،وتلافياً لهذا نستطيع أن نعتمد على القذف فى ميدان العمل بقوة رهيبة سوف تملأ أيضاً قلوب أشجع

(١) هكذا تسميها بعض الصحف العربية، وتعني بها أقسام البلاد الريفية في أي قطر ما عدا عاصمته، وكانت في التقسيم الإداري العربي قديما تسمي الأعمال، أو الكور، وكان يسمى واحدها عملا أو كورة فصار يسمى في بعض البلاد العربية الآن مديرية أو محافظة، وفي بعضها ولاية، أو إيالة، أو متصرفية، أو لواء، ويسمي حاكمها ـ تبعا لكل منها المدير أو المحافظ أو الوالي أو المتصرف.

الرجال هولاً ورعباً. وعندئذ ستقام فى كل المدن الخطوط الحديدية المختصة بالعواصم والطرقات الممتدة تحت الأرض. ومن هذه الأنفاق الخفية سنفجر وننسف كل مدن العالم، ومعها أنظمتها وسجلاتها جميعا (*) (١).

البروتوكول العاشـــر :

اليوم سأشرع فى تكرار ما ذكر من قبل، وأرجو منكم جميعا أن تتذكروا أن الحكومات والأمم تقنع فى السياسة بالجانب المبهرج الزائف من كل شىء، نعم، فكيف يتاح لهم الوقت لكى يختبروا بواطن الأمور فى حين أن نوابهم الممثلين لهم Representatives لا يفكرون إلا فى الملذات؟.

من الخطير جداً فى سياستنا أن تتذكروا التفصيل المذكور آنفاً، فإنه سيكون عوناً كبيراً لنا حينما تناقش مثل هذه المسائل : توزيع السلطة وحرية الكلام، وحرية الصحافة والعقيدة، وحقوق تكوين الهيئات والمساواة فى نظر القانون، وحرمة الممتلكات والمساكن، ومسألة فرض الضرائب (فكرة سرية فرض الضرائب) والقوة الرجعية للقوانين. كل المسائل المشابهة لذلك ذات طبيعة تجعل من غير المستحسن مناقشتها علنا أمام العامة. فحيثما تستلزم الأحوال ذكرها للرعاع يجب أن لا تحصى ولكن يجب أن تنشرعنها بعض قرارات بغير مضى فى التفصيل. ستعمل قرارات مختصة بمبادئ الحق

(*) ربما كان التعبير مجازياً، يشير إلى وسائل كالبلشفية. (عن الأصل الإنجليزى).

(١) هذه القوى التى يشير إليها اليهود فى أحداث الاضطرابات أو الانقلابات السياسية تتخذ عناوين مختلفة فى شتى بلاد العالم، فهى تارة جمعيات دينية، وثانية سياسية، وثالثة خيرية أو ماسونية أو أدبية، أو صوفية أو إصلاحية، والجمعيات من النوعين الأولين هى أخطر الجمعيات وأكثرها انتشاراً فى بلاد الشرق، فمن المعروف إن اليهود يدخلون فى الاديان الأخرى كالمسيحية والإسلام ويمضى جيلان أو أكثر، وإذا ابناؤهم مسيحيون أو مسلمون لا يرتاب فى إخلاصهم لدينهم الجديد، بل لا يعرف عنهم أنهم من أصل يهودى ويؤلفون الجمعيات الدينية المسيحية أو الإسلامية أوالسياسية أو ينضمون إلى هيئات من هذا القبيل، ويحاولون أن يسيطروا عليها ويسخروها لخدمة اليهود. وهم دون شك معروفون من اليهود ولكنهم لايبوحون بسرهم ضرورة، وهؤلاء يعتمدون غالبا على إخفاء أصولهم بالتنقل من جهة إلى جهة، فإذا سئلوا عن موطنهم الأصلى فى قطر : أجابوا جواباً صحيحاً أو غير صحيح بأنهم من هذا المكان الأخير، وهكذا إذا انتقلوا إلى مكان آخر، فإذا حاول محاول أن يتتبع أصولهم وقع فى حيرة لاقرار له فيها، وإذا شك فيهم قابله الناس بالدهشة والإنكار، لا لشىء إلا لأن غرورهم بأنفسهم يحول بينهم وبين الاعتراف له بمعرفة ما لم يعرفوه، وليس له عليه من دليل يخرق عيونهم خرقا. وهكذا يسير على هذه السياسة الماكرة الزنوج فى أمريكا فراراً من اضطهاد الأمريكان للزنوج.

المستحدث على حسب ما ترى وأهمية الكتمان تكمن فى حقيقة أن المبدأ الذى لا يذاع علناً يترك لنا حرية العمل، مع أن مبدأ كهذا إذا أعلن مرة واحدة يكون كأنه قد تقرر.

إن الأمة لتحفظ لقوة العبقرية السياسية احتراماً خاصاً وتحمل كل أعمال يدها العليا، وتحييها هكذا [١] : « يالها من خيبة قذرة؛ ولكن يا لتنفيذها بمهارة ! » « ياله من تدليس ، ولكن يا لتنفيذه بإتقان وجسارة!».

إننا نعتمد على اجتذاب كل الأمم للعمل على تشييد الصرح الجديد الذى وضعنا نحن تصميمه . ولهذا السبب كان من الضرورى لنا أن نحصل على خدمات الوكلاء المغامرين الشجعان الذين سيكون فى استطاعتهم أن يتغلبوا على كل العقبات فى طريق تقدمنا.

وحينما ننجز انقلابنا السياسى Coup d,etat سنقول للناس: «لقد كان كل شيء يجرى فى غاية السوء، وكلكم قد تألمتم، ونحن الآن نمحق سبب آلامكم، وهوما يقال له: القوميات، والعملات القومية، وأنتم بالتأكيد أحرار فى اتهامنا، ولكن هل يمكن أن يكون حكمكم نزيها إذا نطقتم به قبل أن تكون لكم خبرة بما نستطيع أن نفعله من أجل خيركم؟» [٢] .

حينئذ سيحملوننا على أكتافهم عالياً فى انتصار وأمل وابتهاج، وإن قوة التصويت التى دربنا عليها الأفراد التافهين من الجنس البشرى بالاجتماعات المنظمة وبالاتفاقات المدبرة من قبل، ستلعب عندئذ دورها الآخير، وهذه القوة التى توسلنا بها، كى «نضع انفسنا فوق العرش»، ستؤدى لنا ديننا الأخير وهى متلهفة كى ترى نتيجة قضيتنا قبل أن تصدر حكمها .

---

(١) المعنى إن السياسى إذا خدع الجماهير ثم عرفت خديعته لم تحتقره ولم تضره،بل تقابل خداعه لها بالدهشة، معجبة ببراعته فى أنه خدعها فإذا قيل لها: إنه غشاش.قالت: ولكنه بارع، وإذا قيل: إنه دجال قذر، قالت: ولكنه شجاع.. فهى كالنساء تمنح إعجابها لمن لا يستحقه متى أذهلها وأخضعها،وتغالط نفسها بغفلتها.. وهذا السر من أدق أصول السياسة.

(٢) إن الشيوعية اليهودية تنفذ هذه الخطة فى روسيا، وشبيه بهذا ما يحدث عقب كل انقلاب سياسى فى أمة إذ ينعى أصحابه على سابقيهم أخطاءهم ويكبرونها ويتزيدون عليها ويرسمونها فى أشنع الصور، وهم يحرصون على ذلك اكثر من حرصهم على بيان محاسن حكمهم الجديد، سواء كانوا خيراً من السابقين أو شراً منهم، والدهماء كالأنعام لا يميزون الخبيث من الطيب. ولكن العلية فى أعلى الأمم وأدناها هم المسئولون عن ذلك خيره وشره حتى حين يغلبهم السفهاء.

ولكى نحصل على أغلبية مطلقة ـ يجب أن نقنع كل فرد بلزوم التصويت من غير تمييز بين الطبقات. ـ إن هذه الأغلبية لن يحصل عليها من الطبقات المتعلمة ولا من مجتمع مقسم إلى فئات.

فإذا أوحينا إلى عقل كل فرد فكرة أهميته الذاتية فسوف ندمر الحياة الأسرية [١] بين الأميين، وتفسد أهميتها التربوية، وسنعوق الرجال ذوى العقول الحصيفة عن الوصول إلى الصدارة، وأن العامة ـ تحت إرشادنا ـ ستبقى على تأخر أمثال هؤلاء الرجال، ولن تسمح لهم أبداً أن يقرروا لهم خططاً [٢].

لقد اعتاد الرعاع أن يصغوا إلينا نحن الذين نعطيهم المال لقاء سمعهم وطاعتهم. وبهذه الوسائل سنخلق قوة عمياء إلى حد أنها لن تستطيع أبداً أن تتخذ أى قرار دون إرشاد وكلائنا الذين نصبناهم لغرض قيادتها.

وسيخضع الرعاع لهذا النظام System لأنهم سيعرفون أن هؤلاء القادة مصدر أجورهم وأرباحهم وكل منافعهم الأخرى. إن نظام الحكومة يجب أن يكون عمل رأس واحد، لأنه سيكون من المحال تكتيله إذا كان عملاً مشتركاً بين عقول متعددة، وهذا هو السبب فى أنه لا يسمح لنا إلا بمعرفة خطة العمل، بل يجب ألا نناقشها بأى وسيلة، حتى لا نفسد تأثيرها، ولا نعطل وظائف أجزائها المنفصلة، ولا المعنى لكل عنصر فيها، نوقشت مثل هذه الخطط، وغيرت بتوالى الخضوع للتنقيحات ـ إذن لاختلطت بعد ذلك بنتائج كل إساءات الفهم العقلية التى تنشأ من أن المصورتين لا يسبرون الأغوار العقيمة لمعانيها، ولذلك لا بد أن تكون خططنا نهائية وممحصة تمحيصاً منطقياً. وهذا هو السبب فى أننا يجب أن لا نرمى العمل الكبيرمن قائدنا ليتمزق أجزاء على أيدى الرعاع ولا على أيدى عصبة.Glique صغيرة أيضاً .

إن هذه الخطط لن تقلب اليوم الدساتير والهيئات القائمة، بل ستغير نظريتها الاقتصادية فحسب، ومن ثم تغير كل طريق تقدمها الذى لا بد له حينئذ أن يتبع الطريق الذى تفرضه خططنا.

---

(١) إن اليهود يحاولون فى روسيا تحطيم نظام الأسرة لأنه أقوى عقبة ضد نظامهم بل يحاربونه علميا فى كل مكان كما يظهر من آراء «دور كايم» اليهودى فى علم الاجتماع فى فرنسا..

(٢) هذه الخطة تنفذ اليوم بنجاح عظيم، والجماهير التى لا تحسن تقدير الأمور التى فوق مستواها،لا يعنيها إلا اللغط بما يقال لها دون تمييز، بل كلما انحط الشىء ولو كان كذباً أو خطأً ـ أقرب إلى ذوقها وأرضى لها.

فى كل البلاد تقوم هذه الهيئات ذاتها ولكن تحت أسماء مختلفة فحسب: فمجالس نواب الشعب، والوزارات، والشيوخ، ومجالس العرش من كل نوع، ومجالس الهيئات التشريعية والإدرية.

ولا حاجة بى إلى أن أوضح لكم التركيب الآلى الذى يربط بين هذه الهيئات المختلفة، فهو معروف لكم من قبل معرفة حسنة. ولتلاحظوا فحسب أن كل هيئة من الهيئات السالفة الذكر توافى وظيفة مهمة فى الحكومة. (إنى أستعمل الكلمة « مهمة » لا إشارة إلى الهيئات بل إشارة إلى وظائفها).

لقد اقتسمت هذه الهيئات فيما بين أنفسها كل وظائف الحكومة التى هى السلطة القضائية والسلطة التشريعية والسلطة التنفيذية. وقد صارت وظائفها مماثلة لوظائف الأعضاء المتميزة المتنوعة من الجسم الإنسانى.

فإذا آذينا أى جزء فى الجهاز الحكومى فتسقط الدولة مريضة كما يمرض الجسم الإنسانى، ثم يموت، وحينما حققنا نظام الدولة بسم الحرية تغيرت سحنتها السياسية وصارت الدولة موبوءةInfected بمرض مميت، وهو مرض تحلل الدم Decompocation of the bIood ولم يبق لها إلا ختام سكرات الموت.

لقد ولدت الحرية الحكومات الدستورية التى احتلت مكان الأوتوقراطية Auto-ceacy وهى وحدها صورة الحكومة النافعة لأجل الأمميين (غير اليهود). فالدستور كما تعلمون ليس أكثر من مدرسة للفتن والاختلافات والمشاحنات والهيجانات الحزبية العقيمة، وهو بإيجاز مدرسة كل شيء يضعف نفوذ الحكومة.

وإن الخطابة. كالصحافة، قد مالت إلى جعل الملوك كسالى ضعافاً، فردتهم بذلك عقماء زائدين على الحاجة، ولهذا السبب عزلوا فى كثير من البلاد.

وبذلك صار فى الإمكان قيام عصر جمهورى، وعندئذ وضعنا فى مكان الملك ضحكة [١] فى شخص رئيس يشبهة [٢] قد اخترناه من الدهماء بين مخلوقاتنا وعبيدنا.

---

(١) الضحكة الشخص الذى يضحك منه، وهو ترجمة caricature التى تعنى صورة هذلية مضحكة، والصور الكاريكاتيرية معروفة ؟ .

(٢) يمكن أن تترجم الكلمة president بكلمات كثيرة كلها تدل على الرياعنة، ولما كان المراد بها رأس الجمهورية كما يتضح من الكلام « الآتى » وهو يسمى فى لغتها الجارية اليوم « الرئيس » وضعنا الرئيس مقابل لها.

وهكذا ثبتنا اللغم الذي وضعناه تحت الأميين، أو بالأحرى تحت الشعوب الأمية، وفى المستقبل القريب سنجعل الرئيس شخصاً مسئولاً.

ويومئذ لن نكون حائرين فى أن ننفذ بجسارة خططنا التى سيكون « دميتنا » «Dummy [(١)] » مسؤولا عنها، فماذا يعنينا إذا صارت رتب طلاب المناصب ضعيفة، وهبت القلاقل من استحالة وجود رئيس حقيقة؟ أليس هذه القلاقل هى التى ستطيح نهائياً بالبلاد؟.

ولكى نصل إلى هذه النتائج سندبر انتخاب أمثال هؤلاء الرؤساء ممن تكون صحائفهم السابقة مسودة بفضيحة « بنامية Panama » [(٢)] أو صفقة أخرى سرية مريبة. إن رئيسنا من هذا النوع سيكون منفذاً وافياً لأغراضنا، لأنه سيخشى التشهير، وسيبقى خاضعاً لسلطان الخوف الذى يتملك دائماً الرجل الذى وصل إلى السلطة، والذى يتلهف على أن يستبقى امتيازاته وأمجاده المرتبطة بمركزه الرفيع. إن مجلس ممثلى الشعب The House of Representatives سينتخب الرئيس ويحميه ويستره، ولكننا سنحرم هذا المجلس house سلطة تقديم القوانين وتعديلها.

هذه السلطة سنعطيها الرئيس المسئول الذى سيكون ألعوبة خالصة Mare puppet فى أيدينا، وفى تلك الحال ستصير سلطة الرئيس هدفاً معرضاً للمهاجمات المختلفة، ولكننا سنعطيه وسيلة الدفاع، وهى حقه فى أن يستأنف القرارات محتكماً إلى الشعب الذى هو فوق ممثلى الأمة [(٣)] أى أن يتوجه الرئيس إلى الناس الذين هم عبيدنا العميان، وهم أغلبية الدهماء.

---

(١) الدمية ما نسميه« العروسة » وهى من لعب الأطفال، والمراد بالدمية هنا رئيس الجمهورية.

(٢) حين نجح دلسبس فى حفر قناة السويس كلف بحفر قناة بناما بين أمريكا الشمالية والجنوبية، فخاب واتهم بالنصب والتدليس، وقدم للمحاكمة هو وابنه، كما قدم غيرهما ومات هو أثناء المحاكمة وسجن ابنه والمراد بالفضيحة البنامية فضيحة بتهمة شائنة كهذه الفضيحة، ومرتكب هذه الجريمة خاضع لمن يعرفون أسرارها، فاليهود يحاولون استغلالها فى إكراهه على ما يريدون فيطيعهم خوف الفضيحة واليهود يختارون وكلاءهم عادة من هؤلاء كما ذكروا فى آخر البروتوكولات ..

(٣) أى سيكون من حقه حل البرلمان، والاحتكام إلى الأمة لاختيار ممثلين جدد لها، لأنها صاحبة الحق فى اختيار من يمثلونها، وفى أثناء عملية الانتخاب يعتمد اليهود على خداع الجماهير الغافلة التى لا تميز بين حق وباطل، ولا بين أمين وخائن، كى تنتخب صنائعهم، الذين سيؤيدون الرئيس فى أعماله لخدمة اليهود. ولا اعتراض لأمة على أعمالهم لأنهم ممثلوها.

وإلى ذلك سنعطى الرئيس سلطة إعلان الحكم العرفى، وسنوضح هذا الامتياز بأن الحقيقة هى أن الرئيس ــ لكونه رئيس الجيش ــ يجب أن يملك هذا الحق لحماية الدستور الجمهورى الجديد، فهذه الحماية واجبة لأنه ممثلها المسئول.

وفى مثل هذه الأحوال سيكون مفتاح الموقف الباطنى فى أيدينا بالضرورة وما من أحد غيرنا سيكون مهيمناً على التشريع. ويضاف إلى ذلك أننا حين نقدم الدستور الجمهورى الجديد سنحرم المجلس ــ بحجة سر الدولة ــ حق السؤال عن القصد من الخطط التى تتخذها الحكومة. وبهذا الدستور الجديد سننقص كذلك عدد ممثلى الأمة إلى أقل عدد ، منقصين بذلك عددا مماثلاً من الأهواء السياسية ، والولع بالسياسة (١). وإذا صاروا معارضين بالرغم من هذا فإننا سنسمح للممثلين الباقين بالاحتكام إلى الأمة، وسيكون حقاً لرئيس الجمهورية أن يعين رئيساً ووكيلا لمجلس النواب ومثلهما ولمجلس الشيوخ ، ونستبدل بفترات الانعقاد المستمرة للبرلمانات فترات قصيرة مدى شهور قليلة.

وإلى ذلك سيكون لرئيس الجمهورية ــ باعتباره رأس السلطة التنفيذية ــ حق دعوة البرلمان وحله. وسيكون له فى حالة الحل إرجاء الدعوة لبرلمان جديد. ولكن ــ لكيلا يتحمل الرئيس المسئولية عن نتائج هذه الأعمال المخالفة للقانون مخالفة صارخة، من قبل أن تبلغ خططنا وتستوى ــ سنغرى الوزراء وكبار الموظفين الإداريين الآخرين الذين يحيطون بالرئيس ، كى يموهوا أوامره، بأن يصدروا التعليمات من جانبهم، وبذلك نضطرهم إلى تحمل المسئولية بدلاً من الرئيس، وسننصح خاصة بأن تضم هذه الوظيفة إلى مجلس الشيوخ أو إلى مجلس شورى الدولة ، أو إلى مجلس الوزراء ، وأن لا توكل إلى الأفراد(٢). وبإرشادنا سيفسر الرئيس القوانين التى يمكن فهمها بوجوه عدة.

---

(١) لكل واحد من ممثلى الأمة نزعته وهواه السياسى، ومصالحه الذاتية التى إذا لم يمكنه منها الإدارى هاجمه مستتراً بالوطنية فى أمور سياسية أخرى لا صلة لها بمصلحته الخاصة وهذا لا يقع إلا فى أمة قاصرة الوعى السياسى، حديثة عهد بالديمقراطية، والمعنى أنه كلما قل ممثلو الأمة قلت النزعات والأهواء السياسية، وقلت المصالح الذاتية للممثلين ، فسهل على الإدارى مواجهتها واحتمالها لقلتها وهذا خطأ والمعول عليه فى الأمة هى الوعى السياسى.

(٢) وإذن تكون الحكومة أوتوقراطية دكتاتورية فى الحقيقة، وديمقراطية شورية فى ظاهرها، إذ سيكون ممثلو الأمة أستاراً أو آلات تنفذ ما تريده الإدارة الممثلة فى الرئيس وأعوانه، والحكومة الأوتقراطية وحدها هى أمل اليهود لسهولة العبث بها وإخضاعها لشهواتهم الشيطانية.

وهو ــ فوق ذلك ــ سينقض القوانين فى الأحوال التى نعد فيها هذا النقض أمراً مرغوباً فيه. وسيكون له أيضاً حق اقتراح قوانين وقتية جديدة، بل له كذلك إجراء تعديلات فى العمل الدستورى للحكومة محتجا لهذا العمل بأنه أمر تقتضيه سعادة البلاد.

مثل هذه الإجراءات ستمكننا من أن نسترد شيئا فشيئاً أى حقوق أو امتيازات كنا قد اضطررنا من قبل إلى منحها حين لم نكن مستحوزين على السلطة أولاً.

ومثل هذه الامتيازات سنقدمها فى دستور البلاد لتغطية النقص التدريجى لكل الحقوق الدستورية، وذلك حين يحين الوقت لتغيير كل الحكومات القائمة، من أجل أوتوقراطيتنا أن تعرف ملكنا الأوتوقراطى يمكننا أن نتحقق منه قبل إلغاء الدساتير، أعنى بالضبط، أن تعرف حكمنا سيبدأ فى اللحظة ذاتها حين يصرخ الناس الذين مزقتهم الخلافات وتعذبوا تحت إفلاس حكامهم (وهذا ما سيكون مدبراً على أيدينا) فيصرخون هاتفين: «إخلعوهم، وأعطونا حاكماً عالمياً واحداً يستطيع أن يوحدنا، ويمحق كل أسباب الخلاف، وهى الحدود والقوميات والأديان والديون الدولية ونحوها... حاكماً يستطيع أن يمنحنا السلام والراحة اللذين لا يمكن أن يوجدا فى ظل حكومة رؤسائنا وملوكنا وممثلينا» (١) .

ولكنكم تعلمون علماً دقيقاً وافياً أنه، لكى يصرخ الجمهور بمثل هذا الرجاء، لا بد أن يستمر فى كل البلاد اضطراب العلاقات القائمة بين الشعوب والحكومات، فتستمر العداوات والحروب، والكراهية، والموت استشهاداً أيضاً، هذا مع الجوع والفقر، ومع تفشى الأمراض وكل ذلك سيمتد إلى حد أن لا يرى الأميون (غير اليهود) أى مخرج لهم من متاعبهم غير أن يلجأوا إلى الاحتماء بأموالنا وسلطتنا الكاملة (٢) .

ولكننا إذا أعطينا الأمة وقتاً تأخذ فيه نَفَسَها فإن رجوع مثل هذه الفرصة سيكون من العسير .

---

(١) وهذا ما تنفذه الشيوعية اليهودية فى روسيا وتحاول نشره فى العالم مما يدل على أن الشيوعية إنما تنفذ السياسة الصهيونية وأنها ليست إلا جزءاً منها وآلة لها (انظر الترجمة العربية لكتاب «آثرت الحرية»).

(٢) أى إذا تركت للأمة فرصة تستريح فيها من المتاعب فإن ضيقها يخف قليلاً، فإذا دعيت للثورة على حالتها لم تلب النداء وصبرت على الضيق، لأن عندها بقية احتمال، ففترات الراحة المتقطعة ولو قصرت تهون على الأمة آلامها فلا تطلب التغيير عن طريق الثورة والانقلاب بل تحاول إصلاح أحوالها بالحكمة والصبر.

البروتوكول الحادى عشـــر:

إن مجلس الدولة State covneil سيفصل ويفسر سلطة الحاكم، وإن هذا المجلس ــ وله مقدرته كهيئة تشريعية رسمية ــ سيكون المجمع الذى يصدر أوامر القائمين بالحكم.

وها هو ذا برنامج الدستور الجديد الذى نعده للعالم. أننا سنشرع القوانين، ونحدد الحقوق الدستورية وننفذها بهذه الوسائل:

١ ــ أوامر المجلس التشريعى المقترحة من الرئيس.

٢ ــ التوسل بأوامر عامة وأوامر مجلس الشيوخ ومجلس شورى الدولة والتوسل بقرارات مجلس الوزراء.

٣ ــ التوسل بانقلاب سياسى Coupd.'etat حينما تسنح اللحظة الملائمة.

هذا ــ ومع تصميمنا تقريباً على خطة عملنا ــ سنناقش من هذه الأجزاء ما قد يكون ضرورياً لنا، كى نتم الثورة فى مجموعات دواليب جهاز الدولة حسب الاتجاه الذى وضحته من قبل. وأنا أقصد بهذه الأجزاء حرية الصحافة، وحقوق تشكيل الهيئات، وحرية العقيدة، وانتخاب ممثلى الشعب، وحقوقاً كثيرة غيرها سوف تختفى من حياة الإنسان اليومية. وإذا هى لم تختف جميعاً فسيكون تغييرها أساسياً منذ اليوم التالى لإعلان الدستور الجديد. وسنكون فى هذه اللحظة المعينة وحدها آمنين كل الأمان، لكى نعلن كل تغييراتنا. وهناك سبب آخر هو أن التغييرات التى يحسها الشعب فى أى وقت ــ قد يثبت أنها خطرة؛ لأنها إذا قدمت بعنف وصرامة، وفرضت قهراً بلا تبصر فقد تسخط الناس، إذا هم سيخافون تغييرات جديدة فى اتجاهات مشابهة. ومن جهة أخرى إذا كانت التغييرات تمنح الشعب ولو امتيازات أكثر فسيقول الناس فيها: أننا تعرفنا أخطاءنا. وإن ذلك يغض من جلال عصمته [١] السلطة الجديدة. وربما يقولون أننا قد فزعنا وأكرهنا على الخضوع. وفى تلك الحال لن يشكرنا العالم، كما أنهم سيعدون أن من حقهم دائماً الخضوع لما يريدون. وإذا انطبع أى من هذه الآثار على عقول العامة فسيكون خطراً بالغاً على الدستور الجديد.

---

(١) وضعنا كلمة عصمة مقابل Infallibility ومعناها عـدم السقوط فى الخطأ وقد استعملت كلمة العصمة فى كتب الكلام (التوحيد) بهذا المعنى فيقال: النبى معصوم أى منزه عن الخطأ، ومعنى العصمة فى الأصل الامتناع.

إنه ليلزمنا منذ اللحظة الأولى لإعلانه ـ بينما الناس لا يزالون يتألمون من آثار التغيير المفاجئ، وهم فى حالة فزع وبلبلة ـ أن يعرفوا أننا بلغنا من عظم القوة والصلابة والامتلاء بالعنف أفقاً لن ننظر فيه إلى مصالحهم نظر احترام. سنريد منهم أن يفهموا أننا نتنكر لآرائهم ورغباتهم فحسب، بل سنكون مستعدين فى كل زمان وفى كل مكان لأن نخنق بيد جبارة أى عبارة أو إشارة إلى المعارضة (١) .

سنريد من الناس أن يفهموا أننا استحوذنا على كل شىء أردناه، وأننا لن نسمح لهم فى أى حال من الأحوال أن يشركونا فى سلطتنا، وعندئذ سيغمضون عيونهم على أى شىء بدافع الخوف، وسينتظرون فى صبر تطورات أبعد.

إن الأمميين (غير اليهود) كقطيع من الغنم ، وأننا الذئاب ، فهل تعلمون ما تفعل الغنم حينما تنفذ الذئاب إلى الحظيرة؟ إنها لتغمض عيونها عن كل شىء. وإلى هذا المصير سيدفعون، فسنعدهم بأننا سنعيد إليهم حرياتهم بعد التخلص من أعداء العالم ، واضطرار كل الطوائف إلى الخضوع. ولست فى حاجة ملحة إلى أن أخبركم إلى متى سيطول بهم الانتظار حتى ترجع إليهم حرياتهم الضائعة (٢).

أى سبب أغرانا بابتداع سياستنا، وبتلقين الأمميين إياها ؟ لقد أوحينا إلى الأمميين هذه السياسة دون أن ندعهم يدركون مغزاها الخفى وماذا حفزنا على هذا الطريق للعمل إلا عجزنا ونحن جنس مشتت عن الوصول إلى غرضنا بالطرق المستقيمة، بل بالمراوغة فحسب؟ هذا هو السبب الصحيح، والأصل فى تنظيمنا للماسونية التى لا يفهمها أولئك الخنازير swine من الأمميين، ولذلك لا يرتابون فى مقاصدها لقد أوقعناهم فى كتلة محافلنا التى لا تبدو شيئاً أكثر من ماسونية كى نذر الرماد فى عيون رفقائهم.

من رحمة الله أن شعبه المختار مشتت، وهذا التشتت الذى يبدو ضعفاً فينا أمام العالم ــ قد ثبت أنه كل قوتنا التى وصلت بنا إلى عتبة السلطة العالمية (٣) .

---

(١) هذا ما يجرى فى روسيا الشيوعية الآن تماماً، مما يدل على أن سياستها تسير حسب خطة البروتوكولات ، وأن سياستها يهودية خالصة.

(٢) أى أن هذه الحريات لن ترجع إليهم أبداً وأن كل وعودنا خداع وتضليل.

(٣) هذه حقيقة من أغرب الحقائق وأصدقها، فإن تشتت اليهود فى أقطار العالم مع تماسكهم قد جعلهم ذوى نفوذ فى كل قطر، وهم يسخرون كل الأقطار التى عظم نفوذهم فيها كبريطانيا وأمريكا وروسيا وغيرها لمصلحتهم =

ليس لدينا أكثر من أن نبنى على هذه الأسس، لكى نصل إلى هدفنا.

البروتوكول الثانى عشر:

إن كلمة الحرية التى يمكن أن تفسر بوجوه شتى سنجدها هكذا « الحرية هى حق عمل ما يسمح به القانون » تعريف الكلمة هكذا سينفعنا على هذا الوجه: إذ سيترك لنا أن نقول أين تكون الحرية، وأين ينبغى أن لا تكون، وذلك لسبب بسيط هو أن القانون لن يسمح إلا بما نرغب نحن فيه.

وسنعامل الصحافة على النهج الآتى: ما الدور الذى تلعبه الصحافة فى الوقت الحاضر؟ إنها تقوم بتهييج العواطف الجياشة فى الناس، وأحياناً بإثارة المجادلات الحزبية الأنانية التى ربما تكون ضرورية لمقصدنا. وما أكثر ما تكون فارغة ظالمة زائفة، ومعظم الناس لا يدركون أغراضها الدقيقة أقل إدراك. إننا وسنسرجها وسنقودها بلجم حازمة. وسيكون علينا أيضاً أن نظفر بإدارة شركات النشر الأخرى، فلن ينفعنا أن نهيمن على الصحافة الدورية بينما لا نزال عرضة لهجمات النشرات pamphletc والكتب. وسنحول إنتاج النشر الغالى فى الوقت الحاضر مورداً من موارد الثروة يدر الربح لحكومتنا ؛ بتقديم ضريبة دمغة معينة وبإجبار الناشرين على أن يقدموا لنا تأمينا، لكى نؤمن حكومتنا من كل أنواع الحملات من جانب الصحافة وإذا وقع هجوم فسنفرض عليها الغرامات عن يمين وشمال. إن هذه الإجراءات كالرسوم والتأمينات والغرامات ستكون مورد دخل كبير للحكومة، ومن المؤكد أن الصحف الحزبية لن يردعها دفع الغرامات الثقيلة [1]. ولذلك فإننا عقب هجوم خطير ثان ـ سنعطلها جميعاً .

وما من أحد سيكون قادراً دون عقاب على المساس بكرامة عصمتنا السياسية. وسنعتذر عن مصادرة النشرات بالحجة الآتية، سنقول: النشرة التى صودرت تثير الرأى العام على غير قاعدة ولا أساس .

= الذاتية ، كما ظهر أثناء اقامتهم لدولتهم « إسرائيل » وغير ذلك من الأحداث الجارية، فليتدبر ذلك الغافلون، وكل جالية يهودية فى دولة أنما هى جمعية سرية تعمل لمصلحة اليهود ولو ضد الشعب الذى يساكنونه .

(١) سبب ذلك أن الأحزاب تتحمل عن صحفها ما تدفعه من غرامات فهى لا تبالى بالغرامة، ولكن الصحف غير الحزبية تدفع ما تغرم من مالها فهى لا تجرؤ جرأة الصحف الحزبية على أى هجوم وراءه غرم لها.

غير أني سأسألكم توجيه عقولكم إلى أنه ستكون بين النشرات الهجومية نشرات نصدرها نحن لهذا الغرض، ولكنها لا تهاجم إلا النقط التى نعتزم تغييرها فى سياستنا. ولن يصل طرف من خبر إلى المجتمع من غير أن يمر على إرادتنا. وهذا ما قد وصلنا إليه حتى فى الوقت الحاضر كما هو واقع : فالأخبار تتسلمها وكالات Agencies قليلة [١] تتركز فيها الأخبار من كل أنحاء العالم. وحينما نصل إلى السلطة ستنضم هذه الوكالات جميعاً إلينا، ولن تنشر إلا ما نختار نحن التصريح به من الأخبار.

إذا كنا قد توصلنا فى الأحوال الحاضرة إلى الظفر بإدارة المجتمع الأممى (غير اليهودى) إلى حد أنه يرى أمور العالـم خلال المناظير الملـونة التى وضعناها فوق أعينه : وإذا لم يقم حتى الآن عائق يعتاق وصولنا إلى أسرار الدولة. كما تسمى لغباء الأمميين، إذن فماذا سيكون موقفنا حين تعرف رسمياً كحكام للعالم فى شخص إمبراطورنا الحاكم العالمى ؟.

ولنعد إلى مستقبل النشر. كلّ إنسان يرغب فى أن يصير ناشراً أو كاتبًا أو طباعًا سيكون مضطراً إلى الحصول على شهادة ورخصة ستسحبان منه إذا وقعت منه مخالفة.

والقنوات [٢] التى يجد فيها التفكير الإنسانى ترجماناً له ـ ستكون بهذه الوسائل خالصة فى أيدى حكومتنا التى ستتخذها هى نفسها وسيلة تربوية، وبذلك ستمنع الشعب أن ينقاد للزيغ بخيال « التقدم » والتحرر. ومن هنا لا يعرف أن السعادة الخيالية هى الطريق المستقيم إلى الطوبىUtopia التى انبثقت منها الفوضى وكراهية السلطة؟ وسبب ذلك بسيط، هو أن «التقدم» أو بالأحرى فكرة التقدم التحررى قد أمدت الناس بأفكار مختلطة للعتق Emancipation من غير أن تضع أى حد له . إن كل من يسمون متحررين فوضويون، إن لم يكونوا فى عملهم ففىأفكارهم على التأكيد. كل واحد منهم يجرى وراء طيف الحرية ظاناً أنه يستطيع أن يفعل ما يشاء، أى أن كل واحد منهم ساقط فى حالة فوضى فى المعارضة التى يفضلها لمجرد الرغبة فى المعارضة.

---

(١) أى الوكالات الإخبارية، ويلاحظ إن معظم هذه الوكالات تخضع لليهود الآن، فمعظم ما كانوا يشتهونه قد تحقق لهم الآن.

(٢) المراد بالقنوات المطبوعات التى يعبر الناس فيها عن آرائهم كالكتب والرسائل والنشرات ونحوها.

ولنناقش الآن أمر النشر: إننا سنفرض عليه ضرائب بالأسلوب نفسه الذى فرضنا به الضرائب على الصحافة الدورية، أى من طريق فرض دمغاتٍ وتأمينات. ولكن سنفرض على الكتب التى تقل عن ثلثمائة صفحة ضريبة مضاعفة فى ثقلها ضعفين. وأن الكتب القصيرة سنعتبرها نشرات Pamphlets ، لكى نقلل نشر الدوريات التى تكون أعظم سموم النشر فتكاً.

وهذه الإجراءات ستكره الكتاب أيضاً على أن ينشروا كتباً طويلة، ستقرأ قليلاً بين العامة من أجل طولها ، ومن أجل أثمانها العالية بنوع خاص . ونحن أنفسنا سننشر كتباً رخيصة الثمن كى نعلم العامة ونوجه عقولنا فى الاتجاهات التى نرغب فيها . إن فرض الضرائب سيؤدى إلى الإقلال من كتابة دب الفراغ الذى لا هدف له. وإن كون المؤلفين مسئولين أمام القانون سيضعهم فى أيدينا، ولن يجد أحد يرغب مهاجمتنا بقلمه ناشراً ينشر له.

قبل طبع أى نوع من الأعمال سيكون على الناشر أو الطابع أن يلتمس من السلطات إذناً بنشر العمل المذكور. وبذلك سنعرف سلفاً كل مؤامرة ضدنا، وسنكون قادرين على سحق رأسها بمعرفة المكيدة سلفاً ونشر بيان عنها.

الأدب والصحافة هما أعظم قوتين تعليميتين خطيرتين. ولهذا السبب ستشترى حكومتنا العدد الأكبر من الدوريات.

وبهذه الوسيلة سنعطل Neutralise التأثير السيئ لكل صحيفة مستقلة ، ونظفر بسلطان كبير جدا على العقل الإنسانى . وإذا كنا نرخص بنشر عشر صحف مستقلة فسنشرع حتى يكون لنا ثلاثون وهكذا دواليك .

ويجب ألايرتاب الشعب أقل ريبة فى هذه الإجراءات، ولذلك فإن الصحف الدورية التى ننشرها ستظهر كأنها معارضة لنظراتنا وآرائنا فتوحى بذلك الثقة إلى القراء، وتعرض منظراً جذاباً لأعدائنا الذين لا يرتابون فينا؛ وسيقعون لذلك فى شركنا (١) وسيكونون مجردين من القوة.

---

(١) أى سيكشفون أنفسهم فيها لليهود ، ويمكنون لهم من الاتصال بهم ، فيعاملونهم بما يضمن ولاءهم، ويضعهم تحت رحمتهم كما وضحته السطور التالية .

وفى الصف الأول سنضع الصحافة الرسمية. وستكون دائماً يقظة للدفاع عن مصالحنا، ولذلك سيكون نفوذها على الشعب ضعيفاً نسبياً. وفى الصف الثانى سنضع الصحافة شبه الرسمية Semi Official التى سيكون واجبها استمالة المحايد (١) وفاتر الهمة، وفى الصف الثالث سنضع الصحافة التى تتضمن معارضتنا، والتى ستظهر فى إحدى طبعاتها مخاصمة لنا، وسيتخذ أعداؤنا الحقيقيون هذه المعارضة معتمداً لهم، وسيتركون لنا أن نكشف أوراقهم بذلك .

ستكون لنا جرائد شتى تؤيد الطوائف المختلفة: من أرستقراطية وجمهورية، وثورية، بل فوضوية أيضاً ـ وسيكون ذلك طالما أن الدساتير قائمة بالضرورة. وستكون هذه الجرائد مثل الإله الهندى فشنو Vishnu (٢) . لها مئات الأيدى ، وكل يد ستجس نبض الرأى العام المتقلب .

ومتى أراد النبض سرعة فإن هذه الأيدى ستجذب هذا الرأي نحو مقصدنا، لأن المريض المهتاج الأعصاب سهل الانقياد وسهل الوقوع تحت أي نوع من أنواع النفوذ. وحين يمضى الثرثارون في توهم أنهم يرددون رأى جريدتهم الحزبية فإنهم في الواقع يرددون رأينا الخاص، أو الرأي الذي نريده. ويظنون أنهم يتبعون جريدة حزبهم على حين أنهم، فى الواقع،يتبعون اللواء الذى سنحركه فوق الحزب، ولكى يستطيع جيشنا الصحافى أن ينفذ روح هذا البرنامج للظهور، بتأييد الطوائف المختلفة ـ يجب علينا أن ننظم صحافتنا بعناية كبيرة.

وباسم الهيئة المركزية للصحافة Central Commission of the press سننظم

---

(١) indifferent أى الذى ليس مع هذا الفريق ولا مع غيره، وخير كلمة عربية تؤدى هذا المعنى كلمة المعتزل، فالاعتزال البعد عن كل طائفة من الطوائف، وهو يسمى فى عرفنا الحياد خطأ وبهذا المعنى سمى بعض علماء الكلام (المعتزلة).

(٢) فشنو مأخوذ من الكلمة السنسكريتية Vish أي يشمل وهو اسم إله هندي بمعنى الشامل أي الحافظ أو الحامي، والثالوث الإلهي في الديانة البرهمية الهندية يشمل برهما Brahma وفشنو وسيفا Siva وهو ليس إلهاً واحدا ذا ثلاثة أقانيم كالثالوث المسيحي في نظر بعض الطوائف المسيحية، ولكنه إله واحد ذو ثلاثة اسماء تطلق عليه بحسب فعله في الكون، فهو براهما حين يكون المبدع، وفشنو حين يكون الحامي وسيفا حين يكون المدمر.وتمثال فشنو يصور علي هيئة إنسان له أيد كثيرة، وهذه الأيدي تشير إلى عمله ومداه، فالأيدي علامة الحماية وكثرتها علامة شمولها وامتدادها إلى كل شيء .

اجتماعات أدبية،وسيعطي فيها وكلاؤنا ــ دون أن يفطن إليهم ــ شارة للضمان Counter-signs وكلمات السر Passwords . وبمناقشة سياستنا ومناقضتها. ومن ناحية سطحية دائمة بالضرورة. ودون مساس في الواقع بأجزائها المهمة ــ سيستمر أعضاؤنا في مجادلات زائفة شكلية Feigned مع الجرائد الرسمية. كي تعطينا حجة لتحديد خططنا بدقة أكثر مما نستطيع في إذاعتنا البرلمانية وهذا بالضرورة لا يكون إلا لمصلحتنا فحسب،وهذه المعارضة من جانب الصحافة ستخدم أيضا غرضنا، إذ تجعل الناس يعتقدون أن حرية الكلام لا تزال قائمة، كما أنها ستعطي وكلاءنا Agents فرصة تظهر أن معارضينا يأتون باتهامات زائفة ضدنا، على حين أنهم عاجزون عن أن يجدوا أساسا حقيقياً يستندون عليه لنقض سياستنا وهدمها.

هذه الإجراءات التى ستختفى ملاحظتها على انتباه الجمهور ــ ستكون أنجح الوسائل فى قيادة عقل الجمهور، وفى الإيحاء إليه بالثقة والاطمئنان إلى جانب حكومتنا .

وبفضل هذه الإجراءات سنكون قادرين على إثارة عقل الشعب وتهدئته فى المسائل السياسية، حينما يكون ضرورياً لنا أن نفعل ذلك وسنكون قادرين على إقناعهم أو بلبلتهم بطبع أخبار صحيحة أو زائفة حقائق أو ما يناقضها، حسبما يوافق غرضنا. وأن الأخبار التى سننشرها ستعتمد على الأسلوب الذى يتقبل الشعب به ذلك النوع من الأخبار وسنحتاط دائما احتياطاً عظيماً لجس الأرض قبل السير عليها.

إن القيود التى سنفرضها على النشرات الخاصة، كما بينت، ستمكننا من أن نتأكد من الانتصار على أعدائنا. إذ لن تكون لديهم وسائل صحفية تحت تصرفهم يستطيعون حقيقة أن يعبروا بها تعبيراً كاملاً عن آرائهم، ولن نكون مضطرين ولو إلى عمل تنفيذ كامل لقضاياهم.

والمقالات الجوفاء Ballon d,essai التى سنلقى بها فى الصف الثالث من صحافتنا سنفندها عفواً، بالضرورة تفنيداً، شبه رسمي Semi-offically .

يقوم الآن في الصحافة الفرنسية نهج الفهم الماسوني (١) لإعطاء شارات الضمان Countersigns فكل أعضاء الصحافة مرتبطون بأسرار مهنية متبادلة على أسلوب

---

(١) أى تكوين الجماعة سرياً، والتفاهم بين أعضائها بطريقة لا يفهمها غيرهم.

النبوءات القديمة Ancient oreles ولا أحد من الأعضاء سيفشي معرفته بالسر، على حين أن مثل هذا السر غير مأمور بتعميمه. ولن تكون لناشر بمفرده الشجاعة على إفشاء السر الذى عهد به إليه، والسبب هو أنه لا أحد منهم يؤذن له بالدخول في عالم الأدب، ما لم يكن يحمل سمات [1] Narks بعض الأعمال المخزية Shady فى حياته الماضية. وليس عليه أن يظهر إلا أدنى علامات العصيان حتى تكشف فوراً سماته المخزية. وبينما تظل هذه السمات معروفة لعدد قليل تقوم كرامة الصحفي بجذب الرأى العام إليه فى جميع البلاد. وسينقاد له الناس، ويعجبون به.

ويجب أن تمتد خططنا بخاصة إلى الأقاليم previnces وضرورى لنا كذلك أن نخلق أفكاراً، ونوحى آراء هناك بحيث نستطيع في أي وقت أن ننزلها إلى العاصمة بتقديمها كأنها آراء محايدة للأقاليم .

وطبعاً لن يتغير منبع الفكرة وأصلها: أعني أنها ستكون عندنا.

ويلزمنا ، قبل فرض السلطة ، أن تكون المدن أحيانا تحت نفوذ رأي الأقاليم ـ وهذا يعنى أنها ستعرف رأى الأغلبية الذى سنكون قد دبرناه من قبل ومن الضرورى لنا أن لا تجد العواصم فى فترة الأزمنة النفسية وقتاً لمناقشة حقيقة واقعة، بل تتقبلها ببساطة، لأنها قد أجازتها الأغلبية فى الأقاليم.

وحينما نصل إلى عهد المنهج Regeme الجديد ـ أى خلال مرحلة التحول إلى مملكتنا ـ يجب أن لا نسمح للصحافة بأن تصف الحوادث الإجرامية : إذ سيكون من اللازم أن يعتقد الشعب أن المنهج الجديد مقنع وناجح إلى حد أن الإجرام قد زال .

وحيث تقع الحوادث الإجرامية يجب أن تكون معروفة إلا لضحيتها ولمن يتفق له أن يعاينها [2] فحسب..

البروتوكول الثالث عشر:

إن الحاجة يومياً إلى الخبر ستكره الأمميين Gentiles على الدوام إكراهاً أن يقبضوا

---

(١) السمات، جمع سمة وهي العلامة والمراد هنا: وصمة عار وخزي.

(٢) من المعاينة وهي من العين، والمعنى أن الجريمة لا يراها إلا المصاب بها، ومن يشهدها لأنه كان في مكان الجريمة مصادفة.

ألسنتهم، ويظلوا خدمنا الأذلاء. وأن أولئك الذين قد نستخدمهم في صحافتنا من الأميين سيناقشون بإيعازات منا حقائق لن يكون من المرغوب فيه أن نشير إليها بخاصة في جريدتنا الرسمية Gazette. وبينما تتخذ كل أساليب المناقشات والمناظرات هكذا سنمضى القوانين التى سنحتاج إليها، وسنضعها أمام الجمهور على أنها حقائق ناجزة.

ولن يجرؤ أحد على طلب استئناف النظر فيما تقرر إمضاؤه، فضلاً عن طلب استئناف النظر بخاصة فيما يظهر حرصنا على مساعدة التقدم. وحينئذ ستحول الصحافة نظر الجمهور بعيداً بمشكلات جديدة [١]، (وأنتم تعرفون بأنفسكم أننا دائما نعلم الشعب أن يبحث عن طوائف جديدة). وسيسرع المغامرون السياسيون الأغبياء إلى مناقشة المشكلات الجديدة. ومثلهم الرعاع الذين لا يفهمون فى أيامنا هذه حتى ما يتشدقون به.

وإن المشكلات السياسية لا يعنى بها أن تكون مفهومة عند الناس العاديين، ولا يستطيع إدراكها ـ كما قلت من قبل ـ إلا الحكام الذين قد مارسوا تصريف الأمور قرونا كثيرة [٢]. ولكم أن تستخلصوا من كل هذا إننا ـ حين نلجأ إلى الرأي العام ـ سنعمل على هذا النحو، كى نسهل عمل جهازنا Machinary كما يمكن أن تلاحظوا أننا نطلب الموافقة على شتى المسائل لا بالأفعال، بل بالأقوال. ونحن دائماً نؤكد فى كل إجراءاتنا إننا مقودون بالأمل واليقين لخدمة المصلحة العامة.

ولكي نذهل الناس المضعضعين عن مناقشة المسائل السياسية ـ نمدهم بمشكلات جديدة. أى بمشكلات الصناعة والتجارة. ولنتركهم يثوروا على هذه المسائل كما يشتهون.

إنما نوافق الجماهير على التخلى والكف عما تظنه نشاطاً سياسياً إذا أعطيناها ملاهي جديدة، أي التجارة التى نحاول فنجعلها تعتقد أنها أيضا مسألة سياسية. ونحن أنفسنا

---

(١) صحيح إن الجماهير كالطفل، فإذا هو أعنتك بالإلحاح في طلب كفاك أن تقول له مثلاً: «انظر إلى هذا العصفور» فتوجه ذهنه إلى ما تريد، وينسي ما كان يلح عليه من فكرة الطلب، مع أنه لا عصفور هناك، ويبدأ هو في السؤال عن العصفور وقد يصف لك شكله ولونه... فالمهم هو توجيه انتباه الجماهير بشاغل يرضي تطفلها وتدير عليه ألسنتها بلا قصد ولا تمييز وهذا من أدق الأسرار السياسية.

(٢) يريدون بذلك اليهود وحدهم، لاعتقادهم أن الله اختصهم بقيادة الناس.

أغرينا الجماهير بالمشاركة فى السياسيات، كى نضمن تأييدها في معركتنا ضد الحكومات الأممية.

ولكى نبعدها عن أن تكشف بأنفسها أى خط عمل جديد سنلهيها أيضاً بأنواع شتى من الملاهى والألعاب ومزجيات للفراغ والمجامع العامة وهلم جرا.

وسرعان ما سنبدأ الإعلان فى الصحف داعين الناس إلى الدخول في مباريات شتى في كل أنواع المشروعات: كالفن والرياضة وما إليهما. هذه المتع الجديدة ستلهي ذهن الشعب حتماً عن المسائل التى سنختلف فيها معه، وحالما يفقد الشعب تدريجيًا نعمة التفكير المستقل بنفسه سيهتف جميعاً معنا لسبب واحد: هو أننا سنكون أعضاء المجتمع الوحيدين الذين يكونون أهلاً لتقديم خطوط تفكير جديدة.

وهذه الخطوط سنقدمها متوسلين بتسخير آلاتنا وحدها من أمثال الأشخاص الذين لا يستطاع الشك فى تحالفهم معنا، أن دور المثاليين المتحررين سينتهى حالما يعترف بحكومتنا. وسيؤدون لنا خدمة طيبة حتى يحين ذلك الوقت .

ولهذا السبب سنحاول أن نوجه العقل العام نحو كل نوع من النظريات المبهرجة Fantastic التي يمكن أن تبدو تقدمية أو تحررية. لقد نجحنا نجاحاً كاملا بنظرياتنا على التقدم فى تحويل رؤوس الأمميين الفارغة من العقل نحو الاشتراكية. ولا يوجد عقل واحد بين الأممين يستطع أن يلاحظ إنه فى كل حالة وراء كلمة «التقدم» يختفى ضلال وزيغ عن الحق، ماعدا الحالات التي تشير فيها هذه الكلمة إلى كشوف مادية أو علمية. إذ ليس هناك إلا تعليم حق واحد، ولا مجال فيه من أجل «التقدم» إن التقدم ـ كفكرة زائفة ـ يعمل على تغطية الحق، حتى لا يعرف الحق أحد غيرنا نحن شعب الله المختار الذى اصطفاه ليكون قواماً على الحق.

وحين نستحوذ على السلطة سيناقش خطباؤنا المشكلات الكبرى التى كانت تحير الإنسانية، لكى ينطوى النوع البشرى فى النهاية تحت حكمنا المبارك.

ومن الذى سيرتاب حينئذ فى إننا نحن الذين كنا نثير هذه المشكلات وفق خطـةScheme سياسية لم يفهمها إنسان طوال قرون كثرة.

البروتوكول الرابع عشر :

حينما نمكن لأنفسنا فنكون سادةالأرض ـ لن نبيح قيام أى دين غير ديننا ، أى الدين المعترف بوحدانية الله الذى ارتبط حظنا باختياره إيانا كما ارتبط به مصير العالم .

ولهذا السبب يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان ، وإذ تكون النتيجة المؤقتة لهذا هى أثمار ملحدين [1] فلن يدخل هذا فى موضوعنا ولكنه سيضرب مثلاً للأجيال القادمة التى ستصغى إلى تعاليمنا على دين موسى الذى وكل إلينا ـ بعقيدته الصارمة ـ واجب إخضاع كل الأمم تحت أقدامنا.

وإذ نؤدى هذا سنعكف أيضاً على الحقائق الباطنية Mystic truths للتعاليم الموسوية التى تقوم عليها ـ كما سنقول ـ كل قوتها التربوية.

ثم سننشر فى كل فرصة ممكنة مقالات نقارن فيها بين حكمنا النافع وذلك الحكم السابق. وإن حالة اليمن والسلام التى ستسود يومئذ ـ ولو أنها وليدة اضطراب قرون طويلة ـ ستفيد أيضاً فى تبيين محاسن حكمنا الجديد. وسنصور الأخطاء التى ارتكبها الأمميون (غير اليهود) فى إدارتهم بأفضح الألوان. وسنبدأ بإثارة شعور الازدراء نحو منهج الحكم السابق، حتى إن الأمم ستفضل حكومة السلام فى جو العبودية على حقوق الحرية التى طالما مجدوها، فقد عذبتهم بأبلغ قسوة، واستنزفت منهم ينبوع الوجود الإنسانى نفسه، وما دفعهم إليها على التحقيق الا جماعة من المغامرين الذين لم يعرفوا ما كانوا يفعلون.

إن تغييرات الحكومة العقيمة التى أغرينا الأمميين بها ـ متوسلين بذلك إلى تقويض صرح دولتهم ـ ستكون فى ذلك الوقت قد أضجرت الأمم تماماً، إلى حد إنها ستفضل

---

(١) ليلاحظ القارئ أن علماء اليهود يجدون بكل ما في وسعهم لهدم الأديان عن طريق المذاهب الاجتماعية والسياسية والفكرية والبيولوجية مثل مذهب دور كايم والشيوعية والوجودية ومذهب التطور والسريالية، وأنهم القائمون على دراسة علم الأديان المقارن متوسلين به إلى نشر الإلحاد ونسف الإيمان من النفوس، وأن تلاميذهم من المسلمين والمسيحيين في كل الأقطار ومنها مصر يروجون لآرائهم الهدامة بين الناس جهلاً وكبراً. ولو استقل هؤلاء التلاميذ فى تفكيرهم لكشفوا ما في آراء أساتذتهم اليهود من زيف وما وراء نظرياتهم من سوء النية (انظر مقالنا فى الرسالة:

العدد ٩٢٦ في ٢ـ ٤ ـ ١٩٥١ بعنوان «أبطال اليهود بين القرآن والعهد القديم ») .

مقاساة أى شىء منها خوفاً من أن تعود إلى العناء والخيبة اللذين تمضى الأمم خلالهما فيما لو عاد الحكم السابق.

وسنوجه عناية خاصة إلى الأخطاء التاريخية للحكومات الأممية التى عذبت الإنسانية خلال قرون كثيرة جداً لنقص فى فهمها أى شىء يوافق السعادة الحقة للحياة الإنسانية، ولبحثها عن الخطط المبهرجة للسعادة الاجتماعية، لأن الأمميين لم يلاحظوا أن خططهم، بدلاً من أن تحسن العلاقات بين الإنسان والإنسان، لم تجعلها إلا أسوأ وأسوأ. وهذه العلاقات هى أساس الوجود الإنسانى نفسه، إن كل قوة مبادئنا وإجراءاتنا ، ستكون كامنة فى حقيقة إيضاحنا لها ، مع أنها مناقضة تماماً للمنهج المنحل الضائع للأحوال الاجتماعية السابقة.

وسيفضح فلاسفتنا كل مساوئ الديانات الأممية (غير اليهودية) ولكن لن يحكم أحد أبداً على دياناتنا من وجهة نظرها الحقة، إذ لن يستطاع لأحد أبداً أن يعرفها معرفة شاملة نافذة إلا شعبنا الخاص الذى لن يخاطر بكشف أسرارها.

وقد نشرنا فى كل الدول الكبرى ذوات الزعامة أدباً Hiterature مريضاً قذراً يغثى النفوس. وسنستمر فترة قصيرة بعد الاعتراف بحكمنا على تشجيع سيطرة مثل هذا الأدب، كى يشير بوضوح إلى اختلافه عن التعاليم التى سنصدرها من موقفنا المحمود. وسيقوم علماؤنا الذين ربوا لغرض قيادة الأمميين بإلقاء خطب، ورسم خطط، وتسويد مذكرات، متوسلين بذلك إلى أن تؤثر على عقول الرجال وتجذبها نحو تلك المعرفة وتلك الأفكار التى تلائمنا.

البروتوكول الخامس عشر :

سنعمل كل ما فى وسعنا على منع المؤامرات التى تدبر ضدنا حين نحصل نهائيا على السلطة، متوسلين إليها بعدد من الانقلابات السياسية coups d,etat المفاجئة التى سننظمها بحيث تحدث فى وقت واحد فى جميع الأقطار، وسنقبض على السلطة بسرعة عند إعلان حكوماتها رسميا أنها عاجزة عن حكم الشعوب، وقد تنقضى فترة طويلة من الزمن قبل أن يتحقق هذا، وربما تمتد هذه الفترة قرناً كاملاً، ولكى نصل إلى منع المؤامرات ضدنا حين بلوغنا السلطة سننفذ الإعدام بلا رحمة فى كل من يشهر أسلحة ضد استقرار سلطتنا.

إن تأليف أى جماعة سرية جديدة سيكون عقابه الموت أيضاً، وأما الجماعات السرية التى تقوم فى الوقت الحاضر ونحن نعرفها، والتى تخدم، وقد خدمت، أغراضنا ـ فإننا سنحلها وننفى أعضاءها إلى جهات نائية من العالم. وبهذا الأسلوب نفسه سنتصرف مع كل واحد من الماسونيين الأحرار الأمميين (غير اليهود) الذين يعرفون أكثر من الحد المناسب لسلامتنا. وكذلك الماسونيون الذين ربما نعفو عنهم لسبب أو لغيره سنبقيهم فى خوف دائم من النفى، وسنصدر قانوناً يقضى على كل الأعضاء السابقين فى الجمعيات السرية بالنفى من أوروبا حيث سيقوم مركز حكومتنا.

وستكون قرارات حكومتنا نهائية، ولن يكون لأحد الحق فى المعارضة .

ولكى نرد كل الجماعات الأممية على أعقابها ونمسخها ـ هذه الجماعات التى غرسنا بعمق فى نفوسها الاختلافات ومبادئ نزعة المعارضة Protestant للمعارضة ـ سنتخذ معها إجراءات لا رحمة فيها. بمثل هذه الإجراءات ستعرف الأمم أن سلطتنا لا يمكن أن يعتدى عليها، ويجب ألا يعتد بكثرة الضحايا الذين سنضحى بهم للوصول إلى النجاح فى المستقبل.

إن الوصول إلى النجاح، ولو توصل إليه بالتضحيات المتعددة، هو واجب كل حكومة تتحقق . إن شروط وجودها ليست كامنة فى الامتيازات التى تتمتع بها فحسب، بل فى تنفيذ واجباتها كذلك.

والشرط الأساسى فى استقرارها يكمن فى تقوية هيبة سلطاتها، وهذه الهيبة لا يمكن الوصول إليها إلا بقوة عظيمة غير متأرجحة Unshakable ، وهى القوة التى ستبدو أنها مقدسة لا تنتهك لها حرمة، ومحاطة بقوة باطنية Mystic لتكون مثلاً من قضاء الله وقدره.

هكذا حتى الوقت الحاضر كانت الأوتوقراطية الروسية Russian Autoiacy عدونا الوحيد إذا استثنينا الكنيسة البابوية المقدسة Holysee. اذكروا أن إيطاليا عندما كانت تتدفق بالدم لم تمس شعرة واحدة من رأس سلا silla [1] وقد كان هو الرجل الذى جعل

---

(١) سلا Silla مثال نادر لمن يصل إلى السلطان المطلق عن طريق العنف والدهاء. وكان أول ظهوره أيام الحكومة الجمهورية في روما، وهو حلول القائد الروماني ماريوس سنة ١٠٧ ق.م. حين أرسله هذا القائد بمفاوضة ملك مغربي في شمال إفريقيا فنجح فى سفارته سفارته. وحين صار ماريوس قنصلاً رومانيا سنة ١٠٤ ق.م. كان سلا من قواد جيشه، وما زال أمره يعلو تحت رعاية ماريوس حتى اصطدما في سنة ٨٧ ق.م. فزحف سلا بجيشه إلى=

دمها يتفجر ونشأ عن جبروت شخصية سلا Silla أن صار لها فى أعين الشعب، وقد جعلته عودته بلا خوف إلى إيطاليا مقدساً لا تنتهك له حرمة Ruviolable فالشعب لن يضر الرجل الذى يسحره huphoneses (١) بشجاعة وقوة عقله.

وإلى أن يأتى الوقت الذى نصل فيه إلى السلطة، سنحاول أن ننشىء ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار فى جميع أنحاء العالم وسنجذب إليها كل من يصير أو من يكون معروفا بأنه ذو روح عامة Publicspirit (٢) وهذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التى سنحصل منها على ما نريد من أخبار كما أنها ستكون أفضل مراكز الدعاية.

وسوف نركز كل هذه الخلايا تحت قيادة واحدة معروفة لنا وحدنا وستتألف هذه القيادة من علمائنا، وسيكون لهذه الخلايا أيضاً ممثلوها الخصوصيون، كى نحجب المكان الذى نقيم فيه قيادتنا حقيقة. وسيكون لهذه القيادة وحدها الحق فى تعيين من يتكلم عنها

= روما، وأكره مجلس الشيوخ على الحكم بنفي ماريوس وبعض أتباعه، ثم أهدر دمه ـ وكان سلا أول من سن ذلك بين الرومان ـ ووعد قاتله بمكافأة كبيرة: فهرب ماريوس وخلال غيبة سلا عن روما في حرب مع بعض أعدائها انتصر عليهم فيها، عاد ماريوس إلى روما، وقبض على أزمة الحكم فيها، ولكن سلا عاد إليها بعد انتصاره سنة ٨٣ ق.م. وانتصر على ماريوس وجيوشه أيضاً، فخضع له الرومان صاغرين، ولقب نفسه «السعيد» وانطلق كالوحش يسفك دماء أعدائه وأعداء أصدقائه لا يميز بين برىء ومذنب، وطغت أعماله الوحشية حتى أنه جمع مرة أعضاء المجلس في هيكل، وقام فيهم خطيباً وإلى جواره مكان عام حشد فيه ثمانية آلاف من ضحاياه وأمر جنوده بذبحهم، فلما بلغت صرخاتهم مسامع أعضاء المجلس تمعرت وجوههم من الفزع، فأمرهم سلا أن لا تشغلهم أصوات هؤلاء الأشقياء عن سماع خطابه.

ولما جاء موعد انتخاب القنصلين اللذين جرت السنة إن يليا حكم الدولة الرومانية ترك سلا روما، وكتب من خارجها إلى رئيس المجلس ورئيس لجنة الاقتراع طالباً سؤال الشعب عن إقامة دكتاتور إلى أجل غير مسمى ليصلح الأحوال في جميع أرجاء الدولة، وأعلن أنه قبل لهذا المنصب أداء لهذه الخدمة الوطنية، فتم ما أراد، ووفق على كل أعماله، وأعطى سنة ٨١ق.م سلطة مطلقة على الأرواح والأموال، فبدد فيها ما شاءت له نزواته، وبلغ من السطوة مالم يبلغ حاكم روماني قبله، وكان يستطيع إلغاء الجمهورية والمناداة بنفسه ملكاً ولكنه لم يفعل، لأنه كان يريد اعتزال السياسة بعد الانتقام من أعدائه.

ولما نال هذه الغاية بعد أن بشم من الدماء استعفي من منصبه. وسلم سلطته إلى قنصلين جديدين، ولجأ إلى الراحة بعد أن أضناه التعب بدنا وعقلاً، وضعضعته الرذائل والحماقات، وأصابه داء خبيث أفسد أحشاءه. وأطلق الدود في قروح جلده دون أن ينقذه الدواء والنظافة ومات سنة ٧٨ ق.م. في أتعس حال، وأمر أن يكتب على قبره «هنا سلا الذي فاق كل أحد في البر بأصدقائه والنقمة من أعدائه».

(١) معنى الكلمة بالضبط ينومه تنويما مغناطيسيا، وقد ترجمناها، بكلمة يسحره.

(٢) أى ذو ميل إلى الخدمة العامة، أو اجتماعي لا معتزل ولا منطو على نفسه.

وفى رسم نظام اليوم، وسنضع الحبائل والمصايد فى هذه الخلايا لكل الاشتراكيين وطبقات المجتمع الثورية. وأن معظم الخطط السياسية السرية معروفة لنا، وسنهديها إلى تنفيذها حالما تشكل.

وكل الوكلاء Agents فى البوليس الدولى السرى تقريبا سيكونون أعضاء فى هذه الخلايا.

ولخدمات البوليس أهمية عظيمة لدينا؛ لأنهم قادرون على أن يلقوا ستاراً على مشروعاتنا Enterprises ،وأن يستنبطوا تفسيرات معقولة للضجر والسخط بين الطوائف. وأن يعاقبوا أيضاً أولئك الذين يرفضون الخضوع لنا.

ومعظم الناس الذين يدخلون فى الجمعيات السرية مغامرون يرغبون أن يشقوا طريقهم فى الحياة بأى كيفية، وليسوا ميالين إلى الجد والعناء.

وبمثل هؤلاء الناس سيكون يسيراً علينا أن نتابع أغراضنا، وأن نجعلهم يدفعون جهازنا للحركة.

وحينما يعانى العالم كله القلق فلن يدل هذا إلا على أنه قد كان من الضرورى لنا أن نقلقه هكذا، كى نحطم صلابته العظيمة الفائقة. وحينما تبدأ المؤامرات خلاله فإن بدءها يعنى أن واحداً من أشد وكلائنا إخلاصاً يقوم على رأس هذه المؤامرة. وليس إلا طبيعياً أننا كنا الشعب الوحيد الذى يوجه المشروعات الماسونية. ونحن الشعب الوحيد الذى يعرف كيف يوجهها. ونحن نعرف الهدف الأخير لكل عمل على حين أن الأمميين (غير اليهود) جاهلون بمعظم الأشياء الخاصة بالماسونية ولا يستطيعون ولو رؤية النتائج العاجلة لما هم فاعلون. وهم بعامة لا يفكرون إلا فى المنافع الوقتية العاجلة، ويكتفون بتحقيق غرضهم، حين يرضى غرورهم، ولا يفطنون إلى أن الفكرة الأصلية لم تكن فكرتهم بل كنا نحن أنفسنا الذين أوحينا إليهم بها.

والأمميون يكثرون من التردد على الخلايا الماسونية عن فضول محض. أو على أمل فى نيل نصيبهم من الأشياء الطيبة التى تجرى فيها، وبعضهم يغشاها أيضاً لأنه قادر على الثرثرة بأفكاره الحمقاء أمام المحافل. والأمميون يبحثون عن عواطف النجاح وتهليلات الاستحسان ونحن نوزعها جزافاً بلا تحفظ، ولهذا نتركهم يظفرون بنجاحهم. لكى نوجه لخدمة

مصالحها كل من تتملكهم مشاعر الغرور، ومن يتشربون أفكارنا عن غفلة واثقين بصدق عصمتهم الشخصية، وبأنهم وحدهم أصحاب الآراء، وأنهم غير خاضعين فيما يرون لتأثير الآخرين.

وأنتم لا تتصورون كيف يسهل دفع أمهر الأمميين إلى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة Naivite بإثارة غروره وإعجابه بنفسه، كيف يسهل من ناحية أخرى ـ أن تثبط شجاعته وعزيمته بأهون خيبة، ولو بالسكوت ببساطة عن تهليل الاستحسان له، وبذلك تدفعه إلى حالة خضوع ذليل كذل العبد إذ تصده عن الأمل في نجاح جديد، وبمقدار ما يحتقر شعبنا النجاح، ويقصر تطلعه على رؤية خططه متحققة، يحب الأمميون النجاح، ويكونون مستعدين للتضحية بكل خططهم من أجله.

إن هذه الظاهرة Feature في أخلاف الأمميين تجعل عملنا ما نشتهى عمله معهم أيسر كثيراً . إن أولئك الذين يظهرون كأنهم النمورة هم كالغنم غباوة ، ورءوسهم مملوءة بالفراغ .

سنتركهم يركبون في أحلامهم على حصان الآمال العقيمة، لتحطيم الفردية الإنسانية بالأفكار الرمزية لمبدأ الجماعية Collectivism [1] . إنهم لم يفهموا بعد، ولن يفهموا ، إن هذا الحلم الوحشي مناقض لقانون الطبيعة الأساسي هو ـ منذ بدء التكوين ـ قد خلق كل كائن مختلفا عن كل ما عداه، لكي تكون له بعد ذلك فردية مستقلة.

أفليست حقيقة إننا كنا قادرين على دفع الأمميين إلى مثل هذه الفكرة الخاطئة ـ

(١) Collectivesm مذهب يقضي أن يمتلك الناس الأشياء شيوعاً، ويعملوا فيها معا اختصاص أحد بشيء معين، وقد دعا إلى هذا المذهب كثير من المتهوسين المناكيد، منهم «مزدك» الذي ظهر في فارس قبل الإسلام سنة ٤٨٧م وزاد شيوعية النساء على شيوعية الأموال واعتبرذلك ديناً، فتبعه كثير من السفهاء حتى كاد يذهب بالدولة، ولكن الملك قياد كاد يستأصله هو وأتباعه في مذبحة عامة سنة ٥٢٣. كما دعا إلى هذا المذهب القرامطة أيام الدولة العباسية، وفتنوا كثيراً من الخلق وارتكبوا كثيراً من الشنع البشعة في جنوبي العراق وما والاه حيث قامت دولتهم نحو سنة ٨٩٠م. إلى أوائل القرن الحادي عشر، كما دعا إليه الشيوعيون في العصر الحاضر ورأس مذهبهم كارل ماركس اليهودي ، وقد تمكن بلاشفتهم اليهود من وضع روسيا تحت هذا النظام ، وأكرهوها بالعنف على هذه الفكرة الخاطئة ولا يزالون يتخبطون في تطبيقها هناك منحدرين من خيبة إلى خيبة ، مع تمكنهم من الحكم المطلق فيها منذ سنة ١٩١٧ وهم يحاربون الرأسمالية الفردية ولكن الشعب هناك في يدي الحاكم المطلق الذى ملك المال والأرواح. فيجمع بين استبداد المال واستبداد الحكم معاً.

تبرهن بوضوح قوى على تصورهم الضيق للحياة الإنسانية إذا ما قورنوا بنا ؟ وهنا يكمن الأمل الأكبر فى نجاحنا.

ما كان أبعد نظر حكمائنا القدماء حينما أخبرونا إنه للوصول إلى غاية عظيمة حقا يجب ألا نتوقف لحظة أمام الوسائل. وأن لا نعتد بعدد الضحايا الذين تجب التضحية بهم للوصول إلى هذه الغاية .. إننا لم نعتمد قط بالضحايا من ذرية أولئك البهائم من الأمميين (غير اليهود)، ومع أننا ضحينا كثيراً من شعبنا ذاته ـ فقد بوأناه الآن مقاماً فى العالم ما كان ليحلم بالوصول إليه من قبل. إن ضحايانا ـ وهم قليل نسبياً ـ قد صانوا شعبنا من الدمار. كل إنسان لابد أن ينتهي حتماً بالموت. والأفضل أن نعجل بهذه النهاية إلى الناس الذين يعوقون غرضنا، لا الناس الذين يقدمونه.

إننا سنقدم الماسون الأحرار إلى الموت بأسلوب لا يستطيع معه أحد إلا الاخوة ـ أن يرتاب أدنى ريبة فى الحقيقة، بل الضحايا أنفسهم أيضاً لا يرتابون فيها سلفاً. إنهم جميعاً يموتون ـ حين يكون ذلك ضرورياً ـ موتاً طبيعياً فى الظاهر. حتى الأخوة ـ وهم عارفون بهذه الحقائق ـ لن يجرأوا على الاحتجاج عليها.

وبمثل هذه الوسائل نستأصل جذور الاحتجاج نفسها ضد أوامرنا فى المجال الذى يهتم به الماسون الأحرار. فنحن نبشر بمذهب التحررية لدى الأمميين، وفى الناحية الأخرى نحفظ شعبنا في خضوع كامل.

وبتأثيرنا كانت قوانين الأمميين مطاعة كأقل ما يمكن : ولقد قوضت هيبة قوانينهم بالأفكار التحررية Liberal التى أذعناها فى أوساطهم. وإن أعظم المسائل خطورة، سواء أكانت سياسية أم أخلاقية، إنما تقرر فى دور العدالة بالطريقة التى نشرعها. فالأممى القائم بالعدالة ينظر إلى الأمور فى أى ضوء نختاره لعرضها. وهذا ما أنجزناه متوسلين بوكلائنا وبأناس نبدو أن لا صلة لنا بهم كآراء الصحافة ووسائل أخرى، بل أن أعضاء مجلس الشيوخ Senators وغيرهم من أكابر الموظفين يتبعون نصائحنا اتباعاً أعمى .

وعقل الأممى ـ لكونه ذا طبيعة بهيمية محضة ـ غير قادر على تحليل أى شىء وملاحظته، فضلا عن التكهن بما قد يؤدى إليه امتداد حال من الأحوال إذا وضع فى ضوء معين.

وهذا الاختلاف التام في العقلية بيننا وبين الأمميين هو الذي يمكن أن يرينا بسهولة آية اختيارنا من عند الله وأننا ذوو طبيعة ممتازة فوق الطبيعة البشرية Superhumannature حين تقارن بالعقل الفطرى البهيمى عند الأمميين. إنهم يعاينون الحقائق فحسب. ولكن لا يتنبأون بها، وهم عاجزون عن ابتكار أى شيء وربما تستثني من ذلك الأشياء المادية. ومن كل هذا يتضح أن الطبيعة قد قدرتنا تقديراً لقيادة العالم وحكمه. وعندما يأتى الوقت الذي نحكم فيه جهرة ستحين اللحظة التي نبين فيها منفعة حكمنا، وسنقوم كل القوانين. وستكون كل قوانينا قصيرة وواضحة وموجزة غير محتاجة إلى تفسير، حتى يكون كل إنسان قادراً على فهمها باطناً وظاهراً. وستكون السمة Future الرئيسية فيها هى الطاعة اللازمة للسلطة، وإن هذا التوقير للسلطة سيرتفع إلى قمة عالية جداً. وحينئذ ستتوقف كل أنواع إساءة استعمال السلطة لأن كل إنسان سيكون مسؤولاً أمام السلطة العليا الوحيدة: أى سلطة الحاكم. وإن سوء استعمال السلطة من جانب الناس ما عدا الحاكم سيكون عقابه بالغ الصرامة إلى حد أن الجميع سيفقدون الرغبة فى تجربة سلطتهم لهذا الاعتبار.

وسنراقب بدقة كل خطوة تتخذها هيئتنا الإدارية التى سيعتمد عليها عمل جهاز الدولة، فإنه حين تصير الإدارة بطيئة ستبعث الفوضى فى كل مكان. ولن يبقى بمنجاة من العقاب أى عمل غير قانونى، ولا أى سوء استعمال للسلطة.

ستزول كل أعمال الخفاء والتقصير العمد من جانب الموظفين فى الإدارة بعد أن يروا أوائل أمثلة العقاب.

وستستلزم عظمة سلطتنا توقيع عقوبات تناسبها، أو أن تلك العقوبات ستكون صارمة Harsh ولو عند أدنى شروع في الاعتداء على هيبة سلطتنا من أجل مصلحة شخصية للمعتدى أو لغيره. والرجل الذى يعذب جزاء أخطائه ـ ولو بصرامة بالغة ـ إنما هو جندى يموت فى معترك Battlefield الإدارة من أجل السلطة والمبدأ والقانون، وكلها لا تسمح بأى انحراف عن الصراط العام Puplic Path من أجل مصالح شخصية، ولو وقع من أولئك الذين هم مركبة الشعب puplic Chariot وقادته. فمثلاً سيعرف قضاتنا أنهم بالشروع فى إظهار تسامحهم يعتدون على قانون العدالة الذى شرع لتوقيع العقوبة على الرجال جزاء جرائمهم التى يقترفونها، ولم يشرع كى يمكن القاضى من إظهار حلمه. وهذه الخصلة الفاضلة لا ينبغى أن تظهر إلا فى الحياة الخاصة للإنسان ،

لا فى مقـدرة القاضى الرسمية التى تؤثــر فـى كل أسس التربيـة للنـو ع البشر ى.

ولن يخدم أعضاء القانون فى المحاكم بعـد سـن الخامسـة والخمسين للسببين الآتيين :

أولهما: أن الشيوخ أعظم إصراراً وجموداً فى تمسكهم بالأفكار التى يدركونها سلفاً، وأقل اقتداراً على طاعة النظم الحديثة.

وثانيهما: أن مثل هذا الإجـراء سيمكننا من إحـداث تغييـرات عـدة فى الهيئة Staff الذين سيكونون لذلك خاضعين لأى ضغط من جانبنا. فإن أى إنسان يرغب في الاحتفاظ بمنصبه سيكون عليه كى يضمنه أن يطيعنا طاعة عمياء. وعلى العموم سيختار قضاتنا من بين الرجال الذين يفهمون أن واجبهم هو العقاب وتطبيق القوانين ، وليس الاستغراق في أحلام مذهب التحررية Liberalism الذى قد ينكب النظام التربوى للحكومة، كما يفعل القضاة الأمميون الآن. وإن نظام تغيير الموظفين سيساعدنا أيضا فى تدمير أى نوع للاتحاد يمكن أن يؤلفوه فيما بين أنفسهم، ولن يعملوا إلا لمصلحة الحكومة التى ستتوقف حظوظهم ومصايرهم عليها. وسيبلغ من تعليم الجيل الناشىء من القضاة أنهم سيمنعون بداهة كل عمل قد يضر بالعلاقات بين رعايانا بعضهم وبعض .

إن قضاة الأمميين فى الوقت لاحاضر مترخصون [١] مع كل صنوف المجرمين ، إذ ليست لديهم الفكرة الصحيحة لواجبهم، ولسبب بسيط أيضا هو أن الحكام حين يعينون القضاة لا يشددون عليهم في أن يفهموا فكرة ما عليهم من واجب .

إن حكام الأمميين حين يرشحون رعاياهم لمناصب خطيرة لا يتعبون أنفسهم كي يوضحوا لهم خطورة هذه المناصب. والغرض الذي أنشئت من أجله، فهم يعملون كالحيوانات حين ترسل جراءها الساذجة بغية الافتراس. وهكذا تتساقط حكومات الأمميين بدداً على أيدى القائمين بأمورها. إننا سنتخذ نهجًا أدبياً واحداً أعظم، مستنبطاً من نتائج النظام الذى تعارف عليه الأمميون، ونستخدمه فى إصلاح حكومتنا .

وسنستأصل كل الميول التحررية من كل هيئة خطيرة في حكومتنا للدعاية التي قد تعتمد عليها تربية من سيكونون رعايانا. وستكون المناصب الخطيرة مقصورة بلا استثناء على من ربيناهم تربية خاصة للإدارة .

---

(١) الترخص التساهل، وهو مصطلح فقهي، والرخصة ضد العزيمة.

وإذا لوحظ أن إخراجنا موظفينا قبل الأوان في قائمة المتقاعدين قد يثبت أنه يكبد حكومتنا نفقات باهظة ـ إذن فجوابى : إننا، قبل كل شىء ، سنحاول أن نجد مشاغل خاصة لهؤلاء الموظفين لنعوضهم عن مناصبهم فى الخدمة الحكومية. أو جوابى أيضاً أن حكومتنا، على أى حال، ستكون مستحوذة على كل أموال العالم ، فلن تأبه من أجل ذلك بالنفقات.

وستكون أوتوقراطيتنا مكينة فى كل أعمالها، ولذلك فإن كل قرار سيتخذه أمرنا العالى سيقابل بالإجلال والطاعة دون قيد ولا شرط. وسنتنكر لكل نوع من التذمر والسخط، وسنعاقب على كل إشارة تدل على البطر عقاباً بالغاً فى صرامته حتى يتخذه الآخرون لأنفسهم عبرة، وسنلغى حق استئناف الأحكام ، ونقصره على مصلحتنا فحسب. والسبب فى هذا الإلغاء هو أننا يجب علينا ألا نسمح أن تنمو بين الجمهور فكرة أن قضاتنا يحتمل أن يخطئوا فيما يحكمون.

وإذا صدر حكم يستلزم إعادة النظر فسنعزل القاضى الذى أصدره فوراً، ونعاقبه جهراً، حتى لا يتكرر مثل هذا الخطأ فيما بعد.

سأكرر ما قلته من قبل، وهو أن أحد مبادئنا الأساسية هو مراقبة الموظفين الإداريين ، وهذا على الخصوص لإرضاء الأمة ، فإن لها الحق الكامل فى الإصرار على أن يكون للحكومة موظفون إداريون صالحون .

إن حكومتنا ستحيل مظهر الثقة الأبوية Patriarchal فى شخص ملكنا، وستعتده أمتنا ورعايانا فوق الأب الذى يعنى بسد كل حاجاتهم، ويرعى كل أعمالهم، ويرتب جميع معاملات رعاياه بعضهم مع بعض، ومعاملاتهم أيضاً مع الحكومة. وبهذا سينفذ الإحساس بتوقير الملك بعمق بالغ فى الأمة حتى لن تستطيع أن تقدم بغير عنايته وتوجيهه. إنهم لا يستطيعون أن يعيشوا فى سلام إلا به، وسيعترفون فى النهاية به على أنه حاكمهم الأوتوقراطى المطلق.

وسيكون للجمهور هذا الشعور العميق بتوقيره توقيراً يقارب العبادة، وبخاصة حين يقتنعون بأن موظفيه ينفذون أوامره تنفيذاً أعمى، وأنه وحده المسيطر عليهم. إنهم سيفرحون بأن يرونا ننظم حياتهم Our lives كما لو كنا آباء حريصين على تربية أطفالهم

على الشعور المرهف الدقيق بالواجب والطاعة.

وتعتبر سياستنا السرية أن كل الأمم أطفال، وأن حكوماتها كذلك، ويمكنكم أن تروا بأنفسكم أنى أقيم استبدادنا على الحق Right وعلى الواجب Duty . فإن حق الحكومة في الإصرار على أن يؤدى الناس واجبهم هو فى ذاته فرض للحاكم الذى هو أبو رعاياه، وحق السلطة منحة له، لأنه سيقود الإنسانية فى الاتجاه الذى شرعته حقوق الطبيعة أى الاتجاه نحو الطاعة.

إن كل مخلوق فى هذا العالم خاضع لسلطة، إن لم تكن سلطة إنسان فسلطة ظروف، أو سلطة طبيعته الخاصة فهي ـ مهما تكن الحال ـ سلطة شىء أعظم قوة منه، وإذن فلنكن نحن الشىء الأعظم قوة من أجل القضية العامة.

ويجب أن نضحى دون تردد بمثل هؤلاء الأفراد الذين يعتدون على النظام القائم جزاء اعتداءاتهم، لأن حل المشكلة التربوية الكبرى هو فى العقوبة المثلى .

ويوم يضع ملك إسرائيل على رأسه المقدس التاج الذى أهدته له كل أوروبا ـ سيصير البطريرك patriarch لكل العالم.

إن عدد الضحايا الذين سيضطر ملكنا إلى التضحية بهم لن يتجاوز.عدد أولئك الذين ضحي بهم الملوك الأمميون في طلبهم العظمة، وفي منافسة بعضهم بعضاً.

سيكون ملكنا على اتصال وطيد قوى بالناس ، وسيلقى خطباً من فوق المنابر Tribunes وهذه الخطب جميعاً ستذاع فوراً على العالم.

البروتوكول السادس عشر:

رغبة في تدمير أي نوع من المشروعات الجمعية غير مشروعنا ـ سنبيد العمل الجماعى فى مرحلته التمهيدية (١) أى أننا سنغير الجامعات، ونعيد إنشاءها حسب خططنا الخاصة.

وسيكون رؤساء Heads الجامعات وأساتذتها معدين إعداداً خاصاً وسيلته برنامج

---

(١) أى إننا بدل إن نترك الطلبة يتخرجون في الجامعات حاملين الأفكار التى لا تناسبنا فسنضع برامج لها يتلقونها ، فيتخرجون فيها كما نريد لهم وهذا ما يحدث الآن في روسيا الشيوعية اليهودية (انظر كتاب « آثرت الحرية » المترجم إلى العربية) .

عمل سرى متقن سيهذبون ويشكلون بحسبه، ولن يستطيعوا الانحراف عنه بغير عقاب. وسيرشحون بعناية بالغة، ويكونون معتمدين كل الاعتماد على الحكومة Gouvernment وسنحذف من فهرسنا Syllabus كل تعاليم القانون المدنى مثله فى ذلك مثل أى موضوع سياسى آخر. ولن يختار لتعلم هذه العلوم إلا رجال قليل من بين المدرسين، لمواهبهم الممتازة. ولن يسمح للجامعات أن تخرج للعالم فتيانا خضر الشباب ذوى أفكار عن الإصلاحات الدستورية الجديدة، كأنما هذه الإصلاحات مهازل Comedies أو مآس Tragedies ، ولن يسمح للجامعات أيضاً أن تخرج فتياناً ذوى اهتمام من أنفسهم بالمسائل السياسية التى لا يستطيع ولو آباؤهم أن يفهموها.

إن المعرفة الخاطئة للسياسة بين أكداس الناس هو منبع الأفكار الطوباوية utopian ideas وهى التى تجعلهم رعايا فاسدين. وهذا ما تستطيعون أن تروه بأنفسكم في النظام التربوى للأمميين (غير اليهود). وعلينا أن نقدم كل هذه المبادئ فى نظامهم التربوى، كى نتمكن من تحطيم بنيانهم الاجتماعى بنجاح كما قد فعلنا. وحين نستحوذ على السلطة سنبعد من برامج التربية كل المواد التى يمكن أن تمسخ Upset عقول الشباب وسنصنع منهم أطفالاً طيعين يحبون حاكمهم ، ويتبينون فى شخصه الدعامة الرئيسية للسلام والمصلحة العامة.

وسنتقدم بدراسة مشكلات المستقبل بدلاً من الكلاسيكيات Classics وبدراسة التاريخ القديم الذى يشتمل عل مثل Examples سيئة أكثر من اشتماله على مثل حسنة(١)، وسنطمس فى ذاكرة الإنسان العصور الماضية التى قد تكون شؤماً علينا، ولا نترك إلا الحقائق التي ستظهر أخطاء الحكومات فى ألوان قاتمة فاضحة. وتكون في مقدمة برنامجنا التربوي الموضوعات التى تعنى بمشكلات الحياة العملية ، والتنظيم الاجتماعى. وتصرفات كل إنسان مع غيره، وكذلك الخطب التي تشن الغارة على النماذج الأنانية السيئة التى تعدى وتسبب الشر، وكل ما يشبهها من المسائل الأخرى ذات الطابع الفطرى. هذه البرامج ستكون مرتبة بخاصة للطبقات والطوائف المختلفة ، وسيبقى تعليمها

(١) أى أن اليهود سيدرسون يومئذ للشباب صفحات التاريخ السود ليعرفوهم أن الشعوب عندما كانت محكومة بالنظم القديمة كانت حياتها سيئة ولا يدرسون لهم الفترات التي كانت الشعوب فيها سعيدة، لكي يقنعوهم بهذه الدراسة الكاذبة الزائفة أن النظام الجديد أفضل من القديم، وهذا ما يجري في روسيا الآن. وفي كل بلد عقب كل انقلاب سياسي.

منفصلاً بعضها عن بعض بدقة.

وإنه لأعظم خطورة أن نحرص على هذا النظام ذاته. وسيفرض على كل طبقة أو فئة أن تتعلم منفصلة حسب مركزها وعملها الخاصين. إن العبقرية العارضة Chance قد عرفت دائما وستعرف دائما كيف تنفذ إلى طبقة أعلى ، ولكن من أجل هذا العرض الاستثنائى تماماً لا يليق أن نخلط بين الطوائف المختلفة، ولا أن نسمح لمثل هؤلاء الرجال بالنفاذ إلى المراتب العليا، لا لسبب إلا أنهم يستطيعون أن يحتلوا مراكز من ولدوا ليملأوها (١) ؛ وأنتم تعرفون بأنفسكم كيف كان هذا الأمر شؤماً على الأمميين إذ رضخوا للفكرة ذات الحماقة المطلقة القاضية بعدم التفرقة بين الطبقات الاجتماعية.

ولكى ينال ملكنا مكانة وطيدة فى قلوب رعاياه، يتحتم أثناء حكمه أن تتعلم الأمة، سواء فى المدارس والأماكن العامة أهمية نشاطه وفائدة مشروعاته.

إنا سنمحوا كل أنواع التعليم الخاص. وفى أيام العطلات سيكون للطلاب وآبائهم الحق فى حضور اجتماعات فى كلياتهم كما لو كانت هذه الكليات أندية. وسيلقى الأساتذة فى هذه الاجتماعات أحاديث تبدو كأنها خطب حرة فى مسائل معاملات الناس بعضهم بعضاً، وفى القوانين وفى أخطاء الفهم التى هى على العموم نتيجة تصور زائف خاطئ لمركز الناس الاجتماعي. وأخيراً سيعطون دروساً فى النظريات الفلسفية الجديدة التى لم تنشر بعد على عالم. هذه النظريات ستجعلها عقائد للإيمان، متخذين منها مستنداً Stepping - Stone على صدق إيماننا وديانتنا.

وحينما أنتهى من رحلتكم خلال برنامجنا كله ــ وبذلك سنكون قد فرغنا من مناقشة كل خططنا فى الحاضر والمستقبل ــ عندئذ سأتلو عليكم خطة تلك النظريات الفلسفية الجديدة. ونحن نعرف من تجارب قرون كثيرة أن الرجال يعيشون ويهتدون بأفكار وأن الشعب إنما يلقن هذه الأفكار عن طريق التربية التى تمد الرجال فى كل العصور بالنتيجة ذاتها، ولكن بوسائل مختلفة ضرورية. وأننا بالتربية النظامية سنراقب ما قد بقى من ذلك الاستقلال الفكرى الذى تستغله استغلالاً تاما لغايتنا الخاصة منذ زمان مضى. ولقد وضعنا

---

(١) يريدون بذلك اليهود، لاعتقادهم باحتكار السيادة والعبقرية لهم أصلاً من عند الله، فإذا ظهرت لغيرهم، وفي عارضة أو بالمصادفة لا أصيلة ويجب عليهم حربها لأنها خطر عليهم، وإن قوة العبقرية فوق كل قوة.

من قبل نظام إخضاع عقول الناس بما يسمى نظام التربية البرهانيـة [١] Demonstrative education (التعليم بالنظـر) الذى فرض فيه أن يجعـل الأميين غـير قادرين علـى التفكيـر باستقلال وبذلك سينتظرون كالحيوانات الطيعة برهاناً على كل فكرة قبل أن يتمسكوا بها. وإن واحداً من أحسن وكلائنا فى فرنسا وهو بوروى Bouroy واضع النظام الجديد للتربية البرهانية.

البروتوكول السابع عشر :

إن احتـراف القانون تجعـل الناس يشبون باردين قساة عنيدين ، ويجردهم كذلك من كل مبادئهم، ويحملهم على أن ينظروا إلى الحياة نظرة غير إنسانية بل قانونية محضة. إنهم صاروا معتادين أن يروا الوقائع ظاهرة من وجهة النظر إلى ما يمكن كسبه من الدفاع، لا من وجهة النظر إلى الأثر الذى يمكن أن يكون لمثل هذا الدفاع فى السعادة العامة.

لا محامى يرفض أبداً الدفاع عن أى قضية، أنه سيحاول الحصول على البراءة بكل الأثمان بالتمسك بالنقط الاحتيالية Tricky الصغيرة فى التشريع jurisprudence وبهذه الوسائل سيفسد ذمة المحكمة.

ولذلك سنجد نطاق عمل هذه المهنة، وسنضع المحامين على قدم المساواة On Afooting مع الموظفين المنفذين Executive والمحامون ـ مثلهم مثل القضاة ـ لن يكون لهم الحق فى أن يقابلوا عملاءهم [٢] Clents ولن يتسلموا منهم مذكراتهم إلا حينما يعينون لهم من قبل المحكمة القانونية، وسيدرسون مذكرات عن عملائهم بعد أن تكون

---

(١) المراد بالتربية البرهانية أو التعليم بالنظر، تعليم الناس الحقائق عن طريق البراهين النظرية والمناقشات الفكرية، والمضاربات الذهنية لا التعليم من طريق ملاحظة الأمثلة وإجراء التجارب عليها للوصول إلى الحقائق أو القواعد العامة. والتربية فى أكثر مدارسنا برهانية تهتم بإثبات الحقيقة بالبرهان النظرى عليها ، ومن شأن هذه الطريقة إن تفقد الإنسان ملكة الملاحظة الصادقة، والاستقلال فى إدراك الحقائق، وفهم الفروق الكبيرة أو الصغيرة بين الأشياء المتشابهة ظاهراً. وهى على العكس من طريقة التربية بالمشاهدة والملاحظة والتجربة ودراسة الجزئيات ، وهذه الطريقة الأخيرة تعود الإنسان على حسن الملاحظة والاستقلال الفكرى والتميز الصحيح بين الأشياء والتربية البرهانية غالبا استدلالية، والثانية غالباً إستقرائية تجريبية. ولم تتقدم العلوم وتنكشف الحقائق منذ عصر النهضة إلا باتباع الطريقة الاستقرائية التجريبية. وضرر التربية البرهانية أكثر من نفعها، فهى تمسح العقل وتمد له فى الغرور والعمى والكسل والتواكل.

(٢) العملاء نسميهم فى مصر « الزباين » .

النيابة قد حققت معهم، مؤسسين دفاعهم عن عملائهم على نتيجة هذا التحقيق (١) وسيكون أجرهم محدوداً دون اعتبار بما إذا كان الدفاع ناجحاً. أم غير ناجح إنهم سيكونون مقررين بسطاء لمصلحة العدالة، معادلين النائب الذى سيكون مقرراً لمصلحة النيابة.

وهكذا سنختصر الإجراءات القانونية اختصاراً يستحق الاعتبار. وبهذه الوسائل سنصل أيضاً إلى دفاع غير متعصب، ولا منقاد للمنافع المادية، بل ناشئ عن اقتناع المحامى الشخصى. كما ستفيد هذه الوسائل أيضاً فى وضع حد لأى رشوة أو فساد يمكن أن يقعا اليوم فى المحاكم القانونية فى بعض البلاد.

وقد عنينا عناية عظيمة بالحط من كرامة رجال الدين Clergy من الأمميين (غير اليهود) فى أعين الناس، وبذلك نجحنا فى الإضرار برسالتهم التى كان يمكن أن تكون عقبة كئوداً فى طريقنا. وإن نفوذ رجال الدين على الناس ليتضاءل يوماً فيوماً.

اليوم تسود حرية العقيدة فى كل مكان (٢)، ولن يطول الوقت إلا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحية بدداً انهياراً تاماً. وسيبقى ما هو أيسر علينا للتصرف مع الديانات الأخرى (٣)، على أن مناقشة هذه النقطة أمر سابق جداً لأوانه.

سنقصر رجال الدين وتعاليمهم له على جانب صغيراً من الحياة، وسيكون تأثيرهم وبيلاً سيئا على الناس حتى أن تعاليمهم سيكون لها أثر مناقض للأثر الذى جرت العادة بأن يكون لها.

حينما يحين لنا الوقت كى نحطم البلاط البابوى the papal court تحطيماً تاماً فإن يداً مجهولة، مشيرة إلى الفاتيكان the vatican ستعطى إشارة الهجوم. وحينما يقذف

---

(١) هذا هو النظام المتبع فى روسيا الشيوعية (انظر كتاب «آثرت الحرية»).

(٢) يجتهد اليهود فى تشكيك الناس فى الديانات عن طريق النقد الحر وعلم مقارنة الأديان، وحرية العقيدة والحط من كرامة رجال الأديان وهم يحافظون على بقائها حتى تفسد فسادا تاماً نهائياً، فيصير أتباعها ملحدين.. والإلحاد هو الخطوة الأولى التى تليها خطوة حمل الناس على الإيمان بصحة الديانة اليهودية وحدها. القاضية بأن اليهود شعب الله المختار للسيادة على العالم واستعباد من عداهم من البشر، وإلههم لا يسمح لغيرهم باعتناق اليهودية فيما يرون.

(٣) إن استطاع اليهود القضاء على المسيحية كان قضاؤهم على الديانات الأخرى أيسر، لأن اتباع المسيحية أكثر عدداً وأعظم قوة، وهم لذلك يختصونها بالجانب الأكبر من حربهم، وهم يهدفون إلى تنصيب بابوات الكنائس المسيحية من مسيحيين أصلهم يهود.

الناس، أثناء هيجانهم، بأنفسهم على الفاتيكان سنظهر نحن كحماة له لوقف المذابح. وبهذا العمل سننفذ إلى أعماق قلب هذا البلاط، وحينئذ لن يكون لقوة على وجه الأرض أن تخرجنا منه حتى نكون قد دمرنا السلطة البابوية إن ملك إسرائيل سيصير البابا Pope الحق للعالم، بطريرك patrick الكنيسة الدولية.

ولن نهاجم الكنائس القائمة الآن حتى تتم إعادة تعليم الشباب عن طريق عقائد مؤقتة جديدة، ثم عن طريق عقيدتنا الخاصة بل سنحاربها عن النقد Criticisim الذى كان وسيظل ينشر الخلافات بينها. وبالإجمال ، ستفضح صحافتنا الحكومات والهيئات الأممية الدينية وغيرها، عن طريق كل أنواع المقالات البذيئة Unscrupulous لنخزيها ونحط من قدرها إلى مدى بعيد لا تستطيعه إلا أمتنا الحكيمة.

إن حكومتنا ستشبه الإله الهندى فشنو Vishnu وكل يد من أيديها المائة ستقبض على لولب فى الجهاز الاجتماعى للدولة.

إننا سنعرف كل شىء بدون مساعدة البوليس الرسمى، الذى بلغ من إفسادنا إياه على الأمميين أنه لا الحكومة، إلا فى أن يحجبها عن رؤية الحقائق الواقعية. وسيستميل برنامجنا فريقاً ثالثاً من الشعب مراقبة ينبغى من إحساس خالص بالواجب ومن مبدأ الخدمة الحكومية الاختيارية(١) .

ويومئذ لن يعتد التجسس عملا شائنا، بل على العكس من ذلك سينظر إليه كأنه عمل محمود. ومن الجهة الأخرى سيعاقب مقدمو البلاغات Report الكاذبة عقابًا صارمًا حتى يكف أصحاب البلاغات عن استعمال حصانتهم استعمالاً سيئاً .

وسيختار وكلاؤنا Agents من بين الطبقات العليا والدنيا على السواء، وسيتخذون من بين الإداريين والمحررين الطابعين، وباعة الكتب والكتبةClerks والعمال، والحوذية ،

---

(١) المعنى أن اليهود سيستعينون ببوليس سرى آخر غير الرسمى كما يفعلون فى روسيا الآن.وأعضاؤه من جميع أصناف الشعب، منهم الحوذية والمدرسون والمحامون وكبار الموظفين والخدم والطلبة والبغايا، كما أن أفراد الأسرة يتجسس بعضهم على بعض وكذلك المشتركون فى عمل واحد، وهؤلاء الجواسيس ليسوا موظفين فى البوليس وإن كانوا من أفراده، ومن طبقة هؤلاء الجواسيس الرقباء . القضاء على كل ما فى سريرة الإنسان الفاضل من ضمير وإحساس بالواجب، وحب للوطن، وميل إلى الخير ـ ما دام ذلك ضد مصلحة اليهود، ويشبه ذلك فى مصر بعض الشبه ما كان يسمى «البوليس السياسى» وفى ألمانيا نظام «الجستابو» ويمثل ذلك أقوى تمثيل نظام الجاسوسية الداخلى فى روسيا الآن (انظر كتاب «آثرت الحرية»).

والخدم وأمثالهم، وهذه القوة البوليسية لن تكون لها سلطة تنفيذية مستقلة، ولن يكون لها حق اتخاذ إجراءات حسب رغباتها الخاصة، وإذن فسينحصر واجب هذا البوليس الذى لا نفوذ له انحصاراً تاماً فى العمل كشهود، وفى تقديم بلاغاتReports وسيعتمد فى فحص بلاغاتهم ومضبوطاتهم الفعلية على فرقة من مفتشى البوليس المسؤولين وسيجرى فحص مضبوطاتهم الفعلية على أيدى «الجندرمة » Gendarmes وبوليس المدينة. وإذا حدث تقصير فى تبليغ أى مخالفة Misdemeanour تتعلق بالأمور السياسية فإن الشخص إذا كان ممكنا إثبات أنه مجرم بمثل هذا الإخفاء. وعلى مثل هذه الطريقة يجب أن يتصرف إخواننا الآن، أى أن يشرعوا بأنفسهم لإبلاغ السلطة المختصة عن كل المتنكرين للعقيدة Apostates [1] وعن كل الأعمال التى تخالف قانوننا. وهكذا يكون واجب رعايانا فى حكومتنا العالمية Universal Gouvernment أن يخدموا حاكمهم باتباع الأسلوب السابق الذكر:

إن تنظيما كهذا سيستأصل كل استعمال سىء للسلطة، والأنواع المختلفة للرشوة والفساد ــ أنه سيجرف فى الواقع كل الأفكار التى لوثنا بها حياة الأمميين عن طريق نظرياتنا فى الحقوق البشرية الراقية Superhuman Right .

وكيف استطعنا أن نحقق هدفنا لخلق الفوضى فى الهيئات الإدارية للأمميين إلا ببعض أمثال هذه الوسائل؟.

ومن الوسائل العظيمة الخطرة لإفساد هيئاتهم، أن نسخر وكلاء ذوى مراكز عالية يلوثون غيرهم خلال نشاطهم الهدام: بأن يكشفوا وينموا ميولهم الفاسدة الخاصة: كالميل إلى إساءة استعمال السلطة والانطلاق فى استعمال الرشوة.

البروتوكول الثامن عشر:

حينما يتاح لنا الوقت كى نتخذ إجراءات بوليسية خاصة بأن نفرض قهراً نظام «أكهرانا » Okhrana الروسى الحاضر (أشد السموم خطراً على هيبة الدولة) ــ حينئذ

---

(١) المعنى أن جواسيسنا سيبلغوننا أخبار كل إنسان يرتد عن نظامنا ومبادئنا، وكل ما يدل على نفوره منها أو تمرده عليها. وهكذا تفعل روسيا مع سكانها، فتعاقب بالنفى أو القتل أو السجن كل من تبدو منه إشارة أو كلمة أو عمل تشم منه رائحة تنكر للنظام الشيوعى اليهودى. أو عدم الولاء الأعمى له. (انظر كتاب «آثرت الحرية»).

سنثير اضطرابات تهكمية بين الشعب، أو نغريه باظهار السخط المعطل Protra cted وهذا يحدث بمساعدة الخطباء البلغاء. إن هؤلاء الخطباء سيجدون كثيراً من الأشياع -Sympa thisers (١) ، وبذلك يعطوننا حجة لتفتيش بيوت الناس، ووضعهم تحت قيود خاصة، مستغلين خدمنا بين بوليس الأمميين.

وإذ أن المتآمرين مدفوعون بحبهم هذا الفن: فن التآمر، وحبهم الثرثرة ـ فلن نمسهم حتى نراهم على أهبة المضى فى العمل. وسنقتصر على أن نقدم من بينهم ـ من أجل الكلام ـ عنصراً إخباريا Reporting element ويجب أن نذكر أن السلطة تفقد هيبتها فى كل مرة تكتشف فيها مؤامرة شعبية ضدها. فمثل هذا الاكتشاف يوحى إلى الأذهان أن تحدس وتؤمن بضعف السلطة، وبما هو أشد خطراً من ذلك. وهو الاعتراف بأخطائها. يجب أن نعرف أننا دمرنا هيبة الأمميين الحاكمين متوسلين بعدد من الاغتيالات الفردية التى أنجزها وكلاؤنا: وهم خرفان قطيعنا العميان الذين يمكن بسهولة إغراؤهم بأى جريمة، ما دامت هذه الجريمة ذات طابع سياسى (٢) .

إننا سنكره الحاكمين على الاعتراف بضعفهم بأن يتخذوا علانية. إجراءات بوليسية خاصة «أكهرانا Okhrana » وبهذا سنزعزع هيبة سلطتهم الخاصة.

وإن ملكنا سيكون محميا بحرس سرى جداً. إذ لن نسمح لإنسان أن يظن أن تقوم

---

(١) أى من يشاركونهم مشاركة وجدانية فى إحساساتهم ونزعاتهم ..

(٢) تفرق فى الأمم لا سيما الديمقراطية بين الجريمتين العادية والسياسية إطلاقاً. فيترخص مع الثانية فى العقاب دون الأولى.

والحق أن التفرقة بينهما من أعوص المشكلات وأدقها أمام رجال القانون فقهاء وقضاة ومحامون وغيرهم. ومن الواجب التفرقة بين العادية الخالصة والعادية ذات الطابع السياسى، والسياسية الخالصة، فقد تظهر الجريمة سياسية وليس لها من السياسة إلا الطابع لا الجوهر، وإن اتخاذها الصورة السياسية يهون على صاحبها ارتكابها. إذ يجعله فى نظر نفسه ونظر الناس بطلاً، بينما هو فى دخيلته إنسان ممسوخ الطبيعة ملتوى العقل، شرير بفطرته، وإن إجرامه كامن يكفى أن يهيجه فيه أن الجريمة سياسية الطابع ولا بأس بالترخص مع الجريمة السياسية عنصراً وطابعاً يرتكبها إنسان فاضل تكرهه الظروف إكراهاً على ارتكابها وهو فى ذاته أريحى كريم نبيل الدوافع أولا، ومسوغ لغاية بعد ذلك.

والأمر الذى يجب أن يدرس أولاً هو الدوافع ثم الغاية، لأن الدوافع لا الغايات هى محركات الحياة ورب جريمة يفلت المجرم فيها من العقاب وهومجرم بفطرته، لأنه يرتكبها باسم العدل أو باسم المحافظة على الأمن أو نحو ذلك، كما فعل عبيد الله بن زياد وأعوانه مع الحسين. وكما يفعل كثير من أولى الأمر مع المحكومين فى بعض البلاد. منذ قام الحكم بين الناس، وكذلك يفعل كثير من المدرسين أو الآباء من الصغار، ونحو ذلك.

ضد حاكمنا مؤامرة لا يستطيع هو شخصيا أن يدمرها فيضطر خائفا إلى إخفاء نفسه منها. فإذا سمحنا بقيام هذه الفكرة ـ كما هى سائدة بين الأمميين ـ فإننا بهذا سنوقع صك الموت لملكنا: إن لم يكن موته هو نفسه فموت دولته Dynasty [(١)] .

وبالملاحظة الدقيقة للمظاهر سيستخدم ملكنا سلطته لمصلحة الأمة فحسب ، لا لمصلحته هو ولا لمصلحة دولته Dynasty .

وبالتزامه مثل هذا الأدب سيمجده رعاياه ويفدونه بأنفسهم إنهم سيقدسون سلطة الملك Sovereign مدركين أن سعادة الأمة منوطة بهذه السلطة «لأنها عماد النظام العام».

إن حراسة الملك جهاراً تساوى الاعتراف بضعف قوته.

وإن حاكمنا سيكون دائما وسط شعبه. وسيظهر محفوفاً بجمهور مستطلع من الرجال والنساء يشغلون بالمصادفة ـ دائماً حسب الظاهر ـ أقرب الصفوف إليه[(٢)] مبعدين بذلك عنه الرعاع، بحجة حفظ النظام من أجل النظام فحسب.. وهذا المثل سيعلم الآخرين محاولة ضبط النفس. وإذا وجد صاحب ملتمس بين الناس يحاول أن يسلم الملك ملتمساً، ويندفع خلال الغوغاء، فإن الناس الذين فى الصفوف الأولى سيأخذون ملتمسه، وسيعرضونه على الملك فى حضور صاحب الملتمس لكى يعرف كل إنسان بعد ذلك إن كل الملتمسات تصل الملك، وأنه هو نفسه يصرف كل الأمور. ولكى تبقى هيبة السلطة يجب أن تبلغ منزلتها من الثقة إلى حد أن يستطيع الناس أن يقولوا فيما بين أنفسهم: «لو أن الملك يعرفه فحسب » أو «حينما يعرفه الملك» [(٣)] .

إن الصوفية Myticism التى تحيط بشخص الملك تتلاشى بمجرد أن يرى حرس من البوليس موضوع حوله. فحين يستخدم مثل هذا الحرس فليس على أى مغتال assassin

(١) استعملنا كلمة الدولة كما يقال فى التاريخ: الدولة الأموية، والدولة العباسية والدولة الفاطمية، فليس المراد بالدولة رقعة الأرض المحكومة أو الناس عليها لكن سلسلة الحاكمين المنتسبين إلى أمية أو العباس أو فاطمة ولولا أن كلمة خلافة خاصة بالحكم الإسلامى لكانت أولى بالاستعمال مقابل كلمة dynasty.

(٢) أى هذا الحرس سيكون سرياً لا يحمل شارات تدل عليه فتسير حول الملك فى سيره وكأن الملك بلا حرس بين رعيته. فيعتقد الناس الذين يجهلون هذا السر أن الملك بلغ من ثقته بالشعب ومن حب الشعب إياه أنه لا يخاف من سيره بين رعيته مجرداً من الحراس.

(٣) المعنى إن الناس سيقولون: لو أن الملك يعرف هذا الضرر المشكو منه لما وافق عليه أو لعاقب عليه إذا كان قد جرى وحاول إزالة آثاره الضارة، حينما يعرف الملك هذا الأمر سيعمل لما فيه الخير والمصلحة من وجهة نظر صاحبه.

إلا أن يجرب قدراً معينا من الوقاحة، والطيش كى يتصور نفسه أقوى من الحرس، فيحقق بذلك مقدرته، وليس عليه بعد ذلك إلا أن يترقب اللحظة التى يستطيع فيها القيام بهجوم على القوة المذكورة.

إننا لا ننصح الاممين (غير اليهود) بهذا المذهب. وأنتم تستطيعون أن تروا بأنفسكم النتائج التى أدى إليها اتخاذ الحرس العلنى.

إن حكومتنا ستعتقل الناس الذين يمكن أن تتوهم منهم الجرائم السياسية توهماً عن صواب كثير أو قليل. إذ ليس أمرا مرغوبا فيه أن يعطى رجل فرصة الهرب مع قيام مثل هذه الشبهات خوفاً من الخطأ فى الحكم.

ونحن فعلاً لن نظهر عطفاً لهؤلاء المجرمين. وقد يكون ممكناً فى حالات معينة أن نعتد بالظروف المخففة Attenuating circumstances عند التصرف فى الجنح Offences الإجرامية العادية ولكن لا ترخص ولا تساهل مع الجريمة السياسية، أى ترخص مع الرجال حين يصيرون منغمسين فى السياسة التى لن يفهمها أحد إلا الملك، وإنه من الحق أنه ليس كل الحاكمين قادرين على فهم السياسة الصحيحة.

البروتوكول التاسع عشر:

إننا سنحرم على الأفراد أن يصيروا منغمسين فى السياسة، ولكننا من جهة أخرى، سنشجع كل نوع لتبليغ الاقتراحات أو عرضها ما دامت تعمل على تحسين الحياة الاجتماعية والقومية كى توافق عليها الحكومة وبهذه الوسيلة إذن سنعرف أخطاء حكومتنا والمثل العليا لرعايانا وسنجيب على هذه الاقتراحات إما بقبولها، وإما بتقديم حجة قوية ـ إذا لم تكن مقنعة ـ للتدليل على أنها مستحيلة التحقيق، ومؤسسة على تصوير قصير النظر للأمور.

إن الثورة Sedition ليست أكثر من نباح كلب على فيل، ففى الحكومة المنظمة تنظيماً حسناً من وجهة النظر الاجتماعية لا من وجهة النظر إلى بوليسها، ينبح الكلب على الفيل (١) من غير أن يحقق قدرته. وليس على الفيل إلا أن يظهر قدرته بمثل واحد متقن حتى تكف الكلاب عن النباح، وتشرع فى البصبصة (٢) بأذنابها عندما ترى الفيل.

(١) نبح الكلب الفيل ونبح عليه سواء

(٢) بصبص الكلب إذا حرك ذنبه لإظهار خضوعه أو نحو ذلك.

ولكى ننزع عن المجرم السياسى تاج شجاعته سنضعه فى مراتب المجرمين الآخرين بحيث يستوى مع اللصوص والقتلة والأنواع الأخرى من الأشرار المنبوذين المكروهين.

وعندئذ سينظر الرأى العام عقلياً إلى الجرائم السياسية فى الضوء ذاته الذى ينظر فيه إلى الجرائم العادية، وسيصمها وصمة العار والخزى التى يصم بها الجرائم العادية بلا تفريق.

وقد بذلنا أقصى جهدنا لصد الأمميين على اختيار هذا المنهج الفريد فى معاملة الجرائم السياسية. ولكى نصل إلى هذه الغاية ـ استخدمنا الصحافة، والخطابة العامة، وكتب التاريخ المدرسية الممحصة بمهارة، وأوحينا إليهم بفكرة أن القاتل السياسى شهيد، لأنه مات من أجل فكرة السعادة الإنسانية. وأن مثل هذا الاعلان قد ضاعف عدد المتمردين، وانفتحت طبقات وكلائنا بآلاف من الأمميين.

البروتوكول العشرون:

سأتكلم اليوم فى برنامجنا المالى الذى تركته إلى نهاية تقريرى. لأنه أشد المسائل عسراً، ولأنه يكون المقطع النهائى فى خططنا. وقبل أن أناقش هذه النقطة سأذكركم بما أشرت من قبل إليه، وأعنى بذلك أن سياستنا العامة متوقفة على مسألة أرقام.

حين نصل إلى السلطة فإن حكومتنا الأوتوقراطية ـ من أجل مصلحتها الذاتية ـ ستتجنب فرض ضرائب ثقيلة على الجمهور. وستتذكر دائما ذلك الدور الذى ينبغى أن تلعبه، وأعنى به دور الحامى الأبوى.

ولكن ما دام تنظيم الحكومة سيتطلب كميات كبيرة من المال فمن الضرورى أن تتهيأ الوسائل اللازمة للحصول عليه، ولذلك يجب أن نحاول بحرص عظيم بحث هذه المسألة، وأن نرى أن عبء الضرائب موزع بالقسط.

وبحيلة وفق القانون ـ سيكون حاكمنا مالكا لكل أملاك الدولة (وهذا بوضوح موضع التنفيذ بسهوله). وسيكون قادرا على زيادة مقادير المال التى ربما تكون ضرورية لتنظيم تداول العملة فى البلاد.

ومن هنا سيكون فرض ضرائب تصاعدية على الأملاك وهو خير الوسائل لمواجهة التكاليف الحكومية، وهكذا تدفع الضرائب دون أن ترهق الناس ودون أن يفلسوا، وأن

الكمية التى ستفرض عليها الضريبة ستتوقف على كل ملكيه فردية.

ويجب أن يفهم الأغنياء أن واجبهم هو التخلى للحكومة عن جانب من ثروتهم الزائدة. لأن الحكومة تضمن لهم تأمين حيازة ما تبقى من أملاكهم، وتمنحهم حق كسب المال بوسائل نزيهة Honest وأنا أقول نزيهة، لأن إدارة الأملاك ستمنع السرقة على أسس قانونية.

هذا الإصلاح الاجتماعى يجب أن يكون فى طليعة برنامجنا، كما أنه الضمان الأساسى للسلام. فلن يحتمل التأخير لذلك.

إن فرض الضرائب على الفقراء هو أصل كل الثروات، وهو يعود بخسارة كبيرة على الحكومة، وحين تحاول الحكومة زيادة المال على الفقراء تفقد فرصة الحصول عليه من الأغنياء.

إن فرض الضرائب على رءوس الأموال يقلل من زيادة الثروة فى الأيدى الخاصة التى سمحنا لها بتكديسها ـ مغرضين ـ حتى تعمل كمعادل لحكومات الأميين ومالياتهم.

إن الضرائب التصاعدية المفروضة على نصيب الفرد ستجبى دخلا أكبر من نظام الضرائب الحالى الحاضر (١٩٠١) الذى يستوى فيه كل الناس. وهذا النظام فى الوقت الحاضر ضرورى لنا، لأنه يخلق النقمة والسخط بين الأمميين (*) .

إن قوة ملكنا ستقوم أساسيا على حقيقة أنه سيكون ضمانا للتوازن الدولى والسلام الدائم للعالم، وسيكون على رؤوس الأموال أن تتخلى عن ثرواتها لتحفظ الحكومة فى نشاطها.

إن النفقات الحكومية يجب أن يدفعها من هم أقدر على دفعها، ومن يمكن أن تزاد عليهم الأموال .

مثل هذا الإجراء سيوقف الحقد من جانب الطبقات الفقيرة على الأغنياء الذين سيعتدون الدعامة المالية الضرورية للحكومة، وسترى هذه الطبقات أن الأغنياء هم حماة السلام والسعادة العامة، لأن الطبقات الفقيرة ستفهم أن الأغنياء ينفقون على وسائل إعدادها للمنافع الاجتماعية.

(*) لاحظ أن هذا الخطاب قد نشر سنة ١٩٠١ (عن الأصل الإنجليزى).

ولكيلا تبالغ الطبقات الذكية، أى دافعوا الضرائب، فى الشكوى من نظام الضرائب الجديد، ــ سنقدم لهم كشوفا تفصيلية توضح طريق إنفاق أموالهم، ويستثنى منها بالضرورة الجانب الذى ينفق على حاجات الملك الخاصة ومطالب الإدارة.

ولن يكون للملك ملك شخصى، فإن كل شيء فى الدولة سيكون ملكا له، إذ لو سمح للملك بحيازة ملك خاص فسيظهر كما لو كانت كل أملاك الدولة غير مملوكة له.

وأقارب الملك ــ إلا وارثه الذى ستتحمل الحكومة نفقاته ــ سيكون عليهم كلهم أن يعملوا موظفين حكوميين ، أو يعملوا عملا آخر لينالوا حق امتلاك الثروة ، ولن يؤهلهم امتيازهم بأنهم من الدم الملكى، لأن يعيشوا عالة على نفقة الدولة.

وستكون هناك ضرائب دمغة تصاعدية على المبيعات والمشتريات، مثلها مثل ضرائب التركات death duties وأن أى انتقال للملكية بغير الدمغة المطلوبة سيعد غير قانونى . وسيجبر المالك السابق former على أن يدفع عمالة بنسبة مئوية percentage على الضريبة من تاريخ البيع .

ويجب أن نسلم مستندات التحويل (للملكية) أسبوعيا إلى مراقبى الضرائب المحليين local مصحوبة ببلاغ عن الاسم واللقب surname لكل من المالكين الجديد والسابق ، والعنوان الثابت لكل منهما أيضا .

إن مثل هذا الإجراء سيكون ضروريا من أجل المعاملات المالية حين تزيد على مقدار معين، أعنى حين تزيد على مقدار يعادل متوسط النفقات اليومية الضرورية الأولية prime وسيكون بيع الأشياء الضرورية مدموغا stambed بضريبة دمغة محدودة عادية.

ويكفى أن تحسبوا أنتم كم ضعفا سيزيد به مقدار هذه الضرائب على دخل حكومات الأممين .

إن الدولة لا بد لها من أن تحتفظ فى الاحتياطى بمقدار معين من رأس المال، وإذا زاد الدخل من الضرائب على هذا المبلغ المحدود فسترد الدخول الفائضة الى التداول. وهذه المبالغ الفائضة ستنفق على تنظيم أنواع شتى من الأعمال العامة.

وسيوكل توجيه هذه الأعمال إلى هيئة حكومية. وبذلك ستكون مصالح الطبقات

مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصالح الحكومات ومصالح ملكهم، وسيرصد كذلك جزء من المال الفائض للمكافآت على الاختراعات والإنتاجات.

ومن ألزم الضروريات عدم السماح للعملة currency بأن توضع دون نشاط فى بنك الدولة إذا جاوزت مبلغا معينا ربما يكون القصد منه غرضا خاصا. إذ أن العملة وجدت للتداول. وأن أى تكديس للمال ذو أثر حيوى فى أمور الدولة على الدوام. لأن المال يعمل عمل الزيت فى جهاز الدولة، فلو صار الزيت عائقا إذن لتوقف عمل الجهاز.

وما وقع من جراء استبدال السندات بجزء كبير من العملة قد خلق الآن تضخما يشبه ما وصفناه تماما. ونتائج هذه الواقعة فد صارت واضحة وضوحا كافيا.

وكذلك سننشئ هيئة للمحاسبة. كى تمكن الملك من أن يلتقى فى أى وقت حسابا كاملا لخرج Expenditure الحكومة ودخلها. وستحفظ كل التقريرات بدقة وجزم إلى هذا التاريخ ما عدا تقريرات الشهر الجارى والمتقدم.

والشخص الوحيد الذى لن تكون له مصلحة فى سرقة بنك الدولة، سيكون هو مالكه، وأعنى به الملك، ولهذا السبب ستقف سيطرته كل احتمال للإسراف أو النفقة غير الضرورية. وإن المقابلات يمليها أدب السلوك ـ وهى مضيعة لوقت الملك الثمين ـ ستكون معدومة، لكى تتاح له فرصة عظمى للنظر فى شئون الدولة. ولن يكون الملك فى حكومتنا محوطا بالحاشية الذين يرقصون عادة في خدمة الملك من أجل الأبهة، ولا يهتمون إلا بأمورهم الخاصة مبتعدين جانبا عن العمل لسعادة الدولة (١).

إن الأزمات الاقتصادية التى دبرناها بنجاح باهر فى البلاد الأممية ـ قد أنجزت عن طريق سحب العملة من التداول، فتراكمت ثروات ضخمة، وسحب المال من الحكومة التى اضطرت بدورها إلى الاستنجاد بملاك هذه الثروات لإصدار قروض. ولقد وضعت هذه القروض على الحكومات أعباء ثقيلة اضطرتها الى دفع فوائد المال المقترض مكبلة بذلك أيديها.

---

(١) من المؤسف أن كثيرا من الحكام فى الأمم المتأخرة يحوطون بأمثال هذه الحاشية من الإمعات والانتهازيين الذين لا تهمهم إلا مصالحهم الذاتية. مثلهم مثل كلاب الصيد التى لا يهمها لمصلحتها إلا إرضاء سادتها، وليسوا على شيء من قوه الخلق ولا المقدرة السياسية، ولا الإخلاص للمصلحة العامة ولامصلحة سادتهم الحقيقية المرتبطة بمصلحة شعوبهم.

وإن تركز الإنتاج فى أيدى الرأسمالية قد امتص قوة الناس الإنتاجية حتى جفت، وامتص معها أيضا ثروة الدولة.

والعملة المتداولة فى الوقت الحاضر لا تستطيع أن تفى بمطالب الطبقات العاملة، إذ ليست كافية للإحاطة بهم وإرضائهم جميعا.

إن إصدار العملة يجب أن يساير نمو السكان ، ويجب أن يعد الأطفال مستهلكى عملة منذ أول يوم يولدون فيه. وإن تنقيح العملة حينا فحينا مسألة حيوية للعالم أجمع.

وأظنكم تعرفون أن العملة الذهبية كانت الدمار للدول التى سارت عليها، لأنها لم تستطع أن تفى بمطالب السكان. ولأننا فوق ذلك قد بذلنا أقصى جهدنا لتكديسها وسحبها من التداول.

إن حكومتنا ستكون لها عملة قائمة على قوة العمل فى البلاد، وستكون من الورق أو حتى من الخشب.

وسنصدر عملة كافية لكل فرد من رعايانا، مضيفين الى هذا المقدار عند ميلاد كل طفل، ومنقصين منه عند وفاة كل شخص.

وستقوم على الحسابات الحكومية حكومات محلية منفصلة ومكاتب إقليمية (ريفية).

ولكيلا تحدث مماطلات فى دفع الأموال المستحقة للحكومة سيصدر الحاكم نفسه أوامر عن مدة هذه المبالغ، وبهذا ستنتهى المحاباة التى تظهرها أحيانا وزارات المالية نحو هيئات معينة [١] .

ستحفظ حسابات الدخل والخرج معا، لكى يمكن دائما مقارنة كل منهما بالأخرى.

والخطط التى سنتخذها لإصلاح المؤسسات المالية للأممين ستقوم بأسلوب لن يمكن أن يلحظوه. فسنشير إلى ضرورة الإصلاحات التى تتطلبها الحالة الفوضوية التى

---

(١) من المؤسف أن بعض الحكومات تحتمل مماطلة كثير من الرأسماليين الأغنياء فى دفع الضرائب المفروضة عليهم حتى تضيع بمضى المدة، أو تصالحهم على دفع جزء منها وترك جزء على حين أنها تتشدد فى معاملة الصغار وربما يكون دفع الصغار الضريبة المطلوبة كافيا لتعطيل عملهم أو إفلاسهم وخراب بيوتهم.

بلغتها الماليات الأممية. وسنبين أن السبب الأول لهذه الحالات السيئة للمالية يكمن فى حقيقة أنهم يبدأون السنة المالية بعمل تقدير تقريبى للميزانية الحكومية، وأن مقدارها يزداد سنة فسنة للسبب التالى: وهو أن الميزانية الحكومية السنوية تستمر متأخرة حتى نهاية نصف السنة، وعندئذ تقدم ميزانية منقحة، ينفق مالها بعامة فى ثلاثة أشهر، وبعد ذلك يصوت لميزانية جديدة، وفى نهاية السنة تقرر حسابات بتصفية الميزانية. إن الميزانية لسنة واحدة تقوم على جملة النفقة المتحصلة فى السنة السابقة، وعلى ذلك فهناك عجز فى كل سنة نحو خمسين من مائة من المبلغ الاسمى فتضاعف الميزانية السنوية بعد عشر سنوات ثلاثة أضعاف. وبفضل هذا الإجراء الذى اتبعته الحكومات الأممية الغافلة استنفذت أموالهم الاحتياطية عندما حلت مواعيد الديون، وفرغت بنوك دولتهم (١) وجذبتهم الى حافة الإفلاس.

وسوف تفهمون سريعا أن مثل هذه السياسة للأمور المالية التى أغرينا الأميين باتباعها، لا يمكن أن تكون ملائمة لحكومتنا.

إن كل فرض ليبرهن على ضعف الحكومة وخيبتها فى فهم حقوقها التي لها. وكل دين ــ كأنه سيف داميوكليز Damocles ــ يعلق على رؤوس الحاكمين الذين يأتون إلى أصحاب البنوك Bankers منا وقبعاتهم فى أيديهم، بدلا من دفع مبالغ معينة مباشرة عن الأمة بطريقة الضرائب الوقتية.

إن القروض الخارجية مثل العلق الذى لا يمكن فصله من جسم الحكومة حتى يقع من تلقاء نفسه، أو حتى تتدبر الحكومة كى تطرحه عنها، ولكن حكومات الأمميين لا ترغب فى أن تطرح عنها هذا العلق، بل هى ذلك. فإنها تزيد عدده، وبعد ذلك كتب على دولتهم أن تموت قصاصا من نفسها بفقد الدم. فماذا يكون القرض الخارجى إلا أنه علقة؟ القرض هو إصدار أوراق حكومية توجب التزام دفع فائدة تبلغ نسبة مئوية من المبلغ الكلى للمال المقترض.فإذا كان القرض بفائدة قدرها خمسة من مائة، ففى عشرين سنة ستكون الحكومة قد دفعت بلا ضرورة مبلغا يعادل القرض لكى تغطى النسبة المئوية. وفى أربعين سنة ستكون قد دفعت ضعفين، وفى ستين سنة ثلاثة أضعاف المقدار، ولكن القرض سيبقى ثابتا كأنه دين لم يسدد.

---

(١) أى ما يسمى بنك الدولة، لا البنوك الآخرى الموجودة فى الدولة.

ثابت من هذه الإحصائية أن هذه القروض تحت نظام الضرائب الحاضرة (١٩٠١) تستنفذ آخر المليمات النهائية (١) من دافع الضرائب الفقير، كى تدفع فوائد للرأسماليين الأجانب الذين اقترضت الدولة منهم المال، بدلا من جمع الكمية الضرورية من الأمة مجردة من الفوائد فى صورة الضرائب.

وقد اكتفى الأغنياء ـ طالما كانت القروض داخلية ـ بأن ينقلوا المال من أكياس الفقراء إلى أكياس الأغنياء، ولكن بعد أن رشونا أناسا لازمين لا ستبدال القروض الخارجية بالقروض الداخلية ـ تدفقت كل ثروة الدول إلى خزائننا، وبدأ كل الأمميين يدفعون لنا مالا يقل عن الخراج المطلوب.

والحكام الأمميون ـ من جراء إهمالهم، أو سبب فساد وزرائهم أو جهلهم ـ قد جروا بلادهم إلى الاستدانة من بنوكنا ، حتى إنهم لا يستطيعون تأدية هذه الديون. ويجب أن تدركوا ما كان يتحتم علينا أن نعانيه من الآلام لكى تتهيأ الأمور على هذه الصورة.

سنحتاط في حكومتنا حيطة كبيرة كى لا يحدث تضخم مالى، وعلى ذلك لن نكون فى حاجة الى القروض للدولة إلا قرضا واحدا ذا فائدة قدرها واحد من المائة تكون سندات على الخزانة. حتى لا يعرض دفع النسبة المئوية البلاد لأن يمتصها العلق.

وستعطى الشركات التجارية حق إصدار السندات استثناء. فإن هذه الشركات لن تجد صعوبة فى دفع النسبة المئوية من أرباحها، لأنها تقترض المال للمشروعات التجارية، ولكن الحكومات لا تستطيع أن تجنى فوائد من المال المقترض ، لأنها إنما تقترض لتنفق ما أخذت من القروض (٢) .

وستشترى الحكومة أيضا أسهما تجارية، فتصير بهذا دائنة بدل أن تكون مدينة ومسددة للخراج TrIbute كما هى الآن. وإن إجراء كهذا سيضع نهاية للتراخى والكسل اللذين كانا مفيدين لنا طالما كان الأمميون (غير اليهود) مستقلين. وسيصيران

---

(١) في الأصل Last sent والترجمة الحرفية «السنتات النهائية» والسنت Cent عملة أمريكية، وهو يساوى جزءا من مائة جزء من الدولار Dollar أو الريال الأمريكى .

(٢) لنلاحظ براعة هذه الخطة. فالشركات التجارية إنما تقترض للإنشاء والتعمير المربح فيزداد بذلك؛ رأس مالها بما تربح، والحكومة تقترض للاستهلاك غالبا فتخسر بالقرض، ولكن ليلاحظ من ناحية أخرى خطأ هذه الفكرة فإن الحكومات يطلب منها نحو الشعب أكثر مما يطلب أصحاب الأسهم والأمة من الشركات.

بغيضين فى حكومتنا..

ويكفى للتدليل على فراغ عقول الأمميين المطلقة البهيمة حقا، أنهم حينما اقترضوا المال هنا بفائدة خابوا فى إدراك أن كل مبلغ مقترض هكذا مضافا إليه فائدة لا مفر من أن يخرج من موراد البلاد. وكان أيسر لهم لو أنهم أخذوا المال من شعبهم مباشرة دون حاجة إلى دفع فائدة. وهذا يبرهن على عبقريتنا وعلى حقيقة أننا الشعب الذى اختاره الله. إنه من الحنكة والدربة أننا نعرض مسألة القروض على الأمميين فى ضوء يظنون معه أنهم وجدوا فيه الربح أيضا.

إن تقديراتنا Esimates التى سنعدها عندما يأتي الوقت المناسب، والتى ستكون مستمدة من تجربة قرون، والتى كنا نمحصها عندما كان الأمميون يحكمون ـ إن تقديراتنا هذه ستكون مختلفة فى وضوحها العجيب عن التقديرات التي صنعها الأمميون، وستبرهن للعالم كيف أن خططنا الجديدة ناجحة ناجعة. إن هذه الخطط ستقضى على المساوئ التى صرنا بأمثالها سادة الأمميين. والتى لا يمكن أن نسمح بها فى حكمنا، وسنرتب نظام ميزانيتنا الحكومية حتى لن يكون الملك نفسه ولا أشد الكتبة Clerks خمولا في مقام لا يلاحظ فيه اختلاسه لأصغر جزء من المال ، ولا استعماله إياه فى غرض آخر غير الغرض الموضوع له فى التقدير الأول (فى الميزانية).

ويستحيل الحكم بنجاح الا بخطة محكمة إحكاما تاما. حتى الفرسان والأبطال يهلكون إذا هم اتبعوا طريقا لا يعرفون الى أين يقودهم، أو إذا بدأوا رحلتهم من غير أن يتأهبوا الأهبة المناسبة لها.

إن ملوك الأمميين الذين ساعدناهم، كى نغريهم بالتخلى عن واجباتهم فى الحكومة، بوسائل الوكالات (عن الأمة) Represention والولائم Entertainments والأبهة والملاهى الأخرى ـ هؤلاء الملوك لم يكونوا إلا حجبا لإخفاء مكايدنا ودسائسنا.

وإن تقريرات المندوبين* الذين اعتيد إرسالهم لتمثيل الملك فى واجباته العامة قد صنعت بأيدى وكلائنا. وقد استعملت هذه التقريرات في كل مناسبة كى تبهج عقول الملوك القصيرة النظر، مصحوبة ـ كما كانت ـ بمشروعات عن الاقتصاد في المستقبل «كيف استطاعوا أن يقتصدوا بضرائب جديدة؟» هذا ما استطاعوا أن يسألوا عنه قراء

تقريراتنا التى يكتبونها عن المهام التى يقومون بها ولكنهم لم يسألوا عنه فعلا.

وأنتم أنفسكم تعرفون إلى أى مدى من الاختلال المالى قد بلغوا بإهمالهم الذاتى. فلقد انتهوا إلى إفلاس رغم كل المجهودات الشاقة التى يبذلها رعاياهم التعساء.

البروتوكول الحادى والعشرون :

سأزيد الآن على ما أخبرتكم به فى اجتماعنا الأخير،وأمدكم بشرح مفصل للقروض الداخلية. غير أنى لن أناقش القروض الخارجية بعد الآن. لأنها قد ملأت خزائننا بالأموال الأممية، وكذلك لأن حكومتنا العالمية لن يكون لها جيران أجانب تستطيع أن تقترض منهم مالا.

لقد استغللنا فساد الإداريين وإهمال الحاكمين الأمميين لكى نجنى ضعفى المال الذى قدمناه قرضا إلى حكوماتهم أو نجنى ثلاثة أضعافه، مع أنها لم تكن فى الحقيقة بحاجة إليه قط. فمن الذى يستطيع أن يفعل هذا معنا، كما فعلناه معهم؟ ولذلك لن أخوض إلا فى مسألة القروض الداخلية فحسب. حين تعلن الحكومة إصدار قرض كهذا تفتح اكتتابا لسنداتها. وهى تصدرهامخفضة ذات قيم صغيرة جدا، كى يكون فى استطاعة كل انسان أن يسهم فيها. والمكتتبون الأوائل يسمح لهم أن يشتروها بأقل من قيمتها الاسمية. وفى اليوم التالي يرفع سعرها، كى يظن أن كل إنسان حريص على شرائها.

وفى خلال أيام قليلة تمتلئ الخزائن بيت مال الدولة Exchequer بكل المال الذى اكتتب به زيادة على الحد. (فلم الاستمرار فى قبول المال لقرض فوق ما هو مكتتب به زيادة على الحد؟). إن الاكتتاب بلا ريب يزيد زيادة لها اعتبارها على المال المطلوب، وفى هذا يكمن كل الأثر والسر، فالشعب يثق بالحكومة ثقة أكيدة (١) .

ولكن حينما تنتهى المهزلة Comedy تظهر حقيقة الدين الكبير جدا، وتضطر الحكومة، من أجل دفع هذا الدين، الى الالتجاء الى قرض جديد هو بدوره لا يلغى دين الدولة. بل إنما يضيف إليه ديناً آخر. وعندما تنفذ طاقة الحكومة على الاقتراض يتحتم عليها

---

(١) يجب أن يتأمل القارئ لكى يفهم ما تنطوى عليه هذه الخطة المحبة التى لا يتفتق عنها إلا عقل قد بلغ قمة العنف والدهاء واللؤم فالمعنى أن الأساس في رفع سعر الأسهم بعد هبوطها هو التلاعب بالمكتتبين واستغفالهم بالربح الحرام. وليس هو مراعاة قيمة الأسهم الحقيقية ، ومثل ذلك ألاعيب اليهود في المضافق (البورصات) الآن.

أن تدفع الفائدة عن القروض بفرض ضرائب جديدة، وهذه الضرائب ليست إلا ديونا مقترضة لتغطية ديون أخرى

ثم تأتى فترة تحويلات الديون، ولكن هذه التحويلات إنما تقلل قيمة الفائدة فحسب ولا تلغى الدين ولذلك لا يمكن أن تتم الا بموافقة أصحاب الديون. وحين تعلن هذه التحويلات يعطى الدائنون الحق فى قبولها أو فى استرداد أموالهم إذا لم يرغبوا في قبول التحويلات، فإذا طالب كل إنسان برد ماله فستكون الحكومة قد اصطيدت بطعمها الذى أرادت الصيد به، ولكن تكون فى مقام يمكنها من إرجاع المال كله.

ورعاية الحكومات الأممية ـ لحسن الحظ ـ لا يفهمون كثيرا فى الماليات، وكانوا دائما يفضلون معاناة الهبوط لقيمة ضماناتهم وتأميناتهم وإنقاص الفوائد بالمخاطرة فى عملية مالية أخرى لاستثمار المال من جديد؛ وهكذا طالما منحوا حكوماتهم الفرصة للتخصص من دين ربما ارتفع إلى عدة ملايين.

إن الأمميين لن يجرأوا على فعل شيء كهذا، عالمين حق العلم أننا ـ فى مثل هذا الحال ـ سنطلب كل أموالنا.

بمثل هذا العمل ستعترف الحكومة اعترافا صريحا بإفلاسها الذاتى مما سيبين للشعب تبييناواضحا أن مصالحه الذاتية لا تتمشى بعامة مع مصالح حكومته. وإن أوجه التفاتكم توجيها خاصا إلى هذه الحقيقة، كما أوجه كذلك إلى ما يلى: أن كل القروض الداخلية موحدة consolidated بما يسمى القروض الوقتية: وهى تدعى الديون ذات الأجل القصير، وهذه الديون تتكون من المال المودع فى بنوك الدولة أو بنوك الادخار.

هذا المال الموضوع تحت تصرف الحكومة لمدة طويلة يستغل فى دفع فوائد القروض العرضية، وتضع الحكومة بدل المال مقدارا مساويا له من ضماناتها الخاصة فى هذه البنوك، وإن هذه الضمانات من الدولة تغطى كل مقادير النقص فى خزائن الدولة عند الأمميين (غير اليهود).

وحينما يلى ملكنا العرش على العالم أجمع ستختفى كل هذه العمليات الماكرة، وسندمر سوق سندات الديون الحكومية العامة، لأننا لن نسمح بأن تتأرجح كرامتنا حسب الصعود والهبوط فى أرصدتنا التى سيقرر القانون قيمتها بالقيمة الاسمية من غير

إمكان تقلب السعر فالصعود يسبب الهبوط، ونحن قد بدأنا بالصعود لإزالة الثقة بسندات الديون الحكومية العامة للأمميين.

وسنستبدل بمصافق (بورصات) الأوراق المالية Exchanges Stock منظمات حكومية ضخمة سيكون من واجبها فرض ضرائب على المشروعات التجارية بحسب ما تراه الحكومة مناسبا. وإن هذه المؤسسات ستكون فى مقام يمكنها من أن تطرح فى السوق ما قيمته ملايين من الأسهم التجارية أو أن تشتريها هى ذاتها فى اليوم نفسه. وهكذا ستكون كل المشروعات التجارية معتمدة علينا . وأنتم تستطيعون أن تتصوروا أى قوة هكذا ستصير عند ذلك.

البروتوكول الثاني والعشرون :

حاولت فى كل ما أخبرتكم به حتى الآن أن أعطيكم صورة صادقة لسير الأحداث الحاضرة، وكذلك سير الأحداث الماضية التي تتدفق في نهر القدر، وستظهر نتيجتها فى المستقبل القريب، وقد بينت لكم خططنا السرية التى نعامل بها الأمميين وكذلك سياستنا المالية، وليس لى أن أضيف إلا كلمات قليلة فحسب.

فى أيدينا تتركز أعظم قوة فى الأيام الحاضرة، وأعنى بها الذهب. ففى خلال يومين نستطيع أن نسحب أى مقدار منه من حجرات كنزنا السرية.

أفلا يزال ضروريا لنا بعد ذلك أن نبرهن على أن حكمنا هو إرادة الله؟ هل يمكن ـ ولنا كل هذه الخيرات الضخمة ـ أن نعجز بعد ذلك عن إثبات أن كل الذهب الذى ظللنا نكدسة خلال قرون كثيرة جدا لن يساعدنا في غرضنا الصحيح للخير، أى لإعادة النظام تحت حكمنا؟

إن هذا قد يستلزم مقدارا معينا من العنف . ولكن هذا النظام سيستقر أخيرا وسنبرهن على أننا المتفضلون الذين أعادوا السلام المفقود والحرية الضائعة للعالم المكروب، وسوف نمنح العالم الفرصة لهذا السلام وهذه الحرية، ولكن فى حالة واحدة ليس غيرها على التأكيد ـ أى حين يعتصم العالم بقوانيننا اعتصاماً صارماً وفوق ذلك سنجعل واضحا لكل إنسان أن الحرية لا تقوم على التحلل والفساد أو على حق الناس في عمل ما يسرهم عمله، وكذلك مقام الإنسان وقوته لا يعطيانه الحق فى نشر المبادئ

الهدامة Destructive principles كحرية العقيدة والمساواة ونحوهما من الأفكار. وسنجعل واضحا أيضا أن الحرية الفردية لا تؤدى إلى أن لكل رجل الحق فى أن يصير ثائرا، أو أن يثير غيره بإلقاء خطب مضحكةٌ على الجماهير القلقة المضطربة. سنعلم العالم أن الحرية الصحيحة لا تقوم إلا على عدم الاعتداء على شخص الإنسان وملكه مادام يتمسك تمسكا صادقا بكل قوانين الحياة الاجتماعية. ونعلم العالم أن مقام الإنسان متوقف على تصوره لحقوق غيره من الناس ، وأن شرفه يردعه عن الأفكار المبهرجة فى موضوع ذاته.

إن سلطتنا ستكون جليلة مهيبة لأنها ستكون قديرة وستحكم وترشد، ولكن لا عن طريق اتباع قوة الشعب (١) وممثليه، أو أى فئة من الخطباء الذين يصيحون بكلمات عادية يسمونها المبادئ العليا، وليست هى فى الحقيقة شيئا آخر غير أفكار طوباوية خيالية . أن سلطتنا ستكون المؤسسة للنظام الذى فيه تكمن سعادة الناس وأن هيبة هذة السلطة ستكسبها غراما صوفيا، كما ستكسبها خضوع الأمم جمعاء. إن السلطة الحقة لا تستسلم لأى حق حتى حق الله. ولن يجرؤ أحد على الاقتراب منها كى يسلبها ولو خيطا من مقدرتها.

البروتوكول الثالث والعشرون :

يجب أن يدرب الناس على الحشمة والحياء كى يعتادوا الطاعة. ولذلك سنقلل مواد الترف. وبهذه الوسائل أيضا سنفرض الأخلاق التي أفسدها التنافس المستمر على ميادين الشرف. وسنتبنى «الصناعات القروية Peasant industries » كى نخرب المصانع الخاصة.

إن الضروريات من أجل هذه الإصلاحات أيضا تكمن فى حقيقة أن أصحاب المصانع الخاصة الفخمة كثيراً ما يحرضون عمالهم ضد الحكومة ، وربما عن غير وعى .

والشعب أثناء اشتغاله فى الصناعات المحلية ، لا يفهم حالة « خارج العمل » أو

---

(١) أى لا عن طريق من ينتخبهم الشعب كما يحدث في الأمم البرلمانية الآن لأن اليهود ــ كما يفهم من البروتوكولات وكتبهم المقدسة ــ لا يعترفون بالنظام النيابى البرلمانى فى الحكم، لكن يحكمون حكما أوتوقراطيا مطلقا، على يد ملكهم المقدس.

«البطالة» وهذا يحمله على الاعتصام بالنظام القائم. ويغريه بتعضيد الحكومة. إن البطالة هى الخطر الأكبر على الحكومة وستكون هذه البطالة قد أنجزت عملها حالما تبلغنا طريقها السلطة.

إن معاقرة الخمر ستكون محرمة كأنها جريمة ضد الإنسانية وسيعاقب عليها من هذا الوجه: فالرجل والبهيمة سواء تحت الكحول.

إن الأمم لا يخضعون خضوعا أعمى إلا للسلطة الجبارة المستقلة عنهم استقلالا مطلقا، القادرة على أن تريهم أن سيفا فى يدها يعمل كسلاح دفاع ضد الثورات الاجتماعية. لماذا يريدون بعد ذلك أن يكون لمليكهم روح ملاك؟ إنهم يجب أن يروا فيه القوة والقدوة متجسدتين.

يجب أن يظهر الملك الذى سيحل الحكومات القائمة التى ظلت تعيش على جمهور قد تمكنا نحن أنفسنا من إفساد أخلاقه خلال نيران الفوضى. وإن هذا الملك يجب أن يبدأ بإطفاء هذه النيران التي تندلع اندلاعاً مطرداً من كل الجهات.

ولكى يصل الملك إلى هذه النتيجة يجب أن يدمر كل الهيئات التي قد تكون أصل هذه النيران، ولو اقتضاه ذلك إلى أن يسفك دمه هو ذاته، ويجب عليه أن يكون جيشاً منظماً تنظيماً حسناً، يحارب بحرص وحزم عدوى أى فوضى قد تسمم جسم الحكومة .

إن ملكنا سيكون مختاراً من عند الله، ومعيناً من أعلى، كى يدمر كل الأفكار التى تغرى بها الغريزة لا العقل ، والمبادئ البهيمية لا الإنسانية ، إن هذه المبادئ تنتشر الآن انتشاراً ناجحًا فى سرقاتهم وطغيانهم تحت لواء الحق والحرية .

إن هذه الأفكار قد دمرت كل النظم الاجتماعية مؤدية بذلك إلى حكم ملك إسرائيل Kingdom of Israel .

ولكن عملها سيكون قد انتهى حين يبدأ حكم ملكنا . وحينئذ يجب علينا أن نكنسها بعيداً حتى لا يبقى أى قذر فى طريق ملكنا .

وحينئذ سنكون قادرين على أن نصرخ فى الأمم « صلوا لله ، واركعوا أمام ذلك

(الملك) الذى يحمل آية التقدير الأزلى للعالـم . والذى يقود الله ذاته نجمـه ، فلن يكـون أحـد آخـر إلا هو نفسـه Himself قادراً على أن يجعل الإنسانية حرة من كل خطيئـة (١) .

البروتوكول الرابع والعشـرون :

والآن سأعالج الأسلوب الذى تقوى به دولة Dynasty الملك داود حتى تستمر إلى اليوم الآخر .

إن أسلوبنا لصيانة الدولة سيشتمل على المبادئ ذاتها التى سلمت حكماءنا مقاليد العالم ، أى توجيه الجنس البشرى كله وتعليمه .

وأن أعضاء كثيرين من نسل داود David سيعدون ويربون الملـوك وخلفاءهـم الذين لن ينتخبوا بحق الوراثة بل بمواهبهم الخاصة . وهؤلاء الخلفاء سـيفقهون فيما لنا من مكنونات سياسية سرية، وخطط للحكم، آخذين أشد الحذر من أن يصل إليها أى إنسـان آخـر.

وستكون هذه الإجراءات ضرورية، كي يعرف الجميع أن من يستطيعون أن يحكمـوا إنما هـم الذين فقهـوا تفقيهاً فى أسـرار الفـن السياسى وحدهم، وهؤلاء الرجال وحدهم سيعلمون كيف يطبقون خططنا تطبيقاً عملياً مستغلين تجاربنا خلال قرون كثيرة. إنهم سيفقهون في النتائج المستخلصة من كل ملاحظات نظامنا السياسي والاقتصادي، وكل العلوم الاجتماعية. وهم بإيجاز، سيعرفون الروح الحقة للقوانين التي وضعتها الطبيعة نفسها لحكم النوع البشري.

وسيوضع مكان الخلفاء المباشرين للملك غيرهم إذا حدث ما يدل على أنهم مستهترون بالشهوات، أو ضعاف العزيمة خلال تربيتهم، أو فى حال إظهارهم أى ميل آخر

---

(١) كان اليهود ينتظرون المخلص الذى يخلصهم من العبودية بعد تشتتهم ، ويعيد إليهم ملكهم الدنيوى ، فلما ظهر يسوع أو عيسى فى صورة قديس ، وحاول تخليصهم روحيًا وخلقيًا من شرورهم . ولم يظهر فى صورة ملك يعيد إليهم سلطانهم الدنيوى ، أنكروه واضطهدون ، وهم حتى الآن ينتظرون المسيح المخلص فى صورة ملك من نسل داود يخلصهم من الاستعباد والتشتت ، وهذا المخلص هو الذى يخلص الإنسانية من الخطيئة كما يقولون هنا وكما تقول كتبهم المقدسة (انظر سفر أشعيا وما بعده مثلاً) . كما أن هذا المخلص هو الذى يعيد مملكة صهيون فى نظرهم أيضًا ويخضع لهم الأمم جميعًا .

قد يكون مضراً بسلطتهم، وربما يردهم عاجزين عن الحكم، ولو كان في هذا شيء يعرض كرامة التاج للخطر.

ولن يأتمن شيوخنا our elders على أزمة الحكم إلا الرجال القادرين على أن يحكموا حكماً حازماً، ولو كان عنيفاً.

وإذا مرض ملكنا أو فقد مقدرته على الحكم فسيكره على تسليم أزمة الحكم إلى من أثبتوا بأنفسهم من أسرته أنهم أقدر على الحكم.

وإن خطط الملك العاجلة ـ وأحق منها خططه للمستقبل ـ لن تكون معروفة حتى لمن سيدعون مستشاريه الأقربين. ولن يعرف خطط المستقبل إلا الحاكم والثلاثة three الذين دربوه.

وسيرى الناس في شخص الملك الذي سيحكم بإرادة لا تتزعزع وسيضبط نفسه ضبطه للإنسانية، مثلا للقدر نفسه ولكل طرقه الإنسانية، ولن يعرف أحد أهداف الملك حين يصدر أوامره، ومن أجل ذلك لن يجرؤ أحد على أن يعترض طريقه السرى.

ويجب ضرورة أن يكون للملك رأس قادر على تصريف خططنا، ولذلك لن يعتلي العرش قبل أن يتثبت حكماؤنا من قوته العقلية.

ولكى يكون الملك محبوباً ومعظما من كل رعاياه ـ يجب أن يخاطبهم جهاراً مرات كثيرة. فمثل هذه الإجراءات ستجعل القوتين في انسجام: أعنى قوةالشعب وقوة الملك اللتين قد فصلنا بينهما فى البلاد الأممية (غير اليهودية) بإبقائنا كلاً منهما فى خوف دائم من الأخرى.

ولقد كان لزاماً علينا أن نبقى كلتا القوتين فى خوف من الأخرى، لأنهما حين انفصلتا وقعتا تحت نفوذنا.

وعلى ملك إسرائيل أن لا يخضع لسلطان أهوائه الخاصة لا سيما الشهوانية. وعليه أن لا يسمح للغرائز البهيمية أن تتمكن من عقله. إن الشهوانية ـ أشد من أى هوى آخر ـ تدمر بلا ريب كل قوى الفكر والتنبؤ بالعواقب، وهي تصرف عقول الرجال نحو أسوأ جانب في الطبيعة الإنسانية.

إن قطب Column العالم فى شخص الحاكم العالى World Ruler الخارج من بذرة إسرائيل ـ ليطرح كل الاهواء الشخصية من أجل مصلحة شعبه. أن ملكنا يجب إن يكون مثال العزة والجبروت Err eprochable [1] .

وقعه ممثلو صهيون من الدرجة الثالثة والثلاثين [2] .

(١) أى لا يمكن تناوله بالنقد ولا المؤاخذة ولا مسه بالأذى بأى حال وخير ترجمة عربية في نظرى للكلمة الإنجليزية هى: «عزيز» لأن العزة تشمل كل ذلك.

(٢) أرقى درجات الماسونية اليهودية: فالموقعون هنا هم أعظم أكابر الماسونية في العالم.

تعقيب للأستاذ سرجي نيلوس

هذه الوثائق قد انتزعت خلسة من كتاب ضخم فيه محاضر خطب [1]، وقد وجدها صديقى[2] فى مكاتب بمركز قيادة جمعية صهيون القائم الآن فى فرنسا.

إن فرنسا قد أجبرت تركيا على منح امتيازات لجميع المدارس والمؤسسات الدينية لكل الطوائف: ما دامت هذه المدارس والمؤسسات خاضعة لحماية الدبلوماسية فى آسيا الصغرى.

ولا ريب أن هذه الامتيازات لا تتمتع بها المدارس والمؤسسات الكاثوليكية التى طردتها من فرنسا حكومتها السابقة. هذه الحقيقة تثبت بلا ريب أن دبلوماسية المدارس الدريفوسية Dreyus [3] لا تهتم إلا بحماية مصالح صهيون. وأنها تعمل على استعمار آسيا الصغرى باليهود الفرنسيين. إن صهيون تعرف دائماً كيف تحرز النفوذ لنفسها عن طريق ما يسميهم التلمود« البهائم العاملة» التى يشير بها إلى جميع الأميين.

ويستفاد من الصهيونية اليهودية السرية أن سليمان والعلماء اليهود من قبل قد فكروا

---

(١) محاضر الخطب أو جلسات.

(٢) أى الصديق الذى دفع بالبروتوكولات إلى الأستاذ نيلوس.. وهذا الصديق هو اليكسى نيقولا نيفتش كبير جماعة أعيان روسيا الشرقية القيصرية.

(٣) الكابتن دريفوس كان ضابطاً فى الجيش الفرنسى، اتهم فيه بتهمة الخيانة العظمى سنة ١٨٩٤ وأحدثت قضيته رجة فى أهل أوربا وأمريكا وروسيا وبخاصة فرنسا،وحاول اليهود بكل ما لديهم من وسائل علنية وسرية إنقاذه ولكن حكم عليه بالنفى المؤبد من فرنسا، ثم تصدى لنقض الحكم كثير، منهم الكاتب الفرنسى المشهور « أميل زولا» إذ نشر فى جريدة« الأرور » فى ١٣ يناير سنة ١٨٩٨ خطاباً بعنوان « إنى أتهم» وأعقبه بمثله، وعمل اليهود بكل ما لديهم من نفوذ لتبرئة دريفوس، ولكن المحكمة قبلت إعادة النظر فى القضية، وقضت بحبسه عشر سنوات بدل النفى، ثم لم يزل اليهود بكل وسائلهم يعملون على تغيير الحكم، فنجحوا، وفى ١٢ يوليو سنة ١٩٠٢ قررت محكمة النقض بطلان الحكم السابق وتبرئة دريفوس وإعادته إلى الجيش العامل ، فسر اليهود بذلك سرورا بالغاً. رغم ما نالوه من عناء وبذلوامن تضحيات طاهرة ونجسة فى الحصول على ذلك والمراد بالمدارس الدريفوسية هنا المدارس التى لا تهتم إلا بخدمة اليهود. وقد صدرت البروتوكولات قبل تبرئة دريفوس . انظر : كتاب « يقظة العالم اليهودى » بالعربية ص ٧٤ ـ ٨٧).

سنة ٩٢٩ ق.م فى استنباط مكيدة لفتح كل العالم فتحاً سلميا لصهيون.

وكانت هذه المكيدة تنفذ خلال تطورات التاريخ بالتفصيل ، وتكمل على أيدى رجال دربوا على هذه المسألة.هؤلاء الرجال العلماء صمموا على فتح العالم بوسائل سلمية مع دهاء الأفعى الرمزية التى كان رأسها يرمز إلى المتفقهين فى خطط الإدارة اليهودية، وكان جسم الأفعى يرمز إلى الشعب اليهودى ـ وكانت الإدارة مصونة سراً عن الناس جميعاً حتى الأمة اليهودية نفسها . وحالما نفذت هذه الأفعى فى قلوب الأمم التى اتصلت بها سربت من تحتها، والتهمت كل قوة غير يهودية فى هذه الدول. قد سبق القول بأن الأفعى لا بد أن عملها معتصمة اعتصاماً صارماً بالخطة الموسوية حتى يغلق الطريق الذى تسعى فيه بعودة رأسها إلى صهيون (١) ، وحتى تكون الأفعى بهذه الطريقة قد أكملت ا لتفافها حول أوربا وتطويقها إياها ؛ وتكون لشدة تكبيلها أوربا قد طوقت العالم أجمع. وهذا ما يتم إنجازه باستعمال كل محاولة لإخضاع البلاد الأخرى بالفتوحات الاقتصادية.

إن عودة رأس الأفعى إلى صهيون لا يمكن أن تتم إلا بعد أن تنحط قوى كل ملوك أوروبا (٢) ، أى حينما تكون الأزمات الاقتصادية ودمار تجارة الجملة قد أثرا فى كل مكان. هناك ستمهد السبيل لإفساد الحماسة والنخوة والانحلال الأخلاقى وخاصة بمساعدة النساء اليهوديات المتنكرات فى صور الفرنسيات والإيطاليات ومن إليهن . إن هؤلاء النساء أضمن ناشرات للخلاعة والتهتك فى حيوات Lives المتزعمين (٣) على رؤوس الأمم .

والنساء فى خدمة صهيون يعملن كأحابيل ومصايد لمن يكونون بفضلهن فى حاجة إلى المال على الدوام. فيكونون لذلك دائما على استعداد لأن يبيعوا ضمائرهم بالمال.

---

(١) هذه نبوءة نيلوس بقيام « إسرائيل » قبل قيامها بنحو نصف قرن .

(٢) لقد تم ما أراد اليهود، وتحقق ما تنبأ به نيلوس وهو سقوط الملكيات فى البلاد الأوربية الملكية عقب الحربين العالميتين كروسيا وأسبانيا وإيطاليا ...

(٣) ليلاحظ أن كثيرا من زعماء الأمم والمشهورين فيها كالعلماء والفنانين والأدباء وقادة الجيوش ورؤساء المصالح والشركات لهم زوجات أو خليلات أو مدبرات لمنازلهم من اليهوديات، يطلعن على أسرارهم ويوجهن عقولهم وجهودهم لمساعدة اليهود أو العطف عليهم أو كف الأذى عنهم وهن سلاح يعد أخطر الأسلحة .

وهذا المال ليس الا مقترضاً من اليهود لأنه سرعان مايعود من طريق هؤلاء النسوة أنفسهم إلى أيدى اليهود الراشين، ولكن بعد أن اشترى عبيداً لهدف صهيون من طريق هذه المعاملات المالية (١) .

وضرورى لمثل هذا الإجراء أن لا يرتاب الموظفون العموميون ولا الأفراد الخصوصيون في الدور الذى تلعبه النسوة اللاتى تسخرهن يهود، ولذلك أنشأ الموجهون لهدف صهيون ــ كما قد وقع فعلاً ــ هيئة دينية : قوامها الأتباع المخلصون للشريعة الموسوية وقوانين التلمود، وقد اعتقد العالم كله أن حجاب شريعة موسى هو القانون الحقيقى لحياة اليهود (٢) ، ولم يفكر أحد فى أن يمحص أثر قانون الحياة هذا، ولاسيما أن كل العيون كانت موجهة نحو الذهب الذى يمكن أن تقدمه هذه الطائفة ، وهو الذى يمنح هذه الطائفة الحرية المطلقة فى مكايدها الاقتصادية والسياسية .

وقد وضح رسم طريق الأفعى الرمزية كما يلى (٣) :

كانت مرحلتها الأولى فى أوروبا سنة ٤٢٩ ق. م . فى بلاد اليونان حيث شرعت الأفعى أولاً فى عهد بركليس Percles تلتهم قوة تلك البلاد .

وكانت المرحلة الثانية فى روما فى عهد أغسطس Augustus حوالى سنة ٦٩ ق.م.

والثالثة فى مدريد فى عهد تشارلس الخامس Charles سنة ١٥٥٢م .

والرابعة فى باريس حوالى ١٧٠٠ فى عهد الملك لويس السادس عشر .

والخامسة فى لندن سنة ١٨١٤ وما تلاها (بعد سقوط نابليون).

والسادسة فى برلين سنة ١٨٧١م بعد الحرب الفرنسية البروسية

والسابعة في سان بطرسبرج الذى رسم فوقها رأس الأفعى تحت تاريخ ١٨٨١. .

---

(١) كان اليهود يشترون الأراضى من عرب فلسطين بأثمان غالية، ثم يسلطون نساءهم وخمورهم على هؤلاء العرب حتى يبتزوا منهم الأموال التى دفعوها لهم ، وعلى هذا النحو وأمثاله يعملون فى كل البلاد .

(٢) يجب أن يلاحظ أن الشريعة الموسوية لا يرعاها اليهود إلا بين بعضهم وبعض ، ولهم فى معاملة الأميين الغرباء عنهم طريق خاصة، فهم ينظرون إليهم كالحيوانات تماماً ولا يرعون لهم حرمة، وأكثرهم يلتزم شريعة التلمود اليهودية وهى شريعة أشد وحشية وإجراماً من شريعة الغاب ..

(٣) الخريطة التى يشير إليها نيلوس هنا لم توضح فى نسختنا الإنجليزية .

كل هذه الدول التى اخترقتها الأفعى قد زلزلت أسس بنيانها، وألمانيا مع قوتها الظاهرة ـ لا تستثنى من هذه القاعدة . وقد أبقى على إنجلترا وألمانيا من النواحى الاقتصادية، ولكن ذلك موقوت ليس إلا ، إلى أن يتم للأفعى قهر روسيا التى قد ركزت عليها جهودها فى الوقت الحاضر[1] والطريق المستقبل للأفعى غير ظاهر على هذه الخريطة، ولكن السهام تشير الى حركتها التالية نحو موسكو وكييف وأودسا .

ونحن نعرف الآن جيداً مقدار أهمية المدن الأخيرة من حيث هى مراكز للجنس اليهودى المحارب . وتظهر القسطنطينية [2] كأنها المرحلة الأخيرة لطريق الأفعى قبل وصولها إلى أورشليم . ولم تبق أمام الأفعى إلا مسافة قصيرة حتى تستطيع إتمام طريقها بضم رأسها إلى ذيلها .

ولكي تتمكّن الأفعى من الزحف بسهولة فى طريقها ، اتخذت صهيون الإجراءات الآتية لغرض قلب المجتمع وتأليب الطبقات العاملة نظم الجنس اليهودى أولاً إلى حد أنه لن ينفذ اليه أحد، وبذلك لا تفشى أسراره. ومفروض أن الله نفسه قد وعد اليهود بأنهم مقدر لهم أزلاً أن يحكموا الأرض كلها فى هيئة مملكة صهيون المتحدة، وقد أخبرهم بأنهم العنصر الوحيد الذى يستحق أن يسمى إنسانياً. ولم يقصد من كل من عداهم إلا أن يطلقوا « حيوانات عاملة » وعبيداً لليهود ، وغرضهم هو إخضاع العالم، وإقامة عرش صهيون على الدنيا (See Sanh. 91. 21. 1051) [3] .

---

(١) هذه نبوءة من نبوءات الأستاذ نيلوس بسقوط القيصرية ، وقيام الشيوعية اليهودية الماركسية بدلها على الصورة التى رسمتها البروتوكولات وليس الاختلاف بين الصورتين إلا الاختلاف الذى يجب أن ينتظر فى تنفيذ المؤامرة قبل إتمامها وبعده. ولا يمكن أن تتفق الصورتان التمهيدية والنهائية وإن كانت ملامح التمهيدية واضحة فى النهائية وضوح ملامح الطفل فى الرجل . « والطفل أبو الرجل » كما يقول شكسبير .

(٢) إن الأفعى اليهودية فى طريقها إلى أورشليم قد مرت على القسطنطينية فدمرت الخلافة الإسلامية، ولم يكن مفر لها من تدميرها قبل الوصول إلى أورشليم وإقامة دولة إسرائيل والمتتبعون لأحوال تركيا قبل سقوط الخلافة الإسلامية، وبعد قيام مصطفى كمال بالحكم التركى اللاديني وانحياز تركيا إلى إسرائيل ضد العرب فى كل المواقف السياسية يلمسون اليد اليهودية فى توجيه سياسة تركيا وهذه نبوءة من نبوءآت الأستاذ نيلوس .

(٣) خير مرجع للقارئ العربى في ذلك كتاب العهد القديم والتلمود وأقرب له منهما وأبسط وأسهل فهما كتيب فى ١١٦ صفحة ـ للأستاذ بولس حنا مسعد ، عنوانه:« همجية التعاليم الصهيونية » وهومن أخطر الكتب الصغيرة بخاصة فى الكشف عن همجية الديانة اليهودية. وقد نقلت أسماء المراجع الإنجليزية فى هذا الموضع وما قبله وبعده على حالها، لأنها ـ فيما أعلم ـ لم تترجم إلى العربية، فلا فائدة إذن للقارئ العربى غير العارف بالإنجليزية من نقل أسمائها إليه بالعربية ما دام لا يستطيع الرجوع إليها فى أصولها الأجنبية.

وقد تعلم اليهود أنهم فوق الناس super men ، وأن يحفظوا أنفسهم فى عزلة عن الأمم الأخرى جميعاً . وقد أوحت هذه النظريات إلى اليهود فكرة المجد الذاتى لعنصرهم، بسبب أنهم أبناء الله حقاً. (See Jihal 97: 1, sanh, 58, 2) .

وقد وطدت الطريقة الاعتزالية لحياة جنس صهيون توطيداً تاما نظام « الكاغال Kaghal » الذى يحتم على كل يهودى مساعدة قريبه، غير معتمد على المساعدة التى يتلقاها من الإدارت المحلية التى تحجب حكومة صهيون عن أعين إدارات الدول الأممية التى تدافع دائما بدورها دفاعا حماسيا عن الحكومة اليهودية الذاتية، ناظرين إلى اليهود خطأ كأنهم طائفة دينية محضة، وهذه الأفكار المشار إليها قبل ـ وهى مقررة بين اليهود ـ قد أثرت تأثيراً هاماً فى حياتهم المادية. فحينما نقرأ هذه الكتب مثل:

" Gopayon" 14, pag1,. " Eben - Gaizar, " Page81,

" XXXVI. Ebamot," " 98, XXV. Ketubat,36

" XXXVI. Pandrip". " XXX Kadushin, " 68 A

وهذه كلها مكتوبة لتمجيد الجنس اليهودى ـ نرى أنها فى الواقع تعامل الأمميين (غير اليهود) كما لو كانوا حيوانات لم تخلق إلا لتخدم اليهود. وهم يعتقدون أن الناس وأملاكهم بل حيواناتهم ملك لليهود، وأن الله رخص لشعبه المختار أن يسخرهم فيما يفيده كما يشاء(١) .

وتقرر شرائع اليهود أن كل المعاملات السيئة للأمميين تغفر لهم فى رأس سنتهم الجديدة، كما يمنحون فى اليوم ذاته أيضاً العفو عن الخطايا التى سيرتكبونها فى العام القادم.

وقد عمل زعماء اليهود كأنهم « وكلاء استفزاز» فى الحركات المعادية للسامية Anti- semitism بسماحهم للأمميين أن يكتشفوا بعض أسرار التلمود، لكى يثير هؤلاء

---

(١) انظر محزور فارحى اليهودى المصرى المترجم إلى العربية(وهو بالعبرية أيضاً) الجزء الثانى. وهو خاص بالصلوات لأجل عيد رأس السنة، فدرس يوم رأس السنة: صلاة بعد الظهر أو العصر ص ٢٤٢ ـ ٢٥٨ وترتيب تشليح أو طرح الخطايا ص ٢٥٩ ـ ٢٦٤ ومواضع أخرى(طبع بالمطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٢٤) وجزء ٣ ص ٢٨ ليلة الغفران وصلاة المساء ص ٤١ .

الزعماء بغضاء الشعب اليهودى ضد الأمميين.

وكانت تصريحات عداوة السامية Anti- Semitism مفيدة لقادة اليهود، لأنها خلقت الضغينة فى قلوب الأمميين نحو الشعب الذى كان يعامل فى الظاهر معاملة سيئة، مع أن تشيعاتهم وأهواءهم كانت مسجلة فى جانب صهيون.

وعداوة السامية Anti- Semitism ـ والتى جرت الاضطهاد على الطبقات الدنيا من اليهود ـ قد ساعدت قادتهم على ضبط أقاربهم وإمساكهم إياهم فى خضوع. وهذا ما استطاعوا لزاما أن يفعلوه لأنهم دائماً كانوا يتدخلون فى الوقت المناسب لإنقاذ شعبهم الموالى لهم. ويلاحظ أن قادة اليهود لم يصابوا بنكبة قط من ناحية الحركات المعادية للسامية، لا فى ممتلكاتهم الشخصية ولا مناصبهم الرسمية فى إدارتهم.

وليس هذا بعجيب ما دام هؤلاء الرؤوس أنفسهم قد وضعوا «كلاب الصيد المسيحية السفاكة» ضد اليهود الأذلاء. فمكنتهم كلاب الصيد السفاكة من المحافظة على قطعانهم، وساعدت بذلك على بقاء تماسك صهيون.

واليهود ـ فيما يرون أنفسهم ـ قد وصلوا فعلاً إلى حكومة عليا تحكم العالم جميعاً، وهم الآن يطرحون أقنعتهم عنهم بعيداً.

ولا ريب فى أن القوة الفاتحة الغازية الرئيسية لصهيون تكمن دائماً فى ذهبهم، وهم لذلك إنما يعملون ليعطوا هذا الذهب قيمة.

ولا يعلل سعر الذهب المرتفع إلا بتداول الذهب خاصة [١]، ولا يعلل تكدسه فى أيدى صهيون إلا بأن اليهود قادرون على الربح من كل الأزمات الدولية الاقتصادية. كى يحتكروا الذهب، وهذا ما يبرهن عليه تاريخ أسرة روتشيلد Rothschild المنشور فى باريس فى «الليبر بارول Libre Parole» [٢].

---

(١) من الأسس الاقتصادية المعتمدة نظرية تقوم كل الأشياء بالذهب وهى خاطئة، لأن الذهب ليس إلا مقوماً، وإن مقدرة الدولة الاقتصادية لا تقوم بما عندها من الذهب ـ وإن كان هذا ما يريد أن يؤكده اليهود ـ لكن مقدرة كل دولة تقاس بمنتجاتها وخيراتها التى تقدمها للعالم ولو لم تملك من الذهب شيئاً، فالدول التى تعمل على تكديس الذهب لمجرد الذهب دون الاعتماد على منتجاتها الأخرى ودولة جاهلة مخطئة تسىء إلى منزلتها وحياتها، وهذا ما وقعت فيه مصر منذ عام ١٩٤٩.

(٢) فى أواخر القرن الماضى انتشرت فى فرنسا دعوة عداوة السامية والمراد بها أولا مقاومة اليهودية، وكان من أشد =

وقد توطدت سيطرة الرأسمالية عن طريق هذه الأزمات تحت لواء مذهب التحررية Liberalism ، كما حميت بنظريات اقتصادية واجتماعية مدروسة دراسة ماهرة، وقد ظفر شيوخ صهيون بنجاح منقطع النظير بإعطائهم هذه النظريات مظهراً علميا (١).

وإن قيام نظام التصويت السرى قد أتاح لصهيون فرصة لتقديم قوانين تلائم أغراضها عن طريق الرشوة. وإن الجمهورية هى صورة الحكومة الأممية التى يفضلها اليهود من أعماق قلوبهم، لأنهم يستطيعون مع الجمهورية أن يتمكنوا من شراء أغلبية الأصوات بسهولة عظمى، ولأن النظام الجمهورى يمنح، وكلاءهم وجيش الفوضويين التابعين لهم حرية غير محدودة. ولهذا السبب يعضد اليهود مذهب التحررية على حين كان الأمميون الحمقى الذين أفسد اليهود عقولهم يجهلون هذه الحقيقة الواضحة من قبل، وهى أنه ليست الحرية مع الجمهورية أكثر منها مع الأوتوقراطية والأمر بالعكس، ففى الجمهورية يقوم الضغط على الأقلية عن طريق الرعاع (٢) ، وهذا ما يحرص عليه دائماً وكلاء صهيون .

وصهيون، حسب إشارة منتفيورى (٣) Montefiore لا تدخر مالاً ولا وسيلة أخرى للوصول إلى هذه الغايات. وفى أيامنا هذه تخضع كل الحكومات في العالم ـ عن وعى أو

= الموقدين لنارها فى فرنسا كاتب فرنسى اسمه إدوار بريريمون بكتاب نشره عنوانه «فرنسا اليهودية» بين فيه نظرية خصومة اليهود وفساد الحياة الفرنسية وانحلالها بتأثيرهم. ثم أسس سنة ١٨٩٢ جريدة للطعن فى اليهود سماها « الليبر بارول » أى الكلام الحر، فقامت حركة لإخراج ضباط اليهود من الجيش الفرنسى وعددهم خمسمائة.

وكتبت فى ذلك مقالات نارية كان من ضحاياها ضابط يهودى يسمى « أرمان ماير » فقتل. وظن أن مقتله نهاية الحركة غير أن الصحيفة« الليبر بارول» استمرت على تهجمها حتى قبض فى أوائل سنة ١٨٩٤ على الضابط الكبير دريفوس بتهمة الخيانة العظمى، وكانت الصحيفة أول من أظهر التهمة وقاد الحملة ضده انظر كتاب « يقظة العالم اليهودى » للأستاذ اليهودى المصرى« إيلى ليفى عسل » بالعربية(ص ٦٨ ـ ٧٣) .

(١) هذا مظهر زائف ما يزال يخدع كثيراً من دعاة التمكن من علم الاقتصاد وقد وقعت مصر سنة ١٩٤٩ فى خطأ بسبب ذلك..

(٢) هذه حقيقة من الحقائق السياسية الهامة التى لا يفطن إليها إلا الحكماء. ولمعرفة ذلك يجب مقارنة الملكية فى بريطانيا بالجمهورية فى فرنسا لبيان الفرق بين الحكمين، فالفرق بين الحكمين واضح، والفرق ينشأ دائماً لا من شكل الحكومة ملكية أو جمهورية بل من تربية الشعب السياسية، فشكل الحكومة لا قيمة له، لكن القيمة للشعب، ومدى إدراكه وتمسكه بحقوقه .

(٣) زعيم يهودى كان يريد لليهود استعمار فلسطين، وكان عظيم النفوذ فى بريطانيا وصديق العائلة المالكة، وعاش أكثر من قرن (انظر « يقظة العالم اليهودى » ص ١٣٥ ـ ١٨٠).

عن غير وعى ـ لأوامر تلك الحكومة العليا العظيمة: حكومة صهيون (١) ، لأن كل وثائقها في حوزة حكومة صهيون، وكل البلاد مدينة لليهود إلى حد أنها لا تستطيع إطلاقاً أن تسد ديونها. إن كل الصناعة والتجارة وكذلك الدبلوما سية في أيدي صهيون. وعن طريق رؤوس أموالها قد استعبدت كل الشعوب الأممية. وقد وضع اليهود بقوة التربية القائمة على أساس مادى سلاسل ثقيلة على كل الأمميين. وربطوهم بها إلى حكومتهم العليا.

ونهاية الحرية القومية فى المتناول، ولذلك ستسير الحرية الفردية أيضا إلى نهايتها، لأن الحرية الصحيحة لا يمكن أن تقوم حيث قبضة المال تمكن صهيون من حكم الرعاع، والتسلط علي الجزء الأعلى قدراً، والأعظم عقلاً فى المجتمع. «من لهم آذان للسمع فليسمعوا»(٢).

قريبا ستكون قد مضت أربع سنوات منذ وقعت فى حوزتى «بروتوكولات حكماء صهيون» ولا يعلم إلا الله وحده كم كانت المحاولات الفاشلة التى بذلتها لإبراز هذه البروتوكولات إلى النور، أو حتى لتحرير أصحاب السلطان، وأن أكشف لهم عن أسباب العاصفة التى تتهدد روسيا البليدة التى يبدو من سوء الحظ فقد تقديرها لما يدور حولها.

والآن فحسب قدنجحت ـ بينما أخشى أن يكون قد طال تأخرى ـ فى نشر عملى على أمل أنى قد أكون قادراً على إنذار أولئك الذين لا يزالون ذوى آذان تسمع، وأعين ترى (٣) .

لم يبق هناك مجال للشك، فإن حكم إسرائيل المنتصر يقترب من عالمنا الضال بكل ما للشيطان من قوة وإرهاب، فإن الملك المولود من دم صهيون ـ عدو المسيح ـ قريب من عرش السلطة العالمية (٤) .

---

(١) هذا ما تحقق الآن فعلاً، وإن لم يبلغ مداه. فمعظم الحكومات الكبرى كأمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا، والمجامع الدولية مثل مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة، ومحكمة العدل الدولية ومن قبلها عصبة الأمم، ووفود الأمم السياسية إليها واليونسكو تبدو خاضعة لنفوذ اليهود، أو تتكون أكثريتها من أعضاء يهود أو صنائعهم. والأحداث الجارية تكشف عن ذلك بوضوح يراه العميان.

(٢) اقتباس من كلمات السيد المسيح كما روتها الأناجيل.

(٣) وهذا ما أحس به أنا المترجم العربي لكتاب البروتوكولات، فقد لقيت في سبيل نشره من المتاعب ما يطول ذكره، وقد كشف لي عن السلطان الواسع الذي يتمتع به اليهود حتى فى أبعد المؤسسات الوطنية عن نفوذ اليهود الظاهر، ولا أتمني أكثر مما تمني الأستاذ نيلوس هنا، وأرجو أن يكون حظي خيراً من حظه، وإن كنت معرضا للاغتيال في كل لحظة، وموطد نفسي عليه.

(٤) كان هذا فى سنة ١٩٠٢، واليهود الآن أقرب للعرش ، لأن كل الأحداث سارت فى هذا الطريق لمصلحة اليهود، وتقريب ملكهم من غرضه.

إن الأحداث فى العالم تندفع بسرعة مخيفة: فالمنازعات، والحروب، والإشاعات، والأوبئة والزلازل ـ والأشياء التى لم تكن أمس إلا مستحيلة ـ قد صارت اليوم حقيقة ناجزة. إن الأيام تمضى مندفعة كأنها تساعد الشعب المختار ولا وقت هناك للتوغل بدقة خلال تاريخ الإنسانية، من وجهة نظر «أسرار الظلم» المكشوفة، ولا للبرهة تاريخاً على السلطان الذى أحرزه «حكماء صهيون» كى يجلبوا نكبات على الإنسانية، ولا وقت كذلك للتنبؤ بمستقبل البشرية المحقق المقترب الآن ولا للكشف عن الفصل الأخير من مأساةالعالم.

إن نور المسيح Light of Christ منفرداً « ونور كنيسته العالمية المقدسة His Holy Universal Church Churrch هما اللذان يستطيعان أن ينفذا خلال الأغوار الشيطانية، ويكشفا مدى ضلالها (١) .

إنى لا أشعر فى قلبى بأن الساعة قد دقت لدعوة المجتمع المسكونى الثامن Ecumenical Council Eighth فيجتمع فيه رعاة الكنائس وممثلو المسيحية عامة، ناسين المنازعات التى مزقتهم طوال قرون كثيرة كى يقابلوا مقدم أعداء المسيح (٢) .

---

(١) لم يعد الدين مسيحياً أو إسلاميا كافيا وحدة للوقوف أمام طغيان صهيون بل لا بد معه من الاستعانة بكل ما فى العقول الحكيمة من وعى، وكل ما فى الأيدى من أسلحة حربية وسلمية للقضاء على هذا الطغيان الذى سيدمر العالم تدميراً لغرض استعباد البشر لليهود، ومن هذه الفقرة وأمثالها نلمح شدة تدين الأستاذ نيلوس، وإيمانه بقدرة الدين على تخليص الناس من هذا الخطر الساحق، وليت الدين وحده ينفع فى إصلاح ما أفسد اليهود.

قلت: الإسلام وحده، وهو الدين القيم، كاف للوقوف أمام طغيان صهيون، وحسبنا ما سبق من معرفة أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قضى على اليهود عسكريا، فى الوقت الذى كان يواجه فيه المشركين، والنصارى، وأيضا ما سيأتى من بيان معرفة معالم النصر على اليهود.

(٢) المجامع المسيحية نوعان : مجامع خاصة عقدها آباء كنيسة معينة وهذه كثيرة. ومجامع عامة عقدها آباء الكنائس من جميع أقطار المسكونة (الأرض) ولذلك تسمى « مسكونية » وعددها سبعة: أقدامها « مجمع نيقية الأول » سنة ٣٢٥م وآخرها « مجمع نيقية الثانى » سنة ٧٨٧م. والأستاذ نيلوس يشير إلى المجامع المسكونية السبعة التى عقدها آباء الكنيسة المسيحية للاتفاق على تعاليم واحدة اختلفت حولها طوائفهم المسيحية، ويتمنى عقد مجمع ثامن يتفق فيه الآباء على الوقوف متحدين ضد اليهود، ولكن لا أظن ذلك ممكناً، ولا أظنه ـ إن أمكن نافعاً وحده، ولا بد مع ذلك من وسائل سياسية واقتصادية وحربية للقضاء على هذه المؤامرة اليهودية الإجرامية .

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحـة

الموضـوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحـة

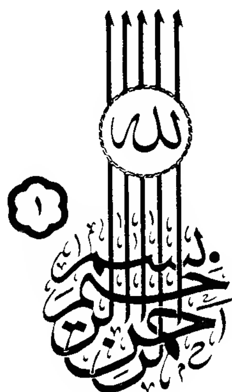
الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(١٠)

معالم النصر على اليهود

تأليف
الدكتور سعد المرصفي

مكتبة المنار الإسلامية

مكتبة المنار الإسلامية



ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

مكتبة المنار الإسلامية



AL-MANAR ISLAMIC BOOK SHOP

طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية

Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045

Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tal.: 2615045, Fax: 2636854, P.O.Box: 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

مقدمـــة

عرفنا خطر اليهودية العالمية من خلال أحاديثنا من قبل عن :

١ ــ أسطورة الوطن اليهودى .

٢ ــ الفكر اليهودى .

٣ ــ موقف اليهود من الرسالة والرسول ﷺ .

٤ ــ الطبيعة اليهودية .

٥ ــ التآمر اليهودى على حياة الرسول ﷺ .

٦ ــ اليهود والخيانة .

٧ ــ القضاء على اليهود عسكريا .

٨ ــ محاكمة اليهود .

٩ ــ الخطر اليهودى .

وفلسطين آخر معقل يسقط .. وهذه الكارثة نبهت الصادقين إلى حقيقة واقعهم المر، وغفلة الأمة وتخاذلها وضعفها، بعد أن وجد المسلمون أنفسهم أمام خطر مدمر، لا يقل عن الخطر الوحشى الذى تعرضوا له أيام الحروب الصايبية، والخطر الهمجى الذى واجههم أيام التتار.. وإن كانت الصورة العامة تدعو إلى الاعتراف بواقع احتلال فلسطين الذى يندى له الجبين!

وما أشبه الليلة بالبارحة! فقد بدأت الأمة تفيق من غفوتها، وأحس كثيرون بالأخطار الجسيمة التى تتهدد المسلمين من جراء السرطان اليهودى الذى أخذ ينشب أظفاره ، ويستشرى فى ديار المسلمين!

وتطالعنا ضرورة المواجهة، ونبوءة النصر، فيما يرويه الشيخان عن عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول:

« تقاتلكم اليهود ، فتسلطون عليهم ، حتى يقول الحجر: يا مسلم ! هذا يهودى ورائى فاقتله » .

وعلينا أن نخوض المعركة على أساس أنها معركة عقيدة ..

وهنا يأتى الحديث عن معالم النصر..

وقد اقتضت منهجية البحث أن يشتمل على الفصول التالية :

الفصل الأول : ليس لليهود قومية ولا وطن .

الفصل الثانى : دولة إسرائيل فى العصر الحديث .

الفصل الثالث : الطريق إلى النصر .

والله أسأل : التوفيق والسداد.

والعون والرشاد .

إنه سميع مجيب !!

الكويت فى : ٤ ربيع الثانى ١٤١٣ هـ
١ أكتوبر ١٩٩٢ م

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)

الفصل الأول

ليس لليهود قومية ولا وطن

بين مصر وفلسطين ـ فى الأرض المقدسة ـ فى الجزيرة العربية ـ دعوى اليهود أنهم من نسل إبراهيم ـ ليس للعبريين اسم معروف فى فلسطين ـ بيت المقدس ليس مقدّسا ـ فلسطين ليست وطنا لليهود ـ فلسطين وطن العرب ـ عهد باطل ـ المسلمون لا اليهود ـ عهد نوح ـ ميثاق أكبر ـ دعوى يردها الواقع ـ قول المسيح في اليهود : «أنتم من أب هو إبليس » ـ الإنجليز واليهود ـ الفرنسيون واليهود ـ الإيطاليون واليهود ـ الأسبانيون واليهود ـ الروسيون واليهود ـ الألمانيون واليهود ـ عقوبات عبر التاريخ ـ مأثرة يمتدح بها المسيحيون ـ أسباب العقوبات : أنانيتهم وأطماعهم ـ غرورهم وتعاليمهم ـ عصبيتهم وخيانتهم ـ اضطهادهم لغيرهم متى تملكوا القدرة.

بين مصر وفلسطين :

سبق أن عرفنا أن بعض المؤرخين يرى أن يعقوب وهو إسرائيل هاجر بأهله من فلسطين إلى مصر حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد (١) ، على أثر ما حاق بفلسطين من مجاعة وما أصاب مراعيها من جدب وقحط وجفاف، وأن تفصيل ذلك يرجع إلى أن أبناء يعقوب عليه السلام كانوا فى هذه الفترة يترددون على مصر لقصد التجارة ، وطلب القوت ، فتعرفوا على أخيهم يوسف عليه السلام، الذى كان فى ذلك الوقت أمينا على خزائن مصر، فأكرمهم وطلب منهم أن يحضروا جميعا، ومعهم أبوهم يعقوب عليه السلام، إلى أرض مصر ، وكان عددهم ــ كما جاء فى سفر التكوين ــ ستا وستين نفسا سوى نسوة أولاده (٢) .

وعرفنا ــ كذلك ــ كيف أكرم يوسف عليه السلام مثوى أبويه وإخوته، ورقق لهم قلب ملك مصر فى ذلك الوقت ، وطلب بنو إسرائيل من ملك مصر أن يسكنهم فى أرض جاسان ــ يقال: إن مكانها الآن « بلدة صفط الحنة » بمحافظة الشرقية بمصر ــ فاستجاب لهم، وقال ليوسف ــ كما جاء فى سفر التكوين ـ : أبوك وإخوتك جاءوا إليك أرض مصر، ففى أفضل أرضها أسكن أباك وإخوتك ، ليكونوا فى أرض جاسان .. فأسكن أباه وإخوته، وأعطاهم ملكا فى أرض مصر فى أفضل الأرض ، وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيت أبيه .. (٣) .

وعرضنا لما فى سورة يوسف من تصوير رائع لما حصل بينه وبين إخوته من أحداث ، وهجرة يعقوب ببنيه إلى مصر ، وما تلا ذلك من مواقف .. وأنهم ـ كما يقول الدكتور أحمد بدوى وهو يصف علاقة المصريين ببنى إسرائيل فى تلك الفترة ــ : قد عرفوا مصر منذ أيام الدولة الوسطى على الأقل، جاءوها أول الأمر لاجئين، يطلبون الرزق فى أرضها، ويلتمسون فيها وسائل العيش الناعم، والحياة السهلة الرضية بين أهلها الكرام ، ثم جاءوها أسارى فى ركاب فرعون ، كلما عاد من حروبه فى أقاليم الشرق ظافرا منصورا، فينزلهم حول دور العبادة يخدمون فى أعمال البناء، ويعبدون أربابهم أحرارا، لم يكرههم أحد على قبول مذهب أو اعتناق دين ، وتطيب لهم الإقامة فى مصر، وتستقيم لهم فيها أمور

---

(١) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم : ٤٠ بتصرف.

(٢) سفر التكوين : ٦ : ٤ . (٣) سفر التكوين: ٤٧ .

الحياة ، ثم تنزل بالمصريين بعض الشدائد ، وتحل بديارهم بعض المحن والنوائب ، فيتنكر لهم بنو إسرائيل ، ويتربصون بهم الدوائر، ويعملون على إفقارهم، ، وإضعاف الروح المعنوية بين طبقات الشعب، ابتغاء السيطرة على وسائل العيش فى هذا القطر ، ليفرضوا عليه سلطانهم ، تارة عن طريق الضغط الاقتصادى ، وأخرى عن طريق الدين والعقيدة (١) .

وعرفنا كيف خرجوا من مصر .. وأن تعدادهم العام كان يزيد على المليون .. ففى سفر العدد: الإصحاح الأول: إن موسى أحصى بنى إسرائيل عند الخروج من مصر ، فوجد حملة السلاح منهم يبلغون (٦٠٣٥٠٠) نسمة.

وأنهم سلبوا حلىّ المصريين عند خروجهم.. ويعلق أحد المؤرخين على قصة استلاب بنى إسرائيل لهذه الحلى فيقول: ويلفت النظر خاصة ما جاء فى التوراة من سلب رجال ونساء بنى إسرائيل أمتعة جيرانهم الذهبية والفضية بحيلة الاستعارة، ونسبة ذلك إلى الله تعالى، ومهما كان من أمر فإن تسجيل هذا الخبر بهذا الأسلوب ، يدل على ما كان وظل يتحكم فى نفوس بنى إسرائيل من فكرة استحلال أموال الغير وسلبها بأية وسيلة، ولو لم تكن حالة حرب ودفاع عن النفس، كما أنه كان ذا أثر شديد ـ بدون ريب ـ فى رسوخ هذا الخلق العجيب فى ذراريهم ، ثم من دخل فى دينهم من غير جنسهم (٢) .

ويقول صاحب تاريخ الإسرائيليين: وقد كان تاريخهم إلى وقت خروجهم من مصر، تاريخ أسرة صغيرة أخذت تنمو وتزداد حتى صارت قبيلة كبيرة لا كيان لها ولا حكومة منها، ولا شارع أو وازع فيها ينظر فى أمورها، ويرد قويها عن ضعيفها، متفرقة فى أرض مصر ، عرضة للعبودية والسخرة والاستبداد والإهانة، أما بعد الخروج فإنهم تألفوا شعبا واحدا ، وأمة واحدة لها قائدها من بنيها، وجيش يقوم على حمايتها، وحاكم يتولى أمورها وشئونها، وأخذت تبدو فيها صفات الأمة المستقلة، فإنها لم تكد تغادر مصر، حتى بدأ الشارع فى سن النواميس والقوانين، والشرائع الدينية والأدبية والمدنية كما تكون فى الأمة المستقلة القائمة بنفسها ، وعليه فتاريخ بنى إسرائيل لا يبتدىء إلا بعد خروجهم من مصر، وتاريخهم هذا يستغرق قرونا عديدة ، اتفق لهم فى خلالها كثير من الحوادث العادية من حروب وتقدم وانحطاط (٣) .

وسبق أن عرفنا قبائحهم فى الطريق إلى الشام ..

---

(١) في موكب الشمس : ٢ : ٥٨٨ ـ ٥٨٦ . (٢) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم :٤٣ .

(٣) تاريخ الإسرائيليين : ١٥ ط المقتطفة ١٩٠٤ .

فى الأرض المقدسة :

وبعد وفاة موسى عليه السلام ، عبر « يوشع » ببنى ـ إسرائيل ـ كما تحكى التوراة ـ نهر الأردن إلى الأرض المقدسة ، وأول مدينة استطاع « يوشع » ومن معه أن يدخلوها هى مدينة «أريحا» ثم زحف على مدينة «العى » التى هى بين « نابلس » و «القدس » من ناحية الشرق ، وأن بنى إسرائيل بعد أن دخلوا هاتين المدينتين قتلوا معظم سكانهما ، ثم صلبوا ملك « العى » على باب المدينة ! ثم حكت التوراة بعد ذلك قصة انتصار «يوشع » ومن معه من بنى إسرائيل على الكنعانيين ـ الذين هم سكان فلسطين فى ذلك الوقت ـ وكيف أن بنى إسرائيل كانوا يقتلون رجال ونساء وأطفال المدينة التى تقع فى أيديهم بأمر الرب ! كما يفعلون الآن تماما فى فلسطين ! فهم يقتلون الرجال والنساء والأطفال باسم الرب ! كما يزعمون !

ففى الإصحاح العاشر من سفر « يشوع » هذه العبارة : إن « يشوع » ضرب جميع أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وجميع ملوكها وأبسل ـ أهلك ـ كل نسمة كما أمر الرب ، ولم يبق باقية منهم، فضرب من « قادس » إلى « غزة » وانتصر عليهم ، لأن الرب كان يحارب مع إسرائيل !

ويصف صاحب « قصة الحضارة » ما فعله بنو إسرائيل بالكنعانيين فيقول:

كانت هزيمة العبرانيين للكنعانيين مثلا واضحا لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين، وقد قتل العبرانيون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم، وسبوا من بقى من نسائهم ، وجرت دماء القتلى أنهارا، وكان هذا القتل ـ كما تقول نصوص الكتاب المقدس ـ فريضة الشريعة التى أمر بها الرب موسى ، وزكاة للرب ، ولما استولوا على إحدى المدن قتلوا من أهلها اثنى عشر ألفا وأحرقوها وصلبوا حاكمها ولسنا نعرف فى تاريخ الحرب مثل هذا الإسراف فى القتل والاستمتاع به .. وقد أقام يوشع حكمه على قانون الطبيعة الذى يقول : «إن أكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حيا » وبهذه الطريقة التى لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة [١] .

ويقول الدكتور على عبد الواحد وافى : وحوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أغار بنو إسرائيل بقيادة يوشع خليفة موسى عليه السلام بعد وفاته، على بلاد كنعان ـ فلسطين

---

(١) قصة الحضارة : ٢ : ٣٢٦ لديورانت ، ترجمة محمد بدران .

وما إليها وهى الأرض المقدسة ـ واحتلوها واستولوا على جميع ما فيها من خيرات وثروات ، بعد أن أبادوا معظم أهلها، واستعبدوا من أبقواعليه منهم، فانتهت لديهم بذلك حياة الخشونة والبداوة والتنقل وافتتحوا عهد الدعة والحضارة والاستقرار ، وسكنوا المدن والقرى والمنازل والقصور التى ورثوها عن الكنعانيين ، وأخذت مزاولتهم لشئون دينهم تسير على طريق منظم تحت إشراف أحبارهم وربانييهم وفقهائهم وسدنة مساجدهم ومذابحهم ، وكان معظم هؤلاء يتألفون من نسل لاوى أحد أبناء يعقوب، وهم رهط موسى وهارون (١) .

وسبق أن عرفنا كيف أشار القرآن الكريم إلى دخول بنى إسرائيل الأرض المقدسة ..

وتحدثنا ـ كذلك ـ عن العصر الذهبى، وعن أسوأ عهودهم .. وزوال ملك بنى إسرائيل ..

فى الجـزيرة العربية :

وعرفنا ـ أيضا ـ كيف هاجر اليهود بعد ذلك إلى الجزيرة العربية .. وأن هناك من المؤرخين من يرى أن هجرتهم إليها كانت فى عهد داود عليه السلام .. ومنهم من يرى أن نزوحهم إليها كان فى عهد « حزقيال » الذى حكم بلاد يهوذا من سنة ٧١٧ إلى سنة ٦٩٠ ق م .

إلا أن هذين الرأيين ليس لهما سند ثابت من التاريخ ، ولذا لم يعتمد عليهما المحققون من المؤرخين (٢).

والذى ارتضاه بعض هؤلاء المؤرخين ، هو الرأى القائل بأن الهجرة الكبرى لليهود إلى الجزيرة كانت فى القرن الأول الميلادى ، بعد تنكيل الرومان بهم سنة ٧٠ م .

يقول الدكتور : إسرائيل ولفنسون : « بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠ م التى انتهت بخراب بلاد فلسطين، وتدمير هيكل بيت المقدس ، وتشتت اليهود فى أصقاع العالم، قصدت جموع قصيرة من اليهود بلاد العرب ، كما حدثنا عن ذلك المؤرخ اليهودى « يوسيفوس » الذى شهد تلك الحروب، وكان قائدا لبعض وحداتها».

ثم يقول : « وتؤيد المصادر العربية كل هذا : فقد ذكر صاحب الأغانى أنه لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعا بالشام، فوطئوهم وقتلوهم ، ونكحوا نساءهم، خرج بنو

(١) الأسفار المقدسة : ٨ ط نهضة مصر. (٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ١ : ٧٢ وما بعدها بتصرف.

النضير، وبنوقريظة ، وبنو بهدل، هاربين منهم إلى قن بالحجاز من بني إسرائيل ، لما غلبتهم الروم على الشام ، فلما فصلوا عنها بأهليهم بعث ملك الروم فى طلبهم ليردهم فأعجزوه ، وكان ما بين الشام والحجاز مفاوز وصحارى لا نبات فيها ولا ماء، فلما طلب الروم التمر انقطعت أعناقهم عطشا فماتوا، وسمى الموضع « تمر الروم » فهو اسمه إلى اليوم » [1] .

ويرجح الدكتور جواد علي ـ أيضا ـ أن هجرة اليهود إلى الجزيرة كانت بعد غزو الرومان لهم فيقول : « أما ما ورد فى روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالى الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام، وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم، مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء البعيدة عن مجالات الروم ، فإنه يستند إلى أساس تاريخى صحيح، فالذى نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج ، فلا يستبعد أن يكون يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين ، ومن هؤلاء، المهاجرين ـ على رأى الإخباريين ـ بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو بهدل ، ساروا إلى الجنوب فى اتجاه يثرب، فلما بلغوا موضع الغابة وجدوه رديئا، فكرهوا الإقامة فيه، وبعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم منزلا طيبا، وأرضا عذبة، حتى إذا بلغ « العالية » وهى « بطحان » و « مهزور » وهما واديان بأرض عذبة بها مياه وعيون، استقر رأيهم على الإقامة فيها، فنزل بنو النضير ومن معهم على « بطحان » ، ونزلت قريظة وبهدل على « مهزور » [2] .

يقول الدكتور محمد سيد طنطاوى : وبذلك نرى أن الرأى القريب من الصواب، هو أن غالبية يهود جزيرة العرب حلّوا بها فى القرن الأول الميلادى ، أى بعد تدمير «أورشليم» الثانى على يد « تيطس » الرومانى ، وكان حلولهم بها من أهم أسبابه ، فرارهم من وجه الرومان، حتى ينجوا من بطشهم وفتكهم بهم [3] .

وسبق أن عرفنا كيف كانت مواجهة يهود بنى قينقاع، ويهود بنى النضير ، ويهود بنى قريظة، ويهود خيبر .. حتى أجلاهم عمر رضى الله عنه ...

ونخلص من هذا إلى أن اليهود خرجوا من مصر.. وخرجوامن الأرض المقدسة .. وخرجوا من الجزيرة العربية ، لفسادهم وإفسادهم .. وليس لهم حق فى هذه البلاد ...

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب: ٩ .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٦ : ١٠ .

(٣) بنو إسرائيل في القرآن والسنة١ : ٧٤ .

دعوى اليهود أنهم من نسل إبراهيم :

واليهود يدعون أنهم من نسل إبراهيم عليه السلام ، الذى ثبت ـ كما تذكر المصادر الإسرائيلية ـ أنه هاجر من العراق إلى فلسطين ، وسكن مع سكانها الأصليين وهم الكنعانيون والفلسطينيون (١) .

وقبل مولد إبراهيم بآلاف السنين كانت فلسطين ملك أهلها العرب، وكان هو وبنوه فى أرض لا تربطهم بأهلها رابطة ..

وفى سفر التكوين (٢) :

« وماتت سارة فى قرب أربع التى هى حبرون فى أرض كنعان ، فأتى إبراهيم ليندب سارة ويبكى عليها ، وقام إبراهيم من أمام ميته وكلم بنى حث قائلا : أنا غريب ونزيل عندكم، أعطونى ملك قبر معكم لأدفن ميتى من أمامى ...» .

ورواية التوراة هذه تثبت أن إبراهيم عليه السلام لم يكن كنعانيا ولا فلسطينيا ، ولم يكن من سكان فلسطين، وهو يعترف صراحة بأنه « غريب ونزيل » فيها .

ومن ثم فهم ـ أيضا ـ كما عرفنا غرباء عن فلسطين، ودعواهم هذه ترد عليهم فى اغتصابهم لفلسطين فى عصرنا الحاضر !

ليس للعبريين اسم معروف فى فلسطين :

وبعد إبراهيم عليه السلام بقرون تبلغ خمسة أو ستة لم يكن للعبريين أى أثر فى فلسطين ، لاحكم ولا تملك، ثم كان عهد موسى عليه السلام، وهو قبل المسيح عليه السلام بخمسة عشر قرنا تقريبا .. ولم يكن للعبريين أيضا اسم معروف فى فلسطين.. ثم بعد دخول يوشع لم يكن الإسرائيليون يملكون من فلسطين إلا رقعا صغيرة ، ولم تقم لهم مملكة إلا فى أيام « شاول » الذى انتحر هو وأبناؤه وجيشه بسبب هزيمته سنة ١٠٥٦ ق م ، حيث هزمهم الفلسطينيون هزيمة نكراء .

والمملكة التى قامت للإسرائيليين بحق كانت مملكة داود وسليمان عليهما السلام ـ كما أسلفنا ـ ومع ذلك لم تكن غير مملكة صغيرة، انتهت بوفاة سليمان سنة ٩٨٤ ق م كما يقول المؤرخون .

---

(١) اليهودية والصهيونية : ١٤٤ وما بعدها بتصرف.

(٣) سفر التكوين : ٢٣ : ٢ ـ ١٦.

ثم انقسمت ـ كما عرفنا ـ إلى قسمين ..

بيت المقدس ليس مقدسا :

وبيت المقدس لم يكن مقدسا بالإجماع لدى اليهود، وكانت المدينة فى أيدى اليبوسيين، وكان يسكنها بنو بنيامين مع اليبوسيين، دون أن يكون لهم أى حق فى بيت المقدس، بل كان الحق كله لليبوسيين.

ولو كان للمدينة قداسة عند الإسرائيليين لما دمرها « يهوآسن » ملك إسرائيل، ففى سفر الملوك : (١) .

« فانهزم يهوذا أمام إسرائيل ، وهربوا كل واحد إلى خيمته ، وأما أمصيا ملك يهوذا.. فأمسكه يهوآسن ملك إسرائيل فى بيت شمس وجاء إلى أورشليم ، وهدم سور أورشليم من باب أفرايم إلى باب الزاوية أربعمائة ذراع، وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة فى بيت الرب، وفى خزائن بيت الملك والرهناء، ورجع إلى السامرة، وبقية أمور يهوآسن التى عمل وجبروته، وكيف حارب أمصيا ملك يهوذا .. ثم اضطجع يهوآسن مع آبائه ودفن فى السامرة ».

ومع هذا العدوان الصارخ من يهوآسن على بيت الرب ونهبه ما فيه ، لم يكن موضع غضب الله وسخطه ، لأنه اضطجع مع آبائه ، وهذا الاضطجاع آية على رضا الله عندهم، لأنه لا يرقد مع الآباء إلا الأبناء البررة الصالحون!

فلسطين ليست وطنا لليهود:

ولما حدث السبى البابلى لم يكن حنين الإسرائيليين لفلسطين، باعتبار أنها الوطن القومى ، بل كان الحنين إلى ذكرياتهم، حيث كان لهم ذات يوم مضى ملك وسيادة ، ولو تيسر لهم فى المنفى ما يحنون إليه لما ذكروا فلسطين ، بل هم لم يذكروها، وإنما كانوا يذكرون جبل صهيون!

ولما أبيح لهم أن يعودوا من الأسر إلى فلسطين، تخلف عدد جد كبير منهم فى العراق، وآثروه على فلسطين، مما يدل على أن الوطنية لم تكن عاطفة أصيلة فيهم، فحيث يجدون مأملهم يكون الوطن!

وسواء أكان اليهود يحنون إلى فلسطين أم لا يحنون ، فما كانت لهم وطنا قط

---

(١) سفر الملوك: ١٤ : ١٢ ـ ١٦.

إلا الرقع الصغيرة التى اغتصبت من أهلها ولم تكن لديهم عاطفة الوطنية أصيلة، لأنهم كانوا يهاجرون منها بالآلاف ، ويتركون فلسطين إلى غير عودة !

فلسطين وطن العرب :

أما العرب فلم يذكر تاريخهم فى فلسطين أنهم تركوها قط، بل عاشوا فيها كتراب أرضها ، بل كجبال فلسطين ، ولم يفكروا قط فى هجرها، مع ما مر بهم من فترات كانوا فيها تحت أحكام غاشمة أجنبية ، وكانوا يحاربون الغزاة حربا ، ويفتدون فلسطين بالدم، فإذا غلبوا على أمرهم صبروا وهم على أرضهم وفى وطنهم، لأنه جزء منه.

وفلسطين ــ كما عرفنا ــ لم تكن أرضا يهودية قط، وإبراهيم عليه السلام ــ كما سجلت التوراة ــ غريب ونزيل فيها، ولما كان من الصالحين وجد من سكان فلسطين حفاوة وترحابا ، وعاش حياته غريبا فيها ونزيلا لدى أهلها باعتراف التوراة الصريح.

عهد باطـــل :

وأكبر دعوى اليهود فى عصرنا الحاضر، وتشبثهم بها ، أن الله أعطاهم عهدا، بأن تكون فلسطين وما يمتد من النيل إلى الفرات لهم دون غيرهم، وحجتهم ما جاء فى أسفارهم المقدسة عندهم.

ودعواهم هذه دعوى من جانب واحد، وما حجتهم الداحضة إلا جزء من هذه الدعوى الباطلة من الأساس .

جاء فى سفر التكوين ــ أول أسفار توراتهم ــ : (١) « فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا قائلا: لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

وفيه أيضا : (٢) « أما أنا فهو ذا عهدى معك، وتكون أبا لجمهور من الأمم، فلا يدعى اسمك بعد إبرام ، بل يكون اسمك إبراهيم، لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم، وأثمرك كثيرا جدا ، وأجعلك أمما، وملوك منه يخرجون، وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا، لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك، وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا».

ثم تكرر هذا الوعد من بعد إبراهيم لإسحاق ويعقوب وداود وموسى وغيرهم ، ففى

---

(١) سفر التكوين : ١٥ : ١٨ .

(٢) المرجع السابق : ١٧ : ٤ ــ ٨ .

سفر التكوين أيضا : (١) « وكان فى الأرض جوع غير الجوع الذى كان فى أيام إبراهيم، فذهب إسحاق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار ، وظهر له الرب وقال: لا تنزل إلى مصر، اسكن في الأرض التى أقول لك: تغرب فى هذه الأرض فأكون معك وأباركك لأنى لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد وأفى بالقسم الذى أقسمت لإبراهيم أبيك ، وأكثر نسلك كنجوم السماء، وأعطى نسلك جميع هذه البلاد ، وتتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض ».

وتجدد هذا العهد أو الوعد ليعقوب ، ففى هذا السفر الذى هو أول أسفار توراتهم:(٢) « فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران ، وصادف مكانا وبات هناك، لأن الشمس كانت قد غابت ، وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه، فاضطجع فى ذلك المكان، ورأى حلما، وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء، وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها، وهو ذا الرب واقف عليها فقال: أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق، الأرض التى أنت مضطجع عليها لك ولنسلك ، ويكون نسلك كتراب الأرض ، وتمتد غربا وشرقا وشمالا وجنوبا، ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض ».

وعهد الله ـ حسب هذه الروايات التى تحكيها التوراة ـ لإبراهيم ، ثم لإسحاق ، ثم ليعقوب، عليهم السلام، بأن يعطيهم هم أرض غربتهم لم يقع، فإبراهيم ـ كما حكت التوراةنفسها ـ لم يكن يملك شبرا من الأرض، ولما ماتت زوجه الكريمة سارة لم يكن يملك مدفنا أيضا ، كما عرفنا من نصوص التوراة .

وإسحاق ـ كما حكت التوراة أيضا ـ ذهب إلى ملك جرار مستجديا ، ويعقوب أرسل أولاده إلى مصر يمتارون، وحسبه ـ كما سجلت التوراة ـ أنه لم يكن لديه فراش يضطجع عليه ، ولا وسادة يضع عليها رأسه، فاتخذ من الحجارة وسادا.

ومات إبراهيم ، ثم إسحاق ، ثم يعقوب ، ولم يُعط أحد منهم أرض غربته،بل إن نسلهم الذى اختصته أسفار اليهود المقدسة عندهم لم يعطوا أرض غربتهم ، إذ لم يملك بنو إسرائيل إلا قطعا صغيرة من أرض الغربة.

وعهد الله لإبراهيم بأن يعطى نسله هذه الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات لم يتحقق ، حتى هذا اليوم ، بالنسبة لنسل إسحاق الذى انحدر منه العبرانيون أو بنو إسرائيل.

(١) المرجع السابق : ٢٦ : ١ ـ ٤ .
(٢) المرجع السابق : ٢٨ : ١٠ ـ ١٤ .

ومع أن أربعة آلاف سنة مرت على ذلك العهد ـ كما تنص التوراة ـ فإنه لم يتحقق ، ومعاذ الله ألا يتحقق وعد الله وألا يقع عهده.

وفى العهد أن الله يكثر نسل إسحاق كنجوم السماء، كما يجعل نسل يعقوب كتراب الأرض، وها هى ذى أربعة آلاف سنة مرت ولم يكثر نسلهما كالنجوم أو التراب.

وعهد الله لإبراهيم بأن يجعله أبا لجمهور من الأمم ، وأن يجعله أمما ، ويخرج منه ملوك، لم يتحقق بالنسبة لبنى إسرائيل ، فلم يكونوا جمهورا من الأمم ، ولم يكن منهم ملوك إلا قلة معدودة ، ومنذ أكثر من خمسة وعشرين قرنا لم يكن منهم ملك قط.

المسلمون لا اليهود :

ولكن كل هذا العهد قد تحقق بالنسبة للعرب بعد إبراهيم عليه السلام، فهم قد ملكوا فلسطين ، وملكوا مصر، والعراق ، وعشرات الأقطار ، وما زالوا يملكونها حتى وصلوا إلى أوربا والمحيط الأطلسى غربا،وإلى الصين شرقا ، وأخذ حكم الإسلام يمتد فى كل اتجاه حتى دخلت فيه قارات وقارات .

وإذا كان بنو إسماعيل خارجين عن ذلك العهد ، فكله يكون عهدا باطلا، ومعاذ الله أن يكون عهد الله غير حق، وما يكون هذا العهد حقا إلا بالنسبة لنسل إبراهيم من إسماعيل عليهما السلام، والمسلمون جميعا من أى أب كانوا هم أبناء إبراهيم، كما جاء فى القرآن الكريم، إذ يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[١].

ففى هاتين الآيتين يجمع القرآن المنهاج الذى رسمه الله لهذه الأمة المسلمة، ويلخص تكاليفها التى ناطها الحق بها، ويقرر مكانها الذى قدره لها، ويثبت جذورها فى الماضى

(١) الحج : ٧٧ ـ ٧٨.

والحاضر والمستقبل، متى استقامت على النهج الذى أراده لها الله.

إنه منهج عريق أصيل فى ماضى البشرية ـ كما أسلفنا ـ موصول الماضى بالحاضر.

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

وهو منبع التوحيد الذى اتصلت حلقاته منذ عهد إبراهيم عليه السلام، فلم تنقطع من الأرض ، ولم تفصل بينها فجوات مضيعة لمعالم العقيدة كتلك التى أبصرناها فى العقيدة اليهودية حين انحرفت فانجرفت.

ثم إن محتويات العهد تصرفه عن اليهود إلى المسلمين، فعهد الله ـ على زعمهم ـ لإسحاق ويعقوب بأن يتبارك فى نسلهما جميع أمم الأرض لم يقع قط، ولن يقع أبدا، فمنذ عرف الناس اليهود ونقيض البركة هو الذى حدث من اليهود.

وأما فى الحاضر فهم كما فى الماضى ، كانوا وما يزالون مسعر الفتن والحروب ، ومباءة الفساد وجميع الشرور.

وفى المستقبل لن يتغيروا، لأن عقيدتهم ـ رغم ما دخلها من تحريف وتخريف ـ قد احتكروها لأنفسهم ـ كما أسلفنا ـ وربهم « يهوه » محتكر لهم أيضا ، وهو عندهم يشبه الأب الذى لا يمكن أن يدخل فى نسبه وعداد ولده من لم يولد منه.

كذلك اليهود ، ولهذا لن يتبارك فيهم أحد من أمم الأرض جميعا.

وهذا العهد تحقق كل التحقق بالنسبة لنسل إسماعيل عليه السلام، وليس بالنسبة لإسحاق ويعقوب عليهما السلام، فرسالة خاتم النبيين ﷺ هى رسالة الرحمة والإنسانية والهدى، والله عز وجل هو رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، ورحمته وسعت كل شىء .

وهى رسالة مفتوحة للأمم كافة، على نقيض اليهودية المغلقة ، ومن هنا كان عهداً لله حقا بالنسبة لإسماعيل عليه السلام، وغير واقع بالنسبة لغيره من نسل إسحاق ويعقوب عليهما السلام.

عهد نوح :

والعهد لم يكن ـ على رواية التوراة التى ذكرناها ـ خاصا بإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وداود وغيرهم، بل سبق أن أعطيه نوح ، كما يذكر أول أسفار توراتهم :

سفر التكوين : (١) «وكلم الله نوحا وبنيه معه قائلا: وها أنا مقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم من بعدكم ومع كل ذوات الأنفس الحية التى معكم : الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التى معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض ، أقيم ميثاقى معكم فلا ينقرض كل ذى جسد أيضا بمياه الطوفان، ولا يكون أيضا طوفان ليخرب الأرض، وقال الله: هذه علاقة الميثاق الذى أنا واضعه بينى وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التى معكم إلى أجيال الدهر ، وضعت قوسى فى السحاب فتكون علامة ميثاقى بينى وبين الأرض ، فيكون متى أنشر سحابا على الأرض، وتظهر القوس فى السحاب، إنى أذكر ميثاقى الذى بينى وبينكم وبين كل نفس حية فى كل جسد، فلا تكون أيضا المياه طوفانا لتهلك كل ذى جسد، فمتى كانت القوس فى السحاب أبصرها لأذكر ميثاقا أبديا بين الله وبين كل نفس حية فى كل جسد على الأرض. وقال الله لنوح: هذه علامة ميثاقى الذى أنا أقمته بينى وبين كل ذى جسد على الأرض».

وهذا الميثاق يتفق مع كمال الله ورحمته التى عمت الخلق كله، ووسعت كل شيء، فهو عهد بين الله وبين كل ذى نفس حية.

ميثاق أكبر :

وعقب الآيات القرآنية الكثيرة التى تحدثت عن قصة بنى إسرائيل ـ كما أسلفنا ـ نبصر قضية الميثاق الأكبر الذى أخذه الله على فطرة البشر .. فى مشهد جليل فى كل ما يتصل به :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢).

إنها قضية الفطرة والعقيدة،(٣) يعرضها السياق القرآنى فى صورة مشهد ـ على

(١) سفر التكوين : ٩ : ٨ ـ ١٧. (٢) الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٤ .

(٣) في ظلال القرآن : ٣ : ١٣٩٢ بتصرف.

طريقة القرآن الغالبة ـ وإنه لمشهد فريد.. مشهد الذرية المكنونة فى عالم الغيب السحيق، المستكنة فى ظهور بنى آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود، يسألها الخالق : « ألست بربكم ؟ » فتعترف له سبحانه بالربوبية، وتقر له سبحانه بالعبودية، وتشهد له سبحانه بالوحدانية، وهى منثورة كالذر ، مجموعة فى قبضة الخالق العظيم !

إنه مشنهد كونى رائع باهر، لا تعرف اللغة له نظيراً فى تصوراتها المأثورة!

وإنه لمشهد عجيب فريد، حين يتملاه الخيال البشرى جهد طاقته! وحينما يتصور تلك الخلايا التى لا تحصى ، وهى تجمع وتقبض ، وهى تخاطب بما ركب فيها من الخصائص المستكنة التى أودعها إياها الخالق جل شأنه، وهى تستجيب فتعترف وتقر وتشهد، ويؤخذ عليها الميثاق فى الأصلاب !

وإن الكيان البشرى ليرتعش من أعماقه وهو يتملى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد..وهو يتمثل الذر السابح .. وفى كل خلية حياة.. وفى كل خلية استعداد كامن.. وفى كل خلية كائن إنسانى مكتمل الصفات ، ينتظر الإذن له بالنماء والظهور، فى الصورة المكنونة له فى ضمير الوجود المجهول ، ويقطع على نفسه العهد والميثاق، قبل أن يبرز إلى حيز الوجود المعلوم !

لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد ، لتلك الحقيقة الهائلة العميقة المستكنة فى أعماق الفطرة الإنسانية وفى أعماق الوجود.. عرض القرآن هذا المشهد قبل أربعة عشر قرنا من الزمان، حيث لم يكن إنسان يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام! ثم يهتدى البشر بعد هذه القرون إلى طرف من هذه الحقائق وتلك الطبيعة .. فإذا العلم يقرر أن خلايا الوراثة التى تحفظ سجل الإنسان ، وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا فى الأصلاب.. صغيرة صغيرة...

ولا يملك الإدراك البشرى أن يدرك كيفيات هذا المشهد .. إلا ما تذكره النصوص الصحيحة..

وحسبنا فى هذا المقام أن نذكر ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (١)

---

(١) البخاري: ٢٣ ـ الجنائز (١٣٥٨) ، ومسلم : ٤٦ ـ القدر ٢٢ (٢٦٥٨)، والموطأ: ١٦ ـ الجنائز ٥٢ بلفظ «كل مولود» وأبو داود : السنة (٤٦٨٩) عون المعبود ، والترمذي : القدر (٢١٣٨) .

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تُنْتج البهيمةُ بهيمة عجماء. هل تُحسُّونَ فيها من جَدْعاء ؟ » .

ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه:

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1] .

وحسبنا ـ كذلك ـ أن ندرك أن هناك عهدا من الله على فطرة البشر أن توحده. وأن حقيقة التوحيد مركوزة فى هذه الفطرة، يخرج بها كل مولود إلى الوجود، فلا يميل عنها إلا أن يُفسد فطرته عامل خارجى عنها ! عامل يستغل الاستعداد البشرى للهدى والضلال ـ كما يفعل اليهود ومن على شاكلتهم ـ وهو استعداد كذلك كامن تُخرجه إلى حيز الوجود ملابسات يهودية وظروف شيطانية. ففى الحديث الذى يرويه مسلم عن عياض مرفوعا :

« .. وإنى خلقت عبادى حنفاء كلَّهم. وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم.. »[2] .

وإن حقيقة التوحيد ليست مركوزة فى فطرة الإنسان وحده، ولكنها كذلك مركوزة فى فطرة هذا الوجود من حوله... وما الفطرة البشرية إلا قطاع من فطرة الوجود كله.. موصولة به، غير منقطعة عنه، محكومة بذات الناموس الذى يحكمه .. بينما هى تتلقى كذلك أصداءه وإيقاعاته المعبرة عن تأثره واعترافه بتلك الحقيقة الكونية الكبيرة.. فكيف يحتوى الفكر اليهودى على الوثنية الفكرية التى تتنافى مع حقيقة التوحيد ؟ !

إن ناموس التوحيد الذى يحكم هذا الوجود، واضح الأثر فى شكل الكون، وتنسيقه، وتناسق أجزائه، وانتظام حركته، واطراد قوانينه، وتصرفه المطرد وفق هذه القوانين.. وأخيرا ـ حسب العلم القليل الذى وصل إليه البشر ـ وحدة الجوهر الذى تتألف منه ذراته ، وهو الإشعاع الذى تنتهى إليه المواد جميعا عند تحطيم ذراتها وإطلاق شحناتها.. فكيف يشذ اليهود عن ناموس التوحيد الذى يحكم هذا الوجود ؟ !

ويوما بعد يوم يكشف البشر أطرافا من ناموس الوحدة فى طبيعة هذا الكون ، وطبيعة

---

(١) الروم : ٣٠.   (٢) مسلم: ٥١ ـ الجنة ٦٣ (٢٨٦٥).

قوانينه التى تحكم تصرفاته ــ فى غير آلية حتمية ولكن بقدر من الله وفق مشيئة الله الطليقة ــ ولكننا نحن لانعتمد على هذا الذى يكشفه علم البشر الظنى الذى لا يمكن أن يكون يقينا بحكم وسائله البشرية فى تقرير هذا الناموس.. إنما نحن نستأنس به مجرد استئناس .. واعتمادنا الأول فى تقرير أية حقيقة كونية مطلقة، على ما قرره لنا الخالق العليم بما خلق..

والقرآن الكريم لا يدع مجالا للشك فى أن الناموس الذى يحكم هذا الكون هو ناموس الوحدة الذى أنشأته المشيئة الواحدة للخالق سبحانه.. كما أنه لا يدع مجالا للشك فى خضوع هذا الكون لربه وسجوده لوحدانيته ، وذلك بالكيفية التى يعلمها الله، ولانعرف عنها إلا ما يخبرنا به الله، وما نراه من الآثار فى انتظامه ودأبه واطراده.. فكيف ينحرف اليهود عن هذا الناموس ؟ !

إن هذا الناموس الذى يصرف هذا الكون كله ــ بقدر الله وفق مشيئة الله الطليقة ــ سار كذلك فى كيان الإنسان بوصفه من كائنات هذا الكون، مستقر فى فطرته تستشعره بذاتها، وتتصرف وفقه ، ما لم يطرأ عليها الخلل والفساد، فتنحرف عن إدراكها الذاتى له، وتدع للأهواء العارضة أن تسيرها بدلا من أن تسير وفق قانونها الداخلى القويم، كما يفعل اليهود ومن على شاكلتهم!

هذا الناموس بذاته هو ميثاق معقود بين الفطرة وخالقها.. ميثاق مودع فى كيانها .. مودع فى كل خلية حية منذ نشأتها.. وهو ميثاق أقدم من الرسل والرسالات .. وفيه تشهد كل خلية بربوبية الله الواحد . ذى المشيئة الواحدة ، المنشئة للناموس الواحد الذى يحكمها ويصرفها.. فلا سبيل إلى الاحتجاج بعد ميثاق الفطرة وشهادتها إلى أن يقول أحد: إنه غفل عن كتاب الله الهادى إلى التوحيد، وعن رسالات الله التى دعت إلى التوحيد. أو أن يقول: إننى خرجت إلى هذا الوجود، فوجدت آبائى قد أشركوا أو انحرفوا عن التوحيد ــ كما هو شأن اليهود ومن على شاكلتهم ــ فلم يكن أمامى سبيل لمعرفة التوحيد، إنما ضل آبائى فضللت، فهم المسئولون وحدهم ، ولست بالمسئول ! ومن ثم جاء التعقيب على تلك الشهادة:

﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

ولكن الله سبحانه رحمة منه بعباده، لما يعلمه من أن استعدادهم أن يضلوا إذا أُضلوا، وأن فطرتهم هذه تتعرض لعوامل الانحراف ـ كما عرفنا ـ بفعل الشياطين الذين يعتمدون على ما فى التكوين البشرى من نقط الضعف ، كما يفعل اليهود ومن على شاكلتهم!

رحمة من الله بعباده قدّر ألا يحاسبهم على عهد الفطرة هذا، كما أنه جل شأنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يميزون به، حتى يرسل إليهم الرسل، ويفصل الآيات ، لاستنقاذ فطرتهم من الركام والتعطل والانحراف ، واستنقاذ عقلهم من ضغط الهوى والضعف والشهوات:

﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١).

ولو كان الله يعلم أن الفطر والعقول تكفى وحدها للهدى، دون رسل ورسالات ، ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ الله بها عباده (٢) . ولكنه رحمهم بعلمه ، فجعل الحجة عليهم هى الرسالة:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

يرجعون إلى فطرتهم وعهدها مع الله، وإلى ما أودعه الله كينونتهم من قوى البصيرة والإدراك. فالرجعة إلى هذه المكنونات كفيلة بابتغاض حقيقة التوحيد فى القلوب، وردها إلى بارئها الذى فطرها على عقيدة التوحيد. ثم رحمها فأرسل إليها الرسل بالآيات للتذكير والتحذير.. ومع كل هذا فاليهود هم اليهود !

دعوى يردها الواقع :

وأما ادعاء اليهود بأن عهد الله مقطوع لهم وحدهم ، فقد كذبتهم فيه محتويات العهد التى ذكرتها أسفارهم المقدسة، وهم قد كذبوا العهد بواقعهم، وأقرب مثال على هذا التكذيب أن العهد مقطوع لهم بأن يكونوا فى الكثرة كنجوم السماء أو تراب الأرض.

---

(١) النساء: ١٦٥ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن : ٢ : ٨٠٦ وما بعدها.

ومنذ العهد المقطوع حتى اليوم حوالى أربعة آلاف سنة، وعدد اليهود فى العالم كله لم يزد على عشرين مليونا، فى حين أن عدد المسلمين أضعاف أضعاف عددهم بكثير جدا، مما لا يحتاج إلى بيان !

قول المسيح فى اليهود : « أنتم من أب هو إبليس » :

وأسطورة شعب الله المختار يكذبها الواقع منذ قرون مضت ، وحسبنا أن نذكر قول المسيح كما يروى إنجيل متى [1] : « لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة » !

ولكن اليهود كفروا به ، مع أن العهد القديم يبشر به ، فلما بعثه الله إليهم كفروا به وكذبوه واتهموه وحاربوه حتى إن الأناجيل عندهم تذكر أنهم قتلوه ..

ومن الغريب ــ مع ذلك ــ أن بعض أتباع المسيح ما زالوا يعتقدون أن اليهود شعب الله المختار غافلين أو متغافلين عما ينطق به العهد القديم والعهد الجديد !

والعهد القديم لا يعطى عهد الله لمن لم يؤمنوا ، والعهد الجديد كالقديم أيضا فى هذا المنع ، بل ذهب المسيح عليه السلام إلى أبعد من ذلك، فنفى أن يكون معاصروه من اليهود أبناء إبراهيم عليه السلام، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فجعلهم أبناء الشيطان.

ومما لا خلاف فيه أن عهد الله لا يعطاه الشيطان، والمسيح عليه السلام فى الحوار الذى دار بينه وبينهم يكشف عن حقيقتهم ، ويصرخ فى وجوههم: «أنتم تموتون فى خطاياكم» ويعنف الجدل بين المسيح واليهود، وفى إنجيل يوحنا [2] تفصيل ذلك الحوار الذى جاء فيه قول المسيح لهم : « أنا أتكلم بما رأيت .. وأنتم تعلمون ما عند أبيكم » فيجيبه اليهود قائلين : « أبونا هو إبراهيم » فيرد عليهم المسيح بقوله: «لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى ، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله، هذا لم يعمله إبراهيم، أنتم تعملون أعمال أبيكم » ؟ !

وغضب اليهود من قول المسيح ، لأنه نفى أبوة إبراهيم عنهم، ونسبهم إلى غيره، فغضبوا وقالوا له : « إننا لم نولد من زنا » ...

---

(١) إنجيل متى : ١٥ : ٢٤.

(٢) إنجيل يوحنا : ١٨ .

ونفد صبر المسيح وقال لهم : « خرجت من قِبل الله وأتيت ، لأنى لم آت من نفسى، بل ذاك أرسلنى ، لماذا لا تفهمون كلامى ؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولى ، أنتم من أب هو إبليس ، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا » .

الإنجليز واليهــود :

ولقى اليهود فى بعض عهــود الإنجليز ألوانــا من التعذيب، وصنوفا مـن القتل والتشريد[١] .

من ذلك أن الملك الإنجليزى « يوحنا » أصدر أمرا بحبسهم فى جميع أنحاء مملكته.

والملك « هنرى الثالث » أمر بتعذيب اليهود وحبسهم ، لأنه اكتشف أنهم ينزعون جزءا من ذهب النقود الرسمية وفضتها ، بعد أن يقبضوها، ثم يدفعوها إلى التجار، وقد أدى عملهم هذا إلى النقص فى عملة البلاد الرسمية.

ولم يكتف هذا الملك الإنجليزى بتعذيب اليهود وحبسهم ، بل أصدر أمرا سنة ١٢٣٠م مؤداه أن على اليهود أن يدفعوا إلى الخزينة البريطانية ثلث أموالهم المنقولة.

وعندما تولى « إدوارد الأول » عرش بريطانيا سنة ١٢٧٣ م أصدر أمرا يحرم فيه على اليهود التعامل بالربا ورهن الأرض، بعد أن تبين له أن أموال الدولة توشك أن تذهب إلى جيوب اليهود وحدهم، ولكن اليهود لم يتقيدوا بهذا الأمر، بل سرقوا جزءا كبيرا من ذهب العملة البريطانية، وقد حكم على مائتى يهودى بالإعدام سنة ١٢٨١م بعد أن ثبتت عليهم هذه الجريمة.

وفى سنة ١٢٩٨م جأر الشعب البريطانى بالشكوى من اليهود، فأصدر الملك «إدوارد الأول » ــ أيضا ــ أمرا بطرد اليهود من جميع البلاد البريطانية فى غضون ثلاثة أشهر،إلا أن الشعب البريطانى لم يصبر على اليهود حتى تنقضى تلك المدة، بل أخذ يقتل منهم العشرات والمئات، وفى قلعة « بورك » التى احتمى بها عدد كبير من اليهود أحرق الإنجليز أكثر من خمسمائة يهودى، وقد اضطر الملك إلى ترحيلهم قبل انقضاء المدة لئلا يفتك الشعب بهم جميعا فى كل مكان، وظلت بريطانيا خالية من اليهود طوال ثلاثة قرون

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢ : ٣٣٤ وما بعدها بتصرف.

تقريبا. ولكن عادوا إليها سنة ١٦٥٦ م في عهد « كروميل » الذى اغتصب الملك من «شارل الأول» بعد أن قدم له اليهود الأموال الطائلة في سبيل بلوغ أغراضه.

الفرنسيون واليهود:

وفي فرنسا تعرض اليهود في أزمنة مختلفة ، لنقمة الشعب الفرنسي وغضبه، لأنهم دمروا اقتصاده الوطني، وخنقوه بالربا الفاحش، والمعاملات السيئة.

ففي عهد « لويس التاسع عشر » تدهورت الحالة الاقتصادية في فرنسا، فأصدر أمرا بإلغاء ثلث ما لليهود على الفرنسيين من ديون، ثم أصدر أمرا آخر بإحراق جميع كتبهم المقدسة ، وخاصة « التلمود » وقد قال أحد المؤرخين : «إنهم أحرقوا في باريس وحدها محمول أربع وعشرين مركبة من نسخ التلمود وغيرها » [(١)].

وخلال تولى « فيليب الجميل » حكم فرنسا أنزل الفرنسيون باليهود صنوفا من القتل والنهب والتشريد، ثم طردوا من فرنسا نهائيا ، ولكنهم عادوا إليها بعدأن دفعوا لـ «فيليب» ثلثي الديون التي لهم في فرنسا.

وفي سنة ١٣٢١ م هاجمهم الشعب الفرنسي ، وذبح عددا كبيرا منهم، ونكل بهم تنكيلا شديدا، ثم طردوا من فرنسا بعد أن نهبت أموالهم، ولم يستطيعوا العودة إليها إلا في واسط القرن السادس عشر .

وفي أوائل القرن التاسع عشر حاول «نابليون» أن يستغلهم لبلوغ مطامعه، ولكنهم خانوه، فاحتقرهم وبطش بعدد منهم، وقال عنهم: « إنهم حثالات البشر وجراثيمه» ولم ينج اليهود من بطش الشعب الفرنسي إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين.

الإيطاليون واليهود :

وفي إيطاليا حاربهم البابوات حربا شعواء ، وأطلقوا عليهم اسم « الشعب المكروه» وأغروا الشعب الإيطالي بهم، فأعمل فيهم القتل والتشريد ، وقد أصدر البابوات مراسيم عديدة لتكفير اليهود وتسفيه ديانتهم القائمة على التلمود.

وفي سنة ١٢٤٢ م أعلن البابا «جريجورى» التاسع اتهامات صريحة ضد التلمود ،

---

(١) تاريخ الإسرائيليين: ٨٣ شاهين مكاريوس.

الذى يطعن فى المسيح والمسيحية ، وأصدر أوامره بإحراقه فأحرقت جميع نسخه .

وفى سنة ١٥٤٠ م ثار الشعب الإيطالى على اليهود ثورة عارمة قتل فيها الآلاف منهم ، وطردوا من بقى حيا خارج إيطاليا .

الأسبانيون واليهود :

وذاق اليهود من الشعب الأسبانى وملوكه صنوف الذل وألون الهوان، ولم يظفروا بالراحة إلا فى أيام الحكم الإسلامى لأسبانيا.

ولنكتف بذكر عقوبة واحدة من العقوبات المتعددة التى نزلت بهم فى تلك البلاد:

فى عهد الملك « فرديناند» وزوجته «إيزابلا» وصلت موجة السخط على اليهود أقصاها، لتغلغلهم فى الحياة الأسبانية ، واستيلائهم على اقتصادها، وإشعالهم نار الخلافات الدينية بين الطوائف.. فرأى الملك وزوجته أن خير وسيلة لوقاية البلاد من شرورهم هى طردهم من أسبانيا طردا نهائيا.

وفى ٣١ من مارس سنة ١٤٩٢ م صدر المرسوم التالى عن الملك «فرديناند»:

« يعيش فى مملكتنا عدد غير قليل من اليهود، ولقد أنشأنا محاكم التفتيش منذ اثنتى عشرة سنة، وهى تعمل دائما على توقيع العقوبة على المدنيين ، وبناء على التقارير التى رفعتها لنا محاكم التفتيش ، ثبت بأن الصدام الذى يقع بين المسيحيين واليهود يؤدى إلى ضرر عظيم، ويؤدى بالتالى إلى القضاء على المذهب الكاثوليكى، ولذا قررنا نفى اليهود ذكورا وإناثا خارج حدود مملكتنا ، وإلى الأبد وعلى اليهود جميعا الذين يعيشون فى بلادنا وممتلكاتنا ومن غير تمييز فى الجنس أو الأعمار أن يغادروا فى غضون فترة أقصاها نهاية يوليو من نفس العام ، وعليهم ألا يحاولوا العودة تحت أى ظرف أو سبب.

ومن أجل أن يتدبر اليهود أمورهم استعدادا للرحيل منحناهم حمايتنا الملكية، أرواحهم وأملاكهم لغاية آخر يوليو، ونسمح لهم كذلك بأن ينقلوا معهم برا أو بحرا ما يملكون ، باستثناء الذهب والفضة والعملة الذهبية ، والأشياء التى يشملها قانون المنع العام»[١] .

---

(١) انظر : خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية : ١١٨.

وهكذا تم طرد نحو نصف مليون يهودى من أسبانيا : علمائهم وفلاسفتهم وأغنيائهم وفقرائهم ، فى عملية من أخطر العمليات الانتقامية فى التاريخ.

انتشر يهود أسبانيا الهاربون بين دول البحر الأبيض المتوسط ، وفتك بهم الجوع والمرض ، وباع القراصنة آلاف اليهود لتجار العبيد.

كل ذلك بسبب غريزة الشر المتأصلة فى نفوسهم، وعقيدة التعالى والغرور الراسخة فى أعماقهم (١).

ويعتبر بعض اليهـود هـذا القـرار وما تلاه مـن طـرد وتشريد أسوأ من خراب أورشليم (٢).

الروســيون واليهــود :

وكان يعيش نصف يهود العالم تقريبا خلال القرن التاسع عشر فى روسيا، وقد استعملوا طول مدة إقامتهم كل وسائلهم الخبيثة للتدمير والتخريب، ففتحوا الحانات وتاجروا فى الخمور ، وأقرضوا بالربا الفاحش ، واستولوا على الكثير من أموال الدولة بالطرق المحرمة، وقتلوا الكثير من أبناء الشعب الروسى ، عندما مكنتهم الظروف من ذلك، وكوّنوا الجمعيات السرية التى عملت على هدم الحكم القيصرى، واستمرت فى نشاطها حتى أزالته بواسطة الثورة الشيوعية فى سنة ١٩١٧م هذه الثورة التى كان معظم قوادها من اليهود.

ومن قبل لم ينس الروس لليهود ما قاموا به نحوهم من عدوان واستغلال، فانقضوا عليهم عدة مرات، للتخلص منهم ، وأعملوا فيهم الذبح والقتل بلا رحمة .

وكان من أبرز المذابح التى أوقعها الروس مذبحة سنة ١٨٨١م ومذبحة سنة ١٨٨٢م فقد حاول الفلاحون الروس أن يدمروا اليهود تدميرا فى هاتين السنتين.

وعندما نشر الكاتب الروسى «نيلوس» نسخا قليلة من « بروتوكولات حكماء صهيون» سنة ١٩٠٢م التى تفضح نيات اليهود الإجرامية تجاه العالم أجمع ـ والتى سبق

---

(١) المرجع السابق.

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٢: ٣٣٨ بتصرف.

ذكرها ــ جن جنونهم خوفا وفزعا ، وعمت المذابح ضدهم فى روسيا ، حتى لقد قتل منهم فى إحداها عشرة آلاف يهودى .

الألمانيون واليهود :

وانتشر اليهود فى كثير من مدن ألمانيا منذ القرن التاسع عشر، وسكنوا على ضفاف نهر الراين، واستغلوا الشعب الألمانى أسوأ استغلال ، حتى كادوا يستولون على أمواله، عن طريق الربا الفاحش ، واستخدام الوسائل المختلفة لجمع المال الحرام.

ولقد هاج الشعب الألمانى ضدهم فى أوقات مختلفة ، واستعمل معهم كل وسائل القتل والسلب والطرد.

يقول صاحب تاريخ الإسرائيليين: وظل القتل والذبح منتشرا فى اليهود، إلى أن صدرت الأوامر بطردهم من أنحاء ألمانيا فى أزمنة متتابعة ، وذلك ما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر ، حتى لم يكد يبقى منهم واحد فيها .. (١).

وكان آخر ما لاقوه من عذاب وتقتيل وتشريد على يد « هتلر» ابتداء من توليته حكم ألمانيا سنة ١٩٣٣م إلى أن سقط حكمه سنة ١٩٤٥م.

ويعدد المؤرخ الدكتور أحمد بدوى بعض ما شاهده من خيانات اليهود لألمانيا بقوله :

أنا أعلم ــ وأشهد الله على ما أعلم ــ أن « أدولف هتلر» لم يكن متجنيا ولا ظالما، عندما وقف يدفع عدوان اليهود عن وطنه ، بعد أن أكلوا أرزاقه، وحاولوا إذلاله، فقد خرج الشعب الألمانى من الحرب العالمية الأولى مغلوبا على أمره، كسير الجناح، فانتهز اليهود فرصة تلك المحنة ، وعملوا على تجويعه وإذلاله، والعبث بكرامته، وعرض أهله، فملئوا مدائن البلاد بدور الفسق والدعارة ، يتجرون فيها بأخلاق الشبان من الجنسين بغية الكسب والإثراء، ورموا هناك بذور الخلاف السياسى والاقتصادى ، حتى مزقوا الألمان أحزابا مختلفة، يتعب العدُّ من حصرها (٢).

---

(١) المرجع السابق: ٣٣٩ نقلا عن: تاريخ الإسرائيليين : ٨٨.

(٢) مقارنة الأديان ــ اليهودية : ٧٨ نقلا عن : في موكب الشمس : ٢ : ٨٨٧ ــ ٨٨٨.

عقوبات عبر التاريخ :

وفى كل البلاد التى نزل بها اليهود، [1] تعرضوا لنقمة السكان وغضبهم وازدرائهم، يستوى فى ذلك تاريخهم القديم والوسيط والحديث، فقد أنزل العالم بهم ضربات قاصمة، وعقوبات صارمة، شملت التنكيل والطرد والسجن والقتل ومصادرة الأموال.. مما يطول الحديث فيه.

مأثرة يمتدح بها المسيحيون :

ويقرر أحد الكتاب الغربيين أن كل الأمم المسيحية اشتركت فى اضطهاد اليهود وإنزال مختلف العنت بهم، وكانت القسوة تعد مأثرة يمتدح المسيحيون بعضهم بعضا عليها [2].

أسباب العقوبات :

هذا ، والشىء الذى نؤكده بعد سرد طرف من العقوبات التى نزلت باليهود، فى مختلف العصور والأمم، هو أن اليهود هم المسئولون عن كل اضطهاد وقع بهم، وأنهم مستحقون لهذه العقوبات لأسباب ، من أهمها : [3].

أنانيتهم وأطماعهم :

فقد سوغت لهم أنانيتهم أن العالم ملك لهم بكل من فيه وما فيه ، وأن عليهم متى حلوا فى أى دولة أن ينهبوا خيراتها بكل وسيلة وأن يجمعوا أموالها بأى طريقة ، فإن المال هو معبود اليهود من قديم .

يقول «كارل ماركس» اليهودى الشيوعى الأول: «المال هو إله إسرائيل المطماع، وأمامه لا ينبغى لأى إله أن يعيش ، لأن المال يخفض جميع آلهة البشر، ويحولها إلى سلعة، المال هو القيمة العامة المكونة فى ذاتها لجميع الأشياء، لقد أصبح إله اليهود إلها دنيويا، هذا

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢ : ٣٣٩ وما بعدها بتصرف.

(٢) مقارنة الأديان ــ اليهودية ٧٩.

(٣) بنو إسرائيل في القرآن والسنة: ٢ : ٣٤٠ وما بعدها بتصرف.

هو الإله الحقيقى لليهود».

ثم يقول: «ما هو الأساس الدنيوى لليهودية ؟ المصلحة العملية والمنفعة الشخصية ، إذن فالعهد الحاضر بتحرره من المتاجرة والمال، وبالتالى من اليهودية الواقعية العملية ، إنما يحرر نفسه أيضا » (١).

وأنانية اليهود وجشعهم وأكلهم أموال الناس بالباطل ، جعلهم محل نقمة العالم وغضبه، ولقد فطن بعض الزعماء العقلاء إلى خطر تغلغل اليهود فى بلاده، فأخذ يطردهم منها، ويحذر أبناء أمته من شرورهم.

ومن هؤلاء الزعماء العقلاء «بنيامين فرانكلين» أحد رؤساء الولايات المتحدة، فإنه ألقى خطابا سنة ١٧٨٩م قال فيه:

«أيها السادة: هناك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك الخطر هو «اليهود».

أيها السادة: حيثما استقر اليهود، نجدهم يوهنون من عزيمة الشعب، ويزعزعون الخلق التجارى الشريف، إنهم لا يندمجون بالشعب، لقد أقاموا حكومة داخل الحكومة، وحيثما يجدون معارضة من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمة ماليا، كما حدث للبرتغال وأسبانيا...

إذا لم يمنع اليهود من الهجرة بموجب الدستور ، ففى أقل من مائة سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد ضخمة، تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ، ويغيرون شكل الحكومة التى ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا وأموالنا وحريتنا..

إذا لم يستثن اليهود من الهجرة إلى الولايات المتحدة، فإنه لن يمضى أكثر من مائتى سنة ، ليصبح أبناؤنا عمالا فى الحقول لتأمين الغذاء لليهود.

إنى أحذركم ـ أيها السادة ـ إذا لم تستثنوا اليهود من الهجرة إلى الأبد، فسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم فى قبوركم ، إن عقليتهم تختلف عنا حتى لو عاشوا بيننا عشرة

---

(١) المرجع السابق : نقلا عن: كارل ماركس: ٥٥.

أجيال ، كما أن النمر لا يستطيع تغيير لونه . اليهود خطر على البلاد، وإذا دخلوها فسوف يخربونها ويفسدونها» (١) !

وللتعليق على هذا الخطاب نقول: ما أصدق ما توقعه « فرانكلين » لولا أنه قد أخطأ التقدير فى المدة اللازمة لتحويل أمريكا إلى بقرة حلوب لليهود ، فقد قدر هذه المدة بمائتى سنة، أى فى سنة ١٩٨٩م بينما استطاع اليهود أن يسخروا سياسة أمريكا وأسلحتها وأموالها وعلمها ونفوذها وخيراتها، لخدمتهم الخاصة فى مدة تقل عما توقعه بأكثر من خمسين سنة.

وهذا هو الدكتور « جون بتى » يصف التهود اليهودى المتغلغل فى أمريكا فيقول :

« إن رؤساء أمريكا ومن يعملون معهم ينحنون أمام الصهيونية.. كما لو كانوا ينحنون أمام ضريح له قداسته.. وإن الأقلية الإسرائيلية قد وصلت إلى درجة من القوة والطموح تهدد أمريكا بالخطر الدائم.. وتهددها بإثارة حرب عالمية ثالثة » (٢).

غرورهم وتعاليمهم :

واليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباءه، وشعبه المختار، ومن قديم الزمن وهم يقسمون العالم إلى قسمين متقابلين:

قسم إسرائيلى، وهم صفوة الخلق، وأصحاب الحظوة عند الله.

. وقسم آخر يسمونه : الأمم أو « الجوييم» أى غير اليهودى ومعنى « جوييم» عندهم، وثنيون وكفرة، وبهائم وأنجاس.

وقد أدى هذا الغرور والتعالى باليهود إلى إهدار كل حق لغيرهم عليهم، وأن من حق اليهود أن يسرقوا من ليس يهوديا، وأن يغشوه ، ويكذبوا عليه، ويقتلوه إذا أمنوا اكتشاف جرائمهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الرذيلة التى تمكنت من اليهود بقوله:

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) اليهودية العالمية وحربها المستمرة علي المسيحية : ١٣٠ إيليا أبو الروس.

(٢) الستار الحديدى حول أمريكا: نقلا عن لهذا أكره إسرائيل : ١٨٣ .

(٣) آل عمران: ٧٥.

إنها خطة الإنصاف للحق (١) وعدم البخس والجبن، يجرى عليها القرآن الكريم فى وصف حال أهل الكتاب الذين كانوا يواجهون الجماعة المسلمة آنذاك ، والتى لعلها حال أهل الكتاب فى جميع الأجيال، وذلك أن خصومة أهل الكتاب للإسلام والمسلمين ودسهم وكيدهم وتدبيرهم الماكر اللئيم ، وإرادتهم الشر بالجماعة المسلمة وبهذا الدين.. كل ذلك لا يجعل القرآن يبخس المحسنين منهم حقهم، حتى فى معرض الجدل والمواجهة. فهو هنا يقرر أن من أهل الكتاب ناسا أمناء، لا يأكلون الحقوق، مهما كانت ضخمة مغرية.

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾

ولكن منهم كذلك الخونة الطامعين المماطلين، الذين لا يردون حقا ـ وإن صغر ـ إلا بالمطالبة والملازمة .. ثم هم يفلسفون هذا الخلق الذميم، بالكذب على الله عن علم وعن قصد :

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

وهذه بالذات صفة يهود.. فهم الذين يقولون هذا القول، ويجعلون للأخلاق مقاييس متعددة. فالأمانة بين اليهودى واليهودى أما غير اليهود ـ ويسمونهم الأميين ، وكانوا يعنون بهم العرب، وهم فى الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود ـ فلا حرج على اليهودى فى أكل أموالهم ، وغشهم وخداعهم ، والتدليس عليهم، واستغلالهم بلا تحرج من وسيلة خسيسة ولا فعل ذميم !

ومن العجب أن يزعموا أن إلههم ودينهم يأمرهم بهذا ! وهم يعلمون أن هذا كذب! وأن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يبيح لجماعة من الناس أن يأكلوا أموال جماعة من الناس سحتا وبهتانا ، وألا يراعوا معهم عهدا ولا ذمة ، وأن ينالوا منهم بلا تحرج ولا تذمم. ولكنها يهود! يهود التى اتخذت من عداوة البشرية والحقد عليها دينا ودنيا:

﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

وكتب اليهود ـ ولا سيما التلمود ـ طافحة بالوصايا التى تبيح لهم أن يعاملوا غيرهم بمعاملة تخالف معاملتهم مع بعضهم، من ذلك ما جاء فى التلمود:

---

(١) في ظلال القرآن: ١ : ٤١٧ بتصرف.

«إذا خدع يهودى أحدا من الأمم ، وجاء يهودى آخر واختلس من الأممى بعض ما عنده بنقص الكيل أو زيادة الثمن، فعلى اليهوديين أن يقتسما الغنيمة التى أرسلها إليهما «يهواه»[١]. ويهواه هو ــ كما أسلفنا ــ إله اليهود!

ونتيجة لهذا الغرور والتعالى الذى تميز به اليهود، [٢] وأهدروا بسببه كل حق أو كرامة لسواهم من الناس ، قام غيرهم من الأمم ليدافع عن حقه الذى سلبوه منهم وليوقع بهم أقسى العقوبات ، جزاء غرورهم الكاذب، وتعاليهم الباطل.

عصبيتهم وخيانتهم :

واليهود متعصبون متحزبون، لا يجمعهم حب بعضهم لبعض، ولكن تجمعهم كراهية من ليس على ملتهم، كما يجمعهم الحقد على العالم بأسره، وقد أصبحت العزلة والعصبية والعنصرية طابع اليهود الذى لا محيد لهم عنه.

ويصف الدكتور «وايزمان» أول رئيس لإسرائيل طابع العزلة فى اليهود بقوله:

وكان اليهود فى «موتول» ــ مسقط رأسه ــ بروسيا، يعيشون كما يعيش اليهود فى مئات المدن الصغيرة والكبيرة منعزلين منكمشين، وفى عالم غير عالم الناس الذين يعيشون معهم » [٣] .

ولعل أصدق صورة للتحريض على العزلة والتمسك بها، ما ذكره «سلامون شختر» فى خطابه بمدرسة اللاهوت اليهودية العليا ، حيث قال:

« إن معنى الاندماج فى الأمم هو فقدان الذاتية، وهذا النوع من الاندماج مع ما يترتب عليه من النتائج، هو ما أخشاه أكثر مما أخشى المذابح والاضطهادات» [٤].

وقد تسبب عن عزلتهم وعصبيتهم أمور خطيرة، فقد نظروا إلى من سواهم من الأمم نظرة كلها عداء وريبة وحذر، وصار طابعهم فى كل زمان ومكان عدم الإخلاص لأية هيئة دينية أو دنيوية، وعدم الولاء للأوطان التى يعيشون فيها، يأكلون من خيراتها، وإنما يجعلون ولاءهم لجماعتهم ومصالحهم الخاصة دون غيرها، لأن اليهودى يهودى قبل كل

---

(١) الصهيونية العالمية : ٤٤.

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢ : ٣٤٢ وما بعدها بتصرف.

(٣) مقارنة الأديان: اليهودية : ٣٩ نقلا عن : مذكرات وايزمان: ٣.

(٤) المرجع السابق: نقلا عن : الصهيونية والماسونية : ٤٦.

شيء، مهما تكن جنسيته، ومهما يعتنق من عقائد ومبادئ فى الظاهر، وإذا تعارضت جنسيته مع يهوديته ناصر يهوديته، وحاول أن يشيع الخراب والدمار فى الأمة التى هو فرد من أفرادها، خصوصا إذا أمن العقاب.. والصهيونية العالمية تأمر اليهود فى كل مكان أن يجعلوا ولاءهم لإسرائيل، وليس للدول التى يعيشون فيها.

تقول «جولدا مائير» :

«إن اليهود المقيمين خارج إسرائيل طوائف مشتتة ، تعيش فى المنفى ، وأنهم مواطنون إسرائيليون قبل كل شيء، ويتحتم عليهم الولاء المطلق لهذه الدول الجديدة، مهما تكن جنسيتهم الرسمية التى يسبغونها على أنفسهم، وإن اليهودى الإنجليزى الذى ينشد بحكم إنجليزيته نشيد « حفظ الله الملكة » لا يمكن أن يكون فى نفس الوقت صهيونيا»[١].

وما أكثر الحوادث التى قام فيها اليهود بدور العيون والجواسيس على الأوطان التى يعيشون فيها لحساب أعدائها، وأظهر مثل على ذلك ما قام به اليهود المقيمون فى ألمانيا من خيانات لها، خلال الحرب العالمية الأولى، وكان ثمرة هذه الخيانات هزيمة ألمانيا ومنح اليهود جزاء غدرهم الوطنى وعد «بلفور» من الحكومة البريطانية سنة ١٩١٧ م كما سيأتى.

وقد عدد «هتلر» خيانات اليهود لألمانيا، فذكر منها : « استنزاف أموال الشعب بالربا الفادح ، وإفساد التعليم، والسيطرة لصالحهم على المصارف والبورصة والشركات التجارية والسيطرة على دور النشر، والتدخل فى سياسة الدول لغير مصلحة ألمانيا، وفى القمة من خياناتهم التجسس ضد ألمانيا ، الذى احترفه عدد كبير منهم» .

ويختم «هتلر» حديثه الطويل عن اليهود بقوله:

وإذا قيض لليهودى أن يتغلب على شعوب هذا العالم، فسيكون تاجه إكليل جنازة البشرية، وعندما يستأنف كوكبنا السيار طوافه فى الأثير كما فعل منذ ملايين السنين ، لن يكون هناك بشر على سطحه.. لهذا أعتقد أنى تصرفت معهم حسبما شاء خالقنا ، لأنى بدفاعى عن نفسى ضد اليهودى ، إنما أناضل فى سبيل الدفاع عن عمل الخالق » [٢] .

وإذن فعزلة اليهود، وعصبيتهم، وخيانتهم للأوطان التى آوتهم، كان جزاؤها العادل

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢ : ٣٤٤ نقلا عن محاضرة :اليهود ودولة إسرائيل.

(٢) المرجع السابق : ٣٤٥ نقلا عن «كفاحي» لهتلر .

ما حل بهم من دمار وتشريد ، خلال العصور المختلفة.

اضطهادهم لغيرهم متى تملكوا القدرة :

وتاريخ اليهود ملطخ بجرائم القتل والذبح والنهب والسلب والغدر والبطش بغيرهم، ومليء بالمجازر التى قاموا بها ضد الشعوب التى كانت لهم الغلبة عليها ،وقد ساعدهم على ذلك ما أمرتهم به كتبهم من قتل وإذلال لغيرهم ، متى واتتهم الفرصة.. ففى سفر التثنية ما نصه:

« حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إياها فلا تستبق منها نسمة ما »[1] .

ولقد طبق اليهود هذه التعاليم أسوأ تطبيق فى كل أدوار تاريخهم.. فلقد قتلوا فى روما وحدها مائة ألف مسيحى سنة ٢١٤م بإيعاز من الإمبراطور «مارك أوريل » .

وما لنا نذهب بعيدا فى الاستشهاد على إجرامهم ، ومعارك فلسطين مازالت ماثلة فى أذهاننا.. يقول أحد الكتاب المعاصرين :

إن مذبحة «ديرياسين» كانت من أبشع المذابح التى ارتكبها اليهود، فقد قتلوا مائتين وخمسين إنسانا فى قرية صغيرة ، ومثلوا بأجسامهم، وذبحوا الأطفال فى أحضان أمهاتهم وأمام أعينهن..».

وحدث ما يشبه هذه المذابح فى كثير من مدن فلسطين ، كحيفا ويافا ، وقبية، وكفر قاسم...

وقد كتب المؤرخ البريطانى « أرنولد توينبى » فى كتابه «دراسة التاريخ » يقول:

«لو أن بشاعة الخطيئة قيست بدرجة الجرم الذى يقترفه المذنب فى حق ما منحه الله من قدرة على التمييز، لكان اليهود أقل عذرا فيما اقترفوه عام ١٩٤٨م ولكن اليهود يعلمون بما اقترفوه ، وهكذا تتلخص مأساتهم الضخمة فى أن الدرس الذى تعلموه

---

(١) سفر التثنية: ٢٢ : ١٠ ــ ١٧ .

بمصادماتهم مع الألمان النازيين ، لم يجعلهم يحيدون عن أعمال النازى الشريرة ضد اليهود، بل دفعهم إلى مواصلة تلك الأعمال، وأن هذه الأعمال الشريرة التى ارتكبها اليهود ضد الفلسطينيين العرب اشتملت على تقتيل النساء والأطفال والرجال، وأدت إلى هروبهم من بلادهم » (١).

والحق أن مفاهيم اليهود الباطلة، وأنانيتهم الطاغية، وطباعهم اللئيمة، وأخلاقهم الفاسدة، وعصبيتهم الذميمة،وقلوبهم القاسية، واستباحتهم لقتل غيرهم، وإهدار كرامته كل ذلك جعلهم محل نقمة العالم وغضبه، وبسبب هذه الأخلاق المرذولة سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ، ومن يمزقهم شر ممزق.

يقول المؤرخ اليهودى « يوسيفوس » :

«لا توجد أمة فى الأرض فى كل أجيال التاريخ منذ بدء الخليقة إلى الآن، تحملت ما تحمل بنو إسرائيل من الكوارث والآلام ، على أن هذه الكوارث والآلام لم تكن إلا من صنع بنى إسرائيل أنفسهم » (٢).

* * *

---

(١) دولة الإرهاب: ٣٩ علي محمد علي.

(٢) بلادنا فلسطين: ١ : ٦٥٧ مصطفى مراد الدباغ ط دار الطليعة بيروت ١٩٦٥ .

الفصل الثانى

دولة إسرائيل فى العصر الحديث

تمهيد ـ فتح بيت المقدس ـ وثيقة يونانية تسجل قول الروم فى وصف الفتح ـ العهدة العمرية ـ فلسطين إسلامية ـ اليهودية والصهيونية ـ مرحلة الأمانى والأحلام لإنشاء دولة إسرائيل: حركة المكابيين ـ حركة « باركوخيا» ـ مع الإمبراطور «جوليان» ـ مع أحد ملوك الفرس ـ توقف مساعى اليهود ـ دراسات للفكر اليهودى ـ جمعيات سرية ـ حركة العودة فى القرن السادس عشر ـ النواة الأولى للصهيونية الحديثة ـ فشل يهودى ـ الهرب إلى فلسطين ـ بعد الثورة الفرنسية ـ دستور يهودى خطير ـ حماية إنجلترا لليهود فى فلسطين ـ جمع التبرعات لتوطين اليهود فى فلسطين ـ نشر اللغة العبرية ـ عشاق الصهيونية ـ الهجرة الأولى ـ مرحلة الإعداد العملى : أول مؤتمر صهيونى ـ المؤتمر الثانى ـ المؤتمر الثالث ـ المؤتمر الرابع ـ المؤتمر الخامس ـ عزل السلطان عبد الحميد ـ وثيقة تاريخية ـ المؤتمر السادس ـ المؤتمر السابع ـ المؤتمر التاسع ـ المؤتمر العاشر ـ المؤتمر الحادى عشر ـ مؤتمرات أخرى ـ مستعمرات يهودية ـ اليهود فى الجيش البريطانى ـ وعد بلفور ـ اعتراف عصبة الأمم بالوعد ـ اليهود أصحاب هذا الوعد ـ فلسطين تحت حكم بريطانيا ـ كفاح عرب فلسطين ـ بداية الإرهاب اليهودى ـ تقرير «بولز» وأثره ـ تقرير «باركر» وأثره ـ مأساة التقسيم ـ قيام الدولة المجرمة ـ مراحل الحرب: المرحلة الأولى ـ المرحلة الثانية ـ المرحلة الثالثة ـ المرحلة الرابعة ـ أسباب الهزيمة: أهم الأسباب الداخلية ـ أهم الأسباب الخارجية ـ صور من الإرهاب.

تمهـيد :

وإذا كنا قد عرفنا أنه ليس لليهود قومية ولا وطن .. لا فى الأرض المقدسة .. ولا فى الجزيرة العربية . وأن ما حل بهم من تشريد وما نزل بهم من كوارث عالمية إنما هو من صنع اليهود أنفسهم .. فإن ضرورة البحث تقتضينا الحديث عن دولة إسرائيل فى العصر الحديث وفق ما يلى :

فتح بيت المقدس :

بعد أن انتهى الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه من حروب الردة ، ووطد دعائم الإسلام فى جزيرة العرب، أعدّ جيشا لتطهير بلاد الشام [1]، وفيها أرض مقدسة عزيزة على المسلمين ، هى بيت المقدس .. وقدّر عدد ذلك الجيش الإسلامى بـ ٢٤ ألفا ، وقادته من صحابة رسول الله ﷺ..

وزحف جيش المسلمين شمالا، وحارب الروم فى معارك جانبية ، ومواقع ثانوية إلى أن وصل إلى حوران وأطراف دمشق.

أما الروم فقد تجمعوا لمعركة فاصلة فى وادى اليرموك الذى يفصل اليوم بين سوريا والأردن، ويجرى فيه نهر اليرموك الذى يصب فى نهر الأردن.

وقدم خالد الشام مددا لجيوش المسلمين، فوجد القادة يقاتلون الروم متساندين كل أمير على جيش ، ودار بينهم حديث قصير نزلوا بعده على رأى خالد، ووحّدوا القيادة ، وجعلوا خالدا قائدا للمعركة فى يومها الأول، فانتصر المسلمون وانهزم الروم شر هزيمة..

وبعد أن انتصر المسلمون فى اليرموك وجيش الروم عشرة أمثالهم، اتجهوا صوب دمشق وحاصروها ، ثم تم لهم فتحها.. وتقهقرت فلول الروم إلى الشمال ، فأثر ذلك على الوضع الحربى فى منطقة إيلياء ـ بيت المقدس ـ فبعد أن فرغ المسلمون من فتح الشام وجهوا جزءا من قواتهم إلى فلسطين، وفتحوا مناطق عديدة منها ، وحاصروا إيلياء فى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه..

واستماتت الروم فى الدفاع عن بيت المقدس، بيد أن الدين القيم وما يزرعه فى نفوس أتباعه المؤمنين من قوة خارقة وطاقة لا حد لها، قد انتصر على عناد الروم ، فدب اليأس إلى نفوسهم، وطلبوا التسليم لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فحضر بنفسه ، وتسلم

---

(١) خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية : ١٢٦ وما بعدها بتصرف.

المدينة من البطريرك صفرو نيوس.

وثيقة يونانية تسجل قول الروم في وصف الفتح :

يقول صاحب «خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية» : وحينما كنت قائدا لمعركة القدس سنة ١٩٤٨م اطلعت على كتاب يوناني مخطوط في دير المصلبة، يذكر حادثة مجيء عمر بن الخطاب لتسلّم بيت المقدس من الروم المنهزمين.

وقد ترجم الأستاذ على رشدى نص الكلام اليونانى، فبدا مطابقا فى كثير من الوجوه لنصوص التاريخ الأخرى التى أشارت إلى حادثة تسليم بيت المقدس، ومع أن هناك بعض الخلاف فى التفصيلات، وعدم الدقة فى بعضها، إلا أنى أرى من الفائدة ذكر ما قاله الروم عن تلك الحادثة العظيمة:

« لما اشتد حصار جيوش المسلمين لبيت المقدس ٦٣٦م، أطل البطريرك صفرو نيوس على المحاصرين من أسوار المدينة، وقال لهم: إنا نريد أن نسلّم، لكن بشرط أن يكون التسليم لأميركم، فقدموا له أمير الجيش، فقال: لا، إنما نريد الأمير الأكبر، نريد أمير المؤمنين ، فكتب أمير الجيش إلى عمر بن الخطاب يقول: إن القوم يريدون تسليم المدينة، لكنهم يشترطون أن يكون ذلك ليدك شخصيا.

فخرج عمر من المدينة قاصدا بيت المقدس، ومعه راحلة واحدة وغلام، فلما صار فى ظاهر المدينة قال لغلامه نحن اثنان والراحلة واحدة، فإن ركبت أنا ومشيت أنت ظلمتك ، وإن ركبت أنت ومشيت أنا ظلمتنى، وإن ركبنا الاثنان قصمنا ظهرها، فلنقتسم الطريق مثالثة. وأخذ عمر يركب مرحلة، ويقود الراحلة مرحلة، والغلام يركب مرحلة، ويقود مرحلة، وتمشى الراحلة أمامهما متخففة من حمل أحد مرحلة. وهكذا استمر عمر يقتسم الطريق مثالثة بين نفسه وبين غلامه وبين راحلته من المدينة، حتى بلغ جبلا مشرفا على القدس، (١) صادف أن كانت ببلوغه قد انتهت مرحلة ركوبه، فكبّر من فوق رحل الراحلة، (٢) ولما فرغ من تكبيره قال لغلامه: دورك ... اركب، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين! لا تنزلنّ ولا أركبنّ، فإنا مقبلون على مدينة فيها مدنية وحضارة، وفيها الخيول المطهمة المسرجة والعربات الذهبية ، فإن دخلنا على هذه الصورة ـ أنا راكب على الراحلة وأمير المؤمنين آخذ بمقودها ـ هزأوا بنا، وسخروا من أمرنا، وقد يؤثر ذلك على

---

(١) لم يذكر الكتاب مرور الخليفة بالجابية، حيث استقبله قادة المسلمين.

(٢) وسمي بذلك الجبل من يومئذ بجبل التكبير.

نصرنا، فقال عمر: دورك ... لو كان الدور دورى ما نزلت وما ركبت، أما والدور دورك فوالله ! لأنزلنّ ولتركبنّ ، ونزل عمر، وركب الغلام الراحلة،وأخذ عمر بمقودها. فلما بلغ سور المدينة وجد نصاراها فى استقباله، خارج بابها المسمى بباب دمشق،وعلى رأسهم البطريرك صغرونيوس، فلما رأوه آخذا بمقود الراحلة وغلامه فوق رحلها، أكبروه وخروا له ساجدين. فأشاح الغلام عليهم بعصاه من فوق رحلها، وصاح فيهم: ويحكم، ارفعوا رءوسكم. فإنه لا ينبغى السجود إلا لله. فلما رفعوا رؤوسهم انتحى البطريرك صفرونيوس ناحية وبكى فتأثر عمر وأقبل عليه ، يطيب خاطره، ويواسيه قائلا: لا تحزن، هوّن عليك ، فالدنيا دواليك، يوم لك ، ويوم عليك. فقال صفرونيوس: أظننتنى لضياع الملك بكيت..؟

والله! ما لهذا بكيت، وإنما بكيت لما أيقنت أن دولتكم على الدهر باقية، ترق ولا تنقطع.. فدولة الظلم ساعة، ودولة العدل إلى قيام الساعة، وكنت حسبتها دولة فاتحين، تمر ثم تنقرض مع السنين.

وخطب عمر فى تلك الجموع الحاشدة ، مستهلا خطبته بقوله: يا أهل إيلياء، لكم ما لنا ، وعليكم ما علينا، ثم دعا البطريرك صفرونيوس لتفقد كنيسة القبر المقدس «كنيسة القيامة» فلبى دعوته، وأدركته الصلاة وهو فيها، فالتفت إلى البطريرك، وقال له: أين أصلّى..؟ فقال: مكانك صلّ.. فقال: ما كان لعمر أن يصلّى فى كنيسة القيامة، فيأتى المسلمون من بعدى ويقولون: هنا صلى عمر، ويبنون عليه مسجدا. وابتعد عنها رمية حجر، وفرش عباءته وصلى وجاء المسلمون من بعده، وبنوا على مصلاه مسجدا، وهو قائم على رمية حجر من كنيسة القيامة إلى يومنا هذا.

ثم سأل عمر البطريرك صفرونيوس عن موضع المسجد الأقصى، فدله على عمود داود وكرسى سليمان «حيث مكان المسجد الأقصى» فوجده مغمورا بالقمامة، ففرش عمر «الظالم.. هكذا فى النص» ! عباءته، وأخذ ينزح فيها القمامة من مكان المسجد ويلقيها فى الأودية، واقتدى به قادة المسلمين ورؤساء الجند، حتى طهروه تطهيرا.. ثم بنى عليه مسجدا »[١].

يقول: وجدير بالذكر أننى رأيت مع النص الذى ذكرته رسما يمثل أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب حين دخوله القدس، وقد رسموه فى ثياب أهل الجزيرة العربية، ملتحيا داخلا من باب دمشق ـ باب العمود ـ ذا مهابة وجلال ووقار، ماشيا على قدميه فى تواضع

(١) بني المسجد أولا من الخشب.

المخلصين الأبرار، آخذا مقود الراحلة بيسراه، وإلى أعلى رافعا يمناه، محذرا الساجدين له من السجود لغير الله. كذلك يمثل الرسم الغلام أجرد أسود مستقرا فوق رحلها، رافعا فى وجوه القوم عصاه، مستنكرا سجودهم لمولاه صائحا فيهم «إنه لا ينبغى السجود إلا لله».

ومن أراد أن يعرف ما رواه المؤرخون من المسلمين فى ذلك ، فليرجع إلى ما ذكره ابن كثير فى ذلك، (١) حتى لا يطول بنا الحديث.

العهدة العمرية :

وأعطى أمير المؤمنين عمر الروم وثيقة أمان، عرفت بالعهدة العمرية، وهى لم تزل محفوظة فى بطريركية الروم الأرثوذكس فى القدس الشريف وهذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم: سقيمها وبريئها وسائر ملتها، إنه لا تسكن كنائسهم،ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صلبهم ، ولا شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم،ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية، كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، فمن شاء منهم قعد ، وعليهم مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم .

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية. كتب ذلك سنة ١٥ للهجرة. شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان» (٢).

وقد كانت العهدة العمرية رمزا على تسامح الإسلام، وتجربة عملية لتطبيق عدل الإسلام، ومبادئه التى تقرر أنه لا إكراه فى الدين.

ويلاحظ فيها النص على منع اليهود من السكن فى إيلياء، بناء على طلب البطريرك،

---

(١) البداية والنهاية : ٧ : ٥٥ وما بعدها. فقد ذكر خلاصة الأقوال في ذلك.

(٢) خطر اليهودية : ١٣٠ ـ ١٣١ نقلاً عن : الفاروق عمر.

ذلك لأن المسلمين حين فتحوا بيت المقدس لم يجدوا فيها أحدا من اليهود، لأن النصارى قد حرّموا عليهم العيش فى المدينة المقدسة ، تخلصا من مؤامراتهم ودسائسهم..

فلسطين إسلامية :

وبعد فتح بيت المقدس تم للمسلمين فتح جميع المدن والمناطق الفلسطينية..

أما المسجد الأقصى وقبة الصخرة بشكلها الحاضر، فقد تم بناؤهما فى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد، وما زالا إلى يومنا هذا من أهم الآثار الإسلامية الخالدة.

وظلت فلسطين إسلامية، منذ الفتح العمرى سنة ١٥ هـ ـ ٦٣٦م حتى سنة ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٨م، باستثناء فترة الحروب الصليبية التى استطاع خلالها ـ ١٠٩٩م ـ ١١٨٧م ـ دعاة التعصب الغربى أن يستولوا على بيت المقدس، ويؤسسوا مملكة اللاتين بها.. وحينما اجتمعت كلمة المسلمين وعزموا على تطهير البلاد المقدسة، قادهم البطل صلاح الدين الأيوبى، وانتصروا فى الحرب التى كان أبرز معاركها فى حطين قرب بحيرة طبرية ٢٥ ربيع الثانى ٥٨٣ هـ ـ ١١٨٧م وبعد معركة حطين استولى صلاح الدين على بيت المقدس فى يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ ـ ٢٠ أكتوبر ١١٨٧م وعامل البطل المسلم الفاتح العدو المنهزم معاملة كريمة، كتلك التى عوملوا بها على يد عمر بن الخطاب . ولم يعاملهم صلاح الدين بالمثل ويفتك بهم كما فعلوا بالمسلمين يوم فتحوا القدس وقتلوا ٧٠ ألفا من المسلمين العزّل من السلاح، بما فيهم الأطفال والنساء والشيوخ، ولقد اعترف أغلب المؤرخين الأجانب بتسامح البطل صلاح الدين وحسن معاملته للمُسلّمين، وكرمه مع الأسرى .

اليهودية والصهيونية :

تحدثنا من قبل عن اليهود واليهودية.. ونريد أن نبين العلاقة بين اليهودية والصهيونية، لأنها من الأمور المهمة فى هذا المقام ، فنقول:

الصهيونية (zionism) نسبة إلى جبل صهيون ، الذى يقع فى جنوب بيت المقدس وكان هذا الجبل يسكنه اليبوسيون الذين طردهم داود عليه السلام فترة من الوقت وسماه «مدينة داود»[١] .

(١) صموئيل الثاني : ٥ : ٧ ـ ٩ .

وأصبح صهيون مكانا مقدسا، لاعتقاد اليهود بأن الرب يسكن فيه. فقد ورد فى المزامير: « رنّموا للرب الساكن فى صهيون » [١].

وورد فى دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة « الصهيونية » ما نصه:

« إن اليهود يتطلعون إلى افتداء إسرائيل ، واجتماع الشعب فى فلسطين، واستعادة الدولة اليهودية، وإعادة بناء الهيكل، وإقامة عرش داود فى القدس ثانية، وعليه أمير من نسل داود » [٢] .

وجاء فى دائرة المعارف اليهودية تحت كلمة « الصهيونية» ما يلى :

« إن اليهود يبغون أن يجمعوا أمرهم، وأن يقدموا إلى القدس، ويتغلبوا على قوة الأعداء، وأن يعيدوا العبادة ـ أى مكان المسجد الأقصى ـ ويقيموا ملكهم هناك» [٣].

وعلى هذا فالصهيونية فى أبسط تعاريفها هى استقرار بنى إسرائيل فى فلسطين، أى فى جبل صهيون وما حوله، وهى كذلك تأييد هذا الاستقرار بالقول أو بالمساعدة المالية أو الأدبية .[٤] .

والصهيونى هو اليهودى الذى يؤثر أن يعيش فى فلسطين، ، على غيرها من البلاد ، وهو كذلك من يساعد اليهود ماديا وأدبيا ليقيموا فى فلسطين ويستقروا بها.

والصهيونية كفكرة وحركة تدعو اليهود إلى فلسطين ليست حديثة[٥] بل هى قديمة فقد زرعت بذورها ـ كما يقول بعض اليهود ـ يوم دكت مملكة إسرائيل على أيدى الأشوريين سنة ٧٢١ ق . م ثم نمت بعد خراب أورشليم الأول على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق . م وسوق اليهود أسارى إلى بابل .

ويقول أحد الكتاب : « إن اليهود الذين سبقوا إلى بابل هم الذين وضعوا بذور فكرة التعصب العنصرى لليهود وهم أصحاب فكرة العودة إلى صهيون، ودعاة أسطورة شعب الله المختار».

ويقول «الفرد ليلتنتال» الكاتب اليهودى فى كتابه « ثمن إسرائيل »:

---

(١) مزامير : ٩ ـ ١١ .
(٢) حقائق عن فلسطين : ١١٤ الهيئة العربية العليا لفلسطين ١٩٥٤ .
(٣) المرجع السابق.
(٤) مقارنة الأديان: اليهودية ١٠٢ بتصرف.
(٥) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢ : ٤٣٥ وما بعدها بتصرف.

« لقد بقيت فكرة دولة إسرائيل حية فى نفوس اليهود بترانيمهم ، ومنها المزمور ٣٧ حيث يقول واضعه:

«على أنهار بابل هناك جلسنا، بكينا عندما تذكرنا صهيون. على الضفاف فى وسطها علقنا أعوادنا . هناك سألنا الذين سبقونا قائلين: رنموا لنا من ترنيمات صهيون. قلنا لهم: كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة، إن نسيتك يا أورشليم تنسنى يمينى، ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك إن لم أفضل أورشليم على أعظم أفراحى . يا بنت بابل : طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة .. » (١).

ويفرق الكتاب بين اليهودية والصهيونية، (٢) ، من حيث إن اليهودية ديانة والصهيونية حركة سياسية ترمى إلى قيام دولة يهود فى فلسطين، وعمل اليهود على ترسيخ هذه الفكرة فى أذهان الناس فى كل أقطار الأرض، رغبة فى نجاح خطتهم لإقامة دولة إسرائيل.. ثم العمل من أجل السيطرة التى يريدونها..

فهم يزعمون أن اليهودية ديانة لا دخل لها فى السياسة.، وسبب هذه الدعوى أنهم يعلمون أن اليهود موزعون فى كل أقطار الأرض إلا المملكة العربية السعودية.

وسكان أقطار العالم من اليهود هم طابور الصهيونية الخامس فى داخل تلك الأقطار ، يعملون للصهيونية فى دهاء وخبث، ولئلا تفطن الشعوب لصهيونيتهم ميزوا بينها وبين اليهودية، حتى لا يضار اليهود فى البلدان التى يقطنونها، وحتى يسهل عليهم التعامل مع أفراد الشعب ذلك التعامل الذى يمكنهم من التحكم فى سياسته وآدابه وصحافته، ووسائل إعلامه، وتجارته واقتصاده ، ويمكنهم من إفساد أخلاق الشباب وهم آمنون مطمئنون على نجاح خطتهم الهدامة، وبرامجهم التخريبية.

وكل يهودى على وجه الأرض ينتظر قيام دولة إسرائيل ، وإذا كان هناك خلاف فذلك لا يؤدى إلى اختلاف ، والخلاف أن المتدينين من اليهود ينتظرون قيام دولة إسرائيل على يد أمير من نسل داوذ ـ كما سبق ـ والصهيونيون يريدون قيامها وحسب، فلما قامت الدولة رحب بها كل يهودى، بما فيهم السامرة الذين لا يرضون أن يقال عنهم: إنهم يهود .

---

(١) هذه هي الصهيونية : ٢٣ إسرائيل سلسلة اخترنا لك رقم « ١ » .

(٢)-اليهودية والصهيونية: ٦ وما بعدها بتصرف.

والسامرة يهود، وكتابهم المقدس واحد، على اختلاف بعض النصوص فى نسخة هؤلاء عن أولئك ، وهم يسكنون فى « نابلس » .

يقول الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار : ورأيتهم قبيل حرب حزيران «يونيو » ١٩٦٧ بيوم واحد، وقضيت معهم بضع ساعات اطلعت خلالها على توراتهم، والخلاف بينها وبين توراة اليهود في بعض النصوص والأحكام.

وطبيعى ألا يفصحوا عن تأييدهم لدولة إسرائيل، لأنهم كانوا تحت حكم المملكة الأردنية الهاشمية التي وسعتهم بالفضل والعون والرعاية.

ومع ذلك لا تخفى حقيقتهم ، فكتابهم المقدس يعدهم بقيام الدولة التى ينتظرونها ، فإذا قامت على أى شكل من الأشكال فذلك يشير بأن ما يحلمون به سيتحقق ، لأن قيام دولة إسرائيل سيمهد لهم السبيل إلى تحقيق حلمهم الظافر الذى تحقق الجانب الأول منه.

وما دام جانب من الحلم قد تحقق بقيام الدولة، فإن الجوانب الأخرى ستتحقق لا محالة ، كما يعتقدون.

والخلاف بين السامرة واليهود خلاف نظرى لا يؤدى إلى الاختلاف فيما بينهم فى تحقيق حلم الصهيونية ، فكلهم متفقون عليه ، وينتظرون اليوم الموعود الذى تحقق بقيام دولة إسرائيل، وكان فريق يسعى لتقويتها حسب مفهومه من الدولة أو «المملكة» المنتظرة بالنسبة للسامرة، وإن كانت أسفار هؤلاء وأولئك اليهود تذكر كلمة «مملكة» التى استعملها ساسة إسرائيل الصهيونيون عند قيام دولتهم ، إذ زعموا أن هذه الدولة بعث لمملكة داود.

وخلاصة القول : أن اليهودية صهيونية ، وكل يهودى صهيونى، سواء أكان من المتدينين أم من غير المتدينين ، وآية ذلك حاخامو اليهود الذين عملوا لقيام دولة إسرائيل، وابتهجوا واحتفلوا بقيامها، ومعهم رعاياهم من اليهود المتدينين :

مرحلة الأماني والأحلام لإنشاء دولة إسرائيل :

ولكى نعلم مقدار الجهد الذى بذلته الصهيونية للاستيلاء على فلسطين، منذ خراب أورشليم الأول ــ كما أسلفنا ــ إلى أواخر القرن التاسع عشر.. وهو يمثل مرحلة الأمانى والأحلام لإنشاء دولة إسرائيل.. نسوق ما يأتى:

حركة المكابيين :

فى سنة ١٦٣ ق م قامت حركة المكابيين بزعامة الكاهن اليهودى «متاثيا» وأولاده ، وكان هدفها ــ كما عرفنا ــ إنشاء دولة مستقلة لليهود. واستطاعت أن تنفرد بالحكم لفترة من الزمان، إلا أنها لم يكتب لها البقاء، فقد قضى عليها الرومان قضاء نهائيا سنة ٣٧ ق م.

وهى على كل حال ثورة يتفاخر بها اليهود، فابن جوريون يقول عنها:

«إن هذه الثورات التى قام بها المكابيون قبل الميلاد، وفرت لليهود الحرية السياسية فى القرن العشرين»

حركة « باركوخيا » :

وفى سنة ١١٧م تزعم «باركوخيا» اليهودى حركة تدعو اليهود إلى التجمع والتكتل لإنشاء دولة لهم بفلسطين، تعيد بناء الهيكل، ويكون ملكها من نسل داود عليه السلام، إلا أن هذه الحركة رغم ما أثارته من حماس لم يكتب لها النجاح، بل قضى عليها قضاء تاما.

مع الإمبراطور « جوليان » :

وفى سنة ٣٦١م استعمل اليهود شتى الوسائل مع الإمبراطور «جوليان» الرومانى ليعيد لهم بناء معبدهم، ويمنحهم الاستقلال، وقد مناهم «جوليان» بإجابة مطالبهم، إلا أن المنية عاجلته قبل أن يفى بعهده معهم.

مع أحد ملوك الفرس :

وفى خلال القرن الرابع وعدهم أحد ملوك الفرس أن يمنحهم الحرية إذا انضموا تحت لوائه، ولكنه لما رأى منهم مخادعة وغدرا اضطهدهم وأذلهم.

توقف مساعى اليهود:

ثم توقفت مساعى اليهود لتحقيق حلم العودة خلال القرون الوسطى ، بسبب الاضطهادات التى نزلت بهم ، وانعدمت مشاريعهم ، وتركزت جهودهم فى تثبيت فكرة العودة فى نفوسهم عن طريق التضرع والصلاة فى المعابد ، وعملوا على ترسيخ عاداتهم القديمة، وطقوسهم الخاصة فى نفوس الأفراد ، وساعدهم على ذلك أسلوب حياتهم المنطوى فى الأحياء الخاصة بهم، والتى عاشوا فيها مئات السنين.

دراسات للفكر اليهودى :

وفى هذه الأجواء المنعزلة لمعت أسماء عدد من مفكريهم وأحبارهم وكهانهم.. الذين وضعوا دراسات للفكر اليهودى، وكان من أبرز هؤلاء « اليعازر كالير» فى القرن السابع، و«سعاد غاؤون »من سنة ٨٨٢ م ـ ٩٤٢م و «موسى بن ميمون» من سنة ١١٣٥م ـ ١٢٠٤م و «إسحاق لوريا » من سنة ١٥٣٤م ـ ١٥٧٢م وغيرهم كثيرون.

أما أسباب خمود النشاط اليهودى ، وتوقف العمل المنظم، وتجميد المساعى الجدية فترجع إلى عدم ملاءمة الظروف السياسية والاجتماعية، كما قال بعض مفكريهم.

جمعيات سـرية :

وقد استغلوا هذه القرون لإثبات وجودهم عن طريق عشرات الجمعيات والمنظمات التى شكلوها فى هذه المرحلة من تاريخهم ، والتى اتصفت بتبنى سياسة دفاعية عامة .

وأشهر هذه الجمعيات التى عرفتها أوربا «الكابالا» و «الماسونية» و «فرسان المعبد» وجماعة «الصليب الوردى» وغيرها من الهيئات السرية التى أوجدها اليهود لخدمتهم والعمل لمصلحتهم (١).

حركة العودة فى القرن السادس عشر :

ثم عاد لليهود بعض نشاطهم خلال القرن السادس عشر، ففى سنة ١٥٣٢ م قامت حركة «دافيد روبين» وتلميذه «سولومون مولوخ» وكان هدف هذه الحركة تجميع اليهود وإعادتهم إلى فلسطين، ليقيموا دولة لهم فيها.

وفى سنة ١٥٦٦م طلب اليهودى الأسبانى «دوم جوزيف ناس» من السلطان العثمانى ، أن يبيعه مساحة من الأراضى القريبة من بحيرة طبريا بثمن مرتفع ، وكان مقصده من وراء هذا المطلب إقامة أول مستعمرة يعمرها اليهود ويحتلونها مهاجرين إليها من أنحاء العالم المضطهدين به، إلا أن السلطان العثمانى ـ كما سيأتى ـ رفض طلبه رفضا نهائيا (٢).

---

(١) إسرائيل: فكرة ـ حركة ـ دولة : ٣٣ هاني الهندي ومحسن إبراهيم .

(٢) الصهيونية العالمية وأرض الميعاد : ١٣٤.

النواة الأولى للصهيونية الحديثة:

وفى سنة ١٦٠٤ م قامت فى بريطانيا حركة «منشة بن إسرائيل» التى كان هدفها جمع يهود العالم فى بريطانيا، ثم تهيئة موطن لهم فى فلسطين يهاجرون إليه بعد ذلك، ويقيمون به.

ويبدو أن هذه الحركة كانت النواة الأولى للصهيونية الحديثة التى وجدت لها أرضا خصبة، هى بريطانيا، ترعرت فيها ونمت ، واستطاعت خلال ثلاثة قرون أن تسخر جميع قوى الإنجليز من أجل تحقيق أهداف اليهود (١).

فشل يهودى :

وفى سنة ١٦٢٦م قامت حركة عنيفة بزعامة «شبناى ليفى» تولى أفرادها الدعوة بنشاط لإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، وزعم قائدها أنه هو المسيح المنتظر، إلا أن هذه الحركة رغم تعصبها ونشاطها فشلت فى مساعيها، بل أخذ بعض اليهود يحاربها ويدعو بنى قومه إلى تقبل العيش فى البلاد المستقرين فيها، وأن يكتفوا بالجانب الدينى من يهوديتهم، ويهملوا الجانب السياسى منها.

الهرب إلى فلسطين :

وفى سنة ١٦٦٣م زاد اضطهاد اليهود فى ألمانيا، وإيطاليا ، وهولندا، ومصر..فهرب عدد كبير منهم إلى فلسطين، واستقروا بها كأفراد مهاجرين خاضعين لنظم الدولة العثمانية التى كانت فلسطين ولاية من ولاياتها .

بعد الثورة الفرنسية :

وبعد قيام الثورة الفرنسية فى ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩ زاد نشاط اليهود فى المطالبة بإنشاء وطن قومى لهم بفلسطين، وذلك لأن الثورة الفرنسية كانت من صنع أيديهم ـ كما صرحوا بذلك فى بروتوكولاتهم ـ لأن موجة الاضطهادات التى كان الشعب الفرنسى ينزلها بهم قبل الثورة ، خفت حدتها أو انعدمت بعد قيام الثورة، بل إن اليهود بدأوا يتحكمون فى فرنسا بعد ذلك ، مما حمل «نابليون بونابرت » أن يوجه نداء إلى يهود العالم يدعوهم فيه إلى الإنضواء تحت لوائه ، لكى يعيد إليهم مجدهم الضائع ، ويرد إليهم

---

(١) خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية : ١٥٨.

حقوقهم المسلوبة منذ آلاف السنين.

وقد نشر هذا النداء بالجريدة الفرنسية بتاريخ ٢٠ أبريل سنة ١٧٩٩ م ولكن «نابليون» توالت عليه الأحداث فلم يستطع أن يفعل لهم شيئا، فضلا عن أنه كان فى الحقيقة يقصد من وراء هذا النداء إبعادهم عن فرنسا، بعد أن لمس تحكمهم فى كل مرافقها، وبعد أن رآهم قد تمادوا فى إثارة حماسة اليهود لإعادة بناء دولتهم الغابرة فى فلسطين.

دستور يهودى خطير :

ففى سنة ١٧٩٨ م ألقى أحد زعمائهم فى فرنسا خطابا مثيرا تحدث فيه عن آمالهم وآلامهم وطالبهم فيه بالعمل الجاد من أجل العودة إلى فلسطين.

وقد نقل المؤرخ اليهودى «إيلى ليفى أبو عسل» فى كتابه « يقظة العالم اليهودى » [١] نص هذا الخطاب الذى يعتبر ما ورد فيه دستورا يهوديا خطيرا سبق مقررات حكماء صهيون التى سبق ذكرها.

ونص الخطاب :

«أيها الإخوان: لا يغربن عن ذهنكم أن زفراتكم وتنهداتكم صعدت فى خلال العصور إلى عنان السماء لشدة ما رزحتم تحت أثقال الجور والاضطهاد ، فهلا تنوون أن تتخلصوا نهائيا من الحالة المقرونة بالإذلال والانحطاط التى وضعكم فيها أناس من الهمج؟ إننا نرى الأزدراء مرافقا لنا فى كل مكان، فالبدار البدار ، فقد حان الوقت لتحطيم سلاسل الخسف والإهانة التى طوق العدو بها أعناقكم، وخلع النير الذى لا يطاق احتماله. نعم قد آن الأوان لنهوضنا واحتلال المركز اللائق بنا بين أمم العالم. فهيا بنا أيها الإخوان لتجديد هيكل أورشليم. إن عددنا يبلغ ستة ملايين منتشرين فى جميع أقطار العالم. وفى حوزتنا ثروات طائلة واسعة، وممتلكات عظيمة شاسعة، فيجب أن نتذرع بكل ما لدينا من الوسائل لاستعادة بلادنا ، إن الفرصة لسانحة ومن واجبنا أن نغتنمها.

إنه يجب العمل بالوسائل التالية لتحقيق هذا المشروع المقدس، وهى إقامة مجلس ينتخبه اليهود المقيمون فى البلاد التالية وهى : إيطاليا. وسويسرا. والمجر. وبولونيا. وروسيا. وبلاد الشمال. وبريطانيا العظمى . وأسبانيا، وبلاد ولس. والسويد. وألمانيا. وتركيا. وآسيا. وأفريقيا.

---

(١) يقظة العالم اليهودى: ١٠١ ط النظام بمصر ١٩٢٤.

فاللجنة الممثلة لليهود المقيمين فى هذه البلدان كلها يمكنها أن تبحث فى مهمتها ، وتتخذ ما تراه من القرارات فى صددها. ويكون من الواجب على جميع اليهود أن يقبلوا هذه القرارات ويجعلوها بمثابة قانون لا مندوحة لهم من الخضوع له.

أما البلاد التى تنوى قبولها باتفاق مع فرنسا فهى إقليم الوجه البحرى من مصر، مع حفظ منطقة واسعة المدى ، يمتد خطها من مدينة عكا إلى البحر الميت ، ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر. فهذا المركز الملائم أكثر من أى مركز آخر فى العالم يجعلنا بواسطة سير الملاحة الآتية من البحر الأحمر قابضين على ناصية تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقيا الشمالية والجنوبية . ولا شك فى أن بلاد أثيوبيا والحبشة لا تتأخر عن إقامة علاقاتها التجارية معنا بملء الرضا والارتياح . وهى البلاد التى كانت تقدم للملك سليمان الذهب والعاج والحجارة الكريمة.

ثم إن مجاورة حلب ودمشق لنا تسهل تجارتنا. وموقع بلادنا على البحر المتوسط يمكننا من إقامة المواصلات بسهولة مع فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وغيرها من بلدان أوربا.

ولما كانت بلادنا فى موقع متوسط من العالم فإنها ستصبح كمستودع لجميع الحاصلات التى تنتجها الأراضى الغنية.

أما الاتفاقات والترتيبات الأخرى الخاصة باقتراحاتنا على الباب العالمى فلا يجوز نشرها علنا وعلى رؤوس الأشهاد. وسنكون مضطرين لإبقاء هذه المسألة منوطة بحسن إدارة الأمة الفرنسية.

أيها الإخوان: يجب ألا تدخروا وسيلة أو تضحية فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية، أى الرجوع إلى بلادنا، حيث يمكن أن نعيش فى ظل شرائعنا الخاصة. وأن نجدد البلاد المقدسة التى اشتهر أجدادنا بما بذلوه فى سبيلها من التضحية، وما أظهروه من الشجاعة والشهامة، فكأنى أراكم الآن ونار الإيمان تضطرم فى صدوركم. فيأيها الإسرائيليون: لقد قربت الساعة التى ينتهى فيها أجل حالتكم التعسة. إن الفرصة الآن سانحة فحاذروا أن تفلت من أيديكم » .

إن هذا الخطاب ــ كما يقول الأستاذ عبد الله التل ــ (١) كان يمهد الطريق أمام المرحلة الثانية للصهيونية العالمية بقيادة هرتزل بعد قرن كامل على صدور هذا الخطاب.

---

(١) خطر اليهودية: ١٥٩ هامش.

ولا شك أن القارئ قد وقف عند الفقرة المتعلقة بأطماع اليهود، [1] والتى تشمل الوجه البحرى من مصر، ومعلوم أن الوجه البحرى هو حياة مصر، واليهود يطمعون فى انتزاع الحياة من شعب مصر باغتصاب الوجه البحرى ومياه النيل لإرواء صحراء النقب ، وتبدو غفلة الأمة العربية واضحة من طبع مثل هذا الكتاب الذى يحتوى على مثل هذه التصريحات اليهودية الخطيرة ونشره فى قلب الوطن العربى .. وما هى الأمور التى اتخذتها الأمة تجاه هذا المخطط الصهيونى ؟ !

حماية إنجلترا لليهود فى فلسطين :

وفى خلال القرن التاسع عشر واصل اليهود مساعيهم الكبيرة، واستعملوا وسائلهم المتنوعة من أجل استيطان فلسطين [2] .

ففى سنة ١٨٤٠ سعى يهود أوربا الغربية للحصول على وعد حكومى من بريطانيا لإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، فقد أرسل اللورد « شافتيرى » مذكرة إلى وزير خارجية بريطانيا أثناء انعقاد مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠م يطالبه فيها بأن تتعهد بريطانيا بإنشاء دولة لليهود فى فلسطين.

وقد نتج عن هذه المساعى الحثيثة أن أعلنت إنجلترا حمايتها لليهود المقيمين فى فلسطين، وأرسل رئيس وزراء إنجلترا حينذاك خطابا بذلك إلى القنصل البريطانى بالقدس، وبعد سنة واحدة على هذا المؤتمر، عقد مؤتمر آخر فى دبلن كان من بين مقرراته «طلب التدخل البريطانى فى سبيل استيطان اليهود بفلسطين».

جمع التبرعات لتوطين اليهود فى فلسطين:

وفى سنة ١٨٥٤م قام الحاخام الأكبر الإنجليزى ومعه الوزير اليهودى السير « موسى مونتغيورى» بحملة ضخمة لجمع التبرعات لشراء أرض فى فلسطين يستوطنها اليهود ..

«وموسى مونتغيورى» من كبار أثرياء اليهود، وقد بذل الملايين من أمواله فى سبيل توطين اليهود فى فلسطين ، كما استعمل نفوذه المالى والأدبى من أجل ذلك ، وقد زار فلسطين عدة مرات ليطلع على أحوال اليهود فيها، وليساعدهم بشتى أنواع المساعدات،

---

(١) المرجع السابق: ١٦١ ويلاحظ أن أغلب ما ورد في هذا الخطاب قد تحقق ، وخاصة الجزء الخاص باستغلال الحبشة وأفريقيا لصالح اليهود !

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٢ : ٤٤٢ وما بعدها بتصرف.

وقد تمذهب بمذهب الأرثوذكس ليتمكن من خدمة اليهودية من وراء ستار.

واشترى مزرعة ضخمة للحمضيات قرب مدينة يافا ، واستخدم للإشراف عليها عمالا من اليهود فقط، وشرع فى بناء عشرات المساكن الخاصة باليهود فى مدينة القدس ، وقد عرفت هذه المساكن باسم « ميشوريم » وكان ذلك فى سنة ١٨٥٨ م.

وتبعته فى نفس الوقت أسرة «روتشيلد» المشهورة بغناها.. (١) فاشترت الأراضى الواسعة فى فلسطين، وقدمتها كهدايا إلى يهود أوربا الشرقية ، كى يستوطنوا فلسطين، وهناك كثير من أغنياء اليهود بذلوا الملايين من أموالهم من أجل توطين اليهود فى الأرض المقدسة.

وساعد على تحقيق ذلك أقطاب اليهود الإنجليز مثل: دزرائيلى ولونس أوليفانت، ودزرائيلى اليهودى الذى تظاهر باعتناق المسيحية قد وصل إلى رئاسة الوزراء البريطانية فى عهد الملكة فكتوريا ١٨٧٥ م وهو الذى سرق حصة مصر فى أسهم قناة السويس بأن اشتراها بأربعة ملايين من الجنيهات تسلمها الخديوى إسماعيل لتسديد ديونه. وكانت تساوى أضعاف هذا المبلغ . وحينما عجزت الحكومة البريطانية عن دفع المبلغ اقترضته من المليونير اليهودى روتشيلد مقابل عمولة قيمتها ١٠٠ ألف جنيه استرلينى. وكان هدف دزرائيلى «اللورد بيكون نسفيلد » هو خدمة اليهود بالدرجة الأولى، وخدمة الإنجليز بالدرجة الثانية، ولهذا فهو يعد من الشخصيات اليهودية البارزة التى لعبت دورا خطيرا فى إحياء آمال الشعب اليهودى وتقوية أحلامه. وبالنسبة لتظاهره باعتناق المسيحية فإنى أنقل رأى مؤرخ يهودى فى مسألة اعتناق دزرائيلى المسيحية أو بقائه على اليهودية:

« فإذا أراد الإنسان سبر غور عواطف بيكون نسفيلد وجس نبضه ونزعاته وميوله، لمعرفة ما إذا كان هذا الرجل يتغذى خفية بلبان عقيدته الأولى، وإذا كان اتخذ المسيحية توصلا لاكتساب المعالى، وتسنم ذرا المجد، وتحقيق المطامح الكبرى التى كان يصبو إليها وهو فى ريعان شبابه، فعليه بمطالعة تاريخ حياته، فهو المرجع الوحيد الذى لا يوارى ولا يداجى ، وهو بمأمن من الروح الحزبية، والأغراض الدينية، فالحوادث التى تخللت حياته أبانت لنا أن روح هذا الرجل كانت تحوم دائما حول اليهود، وتفيض بالعطف عليهم،

---

(١) انظر : حكومة العالم الخفية: ٤٧ وما بعدها: شريب سبيريد وفيتش . ترجمة مأمون سعيد. دار النفائس ط سادسة.

وكانت الأوتار الحساسة الكامنة أبدا فى مزاجه وطبيعته تهتز لهم اهتزازا شديدا ، وكان يرقب حركاتهم وسكناتهم فى غدوّه ورواحه، إلا أن ذلك ما كان ليمنعه من تأدية فرائضه الدينية المسيحية » [1] .

نـ ـــر اللغــة العبرية :

وفى سنة ١٨٦٩م قامت فى فرنسا « منظمة الأليانس الإسرائيلية» التى كان هدفها نشر اللغة العبرية بين يهود العالم، حتى يشب أطفالهم مشبعين بها، ومتحمسين للعمل من أجل العودة إلى فلسطين ، وقد نجحت هذه الفكرة نجاحا كبيرا فى نشر اللغة العبرية، واستطاعت أن تنشىء عدة مدارس ومستعمرات لليهود فى فلسطين.

عشاق الصهيونية :

وفى سنة ١٨٨٢م وبعد المذابح الكبيرة التى نزلت باليهود فى روسيا قاموا بإنشاء جمعية « عشاق الصهيونية » التى من أهمها ترحيل اليهود إلى فلسطين.. ويقول «وايزمان» فى مذكراته عن هذه الجمعية:

«إن الحركة الصهيونية فى حقيقتها وجوهرها نشأت فى روسيا، وإن يهود روسيا كانوا العمود الفقرى للكيان اليهودى فى فلسطين، منذ قيام الحركة »[2] .

الهجرة الأولى :

وعن طريق هذه الجمعية تسللت إلى فلسطين الدفعة الأولى من يهود روسيا، حيث أنشأوا أولى المستعمرات الزراعية بالقرب من يافا، وأطلقوا عليها اسم «ريشون ليزيون» أى الأولون فى صهيون ، ويسميها ابن جوريون الهجرة الأولى .

هذه هى أهم الجهود التى بذلها اليهود عبر القرون، حتى نهاية القرن التاسع عشر، وقد علق عليها بعض الكاتبين فقال:

« فى هذه المرحلة تكشف النشاط اليهودى ورصدت الأموال ، وبدأت الدفعة الأولى من المهاجرين اليهود تفد إلى فلسطين ، إلا أن العمل فى هذه المرحلة لم يكن منظما مدروسا ، بل قام ــ فى مجموعه ــ على أسس فردية ، أو على شكل جمعيات لم تنظم

---

(١) يقظة العالم اليهودي: ١٩٤ إيلي ليفي أبو عسل ط النظام بمصر ١٩٢٤م.

(٢) مذكرات وايزمان : ١٤.

جديا بالنسبة للمرحلة، وقد اعتبر المؤرخون أن مرحلة رسوخ الفكرة انتهت بظهور كتاب «الدولة اليهودية» لهرتزل، ونجاح المؤتمر العالمي في « بال » بسويسرا سنة ١٨٩٧م[١] » .

مرحلة الإعداد العملي :

وأما عن أهم الجهود التي قامت بها اليهودية العالمية في مرحلة الإعداد العملي والتحضير الفعلي لإعلان دولة إسرائيل.. فإننا نذكر ما يلي :

أول مؤتمر صهيوني :

في ٢٠ من أغسطس سنة ١٨٩٧ م انعقد أول مؤتمر صهيوني في مدينة «بال» [٢]. بسويسرا، برئاسة «تيودور هرتزل» وحضره مندوبون عن يهود العالم بلغ عددهم ١٩٦ عضوا، اجتمعوا حول مائدة واحدة، وتدارسوا الوسائل الكفيلة بإعادة دولة إسرائيل، وقد حدد «هرتزل» أهداف هذا المؤتمر بقوله:

«إننا اجتمعنا هنا لكي نضع حجر الأساس للمبادئ التي تجمع الشعب اليهودي ، ولدولة يهوذا التي زالت منذ عشرين قرنا».

واستمر المؤتمر منعقدا لمدة ثلاثة أيام ، ثم خرج المؤتمرون بعدها بقرارات .. من أهمها القرار التالي :

«إن أماني الصهيونية هي إنشاء وطن للشعب اليهودي يعترف به من الناحيتين: الرسمية والقانونية، ويصبح الشعب اليهودي بإنشائه في مأمن من الاضطهاد، على أن يكون هذا الوطن هو فلسطين » .

وكان من القرارات التي اتخذوها تشجيع اشتراك كافة يهود العالم في أعمال المؤتمرات القادمة، وتقوية الحركة الزراعية في فلسطين، والإكثار من شراء الأراضي التي يستملكها اليهود في الأرض المقدسة ، وإنعاش الثقافة العبرية والمشاعر العنصرية بين يهود العالم، والقيام بمساع لدى مختلف الحكومات لتأييد الكفاح اليهودي ماديا وأدبيا.

وعقب إعلان هذه القرارات كتب «هرتزل» مقالا في صحيفته التي كان يصدرها في النمسا يقول فيه:

---

(١) إسرائيل : فكرة ـ حركة ـ دولة : ٤٩ .

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٢ : ٤٤٤ وما بعدها بتصرف.

«لو طلب إلىّ تلخيص أعمال مؤتمر «بال» فإنى أقول ، بل أنادى على رؤوس الأشهاد أنى أسست الدولة اليهودية وقد يثير هذا القول عاصفة من الضحك هنا وهناك ، ولكن العالم بعد خمسة أعوام، أوبعد خمسين عاما، سيرى من غير شك ، قيام الدولة اليهودية، حسبما تمليه إرادة اليهود بأن تنشأ لهم دولة»

وبعد عشرين عاما من الانعقاد حصل اليهود على وعد «بلفور» ـ كما سيأتى ـ وكذلك بعد خمسين عاما جاء قرار التقسيم لفلسطين بين العرب واليهود سنة ١٩٤٧م.

ولقد تفاخر اليهود كثيرا بمجهودات «هرتزل» واعتبروه مؤسس الصهيونية الأكبر، وفيه يقول «وايزمان» أول رئيس لدولة إسرائيل:

« إن عظمة «هرتزل » تتجلى فى اضطلاعه بدور العمل الإيجابى، الذى يمثل الإقدام والتفانى فى خدمة الفكرة الصهيونية » .

ثم توالت المؤتمرات بعد ذلك سنويا لخدمة الصهيونية ، وتمكينها من استعمار فلسطين . .

المؤتمر الثانى :

ففى سنة ١٨٩٨م عقد المؤتمر الثانى، وحضره ٣٤٩ عضوا مندوبين عن يهود العالم، وكان من بين هؤلاء الأعضاء عدد كبير من رجال الدين . .

وكان من أبرز مقرراته تأسيس شركة كبيرة تتولى شراء الأرض بفلسطين، وتقوم بتوزيعها على المهاجرين إليها، وتشجيع الجمعيات التى تعمل على نشر اللغة العبرية فى العالم.

المؤتمر الثالث :

وفى عام ١٨٩٩م عقد المؤتمر الثالث بمدينة «بال» أيضا وحضره مئات اليهود، وكان من أهم مقرراته : تنظيم الدعاية الصهيونية فى دول أوربا بصفة خاصة، والتوسع فى شراء الأرض بفلسطين، والإكثار من بناء المستعمرات الخاصة بالعمال.

المؤتمر الرابع :

وفى سنة ١٩٠٠م عقد المؤتمر الرابع بلندن، وكان القصد من وراء انعقاده فى لندن،

الاتصال المباشر بالحكومة الإنجليزية، وتكليفها بأن تضغط على السلطان عبد الحميد، ليسهل لليهود شراء ما يريدون من الأراضى فى فلسطين، وذلك لأن السلطان عبد الحميد عندما رأى توسع اليهود فى شراء الأراضى بفلسطين أخذ يضيق عليهم، ويضع العراقيل فى طريقهم.

وفى هذا المؤتمر تقرر إنشاء «الصندوق القومى لليهود» وكان هدفه العمل على شراء الأراضى بفلسطين، أو على حد التعبير العجيب الذى يستعملونه «إعادة شراء الأراضى بفلسطين »، « ولقد كان هذا الصندوق من أنشط الإدارات التابعة للمنظمة الصهيونية العالمية» (١).

ولقد وصف ابن جوريون ما حققته اليهودية العالمية من مكاسب حتى نهاية القرن التاسع عشر فقال:

كان لنا فى فلسطين فى نهاية القرن التاسع عشر ١٣ مستعمرة جديدة، وقد زرعت البذور الأولى للدولة اليهودية، ولكن العنصر الأساسى ، وهم العمال اليهود، لم يكن متوفرا تماما، وقد سد هذا النقص بطليعة «الدفعة الثانية» من المهاجرين، التى وصلت فى السنين الأولى من القرن الحالى، وعندها وضع الأساس الثابت للدولة ، إذ تشكلت فى فلسطين قوة يهودية مستقلة ذات طابع اقتصادى عسكرى وثقافى»(٢).

ويصف «هيرمان شابيرو» ما حققه اليهود من أطماع فى فلسطين، حتى نهاية القرن التاسع عشر ، فيقول:

« كانت نهاية القرن الماضى بداية بناء الدولة، فلقد وضعنا حجر الأساس لبيت إسرائيل، ثم يأتى أبناؤنا بعدنا ، فيبنون الجدران، وبعد ذلك يضع أحفادنا الأبواب».

وفى مطلع القرن العشرين بدأت الصهيونية تتخذ شكلا عمليا واسعا ومدروسا، لتكوين دولة إسرائيل فى فلسطين.

المؤتمر الخامس :

ففى بسنة ١٩٠١م عقد اليهود مؤتمرهم السنوى الخامس فى مدينة «بال» بسويسرا، وحضره ـ أيضا ـ مئات من اليهود، وكان من أهم قرارات هذا المؤتمر، الموافقة على إنشاء

(١) نظام الحكم في إسرائيل: ١٣.

(٢) الكتاب السنوي لحكومة إسرائيل : المقدمة: ٨ سنة ٥٣ ـ ٥٤.

جامعة عبرية فى فلسطين، لنشر الثقافة اليهودية بين سكانها اليهود، وقد تبنى هذا الاقتراح وتكفل بتنفيذه الدكتور «حاييم وايزمان» الذى كان يعتبر العقل المفكر للحركة الصهيونية فى ذلك الوقت.

وفى خلال هذا العام ـ أيضا ـ أعاد اليهود مساوماتهم للسلطان عبد الحميد، وأخذوا يقدمون له شتى المغريات ، لإقناعه بتأسيس الدولة اليهودية فى فلسطين ، وذهب إليه زعيمهم «هرتزل» وبصحبته عدد من شيوخ صهيون، وعرضوا عليه المساعدات المالية الضخمة، لإنقاذ الإمبراطورية من التدهور المالى ، وتمويلها بما تحتاج إليه من أموال بعد ذلك، فى نظير السماح لهم بإنشاء دولة يهودية بفلسطين.

ولكن السلطان عبد الحميد رغم حاجته الملحة إلى المال، رد على « هرتزل » وزمرته بما يخيب آمالهم، إذ كتب إليهم يقول:

أنصح الدكتور «هرتزل» بألا يتخذ أية خطوات أخرى فى هذا الموضوع ، ولا يسعنى أن أسمح لتحويل شبر واحد من الأرض لليهود، لأن هذه الأرض ليست ملكا شخصيا لى، لأتصرف فيها أنا، بل هى ملك الشعب ، وقد كافح شعبى وحارب من أجل هذه الأرض، فأخضبها بدمائه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم ، وإذامزقت أوصال إمبراطوريتى، فإنهم يحصلون على فلسطين مجانا، إنهم لا يستطيعون اقتطاع شىء من هذه الإمبراطورية، إلا إذا تحولت إلى جثة هامدة، إننى لا أستطيع الموافقة على تشريح جسم بلادى ، وهى لا تزال حية .. »[١].

ومع هذا الرد الحاسم من السلطان عبد الحميد على اليهود، بقى «هرتزل» يراوغ ويتوسل بقيصر ألمانيا وروسيا.. إلا أن توسلاته ومحايلاته باءت جميعا بالفشل إزاء تصميم السلطان عبد الحميد ودهائه، وفهمه العميق لما يهدف إليه اليهود من مطامع.

وفى سنة ١٩٠٢م وافق السلطان عبد الحميد ـ بعد مفاوضات طويلة مع اليهود ـ على ما يأتى:

«أن تعطى الحكومة العثمانية وعدا لليهود يقضى لهم بالهجرة إلى بلاد الإمبراطورية المختلفة فى آسيا، على شرط أن يصبح اليهود المهاجرون من رعايا الدولة العثمانية، وأن يخضعوا للخدمة العسكرية، وأن يسكنوا فى بلاد الدولة العثمانية متفرقين غير مجتمعين ،

---

(١) الوطن اليهودي وعلاقته بالأرض المقدسة: ٨٩ موسي حبيب .

كل خمس أسر على الأكثر فى منطقة واحدة ، باستثناء فلسطين، فإنها محرمة عليهم»[1].

عزل السلطان عبد الحميد :

وذهل اليهود لهذه العروض التى قدمها لهم السلطان، ورفضوها جملة وتفصيلا، وأخذوا يعدون العدة للقضاء عليه، واستعملوا من أجل ذلك مختلف الوسائل.. وتمكنوا فى النهاية من أن يدفعوا صنائعهم الملحدين فى الجيش التركى ليقوموا بثورة ضد السلطان عبد الحميد.. وقد انتهت هذه الثورة بعزله عن الحكم .. وكان من بين الثلاثة الذين تولوا تسليمه قرار العزل يهودى اسمه «قره صو» أفندى.

وبذلك انتقمت اليهودية العالمية لنفسها من السلطان عبد الحميد.

وثيقة تاريخية :

وظهر ذلك جليا فى رسالة وجهها السلطان بعد خلعة إلى الشيخ محمود أبو الشامات فى دمشق يذكر له فيها ما عرض عليه زعماء جمعية الاتحاد «جون تورك» مقابل السماح لليهود بتأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين.

وقد حصل على صورة هذه الوثيقة الأستاذ أحمد راتب عرموش، حيث يقول:

كنت حصلت على صورة هـذه الوثيقـة منذ فتـرة من الزمـن ، وقبل نشـر هـذا الكتاب ، [2]. وفى وقت كنت أقوم بالتحقق من صحتها، وكيفية وصولها إلى أبى الشامات، نشرت مجلة العربى فى عددها رقم ١٦٩ ديسمبر ١٩٧٢م مقالا قيما للأستاذ سعيد الأفغانى تحدث فيه عن هذه الوثيقة وقصتها . وقد جاء فيه:

كان الشيخ محمود أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية اليشرطية، وأول خليفة لصاحب الطريقة الشيخ على اليشرطى المشهور.. وكان راغب رضا بك ، مدير القصر السلطانى ، أيام السلطان عبد الحميد ، من مريدى الشيخ. وكلما زار الشيخ «إستانبول» نزل عند مريده مدير القصر. والظاهر أن السلطان الذى لا تخفى عليه خافية من شئون حاشيته، اطلع على الأمر، فسأل مدير قصره عمن يكون ضيفه، فأخبره أنه شيخه فى الطريق، ووصف له من حاله ما ملأ سمع السلطان وأهاجه لاستزارته، فلما اجتمع به ملأ عينيه وقلبه، وطلب منه الطريق فلباه ، وأصبح السلطان من تلاميذ الشيخ فى الشاذلية

(١) المصدر السابق : ٩٣.

(٢) حكومة العالم الخفية: مقدمة: هامش ٢١ وما بعدها.

وأورادها وأذكارها ، وقد عرفت أن الشيخ حسن الحاضرة ، تتقبله القلوب، فتعلق به السلطان، كما أخذ عنه الطريق جملة من وجهاء «إستانبول» وموظفى القصر السلطانى وجنوده وحراسه. فلما خلع السلطان ووضع فى قصر «سلانيك» كان من الحراس الذين أقيموا عليه، أحد تلاميذ الشيخ أبى الشامات، وعن طريقه كانت تتم المواصلة البسرية الكتابية بين الشيخ والسلطان المخلوع، وحفظ الزمان لنا هذه الرسالة التى أرسلها السلطان إلى الشيخ .

وقد احتفظ الشيخ بهذه الرسالة سرا طوال عهد الاتحاديين، ثم اطلع عليها بعض خلصائه، وبعد وفاته حافظ عليها أولاده أيضا، وهذه أول مرة تنشر فى كتاب [1]. .

وفيما يلى نص الرسالة:

---

(١) وردت الرسالة مع بعض الاختلاف في النص في كتاب « اليهود» إعداد زهدى الفاتح : ١١٤ انظر : المرجع السابق: ٢٦ هامش.

يا هو

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين .

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة واتم التسليم على سيدنا محمد
رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه اجمعين والتابعين الى يوم الدين .
اشبو عريضه مي طريقت عليه شاذليه شيخي وجودلره روح وحيات
ويرن وجمله نك افنديسي بولنان الشيخ محمود افندي ابو الشامات حضرتلرينه
رفع ايديورم . مبارك اللريني اوپرك ودعالريني رجا ايدرك سلام
وحرمتلرمي تقديمدن صكره عرض ايدرم كه . سنه حاليه شهر مايسك ٢٢ يكنجي
كوني تاريخلي مكتوبي واصل اولدي . صحتده وسلامتده دائم اولديغكزدن دولايي
الله حمد وشكرلر ايتدم . افندم اوراد وشاذليه قراءتنه ووظيفه شاذليه ي
اللهك توفيقيله كيجه وكوندوز دوام ايديورم . وبو وظيفه لرمي اداء موفق
اولديغمدن دولايي الله تعالى حضرتلرينه حمد ايدرم . ودعوات قلبيه كزه دائما
محتاج اولديغمي عرض ايلرم . بو مقدمه دن صكره شو مهم مسئله يي ذات
رشادتپناهيلرينه و ذات سماحتپناهيلرينك امثالي عقول سليمه صاحبلرينه
تاريخي برامانت اولارق عرض ايدرمكه . بن خلافت اسلاميه يي هيچ برسبب ايله ترك
ايتمه دم . انجق وانجق (جون ترك) اسميله معروف ومشهور اولان
اتحاد جمعيتنك رؤساسنك تضييق وتهديدي ايله خلافت اسلاميه يي تركه
مجبور ايدلدم . بو اتحادجيلر اراضي مقدسه ده فلسطينده يهوديلر
ايچون بر وطن قومي تأسيسني قبول وتصديق ايتمكلكم ايچون اصرارلرنده
دوام بو اصرارلرينه وتهديدلرينه رغمًا بنده قطعيا بو تكليفي قبول ايتمدم
وبالآخره يوز الى مليون التون انكليز ليراسي ويره جكلريني وعد ايتدلر

صورة الصفحة الأولى من الرسالة التي وجهها السلطان المخلوع «عبد الحميد» إلى الشيخ أبي الشامات باللغة التركية وبخط السلطان نفسه.

بو تكليفي دخي قطعيا رد ايتدم وكنديلرينه شو سوزلرله مقابله ده
بولندم . وكل . . . بيليون آلتون انكليز ليراسي دنيا دولوسي
آلتون ويرسه كز بو تكليفلريكزي قطعيا قبول ايتمه م . بن اوتوز سنه دن
فضله بر مدتده ملت اسلاميه يه وامت محمديه يه خدمت ايتدم بوتون
مسلمانلرك وسلاطين وخلفاء عثمانيه دن آباء واجدادمك صحيفه لريني
قرارتمام . بناء عليه بو تكليفكزي مطلقا قبول ايتمام ديه قطعي جواب
ويردكدن صكره خلعمه اتفاق ايتديلر وبني سلانيكه كوندره جكلريني بيلديرديلر
بو صون تكليفلريني قبول ايتدم . والله تعالى يه حمد ايتديكم وايدرمكه دولت
عثمانيه يي وبوتون عالم اسلامي ابدي بر لكه اولاجغه اولان تكليفلريني يعني
اراضي مقدسه ده فلسطينده يهودي دولتي قورولمسني قبول ايتمه دم . ايشته
بوندن صكره اولان اولدي وبوندن دولاييده مولاي متعال حضرتلرينه حمد ايدرم
بو مهم مسئله ده شو معروضاتم كافيدر . وشو سوزلرله مكتوبمه ختام ويريورم
مبارك اللريكزي اوپرك حرمتلرمي قبول بيورمكزي سزدن رجا واسترحام ايدرم
اخوان واصدقالك جمله سنه سلاملر ايدرم . اي همم معظم استاذم . بو بابده سوزمي
اوزاتدم محافظ علم عالي سماحتبنا هيلري وبوتون جماعتكزك معلومي
اولمق ايچون اوزاتمغه مجبور اولدم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

خادم المسلمين

عبد الحميد

صورة الصفحة الثانية من رسالة السلطان إلى الشيخ أبى الشامات

وقد ظهر فى أسفلها توقيع السلطان عبد الحميد وتاريخ الرسالة.

يا هــو

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد للّه رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين.

أرفع عريضتى هذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية، إلى مفيض الروح والحياة. إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندى أبى الشامات وأقبل يديه المباركتين راجيا دعواته الصالحة.

بعد تقديم احترامى، أعرض أننى تلقيت كتابكم المؤرخ فى ٢٢ مارس من السنة الحالية وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.

سيدى : إننى بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلاً ونهارًا. وأعرض أننى ما زلت محتاجا لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم، وإلى أمثالكم أصحاب السماحة ، والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة فى ذمة التاريخ:

إننى لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما ، سوى أننى ـ بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم ـ اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة.

إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا عَلَىَّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومى لليهود فى الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف.

وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضا. وأجبتهم بالجواب القطعى الآتى:

(إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً ـ فضلا عن (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة

إنكليزية ذهبا فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي . لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة فلن أسوّد صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين. لهذا لن أقبل بتكليفكم بوجه قطعي أيضاً).

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سلانيك. فقبلت بهذا التكليف الأخير.

هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة. فلسطين..

وقد كان بعد ذلك ما كان. ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال . وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع المهم ، وبه أختم رسالتي هذه.

ألثم يديكم المباركتين وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي. سلامي إلى جميع الإخوان والأصدقاء.

يا أستاذي المعظم.

لقد أطلت عليكم البحث. ولكن دفعني لهذه الإطالة أن نحيط سماحتكم علما ونحيط جماعتكم بذلك علما أيضا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

في ٢٢ أيلول ١٣٢٩

خادم المسلمين

عبد الحميد بن عبد المجيد

المؤتمر السادس :

وفى سنة ١٩٠٣ م عقد المؤتمر السادس لليهود، [١] وكان معظم النقاش فيه يدور حول إمكانية قبول إنشاء دولة لليهود فى غير فلسطين كسيناء.. أو قبرص .. أو أوغندا .. وقد استطاع يهود شرق أوربا بصفة عامة ويهود روسيا بصفة خاصة، أن يهدموا كل اقتراح يرمى إلى توطين اليهود أية منطقة فى العالم سوى فلسطين ، وأن يخرجوا بقرار مؤداه أن «فلسطين هى الوطن القومى الأبدى للشعب اليهودى».

وبدأ اليهود فى هذا العام يبحثون جديا عن دولة تساعدهم لبلوغ غاياتهم ، ولم يطل بحثهم، فقد وجدوا ضالتهم المنشودة فى بريطانيا، فولوا وجوههم شطرها، لتساعدهم على إنشاء دولة لهم بفلسطين.

ولقد كان «حاييم وايزمان» هو صاحب فكرة التقرب إلى بريطانيا، لأن شعبها من أكثر الشعوب إيمانا بأن الدولة اليهودية لابد أن تقوم فى فلسطين، حسب نص التوراة كما فهمه الإنجليز.. ولأن إنجلترا فى ذلك الوقت كانت مسيطرة على دول كثيرة فى العالم.. ولأن اليهودية العالمية كانت أقوى ما تكون نفوذا فى بريطانيا حينذاك..

وقد رحبت بريطانيا بهذا التقرب والتشبث ، ووجدت فى ذلك منفعة لها،وبذلك التقت مصالح الاستعمار مع مصالح الصهيونية العالمية.

المؤتمر السابع :

وفى أغسطس سنة ١٩٠٥م عقد المؤتمر السابع برئاسة «دافيد وولفنسون» ــ بعد وفاة «هيرتزل » ــ وكان من أبرز مقررات هذا المؤتمر توسيع الهجرة السرية إلى فلسطين ، وإنشاء مكتبة عبرية كبيرة بها..

ولم نعرف شيئا عن المؤتمر الثامن..

المؤتمر التاسع :

وفى سنة ١٩٠٧م عقد المؤتمر التاسع برئاسة «ماكس نورداو» من يهود «هنقاريا» وكان مقر انعقاده فى «هامبورج» بألمانيا، وقد تقرر فى هذا المؤتمر إنشاء مصرف للتسليف الزراعى، وإقامة مستعمرات تسير على النظم التعاونية، وبدئ فى هذه السنة بإنشاء

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٢ : ٤٥٠ وما بعدها بتصرف.

مستعمرة « تل أبيت» وأخذت فى التوسيع بعد ذلك ، حتى أصبحت هى العاصمة لإسرائيل.

المؤتمر العاشـر :

وفى سنة ١٩١١م عقد المؤتمر الصهيونى العاشر برئاسة «نورداو» أيضا وكان من أهم مقرراته إنشاء شركة تحسين الأراضى ، وكان هدفها شراء الأراضى العربية وتقديمها للمهاجرين اليهود.

المؤتمر الحادى عشـر :

وفى سنة ١٩١٣م عقد المؤتمر الحادى عشر فى النمسا ، وفيه اتفق المؤتمرون على إنشاء الجامعة العبرية بالقدس.

مؤتمرات أخـرى :

ثم توالت المؤتمرات بعد ذلك ، وكانت تمثل تحولا ضخما فى تاريخ اليهود ، لأنها مكنتهم من التجمع لإحياء مطامعهم، بعد أن ظلوا مشتتين ممزقين أكثر من عشرين قرنا، وأصبح لهم ممثل رسمى يتحدث عنهم، ولأنهم عن طريقها رسموا الخطط المدروسة لاستلاب فلسطين، واستطاعوا أن يسخروا كثيراً من الدول لخدمة أغراضهم وآمالهم..

مستعمرات يهودية :

وحينما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م كان عدد المستعمرات التى يمتلكها اليهود حوالى أربعين مستعمرة زراعية، تبلغ مساحتها زهاء مائتى ألف فدان، ويعمل عليها ما يقرب من اثنى عشر ألفا من اليهود، وبلغ مجموع اليهود الذين كانوا يسكنون فلسطين فى ذلك الوقت أكثر من تسعين ألفا، كان نصفهم تقريبا يسكن مدينة القدس.

اليهود فى الجيش البريطانى :

ورأى اليهود أن نشوب الحرب العالمية فرصة ثمينة لهم لتحقيق مطامعهم، وأخذوا ينظرون إلى الكفة الراجحة، ليتقربوا منها ـ كما هو شأن اليهود ـ وأخيرا استقر رأيهم على مناصرة بريطانيا، لأنهم وجدوا أن علامات النصر تدنو منها، فالتحق عدد كبير من اليهود بالخدمة فى الجيش البريطانى، وكانوا يلبسون ملابس الجيش البريطانى، ويحملون

النجمة المسدسة كشعار لهم ، ونجح الدكتور « وايزمان » فى إنتاج مادة لصناعة المتفجرات... واستغلهم الإنجليز فى التجسس لحسابهم، ومن أشهر منظماتهم فى هذا المجال منظمة «نيلى» التى كان مُعظم أفرادها من يهود فلسطين .

وعد بلفور :

وفضلا عن هذا فقد استطاع اليهود أن يجروا أمريكا فى الدخول فى الحرب العالمية الأولى لمناصرة بريطانيا وحلفائها.. وقبض اليهود ثمن هذه الخدمات لبريطانيا «وعد بلفور» وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الوقت وقد صدر فى الثانى من نوفمبر ١٩١٧م [١] ويقضى بأن يعمل الإنجليز على إقامة وطن قومى فى فلسطين،ونصه:

«عزيزى مستر روتشيلد: تنظر حكومة جلالة الملك بعين العطف إلى إنشاء وطن قومى فى فلسطين للشعب اليهودى، وسوف تبذل أفضل الجهود لتسهيل بلوغ هذه الغاية، على أن يفهم جيدا أنه لا يجوز عمل شىء قد يغير من الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية فى فلسطين، ولا الحقوق أو المركز السياسى الذى يتمتع به اليهود فى أى بلاد أخرى».

وفرح اليهود بهذا الوعد فرحا شديدا، واعتبروه نقطة تحول فى تاريخهم، وبلغت حماسة اليهود له مبلغا كبيرا، إذ أيقنوا أن إعلانه قد وضع حدا لآلامهم، وجاء محققا لتنبؤات كتابهم المقدس.

وقد ترتب على هذا الوعد أن ضاعف اليهود جهودهم لبلوغ مطامعهم فى فلسطين. وتقدموا إلى بريطانيا ببرنامج خاص طالبوا فيه بالاعتراف لليهود بجنسية خاصة بهم، وإعطائهم الاستقلال الذاتى..

اعتراف عصبة الأمم بالوعد :

ثم خطا اليهود خطوة أخرى، فعملوا على أن تعترف بهذا الوعد «عصبة الأمم» وقد تم لهم ما أرادوا.

ففى أبريل سنة ١٩٢٠م وقعت فى «سان ريمو» معاهدة الصلح مع تركيا، وفيها أدمج بيان «وعد بلفور» واعتبر جزءا من المعاهدة، وبذلك أعطى الوعد طابعا دوليا، إذ سجل رسميا لدى عصبة الأمم.

---

(١) انظر: خطر اليهودية: ٢٣٤.

اليهود أصحاب هذا الوعد :

وكانت عبارة الوعد من وضع اليهود أنفسهم، فقد جاء في مذكرات «هربرت صموئيل» ما يلي:

« وفى شهر يناير سنة ١٩١٧م ذهبت بصحبة سيررونا لدستورز ولورد روتشيلد لمقابلة بلفور، وعرضنا عليه بوصفه وزيراً للخارجية أن الوقت قد حان لكى تصدر الحكومة البريطانية تصريحا نهائيا بالتأييد والتشجيع، وقد وعد بلفور أن يفعل هذا، وطلب إلىّ أن أقدم له تصريحا نرضى عنه ، وسيحاول هو أن يقدمه لوزارة الحرب، وبينما كنت متغيبا فى جبل طارق، أخذت اللجنة السياسية برياسة سوكولوف على عاتقها وضع مسودة المشروع ..» [١].

وقد اعترف وايزمان فى مذكراته بأنه هو الذى كتبه بالتعاون مع بعض اليهود، وأنه بعد كتابته سلمه لبلفور فى ١٩١٧/٧/١٨م [٢].

والخلاصة أن وعد بلفور كان وعدا ممن لايملك لمن لا يستحق، ثم استطاع الإثنان: من لا يملك ومن لا يستحق بالبطش والخديعة أن يسلبا صاحب الحق الشرعى حقه فيما يملكه وفيما يستحقه.

فلسطين تحت حكم بريطانيا :

وفى التاسع من ديسمبر سنة ١٩١٧م تم للإنجليز احتلال القدس.. وفى أوائل سنة ١٩١٨م تم لهم احتلال بقية أجزاء فلسطين، وأصبحت بذلك خاضعة للحكم العسكرى البريطانى الذى امتد زهاء ثلاث سنوات،تولى خلالها الحكم العسكرى على فلسطين عدد من الضباط المعروفين بميولهم اليهودية. وتمكن اليهود فى هذه الفترة من تنفيذ كثير من مشروعاتهم.

وفى سنة ١٩٢٠م أنهت الحكومة البريطانية الحكم العسكرى، واستبدلت به حكما مدنيا امتد هذا التاريخ إلى ١٤ مايو ١٩٤٨م وقد كان جميع الحكام الذين تولوا إدارة فلسطين فى تلك الفترة من الأشخاص الذين أصلهم يهودى، أو ممن يعرفون بتشجيعهم

(١) خطر اليهودية: ٢٣٩ نقلا عن: الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين: ١٠٧ الجامعة العربية ١٩٥٧.

(٢) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٢ : ٤٥٣ وما بعدها بتصرف.

لليهود: وبعضهم كان اليهود يختارونهم اختياراً للقيام بهذه المهمة .. وقد بلغ عدد المهاجرين اليهود الذين سمح لهم رسميا بسكنى فلسطين فى تلك الفترة أكثر من ٦٠٠ ألف مهاجر.

والخلاصة أن عهد الانتداب البريطانى على فلسطين كان يقوم على وضعها تحت ظروف إدارية واقتصادية وسياسية تضمن إنشاء الوطن القومى لليهود فيها. وأن الإنجليز فى فلسطين فى تلك الفترة ما كانوا إلا حراسا على مصالح اليهود، ومنفذين لمطالبهم.

وقد قال وايزمان فى مذكراته بغرور وصلف:

«نحن اليهود كنا نسعى لإقامة دولة لنا بفلسطين، وقد اخترنا الإنجليز لحكمها، واستعنا فى هذا بعصبة الأمم، فنحن الذين سلمنا فلسطين للإنجليز مؤقتا، وليس الإنجليز هم الذين وهبوها لنا بعد ذلك. ولقد احتضنت بريطانيا حركة الصهيونية منذ نشأتها، وأخذت على عاتقها تحقيق أهدافها، ووافقت على تسليم فلسطين خالية من سكانها العرب لليهود فى سنة ١٩٣٤م ولولا الثورات المتعاقبة التى قام بها عرب فلسطين لتم إنجاز هذا الاتفاق فى الوعد المذكور» (١).

وكان أول حاكم إنجليزى تولى الانتداب على فلسطين سنة ١٩٢٠م هو «هربرت صموئيل» الذى شرع ينفذ المخطط الصهيونى المجرم لاغتصاب فلسطين، تسنده الحراب البريطانية، وأموال يهود العالم ، وخاصة يهود الولايات المتحدة..

وقد اعترف وايزمان فى مذكراته أنه هو الذى اقترح على الحكومة البريطانية تعيين «هربرت صموئيل » مندوبا ساميا على فلسطين ، ليتولى نقل الوعد النظرى إلى حقيقة واقعة (٢).

وقد أنشأ الوكالة اليهودية التى هى عبارة عن حكومة يهودية ذات أجهزة تامة، وتضم أكثر من «٢٠٠» عضو من جميع أنحاء العالم، واعتبر اللغة العبرية لغة رسمية، وسهل تدفق المهاجرين اليهود على فلسطين، حتى بلغ عددهم (١٥٦) ألف يهودى، وسلم اليهود جميع وسائل الصناعة والزراعة، وعين يهوديا مشرفا على أوقاف المسلمين، ومنح اليهود مساحات شاسعة من أراضى الدولة، وأعطى اليهود امتياز استغلال مياه نهر الأردن

---

(١) المرجع السابق: ٤٥٤ نقلا عن: مذكرات وايزمان: ٢٨.

(٢) انظر خطر اليهودية العالمية: ٢٤١ وما بعدها.

لاستخراج الكهرباء، وتولى القيام به اليهودى الروسى «بنحاس وتنبرغ» وكانت مدة امتيازه سبعين سنة. ثم أعطاهم امتاز مشروع آخر، يعتبر من أهم المشروعات، وهو مشروع استغلال مياه البحر الميت، لأن مياهه تحتوى على كميات ضخمة من الأملاح التى تستغل فى الصناعات المختلفة.

والخلاصة أن «هربرت» سخر نفوذه المادى والأدبى لتنفيذ مطامع الصهيونية.

ثم خلفه فى سنة ١٩٢٤م اللورد «بلومر» فسار على نهج سلفه «هربرت» فى تقديم كل المساعدات لليهود، وتضييق الخناق على العرب.

ومن الخدمات التى قدمها لليهود منحهم امتياز استخراج أملاح البحر الميت، وتسهيل شراء الأراضى لهم.

ثم جاء من بعده حكام آخرون لفلسطين من الإنجليز، ساروا جميعهم تبعا للخطة المرسومة التى وضعتها الحكومة اليهودية العالمية، والتى تكلفت الحكومة الإنجليزية بتنفيذها، وكان كل واحد من هؤلاء الحكام خادما أمينا وجنديا مطيعا لليهود.

وقد رأى عرب فلسطين أن بلادهم فى طريقها إلى أن تتحول إلى مستعمرة يهودية منذ وطئها أقدام الإنجليز سنة ١٩١٧م كما شاهدوا بأعينهم أن الإنجليز يعاملون اليهود كما يعامل الوالد الحنون طفله الوحيد المدلل.. فهم يفتحون لهم أبواب الهجرة.. ويعطونهم الأرض بغير حساب.. ويفسحون لهم المجال لاستغلال المياه.. ويعينونهم فى أرقى المناصب وأهمها..

وحتى اليهود فى استراليا كانوا يرسمون للمندوبين خطة تهويد فلسطين، ويسهمون فى تنفيذ تلك الخطة.. ولنقرأ ما قاله اليهودى «اتنجر» فى المؤتمر الصهيونى الذى انعقد فى سدنى باستراليا فى مايو ١٩٢٩م ونقلته جريدة Advent Herald فى عددها الصادر بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٩٢٩م:

« اليهود فى فلسطين الفئة المعنية بالصناعة، والتى يهمها فرض الرسوم الجمركية، ومنذ بضع سنين والمنظمة الصهيونية تصر على حكومة الانتداب، وتطالب بفرض الرسوم لحماية الصناعة اليهودية. والعرب يرفضون هذه الحماية، لأنها ترفع الأسعار على المواد الاستهلاكية. ولكننا نجحنا وأصبحت جميع صناعاتنا محمية من المضاربة الخارجية.

وبالنسبة إلى الأراضى، يتساءل الكثيرون لماذا لم تعطنا حكومة الانتداب الأراضى الأميرية، وجوابى عن هذا التساؤل هو أننا قد حصلنا على أقسام كبيرة من الأراضى، بيد أننا لا نرغب فى الإعلان عن ذلك، وكلما حافظنا على السرية منعنا احتجاج جيراننا العرب.

إن الحكومة البريطانية متفاهمة مع المنظمة الصهيونية لمنحنا أجزاء كبيرة من الأراضى بأثمان رمزية. وأنا أعلن ذلك هنا فى استراليا، لأن العرب ليس لهم مندوبون يراسلون جرائدهم من استراليا. ولسوف نواصل طلب المزيد من المنافع والامتيازات» [1].

ولجأت الحكومة البريطانية فى جميع عهودها، ولجأ مندوبوها السامون فى فلسطين إلى خطة التضليل والغدر والمكر فى تفسير وعد بلفور وفى تنفيذه عمليا، وكان أقطاب الإنجليز الصهاينة «تشرشل» و «إيدان» و «بلفور» و «ماكدونالد» و«أتلى» و «بيڤن» و« بيڤان» و« كروسمان» يتظاهرون دائما باتخاذ موقف الحياد بين العرب واليهود، ويفسرون وعد بلفور على أنه مجرد السماح للمهاجرين من اليهود فى الاستطيان بفلسطين التى تربطهم بها روابط روحية وتاريخية .. ! وفى الوقت نفسه يصدرون الأوامر إلى ممثليهم فى فلسطين بضرورة التعجيل بإنشاء الوطن القومى اليهودى، والسماح لليهود بالاستيلاء على أرض فلسطين ومياهها ومصادر الثروة فيها، ليقوم الكيان اليهودى على دعائم قوية راسخة. وكان من أول الدعائم التى يجب إعدادها ليقوم عليها الكيان اليهودى هى القوة البشرية. ومن أجل تأمينها أشرفت حكومة الانتداب على عملية الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وسخرت فى سبيل ذلك أموال الحكومة ومعداتها ودوائرها وجيشها وبوليسها. كما وضعت خطة اقتصاد البلاد على أسس الهجرة اليهودية..

كفاح عرب فلسطين :

ومنذ الساعة التى دنست فيها أقدام الإنجليز أرض فلسطين .. [2] بدأ عرب فلسطين يشعرون بالخطر الجسيم يهدد كيانهم ومستقبلهم، بسبب الشروع فى تنفيذ الوعد الذى سمعوا عنه بعد وصول الإنجليز إلى فلسطين.

ورأى عرب فلسطين أن اليهود يتكاثرون ويمتلكون الأرض بأية وسيلة، ويحتلون

---

(١) خطر اليهودية العالمية: ٢٤٦ وما بعدها، نقلا عن:

Delivery In the Holyiand, A. Leese, London 1938.

(٢) المرجع السابق: ٢٦٥ وما بعدها بتصرف، وانظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٢ : ٤٥٦ وما بعدها.

مراكز الحكومة بنسب عددية مخيفة.. كما أخذوا يسمعون عن قوانين للأرض تضيق الخناق على الفلاح، وقوانين للهجرة تسهل عملية الغزو الإجرامى الذى تنظمه اليهودية العالمية تحت حماية الحراب البريطانية والقوانين الاستعمارية.. وأصبح عرب فلسطين يرون كل يوم تطورا فى حياة اليهودى الجبان الذليل الضعيف.

وغدا ذلك الجبان الذليل بين عشية وضحاها نمروذا جبارا فقد كشفت الحراب البريطانية التى تحميه عن حقيقة الطبع الكامن فى ذلك اليهودى.. وأوضحت أن الطبع اليهودى أو الخلق اليهودى مبنى على الغدر والخسة والبطش والانتقام، والتدمير والنذالة، وحب اغتصاب مال غير اليهودى وعرضه ودمه ـ كما أسلفنا ـ ولقد تطور شعور العرب بالخطر المحدق بهم وبوطنهم إلى أعمال إيجابية، وثورات مسلحة، ومظاهرات سلبية حينا ودموية أحيانا أخرى.

ولقد بدأت تلك الأعمال الإيجابية منذ سنة ١٩٢٠م وأوجزها كما يلى:

١ ـ اضطرابات أبريل سنة ١٩٢٠م التى وقعت فى القدس، وقتل فيها عدد كبير من اليهود الذين تحرشوا بالعرب..وقد جرت محاكمة زعماء العرب نتيجة لهذه الحركة وحكم على سماحة مفتى فلسطين الحاج أمين الحسينى بالسجن عشر سنين، وحكم بالسجن خمس عشرة سنة على الزعيم اليهودى الإرهابى «جابوتنسكى» إلا أن الأوامر صدرت فى لندن بعدم حبسه، مما أرغم المندوب السامى «هربرت صموئيل» حين وصل إلى فلسطين، لتسلم مهام منصبه على إلغاد الحكم الذى صدر على سماحة المفتى.

٢ ـ اضطرابات مايو ١٩٢١م فى يافا..وكان سببها مظاهرة قام بها اليهود للتحرش بالعرب، وقد دامت هذه الاضطرابات خمسة عشر يوما قتل فى أثنائها عدد كبير من اليهود والعرب، وعلى أثرها سافر إلى لندن وفد عربى برياسة السيد موسى كاظم باشا الحسينى، وعضوية السادة أمين التميمى، ومعين الماضى، وتوفيق حماد.. وعاد الوفد بعد أن أخفقت مساعيه فى إسماع صوت عرب فلسطين إلى الحكومة البريطانية الضالعة مع الصهيونية.

٣ ـ اضطرابات القدس فى ٢ نوفمبر ١٩٢١م وتلتها حوادث يافا فى مارس ١٩٢٤م.

٤ ـ اضطرابات أغسطس سنة ١٩٢٩م وقد بدأت فى ١٤ وانتهت فى ٣٠ منه..

وعمت جميع أنحاء فلسطين وقتل فيها حوالى ٢٠٠ يهودى ، أكثرهم فى الخليل والقدس ويافا.

وكان سبب هذه الحوادث اعتداء اليهود على البراق الشريف، ومحاولاتهم المتكررة لتغيير نظام الحالة الراهنة ـ ستاتسكو ـ بالنسبة إلى الحقوق المكتسبة التى نص عليها صك الانتداب «مادة ١٣» وقد أوفدت الحكومة البريطانية لجنة للتحقيق سميت باسم رئيسها «ولترشو» جاءت إلى فلسطين للتحقيق فى أسباب الاضطرابات، وهى خطة بريطانية معروفة، فقد كانوا كلما اضطربت الحالة فى البلاد سارعوا إلى إيفاد لجنة تحقيق، لتحذير الشعب الثائر الناقم، وقد بدأوا بإيفاد هذه اللجان منذ سنة ١٩٢١م «لجنة هايكرافت» ثم لجنة «شو» هذه فى سنة ١٩٢٩م ولجنة «سمبسون» فى سنة ١٩٣٠م ولجنة «ببل» ١٩٣٦م ـ ١٩٣٧م ولجنة «وودهود» ...إلخ .

كما كانت تصدر فى كل سنة تقريرا تسمية «النشرة السياسية» أو «الكتاب الأبيض السنوى» تضمنه الأعمال التى قامت بها فى فلسطين.

٥ ـ ثورة الشيخ عز الدين القسام، التى بدأت فى ٢ نوفمبر ١٩٣٥م وتحولت إلى حركة عصيان مسلح ضد حكومة الانتداب واليهود، وفى ٢٥ نوفمبر طوقت قوة كبيرة من الجيش البريطانى البطل القسام ومن معه فى غابة يعبد بقضاء جنين ، فاستشهد القسام ونفر من المجاهدين، وقبض على عدد من الأبطال حاكمهم الإنجليز وحكموا عليهم بالسجن مددا مختلفة.

٦ ـ الثورة الكبرى: طفح الكيل عند العرب، ولم يعد أحد منهم يصدق الإنجليز فى وعودهم الكثيرة التى كانوا يرددونها، كلما اضطرب حبل الأمن فى البلاد، والتهب الشعور العربى بالحقد والنقمة على سياسة تهويد البلاد.. لم يعد أحد يثق بأن الإنجليز سيشركون العرب فى حكم بلادهم، وأيقن الجميع أن وعود تأسيس مجلس تشريعى، وحفظ حق العرب فى وظائف الدولة، لا تعدو أن تكون حيلا إنجليزية ، تطبخها اليهودية العالمية ، والصهيونية والماسونية، من أجل تخدير العرب ، وتثبيط هممهم ، وإضعاف عزائمهم.. أدرك عرب فلسطين كل هذا ، فلجأوا إلى الحل الوحيد لعلاج مثل هذه الحيلة المرة التى وقعوا فيها.. وفى هذه المرة حملوا السلاح بعد أن تطورت مشاعرهم، وأحسوا أن الاستعمار البريطانى يبيعهم ويبيع وطنهم لمجرمى اليهود من مختلف أنحاء العالم.. حملوا السلاح من سنة ١٩٣٦م إلى نهاية سنة ١٩٣٩م وتلك كانت ثورتهم الكبرى التى

بذلوا فيها الدماء والمال والراحة والسعادة.

بدأت الثورة بتحرشات اليهود بسكان يافا العرب المجاورين لرأس الحيّة تل أبيب... ورد العرب على عدوان اليهود، فهرعت قوات الإنجليز لحماية اليهود، والبطش بالعرب كعادتها، كلما هرعت لميدان الاشتباك. فأضرب سكان مدينة يافا احتجاجا على تصرفات الإنجليز، وتحيزهم واعتدائهم على العرب العزّل من السلاح .

وامتد الإضراب الذى بدأ فى ١٧ أبريل ١٩٣٦م إلى جميع أنحاء فلسطين. وفى ٢٥ أبريل تألفت «اللجنة العليا» من عشرة أعضاء يمثلون الأحزاب الفلسطينية..[١].

وأذاعت اللجنة بيانا على الشعب دعت فيه استمرار الإضراب إلى أن تجاب مطالب الشعب فى وقف الهجرة اليهودية، وتشكيل حكومة دستورية تمثل الشعب الفلسطينى بأكثريته العربية الساحقة .

ومع الإضراب الذى شمل جميع مرافق الحياة التجارية والصناعية والحكومية ، حمل المجاهدون الفلسطينيون السلاح، واعتصموا بالجبال لمحاربة الجيش البريطانى الذى يحمى عملية تهويد البلاد.. وانتشر الفدائيون العرب فى المدن، ونصبوا الكمائن للإنجليز واليهود فى الطرقات.. ووصلت قوات متطوعة من خارج فلسطين.. وأخذت الثورة شكل حرب عصابات جند الإنجليز ضدها نخبة قواتهم فى فلسطين بقيادة الجنرال «ريتشى» أولا، ثم «ويفل»من بعده، فلما أخفق عيّن الإنجليز رئيس أركان حرب القوات البريطانية الجنرال «دل» قائد لقواتهم فى فلسطين. وكان تحت قيادته أكثر من «٧٢» ألف ضابط وجندى، بالإضافة إلى قوات البوليس البريطانى واليهودى، وقوات حدود شرق الأردن، وجيش الجنرال «جلوب» الذى كان يسمى بالجيش العربى.. ولقد انتصر الثوار الفلسطينيون على قوات بريطانيا العظمى فى أغلب المعارك التى خاضوها، وعجزت هذه القوات الضخمة بدباباتها وطائراتها ومدافعها عن إخماد ثورة شعب صغير أعزل .. واستعمل الإنجليز جميع أنواع البطش والإرهاب والوحشية وكانوا يعتدون على الشيوخ والنساء والأطفال وينسفون القرى على رؤوس السكان الآمنين، بحثا عن فدائى يظنون أنه لجأ إلى القرية.. ودام الإضراب العام ستة أشهر، والثورة مستعر أوارها لم تخمد، رغم التضحيات الجسيمة التى قدمها عرب فلسطين. وحينما يئس الإنجليز من إخماد الثورة حربيا لجأوا إلى الحيلة والدسائس والمكر، وأقنعوا ملوك العرب بالتوسط لإنهاء الإضراب ووقف العصيان،

(١) المرجع السابق : ٢٦٨ : ٢٦٩.

واعدين بالنظر فى مطالب العرب..!

وفى ١١ أكتوبر ١٩٣٦م أصدر ملوك العرب وأمراؤهم البيان التالى:

«إلى أبنائنا عرب فلسطين، لقد تألمنا للحالة السائدة فى فلسطين، فنحن بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب وأمرائهم، ندعوكم للإخلاد للسكينة حقنا للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل، وثقوا بأننا سنواصل السعى فى مساعدتكم» [١].

وضحك الإنجليز على عقول ملوك العرب الذين يحسنون الظن بالصديقة التقليدية بريطانيا.. ! مع أنها تسخر جميع قواها لخدمة اليهودية العالمية ! وانتهى الإضراب الذى دام ستة أشهر كاملة، وبرهن على قوة الشعب الفلسطينى وصلابته،واستعداده للتضحية والفداء.. وفقد عرب فلسطين فى تلك الفترة من الثورة أكثر من ثلاثة آلاف عربى وسبعة آلاف جريح، وثمانية آلاف شهيد من الشيوخ والنساء والأطفال، واعتقل الإنجليز حوالى ألفين من الشباب العربى.

وبعد ذلك شكل الإنجليز فى نوفمبر سنة ١٩٣٦م لجنة برئاسة المستر «بيل» الإنجليزى للنظر فى مسألة فلسطين .. واستمعت إلى أقوال اليهود والعرب.. ثم عادت إلى لندن ونشرت تقريرها فى يوليو ١٩٣٧م وكان يتضمن مشروعا لتقسيم فلسطين بين العرب واليهود والإنجليز... !

القسم اليهودى، ويشتمل على أخصب أراضى فلسطين !

والقسم العربى وفيه الجبال الجرداء !

والقسم البريطانى ، وفيه القدس، وبيت لحم !

واقترحت اللجنة ضم القسم العربى إلى شرق الأردن ، فتتسع بذلك رقعة النفوذ البريطانى فى الشرق الأوسط.

وبعد أن نشر التقرير عاد العرب إلى ثورتهم من جديد ، وانتهز الإنجليز مقتل حاكم الجليل «أندروز» فى ٢٦ سبتمبر ١٩٣٧م وحلوا اللجنة العليا، وعزلوا رئيسها سماحة

---

(١) المرجع السابق: ٢٧٠ نقلا عن : المؤامرة الكبرى : إميل الغوري ، النيل للطباعة ١٩٥٥م وانظر : بنو إسرائيل في القرآن والسنة: ٢ : ٤٥٧.

المفتى من رئاسة المجلس الإسلامى الأعلى، وطاردوه...واعتقلوا الزعماء.. ودمروا القرى والمساكن .. ومع هذا فقد استمرت الثورة مشتعلة حتى سنة ١٩٣٩م.

وعقدت بريطانيا مؤتمرا فى لندن فى ٧ فبراير ١٩٣٩م حضره ممثلون عن الدول العربية، وعرب فلسطين، واليهود، إلا أن هذا المؤتمر فشل بعد شهر من انعقاده، وعادت الوفود إلى بلادها.

ورغم إخفاق المؤتمر فقد أصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض فى ١٧ مايو ١٩٣٩م متضمنا بعض المقترحات أو المطالب العربية، التى تتلخص فى إلغاء وعد بلفور، ومنع الهجرة وبيع الأراضى، ومنح البلاد استقلالا تاما.. إلا أن الوفود العربية فى مؤتمر لندن تساهلت وتنازلت عن كثير من المطالب، ولخصت مقترحاتها بما يلى:

أ ــ تصبح فلسطين دولة مستقلة لغتها العربية ودينها الإسلام.

ب ــ تعقد الحكومة البريطانية مع حكومة فلسطين معاهدة دفاع مشترك.

حـ ــ يمثل اليهود فى الحكومة الدكتور وايزمان.

د ــ تمنع الهجرة بعد السماح لـ ٧٥ مهاجراً بدخول البلاد.

هـ ــ فترة الانتقال ١٠ سنوات.

ولم تأخذ الحكومة البريطانية بكل المقترحات العربية، وأصدرت الكتاب الأبيض ومن بنوده:

أ ــ تشكيل دولة فلسطين لا عربية ولا يهودية.

ب ــ إدخال ٧٥ مهاجراً خلال خمس سنوات.

جـ ــ تقسيم الأراضى إلى ثلاث مناطق:

الأولى : يصرح لليهود فيها بشراء الأرض.

والثانية : يصرح لهم فيها بشراء الأرض بعد موافقة الحكومة.

والثالثة: لا يسمح لهم بشراء الأرض فيها [1].

---

(١) المرجع السابق : ٢٧٣ ــ ٤٧٤ هامش.

ورفض اليهود هذا الكتاب، وأوعزوا إلى صديقهم «تشرشل» بمهاجمته، فهاجمه في مجلس العموم البريطاني، وقد أهملت الحكومة البريطانية بسبب مهاجمة «تشرشل» ما تضمنه هذا الكتاب من مقترحات في صالح العرب.

بداية الإرهاب اليهودي :

وما إن تكاثراليهود في فلسطين، بفعل سياسية التهويد التي اتبعتها حكومة الانتداب البريطاني ، حتى شرعوا يتدربون على استعمال السلاح، ويشكلون المنظمات السرية التي تتولى قتل العرب وإرهابهم، ليسلموا بتهويد وطنهم العزيز [1] .

وأشرف الضباط الإنجليز على تدريب اليهود وتسليحهم ، بحجة المحافظة على مستعمراتهم، وعاملوهم كما يعامل الأب طفله المدلل.. وفي كل مرة وقع فيها اشتباك بين العرب واليهود يسارع الإنجليز بدباباتهم ومدافعهم للفتك بالعرب وحماية اليهود... وحين آنس اليهود في أنفسهم شيئا من القوة أخذوا يضربون الإنجليز أنفسهم، وتنكروا لحماية الذين وقفوا معهم ـ كما أسلفنا ـ وكانت اليهودية العالمية تنفخ في ذلك اليهودي الجبان وتشجعه على التحول من موقف الضعف والذل إلى موقف الغدر والبطش والحقد.. وكان رئيس الحكومة البريطانية ووزراؤه عبيدا تسيرهم اليهودية والماسونية والصهيونية كيف تشاء.. وهاجم اليهود المعسكرات البريطانية التي تحمي اليهود ومستعمراتهم، وهاجموا القطارات الحربية وقتلوا الجنود، ونسفوا الجسور التي تربط بين فلسطين والدول العربية المجاورة وقتلوا أكبر شخصية بريطانية في الشرق الأوسط «اللورد موين» في نوفمبر ١٩٤٤م.

ونسفوا مكاتب الحكومة في فندق الملك داود بالقدس، وقتلوا في تلك الجريمة أكثر من ١٠٠ موظف بريطاني ممن كانوا عبيدا لليهود، يشرفون على نمو الوطن القومي اليهودي ، وكان ذلك في ٢٢ يوليو ١٩٤٦م.

لقد مارس اليهود جميع أنواع القتل الفردي والجماعي ضد العرب والإنجليز ، ولم تحرك حكومة الانتداب ساكنا، لأنها كانت ضالعة مع اليهودية العالمية ومستخذية للنفوذ الصهيوني العاتي. كانت جميع عمليات القتل والتدمير تتم باتفاق مع الوكالة اليهودية

(١) أخطر العصابات اليهودية: منظمة «سترن» وعرفت باسم المحاربين من أجل حرية إسرائيل، ثم عصابة «الأرغون زفاي لومي »برياسة « ديغدرزئال » ومن بعده «يعقوب مريدور» ثم «مناحيم بيجن» ومنظمة «الهاجناه» التي كانت الحكومة تعترف بها رسميا، وأصبحت نواة الجيش اليهودي فيما بعد، المرجع السابق : ٢٧٥ وما بعدها بتصرف.

المسئولة عن كل ما يتعلق باليهود فى فلسطين. وكانت كثيرا ما تسارع إلى استنكار الجرائم الكبيرة المروعة مع أنها هى التى أمرت بها أو وافقت عليها كماحدث فى جريمة نسف فندق الملك داود [١] .

تقرير « بولـز » وأثره :

يقول الأستاذ عبد الله التل:

وفى غمرة الإرهاب اليهودى الصهيونى لدىّ حادثتان حاول فيهما إنجليزيان شجاعان أن يوجها نقدا إلى الخلق اليهودى المؤسس على الغرور والوقاحة والصفاقة والإجرام والوحشية والجشع.

والحادثة الأولى فى أيام الاحتلال العسكرى الأولى لفلسطين. وكانت اللجنة الصهيونية قد دخلت فلسطين فى ركاب الاحتلال وشرعت تعد العدة للسيطرة على الحكم ووضع الخطط لتهويد البلاد . فضح الجنرال السير «بولز» من صفاقتهم وجشعهم وغرورهم وكتب فى يوليو ١٩٢٠م تقريرا بذلك إلى قيادته العليا فى القاهرة، وكان جزاؤه على صراحته وشجاعته العزل من القيادة وإنهاء الحكم العسكرى وتسليمه إلى اليهودى «هربرت صموئيل» الذى عين مندوبا ساميا على فلسطين. أما تقرير بولز فيقول[٢]:

«وما أستطيع تقرير اللوم على فريق من الشعب أو على أفراد منه، وتلك قضيتهم معلقة غير مفصول فيها. ولكنى أستطيع أن أقول جازما إن اللجنة الصهيونية، لما جد الجد أبت الانقياد بالولاء لأوامر الحكومة، واتخذت من أول الأمر موقفاً عدائيًا خطيراً سفيهاً. وإنها لحقيقة مرة أن يظهر لنا أنه مستحيل أن نقنع صهيونيا بحسن النية والصدق من الجانب البريطانى.

وليس العدل ما يبتغيه الصهيونيون من الممثل العسكرى. بل هم يتطلبون فى كل أمر فيه ليهودى دخل أعمال التمييز والمحاباة فى جانب اليهودى وهم قوم يصعب التعامل معهم صعوبة لا تفوقها صعوبة. ولكونهم هم الأكثرية فى القدس ـ كذا ـ فما يقنعهم ولا

---

(١) The Revolt, Menachem Regin, W. II . Allen London 1951

وفيه يعترف السفاح مناحيم بيجن أن عملية نسف الفندق كانت باتفاق سابق مع الوكالة والهاجناه.

(٢) قضية فلسطين: نجيب صدقة، دار الكتب ، بيروت ١٩٤٦ ص ٧٨ .

يرضيهم ما لهم من حماية عسكرية، فإنهم يطلبون أن يتقلدوا أزمة الأمور بأيديهم. وفى سائر الأماكن حيث هم أقلية يضجون ضجيجا فى طلب الحماية العسكرية.

وقد لزمنى أن ألح فى تبيان ما أعانيه من الصعوبة فى ضبط أى موقف كهذا الموقف فى المستقبل إذا كنت مضطرا إلى التعاطى مع ممثل الطائفة اليهودية الذى يهددنى بإقامة هياج الغوغاء مقام القانون ويرفض الرضا بقوات القانون والنظام. ومما تقدم يتضح أن اللجنة الصهيونية تدعى لنفسها سلطتى وسلطة كل دائرة من دوائر الحكومة وتتعدى عليها. وإننى أقول بصورة الحزم إن دوام الحال على هذا المنوال ضرب من المحال، دون مجازفة بالسلام العام وإجحاف بحقوق إدارة أنا رئيسها.

وعبثا نقول للمسلمين وللنصارى إننا قائمون بماحرصنا به من المحافظة على الحال القديم ـ ستاتسكو ـ مما عهدناه وعهدوه يوم دخول القدس. فالحقائق تشهد بخلاف ذلك، فمن إدخال اللسان العبرى كلغة رسمية، إلى إقامة قضاء يهودى، إلى تلك التشكيلات الحكومية التى تتألف منها اللجنة الصهيونية ، والامتيازات المخصوصة الممنوحة لأعضاء اللجنة الصهيونية فى السفر والانتقال ـ كل ذلك قد حمل العناصر غير اليهودية على الاعتقاد الثابت والاقتناع الراسخ بأننا أهل محاباة. ومع ذلك كله، فاللجنة الصهيونية تتهم موظفى وتتهمنى أنا أيضا بمعاداة الصهيونية، فالحالة حالة لايطاق عليها صبر، ومن حق موظفى وحقى أن تواجه وتجابه بما ينبغى لها..

ولقد قامت هذه الحكومة بتنفيذ رغبات حكومة صاحب الجلالة، وإنما أفلحت فى ذلك كله بفضل الشرائع الضابطة لتصرفات المحتل العسكرى لأرض العدو، ولكن ذلك كله لم يكن ليرضى الصهيونيين الذين لا يفتئون يتوخون توريط هذه الإدارة العسكرية الوقتية بسياسة محابية حتى قبل أن يصدر الانتداب: وإنه ليستحيل إرضاء ذوى فكرة مخصوصة لا يطلبون رسميا إلا «وطنا قوميا» ولكنهم بالفعل لا يقنعون بما هو أقل من «حكومة يهودية» بكل مقتضياتها السياسية.

ولذلك فإنى أوصى فى سبيل السلام وسبيل الصهيونيين أنفسهم أن تلغى اللجنة الصهيونية فى فلسطين».

تقرير « باركر » وأثره :

والحادثة الثانية وقعت فى شهر يوليو ١٩٤٦ أى بعد ٢٦ سنة على تقرير الجنرال

«بولز» وبطل الحادثة الثانية هو الجنرال «باركر» قائد القوات البريطانية فى فلسطين. وكانت المناسبة هى نسف فندق الملك داود فى ٢٢ يوليو ١٩٤٦ ومقتل مائة موظف بريطانى كبير، مما دفع بالجنرال «باركر» إلى إصدار بيان خطير يتسم بالجرأة والصراحة أصدره فى ٢٩ يوليو ١٩٤٦ فكان نصيبه الطرد من وظيفته الكبرى. واستدعى إلى لندن ولم يسمع عنه أى خبر بعد عودته إلى بريطانيا، لأن الصهيونية طمسته وقضت على مستقبله. ونص البيان كما يلى (١):

1-The jewsh Community of Palestine cannot be absolved from responsibility for the long series of outrages culminating with the blowing up of a large part of the governement offices in the king David Hotel causing grievious loss of life. Without the support, actual and passive, of the General jewish public, the terrorist gangs who actually carry out these Criminal acts would soon be unearthed and in tis measure the jews in this Country are accomplice and bear a share in the guilt.

2 - I am determined they shall suffer punishment and be made aware of the Contempt.and loathing with which we regard their conduct. We must not allow ourselves to be deceived by the hypocritical sympathy by their leaders and representative bodies nor by their protests that they are in no way responsible for these acts as they are unable to control the terrorists. I repeat that if the jewish Public realy wanted to stop these crimes they could do so by active Co-oporation with us.

3 - Consequently I have decided that with effect of receipt of this letter you will put out of bounds to all ranks all jewish places of entertainment, cofe's, restaurants, shops, and private dwelling. No British soldier is to have any intercourse with any jew and intecourse in the way of duty should be as brief as possible and kept strictly to the business in hand.

4 - I appreciate that these miasures will inflict some hardship on the troops but I am certain that if my are neasons fully explained to them they will understand their propriety and they will be punishing the jews in a

---

(١) حصلت على هذا البيان الجرىء من ملفات الحكومة حينما كنت حاكما للقدس سنة ١٩٤٨ وهو موجه إلى جميع أفراد القوات البريطانية في فلسطين.

way the race dislikes more than any by striking at their pockets and showing our comtempt for them.

E. H. Barker

It. Gen.

G. O.C. Palestine

ومعنى البيان :

١ ــ لا يمكن إعفاء الطائفة اليهودية فى فلسطين من مسئولية سلسلة أعمال الإرهاب التى وصلت أوجها بنسف جزء كبير من دوائر الحكومة فى فندق الملك داود مسببة خسائر محزنة فى الأرواح. ومن غير المساعدة الإيجابية الفعلية التى يقدمها جمهور اليهود للإرهابيين، فإن العصابات الإرهابية التى تقوم بالأعمال الإجرامية يمكن أن تستأصل حالا. ومن هنا يعد اليهود فى هذه البلاد مشتركين فى المسئولية ويتحملون نصيبا من الجريمة.

٢ ــ إننى عازم على أن ينالوا جزاءهم. وأن نشعرهم بازدرائنا واحتقارنا لتصرفاتهم. وعلينا ألا ننخدع بالشعور المزيف الذى يبديه قادتهم وممثلوهم ولا بالاحتجاجات التى يرددونها من أنهم غير مسئولين عن تلك الأعمال، لأنهم عاجزون عن السيطرة على الإرهابيين. وأكرر القول بأنه لو أراد الجمهور اليهودى حقا أن تقف تلك الأعمال الإجرامية لتعاون معنا إيجابيا فتقف تلك الأعمال.

٣ ــ وعليه فقد قررت اعتبارا من وصول هذا الكتاب إليكم ، أن يمنع كل الأفراد من ضباط وجنود من دخول أماكن التسلية اليهودية ، وكذلك المقاهى والمطاعم والمخازن التجارية وأماكن السكن الخاصة. على كل جندى بريطانى ألا يتعامل مع أى يهودى أو يختلط به. والتعامل أثناء الوظيفة يتم فى أضيق حدود الواجب الرسمى.

٤ ــ إننى أقدر قسوة هذه الإجراءات على قواتنا، ولكنى أعتقد أنه إذا تم شرح الدوافع والأسباب لجنودنا فإنهم سيدركون وجاهة هذه الإجراءات، ويعاقبون اليهود بالطريقة التى يكرهها جنسهم ــ بالضرب على جيوبهم وإظهار احتقارنا لهم .

وبعد هذا البيان هزم الجنرال الشجاع، وانتصر الإرهاب اليهودى فى فلسطين الذى يمثل جزءا صغيرا من شبكة الإرهاب اليهودى فى العالم. والإرهاب اليهودى الذى أسهم فى خلق دولة الإجرام فى فلسطين ما زال سيفا مسلطا على رءوس القادة والحكام

والزعماء والكتاب والمفكرين فى جميع أنحاء العالم الغربى. واليهودية العالمية ترهب وتهدد كل إنسان حر فى أوربا وأمريكا، إما بفقد حياته أو ماله أو منصبه أو شرفه. ولن تجد الأمة العربية من بين رجالات الغرب عددا كبيرا يجازف بحياته أو ماله أو منصبه أو شرفه فى سبيل الحق ودفعا للظلم الذى وقع علينا فى فلسطين. وخدعة النازية ورجال النازية الذين تطاردهم اليهودية العالمية وترهب العالم تحريا عنهم، لم تزل حوادثها عالقة فى ذهن كل إنسان. وهى فى كل يوم تشرع فى الدول الغربية العمياء الذليلة سيف الاتهام، باحثة عن ضحية جديدة لإرهابها، مهددة باختطاف أشخاص أبرياء تشردوا فى آفاق الأرض جزاء احتقارهم لليهودية العالمية وكرههم الأساليب اليهودية الغادرة الماكرة حتى لم يبق مكان فى العالم يطمئن فيه الألمانى غير البلاد العربية التى تتحدى اليهودية العالمية ولا تخضع تحت أقدامها كما تفعل دول الغرب فى أوربا وأمريكا. ولم تنس بعد حادث اختطاف «إيخمان» الذى نقلته العصابات اليهودية من الأرجنتين إلى دول العصابات فى فلسطين وأعدمته هناك لتجعل من قصته سيف إرهاب تشرعه فى وجه كل من تسول له نفسه من رجالات الغرب الخروج عن الخط الذى ترسمه اليهودية العالمية المجرمة.

مأساة التقسيم :

وحين اندلعت شرارة الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ استغلها اليهود لبلوغ مطامعهم، وتنظيم صفوفهم، وإعداد العدة اللازمة لتحقيق مشروعاتهم فى فلسطين، واعتمدت الدعاية اليهودية الصهيونية الماسونية فى خطتها على اضطهاد اليهود فى ألمانيا النازية، وفى دول أوربا التى سيطر عليها النازى، وارتضت ضمائر حكام الغرب وزعمائه وقادة الفكر فيه أن يكون حل مشكلة اليهود على حساب الأمة العربية، وكان واضحا أن العرب لا ذنب لهم فيما وقع على اليهود من اضطهاد وذبح وتشريد، وأن الذنب بالدرجة الأولى ـ كما أسلفنا ـ يقع على اليهود أنفسهم، وما طبعوا عليه من غدر ومكر وإجرام وخيانة، وبالدرجة الثانية على المدنية الأوربية التى يبدو أنها لم تطق صبرا على الخلق اليهودى المقيت، فواصلت التعبير عن كراهيتها لليهود ومقتها لأخلاقهم بحركات للقتل الجماعى على مر التاريخ.

وفى سنوات الحرب حصل اليهود فى فلسطين على السلاح، تسلموه من الإنجليز بوساطة الرشوة والغوانى والسرقة، واستيراده من الخارج بموافقة السلطات البريطانية الحاكمة.. وزاد الطين بلة تشكيل فيلق يهودى يخدم مع قوات الحلفاء تحت إشراف القيادة البريطانية.. وحينما انتهت الحرب سرح الفيلق، واحتفظ كل فرد من أفراده بسلاحه هدية

من الجيش البريطانى الصديق رفيق السلاح .. !

وحدثت الأعمال الإرهابية اليهودية ـ كما ذكرنا ـ واتخذتها الحكومة البريطانية ذريعة لإظهار عجزها عن حل المشكلة التى خلقتها بنفسها، ووضعت أسسها ونفذتها، حتى غدت جريمة بشعة لم يعرف التاريخ مثلها.. ومع سياسة إظهار العجز عن حل المشكلة عمدت الحكومة البريطانية إلى إشراك الولايات المتحدة فى مشكلة فلسطين، مع أنها تعلم أن الولايات المتحدة غارقة فى بحر اليهودية والصهيونية إلى الأذقان.

وتطورت مراحل المشكلة زمن الحرب وبعدها، مما أدى إلى وقوع مأساة التقسيم، وأهم هذه التطورات ما يلى:

١ ـ فى سنة ١٩٣٩م قررت الهيئة البرلمانية لحرب العمال البريطانى مطالبة الحكومة البريطانية بإلغاء الكتاب الأبيض الذى صدر فى مايو ١٩٣٩ م يحدد الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

٢ ـ وفى سنة ١٩٤٠م قرر مؤتمر حزب العمال البريطانى مطالبة الحكومة بفتح أبواب فلسطين لليهود.

٣ ـ وفى سنة ١٩٤٢م قدم اثنان وستون عضوا من مجلس الشيوخ الأمريكى ، ومائة وثمانون عضوا من مجلس النواب، مذكرة يطالبون فيها الولايات المتحدة بمساعدة اليهود على إنشاء دولة لهم فى فلسطين.

٤ ـ وفى سنة ١٩٤٣م قرر حزب العمال البريطانى مطالبة الحكومة بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين، لتصبح لهم الأكثرية اللازمة لتأسيس دولة يهودية.

٥ ـ وفى سنة ١٩٤٤م أصدر الرئيس «روزفلت» بيانا رسميا طالب فيه بفتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين بلا حدود، وأبدى فيه عطفه وعطف الشعب الأمريكى على اليهود المنكوبين .. ! (١).

٦ ـ وفى مايو سنة ١٩٤٥م انتهت الحرب العالمية الثانية مع ألمانيا فى ٧ مايو ومع اليابان فى ٢ سبتمبر من السنة نفسها، وغدت أمريكا أكثر تحمسا من بريطانيا لإقامة دولة لليهود فى فلسطين، إذ أصدر «ترومان» رئيس الولايات المتحدة بيانا يطالب فيه الحكومة البريطانية بأن تسمح لمائة ألف يهودى بالهجرة إلى فلسطين فورا.

(١) انظر الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين : الجامعة العربية ١٩٥٧م.

ثم قدم بعد ذلك خمسة آلاف قسيس بروتستانتى أمريكى عريضة رفعوها إلى الحكومة والكونجرس يطلبون فتح أبواب فلسطين لهجرة يهودية حرة. وكشفوا بذلك عن أهمية العامل الدينى فى القضية.

٧ ـ وفى ديسمبر سنة ١٩٤٦م أرسلت الجامعة العربية مذكرة إلى حكومة أمريكا تطالبها فيها بالتخفيف من حماستها لليهود، وتبين لها حقيقة القضية الفلسطينية، فما كان من الحكومة الأمريكية إلا أن أرسلت ردا على الجامعة العربية جاء فيه: (١).

«إن الحكومة الأمريكية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى عاضدت فكرة الوطن القومى لليهود فى فلسطين، حكومة وشعبا ، فتصرفها اليوم جاء مطابقا لسياستها التقليدية عندما تدعو إلى اتخاذ التدابير الرامية إلى إبراز هذه الفكرة إلى حيز الوجود، وأما بشأن تشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين من مناطق الاحتلال الأمريكى فى أوربا فإن الكثيرين من هؤلاء اليهود المضطهدين يتطلعون إلى فلسطين كملجأ لهم».

وكانت هذ المذكرة أوضح بيان وأبلغ دليل على تدعيم أمريكا للصهيونية ومشاركتها لبريطانيا فى التآمر على تهويد فلسطين.

وفى خلال هذه السنوات قامت الشعوب العربية بمظاهرات ضد سياسة بريطانيا وأمريكا بالنسبة لفلسطين، كما قام المجاهدون الفلسطينيون بثورات متعددة ضد الإنجليز واليهود، واستطاعوا عن طريق هذه الثورات أن يزعجوا أمن بريطانيا وأن يكبدوها خسائر فادحة فى الأموال والأرواح.

٨ ـ وفى فبراير ١٩٤٧م تظاهرت بريطانيا بالعجز التام عن إيجاد حل لمشكلة فلسطين، وقررت إحالتها إلى الأمم المتحدة.

وانتهزت اليهودية العالمية فرصة تحويل قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة، فاستعملت كل إمكانياتها فى التأثير على أعضاء الأمم المتحدة ليصوتوا بما يرضيهم، ووقعت خلال نظر القضية فى تلك الفترة مؤامرات ودسائس عجيبة (٢) تولى كبرها «ترومان» رئيس الولايات المتحدة فى ذلك الوقت .

٩ ـ وبعد مداولات ومشاورات عرض قرار التقسيم لفلسطين بين العرب واليهود

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة : ٢ : ٤٦٠ وما بعدها بتصرف.

(٢) انظر : خطر اليهودية : ٢٩٢ وما بعدها.

على الأمم المتحدة فى ٢٩ من نوفمبر سنة ١٩٤٧م فوافق عليه ثلاثة وثلاثون عضوا، وعارضه خمسة عشر عضوا معظمهم من البلاد العربية والإسلامية.. وكان على رأس الدول التى وافقت على التقسيم أمريكا وروسيا.

وبهذا القرار الدولى تحقق لبريطانيا ما كانت تريده لليهود، وانتصر باطل اليهودية العالمية على حق العرب والمسلمين، ونال اليهود وعدا رسميا من دول عديدة بتأسيس دولة لهم فى قلب العالم الإسلامى ، وأعلن الإنجليز عقب ذلك أنه سيتخلون عن الانتداب على فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨م ما عدا مدينة «حيفا» فإنهم سيخرجون منها فى أول أغسطس من نفس العام.

قيام الدولة المجرمة:

وقد رفضت الدول العربية قرار التقسيم، واندلعت المظاهرات فى كل دولة عربية وإسلامية وبدأت الجامعة العربية فى إعداد جيش لإنقاذ فلسطين من المتطوعين، وتألفت فى فلسطين قوات الجهاد المقدس بقيادة الشهيد «عبد القادر الحسينى» وقامت هذه القوات بنسف مبنى الوكالة اليهودية، واستطاعت أن تسيطر على الطرق والمواصلات فى فلسطين، وأن تعزل منطقة القدس التى كان يسكنها مائة وعشرون ألفا من اليهود..

وأصبح واضحا أن كفة اليهود هى الخاسرة، [1] مما حمل مندوب أمريكا فى الأمم المتحدة أن يطلب فى مارس ١٩٤٨م العدول عن قرار التقسيم، ووضع فلسطين تحت وصاية دولية.

وحين وجد الإنجليز أن الحكومة الأمريكية جاده فى تغيير رأيها عن التقسيم بعد الذى شهدته من انتصارات عرب فلسطين، سارعوا إلى القيام بأعمال إجرامية غادرة، رفعت من معنويات اليهود، وأدت إلى ترجيح كفتهم.

ومن أخطر الأعمال الإجرامية الغادرة التى اقترفها الإنجليز ما يلى:

١ ـ تسليم مدينة حيفا لليهود فى ٢١ أبريل ١٩٤٨م مع أنهم كانوا قد اتخذوا قرار بإخلائهم لها فى أول أغسطس من العام نفسه ومنعوا العرب من عمل التحصينات اللازمة، وإحضار النجدات العسكرية، منعوا كل ذلك. بحجة أنها مدينة واقعة فى مسئولية الجيش البريطانى إلى يوم الجلاء عنها فى أول أغسطس، وفى الوقت نفسه تآمروا مع اليهود،

---

(١) خطر اليهودية : ٣٠٠ وما بعدها بتصرف .

وباعوا لهم المدينة... وغدروا بالعرب، وتركوا العصابات الصهيونية تهاجم الأحياء العربية التى كان الإنجليز يتظاهرون بحمايتها، وبعد أن انهارت الخطوط العربية توسطوا لتنظيم عملية التسليم والجلاء، وأشرفوا على هجرة أكثر من مائة ألف عربى من مدينة حيفا وضواحيها.

وكان قائد القوات البريطانية التى سلمت حيفا لليهود الجنرال «ستكويل» الذى قاد القوات البرية الإنجليزية التى اشتركت فى العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦م.

وكان هذا التسليم قبل نهاية الانتداب المقررة فى ١٥ مايو ١٩٤٨م.

٢ ـ تسليم مدينة يافا وضواحيها لليهود فى ٢٤ أبريل ١٩٤٨م مع أن موعد إخلائها كان محدد له ١٥ مايو من نفس العام بحسب قرار الحكومة البريطانية وممثليها فى فلسطين.. ولكن العرب فوجئوا بالإنجليز يخلون مواقعهم الحربية المسيطرة على العرب ويسلمونها لليهود.. ودارت معركة غير متكافئة، بسبب غدر الإنجليز وخيانتهم وتآمرهم مع اليهود، وانهالت المدفعية التى أخذها اليهود من عبيدهم الإنجليز على المنطقة العربية إرهابا وتدميرا، ولم تدم المعركة سوى أيام نزح بعدها عرب يافا والقرى المجاورة، وتحقق للإنجليز ما كانوا يهدفون إليه من تسليم المدن العربية إلى اليهود خالية من سكانها. وتلك كانت سياسة حكومتهم وأحزابهم وزعمائهم فى بريطانيا.

٣ ـ ولم يكتف الإنجليز بتسليم حيفا ويافا.. بل سلموا مدينة صفد ومدينة طبرية، وذلك قبل نهاية الانتداب المقررة فى ١٥ مايو ١٩٤٨م وأدت خياناتهم تلك إلى زعزعة الجبهة العربية، وتشجيع العصابات اليهودية المجرمة التى تسلمت من الإنجليز معسكرات كاملة بما فيها مستودعات الأسلحة والذخائر.. وأخذ اليهود المجرمون يفتكون بالعرب العزل من السلاح، بعد أن عجزوا عن مواجهة الجنود الأبطال من جيش الجهاد المقدس فى معارك شريفة مكشوفة.. واقترف اليهود بتشجيع من القوات البريطانية جرائم بشعة، لا يقترفها إلا من كان له خلق اليهود وغدرهم، وكان من أشد تلك الجرائم بشاعة ووحشية مذابح دير ياسين، القرية العربية التى كانت مطمئنة إلى حماية قوات الانتداب المسئولة عن البلاد حتى ١٥ مايو، فقد انتهز اليهود فرصة استشهاد البطل عبد القادر الحسينى فى معركة القسطل بتاريخ ٧ أبريل ١٩٤٧م حيث عاد من دمشق يائسا من الجامعة العربية ووعودها واستعداداتها التى لا تتناسب وخطورة المعركة، ومن ثم قاد معركة القسطل واسترد الموقع الخطير، إلا أنه سقط شهيدا، وأكرمه الله سبحانه وتعالى فلم يشهد مصرع

الوطن.. وهاجم اليهود القرية الآمنة، وفتكوا بسكانها من النساء والأطفال والشيوخ، وجمع اليهود جثث القتلى وشوهوها، ثم ألقوا بها فى بئر القرية فى ٩ أبريل ١٩٤٨م.

وكذلك فعل اليهود بقرية ناصر الدين قرب طبرية.. فتكوا بالنساء والأطفال، ليبعثوا الرعب فى قلوب عرب فلسطين، فيهجروا ديارهم ويتسلمها اليهود بلا عناء أو مقاومة. واعترف المجرم اليهودى مناحم بيجن زعيم عصابة الأرغون التى اقترفت تلك الجرائم، بأنه نفذ هذه الجرائم باطلاع الوكالة اليهودية وقوات الهاجناه الرسمية.

وبعد أن نفذ الإنجليز سياسة ترجيح كفة العصابات اليهودية بتسليمهم المدن العربية الكبرى، غيرت حكومة الولايات المتحدة موقفها، وعادت تؤيد قيام الدولة المجرمة، وحين أهلت الدقائق الأولى بعد منتصف ليلة ١٥ مايو ١٩٤٨م كان العميل اليهود ترومان يبرق إلى الدكتور وايزمان مهنئا ومعترفا بالدولة اليهودية التى سموها «إسرائيل» .

مراحل الحـرب :

وبعد أن كثرت جرائم الإنجليز واليهود ضد عرب فلسطين، وبعد أن أصبح واضحا أن تلك العصابات لا تفرق بين المحاربين وغير المحاربين، ولا تتقيد بأى شرف أو قانون حرب، قررت الجامعة العربية أن تدخل الجيوش العربية فلسطين، لإنقاذ الشعب العربى من همجية تلك العصابات وهذا الإرهاب وذلك الغدر .. وكان هنالك رأى يقول بعدم دخول الجيوش رسميا، بل تكتفى الدول العربية بمديد العون إلى عرب فلسطين، بالسلاح والمال والمتطوعين..! وكانت نتائج المعركة سيئة إلى الحد الذى لم تكن لتسوء أكثر منه، لو بقيت الجيوش العربية على الحدود، واكتفت بالمساعدة العسكرية الرسمية ..!

المرحلة الأولى :

ابتدأت من يوم دخول الجيوش العربية إلى فلسطين فى ١٥ مايو١٩٤٨م وانتهت فى أول يوم من الهدنة الأولى ١١ يونيو وكانت الكفة العربية فيها هى الراجحة.

فقد انتصرنا فى معركة القدس القديمة، واقتربت الجيوش العربية من العاصمة تل أبيب.

المرحلة الثانيـة :

بدأت من يوم انتهاء الهدنة الأولى فى ٩ يوليو ١٩٤٨م وانتهت عند قبول الهدنة الثانية

فى ١٨ منه، وفى هذه المرحلة رجحت كفة اليهود، بسبب مأساة تسليم اللد والرملة، وعدم توحيد العمل الحربى ضد اليهود.

المرحلة الثالثـة :

بدأت من يوم أن خرق اليهود الهدنة فى ١٤ أكتوبر ١٩٤٨م واعتدوا على القوات المصرية فى جنوب فلسطين، ودامت تلك المعركة متقطعة حتى ٧ يناير ١٩٤٩م يوم قبلت مصر الاشتراك فى مباحثات هدنة جديدة مع اليهود فى رودس، ثم تبعتها الدول العربية وفاوضت اليهود فى رودس وعقدت معاهدات الهدنة معهم.

المرحلة الرابعـة :

وقد تمت فى شهر مارس ١٩٤٩م وفيها سلم الجنرال جلوب لليهود الجزء الجنوبى من النقب، ويقع رأسه الجنوبى على خليج العقبة، حيث ميناء أم الرشراش تسلمه اليهود من جلوب، وفصلوا الوطن العربى فى أسيا عن الوطن العربى فى أفريقيا لأول مرة فى التاريخ.

أسباب الهزيمة :

وأسباب الهزيمة كثيرة.. منها ما هو داخلى .. ومنها ما هو خارجى..

أهم الأسباب الداخلية :

وأهم الأسباب الداخلية ما يلى :

١ ـ ضعف الوازع الدينى فى نفوس الكثيرين من المسلمين، (١) أدى بهم إلى فساد الأخلاق، وانحلال العزيمة، وفتور الشهامة والغيرة، والتفريط فى أداء فرائض الله وارتكاب ما نهى الله عنه، وعدم التفكير إلا فى متع الحياة الدنيا وزينتها، وعدم المبالاة بما ينزل بالأمة من نكبات، وقد رأينا الكثيرين ممن ينتسبون إلى الإسلام لا يعيرون كارثة فلسطين أى اهتمام.

٢ ـ الغفلة الشديدة عن تعرف مواطن الخطر المحيط بالأمة الإسلامية من جراء تسرب الصهيونية العالمية لغزو الأرض المقدسة، وعدم معالجة هذا الخطر منذ البداية بالجد والحزم، والجهل بما تبيته الصهيونية العالمية للأمة الإسلامية من أحقاد دفينة، وشرور كبيرة، وبلغ من استخفاف بعض العرب بالخطر الصهيونى ومن وهنهم وخورهم خلال مقابلاتهم الرسمية

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢:٤٦٤ وما بعدها بتصرف.

للمسئولين الإنجليز والأمريكيين بشأن قضية فلسطين، أنهم كانوا يقفون منها موقف الوسطاء المترددين الخائرين، على حين كان زعماء اليهود فى مثل هذه المقابلات يظهرون أقصى التطرف والشدة، ومنتهى الجد والعزيمة والصلابة.

وقد اغتر بعض المسئولين من العرب بخداع الإنجليز الذين أوهموهم أن اليهود لن ينالوا من فلسطين سوى منطقة صغيرة، واستطاعوا بوسائلهم المتنوعة أن يملكوا عليهم أمرهم، وأن يجعلوهم يعالجون قضية فلسطين بالكلام الأجوف.. وأن يحملوهم على إبعاد العناصر المؤمنة المخلصة عن الاشتراك فى الدفاع عن فلسطين، بحجة أنهم مغالون، وبعيدون عن الحكمة والكياسة.

٣ ــ الجهود المادية والأدبية التى بذلها العالم الإسلامى فى سبيل بقاء فلسطين عربية إسلامية، أقل بكثير من الجهود التى بذلتها اليهودية العالمية لتهويد فلسطين واستلابها من أيدى أصحابها الشرعيين.. وعلى سبيل المثال لو نظرنا إلى ما جمعه اليهود من أموال فى سبيل السيطرة على فلسطين لوجدناه أضعاف أضعاف ما جمع من العالم الإسلامى من أجل الدفاع عن الأرض المقدسة..

ولقد لفت هذا الشح الشديد أنظار بعض الأجانب، فقد سأل المستر «كروسمان» عضو مجلس العموم البريطانى، أحد أصدقائه العرب المسلمين قائلا:

هل فى الدين الإسلامى ما يمنع التعاون بين المسلمين؟

فأجابه صديقه بالنفى، وسأله عن السبب فى هذا السؤال، فقال كروسمان:

إذاً لما لا يساعد بعضكم بعضا، ولا تبذلون شيئا، حتى للاجئين المشردين..؟ [(١)].

٤ ــ من أكبر العوامل التى أدت إلى خسارة العرب فى حرب فلسطين تفرق قيادتهم، وعدم خضوعها لرأى يدير المعركة بحزم وإخلاص وكفاءة، فقد خاضت الجيوش العربية المعركة بقيادات متفرقة، وسياسات متخاذلة مترددة، ولم يقاتلوا صفا واحدا كأنهم بنيان مرصوص، وبذلك ضاعت الفرصة من أيديهم فى الانتصار على عدوهم.

ومما لا شك فيه أن الجيوش العربية عندما دخلت معركة فلسطين سنة ١٩٤٨م ــ وفيما بعد هذا التاريخ من معارك ــ كانت أقوى عدة، وأكثر عددا من اليهود، ولكن هذه القوة والكثرة لم تجد من يقودها لإنقاذ فلسطين بأمانة وحماسة وإخلاص.. بل بالعكس وجدت

---

(١) المرجع السابق: ٤٦٥ نقلا عن: حقائق عن قضية فلسطين: ١٧٣ الهيئة العربية العليا لإنقاذ فلسطين سنة ١٩٥٤م.

من يتآمر عليها، ويمزق صفوفها، ويمكن عدوها منها، ولئن قيل بأن الجيوش العربية كانت موحدة، فإن هذا القول مردود بأن هذا التوحيد كان شكليا، وأن ضرره كان أكبر من نفعه.

ولقد صرح «ابن جوريون» رئيس وزراء إسرائيل بأن انتصارهم فى معركة فلسطين مرده إلى حسن سياستهم، وليس إلى قوتهم الحربية، فقد قال فى خطاب له فى الكنيست اليهودى :

«نحن مدينون بنجاحنا فى إقامة دولة إسرائيل بـ ٩٧٪ للسياسة، وبـ ٣٪ للحرب والجيش فقط (١).

٥ ـ وأيضا من أكبر العوامل التى أدت إلى خسارة الحرب توقيع الهدنتين: الأولى والثانية بين العرب واليهود، نتيجة ضغط إنجلترا وأمريكا على بعض الدول العربية، فقد كان العرب فى أول الأمر يقفون موقف المنتصر الظافر،لأن الجيش المصرى كان موغلا فى التقدم نحو «تل أبيب» والجيش العراقى كان على بعد أميال منها،والجيش الأردنى كانت «اللد والرملة» تحت يده.. وكان اليهود فى «القدس» فى أسوأ حال بعد أن ضيق المجاهدون عليهم الخناق.. حتى لقد رفعوا الرايات البيضاء رمزا لاستسلامهم.. أما يهود «حيفا» فقد وسطوا بعض العرب لمفاوضة الجيش العراقى على التسليم.. وفى «تل أبيب» كان اليهود فى ذعر وفزع، حتى لقد طالبوا زعماءهم بالتسليم العاجل، فاضطر «ابن جوريون» رئيس وزراء إسرائيل حينئذ أن يخطب فيهم قائلا:

«إن لدىّ وعدا قاطعا من إنجلترا وأمريكا بأن الهدنة ستعقد خلال ثلاثة أيام، فإذا لم يتم ذلك فتعالوا فاشنقونى هنا» (٢).

وفعلا قبل أن تمضى ثلاثة أيام على خطاب «ابن جوريون» تمت الهدنة الأولى التى حصلت فى ١١ يونيو سنة ١٩٤٨م وخلال الهدنة الثانية التى أبرمت فى ١٩ يوليو من نفس العام أتيح لهم خلال هذه الفترة أن يتداركوا ما كان ينقصهم من السلاح والعتاد، وأن يفكوا الحصار عن يهود «القدس» وأن يتمكنوا ـ عن طريق عملائهم ـ من إجبار الفوج العراقى على الانسحاب، بعيدا عن مواقعه، وأن يجعلوا يهود «حيفا» يعدلون عن التسليم، وأن يسحبوا القوات الأردنية من «اللد والرملة» .

---

(١) حقائق عن قضية فلسطين: ١٩٠

(٢) المرجع السابق : ١٨٠.

والخلاصة أنهم استطاعوا خلال فترتى الهدنة أن يقلبوا الوضع رأسا على عقب ! ولو أن زعماء العرب وقادتهم رفضوا الهدنتين رفضا تاما، واستمروا على القتال، مهما كانت الظروف، لما تمكن اليهود مما تمكنوا منه بعد ذلك.

٦ ـ الذين اشتركوا فى الدفاع عن فلسطين من الجيوش العربية، ومنظمات المتطوعين، دافعوا عنها ـ فى مجموعهم ـ بدافع النعرة الوطنية والسياسية، ولم تكن الحماسة الدينية لفلسطين تملأ قلوبهم، وتفيض بها عواطفهم ومشاعرهم، وتسيطر على سلوكهم وأخلاقهم.. وكان هناك عدد من المجاهدين الصادقين الذين يرجون إحدى الحسنيين.. بينما اليهود يعتبرون حروبهم فى فلسطين إنما هى حروب دينية محضة، وأن موتهم على ترابها شرف لهم، وقد استغلوا هذه النواحى الدينية فى التأثير على الإنجليز والأمريكان ليساعدوهم فى بلوغ غايتهم، وإسكانهم فى فلسطين.. وعن طريق هذه الدعاية الدينية اليهودية جمعت الصهيونية العالمية الأموال الطائلة التى استخدمتها فى هذه الحرب، كما أنها عن طريق هذه الدعاية سخرت لخدمتها إنجلترا وأمريكا وغيرهما من الدول.

أهم الأسباب الخارجية :

وأهم الأسباب الخارجية ما يلى:

١ ـ دافع العداء والحقد للإسلام والمسلمين.. وهو الذى يجمع بين اليهودية والنصرانية والشيوعية .. ويدفع بهم جميعا إلى الوقوف صفا واحدا تجاه الإسلام والمسلمين، وإن اختلفت الأدوار التى تناط بهؤلاء أو أولئك.

٢ ـ ضلالات اليهودية التى ذاق منها الأوربيون الويلات.. فما إن استقر اليهود فى دول أوربا، وازداد عددهم، ونمت قوتهم بعد طردهم من فلسطين فى أول عهد المسيحية ـ كما أسلفنا ـ حتى أخذوا يطبقون تلك الضلالات التى امتلأت بها كتبهم.. وكانت حصيلة السلوك اليهودى المبنى على الحقد والكراهية والاستعلاء والجشع والإجرام، [١] أن أخذت شعوب أوربا تدافع عن نفسها أمام هذا البلاء الذى كان يحل عليها مع كل موجة من موجات الهجرة اليهودية !

ومن يدرس التاريخ يلاحظ كيف أن جميع شعوب الأرض أعطت لليهود فرصة

---

(١) خطر اليهودية : ١٠٦ وما بعدها بتصرف.

للعيش كسائر الناس فى البلاد التى يلجأون إليها، ثم ما لبثت تلك الشعوب أن فتكت بهؤلاء اليهود، بعد أن تبين لها الخطر الذى يرافق شعب اليهود، ويهدد سكان البلاد الأصليين بالدمار الأخلاقى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى!

وكانت أحسن فترة فى تاريخ البشرية تنبهت بها شعوب العالم الغربى إلى خطر اليهود، هى ما بين القرن الحادى عشر والتاسع عشر، وفيها أدركت شعوب أوربا أن اليهود يزدرون المسيح والمسيحية، ويهدفون إلى القضاء على أتباع المسيح.

وفيها أدركت تلك الشعوب أن الشعب اليهودى لا يمكن أن يعيش مع أى شعب آخر فى الوجود إلا على أساس استعباد ذلك الشعب، وتسخير عقول أبنائه وأرواحهم ودمائهم وأموالهم فى خدمة اليهود، وأدركت كذلك أن ألاعيب اليهود وخططهم الدنيئة تسيطر بيسر على أرواح القادة والزعماء وأقلامهم وآرائهم، وتسيرها حسب أغراض اليهود، وأدرك العقلاء أن هؤلاء اليهود يسعون إلى استبدال العقيدة فى الله إلى يهوه إله اليهود، وآمنت شعوب أوربا أن اليهود يحلون امتصاص دم غير اليهودى لاستخدامه فى فطير عيد الفصح كل عام، وأن الحوادث التى وقعت وعرفت فى العالم تثبت هذه الجريمة البشعة!

وحينما أفاقت شعوب أوربا من غفلتها هبت ترد العدوان، وتدفع الخطر، قبل أن يستفحل الداء العضال، ويستشرى السرطان اليهودى، فيفتك فى أجسام ملايين البشر، ويحولهم إلى عبيد لخدمة اليهود!

ففى بريطانيا، وهى حامية اليهود والمدافعة عن الصهيونية ـ كما أسلفنا ـ كان تعذيب اليهود وتشريدهم والفتك بهم، بعد أن لمس الشعب البريطانى خطر اليهودية .. حدث ذلك فى عهد الملك جون «يوحنا» الذى أمر بحبسهم فى جميع أنحاء المملكة.. وفى عهد «هنرى الثالث» كان تعذيبهم وحبسهم بعد أن اكتشف أنهم ينزعون جزءا من ذهب النقود الرسمية وفضتها، مما أدى إلى خراب اقتصاد البلاد، وعاقبهم على ذلك الملك سنة ١٢٣٠م بأن يدفعوا إلى الخزينة ثلث أموالهم المنقولة.. وفى عهد الملك «إداورد الأول» سنة ١٢٧٢م كانت محاكمة اليهود، وحكم بالإعدام على مائتى يهودى ثم أمر بعد ذلك بطرد اليهود من بريطانيا فى غضون ثلاثة أشهر وذلك سنة ١٢٩٠م ولم يصبر الشعب البريطانى حتى تنقضى المدة ويتخلص من اليهود نهائيا، بل هجم على تجمعاتهم قتلا وحرقا، وفى قلعة يورك التى احتمى بها اليهود حرق الإنجليز خمسمائة يهودى، مما أرغم الملك على

---

(١) انظر الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين : الجامعة العربية ١٩٥٧م.

سرعة إجلائهم قبل أن يفتك بهم الشعب فى كل مكان.. ولم يبق فى بريطانيا يهودى واحد طوال ثلاثة قرون، إلى أن جاء «كروميل» وقبل الرشوة التى قدمت له من يهود هولندا لمساعدته على اغتصاب الملك من شارل الأول..

وكذلك فعل الفرنسيون باليهود، ذبح وقتل وحرق وتشريد وطرد من البلاد.. طردهم « لويس أغسطس» أولا، ثم عادوا إلى البلاد بعد عشرين سنة، وفى عهد «لويس التاسع» ألغى ثلث ما كان لهم من ديون... ثم أمر بحرق جميع كتبهم وخاصة التلمود.. وطردوا من جديد فى عهد «فيليب الجميل» وأصابهم من القتل والنهب شيء كثير ثم عادوا إلى البلاد... وفى سنة ١٣٤١م هاج الشعب فى أواسط فرنسا، وذبحو أعداد كبيرة وطردوهم، ولم تأت سنة ١٣٩٤م وفى فرنسا يهودى واحد.. [١] ثم عاد اليهود إلى فرنسا بعد تشردهم من أسبانيا.. ولم يؤذن لهم بالسكنى فى المدن إلا فى أواسط القرن السادس عشر.. وفى الثورة الفرنسية ١٩٧٠م استغلوا «ميرابو» .. ثم حاول «نابليون» استغلالهم لمساعدته.. وحينما عاد إلى فرنسا قال عنهم ما معناه: إنهم حثالات البشر وجراثيمه...

وفى ألمانيا كان آخر ما تلقوه من عذاب وتقتيل وتشريد على يد «هتلر» ابتداء من السنة التى تولى فيها حكم ألمانيا ١٩٣٣م إلى السنة التى سقط فيها حكمه ١٩٤٥م.

وفى أسبانيا كان الفتك بهم أيضا.. وقد صدر المرسوم فى ٣١ مارس ١٤٩٢م وفيه: «وعلى اليهود جميعا الذين يعيشون فى بلادنا ... ـ ومن غير تمييز فى الجنس أو الأعمار ـ أن يغادروا البلاد فى غضون فترة أقصاها نهاية يوليو من نفس العام، وعليهم ألا يحاولوا العودة تحت أى ظرف أو أى سبب.

ومن أجل أن يتدبر اليهود أمورهم استعدادا للرحيل منحناهم حمايتنا الملكية أرواحهم وأملاكهم لغاية آخر يوليو، ويسمح لهم كذلك بأن ينقلوا معهم برا أو بحرا ما يملكون، باستثناء الذهب والفضة والعملة الذهبية والأشياء الأخرى التى يشملها قانون المنع العام»[٢].

وكذلك وقع لليهود فى كل من روسيا وبولندا وإيطاليا ورومانيا وبلغاريا وسويسرا وهنفاريا.. والمذابح التى وقعت لهم فى روسيا على مر الأزمنة وفى مختلف العصور يعجز القلم عن وصفها.. وفى إيطاليا حاربهم البابوات وأصدروا المراسيم العديدة بتكفيرهم

---

(١) انظر: المرجع السابق : ١١٤ هامش.

(٢) انظر المرجع السابق : ١١٨ هامش.

وتسفيه معتقداتهم[1].

وفى أمريكا التى اكتشفت فى القرن الخامس عشر[2] فقد تدفق اليهود بأعداد كبيرة فى القرن التاسع عشر .. ومنذ منتصف هذا القرن حتى منتصف القرن العشرين احتشد اليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية، حتى بلغ عددهم نحو ستة ملايين يهودى، نصفهم يعيشون فى مدينة واحدة، هى نيويورك.. وفى عهد «روزفلت» اليهودى اتخذت النجمة شعارا رسميا لدوائر البريد، وللخوذ التى يلبسها الجنود فى الفرقة السادسة، وعلى أختام البحرية الأمريكية،وعلى طبعة الدور الجديد، وميدالية رئيس الجمهورية، وطفراء الشرطة فى شيكاغو، وشارة الصدر التى يضعها العمدة فى كثير من المناطق.

ولقد صور الأمريكى «أدموندش» فى كتابة (Itestify) هذا الشعار اليهودى، وعلى حافات النجمة الست أسماء أقطاب اليهود الذين كانوا يحكمون فى عهد «روزفلت» وخلفائه من بعده. والصورة كما يلى :

---

(١) انظر المرجع السابق: ١١٩ هامش.

(٢) المرجع السابق: ٢٠٠ وما بعدها بتصرف.

راي وايز
سدني هلمان
صموئيل دكيشتاين
جيمس واربرج
هربرت ليهمان
صموئيل روزنمان

القضاء
جستس براندیس

الثالث
هنري مورجانتو

الركن السياسي
فيلكس فرانكفورتر

حكومة
الولايات المتحدة
في
عهد روزفلت

هـ. فيس
بن كوهين
ناثان مارجولد
دافيد ليلنتال

وامتد نفوذ اليهود إلى كل ركن فى الولايات المتحدة.. وغدا الشعب الأمريكى مضللا أعمى لا يرى إلا من خلال ما يقدمه اليهود.. وأصبح كل رئيس بل كل مرشح وكل عضو فى مجلس النواب «الكونجرس» مخدرا بالأفيون اليهودى، عاجزا عن الحركة مشلولا، تقوده القوات السرية الموجهة حيثما تشاء. وأصبح كل رئيس أمريكى فى أية انتخابات تتم فى الولايات المتحدة سواء كانت انتخابات الرياسة أو الحكام أو الكونجرس أو البلديات أو أعضاء الهيئات والشركات؛ يستجدى أصوات اليهود، فإذا نجح أوهموه أنهم هم الذين نجحوه، وإذا سقط أوهموا خصمه الناجح أنهم هم الذين نجحوه، وهكذا يكونون هم دائما وأبدا الرابحين على حساب مصلحة أمريكا وشعب الولايات المتحدة.

وقبل مأساة «فورستال» وزير دفاع الولايات المتحدة بمائة وستين سنة، قام «بنجامين فرانكلين» ينبه شعب الولايات المتحدة، ويحذرهم من خطر اليهود. وأعلن فى المؤتمر الذى انعقد لإعلان الدستور سنة ١٧٨٩م ما يلى (١):

Ther is a great danger for United States of America, this great danger is the Jew. Genlemen, in every land which the Jwes have settled. they have depressed the normal level and lowered tho degrre of commercial honesty. They have remained apart and unassimilated - they have created a state within a state, and when they are opposed they attempt to strangle the nation financially as in the case of Portugal and Spain. For more than 1700 years, they have lamented their sorrowful fate. namely, that they were driven out of their motherland,but gentlemen,if the Civilized world today should give them bak Palestine and their property, they would immediately find pressing reasons for not returning there. Why? because they are vampires. they cannot live among themselves, they must live among Christians and others who do not belong to their race.

If they are not excluded from the United States by the Constitution, within less than 100 years, they will stream into this country in such numbers they will rule and destroy us and change our form of Government for which we Americans shed our blood and sacrificed life, property, and personal freedom.

If the Jews are not excluded, within 200 gears our children will be working in the fields to feed the Jews while they remain in the counting House gleefully rubbing their hands.

I warn you, gentlemen, if you do not exclude the Jews forever, your children's chidren will curse your in your graves. their ideas are not those of Americans even when they have lived among us for ten generations.

---

(1) The Nameless War, Capt. Ramsay, London 1952.

The leopard cannot change its Spots. The Jews are danger to this land and if they are allowed to enter they will imperil our institutions - they should be excluded by the constitution." .

ومعناها:

«هنالك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك الخطر هو «اليهودى».

أيها السادة: حيثما استقر اليهود، نجدهم يوهنون من عزيمة الشعب، ويزعزعون الخلق التجارى الشريف. إنهم لا يندمجون بالشعب. لقد كونوا حكومة داخل الحكومة. وحينما يجدون معارضة من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمة ماليا كما حدث للبرتغال وأسبانيا. ومنذ أكثر من ١٧٠٠ سنة وهم يندبون مصيرهم المحزن، لا لشيء إلا ادعائهم أنهم طردوا من الوطن الأم، ولكن تأكدوا أيها السادة أنه إذا أعاد إليهم اليوم عالمنا المتمدين فلسطين فإنهم سيجدون المبررات الكثيرة لعدم العودة إليها. لماذا؟ لأنهم من الطفيليات التى لا تعيش على نفسها، إنهم لا يستطيعون العيش فيما بينهم، إنهم لابد أن يعيشوا بين المسيحيين وبين الآخرين الذين هم ليسوا من جنسهم.

إذا لم يستثن اليهود من الهجرة بموجب الدستور، ففى أقل من مائة سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد ضخمة تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ويغيرون شكل الحكومة التى ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا وأموالنا وحريتنا الفردية.

إذا لم يستثن اليهود من الهجرة، فإنه لن يمضى أكثر من ٢٠٠ سنة ليصبح أبناؤنا عمالا فى الحقول لتأمين الغذاء لليهود الذين يجلسون فى بيوتهم المالية مرفهين يفركون أيديهم بغبطة.

إنى أحذركم أيها السادة، إذا لم تستثنوا اليهود من الهجرة إلى الأبد، فسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم فى قبوركم. إن عقليتهم تختلف عنا حتى لو عاشوا بيننا عشرة أجيال، والنمر لا يستطيع تغيير لونه. اليهود خطر على هذه البلاد، وإذا سمح لهم بالدخول فسوف يخربون دستورنا ومنشآتنا. يجب استثناؤهم من الهجرة بموجب الدستور».

ما أصدق هذه النبوءة، لولا أن صاحبها قد أخطأ فى تقدير المدة اللازمة لتحويل أمريكا إلى مزرعة يهودية. الكادحون فيها هم الشعب الأمريكى، والمتنعمون بخيراتها هم اليهود الطفيليون الذين يعيشون دائما وأبدا على دماء غيرهم من الضحايا.

فقد قدر بنجامين فرانكلين هذه المدة بمائتى سنة تنتهى فى ١٩٨٩م، بينما استطاع

اليهود أن يهوِّدوا الولايات المتحدة قبل خمسين سنة من هذا التاريخ، لتصبح سياستها وأسلحتها وعلمها وفنها وأموالها وخيراتها مجندة لخدمة اليهودية العالمية وأدواتها التنفيذية ـ الماسونية ـ الصهيونية.

وهذا بلاشك عامل مهم وسبب مباشر جمع بين هؤلاء جميعا، ووحد هدفهم، ليجمعوا اليهود من جميع البلاد إلى بلاد المسلمين، بدافع التخلص من تلك المفاسد الكثيرة التى تأتى من اليهود من جهة، ودافع الحقد للإسلام والمسلمين من جهة ثانية.

٣ ـ جعل الدولة اليهودية فى فلسطين متكأ لهؤلاء وأولئك، وخنجرا مسموما يشهر فى وجه الدول الإسلامية، (١) كلما توجسوا منها خيفة أو حتى مقاومة.

٤ ـ اتخاذ الوطن اليهودى حاجزا يفصل الأقطار الإسلامية فى آسيا عن الأقطار الإسلامية فى أفريقيا، ويقطع الصلة بين هاتين القارتين.

٥ ـ اتخاذ اليهود عائقا دون تقدم الأمة الإسلامية فى أقطارها الواسعة، والتى تقع فى أهم مراكز العالم التجارية والجغرافية والعسكرية والتى يزداد عدد سكانها زيادة مستمرة.. والتى يريد هؤلاء وأولئك أن يجعلوها دائما فى تعداد الدول المتخلفة خوفا من أن تعود إليها سيرتها الأولى ..

وليست تلك المحاولات وليدة سنوات قريبة، بل هى محاولات ـ كما عرفنا ـ قديمة.. ففى سنة ١٩٠٧م تولى «كامبل بترمان» رئاسة الوزارة البريطانية، فقام بتشكيل لجنة مكونة من بعض علماء التاريخ، ورجال القانون والسياسة، من عدة دول،ووجه خطابا إلى تلك اللجنة حدد فيه مهمتها، ومما جاء فيه :ـ

«إن الإمبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى، ثم تنحل رويدا وتزول، والتاريخ ملىء بمثل هذه الأمثلة، وهى لا تتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة، فهناك إمبراطوريات روما وأثينا والهند والصين، وقبلها بابل وآشور والفراعنة وغيرها. فهل لديكم وسائل يمكن أن تمنع سقوط إمبراطوريتنا، أو تأخر مصير الاستعمار الأوربى بعد أن بلغ الآن الذروة..؟».

وبعد أن ظلت هذه اللجنة سبعة أشهر فى دراسات وبحوث.. قدموا تقريرا إلى وزارة المستعمرات البريطانية... ومما جاء فيه قولهم :

---

(١) بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢:٤٦٨ وما بعدها بتصرف.

«إن الخطر ضد الاستعمار فى آسيا وفى أفريقيا ضئيل، ولكن الخطر الضخم يكمن فى البحر المتوسط.. وبناء عليه:

فعلى الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزؤ هذه المنطقة.. وتأخرها وإبقاء شعوبها على ما هى عليه من تفكك وتأخر وجهل .. وعليها ـ أيضا ـ ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقى فى هذه المنطقة عن الجزء الآسيوى، وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشرى قوى، غريب بمثل الجسر البرى الذى يربط آسيا بأفريقيا، حيث يشكل فى هذه المنطقة، وعلى مقربة من قناة السويس، قوة صديقة للاستعمار، وعدوة لسكان المنطقة...» .

وأخذت بريطانيا تبحث عن هذا الحاجز البشرى الغريب الذى يحتل الجسر البرى الذى يربط آسيا، بأفريقيا، ويكون صديقا للاستعمار، وعدوا للمسلمين سكان المنطقة.. فهداها تفكيرها إلى اختيار اليهود الذين كرههم العالم كله ووقف منهم تلك المواقف التى أشرنا إليها، لتخلق منهم دولة فى فلسطين تكون قوة صديقة لها، وعدوا لسكان هذه المنطقة .. ومنذ ذلك التاريخ، وبعد أن خضعت فلسطين للانتداب البريطانى ـ كما أسلفنا ـ أخذ الإنجليز يسعون لجعل فلسطين وطنا قوميا لليهود.. ثم انضمت إليها بعد ذلك دول الكفر.. وخصوصا أمريكا...

صور من الإرهاب :

عرفنا كيف كانت بداية الإرهاب اليهودى.. ويضيق بنا المقام لو حاولنا ذكر هذا الإرهاب كما حدث، ولا ذكر أهمه، وحسبنا أن نذكر صورا منه تعبر عن مدى طغيان اليهود الذين عملوا بكل الوسائل التى يعجز الخيال الشاخص عن تصورها على إبادة ما تبقى من العرب عندهم أو إجبارهم على النزوح عن إسرائيل نهائيا.... ففى ٩ أبريل ١٩٤٨م هجم اليهود على قرية [١] دير ياسين الكائنة فى قطاعهم مطمئنة إلى وعودهم وعهودهم، عزلاء من كل سلاح، وجمعوا سكانها صفا واحدا، رجالا ونساء وشيوخا وأطفالا.. ثم رشوهم بالنار، وأمعنوا فى تعذيبهم أثناء عملية القتل والذبح، فبقروا بطون الحبالى وأخرجوا الأطفال وذبحوهم، وقطعوا أوصال الضحايا، وشوهوا أجسامهم حتى يصعب التعرف عليها، ثم جمعوا الجثث وجردوها من الألبسة، وألقوا بها فى بئر القرية !

---

(١) خطر اليهودية : ٥٧.

وعندما جاء مندوب الصليب الأحمر الدكتور «ليز» ورأى الجريمة ولم يقو على الوقوف، حتى تتم عملية إحصاء الجثث «٢٥٠» فأغمى عليه، وغادر المكان!

إنها طبيعة اليهود الوحشية، وهمجيتهم التى لا تجارى، مارسوها منذ عرف تاريخهم الأسود، وما زالوا يمارسونها إلى يومنا هذا كلما أحسوا بقوتهم، وواتتهم الفرصة للانقضاض..

وهناك مذبحة شرفات فى ٧ فبراير ١٩٥١م... [١]

ومذبحة عيد الميلاد فى ٦ يناير ١٩٥٢م..

ومذبحة قبية فى ليلة ١٤ أكتوبر ١٩٥٣م..

ومذبحة قتل الأطفال فى ٢ نوفمبر ١٩٥٤م...

ومذبحة غزة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٥م..

ومذبحة شاطىء طبرية فى ١١ ديسمبر ١٩٥٥م..

ومذبحة غزة الثانية فى ٥ أبريل ١٩٥٦م..

ومذبحة غرندل فى ١٣ سبتمبر ١٩٥٦م...

ومذبحة حوسان فى ٢٥ سبتمبر ١٩٥٦م..

ومذبحة قلقيلية فى ١٠ أكتوبر ١٩٥٦م...

ومذبحة كفر قاسم فى ٢٨ أكتوبر ١٩٥٦م..

وحسبنا أن نذكر قول بعض الذين شاركوا فى هذه المذبحة وحوكموا صوريا، حيث سأل أحد الصحفيين الضابط «مالينكى» ما يلى:

س : هل أنت نادم على ما فعلت ؟

جـ : بالعكس .. لأن الموت لأى عربى فى إسرائيل معناه الحياة لأى إسرائيلى.. والموت لأى عربى خارج إسرائيل معناه الحياة لإسرائيل كلها.

س : ماذا كان شعورك بعد الحكم عليك؟

---

(١) انظر التفاصيل في : المرجع السابق: ٣٢٦ ومابعدها.

جـ : كنت مطمئنا للمعاملة التى سأعامل بها، لأن العمل الذى قمت به واجب وطنى ودينى.

وسئل الملازم « غبريال دهان » :

س : كم عربيا اصطدت فى المجزرة ؟

جـ : ١٣ فقط.

س : ماذا كان شعورك أثناء المجزرة؟

جـ : كنت متعطشا للدم العربى، وقد شربت حتى سكرت..

س : هل فى نيتك معاودة الشرب؟

جـ : إذا سمحت الظروف.

* * *

الفصل الثالث

الطريق إلى النصر

إسرائيل المعاصرة ـ اليهودية والدولة المعاصرة ـ رسالة موسى واليهودية ـ الإسلام دين ودولة ـ القومية كبديل عن دين الله ـ التقدم العلمى ـ فى القرآن والمسألة العلمية ـ معطيات القرآن ـ التناغم بين الثنائيات ـ منهج عمل شامل ـ العلم هو الدين ـ دعوة لتطوير الحياة ـ هل ثمة أكثر دلالة؟ ـ موقفان ـ الموقف الوسط ـ معطيات العلم ليست سواء ـ ورطة الإنسان المعاصر ـ نظامان للغلبة والانتصار ـ إزالة أسباب الخذلان ـ نبوءة صادقة ـ ما أشبه الليلة بالبارحة ـ نبوءة النصر ـ معركة عقيدة ـ وحدة القيادة ـ وعد الله ـ النصر النهائى ـ الجهاد اليوم .

إسرائيل المعاصرة :

أول ما يطالعنا من الحديث عن طريق النصر هوضرورة معرفة إسرائيل، فوق معرفتنا السابقة لها،من خلال :

١ ــ أسطورة الوطن اليهودى .

٢ ــ الفكر اليهودى.

٣ ــ موقف اليهود من الرسالة والرسول ﷺ.

٤ ــ الطبيعة اليهودية .

٥ ــ التآمر اليهودى على حياة الرسول ﷺ.

٦ ــ اليهود والخيانة.

٧ ــ القضاء على اليهود عسكريا.

٨ ــ محاكمة اليهود.

٩ ــ الخطر اليهودى.

وقد فصلنا القول فى ذلك تفصيلا..

أول ما يطالعنا بعد ذلك هو: أى رباط لإسرائيل المعاصرة: فى إقامة دولة، وبقاء دولة، والتماسك فى إطار الدولة غير اليهودية؟ (١) .

أهو رباط اللغة العبرية،وهى التعبير عن تاريخ بنى إسرائيل على أساس من اليهودية فى الكفاح من أجلها أو فى تحريفها وتأويلها؟

أهو رباط القومية اليهودية،وليست هناك قومية يهودية لا يحتوى مضمونها: اليهودية كدين؟

أهو اللغات العديدة التى تعلمها اليهود فى أوطانهم الجديدة فى العالم، بعد أن تفرقوا إليها، أو هو التاريخ المختلف للشعوب التى استقر بين أبنائها هؤلاء النازحون اليهود؟

أهو القيم الإنسانية البحتة التى تعلو بالشعب اليهودى فوق الشعوب وفوق الأديان؟

---

(١) خمس وسائل إلى الشباب المسلم المعاصر: ٦٠ وما بعدها بتصرف.

وهل هذه القيم تصلح لأن تكون الرباط بين اليهود، ولا تصلح لأن تكون الرباط بين أفراد شعب آخر من الشعوب البشرية؟

ثم هل توجد فلسفة غير متحيزة .. فلسفة فوق مستوى الشعوب والأجناس، وفوق الأديان جميعها؟

إن اللغة العبرية لو اتخذت الرباط المشترك فى إقامة دولة إسرائيل المعاصرة وهى تعبر فى تاريخ إسرائيل عن اليهودية فى مراحلها المختلفة ـ فليست إذن اللغة العبرية المكونة من ألفاظ وتراكيب هى الرباط. إنما مضمونها التاريخى. وهذا المضمون ذو صلة باليهودية كدين.

والقومية اليهودية ليست فى تحليل واقعها سوى الوعاء التاريخى والدينى واللغوى فإن اتخذت هذه القومية الرابطة فى دولة إسرائيل المعاصرة، فاليهودية تمثل القسط الواسع، والمتميز منها.

وليست هناك قومية تعتمد على لغة القوم وحدها كتعبير وأساليب، وإنما أية لغة هى كائن حى، مظهره: التعبير باللفظ والتركيب، وحقيقته: تاريخ القوم.. التاريخ الذى تنتسب إليه. وأخلص ما يحمله تاريخ القوم ـ أى قوم ـ هو عقيدته، وتقاليده، وكفاحه فى سبيل استقلاله أو سيادته .

والذى يحافظ على استقلاله وسيادته، هو ذلك الذى تميزت شخصيته. والعناصر الأساسية فى شخصية أى قوم من الأقوام هى:

الاعتقاد الخاص برسالة معينة فى الحياة.

والتقاليد التى تربط بين الأفراد.

أما اللغات العديدة التى تعلمها النازحون من اليهود وسط الشعوب التى استقروا فيها، وأما تاريخ هذه الشعوب التى استوطنوها ـ هذه وتلك ـ لا تصلح أن تكون الرباط فى إقامة دولة، وإن صلحت أن تكون وسيلة ترابط بين مجموعة وأخرى من اليهود.

والقيم الإنسانية ـ المدعاة ـ التى تدعى أية فلسفة تجردها عن التحيز، وبالتالى تدعى أنها فوق الشعوبية والمذهبية والطائفية والدينية.. التى تدعى أنها عالمية، لا توجد بعد ..

وتوجد فقط يوم يوجد الإنسان العالمى الذى يفكر تفكيرا عالميا فى الإنسانية وحدها .. لا يتأثر ببيئة ولا وراثة .. وما يُدّعى أنه تفكير عالمى اليوم فلا يعدْو أن يكون تفكيرا كالماسونية مثلا، لأنها وإن ادعت العالمية فهى فى خدمة إسرائيل منذ وجود هذه الفكرة!

واللغة العالمية «الاسبرنتو» لا تعبر عن تفكير إنسان عالمى. بل هى بالأحرى عامل لتذويب خصائص الشعوب، ومحاولة دمجها وإزالة الواصل بينها فى الاعتقاد والروابط الخاصة لصالح مجموعة مشردة، هى اليهود، كى تعيش فى تسلل واطمئنان، وكى تمارس نشاطها المالى والعقلى فى غيبة من الوعى الوطنى الذى تحييه اللغة الوطنية.

اليهودية والدولة المعاصرة :

ولكن إذا صلحت اليهودية ـــ أو تعينت دون العبرية ودون القومية اليهودية ودون فلسفة القيم غير المتميزة ـ أن تكون الرباط بين اليهود فى العالم، أو فى أى مكان منه هل تصلح مع ذلك أن تكون أساسا لدولة عنصرية؟ .. لإسرائيل كدولة تحاول أن تثبت وجودها ؟

إن الدولة العصرية هى التى تكون لجميع الأفراد فيها حمايتها للجميع على السواء، والعمل فيها لا يحرم منه راغب فى العمل بسبب عنصره أو طائفيته، أو عقيدته، أولغته.

هى الدولة التى تتيح لجميع الأفراد حرية ممارسة العبادة وعدم الإكراه فى الدين.. هى التى لا تميز مجموعة من أفرادها فى الاعتبار البشرى على مجموعة أخرى فيها، على الأخص لسبب الدين أو العنصر.

فهل فى اليهودية ما يحول دون أن تكون دولة إسرائيل دولة عنصرية إذا قامت على على أساس منها؟

هل فى اليهودية ما يجعل اليهود وحدهم أصحاب ميزة فى الاعتبار البشرى على من عداهم فى العقيدة فى دولة إسرائيل المعاصرة؟

إن الرجوع إلى اليهودية فى صلتها برسل الله عليهم صلوات الله وتسليماته.. يمكن أن ينير الطريق إلى جواب هذا السؤال .

وخير مصدر نرجع إليه هو القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

رسالة موسى واليهودية:

وإن رسالة موسى عليه السلام ـ كما أسلفنا ـ تختلف عن اليهودية التى يتبعها اليهود، والتى يتخذون منها أساسا للترابط فى قيام دولة إسرائيل المعاصرة. بقول الله عز وجل فى وصف رسالة موسى:

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ (٢).

فقد وصف كتاب موسى بأنه كان قبل القرآن شاهدا عليه ومؤيدا لما جاء به، وهو لذلك إمام ورحمة للناس جميعا.

بينما يقولُ فى وصف اليهودية بين بنى إسرائيل:

﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٣٥ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٦ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣٧ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ (٣).

ثم يقول:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤).

---

(١) النمل: ٧٦ ـ ٧٧. (٢) هود: ١٧. (٣) البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٨. (٤) البقرة: ١٤٠.

وسبق أن فصلنا القول في عرض هذه الآيات وغيرها.. وهنا نجد القرآن لا يقبل اليهودية ومن على شاكلتها كدين لهداية البشرية، وإنما دين الله مصدر هدايته هو « ملة إبراهيم حنيفا» فاليهودية ومن على شاكلتها دين فريق معين من البشر، وليست الدين الذى هو للناس جميعا، وهو وحده الذى يقبل عند الله، وهو الدين الذى جاء به الرسل جميعا.

ثم فى قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(١).

ينفى أن يكون إبراهيم عليه السلام يهوديا، ثم يثبت أنه كان حنيفا مسلما، وهذا يوضح أن هناك اختلافا وفجوة بين ما لليهود من يهودية.. وبين ما عليه المسلمون من إسلام الذى هو دين رسل الله عليهم صلوات الله وتسليماته.

وتختلف اليهودية عن كتاب موسى، كما تختلف عن ملة إبراهيم وعما أنزل إلى الرسل جميعا.

فكتاب موسى، وما أنزل على الرسل.. الإسلام الذى جاء به القرآن مصدقا لما بين يديه من هذه الرسالات.. وإذن هنا دين واحد هو الإسلام الذى سجله القرآن الكريم على لسان الأنبياء ــ كما أسلفنا ــ وهنا شيء آخر يختلف وهو: يهودية بنى إسرائيل.

والحديث ــ كذلك ــ عن اليهودية ليس هو الحديث عن دين الله ــ كما عرفنا ــ والسؤال الآن: بم تختلف اليهودية عن كتاب موسى؟

ويجيب القرآن الكريم أيضا عن هذا السؤال فى مثل ما يذكره قول الله تعالى:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾(٢).

---

(١) آل عمران: ٦٧.

(٢) المائدة: ١٨.

فكل من اليهود والنصارى صنع فى الرسالة ما يجعلها مصدر تميز لهم، بحيث يتجاوزون هم فى أنفسهم، عن طريق التأويل فيها مستوى الإنسان إلى مستوى آخر..وهو كما يزعمون ــ وهو مستوى الأبناء أو الأحباء.

وقد كان بنو إسرائيل يدعون أنهم أولاد إبراهيم عليه السلام. ولذا لا يعاقبون على ذنوب يرتكبونها، وإن عوقبوا عليها ــ على أسوأ الفروض ــ لمدة قصيرة، وقد رد عيسى عليهم ــ كما أسلفنا ــ بأنهم من أب هو إبليس ولذا جاء القرآن ينفى هذا الادعاء، ويؤكد أن الناس جميعا سواء أمام الجزاء، وأنه لا فرق بين مجموعة وأخرى، ولا بين شعب وآخر فى ذلك.. جاء قول القرآن هذا فى قوله:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1].

فشعب بنى إسرائيل ليس شعبا مختارا يتميز عما سواه من الشعوب، كما تنطق رسالة الحق فى القرآن، وإن ادعى اليهود ذلك لأنفسهم.

ثم إن الذين يكفرون بروحية الدين تحت تأثير الاتجاه المادى فى الإيمان بالله، ويباشرون هذا الاتجاه فى ارتكابهم الجرائم الاجتماعية، رغم إعطائهم العهد والميثاق على عدم ارتكابها، لا يستبعد منهم أن يخالفوا هذه الروحية فى تمييز أنفسهم عن سواهم بعد أن يعلنوا الإيمان بها.

فقد طالبوا برؤية الله عيانا ــ كما أسلفنا ــ كطريق للإيمان به:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾[2].

---

(١) البقرة: ٨٠ ــ ٨٢.   (٢) النساء: ١٥٣.

وباشروا الجرائم الاجتماعية ـ كما عرفنا ـ رغم المواثيق المؤكدة على عدم ارتكابها:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١).

واستمر شعب بني إسرائيل تحت تأثير المادية قرونا وأجيالا عديدة حتى اليوم، رغم وجود كثير من الأنبياء يوضحون لهم رسالة موسى، رغم أن عيسى جاء على أثرهم برسالة الله إليهم مرة أخرى:

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢).

﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ (٣).

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٤).

ومما اختلفوا فيه عن كتاب الله قولهم: إنهم شعب الله المختار، ومع ذلك ظلوا ماديين ومدّعين لأنفسهم بسبب ماديتهم ما يتفوقون به على غيرهم، ولهذا كانوا ظالمين لأنفسهم:

(١) البقرة: ٨٤ ـ ٨٥.
(٢) المائدة: ٤٦.
(٣) الحديد: ٢٧.
(٤) الصف: ٦.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٦٣ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦٤ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (١).

فبنوا إسرائيل ظلوا مختلفين عن دين الله ورسالته على عهد موسى عليه السلام، ثم اختلفوا كذلك عن دين الله ورسالته على عهد عيسى عليه السلام.. ومنهم ـ وهم قلة ـ أصبحوا حواريين له.. وهم الذين أخذوا اسم النصارى من أبناء هذا الشعب الإسرائيلى:

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٢).

واختلافهم إذن عن دين الله ورسالته ـ سواء على عهد موسى أو على عهد عيسى عليهما السلام ـ هو على نحو ادعاءاتهم التى سجلها القرآن الكريم فيما يحكيه عنهم، من قولهم: «نحن أبناء الله وأحباؤه» وقولهم «لن تمسنا النار إلا أياما معدودة» إلى غير ذلك من الآيات التى عرضنا لها من قبل.

وقد جاء القرآن الكريم بعد ذلك يناشدهم عدم الغلو فى الدين، وعدم اتباع الهوى.. ولكن ظل نداؤه إياهم دون جدوى... واستحقوا اللعن بسبب ظلمهم لأنفسهم واختلافهم عن دين الله .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝٧٧ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٣).

---

(١) الزخرف: ٦٣ ـ ٦٥. (٢) آل عمران: ٥٢. (٣) المائدة: ٧٧ ـ ٨٠.

فاستعلاء شعب إسرائيل اليوم فى دولتهم العنصرية المعاصرة على أساس من عقيدته اليهودية يحول دون أن يكون الدين من مقومات الدولة، كدولة عصرية يجب أن تسوى بين جميع الأفراد فى الاعتبار البشرى وفى حرية العقيدة.

وتأثر شعب إسرائيل اليوم فى دولتهم العنصرية المعاصرة بالاتجاه المادى ــ الذى ظل ملازما لهم طوال تاريخهم ــ لا يجعل اليهودية أيضا دينا، حتى يعتبر أو لا يعتبر من مقومات دولة عصرية... أى أنه يحول دون اعتبار اليهودية دينا.

واليهودية إذن لا تصاحبها خصائص الرسالة الإلهية، وخصائص دين الله، وأبرز هذه الخصائص:

أولا: المساواة فى الاعتبار البشرى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾(١).

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(٢).

وثانيا: روحية الدين.. وهى تلك الروحية التى تحول دون الجرائم الاجتماعية فى الأموال والأعراض والأنفس، والتى تحمل على تجاوز دائرة الطفولة البشرية فى التفكير والاعتقاد.. فلا يقف تفكير المؤمن بدين الله وروحية هذا الدين عند حد المحسوس والمشاهد. كما لا يجمد اعتقاده وإيمانه بما يحسه فقط:

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾(٣).

وإذا حال عدم المساواة فى الاعتبار البشرى دون صلاحية ما يدعى له الدين أو العقيدة من أن يكون دينا أو عقيدة، ففقدان روحية الدين أو الوقوع تحت تأثير الاتجاه المادى أكثر إبعادا لما يدعى أنه دين، من أن يكون دينا.

فالاتجاه المادى من شأنه أن يفرق حتى بين الإخوة، والدين من شأنه أن يكتل ويجمع حتى بين الأعداء:

---

(١) الحجرات: ١٣. (٢) سبأ: ٢٨. (٣) الأنعام: ١٠٢ ـ ١٠٣.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [(١)].

الاتجاه المادى ـ كما هو شأن اليهود ـ يشجع الأنانية والفردية.. والدين يشجع روح الجماعة والمشاركة، على حساب الذات وشهواتها.. والأنانية هى داء المجتمع وعدوه الأول.. هى مصدر الخصومات والأحقاد.. هى مصدر الاستغلال والاحتكار .. هى مصدر العبث والفساد، عن طريق الترف والمبالغة فى المتعة المادية.. هى مصدر القتل وإشاعة الفحشاء والمنكر..هى مصدر الشرك والانتهازية والنفاق...

ولذا لا يصدق إطلاقا أن أية أيديولوجية تدعو إلى المبادلة أو المنفعة المادية وحدها تصبح عقيدة أو دينا، فضلا عن أن تكون ذات أثر إيجابى فى حياة من يدعى أنهم يؤمنون بها.. لا يصدق مطلقا أن مذهبا ماديا فى الحياة يشيع روح الإنسانية أو يستهدف المستوى الإنسانى فى المجتمع.

المجتمع المادى يطلب اقتناص الفرصة فى جمع المال والمتع الدنيوية، والدين يطلب الزهد فيها لصالح الإيمان بالله والقيم العليا.. يطلب التضحية حتى بالنفس بعد المال والولد.

واليهودية المادية إذن، واليهودية التى تدعى أنها دين النخبة ودين الشعب المختار لو تأسست عليها الدولة العنصرية العصرية: لكانت عوامل التفرقة فيها متعددة،ولكان الصراع الداخلى أشد وأعنف فيها.. وهى عوامل العنصرية من جانب،والانتهازية المادية من جانب آخر..

ولكنها فى الآونة الأخيرة لا يبدو التفرق فى مجتمعها، ولا التمزق الداخلى فيه، بسبب التركيز على توسعاتها، وعلى ما يضمن لها شبه الاستقرار، ويكفل لها أمنا خارجيا.. ولكن إلى حين.. ولتعلمن نبأه بعد حين.

وعوامل العنصرية إذا أوحت بها عقيدة كان تمزيقها للوحدة الداخلية أمرا لا مفر منه إن عاجلا أو آجلا.. وعوامل الانتهازية المادية لا تسبب فرقة الأنانية فحسب،

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

وإنما مع ذلك تجعل الأخ يحقد على أخيه، ويغدر به، ويتسلط عليه إن أمكن، فى سبيل المتعة المادية..

الإسلام دين ودولة :

وإذا كانت رسالة موسى عليه السلام قد تحولت إلى دين النخبة وشعب الله المختار.. تحولت إلى اليهودية ـ كما عرفنا ـ ومن شأنها عندئذ أن تحول دون اعتبارها مقوما فى دولة عصرية لا تفرق بين الأفراد فيها، ولا ترى للشعوبية أثرا فى تمييز هولاء الأفراد بعضهم عن بعض، فإن الإسلام دين ودولة... وقد جاء مصححا لهذا الاختلاف، ولبيان ما اختلف فيه أهل الكتاب هنا وهناك عن كتاب الله، يضع الناس جميعا أمام الاعتبار البشرى، ويرفع العصمة عن الإنسان إلا فى نطاق ما يكلف به رسوله لتبليغه من وحى الله إلى الناس كافة.

فالإسلام دين الله، ورسالة خاتم النبيين ﷺ ، لا يعرف التفرقة العنصرية ، ولا الشعوبية أساسا لتقدير الناس والأفراد ... وإنما يعرف مقياسا واحد تقاس به منازلهم ومستوياتهم.. وهو مقياس التقوى، أو السلوك الإنسانى المهذب، أو المستوى البشرى الفاضل:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

يأيها الناس (٢) يأيها المختلفون أجناسا وألوانا، المتفرقون شعوبا وقبائل.. إنكم من أصل واحد. فلاتختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولاتذهبوا بددا.. ومع ذلك فاليهود يدعون أنهم من نسل إبراهيم عليه السلام .. ومن ثم فهم يتميزون عن غيرهم.. ويرد عليهم عيسى عليه السلام: أنتم من أب هو إبليس!

يأيها الناس ... والذى يناديكم هذا النداء هو الذى خلقكم من ذكر وأنثى .. وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل .. إنها ليست التناحر والخصام ـ كما هى طبيعة اليهود ـ إنما هى التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضى النزاع والشقاق، بل يقتضى التعاون للنهوض.. بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات.. وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعانى من حساب فى ميزان الله.. إنما هنالك ميزان واحد

---

(١) الحجرات: ١٣.　　　(٢) فى ظلال القرآن: ٦ : ٣٣٤٨ بتصرف.

تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس: ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ والكريم حقا هو الكريم عند الله .. وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين : ﴿ **إن الله عليم خبير** ﴾ .

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر فى الميزان.. ولكن اليهود هم اليهود .. عنصرية، وحقد، وجنسية، وبغض للإنسانية كلها!

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات فى الأرض، وترخص جميع القيم التى يتكالب عليها الناس. ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد..

ولكن اليهود يزعمون أن لهم إلها خاصا بهم ـ كما أسلفنا ـ وأنهم من جنس مختار!

كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى فى ظل الحق..وهذا هو اللواء الذى رفعه الإسلام، لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت.. وكلها من الجاهلية وإليها، تتزيا بشتى الأزياء، وتسمى بشتى الأسماء.. وكلها جاهلية عارية عن الإسلام !

وهذه هى القاعدة التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى.. المجتمع الإنسانى العالمى، الذى تحاول البشرية فى خيالها المحلق أن تحقق لونا من ألوانه فتخفق، لأنها لاتسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم.. الطريق إلى الله.. ولأنها لاتقف تحت الراية الواحدة المجمعة.. راية الحق..

والإسلام لا يبدأ بالتفرقة بين الأفراد، وإنما يرجىء التفاضل بينهم إلى وقت مسئوليتهم عن التصرف، والسلوك إلى وقت حريتهم وعدم إكراههم على الفعل، بعد أن يضمن لهم أن رسالته قد بلغت إليهم.

وبذلك يصحح الإسلام ما اختلف فيه بنو إسرائيل عن كتاب الله ودينه.. وقد عاقب الحق اليهود بسبب تأويلهم لدين الله وادعائهم أنهم شعب الله المختار، وسلط عليه آلام التفوق فى العنصر والعرق فيما ادعته أوربا من الآرية وتفوقها على السامية فى النصف الأول من قرننا الحاضر.

ولا يعرف الإسلام أيضا القداسة والعصمة للبشر.. فالناس كماهم سواء فى الاعتبار البشرى،

هم سواء أيضاً فى التعرض للخطأ والصواب.. والفاضل بينهم هو الذى لايقصد إلى الخطأ ..

وبهذا أيضا يصحح ما اختلف فيها أتباع عيسى عن كتاب الله ودينه...

والاتجاهات الراديكالية ــ وهى الاتجاهات المتطرفة فى الفلسفة الغربية ــ فى المجتمعات الأوربية هى فى الأغلب وليدة استنكار القداسة والعصمة للإنسان فى الدين عندهم.

كما أن تصادم الأحداث فى تطور الحياة للمجتمعات المعاصرة هناك يعود إلى الإيمان بحلول الوحدة الثلاثية...

وهكذا لا يعرف الإسلام تفرقة عنصرية أو شعوبية.. إلى آخر ما عرضنا له..

الإسلام يعرف الإنسان كإنسان، ويقدم له المشورة والهداية، كصاحب طبيعة بشرية يعرض لها الخطأ والصواب، والزلل والسداد، والمرض والصحة، والفقر والغنى، والطفولة والشيخوخة،والموت والحياة، والضعة والشرف بالمال أو بالعصبية أو بالحكم، والتواضع والطغيان.. يعرض له النقيض ونقيضه من صفات الوجود.

ويريد للإنسان فحسب ألا يسقط إلى مستوى الحيوان، فى إغفال العقل والقلب، وأن يركز فقط على المعدة والفرج.. يريد للإنسان أن يكون لبنة مصقولة فى بناء مجتمع إنسانى كبير.. وصقلها عن طريق الحد من الأنانية، وإفساح مجال لمعنى الجماعة ومشاركة الحياة والوجود.

القومية كبديل عن دين الله :

والآن إذ ترك الدين القيم فى المجتمعات الإسلامية، وأبعد عن أن يكون من مقومات الدولة العصرية، فذلك يرجع إلى أحد أمرين:

١ ــ إما إلى تقليد المجتمع الأوربى ــ فى غربه أو شرقه ــ تقليدا ينطوى على التبعية المطلقة لتطور هذا المجتمع وأحداثه التى تتعاقب فيه، فى إعراض عن مراجعة الإسلام وتاريخ المجتمع الإسلامى.

٢ ــ وإما سعيا للتخلص من مبادئ الإسلام فى الحكم، وهى تلك المبادئ التى لا تساعد على أن تكون السلطة للتسلط، ولا على أن يكون الحكم لجاه الحكم.. كما هو شأن اليهود ومن على شاكلتهم..

تلك المبادئ التى أدناها العدل، وأرفعها الإحسان.. والعدل إذا كان توازنا فى المبادلة

والمعاملة وإحقاق الحق لكل صاحب حق، فالإحسان هو إعطاء من إحسانية المحسن، ممثلا في عمل خير إنساني أو في مال أو في معاونة للفقير، أكثر من الأخذ منه.

تلك المبادئ التي تجعل الحرية أمرا مكتسبا للفرد، لا توهب من أحد سواه، وإنما تنزع عن طريق العبادة لله سبحانه وتعالى من هوى النفس وشهواتها، واكتسابها هو جهاد.. لأن هذه الحرية لو تحققت لدى الأفراد في المجتمع كانت هي سبيل النصر في ميدان القتال، في كل مرة يواجه فيها الأحرار من المؤمنين عدو الله وعدوهم.. ولكن النصر في ميدان القتال مرة لا يكفل حرية المجتمع الدائمة التي تتجلى في قوته وفي تماسكه، وفي بقائه معتزا بشخصيته التي تميزه عن غيره، وتجعله مستقلا غير تابع إلا للحق.

والقومية التي يحاول بعض مدعي التفكير الاجتماعي من الأجانب ـ من أمثال ساطع الحصري، وجورج حبش، وميشيل عفلق ومن على شاكلتهم ـ أن يجعلها كل منهم بديلا عن الإسلام في الترابط، إن هي إلا وعاء لا يحتوي إلا الحقد على الإسلام، بعد جهل بمبادئه، وفي الوقت نفسه بعد وعي بآثاره الإيجابية في تجميع الأمة وفي نهضتها بعد استقلالهاالسياسي.

إن القومية التي يعنيها ساطع الحصري ومن على شاكلته ـ وما أكثرهم ـ قومية ألفاظ، وقومية تاريخ لا يصور أحداث أمة كانت لها رسالة وقيم عليا، وعاشت من أجل هذه الرسالة والقيم، وتريد أن تعيش لها في أجيالها المستقبلة، فهي قومية جسم لا روح فيه.

وقومية جورج حبش، وميشيل عفلق، ومن على شاكلتهما ـ وما أكثر هؤلاء ـ قومية إلحاد بدين الله، وقومية استيراد لفكر متعثر يقوم على الدعوة لتنمية الحقد في النفوس، ويضع الغدر والحقد في ضروب العلاقات المختلفة أساس السلوك، كما يضع الأفراد في الأمة في متاهات الخصومات ودوّامة النزاع وسوء العلاقات.

وهي قومية تحيل مجتمع القوم المطمئن الآمن على نفسه وعلى رزقه، إلى مجتمع يكفر بنعم الله، فيقع في اضطراب الجوع والخوف، ويشق عليه أمر الحياة .. وهذه سنة لا تتغير في المجتمعات:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (١).

والتعبير القرآني يجسم الجوع والخوف فيجعله لباسا، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس

(١) النحل: ١١٢.

ذوقا، لأن الذوق أعمق أثرا فى الحس من مساس اللباس للجلد.. وتتداخل فى التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله فى النفوس، لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التى تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون.. ولكن من وراء ذلك دعاة تلك القومية الماجنة، حتى لا تتوحد الأمة الإسلامية على العقيدة الصحيحة.. خوفا من أن ترجع لنا سيرتنا الأولى. وإنها لآتية، فإن بشائرها قائمة.. وإن نصر الله قريب.. ولتعلمن نبأه بعد حين.

وهى قومية ـ كما يقول أبو الحسن الندوى ـ[1] كان لها أعمق تأثير فى حياة الأمة العربية وعواطفها ومشاعرها بعدالحرب العالمية الأولى، فقد قويت هذه العصبية على حساب العصبية الإسلامية، وأصبحت ديانة وعقيدة يتغنى بها القوميون، ويتحمسون لها كما يتحمس أهل الديانات والملل، لدياناتهم وشرائعهم، ويرون فيها عوضا وخلفا عن الدين الإسلامى الذى أكرمهم الله بالإيمان به والانتصار له، والتفانى فى سبيله.

يتمثل ذلك بعض التمثيل ـ فى عبارات التقطناها على عجل من كتابات بعض كبار كتاب العرب، وهى تقدم أسلوب الفكر الحديث المسيطر على دعاة القومية العربية:

«العروبة نفسها دين عندنا نحن «القوميين العرب» المؤمنين العريقين من مسلمين ومسحيين، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية فى هذه الحياة الدنيا، مع دعوتها ـ أى العروبة ـ إلى أسمى ما فى الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات»[2].

«لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة، إن القومية العربية لهى نبوة هذا العصر فى مجتمعنا العربى.

ورسالة هذه النبوة هى : تجميع القوة، وتكتيل الجبهة، والانطلاقة بالبشرية فى كيان المجتمع العربى نحو كسب الحياة .

وإن كتاب العرب فى أعناقهم أمانة، هى أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة، يزكونها بأقلامهم، وينفخون فيها من أرواحهم، ويعملون على أن تتكتل لها أسباب النماء والازدهار»[3].

«الوحدة العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله فى

(١) المسلمون وقضية فلسطين: ٥٢ وما بعدها بتصرف.

(٢) مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب: «قضية العرب» لعلي ناصر الدين، هامش ١٣٨ .

(٣) مجلة العالم العربي : عدد ١٧١ بعنوان «النثر والقومية العربية» محمود تيمور.

قلوب قوم مؤمنين» [١].

«القضية العربية لن تكون أبدا عند العربى المؤمن الحر، العاقل الشريف، الصالح الخير، الأبى المترفع، إلا قضية إيمان، إيمان بالوطن للوطن، كقضية الإيمان بالله ليس غير» [٢].

وقد نشأ بذلك عقوق بنعمة الإسلام، وكنود وكفران بحق محمد عليه الصلاة والسلام، وفضله فى تكوين هذا العالم العربى وإبرازه من العدم إلى الوجود، وبدت من أفواه كثير من الشباب المتعلم، وبعض قادة الفكر، وحملة الأقلام، كلمات وكنايات، يرتد بها صاحبها عن الإسلام، ولا يستحق أن يدفن فى مقابر المسلمين.

وصدرت مقالات يبرز فيها أصحابها كعدو حقود على الإسلام.

وبدأ بعض الكتاب يتحدثون عن الإنسان العربى الجديد، كعملاق مارد على جميع الأسس العقائدية، وجميع القيم الخلقية والروحية.

وقد عبر عن هذه الفكرة كاتب جرىء يمثل فى مقال له فى مجلة عسكرية عددا كبيرا من الضباط والقادة والذين يفكرون هذا التفكير. يقول:

«استنجدت أمة العرب بالإله... فتشت عن القيم القديمة .. استعانت بالنظام الإقطاعى والرأسمالى وبعض النظم المعروفة فى العصور الوسطى، كل ذلك لم يجد فتيلا.. مع كل هذا شمرت أمة العرب عن ساعديها ونظرت بعيدا.. بعيدا.. لترى طفلها الوحيد، يقترب منها شيئا فشيئا.. وهذا الوليد ليس إلا الإنسان العربى، الاشتراكى الجديد.

الإنسان المتمرد على جميع القيم.. الإنسان الذى يعلم نهايته الحتمية.. الموت .. وليس غير الموت، لن يكون هناك نعيم أو جحيم ، بل سيصبح ذرة تدور مع دوران الأرض.. لذلك وهو مضطر إلى أن يقوم.. دون مقابل كزاوية صغيرة فى الجنة مثلا » [٣].

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [٤].

كانت الآلهة فى الماضى أصناما وأوثانا، أو شجرا أو نجوما، أو ملائكة أو جنا..

---

(١) مجلة العربي: العدد الثاني : ٩ يناير ١٩٥٩.

(٢) مقدمة الطبعة الثانية : ١٩.

(٣) مجلة «جيش الشعب» السورية: إبراهيم خلاص.

(٤) يس: ٧٤ ــ ٧٥.

والوثنية ما تزال حتى اليوم فى بعض بقاع العالم.. وقد يتمثل الشرك اليوم فى الإيمان بقوى زائفة غير قوة الله، وفى الاعتماد على أسناد أخرى غير الله.. والشرك ألوان، تختلف باختلاف الزمان والمكان والجيل والقبيل... (١).

ولقد كانوا يتخذون تلك الآلهة يبتغون أن ينالوا بها النصر.. بينما كانوا هم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة أن يعتدى عليها معتد أو يصيبها بسوء، فكانوا هم جنودها وحماتها المعدين لنصرتها ﴿ **وهم لهم جند محضرون** ﴾ وكان هذا غاية فى سخف التصور والتفكير.

غير أن غالبية الناس اليوم لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل. فالذين يؤلهون الطغاة البغاة العتاة الجبارين اليوم، والذين يرفعون تلك الشعارات التى تجمع الناس على غير الإيمان بالله، هم مفسدون فى الأرض، يريدون لهذه الأمة أن تظل هكذا فى هزائم متلاحقة، حتى يُقضى عليها، ولكن أنَّى لهم ذلك؟ أنى لهم ذلك ؟ وإن كانوا طغاة بُغاة عتاة؟ أنى لهم ذلك وإن كانوا دعاة شر وحماة باطل ! يساندهم حزب الشيطان ويشد من أزرهم؟ أنى لهم ذلك ؟ وهذه بشائرالنصر تلوح فى الأفق، نبصرها فى الصحوة الإسلامية المباركة التى امتدت إلى أطفال الحجارة والنساء والشيوخ وهم يواجهون طغيان اليهود؟

حقا، إن الوثنيةَ هى الوثنية فى شتى صورها وأشكالها. .وحيثما اضطربت عقيدة التوحيد الخالص أى اضطراب جاءت الوثنية، وكان الشرك، وكانت الجاهلية وكانت الهزائم !

فكيف إذا كان بعض هؤلاء القوميين غير مسلم اسما ومسمى؟! وكيف إذا كان مسلما اسما ويعتنق ما يتنافى مع الإسلام من مذاهب تعددت أسماؤها وتنوعت أشكالها وهدفها واحد؟!

إنه لا عصمة إلا بالتوحيد الخالص الذى يفرد الله وحده بالإلوهية.. ويفرده وحده بالعبادة.. ويفرده وحده بالتوجه والاعتماد... ويفرده وحده بالطاعة والتعظيم.. ويومئذ يكون النصر على اليهود ومن على شاكلتهم.

---

(١) فى ظلال القرآن: ٥ : ٢٩٧٦ بتصرف.

إن هذا الدين القيم لا يعرف الفصل بين دين ودولة.. إنما يعرف الحياة الإنسانية الراقية الشاملة الكاملة للفرد وفى علاقته بغيره..

ولا يعرف قضية للدين وأخرى للعلم.. وإنما يعرف مؤمنا بالله يحكى صفاته فى نفسه من علم وغنى وخلق وإبداع.. ويتقرب بما يحاكيه إليه جل جلاله..

ولا يعرف رفعا لإنسان عن مستواه الإنسانى، وإنما يعرف إنسانا يصيب ويخطىء فى تقديره وفى رأيه وفى علمه..

ولا يعرف تفرقة بين الناس على أساس من العنصر والعرق ـ كما هو شأن اليهود ومن على شاكلتهم .. وإنما يعرف أن الناس جميعا سواء فى الاعتبار البشرى وفى المسئولية أمام الله، وأن التفاضل بينهم هو فى مدى تحقيق مستوى الإنسانية فى تفكير المؤمن وسلوكه وعمله.. هو ـ كما أسلفنا ـ فى التقوى والعمل الصالح..

ولا يعرف توكلا على السعى والعمل.. وإنما يعرف متوكلا ومعتمدا على الله سبحانه، بعد العزم وتحقيق الطريق الذى يسلكه فى سعيه وفى عمله..

ولا يعرف إنسانا ماديا أنانيا يطغى بماديته وأنانيته ـ كما هو شأن اليهودى ومن على شاكلته ـ .. وإنما يعرف إنسانا محسنا.. يعطى من إنسانيته على الأقل بقدر ما يأخذ، إن لم يكن يعطى أكثر..

ولا يعرف إنسانا راهبا أو مترهبا ـ كما هو شأن بعض أهل الكتاب ـ .. وإنما يعرف إنسانا يستمتع بمتع الحياة وبزينتها فى غير غلو وفى غير ترف يجر إلى العبث والفساد.. الذى هو من خلق يهود ومن على شاكلتهم!

ولايعرف مالا منفعته خاصة ـ كما هو شأن اليهود ـ وإنما يعرف أن المال إذاكانت ملكيته خاصة فوظيفته اجتماعية ومنفعته عامة:

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ (١) .

ولا يعرف واليا يطلب الولاية فيولّى.. وإنما يعرف الولاية بيعة واختيارا ممن يملك حق

---

(١) النحل : ٧١.

الاختيار فى الأمة.

ولايعرف عصيانا لوال يولّى إلا فى معصية مؤكدة لله ولرسوله..

أى شىء قبل هذا أو بعد هذا يصلح أن يكون بديلا عنه فى حياة الإنسان وفى شئون أفراده؟

كتاب الله موجود بأيدى المسلمين.. وليس لهم أن يشكُوا من ضعف أو هزيمة إلا أنفسهم..

التقدم العلمى :

وما دمنا قد عرفنا أن المواجهة بيننا وبين اليهود ضرورة حتمية.. وأن علينا أن نواجههم بالقوة التى تردعهم.. فإن قوانين العلم لا تتغير ولا تكتشف، [1] ولا يستفاد منها بحسب الأمنيات وهوى العاجزين.. إنها تخضع لضوابط عقلية، وبحوث جادة، وعمل متواصل.. إن الطبيعة لا يمكن أن تسخر فى الجانب الاختيارى للعمل فى الحياة بالنسبة للإنسان ولا يستفاد منها إلا تحت القوانين الموضوعة من قبل مَن السموات والأرض جميعا قبضته، لا من قبل الأوهام الفكرية، والخيالات الفكرية،والخيالات الجاهلية التى تفسر السنن بأساطيرها الموهومة.

إن الأسلوب الذى ساد التفكيرالإسلامى فى عصور الانحطاط هو أسلوب يفسر الظواهر بالوهم والخرافة والأسطورة.. ومن ثم كان الوجود اليهودى وكانت تلك الهزائم.. إنه يقف من الأشياء موقف الدهشة والتسليم بالغموض والسطحية فى التفسير.. إنه أبعد ما يكون حتى عن التفكير الرياضى.. ومثل هذا التفكير منطقة حرام على الفهم، والأسلوب التقليدى الذى ساد هو الاكتفاء بأنها من الله، أما الكيفية فى صنع الله، وبحث السنن والاستفادة منها، فأفكارهم أبعد ما تكون عنها، قد ران على عقولهم ضباب كثيف من الخرافة والوهم والأسطورة، لا تكاد تخترق جدرانه السميكة ومضات نور قط!

إن نتائج العلم بطبيعة السنن، وكيفية تسخيرها، يمكن استخدامها فى الخير، ويمكن استخدامها فى الشر.. وإن هذا العلم ليس وحده بعاصم للإنسان عن الضلال، وإنما هو إذا استخدم فى أى مجال أثمر ثمرته المنطقية أيا كانت تلك الثمرة: خبيثة أم طيبة، ولكنه

(١) على مشارف القرن الخامس عشر الهجري: ١١٣ وما بعدها بتصرف.

حينما يتجه به إلى تفهم آيات الله في الوجود بصفتها يدل بوضوح على الكمال الأسمى والأعظم لخالق مبدع، فهذه النتيجة تسوق الإنسان إلى الإيمان...

إن التقدم العلمي والتكنولوجي لا يغني عن الإسلام.. ولا يكون مصدر خير للإنسانية بحال.. فهو يساعد على التطور المادي وتوفير الإمكانات المادية للبشرية.. ولكنه لا يحول دون أن يحتكر فريق من الناس هذه الإمكانات ويحرم منها فريقا آخر.. كما نرى ونشاهد تدفق الأسلحة والإمدادات والخبرات على اليهود وحدهم بحجج واهية، والحيلولة دون مساعدة الدول الإسلامية المجاورة لليهود في هذا المجال.. لا يحول دون أن توجه هذه الإمكانات المادية للإضرار بالمسلمين في الأرض المحتلة وغيرها.. لا يحول دون أن تكون هذه الإمكانات مصدر تهديد ونذير سوء.. لا يحول دون أن تكون هذه الإمكانات سببا لتربص بعض الناس ببعض ولغدر بعضهم ببعض .. وإن حال المسلمين اليوم خير شاهد على ذلك.. لا يحول دون أن تكون هذه الإمكانات عاملا للفساد والعبث والتحلل من القيم الإنسانية العليا.. وهذا ما يحرص عليه اليهود ومن على شاكلتهم أشد الحرص - كما عرفنا - فإذا أضيف إلى الدولة العصرية التي ترفع راية الإسلام العلم والتكنولوجيا، أصبحت هذه الإمكانات المادية التي يوفرها التقدم العلمي والتكنولوجي في خدمةالإنسانية.. في خدمة الخير العام والنفع العام.. في خدمة القيم العليا للمجتمع الإنساني العالمي .. وليست في خدمة العنصرية التي يرفع رايتها اليهود ومن على شاكلتهم:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (١).

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (٢).

وحينما يتجه العقل والعلم معا إلى آيات الله المنزلة في كتاب، والمبينة في سماوات وأرض وأكوان، يجد وحدة المصدر في كتاب الكون المفتوح والكتاب المنزل سواء..

ولكن الأمة التي شل قواها الفكرية الانحراف في الحكم أولا.. والصراع حول صلاحية العقل والفكر وتخليصهما من قيود الأوهام غير العقلية وغير العلمية ثانيا.. قد

---

(١) البقرة: ١٠٩.   (٢) المائدة: ٨٢.

جعلا الأمة تائهة فى مستنقع التخلف، وتثبيت الأفكار الميتة الخاوية من نور العقل واعتماد الجدل العقيم القائم على غير هدى ولا كتاب منير ـ كما نرى ونشاهد فى مجتمعاتنا الإسلامية وبخاصة الذين يتصدرون المواجهة مع اليهود ـ مما أسرع بالأمة، نحو انحراف فى البيئة، فلا تقويم للعمل، ولا صدق، ولا سلامة، ولا نظافة فى السلوك ـ إلا من رحم مما أدى إلى تفككها وخروجها من دائرة الحضارة الإسلامية إلى دائرة التخلف..

فى القرآن والمسألة العلمية :

وقد كتب الدكتور عماد الدين خليل تحت هذا العنوان «فى القرآن والمسألة العلمية» يقول:[1].

هل ثمة دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم «الحديد».. وهو من أهم الخامات وأخطرها؟

الذى يقرأ كتاب الله بتمعن فى محاولة للإلمام بطبيعة موقفه من العلم، يجد نفسه أمام حشد من الآيات ممتدة وفق أبعاد ثلاثة، توازى المسألة العلمية فى اتجاهها كافة.

يتناول أولها مسائل تتعلق بحقيقة العلم ونظرية المعرفة.

ويعرض ثانيها لمجموعة من السنن والقوانين العلمية فى مجالات العلم المختلفة، وبخاصة الطبيعة، والجغرافيا، وعلوم الحياة، فيما يسمى بالعلوم المحضة أو الصرفة.

ويدعو ثالثها لاستخدام هذه السنن والقوانين، التى كشف عنها منهج تجريبى فى البحث، من أجل ترقية الحياة وتنميتها على طريق خلافة الإنسان لإعمار العالم، فيما يعرف بالعلوم التطبيقية «التقنية».

وما من شك فى أن هناك ارتباطا وثيقا ومحكما بين هذه الأبعاد، يقود أحدها إلى الآخر، فالمنهج يطرح طريقة عمل للكشف عن الحقائق: السنن والنواميس التى تحكم الكون والعالم، وتحمى صيرورتها الزمنية ذات النظام المعجز..

وهذه السنن والنواميس تمنح الإنسان ـ بدورها ـ «المعادلات» التى يتمكن بها من أن

---

(١) على مشارف القرن الخامس عشر الهجري : ١١٩ بتصرف، نقلا عن مجلة العربي : العدد ٢٤١ المحرم ١٣٩٩هـ ديسمبر ١٩٧٨م.

يدخل إلى صميم هذا التركيب المعجز لبنية الكون والعالم، من أجل اعتماد تلك السنن والنواميس، لتنفيذ قدر من «التطبيقات» العلمية، تمضى بالحياة البشرية قدما صوب الأحسن والأرقى.. وتتيح للإنسان أن يتحرر من شد الضرورات، لكى يكون أكثر قدرة على رفع رأسه إلى فوق ومحاورة السماء، وتلبية حاجاته الروحية التى يتميز بها الإنسان عن سائر الخلائق..

أترانا كأمة نعيش هذا الواقع.. حتى ينصرنا الله على اليهود؟

معطيات القرآن :

صحيح أن كتاب الله ما جاء لكى يكون كتابا علميا كما هو معروف تماما، كما أنه ما جاء لكى يكون أى من حقول المعرفة المتنوعة.. وصحيح أن إلحاح بعض المفكرين المعاصرين على تحميل آيات الله معانى وتفاسير علمية لم تقصد إليها ألبتة، قد دفع بعضهم الآخر، وبرد فعل يتميز بالإلحاح نفسه، على نفى أن تكون للقرآن أية صلة بأيما حقيقة علمية.

فإن الفعل الخاطئ ــ كما هو معروف ــ يولد رد فعل خاطئا يساويه فى القوة ويخالفه فى الاتجاه.. إن هذا التضاد المتطرف يجب ألا يضيع علينا الرؤية الصحيحة لموقف القرآن فى المسألة العلمية.. وهو موقف واضح ومؤكد من أية زاوية نظرنا.

إن القرآن يظل فى حالة حضور دائم فى قلب العالم والكون، يعايش سننهما ونواميسهما ويحدثنا عنهما، وإنه لأمر بدهى أن تتعانق معطيات العلم وتتوازيا، لا أن تتضادا أو تقوم بينهما الحواجز والجدران.. ذلك أن مصدر العطاء واحد.. وهو الله جل وعلا، صانع السنن والنواميس ومنزل القرآن.. خالق الكون والعالم وباعث الإنسان.. ليس هذا فحسب، بل إن الإنسان باعتباره معنيا بصنع السنن ونزول القرآن.. الإنسان بما أنه خليفة فى هذا العالم، ويده المريدة التى تسعى لإعماره وترقيته، كما تؤكد النظرية القرآنية، يقود بالضرورة إلى هذا اللقاء الأكيد بين كتاب الله وسننه فى العالم.. إذ كيف يستطيع الإنسان أن يؤدى دوره فى العالم فى إطار تعاليم القرآن وشرائعه، إن لم يتحرك ــ ابتداء ــ لفهم هذا العالم والكشف عن سننه ونواميسه؟ إن لم يتحرك بكل الإمكانات العلمية والعملية لمواجهة اليهود؟

التناغم بين الثنائيات :

إن مفهوم الحركة في الإسلام، على خلاف عدد من المذاهب والأديان، ينبثق ـ أساسا ـ عن هذا التناغم والتلاحم بين الثنائيات: الروح والمادة.. الطبيعة وما وراء الطبيعة.. الأرض والسماء.. العلم والإيمان.. المخلوق والخالق...

وإن افتقاد أي طرف من أطراف هذه المعادلة المنطقية سوف يقود إلى الفوضى والضياع.. كما هو حالنا الذي يندى له الجبين في مواجهتنا مع اليهود!

وها هنا بصدد الحديث عن الموقف من العلم، يبدو أكيدا ذلك التناغم والتلاحم بين كتاب الله وحقائق العلم ومعطياته..

ولكن إذا كانت آيات الكتاب تتضمن حقائق ومسلمات مطلقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، بينما تظل معطيات العلم أسيرة نسبيتها وتغيرها وقلقها وتحولها، فكيف يلتقي المطلق بالنسبي، والكلي بالجزئي، والشامل بالمحدود؟ وهل يصح أن نفسر بعض آيات القرآن على ضوء نظرية أو كشف علمي قد يتعرضان في أية لحظة للتشكيك والنقض؟

ألا يقود هذا إلى نوع من التشكيك والتناقض، يمتد إلى صميم المعطيات القرآنية نفسها؟

والجواب يقتضينا الرجوع إلى القرآن نفسه.. إلى الأبعاد الثلاثة السابقة..

منهج عمل شامل :

ففي البعد الأول، يطرح القرآن الكريم منهج عمل في الكشف عن سنن العالم والحياة ونواميس الكون.. وهو منهج متساهل مرن، لا يخضع لتقلبات الزمان والمكان، ومن ثم فإنه يعلو على المتغيرات النسبية، ويظل ساري المفعول في أي عصر وفي أية بيئة.

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق النظر الحسي إلى ما حولهم ، ابتداء من مواقع أقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون.. وأعطى للحواس مسئوليتها الخطيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة.. والتجريب.. قال له:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (١) .

فهل آن لهؤلاء الذين يحملون أسماء مسلمين، ويعتنقون مذاهب إلحادية، ويتصدرون الركب السياسي فى بعض البلاد الإسلامية، وبخاصة ما يتعلق بقضيتنا مع اليهود، أن يتبصروا حقيقة أمرهم وأنهم مسئولون بين يدى الله؟!

وهل آن لكل مسلم غيور أن يدرك خطورة تصدر أولئك الذين هم معاول فناء وبوار ودمار.. حتى تتطهر الساحة من هؤلاء المفسدين، وينصرنا الله على اليهود؟!

وناداه أن يمعن النظر إلى ما حوله.. إلى طعامه.. إلى خلقه.. إلى الملكوت.. إلى التاريخ وحركة الإنسان فى العالم.. إلى خلائق الله.. إلى آياته المنبثة فى كل مكان.. إلى النواميس الاجتماعية.. إلى الطبيعة وهى تنبعث من قلب الفناء برحمة من الله ومقدرته.. إلى الأثمار وهى تتدلى من غصون الأشجار.. إلى الحياة الأولى كيف بدأت، وكيف نمت وارتقت.. مما يطول الحديث فيه..

ودعاه أن يحرك سمعه باتجاه الأصوات، لكى يعرف ويميز، فيأخذ أو يرفض.. فمن الاختيار البصير ينبعث الإيمان:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (٢) .

وفى نفس السورة نقرأ:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

وسبق أن عرفنا أن لفظ الدواب وإن كان يشمل كل ما دب على الأرض، فيشمل الأناسى فيما يشمل، إلا أنه يلقى ظلا خاصا حين يطلق على الآدميين.. ظل البهيمة.. ثم يصبح هؤلاء الآدميون شر البهيمة التى تدب على الأرض!

---

(١) الإسراء: ٣٦. (٢) الأنفال: ٢٠ ـ ٢٣ . (٣) الأنفال : ٥٥.

وسبق أن عرفنا ــ كذلك ــ أنه قد وردت روايات فى هؤلاء الذين كفروا أنهم يهود بنى قريظة، أو يهود بنى النضير.. وغيرهم ممن على شاكلتهم!

وعرفنا ــ أيضا ــ أن من سمات اليهود التى سجلها القرآن الكريم:

﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ (١).

وانتقل القرآن الكريم خطوة أخرى وسأل الناس أن يحركوا بصائرهم، تلك التى تستقبل فى كل لحظة مدركات حسية، سمعية وبصرية لا حصر لها، ومن ثم تتحمل البصيرة مسئوليتها فى تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها وفرزها من الوصول إلى الحق الذى تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة:

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ (٢).

إن العقل والحواس جميعا مسئولة، لا تنفرد إحداها عن الأخريات فى تحمل تبعة البحث والتمحيص والاختيار.. فأين دورنا تجاه قضيتنا مع اليهود؟!

وإن الإنسان مبتلى بهذه المسئولية، لأنه من طينة أخرى غير طينة الأنعام:

﴿ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (٣).

ومن ثم تتوالى الآيات، تؤكد مرة تلو مرة على أن السمع والبصر والفؤاد جميعا هى التى تعطى للحياة الإنسانية قيمتها وتفردها، وأن الإنسان بتحريكه هذه القوى والطاقات بفتحه هذه النوافذ على مصراعيها باستغلال قدراته الفذة حتى النهاية، سيصل قمة انتصاره العلمى والدينى على السواء، لأن هذه الانتصارات ستبوؤه مركزه المسئول كخليفة فى الأرض، وأنه بتجميد هذه الطاقات وقفل نوافذها، وسحب الستار عليها، يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا.. منزلة البهائم والأنعام:

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ (٤).

فهل آن للمسلمين أن يتحركوا بكل إمكاناتهم العلمية والعملية للعمل الذى تفرضه ضرورة المواجهة التى لا مفر منها مع اليهود؟!

---

(١) البقرة: ٩٣. (٢) الأنعام: ١٠٤.

(٣) الإنسان: ٢. (٤) محمد: ٢٣.

وفى القرآن الكريم آيات تبلغ ما يقارب الخمسين، تحث على تحريك العقل، المفتاح الذى منحه الله بنى آدم، ليفتحوا به أبواب الملكوت، ويدخلوا ساحة الإيمان بالله الذى يسخر لهم ما فى السماوات وما فى الأرض :

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وآيات أخرى دعت الإنسان إلى التفكير العميق المتبصر، المسئول بكل ما يحيط به من علامات وأحداث وأشياء وموجودات:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

فهل فكر المسلمون فى هذا الواقع الأليم تجاه قضيتنا مع اليهود ؟!

وما يقال عن التفكر يمكن أن يقال عن التفقه، وهو خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير، إذ هى الحصيلة التى تنتج عن عملية التفكير، وتجعل الإنسان أكثر وعيا بما يحيط به، وأعمق إدراكا لأبعاد وجوده وعلائقه فى الكون، كما تجعله متفتح البصيرة دوما، مستعدا للحوار إزاء كل ما يعرض له من أسئلة وعلامات:

﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (٣) .

وأكد القرآن الأسلوب الذى يعتمد البرهان والحجة والجدل الحسن للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء، والمقارنة والموازنة والتمحيص، استنادا إلى المعطيات الخارجية المتفق عليها، والقدرات العلمية والمنطقية لأولئك الذين بلغوا شأوا بعيدا فى هذا المضمار:

﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (٤) .

العلم هو الدين :

هكذا يبوء العلم، بمفهومه الواضح، الشامل فاعلية فى غاية الأهمية، فى المجتمعات التى ترتضى الدين، أو المنهج الإلهى، طريقة لها فى الحياة.. ولابد أن نضيف هنا حقيقة أخرى فى غاية الأهمية، تلك هى أن كلمة العلم وردت فى القرآن الكريم مرارا

(١) البقرة: ٢٤٢. (٢) الأنعام : ٥٠.

(٣) النساء: ٧٨. (٤) البقرة : ١١١.

كمصطلح على الدين نفسه، الذى علمه الله أنبياءه.. على النواميس التى يسير الله بها ملكوته العظيم.. على الحقائق الكبرى فى أم الكتاب، وكإشارة إلى القيم الدينية التى نزلت من السماء، فى مقابلة الأوهام والظنون البشرية.. ومن ثم يغدو العلم والدين سواء فى لغة القرآن.. إن كلمات الحق تعلمنا هذه الحقيقة، وتبصرنا بمواقع العلم والدين الفسيحة الممتدة المتداخلة، كما أراد لها أن تكون، لا كما يريد لها الوضعيون من عملاء اليهود ومن على شاكلتهم، الذين يسعون جهدهم للفصل بين الكلمتين:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١).

ولا يسعنا هنا استعراض جل ما ورد من آيات فى هذا المقام، أو حتى الإشارة إليه، ويكفى أن نشير إلى أن كلمة علم بتصريفاتها المختلفة وردت فى عدد من الآيات جاوز خمسين وسبعمائة (٢).

فأين دور أهل الذكر فى العلوم العسكرية فى بلادنا الإسلامية فى هذا المقام، حتى نستطيع أن نواجه اليهود بالعلم والمعرفة والإعداد المتفوق الذى يعيد الأرض المحتلة لأصحابها ويحفظ كرامة هذه الأمة؟!

دعوة لتطوير الحياة:

ونتجاوز البعد الثانى لحظات، لكى ننظر إلى البعد الثالث، فإذا به دعوة ملحة فى أكثر من موضع من كتاب الله إلى اعتماد حقائق العلم وكشوفاته، لتطوير الحياة وترقيتها، بمزيد من التطبيقات «التقنية» على كافة المستويات. وهو أيضا مرن، يتميز بالشمولية والديمومة، إذ هو دعوة للإفادة من الحقائق العلمية الراهنة فى مدى كل عصر، لإحداث تطبيقات على مستوى العلاقات المدنية لذلك العصر، فإذا ما حدث أن تغيرت الحقائق العلمية، وتبدلت العلاقات المدنية، كان بمقدور النداء القرآنى أن يمضى لكى يخاطب الجيل أن يتحرك ويحدث تطبيقات أخرى على مستوى الحقائق الجديدة، ومن خلال العلاقات المتغيرة..

---

(١) البقرة: ١٢٠.

(٢) انظر: التفسير الإسلامي للتاريخ: الفصل الثالث.

ألم يدعُنا القرآن الكريم ــ كما أسلفنا ــ إلى أن نعد لأعدائنا القوة التى نرهبهم بها، ونحمى بالتالى وجودنا ودورنا فى الأرض؟

ألم تأت هذه الدعوة متضمنة هذا الموقف المرن الشمولى، الممتد عبر الزمان والمكان، والذى يلتقى فيه الراهن بالشامل، والموقوف بالدائم:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

وسبق أن عشنا فى رحاب هذه الآية بما يجعلنا فى غنى عن إعادة ما تضمنته من معالم فى طريق النصر..

وفى سورة الحديد ألم يؤكد اعتماد هذا الخام الخطير فى ميادين السلم والحرب، دون ما تحديد ملزم لطرائق الاعتماد وصيغه؟

هل ثمة أكثر دلالة ؟ :

سورةالحديد؟

هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها؟

هل ثمة أكثر إقناعا لنزعة التحضر والإبداع والبناء، التى جاء الإسلام لكى يجعلها جزءا أساسيا من أخلاقيات الإيمان وسلوكيته فى صميم العالم.. من هذه الآية فى سورة الحديد ؟ :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢) .

الآية التى تعرض ــ فوق ما سبق أن عرفنا ــ خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده، وتعرض معها المسألة فى طرفيها اللذين يتمخضان دوما عن الحديد:

---

(١) الأنفال: ٦٠.   (٢) الحديد : ٢٥.

«البأس الشديد» تمثلا باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكرى.

«والمنافع» التى يمكن أن يحظى بها الإنسان فى هذه المادة الخام فى كافة مجالات نشاطه وبنائه السلمى.

وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن، فى مسائل السلم والحرب، وأنه غدا فى عصرنا الراهن هذا، وسيلة من أهم الوسائل فى ميادين القوى الدولية سلما وحربا؟

إن الدولة المعاصرة التى تملك خام الحديد تستطيع أن ترهب أعداءها، بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل.. وتستطيع أيضا أن تخطو خطوات واسعة، لكى تقف فى مصاف الدول الصناعية العظمى، التى يشكل الحديد العمود الفقرى لتقدمها..

ولابد أن نلفت النظر ـ هنا فوق ما سبق ـ إلى هذا التداخل العميق، والارتباط الدقيق، فى آية الحديد، بين إرسال الرسل وإنزال الكتب معهم، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس، وبين الحديد الذى يحمل فى طياته البأس، ثم التأكيد من أن هذا كله إنما يجىء للمنافع السابقة:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾

إن هذا الموقف المتشعب المتداخل يقودنا ثانية إلى أن الإسلام جاء لكى يشد الإنسان إلى أعماق الأرض، ويدفعه إلى التنقيب فيها، من أجل إعمارها وحمايتها..

وأن المسلم لن تحميه وتنصره إلا يده المؤمنة، يده المتوضئة، التى تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والتقدم والنصر..

وأنه بمجرد أن يتخلى عن موقفه الفعال هذا، الذى يرتبط ارتباطا وثيقا بحركة الجهاد الدائمة، ويختار بدلا من ذلك، مواقع الفرار والاتكال، والانتظار السائب لمعونة الحق.. فإنه يتناقض مع نفسه وعقيدته، وسيهزم لا محالة، مادام قد أشاح عن الموقف القرآنى الذى يكاد يصرخ بأعلى نبرة أنه ـ بدون الاعتماد الواعى المسئول الذكى الخبير على مصادر القوة والبأس ـ لن يكون هناك نصر ولا تقدم ولا حماية للموازين والقيم العادلة..حتى لو حبس المؤمنون ـ أنفسهم فى المساجد، السنين الطوال، يبكون ويتضرعون!

وهكذا حيثما تلفتنا، عبر هذا البعد الثالث من معالجة القرآن للمسألة العلمية، وجدناه

يتخذ دعوة دائمة، لاتحدها حدود، ولا تأسرها متغيرات ولا نسبيات، لدفع الجماعة المؤمنة إلى صياغة مزيد من التطبيقات المبنية على حقائق العلم وكشوفاته ومعادلاته.

موقفان :

ونرجع إلى البعد الثانى، حيث يطرح القرآن حشدا من الحقائق والسنن والنواميس فى مجالات العلم المختلفة، وبخاصة الطبيعية والجغرافية وعلوم الحياة فى عدد واسع من المقاطع والآيات ، لا يتسع المجال لتحليلها واستعراضها.. ها هنا يلجأ بعض المفكرين أو المفسرين المعاصرين إلى اعتماد أحد الموقفين اللذين سبق أن أشرنا إليهما:

الموقف الأول يتكىء كلية على معطيات العلم الحديث لتفسير آيات القرآن الكريم، والوقوع بالتالى فى خطأ منهجى يقوم على تحكيم الجزئى بالكلى، والمتغير بالدائم، والنسبى بالمطلق.. فإذا ما حدث أن تبدلت الجزئيات والمتغيرات والنسبيات العلمية ـ وهذا شأنها كما يؤكد العلماء أنفسهم ـ أدى ذلك إلى إحداث شرخ أو قلق ذهنى إزاء تلك الآيات التى فسرت وفق مقولات لم يُتح لها الدوام.

والموقف الثانى يرفض كلية الاعتماد على معطيات العلم الحديث، تحسبا من مصير كهذا.

الموقف الوسط :

والمنهج الأقرب إلى الصواب هو أن نتخذ موقفا وسطا، كما علمنا كتاب الله نفسه أن نتخذ فى كافة مسافات الحياة، فلا هو بالالتصاق الكامل بمعطيات العلم المتغيرة، ولا هو بالرفض الكامل للتفسير بها.

إن المفسر المعاصر يجب أن يعمل عقله ، وقدراته فى مجال تخصصه إذا توفرت لديه ، لإدراك طبيعة العلاقة بين طرفى المعادلة : الآية القرآنية ، والمقولة العلمية ، مستفيدا ـ من جهة أخرى ـ من الاتجاهات الحديثة التى ظهرت أخيرا فى مجال التفسير القرآنى، تلك الاتجاهات التى تعتمد مفردات القرآن نفسه ومنحنياته البيانية لفهم مضامينه ومعانيه، فيما يعرف بالتفسير البيانى للقرآن ، ومن شأنه أن يمنح المفسر ضمانات موضوعية لنشاطه، لتحميه من الإفراط أو التفريط فى محاولة الوصول إلى الدلالات المقصودة للكلمات والتراكيب الجميلة.

ومن خلال هذا التوازن فى القدرة العلمية التخصصية،والقدرة التفسيرية الموضوعية، يمكن للمفسر أن يتحرك لكشف من الدلالات المقصودة للآيات العلمية لكتاب الله.

معطيات العلم ليست سواء :

هناك من الحقائق العلمية ما أصبح بمثابة قوانين نهائية، بل بداهات مسلما بها، لاتقبل نقضا ولا تغيرا، من مثل الدور الذى تلعبه الرياح ـ على سبيل المثال ـ فى عملية الأمطار، ومن مثل الدور الذى تلعبه الجاذبية فى حركة المجموعة الشمسية، ومن مثل المراحل التى يمر بها الجنين فى الرحم، وتغير نسب المكونات الغازية قربا أو بعدا عن الكرة الأرضية.. وغير هذه الحقائق أمور كثيرة ما كان العربى يوم نزل القرآن يلم بأبعادها العلمية،ومن ثم فإن تفسير الآيات القرآنية التى تناولت هذه الحقائق وأكدت عليها، كما أنه سيتكىء على بداهات علمية بالنسبة للقرون الأخيرة، فإنه سيكتشف فى الوقت نفسه جوانب الإعجاز العديدة التى تضمنها القرآن وأشار إليها.

وهنالك من الحقائق العلمية ما يحتمل أكثر من وجه، ولكن هذه الوجوه جميعا إنما تدور فى إطار واسع مرن، ليس ثمة مانع أن نحيل عليه آيات قرآنية أخرى لإدراك دلالاتها، من مثل الآيات التى تؤكد النظام الذى يمسك بناء السماوات المعجز أن يتفكك ويتبعثر ويضيع.

أما النظريات التى لا تزال موضع أخذ ورد، والتى لم تتبلور بعد، كحقائق وقوانين وبداهات مسلم بها، فإن بمقدور المفسر أن يكون حذرا إزاءها، وألا يتكىء عليها إلا بمقدار ما يتيح له ذلك تسليط الضوء على جانب من جوانب المضمون الذى تحتويه الآية.

ليست سواء.. معطيات العلم التى تتمخض باستمرار.. ومن ثم فإن التعامل معها يجب أن يحاذر عن مظنة الارتباط الكامل أو الانفصال الكامل.

إن الارتباط الكامل سيمنع القدرة على الفهم والإدراك من التحرك بشتى الاتجاهات.

وإن الانفصال الكامل سيضعف هذه القدرة، ويقيم أسلاكاً شائكة بين جانب من معطيات القرآن وبين الإنسان المعاصر.

ورطة الإنسان المعاصر:

والإنسان المعاصر ـ اليوم فى أمس الحاجة إلى يقين دينى، يعيد إليه وحدته الضائعة، وسعادته المفقودة، وأمنه المسلوب ـ وهذا هو حال الأمة المسلمة فى واقعها المعاصر

وبخاصة تجاه اليهود ـ وما دامت القناعة المبنية على الحقائق العلمية هى اليوم أكثر القناعات فاعلية للتحقق بهذا اليقين.. وما دام كتاب الله يمنحنا هذا القدر الكبير المعجز من هذه الحقائق التى راحت تتكشف عقدا بعد عقد وقرنا بعد قرن... فلماذا لا نتحرك على ضوء هذه المعادلة العلمية لإنقاذ أنفسنا من تلك الورطة التى نعيش أحداثها مع اليهود؟ وهنا نكون أمة يرنو إليها الإنسان المعاصر من ورطته بفقدان اليقين.. وترجع إلينا سيرتنا الأولى.. وتهب نفحات الجنة.. وينصرنا الله على اليهود..

نظامان للغلبة والانتصار :

ولعله قد آن لنا أن نخطو إلى الأمام.. إلى النصر على اليهود.. فإن هناك نظامين: نظاما طبيعيا فى الأشياء يبصره كل من يرى، لا يفارقها على مر القرون والأعصار.. وهو أن القوة تغلب الضعف، وأن التنظيم والوحدة، والانسجام والعزم، والجد والحزم، وقوة الإرادة والصرامة والثبات، صفات تغلب دائما أضدادها، وكل عاقل قد جرب هذا النظام فى حياته اليومية..

وهذا النظام الطبيعى ـ كما يقول أبو الحسن الندوى ـ [1] قانون عادل محايد، لا يراعى أحدا، ولا يفضل بشرا على بشر، ولا جماعة على جماعة، حتى إن هذا القانون لا يميز بين الكافر والمؤمن ولابين التقى والفاجر،ولا بين الصالح والفاسد، ولا بين المسلم واليهودى، فالنار تحرق كل ما امتدت إليه، لا تراعى مصلحة، ولا تخاف عاقبه.

هذا هو الميزان العادل المحايد، الذى يزن الأشياء وزنا دقيقا، ولا يداهن ولايحابى، ولا يفرق ولا يميز.

هذا هو القانون الذى جربه الإنسان فى رحلته الطويلة، وفى تجاربه المتصلة منذ خلق إلى يوم الناس هذا، وتاريخ الفتوح الإنسانية، والمغامرات البشرية، وتاريخ الانتصارات والحكومات زاخر بالشواهد والأمثلة، إنه تاريخ متصل متكرر، طويل مستمر، لا يوجد فيه الاستثناء.

ولا يحتاج هذا القانون إلى بحث عميق، أو استعراض دقيق، ولا إلى تعمق، ولا إلى فلسفة، لأنه معلوم مجرب، معقول بمتناول كل إنسان.

وهو قانون قاهر نافذ، حر مطلق.. قانون الأرض.. وإذا ترك الناس وهذا القانون

---

(١) المسلمون وقضية فلسطين: ١٢٤ وما بعدها بتصرف.

تحكم فيهم تحكما مطلقا، ولم يعق سيره شيء.

ولكن هنالك نظاما آخر، وهو أن الحق تبارك وتعالى قد خلق غايات أفضل وأسمى، وأحق بالاهتمام والاحترام، يجد الناس فيه طريقا ميسورا للوصول إلى الحق، ولتنمية قواهم ومواهبهم لمعرفته،والوصول إلى الكمال المطلوب، والغاية السامية التى خلق هذا الكون لأجلها.. وهنا نبصر الغايات التي يجب أن تخضع لها الغايات الطبيعية، وأن تغير لها هذه الغايات طريقها، وتترك الطريق للغايات السامية التى أنزل الله لها الكتب وأرسل الرسل..

فإذا تصادمت الغايتان: الغاية الطبيعة، والغاية الشرعية، الخلقية العقلية الدينية، الأساسية الرئيسة.. غاية الخلق، وغاية هذا الكون، وغاية النوع البشرى، رجحت كفة الغاية الشرعية.. لذلك لما ألقى إبراهيم فى النار، كانت هناك سنة الله الذى نفذت فى خلقه، وسارت السير الطبيعي، وانطلقت من غير تقييد، فكانت النار تحرق منذ آلاف السنين، ما سجلت تجربة واحدة فى التاريخ البشرى.. أن النار قد كفت وأضربت عن أداء واجبها احتراما لملك أو عالم، لأنها مأمورة، ولكن لما اصطدمت الغاية الطبيعية: طبيعة النار، مع طبيعة الخلق التى خلق الله لأجلها الكون، بما فيه النار والماء، وبما فيه الأجرام الفلكية والظواهر الكونية، والأشياء الأرضية، وجميع المواد.. لما اصطدمت طبيعة النار مع طبيعة الهداية ـ الغاية التى خلق الله لأجلها الكون ـ أُمرت النار بالكف عن الإحراق، وسُلبت من النار طبيعتها.. طبيعتها العريقة فى القدم، وقيل لها ـ بحيث سمعت ـ ولم يسمع نمرود، ولا أحد من الخلق: إياك إياك أن تحرقى إبراهيم، إننى أنا الذى أودعت فيك طبيعة الإحراق، ولكن الغاية التى خلقْتُ لأجلها إبراهيم، وأكرمته بالرسالة، وبعثته إلى هذا الخلق، وأمرته بتبليغ هذه الرسالة، هى الغاية التى يجب أن تخضع لها طبيعتك ألف مرة، فإياك أن تمسى ثياب إبراهيم، فضلا عن قلبه المؤمن السليم، التى برأه الله لأمانة النبوة، وهيأه لها، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ (١).

فخضعت ودانت وانقهرت، وتواضعت هذه الطبيعة النارية للطبيعة الدينية، للطبيعة التى هى الغاية، التى لولاها لكان هذا الكون عبثا، ولكان هذا الكون لفظا بلا معنى، فدانت النار وأطاعت أمر الله تعالى، وتوقفت عن إحراق إبراهيم، وكانت عليه بردا وسلاما:

---

(١) الأنبياء: ٥١.

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [1].

فكانت بردا وسلاما على إبراهيم.. كيف؟ [2] ولماذا نسأل عن هذه وحدها؟ لماذا و «كونى» هذه هى الكلمة التى تكون بها أكوان، وتنشأ بها عوالم، وتخلق بها نواميس:

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [3].

فلا نسأل: كيف لم تحرق النار إبراهيم والمشهود المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية؟ فالذى قال للنار: كونى حارقة. هو الذى قال لها: كونى بردا وسلاما. وهى الكلمة التى تنشىء مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول، مألوفا للبشر أو غير مألوف.

إن الذين يقيسون أعمال الحق إلى أعمال البشر هم الذين يسألون: كيف كان هذا؟ وكيف أمكن أن يكون؟ فأما الذين يدركون اختلاف الطبيعتين، واختلاف الأداتين، فإنهم لا يسألون أصلا، ولا يحاولون أن يخلقوا تعليلا.. علميا أو غير علمى.. فالمسألة ليست فى هذا الميدان أصلا.. ليست فى ميدان التعليل والتحليل بموازين البشر ومقاييس البشر.. وكل منهج فى تصور مثل هذه المعجزات غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهج فاسد من أساسه، لأن أعمال الحق غير خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود.

إن علينا فقط أن نؤمن بأن هذا قد كان، لأن صانعه يملك أن يكون.. أما كيف صنع بالنار فإذا هى برد وسلام؟ وكيف صنع بإبراهيم فلا تحرقه النار؟.. فذلك ما سكت عنه النص القرآنى، لأنه لا سبيل إلى إدراكه بعقل البشر المحدود. وليس لنا سوى النص القرآنى من دليل.

وما كان تحويل النار بردا وسلاما على إبراهيم ـ رغم أنه معجزة ـ إلا مثلا تقع صور شتى قريبة منه، وإن لم تأخذ صفة الإعجاز كما هو معلوم ـ ولكنها قد لا تهز المشاعر كما يهزها هذا المثل السافر الجاهر .. لأنه معجزة .. فكم من ضيقات وكربات تحيط بالأشخاص والجماعات، من شأنها أن تكون القاصمة القاضية، وإن هى إلا لفتة صغيرة، فإذا هى تحيى ولا تميت، وتنعش ولا تخمد، وتعود بالخير وهى الشر المستطير.

إن ﴿ يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ لتتكرر فى حياة الأشخاص والجماعات والأمم، وفى حياة الأفكار والعقائد والدعوات.. وإن هى إلا رمز للكلمة التى

---

(١) الأنبياء: ٦٩ ـ ٧٠. (٢) فى ظلال القرآن: ٤: ٢٣٨٧ بتصرف. (٣) يس: ٨٢.

تبطل كل قول، وتحبط كل كيد، لأنها الكلمة العليا التى لا ترد!

﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴾

وسبق أن عرضنا لكثير من الآيات والأحاديث فى مثل هذا المقام..

وفى الطريق إلى فتح المدائن، يذكر التاريخ أن دجلة كانت تزبد، وكانت فى المد، وكان الفرس قد كسروا الجسور والقناطر، وأبعدوا السفن والقوارب، ووقف سعد على شاطئ دجلة وقفة قصيرة، واستعرض الواقع الحاضر.. استعرض الواقع الاستراتيجى.. وقال لأصحابه: بماذا تشيرون علىّ؟ هل نرجع أو نقتحم دجلة؟ (١).

كان المسلمون واثقين بأن الله سبحانه وتعالى قد خلقهم لغاية، وأنه جل شأنه قد ربط مصير الإنسانية بهم، وأنه عز وجل رؤوف بالإنسانية، وأنه تبارك وتعالى لم يخلق العالم عبثا..

كان المسلمون واثقين بهذا.. فعرفوا أنهم هؤلاء الذين يمثلون الإسلام، وهؤلاء الذين يحملون القبس الإسلامى، ومشعل الدعوة إلى الله.. وأن هذه الجماعة نواة الأمة الوحيدة التى أخرجت للناس،وبذورها الطيبة، أما دجلة فهو نهر يوجد مثله آلاف من الأنهار، فكيف يسمح لدجلة بأن يفرق هذا الجيش الإسلامى الذى ليس له غرض مادى؟ هذا الجيش الإسلامى الذى لم يخرج من جزيرة العرب ليبدل عرشا بعرش، وحكما بحكم، وملوكا بملوك، لينتزع السيادة من الفرس ويقدمها إلى العرب، وليأخذ التاج من رأس كسرى ويضعه على رأس عمر الفاروق رضى الله تعالى عنه.. هذا حرام على المسلمين.. فهم قد خرجوا كما قال قائلهم: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فلما استعرض سعد الوضع الاستراتيجى فى فتح المدائن،وعرف وأيقن أنه لا حيلة له إلا الاعتماد على الله، وأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى قد قضى بأن يبقى هذا الجيش الإسلامى يؤدى رسالته، وينشر دينه، وأنه يدعو الخلق إلى عبادة الله وحده، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم، فإن الله سبحانه سيأمر دجلة على أن تفتح لهم الطريق..

---

(١) المسلمون وقضية فلسطين: ١٣٥ وما بعدها بتصرف.

استشار سعد سلمان رضى الله عنهما فقال: «إن الإسلام جديد» كلمة طيبة تعجبنى، وتثير فى قلبى وقلب كل مؤمن، وفى تفكيرى وتفكير كل مؤمن، معانى وأحاسيس عميقة جدا.

يتجلى فى هذا الجواب ذكاء المؤمن، لا أقول: الذكاء العام، فإن ذكاء المؤمن قد مثل خير تمثيل بهذه الكلمة التى نطق بها سلمان رضى الله عنه: «إن الإسلام جديد» لقد ذللت لهم البحر، كما ذلّل لهم البر.. فهى تعنى أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يظهر هذا الدين القيم على الدين كله، وأن الإسلام لم يؤد مهمته بعد.. أمامه مجال واسع.. أمامه أمم وشعوب بكر.. أمامه بلاد شاسعه واسعة.. أمامه دنيا عريضة.. فإن هذا العالم كله.. فى الشرق والغرب.. فى الشمال والجنوب.. ينتظر دعوة الإسلام.. ينتظر تلك الأخلاق الفاضلة التى يتحلى بها المسلمون.. ينتظر الجيش الإسلامى ..جيش الإنقاذ، فقال: إن عقلى المؤمن لا يصدق أنا سنغرق، وأن دجلة ستلتهمنا.. إن الله سبحانه وتعالى يقهرها ويأمرها بأن تفتح لنا الطريق.. وهكذا كان.. فهم قد جمعوا بين الأسباب والتوكل..

هذان نظامان ..

نظام طبيعى.. يمثل غلبة القوة على الضعف..غلبة الوحدة على التشتت والفوضى.. غلبة الاختراع والعلم على الجهل والكسل..

ونظام الإيمان والعقيدة، والصفات والأخلاق، والدعوة والرسالة.. وهذا هو السلاح الذى قاتل به المسلمون، فانتصروا به.. هذا السلاح الذى خرجوا به من جزيرة العرب، ثيابهم مرقعة،ونعالهم مخصوفة، وجفانهم بالية،وخيلهم متقطعة الركاب.. ومع ذلك كانوا القادة والفاتحين والمنتصرين..

هذان نظامان.. ولكن إذا تجرد فرد أو جماعة من هذين النظامين.. حيث لاجد ولا عزم ولا إرادة.. لا وحدة ولا انسجام ولا عزيمة.. ولا خضوع للنظام الشرعى والخلقى.. فلا نصر.. كما هو واقعنا الأليم..

ولقد ابتدأ العالم الإسلامى يقظته فى الوقت الذى بدأت اليابان نهضتها تقريبا، [1] وفى خلال نصف قرن تقريبا كانت اليابان قد دخلت أسرة القوى الكبرى، لقد أنشأت

---

(١) على مشارف القرن الخامس عشر الهجري : ١٣٥ بتصرف.

جميع الشروط العلمية المتفقة مع سنن بقاء الحضارة، لتحقيق تلك الغاية، بينما حمل منهجنا للنهضة بمختلف صوره التقليدية والخاطئة والمزيفة كل عوائق الإحباط عن التقدم خطوة واحدة فى سبيل إنشاء شروط حضارة..

وهكذا لم تصل هذه النهضة إلى غايتها،على مدى أكثر من مائة عام، فهى قد اتجهت إلى ما أطلق عليه «مالك بن بنى»: «الشيئية» أى تكديس الأشياء، بدلا من الاتجاه نحو فكرة مركزية خلاقة مبدعة، تشكل مجتمعها وتسير به نحو خلق شروط حضارته ذاتها . وندرك مع « مالك بن نبى» ضمن حد معين الصلة القائمة بين إدارة وقدرة مجتمع ينى ذلك على قاعدة حضارة، وليس على قاعدة منتجاتها، وهذا ما يفسر لنا كيف أن اليابان قد نجحت، حيث لم يحقق العالم الإسلامى نصرا حاسما على التخلف، لأن نشاطه قد طبق فى عالم الأشياء والمنتجات، بدل أن يطبق ضمن النسق البشرى ونسق الأفكار، ونعنى بالأفكار تلك التى تقوم على أسس من العقل والفهم والعلم.. والمرتبطة بالعمل الموصول إلى الغايات.. فالمسألة لا تتمثل فى إعادة تلقين المسلم عقيدته وكفى، ولكنها تتمثل ـ أيضا ـ فى إعادة تلقينه فعاليتها فى الحياة،وأنها غير عائق له عن صنع حضارة خاصة به، بل هى دافعة له إليها، وضرورة حتمية بالنسبة لظروفه التاريخية والنفسية والمصيرية..

إزالة أسباب الخزلان :

ولا نعرف قضية مثل قضية فلسطين [١] .. كتب فيها من الكتب الكثير.. وعقد لها من الحفلات والمؤتمرات، واتخذ لها من المشروعات والقرارات، ونظم لها من المواكب والمظاهرات.. ما لا يحصى ولا يعد.. فقد ظلت الشغل الشاغل، بعد ما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وأعلن مشروع وطن اليهود، فكانت مقدمة كل خطبة ووعظ، وتكأة كل خطيب ومتحدث، وسند كل زعيم وقائد، فى كسب الرأى العام، والسيطرة على عقول الشباب والجماهير..

وضربت الرقم القياسى فى كثرة الحروف التى كتبت على الورق، وعدد الكلمات التى انطلقت إلى الفضاء، وهى قضية فى منتهى العدل، وأقرب القضايا فى العالم المعاصر إلى الفهم والعقل.. ثم لم يغن ذلك شيئاً.

واستطاعت إسرائيل ـــ هذه النقطة المغمورة ببحار من المسلمين ـ أن توسع الأرض

---

(١) المسلمون وقضية فلسطين : ١٦٠ وما بعدها بتصرف .

المغتصبة إلى حدود لم تكن تخطر بالبال قبل اليوم المسجل فى التاريخ ٥ يونيو ٦٧ وتمتلك القدس الشريف، والمسجد الأقصى المبارك الذى حرمته منذ آلاف السنين، وكان حظها من هذه الأساليب التى تمسك بها القوميون والمتحدثون من هؤلاء وأولئك.. والثروة التى أنفقوها جميعا من الكلام، أو من المؤتمرات والحفلات ، أو من البيانات والإعلانات قليلاً، إلى حد يدعو إلى الدهشة والاستغراب!

وظلت معركة الكلام حامية طول هذه المدة، ولم تقم محاولة جدية، ولا برزت دعوة صريحة قوية إلى تغيير منهج الحياة إلى ما يرضى الله.. رغم أن هذه البلاد قد اكتوت بنار هذه الجناية الكبرى التى لا مثيل لها فى التاريخ الحديث، وتعرضت للخطر الصهيونى بطريق مباشر.. ولم تظهر دعوة إلى إزالة أسباب السخط والخذلان التى بينها القرآن فى أسلوبه البليغ السافر، وكسب أسباب النصر الحقيقية التى دعا إليها الكتاب والسنة، والتى عرضنا لها من قبل.. والتى حفل بنتائجها وأمثلتها التاريخ الإسلامى، ولم يشعر أحد بحاجة إلى استفتاء القرآن والعقل الإيمانى الواعى المنصف، الذى لا يكذب ولا يخدع، عن أسباب هذه النكبة وحدوث هذه المشكلة التى حار فى تعليلها العقلاء، وعجز عن حلها الزعماء، وردها إلى أخطاء ارتكبتها الشعوب العربية، منذ ثورتها على الدولة العثمانية الإسلامية، وانضوائها إلى الحلفاء الآثمين المعتدين، والقتال بجوارهم، ولم يلتفت أحد إلى محاربة الأدواء الخلقية التى تسبب الوهن، وهو حب الدنيا وكراهية الموت..

ومن ثم كانت الرقة والنعومة، وكان الإخلاد إلى الراحة.. بل على العكس من ذلك، لم يزل يجد ويستفحل من الدعوات والهتافات، والشعارات والفلسفات، ما يُبعد عن الدين، ويُغضب الله، ويقطع صلة الأمة بوعد الله بالنصر.. ويحول بينها وبين ذلك، من دعوات جاهلية، وأسماء مخترعة، والاعتماد على هؤلاء الذين لا يزنون عند الله جناح بعوضة.

واكتفت بعض الدول التى تزعمت هذه القضية، ووعدت بالنصر والفتح المبين، بالغوغائية والسلبية، والدعاية الفارغة، والجهاد فى غير عدو، واستنفاذ أكبر قدر من الأصوات، وعدد من الحروف والكلمات التى زخرت بها اللغة العربية العبقرية، واستخدام أقوى الحناجر لكسب المعركة، حتى جاءت الساعة التى لا ينفع فيها إلا الجد والإقدام، والمغامرة والبطولة، والتقشف والتضحية، فانهزم المعسكر الهازل أمام المعسكر الجاد، وانحسر فيضان الكلام أمام جيش لا يعرف إلا الإفساد فى الأرض، وكان ما كان، مما

نكس الرؤوس.. وأذل رقاب دعاة القومية فى مشارق الأرض ومغاربها.

وكان من المؤكد المضمون، والبديهى المعقول، ومما يوافق طبيعة هذه الأمة، ويتفق مع تاريخها الطويل، أن العقلاء سيعتبرون بهذا الدرس القاسى، الذى لا درس بعده، وأنه سيتغير تيار الحياة فى هذه البلاد، وأنها ستستأنف حياة جديدة تختلف عن الأولى كل الاختلاف.. فيحل الإيمان مكان الارتياب والاضطراب، والإسلام الحقيقى مكان النفاق والرياء، والشعارات البراقة الخادعة، والهتافات العنصرية، والفلسفات الماجنة.. ويحل التقشف والخشونة مكان الرقة والنعومة، والأخذ بالجد مكان التمسك بالقشور والمظاهر، وأنهم سيبدلون أسباب الترفيه والتسلية بأسباب الفداء والتضحية، وأن الشعوب ستعيش فى ظل الاستعداد والحذر، وفى حالة طوارئ وأن محاولات جدية لمحاربة أسباب الفشل والضعف، والاتجاه إلى التمتع الرخيص، والتهام اللذة الفارغة، ستظهر.. فالعار لا يغسله إلا الثأر ، والجروح لا تضمدها إلا الفتوح.

إننا أمام الأمر الواقع المرير، وسيف الخطر مصلت على رقابنا، وقد تمثلت لنا كلمة الفاتح الإسلامى طارق بن زياد من جديد.

«أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر».

وقد مضى زمن الكلام ، ووقت القرارات والبيانات ، والحفلات والمؤتمرات ، وأصبحت لا قيمة لها ولا تأثير، حتى من الناحية الدبلوماسية، فقد أصبحت الأساليب المعهودة فى معالجتنا للقضية حتى اليوم عقيمة لا يحفل بها أحد..

لقد أصبح الغرب الذى لا يزال أستاذا فى الدبلوماسية، قليل الاحتفال بهذه الأساليب القديمة التقليدية، التى لا تزال الحكومات الشرقية تعتمد عليها كل الاعتماد،وتؤمل فيها كل خير، وصار ينظر إليها كمسرحيات قديمة كانت تمثل فى الدور البدائى، ثم تقدم العالم تقدما كبيرا.

إن طارقا قال لجيشه:

«وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم»

ولسان الحقيقة يقول لنا:

لا وزر لكم أيها المسلمون إلا الإخلاص لله في كل شيء.. وفي حل هذه القضية.. الإخلاص الذى يعيد إلينا سيرتنا الأولى...

إن مثل بلادنا الإسلامية ـ وخصوصا البلاد التى اكتوت بنار النكبة الأخيرة وعارها ـ كمثل بيت وقع فيه حريق عظيم، فإنه لا يحتاج إلا إلى المطافىء القوية السريعة، وتتمثل هذه المطافىء فى محاربة أسباب الفساد، وتنفيذ الإصلاح العام الشامل، أو الانطلاق بإخلاص وعزم فى هذا الاتجاه.

وإن أول خطوة إيجابية مباركة: الندامة والاعتراف بالخطأ، والإقرار بالإخفاق الذى منينا به، وبأننا أخطأنا الطريق.

والخطوة الثانية: إزالة أسباب الخذلان، التى تحرم من النصر الإلهى، والعزة والكرامة فى الدنيا، والانتصار فى المعركة، نتتبعها تتبعا أمينا دقيقا، ونحكم على أنفسنا بالعدل، ونتوب إلى الله توبة نصوحا، ونؤمن إيمانا صادقا بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

والخطوة الثالثة: أن نحارب الفساد فى كل مجال من مجالات الحياة، ونزيل النفاق ـ ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ـ من كل شعبة من شعبها.. ونترك محاربة الحق.. وإعلان الحرب على الإسلام ـ من الدعوات والفلسفات إلى الأعمال والأخلاق ـ وندخل فى السلم كافة، ونحث على الجد والغيرة الإسلامية، والزهد والبساطة.

نبوءة صادقة :

عرفنا كيف نجحت اليهودية العالمية فى زعزعة كيان الأمم الكبرى، بعد أن مارست سيطرتها الفعلية على مقدرات هذه الأمم من النواحى السياسية والفكرية والمادية والأخلاقية والإعلامية.. حتى تخلقت شعوب هذه الأمم بأخلاق اليهود المبنية على الغدر والجشع، والأنانية والطمع، والوحشية والغرور.. ومن ثم بدأت السياسة العامة تبنى خططها فى الحياة، على أسس عدائية للحق وأهله، رسمها الخلق الصهيونى الشاذ، ونفذها أساطين المكر والدهاء والغدر.. وكان واقعنا الأليم فى فلسطين....

ولكن كيف ارتضت هذه الملايين من المسلمين الذل والهوان، ودينها دين الإباء والكرامة؟

لقد أجاب الرسول ﷺ على ذلك قبل أربعة عشر قرنا حينما قال فيما يرويه أحمد

وأبو داود بسند جيد رجاله ثقات عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ :

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » .

فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال :

« بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن » .

فقال قائل: يا رسول الله ! وما الوهن ؟ قال :

« حب الدنيا وكراهية الموت »[1].

وصدق رسول ﷺ، فقد مرت على أمته أزمنة استمرأت فيها حياة الذل والعبودية، حين تخلت عن أخلاق الإسلام، [2] تلك الأخلاق التى جعلت من الحفاة العراة فى صدر الإسلام قوة عظمى تدك صرح أعظم إمبراطوريتين فى التاريخ: الفرس والروم.. وتنشر رسالة العدل والخير والنور فى أرجاء الدنيا.. وحين تخلوا عن دينهم مروا بأدوار ضعف وانحطاط كثيرة، كان آخرها الدور الذى بدأ فى سنة ١٨٣٠م يوم احتلت فرنسا الجزائر على مرآى ومسمع من المسلمين.. واستمر هذا الضعف وذلك الانحطاط ـ كما عرفنا ـ إلى سنة ١٩٤٨م يوم ضاعت فلسطين على مرآى ومسمع من المسلمين كذلك.. وفى ذلك الدور من الانحطاط تهيأت نفوس المسلمين لتقبل الاستعمار، وما يجره من ذل وهوان، فاحتل الجنوب اليمنى «عدن» ومحميات الجنوب العربى، والخليج العربى، وتونس سنة ١٨٨١م ومصر والسودان سنة ١٨٨٢م وليبيا سنة ١٩١١م والمغرب سنة ١٩١٢م والعراق وسوريا والأردن وفلسطين سنة ١٩١٨م .

ما أشبه الليلة بالبارحة :

وتشاء الأقدار أن تكون فلسطين هى آخر معقل يسقط بأيدى اليهودية العالمية .. وأن تكون فى الوقت نفسه كبش فداء تبدأ مع سقوطها مرحلة تنبه الوعى والتطور إلى ما هو أفضل، لأن كارثة فلسطين قد نبهت المسلمين ـ لا شك ـ إلى حقيقة واقعهم المر ، وغفلتهم وتخاذلهم وضعفهم، بعد أن وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام خطر مدمر، لا يقل

---

(١) أبو داود (٤٢٧٦) عون المعبود، واللفظ له وأحمد: ٥: ٢٧٨.

(٢) خطر اليهودية : ٣٩٥ وما بعدها بتصرف.

عن الخطر الوحشى الذى تعرضوا له أيام الحروب الصليبية، والخطر الهمجى الذى تعرضوا له أيام التتار...

وتشاء الأقدار ـ كذلك ـ أن توضع الأمة الإسلامية أمام مسئولية تاريخية خطيرة، لا تقل عن مسئوليتها يوم تصدت للحروب الصليبية وغزو التتار.. وستظل حطين وعين جالوت من المعالم البارزة فى هذا المقام..

وما أشبه الليلة بالبارحة، فالأمة الإسلامية ـ فى مجموعها ـ بدأت تفيق من غفوتها، وتصحو من غفلتها، وبدأت المؤتمرات الإسلامية تدرس جوانب مهمة من واقع الأمة، وبدأ الشباب فى العودة إلى الله.. وأحس كثيرون من أهل الفكر والرأى بالأخطار الجسيمة التى تتهدد الأمة الإسلامية من جراء السرطان اليهودى الذى أخذ ينشب أظفاره، ويستشرى فى ديار المسلمين.

نبوءة النصر :

وتطالعنا نبوءة النصر فيما يرويه الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

« لا تقوم الساعة، حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودى: يا مسلم! هذا يهودى ورائى فاقتله » (١)

وفى رواية لهما عن عبد الله بن عُمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« تقاتلكم اليهود، فتسلطون عليهم، حتى يقول الحجر: يا مسلم ! هذا يهودى ورائى فاقتله » (٢).

قال الشنقيطى:(٣) لا وجه لتقييد شروح البخارى هذا النصر للمسلمين على اليهود، بكونه فى زمان قتال اليهود مع الدجال للمسلمين، ومعهم عيسى بعد نزوله عليه السلام، إذ لا مانع من وقوع ذلك النصر مرتين، فينصرون عليهم قبل نزول عيسى عليه السلام،

---

(١) البخاري: ٥٦ ـ الجهاد (٢٩٢٦) ومسلم: ٥٢ ـ الفتن ٨٢ (٢٩٢٢).

(٣) البخاري : ٦١ ـ المناقب (٣٥٩٣) ومسلم : ٥٢ ـ الفتن ٨١ (ت ٢٩٢١) .

(٩٣ زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم :٥: ٢٤٤ بتصرف.

ويستمر ذلك النصر عليهم إلى نزول عيسى، «حتى يقول الحجر وراءه اليهودى: يا مسلم! هذا يهودى ورائى فاقتله» .

والتعبير بحتى فى الحديث يدل على أن هذا النصر لا يزال من حين قتالنا لليهود، حتى يقول الحجر ذلك القول، سواء كان قبل عيسى عليه السلام أو فى زمنه، والعقل قابل لكل ذلك، والإيمان بكل ما أخبر به رسولنا ﷺ واجب، وهو فى حديث الصحيحين هذا لم يقيد بما بعد نزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وحينئذ فهو شامل لما قبل نزوله وما بعده، حيث أراد الله ذلك إن شاء الله.

وأخرج أحمد بسند صحيح عن سالم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ :

« ينزل الدجال فى هذه السبخة ، بمرّ قناة ، فيكون أكثر من يخرج إليه النساء، حتى إن الرجل ليرجع إلى حميمه ، وإلى أمه،وابنته ، وأخته ،وعمته ، فيوثقها رباطا، مخافة أن تخرج إليه ، ثم يسلط الله المسلمين عليه ، فيقتلونه ويقتلون شيعته ، حتى إن اليهودى ليختبىء تحت الشجرة أو الحجر ، فيقول الحجر أو الشجرة للمسلم : هذا يهودى تحتى ، فاقتله » (١)

وذكر بعض الأحاديث فى قصة خروج الدجال، ونزول عيسى،وأن وراء الدجال سبعون ألف يهودى.. وأن عيسى يدركه عند باب له فيقتله وينهزم اليهود، فلا يبقى شىء مما يتوارى به يهودى إلا أنطق الله ذلك الشىء فقال: يا عبد الله ! للمسلم، هذا يهودى فتعالى فاقتله، إلا الغرقد فإنها من شجرهم.(٢).

فهذه الأحاديث التى فيها التصريح بانتصار المسلمين على اليهود بعد نزول عيسى، لعلها هى التى حملت شروح البخارى على تقييد انتصار المسلمين على اليهود الواضح بكونه فى زمان نزول عيسى عليه السلام، مع أنه لا مانع من حصول هذا النصر قبل نزول عيسى وبعد نزوله.

---

(١) المسند : ٧: ١٩٠ (٥٣٥٣) تحقيق أحمد شاكر، وقال: إسناده صحيح، والحديث في مجمع الزوائد: ٧: ٣٤٦ ـ ٣٤٧ وقال : في الصحيح بعضه، رواه أحمد والطبراني في الأوسط، وفيه ابن إسحاق .

(٢) انظر: ابن ماجه (٤٠٧٧) من حديث أبي أمامة، ونحوه عند أحمد: ٥: ١٦ من حديث سمرة بإسناد حسن، وفى مجمع الزوائد : ٧: ٣٤١ ـ ٣٤٢ أحمد والبزار ببعضه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ثعلبة بن عباد وثقه ابن حبان، وأخرجه ابن منده فى كتاب الإيمان من حديث حذيفة بإسناد صحيح. فتح البارى : ٦: ٦١٠.

وذكر لفظ مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

« لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ! يا عبد الله ! هذا يهودى خلفي ، فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » (١).

قال: وفى هذا الحديث ظهور الآيات قبل قرب قيام الساعة، من كلام الجماد من شجر وحجر، وظاهره أن ذلك ينطق حقيقة، ولا مانع، ويحتمل المجاز بأن يكون المراد أنهم لا يفيدهم الاختباء وراء الشجر والحجر، والحمل على الحقيقة أولى. (٢).

قال ابن حجر: وفيه أن الإسلام يبقى إلى يوم القيامة (٣).

معركة عقيدة :

وعلينا أن نخوض المعركة ـ وفق الإعدادات العسكرية التى أشرنا إليها ـ على أساس أنها معركة عقيدة، ذلك لأن فلسطين ـ كما عرفنا ـ بلد إسلامى مقدس، يضم المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.. وأن النصر لا يكون إلا عن هذا الطريق..

وقد استطاع اليهود بباطلهم المستند على كتبهم المزيفة أن يقنعوا الغرب بارتباطهم الروحى بفلسطين، ومن ثم خاضوا المعركة منذ عشرات السنين على هذا الأساس، وخاضوها سنة ١٩٤٨م على ذلك أيضا.. جاء فى مذكرة «وايزمان»:

لقد قابلت لورد «بلفور» وزير خارجية بريطانيا الذى بادر بسؤالى على الفور: لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومى فى أوغندا؟ وقلت لبلفور: « إن الصهيونية حركة سياسية قومية، هذا صحيح، ولكن الجانب الروحى منها لا يمكن إغفاله، وأنا واثق تمام الوثوق أننا إذا أغفلنا الجانب الروحى فإننا لن نستطيع تحقيق الحكم السياسى القومى» (٤).

هكذا يستغل اليهود الجانب الروحى،وما زالوا كذلك، فقد كان فى مقدمة حرب ١٩٦٧م حبر من أحبارهم يقود دبابة، ويحمل الكتب المقدسة عندهم، بينما أسقط المسلمون من حسابهم العامل الدينى، والرباط الروحى، وخاضوا المعركة على غير ذلك من الشعارات القومية، فكانت الهزائم التى نعيش أحداثها المريرة.

---

(١) مسلم: ٥٢ ـ الفتن ٨٢ (٢٩٢٢).
(٢) زاد المسلم: ٥: ٢٤٥ بتصرف.
(٣) فتح البارى: ٦: ٦١٠.
(٤) انظر المرجع السابق: ٤٠١.

وفلسطين مهوى أفئدة المسلمين جميعا، وواجب الدفاع عنها حق على كل مسلم... ومن ثم يجب أن ندع الشعارات التى أودت بنا إلى الحضيض.

ومعلوم أن الأحزاب والحركات العربية العلمانية الملحدة قد أخفقت فى جميع أعمالها، لأنها كانت منذ نشأتها وما تزال، تعمل بمعزل عن الشعوب المؤمنة.. كما أنها عجزت عن إدراك الاختلاف الكبير بين الإسلام الذى هو دين ودنيا، وبين الكهانة التى أرغمت حكومات الغرب ومن على شاكلتها على اعتناق العلمانية.. هذا جانب، وهناك جانب آخر مهم ، وهو أنها تعرف أن الإسلام دين ودولة، ولكنها تحارب هذا الدين بتلك الشعارات البراقة والمبادئ الهدامة.. وعلى كل فسرعان ما انهار بنيانها، حتى غدت موضع سخرية العقلاء من الأمة الإسلامية.

وهذه الأحزاب والحركات العلمانية التى تنتشر اليوم فى هذه الأمة من المحيط إلى الخليج، قد تخرجت فى مدارس الغزو الثقافى التى استطاعت أن تفصل بين ضحاياها وبين أصولهم العريقة.. وجاءت دساتير تلك الأحزاب والحركات خالية من أية إشارة إلى الجانب الروحى فى حياة هذه الأمة، وما انطوى عليه ذلك الجانب من قوة كامنة، وفى الوقت ذاته جاءت مليئة بكل ما يصد المسلمين عن دين الله، حتى أصبح آلاف الشباب ممن استهوتهم تلك الأحزاب والحركات يعيشون فى متناقضات عجيبة، ألسنة حداد، وقلوب فارغة..! ومن ثم رأينا الكثيرين منهم يخرجون على تلك المبادىء الهدامة، ويعودون إلى الله...

وسبق أن ذكرنا الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة على أن النصر للمؤمنين.. وضربنا لذلك الأمثلة الكثيرة...

وحدة القيادة :

وعلينا أن نوحد القيادة حتى ينصرنا الله على اليهود... ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بعودة المسلمين إلى دينهم، والقضاء على موجة الإلحاد التى تعم أغلب الشباب فى كثير من البلاد، والقضاء نهائيا على الأحزاب والحركات العلمانية التى مزقت هذه الأمة، حينما أوجدت صراعا يسمونه بأسماء براقة ويطلقون عليها «عقائدية» فاشتعلت نار البغضاء واستحكم العداء بين الإخوة والأشقاء، وانهدم نظام الوحدة الإسلامية..

ولابد من هذه الوحدة التى تنبثق من وحدة العقيدة فى الله:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١) .

وتلك هى الأخوة الإسلامية التى أبصرنا معالمها فى الجيش الإسلامى بقيادة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ .. الأخوة المعتصمة بحبل الله.. وهى نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى .. (٢) ويهبها الله لمن يحبهم من عباده دائما.. وهو هنا يذكرهم هذه النعمة..يذكرهم كيف كانوا فى الجاهلية «أعداء».. وما كان أعدى من الأوس والخزرج فى المدينة أحد. وهما الحيان العربيان يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة، وينفخون فى نارها، حتى تأكل روابط الحيين جميعا.. ومن ثم تجد يهود مجالها الذى لا تعمل إلا فيه، ولا تعيش إلا معه. فألف الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام.. وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة.. وما كان إلا حبل الله الذى يعتصم به الجميع فيصبحون بنعمة الله إخوانا.. وما يمكن أن يجمع القلوب إلا أخوة فى الله، تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية، والثارات القبلية، والأطماع الشخصية، والرايات العنصرية، ويتجمع الصف تحت لواء الحق..

وحينئذ نسير فى معركتنا مع اليهود كأسلافنا الذين وحدوا قيادتهم، فكان لهم النصر.. وهنا نذكر موقف خالد حين قدم الشام مددا لجيوش المسلمين التى كانت مشتبكة مع الروم على ضفة اليرموك « يقاتلون الروم متساندين، كل أمير على جيش ، أبو عبيدة على جيش ، ويزيد بن أبى سفيان على جيش، وشرحبيل بن حسنة على جيش، وعمرو بن العاص على جيش، فقال خالد: إن هذا اليوم من أيام الله، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، فأخلصوا لله جهادكم، وتوجهوا لله تعالى بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، فلا تقاتلوا قوما على نظم وتعبئة، وأنتم على تساند وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى، وإن من وراءكم لو يعمل عملكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه هو الرأى من واليكم، قالوا: فما الرأى؟ قال: إن الذى أنتم عليه أشد على المسلمين مما غشيهم، وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم والله ! فهلموا

(١) آل عمران:١٠٣.
(٢) في ظلال القرآن: ١: ٤٤٢ بتصرف.

فلنتعاورن الإمارة ، فليكن علينا بعضنا اليوم ، وبعضنا غدا ، والآخر بعد غد ، حتى يتأمر كلكم ، ودعونيَ اليوم عليكم . قالوا: نعم، فأمّروه وهم يرون أنها كخرجاتهم «غزواتهم الأولى » فكان الفتح على يد خالد يومئذ» (١) .

وعد اللـه :

وعلينا أن ندرك أن اليهودية العالمية قد نجحت نجاحا فوق الحساب فى تحقيق مراميها وأهدافها الكثيرة، التى ظلت آلاف السنين تحلم بها، وفى تطبيق مخططاتها الكثيرة التى كانت تعتبر ضربا من غرائب الهوس، وطرائف الجنون فى سهولة ويسر، لم يكن يتخيلهما عاقل..

فقامت دولة إسرائيل.. ولكن هل يدوم هذا الوضع؟ وهل تحقق الصهيونية ما بقى من أحلامهاو مخططاتها؟

إن كل ما سبق أن عرفناه من سمات اليهود يحتم أنهم لا يتمتعون بفترة طويلة من السيطرة والغلبة والقوة، ولا يمكنون من تحقيق جميع آمالهم وأحلامهم، ومخططاتهم الهادمة المدمرة، الأنانية العنصرية، ولو أيدتهم ألف حكومة، وكانت من ورائهم القوى الكبرى كلها فى العالم، ولو توفرت عندهم كل الوسائل المدمرة التى اكتشفها المكتشوفون فى هذا العصر، والتى برعوا فيها براعة ممتازة، وسينتصر أهل الحق وحملة الرسالة العالمية الخالدة، التى تعطف على الإنسانية كلها، وتساوى بين الشعوب والأمم، وتنتصر للحق أينما كان، وتحارب الظلم أينما وجد، يعيشون للإنسانية وبالإنسانية، ولا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾(٢) .

إن حقيقة الإيمان التى يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة، (٣) تستغرق النشاط الإنسانى كله، وتوجه النشاط الإنسانى كله.. فما تكاد تستقر فى القلب حتى تعلن عن

(١) خطر اليهودية : ٣٩٧ نقلا عن معجم البلدان: ياقوت : يرموك ، وانظر: بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٢ : ٤٧٢ .
(٢) النور : ٥٥.   (٣) فى ظلال القرآن : ٤: ٢٥٢٨ وما بعدها بتصرف.

نفسها فى صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه إلى الله، لا يبتغى به صاحبه إلا وجه الله، وهى طاعة لله واستسلام لأمره فى الصغيرة والكبيرة ، لا يبقى معها هوى فى النفس ، ولا شهوة فى القلب، ولا ميل فى الفطرة، إلا وهو تبع لمنهج الله.

فهو الإيمان الذى يستغرق الإنسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه.. وأشواق روحه ، وميول فطرته ، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه مع ربه فى أهله ومع الناس جميعا.. يتوجه بهذا كله إلى الله.. يتمثل هذا فى قول الله سبحانه فى الآية نفسها تعليلا للاستخلاف والتمكين والأمن : « يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » والشرك مداخل وألوان، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله.

ذلك الإيمان منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به ، ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل ، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى فى الأرض.. أمانة الاستخلاف..

فما حقيقة الاستخلاف فى الأرض ؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم .. إنما هى كل هذا على شرط استخدامه فى الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذى رسمه الحق للبشرية كى تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها فى الأرض، اللائق بخليقة أكرمها الله .

إن الاستخلاف فى الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد.. وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة ، لا على الظلم والقهر.. وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشرى، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان !

واليهود ـ كما عرفنا ـ مصدر إفساد وظلم وقهر وانحدار بالإنسانية إلى مدارج الحيوان ! ومن ثم فليسوا أهلا للاستخلاف.. وتلك معالم فى الطريق إلى النصر القريب تضاف إلى ماسبق أن ذكرنا..

وهذا الاستخلاف هو الذى وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. وعدهم الله أن يستخلفهم فى الأرض ـ كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم ـ ليحققوا النهج الذى أراده الله، ويقرروا العدل الذى أراده الله، ويسيروا بالبشرية خطوات فى طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله..

فأما الذين يملكون فيفسدون فى الأرض وينشرون فيها البغى والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان ـ كما هو شأن اليهود ومن على شاكلتهم ـ فهؤلاء ليسوا مستخلفين فى الأرض.. إنما هم مبتلون بما هم فيه، ومبتلى بهم غيرهم، ممن يسلطون عليهم، لحكمة يقدرها الله..

آية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى بعده: «وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم».. وتمكين الدين يتم بتمكينه فى القلوب، كما يتم بتمكينه فى تصريف الحياة وتدبيرها.. فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم فى الأرض، وأن يجعل دينهم الذى ارتضى لهم هو الذى يهيمن على الأرض ـ ومنها فلسطين ـ ودينهم يأمر بالإصلاح، ويأمر بالعدل، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض.. ويأمر بعمارة هذه الأرض، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة، ومن رصيد ومن طاقة، ومع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾

الخارجون على شرط الله. ووعد الله. وعهد الله.

لقد تحقق وعد الله.. وظل متحققا وواقعا ما دام المسلمون على شرط الله «يعبدوننى لا يشركون بى شيئا».. لا من الآلهة وما أكثرها.. ولا من الشهوات وما أكثرها كذلك.. ووعد الله مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة.. إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن، لتخلف شرط الله، فى جانب من جوانبه الفسيحة، أو فى تكليف من تكاليفه الضخمة، حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء، وجازت الابتلاء، وخافت فطلبت الأمن، وذلت فطلبت العزة، وتخلفت فطلبت الاستخلاف.. كل ذلك بوسائله التى أرادها الله، وبشروطه التى قررها الله.. تحقق وعد الله الذى لا يتخلف، ولا تقف فى طريقه قوة من قوى الأرض جميعا..

لذلك يعقب على هذا الوعد بالأمر بالصلاة والزكاة والطاعة، وبألا يحسب الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وأمته حسابا لقوة هؤلاء البغاة الطغاة العتاة من الكافرين ومن على شاكلتهم، من اليهود والذين يحاربونهم ويحاربون دينهم الذى ارتضى لهم:

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (١) .

فهذه هي العدة.. الاتصال بالله، وتقويم القلب بإقامة الصلاة.. والاستعلاء على الشح، وتطهير النفس والجماعة بإيتاء الزكاة .. وطاعة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ والرضى بحكمه:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

فالرسول الحبيب المحبوب ﷺ ليس مجرد واعظ يلقى كلمته ويمضى.. (٣) لتذهب فى الهواء ـ بلا سلطان ـ كما يقول المخادعون عن طبيعة هذا الدين .. أو كما يفهم الذين لا يفهمون مدلول الدين .. فالدين منهج حياة .. منهج حياة واقعية .. بتشكيلاتها وتنظيماتها، وأوضاعها، وقيمها، وأخلاقها وآدابها، وعباداتها وشعائرها.. وسلمها وحربها ـ كما عرفنا ـ وهذا كله يقتضى أن يكون للرسالة سلطان .. سلطان يحقق المنهج، وتخضع له النفوس خضوع طاعة وتنفيذ..

ومن هنا كان تاريخ الإسلام كما كان .. كان دعوة وبلاغا.. ونظاما وحكما.. وسلما وحربا.. وخلافة بعد ذلك عن رسول الله ﷺ تقوم بقوة الشريعة والنظام، على تنفيذ الشريعة والنظام .. لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول .. وتحقيق إرادة الله من إرسال الرسول..

ومرة أخرى نجدنا أمام شرط الإيمان وحد الإسلام .. يقرره الله سبحانه بنفسه. ويقسم عليه بذاته. فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل فى تحديد شرط الإيمان وحد الإسلام، ولا تأويل لمؤول.

---

(١) النور : ٥٦ : ٥٧ . (٢) النساء : ٦٤ ـ ٦٥. (٣) المرجع السابق : ٢ : ٦٩٥ بتصرف.

اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام.. مماحكة مردودة على أصحابها .. فطاعة الرسول مقررة.. وإن كان قد ظهر فى زماننا هذا بعض القادة الذين لا علم عندهم ـ إن أحسنا الظن بهم ـ وبعض الذين يطلق عليهم من الألقاب الضخمة الفكرية، الذين يتصدرون الركب فى عصر الهزائم مازالوا يقفون من ذلك موقفا يرفضه الإسلام ويرده عليهم، ويصمهم بما هم له أهل ..

إن علينا أن نصحح المفاهيم.. ونحقق نهج الحق الذى أراده الله للحياة.. فإذا استقمنا على النهج فلا علينا من وضع اليهود ومن يساندهم. فما هم بمعجزين فى الأرض، وقوتهم الظاهرة ـ مهما كان شأنها ـ لن تقف لنا فى الطريق، فنحن أقوياء بإيماننا، أقوياء بعدتنا التى نبذل فى سبيلها كل الإمكانات المتاحة .. والقلوب المؤمنة، والأيادى المتوضئة.. والتجمع فى رحاب العقيدة .. والاعتصام بحبل الله .. كل أولئك يصنع الخوارق والأعاجيب .

إن الإسلام حقيقة ضخمة لابد أن يتملاها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد الله فى تلك الآيات.. ولابد أن يبحث عن مصداقها فى تاريخ الحياة البشرية، وهو يدرك شروطها على حقيقتها، قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب، أو يستبطئ وقوعها فى حالة من الحالات .

إنه ما من مرة سارت الأمة على نهج الله، وحكمت هذا النهج فى الحياة، وارتضته فى كل أمورها.. إلا تحقق وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن..

وما من مرة خالفت عن هذا النهج إلا تخلفت فى ذيل القافلة، وذلت،وطرد دينها من الهيمنة، واستبدلها الخوف، وتخطفها الأعداء.

ألا إن وعد الله قائم.

ألا وإن شرط الله معروف.

فمن شاء الوعد فليقم بالشرط ومن أوفى بعهده من الله؟

النصر النهائى :

وعلينا أن نؤمن بأن النصر يخضع ـ كما تخضع الهزيمة فيه ـ إلى قانون لا يتخلف .. فإن هناك أيضا قانونا آخر للحياة [1] يمثل إرادة الله كذلك ، وهو قانون النصر النهائى ، وتصوره الآية القرآنية فيما يقو ل الله عز وجل:

---

(١) خمس رسائل إلى الشباب المسلم المعاصر: ١٠٢ وما بعدها بتصرف.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾(١).

فالله هو العلى الكبير، وهو الحق.. وذلك تعليل كاف وضمان كاف للانتصار الحق والعدل، وهزيمة الباطل والبغى.. وهو كذلك ضمان لاضطراد سنن الكون وثباتها، وعدم تخلخلها أو تخلفها.. ومن هذه السنن انتصار الحق وهزيمة البغى.. والله أعلى وأكبر.. فلن يدع البغى يستعلى، والظلم يستطيل.. وما عدا الله هو الباطل، والباطل ضعيف، فلابد أن ينهزم.

والنتيجة الضرورية لهذا القانون، هو أن الذين يقاتلون مخلصين وصادقين فى سبيل الله، لابد أن ينصروا على الآخرين فى قتالهم معهم، وهم الذين قاتلوا فى سبيل الباطل والطاغوت.

وتصرح آية أخرى ـ كما سبق ـ بهذه النتيجة اللازمة فيما تذكره:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾(٢).

وسبق أن ذكرنا قول عيسى عليه السلام فى اليهود «أنتم من أب هو إبليس» .

ومن ثم فهم فى المقدمة لولاية الشيطان.. وضعف الشيطان، وضعف أوليائه هو فى اتباع الهوى والشهوة.. ومن كان كذلك فإن خط سيره فى الحياة يمثل تعرجات شتى تنبئ عن تقلبه فى سبيل اتباع الهوى وتحقيق الشهوة .. والمتقلب ليس له مبدأ يتمسك به، وهو إذا لا يقاتل إلا مكرها، والذى يقاتل مكرها يفر من ميدان القتال، فور أن يجد مخلصا لنفسه، وهو من أجل ذلك ضعيف لا يثبت، ومن لا يثبت تلحقه الهزيمة لا محالة.

وهذا ما تناقلته الأنباء عن الطيارين اليهود الذين شاركوا فى الحروب التى قامت حديثا بيننا وبينهم!

أما الحق فهو ثابت لا يتغير.. وأما الذين يقاتلون فى سبيله فهم يقاتلون عن اختيار،

---

(١) الحج : ٦٢.　　　(٢) النساء : ٧٦ .

ويرون القتال قربى إلى الله لا يصرفهم عنه متاع الدنيا ولا شهوة النفس، ولا يسيطر عليهم أثناء القتال هوى الذات. فقد ارتضوا الآخرة بدل الدنيا، وباعوا أنفسهم لله وحده:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(١).

إن الدخول فى الإسلام صفقة بين متبايعين .. الله سبحانه فيها هو المشترى ، (٢) والمؤمن فيها هو البائع، فهى بيعة مع الله عز وجل، لا يبقى بعدها للمؤمن شىء فى نفسه، ولا فى ماله يحتجزه دون الله سبحانه، ودون الجهاد فى سبيله، لتكون كلمة الله هى العليا، وليكون الدين كله لله. فقد باع المؤمن نفسه، وماله لله فى هذه الصفقة، مقابل ثمن محدد معلوم، هو الجنة: وهو ثمن لا تعدله السلعة، ولكنه فضل الله..

وإن هذه الآية تكشف عن حقيقة العلاقة التى تربط المؤمنين بالله، وعن حقيقة البيعة التى أعطوها ــ بإسلامهم ــ طوال الحياه . فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذى ينطبق عليه وصف المؤمن، وتتمثل فيه حقيقة الإيمان..

حقيقة هذه البيعة ــ أو هذه المبايعة كما سماها الله كرما منه وفضلا وسماحة ــ أن الله سبحانه قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم، فلم يعد لهم منها شىء.. لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها فى سبيله.. لم يعد لهم خيار فى أن يبذلوا أو يمسكوا.. كلا .. إنه صفقة مشتراة.، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد، وليس للبائع فيها شىء سوى أن يمضى فى الطريق المرسوم، لا يتلفت ولا يتخير ولا يناقش ولا يجادل، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام.. والثمن: هو الجنة.. والطريق: هو الجهاد والقتل والقتال.. والنهاية: هى النصر أو الاستشهاد..

من بايع على هذا.. من أمضى الصفقة.. من ارتضى الثمن ووفى.. فهو المؤمن.. فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا .. ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمنا ،

(١) التوبة : ١١١.

(٣) في ظلال القرآن : ٣ : ١٧١٣ وما بعدها بتصرف.

وإلا فهو واهب الأنفس والأموال، وهو مالك الأنفس والأموال.. ولكنه جل شأنه كرم هذا الإنسان فجعله مريدا، وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها ــ حتى مع الله ــ وكرمه فقيد بعقوده وعهوده، وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة، ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة.. شر البهيمة:

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾[1].

وسبق أن عرفنا أن المقصود بهؤلاء الذين ينقضون العهد هم يهود بنى قريظة، أو يهود بنى النضير، أو يهود بنى قينقاع، ومن على شاكلتهم.

كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء..

وإنها البيعة رهيبة ــ بلا شك ــ ولكنها فى عنق كل مؤمن ــ قادر عليها ــ لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه .. ومن هنا تكون تلك الرهبة التى يستشعرها كل مؤمن وهو يقرأ هذه الكلمات :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ ﴾

عونك اللهم! فإن العفو رهيب.. ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين ، على عهد الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، فتتحول من فورها فى القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم ، ولم تكن مجرد معان يستقبلونها بأذهانهم ، أو يحسونها مجردة فى مشاعرهم.. كما كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها.. لتحويلها إلى حركة منظورة، لا إلى صورة متأملة.. هكذا أدركها الصحابة..

ويطيب لنا أن نذكر موقفا من تلك المواقف الكثيرة فيما رواه أحمد بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهما ــ قال : مكث رسول الله ﷺ عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم بعكاظ ومجنة فى المواسم بمنى يقول:

---

(١) الأنفال: ٥٥ ــ ٥٦.

« من يؤوينى ، من ينصرنى ، حتى أبلغ رسالة ربى ، وله الجنة » .

حتى إن الرجل ليخرج من اليمن، أو من مضر، فيأتيه قومه ، فيقولون : احذر غلام قريش لا يفتنك ، ويمشى بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه وصدقناه ، فيخرج الرجل منا، فيؤمن به ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله ، فيسلمون بإسلامه ، حتى لم يبق دار من الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، ثم ائتمروا جميعا، فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد فى جبال مكة ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلا، حتى قدموا عليه فى الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين ، حتى توافينا، فقلنا : يا رسول الله! نبايعك . قال :

« تبايعونى على السمع والطاعة ، فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تقولوا فى الله ، لا تخافون فى الله لومة لائم، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم،ولكم الجنة » .

قال : فقمنا إليه فبايعناه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو من أصغرهم فقال: رويدا ياأهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبنة، فبينوا ذلك فهو عذركم عند الله، قالوا : أمط عنا ياأسعد، فوالله! لا ندع هذه البيعة أبدا ولا نسلبها أبدا، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط يعطينا على ذلك الجنة. رضى الله عنهم أجمعين [1].

---

(١) الفتح الرباني: ٢: ٢٦٩ ـ ٢٧٠ ورواه الحاكم: ٢ : ٦٢٥ ـ ٦٢٦ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد جامع لبيعة العقبة ولم يخرجاه. ، و أقره الذهبي، وقال ابن كثير في تاريخه: هذا إسناد جيد على شرط مسلم.

لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين، انتهى أمرها، وأمضى عقدها، ولم يعد إلى مرد من سبيل:! «لا ندع هذه البيعة أبدا ولا نسلبها أبدا» فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار، والجنة، ثمن مقبوض لا موعود! أليس الوعد من الله؟ أليس الله هو المشترى؟ أليس هو الذى وعد بالثمن وعدا قديما فى كتبه:

﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾

﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾

أجل! ومن أوفى بعهده من الله؟

إن الجهاد فى سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن.. كل مؤمن منذ كانت الرسل، ومنذ كان دين الله.. إنها السنة الجارية التى لا تستقيم الحياة بدونها، ولا تصلح الحياة بتركها.

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله، وأخذ الجنة عوضا، كما وعد الله.. وما الذى فات؟ ما الذى فات المؤمن الذى يسلم لله نفسه وماله ويستعيض الجنة؟ والله! ما فاته شيء. فالنفس إلى موت والمال إلى فوت.. سواء أنفقهما صاحبهما فى سبيل الله أم فى سبيل سواه! والجنة كسب. كسب بلا مقابل فى حقيقة الأمر ولا بضاعة! فالمقابل زائل فى هذا الطريق أو ذاك!

ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش لله.. ينتصر — إذا انتصر — لإعلاء كلمة الله، وتقرير دينه، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه.. ويستشهد — إذا استشهد — فى سبيله، ليؤدى لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة.. ويستشعر فى كل حركة، وفى كل خطوة، أنه أقوى من قيود الأرض، وأنه أرفع من ثقلة الأرض، والإيمان ينتصر فيه على الألم، والعقيدة تنتصر فيه على الحياة.

إن هذا وحده كسب.. كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التى لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة، وانتصار الإيمان فيه على الألم، وانتصار العقيدة فيه على الحياة .. فإذا أضيفت إلى ذلك كله .. الجنة .. فهو بيع يدعو إلى الاستبشار ، وهو فوز

لا ريب فيه ولا جدال..

والمؤمنون أقوياء بإيمانهم، وثابتون فى القتال من أجل هذا الإيمان.. ولذا يكون النصر النهائى لهم.. وإن هزموا فى موقعة فليتخذوا من الهزيمة فيها قوة فى موقعة أخرى، وليُبعدوا عن أنفسهم عناصر الضعف التى اكتشفوها فى هزيمتهم.. فهل آن لنا أن نتخطى أسباب الهزائم التى نزلت بنا ، ونأخذ بأسباب القوة التى عرفنا معالمها ، حتى ينصرنا الله على اليهود؟

القانون الذى يربط النصر النهائى فى القتال بالإيمان بالحق واتباعه، ويربط الهزيمة النهائية باتباع الباطل وماديات الحياة وحدها، هو قانون طبيعى، تتجلى فيه إرادة الحق، كما تتجلى فى خصائص الطبيعة البشرية التى تحكم الإنسان والمجتمعات الإنسانية..

وفى هذا النصر النهائى كقانون للحياة يقول الله تعالى:

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾(١) .

ومنطوق هذا القانون هو:

أولا: أن أعداء الإيمان بالله، وبخاصة الماديون الملحدون منهم، إذا باشروا القتال مع المؤمنين، لابد فى النهاية أن يفرّوا ويولوا الأدبار وليس لهم معين ونصير بعد ذلك.

ثانيا: أن ذلك يتجلى فى أحداث التاريخ الماضية كلها.. وإذن لا شبهة فى التلازم فى الوقوع بين قضاياه:

يوجد الإيمان فيوجد النصر.

ويوجد الإلحاد فتوجد الهزيمة.

ومفهوم هذا القانون أنه إذا وجد المنتسبون للإيمان، دون أن يوجد الإيمان حقا وصدقا فى قلوبهم، فلا يوجد النصر لهم تبعا لانتسابهم إلى الإيمان وحده..

ومثله قانون آخر يعبر عنه قول الله تعالى:

---

(١) الفتح :٢٣ ـ ٢٤.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾[1].

فالذين كفروا بالله هم سواء فى عدائهم للمؤمنين، وهم أولياء بعضهم بعضا، مهما بدا بينهم من خلاف. فأهل الكتاب الذين لا يدينون دين الحق ـ كما أسلفنا وهم أولياء لأولئكم الماديين الذى لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، وهم جميعا أعداء للمؤمنين.

فمن يفرق من المؤمنين بين النوعين، ويعلن الولاء لفريق بعد أن يظن الخير به، ويبقى على الحيطة والحذر فى مواجهة الفريق الآخر، ملتزما موقف الإسلام من أعداء الإيمان، فإنه بولائه يجلب الخطر على المؤمنين جميعا، ويكون سببا فى الفساد والعبث الذى يلحق مجتمعات المؤمنين:

﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

إن اليهود ومن على شاكلتهم يتحركون ككائن عضوى، تندفع أعضاؤه، بطبيعة وجوده الذاتى، وتكوينه للدفاع عن وجوده وكيانه، فهم بعضهم أولياء بعض طبعا وحكما.. ومن ثم لا يملك المسلمون مواجهتهم إلا فى صورة مجتمع إسلامى له خصائصه التى هى أعمق وأمتن وأقوى. فإذا لم تكن المواجهة كذلك، فستقع الفتنة لأفراده.. لأنهم لا يملكون مواجهة هؤلاء أفرادا.. وتقع الفتنة فى الأرض بغلبة الباطل ـ كما هو الواقع ـ ويقع الفساد فى الأرض بطغيان الباطل.. ولا يكون بعد هذا النذير نذير، ولا بعد هذا التحذير تحذير..

والمؤمنون الذين هم فى ولاء مع أى من النوعين، لا يحق لهم أن يلوموا الإسلام وانتسابهم إليه إذا ما لحقهم الأذى والضرر ونزلت الهزائم بسبب هذا الولاء. وإنما يجب أن يعودوا باللائمة على أنفسهم بمخالفتهم أمر الله...

وقد تجلت صلة اليهود بالكافرين والملحدين قديما وحديثا.. والمادية التاريخية تنكر وجود الله.. وتنكر منهج الدين فى السلوك والمعاملة، كما تنكر مقاييس الأخلاق.. وترى الانطلاق فى سلوك الجنس..

---

(١) الأنفال : ٧٣.

الجهاد اليوم :

وعلينا أن نؤمن بأن الفلسفة المادية التاريخية وجدت لتتحدى الدين ـ وفى المقدمة فى هذا المقام اليهود كما هو معلوم ـ والذين يقيمون مجتمعاتهم عليها يقاتلون المؤمنين، حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا.. وما قاله القرآن فى المشركين فى تحديد صفاتهم، وفى موقفهم من المؤمنين ـ كما عرفنا ـ ينطبق تماما على أولئكم الذين يتبنون الفلسفة المادية التاريخية فى توجيه شعوبهم ومجتمعاتهم.

ومعلوم ـ أيضا ـ أن هؤلاء الذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب فى الدرجة الأولى الذين يبعدون الدين عن التوجيه والتربية. والذين يأخذون اسم العلمانيين منهم هم الذين ينكرون قيمة الدين..

وهؤلاء العلمانيون أولياء لأولئكم أصحاب الفلسفة المادية التاريخية.. لأنهم جميعا ينتهون إلى غاية واحدة، وهى إضعاف الدين أو إبعاده عن مجال التأثير على حياة الإنسان.. هى إضعاف الإيمان بالله، أو إلغاؤه من الوجود الإنسانى.

وولاء هؤلاء لأولئكم، بعضهم لبعض، تدفع إليه روح واحدة، وتخطط له عقلية موحدة فى العصر الذى تعيش فيه الإنسانية اليوم. وهى روح العالمية، والعقلية اليهودية العالمية التى تتمثل مرة فى الفلسفة المادية التاريخية، أو الراديكالية الماركسية، وأخرى فى الرأسمالية الليبرالية، وثالثة فى الماسونية أو فى البنائين الأحرار.

وتستهدف هذه العالمية:

تحقيق التعايش السلمى للأقليات اليهودية فى شعوب العالم.

كما تستهدف إقامة إسرائيل على أرض صهيون، كرمز للوحدة التاريخية للشعب اليهودى ، وفى الوقت نفسه كوطن يلجأ إليه من يشعر بالمذلة أو الاضطهاد فى أقلية من أقلياتهم العديدة .

ولا يمكن أن يتحقق التعايش السلمى للأقليات اليهودية فى شعوب العالم اليوم، كما لا يمكن أن يتوطد أمن إسرائيل على صهيون ـ فضلا عن ازدهارها ـ إلا فى غفلة ممن يحيطون بهم.. ومن هنا كان معول العالمية اليهودية: إن فى الراديكالية الماركسية، أو فى

النظام العلمانى، أو فى الحركة الماسونية.. ضد الإيمان بالله فى كل طبقة من طبقات المجتمع:

فالماسونية تتجه بمعولها للرؤوس وللرؤساء الذين يوجهون السياسة والاقتصاد فى الشعوب.

والعلمانية تسدد ما تملك من معول ضد تقويض القيم الدينية بين المثقفين والشباب فى دور التعليم المختلفة. وفى وسائل الإعلام المتنوعة.

والراديكالية الماركسية تسدد وسائلها التخريبية المختلفة لمحو الدين أساسا، وعلى الأخص بين العمال والفلاحين فى المجتمعات.

وجهاد اليوم فى سبيل الله إن اتجه ضد الماديين الملحدين فى الصور العديدة لاتجاه المادية.. فإنه يشبه ما اتجه إليه بالأمس ضد المشركين.

وإن اتجه إلى العلمانيين من أهل الكتاب.. فإنه كذلك يشبه ما اتجه إليه بالأمس ضد ﴿**الذين لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب**﴾ .

وإذا اتجه إلى الروح العالمية أو إلى العقلية العالمية اليهودية ـ والصهيونية جانب منها ـ فإنه يكون قد اتجه إلى ذلك المصدر الذى يعقد الولاء والصداقة والترابط بين الماديين والملحدين، والعلمانيين من أهل الكتاب، لتحقيق الهدف المشترك، وهو محاولة رد المؤمنين عن دينهم إن استطاعوا.

وإذا لم يتيقظ المسلمون اليوم إلى هذا المصدر الذى يعقد الولاء بين الاتجاهين فى عداء الإيمان بالله، لتحقيق الهدف المشترك بينهما، فالويل لهم آنئذ من خطره الداهم وفساده الكبير:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

إن الصهيونية العالمية جانب فقط من العقلية اليهودية ـ كما أسلفنا ـ هى الجانب الذى يتبنى ـ علنا ـ دولة إسرائيل فى إقامتها وبقائها وازدهارها..

ولكن الذى لا يعلن عن نفسه من العقلية اليهودية المحركة فى الواقع ــ وهو الأخطر والأهم ــ هو:

الجانب الفكرى منها وراء الراديكالية الماركسية.

والجانب الآخر الاقتصادى وراء دفع العلمانية فى النظم الرأسمالية ومن على شاكلتها.

وعدم الولاء لأى من الجانبين: الراديكالى الماركسى، والرأسمالى، هو الصورة التى يجب أن يبرز فيها الجهاد اليوم فى سبيل الله.

﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾(1).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(1) الروم: ٤ ــ ٥.

أهم المراجع

١ ـ إسرائيل : فكرة ـ حركة ـ دولة، هاني الهندى ومحسن إبراهيم .

٢ ـ الأسفار المقدسة، دكتور على عبد الواحد وافى، ط ٨ نهضة مصر .

٣ ـ البداية والنهاية، ابن كثير، المعارف، بيروت، ط ثانية ١٩٧٧م .

٤ ـ بلادنا فلسطين، مصطفى مراد الدباغ ، ط دار الطليعة، بيروت ١٩٦٥م

٥ ـ بنو إسرائيل فى القرآن والسنة، دكتور محمد سيد طنطاوى، جامعة البصرة، ط أولى ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م

٦ ـ تاريخ الإسرائيليين، شاهين مكاريوس .

٧ ـ تاريخ بنى إسرائيل من أسفارهم، محمد عزة دردرة، ط أولى نهضة مصر ١٩٥٨م ط ثانية، اللجنة القومية للتأليف والنشر ١٩٦١م، وط ثالثة، المكتبة العصرية، صيدا.

٨ ـ تاريخ العرب قبل الإسلام ، دكتور جواد على ، ط المجمع العلمى العراقى .

٩ ـ تاريخ اليهود فى بلاد العرب، دكتور إسرائيل ولفنسون، الاعتماد.

١٠ ـ التفسير الإسلامى للتاريخ، دكتور عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٥م

١١ ـ الجامع الصحيح (سنن الترمذى) ط بولاق ١٢٩٢ هـ، والهند والحلبى ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م.

١٢ ـ حقائق عن قضية فلسطين، الهيئة العربية العليا لإنقاذ فلسطين ١٩٥٤م.

١٣ ـ حكومة العالم الخفية، شريب سبيريد وفيتش ، ترجمة مأمون سعيد، دار النفائس ، ط سادسة.

١٤ ـ خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ، عبد الله التل، المكتب الإسلامى ، ط ثالثة ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م .

١٥ ـ خمس رسائل إلى الشباب المسلم المعاصر، دكتور محمد البهى، دار الفكر بيروت، ط ثانية ١٩٧٢م .

١٦ ـ زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم، الشنقيطى، ط مؤسسة الحلبى.

١٧ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار الفكر العربى.

١٨ ـ سنن أبى داود، ط مصر التجارية، الأولى، والمدينة المنورة.

١٩ ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٠ ـ صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٢١ ـ على مشارف القرن الخامس عشر الهجرى، إبراهيم بن على الوزير، دار الشروق ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م.

٢٢ ـ عون المعبود، شرح سنن أبي داود، تحقيق عبد الرحمن عثمان، السلفية ط ثانية ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م.

٢٣ ـ فتح البارى، شرح صحيح البخارى، ابن حجر، الرياض الحديثة.

٢٤ ـ الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى، أحمد عبد الرحمن البنا، ط الإخوان المسلمين.

٢٥ ـ فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤م .

٢٦ ـ فى موكب الشمس، دكتور أحمد بدوى .

٢٧ ـ قصة الحضارة، ديورانت، ترجمة محمد بدران .

٢٨ ـ قضية فلسطين، نجيب صدقة، دار الكتب، بيروت ١٩٤٦ م .

٢٩ ـ المؤامرة الكبرى، إميل الغورى، النيل للطباعة ١٩٥٥م .

٣٠ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمى، ط ثالثة بيروت ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م .

٣١ ـ المستدرك على الصحيحين، الحاكم، ط أولى حيدر آباد.

٣٢ ـ المسلمون وقضية فلسطين، أبو الحسن الندوى، الدار الكويتية.

٣٣ ـ مسند أحمد، وبهامشه كنز العمال ـ للمتقى الهندى، ط الميمنية بمصر.

٣٤ ـ مسند أحمد، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤م.

٣٥ ـ مقارنة الأديان: اليهودية، دكتور أحمد شلبى، النهضة المصرية، ط ثانية ١٩٦٧م.

٣٦ ـ موطأ مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٣٧ ـ هذه هى الصهيونية: إسرائيل، سلسلة اخترنا لك (١).

٣٨ ـ الوثائق الرئيسية فى قضية فلسطين، الجامعة العربية ١٩٥٧م.

٣٩ ـ الوطن اليهودى وعلاقته بالأرض المقدسة، موسى حبيب.

٤٠ ـ يقظة العالم اليهودى، إيلى ليفى أبو عسل، ط النظام بمصر ١٩٢٤م.

٤١ ـ اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية، إيليا أبو الروس.

٤٢ ـ اليهودية والصهيونية، أحمد عبد الغفور عطار، دار الأندلس، ط أولى ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧٢م.

ـ وهناك كتب ومطبوعات أخرى رجعنا إليها وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة